أركان الإسلام

إبراهيم أبو عواد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله رب العالَمين، والصلاة والسلام على النبيِّ محمد وإخوته الأنبياء الكرام ، وآلِ كُلٍّ، وصحبِ كُلٍّ .

لا يخفى أن موضوع " أركان الإسلام " في غاية الأهمية ، ولا يُمكن تجاوزه أو إهماله . ومعلومٌ أن الإسلام قائم على خمسة أركان. وفي الحديث المشهور، عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((بُنِيَ الإسلام على خمس : شَهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقامِ الصلاة ، وإيتاءِ الزكاة ، والحجِّ ، وَصَوْمِ رمضان)) [متفق عليه . واللفظ للبخاري] .

وهذا الكتاب يَتحدَّث عن أساس الإسلام بشكل تفصيلي، وهو موضوع في غاية الأهمية ، وأهميته تنبع مِن كَوْنِ الإسلام هو الدِّين السماوي الوحيد، الذي لا يَقبل اللهُ غَيْرَه. قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عِمران : ١٩] . وهذا يعني أنَّ الإسلام هو الطريق الوحيد الموصل إلى رِضا اللهِ ، والنعيمِ الأبديِّ في الآخرة، والسعادةِ والطمأنينة في الدُّنيا . والدِّينُ الإسلاميُّ قائم على أساس متين ، وهو التَّوحيد ، أي : عبادة الله وَحْدَه ، لا شريك له .

والدِّينُ الإسلاميُّ نظام متكامل ومنظومة شاملة ، يُنظِّم العلاقةَ بين المخلوق والخالق ، وبين المخلوق والمخلوق ، وبين المخلوق ونَفْسِه . وهذا الدِّينُ السماويُّ الوحيدُ لا يُمكن معرفة حقيقته واستشعار عَظَمَته إلا بتطبيقه على أرض الواقع . أمَّا إن بَقِيَ محصورًا في الكُتب والنظريات والمحاضرات والْخُطب، فسيظل كلامًا بلا حقيقة واقعية محسوسة ، وسيظل مشاعر وأحاسيس بلا تطبيقات مادية ملموسة. وعندئذٍ،سيخسر الجميعُ بلا استثناء.حيث إنَّ الفرد سيفقد توازنه الروحي ويفشل في علاقاته المادية . وأيضًا ، الجماعة تفقد البوصلة والاتِّجاه ، وتغرق في متاهة لانهائية .

والإسلامُ هو الدِّين الوحيد المقبول عند اللهِ تعالى ، لأنَّه الدِّين القائم على تعظيم اللهِ وتَنْزيهه عَن كُل مَنقصة . وهنا ، يَتميَّز الإسلامُ عن اليهودية والنَّصرانية . فاليهوديةُ تعتمد على تشبيه الخالق بالمخلوق، والنصرانيةُ تعتمد على تشبيه المخلوق بالخالق. أمَّا الإسلامُ فيعتمد على تَنْزيه الخالق عن مُشابهة مخلوقاته. فالخالق خالق، والمخلوق مخلوق. وهكذا يَظهر تَمَيُّز الإسلام وَعَظَمَته ، وهذا الأمر حقيقة واقعية ، وليس شعارًا مُفْرَغًا مِن معناه .

واعتناقُ الإسلام لا يَكون إلا بالاقتناع الكامل والرضا الذاتي والقبول الشخصي، لأن العقيدة محلها في القلب، ولا سُلطة لمخلوق على قلب مخلوق آخَر . كما أن الإكراه قد يُؤثِّر على كُل الجوارح والأعضاء إلا القلب ، فهو في صدر الإنسان ، وبعيد كُل البُعد عن الإكراه أو الإجبار .

وإذا استقرَّ الإسلامُ في قلب الإنسان ، فلا بُد أن يَدعوَ إليه بالأسلوب الحسن ، والمعاملة الطَّيبة،وتقديم الأدلة والبراهين بطريقة جميلة وسَلِسة دون تَشَنُّج ولا عصبية ولا قَسوة ولا خُشونة.

ولا يمكن إغفال أهمية الإخلاص ، فالإخلاص هو شرط قبول العبادات ، واللهُ لا يَقبل العملَ إلا إذا كانَ خالصًا لوجهه الكريم . وهذا يُشير إلى الفرق الجوهري بين المسلمين الذين يعملون الصالحات لوجه الله، وبين أهل الجاهلية الذين كانوا يقومون بأعمالهم رياءً وسُمعة وتقليدًا لآبائهم، وتفاخُرًا أمام العشائر والقبائل . والتَّوحيدُ هُوَ أساس الإسلام ، ورُكنه الأعظم ، ويَتمثَّل في شهادة أن لا إله إلا الله،وأنَّ محمدًا رسول الله.فلا مَعبود بحق إلا الله،ولا تُقبَل عبادة الله إلا وفق منهاج النبيِّ ﷺ وسُنَّته. والإنسانُ لا يَكون مُسلمًا إلا إذا آمنَ بالله رَبًّا، وبالإسلام دِينًا،وبمحمد ﷺ نَبِيًّا ورسولاً. واللهُ تعالى لَم يَخلق الناسَ كَي يَنساهم ويَتركهم. لقد وَضَّحَ لهم الطريقَ المستقيم ليسيروا فِيه، وأمرهم بأوامر يجب تنفيذها، كما وَضَّح لهم العقائدَ الفاسدة وأهواءَ الناسِ المتضاربة ، كَي يَحذروا مِنها ، ويَبتعدوا عنها . ودعاهم إلى الاعتبار بِمَن سبقهم . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهل مَن اتَّعظَ بِنَفْسه . وقد بَيَّن اللهُ للناس أوصافَه العظيمة وصِفاتِه الجليلة. فالعِلْمُ الإلهيُّ أحاطَ بكل شيء، ولا يَغيب عنه شيء. واللهُ واحد في ذاته، وواحد في صِفاته، لا شريك له ولا نِد. تَفَرَّدَ بالأمر والْحُكْم. إرادتُه نافذة في كُل شيء، ومَشيئته لا يُعارِضها شَيء. وهو مُنَزَّه عن الظلم . لا تَنفعه طاعة عباده ، ولا تَضُرُّه معصيتهم . فهو الغنيُّ عن كُل شيء ، وكُل شيء مُفتقِر إلَيه . واللهُ لَم يَترك الناس ضائعين في متاهة الشُّكوك والْحَيرة والقلق، وإنما وَضَّح لهم ماذا يُريد مِنهم ، وَبَيَّنَ لهم جزاء الطائع (الجنة) وجزاء العاصي (النار) ، وحَذَّرهم من الشِّرك والمشركين، وقَدَّمَ الأدلةَ والبراهين والْحُجَج على وَحدانيته، ورَدَّ على الشُّبهات التي يحتج بها المشركين وأزالها. وهذا يدل بلا شك على أن الإسلام مبنيٌّ على الأدلة النقلية والْحُجَج العقلية ، بلا تعارُض ولا تناقض ، وليس دِينًا قائمًا على التسليم الأعمى . فالمسلمُ مُبصِر ومُفكِّر ، والإسلامُ دِين النَّقْل والعقل مَعًا ، ولا يُقبَل أحدهما بدون الآخَر . ولا بُد مِن الإخلاص في طلب الحقيقة ، ونبذ الأهواء الشخصية والمصالح الذاتية، فهذا هو الطريقُ لمعرفة الحق واعتناقه. وأدعو اللهَ أن يَرزقني الإخلاصَ، وأن يكون هذا الكتاب حُجَّة لي لا حُجَّة عليَّ.إنه وَلِيُّ ذلك والقادر عليه.والحمدُ لله رَب العالَمين.

الفصل الأول

الدِّين

تمهيد

إنَّ الإسلام هو الدِّين الوحيد المقبول عند الله تعالى ، وهو دِين كُل الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، جاؤوا من أجل نشره ، وإيصاله إلى العباد ، فهو رسالة الله تعالى إلى خَلْقه .

والإسلامُ نظامٌ إلهيٌّ متكامل لا نقص فيه ولا خَلل . دِينٌ خالدٌ إلى يوم القيامة صالح لكل زمان ومكان ، يشتمل على أنظمة الوجود كُلِّها بلا غُلُو ولا تطرُّف. ففيه السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والأشواق الروحية والنَّزعات المادية . وكُل هذه الأنظمة تسير جنبًا إلى جنب ضمن منظومة متكاملة لا تضاد فيها ولا تنافر . وليس الإسلامُ نزعةً تأملية محصورة في إطار الروح تعيش في عوالم الأحلام والخيالات الهلامية ، وليس شهوةً مادية شرسة موغلة في تقديس المادة ووأد الفرد والجماعة والطبيعة . إنه نظام شامل للحياة الدُّنيا والحياة بعد الموت (الآخرة) ، وكل ما يرتبط بهاتين الحياتين من قواعد وعلاقات وأنظمة . والإسلامُ هو الدِّين الذي ارتضاه اللهُ تعالى لعباده ولا يَقبل غَيْرَه . إذ إنه مبني على عقيدة تَنْزيه الخالق وتمجيده وإفراده بالعبودية والرُّبوبية. وهذه المعاني السامية غير موجودة في أي دِين آخر .

فالنصرانيةُ تعتمد على تعدد الآلهة وخلط الصفات البشرية بالصفات الإلهية ضمن فوضى تأليه المخلوق (جعل المسيح إِلَهًا) وأنسنة الخالق (جعله بشريًّا) . لذلك يكثر في النصرانية استخدام المصطلحات المشوَّشة مثل الناسوت (الطبيعة البشرية) واللاهوت (الطبيعة الإلهية) ، وذلك ضمن فوضى دينية عارمة لا تزيد الفردَ إلا حَيرة ، حيث يخرج الإنسانُ من متاهة إلى متاهة بسبب غياب المنهج الواضح ، وعدم التمييز بين الخالق والمخلوق .

واليهوديةُ تعتمد على تشبيه الخالق بالمخلوق. فهي غارقة في التجسيم (إثبات صفات الأجسام لله تعالى) . كما أنها تنسُب صفاتِ النقص للخالق تعالى . فتجد في توراة اليهود المحرَّفة أن الله تعالى استراح بعد عمله ، وأنه يندم على فعل الشر ... إلخ .

وهذا كُلُّه يُشير إلى غياب تَنْزيه الله وتقديسه عن العقائد النصرانية واليهودية . ولا يمكن لهاتين الدِّيَانَتَيْن الأرْضِيَّتَيْن أن تكونا مقبولتَيْن عند الله ، لأنهما تسيران وفق مسار مُضاد للإرادة الإلهية.أمَّا الإسلامُ فهو عقيدة التَّنْزيه والتمجيد.فهو لا يُؤَلِّه محمدًاﷺ كما يُؤلِّه النصارى عيسىﷺ. كما أنه لا ينسُب الصفاتِ البشرية للذات الإلهية كما يَفعل اليهود . لذلك كان الإسلامُ وَسَطِيًّا ومُعتدِلاً . إنَّه منظومة الخلاص في الدنيا والآخرة ، والدِّين الصالح في الأرض والسماء .

أوَّلاً : الدِّين عِند الله

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلى مَن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ وهو مُحسِنٌ فلهُ أجْرُهُ عِندَ رَبِّه ولا خَوْفٌ عَلَيهم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾[البقرة : ١١٢] .

هذه الآيةُ تكذيبٌ لِمَا قاله اليهود والنصارى إنه لَن يَدخل الجنةَ غَيْرُهم . ﴿ وقالوا لن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان هُودًا أو نصارى ﴾[البقرة : ١١١] [1].

لقد فَضح اللهُ غُرورَهم، وأزالَ باطلَهم، وَكَذَّبَهم . فَزَعْمُهم باطل ، وَحُجَّتهم داحضة ، وليس الأمرُ كما زَعَموا. إنَّ مَن عَبَدَ اللهَ وَحْدَه، بلا شَريك ولا نِد ، وأخلصَ دِينَه للهِ ، واستسلمَ لأمره ، وخَضع لِحُكمه ، وأطاعه في السِّر والعَلَن ، وهو مُحسِن مُصدِّق بالقُرآن ، وَحَقَّقَ الشَّرْطَيْن لقبول الأعمال : الإخلاص للهِ ، واتِّباع النبيِّ ﷺ ، وآمنَ وَصَدَّقَ بالقُرآن . فهو الذي سَيَدخل الجنةَ، وله ثوابٌ عظيم عِند الله بسبب عمله الصالح، وأجرُه ثابتٌ عِند الله، لا يَضيع ولا ينقص ، وهذا وعدُ الله واقع لا مَحالة. وثوابُ عمله النجاة مِن النار، والفَوز بالجنة. ولا خَوْف عَلَيهم فيما يَستقبلونه، ولا هُم يَحْزَنون عَلى ما مضى مِمَّا يتركونه . لا خَوْفٌ عليهم مِن العذاب الإلهيِّ ، ولا هُم يَحْزَنون على ما تَركوا وراءهم في الدنيا . لا خَوْفٌ عليهم في الآخرة ، ولا يَحْزَنون للموت .

والمقصودُ بالوجه الدِّين أو العمل .

---

(١) أهلُ الكتاب يخترعون الأماني الكاذبة ، فهم يخدعون أنفسهم فيعيشون في دنيا الخيال وعوالم الأحلام التي لا حقيقة لها . فاليهودُ قالوا : لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان يهوديًّا ، والنصارى قالوا : لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان نصرانيًّا . لكن الله تعالى أفحمهم وفضح باطلَهم . فهذه الأماني الواهية لا أساس لها من الصحة ، كما أن أهل الكتاب لَم يُقدِّموا دليلاً على كلامهم . فإن كانوا صادقين في زعمهم فَلْيُحْضِروا البرهان الساطع، وليُقدِّموا الْحُجَّةَ الباهرة لِيَكون موقفهم قَوِيًّا، لكن هذا لَم يحدث، ولن يحدث . فاليهودُ والنصارى عائشون في عوالِم الأحلام والأوهام بلا حُجَّة مُعتبَرة ، وهذه الأحلام ستؤول إلى كوابيس . وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢١٤) : ((يُبيِّن ــ تعالى ــ اغترارَ اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادَّعت كل طائفة من اليهود والنصارى ، أنه لن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان على مِلَّتها)). وقال ابن حجر في العُجاب (١/ ٣٥٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ بَلى مَن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ وهو مُحسِنٌ ﴾ الآية.قال السُّدي وغَيره: نزلت في الذين قالوا: لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان هُودًا أو نصارى. أي قالت اليهود : لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان يهوديًّا ، وقالت النصارى : لَن يَدخل الجنةَ إلا مَن كان نصرانيًّا)) .

والإسلامُ هو الاستسلام والخضوع لله تعالى، والتزام أوامره ، واجتناب نَواهيه . والمسلمُ هو المستسلِمُ للهِ بِقَلبه وجوارحه ، الخاضع لأوامر اللهِ ونَواهيه .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٤٠) : ((وأمَّا قوله : ﴿ مَن أسلمَ وَجْهَهُ لله ﴾ ، فإنه يعني بِـ " إسلام الوجه " التَّذلل لطاعته ، والإذعان لأمره . وأصل الإسلام الاستسلام، لأنه مِن استسلمت لأمره ، وهو الخضوع لأمره ، وإنما سُمِّيَ " المسلم " مُسْلِمًا بخضوع جوارحه لطاعة رَبِّه)) اهـ .

وتَمَّ تخصيص "الوجه" بالذِّكر لأنه أكرم أعضاء الإنسان وأشرفها. وإذا خَضع الوجهُ للهِ تعالى ، وهو مَجْمَع الْحُسن والجمال والبهاء ، وأكرم أجزاء الإنسان ، وأعظمها ، فالأَوْلَى والأحرى أن تَخضع باقي أجزاء الإنسان وأعضائه ، وهي الأقل شَرَفًا مِن الوجه ، ودُونه في المنْزلة والكرامة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٧٣) : ((وَخُصَّ الوجه بالذِّكر لِكَوْنه أشرف ما يُرى مِن الإنسان ، ولأنه موضع الحواس . وفيه يظهر العِز والذل . والعرب تُخبر بالوجه عن جُملة الشيء. ويَصِح أن يكون الوجه في هذه الآية المقصِد)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٤٠) : ((وإنما قال جَلَّ ثناؤه : ﴿ ولا خَوْفٌ عَلَيهم ولا هُم يَحْزَنُون ﴾ ، وقد قال قَبْل : ﴿ فلهُ أجْرُهُ عِندَ رَبِّه ﴾ ، لأن ﴿ مَن ﴾ التي في قَوْله : ﴿ بَلى مَن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ ﴾ في لفظ واحد ومعنى جميع . فالتوحيد في قوله: ﴿ فلهُ أجْرُهُ ﴾ للفظ . والجمعُ في قوله : ﴿ ولا خَوْفٌ عَلَيهم ﴾ للمعنى)) اهـ . والجديرُ بالذِّكر أن هناك شَرْطَيْن لقبول العمل : الإخلاص للهِ وَحْدَه ، واتِّباع النبيِّ ﷺ . فيجب الالتزام بِسُنَّة النبيِّ ﷺ ، والسَّير وَفْقَ مِنهاجه وشريعته ، وتحويل أقواله وأفعاله إلى واقع ملموس. ومَن خَالَفَ سُنَّةَ النبيِّ ﷺ ، فَمُخالفته مرفوضة، ومَردودة عَلَيه ، كائنًا مَن كان. وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣) : عن عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : ((مَن عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيه أمرُنا فَهُوَ رَد)) .

مَن خَالَفَ سُنَّةَ النبيِّ ﷺ ، وعَمِلَ عَملاً لَم يَعْمَلْه النبيُّ ﷺ، فَعَمَلُه (بِدعته) باطل ومردود ولا يُعْتَدُّ به. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٦) : ((وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام،وهو مِن جَوامع كَلِمه ﷺ، فإنه صريح في رَد كُل البِدَع والمخترَعات)).

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٤) : ((فعمل الرُّهبان ومَن شابههم ، وإن فُرِض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يُتقبَّل منهم حتى يكون ذلك مُتَابِعًا للرسول ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة...وأمَّا إن كان العمل مُوَافِقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لَم يُخلِص عاملُه القَصْدَ لله، فهو أيضًا مردود على فاعله ، وهذا حال الْمُرائين والمنافقين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلامُ ﴾[آل عِمران : ١٩] (2).

الإسلامُ هو الاستسلام للهِ ، والإخلاص له وَحْدَه ، وعبادته بلا شريك ، والانصياع لأمره ، والانقياد بالتَّذلل والخشوع . وهذا يَتحقق بشهادة أن لا إلهَ إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ثُمَّ فِعل الطاعات : الصلاة والزكاة والحج والصِّيام ... إلخ . والإسلامُ هو الدِّين الوحيد المقبول عند الله تعالى . وهو دِين جميع الأنبياء بلا استثناء ، أرسلهم اللهُ لنشره ، ولا يَقْبَل غَيْرَه . وَمَن اختارَ دِينًا غَير الإسلام فهو كافر خالد في النار ، إن ماتَ على ذلك . ولا تُوجد أيَّة فرصة أمامه للنجاة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٦٢) : ((قال أبو سليمان الدمشقي: لَمَّا ادَّعت اليهود أنه لا دِين أفضل من اليهودية ، وادَّعت النصارى أنه لا دِين أفضل من النصرانية ، نزلت هذه الآية. قال الزَّجاج: الدِّين اسم لجميع ما تَعَبَّدَ اللهُ به خَلْقَه ، وأمرهم بالإقامة عليه ، وأن يكون عادتهم ، وبه يَجزيهم)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢١١) : ((فتأويل قوله : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلامُ ﴾ . إنَّ الطاعة التي هي الطاعة عِنده ، الطاعة له ، وإقرار الألسُن والقلوب له بالعبودية والذِّلة، وانقيادها له بالطاعة فِيما أَمَرَ ونهى، وتَذَلُّلها له بذلك، مِن غير استكبار عليه ، ولا انحراف عنه ، دون إشراك غَيره مِن خَلْقه معه في العُبودة والأُلوهة)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧١) : ((وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلامُ ﴾ ، إخبار مِنه تعالى بأنه لا دِين عِنده يَقبله مِن أحد سِوى الإسلام، وهو اتِّباع الرُّسُل فِيما بَعثهم الله به في كُل حِين حتى خُتموا بمحمد ﷺ ، الذي سَدَّ جميع الطرق إلَيه إلا مِن جهة محمد ﷺ ، فَمَن لَقِيَ اللهَ بعد بعثة محمد ﷺ بِدِين على غَير شريعته ، فليس بِمُتَقَبَّل)) اهـ .

وعن أُبَي بن كعب ــ رضي الله عنه ــ قال : قال لي رسول الله ﷺ : ((... وأنَّ الدِّين عند الله الحنيفية غَير اليهودية ولا النصرانية))(3).

والحنيفيةُ هي الدِّين المائل عن كل دِين منحرف ، وهذا يعني أنه على الصراط المستقيم ، فلا يزيغ ، ولا يَضِل طريقَه .

---

(٢) لا يجوز استخدام عبارة" الأديان السماوية". فالإسلام هو الدِّينُ السماوي الوحيد . وباقي الأديان أرضية باطلة. أمَّا الشَّرائع فمتعددة ومختلفة باختلاف الزمان والمكان.قال اللهُ تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: ٤٨] . فهناك شرائع سماوية وكتب سماوية، ولكن لا توجد أديان سماوية .

(٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٤٤) برقم (٢٨٨٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا الدِّين المعصوم ــ وحده ــ مَن يَملك القدرة على هداية البشرية نحو الهدف الصحيح (عبادة الله وَحْدَه) ، وَمِن ثَمَّ نَيْل رضا الله تعالى ودخول الجنة في الآخِرة .

واليهوديةُ والنصرانية دِينان مُنحرِفان عن الحق ، بسبب غرقهما في الأهواء الشخصية والأغراض الدنيوية التي لا تَمُتُّ للحق بِصِلة . فهما أداتان في أيدي رجال الدِّين المتحالفين مع عِلية القوم لتحقيق منافع متبادلة على حساب العامة ، والمتاجرة بمصائرهم وأحلامهم . وقد رأينا حجمَ التغييرات الطارئة على اليهودية والنصرانية ، مِمَّا يُشير إلى كثرة الأيدي المتلاعبة بهما ، وكثرة المصالح المادية التي تفرض نفسها على القيم الدينية عند أهل الكتاب .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٧٢) : ((أي الشريعة المائلة عَن كُل دِين باطل، فهي حنيفية في التوحيد.وأصل الْحَنَف الْمَيْل. والحنيف المائل إلى الإسلام الثابت عليه)).

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : قِيل لرسول الله ﷺ : أيُّ الأديانِ أحبُّ إلى الله ؟، قال : ((الحنيفية السَّمحة))[4]. هذا يعني استحالة الوصول إلى اللهِ إلا عن طريق الإسلام، وهو الدِّين الحق،والحنيفية السمحة، والصراط المستقيم . والإسلامُ هو الدِّين السماويُّ الوحيد ، ويَتضمَّن توحيدَ اللهِ تعالى ، وتَنْزيهه عَن كُل نقص وعَيب . وقد اختارَ اللهُ الإسلامَ دِينًا وحيدًا مُعْتَمَدًا عِنده ، وَرَضِيَه لعباده ، بسبب اشتماله على الكَمالات اللامتناهية ، وعلى رأسها التَّوحيد الخالص الذي لا تَشوبه شائبة شِرْك، بعكس اليهودية والنصرانية اللتين تَنْسُبان إلى الله تعالى النقائص والعُيوب والصفات الذميمة. والجديرُ بالذِّكر أن الأصل في " الإسلام والإيمان " الاختلاف والتغايُر ، لحديث جِبريل ــعليه السلامــ المشهور في صحيح مسلم (١/ ٣٦) : أنَّ النبيَّ ﷺ عرَّف الإسلامَ بقوله : ((أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصوم رمضان،وتحج البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً))، ثم انتقل إلى تعريف الإيمان،فقال ﷺ:((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خَيْرِه وشَرِّه)) .

---

(٤) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٣٦) برقم (٢١٠٧) ، وحسَّنه الحافظ في الفتح (١/ ٩٤). وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥١) : ((ورواه أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة أيضًا لكن بلفظ" إني أُرسلتُ بالحنيفية السمحة ")). وقال الحافظ في الفتح (١/ ٩٤): ((والمراد بالأديان الشرائع الماضية قبل أن تُبدَّل وتُنسَخ . والحنيفية مِلَّة إبراهيم . والحنيف في اللغة مَن كان على مِلَّة إبراهيم . وسُمِّيَ إبراهيم حنيفًا لِمَيْله عن الباطل إلى الحق ، لأن أصل الْحَنَف الْمَيْل)) اهـ .

أي إنَّ النبيَّ ﷺ انتقل من العام (الإسلام) إلى الخاص (الإيمان) . وفرَّق بين مفهوم الإسلام ومفهوم الإيمان . واختلافُ التعريف يُشير إلى اختلاف معنى الإسلام عن معنى الإيمان .

وقد يُسمَّى الإسلام باسم الإيمان والعكس،وهذا هو التَّرَادُف،كما في حديث وَفْد عبد القيس. فقد أمرهم النبيُّ ﷺ بالإيمان وَحْدَه ، ولَم يَذكر الإسلامَ . قالَ النبيُّ ﷺ: ((هل تَدرون ما الإيمان بالله وَحْدَه ؟)). قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: ((شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصَوم رمضان ، وتُعْطُوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغنَم)) [(5)].

وقد يحدث تداخُل بين تعريف الإسلام وتعريف الإيمان. فقد يُطْلَق أحدهما ، ويكون المقصود هو التعريفَيْن مَعًا ،كما في قَوله تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلامُ ﴾ . والإسلامُ في الآية هو الإيمان والطاعات ، وهذا يعني أن لفظة الإسلام في الآية تشمل الإسلام والإيمان مَعًا . والإيمان معرفة بالقلب ، وقَول باللسان ، وعمل بالإركان .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغونَ وَلَهُ أسلمَ مَن في السماواتِ والأرضِ طَوْعًا وكَرْهًا وإلَيْهِ يُرْجَعُون ﴾ [آل عِمران : ٨٣] .

أيبتغي أهلُ الكتاب (اليهود والنصارى) دِينًا غَير الإسلام ، وهو الدِّين الوحيد المقبول عند الله تعالى ، وقد أرسلَ اللهُ الأنبياءَ لنشره بين الناس ، والدَّعوة إلَيه ؟. والهمزة للإنكار التَّوبيخي . والجديرُ بالذِّكر أن الأنبياء جميعًا بلا استثناء قد جاؤوا بالإسلام بِمَن فِيهم مُوسى وعِيسى عليهما الصلاة والسلام. وقال النَّسفي في تفسيره (١/ ١٦٤) : ((وَقُدِّمَ المفعول وهو " غَير دِين الله " على فِعله لأنه أهم، مِن حيث أن الإنكار الذي هو معنى الهمزة مُتَوَجِّه إلى المعبود بالباطل)) اهـ .

ولله أسلمَ أهلُ السماواتِ والأرض، وخضعوا له بالعُبودية ، وأَقَرُّوا بالوَحدانية ، وانقادوا لأمره ، وذَلُّوا لِحُكمه ، طائعين ومُكْرَهين ، بإرادتهم ورغم أنوفهم . فالمؤمنُ أسلمَ طائعًا مُختارًا مُنشرح الصَّدر للإسلام ، والكافر مُستسلم رَغْمَ أنفه للهِ تعالى ، لأنه خاضع لإرادة اللهِ ، وواقع تحت حُكمه،ومُتحرِّك في مُلْكه.و﴿ طَوْعًا ﴾ تدل على أن إسلام المؤمن بمعناه اللغوي والاصطلاحي. ﴿ وكَرْهًا ﴾ تدل على أن إسلام الكافر بمعناه اللغوي ، وهو الاستسلام للهِ والخضوع لإرادته .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٩): ((أي طائعين بالنظر واتِّباع الْحُجَّة، وكارهين بالسَّيف ومُعايَنة ما يُلجِئ إلى الإسلام كنتق الجبل ، وإدراك الغرق ، والإشراف على الموت . أو مختارين

(٥) متفق عليه . البخاري (١/ ٤٥) برقم (٨٧) ، ومسلم (١/ ٤٦) برقم (١٧) .

كالملائكة والمؤمنين، ومُسخَّرين كالكَفَرة، فإنهم لا يَقْدرون أن يمتنعوا عَمَّا قَضى عليهم)) اهـ . وإلى الله تصير الخلائق بعد مماتهم . وفي يوم القيامة يُجازي اللهُ كُلاًّ بعمله . يُجازي المحسِن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وهذا تَخويفٌ شديد مِن اختيار غَير الإسلام، فَمَن اختارَ غَير الإسلام، فهو هالك لا مَحالة ، وخالد في النار ، ولا أمل في نجاته ، ولا تُوجد فُرصة للخلاص .

﴿ وإلَيْهِ يُرْجَعُون ﴾ وعيدٌ وتهديد لهم . أي : أيبغون غَير الإسلام(دِين الله) مع أن مرجعهم إلى الله ؟ . والجمع في ﴿ يُرْجَعُون ﴾ باعتبار المعنى .

وفي زاد المسير (١/ ٤١٦و٤١٧) : ((قال ابن عباس: اختصمَ أهل الكتابين ـ يعني التوراة والإنجيل ـ، فزعمت كُل فِرقة أنها أوْلَى بِدِين إبراهيم ، فقال النبيُّ ﷺ : " كِلا الفريقين بريء مِن دِين إبراهيم "، فغضبوا، وقالوا: واللهِ لا نرضى بقضائك ، ولا نأخذ بدينك ، فنزلت هذه الآية. والمراد بِدِين الله دِين محمد ﷺ . ﴿ وَلَهُ أسلمَ ﴾ انقادَ وخَضع. ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ الطَّوْع الانقياد بسهولة، والكَرْه الانقياد بمشقة وإباءٍ مِن النَّفْس. وفي معنى الطَّوْع والكَرْه ستة أقوال: أحدها أن إسلام الكُل كان يوم الميثاق طَوْعًا وَكَرْهًا ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، والأعمش عن مجاهد ، وبه قال السُّدي. والثاني أن المؤمن يسجد طائعًا ، والكافر يسجد ظِلُّه ، وهو كاره . رُوِيَ عن ابن عباس ، ورواه ابن أبي نَجيح وليث عن مجاهد . والثالث أن الكُل أقَرُّوا له بأنه الخالق، وإن أشركَ بعضُهم فإقراره بذلك حُجَّة عليه في إشراكه ، هذا قول أبوالعالية ورواه منصور عن مجاهد . والرابع أن المؤمن أسلمَ طائعًا، والكافر أسلم مخافة السَّيف، هذا قول الحسن. والخامس أن المؤمن أسلم طائعًا، والكافر أسلمَ حين رأى بأس الله ، فلم ينفعه في ذلك الوقت، هذا قول قتادة . والسادس أن إسلام الكُل خضوعهم لنفاذ أمره في جِبِلَّتهم، لا يَقْدر أحد أن يمتنع مِن جِبِلَّة جَبَله عليها، ولا على تغييرها، هذا قول الزَّجاج ، وهو معنى قول الشعبي : انقاد كُلُّهم له)) اهـ .

وفي كتاب الأذكار للنووي (١/ ٤٨٩) : ((رُوِّينا في كتاب ابن السُّنِّي عن السَّيد الجليل المجمَع على جلالته وحِفظه ودِيانته وورعه ونزاهته وبراعته أبي عبد الله يُونس بن عُبَيد بن دينار البصري التابعي المشهور رحمه الله قال: ليس رَجل يكونُ على دابةٍ صعبةٍ فيقولُ في أُذُنِها : ﴿ أفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغونَ وَلَهُ أسلمَ مَن في السماواتِ والأرضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وإلَيْهِ يُرْجَعُون ﴾ ، إلا وقفت بإذن الله تعالى ... وقال الحافظ : هو خبر مقطوع ، وراويه عن ابن دينار المنهال بن عيسى مجهول . الفتوحات الرَّبانية (٥ / ١٥٢))) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرين ﴾ [آل عِمران: ٨٥](6).

ومَن يطلب دِينًا غَيْرَ دِين الإسلام لِيَعبد اللهَ وَفْقَه ، ومَن يَطلب شريعة غَير الشريعة المحمدية الإسلامية بعد بِعثة محمد ﷺ ، فلن يَتقبَّل اللهُ مِنه ، وهو خاسر وهالك يوم القيامة ، لأن مصيره الخلود في النار ، ولا فرصة للخروج مِنها ، ولا أمل في النجاة .

والآيةُ دليل واضح على أن الدِّين الوحيد المقبول عند الله هو الإسلام ، والدِّين يقوم على الرِّضا والتسليم والقبول والتصديق والعمل .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٦١) : ((﴿ ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِينًا ﴾ أي غَير التوحيد والانقياد لِحُكم الله ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرين ﴾ الواقعين في الْخُسران . والمعنى أنَّ الْمُعْرِض عن الإسلام، والطالب لِغَيره، فاقد للنفع ، واقع في الْخُسران ، بإبطال الفِطرة السليمة التي فُطِرَ الناس عليها. واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام، إذْ لو كان غَيْرَه لَم يُقْبَل، والجواب إنه يَنفي قبول كُل دِين يُغايِره، لا قبول كُل ما يُغايِره . ولعل الدِّين أيضًا للأعمال)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول : يا رَب ، أنا الصلاة ، فيقول : إنَّكِ على خَير ، فتجيء الصَّدقة ، فتقول : يا رب، أنا الصدقة، فيقول: إنَّكِ على خَير، ثُمَّ يجيء الصيام ، فيقول : أي يا رَب ، أنا الصيام ، فيقول: إنَّكَ على خَير ، ثم تجيء الأعمال على ذلك ، فيقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إنَّكِ على خير، ثُمَّ يجيء الإسلام ، فيقول : يا رَب ، أنتَ السلام ، وأنا الإسلام ، فيقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إنَّكَ على خَير ، بِكَ اليوم آخُذ ، وَبِكَ أُعْطِي ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في كتابه : ﴿ ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرين ﴾))(7).

إنَّ اللهَ لا يَقبل مِن عباده إلا الإسلام، وبِه يَأخذ وبِه يُعْطِي. وهذا صحيح رغم ضَعْف الحديث.

---

(٦) قال البغوي في تفسيره (١/ ٦٤) : ((نزلت في اثني عشر رَجلاً ارتدوا عن الإسلام ، وخرجوا من المدينة ، وأَتَوا مكة كُفَّارًا ، مِنهم الحارث بن سُوَيد)) .

(٧) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٦٢) بسند ضعيف. وقال ابن الإمام أحمد : ((عَبَّاد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لَم يسمع مِن أبي هريرة)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٢٤) : ((وفيه عَبَّاد ابن راشد ، وَثَّقه أبو حاتم وغَيره ، وضَعَّفه جماعة ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمون ﴾ [آل عِمران: ١٠٢][(8)].

يا أيُّها الذينَ صَدَّقوا بِوَحدانية اللهِ ونُبُوَّةِ محمد ﷺ ، التزموا بأوامر الله ، واجتنبوا نَواهيه ، وأطيعوه ولا تَعصوه ، واشكروه ولا تَكفروه ، واذكروه ولا تَنْسَوْه ، وابذلوا قُصارى جُهدكم في طاعته والابتعاد عن معصيته . وهذا هو حق التَّقوى أو التقوى الحقَّة التي تَحِق لله تعالى . والتقوى على قَدْر استطاعة العبد، واللهُ تعالى لا يأمر إلا بالْمُستطاع . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَها ﴾[البقرة:٢٨٦].وقال سُبحانَه:﴿وما جَعَلَ عَلَيْكُم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨]. وتَمَسَّكوا بالإسلامِ وأقيموا عَلَيه بكل ثبات وإصرار حتى الموت .

والمعنى: النَّهْي عن ترك الإسلام . أخْلِصُوا العبادةَ للهِ، وأفْرِدُوه بالأُلوهية والرُّبوبية وأحسِنوا الظن بِه حتى تَلْقَوْه ، كي يَغفر لكم، ويُدخلكم الجنة ، وتحصلوا على النعيم الأبديِّ . ومَن عاشَ على شيء مات عليه ، ومَن ماتَ على شيء بُعِثَ عليه . والآية مُختلَف في كَوْنها مُحْكَمة أو منسوخة، والصحيح أنها مُحْكَمة، وأنَّ ﴿ ما اسْتَطَعْتُم ﴾ مُبَيِّنة ومُفسِّرة لِ ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ .

---

(٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٣١و٤٣٢) : ((قال عِكرمة : نزلت في الأوس والخزرج حين اقتتلوا، وأصلح النبيُّ ﷺ بينهم.وفي ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أن يُطاع الله، فلا يُعْصَى، وأن يُذكَر فلا يُنسَى ، وأن يُشكَر فلا يُكفَر ، رواه ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ، وهو قول ابن مسعود، والحسن وعِكرمة وقَتادة ومُقاتل.والثاني أن يُجاهد في الله حق الجهاد وأن لا يأخذ العبد فيه لَومة لائم، وأن يقوموا له بالقِسْط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم،رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث أن معناه اتَّقوه فِيما يَحِق عليكم أن تَتَّقوه فيه، قاله الزَّجاج . فصل . واختلف العلماء هل هذا الكلام مُحْكَم أو منسوخ. على قولين: أحدهما أنه منسوخ، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جُبَير وقتادة وابن زيد والسُّدي ومقاتل،قالوا: لَمَّا نزلت هذه الآية شَقَّت على المسلمين،فَنَسَخَها قَوْلُه تعالى: ﴿ فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُم ﴾ [التَّغابُن : ١٦]. والثاني أنها مُحْكَمة ، رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول طاووس . قال شيخنا عليُّ بن عبد الله:والاختلاف في نسخها وإحكامها يرجع إلى اختلاف المعنى الْمُراد بها ، فالْمُعْتَقِد نَسْخَها يرى أن ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ الوقوف على جميع ما يجب له ويستحقه وهذا يعجز الكُل عن الوفاء به ، فتحصيله من الواحد ممتنع، والْمُعْتَقِد إِحْكَامَها يرى أن ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ أداء ما يَلزم العبد على قَدْر طاقته، فكان قَوْله تعالى : ﴿ ما اسْتَطَعْتُم ﴾ مُفَسِّرًا لِ ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ لا ناسخًا ولا مُخَصِّصًا)).

والنسخُ إنما يكون عند استحالة الجمع ، والجمع مُمكن ، وهو الأَوْلَى ، وهذا هو الصواب .

وإذا لَم يستطع الإنسانُ القيامَ بأوامر اللهِ كاملةً ، فَلْيَقُم بما يستطيع وما يَتَيَسَّر له . ولا حَرَج عليه ولا مشقة ، لأن الشريعة جاءت لرفع الحرج عن الناس . والأمرُ كلما ضاق اتَّسع .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٧٢) : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ حَق تقواه ، وما يجب مِنها ، وهو استفراغ الوُسْع في القيام بالواجب ، والاجتناب عن المحارم)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ : في قول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ قال : ((أن يُطاع فلا يُعْصَى ، ويُذْكَر فلا يُنسَى))(9).

وهذا الحديثُ الموقوف يُشير إلى معنى التقوى وأهميتها، فهي فِعل الأوامر واجتناب النَّواهي، وذِكْر الله في السَّراء والضَّراء ، ومَن قام بهذا حق القِيام فهو مِنَ الْمُتَّقين الذين مَدَحَهم اللهُ ، وأثنى عليهم في كتابه العزيز .

وقال ابن الجوزي في التذكرة في الوعظ (١/ ١٢٣) : ((وقال عمر ــ رضي الله عنه ــ لكعب الأحبار : يا كعب ، حَدِّثْني عن التقوى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هل أخذتَ طريقًا ذا شَوْك ، قال : نعم ، قال : فما صَنَعْتَ ؟ ، قال : حَذِرْتُ وشَمَّرْتُ . قال : فكذلك التقوى ... . التقوى أحصن جُنَّة يُحصَّن بها الخائفون ، وخَشية الله أوثق عُروة يمسك بها المتمسِّكون ، وأداء فريضة الله واجتناب محارم الله ، أنجح وسيلة تَوَسَّل بها إلى الله المتوسِّلون)) اهـ .

وقال النبيُّ ﷺ:((إنَّ الرَّجل لا يكون مِن المتقين حتى يَدع ما لا بأس به حَذَرًا لِمَا به بأس))(10).

لا يتحقق التقوى في قلب الرَّجل حتى يترك فُضول الحلال ، ويَبتعد عن الْمُتَشَابِهَات ، خَوْفًا مِن الوقوع في الحرام ، واستبراءً للدِّين والعِرْض. وفي فَيض القدير (٦/ ٤٤٣) : ((قال الغزالي : الاشتغال بِفُضول الحلال، والانهماك فيه يَجُرُّ إلى الحرام ، ومحض العِصيان ، لِشَرَه النَّفْس ، وطُغيانها، وتمرُّد الهوى وطغيانه. فمن أراد أن يأمن الضرر في دِينه اجتنب الخطر ، فامتنع عن فُضول الحلال حَذَرًا أن يَجُرَّه إلى محض الحرام)) اهـ .وروى ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٥١١) عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمون ﴾ ، فلو أنَّ قطرةً مِن الزَّقُّوم قُطِرَتْ في الأرض لأفسدت على

(٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٢٣) برقم (٣١٥٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣٥٥) برقم (٧٨٩٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أهل الأرض معيشتهم،فكيف بمن ليس له طعامٌ غَيْرُه ؟)) . لَو أن قطرة من ماء شجرة الزَّقُّوم أصابت كوكب الأرض ، لأفسدت حياةَ الناس ، ودَمَّرت الوجودَ الإنساني ، وأحالت المعيشة إلى عذاب لا ينتهي . فكيفَ بأهل النار الذين ليس لهم طعام إلا الزَّقُّوم ؟ ، كيف سيكون حالُهم ؟ . والزَّقُّومُ شجرة خبيثة تخرج في أصل الجحيم ، مُرَّة كريهة الطَّعْم والرائحة، وهي طعام أهل النار ، يُجْبَرُون على أكلها.

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثَر (٢/ ٧٦٠) : ((الزَّقوم : ما وصفَ اللهُ في كتابه العزيز فقال : ﴿ إنها شَجرةٌ تَخرجُ في أصلِ الجحيم (٦٤) طَلْعُها كأنه رُؤوسُ الشياطين (٦٥) ﴾ [الصَّافَّات] . وهي فَعُّول مِن الزَّقْم : اللَّقم الشديد والشُّرب الْمُفْرِط)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمَن أحسنُ دِينًا مِمَّن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا ﴾ [النساء : ١٢٥] (11).

هذه الآيةُ تتضمَّن مديحًا إلَهِيًّا للإسلام والمسلمين. لقد فَضَّلَ اللهُ الإسلامَ على سائر الأديان ، وفَضَّلَ المسلمين على سائر الناس . والإسلامُ وَحْدَه هو الدِّين الحق ، والمسلمون أعظم الناس على الإطلاق. وهذا ليس غُرورًا أو تَكَبُّرًا أو اتِّباعًا لخرافة نقاء العِرْق. إن المسلمين وَحْدَهم يَعبدون اللهَ بلا شَريك ولا نِد ، ويُنَزِّهُونه عَن كُل عَيْبٍ ونقص وصفة مذمومة . والآيةُ تحمل معنى الإنكار الكامل والاستبعاد التام لأن يَكون أحد أحسن دِينًا وأهدى سبيلاً ، مِمَّن فعل ذلك ، أو أن يكون مُسَاوِيًا له في الدرجة والمرتبة. لا أحد أحسن دِينًا وأهْدَى طريقًا وأحْكَم مَنْهَجًا مِمَّن استسلمَ للهِ، وانقاد لأمره ، وخضع له ، وتَوَجَّه إلَيه بالعبادة ، وأخلصَ له ، وَصَدَّقَ بِنُبُوَّة محمد ﷺ. وهو مُطيعٌ للهِ تعالى مُجتنِب لِنَواهيه ، مُحلِّل حَلالَه ، ومُحرِّم حَرامَه ، آتٍ بالحسنات ، تارك للسَّيئات .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٨): ((﴿ وَمَن أحسنُ دِينًا مِمَّن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ ﴾ أخلصَ نَفْسَه لله ، لا يعرف لها رَبًّا سِواه . وقِيل : بِذُلِّ وجهه له في السجود. وفي هذا الاستفهام تنبيه

(١١) في الدُّر المنثور للسيوطي (٢/ ٦٩٤): ((وأخرج عبد بن حُمَيد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : ذُكِرَ لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نَبِيُّنا قبل نَبِيِّكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله مِنكم. وقال المسلمون:نحن أولى بالله مِنكم ونَبِيُّنا خَاتَم النبيين، وكتابنا يقضي على الكُتب التي كانت قَبْلَه. فأنزلَ اللهُ : ﴿ لَيْسَ بأمانِيِّكُم ولا أمانِيِّ أهلِ الكِتابِ﴾ إلى قَوْله : ﴿وَمَن أحسنُ دِينًا ﴾ الآية.فأفلجَ اللهُ (أيَّدَ وأظهرَ) حُجَّة المسلمين على مَن ناوأهم مِن أهل الأديان)).

على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية)) اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٨٠) : ((وانتصب ﴿ دِينًا ﴾ على البيان . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال، أي مُوحِّد، فلا يدخل فيه أهل الكتاب، لأنهم تركوا الإيمان بمحمد عليه السلام)) اهـ .

واتَّبعَ الدِّينَ الذي كان عليه النبيُّ إبراهيم ﷺ ، وهو عبادة الله وَحْدَه ، بلا إفراط ولا تفريط ، وهو دِين الإسلام .

ومعنى ﴿ حَنيفًا ﴾ مُسْلِمًا مُوَحِّدًا مُخْلِصًا ، مُستقيمًا على مِنهاجه ، وثابتًا على شَرْعه . وهو المائلُ عن الأديان الباطلة إلى دِين الحق ، وهو الإسلام.ومِلَّةُ إبراهيمﷺ داخلة في مِلَّة محمد ﷺ. ومَن آمنَ بِمِلَّة محمد فهو مؤمن بِمِلَّة إبراهيم ، لأن الإسلام دِين جميع الأنبياء .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٤٠) : ((﴿ وَمَن أحسنُ دِينًا مِمَّن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ ﴾ أخلصَ العمل لِرَبِّه ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ فعمل إيمانًا واحتسابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : اتَّبَعَ في عَمَلِه ما شَرَعَه اللهُ له ، وما أَرسلَ به رسولَه من الهدى ودِين الحق . وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون مُتَابِعًا للشريعة ، فيصح ظاهره بالْمُتابَعة،وباطنه بالإخلاص. فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فَسَد،فمتى فقد الإخلاص كان مُنافقًا ، وهُم الذين يُراؤون الناس ، وَمَن فقد الْمُتابَعة كان ضَالاًّ جاهلاً ، ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يَتقبَّل عنهم أحسن ما عَمِلوا ويَتجاوز عن سيئاتهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا ﴾ ، وهُم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أوْحَيْنا إِلَيْكَ أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنِيفًا وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ [النَّحْل : ١٢٣]. والحنيف هو المائل عن الشِّرك قَصْدًا ، أي تاركًا له عن بصيرة ، ومُقبِل على الحق بِكُلِّيته ، لا يَصُدُّه عنه صَاد ، ولا يَرُدُّه عنه رَاد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اليَوْمَ يَئِسَ الذين كَفروا مِن دِينكُم فلا تَخْشَوْهُم واخْشَوْنِ الْيَوْمَ أكملتُ لكم دِينَكم وأتممتُ عَلَيكم نِعمتي ورَضِيتُ لكمُ الإسلامَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] .

الآن انقطعَ طمعُ الكافرين مِنكُم ، ويَئِسوا أن تَتركوا الإسلامَ وترتدوا عنه عائدين إلى الشِّرك. وذلك أن الكفار كانوا يَأملون ويَطمعون أن يرتدَّ المسلمون عن دينهم،ويَرجعوا إلى عبادة الأصنام. فلمَّا قَوِيَ الإسلام ، وَكَثُرَ المسلمون ، وصار لهم شَوكة وصَوت ، ويُحسَب لهم ألف حِساب ، يَئِسَ المشركون مِن رُجوع المسلمين إلى الشِّرك، وفقدوا الأملَ تمامًا ، وانقطع طمعُهم بشكل نهائي.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٨٥) : ((قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الذين كفروا مِن دِينكُم ﴾ ، في هذا اليوم ثلاثة أقوال : أحدها أنه اليوم الذي دخل فيه رسول الله مكة في حَجَّة الوداع، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن السائب: نزلت ذلك اليوم . والثاني أنه يوم عَرَفة، قاله مجاهد وابن زيد . والثالث أنه لَم يُرِدْ يَوْمًا بِعَينه، وإنما المعنى : الآن يَئِسوا ، كما تقول أنا اليوم قد كَبُرت ، قاله الزَّجاج . قال ابن الأنباري : العرب تُوقِع اليوم على الزمان الذي يشتمل على الساعات والليالي ، فيقولون: قد كُنْتُ في غفلة فاليوم استيقظتُ،يُريدون فالآن، ويقولون : كان فلان يَزورنا وهو اليوم يَجفونا ، ولا يقصدون باليوم قصد يوم واحد . قال الشاعر : فَيَوْمٌ عَلَينا ويوم لنا ... ويوم نُسَاء ويوم نُسَر . أراد فزمان لنا وزمان علينا، ولَم يَقصد ليوم واحد لا ينضم إليه غَيره . وفي معنى يأسهم قولان : أحدهما أنهم يئسوا أن يرجع المؤمنون إلى دِين المشركين، قاله ابن عباس والسُّدي. والثاني يئسوا مِن بُطلان الإسلام، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: وإنما يَئِسوا مِن إبطال دِينهم لَمَّا نَقل اللهُ خَوْفَ المسلمين إلَيهم،وأَمْنَهم إلى المسلمين، فعلموا أنهم لا يَقْدرون على إبطال دِينهم،ولا على استئصالهم،وإنما قاتلوهم بعد ذلك ظَنًّا مِنهم أن كفرهم يبقى)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٦٦) : عن جابر قال : سَمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((إنَّ الشيطان قد أَيِسَ أن يَعبده الْمُصَلُّون في جزيرة العرب ، ولكن في التَّحريش بينهم)) .

هذا الحديثُ مِن أعلام النُّبُوَّة ودليل على صِدق النبيِّ ﷺ في إخباره بالغَيْب ، لأن ما قاله النبيُّ ﷺ حدث بالفِعل على أرض الواقع. وجزيرةُ العرب معصومة مِن الكُفر والشِّرك ، ولا سُلطة للشَّيطان عليها ، فقد أَيِسَ (يَئِسَ) الشَّيطان أن يَرجع المؤمنون في جزيرة العرب إلى الشِّرك وعبادة الأصنام،وانقطعَ طمعُ الشَّيطان مِنهم، ويَئِسَ مِن ارتدادهم عن الإسلام.ولكنَّه لا يَزال يُمارس فساده في الأرض،وذلك بنشر الخصومات والعداوات بين المسلمين ، وتفريق كلمتهم ، وتشتيت شَمْلهم ، وزرع الفِتن والحروب بينهم .

والمقصود بعبادة الشَّيطان عبادة الصَّنم ، لأن الشيطان هو الداعي إلى هذه العبادة الباطلة ، والآمِر بِها . والمراد بالمصلِّين المؤمنون ، لأن الصلاة هي الحد الفاصل بين الإيمان والكُفر ، وأبرز علامة على الإيمان ، فالصلاة هي الفِعل الظاهريُّ الدال على الإيمان .

وفي فَيض القدير (٢/ ٣٥٦) : ((قال البَيضاوي رحمه الله تعالى : ... وارتداد بعض لا يُنافي يَأسَه ، فلا يَرِد نَقْضًا ، أو لأنهم لَم يعبدوا الصنم ، أو لأن المراد أن بين المصلِّين لا يحمعون بين الصلاة وعبادة الشيطان . (ولكن في التحريش بينهم) خبر مبتدأ محذوف، أي وهو

في التحريش أو ظَرْف لِمُقَدَّر ، أي يسعى في التحريش ، أي في إغراء بعضهم على بعض ، وحملهم على الفِتن والحروب والشحناء . قال القاضي : والتحريش الإغراء على الشيء بنوع مِن الخداع، مِن حَرَشَ الضَّبَّ الصَّيادُ ، خَدَعَه، وله من دقائق الوَسْواس ما لا يفهمه إلا البُصَراء بالمعارف الإلهية . قال بعض الأئمة : إنما خَصَّ جزيرة العرب ، لأنها مَهْبِط الوَحْي ...وسُمِّيَت جزيرة، لأن البحار والأنهار اكتنفتها من أكثر الجهات كبحر البصرة وعُمان وعدن وبحر الشام والنيل ودِجلة والفرات ... . وقال الطيبي : لعل المصطفى ﷺ أخبرَ بما يكون بعده من التَّحريش الواقع بين صَحْبه. أَيِسَ أن يُعْبَد فيها ، لكن طَمِعَ في التَّحريش ، وكان كما أَخبر ، فكان معجزة . والتَّحريش الإغراء على الشيء كما مَرَّ مِن حَرَشَ الصَّيادُ. أي يَخدعهم ويُغري بعضهم على بعض . لَمَّا ذَكر العبادة أَوَّلاً سَمَّاهم المصلِّين تعظيمًا لهم ، ولَمَّا ذَكر الفِتنة أخرجه مخرج التحريش ، وهو الإغراء بين البهائم تَوْهِينًا وتحقيرًا لهم. قال حجة الإسلام: رُوِيَ أن إبليس تَمَثَّل لعيسى عليه السلام،فقال: قُل: لا إله إلا الله، فقال : كلمة حق، ولا أقولها بِقَولك . وذلك لأن له تحت الخير تلبيسات لا تتناهى ، وبه تَهْلِك العلماء والعُبَّاد والزُّهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الْخَلْق مِمَّن يَكرهون ظاهر الشَّر، ولا يَرْضَوْن لنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة)) اهـ .

﴿ فلا تَخْشَوْهُم واخْشَوْنِ ﴾ . هذا أمرٌ إلهيٌّ للمؤمنين بالثبات على الإسلام ، والصبر على الشدائد. فلا تخافوا مِن المشركين، ولا تَهابوهم، ولا تقلقوا بسبب حِقدهم وعداوتهم ، ولا تَخْشَوْا أن يَظهروا عليكم ويَهزموكم ، واخْشَوْني أنصُرْكم عَلَيهم ، وأهزمهم ، وأُزيلهم مِن طريقكم ، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة. والله وَحْدَه هو القادر على نصركم ، وإذا نصركم اللهُ فَلَن يَهزمكم أحد ، وإذا خَذَلَكم اللهُ فلن يَنصركم أحد . والأمرُ كُلُّه بيد الله ، وَحْدَه لا شريك له .

والآيةُ تحمل معنى الاستهانة بالكفار ، والسُّخرية مِن قُوَّتهم ، وتحقير شأنهم ، فَهُم لا يستحقون الالتفات إلَيهم ، فلا تَعْبَؤوا بِهم ، ولا تأبهوا لِعَددهم وعُدَّتهم ، فهم مخذولون مهزومون مغلوبون. والواجب هو الالتزام بأوامر الله، واجتناب نَواهيه، وإخلاص الْخَشية له، والحذر مِن مُخالَفة أمره. وفي تفسير الثعالبي (١/ ١١٨) : ((قال الفخر : وهذه الآية تدل على أن الواجب على المرء في كل أفعاله وتُروكه أن يَنصِب بين عينيه خَشية رَبِّه تعالى ، وأن يَعلم أنه ليس في أيدي الخلق شيء البَتَّة ، وأن لا يكون مُشتغِل القلب بِهم ، ولا مُلتفِت الخاطر إلَيهم)) اهـ .

إنَّ اللهَ وَحْدَه هو المستحق للعبادة والْخَشية، لأنه القادر على كُل شيء . أَمَّا الناس فَهُم مخلوقات عاجزة وضعيفة لا تَملِك مِن أمرها شَيْئًا ، ولا تَجْلِب نَفْعًا ، ولا تَدفع ضُرًّا إلا بإذن الله .

﴿ الْيَوْمَ أكملتُ لكم دِينَكم وأتممتُ عَلَيكم نِعمتي ورَضِيتُ لكمُ الإسلامَ دِينًا ﴾ (12).

هذه بِشارة عُظمى من الله تعالى تتضمَّن إكمال دِين الإسلام ، وجَعْله خاليًا مِن أيِّ نقص ، وإتمام النِّعمة على المسلمين الذين هداهم اللهُ إلى الدِّين الحق الذي رَضِيَه لعباده ، وهو الإسلام .

لقد أظهرَ اللهُ الإسلامَ على سائر الأديان ، وأكملَ الشريعةَ ببيان الأوامر والنَّواهي ، والحلال والحرام ، والفرائض والأحكام والحدود ، وإرساء القواعد وتوضيحها . فلا لَبْسَ ولا غُموض ، ولا زيادة ولا نُقصان. والإسلام هو الدِّين الكامل المعصوم، والكاملُ لا يَحتاج إلى إكمال . ولَم يَنْزِل بعد هذه الآية حلال ولا حرام. والدِّينُ الإسلاميُّ قائم على القُرآن والسُّنة، وفِيهما بيان كُلِّ شيء بلا استثناء،إمَّا نَصًّا وإمَّا دَلالة.وكُل واقعة حتى يوم القِيامة لها حُكم شرعي قائم على الدليل. وبابُ الاجتهاد مفتوح لا يُغلَق، وهو يعني إلحاق الفروع بالأصول، وإرجاع التفاصيل إلى القواعد.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٨٧و٢٨٨) : ((فأمَّا قَوْله : ﴿ الْيَوْمَ ﴾ فَفِيه قَولان: أحدهما أنه يوم عَرَفة ، وهو قول الجمهور ، والثاني أنه ليس بيوم مُعيَّن ، رواه عطية عن ابن عباس. وفي معنى إكمال الدِّين خمسة أقوال : أحدها أنه إكمال فرائضه وحدوده، وَلَم يَنْزل بعد هذه الآية تحليل ولا تحريم، قاله ابن عباس والسُّدي. فعلى هذا يكون المعنى:اليومَ أكملتُ لكم شرائعَ

---

(١٢) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩): ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس:قَوله: ﴿ الْيَوْمَ أكملتُ لكم دِينَكم ﴾ وهو الإسلام . أخبرَ اللهُ نَبِيَّه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكملَ لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتَمَّه اللهُ فلا يُنقِصه أبدًا، وقد رَضِيَه اللهُ فلا يَسْخَطه أبدًا. وقال أسباط عن السُّدي: نزلت هذه الآية يوم عَرَفة ، ولَمْ يَنْزِل بعدها حلال ولا حرام. ورجع رسولُ الله ﷺ فمات. قالت أسماء بنت عُمَيس:حَجَجْتُ مع رسول الله ﷺ تلك الحَجَّة، فبينما نحن نسير إذْ تَجَلَّى له جبريل، فمالَ رسول الله ﷺ على الراحلة ، فلم تُطِق الراحلة مِن ثِقْل ما عليها مِن القُرآن، فَبَرَكت ، فأتيتُه، فَسَجَّيْتُ عَلَيه بُرْدًا ــ يعني ثَوْبًا ــ كان عليَّ . وقال ابن جرير وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عَرَفة بأحد وثمانين يَوْمًا ، رواهما ابن جرير . ثُمَّ قال : حَدَّثَنا سُفيان بن وكيع، حَدَّثنا ابن فُضَيل عن هارون ابن عنترة عن أبيه قال : لَمَّا نَزلت : ﴿ الْيَوْمَ أكملتُ لكم دِينَكم ﴾ ، وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عُمر ، فقال له النبيُّ ﷺ : " ما يُبكيك ؟ " ، قال : أبكاني أنَّا كُنَّا في زيادة مِن دِيننا، فأمَّا إذا أُكْمِلَ فإنه لَمْ يَكْمُلْ شيء إلا نقص. فقال : " صَدَقْتَ " . ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت : " إنَّ الإسلام بدأ غَرِيبًا ، وسيعود غريبًا ، فَطُوبى للغرباء ")) اهـ .

دِينكم. والثاني أنه بِنَفْي المشركين عن البَيت ، فلم يَحُجَّ معهم مُشرك عامئذٍ، قاله سعيد بن جُبَير وقتادة. وقال الشَّعبي: كَمال الدِّين هاهُنا عِزُّه وظُهوره وذُل الشِّرك ودُروسه ، لا تكامُل الفرائض والسُّنن لأنها لَم تزل تَنْزل إلى أن قُبِض رسول الله ﷺ ، فعلى هذا يكون المعنى : اليومَ أكملتُ لكم نَصْرَ دِينكم ، والثالث أنه رَفْع النَّسْخ عنه ، وأمَّا الفرائض فلم تزل تَنْزل عليه حتى قُبِضَ، رُوِيَ عن ابن جُبَير أيضًا . والرابع أنه زوال الخوف من العدو والظهور عليهم ، قاله الزَّجاج . والخامس أنه أَمْن هذه الشريعة مِن أن تُنْسَخَ بأخرى بعدها ، كما نُسِخَ بِها ما تَقَدَّمها)) اهـ .

﴿ وأتممتُ عَلَيكم نِعمتي ﴾ [13]. لقد أتَمَّ اللهُ نِعمته على المؤمنين بهدايتهم إلى الحق ، وتَوفيقهم إلى طاعته ، والنصر على الكُفر والكافرين ، وإكمال الشريعة ، وانتشار الإسلام ، وفتح مكة ، وعدم حَج المشركين معهم ، وهدم معالم الجاهلية .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٦) : ((قوله تعالى : ﴿ وأتممتُ عَلَيكم نِعمتي ﴾ أي: بإكمال الشرائع والأحكام وإظهار دِين الإسلام كما وَعَدْتُكم إذْ قُلت: ﴿ ولأُتِمَّ نِعمتي عَلَيْكُم ﴾ [البقرة: ١٥٠] . وهي دخول مكة آمنين مُطمئنين ، وغَير ذلك ما انتظمته هذه المِلَّة الحنيفية ، إلى دخول الجنة في رحمة الله تعالى)) اهـ .

﴿ ورَضِيتُ لكمُ الإسلامَ دِينًا ﴾ . لقد اختارَ اللهُ الإسلامَ مِن بَين الأديان ، وَرَضِيَهُ لعباده ، وهو الدِّين الوحيد المقبول عِند اللهِ. والإسلامُ هو الدِّين السماويُّ الوحيد، ومَا سِواه أديان أرضية باطلة ومرفوضة . واللهُ لا يَقْبَل دِينًا غَيْرَ الإسلام . وَمَن اختارَ دِينًا غير الإسلام فهو كافر خالد في النار إن ماتَ على ذلك . والدِّينُ لا يَكون مَقبولاً ومَرْضِيًّا إلا إذا انضمَّ التَّصديق إلى العمل .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٣) : ((قَوْله : ﴿ ورَضِيتُ لكمُ الإسلامَ دِينًا ﴾ أي : أخْبَرْتُكم بِرِضاي بِه لكم ، فإنه سبحانه لَم يَزَلْ راضِيًا لأُمَّة نَبِيِّه ﷺ بالإسلام، فلا يكون لاختصاص الرِّضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حَمَلْناه على ظاهره، ويُحتمَل أن يُريد : رَضِيتُ لكم الإسلامَ الذي أنتم عليه اليوم دِينًا باقيًا إلى انقضاء أيام الدنيا . و ﴿ دِينًا ﴾ منتصب على التمييز ، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانيًا)) اهـ .

---

(١٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٨٦) : ((وفي إتمام النِّعمة ثلاثة أقوال : أحدها منع المشركين من الحج مَعَهم ، قاله ابن عباس وابن جُبَير وقتادة . والثاني الهداية إلى الإيمان، قاله ابن زيد . والثالث الإظهار على العدو ، قاله السُّدي)) .

وعن عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه_ أنَّ رَجلاً من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين ، آية في كتابكم تقرؤونها، لَوْ عَلَينا مَعْشَرَ اليهود نزلت لاتَّخذنا ذلك اليوم عِيدًا. قال: ((أيُّ آية ؟)) ، قال: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ دينًا ﴾ . قال عُمر: ((قد عَرَفْنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبيِّ ﷺ، وهو قائم بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعة))[14].

كان المسلمون لحظة تلقِّي هذه الآية في عِيدَيْن : يوم عَرَفة، ويوم الْجُمُعة . وكُل واحد مِنهما يَوم عِيد للمسلمين . ولَم ينتبه اليهودي إلى ذلك الأمر . لكنه أدرك عَظَمَةَ الآية الشريفة التي تحمل بِشارة إكمال الدِّين وإتمام النِّعمة، مِمَّا يدل على أهمية الأمة المحمَّدية الإسلامية التي تلقَّت هذه المكافأة الرَّبانية الكريمة ، وكَوْنها الأُمَّة الوحيدة الحاملة لكلمة الله إلى الخلائق .

كما أن الحديث يدل على فِطنة عُمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ ، وسَعة عِلْمه . فهو عَالِمٌ بمكان نزول الآية وزمانها ، واستطاع استحضارهما دون تردد أو طُول تفكير. مِمَّا يُشير إلى ارتباطه الوثيق بالوَحْي القرآنِيِّ والظروفِ المحيطة به . ولا شك أن اليهودي كان يستشعر النقصَ في دِينه دون الإفصاح عنه.فكل شخص يَبحث عمَّا ينقصه ، وما تَعَلُّقه بآية إكمال الدِّين إلا مُؤشِّر باهر على شُعوره بالعجز والضعف وعُقدة النقص ، وأنه ينتمي إلى دِينٍ ناقصٍ تَمَّ التلاعب به . ومِن سِياق كلامه يظهر أنه يتمنى لو كانت اليهودية دِينًا كاملاً ، ولو نَزلت عليهم آيةٌ بهذا الخصوص لاتَّخذوا ذلك اليوم عيدًا ، واحتفلوا به ، ونشروه بين الناس . لكنَّ فاقدَ الشيء لا يُعطيه .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿قُل إنِّي أُمِرْتُ أن أكُونَ أوَّلَ مَن أسلمَ ولا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين﴾[الأنعام: ١٤].

لقد أمرَ اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ بالإسلامِ ، ونَهاه عن الشِّرْك . أمَرَهُ اللهُ تعالى بأن يَكونَ أولَ المسلمين مِن هذه الأُمَّة لأنه إمامُها، وقائدُها، والقُدوة العُظمى، والمرجعيةُ العُليا ، ويَرْفُضَ الشِّرْك، ولا يَكون مِنَ المشركين . وهذا لا يَعني أن النبيَّ ﷺ كان مُشْرِكًا . والمعنى هو التحذير مِن الشِّرك، والنبيُّ ﷺ معصوم ، واللهُ يَأمر أنبياءه بِما شاء ، ويَنهاهم عَمَّا يشاء . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٦):((لأنَّ النبيَّ ﷺ سَابِقُ أُمَّته في الدِّين)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١١) : ((قَوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أن أَكُونَ أَوَّلَ مَن أسْلَمَ ﴾ ، أي : أَوَّل مسلم من هذه الأُمَّة . ﴿ ولا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ . قال الأخفش : معناه : وقِيل لي : ﴿ ولا تَكُونَنَّ ﴾ ، فصارت ﴿ أُمِرْتُ ﴾ بَدلاً مِن ذلك، لأنه حِينَ قال: ﴿ أُمِرْتُ ﴾ قَد أَخْبَرَ أنَّه قِيل له)) اهـ .

---

(١٤) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٥) برقم (٤٥) ، ومسلم (٤/ ٢٣١٢) برقم (٣٠١٧) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يَهديَه يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلامِ ﴾[الأنعام : ١٢٥] (15).

مَن شاءَ اللهُ هِدايته للإيمان به وبرسوله ﷺ ، قَذَفَ في قلبه نُورَ الحق ، فصارَ صَدْرُه واسعًا مُنَوَّرًا يَستقبل تعاليمَ الدِّين بِحُب وسُرور واستعداد كامل ، بدون عوائق ولا ضِيق . وتصير طِباعُه لَيِّنة ، وصِفاته حميدة ، ويُوفِّقه اللهُ إلى الصراط المستقيم ، ويُثبِّته عَلَيه ، ويُسهِّل عليه فِعل الطاعات واجتناب المعاصي . وتوسيعُ الصدر علامة الهداية للإسلام .

إنَّ اللهَ يخلق الإيمانَ في القلب،ويَفتح صَدْرَ الإنسان كَي يَستقبل الإسلام بِحُب وقَبول . وشَرْحُ الصدر هو تسهيل الإيمان وتَحبيبه إلى النَّفْس ، وإعداد القلب لقبوله بلا عوائق ، والرِّضى بِه بلا ضغوطات . والصدر عبارة عن القلب ، لأن مستقر القلب في الصدر . وإذا أرادَ اللهُ بالعبد خَيْرًا ، فإنه يُوسِّع قلبه للتَّوحيد والإيمان بِه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥٠) : ((﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يَهديَه ﴾ يُعرِّفه طريق الحق ويُوفِّقه للإيمان ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلامِ ﴾ فَيَتَّسِع له وينفسح فيه مجاله، وهو كِناية عن جَعْل النَّفْس قابلة للحق ، مُهَيَّأة لِحُلوله فِيها ، مِصفاة عَمَّا يَمنعه ويُنافيه)) اهـ .وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٣٣٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : فَمَن يُرِد اللهُ أن يَهديَه للإيمان بِه وبرسوله وما جاء به مِن عِند رَبِّه فَيُوَفِّقه له ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلامِ ﴾ يقول : فَسَحَ صَدْرَه لذلك ، وهَوَّنه عَلَيه ، وسَهَّله له بِلُطْفه ومَعونته ، حتى يستنير الإسلام في قلبه ، فَيُضِيء له، ويَتَّسع له صَدْرُه بالقَبول)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل إنني هداني ربي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : ١٦١] . هذا أمرٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ أن يُخبِر بِنعمة اللهِ عَلَيه ، التي تتجلى في هدايته إلى الإسلام دِين الحق، الذي لا يَقبل اللهُ غَيْرَه . لقد هدى اللهُ محمدًا ﷺ إلى الطريق المستقيم الذي لا عِوَج فِيه ولا لَبْس.

---

(١٥) في زاد المسير (٣/ ١١٩و١٢٠) : ((قال ابن الأعرابي : الشَّرْح الفتح. قال ابن قُتَيبة : ومِنه يُقال: شَرَحْتُ لك الأمرَ، وشَرَحْتُ اللحمَ إذا فَتَحْتُه. وقال ابن عباس : يَشرح صَدْرَه ، أي يُوسِّع قَلْبَه للتوحيد والإيمان. وقد روى ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يَهديَه يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلامِ ﴾ فَقِيل له : يا رسول الله ، وما هذا الشَّرْح ؟ قال : " نور يَقذفه اللهُ في القلب فينفتح القلب" قالوا : فهل لذلك مِن أمارة ، قال : " نعم "، قِيل: وما هِيَ ؟ . قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله)) .

قُل يا محمد للمشركين عابدي الأصنام:إنَّ اللهَ وَفَّقني للإيمان بِه،وأرشدني إلى الحق بما أوحاه إِلَيَّ، وهداني إلى الإسلام (دِين التَّوحيد) ، وهو الطريق المستقيم ، لا اعوجاج فِيه ولا انحراف . ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ مسقيمًا قائمًا ثابتًا لا عِوَج فِيه، وهو دِين الحنيفية السَّمحة، الذي جاء بِه النبيُّ إبراهيم ﷺ ، وما كان إبراهيم مُشْرِكًا . والآيةُ تُشير إلى أنَّ مَن خَالَفَ دِينَ الإسلام كان مُشْرِكًا خارجًا عن دِين إبراهيم ﷺ ، ومُعَارِضًا لَه ، حتى لَوْ زَعَمَ أنه سائر على منهج إبراهيم ﷺ ، لأن العِبرة بالأفعال على أرض الواقع، وليس بالكلام المجرَّد.وهذا يَفضح أهلَ الكتاب الذين نَسَبَوا أنفسَهم إلى إبراهيم ﷺ بلا دليل ولا بُرهان.فأهلُ الكتاب مُشرِكون،والنبيُّ إبراهيم ﷺ إمام الْمُوحِّدين الذي جاء بالحنيفية.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٥) : ((وليس يَلْزَم مِن كَوْنه ﷺ أُمِرَ باتِّباع مِلَّة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها، لأنه عليه السلام قام بها قِيامًا عظيمًا، وأُكْمِلَت له إكمالاً تامًّا لَم يَسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خَاتَم الأنبياء ، وسَيِّد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق ، حتى الخليل عليه السلام)) اهـ .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ كان يقول : ((أَصْبَحْنا على فِطرة الإسلام ، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دِين نَبِيِّنا محمد ﷺ ، وعلى مِلَّة أبينا إبراهيم ، حنيفًا مُسلمًا ، وما كان من المشركين))(16).

والفِطرةُ هي أصل الْخِلْقَة، والمعنى أنَّ اللهَ قد خلق الناس على الإسلام ، وما مِن مَولود إلا ويُولَد على الإسلام (التَّوحيد). هذه هي الفِطرة، لكن هناك عوامل ساهمت في انحراف الناس عن هذه الفِطرة السليمة . وكلمة الإخلاص هي كلمة الشَّهادة (لا إلهَ إلا الله) ، والحنيف هو المائل إلى الدِّين المستقيم .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿قُل إنَّ صَلاتي ونُسُكي وَمَحْيايَ ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمين ﴾[الأنعام: ١٦٢].

قُل يا محمد للمُشركين عابدي الأصنام : إنَّ صَلاتي التي أعبدُ اللهَ بِها ، وذَبْحي الذي أتَقَرَّب بِه إلى الله ، وما أقوم بِه في حياتي مِن طاعات وخَيرات وأعمال صالحة ، وما أُوصِي بِه بعد وفاتي مِن صَدَقات وقُرُبات ، للهِ وَحْدَه ، خالصًا له ، دُون ما أشركتم بِه. وهذه الآية تُوضِّح فُروع الدِّين،

(١٦) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٠٦) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٦) : ((رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح)) اهـ. وقال العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٢٩٥): ((أخرجه النَّسائي في اليوم والليلة مِن حديث عبد الرحمن بن أبزى بسند صحيح)) .

في حِينَ أن الآية السابقة: ﴿ قُل إنني هداني ربي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ تُوضِّح أصول الدِّين. لقد أمرَ اللهُ محمدًا ﷺ بإخبار المشركين أنه مُخالِف لهم . فهم يَعبدون الأصنام، ويَذبحون لِغَير الله تعالى . وقد كانت ذبائح الجاهلية بأسماء أصنامهم . أمَّا النبيُّ ﷺ فيعبد اللهَ وَحْدَه، ولا يَذبح إلا لله تعالى. وتفاصيلُ حياته، وأعماله المتعلِّقة بوفاته ، كُلُّها لله وَحْدَه . وهذا هو الإخلاص في أسمى مَعانيه ، والنِّية الصالحة التي لا يَتسلَّل إليها خَلَل ولا فساد . ومنهجُ النبيِّ ﷺ هو منهج لكل المؤمنين، مِن أجل الاقتداء بِه، والسَّير على خُطاه، والتأسِّي بطريقته وشَرْعه ، فينبغي أن تكون نِيَّة العبد في جميع أقواله وأفعاله خالصةً لله وَحْدَه ، بلا شَريك ولا نِد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٦١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قُل إنَّ صَلاتي ﴾ يُريد الصلاة المشروعة . والنُّسُك جمع نَسِيكة . وفي النُّسُك هاهنا أربعة أقوال : أحدها أنها الذبائح ، قاله ابن عباس وسعيد بن جُبَير ومجاهد وابن قُتَيبة. والثاني الدِّين ، قاله الحسن. والثالث العبادة . قال الزَّجاج : النُّسُك كُل ما تُقُرِّبَ به إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، إلا أن الغالب عليه أمر الذبح . والرابع أنه الدِّين والحج والذبائح، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قَوْله تعالى : ﴿ وَمَحْيايَ ومَماتي ﴾ ... للمفسرين في معناه قولان:أحدهما أن معناه لا يملك حياتي ومماتي إلا الله.والثاني: حياتي لله في طاعته، ومماتي لله في رجوعي إلى جَزائه.ومقصود الآية أنه أخبرهم أن أفعالي وأحوالي لله وحده لا لغيره كما تشركون أنتم به)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المسلمين ﴾[الأنعام : ١٦٣] .

لا أعبدُ غَيْرَ الله . وهنا يتجلى الإخلاص في الطاعة ، وجعلها للهِ وَحْدَه ، وبإخلاص العبادة للهِ وَحْدَه أُمِرْتُ. والمعنى: أُمِرَ بالتَّوحيد. وأنا أول مَن استسلمَ للهِ ، وخضع لِحُكمه ، وأذعنَ لأمره ، مِن هذه الأُمَّة.وهنا يتجلى معنى القُدوة والأُسوة. فالنبيُّ ﷺ هو القُدوة الحسنة والمرجعية العُظمى، ويجب اتِّباع سُنَّته ، واعتماد طريقته في الحياة قَوْلاً وفِعلاً . فهو أول المسلمين ، وهذا يُشير إلى مُسارَعته إلى امتثال أمر الله بلا تأخير ولا تأجيل . والقائد يُطبِّق الأمرَ الإلهيَّ على نَفْسِه قبل أن يَأمر أتباعه بِه. والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ وَبِذَلِكَ ﴾ تُشير إلى عُلُوِّ الرُّتبة، وسُمُوِّ المنْزلة، وَكَوْنها مَنْزلة عالية ، وبعيدة في الفضل والشرف والمجد . أي : وبذلك الإخلاص الشريف العالي أُمِرْتُ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٣/ ٢٠٧) : ((﴿ لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ خالصة له، لا أُشْرِك فيها غَيْرَه . ﴿ وَبِذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الإخلاص، وما فيه مِن معنى البُعد، للإشعار بِعُلُوِّ رُتبته ، وبُعد مَنْزلته

في الفضل، أي بذلك الإخلاص ﴿ أُمِرْتُ ﴾ لا بشيء غَيْره . وقوله تعالى : ﴿ وأنا أَوَّلُ المسلمين ﴾ لبيان مُسارَعته عليه السلام إلى الامتثال بما أُمِرَ به ، وأنَّ ما أُمِرَ بِه ليس مِن خصائصه عليه السلام، بل الكل مأمورون به ، ويَقتدي به _ عليه السلام _ مَن أسلمَ مِنهم)) اهـ . وفي صحيح مسلم (١/ ٥٣٤) : عن عليٍّ بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة ، قال: ((وَجَّهْتُ وَجْهِيَ للذي فَطَرَ السماواتِ والأرضَ حَنيفًا ، وما أنا من المشركين، إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي، للهِ رَبِّ العالَمين، لا شَرِيكَ له، وبذلك أُمِرْتُ ، وأنا مِن المسلمين ...)).

وفي تفسير القرطبي (٧/ ١٣٦) : ((قال الكيا الطبري : قوله تعالى : ﴿ قُل إنني هداني ربي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ إلى قَوله : ﴿ قُل إنَّ صَلاتي ونُسُكي وَمَحْيايَ ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمين ﴾ . استدل به الشافعي على افتتاح الصلاة بهذا الذِّكر ، فإن اللهَ أمرَ نَبِيَّه ﷺ ، وأنزله في كتابه ، ثُمَّ ذَكر حديث عليٍّ _ رضي الله عنه _)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٣٩) وصحَّحه : عن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ رضي اللهُ عنهما أنَّ رسول الله ﷺ ذَبَحَ يوم العيد كَبْشَيْن ، ثُمَّ قال حِينَ وَجَّهَهُمَا : ((وَجَّهْتُ وَجْهِيَ للذي فَطَرَ السماواتِ والأرضَ حَنِيفًا ، وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي ، للهِ رَبِّ العالَمين ، لا شريك له ، وبذلك أُمِرْتُ ، وأنا أول المسلمين ، بِسم الله ، والله أكبر ، اللهُمَّ مِنكَ وَلَكَ عَن محمد وأُمَّتِه)) .

في الحديث استحباب تلاوة هذه الآيات عند توجيه الذبيحة للذبح ، وقَد تَقَدَّم ذِكر الآيات في دعاء الاستفتاح في الصلاة . والحديث يُشير أيضًا إلى رحمة النبيِّ ﷺ بأُمَّته ، وشفقته عليها ، ورأفته بِها ، فقد ضَحَّى النبيُّ ﷺ بكبشين عنه وعن أُمَّته. أي إنَّه لَم يَخُصَّ نَفْسَه أو آل بَيته، ويَنْسَ أُمَّتَه، أو يُهْمِل أمْرَها ، وهذا يدل بوضوح على إخلاص النبيِّ ﷺ وأخلاقه الحميدة ، وحِرصه على أُمَّته ، وتَمَسُّكه بها ، وبُعده كُل البُعد عن الأنانية والشَّخصانية .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل إني أُمِرْتُ أن أعبدَ اللهَ مُخلِصًا لهُ الدِّينَ ﴾ [الزُّمَر : ١١] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ بإخبارهم بما أُمِرَ بِه مِن التَّوحيد والإخلاص . قُل يا محمد : إني أُمِرْتُ بإخلاص العبادة لله، وَحْدَه لا شريك له . وهذا يعني أن تكون العبادةُ خالصةً لوجه الله ، بلا شِرك (الشِّرك الأكبر) ولا رِياء (الشِّرك الأصغر) . وإذا كانَ محمد ﷺ مأمورًا بالتَّوحيد والإخلاص ، وهو النبيُّ المعصوم الذي يأتيه خَبَر السماء، وأعظم مخلوقات اللهِ على الإطلاق، فَغَيْرُه بذلك أحق ، لأن كُل الخلائق تحت النبيِّ ﷺ، ودُونَه في المكانة والتقوى والفضل والشرف .

وهذا تَرغيب للغَير ، ودَعوة لهم . وتخصيص النبيِّ ﷺ بهذا الأمر الإلهيِّ تكليفٌ له وتشريف في آنٍ مَعًا ، وباعتباره رأس المسلمين وقائدهم ومرجعهم الأعلى ، وقُدوتهم السَّامية . وهذا يعني أيضًا أنه أمر لأتباعه المؤمنين.

وفي زاد المسير (٧/ ١٦٨) : ((قال مُقاتل : وذلك أن كفار قُرَيش قالوا لرسول الله ﷺ : ما حَمَلَكَ على الذي أَتَيْتَنا بِه ؟، ألا تنظر إلى مِلَّة آبائك فتأخذ بها؟، فَنَزلت هذه الآية. والمعنى : ﴿ قُل إني أُمِرْتُ أن أعبدَ اللهَ مُخلِصًا لهُ الدِّينَ ﴾ أي : أُمِرْتُ أن أعبده على التوحيد والإخلاص السالم مِن الشِّرك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأُمِرْتُ لأن أكُونَ أوَّلَ المسلمين ﴾[الزُّمَر : ١٢] .

وأُمِرْتُ أيضًا بأن أكون أول المسلمين مِن هذه الأُمَّة ، فهو قائد الأمة الإسلامية وقُدوتها العُليا. وهنا يتجلى معنى الْمُسابَقة والْمُسارَعة إلى تطبيق أمر اللهِ ، بلا كسل ولا تأخير ولا نِقاش ولا اعتراض. وقد كانَ ﷺ كذلك، فهو أوَّل مَن استسلمَ للهِ، وأذعنَ لأمره وحُكمه، وكَفَرَ بالطاغوت، وآمَنَ باللهِ وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ، وخضع له بالتَّوحيد ، وأخلصَ له العبادة، وحَطَّمَ الأصنامَ ، وألغى التاريخَ الوثني للآباء والأجداد ، ودعا الناسَ إلى عبادة الله وَحْدَه ، وصنع حضارة الإسلام القائمة على توحيد اللهِ ، وتَنْزيهه عن كُل عَيب ونقص .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٦١) : ((وأُمِرْتُ بذلك لأجل أن أكون مُقَدَّمَهم في الدنيا والآخرة ، لأن قَصَبَ السَّبْق في الدِّين بالإخلاص ، أو لأنه أول من أسلم وجهه لله مِن قُرَيش وَمَن دان بِدِينهم . والعطف لِمُغايَرة الثاني الأول، بتقييده بالعِلَّة والإشعار بأن العبادة المقرونة بالإخلاص وإن اقتضت لِذَاتِها أن يُؤمَر بِها ، فهي أيضًا تقتضيه لِمَا يلزمها مِن السَّبْق في الدِّين ، ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما في " أردتُ لأن أفعل " ، فيكون أمر بالتقدم في الإخلاص ، والبَدْء بِنَفْسه في الدُّعاء إِلَيه بعد الأمر به)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلامِ فَهُوَ على نُورٍ مِن رَبِّهِ ﴾ [الزُّمَر : ٢٢] .

أفَمَن وَسَّعَ اللهُ صَدْرَه للإسلام، وفَتَحَ قَلْبَه لعبادته وتَوحيده ، والالتزام بأوامره ، واجتناب نَواهيه ، حتى ثَبَتَ الإسلامُ في قلبه ، فهو على يقين وبصيرة مِن أمر دِينه ، وعلى هُدى مِن رَبِّه بِرُسوخ نُور الحق في قلبه ، كَمَن طَبَعَ اللهُ على قلبه وأعْمَاه ، فصارَ قاسيًا تائهًا في ظُلمات الجهل والكفر، لا يهتدي إلى الحق ، ولا يَعرف طريقَ النجاة . وإذا دَخل النُّورُ إلى القلب اتَّسعَ القلبُ ، وصار واسعًا رحبًا ، لا ضِيق فِيه ولا عوائق . وشرح الصدر للإسلام هو أساس الانتفاع بالحِكَم

والمواعظ والتعاليم والتَّوجيهات . وفي الآية محذوف دَلَّ عَلَيه قَوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ للقاسيةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ الله ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] .

وتقدير الكلام : كَمَن هو أعمى القلب رافض للإسلام ؟ . والمعنى العام : هَل يَستوي مَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَه للإسلام ومَن هو قاسي القلب رافض للإسلام بعيد من الحق ؟ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٢٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : أَفَمَن فَسَحَ اللهُ قَلْبَه لمعرفته والإقرار بِوَحدانيته ، والإذعان لِرُبوبيته ، والخضوع لطاعته ﴿ فَهُوَ على نُورٍ مِن رَبِّهِ ﴾ يقول : فهو على بصيرة مِمَّا هو عليه ، ويقين بتنوير الحق في قلبه ، فهو لذلك لأمر الله مُتَّبِع ، وعَمَّا نَهاه عنه مُنْتَهٍ فِيما يُرضيه ، كَمَن أقسى اللهُ قَلْبَه ، وأخلاه مِن ذِكْره ، وضَيَّقه عن استماع الحق ، واتِّباع الهدى ، والعمل بالصواب . وتَرْكُ ذِكْر" الذي أقسى اللهُ قَلْبَه " جواب الاستفهام اجتزاءً بمعرفة السامعين المراد من الكلام ، إذ ذَكَرَ أحدَ الصِّنفين ، وجعل مكان ذِكر الصِّنف الآخَر الخبر عنه بِقَوله : ﴿ فَوَيْلٌ للقاسيةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ الله ﴾)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٧٣و١٧٤) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ فَهُوَ على نُورٍ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها اليقين، قاله ابن عباس. والثاني كتاب الله يأخذ به وينتهي إليه، قاله قتادة. والثالث البيان، قاله ابن السائب. والرابع الهدى، قاله مقاتل. وفِيمَن نزلت هذه الآية، فيه ثلاثة أقوال: أحدها أنها نزلت في أبي بكر الصِّديق وأُبَي بن خَلَف، رواه الضَّحاك عن ابن عباس. والثاني في عليٍّ وحمزة وأبي لهب وولده،قاله عطاء.والثالث في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل،قاله مقاتل)).

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (٧/ ٢١٩) : ((وأخرج ابن مَرْدَوَيْه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية:﴿ أفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلامِ فَهُوَ على نُورٍ مِن رَبِّهِ ﴾، فَقُلنا : يا رسول الله ، كيف انشراح صدره ؟ ، قال : " إذا دخل النورُ القلبَ انشرحَ وانفسحَ " . قُلنا: يا رسول الله ، فما علامة ذلك ؟، قال: " الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتَّأهُّب للموت قبل نزول الموت ")) اهـ .

حَسَبَ هذا الحديث،هُناك ثلاث علامات لانشراح الصدر بالإسلام، وتنوير القلب بِنُور الحق:

١_ التعلق بالآخرة ، والعمل لِنَيل رضا الله والفوز بالجنة التي لا تفنى ولا تزول (دار الخلود) .

٢_ الابتعاد عَن الدُّنيا،وعدم التعلق بِها، وينبغي أن تكون الدنيا في اليد لا القلب .

٣_ الاستعداد للموت قبل نُزوله،لأن الموت إذا نَزَلَ،فقد انتهى الأمرُ،ولا مجال للرجوع إلى الحياة ، ولا الاستعداد ولا التعويض ، ولا تَدَارُك ما فات .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأُمِرْتُ أن أُسْلِمَ لِرَبِّ العالَمِين ﴾ [غَافِر : ٦٦] .

وأُمِرْتُ أن أستسلمَ للهِ وَحْدَه، وأخضعَ لِحُكمه، وأُذْعِن لأمره، وانقادَ لشريعته، وأعبده بلا شريك ولا نِد،وأُخْلِص له عِبادتي،بلا شِرك ولا رِياء.وقال الطبري في تفسيره (١١/٧٥):((وأمرني ربي أن أَذِلَّ لِرَبِّ كُل شيء،ومالك كُل خَلْق بالخضوع،وأخضع له بالطاعة دُون غَيره مِن الأشياء)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ شَرَعَ لكم مِنَ الدِّينِ ما وصَّى بِهِ نُوحًا والذي أوْحَيْنا إلَيْكَ وما وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيمَ ومُوسى وعِيسى أن أقيموا الدِّينَ ولا تَتفرَّقوا فِيهِ ﴾ [الشُّورى : ١٣][17].

سَنَّ اللهُ لكم أيها المؤمنون وبَيَّنَ وَوَضَّحَ مِن الدِّين الحنيف والشريعة السَّمحة ما وَصَّى بِه أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع ، كَنُوحٍ ومحمد _ عليهما الصلاة والسلام _ . والخطابُ للأُمَّة المحمدية الإسلامية. وتَمَّ تخصيص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذِّكر لأنهم مشاهير الأنبياء، وأُولُو العَزْم مِنهم، وأصحاب الشرائع . وتَخصيصهم بالذِّكر يدل على عُلُوِّ مكانتهم ، وشرفهم الرفيع ، وفضلهم العظيم . وأيضًا مِن أجل استمالة الكافرين (أهل الكتاب) ، ودَفْعهم إلى الإيمان ، وحَثِّهم على طاعة الله بلا شريك ولا نِد . فاليهودُ يعتبرون موسى نَبِيَّهم وقائدهم ، والنصارى يُقدِّسون عِيسى ويَعتبرونه قائدهم وإلههم ، واليهود والنصارى يُؤمنون بإبراهيم ، ويَعتبرونه قائدًا لهم وأبًا رُوحِيًّا ، والمسلمون يُؤمنون بجميع الأنبياء بلا تفرقة ولا استثناء .

وقال الصاوي في حاشيته على الجلالَيْن (٤/ ٣٢):((خَصَّ هؤلاء بالذِّكر لأنهم أكابر الأنبياء، وأُولُو العَزْم ، وأصحاب الشرائع الْمُعَظَّمة ، فلكل واحد من هؤلاء الرُّسُل شرع جديد ، وأمَّا مَن

---

(١٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٦و٢٧٧) : ((﴿ شَرَعَ لكم ﴾ أي بَيَّنَ وأوضح ﴿ مِنَ الدِّينِ ما وصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه تحليل الحلال وتحريم الحرام، قاله قتادة. والثاني تحريم الأخوات والأمهات،قاله الْحَكم.والثالث:التَّوحيد وترك الشِّرك . قَوْلُه تعالى: ﴿ والذي أوْحَيْنا إلَيْكَ ﴾ أي مِن القرآن وشرائع الإسلام. قال الزَّجاج : المعنى وَشَرَعَ الذي أَوْحَيْنا إلَيْكَ ، وَشَرَعَ لكم ما وَصَّى بِه إبراهيم وموسى وعيسى. وقوله: ﴿ أن أقيموا الدِّينَ ﴾ تفسير قَوْلِه : ﴿ ما وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيمَ ومُوسى وعِيسى ﴾ وجائز أن يكون تفسيرًا لِمَا وَصَّى بِه نُوحًا وَلِقَوْله : ﴿ والذي أوْحَيْنا إلَيْكَ ﴾ وَلِقَوْله : ﴿ وما وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيمَ ومُوسى وعِيسى ﴾ ، فيكون المعنى : شَرَعَ لكم وَلِمَن قبلكم إقامة الدِّين،وترك الفُرقة،وشَرَعَ الاجتماع على اتِّباع الرُّسُل.وقال مُقاتِل:﴿ أن أقيموا الدِّينَ ﴾ يعني التَّوحيد ﴿ ولا تَتفرَّقوا فِيهِ﴾ أي : لا تَخْتَلِفُوا)) .

عَداهم ، فإنما كان يُبعَث بتبليغ شَرْع مَن قَبْله، وَلَم يزل الأمر يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء ، واحدًا بعد واحد،وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير المِلَل ، مِلَّة أكرم الرُّسل نَبِيِّنا محمد ﷺ، فَتَبَيَّن أنَّ شَرْعَنا _ مَعْشَرَ الأمة المحمدية _ قد جمع جميع الشرائع المتقدِّمة في أصول الاعتقادات ، وأصول الأحكام)) اهـ .

والأنبياءُ جميعًا دِينُهم واحد ، وهو الإسلام (الدِّين السماوي الوحيد)، وهُم مُتَّفِقُون على أصول الشرائع كَتَوحيد الله ، وطاعته ، والإيمان بِكُتبه ورُسُله والبعث والحساب والجنة والنار . لكن الشرائع تختلف باختلاف الزمان والمكان وطبائع الناس وصِفاتهم . فهناك شرائع سماوية وكُتب سماوية ، ولكن لا توجد أديان سماوية ، لأن الدِّين عِند الله الإسلام لا غَيْر .

﴿ ما وصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ مِنَ التَّوحيد وأصول الشرائع وأحكام الحلال والحرام . والنبيُّ نُوح ﷺ هو أول أنبياء الشرائع،وهو أول رسول بُعِثَ إلى أهل الأرض.وآدم ﷺ هو أوَّل نبيٍّ على الإطلاق، ولَم يكن معه غَير أبنائه ، ولَم تُفرَض له الفرائض ، وإنما أمَرَه اللهُ ببعض الأوامر المتعلِّقة بحياته الدُّنيوية .

﴿ والذي أوْحَيْنا إلَيْكَ ﴾ مِنَ القُرآن وشرائع الإسلام ، وتَوحيد الله وعبادته بلا شريك . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٥٤) : ((والتعبير عنه بالموصول ﴿ والذي ﴾ لتفخيم شأنه . وخَصَّ ما شَرَعَه لِنَبِيِّنا ﷺ بالإيحاء ﴿ أوْحَيْنا إلَيْكَ ﴾ مَعَ كَوْن ما بعده وما قبله مَذكورًا بالتَّوصية ، للتصريح برسالته)) اهـ .

﴿ وما وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيمَ ومُوسى وعِيسى ﴾ ، وما أمَرْنا بِه وألْزَمْنا إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، مِن أصول الشرائع والأحكام . ﴿ أن أقيموا الدِّينَ ولا تَتفرَّقوا فِيهِ ﴾. وَصَّيْنَاهم بإقامة الدِّين الحق دِين الإسلام، القائم على تَوحيد الله وطاعته، والإيمان بِكُتبه ورُسله والبعث والحساب والجنة والنار. والوصيةُ الإلهيةُ للأنبياء واحدةٌ وثابتة، وهي إقامة الإسلام قَوْلاً وفِعلاً ، والأُلفة والجماعة،ونبذ الفُرقة والشِّقاق. وهذا أصل ثابت لا يحتمل الخلاف ولا الاختلاف حَوْله . فهو ليس مِن فُروع المسائل التي تَقبل الاجتهادات ووجهات النظر المتعدِّدة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١١) : ((فكان المعنى : أوْصَيْنَاكَ يا محمد ونُوحًا دِينًا واحدًا، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة ، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج ، والتَّقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والزُّلَف (القُربة) إليه بما يرد القلب والجارحة إليه ، والصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وصِلَة الرَّحِم ، وتحريم الكفر والقتل والزِّنى والأذية للخَلْق

كَيْفَما تصرَّفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدَّناءات ، وما يعود بِخَرْم المروءات ، فهذا كُله مشروع دينًا واحدًا ، ومِلَّة مُتَّحدة لَم تختلف على ألسنة الأنبياء ، وإن اختلف أعدادهم، وذلك قوله تعالى : ﴿ أن أقيموا الدِّينَ ولا تَتفرَّقوا فِيهِ ﴾ أي : اجعلوه قائمًا ، يُريد دائمًا مُستمِرًّا محفوظًا مُستقِرًّا ، مِن غَير خِلاف فيه ، ولا اضطراب)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((... والأنبياء أُخوة لِعَلاَّت ، أُمهاتهم شَتَّى ، ودِينهم واحد))(18).

إنَّ القَدْرَ المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له. وإن اختلفت شرائعُهم ومناهجهم . فالدِّين واحد في كل زمان ومكان، أمَّا الشرائع فمختلفة بِحَسَب الزمان والمكان وطبيعة الناس . كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: ٤٨] . فهناك شرائع سماوية وكتب سماوية ، ولكن لا توجد أديان سماوية . إنَّ الإسلام هو الدِّين السماوي الوحيد .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شَريعةٍ مِنَ الأمرِ فاتَّبِعْهَا ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذينَ لا يَعْلَمُون ﴾ [الجاثية : ١٨].

جَعل اللهُ محمدًا ﷺ بعد اختلاف أهل الكتاب على طريقةٍ عظيمة الشأن ، ومنهاج واضح ، وشريعة سمحة من أمر الدِّين ، تُوصل إلى الحق ، وتُؤدِّي إلى نَيْل سعادة الدُّنيا ونعيم الآخِرة . فاتَّبِعْ شريعتك يا محمد الثابتة بالْحُجَج والبراهين ، واعملْ بأحكامها في نفْسك وأُمَّتك . ولا تتَّبع أهواء المشركين وعقائدهم الزائغة وآراءهم المنحرِفة . فَهُم لا يَعْلَمون الحقَّ ، ولا يُريدون أن يَعْلَموه . وبعبارة أخرى، لا تتَّبع ضَلالاتِ المشركين الذين لا يَعْلَمون تَوحيدَ اللهِ وشرائعَه لعباده . ولا مُقارنة بين دِين محمد القائم على التَّوحيد والحق والأدلة النقلية والعقلية ، وبين دِين المشركين القائم على الشِّرك والوثنية والظلم والأهواء والتقليد الأعمى .

---

(١٨)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٣/ ١٢٧٠)برقم(٣٢٥٩).ومسلم(٤/ ١٨٣٧)برقم(٢٣٦٥). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١٩/١٥) : ((قال العلماء : أولاد العَلاَّت _ بفتح العَين المهملة وتشديد اللام _ هم الأخوة لأب من أمهات شتى ، وأما الأخوة من الأبوين ، فيقال لهم أولاد الأعيان)) اهـ. وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٩) : ((والعَلاَّت _ بفتح المهملة _ الضرائر، وأصله أنَّ مَن تَزَوَّجَ امرأة ثُمَّ تزوج أخرى كأنه عَلَّ منها، والعَلَلُ الشُّرب بعد الشرب. وأولاد العَلاَّت الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى... ومعنى الحديث أن أصل دِينهم واحد، وهو التوحيد،وإن اختلفت فروع الشرائع)).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٧١) : ((﴿ ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذينَ لا يَعْلَمُون ﴾ آراءَ الجهَّال التابعة للشَّهوات ، وهُم رُؤساء قُرَيش ، قالوا له : ارْجِعْ إلى دِين آبائك)) اهـ .

والشَّريعةُ هي ما شَرَعه اللهُ لعباده مِن الدِّين .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ١٤٤) : ((الشريعة لُغةً مَوْرِد المياه ، وهي في الدِّين مِن ذلك، لأنَّ الناس يَرِدُون الدِّينَ ابتغاءَ رحمة الله والتَّقرب مِنه)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٦٠) : ((﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شَريعةٍ مِنَ الأمْرِ ﴾ سبب نزولها أنَّ رُؤساء قُرَيش دَعَوا رسولَ الله ﷺ إلى مِلَّة آبائه ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . فأمَّا قَوْلُه : ﴿ على شَريعةٍ ﴾ فقال ابن قُتَيبة : أي عَلى مِلَّة ومَذهب . ومِنه يُقال : شَرَعَ فُلان في كذا إذا أَخَذَ فيه ... قال المفسِّرون : ثُمَّ جَعلناكَ بعد موسى على طريقة من الأمر ، أي مِن الدِّين ، فاتَّبِعْها . والذين لا يَعْلَمون كُفار قُرَيش)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ هُوَ الذي أرسلَ رَسُولَهُ بالْهُدى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾[التَّوبة : ٣٣] .

اللهُ أرسلَ محمدًا ﷺ بالفرائضِ والسُّننِ ودِينِ الإسلامِ ، الذي لا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَه ، لِيُعْلِيَ الإسلامَ على الأديان كُلِّها بالْحُجَجِ الدامغة، والبراهين الواضحة، والأدلة السَّاطعة ، ويَنْصُرَ الإسلامَ على سَائرِ الأديان ، رَغْمَ أُنوف المشركين الكارهين لِظُهور الحق . ويَأبى اللهُ إلا أن يُتِمَّ دِينَه ، والكاملُ لا يَصْدُرُ إلا عن الكامل. والإسلامُ ظاهرٌ لا مَحالة ، ومَنصورٌ لا رَيْب ، سَواءٌ كان المسلمون أقوياء أَم ضُعفاء ، لأنَّ الإسلامَ هُوَ الدِّين الوحيد المقبول عِندَ اللهِ. ومَن أرادَ استئصال الإسلام كَمَن يُريد إطفاءَ الشمس . وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٤٦٠): ((فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة ، والإيمان الصحيح ، والعِلْم النافع . ودِين الحق هو الأعمال الصالحة الصحيحة النَّافعة في الدنيا والآخرة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٢٧و٤٢٨):((قَوله تعالى:﴿ هُوَ الذي أرسلَ رَسُولَهُ ﴾ يَعني مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ بالْهُدى ﴾ وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه التَّوحيد ، والثاني : القُرآن ، والثالث : تِبيان الفرائض . فأمَّا ﴿ دِينِ الحقِّ ﴾ فهو الإسلام . وفي قَوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّ الهاء عائدة على رسول الله ﷺ ، فالمعنى : لِيُعَلِّمَه شرائعَ الدِّين كُلَّها، فلا يَخفَى عَلَيه مِنها شيء ، قاله ابن عباس . والثاني أنها راجعة إلى الدِّين ، ثُمَّ في معنى الكلام قَولان : أحدهما لِيُظْهِرَ هذا الدِّينَ على سائر الْمِلَل . ومتى يكون ذلك ؟ . فِيه قَولان : أحدهما عند نزول عيسى _ عليه

السلام _ فإنَّه يَتَّبعه أهلُ كُل دِين ، وتصير الْمِلَل واحدة ، فلا يَبقى أهلُ دِين إلا دَخلوا في الإسلام ، أوْ أَدُّوا الجِزيةَ، قاله أبو هُرَيرة والضَّحاك، والثاني أنَّه عِندَ خُروج المهديِّ ، قاله السُّدي . والقول الثاني أنَّ إظهارَ الدِّين إنما هُوَ بالْحُجَج الواضحة ، وإنْ لَم يَدخل الناسُ فِيه)) اهـ .

وعن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((لا يَذهبُ الليلُ والنهارُ حتى تُعْبَدَ اللاتُ والعُزَّى)) ، فقالت عائشة : فَقلتُ : يا رسول الله ، إنِّي كُنتُ أظنُّ حِينَ أَنزلَ اللهُ _ تباركَ وتعالى_:﴿ هُوَ الذي أرسلَ رَسُولَهُ بالْهُدى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون﴾ أن ذلك يَكون تَامًّا،فقال:((إنَّه سَيَكون مِن ذلك ما شاء اللهُ ، ثُمَّ يَبعثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبًا، فَيُتَوَفَّى مَن كان في قَلْبِه مِثقالُ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن خَير،فَيَبقى مَن لا خَيْرَ فِيه فَيَرْجِعُونَ إلى دِين آبائهم))[19].

والمعنى: لا يَنقطع الزمانُ ولا تأتي القِيامةُ حتَّى يَعود بَعْضُ الناسِ إلى عبادة اللاتِ والعُزَّى مِن جَديد . وهُما صَنمان مَعروفان مِن أصنام العرب في الجاهلية. وفي تفسير القرطبي (١٧/ ٨٩) : ((وكانت اللات لِثَقيف ، والعُزَّى لقُرَيْش وبني كِنانة)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥) : عَن ثَوبان قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ زَوى لِيَ الأرضَ ، فَرَأيتُ مَشارقَها ومَغاربَها ، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زَوى لي مِنها ، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْن الأحمرَ والأبيض ، وإني سألتُ ربي لأُمَّتي أن لا يُهْلِكَها بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وأن لا يُسَلِّطَ عَلَيهم عَدُوًّا مِن سِوى أنفسهم ، فَيَستبيح بَيْضَتَهُم ، وإنَّ ربي قال : يا مُحَمَّد ، إني إذا قَضَيْتُ قَضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ ، وإني أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتكَ أن لا أُهلِكَهم بِسَنة عامة ، وأن لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوى أنفسهم يَستبيح بَيضتهم، ولو اجتمعَ عَلَيهم مَن بأقطارها_أوْ قال مَن بَيْنَ أقطارها (والشَّك مِنَ الراوي) _ حتى يكون بعضُهم يُهلِك بَعضًا ، وَيَسْبي بَعْضُهم بعضًا)) .

لقد جَمَعَ اللهُ للنبيِّ ﷺ الأرضَ ، فَرأى مشارقَها ومغاربَها ، وإنَّ مُلْكَ الأُمَّة الإسلامية سَيَمْتَدُّ على هذه المساحة الهائلة ، ويُسيطِر المسلمون على العراق والشام . والمعنى العام : إنَّ اللهَ سَيَفتح للمسلمين الأرضَ ، ويَنتشر الإسلام في كُل مكان .

وقد حَفِظَ اللهُ تعالى هذه الأُمَّة مِنَ القَحْطِ العام الْمُهْلِك، وحَمَاها مِن أعدائها، فلا يَقْدِرُون عَلى استئصالها (استباحة بَيضتها)، حتى لَوْ اجتمعوا عَلَيها جَميعًا . لكنَّ أفرادَ الأُمَّة الإسلامية سَيَتقاتلون فِيما بَيْنَهم ، ويُهْلِك بعضُهم بَعضًا ، ويَسبي بعضُهم بَعضًا .

(١٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٤٩٤) برقم (٨٣٨١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ١٣) : ((أمَّا " زَوى " فمعناه جَمَعَ ، وهذا الحديث فيه مُعجِزات ظاهرة ، وقد وَقعت كُلُّها بحمد اللهِ كما أخبرَ به ﷺ . قال العلماء : المراد بالكَنْزَيْن الذهب [الأحمر] والفضة [الأبيض] ، والمراد كَنْزي كِسْرى وقَيْصَر مَلِكَي العراق والشام . فيه إشارة إلى أنَّ مُلْكَ هذه الأُمَّة يكون مُعظم امتداده في جِهتي المشرق والمغرب ، وهكذا وَقَعَ، وأمَّا في جِهتي الجنوب والشمال فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب)) اهـ .

وعن تميمٍ الدَّاريِّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ مَبْلَغَ الليلِ والنهارِ ، ولا يَترك اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ ، إلا أدخله هذا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزيزٍ ، أوْ بِذُلِّ ذَليلٍ))[20].

سَيَنتشر مُلْكُ الإسلامِ في أنحاءِ العالَم. وسَوْفَ يُدْخِلُ اللهُ الإسلامَ في كُلِّ البُيوت في الحواضرِ والبوادي . وبَيْتُ الْمَدَرِ (الطين اليابس) يَدُلُّ على الأماكن الحضرية . وبَيْتُ الوَبَر يَدُل على الصحاري والبَوادي. يَعُزُّهُم اللهُ بالإسلام فَيَجعلهم مِن أهْلِه، أو يُذِلُّهُم بالكُفر فَيُؤدُّون الجِزيةَ.

والإسلامُ هُوَ الدِّينُ الأسرعُ انتشارًا على كوكب الأرض، رَغْمَ الهجمات ضِدَّه ، والتَّضييق عَلَيه، والعمليات المنهجية لِتَشويه صُورته المشرقة ، ورغم ضَعف المسلمين . وهذه مُعجِزة إلهية بِحَدِّ ذاتها تَستحق التَّأمل . فالمسلمون أُمَّةٌ ضَعيفة لا وَزْنَ لهم على الساحة العالمية ، ومَعَ هذا ، فالإسلامُ يَنتشرُ في أنحاء العالَم بِسُرعة فائقة . فما هِيَ القُوَّة التي تَقف وَراءَه وتَنشره في العالَم ؟ .

إنَّ الإسلامَ دِينٌ مُتماسِك ، وعوامل قُوَّته كامنة فِيه . وهو دِينُ اللهِ الذي لا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَه . وقَد تَكَفَّلَ اللهُ بِحِفْظه ونَشْره ، سَواءٌ كان المسلمون أقوياء أَم ضُعَفاء . وقُوَّةُ الإسلامِ تتجلى في عَقيدة التَّوحيد الموافِقة للفِطْرة الإنسانية السَّليمة ، والأدلةِ النَّقليةِ ، والْحُجَجِ العقلية .

وفي مسند أحمد (٤/ ٢٥٧) أنَّ النبيَّ ﷺ قال لِعَدِيِّ بن حاتم:((أَسْلِمْ تَسْلَمْ ــ ثلاثًا ــ)) ، قال: قُلتُ : إنِّي عَلى دِين . قال : ((أنا أعْلَمُ بِدِينك مِنك)) ، فَقلتُ : أنتَ أعلمُ بِدِيني مِنِّي ؟ ، قال : ((نعم ، ألستُ مِنَ الرَّكُوسِيَّة وأنتَ تأكلُ مِرْباعَ قَومك ؟)) ، قُلتُ : بلى . قال : ((فإنَّ هذا لا يَحِلُّ لَكَ في دِينك)) ، قال : فَلَم يَعْدُ أن قالها ، فَتَواضعتُ لها . فقال : ((أمَا إنِّي أعلمُ ما الذي يَمنعك من الإسلام ، تَقول : إنَّما اتَّبعه ضَعَفَةُ الناس وَمَن لا قُوَّة له ، وَقَد رَمَتْهُم العربُ . أتعرِفُ الحِيرةَ ؟)) ، قُلتُ : لَم أَرَهَا وَقَد سَمعتُ بِها . قال : ((فوالذي نفْسي بِيَده ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ

(٢٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٤٧٧) برقم (٨٣٢٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا الأمرَ حتى تَخرجَ الظعينةُ مِنَ الحِيرة ، حتى تَطوفَ بالبَيت في غَير جِوار أحَد، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنوزَ كِسْرى بن هُرْمُز))، قال: قُلتُ: كِسْرى بن هُرْمُز ؟.قال: ((نعم، كِسْرى بن هُرْمُز ، وَلَيُبْذَلَنَّ المالُ حتى لا يَقبله أحدٌ)). قال عَدِيُّ بن حاتم: فهذه الظعينةُ تَخرج مِنَ الحِيرة ، فَتَطوف بالبَيت في غَير جِوار ، ولقد كُنتُ فِيمَن فَتَحَ كُنوزَ كِسْرى بن هُرْمُز ، والذي نفْسي بيده لَتَكُونَنَّ الثالثة ، لأنَّ رسول الله ﷺ قد قالها .

عَدِيُّ بن حاتم كان مِن أشراف قَومه وزُعمائهم ، فوالدُه حاتم الطائي الذي يُضْرَب بِه الْمَثَلُ في الكَرَم . وقد جاءَ النبيَّ ﷺ لِيَعْرِفَ أمرَ هذا الرَّجل الذي ظَهر ويَقول إنَّه رسول الله . وقد عَرَضَ النبيُّ ﷺ عَلَيه الإسلامَ . فقال إنَّه على دِين ، يَعني أنَّه ليس وثنِيًّا عابدًا للأصنام مِثْل العرب . وقد انبهرَ ودُهِشَ حِينَ أعْلَمَه النبيُّ ﷺ أنَّه يَعرِف دِينَه أكثرَ مِنهُ . والرَّكُوسِيَّةُ قَوْمٌ لهم دِين بين النصارى والصَّابئين ، ويُقال لهم : نصارى . والمِرْباعُ ما يَأخذه الرئيس وَهُوَ رُبع المغنَم ، وهو مُحرَّم في الرَّكوسية . وقد خَجِلَ عَدِيُّ بن حاتم مِن نَفْسِه ، وأُصيب بالإحراج ، حِينَ أعْلَمَه النبيُّ ﷺ أنَّه يَأكل مالاً مُحَرَّمًا حَسَبَ دِينه ، وهذا يَعني أنَّه غَير مُلتزِم بتعاليم دِينه (الرَّكوسية) . وقَد أخبرَه النبيُّ ﷺ بما يَمنعه مِن دُخول الإسلام ، وهذا أمرٌ داخليٌّ بَيْنَ عَدِيٍّ بن حاتم ونَفْسِه ، وهو أنَّ الضُّعفاء يَتَّبعون الإسلامَ ، فهو دِين الضُّعفاء والفقراء والعبيد ، وقَد أعلنت العربُ الحربَ عَلَيهم ، ولا طاقة لهم بهذه الحرب . هكذا كان تفكير عَدِيٍّ بن حاتم . وقد أرادَ النبيُّ ﷺ أن يُبْرِزَ قُوَّةَ الإسلامِ على المدى البَعيد . فأخبرَه أنَّ المرأةَ (الظعينة) سَتَخرج مِنَ الحِيرة (مَدينة كان يَسكنها الملِكُ النُّعمان بن المنذِر، وَهِيَ قريبة مِنَ الكُوفة بالعراق) حتى تَطوف بالكَعبة في مَكَّة المكرَّمة ، وَهِيَ تَأمَن على نَفْسِها وعِرْضِها ومالها ولا تَطْلُب حِمايةَ أحدٍ ، وسَوْفَ تُفتَح كُنوز كِسْرى ، يَعني تُفتَح بلاد فارس . وقد أصابَ عَدِيَّ بن حاتم الذُّهولُ والانبهار ، لأنَّ الفُرْسَ كانوا قُوَّةً عالميةً . وَسَوْفَ يَفيضُ المالُ ويُبذَل حتى لا يَقبله أحد . وقد حَدثت اثنتان ، وَبَقِيَت واحدة .

وهذا الحديثُ مِن أعلام النُّبُوَّة ، لأنَّه يَشتمل على الإخبار بالغَيْبِ . وما قاله النبيُّ ﷺ حَق ، والواقعُ يُصدِّقه . وعلى الإنسانِ أن يتحلى بِبُعْدِ النَّظَرِ ، لأنَّ العِبرةَ بالخواتيم ، ومَن يَضحك أخيرًا يَضحك كَثيرًا . والضُّعفاءُ صاروا أقوياء ، وفَتَحوا العالَمَ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن أسلمَ فأُولئكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾[الجن : ١٤] .

فَمَن استسلمَ للهِ ، وخضع لِحُكمه ، وأذعنَ لأمره ، والتزمَ بطاعته ، وابتعدَ عن معصيته ، فأولئك قصدوا طريقَ الحق والهداية ، وطلبوا لأنفسهم السعادةَ والنجاة والنعيم . والرَّشَد هو الحق

والصواب . ولا شَكَّ أن اعتناق الإسلام يدل على بُعد نظر ، وقلب مُنَوَّر ، وبصيرة ثاقبة ، وعزيمة واضحة ، وذكاء عظيم ، لأن اعتناق الإسلام يعني نَيْل رِضا الله والفَوز بالنعيم الأبديِّ (الجنة) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٩) : ((تَوَخَّوْا رَشَدًا عظيمًا يُبلِّغهم إلى دار الثواب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أُمِروا إلا لِيَعْبُدوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ حُنفاءَ ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمة ﴾[البَيِّنة : ٥] .

وما أمرَ اللهُ أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) في التَّوراة والإنجيل ، إلا أن يَعبدوا اللهَ وَحْدَه لا شريك له . يُخْلِصُون له الطاعة بلا شِرك ولا نفاق ولا رِياء . وهذا دليل على وجوب النِّية في العبادات ، لأن الإخلاص مِن عَمل القلب ، والإخلاص يعني طلب رضا الله وَحْدَه بلا شريك .

ولكنهم خالفوا الأمرَ الإلهيَّ ، فَحَرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ ، وأشركوا بالله تعالى . فقد اعتبرَ اليهودُ عُزَيْرًا ابن الله، واعتبرَ النصارى عيسى ابن الله. وجَحَدَ أهلُ الكتابِ نُبُوَّةَ محمد ﷺ، وعَبدوا أحبارَهم ورُهبانهم. كما قالَ الله عنهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا من دُونِ اللهِ ﴾ [التَّوبة: ٣١] . أي إنهم أطاعوهم كما يُطاع الرَّبُّ تعالى ، فأَحَلُّوا لهم الحرام ، وحرَّموا عليهم الحلال. وعن عَدِيِّ بنِ حاتِم قال : أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ مِن ذَهَب ، فقال : ((يا عَدِيُّ ، اطْرَحْ عَنكَ هذا الوَثَنَ)) ، وسَمِعْتُه يَقرأ في سُورة براءة : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا من دُونِ اللهِ ﴾ ، قال : ((أمَا إنهم لَم يَكونوا يَعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحَلُّوا لهم شيئًا اسْتَحَلُّوه ، وإذا حَرَّموا عَليهم شيئًا حَرَّموه))[21].وقال القرطبي في تفسيره(٢٠/١٣٤):((قوله تعالى:﴿ وما أُمِروا ﴾ أي : وما أُمِرَ هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿ إلا لِيَعْبُدوا اللهَ ﴾ ، أي : لِيُوَحِّدُوه. واللام في ﴿ لِيَعْبُدوا ﴾ بمعنى (أن))) اهـ . ﴿ حُنفاءَ ﴾. مائلين عن الشِّرك إلى التَّوحيد. والمعنى: مائلين عَن الأديان كُلِّها إلى دِين الإسلام، ثابتين عليه ، مؤمنين بجميع الأنبياء . والحنيفيةُ السَّمحة هي دِين النبيِّ إبراهيم ﷺ ، وكذلك دِين النبيِّ محمد ﷺ . ﴿ ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ ﴾ . وأُمِرُوا بأن يُؤدُّوا الصلاةَ المكتوبة بأركانها وآدابها في أوقاتها على أحسن وجه، وهي أشرف عبادات البدن، ويُحْسِنُوا إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين، أي: يُعْطُوا الزكاةَ لِمُستحقيها عِند وُجوبها ، وهي أشرف العبادات المالية. وتَمَّ تخصيص الصلاة والزكاة بالذِّكر

---

(٢١) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٧٨) برقم (٣٠٩٥)، والبيهقي في سننه الكبرى(١٠/ ١١٦) برقم (٢٠١٣٧) ، والطبراني (١٧/ ٩٢) برقم (٢١٨) .

لشرفهما العظيم، وكَوْنهما مِن أركان الدِّين. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٧٣): ((قِيل: إن أُريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب مِن الصلاة والزكاة ، فالأمر ظاهر ، وإن أُريد ما في شريعتنا ، فمعنى أمرهم بهما في الكتابين ، أمرهم باتِّباع شريعتنا ، وهُما مِن جُملة ما وقع الأمر بِه فيها)) اهـ .

﴿ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمة ﴾ . وذلك المذكور مِن العبادة والإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو الدِّين المستقيم العادل ، لا لَبْس فيه ولا انحراف . فلماذا يَرفضونه وهو الحق ؟ . ينبغي أن يَدخلوا في هذا الدِّين الكامل ، فهو وَحْدَه الدِّين الحق المقبول عِند الله تعالى .

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ وذَلِكَ ﴾ تَحمل معنى البُعد ، للدَّلالة على عُلُوِّ الرُّتبة ، وشرف المكانة .

وفي زاد المسير (٩/ ١٩٩) : ((وذلك الذي أُمِرُوا به هو دِين القَيِّمة . قال الزَّجاج: أي دِين الأُمَّة القَيِّمة بالحق . ويكون المعنى : ذلك الدِّين دِين المِلَّة المستقيمة)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٩٥) : ((﴿ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمة ﴾ أي : المِلَّة القائمة العادلة، أو الأُمَّة المستقيمة المعتدلة . وقد استدل كثير من الأئمة كالزُّهري والشافعي بهذه الآية الكريمة أن الأعمال داخلة في الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ وما أُمِروا إلا لِيَعْبُدوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ حُنفاءَ ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمة ﴾)) اهـ .

وعن مُغيرة قال : سَمعتُ الفُضَيْلَ بن عمرو يقول لأبي وائلٍ شَقِيقِ بن سَلَمَة : أسمعتَ عبد الله ابن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ يقول: ((مَن قال: إنِّي مُؤمِنٌ، فَلْيَقُلْ : إنِّي في الجنة)) . فقال : نعم. فقال المغيرة: وقرأ أبو وائل شَقِيق بن سَلَمة: ﴿ لم يَكُن الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ ﴾ ، حتى بَلَغ:﴿ وما أُمِروا إلا لِيَعْبُدوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ إلى قَوله تعالى: ﴿ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمة ﴾. قَرَأَها ، وهو يُعرِّض بالْمُرْجِئة [22].

معنى كلام ابن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ أن الإنسان لا يَجزم أنه مُؤمِن ، لأنه لا يَعْرِف على ماذا سَيَموت، ولا يَعْرِف هل مصيره إلى الجنة أو النار. إذ إن العِبرة بالخواتيم. ومَن قال إنه مُؤمِن، فهو يُؤكِّد أنه مِن أهل الجنة . وهذا الأمر مَرفوض . فاللهُ وَحْدَه هو الذي يُقرِّر مَن هُم أهل الجنة ومَن هُم أهل النار. والإنسانُ لا يَعرف نهايته ، ولا يَعرف مصيرَه بعد الموت . وبالتالي ، لا يَستطيع أن يَحكم أنه مِن أهل الجنة . عليه أن يُحْسِنَ الظنَّ باللهِ تعالى ، ويَسأله حُسْنَ الخاتمة .

---

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٧٩) برقم (٣٩٦٣) وصَحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

والْمُرْجِئَةُ فِرقة كلامية تنتسب إلى الإسلام ، خَالَفوا رأي الخوارج ، وكذلك أهل السُّنة في مرتكب الكبيرة وغيرها من الأمور العَقَدية ، وقالوا إن كُل مَن آمنَ بِوَحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر، لأن الحكم عليه مَوكول إلى الله تعالى وَحْدَه يوم القيامة، مهما كانت الذنوب التي اقترفها . والعقيدة الأساسية عندهم عدم تكفير أي إنسان ، أيًّا كان، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين، مهما ارتكب من المعاصي، تاركين الفَصْل في أمره إلى الله تعالى وَحْدَه، لذلك كانوا يقولون: لا تَضُرُّ مَعَ الإيمان معصية، كما لا يَنفع مع الكُفر طاعة . وقد نشأ هذا المذهب في أعقاب الخلاف السياسي الذي نشب بعد مقتل عثمان بن عفان وعليٍّ بن أبي طالب، وعنه نشأ الاختلاف في مرتكب الكبيرة . فالخوارجُ يقولون بِكُفره ، والمرجئة يقولون بِرَد أمره إلى الله تعالى إذا كان مؤمنًا ، وعلى هذا لا يمكن الحكم على أحد من المسلمين بالكُفر مهما عَظُمَ ذَنْبُه ، لأن الذنب مهما عَظُمَ لا يمكن أن يذهب بالإيمان ، والأمر يُرْجَأ إلى يوم القيامة ، وإلى الله مرجعه .

ويذهب الخوارج، خِلافًا للمُرْجِئة ، إلى أن مرتكب الكبيرة خالد في النار . في حين وقف أكثر الفقهاء مِن أهل السُّنة والمحدِّثين موقفًا وَسَطًا، فَرَأَوا أن قول المرجئة بعفو الله عن المعاصي قد يُطْمِع الفُسَّاق، فَقَرَّروا أن مُرتكب الذَّنْب يُعذَّب بمقدار ما أذنبَ، ولا يَخْلُد في النار ، وقد يعفو اللهُ عنه. ويعرف هؤلاء بِمُرْجِئة السُّنة، ومِنهم: حماد بن أبي سليمان،وأبي يُوسُف،ومحمد بن الحسن الشَّيباني، وعبد المجيد بن أبي رَوَّاد ، وآخرون .

إنَّ الْمُرْجِئة قد فَصَلوا الإيمانَ عن العمل ، وحصروا معنى الإيمان في الاعتقاد القلبي والنُّطق بالشهادتين لا غَيْر . وهذه عقيدة باطلة . والقُرآن رَبط بشكل واضح في كثير من الآيات بين الإيمان والعمل الصالح ، مِمَّا يدل على اقترانهما وعدم الفصل بينهما . كما أن الآية : ﴿ وما أُمِروا إلا لِيَعْبُدوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ حُنفاءَ ويُقيموا الصلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكاةَ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمة ﴾ دليل على أن الأعمال داخلة في الإيمان، والآيةُ تردُّ بشكل واضح على الْمُرْجِئة، وتهدم عقيدتهم الباطلة. ولا يمكن بحال مِن الأحوال فصل الإيمان عن العمل،لأن العمل يُصدِّق الإيمان.والإيمانُ هو مَا استقرَّ في القلب ، وصدَّقه اللسانُ ، وظَهَرَ على الجوارح. ((وصَحَّ عن الحسن أنه قال: " لَيس الإيمان بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكنْ ما وَقَرَ في القلب، وصَدَّقه العملُ " . ونَحْوُه عن سُفيان الثَّوري))[23].

---

(٢٣) حاشية ابن القَيِّم على سُنن أبي داود (١٢/ ٢٩٤) . وانظر تخريج الظِّلال (١/ ٤٠٧) .

والإيمانُ لَيس بالتَّشهِّي أو بالتَّزيُّن بالقَوْل.والإيمانُ لَيس قَوْلاً باللسان فقط، بل هو قَوْل وعمل. قَوْلٌ باللسان، ومعرفة في القلب. مما يَنعكس على أعمالِ الجوارحِ، ويَظهر في السُّلوك الاجتماعي .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٠٨): ((وقال الحسن البصري : إنَّ قَوْمًا ألهتهم الأماني، حتى خرجوا من الدنيا ، وما لهم حسنة ، ويقول أحدُهم : إني أُحْسِنُ الظَّن بِرَبِّي ، وكَذَبَ ، ولو أَحْسَنَ الظنَّ لأحسنَ العملَ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ورَأيتَ الناسَ يَدخلونَ في دِينِ اللهِ أفواجًا ﴾ [النَّصْر : ٢] .

كانَ العربُ ينتظرون فتح مكة ، وانتصار النبيِّ ﷺ على قُرَيش ، حتى يَدخلوا في الإسلام . والعربُ في الجاهلية كانت تنظر إلى مكة نظرة تقديس واحترام ، وتعتبر حُكَّامَها سادة العرب . فَلَمَّا فُتِحَت مكة،تَشَجَّع الناس على الدُّخول في الإسلام.وقد دَخلوا في دِين الله جَماعاتٍ جماعات.

والمعنى : ورَأيتَ يا محمد العربَ وغَيْرَهم يَدخلون في الإسلام جماعاتٍ جماعاتٍ بلا حرب ولا قتال ، بعد أن كانوا يَدخلون واحدًا واحدًا ، واثنين اثنين . فصارت القبائل بأكملها تَدخل في الإسلام ، وذلك بعد فتح مكة (٨ هـ) ، حيث جاءه العرب مِن أقطار الأرض طائعين مُختارين.

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٥٦٤):((وكانت العرب تَلَوَّم بإسلامهم الفَتْحَ _ أي تنتظر فتح مكة حتى يُسلموا _ فيقولون : اتركوه وقَوْمَه ، فإنه إن ظَهَرَ عَلَيهم فهو نبيٌّ صادق ، فلمَّا كانت وَقعة أهل الفَتْح ، بَادَرَ كُل قَوم بإسلامهم)) .

وهذا يدل على أنَّ الناس يَنظرون إلى المنتصِر الغالب نظرة تبجيل واحترام وتقدير،وتَخضع له. ولا تَعبأ بالمهزوم الخاسر حتى لَوْ كان على الحق والهدى.وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٢٨) : ((فإنَّ أحياء العرب كانت تَتَلَوَّم بإسلامها فَتْحَ مكة. يقولون : إن ظَهَرَ على قَومه فهو نبيٌّ ، فلمَّا فَتح اللهُ عليه مكة دَخلوا في دِين الله أفواجًا، فلم تمضِ سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانًا ، ولَم يبق في سائر قبائل العرب إلا مُظْهِر للإسلام ، ولله الحمد والمِنَّة))[24].

---

(٢٤) في زاد المسير (٩/ ٢٥٦) : ((قال الحسن : لَمَّا فَتح رسولُ الله ﷺ مكة ، قالت العرب: أمَّا إذْ ظَفَرَ محمد بأهل الحَرَم ، وقد أجارهم اللهُ مِن أصحاب الفِيل،فليس لكم به يَدَان،فدخلوا في دِين الله أفواجًا . قال أبو عُبَيدة : والأفواج جماعات في تفرقة)) .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((لَيَخْرُجُنَّ مِنهُ أفواجًا كما دخلوا فِيه أفواجًا))[25].

هذا الحديث مِن أعلام النُّبُوَّة، وهو دليل على صِدق النبيِّ ﷺ، فقد أخبرَ بأمرٍ غَيْبِيٍّ ، وكانَ كما أخبرَ ، حيث ارتدَّ العربُ عن الإسلام بعد وفاة النبيِّ ﷺ ، وعادت الجزيرة العربية إلى كُفرها.

وفي نهاية الزمان يَضْعُف تَمَسُّك المسلمين بِدِينهم ، ويكون المتمسِّكون به كالغرباء أو القابضين على الجمر لِشِدَّة الفِتَن التي يُلاقونها ، وتَصُدُّهم عَن دِينهم . وأيضًا ، مِن علامات قُرب الساعة : رفع العِلْم وظهور الجهل .

ثانيًا : لا إكراه

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾[البقرة : ٢٥٦][26].

---

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٥٤١) برقم (٨٥١٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٥) : ((في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها أنَّ المرأة من نساء الأنصار كانت في الجاهلية إذا لَم يَعِشْ لها ولد، تحلف لَئِن عاش لها ولد لَتُهَوِّدَنَّهُ، فلمَّا أُجْلِيَت يهود بني النضير ، كان فيهم ناس من أبناء الأنصار، فقال الأنصار: يا رسول الله ، أبناؤنا. فَنَزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس. وقال الشَّعبي: قالت الأنصار : واللهِ لَنُكْرِهَنَّ أولادَنا على الإسلام ، فإنَّا إنما جعلناهم في دِين اليهود إذْ لَم نعلم دِينًا أفضل مِنه ، فَنَزلت هذه الآية . والثاني أنَّ رَجلاً مِن الأنصار تَنَصَّر له ولدان قبل أن يُبعَث النبيُّ ﷺ، ثُمَّ قَدِما المدينة،فلزمهما أبوهما وقال: واللهِ لا أدعكما حتى تُسْلِما ، فَأَبَيَا ، فاختصموا إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول مسروق . والثالث أنَّ ناسًا كانوا مُسْتَرْضَعِين في اليهود، فلمَّا أجلى رسولُ الله ﷺ بني النضير، قالوا : واللهِ لَنَذْهَبَنَّ معهم، وَلَنَدِينَنَّ بِدِينهم ، فمنعهم أهلوهم ، وأرادوا إكراههم على الإسلام ، فَنَزلت هذه الآية . والرابع أنَّ رَجلاً مِن الأنصار كان له غلام اسمه صَبِيح كان يُكْرِهه على الإسلام ، فَنَزلت هذه الآية ، والقَولان عَن مجاهد . فصل : واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذا القَدْر مِن الآية ، فذهب قوم إلى أنه مُحْكَم ، وأنه مِن العام المخصوص، فإنه خص منه أهل الكتاب بأنهم لا يُكْرَهون على الإسلام،بَل يُخَيَّرون بينه وبين أداء الجِزية، وهذا معنى ما رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقال ابن الأنباري: معنى الآية ليس الدِّين ما تدين بِه في الظاهر على جِهة الإكراه عَلَيه ، وَلَم يشهد به القلب، وتنطوي عليه الضمائر، إنما الدِّين هو الْمُنْعَقِد بالقلب. وذهب قَوم إلى أنه منسوخ، وقالوا : هذه الآية نزلت قبل الأمر بالقتال. فعلى قولهم يكون مَنسوخًا بآية السَّيف.وهذا مذهب الضَّحاك والسُّدي وابن زيد.والدِّين هاهنا أُرِيد به الإسلام)).

إنَّ فلسفة الإكراه تقوم على إلزام الغَيْر بِقَولٍ أو فِعل تحت الضغط والتهديد ، بدون قناعة مِنه أو وازع ذاتي أو دافع داخلي . لذلك ، فإنَّ الإكراه يتعارض مع الدِّين جُملةً وتفصيلاً . ولا يمكن للمُكْرَه أن يشعر بالسعادة الروحية أو الطمأنينة في حياته . بل إنه يغرق في الشُّكوك والشُّبهات والخوف مِن كُل ما حَوْلَه . وهذا يؤدي إلى صناعة إنسان مضطرب نفسيًّا، يكون مِعْوَلَ هدم في المجتمع البشري . والإكراهُ يجعل من القلب مكانًا مُلَوَّثًا لا تَنبت فيه بذرة الإيمان والاستقرارُ الروحي . ولا يخفى أن العقيدة الصحيحة مكانها القلب الصافي ، وإذا كان القلبُ غير نظيفٍ ، فلا يمكن أن يحتضن الإيمانَ والسَّكينة .

والشخصُ الْمُكْرَه هو عِبء على الإسلام ، يُسِيء إلى صورة الدِّين ، و يُؤثِّر فِيه سَلْبًا ، ولا يُمكن اعتباره ناصرًا للإسلام أو مُؤيِّدًا له . وبالتالي ، فالشَّخصُ الْمُكْرَه هو تهديد لوجود الإسلام وجَوهره وصُورته ومنهجه ، وخطر حقيقي على المسلمين. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤١٦): ((أي: لا تُكْرِهُوا أحَدًا على الدخول في دِين الإسلام، فإنه بَيِّن واضح جَلِيٌّ دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يُكْرَه أحد على الدخول فيه ، بَل مَن هَداه الله للإسلام ، وشَرَحَ صَدْرَه ، ونَوَّرَ بصيرته ، دَخل فيه على بَيِّنة ، وَمَن أعمى اللهُ قَلْبَه ، وخَتَمَ على سَمْعه وبَصَره ، فإنه لا يُفيده الدخول في الدِّين مُكْرَهًا مَقْسُورًا)) اهـ . وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١/ ٣٥٢): عن سعيد ابن جُبَير عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ . قال: ((كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد، فتحلف : لَئِن عاش لها ولد لَتُهَوِّدَنَّه . فلما أُجْلِيَت بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار، فقالت الأنصار : يا رسول الله ، أبناؤنا . فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾)) . قال سعيد بن جُبَير :فمن شاء لحق بهم ،ومن شاء دخل في الإسلام .

لَم يتم إجبارهم على اعتناق الإسلام بأيَّة وسيلة ، وإنما تُرِكوا كي يُقرِّروا مصيرَهم بأيديهم اعتمادًا على فكرهم الذاتي . وفي هذا احترامٌ لحرية الاعتقاد ورفع من شأن العقل البشريِّ الذي منحه اللهُ تعالى حقَّ تقرير المصير مَعَ تحمل مسؤولية الاختيار كاملةً . ولو كان الإسلامُ دِينًا عنيفًا لوضع السَّيفَ على الرِّقاب لإدخالهم في الدِّين رغم أنوفهم ، وهو يملك النفوذ والقوة والسَّطوة . ومع هذا لَم يُفرَض الإسلامُ عليهم . وكُل فرد اختار طريقَه وفق مشيئته الخاصة دون إكراه ولا إجبار ولا تهديد ولا ضغط. وفي الحديث إشارةٌ إلى الجهل المتجذِّر في بعض النساء. فالمرأةُ من الأنصار التي لا يعيش لها ولد اتَّخذت من الانحراف العَقديِّ سُلوكًا اجتماعِيًّا على أمل حماية أبنائها من الموت. فصار النَّذْرُ بتهويد ابنها إن عاش هو الطريق الأمثل بالنسبة إِلَيها . وهذا يدل

على نظرة الاحترام والتقدير التي يحملها عَرَبُ الجاهلية لأهل الكتاب. فالعربُ الوثنيون جُهَّال وبِدائِيُّون لا كِتاب لهم ، أمَّا اليهودُ فَهُم أهل كِتاب (التَّوراة) ، ولَدَيهم عُلماء وأحبار ومُفكِّرون . لذلكَ كان العربُ يَشعرون بنقصهم ودُونِيَّتهم أمام اليهود.وبدلاً مِن شُكر الله تعالى عَلى حياة ابنها، فإنه تُهَوِّده . وهذا الضلالُ الْمُتفشِّي في البيئة الاجتماعية يعكس مدى التخلف العَقدي ، والانهيار الاجتماعي المنتشر على نطاق واسع . والمرأةُ غارقةٌ في بحر عواطفها ، فهي تريد أن يعيش أبناؤها بأي ثمن ، ومستعدة لتقديم كل شيء في سبيل هذه الأُمنية . إنها تريد أن تكون أُمًّا ، وتعيش عاطفةَ الأمومة بكل حيثياتها، ولا تبالي بالثمن الذي تُقدِّمه، حتى لو كان عقيدةً زائغة، أو انحرافًا أخلاقيًّا .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جميعًا أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ [يُونُس : ٩٩] .

اللهُ قادرٌ على جعل العباد كُلِّهم مؤمنين على شريعة واحدة ، وعلى قلب رَجل واحد دون وجود للأديان أو المذاهب . لَكِنَّه ـ سُبحانَه ـ شَرَّف العقلَ البشري بأن منحه حريةَ الاختيار وَفْقَ ما يَراه مُنَاسِبًا دُون ضغط ولا تهديد ولا إكراه. إذ إن العقيدة والإكراه ضِدَّان لا يجتمعان في قلب إنسان. فالاختيارُ الذاتي دون ضغوط ـ وَحْدَه ـ القادر على جعل العقيدة تستقر في القلب . والإكراه على الإيمان لا يَصِحُّ ، وليس له معنى ، لأن الإيمان عمل القلب . ولا سُلطة لمخلوق على قلب مخلوق آخَر . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦) : ((وهو دليل على القَدَرِيَّة في أنه تعالى لَم يَشَأ إيمانَهم أجمعين، وأن مَن شاء إيمانه يُؤمِن لا مَحالة . والتَّقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر)) اهـ . وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ يا محمد لأجبرَ الناس ـ بلا استثناء ـ على الإيمان، فَصَدَّقوا بالإسلام وبرسالتك. واجتمعوا على الإيمان لا يَختلفون فيه . لكنَّ اللهَ لا يَشاء إجبارَ الناس على الإيمان ، لأنه مُخالِف للحِكمة الإلهية التي هي جوهر التشريع . والآيةُ تُشير إلى أنَّ مَن شَاءَ اللهُ إيمانَه يُؤمِن لا مَحالة .

إنَّ اللهَ حكيمٌ في أفعاله ، له حِكمة فيما يَفعله تعالى ، عَلِمَها مَن عَلِمَها ، وجَهِلَها مَن جَهِلَها . وقد جعل اللهُ العبدَ حُرًّا في اختياره ، ووفق اختياره يَتقرَّر مصيرُه . والعبدُ يختار الإيمانَ أو الكفرَ بكل حرية ودُون ضغط ولا إكراه ، وهو يَتحمَّل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة.واللهُ بنى الأمرَ على الاختيار لا الإجبار. ولو كانَ هناك إجبار على الإيمان، فلا معنى لإرسال الأنبياء ، ولا معنى للحساب والجنة والنار . وجاءت﴿ جميعًا﴾ بعد ﴿ كُلُّهُم ﴾ للتأكيد .

والآيةُ تدل على كمال قُدرة الله ، ونفاذ مشيئته في كُل شَيء ، ولا شَيء يقف أمام إرادته .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٦١٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه : ﴿ وَلَوْ شاءَ ﴾ يا محمد ﴿ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جميعًا ﴾ بِكَ ، فَصَدَّقُوك أنَّكَ لِي رسول، وأنَّ ما جئتهم به وما تدعوهم إليه مِن تَوحيد الله وإخلاص العُبودة له حق ، ولكن لا يشاء ذلك، لأنه قد سَبَقَ مِن قضاء الله قبل أن يَبعثك رسولاً أنه لا يُؤمِن بِكَ ، ولا يَتَّبعك فَيُصَدِّقك بما بَعثك اللهُ بِه مِن الهدى والنُّور إلا مَن سَبَقَتْ له السعادة في الكتاب الأول ، قَبل أن تُخْلَق السموات والأرض وما فيهنَّ . وهؤلاء الذين عَجِبوا مِن صِدق إيحائنا إلَيك هذا القرآن لِتُنذِر بِه مَن أَمَرْتُكَ بإنذاره ، مِمَّن قد سَبَقَ له عِندي أنهم لا يؤمنون بِكَ في الكتاب السابق)) اهـ .

﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ .

أفأنتَ يا محمد تُجْبِر الناسَ على الإيمان ، وتضطرهم إلَيه ، وتُلْزِمهم بِه . هذه لَيست وظيفتك ولا مهمتك، ولَسْتَ مُطَالَبًا بذلك ، وَلَسْتَ مسؤولاً عن ذلك . لَيْسَ لَكَ يا محمد مشيئة الجبر والإكراه في الإيمان، فمصيرُ العبد يتحدَّد وفق اختياره الشخصي بدون جَبر ولا إكراه. واللهُ وَحْدَه يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء ، لِعِلْمه وحِكمته وعَدْله .

والاستفهام في ﴿ أفأنتَ ﴾ بمعنى النَّفْي . أي : لا تَمْلِك يا محمد أن تُجْبِرهم على الإيمان ، ولا تَقْدِر أن تُكْرِههم على التَّصديق ، لأن التصديق عمل القلب ، والقلبُ بيد الله وَحْدَه .

وقال النَّسفي في تفسيره (٢/ ١٤٣) : ((لأن الإيمان فِعل العبد ، وفِعله ما يَحصل بِقُدرته ، ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار . وتأويله عِندنا أنَّ للهِ تعالى لُطْفًا ، لَوْ أعطاهم لآمَنوا كُلُّهم عَن اختيار ، ولكن عَلِمَ مِنهم أنهم لا يُؤمنون ، فلم يُعْطِهم ذلك ، وهو التوفيق)) اهـ .

وقد أخطأ مَن اعتبرَ الآية منسوخة بآية السَّيف ، فلا يوجد نَسْخ ، لأن الإكراه على الإيمان غَير معقول ولا منطقي ، لأن الإيمان عمل القلب. والإجبارُ يُؤثِّر على الجوارح الظاهرية ، ولا يُؤثِّر على القلب ، لأنه داخلي ، لا سُلطة لمخلوق عَلَيه .

والآيةُ تخفيف عن النبيِّ ﷺ وتَسليةٌ له، لأنه ﷺ كان شديد الحرص على إيمان الناس ، وإنقاذهم من عذاب النار ، وإرشادهم إلى رِضا اللهِ ونعيمِ الجنة . فأخبره الله أنه لا يُؤمِن إلا مَن قد سَبَقَ له من الله السعادة ، ولا يَضِل إلا مَن سَبَقَ له الشَّقاوة . وكُل شيء خاضع للمَشيئة الإلهية .

والآيةُ أيضًا مديحٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ ، لأنها تُبَيِّن أنَّ النبيَّ ﷺ يَقوم بواجب الدَّعوة والتَّبليغ على أكْمَل وَجْه بلا مَلَل ولا كَسَل ولا تقصير ، ويَبذل قُصارى جُهده لهداية الناس إلى الإيمان ، وهو

مُتأثِّر بِشِدَّة وحزين لعدم إيمان قَومه. وقد خَفَّفَ اللهُ عنه، وأعْلَمَه أن لا أحد يُؤمِن إلا بإذن الله ، لأن الإيمان شَرَف، واللهُ لا يُعطي هذا الشرفَ إلا لأشخاص مُحَدَّدين ، وغالبية الناس لا يستحقون هذا الشرف،لذلكَ تَرَكَهم اللهُ ضائعين في متاهات الجهل والضلال والكُفر. وَمَن شَاءَ اللهُ أن يَمنحه شَرَفَ الإيمان سَيُؤمِن لا مَحالة، فلا شيء يقف أمام مشيئة الله تعالى، ومشيئته نافذة في كُل شيء.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦) : ((﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ ﴾ بما لَم يشأ منهم ﴿ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ . وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء ، وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار ، وتقديم الضمير على الفِعل للدَّلالة على أن خِلاف المشيئة مُستحيل ، فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلاً عَن الحث والتحريض عليه)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٨٦) : ((ولَمَّا كان النبيُّ ﷺ حريصًا على إيمان جميع الناس ، أخبرَه اللهُ بأن ذلك لا يكون، لأن مشيئته الجارية على الحِكمة البالغة والمصالح الراجحة، لا تقتضي ذلك، فقال : ﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ ، فإن ذلك ليس في وُسعك يا محمد، ولا داخل تحت قُدرتك . وفي هذا تَسلية له ﷺ ، ودَفْع لِمَا يَضيق به صدرُه مِن طلب صلاح الكُل الذي لو كان،لَم يكن صلاحًا مُحَقَّقًا،بل يكون إلى الفساد أقرب،ولله الحِكمة البالغة)) اهـ.

إنَّ اللهَ قَد أكرمَ الإنسانَ وَكَرَّمه،بأن مَنحه حق الاختيار بين الإيمان والكُفر،بلا جَبْر ولا إكراه، ولا يمكن للنبيِّ ﷺ إكراه الناس على الدخول في الإسلام وإجبارهم على اعتناقه ، لأن الإنسان حُر في اختياره ، كما أن العقيدة مبنية على حرية الاختيار ، والقبولِ الطَّوْعي ، والتصديقِ القلبي بدون ضغط. ولا يمكن للجوارح أن تعمل بأريحية ذاتية إلا إذا كان عملُها نابعًا من القلب ، وهذا القلب لا سُلطة بشرية لأحد عَلَيه،فهو لا يخضع للسَّيف ولا التهديد ولا الوعيد. فالقلوبُ بيد الله وَحْدَه. وكلُّ تعاليم الإسلام وعباداته تعتمد على النِّية التي محلها القلب ، والنيةُ الصادقة في العبادة والإكراهُ نقيضان لا يجتمعان ، وبالتالي فالذين يعتنقون الإسلام فكرًا وتطبيقًا لا يمكن أن يكونوا مُكْرَهين. فلا سُلطة لمخلوق على قلب مخلوق. قد يتمُّ إجبار الإنسان على القَول والفِعل ، ولكن لا يمكن إجبار قلبه ، لأنه شيء داخلي . وهذا يَدحض الشُّبهاتِ التي يُثيرها المغرِضون حول انتشار الإسلام ، وينسبون إليه الدموية والوحشية، وأنه يجبر الناسَ على اعتناقه بالسَّيف . وهذا كلام بلا دليل ، ولا تقوم له قائمة لأنه لا يستند على أدلة معرفية وحُجج منطقية . فالذي يَتَّهم الإسلامَ بأنه دموي انتشر بالسَّيف عليه أن يُقدِّم البراهين ، بأن يُحْضِر نصوصًا شرعية تحض على قتل رافضي اعتناق الإسلام ، أو يُثبِت أن الناس اعتنقوه مُكْرَهين ، أو أن الإسلام اعتمد

منهجية " إمَّا تُؤمِن أو تُقتَل " ، أو يُحضِر أدلةً تاريخية تُفيد بقتل الناس لأنهم لَم يختاروا الإسلام دِينًا . كما أن الذين يَتَّهمون الإسلامَ بالدموية وإجبار الناس على اعتناقه عليهم أن يُفسِّروا وجود الأقليات الدينية في العالَم الإسلاميِّ ، مع أن المسلمين كانوا قادرين على قتلهم أو فرض الإسلام عليهم بكل سهولة ، حينما كانت الحضارة الإسلامية تبسط سيطرتها على كوكبنا، وكانت الأمة الإسلامية أقوى الأمم، ولا أحد يجرؤ على تَحَدِّيها أو مُعارضتها .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن شاءَ فَلْيُؤمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكَهْف : ٢٩] .

لقد أظهرَ اللهُ الحقَّ ، ووضَّح الهدى ومعالِمَ الرَّشاد ، وقَدَّمَ البراهين والأدلة ، وأقامَ الْحُجَّةَ على الناس ، وقطع أعذارَهم . فَإن شئتم فآمِنوا ، وإن شِئتم فاكفروا . وهذا تَخيير معناه التهديد.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٣٤) : ((قوله تعالى: ﴿ فَمَن شاءَ فَلْيُؤمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ . فيه ثلاثة أقوال : أحدها فَمَن شاء اللهُ فليؤمن ، رُوِيَ عن ابن عباس . والثاني أنه وعيد وإنذار وليس بأمر ، قاله الزَّجاج . والثالث أن معناه لا تَنفعون اللهَ بايمانكم ولا تَضُرُّونه بِكُفركم ، قاله الماوردي . وقال بعضُهم : هذا إظهار للغِنى ، لا إطلاق في الكفر)) اهـ .

الآيةُ لا تَحْمِل ترخيصًا ولا تَخييرًا بين الإيمان والكفر ، وإنما تهديد ووعيد . فَمَن آمنَ فهو حُر في اختياره ، وله الجنة والنعيم . وَمَن كَفر فهو حُر في اختياره ، وله النار والعذاب .

والجديرُ بالذِّكر أن الله تعالى لا يَنفعه إيمان المؤمن وطاعته ، ولا يَضُرُّه كُفر الكافر ومعصيته . ونتيجةُ عمل العبد تَعود على العبد إيجابًا أو سَلْبًا . واللهُ غنيٌّ عَن إيمان المؤمن ولا يَحتاجه ، ولا يَتأثَّر بِكُفر الكافر ولا يُبالي بِه. والعبدُ يختار الإيمان أو الكُفر بكل حُرِّية، وهو يَتحمَّل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة . وهذا منتهى الحرية الممنوحة للإنسان الذي بإمكانه أن يختار الدرب الذي يريده، ويتحمل مسؤولية اختياره أمام الله تعالى وأمام الناس . كما يدل على تكريم الله تعالى لبني البشر، حيث أعطاهم حرية تقرير مصيرهم وَفْقَ ما يَرَوْنَه بلا جَبْر ولا إكراه ، وعليهم أن يتحمَّلوا تَبِعَاتِ اختيارهم . والجزاءُ حَسَب العمل . فَمَن وَجَدَ خَيْرًا فليشكر اللهَ ، وَمَن وَجَدَ غَيْرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١٢): ((أي: جاء الحق، وزاحت العِلَل ، فلم يَبْقَ إلا اختياركم لأنفسكم ما شِئتم مِن الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك . وجِيء بلفظ الأمر والتخيير ، لأنه لَمَّا مَكَّنَ مِن اختيار أيَّهما شاء ، فكأنه مُخَيَّر مأمور بأن يَتَخَيَّر ما شَاء مِن النَّجْدَيْن _ يعني طريق الخير والنجاة أو طريق الشر والهلاك _)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُم أُمَّةً واحدةً ﴾[الشُّورى : ٨] .

لَوْ أرادَ اللهُ أن يَجمع الناسَ على دِينٍ واحدٍ بلا اختلافات ولا مذاهب لَفَعَلَ . لَوْ أرادَ اللهُ لَجَعَلَهم أهلَ دِينٍ واحدٍ،مُهتدين أو ضَالِّين.ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الإلهية الأزلية.

لَوْ أرادَ اللهُ لَجَمَعَ الناسَ على الإيمان بإجبارهم عَلَيه . وَلَوْ أرادَ اللهُ لَجَمَعَ الناسَ على الكُفر ، وذلك بعدم إرسال الأنبياء ، وبالتالي يظل الناس ضائعين في متاهة الجهل والضلال والكُفر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣٦) : ((﴿ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُم أُمَّةً واحدةً ﴾ أي : إمَّا على الهداية ، أو على الضَّلالة ، ولكنه تعالى فَاوَتَ بينهم ، فهدى مَن يَشاء إلى الحق ، وأضَلَّ مَن يَشاء عنه ، وله الحِكمة والْحُجَّة البالغة)) اهـ .

ثالِثًا : دَعوة العِباد إلى الإسلام

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ هذه أُمَّتُكم أُمَّةً واحدةً وأنا رَبُّكم فاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء : ٩٢] .

الدِّينُ واحدٌ لا لَبْسَ فيه ولا ضَعْف ، ولا يَقْبَل التعدد ، وهو الإسلام . ويجب على الناس أن يَعتنقوه حصريًّا ، فهو وَحْدَه طريق الحق والنجاة . وَمِلَّةُ الإسلام هي مِلَّتكم التي يجب أن تكونوا عليها ، وتَتمسَّكوا بِها بكل قوة وإصرار ، ولا تنحرفوا عنها . وهي مِلَّة واحدة غير مُختلفة ولا مُتفرِّقة. وانتصاب ﴿ أُمَّةً واحدةً ﴾ على الحال ، أي : مُتَّفقة غير مُختلفة . وهذا الأمرُ مقطوعٌ بِه .

واللهُ هو رَبُّكم الذي رَبَّاكم بِنِعَمه الكثيرة ، تَفَضُّلاً مِنه ورحمةً بكم ، فاعبدوه واحمدوه واشكُروه ، ولا تعبدوا غَيْرَه . فاللهُ وَحْدَه هو الْمُستحِق للعبادة . والأنبياءُ جميعًا جاؤوا برسالة التَّوحيد ، وكُلهم مجتمعون على عبادة الله وَحْدَه . واللهُ إلهٌ واحد لا شريك له ، يجب إفراده بالأُلوهية والرُّبوبية، وإخلاص العبادة له ، بلا شِرك أكبر ولا شِرك أصغر (رِياء) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٨٦): ((قال ابن عباس: المراد بالأُمَّة هاهُنا الدِّين . وفي الْمُشار إِلَيهم قَولان : أحدهما أنهم أُمَّة محمد ﷺ، وهو معنى قول مقاتل.والثاني أنهم الأنبياء عليهم السلام ، قاله أبو سليمان الدمشقي)) اهـ .

إنَّ أُمَّتكم أمة واحدة ، والمعنى : دِينكم دِين واحد . وكُل مَن كانَ على دِينٍ واحدٍ مُخَالِفًا لسائر الأديان ، فهو أُمَّة لِوَحْدِه . إنَّه أُمَّة قائمة بذاتها . والآيةُ تُبْطِلُ كُلَّ الأديان إلا الإسلام . واللهُ رَبُّكم أيها الناس ، فاعبدوه بِدُون الآلهة والأوثان . اعبدوا اللهَ رَبَّكُم ، وَحْدَه لا شريك له .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٨) : ((مِلَّتكم مِلَّة واحدة ، أي مُتَّحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع ، أو جماعتكم جماعة واحدة مُتَّفقة على الإيمان ، والتَّوحيد في العبادة)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٥٣):((وأصل الأُمَّة الجماعة التي هي على مَقْصِد واحد، فَجُعِلَت الشريعة أُمَّة واحدة ، لاجتماع أهلها على مَقْصِد واحد . ونَصْب ﴿ أُمَّةً ﴾ على القَطْع)) اهـ .

ليس غريبًا أن تكون الأُمَّة مُتَّحدة على مبدأ واحد ، فكلمتها واحدة لا تتشتَّت ، كما أن مواقفها ثابتة على الحق لا تتزعزع، لأنها تنطلق من عقيدة سماوية واحدة لا شك فيها ولا شُبهة. فالدِّينُ هو الذي وَحَّد الأُمَّة ، وصنع تاريخَها الناصع . وإذا زال الدِّينُ فإن الأُمَّة ستتفرَّق شِيَعًا وأحزابًا ، كلُّ حزبٍ بما لَدَيهم فرحون . فالدِّينُ هو الْمُوحِّد الحقيقي للأُمَّة ، وبدونه ستفقد الأُمَّةُ معنى وجودها وتماسكها .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٩٦) : ((قَوْله تعالى : ﴿ إنَّ هذه أُمَّتُكم أُمَّةً واحدةً ﴾ . لَمَّا ذَكَرَ الأنبياءَ ، قال : هؤلاء كُلُّهم مجتمعون على التَّوحيد . فالأُمَّة هنا بمعنى الدِّين الذي هو الإسلام، قاله ابن عباس ومجاهد وغَيرهما. فأمَّا المشركون فقد خَالَفوا الكُل . ﴿ وأنا رَبُّكم ﴾ أي : إلَهُكُم وَحْدي ﴿ فاعْبُدُونِ ﴾ أي : أَفْرِدُوني بالعبادة . وقرأ عيسى بن عمرو وابن أبي إسحاق : " إن هذه أمتكم أمةٌ واحدةٌ " . ورواها حسين عن أبي عمرو . الباقون : ﴿ أُمَّةً واحدةً ﴾ بالنَّصْب على القَطْع بمجيء النَّكِرة بعد تمام الكلام ، قاله الفَرَّاء . الزَّجاج : انتصب ﴿ أُمَّةً ﴾ على الحال ، أي: في حال اجتماعها على الحق. أي: هذه أُمَّتكم ما دامت أُمَّة واحدة ، واجتمعتم على التَّوحيد، فإذا تَفَرَّقْتُم وخَالَفْتُم ، فليسَ مَن خَالَفَ الحقَّ مِن جُملة أهل الدِّين الحق ، وهو كما تقول : فُلان صديقي عفيفًا ، أي ما دام عفيفًا ، فإذا خالف العِفَّةَ لَم يكن صديقي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلِ اللهَ أعبدُ مُخلِصًا لَهُ دِيني ﴾[الزُّمَر : ١٤] .

قُل يا محمد للمشركين : اللهَ أعبدُ ، وَحْدَه لا شريك له ، مُخْلِصًا له عِبادتي وطاعتي . أُفْرِدُه بالعبادة ، ولا أجعل له شريكًا ، وأُنَزِّهُه عن الأنداد ، ودِيني يَكون خَالِصًا للهِ تعالى ، بلا شِرْك أكبر (عبادة غَير اللهِ) ولا شِرْك أصغر (رِياء) .

والآيةُ تُفيد الحصرَ والاختصاصَ ، والمعنى : أعبدُ اللهَ ، ولا أعبدُ أحَدًا معه . وهذا الحصرُ في غاية الأهمية ، لأنَّ المشركين كانوا يُؤمنون بوجود اللهِ ، ويَعبدونه ، ولكنَّهم كانوا يَعبدون أيضًا الأصنامَ كَي تُقرِّبهم إلى اللهِ _ وَفْقَ عقيدتهم _ . لقد كانوا يُؤمنون باللهِ بِوَصْفه المعبود الأعلى ، ويُؤمنون بالأصنام ويَعبدونها باعتبارها آلهة أرضية تُقرِّبهم إلى اللهِ الإله الأعظم والأعلى . لذلك ، لا

يَكفي أن يَعبد الإنسانُ اللهَ . يجب أن يَعبد اللهَ وَحْدَه لا شريك له . وهذه هي العقيدة السليمة، وغَيرها عبارة عن عقائد شِرْكية مُنحرِفة.والإنسانُ أمام خيارَيْن لا ثالث لهما: التَّوحيد أو الشِّرْك. ولا تُوجد منطقة وُسطى بينهما، ولا يُوجد حَل وَسَط.ومَن كان عبدًا للهِ وَحْدَه فقد نجا . والإنسانُ لا يَكون إلا عَبْدًا ذليلاً خاضعًا. إمَّا أن يَكون عبدًا للهِ وَحْدَه، أو عبدًا لِغَيره. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٦١) : ((أُمِرَ بالإخبار عن إخلاصه، وأن يَكون مُخْلِصًا له دِينَه، بعد الأمر بالإخبار عَن كَوْنه مأمورًا بالعبادة والإخلاص،خَائفًا عن الْمُخالَفة مِن العقاب، قَطْعًا لأطماعهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَدْ أفلحَ مَن تزَكَّى ﴾[الأعلى : ١٤] .

قد فازَ مَن اعتنقَ الإسلامَ ، وطَهَّرَ نَفْسَه مِن الشِّرك والذنوبِ والمعاصي والآثام ، وتَطَهَّرَ مِن الأخلاق الذميمة ، وتَحَلَّى بالأخلاقِ الحميدة ، وأخلصَ عَمَلَه لله وَفْقَ سُنَّة النبيِّ ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٩١) : ((قَوْله تعالى : ﴿ قَدْ أفلحَ ﴾ . قال الزَّجاج : أي صَادَفَ البقاء الدائم والفَوز ﴿ مَن تَزَكَّى ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها مَن تَطَهَّرَ مِن الشِّرك بالإيمان ، قاله ابن عباس. والثاني مَن أعطى صدقة الفِطْر ، قاله أبو سعيد الْخُدري وعطاء وقتادة . والثالث مَن كان عمله زَاكِيًا، قاله الحسن والربيع. والرابع أنها زَكَوَات الأموال كُلِّها ، قاله أبو الأحوص . والخامس تَكَثَّرَ بتقوى الله . ومعنى الزَّاكي النامي الكثير ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

رَابِعًا : حقيقة الإسلام

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذْ قالَ لهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أسلمتُ لِرَبِّ العالَمِين ﴾[البقرة : ١٣١] .

لقد دعا اللهُ إبراهيمَ إلى الإسلام ، وقالَ له : أَخْلِصْ لِيَ العبادةَ ، واستسلِمْ لأمري وحُكمي ، واخضعْ لي بالطاعة ، وفَوِّضْ أُمورَكَ إِلَيَّ ، فقال إبراهيم : استسلمتُ وخضعتُ بقلبي ولساني وجوارحي للهِ سَيِّدِ كُلِّ شَيء ومَالِكِهِ ومُدَبِّره . لقد أمَرَ اللهُ إبراهيمَ بإخلاص دِينه لله بالتَّوحيد ، والاستسلام والخضوع والخشوع والانقياد، فأجابَ إلى ذلك شَرْعًا وقَدَرًا . واصطفاه اللهُ وشَرَّفَه ، وخَلَّدَ ذِكْرَه العَطِر في الدُّنيا ، ومَنَحَه المجدَ والنعيمَ الأبديَّ في الآخرة .

وهذا لا يَعني أنَّ إبراهيم كان كافرًا ثُمَّ أمرَه اللهُ بالإسلام ، وإنما يَعني : استقِمْ على الإسلام واثبُت عليه ، لأن إبراهيم كان مُسْلِمًا . وكُل الأنبياء مُسْلِمُون قبل البعثة وبعد البعثة ، وهُم مَعصومون مِن الكفر والشِّرك مُنذ ولادتهم حتى وفاتهم . فالكفرُ والشِّرك يهدمان معنى الرِّسالة ، ويُشكِّكان الناسَ في النبيِّ والرسول، لذلك عَصَمَ اللهُ أنبياءه مِن كُل شَيء يَقْدَح في نُبُوَّتهم ، ولا فَرْقَ في هذا بين مرحلة قبل البِعثة وبعد البِعثة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٤٨) : ((قَوْله تعالى : ﴿ إِذْ قالَ لهُ رَبُّهُ أسْلِمْ ﴾ ، وذلك حِين وقوع الاصطفاء . قال ابن عباس : لَمَّا رأى الكوكبَ والقمرَ والشمسَ ، قال له رَبُّه : " أَسْلِمْ " أي أَخْلِصْ))اهـ. وفي تفسير البغوي (١/ ١٥٣):((﴿ قالَ أسلمتُ لِرَبِّ العالَمِين ﴾ أي: فَوَّضْتُ.قال ابن عباس:وقد حَقَّقَ ذلك حيث لَم يَستعِن بأحد من الملائكة حين أُلْقِيَ في النار)).

والإسلامُ _ لُغةً _ هو الاستسلام والخضوع والانقياد . وكُل مؤمن مُسلِم ، لأن المؤمن بالله مُستسلم لله ، ومُنقاد لأمره ، وخاضع لِحُكمه . وليس كُل مسلم مُؤمِنًا ، فقد يَكون أسلمَ خَوْفًا مِن القتل ، أو بَحْثًا عن مصلحة شخصية . وهذا إسلام ، وليس إيمانًا .

وقد ذهبت القَدَرِيَّةُ والخوارج إلى أن الإسلام هو الإيمان،فكل مُؤمن مسلم،وكُل مسلم مؤمن، مُستدلين بِقَوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عِمران : ١٩] . والإسلامُ في الآية هو الدِّين، والمقصود بِه معناه الاصطلاحي.وهناك فرق بين الإسلام والإيمان،لِقَوله تعالى: ﴿ قالت الأعرابُ آمنَّا قُل لم تؤمنوا ولكن قولوا أَسْلَمْنا ولَمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾[الْحُجُرات: ١٤]. والآية تُشير بوضوح إلى أن ليس كُل مسلم مؤمنًا .

إنَّ الآية تدل على وجود فرق بين الإسلام والإيمان . وهذه مسألة مشهورة عند أهل العِلم . فهؤلاء الأعراب الذين ادَّعوا الإيمانَ لَم يصلوا إلى هذه الرُّتبة ، فجاء الأمر الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ بأن يقول لهم : ﴿ لم تؤمنوا ﴾، أي لَم تصلوا إلى مَنْزلة المؤمنين، ولَم تنالوا رُتبةَ الإيمان . ﴿ ولكن قولوا أَسْلَمْنا ﴾ . ولَمَّا تدخل شعائر الإيمان وحقيقته في قلوبكم . فالإسلام قَوْلٌ ، وهو الاستسلام والخضوع للهِ تعالى، والنُّطق بالشَّهادَتَيْن. أمَّا الإيمان فَقَوْلٌ وعمل. والإيمان تصديقٌ معَ ثقة وطمأنينة قلب . وهذا يشير إلى أن الإيمان مكانة مُميَّزة أخص من الإسلام .

وهؤلاء الأعراب مُسْلِمون لا مُنافقون . ولكنَّ الإيمان لَم يَدخل في قلوبهم . ولو كانوا منافقين لَفَضَحَهم اللهُ تعالى، وكشفَ باطلَهم.كما أن اللهَ قالَ: ﴿ قالت الأعرابُ ﴾ وَلَم يَقُلْ: قال المنافقون. واللهُ تعالى أمَرَهم أن يقولوا : ﴿ أَسْلَمْنا ﴾ ، والمنافق لا يُقال له ذلك .

إنهم أسْلَموا خَوْفًا من القتل والسَّبْي ، ولم يُصدِّقوا تصديقًا سليمًا ، فقلوبُهم خاليةٌ من العقيدة الصحيحة ، ونِيَّاتهم غير خالصة . لقد اسْتَسْلَموا حِفاظًا على أرواحهم ومُمتلكاتهم، ثم زَعَموا أنهم مؤمنون.أي إنهم وَضَعوا أنفسَهم في رُتبة الإيمان التي هي أعلى مِن مستواهم الحقيقي (الإسلام). فأدَّبهم اللهُ تعالى ، وأعْلَمَهم بضرورة معرفة مستواهم الحقيقي ، ولا يحق لهم أن يَرفَعوا أنفسَهم مِن تِلقاء أنفسهم ، فاللهُ تعالى هو الخافضُ الرَّافعُ .

وفي حديث جبريل الشهير في صحيح مسلم (١/ ٣٦) : أنَّ النبيَّ ﷺ عرَّف الإسلامَ بقوله : ((أن تشهدَ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وتقيمَ الصلاة ، وتُؤتِيَ الزكاة ، وتصومَ رمضان ، وتحجَّ البَيتَ إن استطعت إليه سبيلاً)) ، ثم انتقل إلى تعريف الإيمان فقال ﷺ : ((أن تؤمنَ باللهِ وملائكتِه وكُتبِه ورُسلِه واليومِ الآخِرِ وتُؤمنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) ، ثم انتقل إلى تعريف الإحسان فقال ﷺ : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لَم تكن تراه فإنه يراك)) .

أي إنَّ النبيَّ ﷺ انتقل من العام (الإسلام) إلى الخاص (الإيمان) إلى الأخص (الإحسان) ، وفرَّق بين هذه المفاهيم الثلاثة في التعريف. مما يدل_ بلا رَيْب_ على اختلاف معنى الإسلام عن معنى الإيمان . إذن ، هناك فرق جوهري بين الإسلام (الظاهر) والإيمان (الباطن) . وكُل مَن نطق الشهادتين يُحكَم عليه بالإسلام ، ويصبح معصومَ الدم ، بغض النظر عَن صِدْقه أو كذبه ، وتُجرَى عليه الأحكام حَسَبَ ظاهره ، وحِسابه عند الله تعالى الذي يَعْلَم الظاهرَ والباطنَ . أمَّا الإيمان فباطنٌ مكانه القلب لا سبيل لمخلوق للاطلاع عليه لأنه مخفي عن عيون الناس ، ولا يَعْلَم حقيقتَه إلا اللهُ تعالى الذي يُحاسِب الناسَ ، ليس بالنظر إلى صُوَرِهم ، بل إلى قلوبهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ووصَّى بِها إبراهيمُ بَنِيهِ ويَعقوبُ يا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصطفى لكمُ الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

عَهِدَ إبراهيم إلى أبنائه وأمرهم بالإسلام دِين الحنيفية وصَفوة الأديان ، والثبات عَلَيه ، وهو توحيد الله ، وإخلاص العبادة له ، وخُضوع القلب والجوارح له .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٦١٠) : ((﴿ ووصَّى بِها ﴾ ووَصَّى بهذه الكلمة . عنى بِـ الكلمة قوله : ﴿ أسلمتُ لِرَبِّ العالَمِين ﴾ وهي الإسلام الذي أَمَرَ بِه نَبِيَّه ﷺ)) اهـ .

وأيضًا عَهِدَ يعقوب (إسرائيل) إلى أبنائه وأمرهم بذلك. لقد وصَّاهم إبراهيم بالإسلام، ووصَّى يَعقوبُ بِمِثْل ذلك. وهذا يدل على أن دِين الأنبياء واحد، وهو الإسلام . كما يدل على أهمية النصيحة ، وأمرِ الأبناء بالخير والتقوى والصلاح ، والحرص على إرشاد الناس عامَّة ، وإرشاد أفراد العائلة خاصَّة . إنَّ اللهَ اختارَ لكم الإسلامَ دِينًا ، فاثبُتوا عليه ، وتَمَسَّكوا بِه طيلة حياتكم ، واحرصوا أن تموتوا عَلَيه ، فالإنسانُ لا يَعرف موعد وفاته ، فينبغي أن يكون مُسْتَعِدًّا على الدَّوام ، وجاهزًا في كُل لحظة . والإنسانُ غالبًا يموت على ما عاش عليه ، ويُبْعَث على ما مات عليه . وإذا كانت نِيَّةُ العبد صالحةً، فإن الله يُعينه، ويُوفِّقه إلى الحق، ويُثَبِّته على الهدى في حياته وعند وفاته. والموتُ على الإسلام يعني الخلود في الجنة ، والموتُ عَلى غَيْرِ الإسلام يعني الخلود في النار .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٦١٠) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بِقَولِه : ﴿ إنَّ اللهَ اصطفى لكمُ الدِّينَ ﴾ . إنَّ الله اختار لكم هذا الدِّين الذي عَهِدَ إليكم فيه واجتباه لكم . وإنما أدخل الألف واللام في الدِّين ، لأن الذين خُوطِبوا مِن ولدهما وبَنيهما بذلك كانوا قد عَرَفوه بوصيتهما إيَّاهم به وعهدهما إليهم فيه ، ثُمَّ قالا لهم بعد أن عَرَّفاهموه : إنَّ الله اصطفى لكم هذا الدِّين الذي قد عَهِدَ إليكم فيه ، فاتقوا الله أن تموتوا إلا وأنتم عليه)) اهـ .

﴿ فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ إيجاز بليغ . والمعنى : الزموا الإسلامَ ، ولا تُفارقوه حتى تَموتوا . ولا تَموتوا إلا وأنتم مُخْلِصُون للهِ ، مُحسِنون بِه الظنَّ ، خاضعون لأمره وحُكمه .

والآيةُ تنهى عن ترك الإسلام ، كما أنها تَحمل عِظَةً وتذكيرًا بالموت ، وكُل إنسان مُوقِن بالموت ، ولا يُمكن أن يَجحد وُجودَه ، والإنسانُ لا يعرف مَتى يَأتيه الموت . وهنا تظهر أهمية الاستعداد الكامل بلا انقطاع ، وأخذ الحِيطة والحذَر بلا غفلة ولا كسل .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠٤) : ((... ﴿ فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ ظاهره النَّهْي عن الموت على خِلاف حال الإسلام . والمقصود هو النَّهْيُ عَن أن يكونوا على خِلاف تلك الحال إذا ماتوا ، والأمرُ بالثبات على الإسلام كَقَولك : لا تُصَلِّ إلا وأنتَ خاشع . تغيير العبارة للدَّلالة على أنَّ موتهم لا على الإسلام موت لا خَير فيه ، وأنَّ مِن حَقِّه أن لا يَحِلَّ بهم)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٥): عن جابر قال : سَمعتُ النبيَّ ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول : ((لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُم إلا وهو يُحْسِنُ باللهِ الظنَّ)) .

هذا تحذيرٌ مِن اليأس مِن رحمة اللهِ . فالمسلمُ مُتفائل ، يَرجو اللهَ ، ويَخاف ذُنوبَه . ويجب عليه أن يلتزم الرجاء عند نهاية حياته ، فاللهُ أكرم الأكرمين .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٠٩):((قال العلماء: هذا تحذير من القُنوط ، وحَث على الرَّجاء عند الخاتمة)).

وعند لحظة الوفاة ، لا معنى للخوف ، لأن الأمور حُسِمَتْ ، وعلى وشك النهاية . والخوفُ في تلك اللحظة قد يُؤدِّي إلى اليأس والقُنوط . فلا بُدَّ مِن حُسن الظن ، وتعظيم الرجاء . وبعبارة أخرى ، يُغلِّب رجاءه على خَوفه .

وعن أبي هريرة_رضي الله عنه_أنَّ رسول اللهﷺقال:((قال الله: أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بِي))[27].

---

(٢٧) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٧٢٥) برقم (٧٠٦٦)،ومسلم(٤/ ٢٠٩٩) برقم (٢٦٧٥) .

يجب على الإنسان أن يثق بالله، ويُحسِن الظنَّ به، فَيَرجوَ عَفْوَ خالقه ، ويخشى ذُنوبَه ، ويكون مُتأكِّدًا مِن سَعَة رحمة الله تعالى ، وأنها أكبر مِن كُل الآثام ، وأن اللهَ لا تَنفعه الطاعة ، ولا تضرُّه المعصية . وحُسنُ الظنِّ بالله مرتبط بالعمل الصالح وفِعل الطاعات ، واجتناب المعاصي . ومَن حَسُنَ عملُه حَسُنَ ظَنُّهُ بالله، ومَن ساءَ عملُه سَاء ظَنُّه بالله.وحُسن الظن بالله إنما هو الرجاء وتأميل العَفْو، وتَوَقُّع المغفرة والتَّوبة ، والنَّجاة من النار ، والفَوز بالجنة .

وسَعَةُ الرحمة الإلهية لا تعني أن يُسْرِف الإنسانُ في المعاصي ، أو يَستهين بالذنوب والآثام ، فعلى المرء أن يتذكر عَظَمَةَ الخالق تعالى ، لا حجم المعصية أو أثرها. وإذا وقع الإنسانُ في الإثم فإن باب التوبة مفتوح ، ولا يوجد عاقلٌ يَقْنَط من رحمة الله تعالى .

وكما قال البوصيري :

يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إنَّ الكبائرَ في الغُفرانِ كاللمَمِ
لعلَّ رَحمةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهـــا ... تأتي على حَسَبِ العِصيانِ في القَسْمِ

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢) : ((قال القاضي : قِيل : معناه بالغفران له إذا استغفر ، والقبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب الكفاية ، وقيل : المراد به الرجاء وتأميل العفو ، وهذا أصح)) اهـ . وفي نفس المرجع (١٧/ ٢٠٩) : ((قال العلماء : معنى حُسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه. قالوا : وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سَواء . وقِيل : يكون الخوف أرجح ، فإذا دَنَت أمارات الموت غلب الرجاء أو مَحْضه ، لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح ، والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال . وقد تَعَذَّرَ ذلك أو مُعظمه في هذا الحال ، فاستحب إحسان الظن المتضمِّن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له)) اهـ .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٢٣٤) : ((قال الربيع وغَيره عن الشافعي، قال : دَخَلْنا على أبي نُوَاس في اليوم الذي مات فيه، وهو يَجود بِنَفْسه ، فَقُلْنا: ما أعددتَ لهذا اليوم ؟، فأنشأ يقول : تعاظمني ذَنْبي فلمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كان عَفْوُكَ أعْظَمَا ... وما زِلْتَ ذا عَفْوٍ عَن الذَّنْبِ لَم تَزَلْ ... تَجودُ وتعفو مِنَّةً وتَكَرُّما)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا كُونوا هُودًا أو نصارى تَهْتَدوا قُل بَل مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ [البقرة : ١٣٥].

قالت اليهودُ للنبيِّ ﷺ وأصحابِه المؤمنين : كُونوا هُودًا تهتدوا . وقالت النصارى لهم : كُونوا نصارى تهتدوا . لقد دعا أهلُ الكتابِ النبيَّ ﷺ وأصحابَه المؤمنين إلى اعتناق اليهودية أو النصرانية. وكُل طائفة اعتبرت أنها على الهدى،وأنَّ مَن اعتنقَ ديانتها فقد أصابَ طريق الحق، وأفلحَ في دنُياه، وفازَ بآخرته . وهذا يُشير إلى غُرور أهل الكتاب ، واستكبارهم ، وعِنادهم ، وجَهلهم . فقد بَنَوا أفكارَهم وعقائدهم على أُسس واهية ، وتلاعبوا بنصوصهم الدينية في التَّوراة والإنجيل وحرَّفوها . واليهود يعتقدون أنهم على الحق، وأن اليهودية هي الطريق المستقيم ، وكذلك النصارى يعتقدون أنهم على الحق ، وأن النصرانية هي الطريق المستقيم ، فَمَن وافقهم اهتدى ، وَمَن خالفهم ضَل . وهذه دعوى عريضة لا دليل عليها ولا بُرهان، وهي بمثابة أضغاث أحلام ، وكلٌّ يُغنِّي على لَيْلاه .

والدَّعاوى إنْ لَم تُقيموا عليها بَيِّناتٍ أبناؤها أدعياءُ

وقد قَدَّمَ اللهُ الْحُجَّةَ الباهرةَ الكاملةَ الْمُوجَزةَ التي تَدحض أهواءَ أهلِ الكتاب وباطلَهم ، وأرشدَ محمدًا ﷺ إلى الرد الْمُفْحِم الذي يَرُدُّ بِه على أهل الكتاب ، ويَفضح جهلهم ، ويُحطِّم غُرورَهم ، ويُزيل كَذِبَهم : ﴿ قُل بَل مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ (28).

قُل يا محمد لليهود والنصارى:بَل نَتَّبِع دِينَ إبراهيم حنيفًا مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الإسلام. ودِينُ إبراهيم هو الحنيفية القائمة على عبادة الله وَحْدَه، بلا شريك، ولا نِد، ولا صاحبة، ولا ولد. وهذا هو الدِّين الحق الذي يجب الاجتماع عليه . وبما أن اليهود والنصارى يَعتبرون أنفسهم صَفوة الله مِن خَلْقه، ويدَّعون محبةَ الله، والتزام أوامره، واجتناب نَواهيه ، وينسُبون أنفسهم إلى إبراهيم ، ويَعتبرونه أباهم، فيجب أن يتَّبعوه، ويَلتزموا بمنهجه ، ويَعتنقوا عقيدته ، ويَدينوا بِدِينه

(٢٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٠) : ((المعنى : بَل نَتَّبِع مِلَّةَ إبراهيم في حال حنيفيته . وفي الحنيف قَولان : أحدهما أنه المائل إلى العبادة . قال الزَّجاج : الحنيف في اللغة المائل إلى الشيء . أُخِذَ مِن قولهم : رَجل أَحْنَف وهو الذي تَميل قدماه كُل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها . قالت أُم الأحنف تُرقِّصه : واللهِ لَوْلا حَنَف بِرِجْله ... ودِقَّة في ساقه مِن هَزْله ... ما كان في فتيانكم مَن مِثْله . والثاني أنه المستقيم ، ومِنه قِيل للأعرج حَنيف نَظَرًا له إلى السلامة . هذا قول ابن قُتَيبة . وقد وصف المفسِّرون الحنيف بأوصاف ، فقال عطاء : هو الْمُخْلِص . وقال ابن سائب: هو الذي يَحُجُّ . وقال غيرهما : هو الذي يُوَحِّد ويَحُج ويُضحِّي ويَختِن ، ويستقبل الكعبة)) .

الذي هو دِين اللهِ الذي اختاره لعباده، إن كانوا صادقين في حُبِّهم للهِ وتعظيمهم له، واعتبار إبراهيم مرجعهم وقُدوتهم، لأن الحبَّ والتعظيمَ يستلزم الاتِّباع . وصدقَ القائل :

تَعْصِي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ   هذا لَعَمْرِي في القِياسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ   إنَّ الْمُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٦١٤) : ((احتجَّ اللهُ لِنَبِيِّه محمد ﷺ أبلغَ حُجَّة ، وأوجزها ، وأكملها،وعَلَّمها محمدًا نَبِيَّه ﷺ، فقال:يا محمد، قُل للقائلين لَكَ مِن اليهود والنصارى ولأصحابك: ﴿ كُونوا هُودًا أو نصارى تَهْتَدوا ﴾ : بل تَعَالَوْا نَتَّبِع مِلَّةَ إبراهيم التي يُجْمِع جميعُنا على الشهادة لها بأنها دِين الله، الذي ارتضاه واجتباه، وأمرَ به ، فإن دِينه كان الحنيفية المسلمة ، وندع سائر المِلَل التي نختلف فيها ، فَيُنكِرها بعضُنا ، ويُقِر بها بعضُنا ، فإن ذلك على اختلافه ، لا سبيل لنا على الاجتماع عليه ، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على مِلَّة إبراهيم)) اهـ .

والنبيُّ إبراهيم ﷺ كانَ حنيفًا،مائلاً عن كُل الأديان الباطلة إلى الإسلام ، ثابتًا عليه ، ومُتَمَسِّكًا به .يَعبد اللهَ وَحْدَه بلا شريك،بكل إخلاص واجتهاد. لقد كانَ إبراهيم يُوحِّد اللهَ، ويُخلِص له العبادةَ، ولا يَعبد الأصنامَ والأوثان ، ولَم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، بَل كانَ حنيفًا مُسْلِمًا .

وكُل الأنبياء قبل إبراهيم ﷺ كانوا حُنَفاء مُسلِمين ، ولكن تَمَّ تخصيص إبراهيم بالذِّكر والإشادة، لأنه كانَ الإمام والقائد ، والمرجعية العُليا ، والقُدوة السَّامية . كما أن إبراهيم مُعظَّم ومُعترَف به عِند جميع أتباع الدِّيانات (المسلمين واليهود والنصارى). وكُلُّهم يَعتبرون إبراهيم عظيمًا ومُقَدَّسًا ، وبذلك يكون شخصيةً دِينيةً عُظمى مُجْمَع عَلَيها ، ولا يختلف عليها اثنان. وقال الطبري في تفسيره (١/٦١٤): ((فَإِن قال قائل: أَوَمَا كان مَن كان مِن قَبْل إبراهيم ﷺ مِن الأنبياء وأتباعهم مُستقيمين على ما أُمِرُوا به مِن طاعة الله استقامة إبراهيم وأتباعه ؟ قيل : بلى. فإن قال : فكيف أُضِيف الحنيفية إلى إبراهيم وأتباعه على مِلَّته خاصة ، دُون سائر الأنبياء قَبْله وأتباعهم ؟ . قِيل : إن كُل مَن كان قبل إبراهيم مِن الأنبياء كان حنيفًا مُتَّبِعًا طاعةَ الله ، ولكن الله تعالى ذِكْرُه لَم يجعل أحَدًا مِنهم إمامًا لِمَن بعده مِن عباده إلى قيام الساعة ، كالذي فعل مِن ذلك بإبراهيم ، فجعله إمامًا فيما بَيَّنه مِن مناسك الحج والخِتان وغَير ذلك مِن شرائع الإسلام تَعَبُّدًا به أبَدًا إلى قيام الساعة ، وجعل ما سَنَّ مِن ذلك عَلَمًا مُمَيَّزًا بين مؤمني عباده وكفارهم، والمطيع مِنهم لله والعاصي.فَسُمِّيَ الحنيف مِن الناس"حنيفًا"باتِّباعه مِلَّته واستقامته على هَدْيه ومنهاجه. وسُمِّيَ الضَّال عَن مِلَّته بسائر أسماء المِلَل، فقيل: يهودي ونصراني ومجوسي وغير ذلك مِن صُنوف المِلَل)).

لقد رَدَّ اللهُ على اليهود والنصارى الذين زَعموا أنهم على طريق الحق ، وأن الهداية مقصورة عليهم ، وأنهم صَفوة الله مِن خَلقه . لقد فضحهم اللهُ ، وكشفَ انحرافَهم ، وأزالَ باطلَهم .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الآية ﴿ وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ تَحمل تعريضًا باليهود والنصارى ، وتفضح كُفْرَهم ، وتكشف باطلَهم أمام الناس ، لأن اليهود زعموا أن عُزَيْرًا ابن الله ، والنصارى زعموا أن المسيح ابن الله ، وهذا شِرْك واضح ، وأهل الكتاب مُشْرِكون . أمَّا إبراهيم ﷺ فكانَ حنيفًا مُسْلِمًا مُوَحِّدًا مُخْلِصًا ، فكيفَ يَزعم أهلُ الكتاب أنَّهم على الحق، وأن إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ؟ .

إنَّ أهل الكتاب يَزْعُمون أنهم يُحِبُّون إبراهيم ويُعظِّمونه ويتَّبعونه وهُم مُشرِكون ! . وهذا أمرٌ مُتناقض في حَد ذاته ، ويُشير إلى جهلهم وعنادهم وأهوائهم . وكلامُهم بلا منطق ولا دليل ، ويتصادم مع الحق والحقيقة ، والواقعُ يُكَذِّبه .

إن الهداية ليست مشروعًا عائليًّا أو طائفيًّا أو عِرقيًّا أو تجاريًّا احتكاريًّا . إنها مكرمة إلهية تهبط في القلوب النظيفة التي لَم تتلوَّث بشوائب الدنيا والعقائدِ الزائغة . وإذا درسنا عقائدَ اليهود والنصارى سنجدها بعيدةً عن الحق ، وتطعن في حقيقة الدِّين الإلهيِّ (الإسلام) . فهي خليطٌ غير متجانس من المعرفة والجهل، والإيمان والكفر، والحق والباطل . أمَّا الهدايةُ فهي حقيقة صافية لا مكان فيها لأية شائبة ، دينية أو اجتماعية أو سياسية أو أخلاقية ... إلخ .

وفي لُباب النقول للسُّيوطي (١/ ١٧) : ((عن ابن عباس قال : قال ابن صُوريا للنبيِّ ﷺ : ما الْهُدى إلا ما نحن عليه ، فاتَّبِعْنا يا محمد تهتدِ ، وقالت النصارى مِثْلَ ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ﴾)) اهـ .

إن اليهود والنصارى عائشون في عالَم الأوهام ، فابن صُوريا _ وهو أحد كِبار أحبار اليهود_ يفتقد إلى المنهجية العِلمية،وعاجز عن تقديم البراهين والأدلة والْحُجَج، فهو يزعم أن قومه(اليهود) على الهدى دون تقديم أدلة تدعم كلامَه ، فلم يحاول _مثلاً _ مناقشة النبيِّ ﷺ ومُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة، وإنما اكتفى بأن اليهود على الهدى بلا برهان ، وكذلك فعلت النصارى ، وهذا كلامٌ في الهواء لأنه لا يستند إلى عقلية عِلمية منهجية تحليلية ، بل يستند إلى الأهواء والأماني الكاذبة .

وهذا غير مُستغرَب ، إذ إن عقائد أهل الكتاب مبنية على الأحلام والشُّكوك والوساوس والأهواء والمصالح الشخصية ، دون وجود حصيلة عِلمية متماسكة. والأمرُ الطبيعي أن يُقدِّم المرءُ دليلاً على كلامه كي يكون موقفُه متماسكًا مُقْنِعًا للآخرين ، لكن أهل الكتاب غارقون في الأهواء

الشخصية والمصالحِ الذاتية، وهذا يجعلهم بعيدين عن الاستخدام المنهجي للعقل ، وتكوين منظومة فكرية مُتضمِّنة للأدلة والبراهين ، فعقائدُ أهل الكتاب مبنية على الظن لا اليقين، وهي عقائد واهية ضد الفِطرة، تَنْفي نَفْسَها بِنَفْسِها ، وتفتقد إلى المنطق والبُرهان . وكلامُ الليل يَمحوه النهار ، وما تأتي بِه الرياح تأخذه الزوابع .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سيقولُ السُّفهاءُ مِنَ الناسِ ما وَلاهم عَن قِبلتهم التي كانوا عَلَيها قُل للهِ المشرقُ والمغربُ يَهْدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم ﴾ [البقرة : ١٤٢] .

سَيَقول الجهال مِن الناس، وهُم اليهود والمنافقون ومُشركو العرب : أيُّ شَيء صَرَفَ المسلمين وحَوَّلهم عن قِبلتهم (بيت المقدس) التي كانوا يَستقبلونها في صلاتهم ؟ . والسِّينُ في ﴿ سيقولُ ﴾ تدل على الاستقبال مِن الإخبار بالغَيب. والقِبلة فِعلة مِن الْمُقابَلة ، لأن العبد يُقَابِل بوجهه القِبلة في صلاته ، ويتَّجه نَحْوَها . والهدف مِن سُؤالهم الاستنكاري هو تَشكيك الناس بمحمد ﷺ والطعن في رِسالته، وإثارة الشُّبهات حول عقائد المسلمين بُغية هدمها ، وصَرْفِ الناس عنها،وإخراج الناس مِن الإيمان إلى الكُفر عَن طريق إثارة البلبلة والشُّكوك والشُّبهات. والقلوبُ ضعيفة ، والشُّبهات خَطَّافة .

وهذه الآيةُ تُشير إلى صِدْقِ النبيِّ ﷺ وصِحَّةِ رِسالته ، وأنه مُؤيَّد بالوَحْي الإلهيِّ . فقد أعلمه اللهُ بكلام هؤلاء الجهال الأغبياء قبل أن يَقولوه.وهذا إخبار بالغَيب،مِمَّا يدل على صِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ وتأييده مِن السماء ، وأنه لا يأتي بشيء مِن عِنده .

وقد أرشدَ اللهُ محمدًا إلى الرد الْمُفْحِم والْحُجَّة الباهرة ، والدليل القاطع : قُل يا محمد لهؤلاء السُّفهاء أصحاب العقول الخفيفة والآراء الفاسدة والأهواء المتضاربة : إنَّ المشرق والمغرب مِلْك لله وَحْدَه ، والخلق عَبيده . وكُل الجهات خاضعة لله تعالى ، وهو مالكها ، والمسيطِر عَلَيها ، يَأمر بالتَّوَجُّه إلى الجهة التي يُريدها، ولا اعتراض على حُكم الله ولا نِقاش. واللهُ أعلمُ بالناسِ ومصالحهم مِن أنفسهم ، لأنه خالقهم الغنيُّ عنهم ، وهُم فقراء إلَيه .

والعِبرةُ لَيست بالمكان بحد ذاته . وإنما العِبرة بالتزام أمر اللهِ ، والثبات عليه . واللهُ يُرشِد مَن يَشاء ويَهديه إلى طريق الحق المستقيم الذي لا عِوَج فيه،والواضح الذي لا لَبْس فيه، وَفْقَ الحِكمة الإلهية العظيمة ، وما تَقتضيه المصلحة مِن التَّوَجُّه إلى بيت المقدس ثُمَّ إلى الكعبة .

إنَّ اللهَ جَلَّ جلالُه يَهدي مَن يشاء إلى الدِّين المستقيم، وهو الإسلام . وقد رَضِيَ هذه القِبلة لمحمد ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٥٣): ((قوله تعالى: ﴿ سيقولُ السُّفهاءُ مِنَ الناسِ ﴾ فِيهم ثلاثة أقوال : أحدها أنهم اليهود ، قاله البراء بن عازب ومجاهد وسعيد بن جُبَير . والثاني أنهم أهل مكة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث أنهم المنافقون ، ذَكَره السُّدي عن ابن مسعود وابن عباس. وقد يمكن أن يكون الكُل قالوا ذلك. والآية نزلت بعد تحويل القِبلة.والسُّفهاء الجهَلة. ﴿ ما وَلاهم ﴾ أي: صَرَفَهم عَن قِبلتهم، يريد قِبلة المقدس.واختلف العلماء في مُدة صلاة النبيِّ ﷺ إلى بيت المقدس بعد قدومه إلى المدينة على ستة أقوال : أحدها أنه ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر، قاله البراء به عازب. والثاني سبعة عشر شهرًا ،قاله ابن عباس.والثالث ثلاثة عشر شهرًا، قاله معاذ ابن جبل. والرابع تسعة أشهر أو عشرة أشهر ، قاله أنس بن مالك . والخامس ستة عشر شهرًا . والسادس ثمانية عشر شهرًا ، رُوِيَ القَولان عن قتادة.وهل كان استقباله إلى بيت المقدس برأيه أو عن وَحْي ، فِيه قَولان : أحدهما أنه كان بأمر الله تعالى ووَحْيِه، قاله ابن عباس وابن جُرَيج . والثاني أنه كان باجتهاده ورأيه،قاله الحسن وأبوالعالية وعِكرمة والربيع.وقال قتادة : كان الناس يَتَوَجَّهون إلى أي جهة شاؤوا بِقَوله:﴿ ولله المشرقُ والمغرِبُ ﴾ [البقرة: ١١٥]. ثُمَّ أمرهم باستقبال بيت المقدس.وفي سبب اختياره بيت المقدس قَولان: أحدهما لِيَتَألَّف أهلَ الكتاب، ذَكَره بعضُ المفسِّرين. والثاني لامتحان العرب بِغَير ما أَلِفُوه ، قاله الزَّجاج ... . واختلفوا في سبب اختيار النبيِّ الكعبةَ على بيت المقدس على قَوْلَيْن : أحدهما أنها كانت قِبلة إبراهيم ، رُوِيَ عن ابن عباس . والثاني لمخالفة اليهود ، قاله مجاهد)) اهـ .

إنَّ حرف السِّين في ﴿ سيقولُ السُّفهاءُ ﴾ يُؤَكِّد أنهم لَم يقولوا بَعْد . وقبل تحويل القِبلة أخبرَ اللهُ أن السُّفهاء سيقولون ما قالوه ، وهذا إخبارٌ بالغَيب والمستقبَل الذي لَم يَقع بَعْد . مِمَّا يدل على صِدْق القُرآن (الوَحْي الإلهيِّ) وصِحَّةِ نُبُوَّة محمد ﷺ . وكما أخبرَ القُرآنُ حدث في الواقع. وبعد نزول الآية قال السُّفهاء ما قالوه ، وهذا يدل على أنهم سُفهاء حَقًّا . ولو أنهم سَكَتوا ، ولَم يُعلِّقوا على حادثة تحويل القِبلة، لكانَ ذلك تكذيبًا للقُرآن، وطَعْنًا فِيه ، وتشكيكًا بأخباره .وعندئذ كان بإمكانهم أن يقولوا للمؤمنين إن قُرآنكم يقول : ﴿ سيقولُ السُّفهاءُ ﴾ ، ولَم يقل أحَدٌ شَيْئًا ، مِمَّا يدل على كذب القُرآن وعدم صِحَّته .

ولكنهم سُفهاء حَقًّا ، وكانَ كُفْرُهم وَقَولهم وطَعنهم في حادثة تحويل القِبلة تصديقًا للقُرآن ، واعترافًا بأن محمدًا نبيٌّ مُؤيَّد بالوَحْي السماويِّ . فالقُرآن أخبرَ أنهم سيقولون قبل قَوْلهم، وقد قالوا بالفِعل بعد نُزول الآية، فَصَدَّقُوا القُرآنَ مِن حَيث لا يَشعرون ، وما أخبرَ بِه القُرآنُ صارَ واقعًا.

وقال السُّيوطي في لُباب النُّقول (١/ ١٣٥) : ((أخرجَ ابنُ إسحاق وابنُ جرير من طريق سعيد أو عِكْرِمة عن ابن عباس قال : أتى النبيَّ ﷺ ابْنُ مِشْكَم في عَامَّةٍ مِنَ اليهود ــ سَمَّاهم ــ، فقالوا : كيف نتَّبعك وقد تركتَ قِبْلَتنا ؟))(29).

(٢٩) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: ((أول ما نُسِخَ مِن القرآن فِيما ذُكر لنا شأن القِبلة، قال الله: ﴿ ولله المشرقُ والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله ﴾ [البقرة:١١٥].فاستقبل رسولُ الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس ، وترك البيتَ العتيق ، فقال الله تعالى : ﴿ سيقول السُّفهاءُ من الناس ما ولاهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها ﴾ [البقرة: ١٤٢]. يَعْنُون بيت المقدس، فَنَسَخَتْهَا، وصَرَفه الله إلى البيت العتيق ، فقال الله تعالى :﴿ ومِن حيثُ خرجتَ فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ [البقرة : ١٥٠])) [رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٤) برقم (٣٠٦٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي]. وحادثةُ تحويل القِبلة ثابتةٌ في القرآن الكريم بحيث إن منكرها يَكْفر لتكذيبه كلام الله تعالى، أي تكذيب نَص قطعي الثبوت وقطعي الدِّلالة.فقد تم تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام لِحِكَم إلهية عديدة وجليلة . منها أن اللهَ تعالى أراد تحقيق رغبة نبيِّه ﷺ في التوجه إلى البيت الحرام . واللهُ تعالى قادر على جعل البيت الحرام القِبلة الأولى دون عملية تحويل ، لكنه أراد الربط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام بحيث لا ينفصلان في عقيدة المؤمن ، كما أن حادثة تحويل القِبلة كانت اختبارًا حقيقيًّا لعقائد الناس،بحيث أظهرت الثابتين على الإسلام، وأظهرت أصحاب العقيدة المضطربة الضعيفة ، وأبرزت ما في قلوب أعداء الأمة الذين يريدون أية حادثة لكي يُزعزعوا عقائد المؤمنين ، ويُشكِّكوا فيها ، في محاولة يائسة منهم لصرف الناس عن الإسلام.ولا يَخفى أن الامتحان هو الكاشف عن عقائد الناس ، وسلوكهم ، وصمودهم أو انهيارهم. قال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٤٤):((أعلمَ اللهُ تعالى أنهم سيقولون في تحويل المؤمنين مِن الشام إلى الكعبة: ﴿ ما ولاهم ﴾ . وسيقول بمعنى قال. جعل المستقبَلَ موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك، وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخَصَّ بِقَوله : ﴿ من الناس ﴾ لأن السَّفَه يكون في جمادات وحيوانات . والمراد من السفهاء جميع من قال: ﴿ ما ولاهم ﴾ ، والسفهاء جمع. واحده سَفِيه ، وهو الخفيف العقل)) اهـ . والردُّ القرآني يجيء حَاسِمًا لكل المسائل ، وقاطعًا لكيد أعداء الإسلام ، وفاضحًا لهم . إذ إن ترك المنحرفين ينشرون باطلَهم دون إيقافهم عند حَدِّهم من شأنه تدمير المجتمع الإنساني ، وسيادة الفَسَقة والكافرين على الناس، وقيادتهم للأمور الحياتية، وهذا سَيُؤدِّي إلى اجتثاث الخير ، وتفشِّي الشر . فالقرآنُ يُؤسِّس منهجَ الرد على المخالِفين ، وفضح انحرافهم ، وإقامة =

إنَّ اليهودَ يُجادِلون بالباطل ، فقد جَعلوا سببَ كُفرهم أنَّ النبيَّ ﷺ تركَ التَّوَجُّهَ في صلاته إلى بَيْتِ المقدس ، وصارَ يتوجَّه إلى الكعبة ، وهذه حُجَّةٌ داحضة ، لأنَّ اليهودَ لَم يُؤمنوا بالنبيِّ ﷺ أثناءَ تَوَجُّهه إلى بيت المقدس ، وأيضًا بَيت المقدس قِبْلةُ المؤمنين لا قِبلة اليهود الكافرين .

لقد أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ والمؤمنين باستقبال المسجد الحرام في الصلاة(التَّوَجُّه شَطْرَه أي قِبَله)، فقالَ تعالى : ﴿ ومِن حيثُ خرجتَ فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ [البقرة : ١٥٠] .وكان النبيُّ ﷺ توَّاقًا لاستقبال المسجد الحرام ، إذ إن هذا المسجد العظيم (أول مَسجد على كوكب الأرض) له مكانة عظيمة في نَفْس النبيِّ ﷺ ، ونفوسِ المؤمنين . ولا يمكن الإفلات مِن حُبِّه والشَّوق إلَيه .

وقد حقَّق اللهُ رغبةَ النبيِّ ﷺ . وكُل أصحاب دِين لهم قِبلة يتَّجهون إليها ويُقدِّسونها وتهفو قلوبُهم إليها . والمسلمون أَوْلى الناس بوجود قِبلة ، لأنهم _ وَحْدَهم _ على الحق . وأيضًا تُجسِّد القِبلةُ معاني الوَحدة الإسلامية، والترابط الإيماني العميق، وتبث الرعبَ في قلوب الكافرين ، وتمزِّق شَمْلَهم ، وتدحض شُبهاتهم وحُججهم الواهية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٦) : ((كرَّر اللهُ هذا الْحُكم لِتَعَدُّد عِلَلِه ، فإنه تعالى ذَكر للتحويل ثلاث عِلَل : تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مَرضاته ، وجَرْي العادة الإلهية على أن يُوَلِّيَ أهل كُل مِلَّة وصاحب دَعوة وُجهة يَستقبلها ويتميَّز بها ، ودَفْع حُجَج المخالِفين)) اهـ .

إنَّ قِبلة المسلمين هي المسجد الحرام المحتوي على الكعبة المقدَّسة . ووجودُ مكان يتوجه إليه كل المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتنوع أعراقهم ولغاتهم عامل توحيد، وضمانة أساسية لتجذير الأمة الإسلامية كَوَحدة جمعية متجانسة ومتماسكة . وهذا عامل قوة يُعزِّز الثقة بقدرات المسلمين ، ويبث الرعب في صدور أعدائهم الطامحين إلى تفريقهم .

وحين يستشعر المؤمنون وَحدةَ القِبلة ، فإنهم يَترفعون عن كل خلافاتهم المذهبية أو الضغائن المزروعة بينهم ، لأنهم سيُدركون _ حينئذ _ أنهم أُمَّة واحدة تتوجَّه إلى إله واحد ، وذات رسالة واحدة . وهذه الجماعةُ البشرية العظيمة المتوحِّدة تمضي وفق الصراط المستقيم الذي لا يتعدد .

=الْحُجَّة عليهم ، ورَد كَيدهم في نحورهم . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧١) : ((واختلف في المراد بالسفهاء . فقال البراء ... وابن عباس ومجاهد : هم اليهود . وأخرج ذلك الطبري عنهم بأسانيد صحيحة)) .

وبالتالي ، لا مكان لهذه الخلافات ، وسوف تتساقط الشحناء ، ويختفي الحقدُ والتربصُ بالآخرين ، ومحاولة الانقضاض عليهم ، لأن الجسد الواحد لا يمكن أن يحارب نَفْسَه مهما أصابه من أمراض .

لقد حاولَ السُّفهاء (اليهود والمنافقون ومُشركو العرب) نشرَ باطلهم ، وصَرْف الناس عن الحق عَن طريق تسليط الضَّوء على حادثة تحويل القِبلة بشكل سلبي مُغرِض ، لتشكيك المؤمنين بإيمانهم،وإثارة التساؤلات الخبيثة الْمُغرِضة حول هذا الأمر.وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧١): ((ورُوِيَ من طريق السُّدي قال : هُم المنافقون ، والمراد بالسُّفهاء الكفار وأهل النفاق واليهود . أمَّا الكفار فقالوا _ لَمَّا حُوِّلت القِبلة _ : رجع محمد إلى قِبلتنا وسيرجع إلى دِيننا فإنه عَلِمَ أنَّا على الحق . وأمَّا أهل النفاق فقالوا : إن كان أوَّلاً على الحق فالذي انتقل إليه باطل وكذلك بالعكس . وأمَّا اليهود فقالوا : خالف قِبلةَ الأنبياء ولو كان نَبِيًّا لَمَا خَالَفَ)) اهـ .

إنَّ الكفار قد اعتبروا تحويلَ القِبلة رُجوعًا إلى قِبلتهم . وفي الحقيقة إن الكعبةَ المشرَّفة قِبْلة المسلمين ، أمَّا العرب الوثنيون فقد استحوذوا عليها ، ودنَّسوها بالأصنام المضادة لعقيدة التوحيد التي أمرَ بها اللهُ تعالى (ربُّ الكعبة) . فاللهُ تعالى أراد أن تكون الكعبةُ قِبْلةَ المسلمين الذين يجتمعون على توحيد الخالق وعدم الإشراك به. والكعبةُ هي تجسيد باهر لمعنى توحيد الله تعالى، كما أن تُمثِّل معنى وَحدة المسلمين واجتماع كلمتهم . أمَّا المنافقون فقد اخترعوا حُجَّةً للطعن في الإسلام ، وتمسَّكوا بشُبهة تتلاعب بعقولهم ، فقالوا إن كان التوجه لبيت المقدس هو الحق، فإن التوجه إلى الكعبة باطل ، وكذلك العكس . وهذا وهمٌ مُطْبِق لأن فِعْلَ الشيء لا يَنْفي ما عداه. ويمكن أن نعطيَ أمثلةً على هذه القاعدة من الحياة اليومية. فالمرءُ إذا ترك مَسقط رأسه ، ورحل إلى مكان آخر ، فهذا لا يعني أنه انتقل من الباطل إلى الحق أو العكس . وإذا ترك الإنسانُ شرب الشاي ، وراح يشرب القهوةَ ، فهذا لا يعني أنه انتقل من الخطأ إلى الصواب أو العكس .

وتحويل القِبلة كان اختبارًا لإيمان الناس ، ولا يَحمل معنى بُطلان القِبلة الأُولى أو الثانية . فاللهُ تعالى هو مَالِكٌ للجهات كُلِّها ، يَتصرَّف في مُلْكه كَيْفما يشاء . ولو سألنا هؤلاء المنافقين : لماذا ترتدون هذه الثياب ؟ ، أو لماذا تضعون في بيوتكم كذا وكذا ؟ ، لقالوا إننا أحرار نَتصرَّف في ممتلكاتنا ، ولا يحق لأحد أن يسألنا عن هذه الأمور . ولله الْمَثَلُ الأعلى ، فهو _ سُبحانَه _ مَالِكُ كُلِّ شيء ، لا يحق لأحد أن يسأله عمَّا يَفعل ، فهو يَتصرَّف في مُلْكه ، وكلُّ ما سِوى الله تعالى هو مِلْكٌ له . ومَن يَرفض هذا الكلام ، عليه أن يَخرج مِن مُلْكِ الله تعالى ويُقيم له مُلْكًا

خَاصًّا ، وهذا مُحال _ نقلاً وعقلاً _ . والمسجد الحرام والمسجد الأقصى هُما أوَّل مسجدَيْن وُضِعا في الأرض ، فلا عَجب أن يحصل الربطُ بينهما للتنبيه على أنهما وُجهة المؤمِن، فلا يجوز التنازل عنهما ، أو عن أحدهما . وأمَّا اليهود فقد اعتبروا حادثةَ تحويل القِبلة مخالفةً لقِبلة الأنبياء وخُروجًا على شَرْعهم ، وَوَفْقَ رأي اليهود : لو كان محمَّد نَبِيًّا لَمَا خَالَفَ قِبلةَ الأنبياء . والعجيبُ أن هذا الكلام يَصدر عن اليهود . فالذي يَسمعه يعتقد أن اليهود حريصون على قِبلة الأنبياء، ومُتمسِّكون بمنهج الأنبياء ، مع أنهم قَتلوا الأنبياءَ ، وحَاكوا ضِدَّهم المؤامراتِ.فلماذا لَم يتمسَّكوا بِدِين الأنبياء ويُدافعوا عن قِبلتهم ؟!. وكما قال المثَل : رَمَتْني بدائها وانسَلَّت. ولا يَخفى أن المسجد الحرام والمسجد الأقصى كلاهما حاضنة للأنبياء ومأوى لهم .ودَيْدَنُ أعداء الحق في كل زمان ومكان هو محاولة الاصطياد في الماء العَكِر ، وبث الأكاذيب والإشاعات لإبعاد الناس عن الإيمان ، وإيصالهم إلى الشَّك والكفر . وهم بذلك يستخدمون كل الوسائل الخبيثة الدنيئة لتحقيق غايتهم غير الشريفة . فيتعاملون مع الحق من منظور مصالحهم الشخصية الضيقة ، ووَفْقَ أهوائهم الذاتية المشوَّشة . وقد خَسِروا الدنيا والآخرة مَعًا . والجديرُ بالذِّكر أن حادثة تحويل القِبلة قد حَصلت في السنة الثانية للهجرة ، حيث أمر اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بالتوجه مِن بيت المقدس إلى البيت الحرام،فصارَ قِبلةَ الصلاة إلى يوم القيامة.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا ادْخُلوا في السِّلْمِ كافَّةً ﴾[البقرة : ٢٠٨] (30).

يأمرُ اللهُ عبادَه المؤمنين أن يَلتزموا بشرائع الإسلام كُلِّها بِدُون استثناء ، ويَفعلوا أوامرَه ، ويَجتنبوا نَواهيه . والمعنى : أيُّها الْمُصَدِّقُون بِوَحدانيةِ اللهِ ونُبُوَّةِ محمد ﷺ ، اعتنِقُوا الإسلامَ قَوْلاً وفِعلاً، واثْبُتوا على الإسلام، وأطيعوا اللهَ في السِّر والعَلَن ، وطَبِّقُوا أحكامَ أهلِ الإسلامِ وأعمالَهم. واعملوا جميع الطاعات ، وابتعدوا عن جميع المعاصي . والسِّلْمُ هو الاستسلام والانقياد والخضوع والطاعة ، لذلكَ يُطْلَق في الصُّلْح والإسلام . وهو في الآية بمعنى الإسلام .

---

(٣٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٢٤) : ((اختلفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت فِيمَن أسلمَ مِن أهل الكتاب ، كانوا بعد إسلامهم يَتَّقون السَّبْت ولحم الجمل وأشياء يَتَّقيها أهل الكتاب،رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني أنها نزلت في أهل الكتاب الذين لَم يُؤمنوا بالنبيِّ محمد ﷺ ، أُمِرُوا بالدخول في الإسلام ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا ، وبه قال الضَّحاك . والثالث أنها نزلت في المسلمين يأمرهم بالدخول في شرائع الإسلام كُلِّها ، قاله مجاهد وقتادة)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٤٠) : ((قال حُذَيفة بن اليمان في هذه الآية : الإسلام ثمانية أسْهُم ، فَعَدَّ الصلاة ، والزكاة ، والصَّوم ، والحج ، والعُمرة ، والجهاد ، والأمر بالمعروف، والنَّهْي عن الْمُنكَر . وقال : قد خاب مَن لا سَهْمَ له)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإن حاجُّوكَ فَقُل أسلمتُ وَجهيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾[آل عِمران : ٢٠] .

فَإن جَادَلَكَ الكفارُ يا محمد بالشُّبهاتِ الباطلة والأهواء المنحرِفة والأقاويل الْمُزَوَّرة ، بعدما أقمتَ عليهم الْحُجَّةَ ، وخاصموكَ في الدِّين بالباطل والجهل والعِناد، فَقُل لهم إظهارًا للإيمان وتبليغًا لهم : استسلمتُ للهِ، وأخلصتُ له العبادة وَحْدَه، لا شريك له، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد . وانقادَ له قلبي ولساني وجوارحي، وخضعتُ لأمره وحُكمه . وهذا هو الإسلام دِين التَّوحيد، القائم على الهدى والنُّور والْحُجَج والبراهين والأدلة،وهو دِين جميع الأنبياء ، جاؤوا بِه لنشره بين الناس ، ودَعَت إليه الآياتُ . وإسلامُ الوَجْه للهِ يعني تسليم الذات لأمرِ اللهِ ونَهْيه ، والامتثال الكامل لشرائعه وأحكامه . أنا وأتباعي المؤمنون على دِين الإسلام، خاضعون للهِ، ومُستسلمون له، نُوحِّده ، ولا نُشرِك بِه شَيْئًا . وهذا يدل على أنَّ النبيَّ ﷺ هو قائد المسلمين وزعيمهم ، يَقودهم إلى بَر الأمان في الدنيا، والنجاةِ في الآخرة، وهُم سائرون على خُطاه. يتَّبعونه لأنهم واثقون بِه، ومُؤمنون باللهِ الذي أرسله . و﴿ وَجهيَ ﴾ معناه : ذاتي . أي : استسلمتُ للهِ بِكُلِّيتي. وتَمَّ تخصيص الوجه بالذِّكر لأنه أكرم جوارح الإنسان ، وأجمعها للحواس، وهو مَجْمَع الجمال والبهاء. وإذا خضع الوجهُ للهِ تعظيمًا له ، واستسلامًا لأمره، فإنَّ باقي أجزاء الإنسان ستخضع للهِ تعالى، لأنها دُون الوجه في المكانة والشرف والكرامة. إنَّ خُضوع الوجه (العُضو الأكرم والأشرف) يعني خُضوع جميع الجوارح بلا استثناء.وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٣٦٣) : ((قَوْله تعالى : ﴿ فإن حاجُّوكَ ﴾ أي: جادلوكَ وخاصموكَ . قال مقاتل : يعني اليهود . وقال ابن جرير : يعني نصارى نَجْران في أمر عيسى . وقال غَيرهما: اليهود والنصارى. ﴿ فَقُل أسلمتُ وَجهيَ للهِ ﴾ ، قال الفَرَّاء: معناه أخلصتُ عملي . وقال الزَّجاج : قَصَدْتُ بعبادتي إلى الله)) اهـ .

وعن بَهْز بن حكيم عن أبيه عَن جَدِّه أنه قال للنبيِّ ﷺ: فإني أسألك بوجه الله، بِمَ بَعَثَكَ رَبُّنا ؟. قال : ((بالإسلام)) ، قال : قلتُ : يا نبيَّ الله ، وما آية الإسلام ؟ ، قال : ((أن تقولَ : أسلمتُ وَجْهِيَ لله ، وتُقيمَ الصلاة ، وتُؤتِيَ الزكاة)) [31] .

---

(٣١) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٦٤٣) برقم (٨٧٧٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ هذا الصحابي قد سَأل النبيَّ ﷺ بوجه اللهِ ، أي بذات الله، وهذا يدل على أهمية السؤال . والسؤال يتناول مضمون البِعثة وهدفها . بِمَ بَعَثَ اللهُ محمدًا ؟ . مِمَّا يُشير إلى رجاحة عقل هذا الصحابي، وحِرصه على التعلم والمعرفة،والخروج مِن ظُلمات الجهل إلى نُور العِلم. وكان النبيُّ ﷺ صادقًا وواضحًا ، ولَم يَكتم العِلْمَ والوَحْيَ . وأخبره بأن اللهَ بعثه بالإسلام . لَم يَكتفِ الصحابي بهذا السؤال ، بَل سأل أيضًا عن علامة الإسلام المميِّزة له . ووضَّح النبيُّ ﷺ هذه العلامة ، وهي إسلام الوجه للهِ، والمعنى عبادة الله وَحْدَه، وإقامة الصلاة التي هي عُمود الإسلام،وأشرف العبادات البدنية ، وإيتاء الزكاة التي هي أشرف العبادات المالية .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ ربي وربُّكم فاعبدوهُ هذا صِراطٌ مُستقيم ﴾[آل عِمران : ٥١] .

هذا كلام المسيح ﷺ : أنا وأنتم سَواء في العُبودية للهِ ، والاستسلام له ، والخضوع لأمره ، والإذعان لِحُكمه. وهذا اعترافٌ مِنَ المسيح بأنه عبد خاضع للهِ ، مِمَّا يَنفي الأُلوهية عن المسيح ، فالعبدُ لا يَكُون إلَهًا . والاعترافُ سَيِّد الأدلة . لقد جاءَ المسيحُ بالإسلامِ ، والدَّعوة إلى عبادة الله وَحْدَه ، وهذا هو الحق الواضح الذي جاء بِه الأنبياء جميعًا ، فيكون كلامُ المسيح دليلاً على صِدقه وصِحَّة نُبُوَّته، وأنه مُؤيَّد برسالة السماء . وقد دعا المسيحُ الناسَ إلى تَوحيد اللهِ ، والتَّوحيد هو الأساس النظري ، ثُمَّ دعاهم إلى عبادة الله وطاعته والتزام أوامره واجتناب نَواهيه ، وهذه هو التطبيق العملي للتَّوحيد . والجمعُ بين التَّوحيد (الأساس النظري) والعبادة (التطبيق العملي) ، هو الطريقُ المستقيمُ الذي يُؤدِّي إلى نَيل رِضا الله ، والنجاة مِن النار ، والفَوز بالجنة . ولا يُقبَل أحدهما بِدُون الآخَر . والآيةُ دليل واضح على أنَّ المسيح أدَّى أمانةَ التبليغ كاملةً بكل إخلاص ، وبدون زيادة ولا نُقصان . وبذلك يكون قد أقامَ الْحُجَّةَ على الناس ، وقطعَ أعذارَهم . وقد جَمَعَ المسيحُ في كلامه بين الإيمان والطاعات والطريق المستقيم الواضح الذي لا عِوَج فِيه ولا لَبْس .

إن المسيحَ يعتنق الإسلامَ دِينًا ، لأن الإسلام دِين جميع الأنبياء . وقد دعا المسيحُ الناسَ كُلَّهم إلى عبادة الله وَحْدَه ، لا شريك له . وهذا يدل على إخلاصه في الدَّعوة ، وصِدقه في تبليغ الوَحْي الإلهيِّ بلا زيادة ولا نقصان . ولكنهم كَذَّبوه ، ولَم يُؤمنوا بِه . وقد تَبَرَّأ المسيح مِن كُفر النصارى الذين ألَّهوه ، وجعلوه ابنًا لله تعالى ، وأقامَ المسيحُ الْحُجَّةَ على النصارى ، واحتجَّ للهِ عَلَيهم ، وكَذَّبهم ، وفضح انحرافَهم ، ورَفَضَ غُلُوَّهم ومُغالتهم، فقد جعلوا المسيحَ إلَهًا وابْنًا للإله زُورًا وبُهتانًا، بلا دليل ولا بَيِّنة. وهُم بذلك يَكونون أعداء للمسيح ، لأنهم رَفضوا رسالته ، ولَم يلتزموا بكلامه وشريعته وتعاليمه . وهذه هي الخيانة العُظمى .

واللهُ وَحْدَه هو الإله المستحِق للعبادة ، واللهُ هُوَ رَب المسيح ورَب الناسِ جميعًا ، فينبغي عبادة الله وَحْدَه ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد . ورِسالةُ المسيحِ القائمةُ على تَوحيد الله هي الطريق المستقيم الذي لا عِوَج فيه ولا انحراف .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٨١) : ((وهذه الآية وإن كان ظاهرُها خَبَرًا ، ففيه الْحُجَّة البالغة مِن الله لرسوله محمد ﷺ على الوفد الذين حَاجُّوه مِن أهل نَجْران بإخبار الله عَزَّ وَجَلَّ عَن أن عيسى كان بريئًا مِمَّا نَسَبَه إليه مَن نَسَبَه إلى غَير الذي وَصَفَ بِه نَفْسَه مِن أنه لله عبد كسائر عبيده مِن أهل الأرض، إلا ما كان اللهُ جَلَّ ثناؤه خَصَّه بِه مِن النُّبُوَّة والْحُجَج التي آتاه دليلاً على صِدْقه _ كما آتى سائرَ المرسَلين غَيْرَه مِن الأعلام والأدلة على صِدقهم _ وحُجَّة على نُبُوَّته)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كانَ حنيفًا مُسلِمًا وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ [آل عِمران : ٦٧].

لقد كَذَّبَ اللهُ الذين جادلوا بالباطل في شأن إبراهيم ﷺ ، حيث زَعَمَ اليهودُ أنَّهُ كان يهوديًّا ، وزعمَ النصارى أنَّهُ كان نصرانيًّا . وهذا زَعْمٌ باطل قائم على الأهواء والمصالح الشخصية بلا أدلة ولا براهين . ولو كانَ أهلُ الكتاب صادقين في دَعواهم ، لَقَدَّموا الأدلةَ على صِدق كلامهم ، وبما أنهم لَم يُقدِّموا أيَّ دليل . فهذا الكلام يُعتبَر باطلاً وكَذِبًا صريحًا . واليهوديةُ والنصرانيةُ دِينان وَضْعِيَّان لا علاقة لهما بموسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ . وأهلُ الكتاب يُحاولون جاهدين إيجاد شرعية لهم ، فَنَسبوا أنفسهم وعقائدهم الباطلة إلى الأنبياء . وكما قال الشاعر :

وَكُلٌّ يَدَّعي وَصْلاً لِلَيْلى ولَيْلى لا تُقِرُّ لَهم بِذَاكا

قال ابن حجر في العُجاب في بيان الأسباب (٢/٦٩٠) : ((وقال الطبري : حَدَّثَني إسحاق ابن شاهين نا خالد الواسطي عن داود هو ابن أبي هند عن عامر هو الشَّعبي قال:قالت اليهود: إبراهيم على دِيننا ، وقالت النصارى: إبراهيم على دِيننا ، فأنزل اللهُ : ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يَهوديًّا ولا نصرانيًّا ﴾ ، فَبَرَّأه اللهُ منهما)) اهـ .

لقد كان إبراهيم ﷺ مائلاً عن الشِّرْك إلى الإسلام (دِين التَّوحيد)، مُوَحِّدًا مُسْتَسْلِمًا للهِ ، مُلْتَزِمًا بأوامره، مُجْتَنِبًا لِنَواهيه.وكانَ مُسْلِمًا،ولَم يكن مُشْرِكًا كاليهود والنصارى وعَبَدَة الأصنام. فاليهودُ زَعموا أنَّ عُزَيْرًا ابنُ اللهِ ، والنصارى زَعموا أنَّ المسيحَ ابنُ اللهِ ، وعَبَدة الأصنام (مُشرِكو العرب) زَعموا أنهم على مِلَّة إبراهيم ﷺ . وقد كَذَّبَهم اللهُ جميعًا ، ودَحَضَ أقوالَهم الواهية .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٥١): ((والحنيف: المائل عن الأديان كُلِّها إلى الدِّين المستقيم . وقِيل : الحنيف : الذي يُوحِّد ويَحُجُّ ويُضحِّي ويَخْتِن ، ويَستقبل الكعبة ، وهو أسهل الأديان ، وأحَبُّها إلى الله ــ عَزَّ وجلَّ ــ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وأنَّ هذا صِراطي مُستقيمًا فاتَّبعوهُ ولا تتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبيله ذَلِكم وصَّاكم بِهِ لعلكم تتَّقون ﴾[الأنعام : ١٥٣] .

إنَّ الإسلامَ دِينُ اللهِ وطريقُه المستقيم الذي لا عِوَج فيه ولا لَبْس . هذا هو الطريقُ المستقيمُ الواضح الموصِل إلى رِضا الله والفَوزِ بالجنة .

والإسلامُ هو الدِّينُ السماويُّ الوحيدُ ، ارتضاه اللهُ لعباده ، وأمرهم باتِّباعه ، والتَّمَسُّك به ، والعمل بشرائعه وتعاليمه . ولا تسلكوا طريقًا سِواه ، ولا تقبلوا بمنهج غَيره، ولا تَطلبوا دِينًا غَيْرَ الإسلام، كاليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأصنام ، وغَير ذلك مِن الأديان الباطلة . فالإسلامُ وَحْدَه هو الدِّين الحق . والحق واحد لا يَتعدَّد. وإذا اتَّبعتم الأديانَ الباطلةَ والطرقَ الملتوية ، فسوفَ تُزيلكم عن طريق الحق ، وتُبعِدكم عن منهاج الهدى ، فتتفرَّق كلمتكم ، وتنهار عقيدتكم ، وتَتشتَّت أفكاركم ، وتخسرون الدنيا والآخرة مَعًا .

والإسلامُ وَحْدَه هو الحق والنُّور والهدى ، جاءَ به الأنبياء جميعًا ، ودَعَوا الناسَ إليه . وهذه وصية الله لكم ، فاحفظوها ، وتَمَسَّكُوا بِها، واعملوا بِمُقتضاها ، لِتَحموا أنفسَكم من عذاب النار ، وذلك بامتثال أوامر الله واجتناب نَواهيه. والوصيةُ تَحمل معنى التأكيد والتَّشديد على الالتزام بها.

والجديرُ بالذِّكر أن لفظة ﴿ السُّبُلَ ﴾ جاءت بصيغة الجمع ، لأن الأهواء الباطلة والطرق المنحرِفة كثيرة ومُتفرِّقة ومُتضارِبة ومُتشعِّبة ، بسبب اختلاف الطبائع والعادات . في حِين أن لفظة ﴿ سَبيله ﴾ جاءت بصيغة المفرَد ، لأن الحق واحد فقط لا غَيْر. وهو طريق اللهِ، وكُل الطرق سِواه هِيَ طُرق الشَّيطان ، مهما ارْتَدَت أقنعة الإيمان والصلاح والتقوى والخير .

واعتناقَ الإسلام الدِّين الحق يعني السَّير في الطريق المستقيم ، وفِعل الفضائل والخيرات والطاعات والابتعاد عن الذنوب والمعاصي،ولا بُدَّ لها مِن تقوى اللهِ،لذلك جاءت﴿لعلكم تتَّقون ﴾.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥١) : ((وفي الصِّراط قَولان : أحدهما أنه القرآن، والثاني الإسلام... فأمَّا السُّبُل فقال ابن عباس: هي الضلالات. وقال مجاهد: البِدَع والشُّبهات)).

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : خَطَّ رسولُ الله ﷺ خَطًّا وخَطَّ عَن يمين ذلك الخط وعن شماله خَطًّا ، ثُمَّ قال : ((هذا صِراطُ رَبِّكَ مُستقيمًا ، وهذه السُّبل ، على كُل

سبيل مِنها شَيطان يَدعو إلَيه)) ، ثُمَّ قرأ : ((﴿ وأنَّ هذا صِراطي مُستقيمًا فاتَّبعوهُ ولا تتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبيله ﴾))[32].

إنَّ طريق الحق واحد ومستقيم . والطريقُ المستقيمُ هو أقصر الطرق بين نقطتين . أمَّا باقي الطرقُ فهي أهواء شخصية ، ومصالح مادية ، وألاعيب كلامية ، وخدع بصرية . وعلى العاقل أن يلتزم بطريق الحق ، وهو الإسلام وَحْدَه . فهو الموصِل إلى رِضا اللهِ ، والسعادةِ في الدنيا والآخرة، ولا ينخدع بالزخارف الوهمية ، والزِّينة الظاهرية ، والبَهْرجة اللفظية . فالأعراضُ زائلة ، والجوهر ثابت وباقٍ . والعاقلُ يبحث عن الحق مُتَحَرِّرًا مِن الأهواء والمصالح الشخصية والتقليد الأعمى .

وفي تفسير القرطبي (٧/ ١٢٣) : ((وهذه السُّبل تَعُمُّ اليهوديةَ والنصرانية والمجوسية وسائر أهل المِلَل وأهل البِدَع والضَّلالات مِن أهل الأهواء والشُّذوذ في الفروع ، وغَير ذلك مِن أهل التَّعَمُّق في الجدل والخوض في الكلام. هذه كُلها عُرضة للزَّلَل ومَظَنَّة لِسُوء الْمُعْتَقَد، قاله ابن عطية)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أمرَ ألا تعبدوا إلا إيَّاه ﴾[يُوسُف : ٤٠] .

أمرَ اللهُ الناسَ جميعًا أن يَعبدوه وَحْدَه لا شريك له ، فهو المستحِق للعبادة والأُلوهية والرُّبوبية، وله التعظيم والتمجيد . وهذا ما جاء بِه الأنبياء كُلُّهم ، ودَلَّت عليه الآيات والبراهين والْحُجَج . وهذا هو معنى التَّوحيد . فلا إله إلا الله . اللهُ وَحْدَه هو الإله ، ولا معبود بحق إلا الله . وكُل ما سِوى اللهِ عَبْدٌ للهِ تعالى. واللهُ قد أسَّسَ الدِّينَ الحق (الإسلام) على الإخلاص للهِ، وإفراده بالعبادة،بلا شريك ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد . والْحُكْمُ والمشيئةُ والتَّصَرُّف والْمُلْكُ كُلُّه للهِ وَحْدَه.

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٢١٧) : ((وهو الذي أمرَ ألا تعبدوا أنتم وجميع خَلْقه إلا الله، الذي له الأُلوهة والعبادة خالصة دُون كُل ما سِواه مِن الأشياء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أحدُهما أبكمُ لا يَقْدِرُ على شَيءٍ وَهُوَ كَلٌّ على مَولاهُ أيْنَما يُوَجِّههُ لا يأتِ بِخَيرٍ هل يَستوي هُوَ ومَن يأمرُ بالعَدْلِ وَهُوَ على صِراطٍ مُستقيم ﴾ [النَّحْل : ٧٦] [33].

---

(٣٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٦١) برقم (٢٩٣٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٧٣) : ((وفيمن أُريد بهذا المثَل أربعة أقوال : أحدها أنه مَثَل ضَرَبَه اللهُ تعالى للمؤمن والكافر ، فالكافر هو الأبكم ، والذي يأمر بالعدل هو المؤمن، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثاني أنها نزلت في عثمان بن عفان هو الذي يأمر بالعدل، وفي مَوْلَى له كان يَكره =

هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لنفْسه وللوَثَن . فالوثنُ أبْكم (أخرس) عاجز لا يَفعل شيئًا ، لأنه لا يَفهم الكلامَ ، ولا يُفهَم عنه ، ولا يَنفع ولا يَضُر ، وهو عِبْءٌ ثقيل على صاحبه الكافر الذي يَحمله ويَضعه ويَخدمه ويَحرسه ، وإذا دعاه لا يُجيبه ، ولا يأتي بخير ، ولا فائدة مَرْجُوَّة منه . فهل يستوي هذا الأخرسُ ومَن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم . واللهُ تعالى قادرٌ مُتكلِّمٌ ، يأمر بالتوحيد ، ويَهدي إلى طريق الحق ، ويُريد إنقاذَ عباده وهو غنيٌّ عنهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٢) : ((وهو في نفْسه على طريق مستقيم ، لا يُوَجِّه إلى مَطْلَب إلا ويَبْلُغه بأقرب سَعْي ، وإنما قابلَ تلك الصفات بهذين الوَصْفَيْن ، لأنهما كمال ما يُقابلهما. وهذا تمثيل ثانٍ ضَرَبَه اللهُ تعالى لنفْسه وللأصنام لإبطال المشارَكة بينه وبينهم ، أو للمؤمن والكافر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وجَاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجتباكُمْ وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمينَ مِن قَبْلُ وفي هذا لِيَكُونَ الرَّسولُ شَهيدًا عَلَيْكُمْ وتَكونوا شُهداءَ على الناسِ ﴾[الحج : ٧٨] .

جاهدوا المشركين في سبيل اللهِ حَقَّ جهاده، وذلك بِنِيَّة إعلاء كلمة اللهِ، وإقامة دِينه . و﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ لا تَتحقَّق إلا بِنِيَّة صادقة. ولا تأخذكم في الحق لَومة لائم ، وجَاهِدوا أهواءكم وشهواتكم ووساوس الشَّيطان. وينبغي أن يَجتمع القلبُ والنَّفْسُ لِفِعل الطاعات ، وقِتال أعداء اللهِ ، ومُحارَبة أهواء النَّفْس وشهواتها . وفي تفسير القرطبي (١٢/ ٩١): ((قِيل: عُنِيَ به جهاد الكفار. وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أَمَرَ اللهُ بِه، والانتهاء عَن كُل ما نهى اللهُ عنه،أي جَاهِدوا أنفسَكم في طاعة الله، ورُدُّوها عن الهوى،وجَاهِدوا الشَّيطان في رَدِّ وَسوسته،والظلَمة في رَدِّ ظُلمهم، والكافرين في رَدِّ كُفرهم)) اهـ .

و﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ تُشير إلى الْمُبالَغة ، وبذل الْوُسْع في الجهاد واستفراغ الطاقة فيه. والمعنى : جهادًا خالصًا للهِ تعالى ، لا شائبة فِيه ولا نَقْص ولا رِياء ولا سُمعة.

=الإسلامَ ويَنهى عثمان عن النفقة في سبيل الله ، وهو الأبكم ، رواه إبراهيم بن يعلى بن مُنْيَة عن ابن عباس. والثالث أنه مَثَل ضَرَبَه اللهُ تعالى لنفْسه وللوثن، فالوثن هو الأبكم، والله تعالى هو الآمِر بالعدل، وهذا قول مجاهد وقتادة وابن السائب ومقاتل. والرابع أن المراد بالأبكم أُبَي بن خلف ، وبالذي يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون ، قاله عطاء)) اهـ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٢) : ((﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ أي : جِهادًا فيه حَقًّا خالصًا لوجهه ، فَعَكَس . وأُضِيف الحق إلى الجهاد مُبالَغةً كَقَوْلك : هو حَقُّ عالِم ، وأُضيف الجهاد إلى الضمير اتِّساعًا ، أو لأنَّه مختص بالله مِن حيث إنَّه مفعول لوجه الله تعالى ، ومِن أجله)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٥٥و٤٥٦):((قَوْلُه تعالى : ﴿ وجَاهِدُوا في اللهِ ﴾ . في هذا الجهاد ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه فِعل جميع الطاعات ، هذا قول الأكثرين، والثاني أنَّه جهاد الكفار ، قاله الضَّحاك. والثالث أنَّه جهاد النَّفْس والهوى، قاله عبد الله بن المبارك . فأمَّا حق الجهاد ففيه ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه الجِد في الْمُجاهَدة واستيفاء الإمكان فيها، والثاني أنَّه إخلاص النِّية للهِ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ ، والثالث أنَّه فِعل ما فيه وفاء لحق الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ)) اهـ .

وفي صحيح ابن حبان(٢٠٣/١١)أنَّ النبيَّ ﷺقال:((الْمُجَاهِدُ مَن جَاهَدَ نَفْسَه في طاعة الله)).

وفي الحديث : ((رَجَعْنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر))[34].

الجهاد الأصغر هو قتال الأعداء في المعركة ، والجهاد الأكبر هو مُجاهَدة النَّفْس والهوى . والجهادُ الأصغر يشتمل على قَتل الأعداء بالسَّيف ، والجهاد الأكبر هو قتل النَّفْس بِغَير سَيف .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٥١١) : ((لأنَّ قتال الكفار فَرْض كِفاية،وجهاد النَّفْس فَرْض عَيْن على كُل مُكلَّف في كُل وقت)) اهـ .

﴿ هُوَ اجتباكُمْ ﴾ . إنَّ اللهَ اختاركم لحمل دِينه ونَشره ونُصرته وقتال أعدائه . وبما أنَّ اللهَ قد اختاركم ، وَجَبَ عليكم نشر الدَّعوة الإسلامية ، والجهاد في سبيل اللهِ . وهذا تكليفٌ شديدٌ وتشريفٌ عظيمٌ في آنٍ مَعًا. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣١٧) : ((أي : يا هذه الأُمَّة ، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم وفَضَّلكم وشَرَّفكم وخَصَّكم بأكرم رسول وأكمل شَرْع)).

﴿ وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ ﴾ .إنَّ اللهَ تعالى اختارَ العربَ لحمل راية الإسلام، واصطفاهم لمحارَبة أعداء الله ، والجهاد في سبيل الله . وفي هذا تفضيلٌ لهم على باقي الأمم ، وإعلاء لشأنهم وشَرَفهم ، فقد خَصَّهم بأعظمِ رسول ، مُحمَّد ﷺ ، وبأعظم شريعة . وبما أنَّ في التكليف مشقةً على النَّفْس، وضَّح اللهُ تعالى أنه ما جَعَلَ عليهم ضِيقًا أو شِدَّةً ، لَقد وَسَّعَ اللهُ الشَّريعةَ المحمَّدية الإسلامية كَمِلَّةِ أبيهم إبراهيم ﷺ .

---

(٣٤) قال العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ٢) : ((أخرجه البَيهقي في الزُّهد من حديث جابر، وقال : هذا إسناد فيه ضعف)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٥٦): ((فإن قِيل: هذا الخطاب للمسلمين وليس إبراهيم أبًا لِكُلِّهم.فالجواب أنه إن كان خِطابًا عامًّا للمسلمين، فهو كالأب لهم لأن حُرمته وحَقَّه عليهم كحق الوالد . وإن كان خِطابًا للعرب خاصَّةً ، فإبراهيم أبو العرب قاطبةً ، هذا قول المفسِّرين . والذي يقع لي أن الخطاب لرسول الله ﷺ، لأن إبراهيم أبوه،وأُمَّة رسول الله ﷺ داخلة فيما خُوطِب به رسول الله)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٩١) : ((وقَوْله : ﴿ مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ ﴾ ، نَصْبُ ﴿ مِلَّةَ ﴾ بمعنى : وما جَعَلَ عليكم في الدِّين مِن حَرَج ، بل وَسَّعَه كمِلَّة أبيكم ، فلمَّا لَم يجعل فيها الكاف اتصلت بالفِعْل الذي قَبْلها ، فَنُصِبَتْ . وقد يُحْتَمَل نَصْبُها أن تكون على وجه الأمر بها، لأن الكلام قَبْله أمر، فكأن قِيل: اركعوا واسجدوا والزَموا مِلَّةَ أبيكم إبراهيم)).

والشريعةُ المحمَّديةُ الإسلامية جاءت لرفع الحرج لا إحراج الناس، ولَم تجِئ لتعذيبهم والقضاءِ عليهم . واللهُ تعالى لَم يُكَلِّفهم إلا بِما يُطيقون ، ولم يُلْزِمْهم بعبادات تعجيزية ، ولَم يأمرهم بأوامر صعبة ومُهْلِكة. إذن، لا ضِيق ولا تعقيد في الدِّين الإسلاميِّ، فالمسلمُ لا يمكن أن يصل إلى طريق مسدود، إذ إن الشريعة الإسلامية أوجَدَتْ له مَخْرَجًا مِن كُل أزمة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، التَّوْبةُ مَخْرَج من بعض الذنوب ، والكَفَّارةُ مَخْرَجٌ مِن بعضٍ ، والقِصاصُ مِن بعضٍ . إذن ، ما مِن شيء يقع فيه المسلمُ إلا وله حَل شَرْعي ومَخْرَج ،كالتَّوْبة ، أو الكَفَّارة ، أو القِصاص ، أو الرُّخْصَة . وإن الأمر كُلما ضاقَ اتَّسعَ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣١٧) : ((فالصلاةُ التي هي أكبر أركان الإسلام ، بعد الشهادتين ، تجب في الحضَر أربعًا ، وفي السَّفَر تُقْصَر إلى اثنتين ، وفي الخوف يُصلِّيها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث ، وتُصلَّى رِجالاً وركبانًا ، مُستقبلي القِبْلة وغير مُستقبليها ، وكذا في النافلة في السَّفَر إلى القِبْلة وغَيْرِها ، والقيام فيها يَسقط لعُذر المرض ، فيُصلِّيها المريض جالسًا، فإن لَم يستطع فعلى جَنْبه إلى غير ذلك من الرُّخَص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات))اهـ.

والنبيُّ ﷺ بُعِثَ بالحنيفية السَّمْحة ، وهي الشريعة المائلة عن كُل دِينٍ باطل ، فهي حنيفية في التوحيد، سَمْحة في العمل . وفي الحديث : ((بُعِثْتُ بالحنيفيةِ السَّمْحةِ))[35].

(٣٥) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٦) ، والطبراني(٨/ ٢٢٢) . والحديثُ صحيحٌ ، لكنَّ سنده ضعيف.قال الهيثمي في المجمع(٥٠٨/٥):((رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف)). وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٦٦) : ((أخرجه أحمد من حديث أبي أُمامة بسند ضعيف)).

وفي صحيح البخاري (١/ ٢٣) : عن أبي هُريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ)) .

وقد أوصى النبيُّ ﷺ مُعاذًا وأبا مُوسى حين بعثهما إلى اليمن قائلاً : ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا ، وَبَشِّرا ولا تُنَفِّرا ، وتطاوَعا ولا تختلفا))[36].

ونشرُ المعاني الطيبة الهادئة في النفوس بأسلوب ناعم وسَلِس من شأنه أن يُلين قلوبَ الناس ، ويَعمل على استقطابهم إلى الإيمان بالله تعالى ، لأن النُّفوس مَجبولة على حُب من أَحسن إليها ، وقدَّم لها المساعدة بأسلوب طَيِّب . وكما قال الشاعر :

أَحسنْ إلى الناسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهمُ فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

إنَّ الإحسان إلى الناس يجعل المرءَ يسيطر على قلوبهم ، فتنقاد جوارحُهم إليه وتخضع له ، وتسمع لكلامه ، وكأنها تحت تأثير السِّحر . فالكلمةُ الطيبة لها وقعٌ إيجابي وعميق في النفوس .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٩١) : ((عن قتادة قال : أُعْطِيَتْ هذه الأُمَّة ما لَم يُعْطَهُ إلا نبيٌّ. كان يُقال للنبيِّ:اذهب فليس عليك حَرَجٌ. وقال الله:﴿وما جَعَلَ عَلَيْكُم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]. وكان يُقال للنبيِّ : أنتَ شهيد على قَوْمك ، وقال الله:﴿ لِتَكونوا شُهداءَ على الناس ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وكانَ يُقال للنبيِّ : سَلْ تُعْطَهُ ، وقال الله : ﴿ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافِر : ٦٠])) اهـ .

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمينَ مِن قَبْلُ وفي هذا ﴾ .

إنَّ اللهَ سَمَّاكم المسلمين في الكُتب الْمُتقدِّمة وفي هذا القُرآن . يعني أنَّ اللهَ شَرَّفهم ونَوَّهَ بِذِكْرهم في كُتبه كُلِّها . ﴿ لِيَكُونَ الرَّسولُ شَهيدًا عَلَيْكُمْ وتَكونوا شُهداءَ على الناسِ ﴾ . لقد اختارَ اللهُ المسلمين وسَمَّاهم لِيَكون الرسولُ محمد ﷺ شهيدًا على أُمَّته بتبليغه إيَّاهم ، وتَكون الأُمَّةُ المحمدية الإسلامية شاهدةً على الأُمم أنَّ رُسُلَهم قَد بَلَّغَتْهُم .

لقد جَعل اللهُ الأُمَّةَ المحمديةَ وَسَطًا مَشهودًا لهم بالخيرية والعدالة ، وجميعُ الأُمم مُعترفة بفضل الأُمَّة المحمدية وعَظَمَتها ومَنْزلتها الرفيعة ، لذلك تُقبَل شهادة الأُمَّة المحمدية على الأمم يوم القيامة ، بأنَّ الأنبياء قَد بَلَّغوا الوَحْيَ الإلهيَّ ، والرسولُ محمد ﷺ يَشهد على أُمَّته بأنَّه بَلَّغها . وشهادةُ الرسول محمد ﷺ لِنَفْسه مَقبولة ، لأنَّه صادقٌ وأمينٌ ومَعصوم .

(٣٦) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٠٤) برقم (٢٨٧٣)، ومسلم (٣/ ١٣٥٩) برقم (١٧٣٣).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٥٧) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمينَ ﴾ في الْمُشار إِلَيه قَولان : أحدهما أنَّه اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ، فعلى هذا في قَوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ قَولان : أحدهما مِن قَبْل إنزال القُرآن سَمَّاكم بهذا في الكُتب التي أنزلها . والثاني مِن قَبْل ، أي في أُمِّ الكتاب. وقَوْلُه : ﴿ وفي هذا ﴾ أي في القُرآن. والثاني أنه إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسلِمةً لَكَ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .فالمعنى مِن قَبل هذا الوقت، وذلك في زمان إبراهيم عليه السلام ، وفي هذا الوقت حين قال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسلِمةً ﴾ . هذا قَول ابن زيد)) اهـ .

وفي صحيح ابن حبان (١٤/ ١٢٤) أنَّ النبيَّ ﷺ قال:((فادْعُوا بِدَعوى اللهِ الذي سَمَّاكم المسلمين المؤمنين ، عِبادَ الله)) .

ينبغي تركُ صفاتِ الجاهلية القائمة على العنصرية والقَبَلِيَّة والتمييز العِرْقي ، والالتزامُ بالإسلام قَوْلاً وفِعلاً . فاللهُ قَد سَمَّانا المسلمين المؤمنين ، فينبغي الاعتزاز بهذه التسمية ، والقيام بأداء حَقِّها على أحسن وجه. وذلك بالتَّحلي بالأخلاق الإسلامية ، ونشر الدَّعوة ، ورَفض الصفات القبيحة.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عَلَيها لا تبديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُون ﴾[الرُّوم : ٣٠] .

فَأَخْلِصْ دِينَكَ للهِ ، واعبده وَحْدَهُ لا شريك له ، مائلاً عَن كُل دِين باطل إلى الإسلام (الدِّين الحق) ، وثابتًا عليه ، ومُتَمَسِّكًا به ، ومُستقيمًا على مِنهاجه . وخُصَّ الوجه بالذِّكر لأنه أشرفُ الأعضاءِ، وجامعُ حواس الإنسان.والخطابُ للنبيِّ ﷺ لأنه القائد والزعيم ، وأُمَّته داخلة في هذا الخطاب باتِّفاق العلماء ، لأنها تابعة له ﷺ ، وخاضعة لأمره وحُكمه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٧٢) : ((يقول تعالى : فَسَدِّدْ وَجْهَكَ ، واستمر على الدِّين الذي شرعه الله لك مِن الحنيفية مِلَّة إبراهيم، الذي هداك الله لها وَكَمَّلها لك غاية الكمال)) اهـ.

ومَن اهتمَّ بِشَيء، فهو يُقْبِل عليه، ويُركِّز فيه النَّظَر، ولا يُعْرِض عنه ، ولا يلتفت يمينًا وشمالاً.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٥) : ((﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفًا ﴾ فَقَوِّمْهُ له غَير مُلتفِت أو مُلتفِت عنه ، وهو تمثيل للإقبال ، والاستقامةِ عليه ، والاهتمامِ به)) اهـ .

والإسلامُ (الدِّين الحق) الذي أمرَ اللهُ محمدًا ﷺ أن يستقيم عليه ، هو خِلقة الله التي خَلَقَ الناسَ عليها ، وهو فِطرة التَّوحيد . وقد فَطَرَ اللهُ خَلْقَه على معرفته وتَوحيده ، وأن لا إله إلا هُوَ .

و﴿ فِطْرَةَ اللهِ ﴾ هِي دِين الله . وهو منصوب بِفِعل مُقَدَّر ، والمعنى : الْزَمْ فِطرةَ اللهِ .

وعن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((مَا مِن مَولودٍ إلا يُولَد على الفِطْرة ، فأبواه يُهَوِّدَانِهِ ، أو يُنَصِّرَانِهِ ، أو يُمَجِّسَانِهِ))[37].

المولودُ لو تُرِكَ وَحِيدًا دُون مُؤثِّرات خارجية ، فإنه سيهتدي إلى وجود الخالق الواحد الأحد ، الذي ليس له شريك . ولكنَّ تَوجيه الأبَوَيْن ذو تأثير حاسم في عقيدة هذا المولود .

واللهَ فَطَرَ خَلْقَه على الإسلام ، ولكنَّ بعضهم اعتنقَ الأديانَ الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ... إلخ ، بسبب تأثيرات الأبوين والبيئةِ ، أو مصالح شخصية ، أو اتِّباع الشهواتِ والأهواءِ الفاسدة ، أو التقليد الأعمى ، أو وجود شُكوك ووساوس ، أو كُلها مَعًا أو بعضها .

والفِطرةُ هي ما أُخِذَ عليهم في أصلاب آبائهم ، حتى يحصل التغيير بتأثير الأبَوَيْن . أو : هي ما قضى عليه مِن سعادة أو شَقاوة يصير إلَيها .

والعقيدةُ الصحيحة في هذا السياق أن الْمُهتدي هو مَن هَداه اللهُ ، والإنسانُ لا يَهتدي بذكائه أو مهاراته الشخصية، وإنما بِهَدْيِ اللهِ اهتدى. واللهُ تعالى أرادَ هدايةَ بعض عباده، وهُم الْمُهتدون ، ولَم يُرِدْ هَدايةَ الآخرين ، ولو أرادَ اللهُ هدايةَ الناس جميعًا لاهْتَدَوْا فَوْرًا بلا تأخير .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧) أنَّ النبيَّ ﷺ قال حِكايةً عن اللهِ تعالى : ((وإني خَلقتُ عبادي حُنفاءَ كُلَّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عَن دِينهم)) .

إنَّ العباد مخلوقون حُنفاء بلا استثناء . أي إنهم مَوْلودون على الفِطرة (توحيد الله) . لكنَّ الشياطين أوردتهم المهالك ، فانحرفوا عن الطريق المستقيم . واللهُ خَلق عبادَه كُلهم حنفاء ، أي مُسلمين.وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٩٧):((وقِيل: طاهرين من المعاصي، وقِيل : مُستقيمين مُنيبين لقبول الهداية ، وقِيل : المراد حين أخذ عليهم العهد في الذَّر)) .

وإن الشياطين أزالوا الناسَ عن الحق وجالوا معهم في الباطل . فالشياطين دفعوا الناسَ إلى الانحراف ، ضمن فوضى عبثية ضاع فيها الإنسان بسبب ابتعاده عن المنهج الإلهيِّ .

---

(٣٧) متفق عليه . البخاري (١/٤٥٦) برقم (١٢٩٢) ، ومسلم (٤/٢٠٤٧) برقم (٢٦٥٨) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣١٨) : ((فَكُل فرد من أفراد الناس مَفطور : أي مخلوق على مِلَّة الإسلام ، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفِطْرِيَّيْن ، وإنما يُعتبَر الإيمان والإسلام الشرعيان . وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم ، وقول جماعة من المفسرين ، وهو الحق)) اهـ .

﴿ لا تبديلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾. لا تَغيير للإسلام (دِين الله) ، ولا تبديل للفِطرة السليمة(فِطرة التَّوحيد) التي خَلَقَ اللهُ الناسَ عليها . لا تَغيير لِدِين الإسلام وفِطرةِ التَّوحيد مِن جِهة الخالق . وما ينبغي أن تُبَدَّل تلك الفِطرة أو يتم تغييرها.والمعنى: لا تُغيِّروا دِينَ اللهِ،ولا تَتركوا الإسلامَ والتَّوحيدَ. فهذا لا يجوز، ولا يَنبغي لعاقلٍ أن يَفعله . والآيةُ تدل على أن الناس جميعًا مُشتركون في أصل خِلْقتهم ، ولا اختلاف بينهم في ذلك ، ولا يستطيع أحد أن يُغيِّر طبيعة نفوسهم الأصلية . ومَن حَكَمَ اللهُ عليه بالسعادة فهو مِن أهل الجنة، ولا يَقْدِر أحد أن يُغيِّر حُكْمَ اللهِ. ومَن حَكَمَ اللهُ عليه بالشقاوة فهو مِن أهل النار ، ولا يَقْدِر أحد أن يُغيِّر حُكْمَ الله .

وقال النسفي في تفسيره (٣/ ٢٧٣) : ((فالمعنى أنه خَلَقهم قابلين للتوحيد والإسلام ، غَير نائين عنه ، ولا مُنكِرين له ، لِكَوْنه مُجَاوِبًا للعقل ، مُسَاوِقًا للنظر الصحيح ، حتى لو تُرِكُوا لَمَا اختاروا عليه دِينًا آخَر ، وَمَن غَوى منهم فبإغواء شياطين الجن والإنس)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٦٩) : ((فَمَن حَمَلَ الفِطرة على الدِّين قال: معناه : لا تبديل لِدِين الله ، وهو خبر بمعنى النَّهْي ، أي : لا تُبدِّلوا دِينَ الله . قال مجاهد وإبراهيم : معنى الآية : الْزَمُوا فِطرةَ الله ، أي دِين الله ، واتَّبعوه ، ولا تُبَدِّلُوا التَّوحيد بالشِّرك ... وقِيل : لا تبديل لِخَلْق الله ، أي : ما جُبِلَ عليه الإنسان مِن السعادة والشَّقاوة لا يَتَبَدَّل ، فلا يصير السعيدُ شَقِيًّا ، ولا الشَّقِيُّ سعيدًا)) اهـ . وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧) أنَّ أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: ((مَا مِن مَولود إلا يُولَد على الفِطرة)) ، ثُمَّ يَقول : اقرؤوا : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عَلَيها لا تبديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ . اعتناقُ الإسلامِ والتَّمَسُّك بالشريعة ولُزوم فِطرة التَّوحيد ، هو الدِّين المستقيم الذي لا عِوَج فِيه ولا لَبْس . و﴿ القَيِّمُ ﴾ هو بناء مُبالَغة مِن القِيام الذي يعني الاستقامة.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٥) : ((﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الدِّين المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفِطرة إن فُسِّرَتْ بالمِلَّة ﴿ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه)) اهـ .

﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُون ﴾ . ولكنَّ أكثر الناس جُهَّال غارقون في الأهواء والشُّهوات والشُّبهات والمصالح الشخصية والتقليد الأعمى ، فلا يَتفكَّرون في الحق ، ولا يَعْرِفُون مَسارَهم ومَصيرَهم ، لذلك غرقوا في الكُفر والجهل ، ولَم يَهتدوا إلى الإسلام (الدِّين الحق) . والناسُ أعداءُ ما يَجْهَلون . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٠٢) : ((﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ ﴾ يعني كفار مكة ، ﴿ لا يَعْلَمُون ﴾ تَوحيدَ الله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ [لُقمان : ٢٢].

مَن يُطِع اللهَ مُخْلِصًا له، ومُفَوِّضًا أمْرَهُ إليه ، وخاضعًا لِحُكمه ، وسائرًا وَفْقَ شريعته ، وهو مُؤمِن مُوَحِّد ، يَجمع بين الإيمان والإحسان ، ويَلتزم بأوامر الله ، ويَجتنِب نَواهيه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٦٩) : ((لأن العبادة مِن غَير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع)) اهـ .

وفي حديث جبريل الشهير في صحيح مسلم (١/ ٣٦) أنَّ النبيَّ ﷺ عرَّف الإحسانَ بِقَوله : ((أن تَعبدَ اللهَ كأنك تراه ، فإن لَم تكن تراه فإنه يراك)) .

﴿ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ فقد اعتصمَ بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه ، وعقدَ لِنَفْسِه عَقْدًا وثيقًا دائمًا ، لا يَنقطع ولا يزول. والآيةُ تدل على الْمُبالَغة في التَّمَسُّك ، والثبات على الحق والهدى .

وأوثق العُرى الإخلاصُ للهِ تعالى ، فهو باقٍ ودائمٌ لا يَزول ولا يَنقطع ، وكُل ما سِواه هالك مُنقطِع. وهذا يدل على قُوة الاتصال بالله تعالى، التي تَقُود إلى تنوير القلب ، وانشراح الصدر، والإقبال على الطاعات، والحرص على الآخرة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٩) : ((﴿ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ تَعَلَّقَ بأوثق ما يُتعلَّق بِه،وهو تمثيل للمُتَوَكِّل الْمُشتغِل بالطاعة بِمَن أراد أن يَترقَّى إلى شاهق جبل ، فَتَمَسَّكَ بأوثق عُرى الحبل الْمُتَدَلِّي مِنه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فاسْتَمْسِكْ بالذي أُوحِيَ إلَيْكَ إنَّكَ على صِراطٍ مُستقيم﴾[الزُّخْرُف : ٤٣].

يأمرُ اللهُ رَسولَه محمدًا ﷺ أن يتمسَّك بالقُرآن، ويَعمل به، وإنْ كَذَّبَ بِهِ الكافرون . والنبيُّ ﷺ على الحق الواضح ، يَسير على الطريق المستقيم الموصل إلى الجنة . ومهمةُ النبيِّ ﷺ تنحصر في الدَّعوة ، أمَّا هدايةُ الناس فهي بيد اللهِ مالِكِ قُلوبِهم .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ٤٨) : ((﴿ فاسْتَمْسِكْ بالذي أُوحِيَ إلَيْكَ ﴾ مِنَ الآيات والشرائع، سواءٌ عَجَّلْنا لكَ الموعودَ أو أخَّرْناه إلى يوم الآخِرة. وقُرِئَ " أَوْحَى" على البناء للفاعل، وهو اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ . ﴿ إنَّكَ على صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ تعليل للاستمساك أو للأمر به)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفَمَن يمشي مُكِبًّا على وَجْهِهِ أهدى أمَّن يمشي سَوِيًّا على صِراطٍ مُستقيم ﴾ [الْمُلْك : ٢٢].

هذا مَثَلٌ دقيق وواضح ضَرَبَه اللهُ تعالى لبيان حال الكافر التَّائه الحائر الضَّال الذي يمشي مُنْحَنِيًا في طريقه غَير مُبصِر ، لا يعرف أين يذهب، لأنه اتَّخذَ مِن الضلالة منهجًا حياتيًّا، وبيانِ حال المؤمن الذي يمشي في درب واضح مستقيم مُنتصِب القامة يَعرف نُقطتَي البداية والنهاية ، ويُبصِر الطريقَ بوضوح . هذا حالهم في الدُّنيا . وأيضًا حالهم في الآخرة ، فالمؤمنُ مُبصِر ومستقيم ويمشي على طريق مستقيم مُوصِل إلى نعيم الجنة ، والكافرُ يَمشي على وجهه إلى عذاب النار .

إنَّ الكافرَ عاشَ حياته غارقًا في الشَّهوات، ومُكِبًّا على الملذَّات، وتائهًا في الجهل والضلال ، فهو يَمشي ساقطًا على وجهه، يَمشي ويَتعثَّر ، لأنه لا يُبصِر طريقَه ، ولا يَعرف مسارَه ولا مصيرَه. ولا يَذهب بعيدًا مَن لا يَعرف إلى أين هو ذاهب . والجزاءُ مِن جِنس العمل .

أمَّا المؤمنُ فعاشَ حياته في طاعة اللهِ ، على بصيرة وعِلْم ويقين ، يَعرِف مَسارَه ومَصيرَه ، يُدرِك طريقَه في الحياة، ويُفكِّر بما بعد الموت، فهو يَمشي مُستقيمًا مُنتصِبًا، لا يَتعثَّر ولا يَتخبَّط ولا يَتردَّد، فالمؤمنُ مستقيم في ذاته، ويَمشي على طريق مستقيم . وهذا هو نُور الهداية في أسمى مَعانيه .

والسِّياقُ القُرآنِيُّ لَم يُورِد جوابَ الاستفهام الإنكاري ، لأن العقل يعرف أن الأهدى هو الذي يمشي سَوِيًّا على صراط مستقيم . والأمرُ الواضحُ لا يَحتاج إلى توضيح. والآيةُ تَدفع السامعَ إلى التفكر والتفكير ، ومعرفة الفروقات بين المؤمن والكافر عبر استحضار الأمثلة القرآنية في ذهنه وتحليلها ، وربطها بالواقع ، ليكون التأثير بالغًا وبليغًا في آنٍ مَعًا .

وكُل هذه الْمُقابَلات بين المؤمن والكافر ، إنما تهدف إلى تمييز الصالح مِن الطالح ، والتفريق بين أهل الإيمان (أصحاب النُّور) وأهلِ الكفر (أصحاب الظلمات) . وصدقَ القائل : وبِضِدِّها تتبيَّن الأشياء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٢٣) : ((ضرب مَثَلاً ، فقال تعالى : ﴿ أفَمَن يمشي مُكِبًّا على وَجْهِهِ ﴾ . قال ابن قُتَيبة : أي لا يُبصِر يَمينًا ولا شمالاً ، ولا مِن بين يَدَيْه . يُقال : أَكَبَّ فُلان على وجهه _ بالألف _ ، وَكَبَّهُ اللهُ لوجهه ، وأراد : الأعمى . قال المفسِّرون : هذا مَثَل للمؤمن والكافر ، والسَّوِيُّ الْمُعتدِل أي الذي يُبصِر الطريقَ . وقال قتادة : هذا في الآخرة ، يَحشر اللهُ الكافر مُكِبًّا عَلى وجهه ، والمؤمن يَمشي سَوِيًّا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤمِن بِرَبِّهِ فلا يَخافُ بَخْسًا ولا رَهَقًا ﴾ [الجن : ١٣].

هذا كلام الجِن . قالت الجِن : وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا القُرآنَ الذي يَهدي إلى الحق والخير والطريق المستقيم ، صَدَّقْنا بِه وباللهِ الذي أنزله ، وصَدَّقْنا محمدًا ﷺ في نُبُوَّته ورسالته . فَمَن يُصدِّق باللهِ فلا يَخاف أن يُنقَص مِن حسناته ، ولا أن يُزاد في سَيِّئاته . والبَخْس النُّقصان ، والرَّهَقُ العُدوان .

وفي الآية دَلالة على أنَّ المؤمن باللهِ والقُرآنِ ينبغي عليه أن يجتنب الظُّلم والمظالم .

وكلامُ الجِن يدل على افتخارهم بالإيمان ، فقد آمَنوا بلا تردُّد ولا تأخير . ولا شَكَّ أن الإيمان هو مَبْعَث الفَخْر والشرف والمجد . والمؤمنُ يَفتخر بإيمانه ، ويَتشرَّف بِه .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ النبيَّ محمدًا ﷺ مَبعوث إلى الإنس والجِن ، بلا فرق ولا تمييز . والرسالةُ المحمديةُ الإسلاميةُ هي الرسالةُ السماويةُ الوحيدةُ التي تَمتاز بالعالمية والعُموم والشُّمول. وهذا يُشير إلى تَمَيُّز النبيِّ محمد ﷺ وَتَقَدُّمِه على باقي الأنبياء، فهو خَاتَمُ الأنبياء والمرسَلين وأفضلهم وأعظمهم، ورسالته هي خاتمة الرسالات السماوية وأفضلها وأعظمها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٨٠) : ((﴿ وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا الْهُدى ﴾ وهو القُرآن الذي أتى به محمد ﷺ ، ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ أي : صَدَّقْنا أنه مِن عِند الله عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿ فَمَن يُؤمِن بِرَبِّهِ فلا يَخافُ بَخْسًا ﴾ أي : نَقْصًا مِن الثواب ﴿ ولا رَهَقًا ﴾ أي : ولا ظُلْمًا ومَكْرُوهًا يَغشاه)) اهـ .

خَامِسًا : الإخلاص في الدِّين

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفُلْك دَعَوُا اللهَ مخلِصين له الدِّين فلما نجَّاهم إلى البَر إذا هُم يُشركون ﴾ [العنكبوت : ٦٥] [38].

هذا يشير إلى أن الإنسان في الشدائد يعود إلى الأصل الثابت الكامن في نفسه وهو توحيد الله تعالى . فحينما يُوقِن الفردُ بالهلاك يَتوجَّه ــ بكل جوارحه ــ إلى خالقه وَحْدَه . لكنه حينما يشعر بالأمان يعود إلى طبعه الأول وهو الشِّرك بالله تعالى افتراءً عليه . فالفِطرةُ الإنسانية خاضعة

(٣٨) قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٨) : ((وقد ذَكَرَ محمد بن إسحاق عن عِكرمة بن أبي جهل أنه لَمَّا فَتح رسولُ الله ﷺ مكة ، ذهب فَارًّا مِنها ، فلمَّا رَكِبَ في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها : يا قَوم ، أَخْلِصُوا لربكم الدعاء ، فإنه لا يُنجِّي هَهُنا إلا هُوَ ، فقال عِكرمة : واللهِ لَئِن كان لا يُنجِّي في البحر غَيْرُه ، فإنه لا يُنجِّي في البَر أيضًا غَيْرُه ، اللهُمَّ لكَ عليَّ عهد ، لَئِن خرجتُ لأذهبنَّ فلأضعنَّ يدي في يد محمد ، فلأجِدَنَّه رَؤوفًا رحيمًا ، فكان كذلك)) .

لإلهٍ واحد لا شريك له ، لكن المصالح الشخصية وغياب الهداية وتزيين الشيطان تُؤدِّي إلى الشِّرك . والناسُ _ على اختلاف عقائدهم وأجناسهم _ يؤمنون في قرارة أنفسهم بأن هذه الموجودات لها صانع حكيم هو الله تعالى . حتى الملحِدُ يؤمن في قرارة نَفْسه بوجود الله ، لكنه يُكابِر ويُعانِد ويضحك على نَفْسه بأن يخترع أوهامًا ومبادئ فاسدة . والكلُّ يتوجَّه في الشدائد إلى الله الواحد الأحد الْمُنَزَّه عن الشريك والنِّد. وهنا تتجلى العودةُ إلى الفِطرة ، والنواةِ الإيمانية الأساسية الكامنة في العنصر البشري . فالبشرُ يُدركون عجزَهم وخضوعهم لقوةٍ عُليا ، هي قوة الخالق العظيم ، صانعِ الأشياء ، ومُوجِد الحياة بكل تفاصيلها. ولا يُوجد إنسان_مهما كانت عقيدته _ يقول إنه خَلَقَ نَفْسَه . إنَّ المخلوق هو صُنع الخالق ، وكُل مَوجود في هذا الوجود ، هُناك مَن أوجده . وعلى سبيل المثال، لا يُوجد كرسي بدون نَجَّار، ولا يوجد باب حديدي بدون حَدَّاد ، ولا قصيدة بدون شاعر . ولا يُوجد مخلوق بدون خالق ، ولله الْمَثَلُ الأعلى .

إنَّ الآية تُقيم الْحُجَّةَ على المشركين . إذا ركبوا في السُّفن ، وخافوا الغرقَ ، تَوَجَّهُوا بالدعاء إلى الله وَحْدَه ، صادقين في نِيَّاتهم، تاركين عبادةَ الأصنام ودُعاءها. يُخْلِصُونَ له الدُّعاءَ لِعِلْمهم أنَّ الله وَحْدَه هو القادر على إنقاذهم مِن الغرق، وكشف المصائب والشَّدائد ، وتفريج الكُرُبات .

فلمَّا أنقذهم اللهُ مِن الغرق ، وكَشَفَ عنهم الشِّدةَ ، وخلَّصهم مِن أهوال البحر ، وأوصلهم إلى بَر الأمان سالمين ، إذا هُم يَعُودون إلى كُفرهم وشِركهم ، كأنَّ شيئًا لَم يكن . ناسِينَ الله الذي أنقذهم مِن الشِّدة والكَرْب . وهذا يدل على عنادهم ، وجهلهم ، وقلوبهم الفاسدة ، وأخلاقهم الذميمة ، وغرقهم في المصالح المادية الضَّيقة . وكلمة ﴿ مخلِصِين ﴾ تَحْمِل معنى التَّهَكُّم والسُّخرية بِهم.فَهُم مُشرِكون عُبَّاد أصنام، ولكن عِندما يَخافون على حياتهم ومصالحهم الشخصية، يُصبحون مُخلِصين ، ويتركون الشِّرك وراء ظُهورهم ، ويَتَوَجَّهُون إلى اللهِ وَحْدَه ، ناسين آلهتهم الأصنام .

إنَّ عقيدة المشركين قائمة على المصالح المادية والمنافع الشخصية.فعند الشدائد والأزمات ، يَدْعُون اللهَ وَحْدَه. وفي حال الرخاء والغِنى والازدهار، يُشْرِكُون باللهِ ، ويَعبدون الأصنام والأوثان.

وفي تفسير البغوي (١/ ٢٥٥) : ((قال عِكرمة: كان أهلُ الجاهلية إذا رَكبوا البحرَ حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتدت بهم الريح أَلْقَوْها في البحر ، وقالوا : يا رَب ، يا رَب)) اهـ .

وهذا يدل على عَوْدتهم إلى فِطرة التوحيد (النواة الأساسية) التي لَم تتلوَّث بالإفرازات الاجتماعية ، والتأثيراتِ الفكرية المنحرِفة . ففي لحظة الشِّدة ، عادوا إلى التوحيد ، وتخلَّصوا من

الأصنام ، ودَعَوُا اللهَ وَحْدَه لا شريك له . فلمَّا أنقذهم اللهُ من الغرق ، عادوا إلى الشِّرك ، كأن شيئاً لَم يَكُن . وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٢٣) عن شِرْكهم : ((أي : يَدْعون معه غَيْرَه ، وما لَم يُنَزِّل به سُلطانًا . وقِيل : إشراكهم أن يقول قائلهم: لَوْلا الله والرئيس أو الملاح لَغَرِقْنا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٠١) : ((بَيَّنَ سُبحانَه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرد تأثير الحياة ، فقال : ﴿ فإذا ركبوا في الفُلْك دَعَوُا اللهَ مخلِصين له الدِّين ﴾ ، أي : إذا انقطعَ رجاؤهم من الحياة ، وخافوا الغرق ، رجعوا إلى الفِطرة ، فَدَعَوا اللهَ وَحْدَه كائنين على صورة الْمُخْلِصين له الدِّين ، بِصِدق نِيَّاتهم ، وتركهم عِند ذلك لِدُعاء الأصنام ، لِعِلْمهم أنه لا يكشف هذه الشِّدة العظيمة النازلة بهم غَيْرُ اللهِ سُبحانَه)) اهـ .

والإخلاصُ والتوحيد يشيران إلى خطورة الشِّرك الأكبر (الْمُخْرِج مِن المِلَّة) والشِّركِ الأصغر (غَير المُخرِج من المِلَّة). فالمقارنةُ بين الأضداد تقود إلى فهم أكثر تماسكًا . فعن شَدَّاد بن أوس ــ رضي الله عنه ــ قال : ((كُنَّا نَعُدُّ على عهد رسول الله ﷺ أنَّ الرِّياءَ الشِّرْكُ الأصغر))[39].

وتسميةُ الرِّياء بالشِّرك الأصغر تَغليظًا له ، وتَخويفًا مِنه ، ومُبالَغةً في الزَّجْر عنه .

والرِّياءُ أن لا يُقصَد بالعمل وجه الله تعالى، وهذا مُحْبِط للعمل وفق درجات متفاوتة . كما أنه أمر بالغ الخطورة ، لأنه يُفقِد العباداتِ معناها الحقيقي عبر توجيهها إلى غير الله تعالى ، كما يُفقد الإنسانَ متعة الإخلاص وحُسن أداء الشعائر الدينية ، ويُعرِّض الإنسان لغضب الله في الدارَيْن .

فينبغي أن تُترَك ملاحظة العمل لا العمل . فعلى المرء أن يسعى بكل جوارحه إلى عبادة الله تعالى دون النظر إلى تعليقات الناس ، أو التوقف عند رأيهم . أي إنه يُقبِل على العمل ويُهمِل ملاحظة العمل التي قد تنشأ في كلام الناس ورؤيتهم له . فمن يَعرف طريقَه لا يلتف أثناءَ سَيْره . فالعابدُ لا يهتم بالأحكام البشرية ، نَفْيًا أو إثباتًا ، سَلْبًا أو إيجابًا ، لأنه لا يرى إلا اللهَ تعالى .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٥١٣) : عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه رَجل اسْتُشْهِد، فأُتِيَ به فعرَّفه نِعَمَه فعرفها . قال : فما عملتَ فيها؟، قال:قاتلتُ فيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ . قال : كذبتَ، ولكنكَ قاتلتَ لأن يُقال: جريء، فقد قِيل . ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِيَ في النار . ورجلٌ تعلم العلمَ وعلَّمه وقرأ القرآنَ فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ ، قال : تعلمتُ العلمَ وعلَّمْتُه وقرأتُ فيك

(٣٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣٦٥) برقم (٧٩٣٧) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي .

القرآن. قال : كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العِلم لِيُقال: عالِم ، وقرأتَ القرآنَ لِيُقال : هو قارئ ، فقد قِيل . ثُمَّ أُمِرَ به فسُحب على وجهه حتى أُلقيَ في النار . ورَجلٌ وسَّع اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كُلِّه ، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملتَ فيها ؟، قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك . قال : كذبتَ ، ولكنك فعلتَ لِيُقال : هو جواد ، فقد قِيل ، ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِب على وجهه ثم أُلقيَ في النار)) .

وهكذا نرى خطورة الرياء ، وانعدامِ الإخلاص لله تعالى . فالْمُرائي شخصٌ يريد بعمله أن ينال ثناءَ الناس والحظوةَ عندهم . وقد تَمَّ مدحه والإطراء عليه ووصفه بالجرأة والعِلم والكرم ، لكنه قد أخذ نصيبَه في الدنيا ، وما له في الآخِرة مِن نصيب .

فالْمُقاتِلُ الذي مارس فِعل القتال في المعركة بكل بسالة وإقدام كان يقصد نيل مديح الآخرين، والإعجاب به ، والثناء عليه بأنه شجاعٌ مِقدام ، وجريء لا يخاف الموتَ . فهذا القصدُ الوضيع كان الدافع لعمله ، فلم يُقاتِل لتكون كلمةُ الله هي العليا ، إذ إن هَمَّه محصور في لفت أنظار الناس والحصول على الإطراء منهم . وكثير من القادة العسكريين الذين يتبخترون أمام وسائل الإعلام مع أنهم لَم يُحرِّروا ذُبابةً ، نراهم وقد امتلؤوا فَخْرًا زائفًا ، وبريقًا وهميًّا . ويُحِبُّون أن يُحمَدوا بما لم يَفعلوا . وحتى لو قاتلوا فإنهم يُقاتِلون دفاعًا عن الحاكم الفلاني ، أو النظام السياسي، أو تَعَصُّبًا لقومية مُعيَّنة ، أو عِرْق مُحدَّد ، أو مذهب سِياسي مُنحرِف . وهؤلاء بعيدون كُل البُعد عن الإخلاص ومعرفةِ القصد الحقيقي وراء التضحية بالنَّفْس التي هي أغلى ما يملكه الإنسان . وقبل أن يُضحِّيَ الفرد بنفْسه ، عليه أن يسأل ذاته عن سبب التضحية . فإن كان يُقاتِل من أجل الله تعالى فليتقدم واثقًا بالموعود الإلهيِّ،إمَّا النصر أو الشهادة. أمَّا إن كانت نِيَّته غَير ذلك ، فينبغي أن يُعيد حساباته ، ويُقيِّم الموقف مِن جديد. فالتضحيةُ بالنَّفْس ذهابٌ بلا عودة ، ولا توجد فُرصة للتعويض . فلا بد أن يكون هدف التضحية ساميًا . ولا يوجد أسمى من الإخلاص لله تعالى كهدف وحيد .

والذي تعلَّم العِلمَ ، وزاحمَ العلماء في مجالسهم . وقام بقضاء الليالي في الدراسة ، وأعطى الدروس للطلاب ، وألَّفَ الكُتب ، ونَشَرَ العِلمَ في كل الاتجاهات . كلُّ ذلك لا فائدة منه إذا كانت النيةُ غير خالصة لله تعالى. فكثيرٌ من طلبة العِلم إنما يهدفون لنيل مكانة اجتماعية مرموقة ، وأن يُوَسَّع لهم في المجالس ، ويُوصفوا بالعلماء . فترى الواحد منهم يقضي حياته طالبًا للعِلم مِن أجل شهادة ورقية تزيد راتبَه الشهري أو تضمن له ترقية جامعية ، أو مَنْزلة سامية بين أقرانه . فصار

العِلمُ للأسف من أجل إضافة حرف " د " إلى بداية الاسم . وصار الواحدُ يطلب العِلمَ لكي يُوصف بالدكتور أو البروفسور أو العلامة ، فيتصدر المجالس ، ويقتحم عالَم اللقاءات التلفزيونية ، ويجلس مع عِلية القوم من السياسيين ورجال الأعمال لتحقيق منافع شخصية لا تمتُّ للحياة العلمية بِصِلة . وهؤلاء خاب مسعاهم ، ولم يذوقوا حلاوة الإخلاص في طلب العِلم ، لأنهم غرقوا في الألقاب العِلمية ، فَشُغِلُوا بها عن القيمة الشريفة للعِلم . وصدق القائل :

وَلَم أَقضِ حَقَّ العِلم إن كان كُلما   بدا طَمعٌ صَيَّرْتُه لِي سُلَّما

أمَّا الذي تَصَدَّق بأمواله رِياءً وسُمعة ، وأنفقَ في دروب الخير ليُقال إنه جواد ومُحسِن. فإنفاقُه سيكون وبالاً عليه، لأنه لَم يقصد وجهَ الله تعالى، ولَم يعرف حقَّ خالقه الرزاق الذي منحه الأموال، فأنفقها للفت انتباه الناس، والحصول على إعجابهم وتقديرهم، وكَيْل المديح له . وبالتالي فإن نيته الفاسدة سوف تُورده المهالك لأنه حصر هَمَّه في أغراض دُنيوية بائسة وزائلة ، وَلَم ينظر إلى النعيم الْمُقيم ، لذلك فقد أخذَ نصيبه مِن الدنيا ، مديحًا زائلاً وإعجابًا مُؤقتًا وإطراءً لا يَدوم . وفي الآخرة سيأتي صِفر اليدين مأزورًا لا مأجورًا .

وعلى الإنسان أن يُسقِط الناسَ من حساباته ، ليس بمعنى احتقارهم . بل بمعنى الإيمان بأنهم لا يملكون مِن أمرهم شيئًا ، وليس بيدهم النفع ولا الضَّر . وبالتالي يُركِّز جهودَه على تنقية عبادته مِن أية شائبة رِياء ، مُعْتَصِمًا بالإخلاص في أدق التفاصيل ، لأن مديح الناس سُرعان ما يَذهب أدراج الرياح ، إذ إن إرضاءهم غاية لا تُدرَك . وكما قال أحدهم : ((نظرتُ إلى الناس فرأيتُهم مَوتى ، فكبَّرتُ عليهم أربع تكبيرات ، ـــ يعني أنه صلى عليهم صلاة الجِنازة ـــ)) .

سَادِسًا : المسلمون

قالَ اللهُ تعالى:﴿قُل إنما يُوحَى إلَيَّ أنما إلَهُكُم إلهٌ واحدٌ فهل أنتم مسلمون ﴾[الأنبياء : ١٠٨].

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنما أوحى إِلَيَّ رَبِّي وأعلمني وأخبرني أنه هُوَ اللهُ الإله الْمُستحِق للعبادة وَحْدَه . إله واحدٌ في ذاته ، وواحدٌ في صفاته ، لا شريك له ولا نِد . فلا يَنبغي الإشراك بِه ولا يَجوز ذلك . فهل أنتم خاضعون للهِ ، ومُنقادون مُخْلِصُون لعبادته وتَوحيده، ومُذْعِنُون لأمره ، ومُستسلمون لِحُكمه ، وتاركون لعبادة الأصنام والأوثان ؟ . وهذا الاستفهام معناه الأمر . يعني : أسْلِمُوا للهِ ، وانقادوا لأمره وحُكمه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١١١) : ((﴿ قُل إنما يُوحَى إلَيَّ أنما إلَهُكُم إلهٌ واحدٌ ﴾ أي: ما يُوحَى إلَيَّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد،وذلك لأن المقصود الأصلي مِن بِعثته مقصور على التوحيد ، فالأُولَى لِقَصْر الْحُكم على الشيء ، والثانية على العكس . ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ مُخْلِصون العبادة لله تعالى على مُقْتَضَى الوَحْي الْمُصَدَّق بالْحُجَّة،وقد عَرفتَ أن التوحيد مِمَّا يَصِح إثباته بالسَّمْع)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هِيَ أحسنُ إلا الذينَ ظلموا مِنهُم وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم وإلَهُنا وإلَهُكُم واحدٌ ونحنُ لَهُ مُسلِمون ﴾[العنكبوت : ٤٦] .

الخِطابُ للمؤمنين . لا تُناقِشوا وتُحاوِرُوا أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلا بالأسلوب الحسن ، والطريقةِ اللطيفة ، والْحُجَّةِ الدامغة ، وبيانِ وجوه القُصور في عقائدهم الباطلة . ينبغي دَعوتهم إلى الإسلام بالحوار الهادئ والنِّقاش الطَّيب ، وتوضيح آياتِ اللهِ وحُجَجه ، وإظهار تماسك العقيدة الإسلامية دون إكراه أو غِلْظة . أمَّا الْمُحارِبون من أهل الكتاب الذين يُناصبونكم العَداءَ، ولا يُؤمنون بالحوار ، فهؤلاء لا يُحاوَرون إلا بالسَّيف والشِّدة ، ولا يُعَامَلُون إلا بالجهاد والغِلظة . وفي الدُّر المنثور للسيوطي (٦/ ٤٦٨) : ((عن مجاهد في قَوْلِه : ﴿ ولا تجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسن ﴾ قال : إن قالوا شَرًّا فقولوا خَيْرًا، إلا الذين ظَلموا منهم فانتصِروا مِنهم)) اهـ . وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٥/ ٧٥) : ((إن الْمُشْرِك لَمَّا جاء بالْمُنكَر الفظيع، كان اللائق أن يُجادَل بالأخشَن ، ويُبالَغ في تَوْهين شُبَهه وتهجين مذهبه ، وأمَّا أهلُ الكتاب فإنهم آمَنوا بإنزال الكتب وإرسال الرُّسُل، إلا الاعتراف بالنبيِّ عليه السلام ، فَلِمُقابَلة إحسانهم يُجادَلون بالأحسَن ، إلا الذين ظَلَموا مِنهم بإثبات الولد لله ، والقَوْل بثالث ثلاثة، فإنهم يُجادَلون بالأخشَن مِن تهجين مقالتهم ، وتبيين جهالتهم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٧٥) : ((في التي هي أحسن ثلاثة أقوال ، أحدها أنها لا إله إلا الله ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس ، والثاني أنها الكَفُّ عنهم إذا بَذَلوا الجِزْيةَ، فإن أبَوا قُوتِلوا قاله مجاهد، والثالث أنها القرآن والدعاء إلى الله بالآياتِ والْحُجَجِ . قَوْله تعالى : ﴿ إلا الذين ظلموا مِنهم ﴾ ، وهُم الذين نصَبوا الحربَ، وأبَوا أن يُؤَدُّوا الجِزْيةَ ، فَجَادِلوا هؤلاء بالسَّيف ، حتى يُسلِموا أو يُعْطُوا الجِزْيةَ)) اهـ .

﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم ﴾ . وقولوا لهم : صَدَّقْنا بالقُرآن الذي أُنزِل إلَيْنا، وصَدَّقْنا بالتوراة والإنجيل التي أُنزِلت إلَيكم . وهذا مِنَ الْمُجادَلة بالتي هِيَ أحسن .

والكُتب السماوية يُصدِّق بعضُها بعضًا ، لأن مصدرها واحد، وهو السماء . والقُرآنُ وَحْدَه هو الكتاب السماويُّ المحفوظ مِن التحريف والتغيير والتبديل، أمَّا التوراة والإنجيل ، فتمَّ التلاعب بهما ، وهُما كتابان سماويان ــ في الأصل ــ، ولكن طرأ عليهما التحريف والتغيير والتبديل .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٧٩) : كان أهلُ الكتاب يَقرؤون التَّوراةَ بالعِبرانية، ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : ((لا تُصدِّقوا أهلَ الكتاب، ولا تُكذِّبوهم ، وقولوا : آمَنَّا باللهِ ، وما أُنزِل إلَينا ، وما أُنزِل إلَيكم)) .

إنَّ القُرآن هُوَ الحاكم على التوراة والإنجيل ، لأن القُرآن وَحْدَه هو المحفوظ من التحريف . وما وافقَ القُرآن كانَ حقًّا،وما خالفه كان باطلاً. وإذا أخبرَ أهلُ الكتاب بشيء لَم يُبَيِّنْهُ القُرآن، فينبغي التوقف، وعدم التَّصديق فقد يكون باطلاً . وأيضًا ، عدم التكذيب فقد يكون حقًّا . ولا يَجوز تصديق الباطل ولا تكذيب الحق.وهذا يدل على أهمية الابتعاد عن المشكلات غير الواضحة، وعدم الخوض فِيها. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥١) : ((وقوله تعالى : ﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم ﴾ يعني : إذا أَخْبَرُوا بِما لا نعلم صِدْقَه ولا كَذِبَه ، فهذا لا نُقْدِم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حَقًّا ، ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً ، ولكن نُؤمِن به إيمانًا مُجْمَلاً مُعَلَّقًا على شَرط، وهو أن يكون مُنَزَّلاً ، لا مُبَدَّلاً ، ولا مُؤَوَّلاً)) اهـ .

﴿ وإلَهُنا وإلَهُكُم واحدٌ ونحنُ لَهُ مُسلِمون ﴾ . وربُّنا وربُّكم واحد، لا شريك له، ونحن نَعبده وَحْدَه، ومُستسلمون له، وخاضعون لأمره ، ومُذْعِنُون لِحُكمه ، نُطيعه ولا نَعصيه ، نلتزم أوامرَه ، ونَجتنب نَواهيه.وهذا مِن جِنس الْمُجادَلة بالتي هِيَ أحسن.وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٣١٨): ((مُطِيعون له خاصَّة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا مِن دون الله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمَن أحسنُ قَوْلاً مِمَّن دعا إلى اللهِ وعَمِلَ صَالِحًا وقالَ إنَّني مِنَ المسلمين ﴾ [فُصِّلَت : ٣٣] [40].

---

(٤٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٥٦و٢٥٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمَن أحسنُ قَوْلاً مِمَّن دعا إلى اللهِ ﴾ فِيمَن أُريد بهذا ثلاثة أقوال : أحدها أنهم الْمُؤذِّنون. روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال : " نزلت في المؤذِّنين"،وهذا قول عائشة ومجاهد وعِكرمة.والثاني أنه رسول الله ﷺ ، دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله، قاله ابن عباس والسُّدي وابن زَيد. والثالث أنه المؤمن أجاب الله إلى ما دعاه ، ودعا الناس إلى ذلك ، وعمل صَالِحًا في إجابته، قاله الحسن. وفي قَوله: ﴿ وعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ثلاثة أقوال:

وَمَن أحسنُ مِمَّن دَعا العبادَ إلى تَوحيدِ اللهِ وطاعته، قَوْلاً وفِعلاً، وعَمِلَ الصالحات ، واكتسبَ الحسنات،وابتعد عن المعاصي والذنوب والآثام،واعتنقَ الإسلام دِينًا،وقال إنني مِنَ المستسلمين للهِ ، الخاضعين لأمره وحُكمه.والآيةُ عامة في كُل صالح مُصْلِح ، يُطيع اللهَ ولا يَعصيه . ويَدعو الناسَ إلى طاعة الله والابتعاد عن معصيته. وكانَ مُسْلِمًا مُوَحِّدًا مُخْلِصًا مُفْتَخِرًا بالإسلام . فلا شَيء أحسن منه ، ولا طريقة أوضح مِن طريقته ، ولا عمل أكثر أجْرًا مِن عَمَلِه . لقد وصلَ إلى قمة العبادة . والعِبرة بِعُموم اللفظ لا بخصوص السبب. لذلك ، الآية عامة لِمَن جمع هذه الصفات الجميلة . والمعنى العام للآية : لا أحد أحسن قَولاً مِمَّن هذه حاله .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٢٨) : ((يقول عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَن أحسنُ قَوْلاً مِمَّن دعا إلى اللهِ ﴾ أي: دعا عباد الله إلَيه ﴿ وعَمِلَ صَالِحًا وقالَ إنَّني مِنَ المسلمين ﴾ أي : هو في نَفْسه مُهْتَدٍ بِما يَقوله ، فنفعه لِنَفْسه وَلِغَيره ، لازم ومُتَعَدٍّ ، وليس هو مِن الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، ويَنْهَوْنَ عن الْمُنكَر ويأتونه ، بَل يأتمر بالخير، ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كُل مَن دعا إلى الخير ، وهو في نَفْسه مُهْتَدٍ ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك)) اهـ . وقال الزمخشري في الكَشَّاف (٤/ ١٥٦) : ((والآية عامة في كُل مَن جمع بين هذه الثلاث : أن يكون مُؤمِنًا مُعْتَقِدًا لِدِين الإسلام، عاملاً بالخير،داعيًا إلَيه، وما هُم إلا طبقة العلماء العاملين)).

سابعًا : الجاهلية

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عِمران : ١٥٤] .

إنَّ المنافقين الذين تَبَنَّوا العقائدَ الجاهلية يظنون بالله تعالى ظنونًا سَيِّئة . وهذه الظنون تتم إعادة إنتاجها في كُل العصور مِن قِبَل أهل الشُّكوك وأصحابِ العقائد الزائغة الذين يحاولون ترويجها ونشرها في المجتمعات البشرية ، من أجل التحكم بمسارها ومصيرها .

أحدها صلى ركعتين بعد الأذان، وهو قول عائشة ومجاهد، وروى إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم : ﴿ وَمَن أحسنُ قَوْلاً مِمَّن دعا إلى اللهِ ﴾ قال : الأذان . ﴿ وعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال: الصلاة بين الأذان والإقامة ، والثاني أدَّى الفرائض وقام لله بالحقوق، قاله عطاء . والثالث صام وصلى ، قاله عِكرمة)) اهـ . وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٩٢):((وقِيل إنَّ الآية نزلت في المؤذِّنين، وهذا ضعيف، لأن الآية مكية ، والأذان شُرِع بالمدينة)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٥٤): ((وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لَمَّا ظَهروا تلك الساعة أنها الفَيْصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الرَّيْب والشَّك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة)) اهـ .

وَسُوءُ الظن بالله تعالى يُشير إلى نفسية مريضة تفتقد إلى الهداية الرَّبانية . وقد كان أهل الجاهلية غارقين في سُوء الظن، إذ إنهم كانوا يظنون أن أمر النبيِّ ﷺ باطل، وأنه لا يُنصَر، ولا تقوم للإسلام قائمة . وهذا الظن السَّيئ قضى عليهم .

وَكُل فردٍ متزعزع العقيدة غير ثابت الوجدان ، سوف يَسقط حَتْمًا في ظَن الجاهلية ، ويَغرق في الشُّكوك والشُّبهات . إذ إن فساد العقيدة يُضعِف الجبهةَ الداخلية في الذات البشرية ، مما يؤدي إلى الارتباك عند الشدائد، والسقوطِ المريع أمام الأزمات ، والانهيار التام عند الفِتَن. وهذا بالتأكيد يَقتل الروحَ المعنوية للفرد والجماعة ، ويَقود إلى تشتيت الجهود المجتمعية، وتفرقةِ الصف الإنساني ، وبثِّ اليأس والقنوط والانكسار في الحياة الاجتماعية . وهذه هي الضربة القاضية التي تُنهي تماسكَ المجتمع ، وتجعله هَشًّا أمام العواصف والأزمات . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٥٨٩) : ((﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ ، هذه الجملة في محل نصب على الحال : أي : يظنون بالله غير الحق الذي يجب أن يُظَنَّ به ، وظن الجاهلية بدل منه ، وهو الظن المختص بِمِلَّة الجاهلية ، أو ظن أهل الجاهلية، وهو ظنهم أن أمر النبيِّ ﷺ باطل، وأنه لا يُنصَر،ولا يتم ما دعا إليه من دِين الحق))اهـ.

وهنا يَبْرز الفرق الواضح بين أهل الجاهلية وأهلِ الإسلام. فأهلُ الجاهلية غاطسون في سُوء الظن بالله تعالى، وينظرون إلى شريعته الخالدة على أنها أضغاث أحلام سُرعان ما تَذهب أدراج الرياح . أمَّا أهل الإسلام فهم يُحسِنون الظن بالله تعالى ويَعرفون _ حَقَّ المعرفة _ أن الشريعة ظاهرة ومنصورة ، وأن أمر النبيِّ ﷺ حق لا جِدال فيه . وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٥) : عن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ قَبْل مَوْته بثلاثة أيام يقول : ((لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِن الظنَّ بالله _ عَزَّ وجَلَّ _)) .

وهذا تحذير من اليأس من الرحمة الإلهية، والقنوطِ من عفو الله تعالى، وتنبيه على أهمية الرَّجاء عند الخاتمة (نهاية مسيرة الإنسان على هذه الأرض) . فعلى المرء أن يظن أن الله تعالى سيرحمه ويَعفو عنه . وروى ابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٤٥) عن أبي طلحة قال : ((غَشِيَنا النعاسُ ، ونحن في مَصَافِّنا _ يعني مواضعنا _ يوم بَدْر . فكنتُ فِيمَن غَشِيَه النعاس يومئذ ، فجعل

سيفي يَسقط من يدي ، وآخذه ويسقط وآخذه . والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هَم إلا أنفسهم،أجبنُ قَوم وأذَلُّه للحق، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية،أهل شَك ورِيبة في أمر الله)).

إنَّ سُوء الظن هو صِفة أصحاب الشُّكوك والقلوبِ المريضة ، العاجزين عن الثبات في ساعة الشِّدة ، لأنهم يفتقدون إلى الثقة بالله تعالى وقدرته المطْلقة . وعلى المرء أن يحرص على حُسن الظن بالله تعالى في حياته وعِند مَوته، ويرجو الرحمةَ الإلهية، ويثق بالمغفرة الربانية.وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((قال اللهُ : أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بِي)) [سبق تخريجه].

يجب على الإنسان أن يُحسِن الظنَّ بالله تعالى ، فيرجوَ اللهَ ، ويخشى ذُنوبَه ، ويُصدِّق بشكل كامل بالعَفْو الإلهيِّ ، ويكون مُتَأكِّدًا مِن سَعَة رحمة الله تعالى ، وأنها أكبر مِن كُل الآثام .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢) : ((قال القاضي : قيل : معناه بالغفران له إذا استغفر ، والقَبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب الكفاية ، وقيل : المراد به الرجاء وتأميل العَفْو ، وهذا أصح)) اهـ .

إنَّ القلب دائمًا مُتعلِّق بما أُودِع فيه. فإن زَرَعَ الإنسانُ فيه شَكًّا ورِيبة ، حَصَدَ تخاذلاً ما بعده تخاذُل. وإن زَرَعَ فيه يقينًا راسخًا حصدكُل خَير . ولا يخفى أن الشَّك آفة كُل قلب، إذ إنه يقوم بزعزعة الإيمان القلبيِّ ، وامتصاصه تدريجيًّا إلى أن يصبح القلبُ مَنْكُوسًا ، والفِطرة مُلَوَّثة . وهذا ما حصل للكثيرين طوال فترات التاريخ الْمُتعاقِبة .

وأهل الشِّرك في الجاهلية كانوا يفتقدون إلى اليقين التام والإيمان الخالص ، فأصابتهم لَوْثةُ الشِّرك الْمَقيت، وجعلوا في كل أعمالهم التَّعبدية شُركاء لله تعالى ــ بزعمهم ــ. وهؤلاء المشركون موجودون في كل عصر. وهناك عِدَّة دوافع للإشراك باللهِ تعالى، مِن أبرزها : اتِّباع الأهواء الشخصية، والحرص على المصالح المادية، وتقليد الآباء بشكل أعمى، وحُب الرئاسة والزعامة .

وقــالَ اللهُ تعــالى:﴿أَفَحُكْــمَ الجاهِلِيَّــةِ يَبْغُــونَ وَمَــنْ أحســنُ مِــنَ اللهِ حُكْمًــا لِقَــوْمٍ يُوقِنُــون﴾ [المائدة: ٥٠][41].

(٤١) قال سَيِّد قطب في الظِّلال (٦/١٨٣):((إنَّ الجاهلية في ضوء هذا النص القرآنِيِّ البليغ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ هي حُكم البشر للبشر ، وعبودية البشر للبشر ، ورفض أُلوهية الله ، والخروج من عبوديته إلى عبودية غَير الله ، إنه مفرق الطريق ، فإمَّا حُكم الله ، وإمَّا حُكم الجاهلية ، ولا وسط ولا بديل ، إمَّا أن تُنَفَّذ شريعة الله في حياة الناس ، أو يُنَفَّذ حُكم الجاهلية وشريعة الهوى ومنهج العبودية =

نعى اللهُ على أولئك الذي يريدون استلهام الحاكمية الجاهلية وإعادتها ، فجاء الخطاب القرآنِيُّ مُوَبِّخًا ومُستنكِرًا لفِعلهم : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ . والاستفهامُ للإنكار والتَّوبيخ .

ومعنى الآية : أيَرفضونَ الْحُكْمَ الإلهيَّ الحقَّ الذي يُطبِّقه محمد ﷺ بكل أمانة ونزاهة ، ويَطلبون حُكْمَ الجاهلية ، حيث التَّمييز بين الشريف والوضيع ، والغني والفقير ، والرَّجل والمرأة ، وانتشار الْمُدَاهَنة والرِّشى والمفاسد والمعاصي ؟ .

إن الله يُنكر على الرافضين للحُكم الإلهيِّ العادل، ويريدون حُكم الجاهلية الغارق في الفوضى والظلم . فالْحُكم الإلهيُّ معصومٌ وكاملٌ ، لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خَلْفه، ولا يتسلل إليه الظلم والرِّشوة والمجامَلة والخطأ... إلخ. أمَّا حُكم الجاهلية فهو قرارٌ بشري قاصر يعتريه النقصُ والأهواء والظلم. ولا يمكن لعاقل أن يُساويَ بين حُكمٍ سماويٍّ مُقدَّس وبين حُكمٍ وَضعيٍّ مُدنَّس . كما أن الْحُكمَ الإلهيَّ يسري على الجميع بلا تمييز، أمَّا حُكم الجاهلية فيعتمد على التفرقة بين الشريف والوضيع . تمامًا كما كان يفعل اليهود حيث يُطبِّقون الحدود على الفقراء والضعفاء، ولا يُطبِّقونها على السادة والأقوياء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((يُنكِر تعالى على مَن خرج عن حُكم الله الْمُحْكَم المشتمِل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَلَ إلى ما سِواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مُستنَد من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مِمَّا يضعونها بآرائهم وأهوائهم)) اهـ .

أمَّا عن سبب النُّزول ، فقد قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ((كانت قُرَيْظة والنَّضير، وكان النَّضيرُ أشرفَ مِن قُرَيظة، فكان إذا قَتل رَجلٌ مِن قُرَيظة رَجلاً من النضير قُتل به ، وإذا قَتل رَجلٌ من النضير رَجلاً من قريظة قالوا : ادفعوه إلَينا نقتله . فقالوا : بَيْنَنا وبينكم النبيُّ ﷺ فأَتَوْه، فَنَزلت: ﴿ وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقِسط إن الله يحب المقسطين ﴾ [المائدة: ٤٢]...ثم نزلت : ﴿ أفحُكم الجاهلية يبغون ﴾))(42).

=لغير الله ، والجاهلية لَيست فترة من الزمان، ولكنها وَضْع من الأوضاع، يُوجَد بالأمس واليوم وغَدًا،والناس إمَّا أنهم يَحكمون بشريعة الله، ويَقبلونها، ويُسَلِّمون بها تسليمًا، فَهُم إذًا مسلمون ، وإمَّا أنهم يَحكمون بشريعة مِن صُنع البشر ، فهُم في جاهلية ، وهُم خارجون عن شريعة اللهِ)) .

(٤٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٤٠٧) برقم (٨٠٩٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ حُكم الجاهلية يستمد وجوده من التمييز بين الناس ، والتفرقةِ العنصرية ، وتفصيل العدالة على مقاس المكانة الاجتماعية . والأحكامُ الجاهلية قائمة على أساس انعدام المساواة بين الناس ، وتكريسِ الفروقات الطبقية . فهناك أحكام خاصة بالأشراف والأغنياء ، وأحكام أخرى خاصة بأصحاب المرتبة الدونية في المجتمع كالفقراء والضعفاء . وهذا الشَّططُ الطبقي يُغذِّي الحقدَ الاجتماعي ويُنشئ مجتمعَ الكراهية ، ويُوغر صدور الناس ، ويجعلهم أعداء متنافرين في مجتمع ممزَّق وغير متجانس. وهذا المجتمع لا يمكنه بناء حضارة ، أو نشر قيم الحرية والتنمية والرفاهية.

﴿ وَمَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ . هذا استفهام إنكاري . والمعنى : لا أحد أحسن مِنَ اللهِ حُكْمًا عِندَ أهل اليقين والإيمان لا أهل الشَّك والجهل . وحُكْمُ اللهِ هو قِمَّة العَدْل ، وبيانُه ذِرْوةُ الصِّدق ، وشريعته في غاية الإحكام . والْمُوقِنُون باللهِ وقُرآنِه يَعلمون عَدْلَ اللهِ في أحكامه ، لذلك خَصَّهم اللهُ بالذِّكر، لأنهم القادرون على تمييز الحق من الباطل ، وبالتالي هُم ــ وَحْدَهم ــ المنتفعون بكلامِ اللهِ ، والقادرون على رؤية حِكمة اللهِ في الشرائعِ ببصائرهم . أمَّا الجهَّالُ أصحابُ الأهواء ، فلا يَقْدِرُون على إدراكِ حِكمة اللهِ وعَدْلِه ، لأنهم عُميان أصحاب قلوب نجسة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((أي : ومَن أعدلُ مِن الله في حُكمه لِمَن عَقَلَ عن الله شَرْعَه، وآمنَ به وأيقنَ ، وعَلِمَ أن اللهَ أحكمُ الحاكمين ، وأرحمُ بِخَلْقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالِم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وجعلوا لله مِمَّا ذَرأ مِن الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يَصل إلى الله وما كان لله فهو يَصل إلى شركائهم ساء ما يَحكمون﴾ [الأنعام : ١٣٦] (43).

جَعَلَ مُشركو الجاهلية للخالق تعالى جُزْءًا مِن خَلْقه (الحرث والأنعام) . فهم اخترعوا شُركاء لله تعالى، وسَنُّوا شرائع متعلقة بتخصيص قِسم من الحرث والأنعام لله تعالى وقِسم لأوثانهم . وَلَم يقف الأمرُ عند هذا الحد، بل تم الاعتناء بنصيب الأوثان أكثر من النصيب الذي جعلوه لله تعالى.

(٤٣) قال الواحدي في الوجيز (ص ٣٧٦) : ((كان المشركون يَجعلون لله مِن حُروثهم وأنعامهم وثمارهم﴿ نصيبًا ﴾، وللأوثان نصيبًا . فما كان للصنم أُنفق عليه،وما كان لله أَطعم الضيفان والمساكين ، فما سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه ، وقالوا : إن الله غنيٌّ عن هذا . وإن سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب الله التقطوه ورَدُّوه إلى نصيب الصنم، وقالوا : إنه فقير)) اهـ.

وهذه العمليةُ الشِّركية هي اختراع مِن بنات أفكار المشركين ، ما أنزل اللهُ بها من سُلطان . فاللهُ خالق كُل شيء ، وكُلُّ شيء مِلْك له .

والآيةُ ذَم وتَوبيخ للمشركين عبدة الأصنام . فقد جَعلوا للهِ مِمَّا خَلَقَ مِن الزرع والثمار والأنعام قِسْمًا يُنفقونه على الفقراء ، وزَعموا أن هذا نصيب اللهِ ، وهذه دَعوى كاذبة بلا دليل نقلي ولا عقلي . وجعلوا لآلهتهم وأصنامهم قِسْمًا يُنفقونه على سَدَنتها . وما كان مِن نصيب الأصنام حفظوه وصانوه ومَنعوا وُصوله إلى اللهِ تعالى ، وما كان مِن نصيب اللهِ _ وَفْقَ زعمهم _ لَم يَحفظوه، وهو يصل إلى أصنامهم .

وبِئْسَ هذا الْحُكْم الجائر الذي يستند إلى جهلهم وأهوائهم، وبِئسَ الْحُكْم حُكمهم ، فقد آثروا آلهتهم الأصنام على اللهِ تعالى. وساءَ ما يَقْسِمُون. فهي قِسمة فاسدة وظالمة، واللهُ لا يَحتاجها، وهو غنيٌّ عنها. فهو _ سُبحانَه وتعالى _ خالق كُل شيء ومالكه ، وله الْمُلْك ، وكُل شيء تحت قُدرته ومشيئته .

والآيةُ ﴿ مِمَّا ذَرأ ﴾ تُشير إلى جهلهم وأهوائهم الفاسدة . فقد جعلوا المخلوق شريكًا للخالق، ثُمَّ قَدَّموا المخلوق على الخالق ، وجعلوا نصيبَ المخلوق محفوظًا ، ونصيب الخالق ضائعًا .

وأيضًا ، كان المشركون إذا ذَبحوا ما جعلوه لله ذَكروا عليه اسم أصنامهم ، جهلاً مِنهم ، وإصرارًا على الشِّرك . وإذا ذَبحوا ما لأصنامهم لَم يذكروا عليه اسم الله ، وهذا مِن معاني الوصول إلى الله ، والوصول إلى شركائهم (آلهتهم وأصنامهم) .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٧٩) : ((ويُقال : ذَرَأَ يَذْرَأ ذَرْءًا ، أي : خَلَقَ . وفي الكلام حذف واختصار، وهو : وجعلوا لأصنامهم نصيبًا ، دَل عليه ما بعده. وكان هذا مِمَّا زَيَّنه الشيطان وسَوَّله لهم ، حتى صرفوا مِن مالهم طائفة إلى الله بِزَعمهم ، وطائفة إلى أصنامهم . قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة . والمعنى مُتقارِب ، جعلوا لله جُزْءًا ، ولشركائهم جُزْءًا ، فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سَدَنتها ، عَوَّضوا منه ما لله ، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضِّيفان والمساكين ، لَم يُعوِّضوا منه شَيْئًا ، وقالوا : الله مُسْتَغْنٍ عنه ، وشُركاؤنا فقراء. وكان هذا مِن جهالاتهم وبِزَعمهم ، والزَّعْمُ الكَذِب . قال شُرَيح القاضي : إن لكل شَيء كُنية ، وكُنية الكذب زعموا ، وكانوا يكذبون في هذه الأشياء ، لأنه لَم يَنْزِل بذلك شَرْع)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قد خَسِرَ الذين قَتلوا أولادَهم سَفَهًا بِغَيرِ عِلْمٍ وحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله ﴾[الأنعام : ١٤٠] .

((نَزلت في ربيعة ومُضَر ، وبعض العرب مِن غَيرهم ، كانوا يدفنون البناتِ أحياء مخافة السَّبي والفقر))[44]. إن هؤلاء الجهلة الذين قتلوا أولادَهم (وأدوا بناتِهم) بكل طَيش وسَفهٍ وقِلَّة عقل ، وحرَّموا طيباتِ ما أحل اللهُ لهم من الأنعام كالبَحيرة والسائبة كَذِبًا على الله تعالى، واعتداءً على شريعته ، قد باؤوا بالْخُسران في الحياة الدنيا(قتلوا أولادهم وضيَّقوا على أنفسهم وحَرَموها من الاستمتاع بالحلال)، وخسروا الآخرةَ أيضًا حينما يُعذَّبون في الجحيم. فقد جعلوا عقولَهم الناقصة مصدرَ التشريع، وراحوا يخترعون أحكامًا ما أنزل اللهُ بها مِن سلطان، وألزموا أنفسهم بها جهلاً وعُدوانًا . وهذا الأمر يعكس جهلَ العرب الذين كانوا يئدون بناتِهم ، ويَحرمون أنفسهم من الأولاد زينةِ الحياة الدنيا، ويُدمِّرون حياتهم بأيديهم.والمضحك المبكي أن عرب الجاهلية كانوا يَئِدون بناتِهم ، في حين أنهم يَعتنون بأنعامهم ، ويُوفِّرون لها الحياة الهانئة. وهذا يدل على الرُّتبة المتدنية للإنسان وعدم احترام كيانه ووجوده . وقد كانت الحيواناتُ عِندَهم أعلى قِيمةً من البشر. وفي زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ١٣٤) : ((وقال قتادة : كان أهلُ الجاهلية يَقتل أحدُهم بِنْتَه مخافة السَّبي والفاقة ، ويغذو كلبَه)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٩٧): عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : إذا سَرَّكَ أن تعلم جهلَ العرب ، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قَتلوا أولادَهم سفهًا بغير عِلْم ﴾ إلى قَوْله:﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ .[45] .

---

(٤٤) تفسير البغوي (١/ ١٩٤) ، والكشَّاف للزمخشري (١/ ٣٨٠) .

(٤٥) في تفسير القرطبي (٧/ ٧٩) : ((قال ابن العربي : وهذا الذي قاله كلام صحيح ، فإنها تَصَرَّفت بعقولها العاجزة في تنويع الحلال والحرام سَفاهة ، بغَير معرفة ولا عدل ، والذي تَصَرَّفت بالجهل فيه مِن اتِّخاذ الآلهة أعظم جهلاً وأكبر جُرْمًا ، فإن الاعتداء على الله تعالى أعظم من الاعتداء على المخلوقات، والدليل في أن الله واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في مخلوقاته ، أبْيَن وأوضح مِن الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام. وقد رُوِيَ أن رَجلاً قال لعمرو بن العاص: إنكم على كمال عقولكم ، وَوُفور أحلامكم عبدتم الحجر !، فقال عمرو: تلك عقول كادها باريها. فهذا الذي أخبر الله سُبحانَه مِن سَخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام ، وأبطله الله ببعثة الرسول عليه السلام ، فكان مِن الظاهر لنا أن نُميته حتى لا يَظهر ، وننساه حتى لا يُذكَر ، إلا أن رَبَّنا تبارك وتعالى ذَكَره بِنَصِّه ، وأورده بِشَرْحه ، كما ذَكَرَ كُفر الكافرين بِه ، وكانت الحِكمة في ذلك ــ والله أعلم ــ أنَّ قضاءه قد سَبَقَ ، وحُكمه قد نَفَذَ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة)) .

والمعنى : إذا أحببتَ وأفرحكَ ورغبتَ في معرفة جهل العرب قبل الإسلام ، فاقرأ هذه الآيات التي تُوضِّح جهلهم وأفعالهم الباطلة ، وتردُّ عليهم . واللهُ تعالى قد أوردَ عقائدَ العرب الباطلة ، وأهواءهم المنحرفة ، وحياتهم العبثية الفوضوية ، مِن أجل التحذير مِن جاهليتهم العَمياء ، وفضح باطلهم ، وهدم مَوروثهم الوثني ، ورفع منار الحق ، وتشييد صَرْح الهدى على أنقاض الباطل .

والعرب قبل الإسلام كانوا أُمَّةً جاهلة مُتوحِّشة مُتخلِّفة ، مقطوعة عن السماء . ليس لها علاقة بالعِلم والحضارة والتَّقدم . فقد قتلوا أولادهم الذين هُم مِن لحمهم ودَمِهم جَهلاً وَسَفَهًا ، بلا عِلم ولا معرفة ولا دليل . وهُم يَجهلون أن الله هو رازق أولادهم ، وليس هُم الذين يَرزقونهم ، وحرَّموا الأنعام، وجعلوها أنواعًا وأقسامًا ، بَحِيرةً وسائبةً ووصيلةً وحَامًا ، كَذِبًا على اللهِ ، وزاعمين أنه تعالى هو الذي أمرهم بذلك . واخترعوا شرائع في الأنعام والزُّروع والثمار بلا دليل ولا حُجَّة ، اتِّباعًا لأهوائهم الفاسدة ، وتحقيقًا لمصالحهم المادية الضَّيقة .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إِذْ جَعَلَ الذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الفَتْح : ٢٦].

الْحَمِيَّةُ هَهُنا تعني العِزَّة بالإثم والتكبر والرِّفعة الممقوتة . وهي إحدى الخِصال الرئيسية لحقبة الجاهلية . فهذه الخِصلةُ المذمومة هي حِجاب يمنع وصول نور الحقيقة إلى القلب ، وبالتالي فإن المرء يَسقط في مستنقع الهوى والعصبية والتشنج ، فيتحول من كائن عاقل ناضج ، إلى كائن غريزي هائج، لا يضع الأمورَ في نِصابها الصحيح ، ولا يُدرك أهمية العقل في تصحيح المسار الواقعي .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٩٧٤): ((وكانت حَمِيَّتهم أنهم لَم يُقِرُّوا أنه نبيُّ الله، وَلَم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت)) .

هذه الغطرسةُ ، والتكبر على الحق ، ورفض الإيمان عِنادًا واستكبارًا، كُلها قيم جاهلية شَكَّلتْ فلسفةَ المشركين في التعامل مع المؤمنين . وتتجلى خطورةُ الحميَّة في كَوْنها مانعًا يَحول بين الحق والقلوبِ ، مما يؤدي إلى انحراف الناس عن المنهج الإيماني القويم ، والرُّكون إلى تطرفهم العقائدي ، وسوءِ أخلاقهم، وعدمِ موازنتهم للأمور . فبسبب اعتدادهم الأعمى بأنفسهم ، وتقديسهم لبيئتهم الوثنية، وتعظيمهم لتاريخهم الوثني يَرفضون طوقَ النجاة، ويواصلون الغرقَ ، غير شاعرين بالكارثة التي يَرتعون فيها .

قال سيد قطب في الظلال (٢٦/ ١١٥): ((وهذه الحميَّة إنما هي حميةُ الكِبْر والفخر والبَطَر والتَّعَنُّت ، الحميَّة الجاهلية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ والمؤمنين ،

يمنعونهم من المسجد الحرام،ويحبسون الهدي الذي ساقوه أن يبلغ مَحِلَّه الذي يُنحر فيه،مخالفين بذلك كل عُرف وكل عقيدة، كي لا تقول العربُ : إن محمدًا دخلها عليهم عُنوة . ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عُرف ودين، وينتهكون حُرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته،وينتهكون حُرمة الأشهر الْحُرُم التي لَم تُنتهك في جاهلية ولا إسلام)) اهـ.

إن هذه الحمية الآثمة وُلدت مِن رَحِم الاستكبار وازدراء الحق ، وولَّدت جيلاً غارقًا في رفض الحقيقة الحاسمة . إذ إن العُلُوَّ بغير الحق ، واحتقارَ العقولِ الإنسانيةِ والسلوكياتِ البشريةِ ، أدَّيا إلى توليد قيم مضادة للحق المطْلق . وقد كان المشركون غارقين في حمية الجاهلية، وعقلية رفض الحق ، وعدم تقبُّله. فلم يَتعوَّدوا على الاعتراف بالذنب أو الخطأ، والرجوع إلى الصواب، لأن تربيتهم قائمة على العناد والمكابَرة ، وتقديمِ الأهواء الشخصية على الحقيقة بدون وجود منهج عقلاني مستقيم يتعامل مع طبيعة السلوك الاجتماعي بكل حالاته الإيجابية والسلبية .

وفي يوم أُحُد اتَّضحت _ عند المشركين _ معالم حمية الجاهلية ، والتكبر ، ورفض الإذعان للحق المتجسد في الرسالة النبوية . وقد بدا ذلك واضحًا على سَيِّد قريش ، وزعيم المشركين _ آنذاك _ ، أبي سفيان بن حرب . فإذا أبو سفيان يَصيح في أسفل الجبل: أُعْلُ هُبَل، أُعْلُ هُبل، يعني : آلهته. أين ابن أبي كَبشة ؟، أين ابن أبي قُحافة ؟ ، أين ابن الخطاب ؟، فقال عمر: يا رسول الله ألا أجيبه ؟ ، قال : ((بلى)) ، فلمَّا قال: أُعْل هُبَل، قال عمر: الله أعلى وأَجَلُّ، فقال أبو سفيان:يا ابن الخطاب،إنه يوم الصمت. فعاد فقال: أين ابن أبي كَبشة؟، أين ابن أبي قُحافة ؟، أين ابن الخطاب ؟، فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر ، وها أنا ذا عمر ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، الأيام دُوَل ، والحرب سِجال ، فقال عمر : لا سَواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار ، قال : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خِبنا إذن وخسرنا ، ثم قال أبو سفيان : أمَا أنكم سوف تجدون في قتلاكم مُثلة ، ولم يكن ذلك عن رأي سُراتنا ، ثم أدركته حَمِيَّةُ الجاهلية ، فقال : أمَا إنه إذا كان ذلك لَم نَكْرَهْه [46] .

---

(٤٦) رواه الحاكم في المستدرَك(٢/ ٣٢٤)برقم (٣١٦٣)وصحَّحه، ووافقه الذهبي. وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٥٢): ((قال ابن إسحاق : حَدَّثني صالح بن كَيسان قال : خرجت هِند والنِّسوة معها يُمَثِّلْنَ بالقتلى،يَجْدَعْنَ الآذان والأُنف، حتى اتخذت هند من ذلك خُزمًا وقلائد ، وأعطت خُزمها =

وكان المشركون يُسَمُّون النبيَّ ﷺ ابنَ أبي كَبشة. وأبو كبشة أحد أجداد النبيِّ ﷺ مِن قِبَل أُمِّه. والعربُ إذا أرادوا انتقاصَ أحد ، فإنهم ينسبونه إلى جَد غامض . وقد كان المشركون يُطلِقون على النبيِّ ﷺ هذا الاسم عداوةً له ، وانتقاصًا من قَدْره الشريف . فقد نَسَبوه إلى نَسَب له غير نَسَبه المشهور ، فهُم لا يستطيعون الطعن في نَسبه المعروف ، وهو الشريفُ القُرَشِيُّ الهاشميُّ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١١٠) عن أبي كبشة : ((فقيل : هو رَجل مِن خُزاعة كان يعبد الشِّعرى ، ولَم يوافقه أحد من العرب في عبادتها ، فَشَبَّهوا النبيَّ ﷺ به لمخالفته إياهم في دِينهم ، كما خالفهم أبو كَبشة)) اهـ .

وتتجلى الحَمِيَّةُ الجاهلية في عقلية أبي سفيان حينما رفض الاعتذار عن التمثيل بجثث قتلى المسلمين ، فقد أخبر أن هناك مُثلةً ، لكنها لَم تصدر عن رأي سُراة المشركين _ أشرافهم _ ، ومع هذا فلن يكره المشركون عملية التمثيل بالجثث، وهذا انعكاس للحمية، حيث أخذته العِزَّة بالإثم ، وساند قومَه في إثمهم تَعَصُّبًا للشِّرك والقبيلة والعقلية الجاهلية ، ولَم يعتذر عن فعل ذلك.

وهذه الحمية _ حمية الكِبْر والتَّعَنُّت_ جعلتهم يعتقدون أن بيت الله الحرام مِلْكٌ شخصي ، أو عَقار يشترك في مُلكيته القبائل المتنفذة . ويا له من اعتقاد فاسد أوردهم المهالك ، وجعلهم يتصرفون بكل وقاحة وعنجهية . فقد منعوا المؤمنين الصالحين من المسجد الحرام ، وحبسوا الْهَدْيَ أن يَبلغ مَحِلَّه . وإنه لَتَصَرُّف أخرق مُوغل في التَّعَنُّت وغير مسبوق . فلم يكن أحد يجرؤ على اقتراف هذا الفعل الدنيء المخالف لعقائد الجاهلية وعقائدِ الإسلام . ولا يخفَى أن الإسلام يَسْمح للمُخالِفين عَقَدِيًّا بممارسة شعائرهم بكل حرية ، ضمن الضوابط الشرعية التي ما جاءت للتقييد على الناس ، بل لتنظيم أعمالهم .

*

=وقلائدها أي اللاتي كُنَّ عليها لوحشي جزاء له على قتل حمزة، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتْها)) .

ە

الفصل الثاني

التَّوحيد

تمهيد

إنَّ تَوحيد الله ليس قضيةً فلسفية مُعقَّدة ، أو فكرةً نظرية مُجرَّدة . إنَّ تَوحيد الله عقيدة قلبية تُؤثِّر في تفاصيل الحياة ، والسلوك الإنساني ، والفكر الاجتماعي . فاللهُ واجب الوجود ، واحدٌ في ذاته ، وواحد في صِفاته ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد .

وهذا الفصل يُسلِّط الضَّوء على وَحدانية الله تعالى ، فهو الإلهُ الخالقُ القادر الفرد الصمد . وهو الرَّبُّ العظيم الذي يُربِّي عبادَه بالنِّعَم الكثيرة، التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى . فلا بُد من التزام أوامره ، واجتناب نَواهيه .

ومشكلةُ الإنسان في كُل زمان ومكان ، تتجلى في أهوائه الشخصية ، ومصالحه المادية الضَّيقة، وتقليد الآباء، والسَّير في المجتمع ضِمن سياسة القطيع. وهذه التأثيرات السلبية تقتل رُوحَ الإنسان، وتُؤثِّر في عقيدته وقناعاته الفكرية واختياراته العملية . وهنا ، تتجلى أهمية البحث عن الحق بكل إخلاص وتَجَرُّد ، ودُون ضغوطات ولا تأثيرات خارجية .

وقد أوردَ القُرآنُ شُبهاتِ الكافرين الذين لا يُقِرُّون بِوَحدانية اللهِ ، ورَدَّ عليها بشكل يتوافق مع العقل ، دُون صُراخ ولا شتائم . كما دعاهم إلى الاعتبار بِمَن سَبَقَهم ، والعاقلُ يَدرس التاريخَ كَي يأخذ الدروس والعِبَر ، ولا يُكرِّر أخطاءَ السابقين . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهلُ مَن اتَّعظَ بِنَفْسه .

وقد أقامَ اللهُ الْحُجَّةَ على الناس ، وقطع أعذارَهم ، وأنذرهم بالانتقام إن اختاروا الكُفر على الإيمان. صحيحٌ أنهم أحرار في اختيارهم، ولكنهم يَتحمَّلون مسؤوليةَ اختيارهم . ومَن أعلنَ الحربَ على اللهِ ، فعليه أن يَتحمَّل النتائجَ ، ويَدفع ثمن كُفره وخِيانته لإنسانيته ، ورفضه للحق .

إنَّ توحيد الله يعني أنَّ اللهَ واحدٌ أحد فرد صَمد،هو الأول فلا بداية له،وهو الآخِر فلا نهاية له. صفاته قديمة قِدَمَ ذاته . لا يُشْبِه مخلوقاته ، ولا تُشْبِهه مخلوقاته . واللهُ مُتَّصِفٌ بالعِلْم ، ومُنفرِد بالأمر والْحُكْم. إرادته لا يَقف أمامها شَيء،ومَشيئته خضع لها كُل شَيء ، مُنَزَّهٌ عن الظلم ، غنيٌّ عَن كُل شَيء، وكُل شيء مُفتقِر إلَيه . مَوصوف بِصِفات الكمال والجمال والجلال . رحمته وَسِعَتْ كُلَّ شَيء. وغضبُه لا أحد يَستطيع أن يَتحمَّله. وعلى الإنسان أن يَخشاه في السِّر والعَلَن ، ويَتوكَّل عليه ، ويَتحدَّث بِنعمه الكثيرة . ومهما دار الإنسانُ في هذا العالَم ، وصالَ وجالَ . فهو مَحكوم بالموت ، ولا بُدَّ أن يَرجع إلى خالقه الذي يُميت ويُحيي ويُحاسِب . فإمَّا الجنة وإمَّا النار.

١ ـ وجود الله وتَوحيده

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَيْفَ تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثُمَّ يُميتكم ثُمَّ يُحييكم ثُمَّ إلَيه تُرجَعون ﴾ [البقرة : ٢٨] (1).

إن اللهَ تعالى قد وضَّح مسألة الإحياء والإماتة كَي يتفكر الناسُ فيها ، ويستدلوا على القدرة الإلهية في الإحياء والإماتة . فالحياةُ والموت مشهدان ماثلان أمام الناس جميعًا . وينبغي للفرد أن يتفكر بهما وبما وراءهما ، وبالقوةِ القادرة على منح الحياة وسلبها دون صعوبة أو تناقض .

لقد وجَّه اللهُ تعالى فكرَ الناس إلى مُشاهَدات حِسِّية مِن صميم حياتهم . فالنُّطفةُ كيانٌ ميت لا وزن له . وحينما تخرج من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء ثم تحدث الولادة ، فإن هذه النطفة تصير كائنًا حَيًّا ذا لحم ودم وقلب ودماغ وأعضاء متكاملة وأجهزة بالغة التعقيد والدقة منتظمة في عملها بلا تضاد . وهذه العمليةُ الباهرة التي تشتمل على الخروج من الموت إلى الحياة تشير إلى قُدرة الخالق المطْلقة. وبعد انتهاء فترة الحياة المقدَّرة فإن الإنسان ينتقل إلى الموت. والإنسان لا يختار موعد ميلاده ولا لحظة وفاته . وهذا يشير إلى وجود قوة قاهرة للإنسان. وبالتأكيد فهذه القوة هي قوة الله تعالى الذي لا يُعجِزه الإحياء ولا الإماتة .

---

(١) قال الطبري في تفسيره (١/ ٢٢٢):((وبَّخهم واحتجَّ عليهم في نكيرهم ما أنكروا من ذلك ، وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة. فقال: كيف تكفرون بالله فتجحدون قدرته على إحيائكم بعد إماتتكم لبعث القيامة...وقد كنتم نُطُفًا أمواتًا في أصلاب آبائكم،فأنشأكم خَلْقًا سَوِيًّا، وجعلكم أحياء ثم أماتكم بعد إنشائكم ؟. فقد علمتم أنَّ مَن فعل ذلك بِقُدرته غَير مُعجِزه ـ بالقُدرة التي فعل ذلك بكم ـ إحياؤكم بعد إماتتكم،وإعادتكم بعد إفنائكم، وحشركم إليه لِمُجازاتكم بأعمالكم)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تكفرون بالله ﴾ في ﴿ كَيْفَ ﴾ قَولان : أحدهما أنه استفهام في معنى التَّعَجُّب ، وهذا التَّعَجُّب للمؤمنين، أي: اعْجَبُوا مِن هؤلاء كَيف يكفرون وقد ثبتت حُجَّة الله عليهم ، قاله ابن قُتَيبة والزَّجاج. والثاني أنه استفهام خارج مَخرج التقرير والتَّوبيخ تقديره : وَيْحَكُم كيف تكفرون بالله ؟. وفي الحياتين والموتتين أقوال أصَحُّها أن الْمَوْتة الأُولَى كَونهم نُطَفًا وعَلَقًا ومُضَغًا، فأحياهم في الأرحام ثُمَّ يُميتهم بعد خُروجهم إلى الدنيا ثُم يُحييهم للبعث يوم القيامة. وهذا قول ابن عباس وقتادة ومقاتل والفَرَّاء وثعلب والزَّجاج وابن قُتَيبة وابن الأنباري)).

لقد كانوا أمواتًا (نُطَفًا في أصلاب آبائهم) ، فأحياهم اللهُ في الأرحام والدُّنيا ، ثُمَّ يُميتهم عِند نهاية أعمارهم وانقضاء آجالهم ، ثُمَّ يُحييهم (يَبعثهم مِن الموت) ، ويَرُدُّهم في الآخرة لِيُحاسبهم، ويَجزيَهم بأعمالهم .

والاستفهامُ في الآية يَحمل معنى الإنكار والتعجيب مِن حال الكافرين . فهؤلاء ينبغي التَّعَجُّب مِنهم حِينَ كفروا ، بعد أن قامت الْحُجَّة عليهم ، واتَّضحت أمامهم الأدلة والبراهين ، وانقطع عُذرهم . والآيةُ أيضًا تَحمل معنى التَّوبيخ الشديد لهؤلاء ، لأن الجماد لا يُنازِع خالقَه _ سُبحانَه وتعالى _ في شَيء ، أمَّا هؤلاء الكفار الذين لَدَيهم عقول وقلوب وأرواح ، فَيُنازِعُون اللهَ صَانعَهم ومُوجِدَهم مِن العَدم . لقد وَبَّخهم اللهُ على كُفرهم مَعَ عِلْمهم بحالهم وعَجْزهم ووجودهم بعد العدم، والمعنى : أخبِروني على أيِّ حال تَكْفُرون . والخطابُ للكافرين ، والتَّعجيب للمؤمنين .

وكلُّ إنسان _ بغض النظر عن عقيدته _ مقتنع تمامًا بأنه لَم يكن موجودًا ثم وُجِد ، وأنه سائر إلى الموت . والعجيبُ أنك ترى الملاحدة يُنكِرون وجودَ الله تعالى لكنهم لا يُنكِرون الموتَ . ولو أنهم أعملوا عقولَهم لأدركوا أن الموتَ خاضع لقوة عُليا تتحكم فيه ، وتُحدِّد موعدَه ، وهذه قوة الله خالقِ الحياة والموت .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٤): ((أي : كيف تجحدون ربكم ودَلالته عليكم ظاهرة جَلِيَّة ، كُل أحد يَعلمها مِن نَفْسه، فإنه ما مِن أحد مِن المخلوقات إلا ويعلم أنه كان مَعدومًا ثم وُجِد ، وليس وجوده مِن نَفْسه ، ولا مُستنِدًا إلى شيء من المخلوقات ، لأنه بِمَثابته ، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كُل شَيء)) اهـ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦٧) : ((﴿ كَيْفَ تكفرون بالله ﴾ استخبار فيه إنكار ، وتعجيب لكفرهم بإنكار الحال التي يقع عَلَيها على الطريق البرهاني، فإن صدوره لا يَنفكُّ عَن حال وصِفة ، فإذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يُوجد عَلَيها ، استلزم ذلك إنكار وجوده ، فهو أبلغ وأقوى في إنكار الكفر مِن (أتكفرون) وأوفق لِمَا بعده من الحال . والخطاب مع الذين كفروا ، لَمَّا وصفهم بالكُفر وسُوء المقال وخُبث الفِعال ، خاطبهم على طريقة الالتفات ، وَوَبَّخهم على كُفرهم مع عِلمهم بحالهم المقتضية خِلاف ذلك ، والمعنى : أخبِروني على أي حال تكفرون . ﴿ وكنتم أمواتًا ﴾ أي : أجسامًا لا حياة لها ، عناصر وأغذية ، وأخلاطًا ونُطفًا ، ومُضغًا مُخَلَّقة وغَير مُخَلَّقة. ﴿ فأحياكم ﴾ بِخَلْق الأرواح ونَفْخها فيكم، وإنما عَطَفه بالفاء لأنه مُتَّصل بما عُطِف عَلَيه غَير مُتراخٍ عنه بخلاف البواقي . ﴿ ثُمَّ يُميتكم ﴾ عندما تُقضَى آجالكم . ﴿ ثُمَّ يُحييكم ﴾ بالنُّشور

يوم يُنفَخ في الصُّور، أو للسؤال في القبور. ﴿ ثُمَّ إلَيه تُرجَعون ﴾ بعد الحشر فَيُجازيكم بأعمالكم . أو تُنشَرون إلَيه مِن قُبوركم للحساب . فما أعجبَ كُفْرَكم مَعَ عِلمكم بحالكم هذه . فإن قيل : إن عَلِموا أنهم كانوا أمواتًا فأحياهم ثُمَّ يُميتهم ، لَم يعلموا أنه يُحييهم ثُمَّ إليه يُرجَعون . قلتُ : تَمَكُّنهم مِن العِلم بهما لِمَا نَصَبَ لهم مِن الدلائل مُنَزَّل مَنْزلة عِلمهم في إزاحة العُذر ، سِيَّما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما وهو : أنه تعالى لَمَّا قَدِرَ على إحيائهم أوَّلاً ، قَدِرَ على أن يُحييَهم ثانيًا. فإن بَدْء الْخَلْق ليس بأهون عليه مِن إعادته . أو الخطاب مَعَ القبيلين ، فإنه سُبحانَه وتعالى لَمَّا بَيَّنَ دلائل التوحيد والنُّبُوَّة ، ووعدهم على الإيمان ، وأوعدهم على الكفر ، أكَّدَ ذلك بأن عَدَّدَ عليهم النِّعَم العامة والخاصة، واستقبح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النِّعَم الجليلة، فإن عِظَم النِّعَم يُوجِب عِظَم مَعصية الْمُنعِم. فإن قِيل: كيف تُعَدُّ الإماتة مِن النِّعَم الْمُقتضية للشُّكر ؟ ، قلتُ : لَمَّا كانت وَصْلة إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية ، كما قال الله تعالى : ﴿ وإنَّ الدارَ الآخِرةَ لَهِيَ الحيَوَان ﴾ [العنكبوت : ٦٤] كانت مِن النِّعَم العظيمة، مع أن المعدود عليهم نِعمة ، هو المعنى الْمُنْتَزَع مِن القصة بأسرها ، كما أن الواقع حالاً هو العِلم بها لا كُل واحدة مِن الْجُمَل ، فإن بعضها ماضٍ وبعضها مُستقبَل ، وكِلاهما لا يَصِحُّ أن يقع حالاً . أو مع المؤمنين خاصة لتقرير المِنَّة عليهم، وتبعيد الكفر عنهم على معنى : كيف يُتَصَوَّر منكم الكفر وكنتم أمواتًا جُهَّالاً ، فأحياكم بما أفادكم مِن العِلم والإيمان ، ثُمَّ يُميتكم الموت المعروف ، ثُمَّ يُحييكم الحياة الحقيقية ، ثم إليه تُرجَعون ، فَيُثيبكم بما لا عَيْن رأت، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خَطَر على قلب بشر . والحياة حقيقة في القُوَّة الحسَّاسة ، أو ما يقتضيها ، وبها سُمِّيَ الحيَوَان حَيَوَانًا مَجَازًا في القوة النَّامية ، لأنها مِن طلائعها ومُقدِّماتها ، وفيما يَخُص الإنسان من الفضائل ، كالعقل والعِلم والإيمان مِن حَيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإزائها يُقال على ما يُقابلها في كُل مرتبة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لكم ما في الأرضِ جميعًا ثُمَّ استوى إلى السماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شيء عليم ﴾ [البقرة : ٢٩] .

في الآية السابقة [البقرة: ٢٨] ذَكَرَ اللهُ دليلاً وبُرهانًا مِن خَلْقهم وما يُشاهدونه مِن أنفسهم. وفي هذه الآية يَذكر اللهُ دليلاً آخَر مِمَّا يُشاهدونه مِن خَلْق السماوات والأرض .

لقد كانَ الدليلُ الأول شخصيًّا مُتَعَلِّقًا بذات الإنسان وحياته ومَوته (الدليل الخاص) . أمَّا الدليلُ الثاني فهو عام وشامل وكَوْني، لأنه مُتعلِّق بخلق السماوات والأرض وطبيعة تكوين الوجود الكُلِّي الذي يَراه الإنسان بِأُم عينيه . والإنسانُ محصور ضِمن البيئة والفضاء والزمان والمكان .

لقد قَدَّمَ اللهُ في هاتين الآيتين دَلِيلَيْن:الدليل الأول خاص وشخصي، والدليل الثاني عام وكَوْني. وهذا يدل على أنَّ الإيمان مبنيٌّ على الدليل النقليِّ والدليل العقليِّ مَعًا ، ولا يُقبَل أحدهما بدون الآخَر . ولا شَكَّ أن المصنوع يدل على الصانع ، والآثار تدل على صاحبها . واللهُ تعالى لَم يَترك الناسَ ضحيةً لأهوائهم ورغباتهم ومصالحهم المادية الضَّيقة، وتقليد الآباء بشكل أعمى . وإنما وَضَعَ أمامَهم الأدلة والبراهين والْحُجَج مِن أجل التفكر فيها ، والوصول إلى الإيمان عن عِلم ومعرفة ويقين وقناعة ، دُون إكراه أو ضغوطات . والإيمانُ يَرفض التقليد والتسليم الأعمى ، ولا بُد مِن بناء الإيمان رُوحًا ومَعْنًى وسُلوكًا وفق الأدلة النقلية والعقلية مَعًا .

إنَّ اللهَ قد خلق لكم أيها الناسُ (المؤمنون والكافرون) الأرضَ وما فيها لتنتفعوا بِه، وتحصلوا على الفوائد المتنوِّعة، وتعتبروا . واللهُ غنيٌّ عَن كُل شيء . وإنما أوجدَ الأرضَ وما فيها مِن العدم ، مِن أجلكم ولتحقيق مصالحكم . وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل التحريم . وواضحٌ أن الخطاب في الآية للناس كُلِّهم ، واللهُ مُنعِم على خَلْقه ومُتفضِّل عليهم بلا استثناء، مؤمنهم وكافرهم . وهذا يدل على رحمة الله بعباده ، ورأفته بهم ، واستغنائه عنهم . فهو يَرزق المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي . ويُعامِل الناسَ بما هو أهله ، فاللهُ أهلُ التقوى وأهل المغفرة ، ولا يُعامِل الناسَ بِما هُم أهله ، فالناس أهل المعاصي والذنوب والآثام .

وهذه النِّعَمُ الإلهيةُ العظيمةُ والكثيرةُ ، بعضُها للانتفاع ، وبعضُها للاعتبار . والنِّعَمُ التي مَنَّ اللهُ بِها على الناس هي دليل واضح على وَحدانيته ، وتَفَرُّدِه بالْخَلْق والإيجاد والرِّزق والإنعام (2).

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ هُوَ ﴾ ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ . والمقصودُ بهذا الضمير هو الله . وهذا الضميرُ يدل على عَظَمة اللهِ وعُلُوِّه على خَلْقِه. كما أن ﴿ جميعًا ﴾ تأكيد على قُدرة الله المطْلقة، وأنَّ كُل شيء مخلوق له ، وخاضع لِحُكمه وإرادته ومَشيئته ، ولا شَيء يَخرج عن

---

(٢) في فَيض القدير (٢/ ٢٩٨): ((قال الغزالي رحمه الله تعالى: فَتَأَمَّل إذا حَبَسَ عَنْكَ رغيفًا أو دِرهمًا ، فتعلم أنه يَملك ما تُريد ، ويَقْدِر على إيصاله إلَيك ، وله الجود ، وله الفضل ، ويَعْلَم حالك، لا يَخْفَى عليه شيء ، فلا عَدِمَ ، ولا عَجَزَ ، ولا بَخِلَ تعالى عن ذلك ، فإنه أغنى الأغنياء ، وأقدر القادرين ، وأعلم العُلماء ، وأجْوَد الأجودين ، فتعلم أنه لَمْ يَمنعك إلا لصلاحٍ ، كيف وهو يقول : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لكم ما في الأرضِ جميعًا ﴾ ، وإذا ابتلاكَ بِشِدَّة ، فإنه غنيٌّ عن امتحانك وابتلائك، عالِم بحالك ، بصير بضعفك ، وهو رؤوف رحيم ، فلم يُنْزِله بِك إلا لصلاح لَكَ جَهِلْتَهُ)) .

سيطرة الله . وقد سَخَّرَ اللهُ للناسِ ما في الأرضِ جميعًا كرامةً مِنه سُبحانَه وتعالى ، ورحمةً بِهم ، وتفضُّلاً عليهم ، ونِعمةً للناس ، وتسهيلاً لشؤون حياتهم ، وتحقيقًا لمصالحهم ومنافعهم ، وقضاءً لحوائجهم. وهو غنيٌّ عنهم ، ولا يَحتاجهم ، ولا يَحتاج إلى شَيء . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١): ((﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لكم ما في الأرضِ جميعًا ﴾ بيان نِعمة أُخرى مُرَتَّبة على الأُولَى، فإنما خلقهم أحياء قادرين مَرَّة بعد أُخرى،وهذه خَلْق ما يتوقف عليه بقاؤهم،وَتَمَّ به مَعاشهم ، ومعنى ﴿ لكم ﴾ لأجلكم، وانتفاعكم في دُنياكم باستنفاعكم بها في مصالح أبدانكم ، بوسط أو بِغَير وسط ، ودِينكم بالاستدلال والاعتبار ، والتعرُّف لِمَا يُلائمها مِن لَذَّات الآخِرة وآلامها)) اهـ .

﴿ ثُمَّ استوى إلى السماء ﴾ . الاستواءُ هنا بمعنى القَصْد ، لأنه عُدِّيَ بـ ﴿ إلى ﴾ . والقصدُ يَعود إلى صفة الإرادة . أي : قَصَدَ إلى خَلْق السماء بعد خَلْق الأرض . واللهُ مُنَـزَّهٌ عن الحركةِ والانتقالِ ، وحُلولِه في الأشياءِ والحوادثِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((قصد إليها بإرادته)) اهـ . وفي تفسير القرطبي (١/ ٢٩١) : ((وقال البيهقي أبو بكر أحمد ابن علي بن الحسين:قَوْلُه ﴿ استوى ﴾ بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال هو القَصْد إلى خلق السماء، والقَصْدُ هو الإرادة،وذلك جائز في صفات الله تعالى ، ولفظةُ ﴿ ثُمَّ ﴾ تتعلق بالخلق لا بالإرادة)).

﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سماواتٍ ﴾ (3). خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سماوات مُستويات ، بعضهنَّ فوق بعض، لا شُقوق فِيهنَّ ولا صَدْع . وفي التَّسوية قَدْر زائد على الخلق ، لذلك كانت ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ أبلغ مِن (فخلقهنَّ) . وهذا يدل على القُدرة الإلهية المطْلقة، والصُّنعِ الرَّبَّانِيِّ الْمُتْقَن. والآيةُ تُشير إلى أن حجم السماوات ثابت، فلا زيادة ولا نُقصان . و" هُنَّ " ضمير السماء . أي إنه راجع إلى السماء، والسماءُ هَهُنا اسم جِنس.لفظها واحد،ومعناها الجمع بدليل قَوله تعالى: ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ . وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خُلِقَ قبل السماء . كما أن الآية تُوضِّح فَضْلَ خَلْق السماوات على خلق الأرض . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ عَدَلَهُنَّ وخلقهنَّ مَصونةً مِنَ العِوَج والفُطُور)) اهـ .

---

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٥٨) : ((وأَيُّهَا أسبق في الخلق الأرض أم السماء، فِيه قَولان: أحدهما الأرض، قاله مجاهد.والثاني السماء،قاله مقاتل.واختلفوا في كيفية تكميل خَلْق الأرض وما فيها، فقال ابن عباس: بدأ بخلق الأرض في يومين، ثُمَّ خَلَقَ السماواتِ في يومين، وقَدَّرَ فيها أقواتها في يومين. وقال الحسن ومجاهد : جَمَعَ خَلْقَ الأرض وما فيها في أربعة أيام متوالية ثُمَّ خلق السماء في يومين)) .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٢٢) : ((فمعنى الكلام إذًا : هو الذي أنعمَ عليكم ، فَخَلَقَ لكم ما في الأرض جميعًا ، وسَخَّره لكم تَفَضُّلاً مِنه بذلك عليكم ، ليكون لكم بلاغًا في دُنياكم ، ومَتاعًا إلى مُوافاة آجالكم ، ودليلاً لكم على وَحدانية ربكم ، ثُمَّ عَلا إلى السماوات السبع وهي دُخَان ، فَسَوَّاهُنَّ ، وحَبَكَهُنَّ ، وأجرى في بعضهنَّ شَمْسَه وقَمَرَه ونُجُومَه ، وقَدَّرَ في كُل واحدة مِنْهُنَّ ما قَدَّرَ مِن خَلْقِه)) اهـ .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شيء عليم ﴾ . إنَّ اللهَ عَالِمٌ بِكُل شَيء، ولا يخفى عليه شيء . ولأنَّ اللهَ عَالِمٌ وعليم ، أحكمَ صُنعَ مخلوقاته ، فخلقَ السماواتِ والأرض على هذا النَّحْو البديع المشتمل على الحِكَم العظيمة والمصالح الجليلة . فالسماواتُ مُستوية ومُحْكَمَة الصُّنع مِن غَير تفاوُت ، والأرض مخلوقة بشكل جميل ، لِتَسهل الحياة عليها ، وتَمَّ تسخير ما فيها حَسَبَ مصالح أهلها ومنافعهم.

وخَلْقُ السماوات والأرض يَتميَّز بالكمال بلا عَيب ولا نقص ، والكمالُ يدل على الكامل . واللهُ أرشدَ الناسَ إلى منافعهم الدينية والدُّنيوية ، وأنعمَ عليهم ، وسَخَّرَ لهم ما في الأرض للانتفاع والاعتبار . وقد خَلَقَ اللهُ كُلَّ شَيء على الوجه الذي يليق بها،لأنه سُبحانَه عليم بالأمور الظاهرة والباطنة، الْمُجْمَلة والتفصيلية . ولا يُمكن إحكام الفِعل الْمُتْقَن والْمُحْكَم إلا بالعِلْم . وعِلْمُ اللهِ صِفة له، وصِفات الله قديمة قِدَم ذاته _ سُبحانَه وتعالى _ . يَعلم كُلَّ شَيء مُجْمَلاً وتفصيلاً بِعِلْمٍ أزَلِيٍّ غَير مخلوق وغَير حادث ، لا يَتغيَّر ولا يَتبدَّل ، ولا تَطرأ عليه الحوادث . والعليم جاء على بناء فَعِيل،للمُبالَغة في وَصْفه بِكَمال العِلْم.ومعنى الآية:أفلا تعتبرون أن القادر على خَلْق ذلك ابتداءً، وإيجاده مِن العَدَم، هو الخالقُ العظيم الذي هُوَ أعظم مِنكم ، وقادر على بَعْثِكم بعد الموت؟. وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٩١): ((قَوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شيء عليم ﴾ أي بِما خَلَق ، وهو خالق كُل شَيء،فوجب أن يكون عَالِمًا بِكُل شَيء، وقد قال:﴿ ألا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ ﴾ [الْمُلْك: ١٤] . فهو العالِم والعليم بجميع المعلومات بِعِلْمٍ قديمٍ أزَلِيٍّ واحد قائم بذاته . وَوَافَقَنَا المعتزلة على العالمية دون العِلْمية . وقالت الجهمية : عَالِم بلا عِلْم ، قائم لا في محل . تعالى الله عَن قول أهل الزَّيغ والضَّلالات ، والرَّدُّ على هؤلاء في كتب الدِّيانات)) اهـ .

إنَّ اللهَ قد وَصْفَ نَفْسَه سُبحانَه بالعِلْم في مواضع كثيرة مِن القُرآن . وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِن عِلْمِهِ إلا بما شاء ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . لقد أثبتَ اللهُ لِنَفْسِه العِلْمَ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شيء عليم ﴾ فِيه تَعليل، كأنه قال: وَلِكَوْنِه عَالِمًا بِكُنه الأشياء كُلِّها ، خَلَقَ ما خَلَقَ على هذا النمط الأكمل ، والوجه الأنفع .

واستدلال بأنَّ مَن كان فِعْلُه على هذا النسق العجيب ، والترتيب الأنيق ، كان عليمًا ، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع، لا يُتَصَوَّر إلا مَن عَالِم حكيم رحيم، وإزاحة لِمَا يَختلِج في صدورهم مِن أن الأبدان بعدما تَبَدَّدَت وتَفَتَّتَت أجزاؤها واتَّصلت بِما يُشاكلها ، كيف تُجْمَع أجزاء كُل بَدَن مَرَّةً ثانية بحيث لا يَشُذُّ شيء منها ، ولا يَنضمُّ إلَيها ما لَم يكن معها، فَيُعاد منها كما كان ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم ﴾[يس : ٧٩] . وعُلِمَ أن صِحَّة الحشر مبنية على ثلاث مقدمات ، وقد بَرْهَنَ عليها في هاتين الآيتين : أمَّا الأُولَى فهي : أن مواد الأبدان قابلة للجمع والحياة ، وأشار إلى البُرهان عليها بِقَوله : ﴿ وكنتم أمواتًا فأحياكم ثُمَّ يُميتكم ﴾ ، فإن تعاقُب الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها ، وما بالذات يأبى أن يَزول ويَتغيَّر ، وأمَّا الثانية والثالثة : فإنه عَزَّ وَجَلَّ عَالِم بها وبمواقعها، قادر على جَمْعها وإحيائها . وأشار إلى وجه إثباتهما بأنه تعالى قادر على إبدائها ، وإبداء ما هو أعظم خَلْقًا ، وأعجب صُنْعًا، فكان أقدر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خَلَقَ ما خَلَقَ ، خَلْقًا مُستويًا مُحْكَمًا مِن غَير تفاوُت واختلال ، مُرَاعٍ فيه مصالحهم ، وسَد حاجاتهم ، وذلك دليل على تناهي عِلْمه ، وكمال حِكمته ، جَلَّت قُدرته ، ودَقَّت حِكمته)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التي تجري في البَحْر بما يَنفع الناسَ وما أنزلَ اللهُ مِنَ السماء مِن ماءٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بعد مَوْتها وبَثَّ فِيها مِن كُلِّ دابَّةٍ وتصريفِ الرياحِ والسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السماءِ والأرضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾[البقرة: ١٦٤] .

لقد عَجِبَ المشركون مِن كَلام النبيِّ ﷺ الذي يَصِف الله بأنه إله واحد ، وهُم الذين يُؤمنون بأصنام آلهة كثيرة ومُتعدِّدة، وطلبوا آيةً على وَحدانية اللهِ تعالى ، ودليلاً على ذلك ، إذ إن عقولهم القاصرة وفِطرتهم المنكوسة ، غير قادرة على استيعاب عقيدة وَحدانية اللهِ ، لأنهم غارقون في عقيدة تَعَدُّد الآلهة جهلاً ، وعِنادًا ، واتِّباعًا لأهوائهم ، وتقليدًا لآبائهم بشكل أعمى ، وتعصُّبًا لميراثهم الوثنيِّ. وقد اعتادوا على كثرة أصنامهم وتعدُّد آلهتهم وتنوُّع أوثانهم ، فصارَ تَوحيد الله أمرًا غريبًا شَاذًّا . لقد سَقطوا في فخ التقليد والاعتيادية وتوارُث العقائد ، والْحُكْم على الشَّيء فَرْع عن تصوُّره ، والجاهل عدو نَفْسه . وكما قالَ الشاعر:

قد تُنْكِرُ العَينُ ضَوءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَـمِ

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٦٧) : ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن المشركين قالوا للنبيِّ : اجعل لنا الصَّفا ذَهَبًا إن كُنت صادقًا ، فَنَزلت هذه الآية، حكاه السُّدي عن ابن مسعود وابن عباس. والثاني أنهم لَمَّا قالوا : انسُب لنا رَبَّكَ وَصِفْهُ ، فَنَزلت: ﴿ وإِلَهُكُم إِلَهٌ واحد ﴾ [البقرة : ١٦٣]. قالوا : فَأَرِنا آيةَ ذلك ، فَنَزلت : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ﴾ إلى قَوله : ﴿ يَعْقِلُون ﴾ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث أنه لَمَّا نزلت : ﴿ وإِلَهُكُم إِلَهٌ واحد ﴾ ، قال كُفار قُرَيش : كيف يَسَعُ الناسَ إلهٌ واحد ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله عطاء)) اهـ .

لقد جاءت الآيةُ الإلهيةُ ، ووضَّح اللهُ لهم الدليلَ المتوافق مع العقل السليم والتفكير المنطقي، حيث ذَكَرَ اللهُ المصنوعات الباهرة ، ودعاهم للتفكر في صُنعها الْمُتْقَن، الذي يدل على الله الصانع الحكيم . وقد دَلَّهم اللهُ على مواضع النَّظَر والعِبرة .

واللهُ يُعدِّد نِعَمَه على الناس ، ويَحتجُّ عَلَيهم بِذِكر هذه الظواهر الطبيعية الخاضعة لِقُدرة الله . لقد بَيَّنَ اللهُ دليلَ التَّوحيد، ووجَّه أنظارَ الناس إلى مَظاهر هذا العالَم العجيب . وكُل مَصنوع لا بُدَّ له مِن صانع . وإذا كانَ المصنوعُ مُتماسكًا وكاملاً ، فهذا يعني أنَّ الصانع عظيم وخبير وحكيم .

إنَّ اللهَ خَلَقَ السماواتِ ، وأتقنَ صُنعها ، فهي مُرتفعة بِغَير أعمدة ، لا شُقوق فيها ولا نقص ولا عَيب ، ولا روابط تُمْسِك السماوات مَعًا خَوْفًا مِن وُقوعها على الأرض .

واللهُ خَلَقَ الشمسَ والقمرَ والنجومَ والكواكبَ،وزَيَّنَ السماء بالأجرام العظيمة الهائلة،فلا تعارُض بينها ولا اضطراب. إنها تسير وَفْقَ نظام مُحْكَم ، فلا تصطدم ببعضها ، ولا تسقط على الأرض .

واللهُ جَعَلَ خَلْقَ الأرض آيةً باهرةً ، حيث مَدَّها وبَسَطَها ، وأوجدَ فيها البِحار والأنهار والجبال والسُّهول ، والمعادن والجواهر في بطن الأرض ، والشجر والأزهار والنبات على ظَهْر الأرض .

وخَلْقُ السماواتِ والأرض آية باهرة بسبب عِظَمهما وكثرة أجزائهما،وما فيهما مِن العجائب. وفي الآية، جاءت السماوات بصيغة الجمع ، والأرض بصيغة الْمُفرَد ، لأنَّ السماوات طبقات مُختلفة مِن مواد مُتعدِّدة ، بِخِلاف الأرضين التي هي مِن مادة واحدة ، وهي التراب . وكُل سماء مُختلفة عن الأُخرى في طبيعة مُكوِّناتها . في حِين أن كُل أرض مِن جِنس الأرض الأخرى . والجديرُ بالذِّكر أن السماوات سَبْع ، والأرضين سبع . وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٧٧) : ((ذَكَرَ السماوات بلفظ الجمع ، والأرض بلفظ الواحد ، لأن كُل سماء ليست مِن جِنس واحد ، بل مِن جِنس آخَر ، والأرضون كُلها مِن جِنس واحد ، وهو التراب)) اهـ .

والليلُ والنهارُ مُتعاقِبان بلا خلل ولا اضطراب ، يُقبِل الليلُ فَيُدبِر النهار ، ويُقبِل النهارُ فَيُدبِر الليل ، وَفْق حركة دقيقة ، ونظام متماسك ، ومنظومة مُتوازِنة . والعلاقةُ بين الليل والنهار تكاملية بلا تعارض ولا تنافُر، حيث الذهاب والمجيء ، والظُّلمة والنُّور ، والطُّول والقِصَر ، والزيادة والنقصان ، وبِضِدِّها تَتبيَّن الأشياءُ .

وقَدَّمَ اللهُ الليلَ على النهار في الذِّكر ، لأنه أقدم مِنه . قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وآيةٌ لهمُ الليلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهارَ ﴾[يس : ٣٧] .

وسَخَّرَ اللهُ السُّفُنَ التي تَجري على وجه الماء ولا تَغرَق ، لخدمة الناس ، وتحقيق مصالحهم ومنافعهم . فالسُّفُنُ ذات الأحجام الضخمة ، تَجري في البحر بِكُلِّ يُسر وسُهولة ، ولا تَغرَق .

وفي حال اضطراب البحر وهَيَجانه يَحْرُم الإبحارُ فِيه ورُكوب السُّفن . ولا يَجوز الإبحار فيه ورُكوب السُّفن إلا عِند هُدوئه ، أو في زمن تكون فيه السلامة هي الأغلب .

ورُكوبُ البحر يَجلب المنافع الكثيرة للناس ، ويُساهم في تنشيط التجارة ، ونقل البضائع ، وهذا يُؤدِّي إلى اكتساب الأرباح، ودعم الاقتصاد . وهذه الفوائدُ تَعود على الباعة والمشترين مَعًا.

وأنزلَ اللهُ الأمطارَ التي تُحيي الأرضَ بعد جفافها ومَوتها ، وتُنبِت الزرعَ ، وتُخرِج الأرزاقَ ، وتُنعِش العَالَمَ . وتَمَّ تقديم ذِكر البحر على ذِكر الأمطار والسحاب ، لأن البحر منشأهما في غالب الأحيان .

ونَشَرَ اللهُ وَفَرَّقَ في الأرضِ كُلَّ أصناف الحيوانات والدَّواب والطيور والحشرات . ولذلك لتحقيق مصالح الناس ، وجلب المنافع للإنسان والبيئة مَعًا .

وينبغي ملاحظة ترتيب الأحداث في الآية ، فالأمطارُ تَنْزِل ، ويَتكوَّن النبات بها ، وتُصبِح المراعي خصبة ، والدَّواب تَنمو في هذا البيئة الخصبة ، وتَعيش بالحياة .

وأرسلَ اللهُ الرِّياحَ شمالاً أو جنوبًا،باردةً أو حارَّةً،خفيفةً أو عاصفًا،حاملةً للخَير والبركة أو حاملةً للعذاب والهلاك.والرِّياحُ تُحرِّك السُّفُنَ في البحر،وتُلقِّح النباتات.والرِّياح جَمْع رِيح، سُمِّيَت به لأنها تُريح النفوس غالبًا. والماءُ والرِّياح مِن أعظم جُنود الله . وفي تفسير البغوي (١/ ١٧٧): ((قِيل:الرِّياح ثمانية:أربعة للرحمة وأربعة للعذاب، فأمَّا التي للرحمة الْمُبشِّرات والناشرات والذاريات والْمُرسَلات، وأمَّا التي للعذاب فالعقيم والصَّرْصَر في البَر، والعاصف والقاصف في البحر)) اهـ.

واللهُ يُحرِّك السحابَ الْمُسَخَّرَ الْمُذَلَّلَ الْمُنقادَ لمشيئة الله ، مِن مكان إلى آخَر ، فَيُمْطِر حيث شاء بين السماء والأرض ، لجلب المنافع للناس، وإنعاش الحياة، وإنقاذ النظام البيئي .

وَسُمِّيَ السَّحاب سَحَابًا لانسحابه في الهواء، وسَيْره بسرعة.والغيومُ مُسخَّرة لجلب المنافع وتحقيق المصالح ، وهي مُعلَّقة في الفضاء مِن غَير أعمدة ولا روابط واصلة بينها (4).

وينبغي الاستدلال بهذه الآيات العظيمة الباهرة الْمُدْهِشة العجيبة على قُدرة مُوجِدها، وحِكمة مُبْدِعها ، وكمال خالقها ، ووحدانيته . وهذه الآيات الباهرة والظواهر الْمُدْهِشَة تدل على وُجود الله وَوَحدانيته ، فهو الخالق العظيم الحكيم، قُدرته مُطْلَقة ، يُسيطِر على كُل شَيء ، ويتحكم بالظواهر الطبيعية كَيْفَ يَشاء . وكُلُّ المخلوقات خاضعة لله خالقها، الذي يَتصرَّف فيها وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد . فهل تستطيع الأصنامُ (آلهة العرب الوثنيين) أن تَفعل ذلك ، وتُنْعِم على المؤمنين بها ؟. إنها عاجزة، لا تَمْلِك مِن أمرها شَيْئًا. فلماذا جعلتموها شَريكةً للهِ في مُلْكِه ؟. إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الْمُتصرِّف في مُلْكِه وخَلْقِه، وكُل ما سِوى اللهِ فهو مَخلوق خاضع للهِ خالقه، الذي لا شريك له في الخلق والأمر والْحُكْم . واللهُ أنعمَ على الناس بهذه النِّعَم الجليلة ، فيجب عليهم أن يَعبدوه وَحْدَه ، ويَشكروه . وبالشُّكر تَدوم النِّعَم . والعاقلُ يَعْلَم أن المخلوق لا يَخْلُق ، لأن فاقد الشَّيء لا يُعطيه. وهذا يعني أن المخلوق عاجز وضعيف ، فكيفَ يُصبِح شريكًا للهِ ؟!. إنَّ اللهَ إلهٌ بلا شريك ، وخالقٌ بلا مُساعِد ، ومُتحكِّم في كَوْنه بلا نِد ، ومُتصرِّف في الطبيعة والوجود بلا مُنافِس . وهذا دليل واضح على وُجود الله وَوَحدانيته . إذن ، ينبغي على الناس أن يَعبدوا اللهَ وَحْدَه ، لا شريك له ، لأنه الإله المسيطِر على كُل شيء، لذلك فإن الله وَحْدَه هو الإله المستحق

---

(٤) قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٥): ((واعلم أن دِلالة هذه الآيات على وجود الإله ووَحدته مِن وجوه كثيرة يَطُول شرحها مُفَصَّلاً، والكلام الْمُجْمَل أنها : أمور مُمكنة ، وُجِد كل منها بوجه مخصوص مِن وجوه مُحْتَمَلَة وأنحاء مختلفة،إذْ كان من الجائز مَثَلاً أن لا تتحرَّك السماوات أو بعضها كالأرض، وأن تتحرك بعكس حركاتها ، وبحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقُطبين ، وأن لا يكون لها أَوْج وحضيض أصلاً، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها ، فلا بُد لها مِن مُوجِّه قادر حكيم، يُوجِدها على ما تستدعيه حِكمته وتقتضيه مشيئته،مُتَعَالِيًا عن مُعارَضة غَيره،إذْ لو كان معه إله يَقْدِر على ما يَقْدِر عليه الآخَر ، فإن توافقت إرادتهما ، فالفِعل إن كان لهما لَزِمَ اجتماع مُؤثِّرين على أثر واحد ، وإن كان لأحدهما لَزِمَ ترجيح الفاعل بلا مُرجِّح ، وَعَجز الآخر الْمُنافي لآلهيته ، وإن اختلفت لَزِمَ التمانع والتطارد،كما أشار إليه بِقَوله تعالى:﴿ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء: ٢٢]. وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله ، وحَث على البحث والنظر فيه)) .

للعبادة . لقد عَلَّمَ اللهُ الناسَ بهذه الآية كيفية الاستدلال على الصانع وتَوحيده ، وذلك عن طريق التفكر في الآيات والدلائل والنظر في المصنوعات ، والمصنوعُ يدل على الصانع . والآيةُ تردُّ على الذين اتَّخذوا شُركاء لله وأندادًا له، مَعَ عِلْمهم أنهم لا يَأتون بِشَيء مِمَّا ذُكِر ، ولا يَخلقون شَيْئًا . لقد وَجَّهَ اللهُ الأنظارَ والعقولَ إلى هذه الظواهر الطبيعية العظيمة ، ودعا إلى التفكر في طبيعتها وحركتها . والمصنوعُ يدل على الصانع ، والنظامُ المتماسك الْمُحْكَم يُشير إلى وَحدانية الصانع ، لأن الواحد لا يَصْدُر إلا عَن واحد . وهذه الظواهرُ المخلوقةُ التي تمتاز بالعَظَمة والجمال والتناسق تُمثِّل دليلاً على وَحدانية الخالق . وكُل الآلهة التي عَبَدَها الناسُ ويَعبدونها مِن دُون اللهِ ، لا تستطيع أن تفعل شَيْئًا مِن ذلك ، أو تَقْدِر عليه أو على بَعْضه .

ومَن أعملَ عَقْلَه وفَكَّرَ في هذه الظواهر الجليلة مُتَحَرِّرًا مِن الأهواء والتقليد الأعمى ، سَوْفَ ينبهر ويُدهَش، ويُصاب بالذهول ، مِن عَظَمَة المصنوع التي تَدل على عَظَمَة الخالق ، لأن العظيم لا يدل إلا على عظيم.والتفكيرُ الخالي من الأهواء والشُّبهات سَيَقُود الإنسانَ حَتْمًا إلى التصديق بأن الصانع والخالق هو الله وَحْدَه لا شريك له . ولو كانَ هناك شُركاء لأظهروا مَخلوقاتهم ، ودَعَوا الناسَ إلى عبادتهم . كما أن وَحدة النظام في الكَون وتماسكه وتناسقه وعدم اضطرابه ، وعدم وُجود خلل ولا عيب ولا تناقض ولا نقص ولا تعارُض ولا فوضى ، كُل هذه دلائل على وَحدانية اللهِ، وأنه إله واحد أحد فرد صمد، لأن النظام الكامل الواحد لا يَصْدُر إلا عن صَانعٍ كاملٍ واحد.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٤): ((يقول تعالى : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ﴾ تلك في ارتفاعها ولَطافتها واتِّساعها وكواكبها السَّيارة والثوابت ودَوَران فَلَكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبِحارها وقِفَارها وَوِهَادها وعُمرانها وما فيها من المنافع. ﴿ واختلافِ الليلِ والنهارِ ﴾ ، هذا يجيء ثُمَّ يَذهب ويَخْلُفُه الآخَر ، ويَعْقُبُه لا يَتأخَّر عنه لحظة ... وتارة يَطُول هذا ، ويَقْصُر هذا ، وتارة يأخذ هذا مِن هذا ثم يتقارضان . ﴿ والفُلْكِ التي تجري في البَحْر بما يَنفع الناسَ ﴾ ،أي:في تسخير البحر بحمل السُّفن مِن جانب إلى جانب لِمَعايش الناس ، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء . ﴿ وما أنزلَ اللهُ مِنَ السماء مِن ماءٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بعد مَوْتها ﴾ ... ﴿ وبَثَّ فِيها مِن كُلِّ دابَّةٍ ﴾ أي : على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصِغَرها وكِبَرها ، وهو يَعْلَم ذلك كُلَّه ، ويَرزقه ، لا يَخْفَى عليه شَيء مِن ذلك ... ﴿ وتصريفِ الرياحِ ﴾ أي : فتارةً تأتي بالرحمة ، وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي مُبشِّرة بين يَدَي السَّحاب، وتارة تَسُوقه، وتارة تَجْمَعُه ، وتارة تُفرِّقه ، وتارة تُصَرِّفه ، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية ،

وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صَبَا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دَبُورًا وهي غربية تَنْفُذ مِن ناحية دُبُر الكعبة ، وقد صَنَّف الناس في الرياح والمطر والأنواء ، كُتبًا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها ، وبَسْط ذلك يَطول هَهُنا ، والله أعلم . ﴿ والسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السماءِ والأرضِ ﴾ أي سائر بين السماء والأرض مُسَخَّر إلى ما يشاء الله مِن الأراضي والأماكن كما يُصَرِّفه تعالى. ﴿ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ ،أي: في هذه الأشياء دلالات بَيِّنة على وَحدانية الله تعالى)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٦٨و١٦٩):((فأمَّا السَّماوات فتدل على صانعها ، إِذْ هي قائمة بغير عَمَد ، وفيها من الآيات الظاهرة ما يدل يسيره على مُبْدِعه ، وكذلك الأرض في ظُهور ثمارها ، وتمهيد سهولها ، وإرساء جبالها ، إلى غَير ذلك . ﴿ واختلافِ الليلِ والنهارِ ﴾ كُل واحد مِنهما حادث بعد أن لَم يكن ، وزائل بعد أن كان ، ﴿ والفُلْكِ ﴾ السُّفن ﴿ التي تجري في البَحْر بما يَنفع الناسَ ﴾ مِن المعايش . ﴿ وما أنزلَ اللهُ مِنَ السماءِ مِن ماءٍ ﴾ يعني : المطر ، والمطر يَنْزل على معنى واحد ، وأجزاء الأرض والهواء على معنى واحد ، والأنواع تختلف في النبات ، والطُّعُوم ، والألوان ، والأشكال المختلفات . وفي ذلك رَد على مَن قال إنه مِن فِعل الطبيعة ، لأنه لَوْ كان كذلك لَوَجَبَ أن يَتَّفق مُوجِبها ، إذ الْمُتَّفق لا يُوجِب الْمُختلِف ... ومعنى : ﴿ تصريفِ الرياحِ ﴾ تَقَلُّبها شمالاً مَرَّةً، وجَنوبًا مَرَّةً ، ودَبُورًا أخرى ، وَصَبَا أخرى ، وعذابًا ورحمة . ﴿ والسَّحابِ الْمُسَخَّرِ ﴾ الْمُذَلَّل . والآية فيه مِن أربعة أوجه : ابتداء كَوْنه ، وانتهاء تَلاشيه ، وقِيامه بلا دعامة ولا علاقة ، وإرساله إلى حيث شاء الله تعالى . ﴿ لآياتٍ ﴾ الآية العلامة . أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال : أخبرنا عاصم قال : أخبرنا ابن بشران قال : أخبرنا ابن صفوان قال : حَدَّثنا ابن أبي الدنيا قال : حَدَّثني هارون قال: حَدَّثني عفان عن مبارك بن فَضَالة قال : سَمعتُ الحسن يقول : كانوا يقولون ــ يعني أصحاب النبيِّ ﷺ ــ : الحمد لله الرفيق ، الذي لو جعل هذا الخلق خَلْقًا دائمًا لا يَتصرَّف ، لقال الشَّاك في الله : لَوْ كان لهذا الخلق رَب لَحَادَثَهُ ، وإن الله تعالى قد حَادَثَ بِما تَرَوْنَ مِن الآيات، أنه جاء بضوء طَبَّقَ ما بين الخافقين ، وجعل فيها مَعاشًا ، وسِراجًا وَهَّاجًا ، ثُمَّ إذا شاء ذهب بذلك الخلق ، وجاء بِظُلمة طَبَّقت ما بين الخافقين ، وجعل فيه سَكَنًا ونُجومًا وقمرًا مُنيرًا ، و إذا شاء بنى بناءً جعل فيه المطر والبرق والرعد والصواعق ما شاء ، وإذا شاء صَرَفَ ذلك ، وإذا شاء جاء ببرد يُقَرْقِف الناس ــ يعني يجعلهم يرجفون مِن شِدَّة البرد ــ ، وإذا شاء ذهب بذلك ، وجاء بِحَر يأخذ أنفاس الناس ، لِيَعلم الناس أن لهذا الخلق رَبًّا يُحادِثه بِما تَرَوْنَ مِن الآيات ، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ويتفكرون في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ﴾[آل عِمران : ١٩١] . هذه صِفة المؤمنين أصحاب العقول . إنهم يَتدبَّرون في ملكوت السماوات والأرض معَ عِظَم أجرامها، ويتفكرون في صُنعهما الْمُتْقَن الْمُحْكَم ، وما فيهما من العجائب ، ويستدلون بهذا الخلق الباهر والصُّنع الفائق على الخالق العظيم والصانع الحكيم . والتفكرُ إذا كانَ صادقًا وخالصًا من الأهواء والمصالح الشخصية والتقليد الأعمى ، فإنه سَيُوصِل إلى الإيمان بوجود الله ووَحدانيته . ويقولون: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا الخلق عَبَثًا ولا لَعِبًا ولا لَهْوًا، وإنما خَلَقْتَهُ بالحق لِتَجزيَ الْمُسيئين بِما عملوا (النار) ، وتَجزيَ الْمُحسنين بالْحُسنى (الجنة) . لقد خَلَقْتَهُ دليلاً على حِكمتك وكمال قُدرتك، وإظهارًا لِعَظَمتك ومَجدك ، وكَي يَعْرِفَ الناس أنَّ لها صانعًا قادرًا حكيمًا،فَيُؤمِنون بوجوده،ويُوحِّدونه،ويُطيعونه،كَي يَرضى اللهُ عنهم،ويُدخِلهم الجنة برحمته [5]. والباطلُ هو الزائلُ الذاهب. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٧) : ((قال ابن فارس : التفكر تَرَدُّد القلب في الشَّيء . قال ابن عباس : ركعتان مُقتصدتان في تفكُّر خَير مِن قِيام لَيلة والقلب سَاهٍ. قَوله تعالى: ﴿ رَبَّنا ﴾ . قال الزَّجاج: معناه: يقولون رَبَّنا ﴿ ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ﴾ . أي: خَلَقْتَهُ دليلاً عليك وعلى صِدق ما أتت به أنبياؤك)) اهـ . والقادرُ على خلق السماوات والأرض وإيجادها مِنَ العدم (اللاشيء) وإبداعها بلا مثال سابق ، هو على إعادة الإنسان بَعد مَوته بالبعث والنُّشور أقْدَر . وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٥٠) : ((وأمَّا قَوله : ﴿ ويتفكرون في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ﴾ ، فإنه يعني بذلك أنهم يعتبرون بِصَنعة صانع ذلك ، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا مَن ليس كَمِثْله شَيء ، وَمَن هو مالك كُل شَيء ورازقه ، وخالق كُل شيء ومُدبِّره، ومَن هو على كُل شيء قَدير،وبيده الإغناء والإفقار والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والشقاء والسعادة ... قائلين : ﴿ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ﴾ ، فَتَرَكَ ذِكْر (قائلين) إذْ كان فيما ظَهر من الكلام دَلالة عليه. وقَوْله : ﴿ ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ﴾ . يقول : لَم تَخْلُقْ هذا الخلق عَبَثًا ولا لَعِبًا ، وَلَم تَخْلُقْه إلا لأمر عظيم مِن ثواب وعِقاب ، ومُحاسَبة ومُجازَاة ، وإنما قال : ﴿ ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ﴾ ، ولَم يقل: (ما خلقتَ هذه ولا هؤلاء) ، لأنه أراد بِ﴿ هذا ﴾الخلق الذي في السماوات والأرض)) اهـ .

---

(٥) في تفسير البغوي (١/ ١٥٢): ((قال ابن عَون : الفكرة تُذْهِب الغفلة، وتُحْدِث للقلب الخشية، كما يُحْدِث الماء للزرع النبات . وما جُلِيَت القلوب بِمِثْل الأحزان ، ولا استنارت بِمِثْل الفكرة)) .

والتفكرُ مِن أعظم العبادات وأشرفها ، لأنه مِن أعمال القلب ، الذي هو أشرف الجوارح . ولا يُثاب أحد على أعمال الجوارح إلا إذا استقرَّت النِّيةُ الصالحة في قلبه أوَّلاً . فالقلبُ هو مَلِكُ الأعضاء وسَيِّد الجوارح. وينبغي أن يَكون التفكر في المخلوقات ، لأن المخلوقات آياتٌ إلهية باهرة تُرشِد إلى الإيمان والحق . ولا يَجوز أن يكون التفكر في ذات الخالق،لأن العقل البشريَّ القاصر المحدود لا يَقْدِر على إدراك حقيقة اللهِ الخالق العظيم . والشخصُ المتفكِّر في ذات الله كالناظر في عَين الشمس ، لأن الله سُبحانَه ليس كَمِثْلِه شَيء ، لا يُشْبِه مخلوقاته، ولا تُشْبِهُهُ مخلوقاته . إنَّ التفكُّر في النِّعَم والمخلوقات يَزيد محبةَ الخالق في قلب العبد ، والإيمان بِه ، وبِتَوحيده ، وقُدرته ، وحِكمته . أمَّا التفكرُ في ذات الله فَيَزيد العبد حَيرةً وقَلَقًا وضَلالاً ، لأن العقلُ البشري له حَد ، ولا يَستطيع أن يُحيط بذات الله ، ولا تُحيط بِه الأفكار [6].

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٨٣) : ((حديث ابن عباس : " تَفَكَّروا في كُل شَيء ، ولا تَفَكَّرُوا في ذات الله " . موقوف ، وسنده جَيِّد)) اهـ .

---

(٦) قال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٨٦): ((حديث ابن عباس: إنَّ قَوْمًا تَفَكَّروا في الله عَزَّ وَجَلَّ، فقال النبيُّ ﷺ : " تَفَكَّروا في خَلْق الله ، ولا تَفَكَّروا في الله ، فإنكم لَن تَقْدِرُوا قَدْرَه ". أخرجه أبو نُعَيم في الحِلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف . ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب مِن وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبراني في الأوسط ، والبَيهقي في الشُّعب مِن حديث ابن عمر، وقال : هذا إسناد فيه نظر. قلتُ: فيه الوازع بن نافع متروك))اهـ. وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٦٢و٢٦٣): (((تفكروا في خلق الله) أي مخلوقاته التي يَعرف العباد أصلها جُملةً لا تفصيلاً كالسماوات بكواكبها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض بما فيها مِن جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بينهما وهو الجو بغيومه وأمطاره ورعده وبرقه وصواعقه ، وما أشبه ذلك، فلا تتحرك ذَرَّة مِنه إلا ولله سُبحانَه أُلوف مِن الحِكمة فيه ، شاهدة له بالوَحدانية، دَلَّ على عَظَمته وكبريائه. والتفصيل يَطول. والتفكر هو المخصوص بالقلب، والمقصود مِن الخلق . قال القاضي : وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله . وفي كُل شيء له آية ... تدل على أنه واحد . ألا ترى إلى نَصْبه السماء ذات الطرائق ، ورَفْعه الفَلَك فوق رُؤوس الخلائق ، وإجرائه الماء بلا سائق ، وإرساله الريح بلا عائق ؟ . فالسماوات تدل على نَعْته ، والفَلَك يدل على حُسن صَنْعته ، والرياح نَشْر من نسيم رحمته، والأرض تدل على تَمام حِكمته ، والأنهار تَفجَّرت بِعُذوبة كلمته، والأشجار تُخْبِر بجميل صَنْعته)) .

والإنسانُ عاجز عن إدراك حقيقة الرُّوح الموجودة في جِسمه ، وهي مَخلوقة ، فكيفَ يُدْرِك حقيقةَ خالق الرُّوح . وكما قِيل :

حقيقةُ المرءِ لَيْسَ المرءُ يُدْرِكُها فَكَيْفَ يُدْرِكُ كُنْهَ الخالقِ الأزَلِيِّ

وفي صحيح مسلم (١/ ١١٩) : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يَزالُ الناس يتساءلون، حتى يُقال: هذا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ ، فَمَن خَلَقَ اللهَ ؟ ، فَمَن وَجَدَ مِن ذلك شَيْئًا ، فَلْيَقُلْ : آمنتُ بالله)) .

يُحاوِل الشَّيطان إغواء الناس، وقيادتهم إلى الكُفر والضلال ، وذلك بزرع الوساوس والشُّبهات والشُّكوك والخواطر السَّيئة في صُدورهم . والشَّيطانُ إنما يُوَسْوِس لِمَن عَجِزَ عن إغوائه ويَئِسَ مِن إضلاله ، فَيُنكِّد عليه بالوَساوس والخواطر لعجزه عن إغوائه . والوَسوسةُ هي العلامة الأكيدة على إيمان العبد وقُوَّة يَقينه .

وينبغي الإعراض عن هذا الخاطر الباطل:" فَمَن خَلَقَ اللهَ ؟ " ، وإهماله ، وقَطْعه وعدم التعاطي معه ، والاشتغال بِغَيره ، واللجوءُ إلى الله ، كَي يَدفع وَسوسةَ الشَّيطان ، ويُثبِّت الإيمانَ في القلب.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١٥٥) : ((قال الإمام المازري رحمه الله : ظاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يَدفعوا الخواطر بالإعراض عنها ، والرد لها مِن غَير استدلال ولا نظر في إبطالها. قال : والذي يُقال في هذا المعنى إنَّ الخواطر على قِسْمَيْن، فأمَّا التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شُبهة طَرَأت، فهي التي تُدفَع بالإعراض عنها، وعلى هذا يُحمَل الحديث، وعلى مِثْلها يُطلَق اسم الوَسوسة، فكأنه لَمَّا كان أمْرًا طارِئًا بِغَير أصل، دُفِعَ بِغَير نَظَر في دليل ، إذ لا أصل له يُنظَر فيه ، وأمَّا الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشُّبهة ، فإنها لا تُدفَع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها ، والله أعلم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماواتِ والأرضَ في سِتَّة أيامٍ وكانَ عَرْشُهُ على الماءِ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحسنُ عَمَلاً ﴾[هُود : ٧] .

يُبيِّن اللهُ عَظَمَته ومَجده وقُدرته على كُل شَيء وكيفية بَدْء الخلق . لقد خَلَقَ السماواتِ والأرض في ستة أيام ، وكان قادرًا على خَلْقها في لحظة ، ولكنه سُبحانَه أراد تعليم الناس التأنِّي . وعَرْشُه كان على الماء قبل عملية الخلق.والقادر على الخلق والإيجاد لن يَعجَز أن يُعيدكم أحياء بعد مَوتكم . والآيةُ تُشير بوضوح إلى أنَّ خَلْق العَرْش والماء قبل خَلْق السماوات والأرض . وجاءت " السماوات " بصيغة الجمع لاختلافها بالأصل والذات، بعكس" الأرض" التي هي من

مادة واحدة (التراب) ، لذلك جاءت " الأرض " بالْمُفرَد " . والأيامُ المذكورة في الآية لَيست أيام الناس المقابلة لليالي، لأنه لَم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء . واللهُ لَم يَخلق السماوات والأرض عبثًا، وإنما مِن أجل منفعة الناس، وأن يَعبدوه بلا شريك ، وخَلَقَ الناسَ لِيَختبرهم ويَمتحنهم ، ويَبتليَهم بالاعتبار والاستدلال على كمال قُدرته وعلى البعث والجزاء. وبعد البعث الحسابُ، حيث يُجازِي اللهُ الْمُسيءِ بإساءته ويُدخِله النار ، والمحسِن بإحسانه ويُدخِله الجنة . واللهُ أعلم بالناس مِن أنفسهم ، يَعْلَم عنهم كُل شيء قبل أن يَخلقهم ، فلا يحتاج إلى اختبارهم ، وإنما الاختبار لإقامة الْحُجَّة على الناس ، وقطع أعذارهم . والعِبرةُ لَيست بكثرة العمل ، لذلك لَم يقل : (أكثر عملاً) ، وإنما قال : ﴿ أحسنُ عَمَلاً ﴾ . وهذا يعني أنَّ العمل ينبغي أن يكون خالصًا لله ، وَفْق سُنَّة النبيِّ ﷺ . وهذان شَرْطا قَبول العمل . وإذا غاب أحدهما أو كِلاهما ، بَطَلَ العمل ، وصارَ وَبالاً على صاحبه . والأحسنُ عَمَلاً هو الأتم عقلاً ، والأزهد في الدنيا ، والأكثر شُكْرًا ، والأسرع في الطاعة ، والأَوْرَع عن محارم الله ، والأتقى لله تعالى (7).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢١) : ((﴿ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحسنُ عَمَلاً ﴾ ... لِيُعاملكم معاملة الْمُبتلِي لأحوالكم ، كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسباب وموارد لوجودكم ومعاشكم ، وما تحتاج إليه أعمالكم ، ودلائل وأمارات تستدلون بها ، وتستنبطون منها ، وإنما جاز تعليق فِعل البلوى لِمَا فيه مِن معنى العِلْم مِن حيث إنه طريق إليه كالنظر والاستماع،وإنما ذكر صيغة التفضيل والاختيار شامل لِفِرَق الْمُكلَّفين باعتبار الْحُسْن والقُبح للتحريض على أحاسن المحاسن والتحضيض على الترقي دائمًا في مراتب العِلم والعمل، فإن المراد بالعمل ما يَعُمُّ عمل القلب والجوارح)) .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٦٦) أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((كان اللهُ وَلَم يَكُن شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وكان عَرْشُه على الماء ، وكتب في الذِّكْرِ كُلَّ شَيء ، وخَلَقَ السماواتِ والأرض)) .

---

(٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٧٩) : ((قَوْله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُم ﴾ أي: لِيَختبركم الاختبار الذي يُجازي عليه، فَيُثيب الْمُعتبِر بما يرى من آيات السماوات والأرض، ويُعاقِب أهل العِناد. قَوله تعالى : ﴿ أيُّكُم أحسنُ عَمَلاً ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها أيُّكم أحسن عقلاً وأوْرَع مِن محارم الله عَزَّ وَجَلَّ وأسرع في طاعة الله، رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ. والثاني أيُّكم أعمل بطاعة الله، قاله ابن عباس ، والثالث أيُّكم أتَمُّ عَقْلاً ، قاله قتادة . والرابع أيُّكم أزْهَد في الدنيا ، قاله الحسن وسفيان)) .

لقد وضَّح النبيُّ ﷺ الوجودَ وأحوالَ هذا العالَم . والعرشُ مخلوقٌ للهِ ، وهو أعلم بحقيقته . ولَم يكن تحت العرش إلا الماء . وكَتَبَ اللهُ في اللوح المحفوظ كُلَّ شَيء، مِثْل : مقادير الخلائق وأرزاقهم وآجالهم ، وتفاصيل حياتهم الدُّنيوية ، ومصيرهم بعد الموت ... إلخ .

وهذا الحديثُ دليل على حُدوث العالَم (وُجوده بعد إذ لَم يَكُن) . وكُل شيء سِوى اللهِ وُجِدَ بعد أن لَم يكن موجودًا . لقد كانَ اللهُ ولا شَيء معه ، فهو الإلهُ القديمُ والخالق العظيم ، الأوَّلُ بلا بداية ، والآخِر بلا نهاية ، وكُل ما سِوى اللهِ مخلوقٌ حادثٌ ، وعبدٌ لله تعالى .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٨٩) : ((ويكون قَوْلُه : " وكان عَرْشُه على الماء " ، معناه أنه خَلَقَ الماءَ سابقًا، ثُمَّ خَلَقَ العرش على الماء. وقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: أن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يَخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء . قوله : " وكان عرشه على الماء " ، قال الطيبي : هو فصل مستقل ، لأن القديم مَن لَم يسبقه شيء ، ولَم يُعارِضه في الأوَّلِيَّة ، لكن أشار بقوله : " وكان عرشه على الماء " إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالَم لكونهما خُلِقَا قبل خلق السماوات والأرض ، ولَم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء ، ومُحصِّل الحديث أن مُطْلَق قَوله:" وكان عرشه على الماء " مُقيَّد بِقَوله : " وَلَم يكن شَيْءٌ غَيْرُهُ " ، والمراد بكان في الأول الأزلية ، يعني _ " كان الله " _ ، وفي الثاني الحدوث بعد العدم _ يعني " كان عرشه" _. وقد روى أحمد والترمذي وصَحَّحه من حديث أبي رَزِين العُقَيلي مرفوعًا أن الماء خُلِقَ قبل العرش . وروى السُّدي في تفسيره بأسانيد متعددة أن الله لَم يَخلق شَيْئًا مِمَّا خَلق قبل الماء . وأمَّا ما رواه أحمد والترمذي وصحَّحه من حديث عُبادة بن الصامت مرفوعًا : " أوَّل ما خَلق اللهُ القلمَ ثُمَّ قال: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة " ، فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أوَّلِيَّة القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش ، أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة ، أي أنه قِيل له : اكتب أول ما خُلِق ، وأمَّا حديث : أوَّلُ ما خلق الله العقل ، فليس له طريق ثبت، وعلى تقدير ثبوته فهذا التقدير الأخير هو تأويله ، والله أعلم . وحكى أبو العلاء الهمداني أن للعلماء قولين في أيُّهما خُلِقَ أوَّلاً : العرش أو القلم، قال : والأكثر على سَبْق خَلْق العرش، واختار ابن جرير وَمَن تَبِعَه الثاني)) اه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئِل عن قَوله عَزَّ وَجَلَّ:﴿ وكانَ عَرْشُهُ على الماءِ ﴾ ، على أيِّ شَيء كان الماء.قال:((على مَتْنِ الريح))[8].

(٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٦٧) برقم (٣٢٩٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي فَيض القدير للمُناوي(٤/ ٥٤٨):((قال التونسي: في قَوْله: ﴿ وكانَ عَرْشُهُ على الماء ﴾. بيان استحالة الجهة في حَقِّه تعالى ، لأن استقرار العرش على الماء ، فَعُلِم بأنه لَمَّا خُرقت العادة باستقرار هذا الْجُرْم العظيم الذي هو أعظم الأجرام على الماء الذي ليس من عادة مِثْلِه ، بل ولا عادة أقل منه من الأجرام الراتبة أن يستقر على الماء ، عُلم أن الاستواء عليه ليس استواء استقرار وتمكُّن)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((إنَّ أوَّلَ شَيء خَلقه اللهُ القلم ، فقال له : اكْتُب ، فقال : وما أكتب ؟ ، فقال : القَدَر ، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة)) . قال : وكان عرشه على الماء ، فارتفع بُخار الماء ، فَفُتِقَت منه السماوات ، ثُمَّ خُلِقَ النُّون ــ يعني الحوت ــ ، فَبُسِطَت الأرض عَلَيه ، والأرض على ظَهْر النُّون ، فاضطربَ النُّون ، فمادت الأرض ، فَأُثْبِتَت بالجبال ، فإنَّ الجبال تَفْخَرُ على الأرض))[9].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ استوى على العَرْشِ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجري لأجلٍ مُسمًّى يُدبِّر الأمرَ يُفصِّل الآياتِ لعلكم بلقاءِ رَبِّكُم تُوقِنون ﴾ [الرعد : ٢] .

يُوضِّح اللهُ للناس كمال قُدرته ، وسُلطانه العظيم ، فقد خَلق السماواتِ عاليةً مُرتفعة بلا أعمدة تَحملها، ولا يُسنِدها شَيء، وجعلها للأرض سَقْفًا،واللهُ يُمسِك السماءَ أن تقع على الأرض.

وهذا الأمرُ واضح لكل الناس بالعَين الْمُجرَّدة ، وظاهر بلا خَفاء ، والجميعُ يَرَوْنَهُ رأي العَين . ولا يَحتاج إلى براهين .وفي هذا دليلٌ على وُجود الله ووحدانيته وعَظَمَته وسُلطانه وحِكمته .

وليس يَصِحُّ في الأذهان شَيء   إذا احتاجَ النهارُ إلى دَليل

واللهُ أرشدَ الناسَ إلى النظر في مخلوقاته العظيمة ومَصنوعاته الْمُتْقَنَة لِيَعرفوا كمال قُدرته . وفي الآية ذِكر الدليل الذي يُوجِب التصديق بالخالق ، لأن المخلوق يدل على الخالق ، والمصنوع يدل على الصانع . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٩٢) : ((﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ﴾ .ومعناه نَفْي العَمَد أصلاً، وهو الأصح . يعني : ليس مِن دونها دعامة تدعمها ، ولا فوقها علاقة تُمسكها . قال إياس بن معاوية : السماء مُقَبَّبة على الأرض مِثل القُبَّة)) اهـ .

---

(٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٤٠) برقم (٣٨٤٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقـال ابـن كثيـر فـي تفسـيره (٢/ ٦٥٦) : ((يُخبِـر اللهُ تعـالى عـن كَمـال قُدرتـه ، وعظـيم سُلطانه، أنه الذي بإذنه وأمره ، رَفع السماواتِ بغَير عَمَد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره ، رفعها عن الأرض بُعْدًا لا تُنال ، ولا يُدرَك مداها ، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها مِن الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مُرتفعة عليها مِن كُل جانب على السَّواء. وبُعد ما بينها وبين الأرض مِن كُل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسَمْكها في نَفْسها مسيرة خمسمائة عام ، ثـم السـماء الثانيـة مُحيطـة بالسـماء الـدنيا ومـا حَوَت ، وبينهمـا مِـن بعـد المسـير خمسـمائة عـام ، وسَمْكها خمسمائة عام ، وهكذا السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة)) اهـ .

﴿ ثُمَّ استوى على العَرْشِ ﴾ . عَلا اللهُ فوق العرش عُلُوًّا يَليق بجلاله ومَجده وعَظَمَته ، بلا تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تجسيم.والاستواء على العرش صِفة لله تعالى. تعالى اللهُ عُلُوًّا كبيرًا.

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٢٦٣) : ((والْمُعتقَد في هذا أنه سُبحانَه مُسْتَوٍ على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواءً مُنَزَّهًا عن الْمُمَاسَّة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش،بل العرش وحَمَلته محمولون بِلُطف قُدرته ومقهورون في قبضته كان الله ولا شيء معه، كان سُبحانَه قبل أن يَخلق المكانَ والزمانَ، وهو الآن على ما عليه كان)).

والجديرُ بالذِّكر أن استواء الله على العرش قبل رفع السماوات . وهذا يعني أنَّ ﴿ ثُمَّ ﴾ لِعَطف الْجُمَل ، وليس للترتيب .

﴿ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجري لأجلٍ مُسمًّى ﴾ . وذَلَّلَ اللهُ الشمسَ والقمرَ لمنافع العباد، وتحقيـق مصـالحهم ، لِيَعلمـوا عـدد السـنين والحسـاب ، ويَفصـلوا بـين الليـل والنهـار . والشـمسُ والقمرُ مقهوران وخاضعان لله، وكُل مخلوق خاضع للخالق. ويَسيران في السماء بقدرة الله ، ووَفْق إرادته، إلى وقت معلوم ومُحدَّد ، وهو فناء الدنيا ، وقيام السـاعة التي عِندها تُكوَّر الشـمس ، ويُخسَف القمر ، وتنكدر النجوم ، وتنتثر الكواكب. وفي تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٧): ((وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمَّى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمَّى أن القمر يَقطع فَلَكَه في شهر ، والشمس في سنة)) اهـ .

وتسخير الشمس والقمر يدل على كمال قُدرته الله ، وسُلطانه العظيم ، ومجده المقدَّس .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٦) : ((وذِكْر الشـمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السَّيارة السبعة ، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت ، فإذا كان قد سَخَّرَ هذه ، فلأن يَدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأَوْلَى والأحرى)) اهـ .

﴿ يُدبِّر الأمرَ ﴾ . يَقضي اللهُ أمورَ الدنيا والآخرة وَحْدَه بلا شريك ولا مُساعِد ، ويُصرِّف شُؤونَ الخلائق وأمورَ الملَكُوت بِحكمته وقُدرته وَفْقَ ما يُريد . وعَبَّرَ بالتدبير تقريبًا للأفهام .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٦): ((﴿ يُدبِّر الأمرَ ﴾ أمرَ مَلَكُوته مِن الإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة ، وغَير ذلك)) اهـ .

﴿ يُفصِّل الآياتِ ﴾ . يُبيِّن اللهُ الآياتِ لإقامة الْحُجَّة عليكم أيها الناس ، ويُوضِّح الدَّلالات التي تُشير إلى وُجوده ، ووَحدانيته ، وقُدرته المطْلقة . ومَن يَقْدِر على هذه الأشياء ، يَقْدِر على بَعْثكم بعد الموت ، وإعادةِ الخلق كما بَدَأه . لقد نَصَبَ اللهُ أمام الناس الدلائل التي تدل على التَّوحيد والبعث ، للإيمانِ والاعتبار وإخلاص العبادة لله تعالى .

﴿ لعلكم بلقاءِ رَبِّكُم تُوقِنون ﴾. لعلكم عِند مُشاهَدة هذه الآيات العظيمة والدلائل الواضحة، والبراهين الجلِيَّة ، تُصدِّقون بلقاء الله وكمالِ قُدرته ، ولا تَشُكُّون في ذلك، ولا ترتابون في صِدْقه . وبالتالي ، تَعْلَمون أنَّ القادر على خَلْق هذه الأشياء والسَّيطرة عليها والتحكم بها ، وتَدبيرها بلا شريك ولا مُساعِد ، قادر على البعث والجزاء ، أي : إعادة الناس بعد مَوتهم ومُحاسبتهم .

وبعبارة أخرى ، لعلكم تُوقِنون بأن هذا الخالق العظيم مُدبِّر الأمر مُفصِّل الآيات، لا بُدَّ أن تَرجعوا إلَيه، ولا فُرصة للهرب .

إنَّ اللهَ أنزلَ الكتبَ ، وأرسلَ الأنبياءَ ، كي يُصدِّق الناسُ بِوَعده ووعيده ، ويُؤمنوا بِلقائه ، ولَم يُنْزِل الكتبَ عَبَثًا ولا لَعِبًا ، ولَم يُرسِل الأنبياءَ مَضيعةً للوقت،أو لإقامة علاقات صداقة مع الناس . وينبغي معرفة الغاية مِن أقوال الله وأفعاله ، لأن أقواله وأفعاله حكيمة مُنَزَّهة عن العبث .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٢٧) : ((﴿ يُفصِّل الآياتِ ﴾ يَقول : يُفصِّل لكم رَبُّكم آياتِ كتابه ، فَيُبَيِّنها لكم احتجاجًا بِها عليكم أيها الناس ﴿ لعلكم بلقاءِ رَبِّكُم تُوقِنون ﴾ . يقول : لِتُوقنوا بلقاء الله والْمَعاد إليه ، فَتُصدِّقوا بوعده ووعيده ، وتَنْزَجِروا عن عبادة الآلهة والأوثان ، وتُخْلِصُوا له العبادة إذا أيقنتم ذلك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرضَ وجَعَلَ فيها رواسيَ وأنهارًا وَمِن كُلِّ الثمراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغشِي الليلَ النهارَ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكرون ﴾ [الرعد : ٣] .

لقد ذَكَرَ اللهُ في الآية السابقة[الرعد:٢]آياتِ السماوات ودلائلها،وإتقانَه للعالَم العلوي وإحكامَ صُنعه،بصورة بديعة لا عيب فيها ولا نقص،حيث رَفْع السماوات بِغَير عمد،وتسخير الشمس والقمر.وفي هذه الآية يَذكر اللهُ آياتِ الأرض ودلائلها، ويُبيِّن قُدرته وإحكامَه للعالَم السُّفلي.

إنَّ اللهَ بِقُدرته قد بَسَطَ الأرضَ طُولاً وعَرْضًا ووسَّعها ، وجَعَلَها مَمدودةً ومُتَّسعةً وفسيحةً ، ليستقر عليها الإنسان والحيوان ، ويَتحرَّكان بِسُهولة ويُسر . ولو كانت الأرضُ جبالاً وأوديةً وأماكن وَعِرة ، لصارت الحياةُ عليها مُستحيلة. والجديرُ بالذِّكر أنَّ بسط الأرض لا يُنافي كرويتها لِتَباعُد أطرافها ، وبُعد مداها ، وسَعَة أقطارها [10].

﴿ وجَعَلَ فيها رواسيَ ﴾ .

وخَلَقَ اللهُ في الأرضِ جبالاً ثابتةً راسخةً تحفظ توازنَ الأرض، لِكَيلا تضطرب بأهلها. والجبالُ للأرض مِثل الأوتاد للخَيمة . والرَّواسي جَمْع راسية ، لأن الأرض ترسو بها ، أي تَثْبُت . والإرساء الثبوت . والتاءُ في " راسية " للتأنيث على أنها صِفة الجبال أو للمُبالَغة.

﴿ وأنهارًا ﴾ . وجَعَلَ فيها أنهارًا مِن ماء ، تَجري وتتدفَّق بلا عوائق ضِمن نظام بديع ومُحْكَم ، وهذه المياهُ الجاريةُ في الأرض فيها منافع للإنسان وسائر المخلوقات .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٦) : ((﴿ وأنهارًا ﴾ ضَمَّها إلى الجبال ، وعَلَّقَ بهما فِعْلاً واحدًا ، مِن حيث إن الجبال أسباب لِتَوَلُّدِهَا)) اهـ .

﴿ وَمِن كُلِّ الثمراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ . وجَعَلَ فيها مِن جميع أنواع الثمرات زَوجين اثنين ، ذَكَرًا وأنثى لتتم عملية الإخصاب والتكاثر بينهما وَفْقَ السُّنة الإلهية الحكيمة [11] . أو : صِنفين اثنين: أبيض وأسود ، صغيرًا وكبيرًا ، حارًّا وباردًا ، حُلْوًا وحامضًا ، عَذْبًا ومَالِحًا ... إلخ.

ومعنى : ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي : نَوْعَيْن . والزَّوجُ الواحدُ الذي له قريب مِن جِنْسِه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٧) : ((وأجرى فيها الأنهارَ والجداول والعُيون ، لِيَسْقِيَ ما جعل فيها مِن الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطُّعُوم والروائح . ﴿ وَمِن كُلِّ الثمراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي : مِن كُل شكل صِنْفان)) اهـ .

---

(١٠) في التسهيل في علوم التنزيل (٢/ ١٣٠) : ((ولا يتنافى لفظُ البَسْط والْمَدِّ مع التكوير ، لأن كُل قطعة مِن الأرض مَمدودة على حِدَتها ، وإنما التكوير لجُملة الأرض)) .

(١١) قال سيد قطب في الظِّلال (٥/ ٧٢): ((هذه حقيقة لَم يعرفها البشر مِن طريق عِلْمهم وبحثهم إلا قريبًا ، وهي أن كل الأحياء تتألف مِن ذَكَر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مَظنونًا أن ليس مِن جِنْسها ذُكور تَبَيَّن أنها تَحمل في ذاتها الزَّوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مُجتمعة في زهرة أو مُتفرِّقة في العُود)) .

﴿ يُغشِي الليلَ النهارَ ﴾ . يُلْبِس النهارَ بِظُلمة الليل ، فيصير الجو أسود مُظْلِمًا بعدما كان أبيض مُنِيرًا ، ويُلْبِس الليل بِضَوء النهار ، فيصير الجو أبيض مُنِيرًا بعدما كان أسود مُظْلِمًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٧) : ((﴿ يُغشِي الليلَ النهارَ ﴾ ، أي : جَعَلَ كُلاًّ مِنهما يطلب الآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا ، فإذا ذهب هذا غَشِيَه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخَر ، فيتصرَّف أيضًا في الزمان ، كما يَتصرَّف في المكان والسُّكان)) اهـ .

﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكرون ﴾ . إنَّ في عجائب صُنع اللهِ وعظيمِ قُدرته لَدَلالات وعلامات وعِظات وبراهين وحُجَج ، تُشير إلى وجود الله، وَوَحدانيته، وحِكمته ، وقُدرته المطْلقة ، وتَفَرُّده بالخلق والإيجاد والإبداع ، لِمَن تأمَّلَ وتَفَكَّرَ . وبالتفكير في عجائب خَلْق الله ، يستدل الإنسانُ ويَعتبر بها ، ويُؤمِن أن الله هو الإله المستحِق للعبادة ، وَحْدَه لا شريك له .

وقد أرشدَ اللهُ الناسَ إلى آياته الباهرة كَمَدِّ الأرض وتثبيتها بالجبال الراسخة ، وإجراء الأنهار، وخلق الثمرات المتزاوِجة ، وتعاقُب الليل (الظُّلمة) والنهار (النُّور) ، ووجَّههم إلى التفكر فيها، والنظر العميق مِن أجل الاعتبار والإيمان. فالمخلوقُ يدل على الخالق، والمصنوع يدل على الصانع. والتفكرُ هو تصرُّف القلب في طلب معاني الأشياء، ومعرفة حِكمة وُجودها، وقُدرة مُوجِدها. فإنَّ وجود الآيات الباهرة والمصنوعات الفائقة ضِمن نظام مُتْقَن ومُحْكَم ، يدل على وجود صانع حكيم عليم قادر ، دَبَّرَ أمْرَهَا ، وهَيَّأ أسبابَها . وخُصَّ " الْمُتفكِّرون"بالذِّكر، لأن خَلْقَ اللهِ الباهرَ الْمُتْقَن، وصُنعه البديع الْمُحْكَم، لا يُدْرَكَان إلا بالتفكر ، والتفكرُ هو طريق التحليل والاستدلال والاستنباط . والْمُتفكِّرون في عجائب صُنع الله هُم القادرون على الفهم والتحليل والاستفادة والوصول إلى طريق الحق واليقين، أمَّا الذين لا يَتفكَّرون في صُنع اللهِ ولا يَتأمَّلون في خَلْقِه البديع ، فَلَن يَستفيدوا شَيْئًا مِن آياتِ الله ، لأنهم عَطَّلوا عُقولَهم ، والعقلُ هو قائد الإنسان إلى الإيمان بعد هداية الله تعالى . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٣٠) : ((وَقَوْله : ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكرون ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : إن فيما وصفتُ وذكرتُ مِن عجائب خَلْق الله ، وعظيم قُدرته التي خَلَقَ بها هذه الأشياء، لَدَلالات وحُجَجًا وعِظَات ، لِقَوم يتفكرون فيها ، فيستدلون ويعتبرون بها ، فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لِمَن خَلَقَها ودبَّرها ، دُون غَيره مِن الآلهة والأصنام التي لا تَقْدِر على ضَر ولا نفع ولا لِشَيء غَيرها ، إلا لِمَن أنشأ ذلك فأحدثه مِن غَير شيء ، تباركَ وتعالى ، وأن القُدرة التي أبدع بها ذلك ، هي القُدرة التي لا يَتعذَّر عليه إحياء مَن هَلَك مِن خَلْقه ، وإعادة ما فَنِيَ مِنه ، وابتداع ما شاء ابتداعَه ، بِها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وجَنَّاتٌ مِن أعنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغَيْرُ صِنوانٍ يُسقَى بماءٍ واحدٍ ونُفضِّل بَعْضَها على بَعْضٍ في الأُكُلِ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ [الرعد : ٤] .

وفي الأرضِ بِقَاعٌ مختلفة مَعَ كَوْنها مُتقارِبة ومُتلاصِقة ، يَقْرب بعضُها من بعض مِن الناحية الجغرافية ، لكنها مختلفة مِن حيث طبيعة تكوينها، وفُضِّلَت إحداهما على الأُخرى . فمنها قِطعة سَبْخة مالحة لا تُنبِت شَيْئًا، وفي جوارها قطعة عذبة طَيِّبة تُنبِت وتنفع. وهذه القِطَعُ مشتركة في الطبيعة المكانية الجغرافية لكنها مُختلفة في طبيعة التكوين ، وهذا يدل على وجود خالق حكيم مُسيطِر عليها، وله حِكمة في أفعاله على وجه دُون وجه ، والأمر ليس عَبَثِيًّا ولا صُدفة ، وإنما هو مِن دلائل قُدرة الله تعالى . والعِبرة في هذا الأمر أن في الأرض قِطَعًا مُتجاورات ذات طبيعة جُغرافية واحدة ، مِن تُربة واحدة ونَوع واحد ، لكنها مُختلفة مِن حيث الملوحة والعُذوبة ، وقِلَّة الرَّيْع وكثرة الرَّيْع . وهذا الأمر يدل على قُدرة اللهِ المطْلقة وحِكمته البالغة [12].

---

(١٢) قال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٢٦٥) : ((قال الحسن : هذا مَثَل ضَرَبَه اللهُ لقلوب بني آدم . الأرض واحدة ، ويَنْزل عليها ماء واحد من السماء ، فَتُخْرِج هذه زهرة وثمرة ، وتُخْرِج هذه سَبْخة ومِلحًا وخَبَثًا، وكذلك الناس خُلِقوا مِن آدم، فَنَزلت عليهم من السماء تذكرة، فَرَقَّت قلوب وخَشَعَت وقَسَت قلوب وَلَهَت. قال الحسن: فواللهِ ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان،قال الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ ورحمةٌ للمُؤمنينَ ولا يَزيدُ الظالمينَ إلا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢])) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٣٩): ((الأُولَى: قَوله تعالى: ﴿ وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ في الكلام حذف المعنى : وفي الأرض قِطَع متجاورات وغَير متجاورات ... ثُمَّ حُذِف لِعِلْم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرًا،وغير متجاورات الصَّحارى وما كان غير عامر. الثانية: قَوله تعالى : ﴿ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي قُرى مُتدانِيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجَنَّات ، ثُمَّ تتفاوت في الثمار ، فيكون البعض حُلْوًا ، والبعض حامضًا ، والغصن الواحد من الشجرة قد يَختلف الثمر فيه مِن الصِّغر والكِبَر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد. وفي هذا أدل دليل على وَحدانيته وعِظَم صَمَدِيَّتِه،والإرشاد لمن ضَل عن معرفته،فإنه نَبَّه سُبحانَه بِقَوله: ﴿ يُسقَى بماءٍ واحدٍ ﴾ على أن ذلك كُلَّه ليس إلا بِمَشيئته وإرادته،وأنه مَقدور بِقُدرته،وهذا أدل دليل على بُطلان القول بالطَّبْع ، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لَمَا وقع الاختلاف. وقيل: وَجْه الاحتجاج أنه أثبت =

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٧) : ((وقَوْله : ﴿ وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي : أراضٍ يُجَاوِر بعضُها بَعْضًا ، مَعَ أن هذه طَيِّبة تُنبِت ما يَنفع الناس ، وهذه سَبْخة مالحة لا تُنبِت شَيْئًا . هكذا رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبَير والضَّحاك وغَير واحد. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بِقاع الأرض، فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء وهذه مُحجرة وهذه سهلة وهذه مُرملة وهذه سميكة وهذه رقيقة . والكُل متجاورات فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كُله مِمَّا يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ، ولا رَب سِواه)) اهـ .

﴿ وجَنَّاتٌ مِن أعنابٍ ﴾ . وبساتين كثيرة مِن أشجار العنب . ﴿ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغَيْرُ صِنوانٍ ﴾ . وفي هذه القِطَع المتجاورات أنواع الزُّروع والأشجار والحبوب والنخيل ، مِنها ما يكون مِن أصل واحد مُجتمِع (صِنوان) ، ومِنها مُتفرِّقات مُختلفات الأصول (غَير صِنوان) . والصِّنْوُ من النبات إذا تشابه الشجر، وطلعت اثنتان أو أكثر من أصل واحد ، فالصِّنوان هي النخلات المجتمعة في أصل واحد ، وغَير الصنوان هي النخلات المتفرِّقة ، وكل منها منفردة بأصل ، وكذلك الزروع. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٧) : ((وقَوله : ﴿ صِنوانٌ وغَيْرُ صِنوانٍ ﴾ . الصِّنوان : هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرُّمان والتين وبعض النخيل ونَحْو ذلك ، وغير الصِّنوان : ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار . ومِنه سُمِّيَ عَم الرَّجل صِنْو أبيه ... وقال سُفيان الثوري وشُعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه: الصِّنوان هي النخلات في أصل واحد ، وغَير الصِّنوان المتفرِّقات . وقاله ابن عباس ومجاهد والضَّحاك وقتادة)) اهـ .

﴿ يُسقَى بماءٍ واحدٍ ونُفضِّل بَعْضَها على بَعْضٍ في الأُكُلِ ﴾ .

=التفاوت بين البِقاع، فمن تربة عذبة ومن تربة سَبْخة مع تجاورهما وهذا أيضًا من دلالات كمال قُدرته جَل وعَز،تعالى عَمَّا يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرًا . الثالثة : ذهبت الكفرة _ لعنهم اللهُ _ إلى أن كُل حادث يَحدث بِنَفْسه لا مِن صانع ، وادَّعَوْا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار،وقد أقَرُّوا بِحُدوثها، وأنكروا مُحْدِثَها،وأنكروا الأعراض، وقالت فرقة بِحُدوث الثمار لا مِن صانع ، وأثبتوا للأعراض فاعلاً. والدليل على أن الحادث لا بُد له مِن مُحْدِث أنه يَحْدُث في وقت ، ويَحْدُث ما هو مِن جنسه في وقت آخَر ، فلو كان حُدوثه في وقته لاختصاصه به ، لَوَجَبَ أن يَحدث في وقته كُل ما هو مِن جِنسه ، وإذ بَطَلَ اختصاصه بوقته صَحَّ أن اختصاصه به لأجل مُخَصِّص خَصَّصه به ، ولَوْلا تَخصيصه إيَّاه به ، لَم يكن حُدوثه في وقته أولى مِن حدوثه قبل ذلك أو بعده ، واستيفاء هذا في عِلْم الكلام)) .

الجميعُ يُسْقَى بنفس الماء ، والتُّربة واحدة،ومع ذلك يختلف في النشأة والثمرة. فالثمرات والزروع مختلفة في الطُّعوم والمذاق والألوان والروائح والأشكال. وجميعها له مصدر واحد ذو طبيعة واحدة وهو الماء، ومَعَ هذا فهي مختلفة في كُل شَيء ، وهذا دليل واضح على وجود خالق حكيم ، فَاوَتَ بين الأشياء بقُدرته ، وخَلَقَها كما يُريد وَفْقَ حِكمته . واختلافُها وتنوُّعها مع اتِّحاد الأصول والأسباب، لا يكون إلا بتخصيص واختيار قادر حكيم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/٣٠٣):((قال المفسِّرون: الماء الواحد ماء المطر، والأُكُل الثمر، بعضه أكبر مِن بعض،وبعضه أفضل مِن بعض، وبعضه حامض، وبعضه حلو، إلى غَير ذلك. وفي هذا دليل على بُطلان قول الطبائعيين، لأنه لو كان حدوث الثمر على طَبْع الأرض والهواء والماء وَجَبَ أن يَتَّفق ما يَحدث لاتِّفاق ما أَوْجَبَ الحدوث،فلمَّا وقع الاختلاف دَل على مُدبِّر قادر)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٣١) : ((﴿ وجَنَّاتٌ مِن أعنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغَيْرُ صِنوانٍ يُسقَى بماءٍ واحدٍ ونُفضِّل بَعْضَها على بَعْضٍ في الأُكُلِ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : وفي الأرض مَعَ القِطَع المختلفات المعاني ، مِنها بالملوحة والعُذوبة، والْخَبَث والطَّيب ، مَعَ تجاورها وتقارب بعضها مِن بعض ، بساتين من أعناب وزَرْع ونخيل ، أيضًا متقاربة في الخِلْقة ، مُختلفة في الطُّعوم والألوان ، مَعَ اجتماع جميعها على شُرْب واحد ، فَمِن طَيِّب طَعْمه ، مِنها حَسَن منظره ، طَيِّبة رائحته ، ومِن حامض طَعْمه ، ولا رائحة له)) اهـ . ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ . إنَّ في ذلك لَدَلالات وعلامات لِمَن يَستعملون عقولَهم بالتفكر والتَّدَبُّر والتحليل والاستدلال والاستنباط. وفي ذلك رَد على القائلين بالطبيعة . ومَن استوعبَ هذه الآيات الباهرة ، وتَدَبَّرَ في خَلْقها ، سيصل إلى الإيمان بخالقها وصانعها ومُوجِدها ، ويَقتنع بأن العبادة لا تَجوز إلا لِمَن يَقْدِر على فِعل هذا ، بلا شَريك ولا مُساعِد . والقادرُ على فِعل هذه الأشياء ، قُدرته مُطْلَقة ، وإرادته نافذة في كُل شَيء . وهذا يعني أنه لن يَعْجَز عن بَعْث الناس مِن قبورهم . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٣١) : ((وقَوله : ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ في مُخالَفة الله عَزَّ وَجَلَّ بين هذه القِطَع مِن الأرض المتجاورات وثمار جَنَّاتها وزُروعها على ما وَصَفْنا وبَيَّنَّا لَدَليلاً واضحًا، وعِبرة لِقَوم يَعْقِلون اختلاف ذلك، أن الذي خَالَفَ بَيْنه على هذا النَّحْو ، هو الْمُخَالِف بين خَلْقه فيما قَسَمَ لهم مِن هداية وضلال ، وتوفيق وخِذلان ، فَوَفَّقَ هذا وخذل هذا ، وهدى ذا وأضل ذا ، ولو شاء لَسَوَّى بين جميعهم ، كما لو شاء سَوَّى بين جميع أُكُل ثمار الجنة التي تشرب شُرْبًا واحدًا ، وتُسْقَى سَقْيًا واحدًا ، وهي مُتفاضِلة في الأُكُل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوَلَم يَرَوْا إلى ما خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأ ظِلالُه عَنِ اليمينِ والشَّمائلِ سُجَّدًا للهِ وهُم دَاخِرُون ﴾ [النَّحْل : ٤٨] [13].

يُخبِر اللهُ عن كمال قُدرته ، وإرادته النافذة في كُل شيء ، وخُضوع الخلائق له . ويُنبِّه اللهُ على ضرورة النظر في المخلوقات لمعرفة الخالق ، والاستدلال على وَحدانيته وعَظَمَته .

والاستفهامُ في الآية إنكاري. لقد رأى الكفارُ آثارَ صُنع اللهِ التي تدل على وجوده ووحَدانيته، فما لهم لا يَعتبرون ولا يُؤمنون ؟ . أوَلَم يَنظروا إلى المخلوقات مِثل الجبال والأشجار والأحجار ، تَميل ظِلالُها في أول النهار عن اليمين، وفي آخر النهار عن الشمال. إنَّ ظِلالها تكون في أول النهار على حال، ثُمَّ تتقلص، ثُمَّ تعود إلى حال أُخرى في آخر النهار. ومَيَلانها ودَوَرَانها هو سُجودها لله . وهذه الأشياءُ تسجد للهِ صاغرةً ذليلةً خاضعةً مُستسلمةً مُنقادةً. والآيةُ تدل على أنَّ ظِلال الأشياء كُلَّها تسجد للهِ . والجمعُ في الآية ﴿ وهُم دَاخِرُون ﴾ باعتبار المعنى . وإيراد الصِّيغة الخاصة بالعُقلاء لأن الدُّخُور مِن خصائصهم . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٥) : ((يُخبِر تعالى عن عَظَمَته وجلاله وكِبريائه ، الذي خضع له كل شيء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها : جماداتها وحيواناتها ومُكلَّفوها مِن الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كُل ما له ظل

---

(١٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٤٥٢و٤٥٣):((قَوله تعالى: ﴿ إلى ما خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ أراد مِن شَيء له ظِل مِن جبل أو شجر أو جسم قائم ﴿ يَتَفَيَّأ ظِلالُه ﴾، وهو جمع ظِل، وإنما جمع وهو مُضاف إلى واحد لأنه واحد يُراد به الكثرة ... قال ابن قُتَيبة : ومعنى ﴿ يَتَفَيَّأ ظِلالُه ﴾ يدور ويرجع من جانب إلى جانب. والفَيء الرُّجوع، ومِنه قِيل للظِّل بالعَشِيِّ فَيْء ، لأنه فَاءَ عَن المغرب إلى المشرق. قال المفسِّرون: إذا طلعت الشمس وأنت مُتَوَجِّه إلى القِبلة كان الظِّل قُدَّامك ، فإذا ارتفعت كان عن يمينك ، فإذا كان بعد ذلك كان خَلْفك، وإذا دنت للغروب كان على يسارك، وإنما وَحَّدَ ﴿ اليمينِ ﴾ والمراد به الجمع إيجازًا في اللفظ... ودَلَّت ﴿ الشَّمائلِ ﴾ على أن المراد به الجميع. وقال الفَرَّاء: إنما وَحَّد ﴿ اليمينِ ﴾ وَجَمَعَ ﴿ الشَّمائلِ ﴾ ، ولَمْ يَقُل: الشمال، لأنَّ كُل ذلك جائز في اللغة ... وإنما جاز التَّوحيد لأن أكثر الكلام يُواجَه به الواحد.وقال غَيره: اليمين راجعة إلى لفظ ما،وهو واحد. والشمائل راجعة إلى المعنى . قَوله تعالى : ﴿ سُجَّدًا للهِ ﴾ . قال ابن قُتَيبة : مُستسلِمة مُنقادة... وفي قَوله تعالى : ﴿ وهُم دَاخِرُون ﴾ قَولان: أحدهما والكفار صاغرون.والثاني: وهذه الاشياء داخرة مجبولة على الطاعة. قال الأخفش : إنما ذَكَرَ مَن ليس مِن الإنس، لأنه لَمَّا وصفهم بالطاعة أشبهوا الإنس في الفِعل)) .

يَتفيَّأ ذات اليمين وذات الشمال أي بُكْرَةً وعَشِيًّا فإنه ساجد بِظِلِّه لله تعالى . قال مجاهد : إذا زالت الشمس سَجَدَ كُل شيء لله عز وجل، وكذا قال قتادة والضَّحاك وغَيرهم. وقَوله: ﴿ وهُم دَاخِرُون ﴾، أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضًا : سُجود كُل شَيء فَيْؤه . وذَكَرَ الجبال قال : سُجودها فَيْؤها . وقال أبو غالب الشَّيباني : أمواج البحر صلاته)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ واللهُ جَعَلَ لكم مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وجَعَلَ لكم مِنَ الجبالِ أكنانًا وجَعَلَ لكم سَرابيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وسَرابيلَ تَقِيكُم بأسَكُم كذلكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكم لعلكم تُسْلِمُون ﴾[النَّحْل : ٨١] .

يُعدِّد اللهُ نِعَمَه على عباده ، فقد جَعل لهم مِمَّا خَلَقَ مِن الأشجار والخِيام والأبنية ظِلالاً ، يستظلون بها مِن شِدَّة الحر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٧٧) : ((وفيه خمسة أقوال: أحدها أنه ظِلال الغمام ، قاله ابن عباس. والثاني ظِلال البُيوت ، قاله ابن السَّائب. والثالث ظِلال الشجر، قاله قتادة والزَّجاج . والرابع ظِلال الشجر والجبال ، وقاله ابن قُتَيبة . والخامس أنه كُل شَيء له ظِل مِن حائط وسقف وشجر وجبل وغَير ذلك ، قاله أبو سليمان الدمشقي)) اهـ .

﴿ وجَعَلَ لكم مِنَ الجبالِ أكنانًا ﴾ . بما أن الديار تكون ذات حرارة عالية ، جَعَلَ اللهُ لهم مِن الجبال مواضع يسكنون فيها مِثل البيوت المنحوتة فيها، والكهوف والمغارات والحصون والمعاقل. والأكنان جَمْع كِن ، وهو ما يَحْمي الإنسان من البرد والمطر والحر . وقد جعلها اللهُ مُهَيَّأةً للناس ، يَأوون إلَيها، ويَحتمون بِها،ويَعتزلون عن الخلق فِيها،بعيدًا عن حركة الناس وضجيج القُرى والمدن [14]. وذُكِرَت الجبال ولَم يُذكَر السَّهْل ، لأن منطقتهم جبلية ، فَذَكَرَ اللهُ نِعمته التي تختص بهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٤٧٨):((قَوله تعالى: ﴿ وجَعَلَ لكم مِنَ الجبالِ أكنانًا ﴾ ، أي: ما يُكِنُّكم مِن الحر والبرد ، وهي الغِيران (جَمْع غار) والأسراب. وواحد الأكنان كِن . وكُل شيء وَقَى شَيْئًا وسَتَرَه ، فهو كِن)) اهـ .

﴿ وجَعَلَ لكم سَرابيلَ ﴾.ومِن نِعَم الله على خَلْقه أن جَعَلَ لهم القُمصان والثياب مِن القُطنِ والكِتَّان والصُّوف . والسَّرابيلُ هي القُمْصان ، والْمُفرَد سِرْبال (قميص) . ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ تَحميكم مِن ضَرَر الحر (حرارة الشمس) .

(١٤) في الحديث المتفق عليه [البخاري (٤/١) ومسلم (١٣٩/١)] أنَّ النبيَّ ﷺ : ((كان يخلو بغار حِراء ، فَيَتَحَنَّث فِيه ــ وهو التَّعَبُّد ــ)).وفي صحيح البخاري (٣/ ١٤١٧) عن عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ قالت : ((لَحِقَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثَوْر)) .

وتَمَّ تخصيص ذِكْر الحر ، ولَم يُذكَر البَرْد ، اكتفاءً بِذِكْر أحد الضِّدين عن ذِكْر الآخَر ، ولأن ما وقى مِن الحر وقى من البرد ، فهو معلوم . كما أن الوقاية من الحر أهم عندهم مِن الوقاية مِن البَرْد ، لغلبة الحر في بلادهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٧٨):((قال الزَّجاج: إنما خُص الحر لأنهم كانوا في مكاناتهم أكثر معاناة له مِن البَرْد، وهذا مذهب عطاء الخراساني)).

﴿ وسَرابيلَ تَقِيكُم بأسَكُم ﴾ . وأيضًا ، هناك نِعمة إلهية أُخرى ، وهي الدُّروع التي تَحمي الناس في الحرب، وتَمنع السلاحَ أن يُصيبهم ويُؤذيهم أثناء الضَّرْب والطعن. والبأس شِدَّة الحرب.

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٦١٥) : ((﴿ وسَرابيلَ ﴾ يعني : دُروع الحديد ﴿ تَقِيكُم ﴾ تَمنعكم ﴿ بأسَكُم ﴾ شِدَّة الطعن والضَّرْب والرَّمْي)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (١٠/ ١٤٢):((قال العلماء في قَوله تعالى: ﴿ وسَرابيلَ تَقِيكُم بأسَكُم ﴾ دليل على اتخاذ العباد عُدَّة الجهاد ، ليستعينوا بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبيُّ ﷺ تُقاة الجراحة . وإن كان يطلب الشهادة، ليس للعبد أن يَطلبها بأن يستسلم للحُتُوف وللطعن بالسِّنان وللضرب بالسيوف ، ولكنه يلبس لأْمَةَ حَرْب _ يعني دِرْعًا حصينة_، لتكون له قوة على قتال عَدُوه ، ويقاتل لتكون كلمة الله هي العُليا ، ويفعل الله ما يشاء)) اهـ .

﴿ كذلكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكم لعلكم تُسْلِمُون ﴾.هكذا يَمُنُّ اللهُ عليكم ويَجعل لكم ما تستعينون بِه على قضاء حوائجكم ، وتسيير شُؤون حياتكم دون عوائق ولا مُشكلات ، ولِتَكون نِعَم الله عليكم عَوْنًا لكم على عبادته وَحْدَه لا شريك له ، وإخلاص الطاعة له .

وكما أنَّ اللهَ قد أتَمَّ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنة ، فَبِفَضله وإحسانه سَيُتِمُّ عليكم نِعمةَ الدِّين والدُّنيا مَعًا ، مِن أجل أن تَتمسَّكوا بالإسلام قَوْلاً وفِعلاً ، وتُؤدُّوا حَقَّه .

والْمُتأمِّلُ في هذه النِّعَم الواضحة ، سَيُؤمِن حَتْمًا بِوَحدانية اللهِ ، ويَعبده ، ولا يُشْرِك بِه ، ويقتنع لا مَحالة أن الدين عند الله الإسلام، ويعتنقه ، ويَخضع لأمر الله وحِكمته ، ويَنقاد للحق .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ إفراد النِّعمة في ﴿ نِعْمَتَهُ ﴾ لأن المراد بها المصدر ، أو أنها نُقطة في بَحْر النِّعَم الإلهية ، وهي شَيء قليل لا يُذكَر إلى جانب عَظَمَة الله وسُلطانه ومُلْكه . وليس المعنى أنها نِعمة واحدة فقط لا غَيْر . إذ إنَّ نِعَم الله كثيرة ، لا تُعَدُّ ، ولا تُحصَى . وقد عَدَّدَ اللهُ نِعَمَه على خَلْقه كَي يَعرِفوا عَظَمَته ، ويَعبدوه وَحْدَه . وبسبب كثرة النِّعَم الإلهية في هذه السُّورة ، سُمِّيَت سُورة النِّعَم. وفي تفسير ابن كثير(٢/٧٦٥):((قال قتادة في قَوله: ﴿ كذلكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكم ﴾ ، هذه السُّورة تُسمَّى سُورة النِّعَم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٧٨) : ((قَوله تعالى : ﴿كذلكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكم ﴾ أي: مِثلما أنعمَ اللهُ عليكم بهذه الأشياء، يُتِم نِعمته عليكم في الدنيا ﴿ لعلكم تُسْلِمُون ﴾. والخطاب لأهل مكة ، وكان أكثرهم حينئذ كُفارًا . ولو قِيل: إنه خطاب للمسلمين، فالمعنى: لعلكم تَدُومُون على الإسلام، وتقومون بِحَقِّه . وقرأ ابن عباس وسعيد بن جُبَير وعِكرمة وأبو رجاء : " لعلكم تَسْلَمُون"بفتح التاء واللام،على معنى: لعلكم إذا لبستم الدروع تَسْلَمُون مِن الجراح في الحرب)). وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٦٢٧) : ((كما أعطاكم ربكم هذه الأشياء التي وصفها في هذه الآيات نِعمة منه بذلك عليكم ، فكذا يُتِم نِعمته عليكم ﴿ لعلكم تُسْلِمُون ﴾ يقول: لتخضعوا للهِ بالطاعة ، وتَذِل منكم بِتَوحيده النُّفوس ، وتُخْلِصُوا له العبادة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ وجَعَلْنا آيةَ النهارِ مُبصِرةً لِتَبتغوا فضلاً مِن رَبِّكم ولِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ والحسابَ وَكُلَّ شيء فصَّلناهُ تفصيلاً ﴾[الإسراء : ١٢].

يَمْتَنُّ اللهُ على خَلْقه بِنَعمه الكثيرة وآلائه الجليلة ، ومِنها : مُخالَفته بين الليل والنهار ، اللذين هُما علامتان على وُجود الله ووَحدانيته وقُدرته ، وعجائب صُنعه ، وبدائع خَلْقه . وهُما مُتعاقبان ضِمن نظام متكامل ، لا فوضى فيه ولا اضطراب . كما أن الليل يمتاز بظلامه مِن أجل راحة الناس ونَومهم ، والنهار يمتاز بضيائه من أجل حركة الناس وطلب الأرزاق وقضاء الحوائج .

والآيةُ هي العلامة المنصوبة للنظر والاعتبار والاستدلال . والليلُ والنهارُ مِن أعظم الآيات ، حيث يُقبِل كُل واحد مِنهما ويُدْبِر ضمن نظام فائق مُحْكَم مُتْقَن ، بلا اضطراب ولا خلل . كما يَنقص أحدهما بزيادة الآخر، وبالعكس. وكذلك ضَوء النهار وظُلمة الليل ، يُحقِّقان معنى التكامل، بلا تنافُر ولا فوضى . وباختلاف الليل والنهار تتمُّ معرفة عدد السنين ، وحساب ساعات الأيام والليالي . وبالتالي ، معرفة مواعيد العبادات ، والمعاملات المالية كالدُّيون والإجارات وغَيرها . ولو كان الزمانُ نَمَطًا واحدًا لَمَا عُرِفَ الليل مِن النهار، ولا عُرِفَ الحساب والعدد ، وهذا يَجعل الحياة مستحيلة [15]. وفي هذا إشارة واضحة إلى أن الله أرحم بالناس مِن أنفسهم ، ولَم يَخلقهم لِيُدمِّر حياتهم ، ويَقضيَ على وُجودهم ، ويَجعل حياتهم جحيمًا لا يُطاق . وإنما خَلَقَهم لِيَرحمهم ،

---

(١٥) قال البغوي في تفسيره (١/ ٨١): ((لو ترك اللهُ الشمسَ والقمرَ كما خلقهما، لَمَ يُعرَف الليل مِن النهار ، وَلَمَ يَدْرِ الصائم متى يُفطِر ، ولَمَ يَدْرِ وقت الحج ، ولا وقت حُلول الآجال ، ولا وقت السكون والراحة)) .

ويُسهِّل حياتهم ، فيقضوا حوائجهم وأمور معيشتهم، بكل سهولة ويُسر ، دُون عقبات ولا مُنغِّصات ولا مشكلات. وهاتان الآيتان الباهرتان (الليل والنهار) تُشيران إلى وجود صانع قادر حكيم . وتَمَّ تقديم الليل على النهار، لأنه الأصل . وكُلَّ شيء في أمر الدِّين والدُّنيا قد بَيَّنه اللهُ ووضَّحه، لمعرفة قُدرته المطْلقة ، وحِكمته البالغة ، وكمال عِلْمه. ومِن أجل أن يَشكره الناسُ على آلائه ونِعَمه ، ويَعبدوه وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد . واللهُ لَم يترك الناس تائهين في الشُّكوك ، وضائعين في الشُّبهات، وإنما وضَّح لهم طريقَ الحق بكل تفاصيله، بلا لَبْس ولا غُموض ، وأقامَ عليهم الْحُجَّةَ ، وقَطَعَ عُذْرَهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٤): ((قَوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيَتَيْنِ ﴾ أي علامتين ، يدلان على قُدرة خالقهما ﴿ فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أن آية الليل القمر ، ومَحْوُها ما في بعض القمر مِن الاسوداد . وإلى هذا المعنى ذهب عليٌّ عليه السلام وابن عباس في آخرين . والثاني : آية الليل مُحِيَت بالظُّلمة التي جُعِلَت مُلازِمة لليل ، فَنُسِبَ الْمَحْوُ الى الظُّلمة، إذ كانت تَمحو الأنوار وتُبْطِلها ، ذَكَره ابن الأنباري . ويُرْوَى أن الشمس والقمر كانا في النُّور والضَّوء سواء ، فأرسلَ اللهُ جِبريل ، فأمَرَّ جناحه على وجه القمر وطمس عنه الضوء . قَوله تعالى: ﴿ وجَعَلْنا آيةَ النهارِ ﴾ يعني الشمس ﴿ مُبصِرةً ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها مُنيرة ، قاله قتادة . قال ابن الأنباري:وإنما صَلَحَ وصف الآية بالإبصار على جهة الْمَجاز ، كما يُقال : لَعِبَ الدَّهْرُ ببني فُلان.والثاني أن معنى﴿مُبصِرةً ﴾ مُبْصَرًا بِها،قاله ابن قُتَيبة.والثالث أن معنى ﴿ مُبصِرةً ﴾ مُبَصِّرَة ... والمعنى أنها تُبَصِّر الناسَ أي تُرِيهم الأشياء ، قاله ابن الأنباري. ومعاني الأقوال تتقارب. قَوله تعالى : ﴿ لِتَبتغوا فضلاً مِن رَبِّكم ﴾ أي لِتُبْصِرُوا كيف تتصرَّفون في أعمالكم وتطلبون رِزقكم بالنهار ﴿ ولِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ والحسابَ ﴾ بِمَحْو آية الليل،ولولا ذلك لَم يُعرَف الليل مِن النهار، ولَم يُتَبَيَّن العدد﴿وكُلَّ شيء ﴾ أي ما يُحتاج إلَيه ﴿ فصَّلناهُ تفصيلاً ﴾ بَيَّنَّاه تَبيينًا لا يَلتبس معه بِغَيره .((

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لكمُ الأرضَ مَهْدًا وسَلَكَ لكم فِيها سُبُلاً وأنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأخْرَجْنا بِهِ أزواجًا مِن نباتٍ شَتَّى ﴾[طه : ٥٣] .

يُبيِّن اللهُ نِعَمَه الجليلة كي يعبده الناس ، وَحْدَه لا شريك له ، ويَشكروه على آلائه ونِعمه .

إنَّ اللهَ مَهَّدَ للناسِ الأرضَ وبسطها، وجعلها كالفِرَاش كي يستقروا عليها، ويُمارسوا أنشطتهم الحياتية بِسُهولة ويُسر ، رحمةً بِهم ، وتفضُّلاً عليهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢١٠) : ((أي : قَرَارًا ، تستقرون عليها ، وتقومون، وتنامون عَلَيها ، وتُسافرون على ظَهْرها)) اهـ .

﴿ وسَلَكَ لكم فِيها سُبُلاً ﴾ . جَعَلَ اللهُ لكم في الأرض طُرُقًا سهلةً ، تمشون فيها ، كي تستفيدوا مِن منافعها ومرافقها ، وتقضوا حوائجكم ومصالحكم . لقد أدخلَ اللهُ في الأرضِ سُبُلاً سالكةً بلا عوائق ولا عقبات ، وهذا يدل على كثرتها وانتشارها في جهات الأرض .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٧٧) : ((السَّلْك : إدخال الشيء في الشيء. والمعنى : أدخل في الأرض لأجلكم طُرُقًا تسلكونها. قال ابن عباس : سَهَّلَ لكم فيها طُرُقًا تسلكونها)) اهـ.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥): ((وجعل لكم فيها سُبُلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها مِن أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها)) اهـ .

﴿ وأنزلَ مِنَ السماءِ ماءً ﴾ . وأنزلَ اللهُ لكم مِن السَّحاب مَطَرًا عَذْبًا .

﴿ فأخْرَجْنا بِهِ أزواجًا مِن نباتٍ شَتَّى ﴾ . لقد أنعمَ اللهُ على خَلْقه ، وذكَّرهم بِنَعمه الجليلة ، فقد أخرجَ بالمطر الذي أنزله مِنَ السَّحاب أنواعَ النباتات المختلفة في الشكل والمنظر والطَّعْم والرائحة. والالتفات مِن الغَيبة إلى المتكلِّم تنبيهًا على عَظَمَة الله، وقُدرته المطْلقة ، وحِكمته البالغة. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥):((﴿ فأخْرَجْنا بِهِ ﴾ عَدَلَ بِه عَن لفظ الغَيبة إلى صِيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى ، تنبيهًا على ظُهور ما فيه مِن الدَّلالة على كمال القُدرة والحكمة، وإيذانًا بأنه مُطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته ... ﴿ أزواجًا ﴾ أصنافًا . سُمِّيَت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿ مِن نباتٍ ﴾ بيان أو صِفة لِ ﴿ أزواجًا ﴾ وكذلك ﴿ شَتَّى ﴾ .
ويحتمل أن يكون صِفة لـ ﴿ نباتٍ ﴾ ، فإنه مِن حيث إنه مصدر في الأصل، يستوي فيه الواحد والجمع ، وهو جمع شتيت كمريض ومرضى ، أي مُتفرِّقات في الصُّوَر والأغراض والمنافع ، يَصْلُح بعضها للناس ، وبعضها للبهائم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُوا وارْعَوْا أنعامَكُم إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾[طه : ٥٤] .
كُلوا أيها الناس مِن طَيِّبات ما أخرجَ اللهُ لكم مِن الأرض بالمطر الذي أنزله من السماء . كُلوا مِن هذه النباتات والثمار والمحاصيل والأغذية،واتركوا أنعامكم(الإبل والبقر والغنم) تسرح وترعى في الكلأ ونباتِ الأرض الذي أخرجه الله.والناسُ يَنتفعون في هذه الحالة مَرَّتَيْن، يَنتفعون بالأكل ، ويَنتفعون بتوفير غذاء لأنعامهم (مصدر رِزْقهم).والأمر للإباحة تذكيرًا لهم بالنِّعَم الإلهية. ومِن نِعَم الله على خَلْقه أن أرزاقهم تحصل بعمل الأنعام . وجَعَلَ اللهُ الفائضَ عن حاجة الناس ولا يَستطيعون

أَكْلَهُ عَلَفًا لأنعامهم ودوابهم.وقال الثعالبي في تفسيره (٣١/٣): ((وقَوله : ﴿ كُلُوا وارْعَوْا ﴾ بمعنى هي صالحة للأكل والرَّعْي،فأخرجَ العبارة في صيغة الأمر لأنه أرجى الأفعال وأهَزُّها للنُّفوس)).

إنَّ فيما وَصَفَه اللهُ لَعَلامات واضحة ، ودَلالات ظاهرة ، وحُجَج باهرة ، وبراهين جَلِيَّة ، لأصحاب العقول السليمة ، على وُجود الله ووَحدانيته ، وكمال قُدرته ، وعظيم سُلطانه . وتَمَّ تخصيص أصحاب العقول بالذِّكر لأنهم أهل التفكر والاعتبار والاتِّعاظ والانتفاع بالآيات .

والنُّهى هي العقول ، والْمُفرَد نُهْيَة ، سُمِّيَت بذلك لأنها تنهى صاحبَها عن المعاصي واتِّباع الباطل وارتكابِ القبائح . وأُولُو النُّهى هُم أهل التقوى والوَرَع ، الذين يَنتهون عن الحرام .

والجديرُ بالذِّكر أن﴿ذلكَ ﴾ يَحمل معنى البُعد للإشارة إلى عُلُوِّ الرُّتبة وسُمُوِّ المنْزلة في الكمال. والتَّنكيرُ في قَوله تعالى : ﴿ لآياتٍ ﴾ للتفخيم كَمًّا وكَيْفًا ، فهي آيات كثيرة وعظيمة ، وتُشير إلى وجود الله ووَحدانيته . وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ١٩٠) : ((﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾ أي العقول، الواحدة نُهْيَة . قال لهم ذلك_ يعني موسى ﷺ_ لأنهم الذين يُنْتَهَى إلى رَأيهم . وقِيل : لأنهم يَنْهَوْنَ النَّفْسَ عن القبائح. وهذا كُلُّه مِن موسى احتجاج على فِرْعَوْن في إثبات الصانع ، جَوَابًا لِقَوله : ﴿ قالَ فَمَن رَبُّكُمَا يا مُوسى ﴾ [طه : ٤٩].وبَيَّنَ أنه إنما يُستدل على الصانع اليوم بأفعاله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَلَم يَهْدِ لهم كَم أهْلَكْنا قَبْلَهُم مِنَ القُرونِ يَمْشُونَ في مَسَاكِنِهِم إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهى ﴾ [طه : ١٢٨] .

أفَلَم يَتبيَّن لكفار مكة الذين كَذَّبوكَ يا محمد بَيَانًا يَهتدون بِه إذا نظروا إلى آثار الأمم السابقة التي كَفرت بأنبيائها وكَذَّبَتْهُم ، فدفعت ثمن كُفرها وتكذيبها ، وتَمَّ تعذيبها عذابًا شديدًا .

والاستفهامُ في ﴿ أفَلَم ﴾ للإنكار والتوبيخ والتقريع .

لقد أعرضَ كُفار مكة عن الحق والهدى ، وغرقوا في الشَّهوات والشُّبهات ، فلم يَتأمَّلوا حال الأمم السابقة التي صارت أثَرًا إثْرَ عَيْن، واعتقدوا أنهم في أمن وأمان، وأنهم استثناء مِن القاعدة ، ومُحصَّنون مِن العذاب . وهذا هو الغرور القاتل ، والوهم المدمِّر . لقد اغترُّوا بِحِلْم الله عليهم ، وثناء الجهال عَلَيهم ، وغَرَّهم رَغَد العَيش وطُول الأمل ، وكثرة الأموال والأولاد . وهذه الرفاهيةُ منعتهم مِن النظر والتفكر والاعتبار ، ودائمًا غُرور القُوَّة قاتل . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهل مَن اتَّعظَ بِنَفْسِه . وعلى الإنسان دراسة التاريخ لأخذ العِبرة والدروس وتجنُّب الأخطاء .

والمشكلة أن الناس لا يَتعلمون مِن التاريخ ، لاعتقادهم أنهم استثناء ، وأنَّ ما أصابَ غَيرهم لَن يُصيبهم ، لذلك يُكرِّرون نَفْسَ الأخطاء ، ويَرتكبون الكوارثَ ذاتها ، ويُسيرون إلى حَتْفهم بأقدامهم ، ثُمَّ يَندمون بعد فوات الأوان ، ويَوم لا يَنفع الندم .

لقد كان كفار مكة (قُرَيش) يُسافرون إلى الشام مِن أجل التجارة ، ويَرَوْنَ ديارَ عاد وثمود وقُرى قَوم لُوط ، وما فيها مِن آثار الهلاك والعذاب . لقد كانوا يُشاهدون بأعينهم آثارَ هلاكهم ، أفلا يَتَّعظون ويَعتبرون ؟! .

ينبغي أن يَأخذوا العِبرةَ مِمَّا يُشاهدونه ، ولا يَسيروا في نفس طريقهم لِكَيلا يُلاقوا نَفْسَ مصيرهم، وهو العذاب والدمار والهلاك. والمفروض أن مُشاهدتهم لآثار هلاكهم يُوجِب أن يَعتبروا ويتَّعظوا ويَهتدوا إلى الحق ، لئلا يَحِلَّ بهم مَا حَلَّ بأولئك مِن العذاب والهلاك .

إنَّ في آثار هذه الأمم الهالكة لَعَلامات ودَلالات وعِبَرًا لأصحاب العقول السليمة التي تَنهى أصحابَها عن التغافل والتَّعامي والمعاصي والقبائح . وَلَوْ تفكَّر كفارُ مكة في حال الأمم السابقة ، لَعَلِمُوا أن استئصالهم بالعذاب لِكُفرهم وتكذيبهم وجُحودهم ، فلا يَفْعَلون مِثْلَ ما فَعلوا .

وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ٤٩) : ((﴿ إنَّ في ذلكَ ﴾ تعليل للإنكار، وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم ، و﴿ ذلكَ ﴾ إشارة إلى مَضمون قَوله تعالى : ﴿ كَم أهْلَكْنا ﴾ إلخ . وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بِبُعد مَنْزلته ، وعُلُوِّ شأنه في بابه ، لآيات كثيرة عظيمة ، واضحات الهداية ، ظاهرات الدَّلالة على الحق)) اهـ .

وإهلاك الأمم السابقة واضحٌ أمام الأنظار ، إِذْ إن آثار ديارهم ماثلة أمام الناس الذين يَمُرُّون بِها في أسفارهم، فيُشاهدون بقايا الأمم السابقة بكل وضوح. فالديارُ الخاليةُ التي هَلَكَ أصحابُها تُشير إلى حالهم ، وتدل على وجود أقوام سابقين عَمروا المكانَ ثُمَّ زالوا . ومِن آثارهم تعرفونهم . وهذا الخرابُ الجاثم على صدر المكان يُشير إلى العذاب الذي حَل بهؤلاء الأقوام، لكنَّ أصحاب العقول ــ وَحْدَهم ــ هم القادرون على التفكر وأخذ العِبَر ، والاستفادة مِن دروس التاريخ .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٧٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ : أَفَلَم يَهْدِ لِقَومك المشركين بالله. ومعنى يَهْدِ: يُبَيَّن. يقول: أفَلَم يُبَيَّن لهم كثرة ما أَهْلَكْنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها ، التي يَمشون في مساكنهم ودُورهم ، وَيَرَوْنَ آثار عقوباتنا التي أحْلَلْناها بهم سُوء مَغَبَّة ما هُم عليه مُقيمون مِن الكفر بآياتنا ، ويَتَّعظوا بِهم، ويَعتبروا، ويُنيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خَوْفًا أن يُصيبهم بِكُفرهم بالله مِثْل ما أصابهم ... وقَوله : ﴿ إنَّ في ذلكَ

لآياتٍ لأُولِي النُّهى ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ فِيما يُعَاين هؤلاء ، وَيَرَوْنَ مِن آثار وقائعنا بالأمم الْمُكذِّبة رُسُلَها قبلهم ، وحُلول مَثُلاتنا (عقوباتنا) بِهِم لِكُفرهم بالله ﴿ لآياتٍ ﴾ ، يقول: لَدَلالات وعِبَرًا وعِظَات ﴿ لأُولِي النُّهى ﴾ ، يعني : لأهل الحِجَى والعقول ، وَمَن يَنهاه عقله وفَهْمه ودِينه عن مُواقَعة ما يَضُرُّه)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٠) : ((يُريد أهل مكة ، أي : أفلم يَتبيَّن لهم خبر مَن أَهْلَكْنا قبلهم من القرون ، يمشون في مساكنهم إذا سافروا وخرجوا في التجارة طلب المعيشة ، فَيَرَوْنَ بلادَ الأمم الماضية والقرون الخالية خاوية، أي : أفلا يخافون أن يَحِلَّ بهم مِثل ما حَل بالكفار قبلهم ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ [الأنبياء : ٣٣].

إنَّ اللهَ بِقُدرته وحِكمته جَعَلَ الحياة نِظَامًا مُتَنَوِّعًا ومُتكاملاً ، بلا تنافُر ولا اضطراب ، فَجَعَلَ فِيها لَيْلاً يمتاز بظلامه وهُدوئه ، ونَهَارًا يَمتاز بضيائه وأُنسِه . يَطول الليلُ فَيَقْصُر النهار ، ويَطول النهار فيقصر الليل ، ضِمن منظومة بديعة متكاملة ودقيقة ، بلا خلل ولا فوضى ، نِعمةً مِن الله على الناس ، وحُجَّة عليهم ، ودليلاً على وُجوده ووَحدانيته وكمال قُدرته وعظيم سُلطانه . وأيضًا خَلَقَ الشمسَ آيةً للنهار، والقمر آيةً لليل. وهاتان الآيتان العظيمتان الباهرتان تُشيران إلى وَحدانية اللهِ، لأن النظام الواحد الْمُحْكَم الْمُتْقَن الخالي مِن الاضطراب، يدل على صانع واحد قدير حكيم. والواحدُ يَدُل على الواحد .

وكُل واحد مِن الشمس والقمر والنجوم يَجْرُون على سَطح الفَلَك، ويُسْرِعُون إسراع السابح على سطح الماء ، بسهولة ويُسر وفق حركة مُنظَّمة ، بلا عوائق ولا مشكلات . وسُمِّيَ فَلَكًا لاستدارته.وقد قال اللهُ تعالى:﴿ يَسْبَحُون ﴾ (صِيغة العُقلاء) ولَم يَقُل: يَسْبَح (صِيغة ما لا يَعْقِل)، لأنَّه ذَكَرَ عنها فِعل العقلاء مِن الجري والسَّبْح ، وجعلها في الطاعة بِمَنْزلة مَن يَعْقِل ، لذلك جاء الإخبار عنها بضمير العُقلاء .

وقال القرطبي (١١/ ٢٥١): ((ذَكَّرهم نِعمةً أُخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار لِيَتصرَّفوا فيها لِمَعايشهم... وجعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، لتعلم الشهور والسنون والحساب. ﴿ كُلٌّ ﴾ يعني مِن الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ أي يَجْرُون ويَسيرون بسرعة ، كالسابح في الماء)) اهـ .

إنَّ هذه المظاهر الكَوْنية الهائلة لا تأتي عَبَثًا أو بمحض الصُّدفة . فالليلُ وُجد كي يَرتاح فيه الناسُ مِن التعب ، ويأخذوا قِسْطًا من الراحة ، ويستعيدوا نشاطهم وحيويتهم لمواصلة أعمالهم الحياتية الرامية إلى الإعمار والتعمير . والنهارُ هو وقت النشاط والاندفاع والانطلاق في طُرقات الأرض . والشمسُ تبعث الطاقة في الأرض ، وتنشر النور على البشر كي تستمر الحياة دون عوائق، أمَّا القمرُ فيمارس وظيفته في الإنارة . كما أن الشمس والقمر يُعتمَد عليهما في إجراءات العمليات الحسابية الخاصة بالشهور والسنوات.وهذه الظواهرُ ذات تماس مباشر مع حياة الإنسان. لكن كثرة الْمُشاهَدة تجعل الإنسانَ غارقًا في الاعتيادية ، حيث يَتعوَّد على وجود الليل والنهار والشمس والقمر ، دون تفكُّر ولا تفكير في هذا النظام البديع، فتصبح النجوم والكواكب وتعاقُب الليل والنهار ــ في عيون الكثيرين ــ مظهرًا عاديًّا خاضعًا لقوانين الفيزياء والكيمياء دون النظر بالبصر والبصيرة إلى عَظَمة الله وقُدرته ، الذي يُحرِّك هذه الأجرام السماوية الباهرة ، ويُسيطر عليها ، مُنذ خَلْقها . وهي تتحرَّك بِقُدرة اللهِ ، بدون خلل ولا فوضى ولا اضطراب ولا أعطال فَنِّية ولا انتهاء مُدَّة صلاحية ولا قِطع غيار .

وينبغي على العاقل أن ينظر إلى ما وراء الأشياء ، ويتفكر في أنظمة عملها وضوابطها ، والإشاراتِ التي تحملها، وأن لا يغرق في الاعتيادية والتعوُّد على رؤية الأشياء دون تحليلها وإيجادِ روابط بينها. فلا يوجد شيء في الكون وُجِد بشكل عبثي أو بالصُّدفة . إذ إن كل عنصر موجود لأداء وظيفة محدَّدة خلقها اللهُ تعالى ، ووضَّح معالمها وحدودَها بكل دِقَّة وانتظام . لكن المشكلة تكمن في العيون الميتة التي تُبصِر بلا بصيرة .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٣١) : ((وقد حكى ابن حزم وابن الْمُنيِّر وأبو الفَرَج ابن الجوزي وغَير واحد من العلماء الإجماع على أن السماوات كُرة مُستديرة، واستدل على ذلك بِقَوله:﴿كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾.قال الحسن: يَدُورون. وقال ابن عباس: في فَلْكَة مِثل فَلْكَة المِغزَل. قالوا : ويدل على ذلك أن الشمس تَغرُب كُل ليلة مِن المغرب ثُمَّ تَطْلُع في آخِرها مِن المشرق)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنْهُم مَن يمشي على بَطْنِهِ ومِنْهُم مَن يمشي على رِجْلَيْنِ ومِنْهُم مَن يمشي على أربعٍ يَخْلُقُ اللهُ ما يشاءُ إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾[النُّور : ٤٥].

يُبيِّن اللهُ قُدرته المطْلقة على الخلق والإيجاد . لقد خَلَقَ اللهُ كُلَّ دابة مِن نُطفة (الْمَنِيِّ). والدَّابَّةُ كُل ما دَبَّ على وجه الأرض من الحيوان. فَمِنهم مَن يمشي على بَطْنه كالحيَّات .

وَسُمِّيَ الزَّحف مَشْيًا على الاستعارة أو الْمُشَاكَلَة . ومِنهم مَن يمشي على رجلين كالإنسان والطَّير ، وَمِنهم مَن يمشي على أربع كالبهائم والسِّباع. ولَم يَذكر مَن يَمشي على أكثر مِن أربع مِثل حشرات الأرض والعناكب ، لأنها في صورة مَن يَمشي على أربع ، واعتمادها إذا مشت على أربع.

يُحْدِثُ اللهُ بِقُدرته ما يشاء مِنَ الخلق . وما شاءَ كان ، وما لَم يشأ لَم يكن . إنَّ اللهَ يَفعل ما يشاء كما يشاء ، وهو قادر على كُل شيء ، لا يُعْجِزه شَيء ، ولا يقف شيء أمام إرادته وقُدرته . وكُل ما سِوى الله مَخلوق ، وكُل المخلوقات خاضعة لإرادة الله وقُدرته وسُلطانه. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٥) : ((﴿ يَخْلُقُ اللهُ ما يشاءُ ﴾ مِمَّا ذَكَر ، ومِمَّا لَم يَذْكُر ، بسيطًا ومُرَكَّبًا ، على اختلاف الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بِمُقتضى مَشيئته ﴿ إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ فيفعل ما يشاء)) اهـ .

و﴿ دَابَّةٍ ﴾ تشمل مَن يَعْقِل وما لا يَعْقِل . وإذا اجتمعَ في سياق واحد مَن يَعْقِل وما لا يَعْقِل ، غَلَبَ مَن يَعْقِل وهو الإنسان، لأنه الْمُخَاطَب والْمُتَعَبِّد والْمُكَلَّف ، والعقلُ مَناط التكليف . لذلك قالَ الله : ﴿ فَمِنْهُم ﴾ و﴿ مَن يمشي ﴾ ، وهاتان صِيغتان للعاقل. وتذكيرُ الضمير لتغليب العُقلاء . ولغةُ العرب إنما تقوم على تغليب مَن يَعْقِل ، كما يُغلَّب المذكَّر على المؤنَّث إذا اجتمعا .

والتعبيرُ عن الأنواع بِـ ﴿ مَن ﴾ لِيُوافِق التفصيل الإجمال . وترتيبُ الأنواع على هذا النَّحْو : ١ـ مَن يَمشي على بطنه . ٢ـ مَن يَمشي على رِجلين . ٣ـ مَن يَمشي على أربع ، لتقديم ما هو أعرف في القُدرة ، والآية جاءت لتوضيح قُدرة الله وتعجيب الناس مِن إبداعه في مخلوقاته . فالماشي على بطنه يمشي بغير الآلة المخلوقة للمشي ، لذلك كان أدلَّ على القُدرة مِن الماشي على رِجلين . أي إن الماشي بغير آلة المشي أعجب مِمَّن يَمشي بآلة المشي . لذلك قُدِّمَ عليه في الذِّكر .والماشي على رجلين أدل على القدرة من الماشي على أربع ، بسبب كثرة آلات المشي في الأربع . وهذا يعني أن اللهَ تعالى قد ذَكَرَ الجِنسَ الأعلى والصِّنفَ الأرقى أوَّلاً .

ثُمَّ ذَكَرَ مَن يَمشي على رجلين كالإنسان والطير ، لتمام خَلْق الإنسان وحُسن صُورته ، وقُدرة الطير على الطيران وكسر قانون الجاذبية . ثُمَّ ذَكَرَ مَن يَمشي على أربع ، لأنه أفضل الحيوانات وأقواها وأحسنها .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٥٥) : ((وإنما قال : ﴿ مَن يمشي ﴾ ، و" مَن " إنما تُستعمَل فِيمَن يَعْقِل دُون مَن لا يَعْقِل مِن الحيَّات والبهائم ، لأنه ذَكَرَ كُل دابة ، فدخل فيه الناس وغَيرهم. وإذا جمع اللفظ مَن يَعْقِل ومَن لا يَعْقِل ، تُجعَل الغلبة لِمَن يَعْقِل)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الله قال : ﴿ يَخْلُقُ اللهُ ما يشاءُ ﴾ ، ولَم يقل : يخلق ما يشاء . وإظهارُ لفظ الجلالة في موضع الإضمار يدل على تعظيم الله الخالق ، وتفخيم شأن مَخلوقاته ، لأن عَظَمَة المخلوقات تدل على عَظَمَة صانعها وخالقها . والعظيمُ يدل على العظيم ، والعظيمُ لا يَصْدُر عنه إلا عظيم. وأيضًا لفظ الجلالة في الآية ﴿ يَخْلُقُ اللهُ ما يشاءُ ﴾ يدل على أن المخلوقات إنما هي تحت أحكام الأُلوهية . فالإلهُ وَحْدَه هو القادر على الخلق والإيجاد ، والعاجزُ عن الخلق لا يكون إلَهًا ، ولا يستحق العبادة . وهذا يدل على بُطلان تعدُّد الآلهة ، لأن جميع الآلهة المعبودة بِغَير حق عاجزة عن الخلق والإيجاد ، وبالتالي فهي آلهة باطلة ، وعبادتها باطلة . واللهُ وَحْدَه هو الإلهُ القادر على الخلق والإيجاد ، لذلك كان وَحْدَه هو الإله الحق ، والمعبود بحق .

وهذا الاختلاف في الخلق يُشير إلى وجود صانع مختار . ولو كانوا مِن جِنس واحدٍ ، ووَفْق نمط واحد ، لَشَكَّ الكثيرون في الخالق . لذلك كان التنوع والاختلاف في المخلوقات مِن حيث الشكل واللون وطبيعة الحركة ، معَ أنها مِن ماء واحد (نُطفة) دليلاً على وجود الخالق وكمال قُدرته ، وعظيم سُلطانه ، وإبداعه في الخلق والإيجاد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٥٣) : ((وفي الماء قَولان : أحدهما أن الماء أصل كُل دَابَّة. والثاني أنه النُّطفة.والمراد به جميع الحيوان الْمُشَاهَد في الدُّنيا. وإنما قال : ﴿ فَمِنْهُم ﴾ تغليبًا لِمَا يَعْقِل،وإنما لَم يَذكر الذي يمشي على أكثر مِن أربع لأنه في رأي العَيْن كالذي يمشي على أربع. وقِيل : لأنه يعتمد في المشي على أربع. وإنما سُمِّيَ السائر على بطنه ماشيًا ، لأن كل سائر ومستمر يُقال له : مَاشٍ ، وإن لَم يكن حيوانًا ، حتى إنه يقال : قد مشى هذا الأمر . هذا قول الزَّجاج . وقال أبو عُبَيدة : إنما هذا على سبيل التشبيه بالماشي ، لأن المشي لا يكون على البطن ، إنما يكون لِمَن له قوائم ، فإذا خلطوا ما له قوائم بما لا قوائم له ، جَاز ذلك ، كما يقولون : أكلتُ خُبْزًا وَلَبَنًا ، ولا يُقال : أكلتُ لَبَنًا)) اهـ .

إنَّ التنوع والاختلاف في طبيعة الخلق ، وتعدد الأشكال والمظاهر في نظام بيئي لا اضطراب فيه ولا تعارض ، يُشير إلى القدرة الإلهية والحكمةِ الربانية . فاللهُ تعالى لَم يخلق مخلوقاته لكي يَحشرهم في الزاوية ويقضيَ عليهم ويضطرهم إلى أضْيَق المسالك . بل فتح لهم طريقَ اليُسر . فهو _سُبحانَه_ خلق الدوابَّ وفق أشكال مختلفة، وزوَّدها بأعضاء متباينة، لكي تتأقلم مع بيئتها . فالكائناتُ الصحراوية بحاجة إلى أسلوب حياة يختلف عن أسلوب الكائنات العائشة في الأماكن الباردة . ومن هنا اختلفت طبيعة خلق الأجسام الحيوانية . وهكذا تتجلى الحكمةُ الإلهية في توفير

سُبل العيش الهانئ للدواب على اختلاف بيئاتها . والذي يرزق الدوابَّ ولا ينساها ، وهي كائنات غير عاقلة ، فكيف ينسى عبادَه الذين شَرَّفهم بالعقل وكَلَّفهم بإعمار الأرض ؟!.

واللهُ تعالى أنزل من السماء ماءً فأخرج النباتَ حسن المنظر. وفي هذا النبات فائدة للإنسان والحيوان والبيئة . ولو اجتمعت الخلائق على إنزال الماء من السماء لعجزت عن ذلك . كما أن جميع علماء الأرصاد الجوية لا يقدرون على تحديد ساعة نزول المطر ، لكنهم يدرسون الأحداث الجوية الظاهرة للعِيان ، ثم يبنون حساباتهم على التقريب والاحتمالات . وكُل الْمُشاهَدات الكَوْنية مكشوفة للعَين البشرية المجرَّدة ، فليست مِن عالَم الغَيْب ، وليست مِن خيالات الشعراء وصُوَرهم الفنية ، وما هي بالمجاز اللغوي المعتمد على قوة المخيِّلة . بل هي صور واقعية يراها المؤمن والكافر على السواء ، وموجودة عَبْر كُل أطوار التاريخ ، وفي كل البيئات .

وقد تحدى اللهُ عبادَه وهو يعلم عجزَهم. فقال تعالى : ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ ، أي الأصنام والأنداد المعبودون من دون الله تعالى . لا خالق إلا الله تعالى . ولا معبود بحق إلا الله تعالى . وكُل شخص يعبد غيرَ الله تعالى عليه أن يُقدِّم أسماءَ مخلوقات إِلَهه . فالنصارى الذين يَعبدون المسيحَ ﷺ عليهم أن يُخبرونا ما هي مخلوقات المسيح التي أوجدها . واليهودُ الذين عَبدوا العِجْلَ ينبغي أن يقولوا لنا ماذا خَلق العجلُ . والهندوسُ الذين يُقدِّسون البقرة عليهم أن يُقدِّموا قائمة بالمخلوقات التي خَلَقَتْهَا البقرةُ . وعبدةُ الأصنام المقتنعون بآلهتهم من دون الله ، ينبغي أن يخبرونا عن قُدرة الأصنام على الخلق والإبداع ، وما هي المخوقات التي أوجدها الصنمُ ... إلخ . وحين يتذكر الفردُ هذا المنظور الفكري المعتمد على المنطق والْحُجَّة ، سيدرك أن الله تعالى هو الخالق الْمُنَزَّه عن الشريك أو المساعِد . وكلُّ ما سِوى الله هو عبدٌ لله تعالى ومخلوقٌ ضعيف فقير إلى سَيِّده الخالقِ العظيم سُبحانَه. وكما قال الشاعر : ألا كُلُّ شَيء ما خَلا اللهَ باطل .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وصِهْرًا وكانَ رَبُّكَ قَديرًا ﴾ [الفُرقان : ٥٤].

تتجلى قدرةُ الله تعالى في إيجاد الإنسان ذي الأجهزة بالغة التعقيد من ماء مَهين (الْمَنِيِّ) ، ثم يتدرج الإنسان في مراحل النمو المختلفة بكل تراكيبها المتطورة . وكل ذلك من نُطفة بالغة الصِّغَر. فهذا الكائنُ البشري الذي يُصبح نَسَبًا وصِهْرًا مرجعه إلى أصل بسيط (حيوان منوي) . وهنا تتجلى القدرةُ الإلهية اللامحدودة التي تجعل من اللاشيء شَيْئًا ذا قيمة . فعلى المرء أن يتساءل عن مصدر القلب والعقل وهذه الأعضاء البشرية المتناسقة ، من أين انبثقت ؟ . وكيف

صدرت عن هذا الماء (الْمَنِيِّ) ؟ . لكن العَظَمَةَ لا تكمن في طبيعة الماء ، بل في القدرة التي جعلت من الماء كائنًا حَيًّا يُفكِّر ويتحرك ويمارس نشاطاته الحياتية بكل يُسر اعتمادًا على أجهزته العضوية المتكاملة.

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٩) : ((أي : خلقَ الإنسانَ مِن نُطفة ضعيفة ، فسوَّاه وعَدَله وجعله كامل الخِلقة ذَكَرًا وأنثى كما يشاء ...فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صِهْرًا ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكُل ذلك مِن ماء مَهين)) اهـ .

وهذه العلاقات الاجتماعية المختلِطة والمنصهِرة ، من علامات وجود الله ووَحدانيته ورُبوبيته . فقد أوجد اللهُ الإنسانَ مِن نُطفة لا وزن لها، وهيَّأ لها رَحِمًا حاضنةً لها، ثم يُولَد الإنسان ، ويكبر ، ويتزوج . وهذه المنظومة المتكاملة لَم تتشكل وفق عبقرية الإنسان ومواهبه . فالإنسانُ عاجز عن خلق أصغر عُضو في جسمه ، بل هو عاجز عن معرفة أسرار جسده وحقيقة رُوحه وطريقة عمل أعضائه المعقَّدة.فهذه المنظومةُ البشرية خاضعة لنظام إلهي مُحكَم لحفظ النسل، وإعمار الأرض . إنه النظامُ الاجتماعي المتماسك : النَّسَب والصِّهْر [16].

لقد أنعمَ اللهُ على الناس بأن أوجدهم مِن العَدَم ، وقد ذَكَّرهم بهذه النِّعمة ، ونبَّههم على ضرورة الاعتبار بِها ، والاستدلال بها على تَوحيد الله .

إنَّ اللهَ خلق مِن النُّطفة إنسانًا ذا عقل وقلب وجوارح، وجَعَلَه ذا نَسَبٍ (ذُكور يُنسَب إلَيهم) وذا صِهْر (إناث يُصاهر بِهِنَّ). وهذه نِعمة إلهية عظيمة ، واللهُ يُعدِّد نِعَمَه على الناس ، ويُذكِّرهم بها ، ويُنبِّههم عليها .

جَعَلَ اللهُ الإنسان ذا نَسَب وصِهْر ، وهذا يدل على أن البشر من أصل واحد ، فلا تفاوُت ولا اختلاف بينهم من حيث الجِنس ، وإنما يكون التفاوُت والاختلاف مِن حَيث الدِّين والتقوى .

---

(١٦) في تفسير القرطبي (١٣/ ٦٠) : ((قال ابن العربي : النَّسَب عبارة عن خَلط الماء بين الذَّكَر والأنثى على وجه الشرع، فإن كان بمعصية كان خَلْقًا مُطْلَقًا ، ولَم يكن نَسَبًا مُحَقَّقًا)) اهـ . وفي فتح القدير للشَّوكاني (٤/ ١١٨) : ((قال الفرَّاء والزَّجاج : واشتقاق الصِّهْر مِن صَهَرْتُ الشيء : إذا خَلَطْتُه . وسُمِّيت المناكح صِهْرًا لاختلاط الناس بها . وقِيل : الصِّهْر قَرابة النِّكاح . فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزَّوج هم الأحماء والأصهار)) اهـ. وفي فتح الباري (٩/ ١٣٢) : ((قال الفرَّاء : النَّسَب مَن لا يَحِلُّ نِكاحُه ، والصِّهْرُ مَن يَحِلُّ نِكاحُه)) .

لذلك كانت الكفاءة بين الزَّوجين مُعْتَبَرَة بالدِّين وَحْدَه ، وكُل رَجل مُلتزم بالدِّين هو كُفؤ لأيَّة امرأة _ مهما كان حَسَبها ونَسَبها ومالها ومكانتها العائلية والاجتماعية _ .

واللهُ قادر على ما يشاء، وقد خَلَقَ مِن مادة واحدة بَشَرًا ذا جوارح مختلفة ، وأعضاء مُتعدِّدة، وصفات مُتباينة، وجَعَلَه قِسْمَيْن مُتَقَابِلَيْن ومُتَكَامِلَيْن بلا تناقض ولا خلل ، وهما النَّسَب (القرابة) والصِّهْر (الرابطة بالنِّكاح) . والأنسابُ يقع التواصل بها ، والْمُصَاهَرَةُ يقع التوالد بها . وقد يَخلق اللهُ مِن نُطفة واحدة تَوْأمَيْن ، ذَكَرًا وأنثى . وهكذا يتجلى كمالُ القدرة الإلهية المطْلقة .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ أمَّن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وأنزلَ لكم مِنَ السماءِ ماءً فأنبَتْنا بِهِ حدائقَ ذَاتَ بَهجةٍ ما كانَ لكم أن تُنبتوا شَجَرَهَا أإلهٌ مَعَ اللهِ بَل هُم قَوْمٌ يَعْدِلُون ﴾[النَّمْل : ٦٠] .

يُقدِّم اللهُ دليلاً آخَر على وَحدانيته وتَفَرُّده بالخلق والإيجاد . لقد خَلَقَ السماواتِ العالية الواسعة الصافية ، وخَلَقَ الأرضَ وما فيها من الجبال والأنهار والسهول والوديان والصحاري والتضاريس المختلفة ذات الطبيعة الجغرافية المتنوِّعة . والخطابُ الإلهيُّ مُوَجَّهٌ لكفار قُرَيش . وتقديرُ الكلام : آلهتكم وأصنامكم العاجزة عن الخلق، والتي لا تَضُرُّ ولا تَنفع خَيْرٌ أَم مَن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ؟.وفيه معنى التَّهَكُّم والتَّقريع والتَّوبيخ، وبيان عَجز الأصنام والأوثان (الآلهة الباطلة المعبودة بِغَير حَق)،وإظهار قُدرة الله المطْلقة،والتنبيه عليها،والاعتبار بها ، والاستدلال على توحيد الله.وهذا تقرير وتأكيد على أنَّ مَن قَدِرَ على خَلْق العالَم خَيْرٌ مِن جماد لا يَقْدِر على شَيء.

﴿ وأنزلَ لكم مِنَ السماءِ ماءً فأنبَتْنا بِهِ حدائقَ ذَاتَ بَهجةٍ ﴾ . وأنزلَ اللهُ لأجلكم بِقُدرته مِنَ السحاب مَطَرًا وجَعله رِزْقًا للعباد ، فأنبتَ بالمطر البساتين ذات المنظر الحسَن والشكل الجميل .

والحدائقُ جَمْع حديقة، وهي البُستان الذي عليه حائط ، فإن لَم يكن عليه حائط فهو البُستان وليس حديقة . وسُمِّيَت الحديقة بهذا الاسم لأنه يُحْدَق عليها ، أي يُحْظَر . والبهجةُ هي الْحُسْن الذي يبتهج به مَن رآه . والتَّنَوُّع في أشكال الحدائق وألوانها وطبيعتها يدل على وَحدانية الله .

وَصَرْفُ الكلام مِنَ الغَيبة ﴿ أنزلَ ﴾ إلى التكلم ﴿ فأنبَتْنا ﴾ لتخصيص الفِعل بذات الله تعالى، وكَوْنه وَحْدَه هو القادر على إنبات الحدائق ذات الجمال والْخُضرة والْحُسْن والبهجة ، والمختلفة في الأشكال والألوان والروائح والطُّعوم، بماء واحد.وهنا تتَّضح قُدرة الله المطْلقة وإبداعه في خَلْقه.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧٣): ((﴿ وأنزلَ لكم ﴾ لأجلكم ﴿ مِنَ السماءِ ماءً فأنبَتْنا بِهِ حدائقَ ذَاتَ بَهجةٍ ﴾. عَدَلَ به مِن الغَيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفِعل بذاته ، والتنبيه على إنبات الحدائق البَهِيَّة المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة،لا يَقْدِر عَلَيه غَيْرُه)).

﴿ ما كانَ لكم أن تُنبتوا شَجَرَهَا ﴾ . هذه الآيةُ تُشير إلى عجز المخلوقات ، وطلاقةِ القُدرة الإلهية. و ﴿ ما ﴾ للنَّفْي ، ومعناه الحظر التام والمنع الكامل . ما يَنبغي للبشر ذلك لأنهم لا يَقْدِرُون عليه . إنهم عاجزون عن إنبات شجرها فَضْلاً عن ثمرها ، ولا يَستطيعون فِعل ذلك ، لأن ذلك إخراج الشَّيء مِن العَدَم إلى الوجود . واللهُ وَحْدَه هو القادر على ذلك ، لأنه الخالق القادر على الخلق والإيجاد والإبداع . وكُل ما سِوى الله مخلوق عاجز لا يستحق العبادة ، لعجزه عن الخلق والإيجاد كالأصنام والأوثان . واللهُ وَحْدَه هو الإله المستحق للعبادة لِقُدرته على الخلق والإيجاد .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٩٠) : ((﴿ ما كانَ لكم أن تُنبتوا شَجَرَهَا ﴾ أي لَم تكونوا تَقْدِرُون على إنبات أشجارها ، وإنما يَقْدِر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك ، الْمُتفرِّد به دُون ما سِواه مِن الأصنام والأنداد ، كما يعترف به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزُّخْرُف : ٨٧]. ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السماءِ ماءً فأحيا بِهِ الأرضَ مِن بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾[العنكبوت : ٦٣] . أي هُم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك ، وَحْدَه لا شريك له ، ثُمَّ هُم يعبدون معه غَيْرَه ، مِمَّا يعترفون أنه لا يَخْلُق ولا يرزق . وإنما يستحق أن يُفْرَد بالعبادة مَن هو الْمُتفرِّد بالخلق والرزق)) اهـ .

﴿ أإلهٌ مَعَ اللهِ ﴾ . استفهام إنكار. أي : هل مَعَ الله إله ساعده في خَلْقه وصُنعه ؟ . هل مَعَ الله معبود حتى تُسَوُّوا بينهما ؟ . إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الإلهُ الخالق الْمُتفرِّد بالخلق والإيجاد والرِّزق، فكيف تعبدون معه غَيْرَه ؟ .

﴿ بَل هُم قَوْمٌ يَعْدِلُون ﴾ . انتقال مِن تقريعهم وتوبيخهم بتوجيه الخطاب لهم، إلى بيان سُوء حالهم ، وفضح جهلهم وعنادهم ، بحكايته لِغَيرهم . بل هُم قَوم يُشرِكون باللهِ ، ويُسَوُّون بين الله الخالق الرازق والصنم العاجز . هؤلاء المشركون (كفار مكة) يُشْرِكون بالله ، ويَجعلون له أندادًا وشُركاء ونُظَراء . وبُعد الخطاب في ﴿ بَل هُم ﴾ أبلغ في توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم ودَحْض شُبهاتهم وتخطئة رأيهم ونسف باطلهم. وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤) : ((يقول جَلَّ ثناؤه : بَل هؤلاء المشركون قوم ضلال ، يَعْدِلُون عن الحق ، وَيَجُورون عليه على عمد منهم لذلك ، مع عِلمهم بأنهم على خطأ وضلال ، وَلَم يَعْدِلُوا عن جهل مِنهم بأن مَن لا يَقْدِر على نفع ولا ضَر خَيْر مِمَّن خلق السماواتِ والأرض ، وفَعَلَ هذه الأفعال ، ولكنهم عَدَلُوا على عِلم منهم ومعرفة ، اقتفاءً مِنهم سُنَّة مَن مَضَى قبلهم مِن آبائهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنَّى يُؤفَكُون ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

وَلَئِن سألتَ يا محمد المشركين : مَن خلق السماوات (العالَم العُلوي) والأرض (العالَم السُّفلي) في أحسن هيئة،وذَلَّلَ الشمسَ والقمرَ، وجعلهما يَسيران وَفق نظام متناسق ومتكامل لا اضطراب فيه ، وذلك من أجل تحقيق مصالح الناس ، وجَلْب المنافع لهم ، وتسهيلِ الحياة على الأرض، لَيَقُولُنَّ: خالق ذلك هُوَ الله. وقد قامت عليهم الْحُجَّةُ باعترافهم . والاعترافُ سَيِّدُ الأدلة. وبالتأكيد ، لا يَستطيعون إنكارَ ذلك ولا جَحْدَه ، لِوُضوح الأمر .

﴿ فأنَّى يُؤفَكون ﴾ فكيفَ يُصْرَفون عن الحق . إنهم يَعترفون بأنَّ اللهَ وَحْدَهُ هو خالق هذه الأشياء العظيمة ، ويُقِرُّون بِتَفَرُّده سُبحانَه بالْخَلْق والتَّسخير ، ثُمَّ يَرفضون تَوحيدَه بعد إقرارهم بذلك، ويُشْرِكون بعبادته ، ويَعبدون مَعَهُ غَيْرَهُ من المخلوقات ، التي لا تَملك نَفعًا ولا ضَرًّا . والاستفهام للإنكار والاستبعاد .وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٢) : ((﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ لِمَا تقرَّر في العقول مِن وُجوب انتهاء الْمُمْكِنات إلى واحدٍ واجبِ الوجود.﴿ فأنَّى يُؤفَكون ﴾ يُصْرَفون عَن تَوحيده بعد إقرارهم بذلك)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٢٢) : ((لَمَّا عَيَّرَ المشركون المسلمين بالفقر ، وقالوا : لَوْ كُنتم على حق لَم تكونوا فقراء ، وكان هذا تمويهًا ، وكان في الكفار فقراء أيضًا ، أزالَ اللهُ هذه الشُّبهة، وكذا قَول مَن قال : إنْ هاجَرْنا لَم نجد ما نُنْفِق . أي : فإذا اعترفتُم بأنَّ اللهَ خالقُ هذه الأشياء، فكيفَ تَشُكُّون في الرِّزْق ، فَمَن بيده تكوينُ الكائنات لا يَعْجَز عَن رِزْق العَبد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السماءِ ماءً فأحيا بِهِ الأرضَ مِن بَعْدِ مَوْتها لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الحمدُ للهِ بَل أكثرُهُم لا يَعْقِلُون ﴾[العنكبوت : ٦٣] . تَوبيخٌ وتقريعٌ للمُشركين ، وإقامة للحُجَّة عليهم . يُخاطِب اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ : ولَئِن سَألتَ يا محمد هؤلاء المشركين (كفار مكة)، مَن نَزَّلَ مِن السحاب مَطَرًا ، فأنبتَ الزروعَ والثمار في الأرض ، وأحياها مِن بَعْد جَدْبها وقَحْط أهلها ؟ . سَوْفَ يُجيبون حَتْمًا: الله فاعلُ ذلك. وهُم يَعترفون بهذه الحقيقة، ولا يَستطيعون إنكارَها ولا التَّهَرُّب مِنها . وبما أنكم تعترفون بذلك وتُقِرُّون بِه ، فلماذا تُشْرِكون باللهِ، وتَعبدون الأصنامَ والأوثانَ ؟ . إن الاعتراف هو سَيِّد الأدلة ، واعتراف المشركين بهذه الحقيقة يعني أن عبادتهم للأصنام باطلة، وأنَّ شِرْكَهم بالله قائم على الأهواء والعِناد والتقليد الأعمى. وقد أَلْزَمُوا أنفسهم بالْحُجَّة، وأَقَرُّوا بذلك. قُل يا محمد: الحمد للهِ الذي بَيَّنَ الْحُجَّةَ ، وأوضحَ البُرهانَ

على وَحدانيته ، وقَدَّمَ الدليلَ على قُدرته . لقد أقَرَّ المشركون واعترفوا بأن الله هو الذي يُحيي الأرض بعد مَوتها بالمطر الذي يُنَزِّله من السحاب ، معَ أنهم أهل الكُفر والضلال والعِناد والوقاحة والاستكبار. فاحمد اللهَ يا محمد على إقرارهم واعترافهم، وثبوت الْحُجَّة عليهم ، وأن الله أيَّدك بالحق، وجَعل الْحُجَّةَ لَكَ عليهم ، وعصمك مِن مِثْل هذه الضلالة . بَل أكثرهم لا يَتدبَّرون الآياتِ الإلهية وما فيها من الأدلة والبراهين ، ولا يُميِّزون بين الحق والباطل . إنهم يَعترفون أن الله هو الخالق الرازق، ثُمَّ يَعبدون مَعه غَيْرَه ، ويُشركون به بعض مخلوقاته العاجزة التي لا تضرُّ ولا تَنفع ، ولا تَقْدِر على شيءٍ مِن ذلك. إنهم يُنكِرون التَّوحيد، معَ اعترافهم أن الله هو الخالق لهذه الأشياء.

وقال الطبري في تفسيره (١٠/١٥٨):((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ: وَلَئِن سَألتَ يا محمد هؤلاء المشركين بالله مِن قَومك:﴿مَن نَزَّلَ مِنَ السماءِ ماءً ﴾ وهو المطر الذي يُنَزِّله الله من السحاب ﴿ فأحيا بِهِ الأرضَ ﴾ يقول:فأحيا بالماء الذي نَزَّلَ مِن السماء الأرضَ. وإحياؤها : إنباته النبات فيها ﴿ مِن بَعْدِ مَوْتِها ﴾ مِن بَعْد جُدُوبها وقُحُوطها . وقَوله : ﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ ، يقول : لَيَقُولُنَّ : الذي فعل ذلك الله الذي له عبادة كُل شيء . وقَوله : ﴿ قُلِ الحمدُ للهِ ﴾ يقول : وإذا قالوا ذلك فَقُل : ﴿ الحمدُ للهِ ﴾ . ﴿ بَل أكثرُهُم لا يَعْقِلُون ﴾ يقول: بَل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يَعْقِلون ما لهم فيه النفع مِن أمر دِينهم ، وما فيه الضَّر ، فَهُم لجهلهم يَحْسَبون أنهم لعبادتهم الآلهة دُون الله يَنالون بها عند الله زُلفة وقُربة ، ولا يَعْلَمون أنهم هالكون مُسْتَوْجِبُون الخلود في النار)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمِن آياتِهِ أن خَلَقَكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون ﴾ [الرُّوم: ٢٠].

ومِن علامات الله الدالة على وُجوده ووَحدانيته وقُدرته ، أنه خَلَقَ أباكم آدم (أصل البشرية) مِن تراب . وإنما أضافَ الخلق إلى الناس : ﴿ خَلَقَكُم ﴾ لأن آدم ﷺ أبو البشر وأصْلُهم . والفَرْع كالأصل ، والابن تابع لأبيه .

ثُمَّ أنتم تنتقلون عَبر مراحل وأطوار:مِن نُطفة إلى عَلَقة إلى مُضغة إلى عَظْمٍ مُغطًّى باللحم. وصِرْتُم بَشَرًا من لحم ودم، عُقَلاء ناطقين تنبسطون في الأرض،وتتصرَّفون فيما هو قِوام معايشكم.

وهذا يعني أن الله لَم يخلقهم عَبَثًا، وإنما لِحِكمة إلهية جليلة تتَّضح في امتحانهم واختبارهم . والقادرُ على الخلق والإيجاد هو وَحْدَهُ الإله المستحق للعبادة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٨) : ((يقول تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ ﴾ الدَّالة على عَظَمَته وكمال قُدرته أنه خلق أباكم آدم مِن تراب ﴿ ثُمَّ إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون ﴾ فأصلكم مِن تراب ، ثُمَّ

مِن مَاء مَهين ، ثُمَّ تَصَوَّر ، فكان عَلَقة ، ثُمَّ مُضغة ، ثُمَّ صار عِظَامًا شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العِظام لَحْمًا ، ثُمَّ نَفخ فيه الرُّوح ، فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أُمِّه ، صَغيرًا ، ضعيف القوى والحركة ، ثم كُلما طال عُمره تكاملت قواه وحركاته ، حتى آلَ به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون ، ويُسافر في أقطار الأقاليم ، ويركب متن البُحور، ويدور أقطار الأرض ، ويتكسَّب ، ويجمع الأموال ، وله فِكرة وغَوْر ودَهاء ومَكْر ورَأي وعِلم ، واتِّساع في أمور الدنيا والآخرة ، كُلٌّ بِحَسَبه ، فَسُبحان مَن أقدرهم وسَيَّرهم وسَخَّرهم ، وصرفهم في فُنون المعايش والمكاسب ، وفاوتَ بينهم في العلوم والفِكر، والْحُسن والقُبح ، والغِنى والفقر ، والسعادة والشَّقاوة)) اهـ .

وعن أبي موسى الأشعريِّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله تعالى خَلَقَ آدمَ مِن قَبْضة قَبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قَدْر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسْود وبَيْن ذلك ، والسَّهْل والْحَزْن ، والخبيث والطَّيب))[17].

خَلَقَ اللهُ آدمَ من تراب الأرض . وهذا العنصرُ الأرضي هو نقطة بداية الخليقة ، وقد توزَّع بنو آدم على أنحاء الأرض، وظَهرت بينهم الاختلافات في اللون والأخلاق ، وحدثَ التمايزُ بينهم . وهذا الاختلافُ لا يَدعو إلى الفُرقة والتناحر ، بل يَدْعو إلى التعاون والتكامل . وقال ابن الجوزي في دَفْع شُبه التشبيه (ص ١٦٣) : ((ولَيْست على ما يُتصوَّر من قَبضات المخلوقين ، فإن الحقَّ مُنَزَّه عن ذلك . وإنما أُضيفت القَبضة إليه لأن أفعال المملوك تُنْسَب إلى المالك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ أن خَلَقَ لكم مِن أنفُسِكُم أزواجًا لِتَسْكُنوا إلَيْها وجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً ورَحمةً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكرون ﴾ [الرُّوم : ٢١] [18].

مِن علامات عَظَمة الخالق وكمال قُدرته ، ودلائلِ حِكْمته الباهرة ، أن خلق نساءً آدميات من نفْس صِنف الرجال، وذلك ليحصل السَّكن والأُلفة بدون نفور، فتستمر الحياةُ دون تناقض .

---

(١٧) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٠٤) برقم (٢٩٥٥) ، وقال : ((حسن صحيح)) اهـ ، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٢٩) برقم (٦١٦٠) .

(١٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٢٩٥):((قَوْله تعالى: ﴿ أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا ﴾ فيه قَولان : أحدهما أنه يعني بذلك آدم ، خَلَقَ حَوَّاءَ مِن ضِلْعه ، وهو معنى قول قتادة. والثاني أن المعنى جعل لكم آدَمِيَّاتٍ مِثْلَكم ، وَلَمْ يجعلهنَّ مِن غَير جِنسكم ، قاله الكلبي)) اهـ .

وانبثاق الرجال والنساء من صنف واحد من شأنه التوفيق بينهما بسهولة، والتأليف بين الأحاسيس المشتركة لأنهما من جنس واحد(الإنس) . ولو كانوا من جِنْسَيْن مختلفين لحصل النفور، وانعدم التجاذب ، وبالتالي لَم تعد هناك إمكانية لتكوين الأسرة وإعمار الأرض واستمرار الحياة . لقد خَلَقَ اللهُ مِن جِنْسِكم البشريِّ نِساءً لتميلوا إلَيهنَّ وتألفوهنَّ. وكُل جِنس يَميل إلى جِنسه. والجِنسان المختلفان مُتنافران ، لا تحصل السَّكينة والأُلفة بينهما . وجَعَلَ بين الأزواج والزَّوجات محبةً وشَفَقةً ورحمةً . والزَّوجان يُحِبَّان بعضهما البعض مِن غَير رَحِم بينهما ، ويَحرص كُل طرف على الآخَر بدون وجود مصلحة مادية .

وقِيل: المودة كِناية عَن الجِماع ، والرحمة عن الولد . وقِيل : المودة للشَّابة ، والرحمة للعجوز .

إنَّ في هذا الفِعل الإلهيِّ لَعِبَرًا ودَلالات وعِظات،لِقَوم يتفكرون في عَظَمَة الله وقُدرته وحِكمته، فيعلمون أن الله هو الإله الحق القادر على كُل شيء، والحكيم في أقواله وأفعاله ، وأنه جَعل قِوام الدنيا بالتزاوج والتكاثر ، وأنه قادر على بعث الناس من قبورهم بعد مَوتهم .

وخُصَّ القوم الذي يتفكرون بالذِّكر ، لأنهم القادرون على التفكر والتفكير والاستدلال والاستنتاج واتخاذ القرارات الصحيحة ، والانتفاع بها في دِينهم ودُنياهم. أمَّا الغافلون عن التفكر فَلَن يَفهموا آياتِ الله ، ولَن يَهْتَمُّوا بمظاهر قُدرته . وهُم يَعيشون للأكل والشُّرب كالأنعام .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٨) : ((ولو أنه _ تعالى _ جعل بني آدم كُلَّهم ذُكورًا وجعل إناثهم مِن جِنس آخر ، إمَّا مِن جان أو حيوان، لَمَا حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج بل كانت تحصل نُفرة لو كانت الأزواج مِن غَير الجِنس ، ثُمَّ مِن تَمام رحمته ببني آدم ، أن جعل أزواجهم مِن جِنسهم ، وجعل بينهم وبينهنَّ مَوَدَّة وهي المحبة ، ورحمة وهي الرأفة ، فإن الرَّجل يُمسك المرأة إنما لمحبته لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للأُلفة بينهما ، وغَير ذلك)) اهـ .

والرُّسل _ عليهم الصلاة والسلام _ قدوةُ البشرية، قد كَوَّنوا عائلاتٍ، ولهم أزواج وذُرِّية . ووجودُ زوجات وأبناء في حياة الأنبياء لا يَقْدَح في زُهدهم ، أو اشتغالهم بالدعوة ، بل هو جزءٌ من الدعوة ، وذلك بإنشاء أُسر صالحة تكون قُدوةً للأتباع كي يُكَوِّنوا مجتمعَ الحق والفضيلة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واختلافُ ألْسِنَتِكُم وألوانِكُم إنَّ في ذلك لآياتٍ للعَالِمين ﴾ [الرُّوم : ٢٢] .

ومِن آياتِ الله وعلاماته العظيمة الدَّالة على وَحدانيته وكمال قُدرته ، خَلْقُ السماواتِ في ارتفاعها وصفائها واتِّساعها ، وخَلْق الأرض في كثافتها وانخفاضها وتنوُّع تضاريسها . والسماواتُ والأرض أجرامٌ عظيمة ، وفيها عجائب المصنوعات ، وغرائب الموجودات . ومَن قَدِرَ على خَلق هذه الأشياء الباهرة ، قادر على إماتة الناس ، وبَعثهم مِن قُبورهم .

وَمِن آياتِ الله العظيمة اختلافُ اللغات كالعربية والتركية والفارسية والرُّومية، واختلافُ الألوان مِن أبيض وأسود وأحمر، مَعَ أن البشر جميعًا أولاد أبٍ واحد(آدم ﷺ) وأُم واحدة (حَوَّاء عليها السلام) وكُلهم يَنتمون إلى الإنسانية. وصار كُل إنسان مُتميِّزًا بذاته ولَونه وهيئته وأعضائه، له هُوية مستقلة قائمة بذاتها ، ويَختلف عن الآخرين ، ويَتميَّز عنهم ، وهناك فوارق بينه وبينهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٩٥) : ((قِيل : المراد باختلاف الألسنة اختلاف النغمات والأصوات ، حتى إنه لا يشتبه صوت أخوين مِن أب وأم . والمراد باختلاف الألوان اختلاف الصُّوَر ، فلا تشتبه صُورتان مع التَّشَاكُل)) اهـ .

إنَّ التمايُز والاختلاف بين لغات البشر وألوانهم ، رغم أن مصدر البشرية واحد ، ليس بِفِعل النُّطفة ، ولا بتأثير الأبَوَيْن . مِمَّا يدل على وُجود فاعل مُختار ، يَخلق الناسَ كما يشاء . وهذا دليل على وجود الله الخالق ، وقُدرته المطْلَقة ، وحِكمته البالغة .

ولو كانت أشكال الناس وألوانهم واحدة بلا اختلاف ولا تمايُز ، لَحَصَلَ الالتباس والخلط ، مِمَّا يُؤدِّي إلى فساد الحياة ، وتعطُّل المصالح ، وانتشار الفوضى في المجتمع . كما أن جَمَال الناس إنما يقوم على تَنَوُّع أشكالهم وألوانهم واختلافها ، فَيَظهر البشرُ وَفْقَ منظومة مُتَنَوِّعة وتكاملية ، فيها الْحُسن والجمال ، وهذا التَّنَوُّع يُعطي الحياةَ مذاقها الخاص ورَونقها المميَّز. ولو كان البشرُ جميعًا مِن شكل واحد أو لَون واحد ، لَفَقَدَ الناسُ جَمالهم وحُسنهم وتميُّزهم ، وصاروا نُسخة طبق الأصل بلا علامات فارقة ولا دلالات مُميِّزة ، وعندئذ تَفقد الحياةُ مُتعتها وجَمالها وبهاءها .

والجمالُ قضية نسبية ، فهناك مَن يُحِب اللون الأبيض ، وهناك مَن يُحِب اللون الأسود ، وهُناك مَن يُحِب القصير ، وهُناك مَن يُحِب الطويل... إلخ. والضِّدُّ يُظْهِر حُسْنَه الضِّد . وبِضِدِّها تتبيَّن الأشياء ، وتكتسب معناها وشرعية وُجودها . وقد كان اختلافُ الناس في الشكل واللون رغم كثرتهم ، وكَوْنهم مِن أب واحد وأُم واحدة ، دليلاً واضحًا على وَحدانية الله وتفرُّده بالخلق والإيجاد، وآيةً ظاهرةً على كمال قُدرته ، وعِلمه الذي أحاطَ بكل شيء .

إنَّ في هذا الفِعل الإلهيِّ لَعِبَرًا ودَلالات على وُجود الله ووَحدانيته وقُدرته وحِكمته . ولا يَفهم هذه العِبَر والدَّلالات إلا أصحاب العقول والعِلم والفهم،فَهُم وَحْدَهم المنتفعون بالآيات الإلهية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٩) : ((يقول تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ ﴾ الدَّالة على قُدرته العظيمة ﴿ خَلْقُ السماواتِ والأرضِ ﴾ أي : خَلْق السماوات في ارتفاعها ، واتِّساعها ، وسُقوف أجرامها ، وزهارة كواكبها ، ونجومها الثوابت والسَّيارات ، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبِحار وقِفار وحيوان وأشجار. وقَوله تعالى: ﴿ واختلافُ أَلْسِنَتِكُم ﴾ يعني اللغات ... . فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا مُنذ خَلق الله آدم إلى قيام الساعة ، كُلٌّ له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخَدَّان ، وليس يُشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يُفارقه بشيء مِن السَّمْت أو الهيئة أو الكلام ، ظاهرًا كان أو خَفِيًّا ، يَظهر عند التأمل ، كُل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته ، لا تُشبِه أخرى ، ولو توافق جماعة في صِفة مِن جَمال أو قُبح ، لا بُدَّ مِن فارق بين كُل واحد منهم وبين الآخر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ مَنامُكم بالليلِ والنهارِ وابتغاؤُكم مِن فَضْله إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُون ﴾ [الرُّوم : ٢٣] .

وَمِن آياتِ الله الدَّالة على وَحدانيته وقُدرته ، مُخالفته بين الليل والنهار ، فقد جَعَلَ الليلَ بِظلامه وسُكونه لِنَوم الناس، وأيضًا جعل بعض أوقات النهار لراحة الناس واستراحتهم ونَومهم كوقت القَيلولة .

وجَعل النهارَ مُضيئًا مليئًا بالحركة والنشاط ، لطلب الأرزاق ، ومُمارَسة الأعمال والمهن المختلفة ، والتصرُّف في المعايش ، وقضاء الحوائج . وكُل ذلك بإرادته وقُدرته وحِكمته .

وقد جَعل اللهُ النَّوْمَ في الليل شبيهًا بالموت ودليلاً عليه ، وجعل الحركةَ والنشاطَ في النهار لطلب الأرزاق شبيهًا بالحياة بعد الموت ، ودليلاً على البعث والنُّشور .

إنَّ في ذلك لَعَلامات وعِبَرًا وحُجَجًا وأدلةً لِقَوم يَسمعون سَماع تفهُّم وتدبُّر ، فيفهمون الحق ويتَّبعونه ، ويَسمعون الوعظَ فيخافونه . والحِكمةُ في هذه الآيات الإلهية واضحة ، وهي تُشير إلى أن الله لا يُعجِزه شَيء . والقادرُ على فِعل هذا ، قادر على بعث الناس مِن قبورهم . والناسُ لا يَعْرِفُون اللهَ برؤيته ومُشاهَدته ، وإنما يَعْرِفونه بآياته وخَلْقه . والمصنوعُ يدل على الصانع .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٣): ((﴿ وَمِن آياتِهِ مَنامُكم بالليلِ والنهارِ وابتغاؤُكم مِن فَضْله ﴾ منامكم في الزَّمَانَيْن ، لاستراحة القُوى النفسانية وتقوِّي القُوى الطبيعية ، وطلب معاشكم

فيهما ، أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار . وَضَمَّ بين الزَّمَانَيْن والفِعْلَيْن بِعَاطِفَيْن ، إشعارًا بأن كُلاًّ مِن الزَّمَانَيْن إن اختصَّ بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة، ويُؤيِّده سائر الآيات الواردة فيه ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُون ﴾ سَمَاعَ تَفَهُّم واستبصار ، فإن الحِكمة فيه ظاهرة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وطَمَعًا ﴾[الرُّوم : ٢٤] .

وَمِن آيات الله العظيمة الدَّالة على وَحدانيته وقُدرته ، أنه يُريكم البرقَ خَوْفًا من الصواعق ، وطَمَعًا في الغَيث . وقِيل : خَوْفًا للمسافر ، وطَمَعًا للمُقيم . وقِيل : خَوْفًا من البَرْد الذي يُتلِف الزرعَ ، وَطَمَعًا في الغَيث الذي يُنبِت الزرع .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٧٠) : ((أي : تارةً تَخافون مِمَّا يَحدث بعده مِن أمطار مُزعِجة وصواعق مُتلِفة ، وتارةً تَرْجُون وَميضَه ، وما يأتي بعده من المطر المحتاج إلَيه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ أن تَقُومَ السماءُ والأرضُ بأمْرِهِ ثُمَّ إذا دَعَاكُم دَعْوَةً مِنَ الأرضِ إذا أنتم تَخْرُجُون ﴾ [الرُّوم : ٢٥] .

وَمِن آيات الله الباهرة الدَّالة على وَحدانيته وعَظَمَته أن السماء قائمة بِقُدرته ، وثابتة بأمره ، ومُسخَّرة بإرادته ، بلا عَمَد ولا دعامات. واللهُ يُمسِك السماءَ لمنافع الناس وتحقيق مصالحهم، ويُسيطر عليها بِقُدرته، ويُدبِّر شُؤونها بِحِكمته، فلا تقع على الأرض ، ولا تتشقَّق ، ولا تضطرب ، ولا يُصيبها خلل. والأرضُ ثابتة مستقرة بِقُدرة الله وحِكمته ، فلا تنقلب بأهلها ، ولا يختل توازنها. والسماءُ والأرضُ دائمتان إلى قيام الساعة ، وقائمتان بأمر الله تعالى .

والقادرُ على فِعل هذا قادرٌ على بعث الناس من قبورهم. إنَّ اللهَ يَدعو الأمواتَ دَعوةً واحدةً، فيخرجون من قبورهم فَوْرًا بلا تأخير ، للجزاء والحساب . كما يُجيب المدعو المطيعُ دعوةَ الدَّاعي الْمُطاع . وهذا يدل على سُرعة الاستجابة ، واستحالة التَّهَرُّب والفرار. وهذا يدل على كمال قُدرة الله الذي لا يُعجِزه شَيء ، وإرادته النافذة في كُل شيء .

إنَّ الْمَلَكَ إسرافيل ــ عليه السلام ــ يَنفخ في الصُّور للبعث من القبور (النفخة الثانية) بأمر الله تعالى، فيقوم الأمواتُ من قُبورهم أحياءً ، وخُروجهم بهذه الدَّعوة الإلهية مِن آيات الله الباهرة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٣) : ((﴿ وَمِن آياتِهِ أن تَقُومَ السماءُ والأرضُ بأمْرِهِ ﴾ قيامهما بإقامته لهما ، وإرادته لقيامهما في حَيِّزَيْهِمَا الْمُعَيَّنَيْن ، مِن غَير مُقيم مَحسوس، والتعبير بالأمر للمُبالَغة في كمال القُدرة ، والغِنى عن الآلة ﴿ ثُمَّ إذا دَعَاكُم دَعْوَةً مِنَ الأرضِ إذا أنتم تَخْرُجُون ﴾ عَطْف على ﴿ أن تَقُومَ ﴾ كأنه قِيل : وَمِن آياته قيام السماوات والأرض بأمره ، ثُمَّ

خُروجكم من القبور . ﴿ إذا دَعَاكُم دَعْوَةً ﴾ واحدةً ، فيقول : أيُّها الموتى، اخرجوا ، والمراد تشبيه سُرعة تَرَتُّب حصول ذلك على تَعَلُّق إرادته ، بلا توقفٍ واحتياجٍ إلى تَجَشُّم عمل ، بسرعة تَرَتُّب إجابة الدَّاعي الْمُطاع على دُعائه . ﴿ ثُمَّ ﴾ إمَّا لتراخي زمانه أو لِعِظَم ما فيه ... و ﴿ إذا ﴾ الثانية للمُفاجأة)) اهـ . وكانَ عُمر بن الخطاب ــ رضي اللهُ عنه ــ يَحْلِف قائلاً : ((فوالذي بإذنه تقوم السماءُ والأرضُ)) [صحيح البخاري (٥/ ٢٠٤٨)] .

إنَّ السماءَ والأرضَ قائمتان بأمر الله ، وثابتتان بإذنه ، ومُسخَّرتان بإرادته لمنافع الناس ، وتحقيق مصالحهم ، وتَوفير احتياجاتهم . والسماءُ والأرضُ قائمتان ودائمتان بأمر الله ما دامت الدُّنيا . ثُمَّ إذا كان يوم القيامة بُدِّلَت الأرض غَير الأرض والسماوات ، وخرجَ الأموات من قبورهم أحياءً بأمر الله ودُعائه إيَّاهم ، والاستجابةُ فَورية بلا تأخير ، ولا يُوجد مجال للهرب .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن في السماواتِ والأرضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون ﴾[الرُّوم : ٢٦] .

للهِ كُل مَن في السماوات والأرض مِن الملائكة والإنس والجن، وهُم مِلْكه وخَلْقه وعبيده ، واقعون تحت إرادته ومشيئته، ومقهورون تحت سُلطانه، وخاضعون لِحِكمته وتصرُّفه. واللهُ يَتصرَّف في خَلْقه كيف يشاء ، وَحْدَه لا شريك له . جميعهم خاشعون خاضعون مُنقادون لله طَوْعًا وكَرْهًا ، بإرادتهم ورغم أنوفهم . جميعهم مُطيعون طاعة الإرادة لا طاعة العبادة . خَلَقَهم اللهُ كما أراد ، فكانوا كذلك ، ولا أحد يَستطيع تغيير خَلْق الله ، أو الوقوف أمام إرادة الله النافذة في كل شيء .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٦٧) : ((﴿ وَلَهُ مَن في السماواتِ والأرضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون ﴾ مُطيعون. قال الكلبي: هذا خاص لِمَن كان منهم مُطيعًا. وعن ابن عباس : كُلٌّ له مُطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث، وإن عَصَوا في العبادة))اهـ. وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٤/ ٣١٤): ((﴿ وَلَهُ مَن في السماواتِ والأرضِ ﴾ مِن جميع المخلوقات ، مِلْكًا وتَصَرُّفًا وخَلْقًا ، ليس لِغَيره في ذلك شيء ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون ﴾ أي: مُطيعون طاعة انقياد . وقِيل : مَقرون بالعبودية. وقِيل: مُصَلُّون وقِيل : قائمون يوم القيامة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَبدأ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أهْوَنُ عَلَيْهِ ولهُ الْمَثَلُ الأعلى في السماواتِ والأرضِ وَهُوَ العزيزُ الحكيم ﴾ [الرُّوم : ٢٧] .

إنَّ اللهَ يُنشِئ الخلقَ مِن العَدَم ، ويُوجِده بعد أن لَم يكن شيئًا ، ثُمَّ يُميته ويُفنيه ، ثُمَّ يُحييه بعد الموت للجزاء والحساب ، وهو هَيِّن عليه ، وأمرٌ بسيط إلى جانب قُدرة الله المطْلقة ، وما شَيء على الله بعزيز .

وإعـادةُ الخلـق بعـد مَـوتهم أهْـوَن على الله وأسـهل وأيسـر مِـن بَـدْء الخلـق ، وَفْـق المنظـور الإنساني. واللهُ لا يُعجِزه شَيء ، وإرادته نافذة في كُل شيء . ولا شَيء في قُدرة الله بعضه أهْوَن مِن بعض ، لأن كُل الأشياء مُستوية وخاضعة لله ، وما أراده اللهُ كانَ ، وما لَم يُرِدْهُ لَم يكن . ولا يُوجد عند الله سهل وصعب ، فالسهولةُ والصعوبةُ تتعلقان بالمخلوقات . أمَّا الخالقُ فهو مُسيطِر على كُل شيء، ولا يُعجِزه شيء ، ولا يقف أمام إرادته شَيء . وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٢١) : ((﴿ وَهُوَ الذي يَبدأ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ﴾ أمَّا بَدْء خَلْقه فَبِعُلُوقه في الرَّحِم قبل ولادته ، وأمَّا إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فَجَعَلَ ما عُلِمَ من ابتداء خَلْقه دليلاً على ما يَخفى مِن إعادته ، استدلالاً بالشاهد على الغائب ، ثُمَّ أكَّدَ ذلك بِقَوله : ﴿ وَهُوَ أهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٣) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((قال اللهُ : كَذَّبَني ابنُ آدم ، ولَم يكن له ذلك ، وشَتَمَني ولَم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيَّايَ فقوله : لن يُعيدني كما بَدَأني ، وليس أولُ الخلق بأهْوَنَ عَلَيَّ مِن إعادته ، وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ فَقَوله : اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، وأنا الأحد الصَّمَد ، لَم أَلِدْ وَلَم أُولَدْ ، وَلَم يَكُن لِي كُفُوًا أحد)) .

إنَّ البعثَ ثابتٌ نقلاً وعقلاً . وقد خاطب اللهُ تعالى الناسَ بما يَعقلون، فذكر _ سُبحانَه _ أن البعث أهْوَن وأيسر مِن بَدْء الخلق . ومَن قَدِرَ على الإنشاء مِن العَدَم ، كان البعث أهون عليه وأسهل، وفق المنطق البشريِّ . واللهُ تعالى كُل شيء عنده هَيِّنٌ ، فلا يُعجِزه شيء ، وكُل شيء خاضع لإرادته ومشيئته وقُدرته وحِكمته،فالبَداءةُ والبعثُ كلاهما سهل يسير وعلى السَّواء بالنسبة لِقُدرة الله وإرادته النافذة في كل شيء.﴿ وإذا قَضى أَمرًا فإنما يقول له كُن فَيَكون ﴾. وما أراده اللهُ كائن لا مَحالة ، وواقع بلا شَك . ولا توجد عوائق أو موانع أمام إرادة الله ومشيئته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٩٧و٢٩٨) : ((قَوله : ﴿ وَهُوَ أهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وفيه أربعة أقوال : أحدها أن الإعادة أَهْوَن عَلَيه مِن البداية ، وكُلٌّ هَيِّن عَلَيه ، قاله مجاهد وأبو العالية . والثاني أن ﴿ أهْوَنُ ﴾ بمعنى هَيِّن . فالمعنى : وَهُوَ هَيِّن عَلَيه ... والثالث أنه خاطبَ العباد بما يَعْقِلون فأعلمهم أنه يجب أن يكون عِندهم البعث أسهل مِن الابتداء ، في تقديرهم وحُكمهم ، فَمَن قَدِرَ على الإنشاء كان البعثُ أَهْوَن عَلَيه ، هذا اختيار الفَرَّاء والْمُبَرِّد والزَّجاج، وهو قول مقاتل . وعلى هذه الأقوال الثلاثة تكون الهاء في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائدة إلى الله تعالى . والرابع أن الهاء تعود على المخلوق ، لأنه خَلَقَه نُطفةً ثم عَلَقة ثم مُضغة ، ويوم القيامة يَقول له : كُن ، فيكون. رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وهو اختيار قُطْرُب)) اهـ .

﴿ ولـهُ الْمَثَـلُ الأعلـى فـي السـماواتِ والأرضِ ﴾ . وللهِ الوصـفُ الأعلـى (لا إلـه إلا الله) فـي السـماوات والأرض ، لَيْسَ كَمِثْلِه شَـيء ، فهـو الواحـدُ الأحـدُ ، الفـردُ الصَّـمَد . لـه القُـدرة العُليـا، والحِكمة التَّامة، وصفات الجلال والجمال والكمال. لا شريك له، ولا نِد، ولا صاحبة، ولا ولد . لا أحد يُساويه ولا يُدانيه . لا يُشْبِه شَيْئًا ، ولا يُشْبِهُهُ شَيء . ولا تُحيط بِه الأفكار والخواطر . تَنَزَّه عن النقائص والعُيوب ، وتَفَرَّد بالإحياء والإماتة والبَعْث . سُبحانَه وتعالى .

﴿ وَهُوَ العزيزُ الحكيم ﴾ ، وهو القادر على إنشاء الخلق وإماتته وإحيائه ، القاهرُ لكل شيء ، العزيز في مُلْكه ، فلا يُغالَب ولا يُناقَش ، ولا يُسْتَدْرَك عَلَيه . والحكيمُ في خَلْقه ، وكُل أفعاله على مُقتضى الحِكمة والمصلحة . وهو مُنَزَّهٌ عن العبث والفَوضى .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمِن آياتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِن رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ بأمْرِهِ وَلِتَبتغوا مِن فَضْلِهِ ولعلكم تَشْكُرُون ﴾ [الرُّوم : ٤٦] .

وَمِن آيات الله الدَّالة على وَحدانيته العظيمة وقُدرته المطْلَقة وحِكمته البالغة ، أن يُرسِل الرياحَ تَسُوق الغيومَ، وتُبشِّر بالمطر والرحمة والبركة والإنبات والرِّزق. والرِّياحُ تتقدَّم نزول المطر. وَلِيُنْزِل عليكم مِن رَحمته الغَيْثَ الـذي يُحيي العبادَ والبلادَ ، فينتشر الرخاء ، ويَعَمُّ الخِصْب ، ويحصـل النـاس على المنـافع الكثيرة ، ويَزدهر الاقتصـاد ، ويَتحسَّن المستوى المعيشي للفرد والجماعة . وَلِتَسِير السُّفن في البحر عند هُبوب الرياح بإرادة الله . والجديرُ بالذِّكر أن قَوله تعالى : ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ بأمْرِهِ ﴾ يُشير إلى القُدرة الإلهية والإذن الإلهيِّ ، وأنهما في الآية قائمان مَقام أن يأمرَ البحرَ والناسَ بذلك. وَلِتَطْلُبوا الرِّزقَ بالتجارة في البحر ، وتَحصلوا على معايشكم التي قَسَمَها اللهُ لكم، وَلِتَشْكُروا اللهَ خـالقَكم ورازقَكـم على نِعَمـه الكثيـرة، الظـاهر والباطنـة ، التـي لا تُعَـدُّ ولا تُحْصَـى، فتعبدوه وَحْدَه لا شريك له ، وتُطيعوه سِرًّا وعلانيةً .

لقد ذَكَرَ اللهُ نِعَمَه على الناس في إرسال الرياح مُبشِّرات بِنُزول المطر ، الذي هو رحمة إلهية للعبـاد والـبلاد والشَّـجر والـدَّواب ، وتسـيير السُّـفن فـي البحـر بالريـاح التـي سَـخَّرها اللهُ لـذلك ، وحصـول النـاس علـى المنـافع المتعـددة والفوائـد الكثيـرة بالتجـارة فـي البحـر، وقضـاء الحـوائج ، وتحصيل الأرزاق ، والتماس المعايش .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٤٠):((قَوله تعالى: ﴿ وَمِن آياتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أي : وَمِن أعلام كَمال قُدرته إرسال الرِّياح مُبشِّرات ، أي بالمطر ، لأنها تَتقدَّمه . ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِن رَحْمَتِهِ ﴾ يَعني الغَيْث والخِصْب ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ ﴾ أي:في البحر عند هبوبها.وإنما زاد ﴿ بأمْرِهِ ﴾

لأن الرياح قد تَهُبُّ، ولا تكون مُوَاتِية، فلا بُدَّ مِن إرساء السُّفن والاحتيال بِحَبْسها، وربما عصفت فأغرقتها بأمره ﴿ وَلِتَبتغوا مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني الرِّزق بالتجارة ﴿ ولعلكم تَشْكُرُون ﴾ هذه النِّعَم بالتَّوحيد والطاعة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿هذا خَلْقُ اللهِ فأرُوني ماذا خَلَقَ الذينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظالمونَ في ضَلالٍ مُبين﴾ [لُقمان : ١١] .

هذا الذي تُشاهدونه أيها المشركون مِن المخلوقات العظيمة والمصنوعات الباهرة، كالسماوات والأرض وما بينهما ، قد خَلَقَها اللهُ وَفْق إرادته ومشيئه وحِكمته ، وَحْدَه لا شريك له في خَلْقه وصُنعه . وهذه الآيةُ تُشير إلى انفراد الله بالخلق والإيجاد والتَّكوين والتَّدبير والسَّيطرة على الكَون. تَأمَّلُوا أيُّها المشركون، يا أهلَ مكة ، يا عُبَّادَ الأصنامِ والأوثانِ عجائبَ قُدرة الله ، وتَفَكَّرُوا في بدائع صُنعه ، فأخبروني: ماذا خَلَقَت أصنامُكم (آلهتكم) التي تَعبدونها مِن دُون اللهِ حتى استحقت أن تعبدوها وتجعلوا مِنها شُركاء لله وأندادًا له ؟ .

وهو سؤال لإقامة الْحُجَّة عليهم ، وتَوبيخهم ، وتَقريعهم، وتَعجيزهم ، والاستهزاء بِهم ، والسُّخرية مِنهم ، ومِن آلهتهم الباطلة التي لا تَضُرُّ ولا تَنفع .

بَل المشركون باللهِ الذين يَعبدون الأصنامَ والأوثانَ في جهل وخُسران واضح ، لا خَفاء فِيه ولا شَك . لقد وصفهم اللهُ بالظلم ، لأن الشِّرك أسوأ أنواع الظلم ، حيث يَظْلِم الإنسانُ نَفْسَه ، وذلك بقيادتها إلى الخلود في النار. وهذا هو العذابُ الأبديُّ ، والهلاكُ الحتميُّ ، والخسارة العُظمى، ومَن فعل هذا بِنَفْسه فقد ظَلَمَها أشدَّ الظلم . والمشركُ يَظلم نَفْسَه ولا يَظْلِم خَالِقَه ، لأن اللهَ أعلى وأجَل ، ولا يَضُرُّه الكفر والمعاصي. ثُمَّ وصفهم بالضلال وأنهم في جَهْل وعَمى، ثُمَّ وصف الضلال بالوضوح التَّام. ومَن كان هذا حاله، فلن يَستجيب لموعظة ، ولَن يُؤَثِّر فيه ترغيب ولا ترهيب ، ولَن يَفهم الآيات والأدلة والْحُجَج ، ولَن يَهتديَ إلى الحق والهدى .

إنَّ المشركين ضائعون في متاهة الكُفر ، وتائهون في الشُّكوك والشُّبهات ، ويَغرقون في ضلال واضح، لأنهم عَبدوا الأصنامَ (الجمادات) التي لا تَضُرُّ ولا تَنفع ، ولا تَخْلُق ولا تَرْزُق، ولا تُحيي ولا تُميت ، وتَركوا تَوحيد اللهَ الخالق الرازق ، وأشْرَكُوا الجمادات معه في العبادة . وهذا الضلال هو أسوأ أنواع الضلال ، وهذا الانحطاط ما بَعْده انحطاط . والإنسانُ في هذه الحالة ، يَكون قَد خَلَعَ إنسانيته ، وصار في مَنْزلة أدنى من الحيوانات والوحوش ، لأن الحيوانات والوحوش تَعْرِف أن الله خالقها ورازقها ، وهي تَعبده وَحْدَه لا شريك له ، وعبادتها للهِ لا نُدْرِك كيفيتها وتفاصيلها .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٦) : ((﴿ بَلِ الظالمونَ في ضَلالٍ مُبين ﴾ إضراب عن تَبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال ، الذي لا يَخْفَى على ناظر . ووضعُ الظاهر ﴿ الظالمونَ ﴾ مَوْضِع الْمُضْمَر ، للدَّلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وآيةٌ لهمُ الأرضُ الميْتةُ أحْيَيْناها وأخْرَجْنا مِنها حَبًّا فَمِنْهُ يأكلون ﴾[يس: ٣٣].

مِن علامات الله الباهرة التي تدل على وُجوده ووَحدانيته وقُدرته على بعث الناس من قبورهم، إحياءُ الأرض الميْتة.فهذه الأرضُ تَكون كالجثة الهامدة لا حياة فيها ، خالية مِن النبات والْخُضرة ، جافَّة يابسة كئيبة المنظر ، فإذا أنزلَ اللهُ عليها المطرَ ، اهْتَزَّت ، وعادت إلَيها الحياة ، وأنبتت مِن كُل زَوْجٍ بهيج، وأخرجَ اللهُ مِنها حَبًّا كالحِنطة والشَّعير وغَيرهما ، وجعله رِزْقًا للناس ولأنعامهم .

والجديرُ بالذِّكر أن تنكير﴿ آيةٌ ﴾ للتفخيم.كما أن تقديم ﴿ فَمِنْهُ ﴾ في قَوله:﴿ فَمِنْهُ يأكلون ﴾ للدَّلالة على أن الْحَبَّ مُعظَم ما يُؤكَل ، وأكثر ما يُعاش بِه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٦): ((﴿ وآيةٌ ﴾ مرفوعة بالابتداء، وخبرها: ﴿ لهمُ ﴾ ويجوز أن يكون خبرها ﴿ الأرضُ الميْتةُ ﴾ ، والمعنى: وعلامة تَدُلُّهم على التوحيد، وأن الله يبعث الموتى ، إحياءُ الأرض الميْتة . قَوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُ يأكلون ﴾ يعني ما يُقتات مِن الحبوب)) اهـ .

وقال القرطبي (١٥/ ٢٦) : ((نبَّههم اللهُ تعالى بهذا على إحياء الموتى ، وذكَّرهم توحيده ، وكمال قُدرته . وهي الأرض الميْتة أحياها بالنبات وإخراج الْحَبِّ منها ، ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أي : مِنَ الْحَبِّ يأكلون وبه يتغذون)) اهـ .

إن القرآن يُسلِّط الضوءَ على الظواهر الطبيعية الْمُشاهَدة والملموسة . لكنَّ الإنسان من فَرْط رؤيته للأشياء لَم يعد يرى الأشياء ويتفكر فيها ، ويُدرك عَظَمَةَ القُدرة التي تُحرِّكها . وقد جَعل اللهُ إحياءَ الأرضِ الميْتة علامةً على البعث والحشر . فالأرضُ الميْتة التي تكون كالجثة الهامدة ، تراها تعود إلى الحياة ، ويخرج منها الْحَبُّ ، فيأكل الناس ، وتأكل الأنعام والدَّواب .

وعمليةُ الإحياء هذه دليل مادي واقعي يُجريه اللهُ تعالى أمام عيون كُل الناس ، كي يتفكروا في حياتهم وموتهم وبعثهم ، وأن الذي أحيا الأرضَ بعد موتها وأخرج منها الْحَبَّ ، قادرٌ على إحياء الأموات وإخراجهم من قُبورهم .

والقرآنُ ــ بذلك ــ يُرَسِّخ في النفوس المعاني الْمُشاهَدة بالعَيْن المجرَّدة ، كي يُؤمِنَ الناسُ بالمعاني الغَيْبِيَّة التي تُرى بالقلوب لا الأبصار . وهذه الدلائل الباهرة الواضحة للعِيان تُثير في النفس الإنسانية الأسئلة العميقة التي تقود إلى الإيمان بوجود الله وقُدرته المطْلَقة .

ومشهدُ الأرضِ الميْتة كيف تعود إلى الحياة ، ويخرج منها الحبُّ ليأكل الناس يدل على مشهد انبعاث الناس من قبورهم يوم البعث والنُّشور . فالقادرُ على إحياء الأرض الميْتة لَن يَعجز عن إحياء الموتى . والقادرُ على إخراج الْحَبِّ مِن قلب الأرض الميْتة قادرٌ على إخراج الموتى مِن جَوْف قُبورهم . فالْمَشَاهِدُ المحسوسةُ في عالَم الشَّهادة تتجذر في النَّفْس الإنسانية ، كي يَتجذر الإيمانُ بالْمَشَاهِد في عالَم الغَيْب ، التي يُسْمَع عَنها ، وَلَم تُرَ رَأيَ العَيْن .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِن نخيلٍ وأعنابٍ وفَجَّرْنا فِيها مِنَ العُيون ﴾ [يس: ٣٤].

إنَّ اللهَ جَعَلَ في هذه الأرض التي أحياها بعد مَوتها بساتين مِن أنواع النخل والعنب، وأخرجَ في الأرض مِن عُيون الماء.وخُصَّ النخيل والأعناب بالذِّكر لأنهما أعظم الثمار وأعلاها وأنفعها للناس، وفيهما تتَّضح آثار صُنع الله وقُدرته . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٥٣) : ((أي : جَعَلْنا فيها أنهارًا سارحة في أمكنة يَحتاجون إِلَيها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِيَأكلوا مِن ثَمره وما عَمِلَتْهُ أيديهم أفلا يَشكرون ﴾[يس : ٣٥] .

لقد امتنَّ اللهُ على عباده بإيجاد الْحَب والنخيل والأعناب (الزُّروع) لهم ، ثُمَّ ذَكَرَ الثمار وتَنَوُّعها وأصنافها.والمعنى: لِيَأكلوا مِن ثَمَرِ الجنَّات أو الثمر الحاصل بالماء . وتَمَّ تأخير عملية الأكل مِن الثمر عن تفجير العُيون، لأنَّ الماء هو العنصر الأساسي لنموِّ الثمر، والثمر ناتج عن وجود الماء.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٣) : ((وقِيل : الضَّمير ــ في ﴿ ثَمره ﴾ ــ للهِ تعالى على طريقة الالتفات . والإضافة إِلَيه ، لأن الثمر بِخَلْقه)) اهـ .

وهذه النِّعَمُ الإلهيةُ إنما هي رحمةٌ مِن اللهِ وفضلٌ مِنه ، ولَيست بذكاء الناس ولا مَواهبهم ولا عملهم ولا تخطيطهم ولا قُوَّتهم ولا تَعبهم . إنه عَمَل اللهِ وَفْق إرادته ومشيئته وحِكمته ، ولَم تَعْمَلْه أيدي الناس، ولَم يَتدخَّل البشر في صُنعه وإيجاده. ووَفْق هذا التفسيرُ تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، والمعنى: لَم يَعْمله الناس ، بَل عَمِلَه اللهُ تعالى . أي : لِيَأكلوا ما ليس مِن صُنعهم ، ولكنه مِن صُنع الله .

وهناك تفسير آخَر يَعتبر ﴿ ما ﴾ مَوصولة ، والمعنى : لِيَأكلوا مِن ثمره ، ويأكلوا مِمَّا صنعوه بأيديهم كالعصير والدِّبس وغَيرهما ، وكذلك ما غرسوه وحفروه وحرثوه ، وتعبوا فيه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٦) : ((ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، لا موضع لها ، فلا تحتاج إلى صِلة ولا راجع . أي : وَلَم تَعْمَلْه أيديهم مِن الزَّرْع الذي أنبته اللهُ لهم ، وهذا قول

ابن عباس والضَّحاك ومُقاتل . وقال غَيرهم : المعنى : وَمِنَ الذي عَمِلَتْهُ أيديهم ، أي : مِن الثمار، وَمِن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومِمَّا اتَّخذوا مِن الحبوب بعلاجٍ ، كالخبز والدُّهن الْمُستخرَج مِن السِّمْسِم والزيتون . وقِيل : يَرجع ذلك إلى ما يَغرِسُه الناس)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٧) : ((وَقِيل : أراد العُيون والأنهار التي لَم تَعْمَلْها يَد خَلْق مِثل دِجلة والفُرات والنِّيل ، ونَحْوها)) اهـ .

وعلى الناسِ أن يَشكروا الله على نِعَمه التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، ويَعبدوه ، وَحْدَه لا شريك له.

والآية : ﴿ أفلا يَشكرون ﴾ لِتَوبيخهم وتَقريعهم لعدم شُكرهم لله على نِعَمه. والمعنى : فَهَلاَّ يَشكرونه على هذه النِّعَم الكثيرة والجليلة ، ويُوحِّدونه .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧/ ١٧٩) : ((﴿ أفلا يَشكرون ﴾ أي : أَيُشَاهِدُون هذه النِّعَم أو أيتنعَّمُون بها ، فلا يَشكرون الْمُنعِم بِها ؟)) اهـ .

والآيةُ ﴿ أفلا يَشكرون ﴾ استفهام تعجيبي ، لأنهم تركوا الشُّكرَ على النِّعَم الإلهية . والفِعلُ المضارع ﴿ يَشكرون ﴾ يُفيد الاستمرار التَّجَدُّدي. والنِّعَم الإلهيةُ كثيرة ومُتتالية ومستمرة ومُتجدِّدة في كُل وقت وحِين ، فلا بُدَّ مِن شُكرها باستمرار وبدون انقطاع . والعجيبُ أنهم لا يَشكرون الله، ولا يَعْرِفُون قَدْرَ نِعَمه . والآيةُ تَحُثُّ على شُكر الله وتَدعو إلى تعظيمه واحترام نِعَمه .

والواقعُ يقول إنهم لَم يَشكروه ، لأنهم مُشرِكون به ، ولا يُوحِّدونه. وجاحدُ التَّوحيدِ هو بالضَّرورة جاحدٌ للنِّعَم الإلهية، حتى لو شَكَرَ اللهَ بلسانه . إذ إن شُكر الله يتجلى في عبادته وَحْدَه، بلا شريك ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد . وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٤٠) : ((﴿ أفلا يَشكرون ﴾ يقول : أفلا يَشكر هؤلاء القَوم الذين رزقناهم هذا الرِّزق مِن هذه الأرض الميْتة التي أحييناها لهم ، مَن رَزَقَهم ذلك وأنعمَ عليهم به ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سُبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ وَمِنْ أنفُسِهِم وَمِمَّا لا يَعْلَمُون ﴾ [يس: ٣٦] .

نَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن قَول الكفار الذين يَغرَقون في نِعَمه ويَعبدون غَيْرَه ، ولا يشكرونه . وهذا أمرٌ يَدعو إلى التعجب . والآيةُ تأمرُ العبادَ بِتَنْزيه الله عمَّا لا يَليق به ، وتقديسه ، وتعظيمه . وبما أن اللهَ نَزَّهَ نَفْسَه عَن كُل نقص وعَيب ، فيجب على العباد تَنْزيه الله كما نَزَّهَ نَفْسَه .

لقد خَلَقَ اللهُ الأصنافَ والأنواع من الأشجار والثمار والحبوب وغَير ذلك،وكُل صِنف مختلف الألوان والطُّعوم والأشكال . وخَلَقَ الأزواجَ مِن أنفسهم وهُم الذكور والإناث ، وخَلَقَ مخلوقات

عجيبة غريبة في الأرض والبحر والسماء ، لا يَعرفها الناسُ ، ولا يُمكن أن يَعرفوها ، لعدم قُدرتهم على الإحاطة بها ، وعدم وقوفهم على عِلْمها . وهذا يدل على قُدرة الله المطْلقة ، وعِلمه الذي أحاطَ بكل شيء ، وسَعَة مُلكه وسُلطانه ، وتفرُّده بالخلق والإيجاد . ومَن كان هذا شأنه ، فيجب تَوحيده ، وعدم الإشراك به . ومهما بَلَغَ الناس مِن العِلم والمدنية والحضارة والتقدم ، سيظل عِلْمُهم قاصرًا ، وقُدرتهم على الإدراك محدودة، لأن الإنسان كائن ضعيف عاجز محصور في الزمان والمكان، وقواه العقلية وطاقته البدنية لها حدود لا يمكن تجاوزها.وعَدم إحاطة الناس بهذه المخلوقات يدل على ضعفهم وعَجْزهم رغم كُل التقدم الحاصل في الاختراعات والاكتشافات ووسائل التكنولوجيا . وعدمُ إحاطتهم بهذه المخلوقات لا يُؤثِّر على حياتهم ، لأن ذلك لا يَتعلق بمصالحهم الدينية والدُّنيوية . وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ سُبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها ﴾ نَزَّهَ نَفْسَه سُبحانَه عن قَول الكفار ، إذْ عبدوا غَيْرَه مَعَ ما رَأَوْهُ مِن نِعَمه وآثار قُدرته . وفيه تقدير الأمر ، أي : سَبِّحُوه ونَزِّهُوه عَمَّا لا يَليق بِه . وقِيل : فيه معنى التَّعجب ، أي : عَجَبًا لهؤلاء في كُفرهم مَعَ ما يُشاهدونه مِن هذه الآيات . وَمَن تَعَجَّبَ مِن شَيء قال : سُبحانَ الله ! . والأزواج الأنواع والأصناف، فكل زَوج صِنف ، لأنه مختلف في الألوان والطُّعوم والأشكال والصِّغَر والكِبَر فاختلافها هو ازدواجها. وقال قتادة : يعني الذكر والأنثى . ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ ﴾ يعني مِن النبات لأنه أصناف.﴿ وَمِنْ أنفُسِهِم ﴾ يعني:وَخَلَقَ مِنهم أولادًا أزواجًا ذُكورًا وإناثًا. ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُون ﴾ أي : مِن أصناف خَلْقه في البَر والبحر والسماء والأرض ، ثُمَّ يَجوز أن يكون ما يَخلقه لا يَعْلمه البشر وتَعْلمه الملائكة ، ويَجوز ألا يَعْلمه مخلوق . ووجه الاستدلال في هذه الآية ، أنه إذا انفردَ بالخلق ، فلا ينبغي أن يُشْرَكَ به)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وآيةٌ لهمُ الليلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهارَ فإذا هُم مُظلِمون ﴾[يس : ٣٧] .

يُقدِّم اللهُ دليلاً على وَحدانيته ، وقُدرته ، وأن كُل شيء خاضع لإرادته ، ومَقهور في قبضته ، وأن الله قادر على فِعل ما يشاء. فاللهُ يَنْزِعُ مِن الليلِ النهارَ ، ويَفصله ويُزيله ويُخرجه ، فيختفي ضَوءُ النهار تمامًا ، ويحل الظلام ، ويَدخل الناسُ في الظلام بسبب مجيء الليل . والمعنى : نَنْزِعُ النهارَ فنذهب بِه ، ونأتي بالليل . والسَّلْخُ هو الإزالةُ عن المكان ، ومُستعار مِن سَلْخ الجِلْد .

ودليلٌ لهم على وَحدانية الله وقُدرته ، خَلْق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه . وهُما يتعاقبان بلا خلل ولا اضطراب . يجيء الليلُ فيذهب النهارُ ، وينتشر الظلام لراحة الناس وسُكونهم ، ويجيء النهار فيذهب الليل ، وينتشر الضياءُ لحركة الناس ونشاطهم . واللهُ يُخْرِجُ النهارَ مِن الليل ، فإذا

الناس داخلون في الظلام . والآيةُ تُوضِّح أن الله خلق الليلَ قبل النهار ، وأن الظلام أقدم مِن الضَّوء ، وأن الظلام هو الأصل، والضَّوء عارض. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ١٧): ((قَوله تعالى:﴿وآيةٌ لهمُ الليلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهارَ ﴾ أي : وعلامةٌ لهم تدل على توحيدنا وقُدرتنا ﴿ الليلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهارَ ﴾ . قال الفَرَّاء: نرمي بالنهار عنه. و﴿ مِنْهُ ﴾ بمعنى عَنْه . وقال أبو عُبَيدة: نُخْرِج منه النهارَ ونُميِّزه مِنه فتجيء الظُّلْمة. قال الماوردي : وذلك أن ضَوء النهار يتداخل في الهواء فَيُضيء ، فإذا خرج منه أظلم. وقَوله: ﴿ فإذا هُم مُظلِمون ﴾ أي: داخلون في الظلام)).

وعن عُمر بن الخطاب_ رضي اللهُ عنه_قال: قال رسولُ الله ﷺ : ((إذا أقبلَ الليلُ مِن هَاهُنا، وأدبرَ النهارُ مِن هَاهُنا ، وَغَرَبَت الشمسُ ، فقد أفطرَ الصائم))[19].

والمعنى:بِغُروب الشمس،يخرج النهارُ، ويَدخل الليل، وينتشر الظلام، فإذا الناس داخلون فيه.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٢٠٩) : ((معناه : انقضى صَوْمُه وَتَمَّ . ولا يُوصَف الآن بأنه صائم ، فإن بغروب الشمس خَرج النهار ، ودخل الليل ، والليل ليس مَحَلاً للصَّوم . وقَوله ﷺ :" أقبلَ الليل... وأدبرَ النهار ... وغربت الشمس " . قال العلماء : كُل واحد مِن هذه الثلاثة يَتضمَّن الآخرَيْن ويُلازمهما ، وإنما جمع بينها لأنه قد يكون في وادٍ ونَحْوه ، بحيث لا يُشاهِد غُروب الشمس ، فيعتمد إقبالَ الظلام وإدبار الضِّياء ، والله أعلم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والشمسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ذَلِكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ ﴾[يس: ٣٨] [20].

---

(١٩) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٩١) برقم (١٨٥٣) ، ومسلم (٢/ ٧٧٢) برقم (١١٠٠) .

(٢٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٧) : ((﴿ والشمسُ ﴾ أي : وآيةٌ لهم الشمس ﴿ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ وفيه أربعة أقوال : أحدها إلى موضع قَرارها. روى أبو ذَر قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن قَوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ . قال : " مُستقرُّها تحت العرش " وقال : " إنها تذهب حتى تسجد بين يَدَي رَبِّها ، فتستأذن في الطُّلوع ، فَيُؤذَن لها ". والثاني أن مستقرها مَغربها لا تجاوزه ولا تقتصر عنه قاله مجاهد . والثالث لوقت واحد لا تعدوه، قاله قتادة. وقال مقاتل: لوقت لها إلى يوم القيامة. والرابع تسير في منازلها حتى تنتهيَ إلى مُستقرها، الذي لا تجاوزه، ثُمَّ ترجع إلى أول منازلها، قاله ابن السائب. وقال ابن قُتَيبة : إلى مُستقر لها ، ومستقرها أقصى منازلها في الغروب، وذلك لأنها لا تزال تتقدَّم إلى أقصى مغاربها ثُمَّ ترجع.وقرأ ابن مسعود وعِكرمة وعلي بن الحسين والشيزري عن الكِسائي: لا مستقر لها ، والمعنى أنها تجري أبدًا ، لا تثبت في مكان واحد)) .

وَمِن العلامات الإلهية الباهرة التي تدل على وَحدانية الله وقُدرته ، أن الشمس تَجري إلى مَوضع قرارها ، وهو حَد مُعيَّن لا تتجاوزه ولا تتعدَّاه . وقد شُبِّه بِمُسْتَقَر المسافر إذا قَطَعَ مَسيرَه . وجَرْيُ الشمس إلى حَد مُعيَّنٍ تقديرُ اللهِ العزيزِ في مُلْكه وسُلطانه ، الغالبِ القاهرِ ، فلا يُغالَب ولا يُخَالَف، ولا يُعْتَرَض عليه ولا يُنَاقَش ، العليمِ بمصالح خَلْقه، فلا يَخفى عليه شَيء ، أحاطَ عِلْمُه بالحركات والسَّكَنات، وقد قَدَّرَ حَرَكَةَ الشمس وَفْق نظام دقيق ، لا خلل فيه ولا اضطراب. وهذا دليل على قُدرة الله وحِكمته،وأنه الْمُتَفَرِّد بِتَدبير شؤون خَلْقه،وهذا يَعني أنه الإله المستحق للعبادة وَحْدَه. وعَن أبي ذَر ــ رضي اللهُ عنه ــ قال: قال النبيُّ ﷺ لأبي ذَر حِينَ غَرَبَت الشمس : ((تدري أين تذهب ؟)). قلتُ : اللهُ ورسوله أعلم. قال: ((فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فَيُؤذَن لها،ويُوشِك أن تسجد فلا يُقْبَل مِنها،وتَستأذن فلا يُؤذَن لها،يُقال لها:ارجعي مِن حَيث جِئتِ، فَتَطْلُع مِن مَغربها،فذلك قَوله تعالى:﴿والشمسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ذَلِكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ﴾))[21].

وعن أبي ذَر قال : سَألتُ النبيَّ ﷺ عن قَوله تعالى : ﴿ والشمسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ . قال : ((مُسْتَقَرُّها تحت العرش))[22].

إنَّ الشمس خاضعة لله، ومُنقادة لأمره، وتابعة لِحُكمه ، وهي مُسخَّرة لتحقيق مصالح الخلائق. وعلى المؤمن التسليم بهذه الأحاديث دُون الخوض في كيفيتها ، لأنه غَير مُطالَب بذلك ، ولا يَمْلِك القُدرة على معرفة تفاصيل هذه العملية. وقال مُحقِّق صحيح البخاري : (((تسجد تحت العرش) تشبيه بغروبها وهي منقادة لأمر الله تعالى وتسخيره ، بانقياد الساجد مِن الْمُكلَّفين ، وهو يَخِرُّ إلى أسفل مُعْلِنًا تمام انقياده ، وغاية خضوعه لأمر رَبِّه جَلَّ وعلا . وكَوْن ذلك تحت العرش ، فلأن السماوات والأرض وغيرهما مِن العوالم كُلها تحت العرش.ففي أي موضع سقطت وغربت فهو تحت العرش . على أن هذا الكلام لا يُفسِّر الظواهر الكَونية ، وإنما يُشير إلى الأسرار الكامنة وراء الظواهر ، والتي أودعها اللهُ عَزَّ وجل هذه العوالم ، فهي مِن الغَيب الذي اختصَّ اللهُ تعالى بعِلْمه ، وأطلع على شيء منه بعضَ مَن اصطفاهم مِن خَلْقه وعلى رأسهم خَاتَم النَّبيين ﷺ ، لِيُخبروا بذلك مَن أُرْسِلوا إلَيهم ، اختبارًا لتصديقهم ، وتمحيصًا ليقينهم ، وتثبيتًا لإيمان مَن أسلم قلبُه لله

(٢١)رواه البخاري(٣/ ١١٧٠) برقم (٣٠٢٧) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٣٨) برقم (١٥٩) .

(٢٢) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٨٠٦) برقم (٤٥٢٥) ، ومسلم (١/ ١٣٨) برقم (١٥٩) .

تعالى مِنهم،ولذا نجد أصحاب رسول الله ﷺ وهو يُخبرهم بذلك، لا يستفسرون عنه ، ولا يستوضحون، وإنما يُصدِّقون ويستسلمون ويُفوِّضون عِلْمَ ما خُفِيَ عنهم إلى الله عَزَّ وجل ، وإلى رسوله ﷺ ، ولا يُكلِّفون أنفسهم عناء البحث فيما سكت عنه الكتاب والسُّنة ولا يتطاولون إلى ما أدركت عقولهم أنه فوق قَدْرهم وطاقتهم بعد أن آمنوا بالله تعالى رَبًّا وبالإسلام دِينًا وبمحمد ﷺ نَبِيًّا ورسولاً. ونحن معاشر المؤمنين الصادقين يسعنا ما وَسِعهم لا سِيَّما وهم الرعيل الأول الأُسوة الحسنة والنموذج الإيماني المثالي الصادق ... . وما أشار إليه ﷺ مِن رُجوع الشمس وطُلوعها مِن مَغربها ، هو مِن العلامات الكُبرى لِقُرب قِيام الساعة ، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والقمرَ قَدَّرْناهُ مَنازلَ حتى عادَ كالعُرجونِ القديمِ ﴾[يس : ٣٩] .

تقديرُ الكلام : وآيةٌ لهم القمر . يعني : وَمِن العلامات الإلهية الباهرة التي تدل على وَحدانية الله وقُدرته، أنَّ اللهَ قَدَّرَ القمر مَنازلَ مِن حَيث سَيْره ، وهي ثمانية وعشرون مَنْزِلاً [23]، في ثمان وعشرين ليلة مِن كُل شهر ، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يَوْمًا ، وليلة إن كان تسعة وعشرين يَوْمًا . ويَنْزِل القمرُ كُل ليلة في مَنْزِل مُحدَّد ، لا يَتعدَّاه ولا يتقاصر عنه ، وذلك مِن أول الشهر حتى آخره .

إنَّ اللهَ قَدَّرَ القمرَ مَنازلَ ، وجعله يَنقص تدريجيًّا، وإذا وَصَلَ القمرُ إلى آخر المنازل دَقَّ وتَقَوَّس واصفرَّ ، وعادَ كالعُرجون القديم (العتيق). والعُرجون هو عِذْق النخلة ، فإذا صارَ قديمًا وعتيقًا ، يَبِسَ وَاعْوَجَّ وتَقَوَّسَ واصفرَّ . وقد شَبَّهَ اللهُ بِه القمرَ في آخر المنازل .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٠) : ((فإذا صار القمر إلى آخر منازله دَقَّ ، فعاد كالعُرجون ، وهو عُود العِذْق ، الذي تركته الشماريخ ، فإذا جَفَّ وقَدُمَ يُشبه الهلال . قال ابن قُتَيبة : والقديم هاهُنا الذي قد أتى عليه حَوْل (عام) ، شُبِّه القمر آخر ليلة يَطْلُع به)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ [يس : ٤٠] .

---

(٢٣) قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٤) : ((وهي ثمانية وعشرون: الشَّرَطان ، البُطَين، الثُّرَيَّا ، الدَّبَران ، الْهَقْعَة ، الْهَنْعَة ، الذِّراع ، النَّثْرَة ، الطَّرْف ، الجَبْهة ، الزُّبرة ، الصَّرْفَة ، العَوَّاء ، السِّماك ، الغَفْر، الزُّبانى ، الإكليل ، القَلْب ، الشَّوْلَة ، النَّعائِم ، البَلْدَة ، سَعْد الذَّابح ، سَعْد بُلَع ، سَعْد السُّعُود ، سَعْد الأَخْبِيَة ، فَرْغ الدَّلْو الْمُقَدَّم ، فَرْغ الدَّلْو الْمُؤخَّر ، الرِّشا وهو بَطْن الحوت)) .

مِن علامات قُدرة الله وحِكمته أن جَعَلَ للشمس حَدًّا لا تتجاوزه ولا تُقصِّر عنه،وكذلك القمر. والشمسُ والقمرُ لا يَجتمعان مَعًا. والنهار لا يَدخل على الليل قبل انقضائه ، والليل لا يَدخل على النهار قبل انقضائه.كما إن نُور الشمس وضوء القمر مختلفان عن بعضهما البعض، ولا يَختلطان ، ولا يتعارضان.والليل والنهار مُتعاقبان وَفْق نظام إلهيٍّ دقيق ومُحْكَم ، ولا يجيء أحدهما قبل وقته . والشمس والقمر مُسخَّران وخاضعان لِقُدرة اللهِ ، ولا يتحرَّكان في السماء لِوَحْدهما . وسُلطان الشمس بالنهار ، وسُلطان القمر بالليل ، فلا فوضى ولا اضطراب . وأيُّ خلل في هذا النظام سَيُدَمِّر حياةَ الإنسان والكائنات الحية ، ويَجعل الحياة على الأرض مُستحيلة . وكُلٌّ مِن الشمس والقمر والنجوم يَسيرون ويَدورون في فَلَك السماء بسهولة وانبساط دُون مشكلات ولا تعارُض. وقد قالَ اللهُ : ﴿ يَسْبَحُون ﴾ ولَم يقل : تسبح، لأنه وصفها بِفِعل مَن يَعْقِل ، ونزلوا مَنْزلة العقلاء.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:أحدهما أنهما إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يَدَي الآخَر ، فلا يَشتركان في المنازل، قاله ابن عباس. والثاني لا يُشْبِه ضَوء أحدهما ضَوْء الآخر، قاله مجاهد.والثالث لا يَجتمع ضَوء أحدهما مع الآخر،فإذا جاء سُلطان أحدهما ذهب سُلطان الآخَر ، قاله قتادة . فيكون وجه الحكمة في ذلك أنه لو اتَّصلَ الضوء لَم يُعْرَف الليل . قَوله تعالى : ﴿ ولا الليلُ سابقُ النهارِ ﴾ ... وفيه قَولان : أحدهما لا يَتقدَّم الليل قبل استكمال النهار . والثاني لا يأتي ليل بعد ليل مِن غَير نهار فاصل بينهما)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وآيةٌ لهم أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيتَهُم في الفُلْكِ المشحون ﴾[يس : ٤١] .

ودليلٌ لهم ، وعلامةٌ على وَحدانية الله وقُدرته وحِكمته ، أنَّ اللهَ حَمَلَ آباءهم الأقدمين في سِفينة نُوح الممتلئة. وقد كانوا في أصلابهم. وقد نَسَبَ اللهُ الذُّرِّيةَ إلى الْمُخَاطَبِين (كفار مكة) لأنهم مِن جِنسهم . وتَمَّ ذِكْرُ ذُرِّيتهم دُونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، وأعظم في التَّعجيب مِن قُدرة الله ، حيث أنقذَ آباءهم مِن الغرق . واللهُ يَمُنُّ عليهم ، ويُذكِّرهم بِنَعمته العظيمة ، كَي يُوحِّدوه ويَشكروه . والمقصود بِ﴿ لهم ﴾كفار مكة أو كفار العرب أو الكفار على الإطلاق الموجودون في عصر النبيِّ محمد ﷺ . وَوَفْقَ هذه الآية فإن الآباء ذُرِّية ، والأبناء ذُرِّية . أي إنَّ اسم " الذُّرِّية " يَقع على الآباء والأبناء مَعًا . وسُمِّيَ الآباء ذُرِّية لأن مِنهم ذرأ الأبناء .

إنَّ اللهَ يُقدِّم للكفار دليلاً وبُرهانًا على وَحدانيته وقُدرته وحِكمته ، حيث سَيَّرَ السُّفنَ في البحار ، تَنقلهم هُم وأولادهم مِن مكان إلى آخَر . وهذه السُّفن ممتلئة بأغراضهم وبضائعهم

وأمتعتهم وتجارتهم ، تسير على الماء ولا تغرق ، والرِّياح تُحرِّكها بأمر اللهِ تعالى . وهؤلاء مِن نَسْل مِن حُمِلَ مَعَ نُوح ﷺ ، وكانوا في أصلابهم . وهذه الآيةُ الإلهيةُ الباهرةُ ينبغي أن تَدفعهم إلى عبادة الله وَحْدَه، لأن الآية عِبرة لهم، ونِعمة عليهم، وإنذار لهم. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٥٦): ((يقول تبارك وتعالى : ودلالة لهم أيضًا على قُدرته تبارك وتعالى، تسخيره البحر ليحمل السُّفن ، فَمِن ذلك بَل أوَّله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي أنجاه اللهُ تعالى فيها بِمَن معه مِن المؤمنين الذين لَم يبق على وجه الأرض مِن ذُرِّيَّة آدم عليه الصلاة والسلام غَيْرُهم ، ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وآيةٌ لهم أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيتَهُم ﴾ أي آباءهم ﴿ في الفُلْكِ المشحون ﴾ أي : في السفينة المملوءة من الأمتعةِ،والحيواناتِ التي أمره اللهُ تبارك وتعالى أن يَحمل فيها مِن كُلٍّ زَوْجَيْن اثنين)).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٥) : ((﴿ وآيةٌ لهم أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيتَهُم ﴾ أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجارتهم ، أو صبيانهم ونساءهم الذين يَستصحبونهم ، فإن الذُّرِّية تقع عليهنَّ ، لأنهنَّ مزارعها ، وتخصيصهم لأن استقرارهم في السُّفن أشَق ، وتماسكهم فيها أعْجَب ... . ﴿ في الفُلْكِ المشحون ﴾ المملوء . وقِيل : المراد فُلْك نُوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وحَمْلُ اللهِ ذُرِّياتهم فيها أنه حَمَلَ فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هُم وذُرِّياتهم. وتخصيص الذُّرِّية لأنه أبلغ في الامتنان ، وأدْخَل في التَّعَجُّب مع الإيجاز)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وخَلَقْنا لهم مِن مِثْلِهِ ما يَرْكَبُون ﴾[يس : ٤٢] .

لقد مَنَّ اللهُ على هؤلاء الكافرين وأنعمَ عليهم تَفَضُّلاً مِنه ورحمة ، بأن خَلَقَ لهم سُفُنًا يَركبون فيها ، وتنقلهم في البحر ، وتَحمل أمتعتهم وأغراضهم وتجارتهم . وهذه السُّفُن جُعِلَت على مِثْل سفينة نوح ﷺ في الهيئة والتصميم والشكل ، وذلك بتعليم الله وإرشاده لهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وخَلَقْنا لهم مِن مِثْلِهِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما مِثل سفينة نُوح ، وهي السُّفن . روى هذا المعنى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ، وبه قال الضَّحاك وأبو مالك وأبو صالح . والمراد بهذا ذِكْر مِنَّته بأن خَلَقَ الخشبَ الذي تُعمَل منه السُّفن. والثاني أنها الإبل خَلَقَها لهم للرُّكوب في البَر ، مِثْل السُّفن المركوبة في البحر ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وعِكرمة ، وعن الحسن وقتادة كالقولين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن نَشَأ نُغرِقْهُم فلا صَرِيخَ لهم ولا هُم يُنقَذُون ﴾[يس : ٤٣] .

إن يَشَأ الله يُغرِق هؤلاء المشركين إذا رَكبوا السُّفنَ في البحر،فلا مُغيث لهم يُغيثهم إن أرادَ اللهُ إغراقَهم ، ولا شَيء يُنقِذهم مِمَّا أصابهم. أي : لا مُغِيث لهم ولا مُجِير، ولا هُم يَنجون من الغرق ،

ولا شَيء يُخلِّصهم مِن الكَرْب والشِّدة والمكروه. وهذا يدل على أن إرادة الله نافذة في كُل شيء، ولا يقف أمامها شَيء . ومَن أرادَ اللهُ إهلاكَه فهو هالك لا مَحالة ، ولَن يُنقِذه شيء ولَن يَحميَه . واللهُ يَمُنُّ عليهم ويُذكِّرهم بهذه النِّعمة الإلهية الجليلة ، فهو لَم يُغرِقهم في البحر مع قُدرته على ذلك ، وإنما أوصلهم إلى بَر الأمان . فينبغي عليهم أن يَشكروا اللهَ على هذه النِّعمة العُظمى ، وحقيقةُ شُكر الله تتجلى في عبادته وَحْدَه ، لا شريك له .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٥) : ((﴿ وإن نَشَأ نُغرِقْهُم فلا صَرِيخَ لهم ﴾ فلا مُغيث لهم يَحرسهم عن الغرق ، أو فلا إغاثة كَقَولهم : أتاهم الصَّريخ ﴿ ولا هُم يُنقَذُون ﴾ يَنجون مِن الموت بِه)) اهـ. وقال العسكري في جمهرة الأمثال(٢/ ٤٠): ((وفي القرآن ﴿ فلا صَرِيخَ لهم ﴾ أي : لا مُغيث لهم ، وإنما سُمِّيَ كُل واحد مِنهما الْمُغيث والْمُستغيث صَريخًا ، لأن كُل واحد منها يصرخ بصاحبه ، هذا بالدعاء ، وذلك بالإجابة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا رَحمةً مِنَّا وَمَتاعًا إلى حِين ﴾[يس : ٤٤] .

هذا استثناء منقطع . تقديرُه : ولا هُم يُنقَذُون إلا أن نرحمهم ونُمتِّعهم إلى آجالهم التي تَنقضي بالموت. لا شَيء يُنقِذهم إلا أن يَتغمَّدهم اللهُ برحمةٍ مِنه . ولا يُنجِّيهم إلا رحمة الله لهم التي تُغيثهم وتُنقِذهم ، وتَمتيعه سُبحانَه لهم بلذات الحياة إلى انقضاء آجالهم (الموت) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٥٦) : ((﴿ إلا رَحمةً مِنَّا ﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره : ولكن برحمتنا نُسيِّركم في البَر والبحر ، ونُسلِّمكم إلى أجلٍ مُسمًّى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَتاعًا إلى حِين ﴾ أي : إلى وقت معلوم عِند الله عَزَّ وَجَلَّ))اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٥) : ((﴿ إلا رَحمةً مِنَّا ﴾ قال الكِسائي : هو نَصْب على الاستثناء. وقال الزَّجاج : نَصْب مفعول مِن أجله، أي: للرحمة ﴿ وَمَتاعًا ﴾ معطوف عليه ﴿ إلى حِين ﴾ إلى الموت، قاله قتادة . يحيى بن سلام: إلى القيامة، أي: إلا أن نرحمهم ونُمتِّعهم إلى آجالهم ، وأن الله عَجَّلَ عذاب الأمم السالفة، وأَخَّرَ عذاب أُمَّة محمد ﷺ وإن كَذَّبوه، إلى الموت والقيامة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُل أفَرَأيْتُم ما تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إنْ أرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفاتُ ضُرِّهِ أوْ أرادني برحمةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحمتهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكلُ الْمُتَوَكِّلُون ﴾ [الزُّمَر : ٣٨] .

إن المشركين يعترفون أن الله خالق العالَم ، ومعَ هذا يُشركون بِه ، ويَعبدون معه غَيْرَه ، مِمَّا لا يملك نفعًا ولا ضَرًّا . وهذا يُشير إلى جهلهم وغفلتهم وعِنادهم وأهوائهم ، فكيفَ يَتركون تَوحيد

الله الخالق الرازق ــ وهُم يَعترفون بذلك ــ ، ويَعبدون أصنامًا عاجزة لا تَخلق ولا تَرزق ولا تنفع ولا تضرُّ ؟! . لقد اتَّبعوا آباءهم وقلَّدوهم بشكل أعمى ، فخسروا عُقولهم ، وأضاعوا دُنياهم وآخرتهم مَعًا . وكيف يُخوِّفونك يا محمد بآلهتهم الباطلة العاجزة ، وأنتَ رسول الله الذي خلق السماوات والأرض ، وكُل شيء خاضع له ، وإرادته نافذة في كُل شيء ؟ . كيف يُخوِّفونك بالمخلوق العاجز يا محمد ، وأنتَ رسول الله الخالق الرازق المهيمِن على كُل شيء ؟ .

لقد أقامَ اللهُ الْحُجَّةَ على المشركين ، وقَدَّمَ الدليلَ المتوافقَ مع العقل والفِطرة ، على بُطلان عبادة الأصنام ، وأنها آلهة باطلة مخلوقة عاجزة عن الخلق والإيجاد .

وَلَئِن سألتَ يا محمد هؤلاء المشركين الذين يَعبدون الأصنامَ والأوثانَ ، ويتَّخذونها آلهةً مع الله: مَن خلق السماواتِ والأرض ؟ ، فإن جوابهم : اللهُ خالقهما . وذلك لوضوح الأمر ، وقيام الدليل الظاهر الواضح على أن الله وَحْدَه هو الخالق .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٦/ ٢٨٢):((إنَّ العِلم بوجود الإله القادر الحكيم ، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق ، وفِطرة العقل شاهدة بِصِحَّة هذا العِلم ، فإن مَن تَأمَّل في عجائب أحوال السماوات والأرض ، وفي عجائب أحوال النبات ، والحيوان، وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحِكَم الغريبة ، والمصالح العجيبة ، عَلم أنه لا بُد مِن الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم ، ولهذا أقرَّ المشركون بوجود الله)) اهـ .

وليس يَصِحُّ في الأذهان شَيء إذا احتاجَ النهارُ إلى دَليل

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٦١) : ((﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ . ذَكَرَ سُبحانَه اعترافهم إذا سُئلوا عن الخالق ، بأنه الله سُبحانَه ، مع عبادتهم للأوثان واتخاذهم الآلهة مِن دون الله . وفي هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غَفلة شديدة وجَهالة عظيمة، لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم ولِمَا يَعبدون مِن دُون الله ، هو الله سُبحانَه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكُل، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة ؟. وقد كانوا يُذكَرون بِحُسْن العقول ، وكمال الإدراك ، والفِطنة التامَّة ، ولكنهم لَمَّا قَلَّدوا أسلافهم وأحسنوا الظن بهم ، هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل)) اهـ .

لقد أمرَ اللهُ محمدًا أن يُوبِّخهم بعد اعترافهم بأن الله هو خالق العالَم وإقرارهم بذلك ، دُون ضغط ولا إكراه . فَقُل لهم يا محمد ــ تَوبيخًا وتقريعًا وتَبكيتًا ــ : أخبروني عن الأصنام والأوثان (آلهتكم) التي تَعبدونها مِن دُون الله . إن أرادَ اللهُ أن يُصيبني بِشِدَّة وبلاء ، هل تستطيع هذه

الآلهة المزعومة دَفْعَ السُّوء عَنِّي ؟ . وإن أرادَ اللهُ أن يُنعِم عليَّ بالرخاء وسَعَة العَيش والعافية في بدني وكثرة الأموال والأولاد،هل تستطيع هذه الآلهة المزعومة أن تَمنع عني هذه الرحمة؟.وهذان سؤالان منطقيان واضحان قائمان على البُرهان المتوافق مع العقل، بدون شتائم ولا جَعجعة ولا صراخ. والجوابُ مَحذوف ، لأن الجواب مَعروف وواضح ، والسامع يعرف الجواب . وسياقُ الكلام يدل عليه. فسيقولون: لا، لا تكشف السُّوء ، ولا تَمنع الرحمة . أي إنها لا تستطيع شيئًا من الأمر. وبذلك ، يكون المشركون قد أقاموا الْحُجَّة على أنفسهم . والاعترافُ سَيِّد الأدلة .

وفي تفسير القرطبي (١٥/ ٢٢٦):((قال مُقاتل : فسألهم النبيُّ ﷺ ، فسكتوا . وقال غَيره : قالوا : لا تدفع شَيْئًا قَدَّره الله ، ولكنها تَشْفَع)) اهـ .

وهذا يدل على عَجْز الأصنام والأوثان ، والعاجز لا يَكون إِلَهًا . إذن ، فالأصنام والأوثان آلهة باطلة عاجزة لا تَنفع ولا تضرُّ ، فكيفَ تَعبدونها مِن دُون الله وتجعلونها شريكةً للهِ الخالق الرازق؟ . وهذا يدل على أن المشركين يتَّبعون أهواءهم بِغَير عِلْم ، ويغرقون في العِناد والأوهام والتقليد الأعمى ، ويسيرون على خُطى آبائهم بلا دليل ولا بُرهان ولا حُجَّة .

والجديرُ بالذِّكر أن اللهَ قال : ﴿ كَاشِفاتُ ﴾ و﴿ مُمْسِكاتُ ﴾ على التأنيث ، لأن المشركين يصفون آلهتهم (اللات والعُزَّى ومَنَاة) بالأنوثة ، وهذا تنبيه على ضعفها الشديد ، لأن الإناث ضعيفات . وفيه أيضًا تهكُّم وسُخرية بالمشركين وآلهتهم الأُنثوية الباطلة .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ أن النبيَّ ﷺ قال : ((وَاعْلَمْ أن الأُمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لَم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ لك ، ولو اجتمعوا على أن يَضُرُّوك لَم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفعت الأقلامُ ، وجَفَّت الصُّحف))[24].

إن الناس لا يَملكون من أمرهم شيئًا ، فهُم مخلوقات عاجزة لا تستطيع جَلْب الخير ، ولا دَفْع الشر . ومَن كان هذا شأنه فهو غارق في عَجْزه . ولو اجتمعت الأُمَّة على نفعِ أحدٍ ما، لَم يَقدروا على فِعل ذلك إلا إذا كان مكتوبًا عند الله تعالى. فما أراده اللهُ كان ، وما لَم يُرِدْه لَم يَكُن ، وإن كُل شيء أراده اللهُ وَقَع ، وكُل شيء لَم يُرِدْه اللهُ لَم يَقع . والناس يَتحرَّكون في عالَم الأسباب والْمُسَبِّبات. لكنَّ المسيطِر على السبب والمسبِّب هو اللهُ ، ولا يَقع في مُلكه إلا ما شاء . ولو اجتمعت الأُمَّة على جَلْب الضَّرر لأحدٍ ، لَم يَقدروا على فِعل ذلك إلا إذا كان مكتوبًا عند الله .

(٢٤) رواه أحمد في مسنده(١/ ٢٩٣)، والترمذي في سُننه (٤/ ٦٦٧)،وقال:((حسن صحيح)).

فالنافعُ والضار هو الله وَحْدَه . أمَّا قَول النبيِّ ﷺ : ((رُفعت الأقلامُ ، وجَفَّت الصُّحف)) ، فهو تأكيدٌ واضح على أن ما تَمَّ قد تَمَّ ، ولا تبديل لِمَا سَبَق ، ولا يكون خِلاف ذلك ، وأن الأمر قد كَمُل بلا زيادة ولا نقصان ، وانتهى الموضوع ، وقُضِيَ الأمرُ .

وَلَمَّا أفحمهم اللهُ، وكشف باطلهم، وأقام الْحُجَّة عليهم، قال إرشادًا لرسوله محمد ﷺ : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكلُ الْمُتَوَكِّلُون ﴾ .

قُل يا محمد : اللهُ كافيني، ولا أثق إلا بِه ، ولا أعتمد إلا عليه ، ولا ألتفت إلى غَيره. واللهُ كافي مَن تَوَكَّلَ عليه . وعليه يَعتمد المعتمِدون، ويثق به الواثقون، لِعِلْمهم بأن الله خالق كُل شيء ، والمسيطر على كُل شيء ، وكُل ما سِوى الله فهو مخلوق عاجز ضعيف خاضع لإرادة الله ومَشيئته وحِكمته . والمقصودُ إفحام المشركين وإقامة الْحُجَّة عليهم بالدليل القاطع والبُرهان الساطع ، فَهُم يَعبدون أصنامًا مخلوقة لا تضرُّ ولا تَنفع، ويَتركون عبادةَ الله وَحْدَه، وهو الإله الخالق القادر ، الذي قامت الأدلة والبراهين على وَحدانيته وتفرُّده بالخلق والإيجاد والرِّزق وتَدبير الكَون .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُريكُم آياتِهِ ويُنَزِّلُ لَكُم مِنَ السماءِ رِزقًا ﴾[غَافِر : ١٣] .

إنَّ اللهَ يُريكم أيها الناس علاماته وحُججه وأدلته على وُجوده ووَحدانيته وقُدرته ، ويُنَزِّل لكم من السماء المطرَ ، الذي هو سبب الأرزاق ، وبِه تَخرج الثمار والزُّروع والمحاصيل ، ويَخرج بِه غذاؤكم مِن الأرض وغذاء أنعامكم ودَوَابِّكم. والجمعُ بين إظهار الآيات للناس وإنزال الرزق لهم، لأن الآيات هي غذاء الرُّوح ، والرِّزق غذاء الجسم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٣) : ((وقَوله جَلَّ جَلالُه : ﴿ هُوَ الذي يُريكُم آياتِهِ ﴾ أي : يُظهِر قُدرته لِخَلْقه بِما يُشاهدونه في خَلْقه العُلوي والسُّفلي مِن الآيات العظيمة الدَّالة على كمال خالقها ومُبدِعها ومُنشِئها ﴿ ويُنَزِّلُ لَكُم مِنَ السماءِ رِزقًا ﴾ وهو المطر، الذي يُخْرِج بِه مِن الزروع والثمار ما هو مُشاهَد بالحِس مِن اختلاف ألوانه وطُعومه وروائحه وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد، فبالقُدرة العظيمة فاوتَ بين هذه الأشياء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ أنَّكَ ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزَلْنا عَلَيها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إنَّ الذي أحياها لَمُحْيِ الموتى إنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ [فُصِّلَت : ٣٩] .

مِن أدلة الله وبراهينه التي تُشير إلى وُجوده ووَحدانيته وقُدرته المطْلقة وعِلمه الشامل وحِكمته البالغة ، أن الإنسان يَرى الأرضَ يابسةً جافَّةً جَرداء، لا نبات فيها ولا زَرْع ، تُشبِه الرَّجلَ الذليل. والخشوعُ هو التَّذلُّل ، فاسْتُعِير لحال الأرض الجرداء . وكما أن الرَّجل الخاشع ذليل وحزين

ومُنكسِر ، فكذلك الأرض القحطة الميْتة . فإذا أنزلَ اللهُ على هذه الأرض المطرَ ، تَحَرَّكت الأرضُ وانتفخت بالنبات والثمار والزُّروع ذات الألوان والأشكال المختلفة . إن الإله الذي أحيا هذه الأرض الميْتة، فأخرجَ مِنها النباتَ ، وأعاد إلَيها الحياة ، وجعلها تهتز بالزُّروع والثمار ، هو الذي يُحيي الموتى ، ويَبعثهم مِن قُبورهم . إنَّ الله لا يُعجِزه شَيء ، وقادر على الإحياء والإماتة . والقدير هو الْمُبالِغ في القُدرة . والقادرُ على إخراج النبات مِن الأرض الجرداء الميْتة قادرٌ أن يَبعث الناس مِن قُبورهم . واللهُ يُقدِّم دليلاً ماديًّا ملموسًا مِن عَالَم الشَّهادة (إحياء الأرض الميْتة بإخراج النبات مِنها) ، كَي يُؤمِن الناسُ بالبَعْث والحياة بعد الموت، وهو أمرٌ غَيْبِيٌّ ، يَسمع الناسُ بِه ولا يُشاهدونه. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٥٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ أنَّكَ ترى الأرضَ خاشعةً ﴾ . قال قتادة: غبراء مُتَهَشِّمة. قال الأزهري : إذا يبست الأرض ولَم تُمطِر ، قِيل : خَشعت . قَوله تعالى : ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ أي : تَحَرَّكت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي : عَلَت ، لأن النَّبْت إذا أراد أن يظهر ارتفعت له الأرض)) اهـ . وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٩٥) : ((ذَكَرَ تعالى آيةً منصوبة لِيُعْتَبَر بها في أمر البعث من القبور،ويُستدل بما شُوهِد مِن هذه على ما لَم يُشاهَد، فقال : ﴿ وَمِن آياتِهِ أنَّكَ ترى الأرضَ خاشعةً ﴾ الآية . وخُشوع الأرض هو ما يَظهر عليها مِن استكانة وشَعَث بالجدب ، فهي عابسة، كما الخاشع عابس ، يكاد يبكي . واهتزاز الأرض هو تخلخُل أجزائها وتشققها للنبات . ورُبُوُّها هو انتفاخها بالماء وعُلُوُّ سطحها به ، ثُمَّ ذَكَّرَ اللهُ تعالى بالأمر الذي ينبغي أن يُقاس على هذه الآية والعِبرة . وذلك إحياء الموتى ، فقال : ﴿ إنَّ الذي أحياها لَمُحْيِ الموتى إنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٍ ﴾ . والشَّيء في اللغة الموجود)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسهم حتى يَتَبَيَّنَ لهم أنَّهُ الحقُّ﴾[فُصِّلَت: ٥٣].

إنَّ اللهَ سَيُظْهِر لهؤلاء المشركين الأدلةَ والْحُجَج والبراهين التي تدل على وَحدانيةِ الله وقُدرته ، وصِدقِ القُرآنِ، وصِحَّةِ نُبُوَّة محمد ﷺ . وهذه الأدلةُ الإلهيةُ الباهرة تنقسم إلى قِسْمَيْن: خارجية(في الآفاق)، وداخلية (في أنفسهم) . الآياتُ الإلهيةُ في الآفاق (جَمْع أُفُق وهو الناحية) هي: السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والبحار والأشجار ، وغَيرها . أمَّا الآياتُ الإلهية في أنفسهم ، هي : أعضاء الإنسان وحواسُّه وأجهزته المعقَّدة ، كالجهاز التنفسي والعصبي والهضمي والتناسلي ، وغَيرها .

حتى يتَّضح ويَظهر لهم أن القُرآن كلام الله الذي جاء بِه محمد ﷺ حَقًّا وصِدْقًا ، وأن الإسلام هو الدِّين السماوي الوحيد . وبذلك تُقام عليهم الْحُجَّة ، ولا عُذر لهم في كُفرهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ٢٦٧و٢٦٨): ((قَوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسهم ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها في الآفاق فَتْح أقطار الأرض ، وفي أنفسهم فتح مكة ، قاله الحسن ومجاهد والسُّدي . والثاني أنها في الآفاق وقائع الله في الأمم الخالية ، وفي أنفسهم يوم بَدْر ، قاله قتادة ومقاتل . والثالث أنها في الآفاق إمساك القَطْر عن الأرض كُلِّها ، وفي أنفسهم البلايا التي تكون في أجسادهم ، قاله ابن جُرَيج . والرابع أنها في الآفاق آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم ، وفي أنفسهم حوادث الأرض، قاله ابن زيد. وحُكِيَ عن ابن زيد أن التي في أنفسهم سبيل الغائط والبَوْل ، فإن الإنسان يأكل ويشرب مِن مكان واحد ويَخرج من مكانين . والخامس أنها في الآفاق آثار مَن مضى قبلهم مِن المكذِّبين ، وفي أنفسهم كَوْنهم خُلقوا نُطَفًا ثُمَّ عَلَقًا ثُمَّ مُضَغًا، ثُمَّ عِظاماً ، إلى أن نُقِلوا إلى العقل والتمييز ، قاله الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لهم أنَّهُ الحقُّ ﴾ في هاء الكِناية قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى القرآن ، والثاني إلى جميع ما دعاهم إليه الرسول . وقال ابن جرير : معنى الآية : حتى يَعْلَموا حقيقة ما أنزلنا على محمد ، وأوحينا إلَيه مِن الوعد له ، بأنَّا مُظهِرو دِينه على الأديان كُلِّها)) اه .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ الْجَوَارِ في البَحْرِ كالأعلام ﴾[الشُّورى : ٣٢] .

وَمِن علامات الله الدالة على وُجوده ووَحدانيته وقُدرته ، ومُلْكه الواسع ، وسُلطانه العظيم ، السُّفن الجارية في البحر كأنها الجبال مِن عَظَمَتها وضخامتها وكِبَر حَجْمها .

لقد سَخَّرَ اللهُ البحرَ لتجريَ فيه السُّفن بأمره . وهذا مِن حُجَج الله عليكم أيها الناس ، وهو دليلٌ واضح على أن الله قادر على كُل شَيء ، ولا يُعجِزه شَيء ، ولا يَتعذَّر عليه فِعل شَيء أراده. والجواري جَمْع جارية، وهي السفينة التي تسير وتجري في البحر. والأعلامُ جَمْع عَلَم وهو الجبل.

قالت الخنساء ترثي أخاها صَخْرًا :

وإنَّ صَخْرًا لَتَأتَمُّ الْهُداةُ بِهِ كأنهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٠): ((وَمِن علاماته الدَّالة على قُدرته السُّفن الجارية في البحر كأنها مِن عِظَمها أعلام. والأعلام : الجبال، وواحد الجواري جارية ... سُمِّيَت جارية ، لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشَّابة ، سُمِّيَت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها عَلَم ، ذَكَره الثعلبي ، وذكر الماوردي أنها الجبال. وقال الخليل: كُل شيء مرتفع عند العرب فهو عَلَم)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إن يَشَأ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُور ﴾ [الشُّورى: ٣٣] . لَوْ شاءَ اللهُ لأوقفَ الريحَ وجعلها ساكنةً ، فتظل السفن ثابتة على سطح البحر، لا تتحرَّك ولا تتقدَّم ولا تَجري . وبذلك تتعطل حركة المِلاحة ، وتنهار مصالح الناس وتجارتهم . إن في تحريك السفن في البحر وتسخيرها بأمر الله وقُدرته لَعِبَرًا وأدلة وحُجَجًا وبراهين على وَحدانية الله وقُدرته المطْلقة، لكل مؤمن مُخلص ، صابر على الشِّدة والبلاء ، شاكر على النِّعَم والرخاء. وقال الصاوي في حاشيته (٤/ ٣٩) : ((أي كثير الصبر على البلايا ، عظيم الشُّكر على العطايا))اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣١): ((قال قُطْرُب : نِعْم العبد الصَّبار الشَّكور ، الذي إذا أُعْطِيَ شَكَر ، وإذا ابْتُلِيَ صَبر . قال عَون بن عبد الله : فَكَم مِن مُنْعَم عليه غَير شاكر ، وَكَم مِن مُبْتَلَى غَير صابر)) اهـ . والمؤمنُ وَحْدَه هو المنتفع بآيات الله وعلاماته وأدلته ، لأنه القادر على التفكر في آلاء الله ، والنظر في آياته . لذلك خُصَّ المؤمن بالذِّكر ، إذ إن صفة المؤمن الصبر في الشِّدة ، والشُّكر في الرخاء . والإيمان نِصفان : نِصف صَبْر ونِصف شُكر . والصَّبارُ الشَّكُور لا يَكون إلا مُؤمنًا.وقال أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٥٢): ((وإنما ذَكَر السفن الجارية في البحر ، لِمَا فيها مِن عظيم دلائل القُدرة، مِن جهة أن الماء جسم لطيف شفاف ، يغوص فيه الثقيل ، والسُّفن تَحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة ، ومع ذلك جعل اللهُ تعالى في الماء قوة يَحملها بها ويَمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سَبَبًا لِسَيرها، فإذا أراد أن ترسو، أسكنَ الريح ، فلا تَبْرَح عَن مكانها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسبوا وَيَعْفُ عَن كَثيرٍ ﴾ [الشُّورى : ٣٤] .

لَوْ شاءَ اللهُ لأهلكَ هذه السُّفنَ وأهْلَهَا (الراكبين فيها) بسبب ما اقترفوا مِن ذُنوب وآثام وجرائم ، ويصفح اللهُ عن كثير من ذُنوب عباده وآثامهم ، ويَتجاوز عنهم ولا يُعاقبهم ، ويُنجِّيهم من الهلاك والغرق تفضُّلاً ورحمة مِنه . ولو أرادَ اللهُ مُعاقبة الناس بكل ذُنوبهم لأهلكَ كُل مَن ركب البحر . والآيةُ تُشير بوضوح إلى أن الذنوب سبب العذاب والهلاك . وفي تفسير ابن كثير(٤/ ١٤٩):((وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله تعالى: ﴿ أوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسبوا ﴾ أي: لَوْ شاءَ لأرسلَ الريحَ قوية عاتية ، فأخذت السفن وأحالتها عن سَيْرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال ، آبِقة لا تسير على طريق ، ولا إلى جهة مَقصِد . وهذا القول يَتضمَّن هلاكها ، وهو مناسب للأول . وهو أنه تعالى لو شاء لَسَكَّنَ الريح فوقفت، أو لَقَوَّاه فشردت وأبِقَت وهلكت ، ولكن مِن لُطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة ، كما يُرسل المطر بِقَدْر الكفاية ، ولو أنزله

كثيرًا جِدًّا لهدم البنيان ، أو قليلاً لَمَا أنبتَ الزرع والثمار)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿ أفَلَم يَنظروا إلى السماءِ فَوْقَهُم كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاها وما لها مِن فُرُوج ﴾[ق: ٦].

أفلم يَنظر هؤلاء المشركون نظرَ تفكر واعتبار إلى السماء العالية المرتفعة المتماسكة ، كيفَ رفعها اللهُ بلا عمد ، وزيَّنها بالنجوم والكواكب ضِمن نظام بديع ، وما لها مِن شُقوق وصُدوع .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع . والمعنى : كيفَ لا يَنظرون إلى السماء في ارتفاعها وعُلُوِّها ، وهي في غاية الجمال والإحكام، وخالية مِن العيوب والنقص ؟ . كيفَ غفلوا عن التفكر في خَلْقها، وأهملوا التأمُّل فيها والغاية مِن وُجودها ؟ . واللهُ يُنبِّه الناسَ على قُدرته العظيمة .

ينبغي عليهم أن يَنظروا إلى السماء بعيونهم ، ويَعتبروا بعقولهم ، ويستنتجوا أن القادر على بنائها بهذا الشكل الرائع الْمُحْكَم الجميل الخالي من العيوب، قادرٌ على بعث الأموات من قبورهم. ولا يخفى أن التأمُّل في آثار قُدرة الله في خَلْق الكَوْن ، يُؤدِّي إلى الإيمان بقدرة الله على كُل شَيء ، بما في ذلك قُدرته على البعث والنُّشور .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٥): ((﴿ أَفَلَم يَنظروا ﴾ حِين كفروا بالبعث ﴿ إلى السماءِ فَوْقَهُم ﴾ إلى آثار قُدرة الله تعالى في خلق العالَم ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ رفعناها بلا عمد ﴿ وَزَيَّنَّاها ﴾ بالكواكب ﴿ وما لها مِن فُرُوج ﴾ فُتوق ، بأن خلقها ملساء متلاصقة الطِّباق)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿والأرضَ مَدَدْناها وألْقَيْنا فِيها رَوَاسِيَ وأنبَتْنا فِيها مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهيج﴾[ق: ٧].

إنَّ اللهَ بَسَطَ الأرضَ على وجه الماء ومَدَّها ووسَّعها ، وجعل فيها جبالاً ثابتةً راسيةً تَحفظ توازنها ، وتَمنعها مِن الاضطراب بأهلها ، فالأرضُ مُحاطة بالماء مِن كُل الجهات ، وأنبتَ فيها مِن كُل نَوع مِن النبات ، جميل الشكل وحَسن المنظر ، يسرُّ الناظرين إلَيه . وقال النسفي في تفسيره (٤/ ١٧٠) : ((﴿ والأرضَ مَدَدْناها ﴾ دَحَوْناها ﴿ وألْقَيْنا فِيها رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت لَوْلا هي لَمَالت ﴿ وأنبَتْنا فِيها مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صِنف ﴿ بَهيج ﴾ يبتهج به لِحُسنه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأحْيَيْنا بِهِ بَلدةً مَيْتًا كذلكَ الخروج ﴾ [ق : ١١] . إنَّ اللهَ أنزلَ المطرَ على الأرض القاحلة الجدباء ، التي لا ماء فيها ولا حياة ولا نبات ولا زَرْع، فأحيا هذه الأرض بعد مَوتها ، وأخرجَ مِنها الكلأ والنبات والزَّرْع والثمار . كذلك الخروج مِن القبور، فكما أحيا اللهُ الأرضَ بعد موتها ، فكذلك يُحيي الناسَ بعد مَوتهم ، ويُخرجهم مِن قبورهم. وإحياءُ الموات كإحياء الأموات. فكيفَ تُنكِرون البعث والنُّشور ؟ . والاستفهامُ للتقرير والتأكيد . إذ إنهم يَنظرون بِعُيونهم إلى عملية إحياء الأرض المَيْتة ، ويُشاهدون ذلك بأنفسهم ، والْحُجَّة قائمة عليهم .

والجديرُ بالذِّكر أن تذكير ﴿ مَيْتًا ﴾ لأن البلدة بمعنى البلد أو المكان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٤) : ((﴿ وأَحْيَيْنا بِهِ بَلدةً مَيْتًا ﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلمَّا نزل الماء اهتزَّت وربَت ، وأنبتت مِن كُل زَوْج بهيج ، مِن أزاهير وغَير ذلك ، مِمَّا يحار الطرف في حُسنها ، وذلك بَعْد ما كانت لا نبات بها ، فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يُحيي اللهُ الموتى ، وهذه الْمَشَاهِد مِن عظيم قُدرته بالحس ، أعظم مِمَّا أنكره الجاحدون للبعث))اهـ. وقال أبو السعود في تفسيره (٨/ ١٢٧) : ((﴿كذلكَ الخروج ﴾ جُملة قُدِّم فيها الخبر للقَصْد إلى القَصْر ، وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة مِن الإحياء ، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بِبُعد رُتبتها، أي مِثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث مِن القبور، لا شيء مُخالِف لها. وفي التعبير عن إخراج النبات مِن الأرض بالإحياء، وعن حياة الموتى بالخروج، تفخيم لشأن الإنبات ، وتَهوين لأمر البعث ، وتحقيق للمُمَاثَلَة بين إخراج النبات وإحياء الموتى ، لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُم فأحسنَ صُوَرَكُم ﴾[التَّغابُن : ٣] .

خلقكم في أكمل صُورة ، وأحسن تقويم، وأجمل شكل ، وأتقنَ صُنعكم ، وأحكمَ خَلْقكم وتصويركم . وأودعَ فيكم الأحاسيس والعواطف، وزوَّدكم بالحواس والأعضاء والأجهزة البديعة والأنظمة الفريدة.وجعلكم نموذجًا للمخلوقات ومَثَلاً أعلى لها. والتصويرُ هو التخطيط والتشكيل.

والجديرُ بالذِّكر أن بعض الناس قبيح المنظر وشَكله مُنفِّر وغَير جَميل ، ولكن هذا لا يُخرجه عن جمال الصُّورة الإنسانية العامة وحُسنها،وإنما هو قَبيح بالمقارَنة مَعَ مَن هُوَ أحسن مِنه وأجمل. وبشكلٍ عام، فالجمالُ نِسبي.وكُل شخص له مقاييسه الخاصة في الْحُسن والجمال والقُبح والدَّمامة.وقال النسفي في تفسيره (٤/ ٢٥١) : ((وَمَن كان دميم مُشوَّه الصُّوَر ، سمج الخِلْقة ، فلا سماجة ثَمَّ ، ولكن الْحُسن على طقبات ، فلانحطاطها عَمَّا فوقها لا تُسْتَمْلَح ، ولكنها غير خارجة عن حَد الْحُسن . وقالت الحكماء : شَيئان لا غاية لهما : الجمال والبيان)) اهـ .

وَلَوْ عَقَدْنا مُقارَنة بين شكل الإنسان وشكل الحيوان ، لظهرَ التميُّز الواضح للإنسان على جميع المستويات . والضِّدُّ يُظْهِر حُسْنَه الضِّد . وبِضِدِّها تتبيَّن الأشياء . والإنسانُ يَعرف حقيقة جماله وبهائه وتميُّزه، بدليل أنه لا يتمنى أنه خُلِقَ على صُورة أُخرى. واللهُ يُذَكِّر الناسَ بِنَعمه عليهم.

لقد أنعمَ اللهُ على الإنسان بالشكل الحسن ، والصورة الجميلة ، فينبغي على الإنسان المحافظة على صِحَّته وجمال صُورته وحُسن منظره ، ولا يُشوِّه صُورته بالأشياء السَّيئة ، ولا يُغيِّر

خَلْقَ الله ، ولا يُحاول التلاعب بحواسِّه وأعضائه لأيِّ سببٍ كان . ولا يَخفى أن النفوس تَميل إلى صاحب الشكل الجميل ، والمنظر الحسَن الجذاب ، فتستمع لكلامه ، وتلتزم الأدب معه، وتأخذ آراءه على محمل الجِد، وتُقدِّره ، وتحترمه ، وتنظر إليه بعين التعظيم والمهابة . والعكس بالعكس.

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٢٠) : ((﴿ وَصَوَّرَكُم فأحسنَ صُوَرَكُم ﴾ يعني آدم عليه السلام ، خَلَقَه بيده كرامة له . قال مقاتل : الثاني ــ جميع الخلائق ... فإن قِيل : كيف أحسنَ صُوَرَهم ؟، قيل له : جعلهم أحسن الحيوان كُلِّه وأبهاه صورةً، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خِلاف ما يرى من سائر الصُّوَر. وَمِن حُسن صُورته أنه خُلِق مُنْتَصِبًا غَير مُنكَب)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سماواتٍ طِبَاقًا ما ترى في خَلْقِ الرحمنِ مِن تَفَاوُتٍ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ ترى مِن فُطُور ﴾[الْمُلْك : ٣] .

اللهُ الذي جَعَلَ سبع سماوات مُتطابقة (طبقة بعد طبقة) ، بعضها فوق بعض مِن غير مُمَاسَّة ، ما ترى في خَلْق الله البديع الْمُحْكَم مِن اختلاف ولا فَوضى ولا خلل ولا تناقض ولا عيب ولا نقص ، بل هو خَلْقٌ في غاية الإبداع والإتقان والإحكام . وهذا الْخَلْق البديع يدل على عَظَمَة الخالق الْمُبدِع . واللهُ لَم يَقُل : " ما ترى في خَلْقِهِنَّ " ، ولَم يَقُل :" ما ترى فِيهِنَّ " . وإنما قالَ : ﴿ ما ترى في خَلْقِ الرحمنِ ﴾ ، وإضافةُ الْخَلْق إلى الرحمن ، لتعظيم مخلوقات الله الدَّالة عَلى عَظَمَة الخالق وقُدرته المطْلقة . و" مِن " في ﴿ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ مزيدة لتأكيد النَّفْي . أي إنَّ الإنسانَ لا يَرى أيَّ تفاوُت مهما كان صغيرًا أو بسيطًا . إنه الْخَلْق الكامل الْمُحكَم ، الذي يدل على كمال قُدرة الله تعالى . والتفاوُتُ هو الاضطراب والاختلاف.مأخوذ مِنَ الفَوْت،وهو أن يَفوت شيء شيئًا،فيقع الخلل. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦١) : ((﴿ ما ترى في خَلْقِ الرحمنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ وقرأ حمزة والكِسائي :" مِن تَفَوُّت" ومعناهما واحد كالتعاهُد والتَّعَهُّد، وهو الاختلاف وعدم التناسب مِن الفَوْت ، كأنَّ كُلاًّ مِن الْمُتَفَاوِتَيْن فات عنه بعض ما في الآخِر، والجملة صِفة ثانية لـِ ﴿ سَبْعَ ﴾ وُضِعَ فيها ﴿ خَلْقِ الرحمنِ ﴾ موضع الضمير ، للتعظيم ، والإشعار بأنه تعالى يَخلق مِثل ذلك بِقُدرته الباهرة ، رحمةً وتفضُّلاً ، وأن في إبداعها نِعَمًا جليلة لا تُحصَى ، والخطاب فيها للرسول ، أو لكل مُخَاطَب)) اهـ .

﴿ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ ترى مِن فُطُور ﴾ . انظر إلى السماء أيها الإنسان وَكَرِّر النظرَ وتأَمَّلْهَا . هل ترى مِن شُقوق أو صُدوع أو عُيوب ؟. هل ترى مِن خَلَل ؟. إذا رَأيتَ خَلَلاً اذْكُرْهُ واكْشِفْهُ للناس . وهذه الآيةُ تحمل معنى التَّحَدِّي ، وكأن اللهَ يَتحدَّى الناسَ أن يَكتشفوا خَلَلاً واحدًا في خَلْق

السماء ــ مهما كان صغيرًا أو بسيطًا ــ . وهذا يدل على كمالِ قُدرة الله ، وعَظَمَةِ خَلْقه البديع الْمُحْكَم ، وعَجْزِ الإنسان الضعيف. لقد أخبرَ اللهُ بأن لا تفاوُت في خَلْقِه ، ثُمَّ أمرَ الإنسانَ بالنظر في السماء وتكرار النظر والتأمُّل الدقيق ، ليرى بأُم عينيه جَمال السماء وتناسُبها وتناسقها ، وذلك كي يتأكَّد الإنسان عن طريق الْمُعايَنة (الرُّؤية بالعَين المجرَّدة) ، ويطمئن قَلْبُه ، ويثق بالله تعالى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٨٣) : ((... ثُمَّ أَمَرَ بأن ينظروا في خَلْقه ليعتبروا به فيتفكروا في قُدرته ، فقال : ﴿ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ ترى مِن فُطُور ﴾ أي : ارْدُد طَرْفَكَ إلى السماء. ويُقال : قَلِّب البصرَ في السماء. ويُقال : اجْهَد بالنظر إلى السماء . والمعنى متقارب . وإنما قال: ﴿ فارْجِعِ ﴾ بالفاء ، وليس قبله فِعل مذكور ، لأنه قال : ﴿ ما ترى ﴾ والمعنى : انظُر ثُمَّ ارجع البصر ﴿ هَلْ ترى مِن فُطُور ﴾ ، قاله قتادة . والفُطُور : الشُّقوق ، عن مجاهد والضَّحاك . وقال قَتادة : مِن خَلَل . السُّدي : مِن خُرُوق . وابن عباس : مِن وَهْن . وأصله مِن التَّفَطُّر والانفطار ، وهو الانشقاق . قال الشاعر : بنى لكم بلا عَمَدٍ سماء ... وزَيَّنها فما فيها فُطُور)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أوَلَم يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُم صَافَّاتٍ ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الرحمنُ إنَّهُ بِكُلِّ شَيْء بصير ﴾ [الْمُلْك : ١٩] .

أوَلَم ينظر هؤلاء المشركون نظرَ تفكر واعتبار إلى الطيور فوقهم، باسطاتٍ أجنحتها في الجو عِند طَيَرانها وتحليقها (تصفُّ أجنحتها في الهواء)،وتقبض أجنحتها بعد البَسْط(تضرب بها جنوبها وَقْتًا بعد وقت) . وهذا تعريف الطيَران ومَعناه ، وهو بَسْط الجناح وقَبْضه بعد البَسْط .

وفي تفسير القرطبي (١٨/ ١٩٠): ((قال أبو جعفر النَّحاس : يُقال للطائر إذا بَسَطَ جناحيه: صاف . وإذا ضَمَّهما فأصاب جنبه : قابض ، لأنه يقبضهما)) اهـ .

والهمزةُ في ﴿ أوَلَم يَرَوْا ﴾ للاستفهام ، والمعنى أنهم أهْمَلُوا النظرَ وأغْفَلُوا الرؤيةَ ، ولَم يهتموا بهذا المنظر البديع ، ولَم يتفكروا به ، ولَم يَعتبروا . وهذا المنظرُ الإلهيُّ البديعُ (الطيور في السماء في حالَتَي البَسْط والقَبْض) يدل على أن اللهَ تعالى قَد سَخَّرَ الهواءَ للطيور ، كما سَخَّرَ الأرض للبشر . وفي هذا المنظر تظهر آثار قُدرة الله .

ومعروفٌ أن المخلوق يدل على الخالق ، والمصنوع يدل على الصانع ، والأثَر يدل على الْمُؤَثِّر. وبما أن الأصل والغالب في حركة الطائر هو البَسْط، قالَ اللهُ : ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ أمَّا القَبْض فهو طارئ ويَتجدَّد مَرَّةً بعد مَرَّةً ، لذلك قالَ اللهُ : ﴿ ويَقْبِضْنَ ﴾ ولَم يَقُل : قابضات ، كما قال : ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ .

وفي التسهيل لعلوم التَّنْزيل (٤/ ١٣٦) : ((فَإن قِيل : لِمَ لَمْ يَقُل " قابضات " على طريقة ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ ؟ ، فالجواب أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران ، كما أن مد الأطراف هو الأصل في السباحة ، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ لدوامه وكثرته ، وأمَّا قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة ، فلذلك ذَكَرَه بلفظ الفِعل لِقِلَّته)) اهـ .

﴿ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الرحمنُ ﴾ . ما يُمسِك الطيور في الجوِّ وهي تطير ، ويَحفظها مِن السقوط أثناء البَسْط والقَبْض ، إلا الله الخالق القادر على كُل شيء ، الرحمن الرحيم الذي وَسِعَتْ رَحمته كُل شيء . حيث سَخَّرَ للطيور الهواء رَحمةً مِنه وتفضُّلاً ولُطْفًا ، كما أنه سُبحانَه زوَّد الطيورَ بخصائص تُسهِّل عليها الطيران، كما أن أشكالها تُساعد على ذلك . وفي هذا كُلِّه عِبرة ودليل على وَحدانية الله وقُدرته وحِكمته . والآيةُ تنفي الأوهامَ التي تنسُب حركةَ الطائر إلى قُوى طبيعية وتأثيرات جِسمية وخصائص ذاتية .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٣٠/ ٧١) : ((وذلك أنها مَعَ ثِقْلها وضخامة أجسامها ، لَم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه ، وإلهامها إلى كيفية البَسْط والقَبْض الْمُطابِق للمنفعة مِن رحمة الرحمن)) اهـ .

﴿ إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بصير ﴾ . إنَّ اللهَ لا يَخفى عليه شَيء . خَلَقَ المخلوقاتِ بلا خطأ ولا خلل . يَعْلَم كيف يَخْلُق الأشياء ، ويُبدِع المصنوعات ، ويُدبِّر شُؤون خَلْقه . ولا شَريك له في ذلك .

وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٧٥٦) : ((المعنى : أَلَم يستدلوا بثبوت الطير في الهواء على قُدرتنا أن نفعل بهم ما تَقَدَّم وغَيره مِن العذاب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُل أرَأيْتُم إنْ أصبحَ مَاؤُكُم غَوْرًا فَمَن يَأتِيكُم بِمَاءٍ مَعِين ﴾[الْمُلْك : ٣٠].

قُل لهؤلاء المشركين يا محمد : إذا صارَ ماؤكم ذاهبًا غائرًا في أعماق الأرض ، لا تَناله الأيدي والدِّلاء (جَمْع دَلْو)، ولا تستطيعون إخراجَه. وكان ماؤهم مِن بِئرين : بِئر زَمْزَم ، وبِئر ميمون .

فَمَن يَجيئكم بماء عَذْب جارٍ ظاهر تَراه العُيون ، ويَسْهُل أخذه ، وتناله الأيدي والدِّلاء ؟ . مَن يُخرِج لكم الماءَ مِن الأرض حتى يَظهر ويَجريَ على الأرض ؟ . لا يأتي بِه إلا الله.فكيفَ تُشرِكون بِه ؟ ، ولماذا تُنكِرون أن يَبعثكم ؟ . ولماذا تَعبدون الأصنامَ وتتركون تَوحيد الخالق الرازق ؟ .

والآيةُ تُظهِر رحمةَ الله بِخَلْقه وعنايته بهم. وقد احتجَّ اللهُ على المشركين بهذه النِّعمة العُظمى ، نِعمة الماء ، وخوَّفهم بحرمانهم مِنها . والماءُ هو أساس الحياة . إذا زالَ زالت الحياة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥١٣) : ((قال تعالى إظهارًا للرحمة في خَلْقه : ﴿ قُل أرَأيْتُم إنْ أصبحَ مَاؤُكُم غَوْرًا ﴾ أي : ذاهبًا في الأرض إلى أسفل ، فلا يُنال بالفُؤوس الحِداد ولا السواعد الشِّداد. والغائر عكس النابع.ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَن يَأتِيكُم بِمَاءٍ مَعِين ﴾ أي نابع سائح جارٍ على وجه الأرض، أي لا يَقْدِر على ذلك إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.فَمِن فضله وكَرَمه أن أنبعَ لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض بِحَسَب ما يحتاج العباد إليه مِن القِلَّة والكثرة،فلله الحمد والمِنَّة)). اهـ . وقال النَّسفي في تفسيره (٤/٢٦٧): ((﴿ فَمَن يَأتِيكُم بِمَاءٍ مَعِين ﴾ جارٍ يصل إليه من أراده. وتُلِيَت عند مُلْحِد ، فقال:" يأتي بالمِعْول والْمَعْن_ كُل ما يُنْتَفَع بِه قليلاًكان أو كثيرًا _، فذهب ماء عَينه في تلك الليلة وعَمِيَ. وقِيل إنه محمد بن زكريا المتطبب. زادنا الله بصيرةً)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾[الأعلى : ٢] .

اللهُ الذي خَلَقَ المخلوقات ، وسَوَّى مَا خَلَقَ ، وعَدَلَه ، وأتقنَ الْخَلْقَ ، وأبدعَ الصُّنْعَ ، وجَعَلَ كُلَّ مخلوق في أحسن شكل،وأجمل هيئة،وأفضل منظر، مُتناسِب الأجزاء بدون خلل ولا اضطراب، وزوَّده بالأعضاء والحواس والأجهزة التي تَجعل حياته سهلة ، بلا صعوبات ولا عوائق .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ أي سَوَّى ما خَلَق ، فلم يكن في خلقه تشبيج (تخليط). وقال الزَّجاج : أي عَدَلَ قامته.وعن ابن عباس : حَسَّنَ ما خَلَق. وقال الضَّحاك : خَلَقَ آدم فَسَوَّى خَلْقَه. وقِيل : خَلَقَ في أصلاب الآباء وسَوَّى في أرحام الأمهات. وقيل: خَلَقَ الأجساد فَسَوَّى الأفهام . وقِيل : أي خَلَق الإنسان وهَيَّأه للتكليف)).

وقال أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ٤٥٨) : ((أي : خَلَقَ كُلَّ شَيء فَسَوَّاه ، بحيث لَم يَأتِ مُتَفَاوِتًا ، بل مُتَنَاسِبًا على إحكام وإتقان ، للدَّلالة على أنه صادر مِن عَالِم حكيم)) اهـ .

وعن ابن عمر _ رضي اللهُ عنهما _ أنه كان إذا قَرَأ : ﴿ سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأعلى ﴾ . قال : ((سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى ، الذي خَلَقَ فَسَوَّى)) [25].

والْمُتدبِّر في المخلوقات والْمُتأمِّل في كيفية صُنْعها،أدركَ أنها مخلوقة بإحكام وإتقان . وهذا يدل على عَظَمَة الخالق الصانع وقُدرته المطْلقة وحِكمته الجليلة.والمخلوق يدل على الخالق الذي أوجده.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾[الأعلى : ٣] .

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٦٧) برقم (٣٩٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ اللهَ قَدَّرَ خَلْقَ الإنسان ، ومَنَحَ البشرَ الأشكال المناسبة ، والخصائص الملائمة ، وقَدَّرَ الأرزاقَ وأرشدَ إلى كيفية طلبها وتحصيلها ، وهدى الإنسانَ إلى السعادة أو الشقاء، وأرشدَ الأنعامَ إلى مَراعيها ومراتعها . والمعنى العام: إنَّ اللهَ قَدَّرَ أنواعَ الأشياء وخصائصها ومزاياها وصفاتها، وأرشدَ الجميع إلى ما فيه صلاحهم واكتساب معيشتهم . وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له (26).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٨٨) : ((﴿ فَهَدَى ﴾ فِيه سبعة أقوال : أحدها قَدَّرَ الشَّقاوة والسعادة ، وهدى للرُّشد والضلالة ، قاله مجاهد . والثاني جعل لكل دَابَّة ما يُصلحها وهداها إليه، قاله عطاء. والثالث قَدَّرَ مُدَّة الجنين في الرَّحِم ثُمَّ هداه للخروج، قاله السُّدي. والرابع قَدَّرَهم ذُكورًا وإناثًا ، وهدى الذَّكَر لإتيان الأنثى ، قاله مقاتل . والخامس أن المعنى قَدَّرَ فهدى وأضلَّ ، فحذف "وأضل"، لأن في الكلام دليلاً على ذلك، حكاه الزَّجاج. والسادس قَدَّرَ الأرزاقَ وهدى إلى طلبها . والسابع قَدَّرَ الذُّنوب وهدى إلى التوبة ، حكاهما الثعلبي)) اه .

وفي صحيح مسلم (٤/٢٠٤٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((كَتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السماواتِ والأرض بخمسين ألف سنة)) .

لقد قَدَّرَ اللهُ مقاديرَ الخلائق وأثبتها وَفْقَ إرادته وحِكمته ، ما كانَ وما يكون وما هو كائن إلى الأبد . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٣) : ((قال العلماء : المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غَيره ، لا أصل التقدير، فإن ذلك أزلي ، لا أول له)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذي أخرجَ المرعَى ﴾[الأعلى : ٤] .

اللهُ الذي أخرجَ مِن الأرض جميعَ أنواع النباتات والزروع ، وأنبتَ الحشائشَ والعشبَ ، وما ترعاه الدَّواب والبهائم . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٤٣) : ((والذي أخرجَ مِن الأرض مَرْعَى الأنعام مِن صُنوف النبات وأنواع الحشيش)) اه .

---

(٢٦) قال الصابوني في صفوة التفاسير (٢٠/ ٤٧) : ((ولو تَأَمَّلْتَ ما في النباتات مِن الخواص ، وما في المعادن من المزايا والمنافع ، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات ، واستخدام المعادن في صُنع المدافع والطائرات ، لعلمتَ حِكمة العليِّ القدير ، الذي لَوْلا تقديره وهدايته لَكُنَّا نَهيم في دياجير الظلام كسائر الأنعام)) اه . وقال الألوسي في رُوح المعاني (٣٠/ ١٠٤) : ((قال المفسِّرون : إنما حذف المفعول لإفادة العموم ، أي قَدَّرَ لكل مخلوق وحيوان ما يُصلحه ، فهداه إليه وعَرَّفه وجه الانتفاع به)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾[الأعلى : ٥] . جَعَلَ اللهُ المرعى بعد الْخُضرة يابسًا جافًّا هشيمًا أسْوَد كالغُثاء، وهو ما يقذف بِه السَّيْل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات . و﴿ أحْوَى ﴾ أَسْوَد بعد الخضرة . وذلك أن الكلأ إذا جَفَّ ويَبِسَ ، صارَ أسْوَد باليًا بعد أن كان أخضر ناضرًا . وحتى العُشب الجاف اليابس فيه فوائد ومنافع لكثير من الحيوانات التي تُقْبِل عليه وتستفيد مِنه ، وهو يُشكِّل غذاءً جَيِّدًا لها . وقال القرطبي في تفسيره (١٨/٢٠):((قِيل: يَجوز أن يكون ﴿ أحْوَى ﴾ حالاً مِن ﴿ المرعَى ﴾ ويكون المعنى : كأنه مِن خُضرته يَضْرِب إلى السَّواد. والتقدير : أخرجَ المرعى أحوى فجعله غُثاءً ... . ويَجوز أن يكون ﴿ أحْوَى ﴾ صِفة لِـ ﴿ غُثَاءً ﴾ . والمعنى أنه صار كذلك بعد خُضرته. قال أبو عُبَيدة : فجعله أَسْوَد مِن احتراقه وقِدَمه والرَّطْب إذا يبس اسْوَدَّ . وقال عبد الرحمن بن زيد:أخرج المرعى أخضرَ ثُمَّ لَمَّا يبس اسودَّ مِن احتراقه ، فصار غُثاء تذهب به الرياح والسُّيول،وهو مَثَل ضربه اللهُ تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها)) اهـ .

وكُل هذه الآيات الواضحة والدلائل الباهرة ، تُشير إلى وَحدانية الله وقُدرته وحِكمته .

٢ــ التَّوحيد ونَفْي الشَّريك

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ الْحَيُّ القَيُّوم ﴾[البقرة : ٢٥٥] .

إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الْمُتفرِّد بالرُّبوبية والأُلوهية ، فلا مَعبود بحق إلا الله ، وهو إله الخلائق كُلِّها ، الحيُّ الباقي الدائم إلى الأبد ، الذي لا يَموت ولا يَزول ، ولا تَطرأ عليه الحوادث والتغيرات . خَلَقَ الموت ولا يَموت. خَلَقَ الزمانَ والمكانَ وهو مُنَـزَّهٌ عنهما، ولا يتأثر بهما. والحيُّ اسمٌ مِن أسماء الله الحسنى،والحياةُ صِفةٌ للهِ تعالى.وهو القَيِّم لِغَيره، القائم بتدبير شُؤون خَلْقه ، في تَكوينهم ورِزقهم ورعايتهم والعِناية بِهم . قائمٌ بذاته مُقِيمٌ لِغَيره . كُل شَيء مُحتاج إلَيه ، وهو غنيٌّ عن كُل شَيء. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٢) : ((قال أبو عُبَيدة : القيوم الذي لا يَزول لاستقامة وَصْفه بالوجود،حتى لا يَجوز عليه التغيير بوجه من الوجوه. وقال الزَّجاج: القيوم القائم بتدبير أمر الخلق. وقال الخطابي : القيوم هو القائم الدائم بلا زوال، وزنه " فَيعول" مِن القِيام وهو نعت للمُبالَغة للقيام على الشيء ، ويُقال : هو القائم على كُل شيء بالرعاية)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٥٦) عن أُبَيٍّ بن كعب قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آيةٍ مِن كتاب الله معك أعظم ؟)) ، قال : قُلتُ : اللهُ ورسوله أعلم . قال : ((يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آيةٍ مِن كتاب الله معك أعظم ؟)) ، قال : قُلتُ : الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال : فَضَرَبَ في صدري ، وقال : ((واللهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المنذر)) .

إن آية الكُرسي هي أعظم آية في القُرآن لاشتمالها على تَوحيد الله ، وتمجيد صِفاته العُليا ، وتَنْزيهه عن كُل نقص وعَيب ، وبيان سَعَة مُلكه ، وعَظَمَة سُلطانه ، وتوضيح كمال قُدرته .

وهذا الحديثُ فضيلة كُبرى للصحابي الجليل أُبَيِّ بن كعب ــ رضي الله عنه ــ ، وإشادة نبوية بِتَقواه وعِلْمه الواسع . ومعنى " لِيَهْنِكَ العِلْمُ " أي : لِيَكُن العِلم هَنيئًا لَك .

وقد كان النبيُّ ﷺ يُشجِّع أصحابَه على طلب العِلم ، ويَسألهم، ويَختبرهم، ويقف على حالهم، ويَمدحهم في مَوضع المدح بلا حَرَج . وهكذا ، كان النبيُّ المعلِّمُ يَأخذ بأيدي تلاميذه ، ويَرفع مِن قَدْرهم ، ويَدعمهم ، ولا يَبخل عليهم بالعِلم والمعرفة ، ولا يُحطِّم معنوياتهم ، ولا يَكسر إرادتهم ، ولا يُغرِقهم في الجهل ، كي يظل هو في الصدارة .

إن النبيَّ ﷺ كان مُخْلِصًا في تبليغ الوَحْي كاملاً، وأدَّى الأمانةَ على أكمل وَجْه ، وبَلَّغَ العِلْمَ إلى جميع الناس ، ولَم يَكتم مِنه شيئًا . وهذا يدل على إخلاص النبيِّ ﷺ وأمانته وصِدْقه ، وأنه مُنَزَّه عن الخيانةِ وكِتمانِ العِلم والتلاعبِ بالنصوص .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٩٣و٩٤) : ((قَوله ﷺ لأُبَي بن كعب : "لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المنذر " ، فيه مَنقبة عظيمة لأُبَي ، ودليل على كَثرة عِلْمه ، وفيه تبجيل العَالِم فُضَلاء أصحابه ، وتكنيتهم ، وجواز مدح الإنسان في وَجْهه إذا كان فيه مصلحة، وَلَم يُخَفْ عليه إعجاب ونَحْوه، لكمال نَفْسه ورُسوخه في التقوى.قَوله ﷺ :"أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم ؟"، قُلتُ : اللهُ لا إله إلا هو الحي القيوم . قال القاضي عِياض : فيه حُجَّة للقول بجواز تفضيل بعض القرآن على بعض ، وتفضيله على سائر كتب الله تعالى . قال : وفيه خلاف للعلماء، فمنع منه أبو الحسن الأشعري وأبو بكر الباقلاني وجماعة من الفقهاء والعلماء، لأن تفضيل بعضه يقتضي نقص المفضول، وليس في كلام الله نقص به ، وتأَوَّلَ هؤلاء ما ورد مِن إطلاق " أعظم وأفضل " في بعض الآيات والسُّوَر بمعنى عظيم وفاضل . وأجاز ذلك إسحاق بن راهويه وغيره من العلماء والمتكلمين، قالوا : وهو راجع إلى عِظَم أجر قارئ ذلك وجزيل ثوابه. والمختار جَواز قَول هذه الآية أو السورة أعظم أو أفضل بمعنى أن الثواب المتعلق بها أكثر، وهو معنى الحديث . والله أعلم . قال العلماء : إنما تميَّزت آية الكرسي بِكَونها أعظم، لِمَا جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوَحدانية والحياة والعِلم والْمُلْك والقُدرة والارادة ، وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات ، والله أعلم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل إنِّي نُهِيتُ أن أعبُدَ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾[الأنعام : ٥٦] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين : إني نُهيتُ أن أعبد الأصنامَ والأوثانَ التي جعلتموها آلهةً مِن دُون الله وشريكة معه ، وعبدتموها بلا دليل نقلي ولا حُجَّة عقلية . والمشركون يَصنعون أصنامَهم بأيديهم ، ويَدْعُونها آلهةً ، وهي لا تضرُّ ولا تنفع ، ويَعبدونها مِن دُون الله . وهذا مُنتهى الضلال . وقد أمرَ اللهُ محمدًا ﷺ أن يُواجِه المشركين بهذه الحقيقة ، بلا مُجامَلة ولا مُداهَنة ، ويُعلِن بوضوح وبشكل علني براءته مِن عبادة الأصنام التي يَعبدها المشركون ويَدعونها في أمورهم وحوائجهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٤) : ((﴿ قُل إنِّي نُهِيتُ ﴾ صُرِفْتُ وَزُجِرْتُ بِمَا نَصَبَ لِي من الأدلة ، وأنزل عليَّ مِن الآيات في أمر التوحيد ﴿ أن أعبُدَ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ ، عن عبادة ما تعبدون مِن دُون الله ، أو ما تدعونها آلهة ، أي تُسَمُّونها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل أغَيْرَ اللهِ أبْغي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيء ﴾[الأنعام : ١٦٤] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين : أأطلبُ رَبًّا غَير اللهِ ؟ ، وهو خالقُ كُل شَيء وسَيِّده ومالكه ومُدبِّره.كيفَ أتَّخِذُ إلَهًا غَيْرَ اللهِ ؟،وهو إله كُل شيء، لا إله إلا هُوَ، لا شريك له ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد.وهذا الجوابُ النبويُّ رَد على دَعوة المشركين للنبيِّﷺ إلى عبادة أصنامهم وآلهتهم.

والاستفهامُ في الآية للإنكار وتَوبيخ المشركين وتَقريعهم ، وبيان جهلهم وعِنادهم واتِّباعهم لأهوائهم . والمعنى : كيفُ أطلبُ رَبًّا غَيْرَ اللهِ وأترك عبادة الله الخالق الرازق ، وأعبدُ أصنامًا عاجزة لا تضرُّ ولا تَنفع ؟. كيفُ أترك عبادة الخالق وأعبدُ مَخلوقًا مِثْلِي لا يَمْلِك مِن أمره شيئًا ؟.

والرَّبُّ هو اللهُ سُبحانَه وتعالى، وهو رَبُّ كُل شَيء ومالكه،وله الرُّبوبية على جميع المخلوقات، وكُل ما سِوى اللهِ مَخلوق خاضع لله الخالق، الذي لا شريك له، وهو مَالِكُ الْمُلْك،ورَب الأرباب(27).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٦٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ قُل أغَيْرَ اللهِ أبْغي رَبًّا ﴾ ، سبب نزولها أن كفار قُرَيش قالوا للنبيِّ ﷺ : ارجع عن هذا الأمر ونحن لك الكُفَلاء بما أصابك مِن تَبِعَة ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مقاتل)) اهـ .

---

(٢٧)قال ابن منظور في لسان العرب (١/ ٣٩٩) : ((ولا يُقال الربُّ في غَير الله إلا بالإضافةِ . قال: ويُقال : الرَّبُّ بالأَلِف واللام لغيرِ الله ، وقد قالوه في الجاهلية للمَلِكِ . قال الحرث بن حِلِّزة : وهو الرَّبُّ والشَّهِيدُ عَلى يَوْمِ الحِيارَيْنِ والبَلاءُ بَلاءُ ... . وربُّ كلِّ شيءٍ مالِكُه ومُسْتَحِقُّه، وقِيل : صاحبُه. ويُقال : فلانٌ رَبُّ هذا الشيء ، أَي مِلْكُه له ، وكُلُّ مَنْ مَلَك شيئًا فهو رَبُّه . يُقال : هو رَبُّ الدابةِ ورَبُّ الدارِ ، وفلانٌ رَبُّ البيت)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٧) : ((يقول تعالى : ﴿ قُل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿ أغَيْرَ اللهِ أبْغي رَبًّا ﴾ أي أطلب رَبًّا سِواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيء ﴾ يُرَبِّيني ، ويَحفظني ، ويَكْلَؤُني ، ويُدبِّر أمري . أي : لا أتوكل إلا عليه ، ولا أُنيب إلا إليه ، لأنه رَب كل شيء ومَليكه ، وله الخلق والأمر. ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل يا أيُّها الناسُ إن كُنتُم في شَكٍّ مِن دِيني فلا أعبدُ الذينَ تَعبدونَ مِن دُونِ اللهِ ولكن أعبدُ اللهَ الذي يَتَوَفَّاكُم وأُمِرْتُ أن أكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾[يُونُس : ١٠٤] .

يقولُ اللهُ لرسوله محمد ﷺ: قُل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن كُنتم تَشُكُّون في الإسلام ، وهو الدِّين الحق الذي جِئتُ بِه مِن عِند اللهِ تعالى ، فأنا لا أعبدُ آلهتكم (الأصنام والأوثان) ، ولكن أعبدُ اللهَ وَحْدَه لا شريك له ، الذي يُميتكم كما أحياكم ، ثُمَّ يَبعثكم بعد الموت . وقد أمرَني اللهُ أن أكون من الْمُصَدِّقين بآياته ، وأن أكون مُخْلِصًا له . والمعنى : لا يَنبغي لكم أن تَشُكُّوا في دِين محمد، بَل يَنبغي أن تَشُكُّوا في دِينكم الوثنيِّ، وتُعيدوا حساباتكم ، فمحمد يَعبد اللهَ وَحْدَه ، وهو النافع الضَّار ، القادر على الإحياء والإماتة والبَعْث ، أمَّا أنتم أيها المشركون فتعبدون الأصنامَ الحجرية التي لا تَنفع ولا تَضُرُّ ، ويجب عليكم أن تَشُكُّوا في هذه العبادة الباطلة . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٦١٧):((وإنما معنى الكلام: إن كُنتم في شَك مِن دِيني ، فلا ينبغي لكم أن تَشُكُّوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تَشُكُّوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تَعقِل شيئًا ، ولا تضرُّ ولا تَنفع ، فأمَّا دِيني فلا ينبغي لكم أن تَشُكُّوا فيه ، لأني أعبدُ الله الذي يَقبض الْخَلْق ، فَيُميتهم إذا شاء، ويَنفعهم ويَضُرُّهم إن شاء، وذلك أنَّ عبادة مَن كان كذلك لا يَستنكرها ذو فِطرة صحيحة، وأمَّا عبادة الأوثان فَيُنكِرها كُلُّ ذِي لُب وعقل صحيح)) اهـ . والآيةُ ﴿ الذي يَتَوَفَّاكُم ﴾ فيها تهديد ووعيد. ولَم يُقل : " الذي أحياكم" أو "الذي خلقكم "، لأنَّ ذِكر الموت مُخيف، وشديد التأثير في النَّفْس البشرية ، كما أنَّه يُشير إلى الخلق أولاً ، والإعادة ثانيًا . وموتُ المشركين هو مَوعد عذابهم. والمعنى : الذي يَقبض أرواحَكم ، ويُنهي حياتكم ، ويُعذِّبكم أشدَّ العذاب. وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٥٧١):((فَإن كانت آلهتكم التي تَدعون مِن دُون اللهِ حقًّا،فأنا لا أعبدها ، فادعوها فَلْتَضُرَّني ، فإنها لا تضرُّ ولا تَنفع ، وإنما الذي بيده الضَّر والنفع هو الله وَحْدَه، لا شريك له)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَنفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ فإن فَعَلْتَ فإنَّكَ إذًا مِنَ الظالمين ﴾[يُونُس: ١٠٦] .

ولا تَعبد الأصنامَ يا محمد ، فهي آلهةٌ باطلةٌ عاجزة ، لا تَجلب لكَ نفعًا ولا تَدفع عَنكَ ضَرًّا ، فإن عَبَدْتَها مِن دُون اللهِ ، فإنَّكَ مِنَ المشركين الذين وَضعوا العبادةَ في غَير مَوضعها ، وظَلموا أنفسهم، بأن قَادُوها إلى عذاب النار الأبديِّ. وهذا أسوأ أنواع الظُّلم .

ولا شَكَّ أن عبادة ما لا يَنفع ولا يضرُّ مضيعة للوقت ، وتدميرٌ لإنسانية الإنسان ، وطريق إلى الهلاك الدائم والعذاب الأبديِّ . ولا يُوجد مَخلوق عاقل يَعبد مخلوقًا آخَر . وتركُ عبادة الخالق والتَّوَجُّه إلى عبادة المخلوق ، أمرٌ في غاية القُبح ، ولا يَفعله إنسان يَملك ذَرَّةً مِن عَقْل .

والمشركُ ظَلَمَ نَفْسَه ، ولَم يَظلم اللهَ ، لأن اللهَ مُنَزَّهٌ عن كُل نقص وعَيب ، وهو غنيٌّ عن كل شيء . لا يَنفعه إيمانُ العبد ، ولا يضرُّه كُفره . والمعنى العام للآية : لا تَعبد غَيْرَ اللهِ ولا تَدْعُ مِن دُونه شَيْئًا ، لأن النفع والضَّر بيد الله وَحْدَه .

والنبيُّ ﷺ مَعصوم ، وهو سَيِّد الأنبياء والمرسَلين . والخطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمقصود غَيْرُه . وإذا كان اللهُ يُخاطِب النبيَّ ﷺ بهذا الكلام العظيم ، ويُحذِّره ويُنبِّهه ، وهو النبيُّ المعصوم مَضْرِب الْمَثَل في الإيمان والتقوى ، فما بالُكَ بِمَن هُوَ دُونه ؟، وكُلُّ الناس دُونه . ويَنبغي أخذ العِبرة والموعظة مِن هذه الآية، فاللهُ يُقدِّم دَرْسًا للناس بأن المشرك يضرُّ نَفْسَه، ويُهْلِكها ، ويَقودها إلى الخلود في النار ، دُون أيَّة فرصة للنجاة ، كائنًا مَن كانَ . ولا أحد فوق الشريعة الإلهية .

والآيةُ لا تعني أن النبيَّ ﷺ كان يَعبد الأصنامَ ، ونَهاه اللهُ عن عبادتها . فالنَّهْيُ عَن الشَّيء لا يستلزم وقوعه . واللهُ يَأمر مَن شاء بِمَا شاء . وهو سُبحانَه يُعلِّم أنبياءه ويُوجِّههم ويُرشدهم ، وهُم سادة البشرية، كَي يَتعلم الناس ويَفهموا أمرَ دِينهم،ويَعرفوا مسارهم في الدنيا،ومصيرهم في الآخرة.

وفي الآية ﴿ فإن فَعَلْتَ ﴾ كُنِّيَ بالنبيِّ ﷺ ، ولَم يُذكَر صراحةً . وهذا تعظيم لِقَدْر النبيِّ ﷺ ، وتَنويه بِشَأنه ، وإشادة بِفَضله ، وتَنْزيه للنبيِّ عَن عبادة غَير اللهِ، فهو النبيُّ المعصوم الصادق الأمين، وأعْلَم الخلق باللهِ تعالى ، ولا يُمكِن أن يَقترف جريمةَ الشِّرْك باللهِ تعالى .

الآيةُ ﴿ فإنَّكَ إذًا مِنَ الظالمين ﴾ هي جزاء الشَّرْط ، وتُبيِّن النتيجةَ المترتِّبة على الشِّرك بالله وعبادة غَيْرِه.والمعنى: فَإن دَعَوْتَ مِن دُون الله ما لا يَنفعك ولا يَضُرُّك، فإنَّكَ مِن الظالمين لأنفسهم. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/٧٠):((قَوله تعالى: ﴿ ولا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَنفَعُكَ ﴾ إن دَعَوْتَهُ ﴿ولا يَضُرُّكَ ﴾ إن تَرَكْتَ عبادته . والظالم الذي يضع الشيء في غَير مَوضعه)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ اللهُ لا تتَّخِذوا إلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إنما هُوَ إلهٌ واحدٌ فإيَّايَ فارْهَبُون﴾[النَّحْل: ٥١].

ينهى اللهُ عبادَه عن الإشراك بِه . ومَن عَبَدَ مَعَ اللهِ غَيْرَه ، فقد جعل لله شريكًا ونِدًّا ، واللهُ إلهٌ واحدٌ ومَعبودٌ واحد ، لا شريك له . ويجب الخوف مِن الله دُون غَيْره ، وخَشيته ، والحذر مِن عِقابه ، والالتزام بالتقوى ، وعبادته وَحْدَه .

والمشركون كانوا يؤمنون بأن اللهَ هو الإله ، لكنهم لا يُؤمنون بالتَّوحيد . والمعنى أنهم يَعبدون آلهةً مُتعدِّدة ، إذ إنهم يَعتبرون الأصنام آلهةً تُقرِّبهم إلى اللهِ الإله الأعظم ، وهذا شِرْكٌ واضح ، ورَفض لِوَحدانية الله. لذلك جاءت ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ للتَّوكيد والتنفير مِن اتخاذ الشريك ، وبيان أن الاثْنَيْنِيَّة تُنافي الألوهية . والآيةُ ﴿ إنما هُوَ إلهٌ واحدٌ ﴾ للتأكيد على إثبات الإلهية والوَحدانية مَعًا ، وبيان أن الوَحدانية مِن لَوازم الإلهية .

وَلَوْ قِيل : " إنما هو إله " بدون لفظ (واحد) ، لَصَارَ المعنى ناقصًا ، وسَوْفَ يُخيَّل للسامع إثبات الإلهية لا الوَحدانية . والمشركون يُؤمنون بأن اللهَ إلهٌ ، ولا مُشكلة عِندهم في هذه الحقيقة ، لكن المشكلة في نَفْيِهم لِوَحدانية اللهِ ، لذلك جاءت الآية ﴿ إنما هُوَ إلهٌ واحدٌ ﴾ لإثبات الإلهية والوَحدانية مَعًا ، ومَنع الفصل بينهما . وهكذا تَمَّ إيصال المعنى الصحيح إلى المشركين كاملاً غَير مَنقوص ، وبذلك تُقام الْحُجَّة عليهم ، ويَنقطع عُذرهم .

والإلهُ الحقُّ لا يَكون إلا وَاحِدًا، وما سِواه آلهة باطلة اخترعها المشركون، وعبدوها بِغَير حق ، بدون دليل نقلي ولا بُرهان عقلي. واللهُ وَحْدَه هو الإله المعبود بِحَق، وهذا معنى" لا إلهَ إلا الله ".

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٠١) : ((قِيل : المعنى : لا تتخذوا اثنين إلَهَيْن . وقِيل : جاء قَوله : ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ تَوكيدًا . وَلَمَّا كان الإله الحق لا يَتعدَّد ، وأن كُل مَن يَتعدَّد فليس بإله ، اقْتُصِر على ذِكْر (الاثنين) لأنه قصد نَفْي التَّعديد ﴿ إنما هُوَ إلهٌ واحدٌ ﴾ يعني ذاته المقدَّسة ، وقد قام الدليل العقلي والشَّرعي على وَحدانيته)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠٣) : ((﴿ فإيَّايَ فارْهَبُون ﴾ نقل مِن الغَيْبة إلى التكلم مُبالَغةً في الترهيب، وتصريحًا بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد ، فإيَّايَ فارهبون ، لا غَيْر)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٥٥) : ((قَوله تعالى: ﴿ وقالَ اللهُ لا تتَّخِذوا إلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ، سبب نزولها أن رَجلاً من المسلمين دعا الله في صلاته ، ودعا الرحمن ، فقال رَجل من المشركين : أليسَ يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رَبًّا واحدًا، فما بال هذا يدعو رَبَّيْن اثنين ، فَنَزلت هذه الآية . قاله مقاتل)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي في السماءِ إلهٌ وفي الأرضِ إلهٌ وَهُوَ الحكيمُ العليم ﴾[الزُّخْرُف: ٨٤].

إنَّ اللهَ سُبحانَه مَعبود في السماء، ومَعبود في الأرض، لأنَّه وَحْدَه الإله الحق، المستحق للعبادة في السماء والأرض . لا شريك له ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد .وهذا تَكذيب للذين جَعلوا للهِ شَريكًا وولدًا.فاعبدوا اللهَ ولا تُشرِكوا بِه شَيئًا.وهو الحكيم في تَدبير شُؤون خَلْقه،العليم بمصالحهم. والآيةُ تُثبِت أُلوهيةَ الله في السماء والأرض ، وأنه وَحْدَه المستحق للأُلوهية، وتُبطِل عبادةَ الآلهة السماوية والأرضية،وتَنفي استقرار الله في مكان.والآيةُ لا تَعني أنَّ اللهَ حالٌّ في السماء وفي الأرض.فاللهُ مَوجود ، وهو مُنَزَّهٌ عن المكان والزمان ، لأن اللهَ كانَ قبل خَلْق المكان والزمان . كانَ اللهُ ولا شَيء مَعَه،وهو الآن حَيث كان، بلا مكان ولا زمان.وهو الآن كما كان، يُغيِّر ولا يَتغيَّر.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧٣): ((أي : هو إِلَهُ مَن في السماء، وإلهُ مَن في الأرض ، يعبده أهلها ، وكُلُّهم خاضعون له ، أذلاء بين يديه)) اهـ .

والجهالُ الذين يُثبِتون للهِ تعالى مكانًا ، ويَعتقدون أن اللهَ حالٌّ في السماء ، نقول لهم : كما أثْبَتُّم أن الله في السماء ، فأثبِتوا أن اللهَ في الأرض حَسَبَ الآية : ﴿ وفي الأرضِ إلهٌ ﴾ . وهذا دليلٌ على أن ظاهر الآية غَير مُراد . فالمعنى أن الله هو الإله الذي يَعبده أهل الأرض ، وليس المعنى أن الله موجود في الأرض . فاللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن المكان ، لا يَحُلُّ في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياء فِيه . ومعروفٌ أن الله هو الخالق ، والمكان مخلوق . فأينَ كانَ اللهُ قبل خَلْق المكان ؟ . لقد كانَ اللهُ بلا مكان، وهو الآن حيث كان، وهو الآن كما كان. وقال ابن جَماعة في إيضاح الدليل(١/ ١٥١): ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي في السماءِ إلهٌ وفي الأرضِ إلهٌ ﴾ ، فليس تخصيص أحدهما بِأَوْلَى مِن الآخَر ، لأن الظرفية في الموضعين سَواء ، فيلزم أن يكون اللهُ في الأرض أيضًا)) اهـ .

وابن جَماعة ــ رحمه اللهُ ــ كان يردُّ على هؤلاء الجهال الذين يَعتقدون أن الله موجود في السماء وحالٌّ فيها ، وقد أقامَ عليهم الْحُجَّة ، وأفحمهم بهذا الرَّد البليغ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾[الإخلاص : ١] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين الغارقين في تعدُّد الآلهة : إن ربي الذي أعبده ، وأدعوكم إلى عبادته ، هو واحد أحد ، لا شريك له ولا شَبيه ولا نِد ولا وزير ولا مُساعِد ولا صاحبة ولا ولد . واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله . وفي هذه الآية أثبتَ اللهُ وُجوده ووَحدانيته وأحَدِيَّته ، ونفى العدد . والضميرُ ﴿ هُوَ ﴾ لبيان عَظَمَة الله ومَجْده ، وإشارة إلى أنه خالق الأشياء، الْمُتَّصف بالقُدرة والعِلم . ومَخلوقاته تدل عليه ، لأنها وَفْق نظام مُحكَم مُتقَن مُتَّسق .

وفي التسهيل لعلوم التَّنْزيل (٤/ ٢٢٣): ((واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معانٍ، كُلها صحيحة في حَقِّه تعالى : الأول أنه واحد لا ثاني معه ، فهو نَفْي للعدد . والثاني أنه واحد لا نظير ولا شريك له ، كما تقول: فلان واحد في عصره، أي لا نظير له. والثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يَتبعَّض . والمراد بالسورة نَفْي الشريك رَدًّا على المشركين)) اهـ .

وإذا كانَ اليهود يَعبدون عُزَيْرًا ، ويَعتبرونه ابنًا لله، والنصارى يَعبدون عِيسى ، ويَعتبرونه ابنًا لله ، والمجوس يَعبدون الشمسَ والقمرَ، ومُشركو العرب يَعبدون الأصنام والأوثان، فإن النبيَّ محمدًا ﷺ يَعبد اللهَ وَحْدَه، ولا يُشرِك بِه، والمسلمون مُلتزمون بمنهج النبيِّ ﷺ،وسائرون على خُطاه. وهكذا ، تتجلى عقيدة التَّوحيد وتَنْزيه الله عمَّا لا يليق بِه . وهذه العقيدةُ الصافيةُ هي التي تُميِّز المسلمين عن غَيرهم ، وتَجعلهم أُمَّةَ اللهِ المختارة ، التي اصطفاها اللهُ مِن بين الأمم ، وهُم وَحْدَهم على الحق، وغَيرهم على الباطل. والحق واحد لا يَتعدَّد ، والباطلُ مذاهب شَتَّى مُتعدِّدة ومُتناحرة .

إنَّ الأمة الإسلامية وَحْدَها على الحق ، وهي وَحْدَها الناجيةُ في الدنيا والآخرة . وليس هذا غُرورًا ولا استكبارًا ولا تَبَجُّحًا ولا اتِّباعًا لخرافة نقاء العِرْق . إن الأمة الإسلامية تستمد مكانتها الرفيعة مِن كَوْنها أُمَّة التَّوحيد التي تَعبد اللهَ وَحْدَه بلا شريك ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد . وبالتالي، فهي الأُمَّة الناجية بسبب نقاء عقيدتها ، رغم كُل ما يُصيبها مِن ضعف أو فُتور أو انكسار. أمَّا الأمم الأخرى فهي مُشرِكة باللهِ ، وتنسُب إلى الله ما لا يَليق بِه، لذلك استحقت الخزي والعار والطرد في الدنيا والآخرة.وَمِن ثمارهم تعرفونهم. وقُل لِي ما هي عقيدتك في الله أقُل لك مَن أنتَ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٤٠) : ((﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾ يعني : هو الواحد الأحد ، الذي لا نظير له ، ولا وزير ، ولا نديد ، ولا شبيه ، ولا عديل . ولا يُطْلَق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٥٦) : عن أبي الدَّرداء عن النبيِّ ﷺ قال : ((أيَعْجَزُ أحَدُكم أن يقرأ في لَيْلةٍ ثُلُثَ القرآن ؟)) ، قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن ؟ ، قال : ((﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾ تَعْدِل ثلث القرآن)) .

والمقصود أن سُورة الإخلاص تُساوي ثلث القُرآن. والقُرآن يَتكوَّن مِن ثلاثة علوم : ١ــ عِلْم التَّوحيد(إثبات أُلوهية الله ووَحدانيته وصفاته ونَفْي الشَّريك).٢ــ عِلم الشرائع والأحكام. ٣ــ عِلم تهذيب الأخلاق وتَزكية النَّفْس. وسُورة الإخلاص تشتمل على العِلْم الأعظم ، وهو عِلم التَّوحيد (أصل الدِّين) ، حيث بيان أُلوهية اللهِ ووحَدانيته وصفاته الْمُنَزَّهة عن كُل نقص وعَيب.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٩٤و٩٥) : ((قَوله ﷺ : " ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾ تَعْدِل ثلث القرآن " . وفي الرواية الأخرى : " إن الله جَزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾ جُزْءًا مِن أجزاء القرآن " . قال القاضي : قال المازري: قِيل: معناه أن القرآن على ثلاثة أنحاء : قَصَص ، وأحكام ، وصِفات لله تعالى . و﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾ مُتمحضة للصفات، فهي ثُلث وجُزء مِن ثلاثة أجزاء . وقِيل : معناه أن ثواب قراءتها يُضاعَف بِقَدْر ثواب قراءة ثُلث القرآن بِغَير تضعيف)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٦٥) : ((وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن المشركين قالوا : يا محمد ، انسُب لنا رَبَّك . فَنَزلت هذه السُّورة ، قاله أُبَي بن كعب . والثاني أن عامر بن الطُّفَيْل قال لرسول الله ﷺ : إلامَ تدعونا يا محمد ؟، قال : " إلى الله عَزَّ وَجَلَّ " ، قال : صِفْهُ لِي ، أَمِن ذهب هُوَ ، أو مِن فضة ، أو مِن حديد . فَنَزلت هذه السورة ، قاله ابن عباس . والثالث أن الذين قالوا هذا، قَوم مِن أحبار اليهود ، قالوا : مِن أيِّ جِنس هُوَ ، وَمِمَّن وَرِثَ الدنيا، وَلِمَن يُورِثُهَا ، فَنَزلت هذه السورة ، قاله قتادة والضَّحاك)) اهـ .

لقد قَدَّم اللهُ في القُرآن أدلةً واضحةً وقاطعة على وُجوده ووَحدانيته ، مِنها : ١_ دَليل الخلق والإيجاد والتَّكوين: ﴿ أفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ ﴾ [النَّحْل : ١٧]. فاللهُ هو الخالق ، وما سِواه مَخلوق . والمخلوقُ الضعيف العاجز لا يَكون شَريكًا لخالقه وسَيِّده . والمصنوعُ لا يَكون شريكًا مع صانعه. والعبدُ لا يَكون شَريكًا مَعَ سَيِّده. وبما أن الله هو خالق المخلوقات ، ومُوجِد الكائنات، لا يَصِحُّ أن يَكون وَاحِدًا مِنها شَريكًا للهِ تعالى.٢_دليل الإحكام والنظام والتدبير والإبداع:﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فَلَوْ كانَ في السماوات والأرض آلهةٌ غَيْرُ اللهِ لَفَسَدَ نظامُ الكَوْن واختلَّ الوجودُ، وذلك لِمَا يَحدث بينها مِن تنازُع وتضاد ومُنافَسة . فالشُّركاءُ يَتنافسون بأهوائهم وإراداتهم. وَلَوْ كانَ هناك إلَهان لانهار النظام،وسَقَطَ التَّدبير . ٣_ دليل القهر والْمُمَانَعَة والغَلَبة:﴿لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقولونَ إذًا لابْتَغَوْا إلى ذِي العَرْشِ سَبيلاً﴾[الإسراء: ٤٢]. لَوْ كانَ مَعَ اللهِ آلِهةٌ كما يَزعم المشركون ، لاتَّخذت هذه الآلِهةُ طَرِيقًا لِمُغالَبةِ اللهِ ومُمانعته من أجل إزالة مُلْكِه،كما يَفعل مُلوك الدنيا بَعْضُهم ببعض.٤_ دليل التنازع والتنافس والسيطرة والاستعلاء : ﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِن إلَهٍ إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُم على بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. لَوْ كانَ مَعَ اللهِ إلهٌ لانفردَ كُلُّ إلهٍ بالمخلوقاتِ التي خَلَقَها ، فَتَمَيَّزَ مُلْكُ كُلِّ واحدٍ مِنهما عَن الآخَر، وحَمَى كُلُّ إلهٍ مَخلوقاتِه ، وَمَنَعَ الإلَهَ الآخَرَ مِن السيطرة عليها.

وفي زاد المسير (٩/ ٢٦٧) : ((فأمَّا الأحد ، فقال ابن عباس وأبو عُبَيدة : هو الواحد . وفَرَّق قَوم بينهما . وقال أبو سليمان الخطابي : الواحد هو المنفرد بالذات ، فلا يُضاهيه أحد . والأحد هو المنفرد بالمعنى ، فلا يُشاركه فيه أحد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ الصَّمَد ﴾ [الإخلاص : ٢] .

إنَّ اللهَ هو المقصود في قضاء الحوائج على الدوام، لِكَوْنه القادر على قضائها. يَتَوَجَّه إليه الناسُ ويَسألونه ، ويَطلبون مِنه . وهو السَّيدُ الواحدُ الأحد الفرد الصمد ، فوق كُل شيء ، وليس فَوْقَه شَيء . الْمُستغني بذاته عن كُل شيء ، وكُل شيء يحتاج إليه . وقِيل : الصمد الذي لا جَوْفَ له ، وبذلك يَكون اللهُ في هذه الآية قد نفى الجِسميةَ عَنه،وأنه ليس بِجِسْم مُتحيِّز في مكان ومحصور فيه. وتكريرُ لفظ الجلالة ﴿ اللهُ ﴾ لبيان أن الإله الحق يَكون مَقصودًا في الحوائج ، لأنه القادر على قضائها . والعاجزُ عن قضاء الحوائج واستجابةِ الدعاء يَكون عاجزًا ، ولا يَكون إلَهًا . وهذا يَعني أن الصَّمَدِيَّة مِن لوازم الأُلوهية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٦٧و٢٦٨) : ((وفي ﴿ الصَّمَد ﴾ أربعة أقوال : أحدها أنه السَّيد الذي يُصْمَد إلَيه في الحوائج ، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ . وروى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : الصَّمد السَّيد الذي قد كَمُلَ في سُؤدُده.قال أبو عبيدة : هو السَّيد الذي ليس فوقه أحد ، والعرب تُسمِّي أشرافها الصمد . قال الأسدي : لقد بَكَّرَ الناعي بِخَيْرَي بني أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسَّيد الصمد . وقال الزَّجاج : هو الذي ينتهي إليه السُّؤدُد ، فقد صمد له كُل شيء قصد قصده ، وتأويل صمود كُل شيء له أن في كل شيء أثر صُنعه . وقال ابن الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصَّمَد السَّيد الذي ليس فوقه أحد ، يَصْمِد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم . والثاني أنه لا جَوْفَ له ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وابن جُبَير وعِكرمة والضَّحاك وقتادة والسُّدي . والثالث أنه الدائم . والرابع الباقي بعد فناء الخلق حكاهما الخطابي، وقال : أصحُّ الوجوه الأول ، لأن الاشتقاق يَشهد له ، فإن أصل الصمد القصد، يُقال : اصمد صمد فُلان ، أي اقصد قصده . فالصمد السيد الذي يُصمَد إليه في الأمور ، ويُقصَد في الحوائج)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ ولَم يُولَدْ ﴾[الإخلاص : ٣] .

إن الله لَم يتَّخذ ولدًا.ليس له أولاد ولا بنات . وهذا يعني أنَّ الله هو الباقي الدائم الذي لا يَفنى، وكُل شَيء يَلد هو فانٍ زائل . واللهُ لَم يَلِدْ لانتفاء مُجانسته ، فهو سُبحانَه مُتَّصف بالكمال

والقداسة، ومُنَزَّه عن كُل عَيب ونقص. لا يَحتاج ولدًا يُجانسه أو يُشبهه أو يُعينه أو يَحمل اسمه ، أو يَكون خَلَفًا له، فاللهُ غنيٌّ عن كل شيء، لا يحتاج شيئًا ، وكُل شيء فقير إلى اللهِ ، مُحتاج إليه . والآية : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ نَفْيٌ للشَّبَه والْمُجانَسة ، فاللهُ لا يُشبِه شيئًا ، ولا يُشبهه شيء . ولا شَكَّ أن الولد يَحمل صفات أبيه وخصائصه وجيناته ، ويَكون مِن جِنس أبيه . واللهُ مُنَزَّهٌ عن ذلك .

وفي صَفوة التفاسير (٢٠/ ١٢٠): ((قال المفسرون: في الآية رَد على كُل مَن جعل لله ولدًا، كاليهود في قَولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابنُ الله ﴾[التوبة : ٣٠] ، والنصارى في قولهم : ﴿ المسيحُ ابنُ الله ﴾ [التَّوبة : ٣٠] ، وكَمُشركي العرب في زعمهم أن الملائكة بنات الله ، فردَّ اللهُ تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد،لأن الولد لا بُد أن يكون مِن جِنس والده ، واللهُ تعال أزَلِيٌّ قديم ، ليس كَمِثْله شيء ، فلا يمكن أن يكون له ولد ، ولأن الولد لا يكون إلا لمن له زوجة ، والله تعالى ليس له زوجة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ بَديعُ السماواتِ والأرضِ أنَّى يَكُونُ لهُ ولدٌ ولَم تَكُن لهُ صاحبةٌ ﴾ [الأنعام : ١٠١])) اهـ .

واللهُ هو خالق كُل شيء ومالكه ، وكُل ما سِوى اللهِ مخلوقٌ ، فكيفَ يَكون هناك مَخلوق يُشْبِه اللهَ الخالقَ أو يُشارِكه أو يُجانسه ؟! . تعالى اللهُ وتَقَدَّسَ وتَنَزَّه عن العيوب والنقائص .

﴿ ولَم يُولَدْ ﴾ . إن الله لَم يُولَد مِن أب ولا أُم . وكُل مَولود حادث ، وُجِدَ بعد إذ لَم يكن . واللهُ تعالى قَديمٌ أزَلِيٌّ دائم ، لا يَفنى ولا يَزول. كانَ اللهُ ولا شَيء معه. هو الأول فليس قبله شَيء، لا بداية لوجوده ، وهو الآخِر فليس بعده شيء ، لا نهاية لوجوده . وكُل شيء يُولَد سيموت ، وكُل شيء يموت سَيُورَث ، واللهُ تعالى لا يَموت ولا يُورَث . والآيةُ نَفَت النَّسَب عن الله مِن حَيث الفروع والأصول . يعني : نَفَت النَّسَبَ مِن جميع الجهات ، ولَم تترك حُجَّةً لمشرك ولا كتابِيٍّ .

وقد قَدَّمَ اللهُ الولدَ على الوالد في قَوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ ولَم يُولَدْ ﴾ ، مع أن الوالد أكثر أهمية ، وهو الْمُقَدَّم ، وذلك لأن الكفار زَعَموا أن للهِ وَلَدًا ، ولَم يَزعم أحد أن لله والدًا . فكان الأهم هو البَدْء بِنَفْي الولد. وبذلك يَكون اللهُ قَد رَدَّ على اليهود الذين زعموا أن عُزَيْرًا ابن الله ، والنصارى الذين زَعموا أن المسيح ابن الله ، ومُشركي العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله .

لقد رَدَّ اللهُ على أهل الكتاب والمشركين مَعًا ، وكَذَّبَهم ، وفضح باطلَهم ، وكشفَ سخافة عُقولهم، وفَنَّدَ أهواءهم وحُجَجهم الواهية.والآيةُ ﴿ ولَم يُولَدْ ﴾ تَنفي صِفة الحدوث عن اللهِ تعالى ، وتصف اللهَ بالقِدَم والأوَّلِيَّة. واللهُ لَم يَلِدْ فَيُورَث، لأن كُل ولد يَرِث والده. واللهُ لَم يُولَدْ فَيُشَارِك، لأن الولد يُشارِك والده في الصفات والخصائص .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٤٤): ((وقَوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ يقول : ليس بفانٍ لأنه لا شيء يَلِد إلا وهو فانٍ بائد . ﴿ ولَم يُولَدْ ﴾ يقول : وليس بِحَدَث لَم يكن فكان ، لأنه كُل مولود فإنما وُجِد بعد أن لَم يكن ، وحَدَث بعد أن كان غير موجود ، ولكنه تعالى ذِكْرُه قديم ، لَم يَزَلْ ، ودائم لَم يَبِدْ ، ولا يزول ، ولا يَفنى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أحَد ﴾ [الإخلاص : ٤].

ليس للهِ سُبحانَه وتعالى مَثيل ، ولا نظير ، ولا عَديل ، ولا شَبيه ، ولا نِد ، ولا مُنافِس . فهو واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله . وقد نفى اللهُ أن يُماثله شيء . ﴿ لَيْسَ كَمِثْله شَيء وهو السميع البصير ﴾ [الشُّورى:١١].

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٤٠) : ((هو مالك كُل شيء ، وخالقه ، فكيف يكون له مِن خَلْقه نظير يُساميه ، أو قريب يُدانيه ؟ ، تعالى وتَقَدَّس وتَنَزَّه)) اهـ .

وهذه الآيةُ تُقدِّم النتيجة الجامعة لمضامين الآيات قبلها . فاللهُ واحد أحد فَرْد صمد ، ليس له ولد ولا والد . إذن ، لا يُكافئه أحد ، ولا يُشبهه ، ولا يُماثله ، ولا يُجانسه . وهنا يتجلى الفرق بين الخالق والمخلوق .

والآيةُ فيها تقديم وتأخير . والتقديرُ : ولَم يكن له أحَدٌ كُفُوًا . وقُدِّم عليه لأن المقصود نَفْي المكافأة والْمُماثَلة . وتَمَّ تأخير ﴿ أحَد ﴾ وهو اسم ﴿ يَكُن ﴾ كي تتَّفق رؤوس الآيات ، ومُراعاةً للفاصلة.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٤٩) : ((أي : وَلَم يكن أحدٌ يُكافئه أو يُماثله مِن صاحبة أو غَيرها . وكان أصله أن يُؤخَّر الظرف ﴿ لَهُ ﴾ لأنه صِلة ﴿ كُفُوًا ﴾ ، لكن لَمَّا كان المقصود نَفْي المكافأة عن ذاته تعالى قُدِّم تقديمًا للأهم)) اهـ .

وعن أُبَيِّ بن كعب_ رضي اللهُ عنه_ أن المشركين قالوا: يا محمد ، انسُب لنا رَبَّكَ ، فأنزل الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد (١) اللهُ الصَّمَد (٢) ﴾ . قال : الصَّمد : الذي ﴿ لَمْ يَلِدْ ولَم يُولَدْ (٣) ولَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أحَد (٤) ﴾ ، لأنه ليس شَيء يُولَد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سَيُورَث ، وإن الله لا يموت ولا يُورَث. ﴿ ولَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أحَد ﴾ قال: لَم يكن له شبيه ، ولا عَدْل ، وليس كَمِثْلِه شيء [28].

---

(٢٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٨٩) برقم (٣٩٨٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وروى ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٤) : عن بُرَيْدة أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد ، فإذا رَجل يُصلِّي، يَدعو، يَقول:اللهم إني أسألك بأني أُشْهِدك أنك لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لَم يلد ولَم يُولَد ، وَلَم يكن له كُفُوًا أحد . فقال رسول الله ﷺ : ((والذي نَفْسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا سُئِل به أعطى ، وإذا دُعِيَ به أجاب)) .

سَأل هذا الرَّجلُ اللهَ باسمه الأعظم، فاللهُ الأحد، الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو الصَّمد المقصود في الحوائج والقادر على إعطائها ، وقد طلب الرَّجلُ أن يُعطيَه اللهُ فأعطاه ، ودعاه الرَّجلُ فأجابه اللهُ . وهنا يتَّضح الكرم الإلهيُّ ، فسؤال العبد يُقابَل بإعطاء الله ، والدُّعاء يُقابَل بالإجابة.

وعن مِحْجَن بن الأَدْرَع قال : دخل رسولُ الله ﷺ المسجد ، فإذا هو بِرَجل قد صلى صلاته ، وهو يتشهَّد ، ويقول : اللهم إني أسألك بالله الأحد الصمد ، الذي لَم يلد ولَم يُولَد ، ولَم يكن له كُفُوًا أحد ، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم ، فقال : ((قد غُفِرَ له ، قد غُفِرَ له ، قد غُفِرَ له))(29).

والنبيُّ ﷺ اطَّلعَ بالوَحْي على أن الله قد غَفر لهذا الرَّجل . فالغَيْبُ لا يَعلمه النبيُّ ﷺ إلا إذا أخبره اللهُ بِه . وهذا يدل على فَضْل هذا الدعاء ومكانته الجليلة لاشتماله على توحيد الله وتَنْزيهه وتعظيمه وتقديسه ، كما يدل على عَظَمَة الله وكَرَمه ، الذي يُعطي بلا حساب ، ويَغفر لعباده الصالحين ، الذين يَتوجَّهون إليه بالسؤال والدُّعاء . ففي مُقابَلة السؤال الإعطاء ، وفي مُقابَلة الدُّعاء الإجابة .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٣) : عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((قال اللهُ : كَذَّبَني ابنُ آدم ، ولَم يكن له ذلك ، وشَتَمَني ولَم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيَّايَ فقوله : لن يُعيدني كما بَدَأني ، وليس أولُ الخلق بأهونَ عَلَيَّ مِن إعادته ، وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ فَقَوله : اتَّخَذَ اللهَ وَلَدًا ، وأنا الأحد الصَّمَد ، لَم أَلِدْ وَلَم أُولَدْ ، وَلَم يَكُن لِي كُفُوًا أحد)) .

والنصارى يَعتقدون أن المسيح هو ابن اللهِ ، وأنه إله ابن إله ، وأن مريم هِيَ أُم الإله ! . وهُم يَعتنقون عقيدة التثليث التي هي أساس النصرانية،حيث يُؤمنون بإلهٍ واحد ذي ثلاثة أقانيم (الآب، والابن، والرُّوح القُدُس)، ويَعتقدون أن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة ، ثُمَّ يَزعمون أنهم مُوحِّدون. تعالى اللهُ عَمَّا يقول هؤلاء الكافرون عُلُوًّا كبيرًا .

---

(٢٩) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٤٠٠) برقم (٩٨٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢٠/ ١٢١) : ((هذه السورة الكريمة مؤلفة مِن أربع آيات ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز ، وأوضحت صفات الجلال والكمال ، ونزَّهت اللهَ جَل وعلا عن صفات العجز والنقص ، فقد أثبتت الآيةُ الأولى الوَحدانيةَ ، ونفت التعدد ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾ . وأثبتت الثانيةُ كمالَه تعالى ، ونفت النقصَ والعجز ﴿ اللهُ الصَّمَد ﴾ . وأثبتت الثالثةُ أزليته وبقاءه ، ونفت الذُّرية والتناسل ﴿ لَمْ يَلِدْ ولَم يُولَدْ ﴾ . وأثبتت الرابعةُ عَظَمَته وجلاله ، ونفت الأنداد والأضداد ﴿ ولَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أحَد ﴾ . فالسُّورة إثبات لصفات الجلال والكمال ، وتَنْزيه للرَّب بأسمى صُوَر التَّنْزيه عن النقائص)) اهـ .

٣ــ وَحدانيته :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلقكم والذينَ مِن قَبْلِكُم لعلكم تتَّقون ﴾ [البقرة : ٢١] (30).

خطاب إلهيٌّ للناسِ جميعًا على اختلاف أجناسهم وعقائدهم وأعراقهم : اعبدوا اللهَ وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد . والعبادةُ هي الخضوع لله بالطاعة والانصياع لأمره وحُكمه . وهذه دعوة إلهيةٌ للناس كَي يُوحِّدوا اللهَ ويلتزموا بشرائع دِينه . فاللهُ هو الخالقُ الذي خَلَقَ الناسَ ، وهذه حقيقة واضحة ومعروفة، ومُشركو العرب كانو يَعترفون ويُقِرُّون بأن الله هو الذي خلقهم،لذلك ذَكَرَ اللهُ صِفة الخلق مِن بين سائر صِفاته ، لأن الناس معترفون بها، ومُجْمِعُون عليها ، ولا يَختلفون حَوْلها .

وكُل مخلوق يَعرف أنه لَم يكن موجودًا ثُمَّ وُجِد.وكُل مَخلوق له خالق، وكُل مصنوع له صانع ، وكُل مَوجود له مُوجِد . وحتى مُشركو العرب عَبَدَة الأصنام والأوثان ، كان يُؤمنون بأن الله خالقهم . ولكنَّهم عبدوا الأصنام كَي تُقرِّبهم إلى اللهِ تعالى ، وَفْقَ تفكيرهم القاصر .

---

(٣٠) قال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٦٨):((قال علقمة ومجاهد : كُل آية أوَّلها : ﴿ يا أيُّها الناسُ ﴾ فإنما نزلت بمكة، وكُل آية أوَّلها: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا ﴾ فإنما نزلت بالمدينة. قُلتُ ــ يعني القرطبي ــ: وهذا يَرُدُّه أن هذه السورة والنساء مدنيتان ، وفيهما : ﴿ يا أيُّها الناسُ ﴾ . وأمَّا قَولهما في : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا ﴾ فصحيح . وقال عُروة بن الزبير : ما كان مِن حَد أو فريضة ، فإنه نزل بالمدينة ، وما كان مِن ذِكْر الأمم والعذاب ، فإنه نزل بمكة ، وهذا واضح)) اهـ .

يـا أيهـا النـاس، وَحِّـدُوا اللهَ الْمُتَّصِـف بالأُلوهيـة والرُّبوبيـة ، المسـتحق للعبـادة وَحْـدَه . أفْرِدُوه بالعبـادة، واخضـعوا لـه، واستسـلموا لأوامـره ، والتزمـوا بشـريعته . وهـذا يـدل علـى قيمـة العبـادة وأهميتها وعِظَم شأنها ، ومكانتها الرفيعة ، ومَنْزلتها الجليلة. كما أن النِّداء الإلهيَّ للناس يُشير إلى أهمية القضية ، وضرورة الانتباه لها ، والإقبال عليها بكل تركيز . فقضيةُ العبادة لا تَحتمل المِزاح أو اللعب . هي قضية وُجودية يتوقف مصير الإنسان ، وخُلوده في الجنة أو النار .

﴿ الذي خَلقكم ﴾ . الله الذي خلقكم أيها الناس. وهو سُبحانَه يُذكِّرهم بِنَعمته عليهم ، حيث أوجدهم مِن العدم ، وابتدأهم ولَم يكونوا شيئًا ، وخلقهم في أحسن صُورة . ونِعمة الخلق هي أصل النِّعَم ، وجميع النِّعَم قائمة عليها ، والناسُ مُعترِفون بها على اختلاف عقائدهم . وقد مَنَّ اللهُ عليهم بِنِعمة الخلق الواضحة التي يَعترفون بها ولا يَجحدونها ، ولَم يَمُن اللهُ عليهم بِنِعمة لا يَعترفون بِها، أو نِعمة خَفِيَّة لا يَعرفونها ولا يُدرِكونها. والخلقُ هو اختراع الشَّيء على غَير مثال سابق. لقد بَيَّنَ اللهُ أُلوهيته ورُبوبيته ووَحدانيته، وذلك بتوضيح نِعمة الخلق . فهو الْمُنعِم على الناس، حيث أخرجهم من العدم إلى الوجود . والوجودُ هو أصل النِّعَم ، ولا معنى للنِّعَم بدون وجود . وهذا توبيخٌ للمشركين وتقريع لهم وإقامة للحُجَّة عليهم . فَهُم يُقِرُّون أن الله خالقهم ، ويَعترفون بذلك ، والاعتراف سَيِّد الأدلة . ثُمَّ يُشرِكون الأصنامَ معه في العبادة، وهي لا تضرُّ ولا تَنفع . يَتركون تَوحيد الخالق الذي يَعترفون بأنه خَلَقَهم ، ويَعبدون أصنامًا وأوثانًا وأحجارًا مِن صُنع أيديهم. واللهُ خَلَقَكم أيها الناس ، وخَلَقَ الذين مِن قبلكم ، وهُم الأمم الماضية والأقوام السابقون. وهذا تذكير وموعظة وتَنبيه لهم على أن عبادة الخالق أولى مِن عبادة المخلوق (الصنم) . والمعنى:إن كُنتم معترفين بأن الله خالقكم وخالق الذين مِن قَبلكم،فاعبدوه وَحْدَه ولا تعبدوا الأصنام. واللهُ خلق الأمم السابقة وأماتها، فصارت أثَرًا بعد عَيْن ، فعليكم أن تُفكِّروا في مصير السابقين لكيلا تُكرِّروا أخطاءهم فيصيبكم ما أصابهم من العذاب . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهل مَن اتَّعظَ بنفْسه . ولا بُد من دراسة تاريخ الجماعات البشرية السابقة ، والأمم الغابرة ، والحضارات المندثرة ، مِن أجل أخذ الدروس والعِبَر ، والاستفادة مِن أخطائهم وعدم تكرارها .

﴿ لعلكم تتَّقون ﴾ لكي تتَّقوا بعبادته عقوبته أن تَنْزِل بِكم . أي : لكي تنجوا من العذاب والهلاك. والتقوى هي التَّوَقِّي مِن عذاب الله تعالى. وحرفُ التَّرجي " لعلَّ " مِن الله واجب. وبعبارة أخرى ، إن " لعل " في الأصل للتَّرجي ، وفي كلام الله للتحقيق . و" لعل " للإطماع ، لكنه إطماع مِن الله الكريم الأكرم ، لذلك له مكانة الوعد الإلهيِّ الحتميِّ الواقع لا مَحالة .

والمعنى : اعبدوا رَبَّكم راجين أن تَكونوا ضِمن الأتقياء الصالحين ، الذين يتَّقون اللهَ في السِّر والعلانية ، ويَلتزمون أوامره ، ويَجتنبون نَواهيه .

والآيةُ تدل على أن التقوى هي قمة الأعمال، وأرفع المنازل ، وأعظم الدرجات. وعلى الإنسان أن يَجتهد ويَسعى بكل قوة للوصول إليها ، كما يصل المتسلِّق إلى قمة الجبل بعد التعب والعناء والجهد والاجتهاد .

والطريقُ إلى الإيمان بوجود الله ووَحدانيته واستحقاقه للعبادة بلا شريك ، هي النظر في آثار صُنعه ، والتأمُّل في مخلوقاته ، والاستدلال بأفعاله . وعلى الإنسان أن يُفكِّر في النِّعَم التي تُحيط به من كل الجوانب ، كي يُدرِك عَظَمَة الْمُنعِم ، ويُؤمِن بكمال قُدرته . والمصنوعُ يدل على الصانع.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلقكم والذينَ مِن قَبْلِكُم لعلكم تتَّقون ﴾. اختلف العلماءِ فِيمَن عُنِيَ بهذا الخطاب ، على أربعة أقوال : أحدها أنه عام في جميع الناس، وهو قَول ابن عباس . والثاني أنه خطاب لليهود دُون غَيرهم، قاله الحسن ومجاهد.والثالث أنه خطاب للكفار مِن مُشركي العرب وغَيرهم، قاله السُّدي. والرابع أنه خطاب للمنافقين واليهود، قاله مقاتل. والناس اسم للحيوان الآدميِّ ، وسُمُّوا بذلك لتحركهم في مُراداتهم ، والنَّوْس الحركة ، وقيل : سُمُّوا أُناسًا لِمَا يعتريهم مِن النسيان . وفي المراد بالعبادة هاهُنا قَولان: أحدهما التوحيد ، والثاني الطاعة ، رُوِيَا عن ابن عباس. والخلق الإيجاد . وإنما ذَكَرَ مَن قَبْلهم، لأنه أبلغ في التذكير ، وأقطع للجَحْد ، وأحْوَط في الْحُجَّة. وقِيل : ذَكَرَ مَن قَبْلهم لِيُنبِّههم على الاعتبار بأحوالهم مِن إثابة مُطيع ومُعاقبة عاصٍ . وفي " لعل " قَولان : أحدهما أنها بمعنى كَي... وإلى هذا المعنى ذهب مُقاتل وقُطْرُب وابن كَيْسان. والثاني أنها بمعنى التَّرجي، ومعناها: اعبدوا الله راجين للتقوى ولأن تَقُوا أنفسكم بالعبادة عذابَ ربكم ، وهذا قَول سِيبَوَيْه. قال ابن عباس: لعلكم تَتَّقون الشِّرك. وقال الضَّحاك: لعلكم تَتَّقون النار. وقال مجاهد: لعلكم تُطيعون)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذي جَعل لكمُ الأرضَ فِراشًا والسماءَ بِناءً وأنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأخرجَ بِهِ مِنَ الثمراتِ رِزقًا لكم فلا تَجعلوا للهِ أندادًا وأنتُم تَعْلَمُون ﴾[البقرة : ٢٢] .

اعبدوا اللهَ أيها الناس ، الذي جَعل لكم الأرض بِساطًا يُفْتَرَش ، ومَهْدًا يسهل الاستقرار عليه، والتحرك عليه، وثبَّته بالجبال الرَّواسي ، التي تحفظ توازن الأرض ، وتَمنعها من الاضطراب بأهلها، وجعل السماءَ سَقْفًا. والسماء للأرض مِثل السَّقف للبَيت . وكُل ما علا الإنسانَ وأظَلَّه فهو سماء.

وقال الطبري في تفسيره (١/ ١٩٧) : ((وإنما ذَكَرَ تعالى ذِكْرُه السماءَ والأرضَ فيما عَدَّد عليهم مِن نِعَمه التي أنعمها عليهم ، لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم ، وبهما قِوام دُنياهم، فأعلمهم أن الذي خلقهما ، وخلق جميع ما فيهما ، وما هُم فيه مِن النِّعَم ، هو المستحق عليهم الطاعة، والْمُسْتَوْجِب مِنهم الشُّكر والعبادة دُون الأصنام والأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع)) اهـ .

لقد ذَكَّرَهم اللهُ بِنعمة خَلْقهم وإخراجهم من العدم إلى الوجود ، ثُمَّ ذَكَّرَهم بِنعمة خلق الأرض فِرَاشًا لهم : ﴿ الذي جَعل لكمُ الأرضَ فِراشًا ﴾ ، يَعيشون عليها بكل سهولة ، ويَتحرَّكون عليها بلا عوائق . والأرضُ هي مكان استقرارهم ومَعيشتهم . وقد ذَلَّلَ اللهُ الأرضَ وجعلها بِسَاطًا يُفْتَرَش ، ولَم يجعلها وعرة صعبة ، يستحيل الاستقرار عليها، وجعل الجبال كالأوتاد تحفظ استقرارَ الأرض وثباتها وتوازنها . ثُمَّ ذَكَّرهم بِنعمة جعل السماء سَقْفًا مرفوعًا ، كالقُبَّة المضروبة عليهم : ﴿ والسماءَ بِناءً ﴾ . ثُمَّ ذَكَّرهم وامتنَّ عليهم بِنعمة إنزال المطر من السماء ، يعني مِن السَّحاب : ﴿ وأنـزلَ مِـنَ السـماءِ مـاءً ﴾ ، فـأخرجَ اللهُ لهـم بـذلك المطـر ألوانًـا وأنواعًـا مِـن الـزروع والثمـار والمحاصيل والأشجار والنباتات رِزْقًا لهم ولأنعامهم ، يعني طعامًا للناس وعَلَفًا للدَّواب : ﴿ فأخرجَ بِهِ مِنَ الثمراتِ رِزقًا لكم ﴾ (31).

وهذا تنبيه إلهيٌّ لهم على قُدرة الله المطْلَقة ، وسُلطانه الواسع ، ونفاذ أمره في كُل شيء . واللهُ يُذَكِّر الناسَ بِنِعمه الكثيرة، كي يُوحِّدوه، ويَعبدوه بلا شريك، ويُطيعوا أوامره ، ويجتنبوا نَواهيه . فقد أنعمَ عليهم ، رحمةً مِنه وفضلاً ، وهو غنيٌّ عنهم . لا يَحتاجهم ، وهُم يَحتاجونه . فهو الخالق

---

(٣١) قال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٧٠) : ((فَإِن قِيل : كيف أطلقَ اسم الرِّزق على ما يخرج من الثمرات قبل التَّملك ؟ ، قِيل له : لأنها مُعَدَّة لأن تُمْلَك ، ويصح بها الانتفاع فهي رِزق . ودَلَّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عَن كُل مخلوق ، ولهذا قال عليه السلام مُشيرًا إلى هذا المعنى:" لأن يَحْتَزِم أحدُكم حُزمةً مِن حطب فيحملها على ظَهْره فيبيعها ، خَير له مِن أن يَسأل رَجُلاً يُعطيه أو يَمنعه " [أخرجه مسلم] . ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال مِن الصنائع وغَيرها . فَمَن أحوجَ نَفْسَه إلى بشر مِثْله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زُخْرُف الدنيا ، فقد أخذ بطرف مَن جَعل لله نِدًّا. وقال علماء الصوفية: أعلمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وَطاء، والسماء غِطاء، والماء طَيِّبًا، والكلأ طعامًا،ولا تعبد أحدًا في الدنيا من الخلق بسبب الدنيا،فإن الله عَزَّ وَجَلَّ قد أتاح لك ما لا بُد لك مِنه، مِن غَير مِنَّة فيه لأحد عليك)) .

الرازق ، يجب على الناس أن يَعبدوه وَحْدَه ، ولا يُشرِكوا بِه . لذلك قالَ اللهُ : ﴿ فلا تَجعلوا للهِ أندادًا وأنتُم تَعْلَمُون ﴾ . فلا تَجعلوا للهِ شُركاء في العبادة ، وأمثالاً تعبدونهم كعبادة الله ، ولا تُشْرِكوا بِه غَيْرَه مِن الأنداد التي لا تضرُّ ولا تَنفع ، كالأصنام والأوثان . بَل اعبدوه وَحْدَه ، مُخْلِصين له الدِّين . والنِّدُّ هو الضِّدُّ ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن النِّد والضِّد والمِثْل والعديل . ﴿ لَيْسَ كَمِثْله شَيء وهو السميع البصير ﴾ . وأصل العبادة هو التَّوحيد ، أي : عبادة الله وَحْدَه ، لا شريك له .

وقد قَدَّمَ اللهُ الآياتِ الباهرة الدَّالة على وَحدانيته وقُدرته ، وهي مَكشوفة أمام الناس ، ومُشَاهَدَة بالعَين المجرَّدة، ولَم يَأمرهم اللهُ بالإيمانِ الأعمى، والتسليمِ بدون تفكير ولا نظر ولا تأمُّل. والْمُتَأَمِّل في المخلوقات سيصل إلى إثبات مُوجِد للكائنات، مُنفرِد بالأُلوهية والرُّبوبية، ومُنَزَّه عن مُشابَهة المخلوقات، لأن المخلوق العاجز لا يُشبِه الخالق العظيم، وكذلك المصنوع لا يُشبِه الصانع. ﴿ وأنتُم تَعْلَمُون ﴾ أنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن الأنداد والأشباه والنظائر والأمثال ، وأن كُل نِعمة عليكم مِنَ اللهِ وَحْدَه ، وأن الأصنام لا تَخلق ولا تَرزق ، والله وَحْدَه هو الخالق الرازق ، ولا يَكون إلَهًا إلا مَن يَخْلُق ويَرزق ، ولا يَستحق العبادة إلا الله .

لقد نهاهم اللهُ عن الإشراك بِه ، وعبادةِ غَيْره ، واتِّخاذ أنداد لله في الطاعة والعبادة . إن اللهَ وَحْدَه هو الذين خلقهم ورزقهم وأنعمَ عليهم ، فيجب إفراده بالعبادة ، وطاعته بلا شريك . والمشركون يَعلمون أن آلهتهم (أصنامهم) لا تَخْلُق شَيْئًا ، وأن الله هو الخالق ، وهُم يُقِرُّون بهذه الحقيقة ويَعترفون بِها ، ثُمَّ يُشرِكون باللهِ ، ويَجعلون المخلوق نِدًّا للخالق . واللهُ يحتجُّ عليهم في إثبات التَّوحيد .

لقد خَلَقَ اللهُ الأرضَ التي هي مُستقر الناسِ ومَثواهم ومكان حياتهم ومعيشتهم، وجعل السماءَ فوقهم كالقُبَّة أو مِثْل السَّقف للبَيت ، وأنزلَ المطرَ مِن السماء ، وأخرجَ بِه أنواعًا مِن الثمار وألوانًا من النبات.وهذا كُلُّه دليل على وَحدانية اللهِ، وإبطال للشِّرْك، لأن المخلوقات لو اجتمعت جميعًا ، لا تَقْدِر أن تَفعل هذه الأشياء الظاهرة للناس والمكشوفة أمام أعينهم . والضعيفُ العاجزُ لا يكون إلَهًا . إنَّ الإله هو القادر على فِعل هذه الأشياء ، بلا شَريك ولا مُساعِد . واللهُ وَحْدَه هو الخالق الرازق ، لذلك كان مُسْتَحِقًّا للأُلوهية والرُّبوبية ، وأن يَعبده الناس بلا شريك ولا نِد .

والمشركون جُهَّال ومُعانِدون ومُتَّبِعون لأهوائهم وآبائهم ضِمن فَوضى التقليد الأعمى . وهذا ثابتٌ في القُرآن . أمَّا وصفهم بأنهم يَعْلَمُون ، فهذا وصف مُقيَّد وليس على إطلاقه ، فالمشركون يَعْلمون أن الله هو خالقهم ورازقهم ، لكنهم يُشرِكون بِه ، ويَعبدون معه الأصنام والأوثان .

وذَكَرَ القرطبي في تفسيره (١/ ٢٧٠) رَأيًا آخَر:((الثاني:أن يكون المعنى: ﴿ وأنتُم تَعْلَمُون ﴾ وَحدانيته بالقوة والإمكان لَوْ تَدَبَّرْتُم ونظرتُم ، والله أعلم . وفي هذا دليل على الأمر باستعمال حُجَج العقول وإبطال التقليد. وقال ابن فُورَك: يُحتمَل أن تتناول الآية المؤمنين، فالمعنى : لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادًا بعد عِلْمكم _الذي هو نَفْي الجهل _ بأن الله واحد)) اهـ.

وصَدَقَ زَيْد بن عمرو بن نُفَيل (الذي كان مُوَحِّدًا في الجاهلية) حِينَ قال :

أرَبًّا واحدًا أَم ألفُ رَبٍّ أَدين إذا تقسَّمت الأمورُ
تركتُ اللاتَ والعُزَّى جميعًا كذلك يَفعل الرَّجَلُ البصيرُ

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٨و٤٩) : ((قَوله تعالى: ﴿ الذي جَعل لكمُ الأرضَ فِراشًا ﴾ . إنما سُمِّيَت الأرض أرضًا لِسَعتها ، مِن قَولهم : أَرِضَت القَرْحَة ، إذا اتَّسعت . وقِيل : لانحطاطها عن السماء ، وكُل ما سَفَل أرض . وقِيل : لأن الناس يَرُضُّونها _ يَدُقُّونها _ بأقدامهم . وَسُمِّيَت السماء سماء لِعُلُوِّها. قال الزَّجاج : وَكُل ما علا على الأرض فاسمه بناء، وقال ابن عباس: البناء هاهنا بمعنى السَّقْف . قَوله تعالى : ﴿ وأنزلَ مِنَ السماءِ ﴾ يعني مِن السَّحاب ﴿ ماءً ﴾ معنى المطر . ﴿ فلا تَجعلوا للهِ أندادًا ﴾ يعني شُرَكاء أمثالاً . يُقال : هذا نِد هذا ونديده ، وفِيما أُريد بالأنداد هاهنا قَولان: أحدهما الأصنام، قاله ابن زيد ، والثاني رجال كانوا يُطيعونهم في معصية الله ، قاله السُّدي . قَوله تعالى : ﴿ وأنتُم تَعْلَمُون ﴾ فيه ستة أقوال: أحدهما وأنتم تعلمون أنه خَلق السماء وأنزل الماء ، وفعل ما شرحه في هذه الآيات ، وهذا المعنى مرويٌّ عن ابن عباس وقتادة ومقاتل. الثاني وأنتم تعلمون أنه ليس ذلك في كتابكم التَّوراة والإنجيل ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا، وهو يخرج على قَول مَن قال : الخطاب لأهل الكتاب. والثالث وأنتم تعلمون أنه لا نِد له ، قاله مجاهد . والرابع أن العِلْم هاهنا بمعنى العقل ، قاله ابن قُتَيبة . والخامس وأنتم تعلمون أنه لا يَقْدِر على فِعْل ما ذَكَرَه أحد سِواه،ذَكَرَه شيخنا علي بن عُبَيد الله. والسادس وأنتم تعلمون أنها حجارة، سمعتُه من الشيخ أبي محمد بن الخشاب)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود_ رضي اللهُ عنه_ قال:سألتُ النبيَّ ﷺ : أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عِند الله ؟. قال : ((أن تجعل لله نِدًّا وهو خَلَقَك))[32].

---

(٣٢) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٦٢٦) برقم (٤٢٠٧) ، ومسلم (١/ ٩٠) برقم (٨٦) .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٠٤٩) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((فإنَّ حق الله على عباده أن يَعبدوه، ولا يُشرِكوا به شيئًا ، وحق العباد على الله أن لا يُعذِّب مَن لا يُشرِك بِه شيئًا)) .

حَق اللهِ على عباده أن يُوحِّدوه ، ويَلتزموا أوامره ، ويَجتنبوا نَواهيه . ومَن وَحَّدَ اللهُ حَقًّا وصِدْقًا، فلا بُد أن يَعبده بما أمرَ ونَهى . وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٣٩) : ((الحق كل موجود مُتحقِّق ، أو ما سَيُوجَد لا مَحالة. ويُقال للكلام الصِّدق حَق ، لأن وقوعه مُتحقِّق لا تردُّد فيه ... والمراد هنا ما يستحقه الله على عباده مِمَّا جعله مُحَتَّمًا عليهم ، قاله ابن التَّيمي في التحرير . وقال القرطبي : حق الله على العباد هو ما وعدهم به مِن الثواب وألزمهم إيَّاه بخطابه . قَوله : " أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ". المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي ، وعَطَف عليها عدم الشِّرك ، لأنه تمام التوحيد. والحكمة في عَطْفه على العبادة ، أن بعض الكفرة كانوا يَدَّعون أنهم يعبدون الله ، ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى ، فاشترط نَفْي ذلك ... . والتقدير يعبدونه في حال عدم الإشراك به . قال ابن حبان : عبادة الله إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح ... . قَوله : " حق العباد على الله أن لا يُعذِّبهم " (رواية أخرى) ... . قال القرطبي : حَقُّ العباد على الله ما وعدهم بِه مِن الثواب والجزاء، فَحَقَّ ذلك وَوَجَبَ بِحُكم وعده الصِّدق ، وقَوله الحق الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر ، ولا الْخُلْف في الوعد ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى لا يَجِب عليه شيء بِحُكم الأمر ، إذ لا آمِرَ فَوْقَه، ولا حُكْم للعقل لأنه كاشف لا مُوجِب. انتهى . وتَمَسَّكَ بعض المعتزلة بظاهره ولا مُتَمَسَّك لهم فيه مع قيام الاحتمال ... . إن المراد بالحق هنا الْمُتَحَقِّق الثابت أو الجدير، لأن إحسان الرَّب لِمَن لَم يَتَّخذ رَبًّا سِواه جدير في الحِكمة أن لا يُعذِّبه، أو المراد أنه كالواجب في تَحَقُّقه وتأكُّده)) .

وعن حُذَيفة: عن النبيِّ ﷺ قال : ((لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فُلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ، ثُمَّ شَاء فُلان))[33]. إن حرف " الواو " يلزم الاشتراك ، أمَّا " ثُمَّ " فلا تَلزم الاشتراك ، لأن مشيئة الله فوق مَشيئة خَلْقه، ومُقدَّمة على مشيئة خَلْقه. قالَ اللهُ تعالى:﴿وما تشاؤونَ إلا أن يَشاءَ اللهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]. ولا يَجوز جعل مشيئة الله ومشيئة العبد في مَنْزلة واحدة باستخدام حرف " الواو "، لأن هذا سُوء أدب مع الله ، ويُخالف الحقيقةَ ، إذ إن مشيئة المخلوق لا تُعَادِل مشيئة الخالق. فيجب استخدام " ثُمَّ " للفصل بين مشيئة الله ومشيئة العبد، ومنع الاشتراك بين المعنيين.

(٣٣)رواه أبو داود في سُننه (٢ / ٧١٣) . وصحَّحه النووي في رياض الصالحين(١/ ٢٢٦٨) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَم تَعْلَمْ أنَّ اللهَ لهُ مُلْكُ السماواتِ والأرضِ وما لكم مِن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ ولا نصير ﴾ [البقرة : ١٠٧] .

إنَّ الله وَحْدَه هو الْمُتصرِّف في كَوْنه وخَلْقه، يَفعل ما يشاء بلا شريك،ويَحكم ما يُريد بلا نِد. لا مُعقِّب لِحُكمه ، ولا يُسأل عمَّا يَفعل . وهو أعلم بالمصالح والمفاسد . يَملك أمورَكم ويُدبِّرها وَفْقَ حِكمته ومشيئته، وهو أعلم بِكم مِن أنفسكم. والاستفهامُ في ﴿ أَلَم تَعْلَمْ ﴾ للتقرير والتأكيد.

والْمُلْك هو تمام القُدرة واستحكامها . وكما أن الْمُلْك لله بلا شريك ولا نِد ولا مُنازِع ولا مُساعِد، فكذلك له الْحُكْم بما يشاء .

وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى أن له مُلْك السماوات والأرض ، لا يُشارِكه أحد ، ولا يُساعِده أحد ، ولا يُنافسه في مُلْكه ومَلَكوته أحد . يَتصرَّف في مُلْكه ومَلَكوته وسُلطانه كما يشاء . وهو سُبحانَه أعلم بمصالح عباده . واللهُ وَحْدَه خلق السماوات والأرض ، وأوجدهما مِنَ العَدَم ، وأمره نافذ في كُل شيء ، وكُل شيء خاضع لإرادته وحُكمه . وهو سُبحانَه يَحكم على عباده بما يشاء . واللهُ هو الْمُتحكِّم في أُموركم ، المهيمن على مصائركم ، المسيطر على حياتكم بكل تفاصيلها، يُجري أُموركم وَفْق مشيئته وإرادته، وبما يُصلحكم ويَنفعكم . وما لكم أيها المؤمنون مِمَّا سِوى الله قريب يَحفظكم ، ولا ناصر يَحميكم من العذاب الإلهيِّ إن أتاكم . أي : ما لكم مِن والٍ يَقوم بأمركم ، ولا نصير يَنصركم. والآيةُ تَخويفٌ لهم وتحذيرٌ شديد. فلا رَادَّ للعذابِ الإلهيِّ إن جاء ولا مانع مِنه.

ومَن آمنَ بأن الله هو وَلِيُّه ونصيره ، فسوفَ يثق بالله ثقةً مُبصِرة لا حُدود لها ، ويطمئن قلبه ، ويَتَوَكَّل على اللهِ ، ويُفوِّض أمرَه إلَيه ، ويَعلم أن اللهَ لن يُضيِّعه ، وسَوْفَ يُوفِّقه إلى كُل خير .

والخطابُ في ﴿ أَلَم تَعْلَمْ ﴾ للنبيِّ ﷺ وأُمَّته ، بدليل ﴿ وما لكم ﴾ . وتَمَّ تخصيص النبيِّ ﷺ بشكل مُنفرد في ﴿ أَلَم تَعْلَمْ ﴾ ، لأن النبيَّ ﷺ هو رأس الأُمَّة وقائدها وإمامها ، وأعْلَمُها وأفضلها. والجديرُ بالذِّكر أن الله تعالى لَم يقل:وما لكم مِن دُونه.بل قال: ﴿ وما لكم مِن دُونِ اللهِ ﴾. وإظهار لفظ الجلالة في الآية،لتعظيم الله وتَمجيده،والتنبيه على ضرورة الخوف مِنه،والحذر مِن عذابه.

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٢٧) : ((فتأويل الآية إذًا : ألَم تعلم يا محمد أن لي مُلك السماوات والأرض وسُلطانهما دُون غَيري ، أحكم فيهما وفيما فيهما ما أشاء ، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عمَّا أشاء ، وأنسخ وأُبدِّل وأُغيِّر من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأُقِر منهما ما أشاء ؟. وهذا الخبر وإن كان من الله عَزَّ وَجَلَّ خِطابًا لِنَبِيِّه محمد ﷺ على وجه الخبر عَن عَظَمَته، فإنه مِنه جَلَّ ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكَروا نسخ أحكام التوراة،

وجحدوا نُبُوَّة عيسى ، وأنكروا محمدًا ﷺ ، لمجيئهما بِما جاءا به مِن عند الله بتغيير ما غَيَّر اللهُ مِن حُكم التوراة ، فأخبرهم الله أن له مُلك السماوات والأرض وسُلطانهما ، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته ، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونَهْيه ، وأن له أمرهم بما شاء ، ونَهيهم عمَّا شاء، ونسخ ما شاء ، وإقرار ما شاء ، وإنساء (تأخير) ما شاء مِن أحكامه وأمره ونَهيه ، ثُمَّ قال لِنَبِيِّه ﷺ وللمؤمنين معه : انقادوا لأمري وانتهوا إلى طاعتي فيما أنسخ وفيما أترك ... فإنه لا قَيِّم بأمركم سِواي ، ولا ناصر لكم غَيري ، وأنا المنفرد بِوَلايتكم والدفاع عنكم ، والْمُتوحِّد بِنُصرتكم بِعِزِّي وسُلطاني وقُوَّتي على مَن ناوأكم ، وحَادَّكم ، ونَصَبَ حرب العداوة بينه وبينكم ، حتى أُعْلِيَ حُجَّتكم ، وأجعلها عليهم لكم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وللهِ المشرقُ والمغربُ فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾[البقرة : ١١٥] .

يُخبِر اللهُ عن سَعَة مُلكه، وعظيمِ سُلطانه ، فهو مالك المشرق والمغرب ، له مُلكهما وتدبيرهما. يَفعل بِخَلْقه ما يشاء ، ويَحكم فيهم ما يُريد ، ويَفرض عليهم الأحكام والشرائع وَفْقَ مشيئته وإرادته ، وبِما يُحقِّق مصالحهم ، ويَجلب النفع لهم . والمشرقُ والمغرب وما بينهما مِن الجهات والكائنات للهِ مِلْكًا وخَلْقًا . والمشرقُ مَوضع شُروق الشمس، والمغرب مَوضع غروبها. وإضافةُ المشرق والمغرب للهِ لتشريفهما، مِثْل: بَيت الله،وناقة الله . فأينما تُحوِّلوا وُجوهكم أيها المؤمنون، فهناك قِبلة اللهِ وجِهته التي تَعَبَّدَكم بالتَّوجه إليها ، وأمرَ بذلك ورَضِيَها لكم قِبلةً . وقِبلةُ اللهُ أمامكم أينما تَوَجَّهْتُم شَرْقًا أو غَرْبًا . والمعنى: وَلُّوا وُجوهكم نحو وَجْه الله .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣٤و١٣٥): ((قَولـه تعالى: ﴿ وللهِ المشرقُ والمغربُ ﴾ في نزولها أربعة أقوال : أحدها أن الصحابة كانوا مع رسول الله في غزوة في ليلة مظلمة فلم يعرفوا القِبلة ، فجعل كُل واحد منهم مسجدًا بين يديه وصلى ، فلمَّا أصبحوا إذا هُم على غَير القِبلة ، فذكروا ذلك لرسول الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، رواه عامر بن ربيعة . والثاني أنها نزلت في التَّطوع بالنافلة، قاله ابن عمر.والثالث أنه لَمَّا نزل قَوله تعالى: ﴿ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافِر : ٦٠]، قالوا : إلى أين ؟ ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مجاهد . والرابع أنه لَمَّا مات النجاشي وأمرهم النبيُّ ﷺ بالصلاة عليه ، قالوا إنه كان لا يُصلِّي إلى القِبلة ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله قتادة . قَوله تعالى : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ فِيه قَولان: أحدهما فَثَمَّ الله ، يُريد عِلْمه معكم أين كُنتم ، وهو قَول ابن عباس ومقاتل . والثاني : فَثَمَّ قِبلة الله ، قاله عِكرمة ومجاهد ... . وهذه الآية مستعملة الحكم في المجتهد إذا صلى إلى غِير القِبلة ، وفي صلاة المتطوِّع على الراحلة ،

والخائف . وقد ذهب قَوم إلى نسخها فقالوا : إنها لَمَّا نزلت تَوَجَّه رسول الله إلى بيت المقدس ، ثم نُسِخ ذلك بِقَوله : ﴿ وحيثُ ما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ . وهذا مرويٌّ عن ابن عباس. قال شيخنا علي بن عُبَيد الله : وليس في القرآن أمر خاص بالصلاة إلى بيت المقدس، وقَوله: ﴿ فأيْنَما تُوَلُّوا فَـثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ ليس صريحًا بالأمر بالتوجه إلى بيت المقدس، بل فيه ما يدل على أن الجهات كُلها سَواء في جواز التوجه إليها، فإذا ثبت هذا دَل على أنه وَجَبَ التوجه إلى بيت المقدس بالسُّنة ثُمَّ نُسِخ بالقرآن)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((أول ما نُسِخَ مِن القرآن فِيما ذُكر لنا شأن القِبلة، قال الله : ﴿ ولله المشرقُ والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله ﴾ [البقرة: ١١٥]. فاستقبل رسولُ الله ﷺ فصلى نَحْوَ بيت المقدس ، وترك البيتَ العتيق ، فقال الله تعالى : ﴿ سيقول السُّفهاءُ من الناس ما ولاهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها ﴾ [البقرة : ١٤٢] . يَعْنُون بيت المقدس ، فَنَسَخَتْهَا، وصَرَفه الله إلى البيت العتيق ، فقال الله تعالى : ﴿ ومِن حيثُ خرجتَ فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ [البقرة : ١٥٠]))(34).

وروى الترمذي في سُننه (٢/ ١٧٣) وصحَّحه: عن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((ما بين المشرق والمغرب قِبلة)) .

وفي هذا سَعَة للناس ، وتَوسيع عليهم ، ورفع للحَرَج عنهم . وبشكل عام ، مَن كان قريبًا من الكعبة ويَراها ، فيجب الصلاة إلى عَيْنها . وإن كان بعيدًا عنها، ولا يَراها، فَيُصلِّي إلى جهتها ، لأنه لا يستطيع إصابة العَيْن بعكس القريب . ومَن اشتبه عليه القِبلة ، ولَم يَعرف اتِّجاهها ، ولَم يجد مَن يُرشِده ، اجتهدَ وصلى إلى أيِّ جهة ، ولا إعادة عليه .

وفي تحفة الأحوذي (٢/ ٢٦٦) : ((قال السيوطي : ليس هذا عامًّا في سائر البلاد ، وإنما هو بالنسبة إلى المدينة الشريفة ونَحْوها . قال البَيهقي في الخلافيات : المراد والله أعلم أهل المدينة ومَن كانت قِبلته على سَمْت أهل المدينة . انتهى . وقال الشَّوكاني: وقد اخْتُلِف في معنى هذا الحديث فقال العراقي : ليس هذا عامًّا في سائر البلاد ، وإنما هو بالنسبة إلى المدينة المشرَّفة وما وافق قِبلتها وهكذا قال البَيهقي في الخلافيات.وهكذا قال أحمد بن خالويه الرهبي ، قال: ولسائر البلدان من السَّعَة في القِبلة مِثل ذلك بين الجنوب والشمال ، ونَحْو ذلك . قال ابن

(٣٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٤) برقم (٣٠٦٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

عبد البَر : وهذا صحيح لا مدفع له ولا خلاف بين أهل العِلم فيه . وقال الأثرم : سألتُ أحمد بن حنبل عن معنى الحديث، فقال : هذا في كُل البلدان إلا بمكة عند البيت ، فإنه إن زال عنه شيئًا وإن قَل ، فقد ترك القِبلة ، ثُمَّ قال : هذا المشرق، وأشار بيده ، وهذا المغرب وأشار بيده ، وما بينهما قِبلة ، قلتُ له : فصلاة مَن صلى بينهما جائزة ، قال : نعم ، وينبغي أن يَتحرَّى الوسط)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ٤٨٦)عن ابن عمر قال:كان رسول الله ﷺ يُصلِّي وهو مُقبِل مِن مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان كان وَجْهه. قال: وفيه نزلت : ﴿ فأينما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله ﴾ .

هذا الحديث يُوضِّح جواز التَّنَفُّل على الراحلة في السَّفَر حيث تَوَجَّهت . وهذا جائز بإجماع المسلمين.وشَرْطُه ألا يَكون السَّفَر مِن أجل معصية الله تعالى . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(٥/٢١٠):((ولا يجوز الترخص بشيء من رُخَص السَّفَر لعاصٍ بِسَفَره ، وهو مَن سافر لقطع طريق،أو لقتال بغير حق، أو عَاقًّا والده، أو آبِقًا (هاربًا) مِن سَيِّده، أو ناشزة على زوجها)) اهـ.

وروى الحاكم في المُستدرَك (٢/ ٢٩٢) وصحَّحه عن ابن عمر_رضي اللهُ عنهما_ قال : لَمَّا نزلت:﴿ فأينما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله﴾. يَحِلُّ لك أن تُصَلِّيَ حيث ما تَوَجَّهت بِك راحلتك في التطوع.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَديعُ السماواتِ والأرضِ وإذا قضى أمرًا فإنما يَقولُ لهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧] .

إنَّ اللهَ هو مُبدِع السماوات والأرض ، خلقهما بلا شريك ولا مُساعِد ، وأوجدهما مِن العدم على غَير مِثال سابق . وهذا هو معنى الإبداع . وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٥٥) : ((ومعنى الْمُبْدِع : الْمُنشِئ والْمُحْدِث ما لَم يَسبقه إلى إنشاء مِثْله وإحداثه أحد . ولذلك سُمِّيَ الْمُبْتَدِع في الدِّين مُبْتَدِعًا ، لإحداثه فيه ما لَم يسبقه إليه غَيره ، وكذلك كُل مُحْدِثٍ فِعلاً أو قَولاً لَم يَتقدَّمه فيه مُتقدِّم ، فإن العرب تُسمِّيه مُبْتَدِعًا)) اهـ . وإذا أحكمَ اللهُ أمْرًا وأتقنه وَفْقَ عِلمه السابق . فَيُوجَد ذلك الأمر فَوْرًا بلا تأخير ، وَفْق تقدير الله وإرادته . وهذا يدل على كمال قُدرة الله، وعظيم سُلطانه، وإرادته النافذة في كُل شيء،ولا يقف أمامها مانع.وقضاءُ الأمرِ هو إحكامه وإتقانه وإمضاؤه . واللهُ تعالى إذا قضى أمْرًا من الأمور ، وأرادَ إيجاده ، فيكون الأمر بِقُدرة الله على ما أراد . وهذا الأمر يَقع لا مَحالة ، لأن تأثير القُدرة الإلهية في الأشياء نافذ بلا موانع . والإرادةُ الإلهية لا شيء يُعجزها أو يُعيقها . وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٤٢) : ((﴿ وإذا قضى أمرًا ﴾ أي قَدَّره ، وقِيل : أحكمه وقَدَّره وأتقنه . وأصل القضاء : الفراغ . ومِنه قِيل لِمَن مات : قُضِيَ عليه لفراغه مِن الدنيا ، ومِنه قضاء الله وقَدَره ، لأنه فَرَغَ مِنه تقديرًا وتدبيرًا)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٥٠) أن رسول الله ﷺ قال: ((... ولكنَّ رَبَّنا _ تبارك وتعالى اسْمُه_ إذا قضى أمرًا سَبَّح حَمَلَةُ العرش، ثم سَبَّح أهلُ السماء الذين يَلُونهم، حتى يَبْلُغَ التسبيحُ أهلَ هذه السماء الدنيا)) .

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ١٥١) : ((وأصل القضاء الإحكام ، أُطلق على الإرادة الإلهية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها إيَّاه... ﴿ فإنما يقول له كُن فَيَكون ﴾ كلاهما من الكَوْن التام ، أي أَحْدَثْ فَيَحْدُثُ ، وليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال، وإنما هو تمثيل لسهولة تأتِّي المقدورات بِحَسَب تعلق مشيئته _ تعالى _ ، وتصوير لِسُرعة حُدوثها)) اهـ .

وعندما يريد اللهُ أمرًا فذلك الأمر يقع مباشرة خضوعًا للإرادة الإلهية ، دون أن يقول اللهُ للشيء : ﴿ كُن ﴾ ، لأن هذا الفعل إشارة لسرعة استجابة الأشياء لإرادة الله تعالى وعدم تأخُّرها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣٦): ((قَوله تعالى : ﴿ بَديعُ السماواتِ والأرض ﴾ البديع الْمُبْدِع ، وكُل مَن أنشأ شيئًا لَم يُسْبَق إلَيه ، قِيل له : أبدعتَ . قال الخطابي : البديع فَعِيل بمعنى مُفْعِل ، ومعناه أنه فَطَرَ الخلقَ مُخْتَرِعًا له، لا على مثال سَبَق.قَوله تعالى:﴿ وإذا قضى أمرًا ﴾ قال ابن عباس: معنى القضاء الإرادة. وقال مقاتل: إذا قضى أمرًا في عِلْمه، فإنما يقول له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ . والجمهور على ضَم نون ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فيكون بالرفع على القَطْع ، والمعنى : فهو يكون. وقرأ ابن عامر بِنَصْب النون . قال مكي بن أبي طالب : النَّصْب على الجواب ، لكن فيه بُعْد . فصل : وقد استدل أصحابنا على قِدَم القرآن بِقَوله : ﴿ كُن ﴾ فقالوا : لَو كانت ﴿ كُن ﴾ مخلوقة لافتقرت إلى إيجادها بِمِثْلها ، وتسلسل ذلك ، والمتسلسل مُحال. فإن قِيل : هذا خطاب لمعدوم ، فالجواب أنه خطاب تكوين يُظهِر أثرَ القُدرة ، ويستحيل أن يكون الْمُخَاطَب موجودًا ، لأنه بالخطاب كان ، فامتنع وجوده قَبْلَه أو معه ، ويُحَقَّق هذا أن ما سيكون مُتَصَوَّر للعِلْم ، فضاهى بذلك الموجود ، فجاز خطابه لذلك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ لا يَخفَى عَلَيه شَيء في الأرض ولا في السماء ﴾[آل عِمران: ٥] .

يُبيِّن اللهُ سَعَةَ عِلْمه ، فهو يَعلم كُلَّ الأشياء كُلِّيًّا وتفصيليًّا ، ويَعلم غَيْب السماء والأرض . مُطَّلِع على كُل شيء ، ولا تخفى عليه خافية . أحاطَ اللهُ بكل شَيء عِلْمًا. وهذا العِلم الشاملُ لكل شيء صِفة للهِ وَحْدَه ، لا يُشاركه فيها مخلوق. وهذا يعني أن الله وَحْدَه هو المستحق للعبادة ، وهو وَحْدَه الإله الحق ، لأنه سُبحانَه يَعلم ما كان، وما سيكون ، وما هو كائن ، وما لَم يكن لو كان كيف يكون ، لا يخفى عليه من ذلك صغيرة ولا كبيرة .

واللهُ مُطَّلِعٌ على كُفر مَن كفر، وإيمان مَن آمنَ ، وهو مُجازيهم عليه . سَيُدْخِل الكافرين النار، ويُعذِّبهم عِقابًا لهم على كُفرهم . ويُدخِل المؤمنين الجنة ، ويَمنحهم النعيم الأبديَّ مُكافأةً لهم على إيمانهم. وتَمَّ تخصيص الأرض والسماء بالذِّكر مَعَ أن مُلْك الله وسُلطانه أعظم من الأرض والسماء وأكبر وأوسع، وذلك لأن عِلم الناس وإدراكهم وقُدرتهم ، لا يَتجاوز الأرضَ والسماء. وتَمَّ تقديم الأرض على السماء، لتوضيح الأدنى ثُمَّ الأعلى.

وقال البيضاوي في تفسيره(٦/١):((﴿إنَّ اللهَ لا يَخفَى عَلَيه شَيء في الأرض ولا في السماء ﴾ أي شيء كائن في العالَم كُلِّيًّا كان أو جُزئيًّا ، إيمانًا أو كُفرًا . فَعَبَّر عنه بالسماء والأرض، إذ الحس لا يتجاوزهما . وإنما قَدَّمَ الأرضَ تَرَقِّيًا مِن الأدنى إلى الأعلى، ولأن المقصود بالذِّكر ما اقْتُرِف فيها، وهو كالدليل على كَوْنه حَيًّا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَخفَى عَلَيه شَيء في الأرض ولا في السماء ﴾ . قال أبو سليمان الدمشقي : هذا تعريض بنصارى أهل نَجْران ، فيما كانوا ينطوون عليه مِن كَيد النبيِّ ﷺ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكم في الأرحامِ كَيْفَ يشاءُ ﴾ [آل عِمران : ٦] .

يَخلق اللهُ البشرَ في أرحام أُمَّهاتهم كما يشاء، مِن ذَكَرَ وأُنثى، وأبيض وأسود ، وطويل وقصير، وحسن وقبيح، وتام وناقص ، وشقي وسعيد . وتصويرُ البشر في أرحام أُمهاتهم مِن نُطَف آبائهم ، يدل على قُدرة الله المطْلقة،وإتقان فِعْله،وإحاطة عِلْمه بكل شيء. كما أن أحوال الخلق وأطواره إنما هي بمشيئة الله وحِكمته وإرادته النافذة في كل شيء.وأصل الرَّحِم مِن الرحمة لأنها مِمَّا يُتَرَاحَم بِه. وهذه الآيةُ تدل على عَظَمَة الصانع وكماله ، وتُبطِل عبادة أيِّ مخلوق ، كائنًا مَن كان ، لأن كُل مخلوق كان في رَحِم أُمِّه ، وهذا يُشير إلى عُبوديته وخُضوعه لِقُوَّة الله العُليا. ولو كان هذا المخلوقُ إلَهًا خالقًا لَصَوَّرَ ما في الأرحام، وما وُجِد في رَحِم أُمِّه . إن وُجود المخلوق في رَحِم أُمِّه يعني أنه عبد ضعيف عاجز خاضع لخالقه .

وذِكْرُ التصوير في الأرحام يُنبِّه الناسَ ، ويُرشدهم إلى حقيقة عِيسى ﷺ ، فهو عبد مَخلوق كان في رَحِم أُمِّه مَريم عليها السلام . ولو كان إلَهًا كما يزعم النصارى ، لَخَلَقَ ما في الأرحام وصَوَّرَه ، وَلَمَا وُجِد في رَحِم أُمِّه . إن وُجود عِيسى في رَحِم أُمِّه دليلٌ على أنه عبد مخلوق محصور خاضع لِمَن خَلَقَه وصَوَّره، والإلهُ لا يَكون خاضعًا ولا محصورًا. والآية ترد على النصارى ، وتُبطِل أُلوهية المسيح المزعومة ، وتُثبِت أُلوهيةَ الله وَحْدَه ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ١٦٩) : ((الله الذي يُصوِّركم ، فيجعلكم صُوَرًا أشباحًا في أرحام أُمَّهاتكم كيف شاء وأحب ، فيجعل هذا ذَكَرًا وهذا أنثى ، وهذا أسود وهذا أحمر، يُعرِّف عباده بذلك أن جميع مَن اشتملت عليه أرحام النساء ، فَمِمَّن صَوَّره وخَلَقه كيف شاء، وأن عيسى ابن مريم مِمَّن صَوَّره في رَحِم أُمِّه وخَلَقه ، فيها كيف شاء وأحب ، وأنه لو كان إلَهًا لَم يكن مِمَّن اشتملت عليه رَحِم أُمِّه ، لأن خلاَّق ما في الأرحام ، لا تكون الأرحام عليه مُشتملة ، وإنما تشتمل على المخلوقين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تُولِجُ الليلَ في النهارِ وتُولِجُ النهارَ في الليلِ وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وتَرزقُ مَن تشاءُ بِغَيْرِ حِساب ﴾[آل عِمران : ٢٧] .

يُخبِر اللهُ عن كمال قُدرته، وسَعَة مُلكه، وعظيم سُلطانه ، وإرادته النافذة في كل شيء . يُدخِل اللهُ الليلَ في النهار ، فتنقص ساعات الليل ، وتزيد ساعات النهار . ويُدخِل النهار في الليل، فتنقص ساعات النهار، وتزيد ساعات الليل. والمعنى : تُدخِل ما نقص مِن أحدهما في الآخَر. والإيلاجُ إدخال الشَّيء في الشَّيء [35] . وهذا الحركةُ الكَونية العظيمة تحدث وَفْق نظام مُتقَن مُحكَم متماسك، لا خلل فيه ولا اضطراب. وهكذا في فصول السَّنة ، شِتاءً وصَيْفًا. وهكذا، تتَّضح قُدرة الله على جَعل الليل والنهار مُتَعَاقِبَيْن ، وإدخال أحدهما في الآخَر بالزيادة والنقص.

---

(٣٥) قال سيد قطب في الظِّلال (٣/ ١٧٠) : ((وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار ، وإيلاج النهار في الليل ، هو أخذ هذا من ذاك ، وأخذ ذاك من هذا ، عند دورة الفصول .. سواء كان هذا في ذاك ، فإن القلب يكاد يُبصِر يد الله وهي تُحرِّك الأفلاك ، وتلفُّ هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة ـــ يعني الشمس ـــ ، وتقلب مواضع الظُّلمة ومواضع الضياء ، شيئًا فشيئًا يتسرَّب غَبَش الليل إلى وضاءة النهار ، وشيئًا فشيئًا يتنفس الصبح في غيابة الظلام . شيئًا فشيئًا يطول الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء ، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف .كذلك الحياة والموت يدبُّ أحدهما في الآخر في بُطء وتدرُّج،كُل لحظة تمرُّ على الحي يدبُّ فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت، وتبني فيه الحياة خلايا حية مِنه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل ، هكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، تُبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للعقل البشري، ولا يستطيع إنسان أن يَدَّعِيَ أنه هو الذي يصنع مِن هذا كُلِّه شيئًا،ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مُصادفة بلا تدبير ، وإنما هي حركة خفية هائلة تُديرها يد القادر المبدع اللطيف الْمُدبِّر)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٦٩) : ((أي: تُدْخِل ما نَقَصْتَ مِن هذا في هذا. وقال ابن عباس ومجاهد : ما يُنقِص مِن أحدهما يُدخِل في الآخَر)) اهـ . ﴿ وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ . إنَّ اللهَ تعالى يُخرِج الإنسانَ الحيَّ مِن النُّطفة الميتة ، ويُخرِج النُّطفةَ الميتةَ مِن الإنسان الحيِّ . ويُخرِج المؤمن من الكافر ، والكافر مِن المؤمن ، فالمؤمن قلبه حَي عامر بالإيمان بالله ، والكافر قلبه مَيت خراب ، لا أثر للإيمان فيه [36] . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٥) : ((أي: تُخرِج الزَّرْعَ مِنَ الْحَبِّ، والحب من الزرع، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة،وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء)) اهـ . وعن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة قال: دَخل النبيُّ ﷺ على [أُم خالد]، فقال : ((مَن هذه ؟)) ، فقالوا : بعض خالاتك . فقال : ((إن خالاتي في هذه الأرض لَغرائب ، مَن هذه ؟))، قالوا : أُم خالد بنت الأسود بن عَبْد يَغُوث ، فقال: ((سُبحانَ الذي يُخرِج الحيَّ مِن الميت))[37]. لقد كانت امرأةً صالحة ، وكان أبوها كافرًا. وقلب الكافر ميت بسبب اعتناقه للكُفر والضلال، وقلب المؤمن حَيٌّ بسبب اعتناقه للإيمان والهدى. ﴿وتَرزقُ مَن تشاءُ بِغَيْرِ حِساب﴾. وتُعطي مَن تشاء عطاءً عظيمًا ورِزْقًا واسعًا،بلا عَدٍّ ولا تضييق ولا تقتير.ولا يَقْدِر على هذا إلا الله.مِمَّا يدل على أنه الإله الحق،وَحْدَه لا شريك له. ويُقال للكريم الجواد: يُعطي بغير حساب ،كأنه لا يحسب ما يُعطي ، ولا يَعُدُّ ما يُنفِق ، وذلك مِن مُبالَغته في الكرم.قال ابن كثير في تفسيره (١/٤٧٥):((أي:تُعطي مَن شِئْتَ مِن المال ما لا يُعَدُّ ، ولا يُقْدَر على إحصائه،وتُقتِّر (تُضيِّق) على آخرين لِمَا لَك في ذلك مِن الحِكمة والإرادة والمشيئة والعدل)).

---

(٣٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٠) : ((في معنى الآية ثلاثة أقوال : أحدها أنه إخراج الإنسان حَيًّا مِن النُّطفة وهي مَيتة ، وإخراج النُّطفة من الإنسان ، وكذلك إخراج الفَرْخ مِن البَيضة ، وإخراج البَيضة مِن الطائر، هذا قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وابن جُبَير والجمهور. والثاني أنه إخراج المؤمن الحي بالإيمان مِن الكافر الميت بالكُفر ، وإخراج الكافر الميت بالكفر من المؤمن الحي بالإيمان ، رَوى نحو هذا الضَّحاك عن ابن عباس ، وهو قول الحسن وعطاء. والثالث أنه إخراج السُّنبلة الحية مِن الحبة الميتة ، والنخلة الحية مِن النواة الميتة ، والنواة الميتة مِن النخلة الحية ، قاله السُّدي . وقال الزَّجاج : يُخرِج النبات الغض مِن الحب اليابس ، والحب اليابس مِن النبات الحي)) اهـ .

(٣٧) رواه الطبراني في الكبير (٢٥/ ٩٦) برقم (٢٤٨) . وحسَّنه الهيثمي في المجمع (٩/ ٤٢٧) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الناسُ اتَّقوا رَبَّكم الذي خَلقكم مِن نَفْس واحدة وخلق مِنها زَوْجَها وَبَثَّ مِنهما رِجالاً كثيرًا ونِساءً ﴾ [النِّساء : ١] .

هذه دَعْوةٌ إلهية كريمة للناس كُلِّهم _مؤمنهم وكافرهم _ بأن يَتَّقوا رَبَّهم العظيم، ويَلتزموا بأوامره ، ويَجتنبوا نواهيه . فهو _ سُبحانه _ المتفرِّد بالْخَلْق والإيجاد ، فقد خلقَ الناسَ مِن نَفْس واحدة، وهي آدم ﷺ [38]. وخلقَ حَوَّاء _ عليها السَّلام _ مِن ضِلْع آدم الأيسر. وقد حَصَلت الأُلفة بينهما ليتحقق معنى الأُسرة ، ويَحْصل التناسل . ونشرَ اللهُ مِنهما رِجالاً كثيرًا ونِساءً في أنحاء الأرض على اختلاف أديانهم وأجناسهم ولُغاتهم .

وفي الدُّر المنثور (٢/ ٤٢٣): ((وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبَيهقي في الشُّعَب عن ابن عباس قال : خُلقت المرأةُ مِن الرَّجل ، فَجُعلت نَهْمتها في الرِّجال ، فاحبسوا نساءكم . وخُلق الرَّجلُ من الأرض فَجُعل نَهْمته في الأرض)) اهـ .

هذه حقيقةٌ واقعية في كل زمان ومكان . فالمرأةُ شديدة الحرص على الرِّجال ، إذ إن رَغْبتها متمركزة في الرَّجل ، وشَهْوتها مُركَّزة فيه . وهذا ليس غريبًا ، فالمرأةُ جُزء من الرَّجل الذي هو وَطَنها الأصلي ، ومن الطبيعي أن تَحِنَّ المرأةُ إلى أصْلها ونقطةِ بدايتها . أمَّا الرَّجلُ فهو مخلوقٌ من الأرض (التُّراب) ، فكلُّ جُهده مُنْصَبٌّ على إعمار الأرض ، وصناعةِ الحضارة ، وكتابةِ التاريخ .

لقد خُلق الرَّجلُ لبناء الحضارة الإنسانية ، وخُلقت المرأةُ للرَّجل . وهذا دَوْرٌ شريف للمرأة ، لا يَطعن فيها ، ولا يَنتقص من مكانتها . فالرَّجلُ هو الحضارةُ التي تَبْنيها المرأةُ ، والأرضُ هي الحضارة التي يَبْنيها الرَّجلُ . وباختصار ، إن الرَّجلَ وطنُ المرأة ، والأرضَ وطنُ الرَّجل .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((اسْتَوْصُوا بالنِّساء، فإن المرأة خُلقت مِن ضِلْع، وإن أعْوَجَ شيء في الضِّلع أعلاه ، فإن ذَهبتَ تُقيمه كَسَرْتَه ، وإن تَرَكْتَه لَم يَزَلْ أعْوَجَ ، فاسْتَوْصُوا بالنِّساء))[39].

---

(٣٨) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٦٤) : ((وآدم اسم سِرياني ، وهو عند أهل الكتاب آدام بإشباع فتحة الدال ... وقال الثعلبي : التراب بالعِبرانية آدام فَسُمِّيَ آدم به ، وَحُذفت الألف الثانية . وقيل : هو عربي ، جَزم به الجوهري والجواليقي ، وقيل : هو بوزن أفعل مِن الأدَمَة ، وقيل : مِن الأديم لأنه خُلق من أديم الأرض ، وهذا عن ابن عباس)) اهـ .

(٣٩) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٢١٢)برقم(٣١٥٣)،ومسلم (٢/ ١٠٩٠) برقم (١٤٦٨) .

هذا التوجيهُ النبويُّ يَدعو إلى احترام النساء ، وحفظِ مكانتهن ، والإحسان إليهن . فالمرأةُ خُلقت مِن ضِلْع ، وفي هذا إشارةٌ إلى خَلْق حَوَّاء عليها السلام مِن ضِلْع آدم ﷺ . وفي خَلْق النساء عِوَج من أصل الخِلْقة.فينبغي مُراعاة مشاعرهن،واحتمال قِلَّة عقولهن،والصبر عليهن ، وعدم تطليقهن.ولا شَكَّ أن كَسْر الضِّلع يَعني الطلاقَ الذي يُمثِّل كَسْرًا لمشاعر المرأة، وتحطيمًا للأُسرة. وعن سَمُرة بن جُنْدب_رضي الله عنه_أنَّ رسول الله ﷺ قال عن المرأة:((فَدَارِها تَعِشْ بِها))[40].

وهنا تتجلى أهميةُ الأُلفة وحُسن العِشرة ، وضرورةُ مُلاطَفة المرأة ، وعدم التصادم معها ، لأنها _ أولاً وأخيرًا _ كائن ضعيف على كافة المستويات . حتى لو أَظْهرت القوةَ والجبروت ، فستظل كائنًا ناعمًا وقابلاً للكسر في أية لحظة. ومُداراةُ المرأة تعني مُلاينتها والتعامل معها بلُطف ، فالمداراةُ هي الوسيلة الفَعَّالة للسيطرة على قلب المرأة . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٨٨):(((فدارها تعش بها) أي لاطفها ولاينها ، فإنك بذلك تَبْلغ ما تريده منها من الاستمتاع بها، وحُسن العِشرة معها الذي هو أهم المعيشة . وفيه إشعار بكراهة الطلاق بلا سبب شرعيٍّ، والمداراة _ كما في المصباح وغيره_ الملاطَفة والملايَنة)) .

إن الإنسَ مُشْتَرِكون في أصل الخِلْقة ، فكلهم مِن آدم ﷺ ، وآدم مِن تراب . وهذا الأمرُ يَدعو إلى التعاون بين بني البشر ، ومساعدة بعضهم بعضًا ، لأنهم أبناء رَجل واحد (آدم ﷺ) . فالبشريةُ هي جسد واحد _ مهما كانت عقائد الناس أو أجناسهم _ . وكلُّ تهديدٍ للفرد يُمثِّل تهديدًا للبشرية جَمْعاء . فالبشرُ كُلهم في سفينة واحدة . إمَّا أن يَنْجوا جميعًا ، أو يَغرقوا جميعًا .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٠٤) : عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كُنَّا عِند رسول الله ﷺ في صَدْر النهار، فجاءه قَوْم حُفاة عُراة مُجْتابي النِّمار أو العَباء، مُتَقَلِّدي السُّيوف ، عَامَّتهم مِن مُضَر ، بل كُلهم مِن مُضر ، فتمعَّرَ وَجْهُ رسول الله ﷺ لِمَا رأى بهم مِن الفَاقة ، فدخلَ ، ثم خرجَ ، فأمرَ بِلالاً ، فأذَّن وأقام ، فَصَلَّى ، ثم خَطَب ، فقال : ((﴿ يا أيها الناسُ اتَّقوا رَبَّكم الذي خَلقكم مِن نَفْس واحدة ﴾)) .

إن هؤلاء القومُ عليهم آثار الفقر والعُري والحاجة ، فَهُم حُفاة عُراة ، مُجتابي النِّمار . والنِّمارُ هي ثياب صوف فيها تنمير.وهؤلاء مِن شِدَّة فقرهم يَلْبسون هذه الثياب خارقين أوساطها (مُجتابي النِّمار) . والعَبَاءُ نوعٌ من الأكْسِية ، الواحدة عَباءة .

---

(٤٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ١٩٢) برقم (٧٣٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقد تغيَّر (تمعَّر) وجهُ النبيِّ ﷺ، وظَهَرَ عليه الضِّيق، بسبب هيئتهم الرَّثةِ، ومَنظرهم البائس . وهـذا مؤشـرٌ واضـح علـى أن النبـيَّ ﷺ (قائـد الأُمَّـة) يَشـعر مـع الآخـرين ، ويُشـاركهم آلامَهـم ، ويَسعى جاهدًا للتخفيف عنهم، وإزالة ما بهم من الفقر والحزن. فكان القرارُ النبويُّ بجمع الناس ، وحَثِّهم على الصدقة على هؤلاء القوم الفقراء. وقد قرأ النبيُّ ﷺ هذه الآية ، لتذكير الناس بأصلهم المشترَك ، وأن ما يَجْمعهم أكثر بكثير مِمَّا يُفرِّقهم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٠٢و١٠٣) : ((سَبب قراءة هذه الآية أنها أَبْلَغ في الحث على الصدقة عليهم ، ولِمَا فيها من تأكد الحق لِكَوْنهم أُخوة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لقد كَفَرَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ هُوَ المسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُل فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئًا إنْ أرادَ أن يُهْلِكَ المسيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ وَمَن في الأرضِ جميعًا ﴾[المائدة : ١٧] .

لقد ذَمَّ اللهُ النصرانية والنصارى،وكشفَ عقيدتهم الفاسدة، وفضح كُفرهم وباطلهم، وسُخف عقولهم. فقد زعموا أن الله حَلَّ في ذات عِيسى ، وأن عِيسى إلَه . والحقُّ أن عِيسى هو عبدُ الله ورسوله ، وخَلْقٌ مِن خَلْقه . فكيف يصيرُ المخلوقُ إلَهًا ؟! .

وقِيل إن اليعقوبية (فِرقة من النصارى) هُم الذين قالوا هذه المقولة الكُفرية الشنيعة . وقِيل : لَم يَقُل أحد مـن النصارى بـذلك ، ولكن عقيدتهم الباطلة تستلزم ذلك، لأنهم يَعتقدون أن اللاهوت (الطبيعة الإلهية) حَلَّ في الناسوت (الطبيعة البشرية) ، يعني أن في عِيسى لاهُوتًا ، وأن الله تعالى قَد حَلَّ فيه. ووَفْق كلامهم الفاسد، فإن الله هو عيسى المسيح، لذلك نَسَبَ اللهُ إلَيهم لازم قَولهم ، وبَيَّنَ جهلهم ، وفضح كُفرهم ، وأظهرَ للناس عقيدتهم الباطلة (41).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣١٧): ((قال ابن عباس : هؤلاء نصارى أهل نَجْران، وذلك أنهم اتَّخذوه إلَهًا)) اهـ .

---

(٤١) قال أبو حيان في البحر المحيط (٣/ ٤٤٨) : ((ذَكَرَ سُبحانه أنَّ مِن النصارى مَن قال : إن المسيح هو الله ، ومنهم مَن قال : هو ابن الله ، ومنهم مَن قال : هو ثالث ثلاثة . وَمِن بَعض اعتقاد النصارى استنبط مَن تَسَتَّرَ بالإسلام ظاهرًا وانتمى إلى الصُّوفية حُلول الله في الصور الجميلة ، وَمَن ذَهب مِن مَلاحدتهم إلى القَول بـ (الاتحاد والوَحدة) كالحلاج والصفَّار وابن اللبَّاج وأمثالهم ، وإنما ذَكَرْتُهُم نُصْحًا لِدِين الله ، وقد أولعَ جَهَلة مَن ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء، وادِّعائهم أنهم صَفوة الله وأولياؤه)) .

قُل يا محمد لهؤلاء النصارى الغارقين في كُفرهم وضلالهم تكذيبًا لهم : فَمَن يَستطيع أن يَمنع اللهَ إن أرادَ إهلاكَ عِيسى وأُمِّه والناس كُلِّهم ؟ . مَن يَقْدِر على إيقاف أمرِ اللهِ إذا جاءَ بتعذيب عيسى وأُمِّه والناس كُلِّهم ؟ . مَن يَمنع مِن قُدرة الله ومشيئته شَيْئًا إن أراد إهلاكَ عِيسى وأُمِّه ومَن في الأرض جميعًا ؟ . لا أحد يَستطيع أن يَمنع اللهَ أو يُوقِف أمْرَه . وهذا يعني أن الله وَحْدَه هو الإله الحق، وأن عيسى مخلوق فانٍ وعبد مَقهور خاضع للهِ تعالى. والمخلوقُ الفاني المقهورُ لا يَكون إلَهًا . والاستفهامُ في الآية ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئًا ﴾ للتوبيخ والتقريع .

وهذا دليل واضح على بُطلان أُلوهية عِيسى المزعومة . ولو كان عيسى إلَهًا لاستطاعَ تخليص نفسه من الموت ، ودافعَ عن نَفْسه وأُمِّه إذا جاء أمرُ الله بإهلاكهما . وتَمَّ تخصيص عِيسى وأُمِّه بالذِّكر مع أنهما داخلان في عُموم مَن في الأرض، لأن الدفاع عنهما أَوْلَى وأهم.وإذا عَجِزَ الإنسانُ عن حماية نَفْسِه وأُمِّه والدفاع عنهما ، فهو أعجز مِن أن يُدافع عن الناس .

والآيةُ ﴿ وَمَن في الأرضِ جميعًا ﴾ تُشير إلى قُدرة الله المطْلقة ، وأنها عامَّة شاملة ، كُل شيء خاضع لها ، وأن إرادته سُبحانَه نافذة في كُل شيء. ولا مُعارِض لله في أمره، ولا مُشارِك في قضائه. ولا رَاد لإرادة الله وأمره وحُكمه في عِيسى ، ولا في غَيره . كما تدل الآية على أن عِيسى وأُمَّه مِن جِنس مَن في الأرض ، أي إنهما ينتميان إلى الناس ، ولا يَخرجان عن دائرة الإنس ، فهما مخلوقان فانيان ، ولَيْسَا إلَهَيْن . وقد ماتت مريم ، ولَم يَستطع عِيسى أن يَحميَها مِن الموت، ولا أن يُدافِع عنها. ولو كان إلَهًا لَمَنَعَ الموتَ مِن الوصول إلى أُمِّه !.

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٥٠٤) : ((وقَوله: ﴿ إنْ أرادَ أن يُهْلِكَ المسيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ وَمَن في الأرضِ جميعًا ﴾ يقول : مَن ذا الذي يَقْدِر أن يَرُدَّ مِن أمر الله شيئًا إن شاء أن يُهْلِك المسيحَ ابن مريم بإعدامه مِن الأرض ، وإعدام أُمِّه مريم ، وإعدام جميع مَن في الأرض مِن الخلق جميعًا ؟ . يقول جَلَّ ثناؤه لِنَبِيِّه محمد ﷺ: قُل لهؤلاء الجهَلة مِن النصارى : لو كان المسيح كما تزعمون _ أنه هو الله وليس كذلك _ لَقَدِرَ أن يَرُدَّ أمرَ الله إذا جاءه بإهلاكه وإهلاك أُمِّه . وقد أهلكَ أُمَّهُ فلم يَقْدِر على دفع أمره فيها إذ نزل ذلك ، ففي ذلك لكم مُعْتَبَر إن اعتبرتُم، وحُجَّة عليكم إن عقلتُم في أن المسيح بشر كسائر بني آدم،وأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي لا يُغلَب،ولا يُقهَر ، ولا يُرَد له أمر، بل هو الحي الدائم القَيُّوم الذي يُحيي ويُميت ويُنشِئ ويُفنِي،وهو حَي لا يموت...يقول جَلَّ وَعَزَّ:كيف يكون إلَهًا يُعْبَد مَن كان عاجزًا عَن دَفْع ما أراد بِه غَيْرُه مِن السُّوء ، وغَير قادر على صَرْف ما نزل به من الهلاك ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ المسيحُ يا بني إسرائيلَ اعبدوا اللهَ ربِّي وَربَّكُم إنَّهُ مَن يُشْرِكْ باللهِ فقد حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجنَّةَ ومأواهُ النارُ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

إن عيسى المسيح يَتشرَّف بعبوديته لله ، ويَعترف بِها ، وأنه عبدٌ خاضع للهِ ، وليس إلَهًا . لقد قال عِيسى لبني إسرائيل: أنا عَبْدٌ مِثْلُكم، فاعبدوا اللهَ خالقي وخالقكم ، إلهي وإلهكم ، مالكي ومالككم. اجعلوا العبادة للهِ وَحْدَه ، الذي خَضع له كُل موجود ، وذَلَّ له كُل شيء .

فكيفَ يَزعم النصارى الكُفَّارُ أن عِيسى إِلَهٌ وهو يَعترف بأنه عَبْدٌ مِثْلُهم وليس إِلَهًا ؟ .

وإذا كان عِيسى يَدعو اللهَ ، ويَخضع له ، ويُخاطبه : يا رَب ، ويا الله . فكيفَ يكون عِيسى إِلَهًا ؟ . الإلهُ لا يَدعو أحَدًا ، ولا يَخضع لشيء ، ولا يَطلب مِن أحد . وهذا دليل واضح على بُطلان أُلوهية عِيسى المزعومة . فهو عَبْدٌ خاضعٌ للهِ ، ومُنصاعٌ لِحُكمه ، وذَليلٌ أمام أمره ونَهْيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١١) : ((وكان أول كلمة نطق بِها وهو صغير في المهد ، أن قال : إني عبد الله ، ولَم يَقُل : أنا الله ، ولا ابن الله . بَل قال : ﴿ إني عبدُ اللهِ آتانِيَ الكتابَ وجَعَلَني نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠])) اهـ .

﴿ إنَّهُ مَن يُشْرِكْ باللهِ فقد حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجنَّةَ ومأواهُ النارُ ﴾ . مَن جَعل لله شريكًا في عبادته أو في صِفاته ، ومات على ذلك ، فهو خالد مُخلَّد في النار ، ولا تُوجد فُرصة للنجاة مُطْلَقًا ، ولَن يرى الجنةَ أبَدًا ، لأنها دار الْمُوحِّدين . وهذا يدل على أن الشِّرك يُوجِب تحريم دخول الجنة .

وإظهارُ لفظ الجلالة في موضع الإضمار : ﴿ فقد حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجنَّةَ ﴾ ، ولَم يقل : فقد حَرَّمَ عليه الجنةَ ، وذلك تعظيمًا للهِ وتمجيدًا له ، وتَنبيهًا على خُطورة الأمر (الخلود في النار) .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٥٢) : ((﴿ إنَّهُ مَن يُشْرِكْ باللهِ فقد حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجنَّةَ ﴾ أن يسكنها في الآخرة ﴿ ومأواهُ النارُ ﴾ . يقول : ومرجعه ومكانه ــ الذي يأوي إليه ويصير في مَعاده مَن جَعل لله شريكًا في عبادته ــ نار جهنم)) اهـ .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال : ((إنه لا يَدخل الجنةَ إلا نَفْسٌ مُسلمة))[42].

هذا نَص صريح وواضح في أنَّ مَن ماتَ على الكُفر أو الشِّرك، فهو خالدٌ مُخلَّد في نار جهنم، ولا يَدخل الجنةَ أبَدًا . وهذا النَّص عام وشامل بإجماع المسلمين . وهو عقيدة قَطعية مِن عقائد الإسلام في كُل زمان ومكان ، لا تَقبل التأويل ولا النَّسْخ ولا التبديل ولا التغيير .

---

(٤٢) متفق عليه . البخاري (٣/ ١١١٤) برقم (٢٨٩٧) ، ومسلم (١/ ١٠٥) برقم (١١١) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لقد كفر الذينَ قالوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة ﴾[المائدة : ٧٣] [43].

إن التثليث عقيدة ثابتة في النصرانية ، وهي تُشير إلى جهل النصارى وكُفرهم وضلالهم . فَهُم يُؤمنون بأن اللهَ واحدٌ، لكن مِن منظور مُنحرفٍ مُضاد لمفهوم التَّوحيد عند المسلمين . فهم يزعمون أن اللهَ تعالى واحدٌ ذو ثلاثة أقانيم (الآب، الابن، الرُّوح القُدُس).وهذا يعني أن الله ثالث ثلاثة آلهة. ويقولون: الإلهية مُشترَكة بين الله وعيسى ومريم ، وكُل واحد مِن هؤلاء إله، فهم ثلاثة آلهة. وهذا كُفر شنيع .

وقد قرأتُ لعالِم نصراني كلامًا مضحكًا حول هذا الموضوع، فقد ضرب مَثَلاً لهذه العقيدة الفاسدة فَشَبَّهها بالشعاع الواحد الذي يَتَّخذ ثلاثة مسارات. وكأن التَّوحيدَ مسألة فيزياء متعلقة بانكسار الضوء ! .

(٤٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٠٢و٤٠٣) : ((قال مجاهد : هُم النصارى . قال وَهْب ابن مُنبِّه : لَمَّا وُلِدَ عيسى لَم يبق صنم إلا خَرَّ لوجهه ، فاجتمعت الشياطين إلى إبليس،فأخبروه فذهب فطاف أقطار الأرض، ثم رجع، فقال: هذا المولود الذي وُلِدَ مِن غَير ذَكَر، أردتُ أن أنظر إليه فوجدتُ الملائكة قد حَفَّت بأُمِّه ، فليتخلَّف عندي اثنان مِن مَرَدتكم ، فلمَّا أصبح خرج بهما في صورة الرجال، فأتوا مسجد بني إسرائيل وهم يتحدَّثون بأمر عيسى،ويقولون: مولود مِن غَير أب، فقال إبليس: ما هذا ببشر، ولكن الله أحبَّ أن يتمثل في امرأة ليختبر العباد، فقال أحد صاحبيه: ما أعظمَ ما قُلت ، ولكن الله أحبَّ أن يَتَّخذ وَلَدًا ، وقال الثالث: ما أعظم ما قُلت ، ولكن الله أراد أن يجعل إلَهًا في الأرض ، فألْقَوْا هذا الكلام على ألسنة الناس، ثُمَّ تفرَّقوا فتكلم به الناس . وقال محمد بن كعب: لَمَّا رُفِعَ عيسى اجتمع مئة مِن علماء بني إسرائيل وانتخبوا منهم أربعة، فقال أحدهما: عيسى هو الله ، كان في الأرض ما بدا له ثُمَّ صعد إلى السماء ، لأنه لا يُحيي الموتى ولا يُبرِئ الأكمه والأبرص إلا الله . وقال الثاني : ليس كذلك ، لأنَّا قد عرفنا عيسى وعرفنا أُمَّه ، ولكنه ابن الله . وقال الثالث : لا أقول كما قُلتما ، ولكن جاءت به أُمُّه مِن عمل غير صالح. فقال الرابع: لقد قلتُم قبيحًا، ولكنه عبد الله ورسوله وكلمته. فخرجوا فاتَّبع كُل رَجل مِنهم عُنُق (جماعة) من الناس. قال المفسرون: ومعنى الآية أن النصارى قالت: الإلهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم، وكُل واحد منهم إله. وفي الآية إضمار، فالمعنى: ثالث ثلاثة آلهة فَحُذِف ذِكْر الآلهة ، لأن المعنى مفهوم ، لأنه لا يَكفر مَن قال : هو ثالث ثلاثة ، وَلَم يُرِد الآلهة ، لأنه ما مِن اثنين إلا وهو ثالثهما . وقد دَلَّ على المحذوف قَوله : ﴿ وما مِن إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣])).

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٣٤) : ((وهذا قول فرق النصارى من الملكية والنُّسطورية واليعقوبية ، لأنهم يقولون : أب وابن ورُوح القُدُس إله واحد ، ولا يقولون ثلاثة آلهة ، وهو معنى مذهبهم . وإنما يمتنعون من العبارة وهي لازمة لهم ، وما كان هكذا صَحَّ أن يُحكى بالعبارة اللازمة وذلك أنهم يقولون : إن الابن إله ، والأب إله ، وروح القدس إله)) اهـ .

وفي صفوة التفاسير (٣/ ٣٦) : ((قال السُّدي : نزلت في جعلهم المسيحَ وأُمَّه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار . وقال في البحر : يقولون جوهر واحد وثلاثة أقانيم " أب وابن وروح قُدُس " وهذه الثلاثة إله واحد ، كما أن الشمس تتناول القُرص والشُّعاع والحرارة ، وزعموا أن الأب إله ، والابن إله ، والرُّوح إله ، والكل إله واحد ، وهذا معلوم البُطلان ببداهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحدًا ، وأن الواحد لا يكون ثلاثة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما المسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ كانا يأكلانِ الطعامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لهمُ الآياتِ ثُمَّ انظُرْ أنَّى يُؤفَكُون ﴾ [المائدة : ٧٥] .

هذا احتجاجٌ إلهيٌّ للنبيِّ محمد ﷺ على النصارى الذين ألَّهوا عِيسى،وجَعلوه إلَهًا وابْنًا لله تعالى. وقد كذَّبهم اللهُ وفضح كُفرهم وضَلالهم. إن عِيسى عبد الله ورسوله، كسائر الرُّسل الذين أرسلهم اللهُ قبله . وقد أجرى اللهُ على يديه المعجِزات تصديقًا لِنُبُوَّته ، وإقامةً للحُجَّة على الناس ، كما أجرى على أيدي مَن قَبله مِن الرُّسل مِن الآيات والمعجِزات ، تصديقًا لهم ، وتأييدًا لهم بالْحُجَّة . وهذا رَدٌّ إلهيٌّ بليغ على النصارى ، واحتجاج عليهم . وإذا كان عِيسى إلَهًا بسبب ظُهور المعجِزات على يديه،فهذا يَعني أن كُل رسول جاء بالمعجِزات هو إلَه،وأن جميع الرُّسُل هُم آلهة!. وهذا أمرٌ باطلٌ ، ومرفوض نقلاً وعقلاً ، والنصارى أنفسهم لا يَقولون بِه .

إن إحياء عِيسى للموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، لَم يَكن مِن صُنع يديه ، ولَم يَقُم بهذه المعجِزات بشكل مُستقل عن إرادة الله وقُدرته ، لأن عيسى عبدٌ لله ، وليس إلَهًا . إن اللهَ أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص على يد عيسى ، كما جعل عصا مُوسى (الجماد) حَيَّة تسعى . وأيضًا ، لقد خلق اللهُ عِيسى مِن غَير أب ، كما خلق آدم مِن غَير أب ولا أُم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٤) : ((أي : ما هو إلا رسول كالرُّسُل قَبْله ، خَصَّه اللهُ سُبحانَه وتعالى بالآيات كما خَصَّهم بها ، فإن أحيا الموتى على يده ، فقد أحيا العصا وجعلها حَيَّةً تسعى على يَد موسى عليه السلام ، وهو أعجب . وإن خَلَقَه مِن غَير أب ، فقد خلق آدم مِن غَير أب وأُم ، وهو أغرب)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٢/٤٠٤):((قَوله تعالى:﴿ ما المسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رسولٌ ﴾ فيه رَد على اليهود في تكذيبهم رِسالته،وعلى النصارى في ادِّعائهم إلهيته.والمعنى أنه ليس بإله ، وإنما حُكمه حُكم مَن سَبَقه مِن الرُّسل)) اهـ .

﴿ وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ ﴾ . وأُمُّه مريم وصلت إلى قِمَّة الصِّدق ، فقدكانت مُؤمنة بالله ، وعابدة له ، ومُصدِّقة له.وهذه أعلى درجة وصلت إلَيها. مِمَّا يدل بوضوح على أن مريم ليست نَبِيَّةً ولا إلَهَةً ، ولا أُمًّا للإله . وسَمَّاها اللهُ صِدِّيقةً لكثرة تصديقها بآيات الله وأحكامه وأوامره. والصِّدِّيقةُ الْمُبالِغة في الصِّدق،وهذا رَد على اليهود الذين اتَّهموها بالزِّنا،وهي أشرف مِن الشَّرف وأطهر مِن الطهارة.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١١) : ((فَدَلَّ على أنها ليست بِنَبِيَّة كما زعمه ابن حزم وغَيره ، مِمَّن ذهب إلى نُبُوَّة سارة أُم إسحاق ونُبُوَّة أُم موسى ونُبُوَّة أُم عيسى ، استدلالاً مِنهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم)) اهـ .

والذي عليه جمهور العُلماء أن اللهَ لَم يَبعث نَبِيًّا إلا مِن الرجال . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ إلا رِجالاً نُوحِي إلَيْهِم ﴾[النَّحْل : ٤٣] . ((وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك)) " تفسير ابن كثير (٢/ ١١١) ".

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٩٣) : ((﴿ وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ ﴾ عطف على المسيح ، أي : وما أُمُّه إلا صِدِّيقة : أي صادقة فيما تقوله ، أو مُصدِّقة لِمَا جاء به ولدها مِن الرسالة ، وذلك لا يستلزم الإلهية لها ، بَل هي كسائر مَن يَتَّصف بهذا الوصف من النساء)) اهـ .

﴿كانا يأكلانِ الطعامَ ﴾ . إنَّ عيسى ومريم عَبْدان مَخلوقان مِن لحم ودم، مِثل باقي البشر . وهُما يَحتاجان إلى الطعام للبقاء على قَيد الحياة ، وهذا دليل ضعف وعَجْز ، ومَن كان مُحتاجًا إلى شَيء لا يَكون إلَهًا،لأن الإلهُ الحق هو الغنيُّ عن كُل شَيء، ولا يَحتاج شَيئًا.وأيضًا مَن يَأكل الطعام يَحتاج إلى إخراجه ، فَكيفَ يَكون إلَهًا مَعبودًا مَن يَحتاج إلى إخراج الغائط والبَوْل للبقاء حَيًّا ؟!. إنهما مِن لحم ودم وعُروق وأعصاب. يأكلان ويَشربان ويَبُولان ويَتغوَّطان ، وهذه أوصاف البشرية الناقصة الضعيفة العاجزة ، وليست أوصاف الأُلوهية الكاملة المقدَّسة . وهذا يدل على أنهما جِسمان مَصنوعان،والمصنوعُ لا يَكون صانعًا،والمخلوق لا يَكون خالقًا، والعبد لا يَكون إلَهًا. وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٣٥) : ((﴿كانا يأكلانِ الطعامَ ﴾ أي إنه مولود مَربوب . وَمَن وَلَدَتْهُ النساء ، وكان يأكل الطعام ، مخلوق مُحْدَث كسائر المخلوقين ، ولَم يدفع هذا أحد منهم ، فمتى يصلح المربوب لأن يكون رَبًّا ؟ . وقولهم : كان يأكل بناسوته لا بلاهوته ، فهذا

منهم مُصيِّر إلى الاختلاط ، ولا يُتصوَّر اختلاط إله بغير إله . ولو جاز اختلاط القديم بالْمُحْدَث لجازَ أن يصير القديم مُحْدَثًا ، ولو صَحَّ هذا في حق عيسى لَصَحَّ في حق غَيره حتى يُقال : اللاهوت مُخالِط لكل مُحْدَث)) اهـ .

﴿ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لهمُ الآياتِ ﴾ . تَعجيبٌ مِن حال النصارى الغارقين في الكُفر والضَّلال . لقد وضَّح اللهُ الآياتِ والْحُجَج والبراهين والأدلة على بُطلان أُلوهية عيسى ﷺ . وبَيَّنَ اللهُ أن عيسى هو عبد الله ورسوله ، وليس إلَهًا ولا ابْنًا للإله .

﴿ ثُمَّ انظُرْ أنَّى يُؤفَكُون ﴾ . ثُمَّ انظُر يا محمد كيف يُصْرَفُون عن استماع الحق وتأمُّله بعد هذا البيان الإلهيِّ الواضح . وتَمَّ تكريرُ الأمر بالنظر للمُبالَغة في التعجيب مِن كُفرهم وضلالهم ورفضهم للحق الواضح الذي لا يَحتمل التأويل . وهذا يدل على شِدَّة كُفر النصارى وعنادهم وجهلهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٤) : ((و ﴿ ثُمَّ ﴾ لِتَفَاوُت ما بين العجيبين ، أي : إن بياننا للآيات عَجَب ، وإعراضهم عنها أعجب)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٥٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ : انظر يا محمد كيف نُبيِّن لهؤلاء الكَفَرة من اليهود والنصارى ﴿ الآياتِ ﴾ ، وهي الأدلة والأعلام والْحُجَج على بُطُول (كَذِب) ما يقولون في أنبياء الله، وفي فِرْيتهم على الله وادِّعائهم له وَلَدًا، وشهادتهم لبعض خَلْقه بأنه لهم رَب وإله، ثُمَّ لا يرتدعون عن كذبهم وباطل قِيلهم،ولا يَنْزجرون عن فِريتهم على رَبِّهم، وعظيم جهلهم مع وُرود الْحُجَج القاطعة عُذْرَهم عَليهم. يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ : ﴿ ثُمَّ انظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ أنَّى يُؤفَكُون ﴾ . يقول: ثم انظر مَعَ تبييننا لهم آياتنا على بُطُول قَولهم أي وجه يُصْرَفون عن بياننا الذي نُبيِّنه لهم ؟وكيف عن الهدى الذي نهديهم إليه من الحق يَضِلُّون ؟)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ لهُ إلا هُوَ وإن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قدير ﴾ [الأنعام : ١٧] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : إن يُصبكَ اللهُ بِشِدَّة أو بلاء أو فقر أو مرض ، فلن يَكشف عَنكَ ذلك إلا الله ، ولا قادر على كَشْفه ورَفْعه وإزالته سِواه . وإن يُصبكَ برخاء في العَيش وكثرة الأموال والصحة والعافية ، فلا مانع لِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَليك . فاللهُ قادر على كُل شيء مِن الخير والشَّر، والنفع والضَّر. والآيةُ دليل على وَحدانية الله، لأنه وَحْدَه مالك النفع والضَّر ، والْمُتصرِّف في خَلْقه كيف يشاء . قادرٌ على إدامة الخير وإزالته ، وقادرٌ على إدامة الضُّر وإزالته. لا يُسأل عَمَّا يَفعل ، ولا مُعقِّب لِحُكمه . مشيئته فوق كُل شيء ، وإرادته نافذة في كل شيء .

والمعنى العام للآية أن الأشياء كُلَّها بيد الله ، وأن الخير والشَّر مِن الله . وكُل شَيء بَقُدرة الله وإرادته . فاللهُ هو خالق الخير والشَّر والنفع والضَّر . ولا يَقْدِر على جَلب النفع والضَّر إلا الله . وما شاءَ اللهُ كان ، وما لَم يَشأ لَم يَكُن .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٢) : ((الضُّر اسم جامع لكل ما يَتضرَّر به الإنسان مِن فقر ومرض وغَير ذلك. والخير اسم جامع لكل ما ينتفع به الإنسان . وللمُفسِّرين في الضُّر والخير قولان: أحدهما أن الضُّر السُّقْم، والخير العافية.والثاني أن الضُّر الفقر،والخير الغِنى))[44].

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٦٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : والله الذي أصابك بذلك ، فهو على كل شيء قدير ، هو القادر على نفعك وضَرِّك ، وهو على كل شيء يُريده قادر ، لا يُعجِزه شيء يُريده ، ولا يمتنع مِنه شيء طَلَبه ، ليس كالآلهة الذليلة المهينة التي لا تَقْدِر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غَيرها ، ولا دفع ضُر عنها ولا غَيرها . يقول تعالى ذِكْرُه : فكيف تعبد مَن كان هكذا ، أَم كيف لا تُخْلِص العبادة وتُقِر لِمَن كان بيده الضَّر والنفع والثواب والعقاب، وله القُدرة الكاملة والعِزَّة الظاهرة ؟)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ أن النبيَّ ﷺ قال : ((وَاعْلَمْ أن الأُمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لَم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ لك ، ولو اجتمعوا على أن يَضُرُّوك لَم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفعت الأقلامُ ، وجَفَّت الصُّحف)) [سبق تخريجه وشَرْحه] .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول:((اللهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ،ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ))[45].

إنَّ اللهَ تعالى هو الْمُعطي المانع ، يُعطي مَن يشاء ، ويَمنع مَن يشاء . وله الحِكمة البالغة في ذلك ، وهو العادل في أحكامه ، وأعلم بالناس مِن أنفسهم . لا يَظلم أحَدًا . يَعلم ما يُصلِحهم وما يُفسِدهم . إن أعطى الناسَ فَبِفَضْلِه ، وله المِنَّة عليهم . وإن مَنَعَهم فَبِعَدْلِه ، وله الْحُجَّة عليهم .

---

(٤٤) قال ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٤٨٢) : ((في أَسماء الله تعالى النَّافِعُ الضَّارُّ ، وهو الذي ينفع مَن يشاء مِن خَلْقه ويَضُرُّه ، حيث هو خالق الأَشياء كُلِّها خَيرِها وشَرِّها ونفعها وضَرِّها. الضَّرُّ والضُّرُّ لغتان ضد النفع . والضَّرُّ المصدر ، والضُّرُّ الاسم . وقِيل : هُما لغتان كالشَّهْد والشُّهْد . فإِذا جَمعتَ بين الضَّرِّ والنفع ، فَتحتَ الضاد ، وإِذا أَفردتَ الضُّرَّ ، ضَمَمْتَ الضاد ، إِذا لَمْ تجعله مصدرًا . كَقَولك : ضَرَرْتُ ضَرًّا ، هكذا تستعمله العرب)).

(٤٥) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٨٩) برقم (٨٠٨) ، ومسلم (١/ ٤١٤) برقم (٥٩٣) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ ويَوْمَ نَحْشُرُهُم جميعًا ثُمَّ نقولُ للذينَ أشركوا أيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الذينَ كُنتُم تَزْعُمُون ﴾ [الأنعام : ٢٢] .

عندما يَحشر اللهُ المشركين يوم القيامة للحساب ، سوف يَسألهم على رؤوس الأشهاد عن الأصنام والأنداد التي اتَّخذوها آلهةً وعبدوها مِن دُون الله ، أين آلهتكم الباطلة التي كُنتم تزعمون أنها شريكة مع الله ، وتَشفع لكم عنده ؟ ، فأتوا بها إن كُنتم صادقين ، وذلك كَي تحميَهم مِن عذاب الله وتُدافع عنهم. والمقصودُ بالسؤال هو توبيخهم وتقريعهم وفضحهم. وآلهتهم العاجزةُ لَم تجئ لِتُدافع عنهم، ولَم يَنتفعوا بعبادتها ، وكان وُجودها كعدمه .

وهؤلاء المشركون افْتَرَوْا على اللهِ الكذبَ ، حيث زَعموا أن لله شَريكًا في أُلوهية ومُلكه وسُلطانه، وكذَّبوا بآياته ، ورَفضوا دَعوة أنبيائه ، فخسروا الدنيا والآخرة مَعًا ، ولَم يُفلِحوا في الدنيا، ولَن يُفلِحوا في الآخرة يوم يَجمعهم اللهُ للحساب ، ويَفضحهم أمام الخلائق كُلِّها .

وقد أضاف اللهُ الشُّركاءَ إليهم : ﴿ شُرَكاؤُكُمُ ﴾ لأنهم زعموا أنها شُركاء الله . وفي الحقيقة لَم تكن شُركاء لله ، لأن الله مُنَزَّهٌ عن الشريك .

وفي تفسير القرطبي (٦/ ٣٦٨) : ((قال ابن عباس: كُل زعم في القرآن فهو كَذِب)) اهـ.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٩): ((﴿ ويَوْمَ نَحْشُرُهُم جميعًا ﴾ منصوب بِمُضْمَر تهويلاً للأمر ﴿ ثُمَّ نقولُ للذينَ أشركوا أيْنَ شُرَكاؤُكُمُ ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شُركاء الله ﴿ الذينَ كُنتُم تَزْعُمُون ﴾ أي تزعمونهم شُركاء ، فَحُذِف المفعولان. والمراد مِن الاستفهام التوبيخ ، ولعله يُحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ، ليفقدوها في الساعة التي عَلَّقوا بها الرجاء فيها ، ويُحْتَمَل أن يُشاهدوهم ولكن لَمَّا لَم ينفعوهم فكأنهم غَيْب عنهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ لَم تَكُن فِتْنَتُهُم إلا أن قالوا واللهِ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشرِكين ﴾[الأنعام : ٢٣].

ثُمَّ لَم يكن جوابهم عن السؤال الإلهيِّ في حال امتحانهم واختبارهم ، إلا أن أقسموا بالله كاذبين ، وتَبَرَّؤوا مِن شِرْكهم وأنكروه لَمَّا رَأَوا الحقائق أمام أعينهم . ولَم تكن عاقبة افتتانهم بالأوثان وحُبِّهم لها ، إلا أن تَبَرَّؤوا مِنها ، وأنكروا عبادتها ، وأهملوها بشكل كامل.

وقد أقسموا بالله كاذبين مَعَ عِلْمهم بأن هذا لَن يُنقذهم ولَن يَنفعهم ، وذلك بسبب شِدَّة الموقف وصعوبته ، ودهشتهم وحَيرتهم وقلقهم . والهدفُ مِن كذبهم هو الخلاص وإنقاذ أنفسهم .

والفِتنةُ هي الاختبار والابتلاء ، وبما أن جواب المشركين وقع في حال الاختبار ، وُضِعَت الفِتنة التي هِيَ الاختبار في موضع جوابهم ومعذرتهم .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٦٩):((قَوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَم تَكُن فِتْنَتُهُم ﴾ الفِتنة الاختبار. أي لَم يكن جوابهم حين أُخْبِرُوا بهذا السؤال ، وَرَأَوا الحقائق ، وارتفعت الدواعي ﴿ إلا أن قالوا واللهِ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشرِكين ﴾ تَبَرَّؤوا مِن الشِّرك وانتَفَوْا مِنه ، لَمَّا رَأَوْا مِن تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عباس : يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم ، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشِّرك ، فتعالَوْا نقول : إنَّا كُنَّا أهل ذنوب ولَم نكن مشركين . فقال الله تعالى: أمَّا إذْ كتموا الشِّرك فاختموا على أفواههم، فَيُخْتَم على أفواههم ، فتنطق أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، فعند ذلك يَعرف المشركون أن الله لا يُكتَم حديثًا . وقال أبو إسحاق والزَّجاج : تأويل هذه الآية لطيف جِدًّا . أخبر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَصَص المشركين وافتتانهم بِشِرْكهم ، ثم أخبر أن فِتنتهم لَم تكن حين رَأَوا الحقائق إلا أن انتَفَوْا مِن الشِّرك . ونظير هذا في اللغة أن ترى إنسانًا يحب غاويًا ، فإذا وقع في هَلَكَة تَبَرَّأَ منه ، فَيُقال: ما كانت محبتك إيَّاه إلا أن تَبَرَّأْتَ منه. وقال الحسن: هذا خاص بالمنافقين جَرْيًا على عادتهم في الدنيا . ومعناه : فِتنتهم عاقبة فِتنتهم ، أي كفرهم . وقال قتادة : معناه معذرتهم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٦و١٧) : ((وفي الفِتنة أربعة أقوال : أحدها أنها بمعنى الكلام والقَول ، قال ابن عباس والضَّحاك : لَم يكن كلامهم . والثاني أنها المعذرة ، قال قتادة وابن زيد: لَم تكن معذرتهم.قال ابن الأنباري:فالمعنى اعتذروا بما هو مُهْلِك لهم وسبب لفضيحتهم. والثالث أنها بمعنى البَلِيَّة . قال عطاء الخراساني : لَم تكن بَلِيَّتهم . وقال أبو عُبَيد : لَم تكن بليتهم التي ألزمتهم الْحُجَّة وزادتهم لائمة.والرابع أنها بمعنى الافتتان. والمعنى: لَم تكن عاقبة فِتنتهم... . وقال ابن الأنباري : المعنى أنهم افتتنوا بقولهم هذا ، إذ كذبوا فيه ، ونَفَوْا عن أنفسهم ما كانوا معروفين به في الدنيا ... . وفي هؤلاء القوم الذين هذا وَصْفهم قولان : أحدهما أنهم المشركون ، والثاني المنافقون . ومتى يحلفون فيه ثلاثة أقوال : أحدها إذا رَأَوْا أنه لا يَدخل الجنة إلا مَن كان مُسْلِمًا ، قالوا : تَعَالَوْا نُكَابِر عن شِرْكنا ، فحلفوا . قاله ابن عباس . والثاني أنهم إذا دخلوا النار ورَأَوْا أهل التوحيد يَخرجون حَلَفوا واعتذروا ، قاله سعيد بن جُبَير ومجاهد . والثالث أنهم إذا سُئِلوا : أين شركاؤكم ؟ ، تَبَرَّؤوا ، وحلفوا ما كُنَّا مُشركين ، قاله مقاتل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبوا على أنفُسِهِم وضَلَّ عَنهُم ما كانوا يَفْتَرُون﴾[الأنعام: ٢٤].

هذا الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ . انظر يا محمد كيف كذب هؤلاء المشركون عُبَّاد الأصنام والأوثان على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام الله الذي يَعلم السِّر والعلانية . لقد أنكَروا ما وقع

مِنهم في الدنيا مِن الشِّرك وعبادة الأصنام واتِّخاذ الآلهة الباطلة ، أمام عَلاَّم الغيوب الذي يَعْلَم كُلَّ شَيء . لقد كذبوا على أنفسهم باعتذارهم بالباطل ، والتَّبَرُّؤ مِن الشِّرك . والآيةُ لتعجيب النبيِّ ﷺ مِن كذبهم الواضح ، واضطراب حالهم ، وتناقض دَعْواهم .

والنظرُ في الآية هو نظر القلب ، وليس نظر العَيْن . أي : نظر الاعتبار .

وفَارَقَتْهُم الأصنام والأوثان والأنداد والآلهة التي كانوا يَعبدونها مِن دُون الله، وانقطعت العلاقة بين المشركين وآلهتهم الباطلة ، وحدثت القطيعة الكاملة بين الطرفين . وزالَ وذهبَ ما كانوا يَرجونه مِن شفاعة الأصنام،وغاب عنهم ما كانوا يَفترون إلهيته وشفاعته، وذهب افتراؤهم في الدنيا وكذبهم على الله ، وبَطَلَت عقيدتهم الفاسدة في ذلك اليوم الرهيب . لقد كانوا يَعتقدون أن الأصنام تُقرِّبهم إلى الله ، وتشفع لهم عنده . وقد تلاشى هذا الزَّعْم ، وزالت أوهامهم ، واتَّضحت الحقيقة الصادمة أمام أعينهم ، وأُسْقِط في أيديهم ، ووقعوا في الْحَيرة والدهشة والذهول .

والجديرُ بالذِّكر أن وجود الفِعل الماضي ﴿ كَذَبوا ﴾ مَعَ أن الموقف لَم يَقع في الدنيا ، وإنما سيقع في يوم القيامة، يُفيد تحقيق الفِعل وإثباته،والتأكيد عليه،ووقوعه لا مَحالة. لذلك اسْتُعْمِل الماضي في موضع المستقبل .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/١٨):((قَوله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبوا على أنفُسِهِم ﴾ أي: باعتذارهم بالباطل . ﴿ وضَلَّ عَنهُم ما كانوا يَفْتَرُون ﴾ أي : ذهب ما كانوا يَدَّعُون ويَختلقون مِن أن الأصنام شُرَكاء لله ، وشُفعاؤهم في الآخرة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل أرَأَيْتُم إنْ أخذَ اللهُ سَمْعَكُم وأبصارَكُم وخَتَمَ على قُلوبِكم مَن إلهٌ غَيْرُ اللهِ يأتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَّ هُم يَصْدِفُون ﴾[الأنعام : ٤٦] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً مِن دُون الله ، وكذَّبوا بآياته : إن أَخَذَ اللهُ حَوَاسَّكم كما أعطاكم إيَّاها،وأصَمَّكم حتى لا تَسمعوا شَيْئًا،وأعماكم حتى لا تُبْصِرُوا شَيْئًا، وطَبَعَ على قلوبكم فَسَلَبَ العقولَ والتمييز ، حتى فَقَدَت القُدرةَ على الفهم والمعرفة وإدراك الأشياء . هل يَقْدِر أحد غَير الله أن يُعيد إليكم ما سَلَبَه اللهُ مِنكم ؟. والجوابُ لَم يُذكَر في الآية لأنه معروف . لا أحد غَير الله يَقْدِر على ذلك .

انظر يا محمد كيف نُبيِّن لهم الأدلة لِيعَتبروا ويَذَّكروا ويَرجعوا إلى اللهِ ، ونُظْهِر لهم الْحُجَج والبراهين الدَّالة على وَحدانية الله وكمال قُدرته، وصِدْق نُبُوَّتك ، وأن الأصنام آلهة باطلة لا تستحق العبادة،وأن الله وَحْدَه هو المستحق للعبادة، ثُمَّ هُم بعد هذا البيان الواضح والدليل البَيِّن ،

يُعْرِضون عن الحق مُكذِّبين له ، ولا يَعتبرون ولا يُؤمنون . ويُبْعِدُون الناسَ عن الحق ولا يَرْتدعون ، ويَرفضون الأدلة والْحُجَج والبراهين . إنهم ضَالون في أنفسهم ومُضِلُّون لِغَيرهم في آنٍ مَعًا.وهذا مُنتهى الكفر والضلال. والصُّدُوف هو الإعراض عن الشَّيء. والآية احتجاج على الكفار ، وأيضًا لتعجيب النبيِّﷺ مِن عِنادهم وكُفرهم وضلالهم بعد ظُهور الأدلة أمامهم بشكل واضح لا لَبْسَ فيه.

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٩٥) : ((وهذا مِن الله تعالى ذِكْرُه تعليم نَبِيِّه الْحُجَّة على المشركين بِه . يقول له : قل لهم : إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضَرًّا ولا نفعًا، وإنما يستحق العبادة عليكم مَن كان بيده الضَّر والنفع ، والقبض والبسط ، القادر على كل ما أراد ، لا العاجز الذي لا يَقْدِر على شيء)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ سَمْعَكُم ﴾ جاءت بصيغة الْمُفرَد ، في حِين أن ﴿ أبصارَكُم ﴾ بالجمع ، وذلك لأن ﴿ سَمْعَكُم ﴾ مصدر يدل على الجمع . وأيضًا ، الآيةُ تُبيِّن أفضليةَ السَّمع على البصر لِتَقَدُّمه هنا ، وفي غَير آية . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠٩) : ((و﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظُهورها)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤١و٤٢):((﴿ مَن إلهٌ غَيْرُ اللهِ يأتيكُم بِهِ ﴾ في هاء ﴿ بِهِ ﴾ ثلاثة اقوال : أحدها أنها تعود على الفِعل ، والمعنى : يأتيكم بما أخذ اللهُ مِنكم ، قاله الزَّجاج. وقال الفَرَّاء : إذا كَنَّيْتَ عن الأفاعيل وإن كَثُرَت وَحَّدْتَ الكِناية ، كَقَوله للرَّجل : إقبالك وإدبارك يُؤذيني . والثاني أنها تعود إلى الهدى ، ذَكَرَه الفَرَّاء . فعلى هذا تكون الكِناية عن غَير مذكور ، ولكن المعنى يشتمل عليه ، لأن مَن أَخَذَ سَمْعَه وبصره وختم على قلبه لَم يَهْتَدِ . والثالث أنها تعود على السَّمْع ، ويكون ما عطف عليه داخلاً معه في القصة ، لأنه معطوف عليه ، ذَكَرَه الزَّجاج ... قَوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ﴾ . قال مقاتل : يعني تكوُّن العلامات في أمور شَتَّى ، فَيُخوِّفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب ، وبما صنع بالأمم الخالية ﴿ ثُمَّ هُم يَصْدِفُون ﴾ أي : يُعْرِضُون فلا يَعْتبرون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وعِندَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلا هُوَ ويَعْلَمُ ما في البَرِّ والبَحْرِ وما تَسْقُطُ مِن وَرَقةٍ إلا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كِتابٍ مُبين ﴾[الأنعام : ٥٩] .

وعِند اللهِ خَزائنُ الغَيب (ما غاب عن الإنسان) ، فهو وَحْدَه الذي يَعلم الأمورَ المخفية والغائبة عن الناس ، وهُم لا يَعرفونها ولا يُدركونها . أمَّا اللهُ تعالى فهو يَعلم كُلَّ شَيء .

ومَن كان يَعْلم الغَيْبَ ، فَمِن باب أولى أنه يَعلم الظاهرَ . ومَن يَعْلَم السِّر ، فلا شَك أنه يَعْلَم العلانية. واللهُ قد أحاطَ بكل شيء عِلْمًا . واللهُ وَحْدَه هو الْمُتَوَصِّل إلى الغَيْب ، والْمُحيط بِه عِلْمًا.

والآيةُ تردُّ على الذين يَزعمون معرفة الغَيب ، وتفضح كذبهم ، وتكشف باطلهم ، مِثل : الْمُنجِّمين ، والكُهَّان ، والعرَّافين ، والذين يَقرؤون الفناجين ، والذين يستخدمون الأبراج لمعرفة الغَيب ــ وَفْق زعمهم ــ . وكما قِيل : كَذَبَ الْمُنجِّمون ولو صَدَقوا . والنبيُّ ﷺ شخصيًّا لا يَعلم الغَيْبَ إلا إذا أخبره اللهُ بِه، فما بالك بمن هو دُون النبيِّ ﷺ ؟! . وكُل الناس دُون النبيِّ ﷺ وتحته.

وفي الآية استعارة جميلة ولطيفة ، حيث جَعل للغَيب مفاتح (جَمْع مِفْتَح وهو المِفتاح الذي يُفتَح به) ، لأن المفاتح (المفاتيح) يُتَوَصَّل بها إلى ما في الخزائن الْمُغلَقة بإحكام ، وهذه يعني التَّوَصُّل إلى الغيوب . ومَن امتلكَ المِفتاح وعَلِمَ كيفية فتح الخزائن الْمُغلَقة ، اطَّلَعَ على ما في داخلها . والمعنى : إن الله وَحْدَه هو الذي يَعلم الغَيْبَ ، ولا أحد يَقْدِر على الوصول إليه [46].

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥) : ((... في الآية استعارة عن التَّوَصُّل إلى الغيوب ، كما يُتَوَصَّل في الشاهد بالمِفتاح إلى الْمُغيَّب عن الإنسان . ولذلك قال بعضهم : هو مأخوذ مِن قَول الناس : افتح عليَّ كذا ، أي أعطني أو عَلِّمْني ما أتوصَّل إليه به . فالله تعالى عنده عِلْم الغَيْب ، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو ، فمن شاءَ إطلاعَه عليها أطلعه ، ومن شاء حَجْبه عنها حَجَبَه،ولا يكون ذلك مِن إفاضته إلا على رُسُله))اهـ.وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٤١٥): ((﴿ لا يَعْلَمُها إلا هُوَ ﴾ فيعلم أوقاتها، وما في تعجيلها وتأخيرها مِن الحِكَم ، فَيُظْهِرها على ما اقتضته حِكمته، وتَعَلَّقَت به مشيئته.وفيه دليل على أنه سُبحانَه وتعالى يَعْلَم الأشياء قبل وقوعها)).

وفي صحيح البخاري(٤/ ١٦٩٣) : عن سالم بن عبد الله عن أبيه : أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((مفاتح الغيب خَمْس : ﴿ إنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ ما في الأرحامِ وما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبير ﴾)) .

---

(٤٦) قال البغوي في تفسيره (١/ ١٥٠) : ((وقال الضَّحاك ومقاتل : مفاتح الغَيْب خزائن الأرض وعِلْم نزول العذاب. وقال عطاء: ما غاب عنكم مِن الثواب والعقاب. وقِيل : انقضاء الآجال. وقِيل : أحوال العباد مِن السعادة والشَّقاوة وخواتيم أعمالهم.وقِيل:هي ما لَم يكن بَعْد، أنه يكون أم لا يكون. وما يكون كيف يكون ، وما لا يكون أن لَوْ كان كيف يكون . وقال ابن مسعود : أُوتِيَ نَبِيُّكُم عِلْمَ كُل شَيء ، إلا عِلْم مفاتيح الغَيْب)) .

﴿ ويَعْلَـمُ ما في البَـرِّ والبَحْرِ ﴾.لقد أحاطَ عِلْـمُ الله بجميع الكائنات والموجودات في البَر والبحر. يَعلم ما في البَر من النبات والشجر والحيوانات والجمادات ، ويَعلم ما في البحر مِن الأسماك والدَّواب ، ورِزق ما فيها ، وعِلْـمُ اللهِ شامل لكل شَيء إجمالاً وتفصيلاً ، واللهُ سُبحانَه يَعلم الكُلِّيات والجزئيات ، ولا يَخفى عليه شَيء في البَر ولا في البَحر ولا في السماء ، كائنًا مَا كان . وتَمَّ تخصيص البَر والبحر ، لأنهما أعظم مخلوقات الله القريبة مِن حياة الإنسان ، وفيهما تتجلى آثار قُدرة الله المطْلقة ، والناسُ يُشاهدون البَر والبحر وما فيهما مِن عجائب صُنع الله بأعينهم. وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٥٠): ((قال مجاهد : البَر : المفاوز والقِفار . والبحر : القُرى والأمصار ، لا يحدث فيهما شيء إلا يَعْلمه . وقيل : هو البَر والبحر المعروف)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢١٠) : ((﴿ ويَعْلَمُ ما في البَرِّ والبَحْرِ ﴾ يقول : وعِنده عِلْم ما لَم يَغِبْ أيضًا عنكم ، لأن ما في البَر والبحر مِمَّا هو ظاهر للعَيْن يَعْلمه العباد ، فكان معنى الكلام : وعِند الله عِلْم ما غاب عنكم أيها الناس ، مِمَّا لا تعلمونه ولن تعلموه ، مِمَّا استأثر بِعِلْمه نَفْسَه ، ويَعلم أيضًا مع ذلك جميع ما يَعْلمه جميعكم ، لا يخفى عليه شيء ، لأنه لا شيء إلا ما يخفى عن الناس ، أو ما لا يخفى عليهم،فأخبر تعالى ذِكْرُه أن عنده عِلْم كُل شيء كان ، ويكون ، وما هو كائن مِمَّا لَم يكن بَعْد ، وذلك هو الغَيْب)) اهـ .

﴿ وما تَسْقُطُ مِن وَرقةٍ إلا يَعْلَمُها ﴾ . لا تَسقط ورقة من الشجر ، إلا ويَعلم متى سَقطت ، وأين سَقطت ، وكَم تدور في الهواء . أي إن الله يَعلم زمان سقوطها ومكانه وأحوالها . وهذا يدل على إحاطة عِلْم الله بالجزئيات وأدقِّ التفاصيل . وتخصيص حال السُّقوط بالذِّكر يدل على أن الله تَعالى يَعْلم أحوال الورقة كُلَّها، قبل سُقوطها ، وأثناء سُقوطها ، وبعد سُقوطها .

إنَّ ﴿ ما ﴾ للنَّفْي ، و﴿ مِن ﴾ للاستغراق . أي : يَعلم عدد الأوراق وأحوالها وأوضاعها قبل السُّقوط وبعده . وهذه مُبالَغة حقيقية في إحاطة عِلْم الله بالجزئيات .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٥٠) : ((﴿ وما تَسْقُطُ مِن وَرقةٍ إلا يَعْلَمُها ﴾ يريد ساقطة وثابتة، يعني : يعلم عدد ما يَسقط من ورق الشجر، وما يبقى عليه . وقِيل : يَعْلم كَم انقلبت ظَهْرًا لبطن ، إلى أن سقطت على الأرض)) اهـ . وفي زاد المسير (٣/ ٥٤) : ((قال الزَّجاج : المعنى أنه يَعْلمها ساقطة وثابتة ، كما تقول : ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه ، ليس تأويله أعرفه في حال مَجيئه فقط)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٨٤) : ((أي : ويَعْلم الحركات حتى مِن الجمادات ، فما ظَنُّك بالحيوانات ولا سِيَّما الْمُكَلَّفون مِنهم مِن جِنِّهم وإنسهم ؟!)) اهـ .

وفي الدُّر المنثور (٣/ ٢٧٨) : ((وأخرج الخطيب في تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : " ما مِن زرع على الأرض ، ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا رِزق فُلان بن فُلان ، وذلك قَوله تعالى : ﴿ وما تَسْقُطُ مِن وَرقةٍ إلا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كِتابٍ مُبين ﴾)) اهـ . ﴿ ولا حَبَّةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ﴾ . ولا حَبَّة صغيرة في التراب تحت الأرض (باطن الأرض) أو الأماكن المظلمة _ والمقصود في أشد أحوال الخفاء والتَّغيُّب _ إلا يَعلمها ، ويَعلم كُل شيء عنها . وفي تفسير القرطبي(٧/٥):((وقِيل: ... ولا حَبَّة إلا يَعْلَم متى تُنبِت، وَكَم تُنبِت، وَمَن يَأكلها)) اهـ . ﴿ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كِتابٍ مُبين ﴾ . ولا شَيء فيه رُطوبة ولا يُبوسة إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ ، وقد أثبته اللهُ ذلك كُلَّه في كتاب قبل أن يَخلق الخلق ، واللهُ يَعلمه إجمالاً وتفصيلاً . ووصفُ الرُّطوبة واليُبوسة يعمُّ جميع الموجودات والكائنات، وهو عبارة عن كُل شَيء. فالشَّيءُ إمَّا أن يَكون رَطْبًا أو يابسًا ، ولا يوجد حالة ثالثة .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢١٠) : ((يقول : ولا شيء أيضًا مِمَّا هو موجود ، أو مِمَّا سَيُوجَد ولَم يُوجَد بَعْد ، إلا وهو مُثْبَت في اللوح المحفوظ ، مكتوب ذلك فيه ، ومرسوم عدده ، ومَبْلغه، والوقت الذي يُوجَد فيه ، والحال التي يفنى فيها)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٤) : ((وفي الرَّطْب واليابس خمسة أقوال : أحدها أن الرَّطْب الماء ، واليابس البادية . والثاني الرَّطْب ما يُنبِت ، واليابس ما لا يُنبِت . والثالث الرَّطْب الحي ، واليابس الميت . والرابع الرَّطْب لسان المؤمن يَذكر اللهَ ، واليابس لسان الكافر لا يَتحرَّك بِذِكْر الله . والخامس أنهما الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى ، فهو يَعلمه رَطْبًا ، ويَعلمه يابسًا . وفي الكتاب المبين قَولان : أحدهما أنه اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل . والثاني أنه عِلْم الله الْمُتقَن، ذَكَره الزَّجاج . فإن قِيل : ما الفائدة في إحصاء هذه الأشياء في كتاب ؟، فعنه ثلاثة أجوبة: ذَكَرَهُنَّ ابن الأنباري . أحدها أنه أحصاها في كتاب لتقف الملائكة على نفاذ عِلْمه . والثاني أنه نَبَّه بذلك عباده على تعظيم الحساب وأعلمهم أنه لا يفوته ما يصنعون، لأن مَن يُثبِت ما لا ثواب فيه ولا عقاب، فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع . والثالث أن المراد بالكتاب العِلْم ، فالمعنى أنها مُثْبَتة في عِلْمه)) اهـ .

وقال أبو حيان في البحر المحيط (٤/ ١٤٦): ((وانظر إلى حُسن ترتيب هذه المعلومات : بدأ أولاً بأمر معقول لا نُدركه نحن بالحِس وهو ﴿ مَفاتِحُ الغَيْبِ ﴾ ثم ثانيًا بأمر نُدرِك كثيرًا منه

بالحِس وهو ﴿ البَرِّ والبَحْرِ ﴾ ثم ثالثًا بجزأين لطيفين أحدهما عُلوي وهو سقوط الورقة مِن عُلُو، والثاني سُفلي،وهو اختفاء حَبَّة في بطن الأرض،فدلَّ ذلك على أنه تعالى عالِم بالكُلِّيات والجزئيات))(47). وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكم بالليلِ ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُم بالنهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ لِيُقْضَى أجلٌ مُسمًّى ثُمَّ إلَيهِ مَرْجِعُكُم ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بما كُنتم تَعْمَلُون ﴾[الأنعام : ٦٠] .

إن الله يُنيمكم في الليل ، ويَقبض أرواحَكم أثناء نَوْمكم . وهذا ليس مَوْتًا على الحقيقة ، لأن الإنسان يظل يتنفس . والنَّوم هو الموت الصغير ، لِمَا بين النوم والموت من العناصر المشتركة ، حيث فُقدان الذهن ، وغياب القُدرة على التمييز، وزوال الإحساس. ويَعلم ما كسبتم مِن الأعمال في النهار ، أي : يَعلم ما كسبتم بجوارحكم من الخير والشر . والفِعل الماضي ﴿ جَرَحْتُم ﴾ يدل على التحقق التام . وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٥٢٧):((ويُحتمَل أن يكون ﴿ جَرَحْتُم ﴾ هنا مِن الْجُرْح ، كأن الذَّنْب جُرْح في الدِّين . والعرب تقول : جُرح اللسان كَجُرح اليد)) اهـ .

وقال النَّسفي في تفسيره (١/ ٣٢٧) : ((وليس فيه أنه لا يعلم ما جَرَحْنا بالليل ، ولا أنه لا يَتَوَفَّانا بالنهار ، فدل أن تخصيص الشيء بالذِّكر ، لا يدل على نَفْي ما عَداه)) اهـ .

إن الله أحاطَ بكل شيء عِلْمًا ، يَعلم كُلَّ شيء عن عباده في لَيْلهم (سُكونهم) ونهارهم (حركتهم) . وتَمَّ تخصيص الليل بالنَّوم ، والنهار بالكسب ، حَسَب الوضع الطبيعي ، ووَفْق العادة

(٤٧) قال سَيِّد قطب في الظِّلال (٧/ ٢٤٧) : ((وهذه الآية صُورة لِعِلْم الله الشامل المحيط الذي لا يَنِدُّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البَر ولا في البحر ، في جَوف الأرض ولا في طبقات الجو ، مِن حَيٍّ وميت، ويابس ورَطْب. إن الخيال البشري لَيَنطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وراء حدود هذا الكون المشهود ، وإن الوجدان ليرتعش وهو يرتاد أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل ، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار ، مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البَر، وفي غَيَابات البحر، المكشوفة كُلها لِعِلْم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عَد، وعَين الله على كُل ورقة تسقط هنا وهناك، ويلحظ كُل حَبَّة مَخبوءة في ظُلمات الأرض ، لا تغيب عن عين الله ، ويرقب كُل رَطْب وكل يابس في هذا الكون العريض ، لا يَنِدُّ منه شيء عن عِلْم الله المحيط . إنها جَولة تُدير الرؤوس وتُذهِل العقول ، جَولة في أغوارٍ مِن المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول ، وهي ترسم هكذا بدقة كاملة شاملة في بضع كلمات ... ألا إنه الإعجاز)) .

الْمُتَّبعة عند الناس . والآيةُ دليلٌ واضح على قُدرة الله على بعث الموتى مِن قبورهم يوم القِيامة . ومَن كان قادرًا على إنامة الناس في الليل ثُمَّ إيقاظهم في النهار قادرٌ على إماتة الناس في الدنيا ثُمَّ بعثهم يوم القيامة. واللهُ يأخذ قُدرة حَوَاسِّ الناس أثناء نَومهم ، ثُمَّ يُرْجِعها إليهم عِند استيقاظهم مِن النوم . وكذلك يُحيي اللهُ الأنفسَ بعد موتها . وقد ضَرَبَ اللهُ مِثالاً للبعث من القُبور ، للنظر والتأمُّل والاستدلال.

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢١١) : ((وهذا الكلام وإن كان خَبَرًا مِن الله تعالى ذِكْرُه عن قُدرته وعِلْمه ، فإن فيه احتجاجًا على المشركين بِه ، الذين كانوا يُنكِرون قُدرته على إحيائهم بعد مَماتهم وبعثهم بعد فنائهم . فقال تعالى ذِكْرُه مُحْتَجًّا عليهم : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكم بالليلِ ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُم بالنهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ لِيُقْضَى أجلٌ مُسمًّى ﴾ . يقول : فالذي يَقبض أرواحكم بالليل ، ويبعثكم في النهار ، لتبلغوا أجلاً مُسَمًّى ، وأنتم تَرَوْنَ ذلك وتعلمون صِحَّته ، غَير مُنكَر له القُدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم ثُمَّ رَدِّها إلى أجسادكم وإنشائكم بعد مماتكم ، فإن ذلك نظير ما تُعاينون وتُشاهدون ، وغَير مُنكَر لِمَن قَدِرَ على ما تُعاينون مِن ذلك ، القُدرة على ما لَم تُعاينوه ، وإن الذي لَم تَرَوْه ولَم تُعاينوه مِن ذلك ، شبيه ما رأيتُم وعاينتُم)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره(٧/ ٩): ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكم بالليلِ ﴾ أي : يُنيمكم فيقبض نفوسكم التي بها تَمَيَّزون،وليس بذلك مَوْتًا حقيقةً،بل هو قَبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت . والتَّوَفِّي استيفاء الشَّيء ، وتُوُفِّيَ الميت : استوفى عدد أيام عُمره ، والذي ينام كأنه استوفى حركاته في اليقظة، والوفاة الموت ... ويُقال : إن الروح إذا خرجت من البدن في المنام تبقى فيه الحياة ولهذا تكون فيه الحركة والتنفس، فإذا انقضى عُمره خرجت رُوحه، وتنقطع حياته ، وصار مَيْتًا لا يَتحرَّك ، ولا يتنفس. وقال بعضهم: لا تخرج مِنه الروح ولكن يخرج منه الذِّهن،ويقال: هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى ، وهذا أصح الأقاويل، والله أعلم)) اهـ .

ثُمَّ يُوقظكم مِن مَنامكم ، ويَبعثكم في النهار (حال اليقظة) ، لِيَقضيَ اللهُ الأجلَ الْمُحدَّد لحياتكم الذي يَنتهي بالموت . أي إن كُل إنسان يَستوفي أجَلَه الْمُحدَّد ووقته الْمُعيَّن في حياته ، حتى يَنتهيَ ذلك الأجل بموت الإنسان (نهاية حياته) . فَدَلَّ باليقظة بعد النوم ، على البعث بعد الموت.والضمير ﴿ فِيهِ ﴾ يعود على النهار،لأن اليقظة والحركة في النهار،والنَّوم والسُّكون في الليل.

ولكل إنسان أجلٌ مُعيَّن مِن الحياة والرِّزق، يَستوفيه كاملاً غَير منقوص قبل مَوته . وهذا هو وقت الحياة إلى الموت ، ويَأخذ الإنسانُ عُمره كاملاً ، ويَستوفي عُمره المكتوب له ، بلا زيادة ولا نقصان . وكما يقول العَامَّة : " لا أحد يموت ناقص عُمر " .

إن الله يُمْهِل ولا يُهْمِل . يَمنح الإنسانَ الفرصة تِلْو الفرصة ، كي يُعيد حساباته ، ويُصحِّح مسارَه ، ويرجع إلى الله قبل الموت . وبالموت، تنتهي حياة الإنسان، وتُطْوَى صفحته، ولا تُوجد أيَّة فرصة بعد ذلك للتَّوبة أو التصحيح. وهذا يدل على سَعة رحمة الله ، وأنه لا يُعاجِل الناسَ بالعقوبة والعذاب ، رغم غرقهم في الذنوب والمعاصي . ثُمَّ تعودون إلى الله ، وتَرجعون إليه . وإلى الله مَعادكم ومصيركم ، ثُمَّ يُخبركم بأعمالكم التي قُمتم بِها في حياتكم الدُّنيا ، ويُجازيكم عليها ، إن خَيْـرًا فخير ، وإن شَرًّا فَشَر . يُجازي المحسن بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته . والإنسانُ حُر الاختيار ، وهو مسؤول عن عمله ، ويَتحمَّل النتيجة كاملةً يوم القيامة .

وتَمَّ تقديم ﴿ يَتَوَفَّاكم بالليلِ ﴾ على ﴿ ما جَرَحْتُم بالنهارِ ﴾ ، لأن اللهَ أرادَ تنبيه الناس على قضية بَعثهم من قبورهم يوم القيامة ، ومِن أجل الاستدلال بالأمر الظاهر المشهود (النَّوم / الموت الصغير) على الأمر الغيبيِّ غير المشهود (البعث مِن القُبور). لذلك تَمَّ تقديم الأهم على المهم .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٩) : ((ومعنى الآية : إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كُفرهم ، فإنه أحصى كُل شيء عَدَدًا وعَلِمَه وأثبته ، ولكن لِيَقْضِيَ أجلاً مُسَمًّى مِن رزق وحياة ، ثُمَّ يُرْجَعون إليه فَيُجازيهم . وقد دل على الحشر والنشر بالبعث ، لأن النشأة الثانية مَنْزلتها بعد الأُولى ، كَمَنْزلة اليقظة بعد النوم ، في أن مَن قَدِرَ على أحدهما ، فهو قادر على الآخر)) اهـ .

وفي الحديث: ((الناسُ نِيام ، فإذا ماتوا انتبهوا)).[قال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٨): لَم أجده مرفوعًا ، وإنما يُعزَى إلى عليِّ بن أبي طالب] اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٦) : ((وقِيل : الآية خطاب للكفرة . والمعنى : أنكم مُلْقَوْن كالجِيَف بالليل، وكاسبون للآثام بالنهار ، وأنه سُبحانَه وتعالى مُطَّلع على أعمالكم ، يبعثكم مِن القبور ، في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم مِن النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضيَ الأجل الذي سَمَّاه وضَرَبه لبعث الموتى، وجزائهم على أعمالهم، ثُمَّ إليه مرجعكم بالحساب ثُمَّ يُنبِّئكم بما كنتم تعملون بالجزاء)) اهـ .

والآيةُ تشتمل على تحذير الكفار وتنبيههم ، فالآثامُ والمعاصي التي يَرتكبونها هي طريق العذاب والهلاك ، ولكنَّ اللهَ أمهلهم ، وأعطاهم الفُرص الكثيرة ، وهو يَعلم ما يَفعلون بالليل والنهار ، ومُطَّلع على ذُنوبهم ، وقادرٌ على إماتتهم وبعثهم وتعذيبهم . وليس عاجزًا عن فِعل ذلك.

ولكنَّ اللهَ تعالى لا تستفزُّه ذُنوب عباده ، فهو سُبحانَه لا تَنفعه الطاعات ، ولا تضرُّه المعاصي . رحمته وَسِعَت كُلَّ شيء ، لذلك يُعطي الإنسانَ الفرصة تِلْو الفرصة للعودة إلى الله بالتَّوبة ، ولا يُعاجِله بالعقوبة والهلاك والعذاب .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيكم حَفَظَةً حتى إذا جاءَ أحَدَكُمُ الموتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُم لا يُفرِّطون ﴾[الأنعام : ٦١] .

إنَّ الله هو الغالبُ العالي على عباده بِقُدرته وعَظَمَته وسُلطانه ، قَهَرَ كُلَّ شَيء ، وخضع لمجده وجلاله كُلُّ شيء . يَتصرَّف في مُلكه وخَلْقه كما يشاء ، ويَفعل بهم ما يشاء ، إحياءً وإماتةً ، وتعذيبًا وإثابةً . وهذه الفَوقيةُ هي فَوقية المكانة لا فَوقية المكان ، لأن اللهَ مُنَزَّهٌ عن المكان . كما يُقال : الحاكم فوق الرَّعية .

ويُرسِل عليكم ملائكة يتعاقبون ليلاً ونهارًا ، جعلهم اللهُ حافظين، وهُم الكرام الكاتبون . تَحفظ أعمالَكم كائنةً ما كانت ، وتُحصيها وتُسجِّلها كاملةً ، بلا زيادة ولا نُقصان ، وتَحفظكم مِن الآفات والمصائب . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٥): ((وفِيما يَحفظونه قَولان: أحدهما أعمال بني آدم، قاله ابن عباس . والثاني أعمالهم وأجسادهم ، قاله السُّدي)) اهـ .

ووجود هؤلاء الملائكة الكرام الكاتبين، كَي يَرتدع الناس عن المعاصي والآثام، ويَبتعدوا عن الذنوب ، ويَرتدعوا عن ارتكاب الفساد ، لأنهم يَعلمون أن صحائفهم تُقْرَأ على رؤوس الأشهاد.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٨٠) : ((و ﴿ عَلَيكم ﴾ مُتعلِّق بِـ ﴿ يُرْسِلُ ﴾ لِمَا فيه مِن معنى الاستيلاء . وتقديمه على ﴿ حَفَظَةً ﴾ لِيُفيد العِناية بشأنه ، وأنه أمر حقيق بذلك . وقِيل : هو مُتعلِّق بـ ﴿ حَفَظَةً ﴾)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٧) : ((والحِكمة فيه أن الْمُكَلَّف إذا عَلِمَ أن أعماله تُكتَب عليه ، وتُعرَض على رُؤوس الأشهاد ، كان أزجر عن المعاصي ، وأن العبد إذا وَثِقَ بِلُطف سَيِّده واعتمد على عَفْوه وسَتْره ، لَم يحتشم مِنه احتشامه مِن خَدَمه الْمُطَّلعين عليه)) اهـ . حتى إذا انتهى عُمر الإنسان ، وحانَ أجلُه ، تَوَفَّتْهُ الملائكة الْمُوَكَّلُون بقبض الأرواح . وهذا دليل على أن لِمَلَك الموت أعوانًا من الملائكة . وهُم لا يُقصِّرون فِيما يُؤمَرون بِه، ولا يُفرِّطون في رُوح الميْت ولا يُضيِّعونها . وإنما يَحفظونها ، ويُنْزِلونها حيث شاء الله . إن كان مُؤمنًا ففي عِلِّيين ، وإن كان كافرًا ففي سِجِّين . وهذا يَعني أن حفظ الملائكة للإنسان مستمر طيلة حياته ، فإذا انتهت حياة الإنسان ، انتهى حِفظ الملائكة له، ولَم يعد له وجود في هذه الحياة الدنيا. ومجيء الموت يعني مجيء أسبابه وعلاماته.

والتأنيث في ﴿ تَوَفَّتْهُ ﴾ باعتبار الجمع ، أي إن الملائكة جَماعة ، وليس لأن الملائكة إناث . فالملائكةُ لا يُوصَفون بِذُكورة ولا أُنوثة. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٥و٥٦) : ((في المراد بالرُّسُل ثلاثة أقوال : أحدها أنهم أعوان مَلَك الموت، قاله ابن عباس. وقال النَّخعي: أعوانه يَتَوَفَّوْنَ النُّفوس، وهو يأخذها منهم. والثاني أن المراد بالرُّسُل مَلَك الموت وَحْدَه ، قاله مقاتل . والثالث أنهم الحفَظَة ، قاله الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ وَهُم لا يُفرِّطون ﴾ . قال ابن عباس: لا يُضيِّعون . فإن قِيل: كيف الجمع بين قَوله : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا ﴾ وبين قَوله : ﴿ قُلْ يتوفَّاكم مَلَكُ الموت ﴾[السَّجدة : ١١]. فعنه جوابان : أحدهما أنه يجوز أن يُريد بالرُّسل مَلَك الموت وَحْدَه ، وقد يقع الجمع على الواحد.والثاني أن أعوان مَلَك الموت يفعلون بأمره، فأُضِيف الكُل إلى فِعْله . وقِيل : تَوَفِّي أعوان مَلَك الموت بالنَّزْع، وتَوَفِّي مَلَك الموت بأن يأمر الأرواح فَتُجِيب ويَدعوها فَتَخرج . وتَوَفِّي الله تعالى بأن يخلق الموت في الموت)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ فالقُ الْحَبِّ والنَّوى ﴾[الأنعام : ٩٥] . يُبيِّن اللهُ للمشركين قُدرته العظيمة ، وصُنعه العجيب ، وتدبيره الْمُحْكَم ، وحِكمته البالغة ، وفِعله الْمُتقَن ، مِن أجل أن ينظروا ويتأمَّلوا ويعتبروا ويتَّعظوا : إن اللهَ يَفْلِقُ الْحَبَّ (جمع حَبَّة) فيخرج مِنه النبات ، ويَفْلِق النَّوى (جمع نَوَاة) فيخرج مِنه الشجر . ويكون النبات والزُّروع والثمار ذات أشكال وألوان وطُعوم مُختلفة ومُتنوِّعة. والمعنى:هل تستطيع أصنامكم وأوثانكم (آلهتكم المعبودة مِن دُون الله) أن تَفعل هذا ؟. إنها عاجزة عن فِعله . فكيف تَعبدونها وهي عاجزة لا تضرُّ ولا تَنفع، وتتركون تَوحيدَ الله الذي شَقَّ الحب والنوى بإخراج النبات والشجر مِنهما ؟!. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٨٩) : ((في معنى الفَلْق قولان : أحدهما أنه بمعنى الخلق فالمعنى : خالق الحب والنوى ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضَّحاك ومقاتل . والثاني أن الفَلْق بمعنى الشَّق . ثُمَّ في معنى الكلام قَولان : أحدهما أنه فلق الحبة عَن السُّنبلة ، والنواة عن النخلة . روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن والسُّدي وابن زيد. والثاني أنه الشِّقان اللذان في الحب والنوى ، قاله مجاهد وأبو مالك . قال ابن السائب : الحب ما لَم يكن له نَوى كالبُر والشعير ، والنَّوى مِثل نَوى التمر)) اهـ .

وعن أبي هريرة_رضي اللهُ عنه_قال:كان رسولُ اللهِﷺيأمرنا إذا أخذ أحَدُنا مَضْجَعَه أن يَقول: ((اللهُمَّ رَبَّ السماوات ورَبَّ الأرضين، ورَبَّنا، ورَبَّ كُل شَيء، وفالقَ الحب والنوى ...))(48).

(٤٨) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٤٧٢) برقم (٣٤٠٠) ، وقال : حسن صحيح .

وعبـارة " فـالق الحـب والنـوى " إشـارة إلـى رِزق اللهِ ، الـذي هـو غـذاء الأجسـام ، فالحـب يُستعمَل في الطعام ، والنوى في التمر . وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ٢٤٣) عن تخصيص" فالق الحب والنوى " بعد التعميم : ((والتخصيص لفضلها ، أو لكثرة وُجودها في ديار العرب . يعني: يا مَن شَقَّهُما فأخرج منهما الزرع والنخيل)) اهـ .

وقـالَ اللهُ تعـالى : ﴿ فالقُ الإصباحِ وجَعَلَ الليـلَ سَكَنًا والشـمسَ والقمـرَ حُسْبانًا ذلـكَ تقـديرُ العزيزِ العليمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] .

اللهُ خالقُ الضياء والظلام،وشَاقُّ إضاءة الفجر عن ظُلمة الليل،فَيُضيء الأُفق ويستنير الوجود. والضِّـدُّ يُظْهِـر حُسْـنَه الضِّـد . وبِضِـدِّها تتبيَّن الأشـياء. وهنـا تتجلـى قُـدرة الله المطْلقـة علـى خلـق الأشياء المختلفة المتكاملة (الضياء والظلام / النهار والليل). وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩٠) : ((وللمُفسِّرين في ﴿ الإصباحِ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أنه ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني أنه إضاءة الفجر ، قاله مجاهد . وقال ابن زيد : فلق الإصباح من الليل . والثالث أنه نور النهار ، قاله الضَّحاك)) اهـ . ﴿ وجَعَلَ الليلَ سَكَنًا ﴾ . مِن رحمة الله بعباده أن جَعل لهم الليل مُظْلِمًا هادئًا، كَي يَسكنوا فيه، ويرتاحوا مِن صخب النهار وضجيجه وتعبه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩١) : ((فأمَّا السَّكَن ، فهو ما سَكَنْتَ إليه . والمعنى أن الناس يَسكنون فيه سُكون راحة)) اهـ . ﴿ والشمسَ والقمرَ حُسْبانًا ﴾.واللهُ جَعل الشمسَ والقمر يَجريان بحساب دقيق مُتقَن، لا خلل فيه ولا اضطراب. وبذلك تتحقق مصالح الناس ، ويحصلون على فوائد كثيرة مِن معرفة عدد الأيام والشُّهور والسنين، مِمَّا يُسهِّل حياتهم في كافة المجالات . وهذا النظامُ الكَوْنِيُّ الْمُحْكَم يدل على وجود الله ووَحدانيته وقُدرته المطْلقة وصُنعه الباهر. والنظامُ الواحدُ لا يَصْدُر إلا عَن صانعٍ واحد . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩١) : ((وفي المراد بهذا الحساب ثلاثة أقوال : أحدها أنهما يَجريان إلى أجل جُعِل لهما، رواه العَوفي عن ابن عباس. والثاني يَجريان في منازلهما بحساب، ويرجعان إلى زيادة ونقصان ، قاله السُّدي . والثالث أن جَرَيانهما سبب لمعرفة حساب الشهور والأعوام ، قاله مقاتل)) اهـ .

﴿ ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ ﴾ . إن تسيير الشمس والقمر بهذا الحساب الدقيق ، ووَفْق هذا التدبير الْمُحكَم ، هو تقدير العزيز في مُلكه الذي لا يُمانَع ولا يُخالَف ، الغالب القاهر ، الذي قَهَرَ كُلَّ شَيء،ولا يَستعصي عليه شَيء، العليم بكل شَيء،لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في

السماء. وهو العليم بِخَلْقه ومصالحهم . قَهَرَ الشمسَ والقمرَ وسَخَّرهما لمصالح الناس بِعِلْمه وحِكمته. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٣) : ((وكثيرًا ما إذا ذَكَرَ اللهُ تعالى خَلْقَ الليل والنهار والشمس والقمر ، يختم الكلام بالعِزَّة والعِلْم)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢٧٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وهذا الفِعل الذي وصفه أنه فَعَله، وهو فَلْقه الإصباح، وجَعْله الليل سَكَنًا، والشمس والقمر حُسبانًا، تقدير الذي عَزَّ سُلطانه ، فلا يَقْدِر أحد أراده بِسُوء وعقاب أو انتقام مِن الامتناع مِنه ﴿ العليم ﴾ بمصالح خَلْقه وتدبيرهم ، لا تقدير الأصنام والأوثان التي لا تَسمع ولا تُبصِر ، ولا تَفْقَه شَيْئًا، ولا تَعْقِله، ولا تضرُّ ولا تنفع. وإن أُريدت بِسُوء لَم تَقْدِر على الامتناع مِنه مِمَّن أرادها . يقول جَلَّ ثناؤه : فأخلِصوا أيها الجهَلة عبادتكم لفاعل هذه الأشياء ، ولا تُشرِكوا في عبادته شَيْئًا غَيْرَه)) اهـ .

وفي مُوَطَّأ مالك (١/٢١٢): عن يحيى بن سعيد أنه بَلَغه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : ((اللهُمَّ فالقَ الإصباح ، وجاعلَ الليل سَكَنًا ، والشمس والقمر حُسبانًا ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْن ، وأغنني مِن الفقر ، وأمتعني بِسَمعي وبَصري وقُوَّتي في سبيلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَهُوَ الذي جَعَلَ لكمُ النجومَ لِتَهتدوا بِها في ظُلماتِ البَرِّ والبَحْرِ ﴾[الأنعام: ٩٧]. يُبيِّن اللهُ قُدرته المطْلقة ، وسُلطانه العظيم ، ومُلكه الواسع ، ويمتنُّ عليهم ، ويُذكِّرهم بِنعمته الجليلة ، حيث خَلَقَ لهم النجومَ للاهتداء بها في الليل خلال أسفارهم ورحلاتهم ، فالمسافرون في الصحاري وراكبو البِحَار ، كُلهم يَهتدون بالنجوم في الليل للوصول إلى مقاصدهم وبُغيتهم المنشودة . وبذلك ، ينجون مِن الهلاك والموت ، وينالون السلامة والأمن والأمان . لذلك امتنَّ اللهُ عليهم بخلق النجوم . وخَلْقُ النجوم لهداية الناس في البَر والبحر لَيْلاً ، آيةٌ إلهيةٌ باهرة ، وعلامةٌ واضحة على وُجود الله ووَحدانيته وقُدرته وحِكمته . وهذه فائدةُ واحدة مِن خَلْق النجوم ، وليس كُل الفوائد . وهذه الآيةُ الإلهيةُ العظيمة حُجَّة على الكافرين ، وعِبرة للمؤمنين .

والاهتداءُ في الآية هو معرفة الطريق والمقصِد ، وليس معرفة الغَيب والمستقبل ، كما يَزعم الْمُنجِّمون الذين يبنون أكاذيبهم على النجوم والأبراج والأفلاك . وكذب الْمُنجِّمون ولو صدقوا.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٣) : ((﴿وَهُوَ الذي جَعَلَ لكمُ النجومَ ﴾ خَلَقَها لكم ، ﴿ لِتَهتدوا بِها في ظُلماتِ البَرِّ والبَحْرِ ﴾ في ظُلمات الليل في البَر والبحر،وإضافتها إليهما للمُلابَسة أو في مُشْتَبِهَات الطرق. وسَمَّاها ظُلمات على الاستعارة، وهو إفراد لبعض منافعها بالذِّكر)) اهـ.

إن اللهَ خلق النجوم نِعمةً للناس ، ولها فوائد عظيمة :

١ــ المسافرون في الصحاري وراكبو البحار يهتدون في الليل إلى طُرقهم ومقاصدهم بِها . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لكمُ النجومَ لِتَهتدوا بِها في ظُلماتِ البَرِّ والبَحْرِ ﴾ .

٢ــ النجوم زِينة للسماء ، تُجمِّلها ، وتمنحها المنظر الرائع البَرَّاق . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ زَيَّنَّا السماءَ الدُّنيا بمصابيح ﴾ [الْمُلْك : ٥] .

٣ــ النجوم تَرمي الشياطين وتَرجمهم.قالَ اللهُ تعالى:﴿وَجَعَلْنَاها رُجُومًا للشَّياطين﴾[الْمُلْك:٥] .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٣) : ((قال بعض السلف : مَن اعتقد في هذه النجوم غَير ثلاث ، فقد أخطأ وكذب على الله سُبحانَه ، أن الله جعلها زِينة للسماء ، ورُجُومًا للشياطين ، ويُهْتَدَى بها في ظُلمات البَر والبحر)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أنشأكم مِن نَفْس واحدة فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾[الأنعام: ٩٨] .

البشريةُ مَصْدرها نَفْسٌ واحدة ، ولها أبٌ واحد هو آدم ﷺ . وهنا تتجلى قُدرة الله المطْلقة ، حيث خَلَقَ الناسَ وأوجدهم وأبدعهم مُختلفين مُتنوِّعين مِن نَفْس واحدة (آدم ﷺ) .

والاستقرارُ في أرحام النِّساء وأصلابِ الرجال . وأكثر المفسِّرين يقولون : المستقَر في الرَّحِم ، والمستودَع في الصُّلْب.وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٥٤٥):((فقال الجمهور: مُستقَر في الرَّحم،ومُستودَع في ظهور الآباء حتى يقضيَ اللهُ بخروجهم))اهـ.وعن ابن عباس رضي الله عنهما:في قوله تعالى:﴿ فمستقَر ومُسْتَوْدَع ﴾. قال: ((المستقَر في الرَّحم،والمستودَع في الصُّلب))[49].

ووردَ معنى آخر ، وهو مُسْتَقَر في الرَّحم ، ومُسْتَوْدَع في الأرض التي يَموت فيها الإنسان .

---

(٤٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٥٢) برقم (٣٨٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩٢) : ((وللمفسِّرين في هذا المستقَر والمستودَع تسعة أقوال : أحدها: فمستقَر في الأرحام ومستودَع في الأصلاب،رواه العَوفي عن ابن عباس وبه قال سعيد بن جُبَير ومجاهد وعطاء والضَّحاك والنَّخعي وقتادة والسُّدي وابن زيد .والثاني : المستقر في الأرحام والمستودع في القبر ، قاله ابن مسعود . والثالث : المستقر في الأرض والمستودع في الأصلاب ، رواه ابن جُبَيْر عن ابن عباس.والرابع: المستقر والمستودع في الرَّحم، رواه قابوس عن أبيه عن ابن عباس. والخامس : المستقر حيث يأوي، والمستودع حيث يموت،رواه مِقْسَم عن ابن عباس. والسادس: المستقر في الدنيا والمستودع في القبر=

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَهُوَ الذي أنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأخْرَجْنا بِهِ نباتَ كُلِّ شَيء﴾[الأنعام : ٩٩].

أنزلَ اللهُ مِن السَّحاب المطرَ ، فأخرجَ بِه أصنافَ النبات المختلفة ، والثمار والشجر والحبوب والمحاصيل ، وأرزاق الناس وأقواتهم ، وغذاء الأنعام والبهائم .

وهذه الآيةُ الإلهيةُ الباهرة تدل على وَحدانية الله وقُدرته ، وبديع صُنعه ، وعجائب مخلوقاته . فاللهُ يُخرِج مِن الأرض أنواعَ النبات المختلفة والمتنوِّعة في الألوان والأشكال والطُّعوم ، مَعَ أنها مَسْقِيَّة بماء واحد (ماء المطر) . وفي الآية ﴿ فأخْرَجْنا بِهِ ﴾ التفات مِن الغَيبة إلى التكلم ، لإظهار العناية بشأن هذا المخلوق ، ورعاية أحواله ، والتنبيه على أهمية النِّعَم الإلهية .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢٨٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : والله الذي له العبادة خالصة ، لا شريك فيها لشيء سِواه، هو الإله ﴿ الذي أنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأخْرَجْنا بِهِ نباتَ كُلِّ شَيء ﴾ ، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء مِن غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم ما يتغذون به ويأكلونه ، فينبتون عليه وينمون . وإنما معنى قَوله : ﴿ فأخْرَجْنا بِهِ نباتَ كُلِّ شَيء ﴾ فأخرجنا به ما ينبت به كُل شيء ، وينمو عليه ، ويَصْلُح)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩٣) : ((وفي قَوله تعالى : ﴿ نباتَ كُلِّ شَيء ﴾ قَولان : أحدهما نبات كُل شيء مِن الثمار ، لأن كُل ما ينبت فنباته بالماء . والثاني رِزق كُل شيء، غذاؤه. وفي قَوله تعالى : ﴿ فأخْرَجْنا بِهِ ﴾ قَولان : أحدهما مِن الماء، أي به . والثاني من النبات)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وجعلوا للهِ شُركاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُم وخَرَقُوا لهُ بَنينَ وبناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبحانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُون ﴾ [الأنعام : ١٠٠] . إنَّ الله يردُّ على الكافرين الذين اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً مِن دُون الله . فقد جَعلوا الجِن شُركاء لله في العبادة والطاعة،مَعَ عِلْمهم أن الله هو الذي خَلَقَ الجِن.فكيفَ يكون المخلوقُ شريكًا للخالق ؟.

وهذا يدل على جهل المشركين وضلالهم وعِنادهم واتِّباعهم لأهوائهم. فاللهُ وَحْدَه هو الخالق، لا شريك له ، خَلَقَ الجِن ، وانفردَ بإيجادهم ، فكيف يَجعل الكافرون الجِنَّ شُركاء لله ؟ ، وكيف يُعبَد مع الله غَيْرُه ؟ ، وكَيف يَجعلون لله الخالق شُركاء لا يَخْلُقون ؟ .

= والسابع : المستقر في القبر والمستودع في الدنيا ، وهو عكس الذي قبله، رُوِيا عن الحسن. والثامن: المستقر في الدنيا،والمستودع عند الله تعالى، قاله مجاهد. والتاسع: المستقر في الأصلاب والمستودع في الأرحام ، قاله ابن بحر)) اهـ .

والآيةُ تتحدَّث عن مُشركي العرب ، فقد أطاعوا الجِنَّ في عبادة الأصنام والأوثان ، فجعلوهم شُركاء لله ، والتزموا بطاعة الجن كطاعة الله تعالى . وهذا مُنتهى الجهل والضَّلال .

وتقديم لفظ الجلالة في الآية:﴿وجعلوا للهِ شُركاءَ الجِنَّ﴾لاستعظام أن يكون لله شَريك مِن خَلْقه. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٥) : ((فإن قِيل : فكيف عُبِدَت الجن مَعَ أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟، فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن ، وأمرهم إيَّاهم بذلك)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩٦): ((قال الزَّجاج : نَصْب ﴿ الجِنَّ ﴾ مِن وجهين : أحدهما : أن يكون مفعولاً ، فيكون المعنى : وجعلوا للهِ الجنَّ شُركاءَ ، ويكون ﴿ الجِنَّ ﴾ مفعولاً ثانيًا ... والثاني : أن يكون ﴿ الجِنَّ ﴾ بَدَلاً مِن ﴿ شُركاءَ ﴾ ومُفَسِّرًا للشُّرَكاء ... وفي معنى جعلهم الجِن شُركاء ثلاثة أقوال : أحدها أنهم أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان ، فجعلوهم شُركاء لله ، قاله الحسن والزَّجاج . والثاني قالوا : إن الملائكة بنات الله ، فَهُم شركاؤه ، كَقَوله : ﴿ وجَعلوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصَّافَّات: ١٥٨]. فَسَمَّى الملائكة جِنًّا لاجتنانهم ــيعني استتارهم ــ قاله قتادة والسُّدي وابن زيد. والثالث أن الزنادقة قالوا : الله خالق النور والماء والدواب والأنعام ، وإبليس خالق الظُّلْمة والسِّباع والحيَّات والعقارب،وفيهم نزلت هذه الآية.قاله ابن السائب))اهـ.

﴿ وخَرَقُوا لهُ بَنينَ وبناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . اختلقوا وكذبوا ونسبوا إلى الله تعالى البنين والبنات بلا دليل ولا بُرهان. ولَم يَذكروا ذلك عن عِلْم ومعرفة ، وإنما ذَكَروه تَكَذُّبًا وجهلاً بالله وعَظَمَته، واتَّبعوا أهواءهم الفاسدة، وغرقوا في كذبهم وجهلهم وعِنادهم ، ولَم يَعرفوا عَظَمَة الله الْمُنَزَّه عن الشريك والنِّد والصاحبة والولد ، والذي لا يُشارِكه في خَلْقه ومُلْكه أحد .

والآيةُ تَكشف ضلالَ الذين يَنسُبون الولدَ إلى الله تعالى، وتُكذِّبهم ، وتفضح باطلهم ، كاليهود الذين زعموا أن عُزَيْرًا ابن الله ، والنصارى الذين زعموا أن عِيسى ابن الله ، ومُشركي العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله . تعالى اللهُ عن هذه الأكاذيب والعقائد الفاسدة عُلُوًّا كبيرًا .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢٩١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : تَنَزَّه اللهُ وعلا ، فارتفع عن الذي يَصِفه به هؤلاء الجهَلة مِن خَلْقه في ادِّعائهم له شركاء مِن الجن ، واختراقهم له بنين وبنات، وذلك لا ينبغي أن يكون مِن صِفته ، لأن ذلك مِن صِفة خَلْقه الذين يكون منهم الجِماع الذي يحدث عنه الأولاد ، والذين تضطرهم لضعفهم الشهوات إلى اتخاذ الصاحبة لقضاء اللذات، وليس الله تعالى ذِكْرُه بالعاجز فيضطره شيء إلى شيء ، ولا بالضعيف المحتاج فتدعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذ صاحبة لقضاء لَذَّة)) اهـ .

﴿ سُبحانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُون ﴾. تَنَزَّهَ اللهُ وتَقَدَّسَ وتعالى وارتفع عن الباطل الذي وصفوه به، وهو أن له شريكًا أو ولدًا . وهذا الوصف الفاسد يَستحيل في حَق الله الْمُتفرِّد بالأُلوهية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٥) : ((أي تَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ وتعاظمَ عَمَّا يصفه هؤلاء الجهَلة الضَّالون مِن الأولاد والأنداد والنُّظراء والشُّركاء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَديعُ السماواتِ والأرضِ أنَّى يَكُونُ لهُ ولدٌ ولَم تَكُن لهُ صاحبةٌ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم ﴾ [الأنعام : ١٠١] (50).

إنَّ اللهَ خالقُ السماواتِ والأرض ، ومُبْدِعُهما مِن غَير مثال سابق ، ومُوجِدهما مِن العدم . كيف يكون له ولد وليس له زوجة ؟! . والولدُ لا يَكون إلا مِن العلاقة بين الذكر والأنثى ، وهُما كائنان متناسبان ومُتجانسان . واللهُ تعالى لا يُجانِسه شَيء ، ولا يُشبهه شَيء مِن خَلْقه ، لأنه خالق كُل شيء . والخالقُ لا يُشبِه المخلوق . ومَن كان خالقًا لكل شَيء ، كان غَنِيًّا عن كُل شيء ، ولا يُمكن أن يتَّخذ وَلَدًا مِن مَخلوقاته. فاللهُ الخالقُ ليس له شريك ولا صاحبة ولا ولد. والولدُ لا يَكون إلا مِن زوجة . واللهُ مُنَزَّهٌ عَن هذه العلاقات البشرية ، لأنه خالقها ومُوجِدها . وهو سُبحانَه يَعلم كُل شيء ، سواءٌ كان مَخلوقًا أَم غير مخلوق ، ولا تخفى عليه مِن مخلوقاته خافية .

إنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن الشريك ، وليس له زوجة . ومِن المستحيل وجود ولد بدون زوجة . فَمِن أين يكون لله ولد ؟! . وكيف يكون له ولد مِن مَخلوقاته واللهُ خالق كُل شيء ؟! . ولا يُعقَل أن يكون المخلوق وَلَدًا للخالق، لأن الولد يكون مِن جِنس أبيه ، ويَحمل اسمه وخصائصه وجِيناته وصِفاته . واللهُ مُنَزَّهٌ عَن الْمُجانَسة والْمُشابَهة . لا يُجانِسه شَيء ، ولا يُشبهه مخلوق . والآيةُ تعظيمٌ للهِ وتَنْزيهٌ له عن الشَّريك والصاحبة والولد ، كما تُبيِّن بُطلان عقائد المشركين .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٦) : ((وفي الآية استدلال على نَفْي الولد مِن وجوه : الأول أنه مِن مُبْدَعَاتِه السماوات والأرضون،وهي مع أنها مِن جِنس ما يُوصَف بالولادة ، مُبَرَّأة عنها، لاستمرارها وطُول مُدَّتها، فهو أَوْلَى بأن يتعالى عنها ، أو أن وَلَد الشيء نظيره ، ولا نظير له

---

(٥٠) في التسهيل لعلوم التَّنْزيل (٢/ ١٨): ((والغرض الردُّ على مَن نَسَبَ لله الولد مِن وجهين : أحدهما أن الولد لا يكون إلا مِن جِنس والده ، والله تعالى مُتعالٍ عن الأجناس ، لأنه مُبدعها فلا يَصِحُّ أن يكون له ولد . والثاني أن الله خلق السماوات والأرض ، ومَن كان هكذا فهو غنيٌّ عَن الولد ، وعن كل شيء)) اهـ .

فلا ولد. والثاني أن المعقول مِن الولد ما يتولد مِن ذكر وأنثى متجانسين، والله سُبحانَه وتعالى مُنَزَّه عن الْمُجانَسة. والثالث أن الولد كُفُؤ الوالد، ولا كُفُؤ له لوجهين : الأول أن كُل ما عَداه مخلوقه فلا يُكافئه، والثاني أنه سُبحانَه وتعالى لذاته عالِم بكل المعلومات، ولا كذلك غَيره بالإجماع)) .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٧٤٠): ((ولَمَّا كان الرَّب سُبحانَه واجب الوجود لذاته قديمًا ، مَوجودًا قبل وجود الأشياء ، وكان كُل مولود مُحْدَثًا ، انتفت عنه الوالدية . ولَمَّا كان لا يُشبهه أحد مِن خَلْقه ولا يُجانسه حتى يكون له مِن جِنسه صاحبة فتتوالد ، انتفت عنه الوَلَدية . ومِن هذا قَوله تعالى : ﴿ أنَّى يَكُونُ لهُ ولدٌ ولَم تَكُن لهُ صاحبةٌ ﴾)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعلكم خَلائِفَ الأرضِ ورَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرجاتٍ لِيَبْلُوَكُم في ما آتاكُم ﴾ [الأنعام : ١٦٥].

إن الأُمم تتعاقب ، والحضَاراتُ تتوالى ، والناسُ يَخْلُفون بعضَهم البعض . وهذه الحركةُ المستمرة على كوكب الأرض تُشير إلى حِكْمة الخالق المسيطِر على هذه الحركة، وقُدرته على الخلق والإفناء ، والإحياءِ والإماتة . وقد أهلكَ اللهُ الأممَ السابقة،وجعل الأمةَ المحمدية تَخْلُفُهم بعد زوالهم ، وتعمر الأرضَ بعدهم. ومحمد ﷺ هو خاتَم النَّبيين، وأُمَّته هي خاتمة الأمم التي وَرِثت الأرضَ بعد انتهاء الأمم السابقة . وخَلَفَت أُمَّتُه سائرَ الأمم. وهذا يشير إلى مبدأ تعاقب الحضارات والأمم في هذه الدنيا التي هي دار امتحان واختبار وابتلاء .

والأرضُ لله يُورِثها مَن يشاء مِن عباده ، والعاقبةُ للمُتقين. وكل الحضارات الإنسانية ذاهبة إلى نهايتها الأكيدة لأنها إسهامات بشرية. والحضارةُ _كالإنسان _ تمرُّ في مرحلة الولادة ، ثم الطفولة ، ثم الشباب، ثم الكُهولة، ثم الشَّيخوخة، ثم الموت.وتتجلى عَظَمةُ الله في جَعْل الناس يَعمرون الأرض ضمن دائرة تعاقب الأجيال ، وتعاقب الحضارات. وفي هذا إشارةٌ إلى التنوع الإنساني ، واختلافِ الشُّعوب ، وتعدُّدِ الهويات العِرْقية . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٧٢): ((﴿ وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض ﴾ ، يَخْلُف بعضُكم بعضًا ، أو خُلفاء الله في أرضه تتصرَّفون فيها،على أن الخطاب عام. أو خُلفاء الأمم السالفة، على أن الخطاب للمؤمنين)).
وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٢٦٨):((أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وقرنًا بعد قرن، وخَلَفًا بعد سَلَف)) . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٦٣): ((وللمُفسِّرين فِيمَن خَلَفُوه ثلاثة أقوال: أحدها أنهم خَلَفوا الجِنَّ الذين كانوا سُكان الأرض ، قاله ابن عباس . والثاني أن بعضهم يَخْلُف بَعْضًا، قاله ابن قُتَيبة . والثالث أن أُمَّة محمد خَلَفَت سائر الأمم ، ذَكَره الزَّجاج)).

ومهما كانت الأحداثُ والتقلباتُ في هذه الحياة ، سيظل الإنسانُ هو خَليفةَ الله في الأرض. والجديرُ بالذِّكر أن﴿خَلائِفَ﴾جَمْع"خليفة"[51].وكُل مَن جاء بعد مَن مضى فهو خليفة لأنه يَخْلُفُه.

﴿ ورَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرجاتٍ ﴾ . إن اللهَ تعالى قد خَالَفَ بين أحوال العباد من حيث الغِنى والفقر، والعِلْم والجهل ، والذكاء والغباء ، والقوة والضعف ، والشَّرف والضَّعَة . فالدنيا مبنية على التفاوت والاختلاف بين العباد . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٨) : ((فَاوَتَ بينكم في الأرزاق ، والأخلاق ، والمحاسن، والمساوىء ، والمناظر ، والأشكال ، والألوان ، وله الحِكمة في ذلك)) اهـ . ﴿ لِيَبْلُوَكُم في ما آتاكُم ﴾ . لقد خَالَفَ اللهُ بين أحوالكم في الْخَلْق والْخُلُق والرِّزق والعِلم والشَّرف والقوة وغير ذلك، لِيَختبركم فِيما مَنحكم مِن فضله وَرِزقه،ويَعلم المطيع مِنكم والعاصي،والصابر والساخط، والشاكر والجاحد ، فَيُجازي المحسِن بإحسانه ويُثيبه ، ويُجازي الْمُسيء بإساءته ويُعاقبه . وعلى المرء أن يستغل نقاطَ قوته ، ويحاول قَدْر الاستطاعة تحويل نقاط ضعفه إلى نقاط قوة . واللهُ لا يُعطي الإنسانَ كُلَّ شيء ، ولا يأخذ مِنه كُلَّ شيء . والكمالُ للهِ وَحْدَه. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٨):((لِيَختبركم في الذي أنعم به عليكم ، وامتحنكم به ، لِيَختبر الغنيَّ في غِناه ، ويسأله عن شُكره ، والفقير في فقره ، ويسأله عن صبره)).

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢١٢) : ((يعني : يبتلي الغنيَّ والفقير ، والشريف والوضيع ، والحر والعبد ، لِيَظهر منكم ما يكون عليه مِن الثواب والعقاب)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨) : عن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ ــ رضي الله عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إن الدنيا حُلْوةٌ خَضِرة ، وإن اللهَ مُسْتَخْلِفُكُم فيها فينظر كيف تعملون)) .

(٥١) قال القلقشندي في صُبح الأعشى (٥/ ٤١٨) : ((وقد أجازوا أن يُقال في الخليفة خليفة رسول الله لأنه خَلَفَه في أُمَّته . واختلَفوا هل يجوز أن يُقال فيه : خليفة الله ، فجوَّز بعضُهم ذلك لقيامه بحقوقه في خَلْقه محتجين بقَوْله تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض ﴾ . وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك مُحتجين بأنه إنما يُسْتَخْلَف مَن يَغيب أو يموت، واللهُ تعالى باقٍ موجود إلى الأبد ، لا يَغيب ، ولا يموت.ويؤيد ما نُقل عن الجمهور بما رُوِيَ أنه قِيل لأبي بكر رضي الله عنه :يا خليفة الله ،فقال: لستُ بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله.وقال رَجل لعمر بن عبد العزيز: يا خليفة الله، فقال: وَيْلَك لقد تناولتَ مُتناوَلاً بعيدًا ، إن أُمِّي سَمَّتْني عُمر ، فَلو دَعَوْتَني بهذا الاسم قَبِلْتُ ، ثم كَبُرْتُ فَكُنِّيتُ أبا حَفْص فلو دعوتني به قبلتُ ، ثم وَلَّيْتُموني أموركم فَسَمَّيْتُموني أمير المؤمنين ، فلو دعوتني به كَفاك)).

إن الدنيا منظرها فتَّان ومُحبَّب للنَّفْس بما فيها من زينة ولمعان. وهي دار ابتلاء واختبار .وإن الله تعالى جعل الناس مُسْتَخْلَفين فيها، أي إنهم خَلَفوا الأممَ السابقة ، ووصلت إليهم الأمور ، من أجل الامتحان والابتلاء . وكما قِيل : لَوْ دامت لِغَيرك ما وَصلت إلَيك . وإن الله تعالى ناظِر إليهم كيف يعملون (مَن الذي سَيُؤدي شُكرَ النِّعم فيفوز ، ومن الذي سَيَجْحدها فَيَخسر) . ومَن جَرَّعَتْهُ الدنيا حلاوتها ، جَرَّعَتْهُ الآخرةُ مرارتها .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٥٥) عن معنى الدنيا " حُلوة خَضِرة " : ((يُحْتَمَل أن المراد به شيئان : أحدهما حُسْنها للنفوس ونضارتها ولذتها، كالفاكهة الخضراء الحلوة، فإن النفوس تطلبها طلبًا حثيثًا فكذا الدنيا ، والثاني سُرعة فنائها كالشيء الأخضر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعل الشمسَ ضِياءً والقمرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنازلَ لِتَعلموا عَدَدَ السنينَ والحسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلا بالحق ﴾[يُونُس : ٥] .

يُقدِّم اللهُ الأدلةَ والبراهين التي تُشير إلى وَحدانيته وقُدرته وحِكمته وعِلمه ، فهو سُبحانَه أضاءَ الشمسَ في النهار، وأنارَ القمرَ في الليل . وجَعل الشمسَ والقمرَ مُختلفين في الخصائص والمزايا، كَي يُعرَف الليل مِن النهار . ولا شَكَّ أن آثار الصُّنع الباهر تدل على الصانع الحكيم .

والجديرُ بالذِّكر أن الضياء أقوى مِن النُّور ، لأن الضياء ما كان بالذات ، والنُّور ما كان بالعَرَض. وكُل ضَوء نُور، وليس كُل نُور ضَوْءًا. وَنُورُ القمر مُستفاد ومُستمد ومُكتسب من ضوء الشمس . وقدَّر القمرَ وهَيَّأ ويَسَّرَ له منازلَ لا يُجاوزها ولا يَتَخَطَّاها ولا يتقاصر عنها ، حيث يمرُّ بأطوار مُتعدِّدة، فيبدو صغيرًا ثم يَكبر ، ثم يعود إلى حالته الأولى، فيعلم الناسُ من خلال هذه الحالات المختلفة عددَ السنين ، ويُجرون الحسابات المختلفة التي تفيدهم في حياتهم ، ويتوقف عليها الكثير من منافعهم . وبالقمر وَحْدَه يُعرَف انقضاء الشهور والسنين ، وليس بالشمس . والمعاملات بين الناس قائمة على إحصاء الشهور والسنين . ومصالحهم الدينية والدنيوية قائمة على هذا الإحصاء والحساب. ولولا هذا التقديرُ الإلهيُّ الْمُحكَم الْمُتقَن ، لَتَوَقَّفت مصالح الناس، وغرقوا في الفوضى . وهذا يدل على رحمة الله بعباده ، وتيسير شُؤونهم ، وتسهيل أمور حياتهم .

والعِلْم بعدد السنين هو عِلْم إجمالي ، أمَّا الحساب فَعِلْم تفصيلي ، لذلك تَمَّ التمييز بينهما. والاكتفاءُ بِذِكْر السنين ، لاشتمالها على الأيام والشهور والحساب .

لقد قَدَّرَ اللهُ القمرَ مِن حيث سَيْره ثمانية وعشرين مَنْزِلاً في ثمان وعشرين ليلة مِن كل شهر ، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يَوْمًا ، أو ليلة إن كان تسعة وعشرين يَوْمًا .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ١٢٠) : ((وتخصيص القمر بهذا التقدير لِسُرعة سَيْره ، ومُعايَنة منازله ، وتعلُّق أحكام الشريعة بِه ، وكَوْنه عُمدة في تواريخ العرب)) اهـ .

لَم يَخلق اللهُ ذلك عَبَثًا ولا باطلاً ولا ظُلْمًا ولا مضيعةً للوقت ، وإنما خَلَقَه وَحْدَه بالحق والعدل ، بلا شريك ولا مُساعِد ، ووَفْق الحكمة الإلهية البالغة .

وقد خَلَقَه اللهُ بُرهانًا على وُجوده ـ سُبحانَه ـ ووَحدانيته، وإظهارًا لقُدرته المطْلقة، وإبرازًا لِعِلْمه وحِكمته، ودليلاً على صُنعه البديع الْمُتقَن . وفي الآية يُذكِّر اللهُ عباده ببعض نِعَمه عليهم .

وكُل شيء في الكَوْن يسير وَفْق نظام دقيق ، وهذا يُشير إلى عَظَمة الخالق وكمال قُدرته ، لأن النظام الكامل لا يصدر إلا عن الكامل . والنظام الواحد لا يصدر إلا عن الواحد .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٥) : ((وقد نَبَّه سُبحانَه وتعالى بذلك على أنه خَلَق الشمسَ نَيِّرَةً في ذاتها ، والقمر نَيِّرًا بِعَرَض مُقابَلة الشمس والاكتساب مِنها . ﴿ وقَدَّرَهُ مَنازلَ ﴾ الضمير لِكُل واحد ، أي قَدَّرَ مَسير كُل واحد مِنهما مَنازل ، أو قَدَّره ذا منازل ، أو للقمر . وتخصيصه بالذِّكر لِسُرعة سَيْره ، ومُعايَنة منازله ، وإناطة أحكام الشرع بِه ، ولذلك عَلَّله بِقَوله : ﴿ لِتَعلموا عَدَدَ السنينَ والحسابَ﴾ حساب الأوقات مِن الأشهر والأيام في مُعاملاتكم وتصرُّفاتكم ﴿ ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلا بالحق ﴾ إلا مُلْتَبِسًا بالحق ، مُرَاعِيًا فيه مُقتضَى الحِكمة البالغة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويَعبدونَ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهم ولا يَنفعهم ويَقولونَ هؤلاءِ شُفعاؤنا عِندَ اللهِ قُل أتُنَبِّئونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ في السماواتِ ولا في الأرضِ سُبحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشرِكون ﴾ [يُونُس : ١٨].

يَعبد المشركون الأصنامَ التي لا تَضُرُّ ولا تَنفع ، ويَنتظرون مِنها الشَّفاعةَ عِندَ اللهِ يَوْمَ القِيامة . وهذا ضلالٌ واضح ، لأنَّ الأصنامَ عاجزة عَن نَفْع نفْسِها ونَفْعِ المشركين في الدُّنيا ، فكيفَ ستنفعهم في الآخرة ؟. ومعلومٌ أن فاقد الشيء لا يُعطيه، ولا يُمكن جَنْيُ العنب مِنَ الشَّوْك .

وقِيل : يَتَّخذ المشركون الأصنامَ شُفعاءَ عِندَ اللهِ، من أجل إصلاح شُؤون دُنياهم ، لأنَّ المشركين لا يُؤمنون بالبَعْث. وقد أنكرَ اللهُ على المشركين الذي آمَنوا بتعدُّد الآلهة دون دليل نقلي أو عقلي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦): ((وفي قَوْله : ﴿ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ ﴾ قَولان : أحدهما شُفعاؤنا في الآخرة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ومُقاتل . والثاني : شُفعاؤنا في إصلاح معايشنا في الدُّنيا ، لأنهم لا يُقِرُّون بالبَعْثِ ، قاله الحسن)) اهـ .

والإلهُ الحقُّ هو الذي يَنفع ويَضُرُّ ، ويُثيب على الطاعة ، ويُعاقب على المعصية. وعبادتُه تَكون ذات مَعنى ، وهو جَلْبُ مصلحة أو دَفْع مَضَرَّة ، ولا تُوجد عبادة من أجل العبادة. قُل يا مُحمَّد أتُخْبِرُون اللهَ أنَّ لهُ شَريكًا وعِندَه شَفيعًا وهو لا يَعلم بذلك ؟ . وهذا استفهام إنكاري ، وتَقريعٌ لهم ، وتَهَكُّم بِهم . فاللهُ تعالى لَوْ كانَ له شَريك لَعَلِمَ بِه ، فهو سُبحانه يَعلم كُلَّ شيء ، ولا يَخفَى عَلَيه شيء في السماوات ولا في الأرض . تعالى اللهُ وتَنَزَّهَ عن الشَّريك والنِّد والضِّد .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٠): ((﴿ ويَقولونَ هَؤلاءِ ﴾ الأوثان ﴿ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ ﴾ تَشفع لنا فِيما يَهُمُّنا مِن أمور الدنيا ، أو في الآخرة إنْ يَكُنْ بَعْث ، وكأنهم كانوا شَاكِّين فيه، وهذا مِن فَرْط جَهالتهم ، حيث تَركوا عبادةَ الْمُوجِد الضَّار النَّافع إلى عبادة ما يُعلَم قَطعًا أنَّهُ لا يَضُرُّ ولا يَنفع ، على تَوَهُّم أنَّه بما يَشفع لهم عِندَه)) اهـ . وفي الدُّر المنثور (٤/ ٣٤٩) : ((أخرج ابنُ أبي حاتم عن عِكْرمة قال: قال النَّضْر: إذا كانَ يَوْمُ القِيامة شَفعت لِيَ اللاتُ والعُزَّى . فأنزلَ اللهُ : ﴿ فَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افترى على اللهِ كَذِبًا أوْ كَذَّبَ بآياتِهِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ المجرمون (١٧) ويَعبدونَ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُم ولا يَنفَعُهُم ويَقولونَ هَؤلاءِ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ ﴾)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعل لكمُ الليلَ لِتَسكنوا فِيهِ والنهارَ مُبصِرًا إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُون ﴾[يُونُس : ٦٧] .

إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الإله المستحق للعبادة ، الذي جَعل لكم الليلَ مُظْلِمًا لترتاحوا فيه مِن التعب والحركة والعَناء في طلب الرِّزق أثناء النهار . وجَعل النهارَ مُضيئًا يُبصَر فيه ، ومُفْعَمًا بالحركة والنشاط والحيوية لطلب الرِّزق ، وتوفير المعايش ، وتحقيق المصالح ، وجلب المنافع ، وقضاء الحوائج. واللهُ يمتنُّ على عباده ببعض نِعَمه كَي يَعبدوه وَحْدَه ، ويَشكروه ، ويُطيعوه ، ويَعترفوا بفضله ، ويَنصاعوا لأمره ، ويَستسلموا لِحُكمه . لقد نبَّههم على قُدرته المطْلَقة ونِعمته الجليلة ، كَي يُوحِّدوه ويُطيعوه . والآيةُ تدل على أن جميع المخلوقات مقهورة وخاضعة للهِ وَحْدَه ، وهو الْمُتصرِّف فيها كما يشاء . وهذا يَعني أنَّ الله مُتفرِّد بالأُلوهية والرُّبوبية والخلق والإيجاد والعِزَّة .

والذي خَلق الليلَ والنهار لتحقيق مصالحكم ومنافعكم هو الإله المستحق للعبادة ، بلا شريك ولا نِد. وهذا يدل على بُطلان عبادة الأصنام التي لا تضرُّ ولا تَنفع ، ولا تَخْلُق ، ولا تَفعل شيئًا .

إذن ، يجب عبادة الله وَحْدَه ، لأنه خالق الليل والنهار ، وليس عبادة المخلوقات العاجزة التي لا تَقْدِر على شَيء . إنَّ اختلاف الليل والنهار في الخصائصِ والمزايا وأحوالِ الناس فيهما ، هو آيةٌ إلهيةٌ باهرة ، ودليل على وُجود الله ووَحدانيته وقُدرته وحِكمته .

وهذه الآيةُ الإلهيةُ يَستوعبها الذين يَسمعون الأدلةَ والْحُجَجَ ، ويتفكرون فيها ، ويَتدبَّرون في مَعناها ودَلالتها ، فيتَّعظون ويَعتبرون ، ويَكون هذا مِن أهم أسباب إيمانهم بِوَحدانية الله تعالى .

والمقصودُ بالسَّماع هو سَماع التفهُّم والتدبُّر والاعتبار، وهذا لا يَقْدِر عليه إلا عَالِم مُفكِّر قادر مُتأمِّل ، وليس المقصود سَماع الآذان الْمُجرَّد، ثُمَّ الإعراض والاستكبار . أي : يَسمعون هذه الأدلة والْحُجَج فيعتبرون ويتَّعظون ، ويستدلون على وَحدانية الله وعَظَمَته وقُدرته .

وإسناد الإبصار إلى النهار في قَوله تعالى : ﴿ والنهارَ مُبصِرًا ﴾ مَجازي ، وتَوَسُّع على عادة العرب في كلامهم : ليلٌ قائم ، ونهارٌ صائم . والنهارُ لا يُبْصِر ، ولكن أُضيف الإبصار إلى النهار ، لأن المعنى معروف ومفهوم . كما أن ﴿ والنهارَ مُبصِرًا ﴾ أفصح مِن : والنهارَ لِتُبصروا أنتم فيه . وقد أُسْنِدَ الفِعل للنهار على سَعَة الكلام ، وبيان قُوَّة النهار في الإضاءة .

واسمُ الإشارة ﴿ ذلكَ ﴾ يَحمل معنى البُعد،للدَّلالة على بُعد المكانة ورِفعة الشأن وعُلُوِّ الرُّتبة،

ومع أن الآيات الإلهية موجودة أمام جميع الناس بلا استثناء، إلا أنه تَمَّ تخصيص الذين يَسمعون بالذِّكر : ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُون ﴾ ، لأنهم هُم المستفيدون مِنها ، والمنتفعون بها . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٤٦):((المعنى: إن ربكم الذي يجب أن تعتقدوا رُبوبيته ﴿ هُوَ الذي جَعل لكمُ الليلَ لِتَسكنوا فِيهِ ﴾ ، فيزول تعب النهار وكَلاله بالسكون في الليل . وجَعل ﴿ النهارَ مُبصِرًا ﴾ أي مُضيئًا تُبصِرون فيه . وإنما أضاف الإبصار إليه ، لأنه قد فهم السامع المقصود ، إذ النهار لا يُبصِر... . قَوله تعالى : ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُون ﴾ سَماع اعتبار فيعلمون أنه لا يَقْدِر على ذلك إلا الإله القادر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قالوا اتَّخذَ اللهُ ولدًا سُبحانَهُ هُوَ الغنيُّ لهُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ إنْ عِندَكُم مِن سُلطان بهذا أتقولونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾[يُونُس : ٦٨] .

قال الكافرون إنَّ اللهَ اتَّخذَ وَلَدًا . وهذا مِن أباطيلهم التي اخترعوها دون وَجه حق، ولا دَليل عليها . وقد أَنكرَ اللهُ عليهم ، ونَزَّهَ ذَاتَهُ العَلِيَّةَ عَن كلامهم الباطل ، فهو سُبحانَه الغنيُّ عن الزَّوْجةِ والولدِ، الغنيُّ عَن كُلِّ شيء، وكلُّ شيء مُحتاجٌ إلَيه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٧) : ((قال ابن عباس : يعني أهل مكة ، جَعلوا الملائكةَ بَناتِ الله)) اهـ .

والإنسانُ يَحتاج زوجةً ، لكي يَتخلَّص مِنَ الوَحدة ، والكَبْت الجِنسيِّ ، ويُكَوِّن أُسرةً تُحقِّق له الأمن والأمان، والاستقرار العائلي، والراحة الاجتماعية ، والسعادة الوجودية . ويحتاج الإنسانُ

ولدًا لِيَحمل اسْمَه واسمَ العائلة ، ويُحافظ على النَّسْل والاستمرارية، ويَحمي أُسرته من الانقراض والزوال. وأيضًا يُساعد الولدُ أباه خصوصًا في مرحلة الشَّيخوخة والعَجْز. وكلُّ هذه المعاني مَنْفِيَّةٌ عَن اللهِ سُبحانه. فاللهُ قائمٌ بذاته ، غنيٌّ عَن كُلِّ شيء ، لا يَحتاج إلى أحد . وبالتالي لا معنى لوجود زوجة وولد للهِ الخالقِ العظيم. فالمخلوقُ هُوَ الذي يَحتاج إلى الخالق،والخالقُ لا يَحتاج إلى المخلوق.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٨٣) : ((الله غَنيٌّ عَن خَلْقه جميعًا ، فلا حاجة به إلى ولد ، لأن الولد إنما يَطلبه مَن يَطلبه لِيَكون عَونًا له في حياته ، وذِكْرًا له بعد وفاته ، واللهُ عَن كُلِّ ذلك غنيٌّ ، فلا حاجة به إلى مُعين يُعينه على تدبيره ، ولا يَبيد فيكون به حاجة إلى خَلَفٍ بَعْدَه)) اهـ .

وكيفَ يَكون للهِ ولدٌ، وكلُّ شيء مخلوقٌ وعَبْدٌ للهِ . ومعروفٌ أنَّ الابنَ يَحمل صفاتِ أبيه ، فلا يُعقَل أن يَكون هناك ابْنٌ للهِ ، لأنَّ هذا الابن المزعوم سيكون مَخلوقًا وعَبْدًا ، فكيفَ يَكون ابنُ الإلهِ السَّيدِ الخالقِ عَبدًا ومَخلوقًا ؟! . إنَّ هذا الابنَ المزعوم لَم يَحمل صِفاتِ أبيه . وإنما حَمَلَ صفاتٍ مُضَادَّةً لصفات أبيه . وهذا يُظهِر بُطلانَ قَول مُشركي العرب: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ،ويُظهِر بُطلانَ قَول النصارى: إنَّ عيسى ابنُ اللهِ، ويُظهِر بُطلانَ قَول اليهود : إنَّ عُزَيرًا ابنُ اللهِ . ونلاحظ أنَّ المشركين وأهل الكتاب يُحاولون جاهدين نِسبةَ المخلوقات إلى اللهِ تعالى ، تَمهيدًا لِنِسبة أنفسهم إلَيه ، بِوَصْفهم أحبابَه ، وصَفْوَتَه مِن خَلْقِه ، وشَعْبَه المختار ، ــ على حَدِّ زَعْمهم ــ .

وَلَوْ زَعَمَ أحدُهم أنَّ ابْنَ الإلهِ إلهٌ ، فكيفَ يَكون الابنُ إلَهًا وهو مَقضيٌّ عَلَيه بالموت والخضوع لِسُلطة أبيه . فعلى سبيل المثال، كيف يَكون المسيحُ إلَهًا، وهو يأكل ويَشرب ويُخرِج الفضلاتِ ، وفي نهاية المطاف صُلِب ــ حَسَبَ عقيدة النصارى ــ ؟ . إنَّ العاجزَ عَن حماية نفْسِه، لَن يَستطيع حمايةَ المؤمنين به . والعاجزُ لا يَكون إلَهًا . وهذا يُبطِل أُلوهيةَ المسيح التي اخترعها النصارى ، والمسيحُ بريءٌ مِنها . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٣٢٢) : ((والولد يَقتضي الْمُجانَسة والْمُشابَهة ، واللهُ تعالى لا يُجانِس شَيئًا ، ولا يُشابِه شَيئًا)) اهـ .

﴿ إنْ عِندَكُم مِن سُلطانٍ بهذا ﴾ . لَيس عِندكم دليلٌ على وُجود ولدٍ للهِ . وَلَوْ كانوا يَملكون الدليلَ لَقَدَّموه أمامَ الناس ، وعارَضوا القُرآنَ ، وبَيَّنوا صِحَّةَ كلامهم . لكنَّ هذا لَم يَحْدُثْ .

ودائمًا،تَكون حُجَّةُ العاجزِ هِيَ الكذبَ لأنه أسهل وسيلة. وهذا يدل على جَهْلهم، وأنَّ كلامَهم نابع من الأهواء الشخصية بِلا حُجَّةٍ ولا بُرهان . وكلُّ كلامٍ لا دَليل عَلَيه ، فهو جَهلٌ خالص.

﴿ أتقولونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ . إنكارٌ ، وتهديدٌ ، وتَوبيخٌ على جَهْلهم وكذبهم .

كيفَ تقولونَ على اللهِ كلامًا لا دليل عَلَيْهِ ، ولا تَملكون الْحُجَّةَ والبُرهان ؟. والآيةُ دليلٌ واضح على أنَّ كُلَّ كلامٍ لا دليل عَلَيه، فهو أكذوبة وجَهْلٌ خالص ، وأنَّ العقائد تُبْنَى على الدليل القَطعي اليَقيني، ولا تُبْنَى على التقليد والشَّك . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٨٣) : ((ما عِندَكم أيها القوم بما تقولون ، وتَدَّعون مِن أن الملائكةَ بناتُ الله مِن حُجَّة تَحتجُّون بها وهي السُّلطان. أتقولون على الله قَولاً ، لا تعلمون حقيقته وصِحَّته،وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه جَهلاً مِنكم بما تقولون ، بِغَير حُجَّة ولا برهان ؟)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكةُ مِن خِيفتهِ ويُرْسِلُ الصواعقَ فَيُصِيبُ بِها مَن يشاءُ وهُم يُجادِلُونَ في اللهِ وَهُوَ شَديدُ المِحَال ﴾[الرعد : ١٣] .

إنَّ الرعدَ يُعظِّم اللهَ ويُمجِّده ويُنَزِّهه عمَّا لا يليق بِه ، والرعدُ صَوْتٌ عظيمٌ هائلٌ خاضعٌ للهِ . وإذا كانَ الرعدُ العظيمُ يُسبِّح اللهَ تعالى ، فَمِن باب أولى أن يُسبِّح الإنسانُ (الكائن الضعيف) اللهَ.

وقِيل : إن الرعد مَلَك مُوَكَّل بالسَّحاب ، حيث يَسُوقه قائلاً : سُبحانَ الله وبحمده .

ونحن لا نَفهم صَوت الرعد ، ولا نُدرِك كيفيةَ تسبيحه . ولكنَّ تسبيح الرعد حق ثابت في القُرآن . وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن مِن شَيء إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تَفْقَهُون تَسبيحَهُم ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وهذا يعني أن كُل شيء يُسبِّح اللهَ حقيقةً بِحَسَب وَضْعه ووَفْقَ حاله ، ولكن الناس لا تَعرف كيفية تسبيح الأشياء . والآيةُ تدل على وُجود الله ووَحدانيته ، وقُدرته المطْلَقة ، وحِكمته البالغة . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٠٣) : ((أكثر المفسِّرين على أن الرَّعد اسم مَلَك يَسوق السَّحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه. قال ابن عباس: مَن سمع صوت الرعد ، فقال : سُبحانَ الذي يُسبِّح الرعدُ بحمده ، والملائكةُ مِن خِيفته ، وهو على كُل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة ، فعليَّ دِيَته)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٣و٣١٤): ((قوله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعدُ بحمدِهِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنه اسم الْمَلَك الذي يَزْجُر السحاب، وصَوته تسبيحه. قاله مقاتل . والثاني أنه الصوت المسموع. وإنما خُصَّ الرعد بالتسبيح، لأنه من أعظم الأصوات . قال ابن الأنباري: وإخباره عن الصوت بالتسبيح مَجاز، كما يقول القائل: قد غَمَّني كلامك)) اهـ . وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق ، قال: ((اللهُمَّ لا تَقْتُلْنا بغضبك ، ولا تُهْلِكْنا بعذابك ، وعَافِنا قبل ذلك))[52].

(٥٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣١٨) برقم (٧٧٧٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وروى البخاري في الأدب المُفرَد (١/ ٢٥٢) : عن عبد الله بن الزبير ، أنه كان إذا سمع الرعد ، ترك الحديث ، وقال : ((سُبحانَ الذي يُسبِّح الرعدُ بحمده ، والملائكةُ مِن خِيفته)) ، ثُمَّ يقول : ((إن هذا لَوَعِيدٌ شديد لأهل الأرض)) .

﴿ والملائكةُ مِن خِيفتهِ ﴾ . وتُسبِّح الملائكةُ مِن خِيفة الله وخَشْيته وعَظَمَته وهَيْبته وإجلاله .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٠٣) : ((وقِيل : أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد . جَعل اللهُ تعالى له أعوانًا ، فهم خائفون خاضعون طائعون)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ والملائكةُ مِن خِيفتهِ ﴾ في هاء الكِناية قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو الأظهر. قال ابن عباس : يخافون اللهَ وليس كخوف ابن آدم ، لا يَعرف أحدُهم مَن على يمينه ومَن على يساره ، ولا يشغله عن عبادة الله شيء . والثاني أنها ترجع إلى الرعد ، ذكره الماوردي)) اهـ .

﴿ ويُرْسِلُ الصواعقَ فَيُصِيبُ بِها مَن يشاءُ ﴾ . ويُرسِل اللهُ الصواعقَ الْمُدمِّرة الْمُحْرِقة على مَن يشاء مِن خَلْقه ، فَيُهْلِكه ويقضي عليه . والصواعقُ نار حارقة تخرج من السحاب . والآيةُ تدل على كمال قُدرة الله وشِدَّة عذابه . والصواعقُ آيةٌ إلهية باهرة تدل على الصانع العظيم الذي أتقنَ صُنْعَه وأحكمه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ ويُرْسِلُ الصواعقَ فَيُصِيبُ بِها مَن يشاءُ ﴾ . اختلفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في أربد بن قيس وعامر ابن الطُّفَيْل، أتيا إلى رسول الله ﷺ يريدان الفَتْك به ، فقال : " اللهمَّ اكفنيهما بما شِئت". فأمَّا أربد فأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاحٍ فأحرقته، وأمَّا عامر فأصابته غُدَّة فَهَلَك. فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية. هذا قول الأكثرين،مِنهم ابن جُرَيج. وأربد هو أخو لَبيد بن ربيعة لأُمِّه...))اهـ . ﴿ وهُم يُجادِلُونَ في اللهِ ﴾ . بعد كُل الآيات الإلهية الباهرة ، لا يَزال كُفار مكة يَرفضون وَحدانية الله،ويَشُكُّون في عَظَمته وقُدرته،ويُنكِرون البعث،ويُكذِّبون النبيَّ ﷺ،ويتَّخذون شُركاء لله، ويستعجلون العذابَ، ويقترحون نزول الآيات سُخريةً واستهزاءً.والجِدال هو التشدُّد في الخصومة. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وهُم يُجادِلُونَ في اللهِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما يُكذِّبون بِعَظَمَة الله ، قاله ابن عباس . والثاني : يُخاصِمون في الله ، حيث قال قائلهم : أَهُوَ مِن ذَهَب أَم مِن فِضَّة)) اهـ .

﴿ وَهُوَ شَديدُ المِحَال ﴾ . إن اللهَ تعالى شديدُ القُوَّة والبَطْش ، وقادرٌ على الانتقام والعقوبة وسَحْق أعدائه . ولا يستطيع الكافرُ والظالِمُ الهربَ مِن عذاب الله وعقوبته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَال ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها شديد الأخذ، قاله عليٌّ عليه السلام . والثاني شديد المكر شديد العداوة ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس . والثالث شديد العقوبة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مجاهد في رواية عنه : شديد الانتقام . وقال أبو عُبَيدة : شديد العقوبة والمكر والنَّكال.وقال ابن قُتَيبة: شديد المكر واليَد، وأصل الْمِحَال الحِيلة. والرابع شديد القُوَّة، قاله مجاهد . والخامس شديد الحقد، قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مُسْنَدًا مِن طُرق ، وقد رواه عنه جماعة مِن المفسِّرين، مِنهم ابن الأنباري والنَّقاش . ولا يجوز هذا في صفات الله تعالى . قال النَّقاش: هذا قول مُنكَر عند أهل الخبر والنظر في اللغة. لا يجوز أن تكون هذه صفة مِن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ . والذي أختاره في هذا ما قاله عليٌّ عليه السلام : شديد الأخذ ، يعني أنه إذا أخذ الكافر والظالم لَم يُفْلِتْه مِن عُقوباته)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولقد جَعَلْنا في السماءِ بُروجًا وَزَيَّنَّاها للناظرين ﴾[الحِجْر : ١٦] .

إن اللهَ يُبيِّن للناس الأدلةَ على وَحدانيته وكمال قُدرته ، وعجز الأصنام التي يتَّخذها الكافرون آلهةً مِن دُون اللهِ تعالى . ومِن الأدلة على وَحدانية الله وقُدرته وعِلمه وحِكمته، أنه خَلَقَ في السماء الدُّنيا منازلَ الشمس والقمر ، وزيَّنَ السماءَ بالشمس والقمر والنجوم والكواكب للمُتفكِّرين والْمُتأمِّلين في بديع صُنع الله ، مِن أجل أن يعتبروا ويتَّعظوا ويستدلوا على وَحدانية الخالق وقُدرته.

وخَلْق البروج في السماء وتَزيينها ضِمن نظام مُحكَم ومنظومة مُتقَنة ، مِن عجائب المصنوعات وأعظمها وأبهاها. والمصنوع الْمُتقَن يدل على وَحدانية الصانع وكمال قُدرته ، وعِلمه الشامل ، وحِكمته البالغة . و"البُرُوج " مأخوذة مِن الظهور . يُقال : تَبَرَّجَت المرأة ، أي : ظَهَرَت .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١١) : ((والعرب تَعُدُّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها مِن أجلِّ العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات ، والأوقات ، والخِصْب ، والْجَدْب)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/٣٨٧):((قَوله تعالى:﴿ ولقد جَعَلْنا في السماءِ بُروجًا ﴾. في البُروج ثلاثة أقوال : أحدها أنها بُروج الشمس والقمر، أي منازلها، قاله ابن عباس وأبوعبيدة في آخرين . قال ابن قُتَيبة : وأسماؤها : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت . والثاني أنها قُصور ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا . وقال عطية : هي قُصور في السماء فيها الحرس . وقال ابن قُتَيبة : أصل البروج الحصون . والثالث أنها الكواكب ، قاله مجاهد وقتادة ومقاتل . قال أبو صالح : هي النجوم العِظام . قال قتادة : سُمِّيت

بُروجًا لظهورها . قَوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّاها ﴾ أي حَسَّنَّاها بالكواكب . وفي المراد بالناظرين قَولان أحدهما أنهم الْمُبصِرون ، والثاني الْمُعتبِرون)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياحَ لَواقِح ﴾[الحِجْر : ٢٢] .

مِن تجليات الرحمة الإلهية إرسالُ الرياح تُلقِّح السحابَ والشجرَ ، فيعمُّ الخيرُ، وتزدهر الحياة. فعن طريق تلقيح السحاب تتكون الأمطارُ . وتلقيحُ الشجر يجعله يتكاثر ، ويزداد وجوده لتحقيق المنافع المتعددة ، وتجميل البيئة ، وإكسابها منظرًا مُريحًا لعين الناظر . وهذه المناظر الطبيعية ذات الألوان الباهرة المنتشرة حَوْلنا من دلائل وَحدانية الله وعَظَمته وقُدرته وبديع صُنعه .

ومعنى ﴿ لَواقِح ﴾ حوامل ، لأنها تحمل الماءَ والسحاب .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٢٣):((أي تُلقِّح السحابَ فَتُدِرُّ ماءً، وتُلقِّح الشجرَ فتفتَّح عن أوراقها وأكمامها، وذِكْرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ خَلَقْنا الإنسانَ مِن صَلصالٍ مِن حَمَأ مَسنون ﴾ [الحِجْر : ٢٦] .

المقصودُ بالإنسان هو آدم ﷺ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٧٨) : ((سُمِّيَ إنسانًا لظهوره وإدراك البصر إيَّاه. وقِيل: مِن النسيان لأنه عَهِدَ إليه فَنَسِي)) اهـ . وقد خَلق اللهُ آدمَ ﷺ مِن صَلْصال ، وهو الطين اليابس الذي إذا نَقَرْتَه سَمعتَ له صَوْتًا . والحمأ هو الطِّين الأسْود . ومعنى " مَسْنون " مُتغيِّر الرائحة . وعلى الإنسان أن يتذكر دائمًا أصْله البسيط ، فهو مخلوقٌ من صَلْصال لا قيمة له . فلا دَاعي للتكبر والغرور . واللهُ قادرٌ على خَلْق الإنسان من ذَهَب أو فِضَّة ، لكنه تعالى أراد خَلْقَه من طِين ، كَي يتذكر الإنسانُ نقطةَ بدايته، ولا يتكبر على خالقه، بل يَخْضع له، ولا يتكبر على الناس، وإنما يتواضع لهم، ويمد لهم يد العَوْن، ولا يتعالى على عناصر الطبيعة ، بل يحافظ عليها، ويستخدمها في سُبل الخير.وقد خُلق الإنسان لأمرٍ عظيم، وهو حَمْل كلمة الله . وهذه المهمةُ بحاجة إلى جهود خارقة ، فهي لَيْست سهلة بالمرَّة ، إذ إنها تستلزم بذل الغالي والنفيس في سبيلها ، وتحمُّل الأعباء الثقيلة ، ومُقاساة الشدائد ، والخوض في صراعات لا نهاية لها .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إن الله خَلق آدم مِن تراب ، ثم جَعله طِينًا ، ثم تَركه ، حتى إذا كان حَمَأً مسنونًا خَلَقه وَصَوَّره ، ثم تَركه ، حتى إذا كان صَلْصالاً كالفَخَّار . فَكان إبليس يمرُّ به فيقول : لقد خُلقتَ لأمر عظيم ، ثم نَفخ اللهُ فيه رُوحَه ، فكان أَوَّلُ

شيء جَرى فيه الرُّوحُ بَصَرَه وخَياشيمَه))[53]. والمراحلُ التي مَرَّ بها خَلْقُ آدم ﷺ هي : التراب ، الطِّين ، الحمأ المسْنون ، الصَّلْصال . وهذا لا يتعارض مع حقيقة خَلْق آدم من تُراب ، أو ما يُشابهها من العِبارات.وقالَ اللهُ تعالى:﴿والجانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نارِ السَّمُوم ﴾ [الحِجْر: ٢٧].

خَلَقَ اللهُ الجانَّ قبل خَلْق الإنسان . أي : إن اللهَ خلق إبليس (أبا الجِن) قبل خلق آدم (أبي البشر) . والجانُّ هو أبو الجِن (إبليس) ، وسُمِّيَ جَانًّا لاستتاره وتواريه عن الأنظار .

ونارُ السَّمُوم هي نار الحرِّ الشديد النافذ في المسام ، ولا دُخَان لها .

وهذا يدل على أفضيلة آدم ﷺ وشَرَفه ، وطِيب عُنصره ، ورِفعة شأنه ، وطهارة أصله .

وذِكر خَلْق الإنسان والجان ، للتنبيه والدَّلالة على وَحدانية الله وقُدرته المطْلقة ، وبيان أن القادر على النَّشأة الأولى (الخلق مِن العدم) قادرٌ على النَّشأة الأُخرى (البعث بعد الموت) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ والجانَّ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها أنه مسيخ الجن ، كما أن القِرَدة والخنازير مَسيخ الإنس ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثاني أنه أبو الجن، قاله أبو صالح عن ابن عباس.وروى عنه الضَّحاك أنه قال: الجان أبو الجن ، وليسوا بشياطين ، والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس ، والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . والثالث أنه إبليس ، قاله الحسن وعطاء وقتادة ومقاتل . فإن قِيل : أليس أبو الجن هو إبليس ؟ ، فعنه جوابان : أحدهما أنه هو فيكون هذا القول هو الذي قَبْله ، والثاني أن الجان أبو الجن ، وإبليس أبو الشياطين ، فبينهما إذًا فَرْق على ما ذكرناه عن ابن عباس . قال العلماء : وإنما سُمِّيَ جَانًّا لتواريه عن العيون.قَوله تعالى:﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني قبل خلق آدم ﴿ مِن نارِ السَّمُوم ﴾ . وقال ابن مسعود : مِن نار الريح الحارَّة ، وهي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم ، والسموم في اللغة الريح الحارة ، وفيها نار . قال ابن السائب : وهي نار لا دُخَان لها)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٤) : عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ((خُلِقَت الملائكةُ مِن نُور ، وخُلِق الجانُّ مِن مَارِجٍ مِن نار ، وخُلِقَ آدم مِمَّا وُصِفَ لكم)) .

---

(٥٣) رواه أبو يعلى في مسنده (١١/ ٤٥٣)برقم(٦٥٨٠).وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٦٣) : ((وفيه إسماعيل بن رافع ، قال البخاري : ثقة مُقارَب الحديث ، وضعَّفه الجمهور، وبقية رجاله رجال الصحيح)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٦٤) : ((... رواه الترمذي والنسائي والبزار ، وصحَّحه ابن حبان من طريق سعيد المقبري وغيره عن أبي هريرة مرفوعًا)) اهـ .

والمارِجُ هو اللهب المختلط بسواد النار .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٤٥٠) : ((" خُلِقَت الملائكةُ مِن نُور ، وخُلِق الجان " أبو الجن أو إبليس " مِن مَارِجٍ مِن نار " ، أي مِن نار مختلطة بهواء مشتعل . والمرَج الاختلاط. فهو من عنصرين هواء ونار ، كما أن آدم من عنصرين تراب وماء ، عُجِن به ، فحدث له اسم الطين ، كما حدث للجن اسم المارج . " وخُلِقَ آدم مِمَّا وُصِفَ لكم " . ببناء وصف للمفعول ، أي : بما وَصفه اللهُ لكم في مواضع من كتابه ، ففي بعضها أنه خَلَقه مِن ماء ، وفي بعضها من تراب ، وفي بعضها من المركَّب منهما وهو الطين ، وفي بعضها من تراب ، وفي بعضها من صلصال ، وهو طين ضربته الشمس والريح حتى صار كالفَخَّار . قال الغزالي : قد اجتمع في الفَخَّار والنار والطين، والطِّين طَبْعه السُّكون ، والنار طبعها الحركة ، فلا يُتصوَّر نار مشعلة تسكن، بل لا تزال تتحرك بطبعها، وقد كُلِّفَ المخلوق من النار أن يطمئن من حركته ساجدًا لِمَا خُلِقَ مِن طين، فأبى واستكبر أن يسجد لآدم، فلا مطمع في سجوده لأولاده. (تنبيه) قال ابن عربي : قال: " مِمَّا وُصِفَ لكم " ولَم يقل : كما قال فيما قبله ، طَلَبًا للاختصار ، فإنه أُوتِيَ جوامع الكَلِم ، وهذا مِنها ، إذ الملائكة لَم يختلف أصل خِلْقتها ، ولا الجان . وأمَّا الإنسان فاختلف خَلْقه على أربعة أنواع : فخلق آدم لا يُشبه خلق حَوَّاء ، وخلق حَوَّاء لا يُشبه خلق آدم ، وخلق عيسى لا يُشبه خَلْق الكُل ، فأحال على ما وصل إلينا مِن تفصيل خَلْق الإنسان . ولَمَّا كان خَلْق الجان مِن نار ،كان فيه طلب القهر والاستكبار،فإن النار أرفع الأركان مكانًا، ولها سُلطان على الإحالة، فلذلك قال: ﴿ أنا خَيْـرٌ مِنْهُ ﴾ [ص : ٧٦] . وما عَلِمَ أن سُلطان الماء الذي خُلِق منه آدم ، أقوى مِنه ، فإنه يُذهِبه ، والتراب أثبت مِنه لبرده ويَبَسه ، فلآدم القوة والثبوت ، لغلبة ذَينك الرُّكنين عليه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحرَ لِتَأكلوا مِنْهُ لحمًا طَرِيًّا وتستخرجوا مِنْهُ حِلْيَةً تلبسونها﴾ [النَّحْل :١٤].

يُذكِّر اللهُ عِبادَه بِنعمه العظيمة ، فقد هيَّأ البحرَ للإنسان ، وطوَّعه لتحقيق المنافع للناس ، حيث يصطادون السمكَ،وهو اللحم الطري الشهي النافع صِحِّيًّا، ويستخرجون اللؤلؤ والمرجان، وهُما من أدوات الزينة الجميلة . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٩) عن اللحم الطري : ((هو السمك ، ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يُسرَع إليه الفساد ، فيُسارَع إلى أكله ، ولإظهار قُدرته في خَلْقه عذبًا طَرِيًّا في ماء زُعاق ـ يعني شديد الملوحة لا يُطاق شُرْبه ـ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٧٩): ((امتنَّ اللهُ سُبحانَه على الرجال والنساء امتنانًا عامًّا بما يخرج مِن البحر ، فلا يَحْرُم عليهم شيء مِنه)) اهـ .

وتسخير البحر يتجلى في رُكوب الناس عليه ، والإبحار فِيه ، والصَّيد ، واستخدام السُّفن للتجارة وتحقيق المصالح والمنافع ، والغَوص في أعماقه . وهذه نِعَمٌ إلهيةٌ جليلة ، ولو شَاءَ اللهُ لَجَعَلَ البحرَ هائجًا على الدَّوام ، يَبلع الناسَ ويُغرِقهم ، ولا يَستطيعون الاقتراب مِنه .

وقد خَلَقَ اللهُ السمكَ طَرِيًّا شَهِيًّا لذيذًا في بيئة شديدة الملوحة ، والناس يَستمتعون بأكله ، ويستفيدون مِن منافعه الكثيرة . والناسُ أيضًا يستخرجون مِن البحر اللؤلؤ والمرجان والدُّر والجواهر . والآيةُ تدل على جواز أن يتحلى الرجال ويَتزيَّنون باللؤلو والمرجان ، بشرط عدم التَّشبه بالنساء . فالآيةُ تَحمل امتنانًا عامًّا للرجال والنساء ، فلا يَحرم عليهم شي من ذلك .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٣٤) : ((﴿ وتستخرجوا مِنْهُ حِلْيَةً تلبسونها ﴾ يعني الدُّر واللؤلؤ والمرجان . وفي هذا دلالة على أن حالفًا لو حلف لا يلبس حُلِيًّا ، فلبس لُؤلؤًا أنه يَحْنَث . وقال أبو حنيفة : لا يحنث)) اهـ .

لقد وضَّح اللهُ آياتِه الباهرة في البحر ، ونَصَبَ الأدلةَ والبراهين ، وأرشد الناس إلى النظر والتأمل فيها ، من أجل الاعتبار ، والاستدلال على وَحدانية الله وكمال قُدرته .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كما يَقولونَ إذًا لابْتَغَوْا إلى ذِي العَرْشِ سَبيلاً ﴾ [الإسراء : ٤٢] . قُل يا مُحمَّد للمُشركين الذين صَنعوا الأصنامَ بأيديهم ، ثُمَّ جَعلوها آلهةً مَعبودةً مِن دُون الله : لَوْ كانَ مَعَ اللهِ آلِهةٌ _ كما يَزعم المشركون _ ، لاتَّخذت هذه الآلِهةُ طَريقًا لِمُغالَبةِ اللهِ ومُمانعته من أجل إزالة مُلْكِه _ كما يَفعل مُلوك الدنيا بَعْضُهم ببعض _ .

والآيةُ بيانٌ للتمانع . وهذا هو الرَّأي الراجح في تفسير الآية ، ويمكن إعادةُ صياغته كالتالي : لَوْ كان هناك آلهةٌ _ على حَدِّ زَعْم المشركين_ لقامت هذه الآلهة بِمُنافسة الله، ومحاولةِ انتزاع مُلْكِه_كما يَحصل بين ملوك الأرض _.

أمَّا الرأي الثاني:لَقَامت هذه الآلهةُ بالسَّعْي لنيل رضا الله لأنها دُونَه . وبما أنها مُحتاجة، إذن ، فهي لَيْسَتْ آلهةً [54].

---

(٥٤) قال أبو السُّعود في تفسيره (٥/ ١٧٤) : ((والأوَّل هو الأظهَر الأنسَب ، فإنَّه صريح في أنَّ المراد بيان أنَّه يَلْزَم مِمَّا يقولونه مَحذور عظيم ، مِن حَيث لا يَحْتَسِبون . وأمَّا ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرُّب =

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٨) : ((قوله تعالى : ﴿ إذًا لابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ فِيه قَولان: أحدهما لابْتَغَوْا سَبيلاً إلى مُمانعته وإزالةِ مُلْكه،قاله الحسن وسعيد بن جُبَير. والثاني : لابْتَغَوْا سَبيلاً إلى رِضاه لأنهم دُونَه ، قاله قتادة)) اهـ .

والآيةُ تَحْمِلُ رَدًّا بليغًا باهرًا مُفْحِمًا مُوجَزًا ، يُخاطب عقولَ الناس بِشَتَّى مستوياتهم الفكرية، فهو متوافق مع الفِطْرة السليمة والعقلِ الطبيعي . فلم يُقدِّم القرآنُ رَدًّا فلسفيًّا مُعقَّدًا ، ولَم يَجِئْ بأنواع الشتائم للمشركين.وإنما عَرَضَ الدليلَ الواضح على وَحدانية الله وبُطلانِ عقيدة تعدُّد الآلهة. وهذا يُشير إلى عَظَمة القرآن، وقوةِ حُجَّته المضيئة التي لا يمكن مواجهة نورها بأيَّة وسيلة من الوسائل . فالحق يَعلو ، والباطلُ يَذهب أدراجَ الرياح .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٩) : ((يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنَّ للهِ شَريكًا مِن خَلْقه ، العابدين مَعَه غَيْرَه لِيُقَرِّبهم إليه زُلفى : لَوْ كان الأمرُ كما يقولون وأنَّ معه آلهةً تُعبَد لِتُقَرِّب إلَيه وتَشفع لَدَيه ، لكانَ أولئك المعبودون يَعبدونه ويتقرَّبون إليه، ويبتغون إليه الوسيلة والقُربة ، فاعبدوه أنتم وَحْدَه كما يَعبده مَن تَدعونه مِن دُونِه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بَيْنَكم وبَيْنَه ، فإنَّه لا يُحِبُّ ذلك ولا يَرضاه ، بَل يَكرهه ويَأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رُسُله وأنبيائه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقُلِ الحمدُ للهِ الذي لَم يَتَّخِذْ وَلَدًا ولَم يَكُن لهُ شريكٌ في الْمُلْكِ ولَم يَكُن لهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تكبيرًا ﴾[الإسراء : ١١١] .

إنَّ اللهَ هو الفرد الصمد ، الذي لَم يَلِدْ ولَم يُولَد . فلهُ الحمدُ والشُّكر والتقديس والتَّنْزيه . وقد نَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن الولد والذُّرِّية . ومَن كان مُحتاجًا إلى ولد ، لا يكون إلَهًا . وهذا رَدٌّ إلهيٌّ على اليهود الذين زعموا أن عُزَيْرًا ابن الله ، وعلى النصارى الذين زعموا أن عِيسى ابن الله ، وعلى مُشركي العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله . تعالى اللهُ عن أقوالهم الكاذبة .

وقد أمرَ اللهُ محمدًا أن يَحمده على وَحدانيته . و﴿ الحمدُ للهِ ﴾ هو الثناء عليه بما هو أهله.

ولَم يكن له شريك في أُلوهيته ورُبوبيته ، وليس له مُساعِد ولا مُعين في مُلكه وسُلطانه ، لأنه واحدٌ في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحدٌ في أفعاله ، لا شريك له في مُلكه وسُلطانه ، ولا في

=فليس مِمَّا يُخْتَص بهذا التقرير ، ولا هُوَ مِمَّا يُلْزِمهم مِن حيث لا يَشعرون ، بَل هو أمر يعتقدونه رأسًا ، أي تَنَزَّهَ بذاته تَنَزُّهًا حقيقًا به)) اهـ .

عبادته . وهو سُبحانَه غنيٌّ عَن كُل شَيء . ومَن كان مُحتاجًا إلى مُعين أو مُساعِد ، لا يكون إلَهًا . فالإلهُ الحقُّ هو الْمُنفرِد بالْمُلْك والسُّلطان ، ولا يَحتاج أحدًا . وقال الإسفراييني في التبصير (١/ ١٦٠) : ((وأن تعلم أنه لا يَجوز الشريك له في المملكة ، لِمَا قد بَيَّنَّا مِن أن الخالق واحد لا ثاني له ، والمملوك يَستحيل أن يكون خارجًا مِن مُلْك الخالق. وهذا تحقيق قَوله : ﴿ وقُلِ الحمدُ للهِ الذي لَم يَتَّخِذْ وَلَدًا ولَم يَكُن لهُ شريكٌ في الْمُلْكِ ولَم يَكُن لهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تكبيرًا ﴾)).

ولَم يكن له حليف ولا وزير ولا مُستشار ، ولا يَحتاج إلى نَصْر أحد ولا مُساعدته . فاللهُ وَحْدَه هو خالقُ الأشياء ، ومُدبِّرها ومُقدِّرها . والإنسانُ الضعيفُ قد يُحالِف أحَدًا للدفاع عنه ، وقد يطلب النصرَ مِن غَيره ، والمساعدة مِن الآخرين . أمَّا اللهُ العظيمُ فلا يَحتاج إلى شَيء مِن هذا لقُوَّته وعِزِّه وعَظَمَته وكِبريائه . ومَن كان مُحتاجًا إلى نصر غَيْره ، فهو ضعيف ذليل، والذليلُ لا يَكون إلَهًا . فالإلهُ الحقُّ هو العزيزُ الغالب القاهر .

وفي شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٥٧) : ((فاللهُ تعالى ليس له وَلِيٌّ مِن الذُّل ، بل للهِ العِزَّة جميعًا خِلاف الملوك وغَيرهم ، مِمَّن يَتولاه لِذُلِّه وحاجته إلى وَلِيٍّ يَنصره)) اهـ .

والمستحق للحمدِ والثناء هو الْمُتَّصف بهذه الصفات . فاللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الولد ، لأن الولد يَكون مِن جِنس أبيه ويُشبهه في صِفاته. واللهُ لا يُشبِه شَيئًا ، ولا يُشبِهه شَيء . والمخلوقُ لا يَحمل صِفات الخالق . واللهُ مُنَزَّهٌ عن الشريك ، فهو سُبحانَه مُنفرِد بالخلق والإيجاد ، لا أحد يُنافِسه ولا يُنازِعه ، ولا يُناقِشه . أمَّا العلاقة القائمة بين شريكين ، فهو مُوجِبة للنِّزاع والتناقس وتقاسم المصالح، وتبادل المنافع. وبما أن الكَون يسير وَفْق نظام واحد مُتقَن ومُحكَم بلا خلل ولا فوضى، فهذا يدل على وجود صانع واحد حكيم ومُدبِّر ، لا شريك له ، ولا أحد يُنازِعه أو يُنافِسه . واللهُ لا يَحتاج إلى وَلِيٍّ يُواليه ويُحالفه كَي يَدفع عنه الذُّل ، فهو تعالى غنيٌّ بذاته، ومُستغنٍ عن الوَلِيِّ والنصير . واللهُ لَم يَذِلَّ فيحتاج إلى ناصر.فاللهُ هو العزيزُ القويُّ الكاملُ، المنفرِد بالخلق والإيجاد والتدبير. ومَن كان مُتَّصِفًا بهذه الصفات فهو المستحق للحمد والثناء والمدح ، وما سِواه ناقص مملوك ضعيف ذليل خاضع .

وعَظِّمْ رَبَّكَ يا محمد تعظيمًا كاملاً تامًّا ، ونَزِّهْهُ عن أقوال الكافرين، والتزم بأوامره ونَواهيه . وتعظيمُ الله لا يَكون إلا بالقَول والفِعل مَعًا،وذلك بتطبيق أوامر الله على أرض الواقع ، واجتناب نَواهيه.وقال القرطبي في تفسيره(١٠/٢٩٩):((يُقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر ، أي صِفْهُ بأنه أكبر من كل شيء)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٧٣) : ((﴿ وَكَبِّرْهُ تكبيرًا ﴾ وفيه تنبيه على أن العبد، وإن بالغَ في التَّنْزيه والتمجيد، واجتهد في العبادة والتحميد ، ينبغي أن يعترف بالقُصور عن حَقِّه سُبحانَه في ذلك)) اهـ . وفي تفسير الجلالين (١/ ٣٧٨) : ((﴿ وَكَبِّرْهُ تكبيرًا ﴾ عَظِّمْهُ عَظَمَةً تامَّةً عن اتخاذ الولد والشريك والذُّل ، وكُل ما لا يليق به . وترتيب الحمد على ذلك ، للدَّلالة على أنه استحق لجميع المحامد ، لكمال ذاته ، وتفرُّده في صفاته)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٨٩) وصحَّحه: عن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما كَرَبَني أمرٌ إلا تَمَثَّلَ لي جبريل ــ عليه السلام ــ فقال : يا محمد ، قُل : توكلتُ على الحيِّ الذي لا يموت ، و ﴿ الحمدُ للهِ الذي لَم يَتَّخِذْ وَلَدًا ولَم يَكُن لهُ شريكٌ في الْمُلْكِ ولَم يَكُن لهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تكبيرًا ﴾)) .

عندما يُصيب النبيَّ ﷺ شِدَّةٌ أو مُصيبة ، فإن جِبريل يَظهر له ، ويُعلِّمه هذا الدعاء ، لتفريج كُربة النبيِّ ﷺ ، فيظهر الفَرَج بعد الشِّدة . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لَوْ كانَ فِيهما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

لَوْ كانَ في السماوات والأرض آلهةٌ غَيْرُ اللهِ لَفَسَدَ نظامُ الكَوْن ، واختلَّ الوجودُ ، وذلك لِمَا يَحدث بينها مِن تنازُع وتضاد ومُنافَسة . فالشُّركاءُ يَتنافسون بأهوائهم وإراداتهم . وَلَوْ كانَ هناك إلَهان لانهار النظام ، وسَقَطَ التَّدبير . فإذا أرادَ الأوَّلُ أمرًا ما ، وأرادَ الثاني أمرًا غَيْرَه ، لكانَ أحدهما عاجزًا . والعاجزُ لا يَكون إلَهًا . ولا يوجد مَلِكان في دولة واحدة ، ولا يوجد جسدٌ برأسَيْن [55] .

---

(٥٥) قال الصابوني في صفوة التفاسير (٩/ ٧) : ((قال المفسِّرون : في الآية دليلٌ على التمانع الذي أورده الأصوليون ، وذلك أنَّا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما شيئًا وأراد الآخرُ نقيضَه ، فإمَّا أن تُنفَّذ إرادة كُلٍّ منهما، وذلك مُحال لاستحالة اجتماع النقيضَيْن،وإمَّا أن تُنفَّذ إرادة واحد منهما دون الآخَر، فيكون الأولُ الذي تُنفَّذ إرادته هو الإله ، والثاني عاجزٌ فلا يصلح أن يكون إلهًا)) اهـ. وقال القنوجي في أبجد العلوم (٢/ ١٩٣) : ((واعتنى الأصوليون بما فيه (أي القُرآن) من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مِثْل قَوْله تعالى : ﴿ لَوْ كانَ فِيهما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ إلى غَير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وَحدانية الله ، ووجوده ، وبقائه ، وقِدَمِه ، وقُدرته ، وعِلْمه ، وتَنْزيهه عمَّا لا يَليق بِه ، وسَمَّوْا هذا العِلْم بـ : أصول الدِّين)) .

واللهُ وَحْدَه له الأُلوهية والرُّبوبية . والآيةُ تُبطِل عقيدةَ تعدُّد الآلهة بالدليل الواضح الْمُوجَز ، فلا فلسفة فِيه ولا تَعقيد . وبما أنَّ السماوات والأرض لَم تَفْسَدَا ، فهذا دليلٌ على عدم وُجود آلهةٍ مُتعدِّدة ، بَل هُوَ إلهٌ واحد. والآيةُ تُثبِت وَحدانيةَ اللهِ بالدليل القاطع والبُرهان المتوافق مَعَ العقل.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣١٤) : ((لَخَرَبَتا وهلك مَن فيهما بوجود التمانع مِن الآلهة ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر ، لَم يَجْرِ على النظام)) اهـ .

والكَوْنُ مبنيٌّ وَفْقَ نظامٍ واحدٍ مُتناسِق لا خَلَل فِيه . والنظامُ الواحدُ يُشير إلى وَحْدانية الصانع سُبحانَه وتعالى . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (١/ ٥٠٦) : ((وَلَوْلا الوَحدانيةُ لَمَا تكوَّنت السماواتُ والأرضُ على هذا الوجه الْمُحْكَم الْمُتقَن ، وَلَكَانت فاسدةً كبناء بغير أساس)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (١١/ ٢٤٦) : ((قال الكِسَائِيُّ وسِيبَوَيْه : ﴿ إلا ﴾ بمعنى " غَيْرُ " ، فلمَّا جُعلت " إلا " في موضع " غَيْرُ " أُعْرِبَ الاسم الذي بَعْدَها بإعراب " غَيْرُ " ، كما قال :

وَكُلُّ أخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوه   لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدان)) اهـ .

﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ . فَتَقَدَّسَ اللهُ وتَنَزَّهَ وتعالى أن يكون له شريك أو ولد. وهذا أمرٌ للعباد بِتَنْزيه اللهِ تعالى عَن كُلِّ ما لا يَليق به .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّ لكم في الأنعام لَعِبْرة نُسقيكم مِمَّا في بُطونه مِن بَيْن فَرْثٍ ودَمٍ لَبَنًا خالصًا سائغًا للشَّاربين ﴾[النحل : ٦٦] .

إن خَلْق الأنعام (الإبل والبقر والغنم) يَحمل دليلاً واضحًا على قُدرة الله تعالى وعَظَمته ، ويدل على كَرمه اللامحدود ، ورحمته بالإنسان الضعيف . فقد أحاطَ اللهُ تعالى الإنسانَ بالعِناية والرعاية ، وسَخَّر له الأنعامَ لخدمته وراحته ، وتسهيل أمور مَعيشته ، وتزيين نظام حياته ، وتيسير شؤونه اليومية . وتتجلى قُدرة الله وكَرَمه وفضله في إخراج اللبن مِن بَين الفَرْث (ما يَجتمع في الكَرِش) والدم.وهذا اللبنُ يَكون صافيًا لا تَشوبه شائبة، ولا يَختلط بالأوساخ والنجاسة . يَشْربه الإنسانُ بفضل الله خالصًا من القاذورات، فلا يَحْمل لَوْنَ الدم ولا روائح كريهة ، ولذيذًا هنيئًا لا يُغَص به أحد. إذ إن عملية شُربه تجري بكل سلاسة وبدون مُنغِّصات [56].

---

(٥٦) قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٣٩٤):((قال بعض العارفين: الذي خَلَّص اللبن من بين فرث ودم قادر على أن يخلق المعرفة من بين شك وجهل ، ويَحفظ العمل عن غفلة وزلل . وهو كما قال ، لكن اطَّردت العادة بأن العِلم بالتعلم ، والذي ذَكَره قد يقع خارقًا للعادة فيكون من باب الكرامة)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٨):((أي يتخلص اللبنُ بَياضُه وطَعْمُه وحَلاوتُه ما بين فَرْث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيُصرف منه دم إلى العروق ، ولبن إلى الضَّرْع ، وبَوْل إلى المثانة، ورَوْث إلى الْمَخْرَج،وكُل منها لا يَشوب الآخر ولا يُمازجه بعد انفصاله عنه،ولا يتغير به)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّ لكم في الأنعامِ لَعِبْرَةً نُسقيكُم مِمَّا في بُطونِها ولكم فيها منافعُ كثيرةٌ ومِنها تأكلون ﴾ [المؤمنون : ٢١] .

وإنَّ لكم أيها الناس في خَلْق الإبل والبقر والغنم لَعِظَةً جليلة تعتبرون بها، وتستدلون بها على وَحدانية الله الخالق، وقُدرته المطلقة ، ونِعَمه الكثيرة . واللهُ يُذكِّر عبادَه بِنَعمه عليهم ، ويمتنُّ عليهم بها كَي يُوحِّدوه ويُطيعوه ويَشكروه. وإذا أدركَ الإنسانُ قيمةَ النِّعمة، أدركَ عَظَمَةَ الْمُنعِم وقُدرته وحِكمته وفَضْله . وبالتالي ، يَنبغي أن يَشكره قَوْلاً وفِعلاً ، ويلتزم أوامره ، ويجتنب نَواهيه .

واللهُ يَسقيكم اللبنَ الذي يَتكوَّن في بطونها ، والذي يصل إلى ضُروعها . وهذا اللبنُ الخالصُ اللذيذُ المفيد صِحِّيًّا، يتكون بين الأوساخ والدَّم . ومعَ هذا ، يَخرج نَقِيًّا طاهرًا نظيفًا خالصًا شَهِيًّا، ليس عليه لون الدم ، ولا يَحمل رائحة الأوساخ . وهذا يدل بوضوح على كمال القُدرة الإلهية .

ولكم في هذه الأنعام منافع كثيرة في ظُهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأوبارها وشُعورها . حيث تركبون ظُهورَها ، وتشربون مِن ألبانَها ، وتلبسون مِن أصوافها . وتأكلون مِن لحومها ، فتنتفعون ذهنيًّا وبدنيًّا ، وتزدادون قُوَّةً وصِحَّةً وعافيةً . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٥) : ((يَذكر تعالى ما جَعل لِخَلْقه في الأنعام مِن المنافع ، وذلك أنهم يشربون مِن ألبانها الخارجة مِن بين فَرْث ودم ، ويأكلون مِن حِملانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظُهورها، ويُحمِّلونها الأحمالَ الثِّقال إلى البلاد النائية عنهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أنشأ لكمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً ما تشكرون ﴾ [المؤمنون : ٧٨].

لقد أنعمَ اللهُ عليكم أيها المشركون الْمُكذِّبون بالبعث بالحواس العظيمة ، الدَّالة على وَحدانية الله وكمال قُدرته وكثرة نِعَمه . واللهُ يُذكِّرهم بِنَعمه ، ويمتنُّ عليهم بِها ، كَي يُوحِّدوا اللهَ تعالى ، ويلتزموا أوامره ، ويَجتنبوا نَواهيه . منحهم نِعمةَ السَّمع كي يَسمعوا المواعظَ والحِكَم والإرشادات ، ومَنحهم نِعمة البصر كَي يُشاهدوا الآياتِ الكَونية والعِبَر، ومَنحهم العقولَ كَي يتفكروا بالأدلة الإلهية ، ويتأمَّلوا في عجائب المصنوعات الدَّالة على وَحدانية الصانع وعَظَمَته .

لكنهم لَم يستفيدوا شيئًا من هذه النِّعَم بسبب جهلهم وعِنادهم وغرقهم في التقليد الأعمى ، وإصرارهم على الكفر والضلال . فصار وُجود هذه النِّعَم والحواس كعدمه ، بلا فائدة ولا نفع ، لأن الجاهل عدوُّ نَفْسه ، يُحوِّل النِّعمة إلى نِقمة بضلاله وفساده وانحرافه وسُوء تصرُّفه ، وعدم تقديره لعواقب الأمور . وتَمَّ تخصيص هذه النِّعَم بالذِّكر لكثرة فوائدها ومنافعها في الدِّين والدنيا.

وهؤلاء المشركون ما يَشكرون إلا شُكْرًا قليلاً ، مَعَ كثرة نِعَم الله عليهم . وقِيل : لا يَشكرون أصلاً . والمعنى العام : لا تَشكرون اللهَ الذي خَلَقكم ، ومَنحكم هذه الحواس ، إذ أشركتُم بِه ، وجَعلتُم له أندادًا ، واتَّخذتم الأصنام آلهةً مِن دُون اللهِ . والشُّكرُ إنما يكون بتوحيد اللهِ وطاعته .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٦٤) : ((﴿ وَهُوَ الذي أنشأ لكمُ السمعَ والأبصارَ ﴾ لتحسُّوا بها ما نَصَب مِن الآيات ﴿ والأفئدةَ ﴾ لتتفكروا فيها، وتستدلوا بها إلى غَير ذلك مِن المنافع الدينية والدنيوية .﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ تشكرونها شُكْرًا قليلاً ، لأن العُمدة في شُكرها استعمالها فيما خُلقت لأجله ، والإذعان لمانحها مِن غَير إشراك . و﴿ ما ﴾ صِلة للتأكيد)) اهـ .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١٢٨): ((﴿ وَهُوَ الذي أنشأ لكمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ ﴾ خَصَّها بالذِّكر،لأنها تتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي : تشكرون شُكْرًا قليلاً . و﴿ ما ﴾ مزيدة للتأكيد ، بمعنى حَقًّا . والمعنى : أنكم لَم تعرفوا عظيم هذه النِّعَم ، ووضعتموها غَير مواضعها ، فلم تُعْمِلوا أبصارَكم وأسماعكم في آيات الله وأفعاله ، ولَم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا الْمُنعِم ، ولَم تشكروا له شَيْئًا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُم على بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

يُنَزِّهُ اللهُ نَفْسَهُ عن الولد والشَّريك. فهو سُبحانه لَيس له ولد . فالولدُ يَحمل صِفاتِ أبيه وخصائصه. واللهُ لا يُماثِلُه أحد ، ولا يُشْبِهه شيء . ولا يُعقَل أن يَتشابه الخالقُ معَ المخلوق . ولا يمكن أن يتساوى الصانعُ معَ المصنوع .

وهذا يَدحض عقيدةَ اليهود الذين يَزعمون أنَّ عُزَيرًا ابْنُ اللهِ ، ويَدحض عقيدةَ النصارى القائمة على ادِّعاء وجود ولد للهِ ، وأنَّ المسيحَ هُوَ ابنُ اللهِ . كما يَدحض عقيدة المشركين الذين يَزعمون أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ تعالى .

وقال النسفي في تفسيره (٣/ ١٢٩): ((﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ﴾ لأنَّه مُنَزَّهٌ عَن النَّوع والجِنس ، وولدُ الرَّجل مِن جِنسه)) اهـ .

وفي الحديث المتعلِّق بيوم القِيامة [57] : ((فَيُدْعَى اليهودُ ، فَيُقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ ، قالوا : كُنَّا نَعبد عُزَيرًا ابْنَ اللهِ، فَيُقال لهم : كَذَبْتُم ، مَا اتَّخذ اللهُ مِن صَاحبةٍ ولا وَلَدٍ)). والأمر لَم يتوقف عند اليهود، بَل إن النصارى سائرون في نفْس الطريق. وفي نفْس الحديث : ((ثُمَّ يُدْعَى النصارى ، فَيُقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ ، قالوا : كُنَّا نَعبد المسيحَ ابْنَ اللهِ ، فَيُقال لهم : كَذَبْتُم ، ما اتَّخذ اللهُ مِن صَاحبةٍ ولا وَلَدٍ)) .

﴿ وما كانَ مَعَهُ مِن إلَهٍ ﴾ . لا إلهَ إلا اللهُ . وَحْدَهُ ــ سُبحانه وتعالى ــ الْمُتصرِّف في هذا الكَون، لا شَريك له في مُلْكِه وخَلْقِه ، ولا تُصْرَف العبادةُ إلا لَهُ ، ولا أحد يُشاركه في الأُلوهية والرُّبوبية. لَيس لَهُ نَظير . لا نِدٌّ له ولا ضِدٌّ . تَنَزَّهَ عن الشُّركاء والأضداد .

﴿ إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ . لَوْ كانَ مَعَ اللهِ إلهٌ لانفردَ كُلُّ إلهٍ بالمخلوقاتِ التي خَلَقَها ، فَتَمَيَّزَ مُلْكُ كُلِّ واحدٍ مِنهما عَن الآخَر ، وحَمَى كُلُّ إلهٍ مَخلوقاتِه ، وَمَنَعَ الإلَهَ الآخَرَ مِن السيطرة عليها. وهذا يعني أنَّ تَعَدُّدَ الآلهةِ تَدميرٌ لنظام الكون ، وإفسادٌ للحياة ، ونَشْرٌ للفوضى في الوجود. وبما أنَّ الكَوْنَ يَسير وَفْقَ نظامٍ متناسق ومتكامل ، لا خَلَل فِيه ولا اضطراب ، فهذا يُشير إلى أنَّ الصانعَ واحدٌ . إذْ إنَّ وَحدة النظام الكَونِيِّ تدل ــ بلا شَك ــ على وَحدانية الخالق . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٨٨/٥):((...﴿ إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ أي : لانفردَ بِخَلْقِه ، وَلَم يَرْضَ أن يُضاف خَلْقُه وإنعامُه إلى غَيره ، وَلَمَنَعَ الإلهَ الآخَرَ عن الاستيلاء على ما خَلَق)) .

﴿ وَلَعَلا بَعْضُهُم على بَعْضٍ ﴾ . لَوْ تَعدَّدت الآلهةُ ، لَحَدَثَ التنافس والْمُغالَبة بينها ، وعلا القويُّ على الضعيف وغَلَبَه، كعادة ملوك الدنيا في النِّزاعات، وسَعْيهم إلى الهيمنة والسيطرة وبَسْط النفوذ . فالقويُّ لا يَقبل أن يَرتفع شأن الضعيف ، والضعيف لا يَصلح أن يَكون إلَهًا . وهذه حُجَّةٌ قُرآنيةٌ باهرة ومُوجَزة في دَحْض خرافة تعدُّد الآلهة. وهذه الْحُجَّةُ واضحة ومَقبولة للعقل البشريِّ ، بعيدًا عن اصطلاحات الفلاسفة ، ونظرياتِ العلماء ، وتَعقيد الأفكار . وبما أنَّ الكَوْنَ متناسق ومُنظَّم ، ولا أثرَ فِيه للنِّزاعات والْمُغالَبة واستقلال الممالك، فهذا دليلٌ على أنَّ الإلهَ واحدٌ مُسيطِر على كُلِّ شيء ، ولا شَريك له . فمثلاً ، لا نرى الكواكب تصطدم ببعضها البعض ، ولا تُوجَد مشكلات في طريقة عمل الشمس والقمر ، أو تناقض في تَوقيت ظُهورهما ، ولا نرى مُنافَسةً للسيطرة على المجرَّات والسماوات ... إلخ .

---

(٥٧) انظر هذا الحديث المتفق عليه بِطُوله . البخاري (١٦٧١/٤) ، ومسلم (١/ ١٦٧) .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ نَفْيَ تَعدُّد الآلهةِ هو نَفْيٌ للوَلَد ، لأنَّ الولدَ يُنازِع الأبَ في الْمُلْك مُنازَعة الشريك . وهذا كُلُّه يدل على أنَّ الإلهَ واحدٌ لا شَريك له ، وأنَّ هذا الإلهَ هُوَ اللهُ ، فاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الذي أرسلَ الرُّسُلَ إلى الناس، وأنزلَ عَلَيهم كُتُبَه السماوية. وَلَوْ كانَ الإلهُ غَيْرَ اللهِ، فلماذا لَم يُرشِد الناسَ إلى معرفته وَيُعَرِّفْهم بكلامه وصِفاته وأنبيائه وملائكته ؟ . وهذا يدل على أنَّ الإلهَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريك له . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤٠) : ((ثُمَّ لَكَانَ كُلُّ منهم يَطلب قَهْرَ الآخَر وخِلافَه ، فَيَعلو بعضُهم على بعض . والمتكلِّمون ذَكَروا هذا المعنى ، وعَبَّروا عنه بدليل التَّمانع ، وَهُوَ أنَّه لَوْ فُرِضَ صانعان فصاعدًا ، فأراد واحدٌ تحريكَ جسم ، والآخرُ أراد سُكونه ، فإن لَم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزَيْن ، والواجب لا يكون عاجزًا، ويُمتنَع اجتماع مُرادَيْهما للتَّضاد. وما جاءَ هذا الْمُحال إلا مِن فَرْض التَّعدد ، فَيَكون مُحالاً . فأمَّا إنْ حَصل مُرادُ أحدهما دون الآخَر ، كان الغالبُ هُوَ الواجبَ ، والآخَرُ المغلوبُ مُمْكِنًا ، لأنه لا يَليق بِصِفة الواجب أن يكون مقهورًا)) اهـ . ﴿ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ . تَنَزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ وتعالى عَن الولد والصاحبة والشريك ، فهو سُبحانه الغنيُّ لا يَحتاج إلى شيء ، وكلُّ شيء يَحتاج إلَيه . وهذا التَّنْزيه لَيس شعارًا مُفرَغًا مِنَ المعنى. فاللهُ قَدَّمَ الدليلَ على ذلك قَبْلَ أن يُنَزِّهَ نَفْسَه. وهذا الدليلُ يُخاطب العقلَ بلا شتائم ولا جَعجعة ولا أُطروحات فلسفية . وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٣٩) : ((وقَوْله : ﴿ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ يَقول تعالى ذِكْرُه تَنْزيهًا للهِ عمَّا يَصِفه به هؤلاء المشركون مِن أنَّ له وَلَدًا، وعمَّا قالوه مِن أنَّ له شريكًا، أو أنَّ مَعَه في القِدَم إلَهًا يُعبَد ــ تبارك وتعالى ــ)) .

وقال ابن القَيِّم في الصواعق الْمُرسَلة (٢/ ٤٦٣و ٤٦٤) : ((فإنَّ الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلاً يُوصِل إلى عابده النَّفْعَ ، ويَدفع عنه الضُّر ، فلوْ كان معه سُبحانه إله لكان له خَلْق وفِعْل، وحينئذٍ فلا يرضى بِشِركة الإله الآخَر معه، بل إن قَدِرَ على قَهره وتفرُّده بالإلهية دُونَه فَعَل، وإن لَم يَقْدِر على ذلك انفرد بِخَلْقِه،وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضًا بممالكهم، إذا لَم يَقْدِر الْمُنفرِد على قَهْر الآخر والعُلُوِّ عليه . فلا بد من أحد أمور ثلاثة : إمَّا أن يَذهب كل إله بِخَلْقه وسُلطانه ، وإمَّا أن يَعلوَ بعضُهم على بعض ، وإمَّا أن يكون كُلُّهم تحت قَهر إلهٍ واحد وملك واحد ، يتصرف فيهم ، ولا يتصرفون فيه ، ويَمتنع مِن حُكْمهم عليه ، ولا يمتنعون من حُكمه عليهم ، فيكون وَحْدَهُ هو الإله الحق ، وهُم العبيد المربوبون المقهورون . وانتظام أمر العالَم العُلوي والسُّفلي ، وارتباط بعضه ببعض، وجَرَيانه على نظام مُحْكَم، لا يَختلف ، ولا يَفْسُد ، مِن أدل دليل على أنَّ مُدَبِّرَه واحدٌ ، لا إلهَ غَيْرُه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ألَم تَرَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لهُ مَن في السماواتِ والأرضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتسبيحَهُ واللهُ عليم بما يَفْعَلُون ﴾ [النُّور : ٤١].

يُخبِر اللهُ أنَّه يُسبِّح ويُصلِّي له الملائكةُ والإنس والجن والحيوانات والجماد . والتسبيحُ هو التعظيم والتَّنْزيه . فالمطيع يُسبِّح اللهَ، والعاصي يَخضع للهِ ويَذِل له .

والطيرُ أثناء طَيَرانها في الهواء تُسبِّح اللهَ، حيث ألهمها طريقةَ التسبيح وأرشدها إلى كيفيته .

وتَمَّ تخصيص الطَّير بالذِّكر لحركتها بين السماء والأرض ، وعدم استقرارها في مكانٍ مُحدَّد ، فتكون خارجة عن حُكم مَن في السماء والأرض . كما أن طبيعة خَلْقها وأشكالها وقُدرتها على الطيران والمشي ، كُل هذا يدل على كمال قُدرة الله الخالق .

وتسبيحُ الطير للهِ ، وهي باسطات أجنحتها في الهواء، ومُعلَّقة بين السماء والأرض، مِن بَديع صُنع اللهِ وعظيم قُدرته . وبشكل عام ، إن التَّغيُّر في المصنوعات والحركة الدائمة فيها يُشيران إلى وُجود الله ووَحدانيته وقُدرته وهَيمنته على كُل شيء ، حيث إن كُل شَيء يُسبِّح اللهَ ويَعبده .

وآثارُ الصُّنع تدل على عَظَمَة الصانع الحكيم الذي أتقنَ كُلَّ شَيء وأحكمه . وفي الآية توبيخٌ شديدٌ للمُشركين وتقريعٌ لهم،فقد جَعلوا الجمادَ الذي يَخضع للهِ ويُسبِّحه آلهةً مَعبودةً مِن دُون الله.

والآيةُ عامَّة وشاملة لكل شَيء ، تشمل العقلاء والجمادات على السَّواء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٣) : ((﴿ أَلَم تَرَ ﴾ أَلَم تعلم عِلْمًا يُشبه المشاهَدة في اليقين والوَثاقة بالوَحْي أو الاستدلال ﴿ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لهُ مَن في السماواتِ والأرضِ ﴾ يُنَزِّه ذَاتَه مِن كل نقص وآفةٍ أهلُ السماوات والأرض . و﴿ مَن ﴾ لتغليب العُقلاء أو الملائكة والثقلان بما يدل عليه مِن مَقال أو دلالة حال. ﴿ والطَّيْرُ ﴾ على الأول تخصيص لِمَا فيها مِن الصُّنع الظاهر، والدليل الباهر . ولذلك قَيَّدها بِقَوله : ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ فإن إعطاء الأجرام الثقيلة ما بِه تقوى على الوقوف في الجو باسطة أجنحتها ، بِما فيها مِن القَبْض والبَسْط ، حُجَّة قاطعة على كمال قُدرة الصانع تعالى ، ولُطفِ تدبيره)) اهـ .

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتسبيحَهُ ﴾ . لقد ألهمَ اللهُ كُلَّ مخلوق طريقةَ صَلاته ، وأرشده إلى كيفية تسبيحه ، فكل مخلوق صارَ يعلم صلاةَ نَفْسه وتسبيحَ نَفْسه. فالمخلوقُ لا يَتصرَّف مِن تلقاء نَفْسه ، ولا يَخترع عبادةً استنادًا إلى مِزاجه وشخصيته ، وإنما يَعبد اللهَ بالطريقة التي يُريدها اللهُ ، حيث أرشده اللهُ إلَيها ، ولَم يتركه تائهًا أو حائرًا.والمخلوقُ في هذه الحالة يَعرف صلاتَه وتسبيحه ، ويَفهمهما، ويُدرك معناهما القائم على تعظيم اللهَ وتَنْزيهه. وكُل مَخلوق يَعلم أنَّ اللهَ خالقه ورازقه،

ويُصلِّي له ويُسبِّحه . إذن ، عبادة المخلوقات لَيست حركاتٍ عبثية بلا معنى ، بَل هي حركات مُنظَّمة لها مَعنى مُحدَّد،وهذا المعنى يتجلى في عبادة الله وَحْدَه . وهذا يدل على كمال قُدرة الله وبديع صُنعه ، وسيطرته على كُل شيء بلا استثناء . مشيئته فوق كل شيء ، وإرادته نافذة في كُل شيء . ويجوز أن يكون معنى الآية : إنَّ اللهَ عَلِمَ صلاةَ الْمُصلِّي وتسبيحَ الْمُسبِّح .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٣) : ((... لا يَبْعُد أن يُلهِم اللهُ تعالى الطيرَ دُعاءً وتسبيحًا ، كما ألهمها علومًا دقيقة في أسباب تعيُّشها ، لا تكاد تهتدي إليها العقلاء)) اهـ .

﴿ واللهُ عليم بما يَفْعَلُون ﴾ . واللهُ يَعلم ما يَفعل كُل مُصَلٍّ ومُسبِّح ، ولا يَخفى عليه شيء . وهو مُجازي الْمُحسِن بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته . وهو الإلهُ المعبودُ ، لا تَنبغي العبادة إلا له .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٥١):((قال المفسِّرون: الصلاة لبني آدم ، والتسبيح لغيرهم مِن الخلق . وفي المشار إليه بِقَوله : ﴿ قَدْ عَلِمَ ﴾ قَولان : أحدهما أنه الله تعالى ، والمعنى قد عَلِم اللهُ صلاةَ الْمُصلِّي وتسبيحَه ، قاله الزَّجاج . والثاني أنه الْمُصلِّي والْمُسَبِّح ، ثُمَّ فِيه قَولان : أحدهما : قد عَلِمَ الْمُصلِّي والْمُسبِّح صلاةَ نَفْسِه وتسبيحَه ، أي قد عرف ما كُلِّفَ مِن ذلك . والثاني قد عَلِمَ الْمُصلِّي صلاةَ اللهِ وتسبيحَه ، أي عَلِم أن ذلك لله تعالى وَحْدَه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَهُوَ الذي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجَعَلَ بينهما بَرْزخًا وحِجْرًا مَحجورًا ﴾[الفُرقان : ٥٣] .

هذه الآية تشير إلى آثار القدرة الإلهية الباهرة . فاللهُ تعالى جعل ماءَ البحر العذب والماء المالح متلاصقَيْن بينهما تماس دون أن يُؤثِّر كُلُّ طرف في الآخر . فالعذوبةُ لا تُغيِّر الملوحةَ ، والملوحةُ لا تُفسد الماءَ العذب. فقد جعل اللهُ تعالى بينهما حاجزًا يَمنع كُل جزء من إفساد الآخر.

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٩٨) : ((وإنما عنى بذلك أنه مِن نِعمته على خَلْقه وعظيم سُلطانه ، يخلط ماءَ البحر العذب بماء البحر الملح الأُجاج ، ثُمَّ يَمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته وإفساده إيَّاه ، بقضائه وقُدرته)) اهـ .

واللهُ يُنبِّه الناسَ على نِعَمه كي يُوحِّدوه ويُطيعوه ويَشكروه . لقد خَلَطَ اللهُ البَحْرَيْن وأجراهما، وأفاضَ أحدهما في الآخر،فَهُما يلتقيان. ﴿ هذا عَذْبٌ فُراتٌ ﴾ حُلو شديد العُذوبة ، ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ فِيه مُلوحة ومرارة . ﴿ وجَعَلَ بينهما بَرْزخًا ﴾ حاجزًا بِقُدرة الله وفضله ورحمته ، لئلا يَختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب . ﴿ وحِجْرًا مَحجورًا ﴾ سِتْرًا مستورًا ومَمنوعًا به اختلاطهما، يَمنع أحدهما مِن الاختلاط بالآخر ، فلا يُفسِد الملحُ العذبَ.

وفي زاد المسير (٦/ ٩٦) : ((قال أبو سليمان الدمشقي : ورأيتُ عند عَبَدان مِن سَواد البصرةِ الماءَ العذب ينحدر في دِجلة نحو البحر، ويأتي المد من البحر فيلتقيان ، فلا يختلط أحد الماءين بالآخر ، يُرى ماء البحر إلى الْخُضرة الشديدة، وماء دِجلة إلى الحمرة الخفيفة ، فيأتي الْمُستقي فيغرف من ماء دِجلة عَذْبًا لا يُخالطه شيء،وإلى جانبه ماء البحر في مكان واحد)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي خلق الماءين : الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو العذب الفُرات الزُّلال ، قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير . وهذا المعنى لا شك فيه ، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عَذْب فُرات ، والله سُبحانَه وتعالى إنما أخبر بالواقع لِيُنَبِّه العباد على نِعمه عليهم لِيَشكروه . فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فَرَّقه اللهُ تعالى بين خَلْقه لاحتياجهم إليه أنهارًا وعُيونًا في كل أرض،بِحَسَب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأرضيهم . وقَوله تعالى : ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي مالح مُر زُعاق ، لا يُستساغ ، وذلك كالبِحار المعروفة في المشارق والمغارب ... . فكل هذه البحار الساكنة خلقها اللهُ سُبحانَه وتعالى مالحةً ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تَجْوَى (تُنتِن) الأرض بما يموت فيها من الحيوان. ولَمَّا كان ماؤها مالِحًا ، كان هواؤها صحيحًا ، ومِيتتها طَيِّبة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ ، وقد سُئل عَن ماء البحر: أنتوضَّأ به ؟ ، فقال : " هو الطَّهُور ماؤه ، الحِلُّ مَيْتته " . رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السُّنن بإسناد جيد . وقَوله تعالى : ﴿ وجَعَلَ بينهما بَرْزخًا وحِجْرًا ﴾ أي : بين العذب والمالح . ﴿ بَرْزخًا ﴾ أي : حاجزًا ، وهو اليَبَس من الأرض . ﴿ وحِجْرًا مَحجورًا ﴾ أي : مانعًا مِن أن يصل أحدهما إلى الآخر)) اهـ .

٤ــ رُبوبيته :

قالَ اللهُ تعالى:﴿وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وأشْهَدَهُم على أنفُسِهم ألستُ بِرَبِّكُم قالوا بلى شَهِدْنا أن تَقولوا يَوْمَ القِيامةِ إنَّا كُنَّا عَن هذا غافِلِين ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

أخرجَ اللهُ ذُرِّيةَ آدمَ ﷺ بَعْضَهم مِن ظُهور بَعْض مِثْلَ الذَّر ــ ما عدا الذين ليس لهم أولاد بسبب العُقْم أو عدم الزواج أو الموت صغيرًا ــ ، وأخذَ عَلَيهم العَهْدَ والميثاقَ بأنَّهُ خالقُهم الذي لا شَريك لَهُ، فأقَرُّوا بذلك ، والتزموه . وفي الآية دَلالات عميقة . فكلمةُ ﴿ رَبُّكَ ﴾ تشتمل على

ضمير الْمُخاطَب . وتَوجيهُ الخطابِ إلى النبيِّ ﷺ تعظيمٌ له وتكريم ، ويدل على أنَّ محمدًا ﷺ هُوَ عَبْدُ اللهِ الْمُخْلِصُ الْمُخْلَصُ . وأيضًا ، إنَّ اللهَ لَم يَذْكُرْ " ظَهْر آدم " ، لأنَّ جميعَ الناس هُم أبناؤه ، فلا حاجة لِذِكْرِه. وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١١٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ : واذْكُرْ يا محمد رَبَّكَ إذ استخرجَ وَلَدَ آدمَ من أصلاب آبائهم ، فقرَّرهم بِتَوحيده ، وأشهدَ بَعْضَهم على بعض شَهادتَهم بذلك ، وإقرارَهم به)) اهـ. وفي صَفوة التفاسير (٤/ ٥٢) : ((للمُفسِّرين في هذه الآية قَولان : أحدهما أنَّ الله لَمَّا خَلَقَ آدمَ ، أخرجَ ذُرِّيته مِن صُلْبه ، وهُم مِثْل الذَّر ، وأخذ عليهم العَهْد بأنه رَبُّهم ، فأقَرُّوا ، وشَهِدوا بذلك . وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ مِن طُرق كثيرة، وقال به جماعة من الصحابة . والثاني أنَّ هذا من باب التمثيل والتخييل، والمعنى أنَّه سُبحانه نَصَبَ لهم الأدلة على رُبوبيته ووَحدانيته، وشَهِدَت بها عقولُهم وبصائرُهم التي رَكَّبها فيهم ، وجَعَلَها مُمَيِّزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدَهم على أنفسهم ، وقال لهم : ألستُ بربكم ، فقالوا : بلى . وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السُّعود ، والأول أصح)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٨٤) : ((وفي قَوْلِه: ﴿ وأشْهَدَهُم على أنفُسِهم ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : أشْهَدَهم على أنفسهم بإقرارهم ، قاله مقاتل. والثاني : دَلَّهم بِخَلْقِه على تَوحيده،قاله الزَّجاج.والثالث أنَّه أشهدَ بَعْضَهم على بعض بإقرارهم بذلك، قاله ابن جرير)) اهـ.

لقد أقَرُّوا بأنَّ اللهَ رَبُّهم،واعترَفوا بذلك بكامل قواهم العقلية، ودُون ضَغط مِن أحد. ﴿ ألستُ بِرَبِّكُم قالوا بلى ﴾ أنتَ رَبُّنا آمَنَّا وصَدَّقْنا . وَلَوْ قالوا : " نَعَمْ " لَكَفروا ، لأنَّ " نَعَم " تصديق للخَبَر سواءٌ كانَ بالنَّفْي أو الإيجاب ، والإجابةُ بِنَعَمْ في هذا السياق تعني : نَعَمْ أنتَ لَسْتَ رَبَّنا ، وهذا كُفْرٌ واضح . لذلك كانت إجابتُهم بِ " بلى " ، والمعنى : أنتَ رَبُّنا . ﴿ شَهِدْنا ﴾ بذلك . لقد أقَرُّوا بالرُّبوبية . والجديرُ بالذِّكْر أنَّ ﴿ ألستُ بِرَبِّكُم ﴾ سؤال تقرير .

﴿ أن تَقولوا يَوْمَ القِيامةِ إنَّا كُنَّا عَن هذا غافِلِين ﴾ . لئلا تقولوا يوم القِيامة إنَّا كُنَّا عَن هذا العَهْد الذي يتضمَّن الإقرارَ بالرُّبوبية غافلين لَم يتم تنبيهنا [58].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٨٥) : ((قَوْلُه : ﴿ إنَّا كُنَّا ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّه إشارة إلى الميثاق والإقرار . والثاني أنَّه إشارة إلى معرفة أنه الخالق . قال المفسِّرون : وهذه

(٥٨) في الدُّر المنثور(٣/ ٥٩٩)أنَّ ابن عباس رضي اللهُ عنهما قال: ((مَسَحَ اللهُ ظَهْرَ آدمَ، وَهُوَ بِبَطْن نَعمان_وادٍ إلى جَنْب عَرَفة_فأخرج منه كُلَّ نَسَمة هو خالقها إلى يوم القيامة ثُمَّ أخذ عليهم الميثاقَ)).

الآية تذكير من الله تعالى بما أُخِذ على جميع الْمُكَلَّفين مِنَ الميثاق ، واحتجاج عليهم ، لئلا يقول الكفار : إنَّا كُنَّا عن هذا الميثاق غافلين لَم نَذْكُرْه ، ونسيانُهم لا يُسقِط الاحتجاجَ بعد أن أخبرَ اللهُ تعالى بذلك على لسان النبيِّ ﷺ الصادق . وإذا ثَبَتَ هذا بِقَول الصادق ، قامَ في النفوس مَقامَ الذِّكْر ، فالاحتجاجُ به قائم)) اهـ .

وفي الحديث أنَّ عُمر بن الخطاب ـ رضي اللهُ عنه ـ سُئل عن هذه الآية: ﴿ وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم ﴾ ، فقال عمر بن الخطاب : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَه بيمينه ، فاستخرجَ مِنهُ ذُرِّيةً ، فقال : خَلقتُ هؤلاءِ للجنة ، وبعمل أهل الجنة يَعملون ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَه ، فاستخرجَ مِنهُ ذُرِّيةً ، فقال : خَلقتُ هؤلاءِ للنار ، وبعمل أهل النار يَعملون)) . فقال رَجل : يا رسولَ الله ، فَفِيمَ العمل ؟ ، قال : ((إنَّ اللهَ إذا خَلَقَ العبدَ للجنة ، استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يَموتَ على عمل أهل الجنة ، فَيَدخل الجنةَ ، وإذا خَلق العبدَ للنار ، استعمله بعمل أهل النار ، حتى يَموتَ على عمل أهل النار ، فَيَدخل النارَ))[59].

إنَّ اللهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدمَ ﷺ ، فأخرجَ ذُرِّيةً مصيرها إلى الجنة ، وأخرجَ ذُرِّيةً مصيرها إلى النار . وقد يتبادر إلى الذِّهن أن لا فائدة مِن العبادة والطاعة ما دامَ المصيرُ الإنساني مَحسومًا. وهذا وَهْمٌ، لأنَّ عِلْمَ اللهِ لا علاقة له بالإجبار . ومعَ أنَّ اللهَ يَعلم أهلَ الجنة وأهلَ النارِ قبل أن يَخلق الناسَ والجنةَ والنارَ ، إلا أنَّه سُبحانه لَم يُجبِر أحدًا على الطاعة أو المعصية، والإنسانُ اختارَ طريقَه بِمِلْءِ إرادته . لذلك لا معنى للاحتجاج بالقَدَرِ السابق ، لأنَّ القَدَرَ لا يَضُرُّ ولا يَنفع ، واللهَ وَحْدَهُ هو النافع والضار . ومَن كانَ في عِلْمِ اللهِ مِن أهل الجنة،فإنَّ اللهَ يُوَفِّقُه لأداء العبادات والطاعات ، ويُثَبِّته على هذا الطريق حتى الموت، فَيَدخل الجنةَ. ومَن كان في عِلْمِ اللهِ مِن أهل النار لأنَّهُ مُستحِقٌّ لها ، يَخْذُله اللهُ ، فَيغرق في المعاصي والآثام حتى يَموت على المعصية ، فَيَدخل النارَ . والعِبْرةُ بالخواتيم ، ومصيرُ الإنسانِ يتحدَّد وَفْقَ العقيدة التي ماتَ عليها. والحياةُ لا تُحدِّد مصيرَ الإنسان ، وإنما الموتُ هو الذي يُحدِّد مصيرَ الإنسان. ومَن عاشَ على شَيء ماتَ عليه ، ومَن ماتَ على شَيء بُعِث عليه . وفي فَيض القدير (٢/ ٣٣١) : ((... الله تعالى سَبَقَ في عِلْمِه الأزليِّ ، سَعيدُ العالَم وشَقِيُّه ، ثُمَّ رَتَّبَ على هذا السَّبْقِ الخاتِمةَ عند الموت بِحَسَبِ صلاح العمل وفساده عندها ، وعلى الخاتمة سعادة الآخرة وشَقاوتها)) اهـ .

---

(٥٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٩٣) برقم (٤٠٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن عليِّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((ما مِنكُم مِن أحدٍ إلا وقد كُتب مَقْعَدُه مِنَ الجنة ، ومَقْعَدُه مِنَ النار)). فقالوا: يا رسولَ الله، أفلا نَتَّكِل ؟، فقال : ((اعْمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّر))(60).

لا ينبغي تركُ العمل ، والاتِّكالُ على القَدَر السابق . يجب الامتثال للشريعة الإلهية في أوامرها ونواهيها.وكلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلق له. فَمَن كان من أهل الجنَّة يسَّره اللهُ لعمل الطاعات فينال السعادةَ، ومَن كان من أهل النار يسَّره اللهُ للمعاصي فَيَنال التعاسة .

والإيمانُ لا يُكتسَب بعبقرية الإنسان وقدراته الذاتية ، بَل هُوَ فضلٌ ربانيٌّ مَحْض ، يُعطيه اللهُ لِمَن يَشاء ويَحجبه عمَّن يشاء . ومعَ هذا فالإنسان يتحمَّل مسؤوليةَ اختياره ، لأن الله لَم يُجبِر المؤمنَ على الإيمان ، ولَم يُرغِم الكافرَ على الكفر. فكلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِق له. فإن هدى اللهُ العبدَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ الله وله المِنَّة . وإن هداه إلى الكفر فَبِعَدْله ، ولله على العبد الْحُجَّة .

والأعمال بالخواتيم ، والمؤمنُ لا يَدخل الجنةَ بذكائه وعبادته ، وإنما يَدخلها برحمة الله. وعلى الطائع ألا يَرْكَن إلى طاعته، ويَعتمد على مستواه الشخصي، لأنَّ القلوب مُتقلِّبة، واحتمالُ انقلابِ الحال واردٌ بقوة . وعلى العاصي ألا يَقْنَط مِن رحمة الله ويَستسلم للكآبة واليأس ، ويَعتبر ذُنوبَه عَقَبةً في طريق التوبة ، لأنَّ رحمة الله أعظم مِن كُلِّ شيء ، واللهُ أكبرُ مِنَ الإيمانِ والكُفرِ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحقُّ فماذا بَعْدَ الحقِّ إلا الضَّلالُ فأنَّى تُصْرَفُون﴾[يُونُس: ٣٢]. إنَّ اللهَ هو خالقُ الناس ومالكهم، ورازقهم، ومُحييهم ومُميتهم ، ومُدبِّر أمورهم وشؤونهم . إنه الإلهُ الحقُّ الذي لا شريك له،ولا شَك فيه.وَحْدَه المستحق للعبادة،وكُل معبود سِوى اللهِ باطلٌ، فكيفَ تتركون تَوحيدَ الله الخالق الرازق وتعبدون جماداتٍ لا تضرُّ ولا تَنفع ولا تخلق ولا ترزق ؟.

كيف تُصْرَفون عن عبادة الله وَحْدَه وأنتم مؤمنون بأنه خالقكم ورازقكم ومُعترفون بذلك ، والْحُجَّة قائمة عليكم ؟ .

والاستفهامُ في ﴿ فماذا بَعْدَ الحقِّ إلا الضَّلالُ ﴾ للتقريع والتوبيخ ، ويَحمل معنى التأكيد والتقرير ، أي : مَن ترك الحقَّ (تَوحيد الله) وَقَعَ في الضلال (الشِّرك). ولا توجد واسطة بين الحق والضلال . إمَّا الإيمان وإمَّا الكُفر ، ولا يوجد خيار ثالث أو حَل وسط .

والاستفهامُ في ﴿ فأنَّى تُصْرَفُون ﴾ للإنكار والتعجب .

---

(٦٠)متفق عليه واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٩٠)برقم(٤٦٦١).ومسلم(٤/ ٢٠٣٩)برقم(٢٦٤٧).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٦):((﴿ فماذا بَعْدَ الحقِّ إلا الضَّلالُ ﴾ استفهام إنكار ، أي: ليس بعد الحق إلا الضلال ، فَمَن تخطى الحقَّ الذي هو عبادة الله تعالى ، وَقع في الضلال ﴿ فأنَّى تُصْرَفُون ﴾ عن الحق إلى الضلال)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحقُّ ﴾ ، قال الخطابي:الحق هو الْمُتحقِّق وُجوده،وكُل شيء صَحَّ وُجوده وكَوْنه، فهو حق. قَوله تعالى: ﴿ فأنَّى تُصْرَفُون ﴾ قال ابن عباس: كيف تُصْرَف عقولكم إلى عبادة مَن لا يَرزق ولا يُحيي ولا يُميت ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُريد ﴾ [هُود : ١٠٧] .

إنَّ رَبَّكَ يا محمد لا يَمتنع عليه شيء يُريده،ولا أحد يُوقف إرادته.يَفعل ما يُريد مِن غَير اعتراض. وأفعالُه حكيمةٌ على مُقتضى مشيئته . واللهُ لَم يقل : إنه فعَّال لِمَا يُريد . بل قال : ﴿ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُريد ﴾.والإظهارُ في موضع الإضمار لتعظيم اللهِ وتثبيت خَشيته في القلوب، والتأكيد والتقرير.

و﴿ فَعَّالٌ ﴾ تدل على أن ما يُريده اللهُ ويَفعله في غاية الكثرة .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ١١٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إن ربك يا محمد لا يَمنعه مانع مِن فِعل ما أراد فِعْلَه بِمَن عصاه وخالفَ أمْرَه ، مِن الانتقام مِنه ، ولكنه يفعل ما يشاء فِعْلَه ، فيمضي فِيهم وَفِيمن شاء مِن خَلْقه فِعْلُه وقضاؤه)) اهـ . وفي فتح الباري (١٣/ ٣٦٢) أن ابن بطال قال : ((الفاعل للمصنوعات بِخَلْقه بالاختيار يكون مُتَّصِفًا بالعِلْم والقُدرة ، لأن الإرادة وهي الاختيار مشروطة بالعِلم بالْمُراد، ووجودُ المشروط بدون شَرْطه مُحال ، ولأن المختار للشيء إن كان غَيْرُه قادرًا عليه ، تَعَذَّرَ عليه صُدور مُختاره ومُراده ، ولَمَّا شُوهِدت المصنوعات صَدرت عن فاعلها الْمُختار مِن غَير تَعَذُّر عُلِم ، قَطَعْنا أنه قادر على إيجادها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاقُ العليم ﴾[الحِجْر : ٨٦] .

خَلَقَ اللهُ الشَّيْء خَلْقًا ، يعني : أَحْدَثَه بعدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ . إنَّ رَبَّكَ يا محمد هو خالقُ الناس جميعًا ، يَعلم أحوالهم وأوضاعهم، والصالح فيهم والفاسد . هو سُبحانَه عَالِمٌ بهم وبتدبيرهم وأقوالهم وأفعالهم ، ومُجازيهم عليها ، إن خَيْرًا فَخَيْر ، وإن شَرًّا فَشَر . واللهُ كثير المخلوقات والمعلومات ، يَعلم كُلَّ شيء كَيْفًا وَكَمًّا . والجديرُ بالذِّكر أن الآية السابقة [الحِجْر : ٨٥] تتحدَّث عن مجيء الساعة (يَوم القيامة)، لذلك قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٣٤): ((وقَوله : ﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاقُ العليم ﴾ تقرير للمَعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلاق الذي لا يُعجِزه خَلْق شَيء ، العليم بِما تَمَزَّقَ مِن الأجساد ، وتَفَرَّقَ في سائر أقطار الأرض)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِما في نُفوسِكُم ﴾ [الإسراء : ٢٥] .

إنَّ اللهَ رَبُّكم أيها الناس ، وهو أعلم بِكُم مِنكُم . يَعلم ما في قلوبكم وضمائركم . والآيةُ تَحمل معنى التهديد والتخويف والتحذير . والمعنى : إن اللهَ يَعلم نَواياكم ، ومُطَّلِع على قلوبكم ، فاحذروا من النَّوايا السَّيئة والمقاصد الفاسدة . فهو سُبحانَه يَعلم كُل شيء ، ولا تخفى عليه خافية.

والآيةُ عامَّة شاملة ، لأن العِبرة بِعُموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٣١٦) : ((﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِما في نُفوسِكُم ﴾ أي : بِما في ضمائركم مِن الإخلاص وعَدَمه في كُل الطاعات ، ومِن التوبة مِن الذنب الذي فَرَطَ مِنكم ، أو الإصرار عليه ، ويندرج تحت هذا العموم ما في النَّفْس مِن البِر والعُقوق اندراجًا أوَّلِيًّا . وقِيل : إن الآية خاصة بِما يجب للأبوين مِن البِر ، ويَحْرُم على الأولاد مِن العُقوق . والأول أَوْلَى اعتبارًا بعموم اللفظ ، فلا تُخَصِّصه دَلالة السياق ، ولا تُقيِّده)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يشاءُ ويَقْدِر ﴾ [الإسراء : ٣٠] .

إنَّ رَبَّكَ يا محمد يُوسِّع على مَن يشاء مِن عباده في الرِّزق ، ويُضيِّق على مَن يشاء . يُغني مَن يشاء ، ويُفقِر مَن يشاء ، وله في ذلك الحِكمة البالغة ، عَلِمَها مَن عَلِمَها ، وجَهِلَها مَن جَهِلَها .

إن اللهَ وَحْدَه هو الْمُتحكِّم برزق العباد ، يَبسط الرِّزق ويَقْدِر دُون غَيْره ، وهو يُجري أرزاق العباد وَفْقَ مصالحهم ومنافعهم. فهناك أشخاص مصلحتهم في الغِنى، وهناك أشخاص مصلحتهم في الفقر . واللهُ أعلم بعباده مِن أنفسهم ، وهو تَكَفَّلَ بهم ، فهو خالقهم ورازقهم .

وقد يُوسِّع اللهُ على الكافر ويُعطيه الأموال والأولاد والصحة والعافية استدراجًا له . وقد يُضيِّق على المؤمن لزيادة أجره ورفع درجته . فلا ينبغي للكافر أن يَفرح بالغِنى ، ولا يَنبغي للمؤمن أن يَيأس مِن الفقر . وفي تفسير الثعالبي (٢/ ٣٤٠) : ((وقال بعض المفسِّرين : الآية إشارة إلى حال العرب التي كانت يُصلِحها الفقر ، وكانت إذا شبعت طغت)) اهـ . والآيةُ غَير مختصة بالعرب، لأن الإنسانية واحدة ، مهما اختلفت الأديان والأجناس والألوان . والغِنى والفقر لَيْسَا مِقياسًا لصلاح العبد أو فساده . فالدُّنيا يُعطيها اللهُ لِمَن أحبَّ ومَن لَم يُحِب . أمَّا الآخرةَ فلا يُعطيها اللهُ إلا لِمَن أحبَّ . والمِقياسُ هو الدِّين والتقوى ، وليس المال والأولاد والجاه والمنصب والحسَب والنَّسَب . واللهُ هو القابضُ الباسطُ ، يُدبِّر شُؤونَ خَلْقه ، ويَتصرَّف فيها كما يشاء.واللهُ أعلمُ بمصالح العباد مِن أنفسهم. فَمِن العباد مَن لا يُصلِحه إلا الغِنى، ولو افتقرَ فَسَد ، وَمِن العباد مَن لا يُصلِحه إلا الفقر ، ولو اغتنى فَسَد . واللهُ خبيرٌ بِمَن يستحق الغِنى ، ومَن يستحق الفقر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣) : ((في الحديث : " إنَّ مِن عبادي لَمَن لا يُصلِحه إلا الفقر ، ولو أغنيتُه لأفسدتُ عليه دِينَه ، وإن مِن عبادي لَمَن لا يُصلِحه إلا الغِنى ، ولو أفقرتُه لأفسدتُ عليه دِينَه " . وقد يكون الغِنى في حَق بعض الناس استدراجًا ، والفقر عُقوبةً . عِياذًا بالله مِن هذا وهذا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِكُم إن يَشَأ يَرْحَمْكُم أوْ إن يَشَأ يُعَذِّبْكُم ﴾ [الإسراء : ٥٤].

اللهُ يَعلَم مَن يَستحق الهداية ، ومَن لا يَستحقها . والهدايةُ والإضلالُ خاضعان لمشيئة اللهِ تعالى. إن يَشأ اللهُ يَهدي الإنسانَ ، ويَمنحه الإيمانَ ، ويُوفِّقه لطاعة اللهِ تعالى ، فيفوز في الدَّارَيْن ، وبذلك يَكون اللهُ تعالى قَد رَحِمه ، أو إن يَشأ اللهُ يُضِل الإنسانَ بما كَسبت يَداه ، ولأنه ذُو قلب نجس ، ولا يستحق الهدايةَ ، فيخسر الدَّارَيْن ، ويَكون مُستحِقًّا للعذاب . والمعنى : إن يَشأ يَمنحكم الإيمانَ فيرحمكم ، أو إن يَشأ يَخْتِمْ لكم بالكُفر فَيُعَذِّبْكم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٤٧و٤٨): ((قَوله تعالى: ﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِكُم ﴾ فِيمَن خُوطِب بهذا، قَولان: أحدهما أنهم المؤمنون ، ثُمَّ في معنى الكلام قَولان : أحدهما إن يشأ يرحمكم فَيُنَجِّيكم من أهل مكة، وإن يشأ يُعذبْكم فَيُسلِّطهم عَلَيكم، رواه ابو صالح عن ابن عباس. والثاني: إن يشأ يرحمكم بالتوبة أو يُعذِّبكم بالإقامة على الذنوب، قاله الحسن . والثاني أنهم المشركون، ثُمَّ في معنى الكلام قَولان: أحدهما إن يشأ يرحمكم فيهديكم للإيمان ، أو إن يشأ يُعذِّبكم فيميتكم على الكفر، قاله مقاتل، والثاني أنه لَمَّا نَزَلَ القَحْطُ بالمشركين، فقالوا : ﴿ رَبَّنا اكْشِفْ عَنَّا العذابَ إنَّا مُؤمنون ﴾ [الدُّخَان: ١٢].قال اللهُ تعالى:﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِكُم ﴾ مَن الذي يُؤمِن وَمَن الذي لا يُؤمِن. إن يَشأ يرحمكم فيكشف القحط عنكم،أو إن يشأ يُعذِّبكم فيتركه عليكم،ذَكَره أبو سليمان)).

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٤٢): ((﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِكُم إن يَشَأْ يَرْحَمْكُم أوْ إن يَشَأْ يُعَذِّبْكُم ﴾ هذا خِطاب للمشركين . والمعنى : إن يَشأ يُوَفِّقْكم للإسلام فَيَرْحَمْكُم ، أو يُميتكم على الشِّرك فَيُعذِّبكم . قاله ابن جُرَيج . وأعلم بمعنى عليم ، نَحْو قَوْلِهم : الله أكبر، بمعنى كبير. وقِيل : الخِطاب للمؤمنين، أي: إن يَشأ يرحمكم بأن يَحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يُعذِّبكم بتسليطهم عَلَيكم ، قاله الكلبي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكَهْف : ١٠٩] .

الآيةُ تُبيِّن سَعَةَ عِلْم اللهِ . وعِلْمُ اللهِ صِفة للهِ ، ليس لها بداية ولا نهاية . وصِفاتُ اللهِ قديمة قِدَم ذاته ، سُبحانَه وتعالى .

لَو كان ماءُ البحر حِبْرًا ومِدَادًا للقلم،وكُتِبَ به كلمات اللهِ وعِلْمه وحِكَمه ومواعظه وعجائبه، لَنَفِدَ ماءُ البحر مع كثرته وانتهى، لأن كُل جِسم مُتناهٍ ، وكلماتُ الله لا تَنفَد ولا تنتهي كَعِلْمه ، وكلماتُ اللهِ لا نهاية لها . فالكلامُ صِفة للهِ كالعِلْم . وصِفاتُ الله قديمة ومُطْلَقة وغير محدودة . لا بداية لها ولا نهاية. ولو جِئنا بِقُدرتنا الفائقة بِمِثْل ماء البحر في كثرته حِبْرًا ومِدَادًا لَنَفِدَ أيضًا وانتهى، لأن مجموع الْمُتناهين مُتناهٍ ، وبِحار الدنيا محدودة . وكلامُ الله لا يتناهى وليس له حدود.
وفي الآيةُ : ﴿ لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ ، أُضيفت الكلمات إلى اسم الرَّب المُضاف إلى ضمير النبيِّ ﷺ ، وهذا يدل على تعظيم اللهِ وكلماتِه ، وتشريف النبيِّ ﷺ ورفع شأنه .

وإظهارُ البحر والكلمات في موضع الإضمار : ﴿ لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ للتأكيد وزيادة التقرير ، وتثبيت المعنى في الأذهان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٤٦) : ((يقول تعالى : قُل يا محمد : لَو كان ماءُ البحر مِدادًا للقلم ، الذي يُكتَب به كلمات الله وحِكَمه وآياته الدَّالة عليه ، لَنَفِدَ البحرُ قبل أن يَفرُغ كتابة ذلك . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أي : بِمِثْل البحر ، آخَر ثُمَّ آخَر ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، بُحور تَمُدُّه ويُكتَب بِها لَمَا نَفِدَت كلماتُ الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أنما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ مِن بَعده سبعةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَت كلماتُ اللهِ إن الله عزيزٌ حكيم ﴾ [لُقمان : ٢٧] .
وقال الربيع بن أنس : إن مَثَل عِلْم العباد كُلِّهم في عِلْم الله كقطرة من ماء البُحوركُلِّها . وقد أنزل اللهُ ذلك : ﴿ قُل لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ . يقول: لو كانت تلك البحور مِدادًا لكلمات الله ، والشجر كُله أقلام لانكسرت الأقلام ، وفَنِيَ ماء البحر، وبَقِيَت كلمات الله قائمة لا يُفنيها شيء ، لأن أحدًا لا يستطيع أن يَقْدُر قَدْرَه ، ولا يُثني عليه كما يَنبغي ، حتى يكون هو الذي يُثني على نفْسه ، إن رَبَّنا كما يقول ، وفوق ما نقول ، إن مَثَل نعيم الدنيا أوَّلها وآخِرها في نعيم الآخرة كَحَبَّة مِن خَرْدَل في خِلال الأرض كُلِّها)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : قالت قُرَيش لليهود : أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرَّجل (يقصدون النبيَّ ﷺ) ، فقالوا : سَلُوه عن الرُّوح ، فَنَزلت : ﴿ ويَسألونكَ عن الرُّوحِ قُل الرُّوحُ مِن أمرِ ربي وما أُوتيتُم مِن العِلْمِ إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥]. قالوا : نَحْنُ لَم نُؤتَ مِن العِلْم إلا قَليلاً، وقد أُوتينا التَّوراة ، فِيها حُكم الله ، وَمَن أُوتِيَ التَّوراةَ فقد أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا ، قال:

فَنَزلت : ﴿ قُل لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾))[61].

إن اليهود كانوا يتلاعبون بِمُشركي العرب . وهؤلاء المشركون كانوا مُصابين بعُقدة النقص ، لأنهم جُهَّال مُنقطعون عن السماء ، ويَعبدون الأصنام . لذلك كانوا ينظرون إلى اليهود نظرة احترام وتعظيم ، فاليهودُ أهل كتاب لَدَيهم التَّوراة ، وهي بالأصل كتاب سماويٌّ ، ولكن طَرأ عليه التحريف والتغيير . ولَدَيهم العلماء والكتب الدينية .

وقد حاولت قُرَيش أن تتحدَّى النبيَّ ﷺ وتُفحمه وتُخْرِجه ، فتوجَّهت إلى اليهود كَي تطلب منهم شيئًا تسأل النبيَّ ﷺ عنه ، لعلَّه يَعجز عن الإجابة ويتمُّ إفحامه _ وَفْق تفكير المشركين _ .

وقَول اليهود : " سَلُوه عن الرُّوح " ، يدل على عِلمهم وتبحُّرهم في دراسة الكتب الدينية . إذ إن الرُّوح لا يَعلمها إلا الله. وقد كان النبيُّ ﷺ صادقًا وأمينًا ، فلم يُفْتِ بِغَير عِلم ، ولَم يَخترع جوابًا من أفكاره الشخصية ، ليظهر بمظهر العالِم الذي يَعرف كل شيء ، ولا يُعجِزه أي شَيء .

ونزلت آية الرُّوح التي تُشير إلى ضعف الناس وقِلَّة عِلْمهم وعَجزهم عن معرفة الكثير من الأشياء . وهذا الأمرُ لَم يَرُق لليهود الذين يعتبرون أنفسهم أعظم العلماء ، وأكبر المفكِّرين ، وأصابهم الغرور والتَّكَبُّر بسبب نُزول التَّوراة عليهم . وبيَّن اللهُ لهم أن كلمات الله ومواعظه ليس لها نهاية . ولا يُمكن لمخلوق أن يُحيط بها ، كائنًا مَن كان . وهذه القصةُ تدل على غُرور اليهود وعِنادهم واستكبارهم،وتكبُّرهم على الناس،فَهُم يَفتخرون بِنُزول التَّوراة عليهم،مَعَ أنهم لا يَعملون بما فيها ، ولا يسيرون على خُطى مُوسى ﷺ . وقد حَرَّفَ اليهودُ التَّوراةَ وتلاعبوا بنصوصها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٠١و٢٠٢) : ((ومعنى الآية : لو كان ماءُ البحر مِدادًا يُكتَب به . قال مجاهد : والمعنى : لو كان البحر مِدادًا للقلم ، والقلم يَكتب . قال ابن الأنباري : سُمِّيَ المِدَاد مِدَادًا لإمداده الكاتب ، وأصله مِن الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء . قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ ... . وإنما لَم تَنفَد كلمات الله ، لأن كلامه صِفة مِن صِفات ذاته ، ولا يتطرَّق على صِفاته النَّفاد . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أي : بِمِثْل البحر ﴿ مَدَدًا ﴾ أي: زيادة . والْمَدَدُ كُل شيء زادَ في شيء . فإن قِيل: لِمَ قال في أوَّل الآية: ﴿ مِدَادًا ﴾ وفي آخرها: ﴿ مَدَدًا ﴾ وكلاهما بمعنى واحد، واشتقاقهما غَير مختلف . فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال :

(٦١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٧٩) برقم (٣٩٦١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لَمَّا كان الثاني آخِر آية،وأواخر الآيات هاهُنا أتت على الفِعل، والفِعل كَقَوله:﴿ نُزُلاً ﴾ ،﴿ هُزُوًا ﴾، ﴿ حِوَلاً ﴾ كان قَوله:﴿مَدَدًا﴾ أشبه بهؤلاء الألفاظ مِن المِداد.واتفاق المقاطع عند أواخر الآيِ وانقضاء الأبيات وتمام السَّجْع والنثر أخف على الألسن وأحلى موقعًا في الأسماع، فاختلفت اللفظتان لهذه العِلَّة)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وإنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ على الناسِ ولكنَّ أكثرَهُم لا يَشْكُرُون ﴾[النَّمْل : ٧٣].

إنَّ رَبَّكَ يا محمد لَذُو إنعام على الناس وإحسان إلَيهم ، مَعَ ظُلمهم لأنفسهم ومعاصيهم . فَلَم يُعاجِلهم بالعقوبة والعذاب ، وإنما منحهم الفرصة تِلْوَ الفرصة ، وأمهلَهم ولَم يُهْمِلْهم . وأعطاهم الأموالَ والأولاد والصحة والعافية ، رحمةً بهم ، وتفضُّلاً عليهم . ولكن أكثر الناس لا يشكرون اللهَ على فضله وإحسانه وإنعامه، ولا يَعرفون حقَّ النِّعمة ، ولا يُوحِّدونه، وإنما يُشرِكون معه في العبادة ما لا يضرُّ ولا يَنفع ، ولا يُنعِم عليهم ، ولا يُحسِن إلَيهم . والكافرون لا يَشكرون اللهَ ، لأنه أمهلهم، وتركَ تعجيل عُقوبتهم وعذابهم، لإنكارهم وُقوعه. لذلك كانوا يَستعجلون العذابَ بجهلهم وعِنادهم. ومعَ هذا، فقد رحمهم اللهُ ، ولَم يُعاجلهم بالعذاب . وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ٢٩٨) : ((﴿ وإنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ على الناسِ ﴾ أي : لَذُو إفضال وإنعام على كافة الناس ، وَمِن جُملة إنعاماته تأخيرُ عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه مِن المعاصي ، التي مِن جُملتها استعجال العذاب . ﴿ ولكنَّ أكثرَهُم لا يَشْكُرُون ﴾ لا يعرفون حَقَّ النِّعمة فيه، فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وُقوعه ، كَدَأْبِ هؤلاء _ يعني كفار مكة _)) اهـ . والآيةُ تُنبِّه الناسَ على فضل الله سُبحانَه الذي أنعمَ عليهم بالنِّعَم الكثيرة والآلاء الجليلة . وللأسف ، لَم يَشكروا النِّعَمَ الإلهيةَ ، واغترُّوا بقُوَّتهم ، وإمكانياتهم الشخصية ، وقُدراتهم الذاتية . والآيةُ أيضًا تُحذِّر الناسَ جميعًا مِن الاغترار بقدراتهم ، وعدم شُكر الله . فيجب على الناس أن يَشكروا اللهَ الذي خلقهم ورزقهم ، ويَلتزموا أوامرَه ، ويجتنبوا نَواهيه . وتخصيص الآية للأكثر يدل على أن الأقل الشَّاكر .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ القِيامةِ فِيما كانوا فِيهِ يَخْتَلِفُون﴾[السَّجْدة: ٢٥]. إنَّ رَبَّكَ يا محمد يَقضي ويَحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه مِن أمور الدِّين (مِثْل البعث ، والثواب والعِقاب) ، فيميز الحق مِن الباطل، بإظهار الْمُحِق والْمُبطِل ، والْمُصلِح والْمُفسِد ، ويُجازي كُلاً بما يستحق. يُجازي الْمُحسِن بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته.

والآيةُ حُكم عام يشمل جميع الخلق . فاللهُ هو الْحَكَمُ الحاكم ، والقاضي العادل ، الذي يَفصل بين الناس فيما اختلفوا فِيه مِن الاعتقادات والأعمال .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣/ ٢١٦) : ((وقَوله تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم ﴾ الآية. حُكم يَعُمُّ جميعَ الخلق . وذهب بعضُهم إلى تخصيص الضمير ، وذلك ضعيف)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/٣٤٤):((قَوله تعالى: ﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم ﴾ أي: يقضي ويحكم. وفي المشار إليهم قَولان: أحدهما أنهم الأنبياء وأُممهم،والثاني المؤمنون والمشركون)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجلالِ والإكرام ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

تَنَزَّهَ اللهُ وتعالى وتَقَدَّسَ، ذُو العَظَمَة والكِبرياء، وذُو الكرم الذي يُعطي بلا سؤال ولا حساب، ويتجاوز عن عباده ويُكْرِمهم ، ومَن له التمجيد والتعظيم والإكرام مِن جميع الناس . واللهُ جليلٌ في ذاته وصِفاته ، وكريم في أقواله وأفعاله . إنه سُبحانَه صاحب العَظَمَة التي لا تُضاهَى ، والمجد الذي لا يتناهى . تعاظمَ وعَلا مَجْدًا وشَرَفًا وعِزًّا وجَلالاً . وإذا كان التَّنْزيه والتعظيم والتقديس والبركة كُلُّها واجبة لاسمِ اللهِ ، فما ظَنُّكَ بذاته سُبحانَه ؟ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٥٧) : ((﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجلالِ والإكرام ﴾ أي : هو أهل أن يُجَلَّ فلا يُعصَى ، وأن يُكرَم فَيُعبَد ، ويُشكَر فلا يُكفَر ، وأن يُذكَر فلا يُنسَى . وقال ابن عباس : ﴿ ذِي الجلالِ والإكرام ﴾ ذِي العَظَمَة والكِبرياء)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٤١٤) : عن ثَوبان قال : كانَ رسولُ الله ﷺ إذا انصرفَ مِن صَلاته استغفرَ ثلاثًا ، وقال : ((اللهُمَّ أنتَ السلام ، ومِنكَ السلام، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام)) .

ومعنى " يا ذا الجلال والإكرام " : يا مُستحِق الجلال ، وصاحب العَظَمَة والمِنَّة ، الْمُنَزَّه عَن كُل ما لا يليق به ، الْمُكْرِم لأوليائه بالإنعام عليهم والإحسان إِلَيهم . وفي شرح السُّيوطي لِسُنن النَّسائي (٣/ ٥٢) : ((قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : الفرق بين الجلال والجمال ، إنما يحصل باعتبار أثريهما، إذْ أثر هذه الْهَيبة ، والأخرى المحبة ، وتارةً المهابة ، وهُما شيء واحد ، فتارةً يخلق الله مُشاهَدة المحبة ، وتارةً المهابة . والإكرام هو الإحسان وإفاضة النِّعَم)) اهـ .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٢/ ١٦٠) : ((فَجَلاله صِفة استحقها لذاته. والإكرام أخصُّ مِن الإنعام ، إذ الإنعام قد يكون على غَير الْمُكَرَّم ، كالعاصي . والإكرامُ لِمَن يُحِبُّه ويُعِزُّه . ومِنه سُمِّيَ ما أكرمَ اللهُ بِه أولياءه مِمَّا يَخرج عن العادة (كرامات))) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[الْمُدَّثِّر : ٣] . عَظِّمْ رَبَّكَ يا محمد وَمَجِّدْهُ وقَدِّسْهُ ، فهو وَحْدَه المستحق للعَظَمَة والمجد والقداسة، والموصوف بالعِزِّ والكِبرياء . واللهُ أكبر مِن كُل شيء . فاعبده وَحْدَه،بلا شريك ولا نِد.وتَوَجَّه إِلَيه في كُل أحوالك، فهو القادر على حمايتك مِن كُل سُوء.

وتقديمُ المفعول على فِعل الأمر ، يُفيد الإخلاص والاختصاص . أي : اختصَّ رَبَّكَ بالتكبير والتعظيم يا محمد، قَولاً وفِعلاً ، وكُن على يقين أن لا شَيء أكبر مِن الله ، ولا يَكْبُر عليك شَيء مِن أمر الخلق . والمعنى : لا تخف يا محمد مِن الكفار ، ولا تَعبأ بعداوتهم ومُحاربتهم لَك ، ولا تهتم لِشَأنهم ومكرهم وكَيدهم. فإنهم عباد مقهورون تحت عَظَمَة الله ومَجْده، فهو سُبحانَه أكبر مِن كُل كبير ، وأعظم مِن كُل عظيم . وكُل ما سِوى الله مخلوق ، ولا يوجد مخلوق فوق الخالق . إن اللهَ فوق كُل شيء ، وليس فوقه شَيء .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٥٨): ((قَوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي : سَيِّدَكَ ومَالِكَكَ ومُصْلِحَ أمركَ فَعَظِّمْ ، وَصِفْهُ بأنه أكبر مِن أن يكون له صاحبة أو ولد . وفي حديث أنهم قالوا : بِمَ تُفتتَح الصلاة ؟ فَنَزلت : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي : وَصِفْهُ بأنه أكبر . قال ابن العربي : وهذا القول وإن كان يقتضي بِعُمومه تكبير الصلاة ، فإنه مراد به التكبير والتقديس والتَّنْزيه لخلع الأنداد والأصنام دُونَه، ولا تَتَّخِذ وَلِيًّا غَيْرَه، ولا تعبد سِواه، ولا ترى لِغَيره فِعلاً إلا له ، ولا نعمة إلا مِنه. وقد رُوِيَ أن أبا سُفيان قال يوم أُحُد: أُعْلُ هُبَل، فقال النبيُّ ﷺ : " قُولوا : الله أعلى وأجَلُّ ". وقد صار هذا اللفظ بِعُرف الشَّرْع في تكبير العبادات كُلِّها أذانًا وصلاةً وذِكْرًا بِقَوله: " الله أكبر " وحُمِل عليه لفظ النبيِّ ﷺ الوارد على الإطلاق في موارد ، مِنها قَوله : " تحريمها التكبير وتحليلها التسليم " . والشَّرع يقتضي بِعُرفه ما يقتضي بِعُمومه ، ومِن مَوارده أوقات الإهلال بالذبح لله تخليصًا له مِن الشِّرك ، وإعلانًا باسمه في النُّسُك ، وإفرادًا لِمَا شَرع مِنه لأمره بالسَّفْك . اهـ .

وفي التفسير أنه لَمَّا نزل قَوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ قام رسولُ الله ﷺ ، وقال : " الله اكبر " ، فَكَبَّرَت خديجة ، وعَلِمَت أنه الوَحْيُ مِن الله تعالى ، ذكره القُشَيري)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَر ﴾ [القيامة : ١٢] .

إلى الله وَحْدَه أيها الإنسان يومئذٍ الاستقرار،حيث يستقرُّ أهل الجنة في الجنة،وأهل النار في النار.

إلى الله وَحْدَه مرجع الخلائق ومصيرهم ومُنتهاهم ومُستقرهم ، حيث يُحاسبهم اللهُ ويُجازيهم . ولا مَهرب ولا مَنجى مِن الله إلا إلَيه . والآيةُ تَحمل معنى التَّخويف والتحذير ، فلا أحد يَهرب مِن اللهِ تعالى ، ولَن يَنجوَ مِن أهوال يوم القِيامة إلا مَن أنجاه اللهُ تعالى .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢١) : ((إلَيه وَحْدَه استقرار العباد ، أو : إلى حُكمه استقرار أمرهم ، أو إلى مشيئته موضع قرارهم ، يُدخِل مَن يشاء الجنة ، ومَن يشاء النار)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَديد ﴾[البُرُوج : ١٢] .

إنَّ انتقامَ الله من الظالمين والكافرين في غاية الشِّدة . وهذا تحذير لكفار مكة أن يَنْزِل عليهم عذاب الله بسبب تكذيبهم وعِنادهم وكُفرهم . والبطشُ هو الأخذ بِعُنف . والمراد هو أخذه الظلَمة والجبابرة والكفار بالعذاب الشديد والانتقام الماحق .

وقال أبو السعود في تفسيره (٩/ ١٣٨) : ((﴿ إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَديد ﴾ استئناف ، خُوطِبَ به النبيُّ ﷺ ، إيذانًا بأن لكفار قَومه نصيبًا مَوفورًا مِن مَضمونه ، كما يُنبئ عنه التَّعرض لعنوان الرُّبوبية مع الإضافة إلى ضَميره _ عليه الصلاة والسلام _ . والبطش الأخذ بِعُنف. وحيث وُصِف بالشِّدة ، فقد تضاعفَ وتفاقمَ، وهو بطشه بالجبابرة والظلَمة، وأخذه إيَّاهم بالعذاب والانتقام)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد ﴾ [الفَجْر : ١٤] .

إنَّ رَبَّكَ يا محمد يرى أفعالَ عباده ، ويَسمع أقوالَهم ، وهو رقيبٌ عليهم . يَرصد أعمالَ كُل إنسان، ويُحصيها، فلا يفوته منها شيء ، وهو عَالِمٌ بما يَصدر مِنهم . يَحفظه ولا يَنساه، ويُجازيهم عليه في الوقت المناسب بشكل كامل غَير منقوص ، إن خَيْرًا فَخَير ، وإن شَرًّا فَشَر. ولا تخفى عليه خافية، ولا أحد يَهرب مِنه . واللهُ تعالى سَيَعْرِض الخلائق كُلَّهم عليه ، ولَن يغيب أحد ، فيحكم فيهم بالحق والعدل ، ويَصدر الْحُكم على كُل إنسان بما يستحقه . واللهُ هو الحاكم العادلُ ، الْمُنَزَّه عن الغفلة والسَّهْو والخطأ والظلم والْمُجامَلة والْمُحابَاة .

والآيةُ تهديد وتحذيرٌ شديد لكفار مكة ، وتخويف لهم مِن أن يُصيبهم ما أصابَ الأمم الغابرة مِن العذاب والهلاك بسبب كُفرهم وتكذيبهم . والله يُحصي أفعالَ عباده وأقوالَهم ، ولن يَهربوا من العذاب الإلهيِّ إن اختاروا الكفر على الإيمان .

والإنسانُ إذا عَلِمَ أن اللهَ يَرصد أعمالَه ، ويُحصي أفعالَه وأقوالَه ، ولا مجال للهرب مِن اللهِ ، فإنه يَحذر ويَخاف ، ويَلتزم بأوامر الله ، ويَجتنب نَواهيه . واللهُ يَرصد الكافرين بالعذاب . والمِرصاد هو المكان الذي يترقب فيه الرصد .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٢٠) : ((﴿ إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد ﴾ . قال ابن عباس : يعني بحيث يَرى ويَسمع ويُبصِر .قال الكلبي : عليه طريق العباد لا يَفوته أحد . قال مقاتل : مَمَرُّ الناس عليه ، والمِرصاد والمرصد : الطريق . وقِيل : مرجع الخلق إلى حُكمه وأمره ، وإليه مصيرهم . وقال الحسن وعِكرمة : يَرصد أعمال بني آدم . والمعنى : أنه لا يفوته شيء مِن أعمال العباد ، كما لا يَفوت مَن هو بالمِرصاد. وقال السُّدي : أرصدَ اللهُ النارَ على طريقهم حتى يُهْلِكَهم)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي اللهُ عنه ـ : ـ ﴿ والفجر ﴾.قال:قَسَم. ﴿ إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد ﴾ مُرور الصِّراط ثلاثة جُسور:جِسر عليه الأمانة،وجِسر عليه الرَّحِم،وجسر عليه الرَّب عَزَّ وَجَلَّ [62].

٥ ـ أوامره :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾[البقرة : ٢١٠] .

كُل الأمور مرجعها ومصيرها إلى الله في كل وقت، واللهُ يَفصل يوم القيامة بين عباده ، ويَحكم لهم أو عليهم ، ويُجازي الْمُحسِن بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته . ورُجوع الأمور إلى الله يتعلق بالجزاء مِن الثواب والعقاب . والجديرُ بالذِّكر أن الأمور راجعة إلى الله في الدنيا والآخرة ، ولكن تَمَّ التركيز على الآخرة ، بسبب زوال مُلْك الملوك فيها،وانتهاء سُلطة القُضاة،واختفاء هَيمنة المتنفِّذين.وَحْدَه اللهُ هو القاضي الذي يَفصل بين الناس ، وهو الْحَكَم العادل ، والحاكم الْمُنصِف الذي لا يُجامِل ولا يُحابي ولا يَظلم .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٣٩): ((وأمَّا قَوله : ﴿ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ ، فإنه يعني: وإلى الله يَؤول القضاء بين خَلْقه يوم القيامة ، والْحُكْم بينهم في أمورهم التي جَرَت في الدنيا مِن ظُلم بعضهم بعضًا، واعتداء المعتدي مِنهم حدود الله وخِلاف أمره، وإحسان المحسِن منهم وطاعته إيَّاه فيما أمره به، فيفصل بين المتظالمين، ويُجازي أهل الإحسان بالإحسان ، وأهل الإساءة بما رأى، ويتفضَّل على مَن لَم يكن منهم كافرًا فيعفو . ولذلك قال جَلَّ ثناؤه : ﴿ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾،وإن كانت أمور الدنيا كُلُّها والآخِرة مِن عِنده ، مَبدؤها وإليه مصيرها ، إذ كان خَلْقه في الدنيا يتظالمون ، ويَلِي النظر بينهم أحيانًا في الدنيا بعض خَلْقه ، فيحكم بينهم بعض عبيده ، فيجور بعض ويعدل بعض، ويُصيب واحد ويُخطئ واحد، ويُمَكَّن من تنفيذ الْحُكم على بعض، ويتعذر ذلك على بعض ، لِمَنَعَة جانبه وغَلَبته بالقوة ، فأعلمَ عِبادةَ تعالى ذِكْرُه أن مرجع جميع ذلك إليه في موقف القيامة، فَيُنْصِف كُلاًّ مِن كُل ، ويُجازي حق الجزاء كُلاًّ ، حيث لا ظُلم ، ولا مُمْتَنِع مِن نفوذ حُكمه عليه ، وحيث يستوي الضعيف والقوي ، والفقير والغني ، ويضمحل الظلم ، ويَنْزِل سُلطان العدل ، وإنما أدخلَ جَلَّ وَعَزَّ الألف واللام في ﴿ الأمور ﴾ لأنه جَلَّ ثناؤه عَنَى بها جميع الأمور ، وَلَم يَعْنِ بِها بعضًا دُون بعض)) اهـ .

---

(٦٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٦٩) برقم (٣٩٣٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمرِ شَيْءٌ أوْ يَتُوبَ عَلَيهم أوْ يُعَذِّبَهُم فإنَّهم ظالمون ﴾[آل عِمران : ١٢٨].

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : ليسَ إلَيْكَ مِن إصلاح الناس ولا مِن عذابهم شَيء . وليسَ لَكَ مِن الْحُكم شَيء في عباد الله، ولا علاقة لَكَ بِتَدبير أمرهم ولا تقرير مصيرهم.وإنما أمرهم إلى الله الذي خَلَقَهم ، وهو أعلم بِهم مِنهم، وهو سُبحانَه يُدبِّر أمورَهم ، ويُقرِّر مصيرَهم . ﴿ أوْ يَتُوبَ عَلَيهم ﴾ أو يتوبَ عليهم مِن الكفر والضلال،فيهديَهم إلى الحق والهدى،ويُسْلِموا ﴿ أوْ يُعَذِّبَهُم ﴾ في الدنيا والآخرة على كُفرهم وذُنوبهم ومعاصيهم ﴿فإنَّهم ظالمون﴾ لأنفسهم باعتناقهم الكفر . ويستحقون العذاب والعِقاب بِظُلمهم ومعصيتهم للهِ وكُفرهم . والكفر أسوأ أنواع الظُّلْم ، لأن الكافر ظَلَمَ نَفْسَه بقيادتها إلى الخلود في النار . وبذلك يكون قد أهلكَ نَفْسَه بنفْسه . ولا توجد فرصة للنجاة . إنَّ اللهَ مالكُ أمرهم ، فَهُم خَلْقُه وعبيدُه ، يَفعل بهم ما يشاء . إمَّا أن يَهزمهم أو يُهْلِكهم أو يتوب عليهم إن أسْلَموا ، أو يُعذِّبهم إن اختاروا الكفر على الإسلام . وأنتَ يا محمد لا علاقة لَكَ بهذه الأمور ، والأمرُ أمرُ اللهِ في ذلك كُلِّه ، فمن شاءَ عذَّبه ، ومَن شاءَ غَفر له . فاصبر يا محمد . إنما أنتَ عبدُ اللهِ ورسولُه، مأمورٌ بإيصال رسالة الله إلَيهم، ومَبعوث لِدَعوتهم إلى الحق ، وإنذارهم ، ومُحاورتهم إن اختاروا لُغة الحوار والنِّقاش ، وجهادهم بالسَّيف إن اختاروا لُغة القتل والقتال . فاستمرَّ في الدَّعوة إلى الله ، وعواقبُ الأمور بيد الله وَحْدَه . وقد استمرَّ النبيُّ ﷺ في أداء رسالته بكل اجتهاد ومُثابَرة وصبر،دون كَسَل ولا مَلَل ولا يأس ولا قُنوط،مُعْتَمِدًا على اللهِ ومُتَوَكِّلاً عليه.

وإذا كانَ النبيُّ ﷺ ليس له مِن الأمر شَيء ، وهو أعظم الأنبياء والمرسَلين ، فَمِن باب أولى أن غَيْره ليس له مِن الأمر شَيء . وفي كُل الحالات ، الأمر للهِ وَحْدَه ، لا شريك له .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٣١) : ((لَيْسَ إلَيْكَ يا محمد مِن أمر خَلْقي إلا أن تُنفِّذ فيهم أمري ، وتنتهي فيهم إلى طاعتي ، وإنما أمرهم إلَيَّ ، والقضاء فيهم بيدي دُون غَيري ، أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء مِن التوبة على مَن كفر بِي وعَصاني وخالفَ أمري ، أو العذاب ، إمَّا في عاجل الدنيا بالقتل والنِّقَم الْمُبيرة ، وإمَّا في آجِل الآخرة بما أعددتُ لأهل الكفر بِي)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤١٧) : عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ كُسِرَت رَبَاعِيَتُهُ يوم أُحُد ، وَشُجَّ في رأسه، فَجَعَلَ يَسْلِتُ الدَّمَ عنه، ويقول:((كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم ، وَشَجُّوا رَبَاعِيَتَهُ، وهو يَدعوهم إلى الله ؟!)) ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمرِ شَيْءٌ ﴾ _ الآية _ .

كانَ المسلمون في ضِيق شديد في غَزوة أُحُد ، وقد كُسِرت رَبَاعِيَةُ النبيِّ ﷺ ، وهي السِّن التي تَلِي الثَّنِيَّة مِن كل جانب ، وللإنسان أربع رَبَاعِيَات . وجُرِحَ في رأسه الشريف ، فجعلَ يَمسح الدَّمَ عنه . وهذا الابتلاء الشديد والمعاناة القاسية من أجل زيادة أجر النبيِّ ﷺ ، ورفع درجته .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٤٨): ((وفي هذا وقوع الانتقام والابتلاء بالأنبياء _ صلوات الله وسلامه عليهم _ لينالوا جزيل الأجر ، وَلِتَعرف أُمَمهم وغَيرهم ما أصابهم ويَتَأَسُّوا بِهم . قال القاضي : وَلِيُعْلَم أنهم مِن البشر، تُصيبهم مِحَن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ، لِيَتَيَقَّنُوا أنهم مخلوقون مربوبون ، ولا يُفْتَتَن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ، وتلبيس الشيطان مِن أمرهم ، ما لَبَّسه على النصارى وغَيرهم)) اهـ .

وقد استبعدَ النبيُّ ﷺ توفيقَهم إلى الهداية بعدما جَرحوه وآذَوْهُ يوم أُحُد ، وكأنه قد يَئِسَ مِن إيمانهم . فأرادَ اللهُ أن يُقرِّب ما استبعده النبيُّ ﷺ ، ويَمنح النبيَّ ﷺ الأملَ والرجاءَ في إسلامهم وهِدايتهم.وعِندما أدركَ النبيُّ ﷺ هذا المعنى، قالَ: ((اللهم اغْفِرْ لِقَومي فإنهم لا يَعْلَمون)) [63].

والكفارُ يوم أُحُد قاتلوا النبيَّ ﷺ والمسلمين ، وسبَّبوا لهم الألم والمعاناة . وبِفَضْل الله ، أسلمَ مِنهم الكثيرون فِيما بعد، وصاروا صحابةً أجِلاء ، حملوا الدَّعوة الإسلامية ، ونشروا الحقَّ والهدى. وحتى الذين ماتوا على الكفر ، خرج مِن أصلابهم مؤمنون صادقون ، قاموا بأداء واجبهم في نشر الدعوة الإسلامية في كل مكان . لذلك على المرء ألا يَيأس مِن دَعوة الكافرين مهما بَلَغَ كُفْرُهم . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل إنَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ ﴾ [آل عِمران : ١٥٤] . قُل يا محمد: إنَّ الأمرَ كُلَّه بيد اللهِ وَحْدَه، يُصرِّفه كيف يشاء، ويُدبِّره كما يُريد. وهذا يعني أن القَدَر خَيْرَه وشَرَّه مِن الله وَحْدَه،لا شريك له في ذلك ولا نِد ولا مُساعِد ولا وزير ولا مُستشار. واللهُ تعالى دَبَّرَ الأمرَ وَفْقَ قضائه السابق ، فلا مَرَد له . ولا شَيء يقف أمام مشيئة الله وإرادته . وبما أن الأمرَ كُلَّه للهِ وَحْدَه، فيجب التوكل عليه، والثقة بِه،والاعتماد عليه في كل صغيرة وكبيرة، والاستسلام لأمره وحُكمه دُون غَيره مِن المخلوقات ، وهذه هي حقيقة الإسلام وجَوهر التَّوحيد . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٠٤) : ((﴿ قُل إنَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ ﴾ أي الغلَبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه ، فإن حزب الله

---

(٦٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٤) . وقال: ((يعني هذا الدعاء أن قال يوم أُحُد لَمَّا شُجَّ وَجْهُه ، قال : ((اللهمَّ اغفر لِقَومي)) ذَنْبَهم بي مِنَ الشَّج لِوَجهي ، لا أنه دعاء للكفار بالمغفرة ، ولو دعا لهم بالمغفرة لأسْلَموا في ذلك الوقت لا مَحالة .

هُـم الغـالبون ، أو القضـاء لـه ، يفعـل مـا يشـاء، ويحكـم مـا يُريـد)) اهـ . وقـالَ اللهُ تعـالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إلا للهِ يَقُصُّ الحقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِين ﴾[الأنعام : ٥٧] . إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الذي يُقرِّر تعجيلَ العذابِ أو تأخيرَه ، والْحُكْم القاطع الفاصل بين الحق والباطل للهِ وَحْدَه . وقال الشَّوكاني في فتح القـدير (٢/ ١٧٧) : ((﴿ إِنِ الْحُكْمُ إلا للهِ ﴾ أي : مـا الْحُكم في كُـل شَـيء إلا لله سُبحانَه ، وَمِن جُملة ذلك ما تستعجلون بِه مِن العذاب أو الآيات الْمُقترَحة. والمراد : الْحُكم الفاصل بين الحق والباطل)) اهـ .

يَقُصُّ اللهُ القَصَصَ الحق، ويُخبِر بالأخبار الصحيحة الصادقة ، ويُوضِّحها بشكل كامل لا لَبْسَ فِيه ولا غُموض ، ويُبيِّنها البيانَ الشافي . وهو خَيْرُ القاضين بالقضاء الحق ، وخَير الحاكمين بين عباده ، حيث يَفْصِل بين الحق والباطل . والفَصْلُ هو القضاء . واللهُ تعالى يُجري أحكامه وأقضيته وَفْقَ مشيئته وإرادته وحِكمته ، وهو مُنَزَّهٌ عن العبث والظلم والْمُجامَلة والْمُحابَاة .

وقـال ابـن الجـوزي فـي زاد المسـير (٣/ ٥٢) : ((قَولـه تعـالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إلا للهِ ﴾ فِيـه قَولان : أحدهما أنه الْحُكم الذي يَفْصِل بِه بين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب . والثاني أنه القضاء بإنزال العذاب على الْمُخالِف . قَوْله تعالى : ﴿ يَقُصُّ الحقَّ ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم ونافع : ﴿ يَقُصُّ الحقَّ ﴾ بالصَّاد الْمُشَدَّدة ، مِن القَصَص ، والمعنى أن كُل ما أخبر به فهو حق . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكِسائي: يَقضي الحق ، مِن القضاء ، والمعنى : يقضي القضاءَ الحق)).

وقـالَ اللهُ تعـالى : ﴿ ومـا نَتَنَـزَّلُ إلا بـأمرِ رَبِّكَ ﴾ [مـريم : ٦٤] . هـذا كـلامُ جِبريـل ــ عليـه السلام ــ للنبيِّ ﷺ ، حيث استبطأَ نزولَ الوَحْي ، واحتبسَ جِبريلُ عنه مُدَّةً مِن الزمن: إذا أمرَنا اللهُ نَزَلْنا عَلَيْكَ، وما نَنْزِل إلى الدُّنيا إلا بأمر الله وإذنه ومشيئته ، ووَفْقَ ما تقتضيه حِكمته سُبحانَه . والتَّنَزُّل هو النُّزول على مَهَل . وقد يجيء بمعنى النُّزول مُطْلَقًا .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٧١٣) : عن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((يا جِبريل، ما يَمنعك أن تزورنا أكثر مِمَّا تزورنا)). فَنَزلت : ﴿ وما نَتَنَـزَّلُ إلا بأمرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية . قال : كان هذا الجواب لمحمد ﷺ .

إن جِبريل ــ عليه السلام ــ عبدٌ مأمور . إذا بَعثه اللهُ نَزَلَ ، وإذا لَم يأمره بالنُّزول لَم يَنْزِل .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ١١٨):((﴿ وما نَتَنَزَّلُ ﴾ أي: قال اللهُ تعالى: قُل يا جِبريل : ﴿ وما نَتَنَزَّلُ إلا بأمرِ رَبِّكَ ﴾ وهذا يحتمل وجهين : أحدهما إنَّا إذا أُمِرْنا نَزَلْنا عَلَيْكَ . الثاني إذا أَمَرَكَ رَبُّكَ نَزَلْنَا عَلَيْكَ . فيكون الأمر على الأول مُتَوَجِّهًا إلى النُّزول. وعلى الوجه الثاني مُتَوَجِّهًا

إلى التَّنْزيل)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى:﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُم يَوْمَ القِيامةِ فِيما كُنتم فِيهِ تختلفون ﴾ [الحج : ٦٩] . اللهُ يَقضي ويَفصل بين المؤمنين والكافرين يوم القِيامة فِيما اختلفوا فِيه مِن أمر الدِّين ، وعندئذٍ يتَّضح الحق مِن الباطل.والاختلاف: ذهاب كُل واحد مِن الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر. والخطاب في الآية للمؤمنين والكافرين مَعًا ، أي يَفصل بينهم بالثواب والعِقاب ، ويُجازِي الْمُحسِن بإحسانه، والْمُسيء بإساءته. وهذا هو القضاءُ العادل، والجزاء الحق، والْحُكم الْمُنصِف. والآيةُ تُسلِّي النبيَّ ﷺ ، وتُخفِّف عنه ، فقد كانَ يَتعرَّض لأذى كبير مِن الكافرين ، ويُعاني أشدَّ المعاناة. وهذه الآيةُ تُؤسِّس لطريقة التعامل الْمُؤدَّب مع الخصوم ، الذين يُجادِلون عِنادًا وتَعَنُّتًا واستكبارًا ، وليس بحثًا عن الحق . والْمُناظَرة مع هؤلاء مَضيعة للوقت ، لذلك لا يَنبغي إجابتهم ولا مُناظرتهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٩) : ((﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُم ﴾ يَفْصِل بين المؤمنين مِنكم والكافرين بالثواب والعقاب ﴿ يَوْمَ القِيامةِ ﴾ كما فصل في الدنيا بالْحُجَج والآيات ﴿ فِيما كُنتم فِيهِ تختلفون ﴾ مِن أمر الدِّين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يشاءُ ويَختارُ ما كانَ لهمُ الخِيَرَة ﴾[القَصَص : ٦٨] .

اللهُ وَحْدَه هو الخالق الذي يَتصرَّف في خَلْقه كما يشاء ، مُنفرِد بالخلق والاختيار ، بلا شريك ولا نِد . لا مُوجِب عليه ولا مانع له . يَفعل ما يُريد في الوقت الذي يُريد، ولا أحد يَعترض على حُكمه.مَشيئته نافذة في كُل شيء، وإرادته لا يقف أمامها شَيء. ما شاءَ كان، وما لَم يَشأ لَم يكن. وهو مالكُ الخير والشَّر. ومَرجعُ الأمور ومصيرها إلَيه . وهو الْحَكَم الحاكم . وليس لأحدٍ مِن خَلْقه اختيار . فالاختيارُ والأمرُ والمشيئة والإرادة للهِ وَحْدَه .

والخِيرةُ فِيما اختاره اللهُ، وله الحِكمة البالغة والْحُجَّة الظاهرة ، وهو أعلم بالناس مِن أنفسهم ، ويَعرف ما يُصلِحهم وما يُفسِدهم. فَهو خالقهم، وهُم خَلْقه، وليس لأحدٍ مِن خَلْقه أن يختار عليه . فالمخلوقُ لا يَفرض رَأيه على الخالق ، والعبدُ لا يَتحكم بِسَيِّده .

واللهُ يَخلق ما يشاء كما يشاء ، ويَختار مِمَّا يشاء وَفْق حِكمته البالغة ، وليس للناس أن يَختاروا على الله . واللهُ لا يُرسِل الرُّسُلَ حَسَبَ اختيار الناس وآرائهم وأمزجتهم الشخصية ، فهو يختار مَن يشاء لِنُبُوَّته ، وهو أعلم بمصالح العباد ومنافعهم ووجوه الحِكمة .

وقُدرات الإنسان محدودة ضِمن الزمان والمكان ، كما أن عقله محصور ضِمن نطاق مُعيَّن . لذلك ، في أحيان كثيرة ، تكون أفكاره خاطئة ، وآراؤه مُشوَّشة ، وأحكامه قاصرة ، لأنه كائن ضعيف وعاجز . أمَّا اللهُ تعالى فَمُنَزَّهٌ عن الزمان والمكان،ولا يتأثر بالماضي والحاضر والمستقبَل ،

وأحكامه كاملة ومعصومة ، وهو سُبحانَه مُنَزَّهٌ عن الخطأ والنِّسيان والغفلة ، وهذه الأشياء مِن صفات المخلوق ، وليست من صفات الخالق. لذلك، المخلوق لا يَختار على الخالق ولا يُنازِعه . واللهُ مُنَزَّهٌ عَن أن يُنازعه أحد، أو أن يُبْطِل اختيارَه. وتعالى اللهُ عن الْمُشارَكة والْمُنازَعة والْمُنافَسة.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/٢٣٧):((قَوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يشاءُ ويَختارُ ﴾ روى العَوفي عن ابن عباس في قَوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يشاءُ ويَختارُ ﴾ . قال: كانوا يجعلون لآلهتهم خَير أموالهم في الجاهلية. وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة حِينَ قال : ﴿ لَوْلا نُزِّل هذا القرآن على رَجل من القريتَيْن عظيم﴾[الزُّخرُف:٣١].والمعنى أنه لا تُبعَث الرُّسُل باختيارهم.قال الزَّجاج: والوقف الجيِّد عَلى قَوله: ﴿ ويَختارُ ﴾ ، وتكون ﴿ ما ﴾ نَفْيًا. والمعنى: ليس لهم أن يختاروا على الله. ويجوز أن تكون ﴿ما ﴾ بمعنى الذي، فيكون المعنى: ويختار الذي لهم فيه الخِيَرة ، مِمَّا يَتعبَّدهم بِه، ويدعوهم إليه)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما اختلفتُم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ ﴾[الشُّورى : ١٠] . وما اختلفتم فِيه أيها الناس مِن أمر الدُّنيا أو الدِّين ، فإن الْحُكم للهِ تعالى ، هو الذي يَحكم بينكم بالحق ، ويقضي بالعدل . وهذا عام في كُل الأشياء والقضايا والنِّزاعات والخِلافات . والعِبرة بِعُموم اللفظ لا بخصوص السبب . والْحُكْمُ مَرْجعه إلى الله في الدنيا والآخرة على السَّواء . ففي الدنيا ينبغي الاحتكام إلى القُرآن والسُّنة . أمَّا في الآخرة فإن الخصوم تجتمع عند الله فَيَحكم بينهم بالحق والعدل ، ويفصل بين المتخاصمين ، وعندئذٍ ، يَظهر الْمُحِق مِنَ الْمُبطِل ، ويتَّضح المؤمنون أصحاب الجنة ، ويتَّضح الكافرون أصحاب النار .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ وما اختلفتُم فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ حكاية قَول رسول الله ﷺ للمؤمنين . أي : وما خالفكم فيه الكفار مِن أهل الكتاب والمشركين مِن أمر الدِّين ، فقولوا لهم : حُكمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لا غَيره ، وأمور الشرائع إنما تُتلقَّى مِن بيان الله)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وما اختلفتُم فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : مِن أمر الدِّين. وقِيل: بَل هو عام. ﴿ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما عِلْمه عند الله ، والثاني : هو يَحكم فيه . قال مقاتل : وذلك أن أهل مكة كَفَرَ بعضُهم بالقرآن ، وآمنَ بعضُهم ، فقال الله : أنا الذي أحكم فيه)) اهـ .

٦_ أهواء الناس وعقائدهم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُخادِعُونَ اللهَ والذينَ آمَنوا وما يَخْدَعُونَ إلا أنفُسَهُم وما يَشْعُرُون ﴾ [البقرة: ٩] .

النِّفاقُ نَوعان : اعتقادي ، وهو يُخلِّد صاحبه في النار . وعملي ، وهو مِن الكبائر .

والآيةُ تتحدث عن المنافقين الذين كانوا يُظهِرون الإيمانَ ويُبطِنون الكفرَ ، ليحقنوا دماءهم ، ويُحافظوا على أموالهم ، ويطَّلعوا على أسرار المسلمين وتفاصيل حياتهم ، ويَكشفوها للأعداء ، ويَقوموا باستغلالها لتحقيق مقاصدهم الفاسدة ، وأهدافهم الخبيثة .

لقد كانوا يُخادِعون الرسول ﷺ والمؤمنين ، حيث يَظهر الإيمانُ على جوارحهم، وقلوبهم ممتلئة بالكفر والحِقد على الإسلام والمسلمين . وبما أن النبيَّ ﷺ جاءَ برسالة الله ودعا إليها ، إذن ، مُخادَعة الرسول ﷺ تُعتبَر مُخادَعة لله الذي أرسله . وهذا يعني أن خِداعهم مع الله ليس على ظاهره ، لأن اللهَ يَعلم السِّر والعلانية ، ولا يَخفى عليه شَيء . ولا أحد يَقْدِر على خِداعه .

وقد رَفَعَ اللهُ قَدْرَ النبيِّ ﷺ وشَرَّفَه ، وأعلى مَقامه في الدنيا والآخرة ، إذْ جَعَلَ طاعةَ النبيِّ طاعةً لله ، ومعصية النبيِّ معصيةً للهِ ، وخِداع النبيِّ خِداعًا لله ، والكذب على النبيِّ كَذِبًا على الله .

ونِسبة الفِعل ﴿ يُخادِعُونَ ﴾ إلى اللهِ تعالى تدل على قُبح صَنيع المنافقين ، وسُوء أفعالهم ، وبشاعة أقوالهم ، وفساد اعتقادهم. إذ إنهم يَتعاملون مع الله تعالى، وكأنه مَخلوق ضعيف وعاجز ، يَسهل خِداعه، والتحايل عليه.ولا يُدرِكون أن اللهَ يَعلم عنهم كُلَّ شَيء قبل أن يَخلقهم.ولو كفروا باللهِ جَهَارًا نهارًا لكانَ أفضل مِن حالهم هذا. وأصلُ الْخَدْع الإخفاء. أي: إظهار خِلاف ما تُخفيه .

وهؤلاء المنافقون يعتبرون أنفسهم أذكياء وعباقرة . وفي الحقيقة هُم أغبياء يَضحكون على أنفسهم ، ويَخدعونها بالأماني الكاذبة والوعود الواهية . دِينهم هو الكذب والْمُداهَنة والخِداع ، والأوهام تُسيطر على قلوبهم ، والأحلام الزائفة تُهيمن على حياتهم، وعقولهم محصورة في الدنيا ، دُون أيِّ اعتبار للآخرة.واللهُ سَوْفَ يُعاقبهم أشدَّ العِقاب.ومَن استطاعَ أن يَهرب مِن الله فليهرب!. وقد أفسدوا إيمانَهم وأعمالَهم بالمكر والخديعة والرِّياء ، وقادوا أنفسَهم إلى الهلاك والعذاب الأبديِّ والخلود في النار.وما يَضُرُّون بذلك إلا أنفسهم.وضَرَرُ نِفاقهم عائدٌ إلَيهم لا يَتخطاهم إلى غَيرهم. والمشكلةُ الكبرى أنهم لا يَشعرون بضياعهم ، ولا يفطنون إلى أن خداعهم عائد إلَيهم ، ومَكْرَهم راجع عليهم ، وذلك بسبب غرقهم في الجهل والغفلة والضلال والغِواية ، وهذا جعلهم يفقدون الإحساسَ والشُّعور والقُدرة على التمييز. واللهُ يُطْلِع النبيَّ ﷺ على نِفاقهم وحقيقة أمرهم، فَيُفْتَضَحُون في الدنيا . وفي الآخرة لهم عذاب النار . إنهم يعتقدون واهمين أنهم نَجَوْا وفازوا في الدنيا والآخرة ، وأفلتوا من العقوبة والعذاب ، وأن حِيلتهم قد انطلت على اللهِ ، كما انطلت على بعض المؤمنين . ولكنهم في الحقيقة خسروا الدنيا والآخرة مَعًا ، وظلموا أنفسَهم بأن قادوها إلى

الخلود في عذاب النار . وقد اغترَّ المنافقون برحمة الله وحِلْمه عليهم وإمهاله لهم استدراجًا لهم ، وعدم مُعاجلتهم بالعقوبة والعذاب. فقد أمرَ اللهُ المؤمنين بإجراء الأحكام على الظاهر ، واللهُ يتولى السَّرائر ، وظاهرُ المنافقين هو الإيمان، لذلك تَجري عليهم أحكام الإسلام والمسلمين في الدنيا . أمَّا في الآخرة فَهُم أسوأ من الكفار ، ومصيرهم الدَّرْك الأسفل مِن النار ، لأن الكافر عدو ظاهر ومكشوف ، أمَّا المنافق فعدوٌّ مُستتِر غَير المكشوف ، والعدوُّ الخفيُّ دائمًا أشد خطورةً ، وتأثيره مُدمِّر في المجتمع الإسلاميِّ. لذلك كانت تَوبة المنافق أشدَّ مِن تَوبة الكافر، والتدقيق عليها أكبر.

والمخلوقُ قَد يُخادِع مخلوقًا مِثْلَه ، لأنه لا يَعلم ما في القلوب . ولكن كيفَ يُخادِع اللهَ الخالقَ الذي يَعلم بواطنَ الأمورِ،ومُطَّلع على القلوب والضمائر والأسرار،ولا يخفى عليه شَيء ؟! .

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ يُخادِعُونَ ﴾ تُفيد الْمُبالَغة والكثرة ، وهذا يعني أن المنافقين كانوا غارقين في الخداع ، ومُدَاوِمين عليه ، ومُتمسِّكين بِه ، ويعتبرونه أساس حياتهم ووجودهم .

لقد حَذَّرَ اللهُ المؤمنين مِن المنافقين ومَكْرهم وخِداعهم وشَرِّهم ، بأن أظهرَ صِفاتهم الدنيئة ، وفضحهم على رُؤوس الأشهاد ، لئلا يَثق المؤمنون بِهم ، ولا يَغتروا بأقوالهم البَرَّاقة ، وشِعاراتهم الفارغة . لأن الاغترار بالمنافقين ــ وهُم جُزء مِن المجتمع ــ يُؤدِّي إلى فساد كبير ، وتمزيق الوحدة الاجتماعية ، وانتشار الشُّكوك والشُّبهات بين الناس ، وتدمير الجبهة الداخلية ، وبالتالي ينهار المجتمع الإسلاميُّ مِن الداخل، ويُصبح لُقمةً سائغةً وفريسةً سهلةً أمام الأعداء الذين يَتربَّصون بِه . لذلك ينبغي الحذر من المنافقين الغارقين في الكفر، وفضحهم ومُواجهتهم، وعدم إحسان الظن بهم.

ومِن أبرز صفات المنافقين أن أخلاقهم فاسدة، وأقوالهم تُكذِّب أفعالَهم، يُصدِّقون بألسنتهم ، ويُنكِرون بقلوبهم ، ويُصبِحون على حال ، ويُمْسُون على غَيره . ويُمْسُون على حال ، ويُصبِحون على غَيره ، ويَميلون مَعَ الرِّيح حيث مالت . ليس لهم عقيدة إيمانية ولا مبدأ أخلاقي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ يُخادِعُونَ اللهَ ﴾ . قال ابن عباس : كان عبد الله بن أُبَي ، ومُعَتِّب بن قُشَير ، والْجَد بن القَيس إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمَنَّا ، ونشهد أن صاحبكم صادق ، فإذا خَلَوْا لَم يكونوا كذلك، فَنَزلت هذه الآية . فأمَّا التفسير فالخديعة الحِيلة والمكر، وسُمِّيت خديعة لأنها تكون في خفاء...وفي معنى خداعهم الله خمسة أقوال : أحدها انهم كانوا يُخادعون المؤمنين، فكأنهم خادعوا الله. رُوِيَ عن ابن عباس، واختاره ابن قُتَيبة . والثاني أنهم كانوا يُخادعون نبيَّ الله ، فأقامَ اللهُ نَبِيَّه مَقامه ، كما قال : ﴿ إن الذين

يُبايعونكَ إنما يُبايعون الله ﴾ [الفَتْح : ١٠]، قاله الزَّجاج . والثالث أن الخادع عند العرب الفاسد ... قال ابن القاسم: فتأويل ﴿ يُخادِعُونَ اللهَ ﴾ يُفسِدون ما يُظهِرون مِن الإيمان بما يُضْمِرون مِن الكفر. والرابع أنهم كانوا يفعلون في دِين الله ما لَوْ فعلوه بينهم كان خِدَاعًا . والخامس أنهم كانوا يُخفون كُفرهم ويُظْهِرون الإيمان به . قَوله تعالى : ﴿ وما يَخْدَعُونَ إلا أنفُسَهُم ﴾ ... والمعنى أن وَبال ذلك الخِداع عائد عليهم . ومتى يعود وَبال خِداعهم عليهم ؟ ، فِيه قَولان : أحدهما في دار الدنيا ، وذلك بطريقين أحدهما بالاستدراج والإمهال الذي يزيدهم عذابًا باطِّلاع النبيِّ والمؤمنين على أحوالهم التي أسَرُّوها . والقَول الثاني أن عَوْد الخِداع عليهم في الآخرة ، وفي ذلك قَولان : أحدهما أنه يعود عليهم عند ضَرْب الحِجاب بينهم وبين المؤمنين ، وذلك قَوله : ﴿ قِيلَ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نُورًا فَضُرِبَ بينهم بِسُورٍ له باب ﴾ [الحديد : ١٣] . والثاني أنه يعود عليهم عند اطِّلاع أهل الجنة عليهم ، فإذا رَأَوْهم طَمِعوا في نَيْل راحة مِن قِبَلهم ، فقالوا : ﴿ أفيضوا عَلَيْنا مِنَ الماءِ أوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ [الأعراف: ٥٠] فَيُجيبونهم:﴿ إن الله حَرَّمهما على الكافرين﴾ [الأعراف: ٥٠]. قَوله تعالى : ﴿ وما يَشْعُرُون ﴾ أي : وما يَعْلَمون . وفي الذي لَم يشعروا به قَولان . أحدهما : أنه إطْلاع اللهِ نَبِيَّه على كَذِبهم ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه إسرارهم بأنفسهم بِكُفرهم ، قاله ابن زيد)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦) : ((النِّفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر ، وهو أنواع : اعتقادي، وهو الذي يُخلِّد صاحبه في النار ، وعملي وهو مِن أكبر الذنوب ... وهذا كما قال ابن جُرَيج : المنافق يُخالف قَوْلُه فِعْلَه ، وسِرُّه عَلانِيَتَه ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه. وإنما نزلت صِفات المنافقين في السُّوَر المدنية ، لأن مكة لَم يكن فيها نفاق ، بل كان خِلافه ، مِن الناس مَن كان يُظهِر الكُفر مُسْتَكْرَهًا ، وهو في الباطن مؤمن ، فلمَّا هاجرَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار مِن الأوس والخزرج،وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مُشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقاع حُلفاء الخزرج، وبنو النضير وبنو قُرَيظة حُلفاء الأوس ، فلمَّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ، وأسلمَ مَن أسلمَ مِن الأنصار مِن قبيلتي الأوس والخزرج ، وقَلَّ مَن أسلمَ مِن اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ولَم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا ، لأنه لَم يكن للمسلمين بَعْد شَوكة تُخاف ، بَل قد كان عليه الصلاة والسلام وادعَ اليهودَ وقبائل كثيرة من أحياء العرب حَوَالَي المدينة ، فلمَّا كانت وقعة بَدْر، وأظهرَ اللهُ كلمته ، وأعزَّ الإسلامَ وأهلَه . قال عبد الله بن أُبَي بن سَلُول : وكان رأسًا في المدينة ، وهو

مِن الخزرج ، وكان سَيِّد الطائفتين في الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يُمَلِّكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلَموا ، واشتغلوا عنه ، فَبَقِيَ في نَفْسه مِن الإسلام وأهله ، فلمَّا كانت وقعة بَدْر ، قال : هذا أمر الله قد تَوَجَّه، فأظهرَ الدخول في الإسلام،ودخلَ معه طوائف مِمَّن هو على طريقته وَنِحْلته، وآخرون من أهل الكتاب ، فَمِن ثَمَّ وُجِد النفاق في أهل المدينة ومَن حَوْلها مِن الأعراب ، فأمَّا المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافقَ ، لأنه لَم يكن أحد يُهاجر مُكْرَهًا ، بَل يُهاجر فيترك مالَه وولده وأرضه رغبةً فيما عِند الله في الدار الآخرة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ في قُلوبِهم مرضٌ فزادهم اللهُ مَرَضًا ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يَكْذِبُون ﴾ [البقرة : ١٠]. في قلوب المنافقين مَرَضٌ.وهو الاعتقادُ الفاسدُ ورَفض الإيمان وتكذيب النبيِّ ﷺ والشَّك فِيه. ومرضُ القلبِ يعني المرض في الدِّين ، وليس المرض في الأجساد . وأصل المرض الضعف ، وَسُمِّيَ الشَّك في الدِّين مرضًا، لأنه يُضعِف الدِّين ، كما يُضعِف المرضُ الجسدَ. والشَّك تردُّد بين الأمرين، والمنافق مُتردِّد بين الإيمان والكفر ، والمريض مُتردِّد بين الحياة والموت. وتنكيرُ ﴿ مرضٌ ﴾ للدَّلالة على أنه مرض غامض ومُبْهَم، وليس كالأمراض التي يعرفها الناس. إنه مرض خفيٌّ ومُستتِر ، ومِن نوع خاص .

وسُوء العقيدة والنفاق والشَّك والحسد ، كلها أمراض تُصيب القلب ، وتُفسِده ، وتَمنع الإنسانَ من اكتساب الفضائل ، وتَقوده إلى الألم والحسرة في الدنيا ، وعذاب النار في الآخرة . والإنسانُ المصاب بهذه الأمراض يَحترق مِن الداخل ، ويُهْلِك نَفْسَه بنفْسه ، ويَقضي عليها .

في قلوب المنافقين وَهْمٌ ونِفاق وشَك وحَيرة وحسد وعداوة وعقائد باطلة ، فزادهم اللهُ شَكًّا وحَيْرَةً وضياعًا بسبب سُوء نِيَّتهم وفساد عقيدتهم . وهذه عُقوبة إلهية لهم . إنهم يَغرقون في مُستنقع أفكارهم الدَّنيئة، ويَضيعون في متاهة الأوهام والشُّكوك. ولَم يَسْعَوْا إلى طلب الحق، والبحث عن الصواب . فعاقبهم اللهُ بأن زادهم نِفاقًا إلى نِفاقهم ، ورِجْسًا إلى رِجْسهم ، وشَكًّا إلى شَكِّهم، وضلالاً إلى ضَلالهم.وآياتُ القُرآن كانت تَنْزِل بشكل مُتتابع ، وكُلما نزلت آية كفروا بها ، فازدادوا كُفرًا ونِفاقًا . ولوْ عَلِمَ اللهُ فيهم خَيْرًا لهداهم، ولكن طَبَعَ على قلوبهم، لِعِلْمه أن الترغيب والترهيب والبِشارة والنِّذارة والتذكير والمواعظ ، لا تُؤثِّر فيهم ، ولَن يَستفيدوا مِنها شيئًا .

لقد كان المنافقون يحترقون بحسدهم للنبيِّ ﷺ ، فقد فقدوا زعامتهم ورئاستهم ونفوذهم ، أمَّا النبيُّ ﷺ فيزداد قُوةً ومكانةً ، وتنتشر دَعوته في كل مكان ، ويكثر أصحابه وأتباعه . لقد جَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ بسبب حِقدهم الدفين وحسدهم المتجذِّر ، مَعَ عِلْمهم بِصِحَّة ما يَجحدون .

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ٤٢): ((فَقَوله تعالى: ﴿ في قُلوبِهم مرضٌ ﴾ إلخ ، حينئذ استئناف تعليلي لِقَوله تعالى: ﴿ يُخادِعُونَ اللهَ ﴾ إلخ. كأنه قِيل : ما لهم يُخادعون ويُداهنون، وَلِمَ لا يُجاهرون بما في قلوبهم مِن الكفر. فَقِيل: في قلوبهم ضَعْف مُضاعَف.هذه حالهم في الدنيا)).

ولهم في الآخرة عذابٌ شديدٌ ومُؤلِم ومُوجِع ، ويصل الوجع إلى قلوبهم بسبب شِدَّته ، وذلك نتيجة كَذِبهم على اللهِ ، ورفضهم لكلامه ، وتكذيبهم للنبيِّ ﷺ . والكذبُ هو الإخبار عن الشَّيء على خِلاف ما هُوَ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٦٦) : ((﴿ في قُلوبِهم مرضٌ فزادهم اللهُ مَرَضًا ﴾ المرض حقيقةً فِيما يعرض للبدن ، فَيُخرجه عن الاعتدال الخاص بِه ، ويُوجِب الخلل في أفعاله، ومجاز في الأعراض النفسانية التي تخلُّ بكمالها ، كالجهل وسُوء العقيدة والحسد والضغينة وحب المعاصي ، لأنها مانعة مِن نَيل الفضائل ، أو مُؤدِّية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية . والآية الكريمة تحتملهما ، فإن قلوبهم كانت متألمة تحرُّقًا على ما فات عنهم مِن الرياسة ، وحسدًا على ما يَرَوْن مِن ثبات أمر الرسول ﷺ ، واستعلاء شأنه يَوْمًا فيومًا . وزادَ اللهُ غَمَّهم بما زاد في إعلاء أمره ، وإشادة ذِكْره . ونفوسهم كانت موصوفة بالكفر وسُوء الاعتقاد ومُعاداة النبيِّ ﷺ ونَحْوها، فزادَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ذلك بالطبع ، أو بازدياد التكاليف وتكرير الوَحْي ، وتضاعُف النصر ، وكان إسناد الزيادة إلى الله تعالى مِن حيث إنه مُسبِّب مِن فِعْله ، وإسنادها إلى السُّورة في قَوله تعالى : ﴿ فزادَتْهُم رِجْسًا ﴾ [التَّوْبة : ١٢٥] لِكَوْنها سَبَبًا . ويُحتمَل أن يُراد بالمرض ما تداخلَ قلوبهم من الجبن والخوَر حين شاهدوا شَوكة المسلمين ، وإمداد الله تعالى لهم بالملائكة ، وقذف الرُّعب في قلوبهم ، وبزيادته تضعيفه بما زاد لرسول الله ﷺ نُصرةً على الأعداء ، وتبسيطًا في البلاد)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ ليس سَاذَجًا ولا مُغَفَّلاً . لقد أعلمه اللهُ بأسماء كثير من المنافقين ، فكانَ النبيُّ ﷺ يَعرفهم بأعيانهم وأنهم مُنافقون كُفار . ومعَ هذا ، لَم يَقتلهم لتحقيق المصالح والمنافع ، وتأليف القلوب عليه ، لئلا تنفر عنه . وقد أجرى عليهم أحكام الإسلام على الظاهر . ومنهجُ النبيِّ ﷺ في التعامل مع المنافقين واضحٌ ومنطقي ، ويتجلى في قَوله : ((لا يَتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمدًا يَقتل أصحابَه)) [(64)].

(٦٤) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨٦١)برقم (٤٦٢٢)،ومسلم(٤/ ١٩٩٨)برقم (٢٥٨٤).

وهذا الأمرُ يُؤثِّر سلبًا على الدَّعوة الإسلامية، وقد يَهرب الكثيرون مِن الإسلام ، أو يَخرجون مِنه ، لأن الظاهر أمامهم أن محمدًا يَقتل أصحابَه ، ويتخلص مِن أتباعه ، ويقوم بعملية تصفية حسابات داخلية . وهُم بالتأكيد لا يُدْرِكون حِكمة قَتلهم، وأنهم مُنافقون كُفار ، وطابور خامس في قلب المجتمع الإسلاميِّ . وهكذا يتَّضح بُعد نظر النبيِّ ﷺ ، وإدراكه لعواقب الأمور ، والتفكير بشكل سليم وواضح وبعيد المدى . وهذه هي صفات القائد الحقيقيِّ والزعيم العاقل الواعي .

وقد كانَ صحابةُ النبيِّ ﷺ أصحاب إيمان قويٍّ، وقد حفظهم اللهُ مِن فساد المنافقين وإفسادهم، لذلك لَم يتأثر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بهم . أمَّا الآن ، فإن المنافقين والزنادقة قادرون على إفساد العوام والجهال ، والتلاعب بهم ، وهدم عقائدهم . لذلك يجب التَّصدي لهم بكل حَزْم . وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٤٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ في قُلوبِهم مرضٌ ﴾ ابتداء وخبر، والمرض عبارة مُستعارة للفساد الذي في عقائدهم ، وذلك إمَّا أن يكون شَكًّا ونفاقًا ، وإمَّا جحدًا وتكذيبًا . والمعنى : قلوبهم مرضى لِخُلُوِّها عن العِصمة والتوفيق والرعاية والتأييد. قال ابن فارس اللغوي : المرض كُل ما خرج به الإنسان عن حَد الصِّحة مِن عِلَّة أو نِفاق أو تقصير في أمر ... . قَوله تعالى : ﴿ فزادهم اللهُ مَرَضًا ﴾ . قِيل : هو دعاء عليهم ، ويكون معنى الكلام : زادهم اللهُ شَكًّا ونفاقًا جَزاءً على كُفرهم ، وضعفًا عن الانتصار ، وعجزًا عن القُدرة ... . وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين ، والطرد لهم لأنهم شَر خَلْق الله . وقِيل : هو إخبار مِن الله تعالى عن زيادة مَرضهم ، أي فزادهم اللهُ مرضًا إلى مرضهم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ فزادَتْهُم رِجْسًا إلى رِجْسِهِم ﴾ . وقال أرباب المعاني : ﴿ في قُلوبِهم مرضٌ ﴾ أي بِسُكونهم إلى الدنيا وحُبِّهم لها ، وغفلتهم عن الآخرة ، وإعراضهم عنها . وقَوله : ﴿ فزادهم اللهُ مَرَضًا ﴾ أي وَكِلَهم الى أنفسهم ، وجَمع عليهم هموم الدنيا ، فلم يتفرَّغوا من ذلك إلى اهتمام بالدِّين . ﴿ ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ بما يفنى عمَّا يبقى . وقال الْجُنَيد : عِلَل القلوب مِن اتِّباع الهوى ، كما أن عِلَل الجوارح مِن مَرض البَدَن . قَوله تعالى : ﴿ ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ أليم في كلام العرب معناه مُؤلِم ، أي: مُوجِع ... . قَوله تعالى: ﴿ بما كانوا يَكْذِبُون ﴾ ،"ما" مصدرية، أي بتكذيبهم الرُّسل ، ورَدِّهم على الله جَلَّ وَعَزَّ ، وتكذيبهم بآياته)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وإذا قِيلَ لهم لا تُفْسِدُوا في الأرضِ قالوا إنما نحنُ مُصْلِحُون ﴾[البقرة : ١١].

إذا قِيل لهؤلاء المنافقين: لا تعصوا اللهَ، ولا تعتنقوا الكفرَ والنفاقَ، ولا تأمروا بالآثام والمعاصي. والمعنى : لا تكفروا وتُوَالُوا الكافرين وتَصُدُّوا الناسَ عن الإيمان .

قالوا ـــ كَذِبًا وزُورًا ـــ : الذي نحن عليه هو صلاح وليس فسادًا . إنما نحن على الهدى والحق والخير ، ونُريد صلاحَ المجتمع ، والإصلاح بين الناس .

لقد نُهُوا عن الكفر، والكفرُ أشد فسادًا في الدِّين. والفسادُ هو خروج الشَّيء عن الاعتدال .

وهؤلاء المنافقون يتَّبعون أهواءهم ، ويَغرقون في الكفر والضلال ، لذلك اعتبروا إفسادَهم في الأرض إصلاحًا . والإنسانُ إذا انتكسَ قلبُه ، صارت أفكاره مقلوبة ، وأحكامه معكوسة . وهذا يدل على سُقوطه في الشُّكوك والشُّبهات ، وتلاعب الأهواء بِه ، وعدم وجود منهج مُتماسك في حياته ، ولا معنى لوجوده . والفسادُ في الأرض هو الكفر ومعصية الله ورفض أوامره . والمنافقون فاسدون ومُفْسِدُون في آنٍ مَعًا ، فقد رَفضوا الإسلامَ ، وكذَّبوا بآياتِ الله ، وجَحدوا نُبُوَّة محمد ﷺ وحاربوه ، وصَدُّوا الناسَ عن الإيمان بالقُرآن ومحمدٍ ﷺ ، وبثُّوا الفِتَن والخلافات بين المؤمنين لهدم المجتمع الإسلاميِّ مِن الداخل ، وتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت قواهم ، وقاموا بإفشاء أسرارهم إلى أعدائهم . وهذا يُؤدِّي إلى فساد العقول، وهلاكِ الأبدان، وانهيار الحضارة ، وخراب العُمران ، واشتعال الحروب ، وانتشار الفِتَن والبلبلة ، فيزول الأمنُ والأمانُ ، ويصير المجتمع غابةً يأكل القويُّ فيها الضعيفَ ، ولا يَأمن الإنسان على حياته ولا عِرْضه ولا ماله ، ولا يَستطيع مُمارسة شعائر دِينه ، ولا أداء العبادات . فتظهر المعاصي والذنوب ، وتنهار العقيدة في القلوب ، ويُهان الدِّين ، وتنتشر الفوضى والقلاقل ، ويحدث خلل كبير في نظام الوجود ومنظومة الحياة ، وتصير أحوال الناس في غاية السُّوء ، وتزول المنافع الدينية والدُّنيوية . وأيُّ فسادٍ أعظم مِن هذا ؟! .

لقد كان المنافقون مُتحالِفين مع الكافرين ضِد الإسلام والمسلمين ، وينقلون إليهم أسرار المسلمين وأخبارهم ، وهذا يُؤدِّي إلى إضعاف الجبهة الداخلية للمسلمين ، وتحطيمهم ، وانتشار الفِتَن فيما بينهم ، فينهار المجتمع الإسلاميُّ من الداخل .

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٤٧) : ((والمعنى في الآية: لا تُفسِدوا في الأرض بالكفر ، ومُوالاة أهله، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآنِ. وقِيل:كانت الأرض قبل أن يُبعَث النبيُّ ﷺ فيها الفساد، ويُفعَل فيها بالمعاصي ، فلمَّا بُعِث النبيُّ ﷺ ارتفعَ الفساد ، وصَلَحت الأرض، فإذا عملوا بالمعاصي ، فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٦٩): ((﴿ قالوا إنما نحنُ مُصْلِحُون ﴾ جواب لِ ﴿ إذا ﴾. رد للناصح على سبيل الْمُبالَغة. والمعنى أنه لا يَصِح مُخاطبتنا بذلك ، فإن شأننا ليس إلا الإصلاح، وإن حالنا مُتمحِّضة عن شوائب الفساد ، لأن " إنما " تُفيد قَصْر ما دخلت عليه على ما

بَعْده ، مِثل : إنما زيد منطلق ، وإنما ينطلق زيد . وإنما قالوا ذلك ، لأنهم تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح، لِمَا في قلوبهم من المرض)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٢) : ((وفي المراد بالفساد هاهُنا خمسة أقوال : أحدها أنه الكفر، قاله ابن عباس . والثاني العمل بالمعاصي، قاله أبو العالية ومقاتل . والثالث أنه الكفر والمعاصي، قاله السُّدي عن أشياخه . والرابع أنه ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهي، قاله مجاهد. والخامس أنه النِّفاق الذي صادفوا به الكفار ، وأطلعوهم على أسرار المؤمنين ، ذكره شيخنا عليُّ بن عُبَيد الله . قَوله تعالى : ﴿ قالوا إنما نحنُ مُصْلِحُون ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها أن معناه إنكار ما عُرِفوا به. وتقديره: ما فَعَلْنا شيئًا يُوجِب الفساد . والثاني أن معناه إنَّا نقصد الإصلاح بين المسلمين والكافرين ، والقَولان عن ابن عباس . والثالث أنهم أرادوا : مُصافاة الكفار صلاح لا فساد ، قاله مجاهد وقتادة . والرابع أنهم أرادوا إن فِعْلنا هذا هو الصلاح ، وتصديق محمد هو الفساد ، قاله السُّدي . والخامس أنهم ظَنُّوا أن مُصافاة الكفار صَلاح في الدنيا لا في الدِّين، لأنهم اعتقدوا أن الدَّوْلة (النصر) إن كانت للنبيِّ ﷺ فقد أَمِنُوه بِمُبايعته، وإن كانت للكفار، فقد أَمِنوهم بِمُصافاتهم، ذكره شَيْخنا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ألا إنهم هُمُ الْمُفْسِدُونَ ولكن لا يَشْعُرون ﴾ [البقرة : ١٢] .

يُكـذِّب اللهُ المنافقين الذين زعموا أنهم مُصْلِحُون ، ويردُّ عليهم ، ويَفضحهم. إنَّ أقوال المنافقين الفاسدة وأفعالهم الدنيئة هي الفساد بِعَيْنه ، وهُم الْمُفْسِدون لأنهم اختاروا الكفرَ على الإيمان، وغرقوا في الذنوب والمعاصي والآثام.ولكن بسبب جَهلهم وعِنادهم وأهوائهم وضلالهم ، فقدوا القُدرةَ على الشُّعور والإحساس والتمييز ، فلا يَشعرون أن ما يقومون بِه هو الفساد .

و﴿ ألا ﴾ كلمة تنبيه وإثبات وتحقيق لِمَا بعدها وتأكيد لِصِحَّة الكلام. يُنبَّه بِها الْمُخَاطَب من أجل أن يُرَكِّز في الكلام ، ويَحرص على فهم أبعاده ودَلالاته ، ويثق بِصِحَّته وصوابه .

وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ١٧٠): ((﴿ ألا إنهم هُمُ الْمُفْسِدُونَ ولكن لا يَشْعُرون ﴾ رَد لِمَا ادَّعَوْه أبلغ رَد ، للاستئناف به . وتصديره بِحَرْفَي التأكيد : ﴿ ألا ﴾ الْمُنَبِّهة على تحقيق ما بعدها ، فإن همزة الاستفهام التي للإنكار ، إذا دَخلت على النَّفْي ، أفادت تحقيقًا)) اهـ .

واللهُ يُنبِّه ويُقرِّر ويُثبِّت الْحُكم الإلهيَّ الخالد أن المنافقين هُم الْمُفسِدون . فقد أفسدوا أنفسَهم وقلوبَهم بالكفر والمعاصي ، وأفسدوا الناسَ بأن صَدُّوهم عن الإيمان باللهِ وآياته ونَبِيِّه ﷺ.

إنهم يُبْطِنون الكفرَ، ويُظْهِرون الإيمانَ ، ويعتقدون أن حِيلتهم ستنطلي على النبيِّ ﷺ والمؤمنين، وهُم لا يَشعرون ، ولا يُدْرِكون أنَّ اللهَ أطلعَ النبيَّ ﷺ على أسمائهم وأحوالهم .

وأيضًا ، إن المنافقين يَعتبرون الطعنَ في الإسلام ومُوالاة الكافرين عَيْن العقل والصواب،وقمة الصلاح. وهُم لا يَشعرون بأنه هذا مُنتهى الفساد . وهُم لا يَعلمون أنهم مُفْسِدون ، لأنهم يَعتبرون إخفاء الكفر وإظهار الإيمان ذكاءً ودهاءً وعبقريةً وصلاحًا ، ولا يَعلمون ما أعدَّ اللهُ لهم من العذاب الأليم يوم القيامة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٣) : ((وفي قَوله تعالى : ﴿ ولكن لا يَشْعُرون ﴾ قَولان : أحدهما لا يَشعرون أن الله يُطْلِع نَبِيَّه على فسادهم . والثاني لا يَشعرون أنَّ ما فعلوه فساد لا صلاح)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ١٦٠) : ((وهذا القَول مِن الله جَلَّ ثناؤه تكذيب للمنافقين في دَعواهم إذا أُمِرُوا بطاعة الله فِيما أمرهم الله بِه ، ونُهُوا عن معصية الله فيما نهاهم اللهُ عنه ، قالوا : إنما نحن مُصْلِحُون لا مُفْسِدُون ، ونحن على رُشد وهُدى فيما أنكرتموه عَلَينا دُونكم ، لا ضَالون . فَكَذَّبَهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في ذلك مِن قِيلهم ، فقال : ألا إنهم هُم الْمُفْسِدون الْمُخالِفون أمر الله عَزَّ وَجَلَّ الْمُتَعَدُّون حُدودَه ، الراكبون معصيته ، التاركون فُروضَه ، وهُم لا يَشعرون ولا يَدرون أنهم كذلك، لا الذين يأمرونهم بالقِسط مِن المؤمنين، ويَنْهَوْنهم عن معاصي الله في أرضه من المسلمين)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لهم آمِنوا كما آمَنَ الناسُ قالوا أنُؤمِنُ كما آمَنَ السُّفهاءُ ألا إنهم هُمُ السُّفهاءُ ولكن لا يَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ١٣] .

إذا قِيل لهؤلاء المنافقين : صَدِّقُوا بمحمد ﷺ والآياتِ التي جاء بها مِن عِند الله ، كما صَدَّقَ المؤمنون (أصحاب محمد ﷺ) ، حيث آمنوا بآياتِ الله ونُبُوَّة محمد والبعث واليوم الآخِر . وهذه نصيحة عظيمة لهم، وأمرٌ لهم بالمعروف. وعلى الإنسان دائمًا أن ينصح الآخرين ويأمرهم بالمعروف بأسلوب جميل وجَذَّاب وهادئ ، بدون عُنف ولا خُشونة .

قالوا : أنؤمنُ كما آمنَ الْجُهَّال أصحاب الآراء الضعيفة ، الذين لا عِلْمَ لهم ولا معرفة ولا خِبرة ولا عقول ولا فَهْم ، ولا يَعرفون المصالح والمفاسد . وهُم يَقصدون أصحابَ النبيِّ ﷺ .

وجوابُ المنافقين يدل على عِنادهم وغرورهم وحسدهم وجهلهم وحُمْقهم وغبائهم وعَجْزهم عن مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة ، وعدم قُدرتهم على المواجهة ، لذلك يلجؤون إلى الشتائم ، ويَطعنون في الظَّهْر . والجديرُ بالذِّكر أن قَول المنافقين إنما كان بينهم ، ولَم يكونوا يُظهِرونه أمام المؤمنين .

وهؤلاء المنافقون اعتبروا أنفسهم العباقرة والأذكياء وأصحاب المواهب والكفاءات ، لذلك نَظروا إلى الصحابة ــ رضي اللهُ عنهم ــ نظرةً دُونية ، واعتبروهم جُهَّالاً ، لا معرفة لهم ولا رأي .

وهذا يدل بوضوح على غُرور المنافقين وعِنادهم وجَهلهم واستكبارهم واحتقارهم للحق ، وكُرههم للإسلام ، وحِقدهم الدفين على النبيِّ ﷺ ، وحَسدهم له ولأصحابه الكرام . وهذا هو سبب عداوتهم . والواقعُ يُكذِّب المنافقين . فقد كان الصحابةُ ــ رضي اللهُ عنهم ــ أبناء أكبر القبائل وأرقى العائلات ، ولَدَيهم عقول ومواهب وأفكار ، ويتمتَّعون بالوقار والاتِّزان . وحَملوا الدَّعوةَ الإسلامية ، ونشروها في كل مكان بأسلوب جَذَّاب قائم على الدليل والْحُجَّة والبُرهان . وقد حاوَروا الناسَ بهدوء وعقلانية في موضع الحوار ، وقاتلوا الأعداءَ بالسَّيف في موضع السَّيف. وهذا يعني أنهم وَضعوا الأمورَ في نِصابها الصحيح . وبالتالي ، لَم يكن الصحابةُ سُفهاء ولا جُهَّالاً ولا أغبياء . ومعروفٌ أن صِفات الإنسان تدل على شخصيته . وهي صِفات مكشوفة وظاهرة .

صحيحٌ أن كثيرًا من الصحابة كانوا فُقراء ، ولكنهم كانوا أصحاب عقول كبيرة ، وأذهان مُتَّقدة، ولديهم عُلوم ومعارف، ويمتازون بالفصاحة والبلاغة، ويتمتَّعون بأخلاق حسنة، وينتمون إلى عائلات وعشائر وقبائل ذات مكانة اجتماعية. لذلك، لَم يكن فقرهم عَيْبًا ، ولا ينتقص مِن قَدْرهم، لأن المال عَرَضٌ زائل ، لا يُحدِّد قِيمةَ الإنسان . وقيمةُ الإنسان إنما تتحدَّد وَفْقَ معايير الدِّين والأخلاق والعِلْم والقُدرة على الفهم والاستيعاب ، وتقديم الكلام الطَّيب الراقي . إنَّ المنافقين اعتبروا أنفسهم أصحاب المنْزلة الرفيعة والمكانة المرموقة ، واعتبروا الصحابةَ مِن قاع المجتمع، فكيفَ يصيرون بِمَنْزلة واحدة ــ وَفْق تفكيرهم القاصر ــ ؟ . وهذا هو الوهم القاتل.

ولو كان المنافقون صادقين في دَعواهم القائمة على اعتبار الصحابة سُفهاء ، لَقَدَّموا الدليلَ والبُرهان ، وقارَعوا الْحُجَّة بالْحُجَّة لإظهار حقيقة دَعواهم أمام الناس ، والتحذير مِن النبيِّ ﷺ وأصحابه ، وإيقاف الدَّعوة الإسلامية باعتبارها محمولةً على أكتاف رِجال جُهَّال . وبما أن المنافقين عاجزون عن فِعل هذا . إذن ، كان كلامُهم كَذِبًا واتِّباعًا لأهوائهم بِغَير عِلْم . والكذبُ والطعن والشَّتائم ، كُل هذه الأشياء سهلة ، وأيُّ شخص يُمكن أن يقوم بها . أمَّا المنهجُ العِلميُّ القائم على الدليل والبُرهان ، فهذا لا يُحسِنه إلا العلماء . والهدمُ سهل ، لكنَّ البناء صعب . وصدقَ القائل :

والدَّعاوى إنْ لَم تُقيموا عليها ... بَيِّناتٍ أبناؤها أدعياءُ

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٥١) : ((وهذا القول مِن المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء ، فأطلعَ اللهُ نَبِيَّه والمؤمنين على ذلك)) اهـ .

وقد كَذَّبَ اللهُ المنافقين ، وحَكم عليهم بأنهم هُم السُّفهاء دُون المؤمنين الْمُصدِّقين بِوَحدانية اللهِ وآياته ، ونُبُـوَّةِ محمـد ﷺ ، والبعث ، والثـواب والعِقـاب . ولكـنَّ المنـافقين لا يَعْقِلـون ولا يَفْهَمون . لقد حَصَرَ اللهُ السَّفاهةَ في المنافقين،وأكَّد أنهم هُم السُّفهاء الجهال. ومِن جهلهم الشديد أنهم لا يَعلمون حالهم ولا يُدرِكون وضعهم،ولا يَعرفون أنهم يَغرقون في مستنقع الكفر والضلال والجهل، وهذا يدل على فساد قلوبهم ، وعَمى بصائرهم . وهُم بعيدون كُل البُعد عن الحق والهدى . وقال الطبري في تفسيره (١/ ١٦١) : ((وهذا خَبَر مِن الله تعالى عن المنافقين الذين تَقَدَّم نَعْتُه لهم، ووصفه إيَّاهم بِما وصفهم بِه مِن الشَّك والتكذيب، أنهم هُم الْجُهَّال في أديانهم، الضُّعفاء الآراء في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم مِن الشَّك والرَّيْب في أمر الله وأمر رسوله، وأمر نُبُوَّته ، وفيما جاء به مِن عند الله ، وأمر البعث ، لإساءتهم إلى أنفسهم بما أَتَوا مِن ذلك وهُم يحسبون أنهم إليها يُحسِنون ، وذلك هو عَيْن السَّفَه ، لأن السَّفيه إنما يُفسِد مِن حيث يرى أنه يُصلِح ، ويُضيِّع مِن حيث يرى أنه يَحفظ ، فكذلك المنافق ، يَعصي رَبَّه مِن حيث يرى أنه يُطيعه ، ويكفر به مِن حيث يرى أنه يُؤمِن بِه، ويُسيء إلى نَفْسه مِن حيث يحسب أنه يُحسِن إليها)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٧١): ((﴿ وإذا قِيلَ لهم آمِنوا ﴾ مِن تمام النُّصح والإرشاد، فإن كمال الإيمان بمجموع الأمرين :الإعراض عمَّا لا ينبغي وهو المقصود بِقَوله: ﴿ لا تُفْسِدُوا ﴾ ، والإتيان بِما ينبغي وهو المطلوب بقوله : ﴿ آمِنوا ﴾ ... . واللام في ﴿ الناسُ ﴾ للجنس، والمراد به الكاملون في الإنسانية ، العاملون بقضية العقل ، فإن اسم الجنس كما يُستعمَل لِمُسَمَّاه مُطْلَقًا ، يُستعمَل لِمَا يستجمع المعاني المخصوصة به ، والمقصودة منه ، ولذلك يُسلَب عَن غَيره ، فَيُقال : زَيد ليس بإنسان . وَمِن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : ١٨] ونَحْوه . وقد جَمعهما الشاعر في قوله : ((إذ الناس ناس والزمان زمان)) . أو للعهد، والمراد به الرسول ﷺ ، ومَن معه، أو مَن آمنَ مِن أهل جِلْدتهم كابن سلام وأصحابه، والمعنى: آمِنوا إيمانًا مَقرونًا بالإخلاص مُتَمَحِّضًا عن شوائب النفاق ، مُماثلاً لإيمانهم . واستدل به على قبول توبة الزنديق ، وأن الإقرار باللسان إيمان ، وإن لَم يُفِد التقييد . ﴿ قالوا أنُؤمِنُ كما آمَنَ السُّفهاءُ ﴾ الهمزة فيه للإنكار، واللام مُشار بها إلى الناس ، أو الجِنس بأسْره ، وهُم مُندرِجون فيه على زَعْمهم، وإنما سَفَّهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم ، أو لتحقير شأنهم ، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومِنهم موالي : كصهيب وبلال ، أو للتَّجلد وعدم المبالاة بِمَن آمن منهم ، إن فُسِّر الناس

بعبـد الله بـن سـلام وأشـياعه . والسَّـفَه : خِفَّـة وسـخافة رَأي يقتضـيهما نقصـان العقـل،والحِلْم يُقابله.﴿ألا إنهم هُمُ السُّفهاءُ ولكن لا يَعْلَمُون ﴾ رَد ومُبالغة في تجهيلهم ، فإن الجاهل بجهله ، الجازم على خِلاف ما هُوَ الواقع ، أعظم ضلالة وأتم جهالة مِن المتوقِّف المعترف بجهله ، فإنه ربمـا يُعـذَر ، وتنفعـه الآيـات والنُّـذُر . وإنمـا فُصِـلَت الآيـة بـ ﴿ لا يَعْلَمُـون ﴾ والتـي قبلهـا بـ ﴿ لا يَشْعُرون ﴾ لأنه أكثر طِباقًا لِذِكْر السَّفَه ، ولأن الوقوف على أمر الدِّين والتمييز بين الحق والباطل مِمَّا يفتقر إلى نظر وفكر ، وإمَّا النِّفاق وما فيه مِن الفِتَن والفساد ، فإنما يُدرَك بأدنى تفطُّن وتأمُّل فيما يُشاهَد مِن أقوالهم وأفعالهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أندادًا يُحِبُّونهم كَحُبِّ اللهِ والذينَ آمَنوا أشدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

يُبيِّن اللهُ حالَ المشركين ، ويَفضحهم على رؤوس الأشهاد . فهؤلاء المشركون جعلوا للهِ تعالى نُظراء وأمثالاً يَعبدونهم كعبادة اللهِ، ويُعَظِّمونهم ويُحِبُّونهم كتعظيم المؤمنين للهِ وحُبِّهم له . والأندادُ هي آلهتهم العاجزة (الأصنام والأوثان) التي كانوا يَعبدونها مِن دُون الله، وهي لا تضرُّ ولا تنفع .

وكـان المشـركون يُحِبُّـون الأصـنامَ كمـا يُحِبُّـونَ اللهَ، أي: يُسَـوُّون بينهـا وبـين الله فـي المحبـة والعبـادة، إذْ إن المشـركين كـانوا مُعترفين بوجـود اللهِ ، ويَعبدونـه ، ولكـن لا يُوحِّدونـه ، ولا يُفْرِدونـه بالعبادة . كانوا يَعبدون اللهَ باعتباره الإله الأعظم وكبير الآلهة.وقد اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً كي تُقرِّبهم إلى الله ـ على حَد زعمهم ـ .

ولَم يكتفِ المشركون بعبادة الأنداد . بَل أيضًا ، أحَبُّوها حُبًّا شديدًا ، وعظَّموها أشدَّ التعظيم، وجعلوهـا فـي قِمَّـة القداسـة . وصـارَ حُبُّهـا مغروسًـا فـي قلـوبهم ، ومُسَيْطِرًا علـى حيـاتهم وسُـلوكهم ومُعاملاتهم اليومية. وهذا يدل على التقليد الأعمى، واتِّباعهم لتاريخ آبائهم الوثنيِّ، وتَمَسُّكهم بِه.

وعن عبد الله بن مسعود رضي اللهُ عنه قال: سألتُ النبيَّ ﷺ : أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عِند الله ؟. قال : ((أن تجعل لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك)) [سبق تخريجه] .

والمؤمنون أشدُّ حُبًّا للهِ مِن حُب المشركين لآلهتهم . فالمؤمنون يُوحِّدون اللهَ ، ويَعبدونه وَحْدَه بـلا شـريك ولا نِـد ولا صـاحبة ولا ولـد، ويتوكلـون عَليـه فـي كـل صـغيرةٍ وكبيـرة ، ويَلجـؤون إلَيـه فـي السَّراء والضَّراء ، ويَشكرونه على نِعَمه، ويَصبرون على بلائه . وهذا هو حقيقة حُبِّ اللهِ وتعظيمه وتقديسه،قَوْلاً وفِعلاً . وحُب العبد للهِ يتجلى في تَوحيده وطاعته وعدم معصيته ، وحُب الله للعبد يتجلى في رعايته والاعتناء بِه،وإكرامه، والإنعام عليه، وتوفيقه إلى الطاعات،وعِصمته مِن الذنوب.

والمؤمنون ثابتون على عبادة اللهِ وحُبِّه في كل الأحوال،ولا يَبحثون عن إلهٍ غَيْرِه.أمَّا المشركون فَيُغيِّرون أصنامَهم ويُبدِّلون آلهتهم حَسَبَ أمزجتهم وأهوائهم ومصالحهم الشخصية ومنافعهم المادية. وكان الواحدُ فيهم يَعبد صَنَمًا لمدة مُعيَّنة ، فإذا وجد صنمًا آخَر ، اتَّخذَه إلَهًا ، وتَرَكَ عبادةَ صنمه الأول . وأيضًا ، كان يصنعون أصنامًا من التمر ، فإذا جاعوا أكلوها .

كما أن المشركين يَعبدون أصنامَهم وأوثانَهم في الرخاء. أمَّا في الشِّدة فيلجؤون إلى اللهِ وَحْدَه، ويتوجَّهون إليه . وهذا دليلٌ على أن المشركين مُقتنعون بأن آلهتهم لا تضرُّ ولا تنفع ، والله وَحْدَه هو النافع والضَّار . في حِينَ أن المؤمنين يَعبدون اللهَ وَحْدَه في كُل الأحوال ، في الغِنى والفقر ، والرخاء والشِّدة ، والسَّراء والضَّراء .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الله تعالى لَم يقل: يُحبونهم كَحُبِّه . وإنما قالَ : ﴿ يُحِبُّونهم كَحُبِّ اللهِ ﴾ . وإظهار لفظ الجلالة لتعظيم اللهِ وتقديسه ، وإظهار سُوء أفعال المشركين وشناعة ما اقترفوه .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٩٩) : ((قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونهم كَحُبِّ اللهِ ﴾ . أي يُحِبُّون أصنامَهم على الباطل ، كَحُب المؤمنين للهِ على الحق ، قاله الْمُبَرِّد . وقال معناه الزَّجاج ، أي أنهم مع عجز الأصنام، يُحبونهم كَحُب المؤمنين لله مَعَ قُدرته . وقال ابن عباس والسُّدي: المراد بالأنداد الرؤساء الْمُتَّبعون يُطيعونهم في معاصي الله . وجاء الضمير في ﴿ يُحِبُّونهم ﴾ على هذا على الأصل. وعلى الأول جاء ضمير مَن يَعقِل على غَير الأصل.وقال ابن كَيسان والزَّجاج أيضًا:معنى﴿ يُحِبُّونهم كَحُبِّ اللهِ ﴾ . أي يُسَوُّون بين الأصنام وبين الله تعالى في المحبة . قال أبو إسحاق : وهذا القَول الصحيح ، والدليل على صِحَّته : ﴿ والذينَ آمَنوا أشدُّ حُبًّا للهِ ﴾ ... . وقيل: إنما قال : ﴿ والذينَ آمَنوا أشدُّ حُبًّا للهِ ﴾ ، لأنَّ الله تعالى أَحَبَّهم أولاً ثُمَّ أَحَبُّوه ، ومَن شَهِدَ له محبوبه بالمحبة كانت محبته أَتَمَّ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤])) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمِنَ الناسِ مَن يَقولُ رَبَّنَا آتِنا في الدُّنيا وما لَهُ في الآخرةِ مِنْ خَلاق ﴾ [البقرة : ٢٠٠].

كانَ المشركون (أهلُ الجاهلية) يقولون _ بعد قضاء مناسك الحج _ : اللهمَّ ارزقنا إبِلاً ! ، اللهمَّ ارزقنا غَنَمًا ! . ولا يَذكرون مِن أمر الآخرة شيئًا . إن عقولهم كانت محصورةً في الأمور الدُّنيوية فقط ، كالأموال والأولاد والممتلكات ، ولَم يكونوا مَعنيين بالموت وما بعده ، لأنهم كافرون بالبعث ، ولا يُؤمنون بحياة بعد الموت . إنهم يَسألون اللهَ أمورًا دُنيوية زائلة ، وليس لهم نصيب في الآخرة . إنَّ نِيَّتهم الدنيا، عاشوا فِيها ، وعملوا مِن أجلها ، وتعبوا في تحصيلها ، وكانت

الدنيا أكبر هَمِّهم ، ومَبلغ عِلْمهم ، وما لهم في الآخِرة مِن حَظ ولا نصيب . والآيةُ تحمل مَعنى الذَّم والتحقير للذين يَسألون اللهَ في الأمور الدُّنيوية فقط ، وهُم مُعْرِضون عن الآخرة، وغَير مُؤمنين بوجودها. والعبادةُ بالنسبة لهؤلاء عبارة عن مشروع تجاري ماديٍّ بَحْت. وفي تفسير القرطبي (٢/ ٤٢٧):((قال أبو وائل والسُّدي وابن زيد: كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظَّفَر بالعدو، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ، ولا يؤمنون بها، فَنُهُوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا. وجاء النَّهْيُ في صيغة الخبر عنهم ، ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن أيضًا إذا قَصَرَ دعواته في الدنيا ، وعلى هذا ﴿ وما لَهُ في الآخرةِ مِنْ خَلاق ﴾ أي : كَخَلاق الذي يَسأل الآخِرةَ . والخلاق النصيب)) اهـ . والآيةُ تنهى عن حَصْر الدُّعاء بالأمور الدُّنيوية ، وطلبِ متاع الدنيا الفاني دُون أيِّ اعتبار للآخرة الباقية . والمشركون كانوا محصورين في الحياة الدنيا ، وهَمُّهم مَقصور عليها ، وتفكيرهم مُركَّز عليها ، ولا يُريدون غَيْرها ، ولا يَسْعَوْن لِمَا بعدها (الآخرة). والخبرُ في الآية بمعنى النَّهْي والتحذير. فاللهُ يَنهى الناسَ ويُحذِّرهم مِن جَعل الدنيا الرغبةَ العُظمى والغاية العُليا ، والاقتصار على مَتاع الدنيا الفاني،وعدم النظر إلى الآخرة الباقية . والمؤمنُ إنما يطلب الأمرين مَعًا : نصيبه في الدنيا (الْمَعَاش) ونصيبه في الآخرة (الْمَعَاد). وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٣١): ((كانوا لا يسألون اللهَ تعالى في الحج إلا الدنيا . يقولون: اللهُمَّ أعطنا غنمًا ، وإبلاً ، وبقرًا ، وعبيدًا . وكان الرَّجلُ يقوم فيقول : يا رَبِّ ، لأنَّ أبي كان عظيم القُبَّة ، كبير الْجَفنة ــ كِناية عن كثرة الإطعام ــ، كثير المال، فأعطني مِثل ما أعطيته)). وفي الدُّر المنثور (١/ ٥٥٨) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان قَوم مِن الأعراب يَجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غَيث ، وعام خِصْب ، وعام وِلاد حَسَن ، ولا يَذْكرون مِن أمر الآخرة شيئًا، فأنزل فيهم : ﴿ فَمِن الناس مَن يقول رَبَّنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة مِن خَلاق ﴾)) اهـ .

وهذا يُشير ــ بكل وضوح ــ إلى انحصار عقول أهل الجاهلية في الأمور المادية ، وعدم الاهتمام بالأمور الدينية إطلاقًا. كما يدل على أن الدنيا ــ بالنسبة للمشركين ــ هي البداية والنهاية، ولا يوجد شيء بعدها. فالآخرةُ غير موجودة في قلوب المشركين وعقولهم. وبالتالي، فمن الطبيعي أن يَكون الحجُّ فرصةً ماديةً دُنيويةً للحصول على مكاسب مالية ، ومنافع اقتصادية ، ومتاعٍ زائل .

كان المشركون يطلبون الجاه والغِنى والأولاد ، ولا يُريدون إلا الحظوظ الدُّنيوية لِكُفرهم بالبعث واليوم الآخِر.لذلك،ليس لهم نصيب في الآخرة.ولَن يَنفعهم دعاؤهم المخصوص بأمر الدنيا.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَام ﴾ [البقرة : ٢٠٤] .

يُبيِّن اللهُ صِفات المنافقين وأحوالهم ، ويَفضحهم ، ويَكشف باطلَهم ، كَي يَعرف المؤمنون خُبثهم ومكرهم ، ويأخذوا الحِيطة والحذَر .

مِن الناس مَن يُعجبك يا محمد كلامُه الظاهر وعلانيته الجميلة وحالُه الطَّيب وفصاحته المؤثِّرة وبلاغته الواضحة ، وتستحسن قَوْلَه ويَرُوق لَك ، وتُقدِّره ، ويَعْظُم في قلبك . ولا يُعْجِبك في الآخرة لأن عقيدته فاسدة. والناسُ في الحياة الدنيا تستحسن كلامَه ، وتُعْجَب بفصاحته ومنطقه، ولكن لا ثواب له في الآخرة . وليس له في الآخرة إلا عذاب النار ، بسبب كُفره ونفاقه وخِداعه .

ويُظْهِر الإسلامَ، ويَحلف أنَّ ما في قلبه مُوافق لكلامه، ويُشْهِد اللهَ على ذلك، أي إنه يقول: اللهُ يَعلم أني أقول حَقًّا.أو:واللهِ إنني بِكَ مُؤمن يا رسول الله وأُحِبُّكَ. وهو شديد العداوة والخصومة للمسلمين ، وأشدُّ المتخاصمين خُصومةً ، لأن قلبه غارق في مُستنقع الكفر والنفاق والضلال .

والأَلَدُّ هو الشديد الخصومة . أي إنه ذُو جِدال شديد وخُصومة صعبة. لذلك، لا فائدة مِن الجِدال والحوار إلا معَ الباحثين عن الحق والصواب .

أمَّا الْمُعانِدُون الرَّافضون للحق سواءٌ ظَهَرَ أَم لَم يَظهر ، فالحوارُ معهم مَضيعة للوقت ، ويجب الابتعاد عن مُناقشتهم ومُجادلتهم ، لأنهم مُلتزمون بموقف مُسبق رافض للحق ، ورافض للصواب. ولا فائدة فِيهم ، ولا فائدة من الجِدال والحوار معهم .

وعن عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ عن النبيِّ ﷺ قال:((إنَّ أبغضَ الرجالِ إلى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِم))(65).

يعني : المنحرِف عن الحق ، الشديد الخصومة ، الماهر بها ، والحريص عليها . والخصومةُ المذمومة هي القائمة على الكذب والخِداع ، ومُعاداة الحق ورفضه ، وتثبيت الباطل ودَعْمه .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١/ ٢٨١) : عن عِمران بن حُصَين قال : قال رسول الله ﷺ : ((أَخْوَفُ ما أخافُ عليكم ، جِدَالُ المنافق عَلِيم اللسان)) .

هذه المنافق ليس جاهلاً ولا بريئًا . إنه عَالِمٌ ، ويَملك العلومَ والمعارف ، ولَدَيه القُدرة على تقديم الأدلة والبراهين ، والمناقَشة بأسلوب قويٍّ وجميل وجَذَّاب . لكنَّ قلبه فاسد ، وأخلاقه دنيئة، يأكل الدُّنيا بالدِّين . أعماله قائمة على الرياء والسُّمعة ، وإبهار الخصوم ، وإفحام العلماء ،

---

(٦٥) متفق عليه . البخاري (٢/ ٨٦٧) برقم (٢٣٢٥)،ومسلم (٤/ ٢٠٥٤) برقم (٢٦٦٨) .

وتحقيق الشُّهرة والمكاسب المادية ، والمنافع الشخصية . وأعماله بعيدة عن الإخلاص للهِ ، والخشية مِنه . والمنافقُ الذي يَملك هذه الصفات يُشكِّل خطرًا حقيقيًّا على المجتمع ، ولا يُوجد تهديد أكبر مِنه ، ولا يُوجد أخْوَف مِن كلامه . فهو قادر على قلب الحقائق ، وتزييف الوقائع ، والتلاعب بعقول الناس ، وتغليف العقائد الفاسدة بالمنهج العِلميِّ البَرَّاق ، ونشرها بين الأفراد والجماعات . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (١/ ٢٢١) : ((أي : عالِم للعِلْم ، منطلق اللسان بِه ، لكنه جاهل القلب ، فاسد العقيدة ، يَغُرُّ الناس بشقشقة لسانه ، فيقع بسبب اتِّباعه خَلْق كثير في الزَّلَل. وقد كان بعض العارفين لا يَظهر لتلميذه إلا على أشرف أحواله ، خَوْفًا أن يقتديَ بِه فيها، أو بِسُوء ظَنِّه بِه فيها فلا ينتفع. قال الحرَّاني : والخوف حَذَر النَّفْس من أمور ظاهرة تضرُّها . قال صاحب الهداية : فسادٌ كبيرٌ عالِم مُتَهَتِّك ... وأكبر منه جاهل يَتنسَّك ... هُما فِتنةٌ للعالَمِين عظيمة ... لِمَن بهما في دِينه يَتَمَسَّك)) اهـ .

وقال الْمُناوي في نَفْس المرجع (٢/ ٤١٩): ((أي كثير عِلْم اللسان ، جاهل القلب والعمل. اتَّخذَ العِلم حِرفةً يتأكل بها ، ذَا هَيْبة وأُبَّهة ، يَتعزَّز ويتعاظم بها ، يدعو الناس إلى الله ، ويَفِر هو مِنه ، ويستقبح عَيب غَيره ، ويفعل ما هو أقبح مِنه ، ويُظهِر للناس التَّنَسُّك والتَّعَبُّد ، ويُسَارِر رَبَّه بالعظائم إذا خلا بِه،ذِئب مِن الذئاب لكن عليه ثياب،فهذا هو الذي حَذَّرَ مِنه الشارعﷺ هُنا ، حَذَرًا مِن أن يخطفك بحلاوة لسانه،ويحرقك بنار عصيانه،ويقتلك بنتن باطنه وجَنانه (قلبه) . قال الزمخشري: والمنافقون أخبث الكَفَرة وأبغضهم إلى الله تعالى،وأمقتهم عنده،لأنهم خلطوا بالكفر تمويهًا وتدليسًا، وبالشُّكر استهزاء وخداعًا، ولذلك أنزلَ فِيهم: ﴿ إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار ﴾ [النساء: ١٤٥] انتهى . وكان يحيى بن معاذ يقول لعلماء الدُّنيا: يا أصحاب القصور، قصوركم قَيْصرية، وبيوتكم كِسْرَوية، وأبوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية ، فأين المحمدية والعالمية ؟ . وأكثر علماء الزمان ضَرْبان : ضَرْب مُنْكَب على حُطام الدنيا ، لا يَمَلُّ مِن جمعه ، وتراه شَهْرَه ودهره يتقلب في ذلك ، وقد أخذت دنياه بمجامع قلبه ، ولَزِمه خَوف الفقر ، وحُب الإكثار، واتَّخذَ المال عُدَّة للنوائب، لا يُتنكر عليه تغلُّب الدنيا. وضَرْب هُم أهل تصنُّع ودَهاء وخداع وتزيُّن للمخلوقين ، وتَمَلُّق للحكام شُحًّا على رئاستهم ، يلتقطون الرُّخَص، ويُخادعون الله بالحِيَل. دَيْدَنهم الْمُداهَنة، وساكن قلوبهم الْمُنى، طمأنينتهم إلى الدنيا ، وسُكونهم إلى أسبابها ، اشتغلوا بالأقوال عَن الأفعال ، وسَيُكافئهم الجبَّار الْمُتعال)) اهـ .

والمنافقون في كُل زمان ومكان. ألسنتهم تقطر عَسَلاً ، وكلامهم جَميل ، وشعاراتهم بَرَّاقة ، لكنَّ قلوبهم نجسة ، وحياتهم قذرة . عقائدُهم فاسدة ، وأخلاقهم هابطة .

لذلك ينبغي الاحتياط والانتباه واليقظة في أمور الدِّين والدنيا،والتعامل مع الناس وَفْق الظاهر، إلا إذا ظَهرت قرينة تدل على بُطلان هذا الظاهر . أي : يُعمَل وَفْق الظاهر حتى يثبت عَكْسُه . والمؤمنُ ليس مُغَفَّلاً ولا سَاذَجًا . ولا يُحْسِن الظنَّ إلا بِمَن كانَ أهلاً لذلك .

وقد أجمعَ العلماء على أنَّ أحكام الدُّنيا تتمُّ وَفْقَ الظاهر ، والسَّرائرُ إلى اللهِ تعالى .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٩٣٤) أنَّ عمر بن الخطاب_ رضي اللهُ عنه_ قال: إنَّ أُناسًا كانوا يُؤخَذون بالوَحْي في عهد رسول الله ﷺ ، وإنَّ الوَحْيَ قد انقطعَ ، وإنما نأخذكم الآنَ بما ظَهر لنا مِن أعمالكم ، فمَن أظهرَ لنا خَيْرًا أَمِنَّاه وَقَرَّبْناه ، وليسَ إلَينا مِن سَريرته شيء ، اللهُ يُحاسِبه في سَريرته ، وَمَن أظهرَ لنا سُوءًا لَم نَأمَنْهُ ولَم نُصَدِّقْهُ ، وإن قالَ إنَّ سَريرته حَسنة .

معنى " يُؤخَذون بالوَحْي " أي إنَّ الوَحْيَ كان يَنْزل على النبيِّ ﷺ فيُخبِره بحقيقتهم ، ويَكشف صِدْقَهم أو كَذِبَهم. وقد انقطعَ الوَحْيُ بعد وفاة النبيِّ ﷺ. فصارت الأحكامُ تُجرَى حَسَبَ الظاهر، واللهُ يتولى السَّرائر ، ويَعْلَم ما في القلوب . ومَن أظهرَ خَيْرًا صارَ أمينًا عِندَنا ومُقَرَّبًا ، ولا نَبحث عن سريرته ، ولا نَعرِف ما في قلبه ، واللهُ يُحاسِبه على سريرته (بِطانته) . ومَن أظهرَ سُوءًا صارَ عِندَنا خائنًا وكاذبًا، حتى لَوْ قالَ إنَّ نِيَّتَه حسنة وقَصْدَه شريف. فأحكامُ الدُّنيا تُجرَى على الظاهر، واللهُ يَعْلَم حقيقةَ الأشياء .

وقد وضَّح النبيُّ ﷺ آيةَ المنافق ، حيث قال : ((إذا حَدَّثَ كَذَب ، وإذا وَعَدَ أخلفَ ، وإذا عَاهَدَ غَدَر ، وإذا خَاصَمَ فَجَر))[66].

إذا حَدَّثَ المنافق بحديث أو تكلم بكلام ، فإنه يَعمد إلى الكذب وإخفاء الحقيقة . وإذا وَعَدَ لَم يَلتزم بوعده ، ولَم يَتقيَّد بِه ، وإذا عاهدَ تركَ الوفاء بالعهد ، وإذا نازعَ وجادلَ في أمرٍ ، مالَ عن الحق ، واعتمد على التَّحايل والتَّدليس ، وقال الباطل والكذب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٨و٢١٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنيا ﴾ . اختلفوا فِيمَن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في الأخنس بن شَرِيق . كان لَيِّن الكلام ، كافر القلب ، يُظْهِر للنبيِّ الحسَن ، ويَحلف له

(٦٦) متفق عليه . البخاري (٢/ ٨٦٨) برقم (٢٣٢٧) ، ومسلم (١/ ٧٨) برقم (٥٨) .

أنه يُحِبُّه ويَتَّبعه على دِينه ، وهو يُضْمِر غَير ذلك . هذا قول ابن عباس والسُّدي ومقاتل... . قَوله تعالى: ﴿ ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قَلْبِهِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنه يقول : إن الله يشهد أن ما ينطق به لساني هو الذي في قلبي ، والثاني أنه يقول : اللهُمَّ اشهد عليَّ بهذا القَول)) اهـ .

وروى الطبري في تفسيره (٢/ ٣٢٤) عن القُرَظِيِّ عن نَوْف البِكَالي ــ وكان يقرأ الكتب ــ قال: ((إني لأجِدُ صِفةَ ناسٍ مِن هذه الأُمَّة في كتاب الله الْمُنْـزَل: قَوْمٌ يَجتالون الدنيا بالدِّين ــ يعني يأخذونها ــ، ألسنتهم أحلى مِن العسل، وقلوبهم أمرُّ مِن الصبر،يلبسون للناس لِباسَ مُسُوك الضأن ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، فعليَّ يَجترئون ؟ ، وبي يَغتَرُّون ؟. حَلَفْتُ بِنَفْسي ، لأبعثنَّ عليهم فِتنةً تترك الحليمَ فِيهم حَيران.قال القُرَظي:تَدَبَّرْتُها في القرآن فإذا هُم المنافقون، فوجدتُها: ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَام ﴾)) اهـ .

هؤلاء القَوم يَأكلون الدُّنيا بالدِّين ، أي إنهم يُوظِّفون النصوصَ الدينية لتحقيق مصالح مادية ، والحصول على منافع شخصية ، وكسب الأموال ، ونَيل الجاه والشرف والحظوة . فالدِّين عندهم مشروع مادي وصفقة تجارية . أعمالُهم قائمة على الكذب والرياء ، ولا تقوم على الإخلاص للهِ .

كلامُهم ناعمٌ ورقيقٌ وجَذَّاب مَمزوج بالنِّفاق والْمُداهَنة ، وقلوبهم فاسدة وقائمة على المكر والنفاق والخديعة. يَلبسون جُلود (مُسُوك) الحِملان الوديعة البريئة لخداع الناس والتحايل عليهم، وقلوبهم قلوب الذئاب القاسية المتوحِّشة التي لا تَعرف الرحمةَ ولا البراءة . إنهم لا يَخافون مِن الله ولا يَخْشَوْنه ، وقد اغترُّوا بِحِلْمه عليهم ، فازدادوا ذُنوبًا وآثامًا ، وتوسَّعوا في المعاصي .

وقد حَلَفَ اللهُ تعالى بِعَظَمته وجلاله لَيَبعث عليهم بلاءً وامتحانًا وفِتنةً تَجعل العاقلَ فيهم حائرًا غَير قادر على التحليل والفهم ، ولا يَستطيع حماية نَفْسه مِن شَر الفِتنة. وهذا يدل على صعوبة الامتحان، وشِدَّةِ الاختبار . والهدفُ مِن الفِتنة هو التمحيص ، والغَرْبلة ، وتمييز الحق عن الباطل.

وفي فَيض القدير للمُناوي (٢/ ٢٤٢) : ((وقال الطيبي :... وهذا تهديد أكيد ووعيد شديد على النفاق العملي ، وكُل الأمراض القلبية مِن غِل وحِقد وحسد وغَيرها. وفيه تحذير مِن الاغترار به تعالى ، وَمِن سُوء عاقبة الجرأة عليه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذا تَـوَلَّى سعى في الأرضِ لِيُفْسِدَ فِيها ويُهْلِكَ الحرثَ والنَّسْلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفسادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥].

هذا المنافق ليس له هدف في الحياة إلا الفساد والإفساد ، وارتكاب المحرَّمات ، وإتلاف الزُّروعِ والثمار، وإهلاك الذُّرِّية مِن الإنسان والحيوان . واللهُ لا يحب الخرابَ ولا يَأمر بِه .

إذا خَرَجَ هذا المنافق مِن عِندك يا محمد غاضبًا مُعْرِضًا ، وانصرفَ عنكَ ، عَمِلَ في الأرض بِما حَرَّمَ اللهُ تعالى ، وقَطَعَ الطريقَ، وسَفك الدِّماء، وأتلفَ الزُّروعَ، وأهلكَ المواشي ، واللهُ لا يَرضى بالفساد والإفساد في الأرض ، فينبغي الابتعاد عن هذه الشُّرور ، والحذر مِن غضب الله تعالى .

وهكذا تتَّضح خطورة النفاق في تدمير المجتمع والقضاء على مُنجزاته،وإتلاف مُقدَّراته وثرواته، فالنفاقُ يُؤدِّي إلى تفتيت وَحدة المجتمع ، وبث الكراهية والعنصرية والحقد والحسد بين أبنائه ، وتفريق الكلمة ، وتشتيت الجهود ، وانتشار الفِتَن والصراعات والحروب ، واللجوء إلى القتل والقتال لحل المشكلات بعيدًا عن لغة الحوار والنقاش الهادئ ، وفي هذا هلاك الناس ، وإفساد حياتهم ، وتدمير عناصر الطبيعة ، والقضاء على الكائنات الحية كالحيوانات والأشجار .

والآيةُ تُوضِّح أن حياة الناس قائمة على إعمار الأرض وزراعتها بالأشجار ، والاعتناء بالحيوانات وتكاثرها ، من أجل الاستفادة مِن لحومها وألبانها وجُلودها ، والرُّكوب عليها ، واستخدامها في تحقيق المصالح الإنسانية المختلفة.والدنيا مَبنيةٌ وفق منظومة(الأسباب / الْمُسبِّبات). والسماءُ لا تُمطِر ذهبًا ولا فضة . والرِّزقُ لا يَأتي إلى شخص نائم في سريره .

وأحكامُ الشريعة تأمر بالاعتماد على اللهِ ، والأخذ بالأسباب ، والسَّعْي في طلب الرِّزق ، وتحقيق المنافع والمصالح.وهذه هي حقيقة التوكل على الله.ومَن قال بترك الأسباب اعتمادًا على اللهِ أو تَرَكَ الأخذَ بالأسباب مُتَذَرِّعًا بالقضاء والقَدَر. فهو كاذبٌ في دَعواه، وجاهلٌ في دِينه،ولا يَعرف شيئًا عن سُنن الله في خَلْقه وقوانينِ الدنيا . والآيةُ تردُّ عليه وتُكذِّبه ، وتفضح جَهْلَه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٢١و٢٢٢) : ((قَوله تعالى: ﴿ وإذا تَوَلَّى ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها أنه بمعنى غَضِبَ ، رُوِيَ عن ابن عباس وابن جُرَيج.والثاني أنه الانصراف عن القَول الذي قاله، قاله الحسن. والثالث أنه مِن الوِلاية ، فتقديره إذا صار واليًا ، قاله مجاهد والضَّحاك . والرابع أنه الانصراف بالبدن ، قاله مقاتل وابن قُتَيبة . وفي معنى : ﴿ سعى ﴾ قَولان : أحدهما أنه بمعنى عمل ، قاله ابن عباس ومجاهد . والثاني أنه مِن السَّعْي بالقَدَم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وفي الفساد قَولان : أحدهما أنه الكفر ، والثاني الظلم . والحرث الزَّرْع ، والنَّسْل نَسْل كُل شَيء مِن الحيوان، هذا قَول ابن عباس وعِكرمة في آخرين . وحَكى الزَّجاج عن قَوم أن الحرث النِّساء ، والنَّسْل الأولاد ، قال : وليس هذا بِمُنكَر ، لأن المرأة تُسمَّى حَرْثًا . وفي معنى إهلاكه للحرث والنَّسل ثلاثة أقوال : أحدها أنه إهلاك ذلك بالقتل والإحراق والإفساد ، قاله الأكثرون . والثاني أنه إذا ظَلَم كان الظلم سَبَبًا لقطع القَطْر (المطر) ، فيهلك الحرث والنسل،

قاله مجاهد، وهو يخرج على قول مَن قال إنه مِن التَّوَلِّي . والثالث أنه إهلاك ذلك بالضلال الذي يؤول إلى الهلاك، حكاه بعض المفسِّرين . قَولـه تعالى : ﴿ واللهُ لا يُحِبُّ الفسادَ ﴾ ، قال ابن عباس: لا يرضى بالمعاصي . وقد احتجَّت المعتزلة بهذه الآية ، فأجاب أصحابنا بأجوبة مِنها : أنه لا يُحِبُّه دينًا ولا يُريده شرعًا ، فأمَّا أنه لَم يُرِدْه وُجودًا فلا ، والثاني أنه لا يُحِبُّه للمؤمنين دُون الكافرين. والثالث أن الإرادة معنى غير المحبة ، فإن الانسان قد يتناول الْمُر ، ويريد بَط (شَق) الجرح، ولا يحب شيئًا مِن ذلك ، وإذا بان في المعقول الفرق بين الإرادة والمحبة، بَطَلَ ادِّعاؤهم التساوي بينهما، وهذا جواب مُعتمَد)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لهُ اتَّقِ اللهَ أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَاد ﴾ [البقرة : ٢٠٦].هذه الآيةُ تدل على أهمية النصيحة والإرشاد والتوجيه والتذكير والموعظة الحسنة . إذا نُصِحَ هذا المنافق الذي أفسدَ في الأرض ، وارتكبَ المحرَّمات ، وأهلكَ حرثَ المسلمين ونَسْلَهم، وقِيل له: اتَّقِ اللهَ واترُكْ المحرَّمات وارجع إلى الحق . استكبرَ ، واغترَّ بنفْسه ، وأخَذَتْهُ الْحَمِيَّة والغضب بالإثم،وتمادى في طُغيانه وضلاله، ورفضَ الحقَّ ، وأعرضَ عن النصيحة ، واحتقرَ صاحبها . وجهنم هي كافيته جَزاءً وعذابًا ، وَلَبِئْسَ الفِرَاش والمقر هِيَ .

والعِزَّةُ في هذا السِّياق هي الْمَنَعَة وشِدَّة النَّفْس والزَّهْو بِها ، أي إنه اعتزَّ بنفْسه بالباطل ، ورأى نَفْسَه في مُنتهى العَظَمَة ، واحتقرَ الآخرين واستصغرَ شأنَهم ، فأسْقَطَتْهُ تِلك العِزَّة المذمومة في الإثم والضلال . والنصيحةُ سهلة ، لكنَّ الصعب هو تقبُّلها بصدر رَحْب ، وهذا هو المِحَك .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٢٣) : ((وفي المعنى الكلام قَولان: أحدها فَحَسْبُه جهنم جَزاءً عَن إثمه ، والثاني : فَحَسْبُه جهنم ذُلاًّ مِن عِزَّة . والمِهَاد الفِرَاش . ومَهَّدْتُ لِفُلان ، إذا وَطَّأْتُ له . ومِنه مَهْد الصَّبي)) اهـ . وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((إنَّ مِن أكبر الذَّنْب ، أن يَقول الرَّجُلُ لأخيه : اتَّقِ اللهَ ، فيقول : عَلَيْكَ نَفْسَك ، أنتَ تأمُرُني ؟)) (67).

لا أحدَ أكبر مِن الحق والموعظة والتذكير. والمجتمع المسلم هو كيان متماسك ومُترابِط ، يَنصح أفرادُه بعضُهم بعضًا بالأسلوب الهادئ الجميل. وينبغي قبول النصيحة بصدر رَحْب ، وعدم رفضها والتكبُّر على قائلها . فالحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع . ولا أحد أعلى وأكبر مِن التذكير بتقوى اللهِ تعالى . وفي تفسير القرطبي (٣/ ٢٢) : ((وَذُكِر أن يهوديًّا كانت له حاجة عند هارون الرشيد ،

---

(٦٧)رواه الطبراني في الكبير(٩/١١٣).قال الهيثمي في المجمع(٧/ ٥٣٤):((رجاله رجال الصحيح)).

فاختلف إلى بابه سنة ، فلم يَقْضِ حاجته ، فوقف يومًا على الباب ، فلمَّا خرج هارون سعى حتى وقف بين يديه وقال : اتَّقِ اللهَ يا أمير المؤمنين ؟ ، فَنَزل هارون عن دَابَّته ، وخَرَّ ساجدًا ، فلمَّا رَفع رأسَه أَمَرَ بحاجته فَقُضِيَت ، فلمَّا رَجع قِيل له : يا أمير المؤمنين ، نزلتَ عن دابَّتك لِقَوْلِ يهوديٍّ . قال : لا ، ولكن تذكرتُ قولَ الله تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لهُ اتَّقِ اللهَ أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَاد ﴾)) اهـ . على المرء أن يعتنق الحقَّ ، ويتمسَّك به ، وأن تكون الحِكمة ضَالَّته ، حَيْثما وجدها أخذها. وكما قِيل: خُذ الحِكمةَ ، لا يَضُرُّكَ مِن أيِّ وعاء خَرجتْ . وفي هذه القصة ، خَرَّ هارون الرشيد ساجدًا تعظيمًا للكلام الإلهيِّ والتَّوجيه الرَّبَّانِيِّ ، وليس تعظيمًا لكلام اليهوديِّ أو خضوعًا له . وفي الدُّر المنثور (١/ ٥٧٥) : ((أخرج ابن المنذر والبَيهقي في الشُّعب عن سُفيان قال : قال رجل لمالك بن مِغوَل : اتَّقِ اللهَ فقط ، فوضعَ خَدَّه على الأرض تواضعًا لله . وأخرج أحمد في الزُّهد عن الحسن أن رَجلاً قال لعمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : اتَّقِ اللهَ ، فذهب الرَّجل ، فقال عُمر : وما فِينا خَير إن لَم يُقَلْ لنا ، وما فِيهم خير إن لَم يَقولوها لنا)) اهـ .

وهذا يدل على أهمية التَّواضع للهِ تعالى،وتعظيم أمره ونَهْيه،والخضوع لِحُكمه وشَرْعه.ولا أحد أكبر مِن اللهِ تعالى . فاللهُ أكبر مِن كُل شيء ، وجميع المخلوقات مقهورةٌ وذليلةٌ أمام عَظَمَة الله وسُلطانه ومَجْده.ومَن تواضعَ للهِ رَفَعَه.والذُّلُّ والانكسار والخضوع للهِ تعالى هو قِمَّة العِزَّة والمجد .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال: كنتُ قاعدًا عِند عُمر بن الخطاب، إذْ جاءه كتاب أن أهل الكوفة قد قَرأ مِنهم القرآن كذا وكذا، فَكَبَّرَ رحمه اللهُ، فقلتُ: اختلَفوا ، فقال : أُف ، وما يُدريك ؟ ، قال : فغضب ، فأتيتُ مَنْزلي . قال : فأرسلَ إلَيَّ بعد ذلك فاعتللتُ له، فقال : عزمتُ عليك ألا جِئت ، فأتيتُه ، فقال : كُنتَ قُلتَ شيئًا ، قُلتُ : أستغفر اللهَ ، لا أعود إلى شيء بعدها. فقال : عزمتُ عليك إلا أعدتَ عليَّ الذي قُلتَ . قُلتُ : قُلتُ : كُتِبَ إلَيَّ أنه قد قرأ القرآن كذا وكذا ، فقلتُ : اختلَفوا . قال : وَمِن أيِّ شيء عَرفتَ ؟ ، قلتُ : قَرأتُ : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قَلْبِهِ ﴾ ، حتى انتهيتُ إلى ﴿ واللهُ لا يُحِبُّ الفسادَ ﴾ ، فإذا فعلوا ذلك لَم يَصْبِرْ صاحبُ القُرآن ، ثُمَّ قَرأتُ : ﴿ وإذا قِيلَ لهُ اتَّقِ اللهَ أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَاد (٢٠٦) وَمِنَ الناسِ مَن يَشْري نَفْسَهُ ابتغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ واللهُ رَؤوفٌ بالعِباد (٢٠٧) ﴾ . قال : صَدَقْتَ والذي نَفْسي بيده [68].

(٦٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٦٢٢) برقم (٦٣٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ بذكائه وفِطنته وبصيرته الثاقبة أدركَ أن أهل الكُوفة بَيَّاعو كلام وشِعارات ، ولا يُوجد فِعل على أرض الواقع . وَمِن الواضح أن قراءتهم للقُرآن كانت لا تُجاوِز ألسنتهم . ومعاني القُرآن لا تصل إلى قلوبهم ، ولا تَظهر على جوارحهم وسُلوكهم . ومَن كان هذا شأنه ، فهو على خطر عظيم . وسوفَ يُؤدِّي ذلك إلى خِلافات وصِراعات وفِتَن . ومَن قَرأ القُرآن ولَم يُطبِّقه ، فهو حُجَّةٌ عليه لا له . وكَم مِن قارئٍ للقُرآن ، والقُرآن يَلعنه ! . وهذا الحديثُ يدل على سُوء أخلاق أهل الكُوفة وانتشار الفساد فِيهم،فَهُم معروفون بالكذب والغَدْر والخِيانة وعدم التزامهم بالوعود والعُهود، كما أن ألسنتهم مُخالِفة لِمَا في قلوبهم . وحياتهم قائمة على الْمُداهَنة والخداع والتحايل بالكلام الْمُنمَّق ، والشعارات البَرَّاقة. والتاريخُ يُؤكِّد هذا . وأهلُ الكوفة هُم أهل شِقاق ونِفاق ومَساوئ الأخلاق . وهذه فكرة معروفةٌ عنهم على مَدار التاريخ في الحرب والسِّلم . وقد خانوا أئمةَ أهلِ البَيت ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، مع أنهم يَزعمون محبتهم ومُناصرتهم . وفي مختصر البلدان (ص ١٧٣) قال أبو بكر الْهُذَلِيُّ : ((إنّ أهل الكوفة قطعوا الرَّحِم ، ووصلوا المثانة . كتبوا إلى الحسين بن عليٍّ ، إنَّا معك مئة ألف ، وغرّوه ، حتى إذا جاء خرجوا إليه وقتلوه وأهل بيته صغيرهم وكبيرهم، ثُمَّ ذهبوا يَطلبون دمه، فهل سمع السامعون بِمِثْل هذا ؟)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَن يستمعُ إلَيْكَ وجَعَلْنا على قُلوبِهم أكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِم وَقْرًا وإن يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يُؤمنوا بِها حتى إذا جاؤُوكَ يُجادِلُونَكَ يَقولُ الذينَ كفروا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾ [الأنعام : ٢٥].

مِن هؤلاء المشركين عَبَدة الأصنام والأوثانِ يا محمد مَن يَستمع القُرآنَ مِنكَ ، ويَستمع إلى الأوامر والنَّواهي والحِكَم والمواعظ والإرشادات ، لكنَّه لا يَفهم شَيئًا مِمَّا تقول ، ولا يَستوعبه . إنه يَسمع صَوْتَكَ وقراءتك للقُرآن يا محمد،ولكنَّه لا يَعقل عنكَ ما تقول،ولا يَصِل إلى عقله وقلبه.

لقد جَعل اللهُ على قلوبهم أغطيةً لِكَيْلا يَفهموا القُرآن ، ولا يَعرفوا الحقَّ ، وجَعل في آذانهم صَمَمًا وثِقْلاً يَمنعهم مِن التَّدَبُّر والاستيعاب والسَّماع النافع لهم . لذلك لا يَستفيدون مِن القُرآن .

إنهم يَسمعونه بآذانهم ، ولا يَفهمون مِنهُ شيئًا ، كالدَّواب التي يصلها النِّداء مُجَرَّدًا ، لكنَّها لا تَعرف معنى هذا النِّداء ولا تفهمه. وقد مَنعهم اللهُ مِن فهم القُرآن عقوبةً لهم على كُفرهم ، لأن القُرآن هو قِمَّة الشَّرف . وهذا الشَّرفُ العظيمُ لا يَمنحه اللهُ إلا لِمَن يَستحقه ويَعرف قيمته . وَمِن عَظَمَة القُرآن وشَرَفه ، أن اللهَ لا يَمنحه إلا لصاحب القلب النَّقي الطاهر . ومعلومٌ أن الجوهرة الثمينة إنما تُوضَع في مكانٍ نظيف وجميل وحصين ، ولا تُوضَع في المزبلة .

وهذا دليلٌ أن اللهَ يَفتح قلوبَ البعض ويَشْرحها للإيمان والحق والهدى ، ويَجعل على قلوب البعض أغطيةً تَمنعهم من فهم القُرآن والإيمانِ بِه . واللهُ يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء . وإذا هَدى اللهُ العبدَ ، فَبِفَضْلِه وله المِنَّة . وإن أضَلَّه فَبِعَدْلِه وله الْحُجَّة .

لقد سَمِعُوا القُرآنَ، وأدركوا مَعانيه ، ولكنَّه لَم يَدْخُل إلى قلوبهم بسبب نجاستها ، ولَم يُلامِس أرواحَهم بسبب خُبثها. وبما أنهم رَفضوا القُرآنَ وطَعنوا فِيه ، كانوا بِمَنْزلة مَن لَم يَفْهم ولَم يَسمع.

وإن يَرَ هؤلاء المشركون (كفار مكة) كُلَّ آيةٍ ودليل على وَحدانية اللهِ وصِدْق نُبُوَّة محمدﷺ لا يُصدِّقون بها ، بسبب عِنادهم وتمرُّدهم وجُحودهم وقَسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر والضلال واتِّباع الأهواء وتقليد الآباء بشكل أعمى .

إنهم لا يُفكِّرون ولا يَفهمون ولا يَتأمَّلون ، وأحكامهم قائمة على الظلم والهوى، وبعيدة عن المنطق والعقلانية والإنصاف . لذلك ، يَرفضون الآياتِ والمعجِزات ، بِغَير دليل ولا حُجَّة ولا بُرهان .

وقد وصلوا إلى أسوأ مراحل التكذيب والعِناد والجهل والوقاحة والاستكبار، إلى درجة أنهم يأتون إلى النبيِّ ﷺ مُجادِلين مُخاصِمين ، ويُناظِرونه بالباطل لإفحامه وهَدْم الحق ، ويُريدون إثبات أن القُرآن خُرافات وأكاذيب وكلام مَنقول مِن كُتب السابقين . وهُم يَهدفون إلى إقامة الْحُجَّة على النبيِّ ﷺ، وإفحامه، وفَضْح أمره ، وإظهار كَذِبه أمام الناس ــ وَفْق تفكيرهم القاصر ــ. وهذا يدل على مَعرفة كفار مكة بأهمية القُرآن،لذلك حاولوا طَمْسَ نُوره . والشمسُ لا تُغطَّى بِغِرْبال .

إنهم لَم يَكتفوا بعدم الإيمان ، وإنما أرادوا هدمَ الإيمان ، واجتثاث الرسالة المحمدية الإسلامية مِن جُذورها . لذلك ، وجَّهوا حِقْدَهم ضِدَّ القُرآن ، وطَعنوا فِيه بكل الوسائل ، لِعِلْمهم أن القُرآن هو أساس التشريع الإسلاميِّ ، وإذا هُدِمَ الأساس انهارَ البناء . وبالتالي يَرتاحون مِن دَعوة النبيِّ ﷺ إلى الأبد،ويَضمنوا المحافظة على نفوذهم ومكانتهم وهَيْمنتهم ومصالحهم المادية.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَن يستمعُ إلَيْكَ ﴾ سبب نزولها أن نَفَرًا من المشركين مِنهم عُتْبَة وشَيْبَة والنَّضْر بن الحارث وأُمَيَّة وأُبَي ابنا خلف ، جلسوا إلى رسول الله ﷺ، واستمعوا إليه ، ثُمَّ قالوا للنَّضْر بن الحارث : ما يقول محمد ؟ ، فقال : والذي جعلها بَنِيَّةً ، ما أدري ما يقول ، إلا أني أرى تحرُّكَ شفتيه ، وما يقول إلا أساطير الأولين مِثْلَما كُنتُ أُحدِّثكم عن القرون الماضية . وكان النَّضْر كثير الحديث عَن القرون الأُولَى، فَنَزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس)) اهـ .

إن كفار مكة سألوا النَّضْر بن الحارث عن القُرآن الذي يَتلوه النبيُّ ﷺ ، لأن النَّضْر كان صاحبَ أسفار ورحلات ، وتعاملَ معَ أُمم وشعوب مختلفة ، وكان يُخْبِرهم بقصص السابقين وأحاديثهم . ومِن الواضح أن له أسلوبًا جَذَّابًا في الحديث والإخبار بأحوال الأمم الغابرة . لذلك اعتبرَه المشركون خبيرًا ومرجعًا ومُؤهَّلاً للحُكم على القُرآن . وقد زعم النَّضْر أن كلام الله الذي يَتلوه محمد مِثْل كلام النَّضْر ، أخبار وأحاديث عن الأمم الغابرة . وهذا يدل على شِدَّة كُفره ، وعناده ، وجهله ، وحَسده ، وسُوء تقديره للأمور ، وعدم قُدرته على التمييز .

والبَنِيَّةُ هي الكعبة ، سُمِّيَت كذلك لِعَظَمَتها وشرفها ، فهي أشرف مَبنى على وجه الأرض .

لقد غَرِقَ المشركون في الجحود والتكذيب ، وبَلَغوا مِنَ الكُفر والعِناد والوقاحة أنهم جاؤوا النبيَّ ﷺ يُجادِلُونه بالباطل ، ويُخاصِمونه في الدِّين ، مُحاوِلين إقامة الْحُجَّةِ عَلَيْهِ . ولم يَكتفوا بالكُفر ، بَل تهجَّموا على القُرآن ، ووصفوه بأنه خُرافات مَنقولة مِن كُتب السابقين .

والمشركون لَم يُقدِّموا دليلاً واحدًا على أن القُرآنَ كَذِبٌ ، وإنما اكْتَفَوا بالطعن فِيه بدافع العِناد والْمُكابَرَة والجهل والأهواء . والجاهلُ عَدُوُّ نفْسِه . وحُجَّتُهم الواهيةُ هي الشَّتائم ، وإلقاءُ التُّهم بلا دَليل ، وهذه حُجَّةُ الضعيف العاجز في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ .

لقد اتَّهموا القُرآنَ بأنه أكاذيب مَنقولة مِن كُتب الأُمم السابقة ، لكنهم لَم يُقدِّموا دَليلاً واحدًا على ذلك. فَمَثلاً، لَم يَأتوا بالكتب السابقة لِكَي تَحْدُث المقارَنة بين القُرآن وبَيْنَها . ولوْ كانوا صادقين في دَعواهم ، لأحْضَروا كُتبَ الأُمم الماضية ، ووضَّحوا أوْجُهَ التَّشابُه بَيْنَها وبين آياتِ القُرآن ، ونشروا ذلك بين الناس ، لِكَي يَعرِفوا أن القُرآنَ لَيْسَ وَحْيًا ، وإنما كلام بشر تَمَّ نَقْلُه مِن كُتب الأقدمين .

لكنَّ هذا لَم يَحْدُثْ . وهذا يُشير بوضوح إلى أنهم عاجزون عن مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة ، وخاضعون للعِناد والتَّعَنُّت والتَّكَبُّر، ويتَّبعون أهواءَهم بِغَيْر عِلْمٍ .

والدَّعاوى إنْ لَم تُقيموا عليها بَيِّناتٍ أبناؤها أدعيـاءُ

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٧١) : ((﴿ يَقولُ الذينَ كَفروا ﴾ يَعني قُرَيْشًا . قال ابن عباس : قالوا للنَّضْر بن الحارث : ما يقول محمد ؟ قال : أرى تحريك شفتيه ، وما يقول إلا أساطير الأولين مِثْلَ ما أُحدِّثكم عن القرون الماضية . وكان النَّضْرُ صاحبَ قَصص وأسفار، سَمِعَ أقاصيص في ديار العَجَم مِثْلَ : قِصَّة رُستم وإسفنديار ، فكان يُحدِّثهم)) اهـ .

﴿ يَقولُ الذينَ كَفروا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾ .

يعني : سَطَّرَهُ الأوَّلون وَكَتبوه من أخبار الأمم. والمشكلةُ الحقيقية أن الكافرين يَضحكون على أنفسهم ويَخدعونها . والإنسانُ قَد يَخدع غَيْرَه لتحقيق مكاسب معيَّنة، أمَّا أن يَخدع نفْسَه فهذه هي الكارثة الكبرى . فاتِّهامُ القرآن بأنه أساطير الأولين، كُتِبَ من أخبار الأمم الغابرة يفتقد إلى المنطق والعقلانية. فَلَوْ كان القرآنُ كلامًا بشريًّا لَمَا عَجَزَ العربُ (وهُم أهل الفصاحة والبلاغة والشِّعر) عن الإتيان بِمِثْلِه. فلماذا عَجَزَ الشعراءُ والخطباءُ عن تأليف كتابٍ كالقرآن ؟!. كما أن محمَّدًا ﷺ معروف للجميع بأنه الصادق الأمين، فمن غير المعقول أن يتحرى الصدقَ مع الناس طيلة حياته ثم يكذب على الله تعالى. أَضِفْ إلى هذا أن محمدًا ﷺ كان أُمِّيًّا لا يَقرأ ولا يَكتب، ولَم يُعرَف بأنه كان طالبًا للعِلْم، أو دارسًا للتاريخ واللغاتِ القديمة، أو مُطَّلِعًا على تراث الحضارات السابقة ، فمن أين أتى بكل المعلومات الدقيقة في القرآن الكريم ؟!. إن هذا يدل بلا شك على أن مَصْدَرَ القرآن أعلى من مستوى البشر . وَلَوْ كان القرآن من تأليف إنسان فلماذا لَم يُعَرِّفْنا هذا المؤلِّف بكتابه ، أو يقول إن محمدًا قد أخذه منه ؟!. مع العِلْم أن كُلَّ مُؤلِّف يَهْتَمُّ بتعريف الناس بِكُتبه ، والدعوة إلى قراءتها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٩و٢٠) : ((وفِيها قَولان : أحدهما أنها مَا سُطِّرَ مِن أخبارهم وأحاديثهم.روى أبو صالح عن ابن عباس. قال: أساطير الأولين: كَذِبُهم وأحاديثُهم في دَهْرِهم... وقال ابن قُتَيبة: أساطير الأولين أخبارُهم ، وما سُطِّرَ مِنها ، أي ما كُتِبَ . والقول الثاني أن معنى أساطير الأولين التُّرَّهات . قال أبو عُبَيدة : واحد الأساطير أُسطورة وإسطارة ... قال ابن الأنباري : الترهات عند العرب طرق غامضة ومسالك مُشكِلة . اهـ . ... . فإن قِيل : لِمَ عابوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، وقد سطَّر الأولون ما فيه عِلْم وحِكمة وما لا عَيْب على قائله ، فعنه جوابان: أحدهما أنهم نسَبوه إلى أنه ليس بِوَحْي مِن الله ، والثاني أنهم عابوه بالإشكال والغموض استراحةً مِنهم إلى البَهْت والباطل، فعلى الجواب الأول تكون أساطير مِن التَّسطير، وعلى الثاني تكون بمعنى التُّرهات)) اهـ .

وقال الزركشي في البرهان (١/ ١٥٧): ((قالوا : وحَيْثُما جاء في القرآن " أساطير الأولين " فقائلها النَّضْر بن الحارث بن كَلَدة، وإنما كان يَقولها لأنه دَخل بلادَ فارس وتعلَّمَ الأخبارَ ثُمَّ جاء، وكان يقول : أنا أُحدِّثكم أحسنَ مِمَّا يُحدِّثكم محمد ، وإنما يُحدِّثكم أساطيرَ الأولين . وفيه نزل : ﴿ وَمَن قالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ ما أَنزلَ اللهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقَتله النبيُّ ﷺ صَبْرًا يَوْمَ بَدْر)) اهـ .

وكُل شخص يُوثَق حتى يُقتَل فقد قُتل صَبْرًا .

وقـالَ اللهُ تعـالى : ﴿ وَهُـم يَنْهَـوْنَ عَنْـهُ ويَنْـأَوْنَ عَنْـهُ وإن يُهْلِكُـونَ إلا أنفُسَـهُم ومـا يَشْـعُرُون ﴾ [الأنعام : ٢٦] (69).

إنَّ المشركين يَنْهَوْنَ الناسَ عن اتِّباع النبيِّ ﷺ ويُبعِدونهم عنه ، ويَتباعدون هُم عَنه . وبذلك يَكونون قد مَنَعوا الناسَ مِنَ الإيمان بالنبيِّ ﷺ ومَنَعوا أنفسَهم ، فلم يَستفيدوا مِن الدعوة ، ولَم يَتركوا الناسَ يَستفيدون مِنها . وما يُهلِكون بهذا الفِعْل القبيح إلا أنفسَهم ، حيث يُعرِّضونها للغضب الإلهيِّ ، وما يَشعرون بهذه المصيبة (إصرارهم على الكفر) التي وَقَعوا فِيها ، والتي سَتَقودُهم إلى العذاب الأبديِّ . إنهم غافلون تمامًا عن مصيرهم الكارثي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٣) : ((في معنى ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قَولان (أحدهما) أن المراد أنهم يَنْهَوْنَ الناسَ عن اتِّباعِ الحق وتصديقِ الرسول والانقيادِ للقرآن . ﴿ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي ويَبْعُدون هُم عنه ، فَيَجمعون بين الفِعْلَين القبيحَيْن ، لا يَنتفعون ، ولا يَدَعون أحدًا ينتفع . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ يَرُدُّونَ الناسَ عن محمد ﷺ أن يُؤمنوا به . وقال محمد بن الحنفية : كان كفار قُرَيش لا يَأتون النبيَّ ﷺ ، ويَنْهَوْنَ عنه. وكذا قال قتادة ومجاهد والضَّحاك وغير واحد ، وهذا القول أظْهَر ، واللهُ أعْلَم ، وهو اختيار ابن جرير)) اهـ .

والقَولُ الثاني هو أن الآية نزلت في أبي طالب ، فعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : في قَوْل الله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾، قال: ((نَزلت في أبي طالب، كان يَنهَى المشركين أن يُؤذوا رسولَ الله ﷺ ، ويَتباعَد عمَّا جاءَ بِه))(70).

وأبو طالب (عَم النبيِّ ﷺ) لَم يُسْلِم ، وهذا الأمرُ ثابت . ففي الحديث الصحيح أنه لَمَّا حَضرت أبا طالب الوفاةُ ، جاءه رسولُ الله ﷺ ، فَوَجَدَ عِندَهُ أبا جَهْل بن هشام وعبد الله بن أُمَيَّة ابن المغيرة . قال رسول الله ﷺ لأبي طالب : ((يَا عَم ، قُل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لكَ بها

---

(٦٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢١) : ((وفي هاء ﴿ عَنْهُ ﴾ (الأولَى) قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى النبيِّ ﷺ ، ثُمَّ فِيه قَولان : أحدهما : يَنْهَوْنَ عن أذاه، والثاني : عن اتِّباعه. والقَول الثاني أنها ترجع إلى القرآن ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد . ﴿ ويَنْأَوْنَ ﴾ بمعنى يَبْعُدون، وفي هاء ﴿ عَنْهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنها راجعة إلى النبيِّ ﷺ ، والثاني إلى القرآن)) اهـ .

(٧٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٥) برقم (٣٢٢٨) ، وصحَّحه الذهبي .

عند الله)) . فقال أبو جهل وعبد الله بن أُمَيَّة : يا أبا طالب ، أترغبُ عَن مِلَّةِ عبد المطلب ، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عَلَيْهِ ، ويَعُودان بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخِرَ مَا كَلَّمهم ، هو على مِلَّةِ عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله [71].

والمعنى أن أبا طالب قد اقتربت دلائل وفاته ، ولم يَصِلْ إلى مرحلة الْمُعايَنة والنَّـزْع ، ففي هذه المرحلة لا يَنفع الإيمان ولا معنى له . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوبةُ للذينَ يَعْمَلونَ السَّيئاتِ حتى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ الموْتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآن ﴾ [النِّساء : ١٨] .

والجديرُ بالذِّكر أن عبارة " حتى قال أبو طالب آخِرَ مَا كَلَّمهم ، هو على مِلَّةِ عبد المطلب "، تحمل ضمير الغَيبة " هُوَ " ، وليس " أنا " ، وذلك اسْتِقْبَاحًا من الراوي لهذه العبارة ، فلم يُرِدْ أن يَنقلها بلسان الْمُتكلِّم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٢١٤) : ((فهذا من أحسن الآداب والتصرفات، وهو أنَّ مَن حكى قَوْلَ غَيْرِهِ القبيح ، أتى به بضمير الغَيبة ، لِقُبح صُورة لفظه الواقع)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إذْ وُقِفوا على النارِ فقالوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنا ونَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنعام : ٢٧] .

ولوْ ترى يا محمد هؤلاء المشركين إذْ حُبِسُوا على النار وعُرِضُوا عليها ، لَرَأيتَ أمرًا في غاية الفظاعة والشِّدة والسُّوء ، وشاهدتَ منظرًا هائلاً وشنيعًا . واللهُ يُبيِّن حالَ الكافرين يوم القيامة ، فقد رَأَوا النارَ بأُمِّ أعينهم ، وعايَنوا العذاب والشَّدائد والأهوال. وجواب ﴿ لَوْ ﴾ مَحذوف ، لِتَذهب الأفكارُ والخواطرُ إلى كُل شَيء، وهذا أبلغ وأشد تأثيرًا في التَّخويف وبَث الرُّعب .

والخِطابُ في الآية للنبيِّ ﷺ ، والوعيد للكفار . وتَمَّ التعبيرُ بالفِعل الماضي ﴿ وُقِفوا ﴾ للحديث عن أمرٍ مُستقبلي ، لأن كلام الله حق وصِدْق ، وواقع لا مَحالة. وما سَيَكُون هو بِحُكْم الذي كانَ، وانتهى الأمر. واللهُ لا يَمنعه شَيء ، ولا رَاد لكلامه وحُكمه وأمره. ما أراده اللهُ كانَ ، وتَمَّ الموضوع . ولا شَيء يقف أمام إرادة الله ومشيئته . يَتَمَنَّوْنَ الرجوع إلى الدنيا ، مِن أجل التَّوبة وطاعة اللهِ وعمل الصالحات ، والتصديق بآياته ، وعدم جَحْدها ولا إنكارها ، ويكونون مِن الْمُصدِّقين بِوَحدانيةِ الله ونُبُوَّة محمد ﷺ ، والْمُتَّبعين لأوامر الله ونَهْيه . وذلك لأنهم رَأَوا بأُم أعينهم عذابَ النار الذي كانوا يَسمعون عنه ، وهذا لا يَدع مجالاً للتكذيب ولا الجحد .

(٧١) متفق عليه . البخاري (١/ ٤٥٧) برقم (١٢٩٤) ، ومسلم (١/ ٥٤) برقم (٢٤) .

إنَّ تَمَنِّي الكافرين في الآية له ثلاثة أبعاد: الأول _ الرُّجوع إلى الدنيا . الثاني _ عدم التكذيب بآيات الله . الثالث _ أن يكونوا مِن المؤمنين .

وقد أوقفهم اللهُ لِتَوبيخهم وتقريعهم وفَضْحهم وزيادة حَسَراتهم ، وَوَصْمهم بالخِزي والعار ، كما يَقف المجرم ذليلاً خاضعًا خانعًا مُنْكَسِرًا أمام القاضي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٢): ((قَوله تعالى: ﴿ وَلَوْ ترى إذْ وُقِفوا على النارِ ﴾ في معنى ﴿ وُقِفوا ﴾ ستة أقوال : أحدها حُبِسُوا عليها ، قاله ابن السائب. والثاني عُرِضُوا عليها ، قاله مقاتل . والثالث عَايَنوها ، والرابع وُقِفُوا عليها وهي تحتهم . والخامس دَخلوا إليها فرفعوا مِقدار عذابها . تقول : وقفتُ على ما عِند فُلان ، أي فَهِمْتُه وتَبَيَّنْتُه . ذكر هذه الأقوال الثلاثة الزَّجاج ، واختار الأخير . وقال ابن جرير : ﴿ على ﴾ هاهُنا بمعنى " في " ...)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَل بَدا لهم ما كانوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وإنهم لَكَاذِبُون ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

هذه الآيةُ هي رَدٌّ لِتَمَنِّي الكافرين ، وإبطالٌ له ، وفَضْحٌ لهم ، وكَشْفٌ لأعمالهم السَّيئة .

هؤلاء المشركون لَيسوا حريصين على الإيمان ، وغَير معنيين بِتَوحيد اللهِ وتَصديق محمد ﷺ . ولكنَّهم تَمَنَّوا الرجوعَ إلى الدنيا والإيمان بسبب شِدَّة العذاب الذي رَأَوْه ، وهَوْلِ الموقفِ الفظيع الذي عَايَنوه . لذلك ، كان تَمَنِّي الكافرين مُجرَّد كلام للخلاص مِن عذاب النار . وحِينَ عَرَفوا أنهم هالكون في العذاب بسبب شِرْكهم ، لَجَؤوا إلى الوعد الكاذب ، والتَّمَنِّي الباطل .

وقد ظَهَرَ لهم يوم القِيامة المعاصي والذنوب والشُّرور والآثام ، التي كانوا يُخْفُونها عن أعين الناس ، وقد كَشَفَها اللهُ ، وفَضَحَهم على رؤوس الأشهاد ، وجازاهم بِها، وعاقبَهم أسوأ العِقاب ، وعذَّبهم أشد العذاب.وهذا يدل على عَظَمَة يوم القيامة، وهَوْل الموقف، وشِدَّة الأحوال وصعوبتها.

وَلَوْ عادوا ورَجعوا إلى الدنيا بعد مُعايَنة العذاب_فَرَضًا _، لأنه لا رَجعة إلى الدنيا بعد الموت، لَرَجعوا إلى الكفر والضلال وفِعل المعاصي والآثام التي كانوا يَقومون بِها . وقد رَأى إبليس آياتِ الله بأُم عينيه ، ثُمَّ عاندَ وكَفر بعد مُعاينتها . وصِفةُ الكذب مُلتصقة بهم مهما رَأَوْا مِن الآيات .

وفي الآية : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾، أخبرَ اللهُ عَمَّا لَم يَكُن، لَوْ كان فكيفَ يَكون . وهذا دليل على سَعَة العِلْم الإلهيِّ وإحاطته بكل شيء . والآيةُ تُشير إلى أن كُفرهم كان بعد معرفة الحق وإدراك الصواب ، ولَم يكونوا عن جهل أو شُبهة . وبذلك ، تكون الْحُجَّةُ القاطعةُ للعُذْر مُقامةً عليهم ، ولا مجال للتَّهَرُّب ، ولا اختلاق الأعذار الكاذبة .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٥١٣) : ((وقَوله سُبحانَه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ﴾ إخبار عن أمر لا يكون، كيف كان يوجد. وهذا النَّوع مِمَّا استأثرَ اللهُ تعالى بِعِلْمه. قال الفخر:قال الواحدي: هذه الآية مِن الأدلة الظاهرة على فساد قول المعتزلة ، لأن الله تعالى حكى عن هؤلاء أنهم لو رُدُّوا لعادوا لِمَا نُهُوا عنه ، وما ذلك إلا للقضاء السابق فيهم)) اهـ .

وإنهم لَكَاذبون في تَمَنِّيهم العَودة إلى الدنيا مِن أجل تَوحيد اللهِ وتصديق محمدﷺ، إذ إن تَمَنِّيهم الباطل كان بهدف التخلص مِن العذاب، وليس حِرْصًا على الإيمان . إذن ، نِيَّتهم فاسدة ، وقلوبهم غير صادقة، ولَم يكونوا مُخْلِصين في اعتقادهم ، وأنظارهم مَحصورة فِيما يُشاهِدونه ، ولا يُفكِّرون فِيما يَغيب عنهم . أي إن تفكيرهم مُقتصِر على الشَّاهد دُون الغائب .وإنهم لَكَاذبون فِيما وَعدوا بِه مِن أنفسهم، حيث قالوا : ﴿ يا لَيْتَنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنا ونَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣و٢٤) : ((وفي معنى الآية: ﴿ بَل بَدا لهم ما كانوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أربعة أقوال : أحدها بدا ما كان يُخفيه بعضُهم عن بعض، قاله الحسن . والثاني بدا بِنُطْق الجوارح ما كانوا يُخفون مِن قَبْل بألسنتهم، قاله مقاتل . والثالث بدا لهم جزاء ما كانوا يُخفونه ، قاله الْمُبَرِّد . والرابع بدا للأتباع ما كان يُخفيه الرؤساء، قاله الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ . قال ابن عباس : لَعَادوا إلى ما نُهُوا عنه مِن الشِّرك . ﴿ وإنهم لَكَاذِبُون ﴾ في قَولهم : ﴿ ولا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنا ونَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ . قال ابن الأنباري : كَذَّبهم اللهُ في إخبارهم عن أنفسهم أنهم إن رُدُّوا آمنوا ولَم يُكَذِّبوا. ولَم يُكذِّبهم في التَّمني)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا إنْ هِيَ إلا حياتُنا الدُّنيا وما نحنُ بِمَبْعُوثين ﴾ [الأنعام : ٢٩] .

قال هؤلاء المشركون عَبَدة الأصنام والأوثان:لا حياة بعد الموت،ولا تُوجد دار آخِرة،ولا بعث، ولا نُشور . لقد أنكروا أن اللهَ يَبعث الأموات مِن قبورهم . وهذا يدل على عِنادهم وتمرُّدهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٤):((قَوله تعالى: ﴿ وقالوا إنْ هِيَ إلا حياتُنا الدُّنيا ﴾ هذا إخبار عن مُنكِري البعث . قال مقاتل : لَمَّا أخبرَ النبيُّ ﷺ كفارَ مكة بالبعث ، قالوا هذا . وكان عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول : هذا حكاية قَوْلهم ، لو رُدُّوا لقالوه)) اهـ .

إنَّ الكفار الفَجَرة مَحصورون في الحياة الدنيا، ولا ينظرون إلى ما وراءها بعد الموت . وقد وَقعوا في فخ السِّحر الدُّنيوي المزيَّف ، فاعتقدوا أن الدنيا هي البداية والنهاية . فعقيدةُ البعث غائبةٌ تمامًا عن عقولهم، لذلك، أعمالهم قائمة على الرياء والسُّمعة والحمِيَّة والعصبيات المختلفة، بعيدًا عن منهجية الثواب والعقاب يوم القيامة ، لأن الموت _ بالنسبة إليهم _ هو نهاية المطاف ،

مع أنه هو نقطة البداية . وشعارُهم المرفوع في هذا السياق هو : أرحامٌ تَدفع ، وأرضٌ تَبلع . وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٧٦) : ((يُخبِر عنهم أنهم يُنكِرون أن الله يُحيي خَلْقَه بعد أن يُميتهم. ويقولون : لا حياة بعد الممات ، ولا بعث ، ولا نُشور بعد الفناء . فهم بجحودهم ذلك وإنكارهم ثواب الله وعقابه في الدار الآخرة لا يُبالون ما أَتَوا وما ركبوا مِن إثم ومعصية ، لأنهم لا يرجون ثوابًا على إيمان بالله ، وتصديق برسوله ، وعمل صالح بعد موت ، ولا يخافون عقابًا على كفرهم بالله وبرسوله)) اهـ . وإنكار الحياة الأُخْرَوِيَّة له تأثير مُدمِّر على الفرد والمجتمع ، لأنه يُلغي في النفوس جزاءَ العمل ، فيصبح الإنسان لا ينتظر ثوابًا ولا يخشى عقابًا . فهو ــ كالأنعام ــ يعيش ويأكل ويتمتع ويموت دون وجود غاية سامية يسعى إليها ، أو هدف راقٍ يُتوِّج مسيرةَ حياته . مِمَّا يؤدي إلى تدمير البنية النفسية للفرد ، والقضاءِ على تماسك المجتمع ، وتفتيته إلى كيانات مصلحية آنية تفتقد إلى الوازع الإيماني الداخلي . فتصبح الحياةُ فوضى ميكانيكية قاتلة للروح والجسد ، ويتحول الفرد إلى آلة صَمَّاء تعمل بدون رُوح ، وحينما تعجز عن العمل تُرمَى في المهملات .

وغيابُ النظر إلى ما وراء الموت يجعل من حياة الفرد مَوْتًا مُتَكَرِّرًا . كما أن الرُّكون إلى الدنيا وبَهْرجها الزائل يُورث في النفس قلقًا هائلاً. فعدمُ الإيمان بالبعث لا يعني الاستراحة من التفكير بالثواب والعقاب يوم القيامة، بل يعني مزيدًا من القلق والانكسار الرُّوحي والخوف من المستقبل ، ويُؤدِّي إلى تحايل المرء على ذاته ، وإغراق حياته في الخداع ، وعدم الاستعداد لنيل الخلود الأبديِّ والحصولِ على الخلاص . وعن سُفيان بن عُيَينة قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إن الدهر هو الذي يُهْلِكنا ، هو الذي يُميتنا ويُحيينا ، فردَّ اللهُ عليهم قَوْلَهم . قال الزُّهري : عن سعيد ابن المسيِّب عن أبي هريرة : عن رسول الله ﷺ قال : ((يقول اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : يُؤذيني ابنُ آدم ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وأنا الدهر ، أُقلِّب لَيْلَه ونهاره ، فإذا شئتُ قبضتُهما)) . وتلا سُفيان هذه الآية : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : ٢٤] [72].

لقد حَشَرَ أهلُ الجاهلية أنفسَهم في حياة روتينية مُملة بدون هدف راقٍ. (الأكل والشراب / النوم / التكاثر / الموت). وهذه الحياة القاتلة لمعنى الحياة تخلو من القيم السامية، وصناعة التاريخ، والإخلاص لله تعالى ، ونيل جنَّته الخالدة . لذا فإن جنة المشركين هي في حياتهم الدنيا المحشورة في زاوية الضِّيق والضَّنك والتعب والقلق. وهم يَنسُبون الموتَ إلى الدهر ، ويَعتبرونه

(٧٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٩١) برقم (٣٦٩٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

مرحلةً طبيعية خاضعة للمبادئ الزمنية والقواعدِ الحسابية الخاصة بالشهور والسنوات. ويغيبُ عن أذهانهم ما وراء الموت ، أو القوة المسيطرة على الموت. وفي فتح الباري (٨/ ٥٧٥) : ((قال القرطبي : معناه : يُخاطبني من القول بما يتأذى مَن يجوز في حَقِّه التأذي ، والله مُنَزَّه عن أن يصل إليه الأذى ، وإنما هذا من التوسُّع في الكلام . والمراد أن مَن وقع ذلك منه تعرَّض لِسَخَط الله . قَوله : " وأنا الدَّهْر" . قال الخطابي : معناه أنا صاحب الدهر ومُدبِّر الأمور التي يَنسُبونها إلى الدهر ، فمن سبَّ الدهرَ من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، عاد سَبُّه إلى رَبِّه الذي هو فاعلها ، وإنما الدهر زمان جُعل ظرفًا لمواقع الأمور ، وكانت عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر ، فقالوا : بُؤسًا للدهر ، وتَبًّا للدهر)) اهـ . إن العقائد الزائغة المبنية على اتباع الهوى ، قد أوصلت الكثيرين إلى الهاوية ، بسبب انتهاج طريق خاطئ يحتوي على مخالفات جَمَّة . لكن تصحيح هذه السلوكيات السَّيئة دائمًا يأتي في النصوص الشرعية ، لانتشال الناس من مستنقع الجهل والضلال الذي يَغرقون فيه . ويظل الإيمانُ باليوم الآخر أساسًا لتنظيم السلوك البشريِّ وَفْقَ مُراد الله تعالى . والفردُ حينما يؤمن بوجود الثواب والعقاب بعد الموت ، فإنه سوف يسير في حياته الدنيا على الطريق المستقيم ، ويَحسِب أفعالَه بدقة ، لِعِلْمه أنه مُحاسَب عليها .

أمَّا الذين أنكَروا يَوْمَ البعث فهم يعتقدون أن بوسعهم الهروب من النهار الساطع ، لكنَّ الحقيقة أن لا أحد يستطيع الهروب من ضوء الشمس أو الاختباء وراء أصبعه. فقد اتَّبعوا أهواءهم بغير عِلْم ، وغَرَّتهم الحياة الدنيا التي جعلوها البدايةَ والنهاية في مسارهم الوجوديِّ ، مِمَّا قادهم إلى الضياع الحتميِّ على كافة المستويات . فالاضطرابُ الروحي والانكسارُ الجسماني نتيجتان طبيعيتان لغياب المعنى عن الحياة البشرية في المجتمعات التي لا تؤمن باللهِ واليومِ الآخِر .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إذْ وُقِفوا على رَبِّهم قالَ أَلَيْسَ هذا بالحقِّ قالوا بلى ورَبِّنا قالَ فَذُوقوا العذابَ بما كُنتم تَكْفُرُون ﴾ [الأنعام : ٣٠] . وَلَوْ ترى يا محمد حَالَ هؤلاء المشركين الْمُكذِّبين بالبعث والنُّشور،إذْ أُوقِفُوا أمام اللهِ للحساب والْحُكْم والقضاء. كما يقف المجرم أمام القاضي في انتظار الْحُكم ، أو كما يقف العبدُ المذنب أمام سَيِّده للعِقاب . وفي ذلك الموقف العظيم ، لا سُلطة ولا سُلطان ولا حُكم ولا أمر إلا لله وَحْدَه . وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف، لتعظيم شأن الوقوف ، والتَّهويل مِن ذلك المشهد الرهيب . والمعنى: لَرَأيتَ يا محمد أمرًا في غاية الفظاعة والرُّعب . وقال ابن القَيِّم في التبيان في أقسام القُرآن (١/ ٦) : ((وهو سُبحانَه يَذكر جواب القَسَم تارةً وهو الغالب، وتارةً يَحذفه، كما يَحذف جواب"لَوْ" كثيرًا، كَقَوله تعالى: ﴿ وَلَوْ

ترى إذْ وُقِفوا على رَبِّهم ﴾ ، ومِثْل هذا حَذْفه مِن أحسن الكلام ، لأن المراد أنَّكَ لَوْ رأيتَ ذلك لرأيتَ هَوْلاً عظيمًا ، فليس في ذِكْر الجواب زيادة على ما دَلَّ عَليه الشَّرْط . وهذه عادة الناس في كلامهم إذا رَأَوْا أمورًا عجيبة ، وأرادوا أن يُخْبِروا بها الغائب عَنها . يقول أحدهم : لَوْ رَأيتَ ما جرى يوم كذا بموضع كذا ؟)) اهـ .

قالَ اللهُ توبيخًا وتقريعًا على تكذيبهم بالبعث: أليسَ هذا البَعْثُ حَقًّا لا باطلاً ؟ . والاستفهامُ في الآية: ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحقِّ ﴾ للتوبيخ والتقريع. والمعنى: أليسَ هذا البعثُ الذي كُنتم تُنْكِرونه وتَجحدونه حَقًّا وواقعًا ؟ . قالوا : بلى ورَبِّنا . أي : واللهِ إنه حَق وصِدْق . لقد أكَّدوا اعترافهم بما أنكَروا بالقَسَم باللهِ تعالى ، وذلك بسبب يقينهم التام ، ووضوح الأمر أمام أعينهم بِما لا يَدَع مجالاً للشَّك والتكذيب . وهذا أعلى درجات الاعتراف. والاعترافُ سَيِّد الأدلة .

لقد أقَرُّوا بالبعث حِينَ لا يَنفعهم ذلك . وإيمانُهم غَير مقبول ولا فائدة مِنه ، فالإيمانُ المقبولُ إنما هو في الدنيا ، وليس في الآخرة . فالدنيا دار عَمَل ولا جَزاء ، والآخرة دار جَزاء ولا عَمَل . والدنيا امتحان دُون إعلان النتيجة ، والآخرة إعلان نتيجة الامتحان ، ولا امتحان فِيها .

قال اللهُ : فذوقوا العذابَ الذي رَأيتُموه وعاينتموه ، بسبب كُفركم في الدنيا وضلالكم والتكذيب بالبعث. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٤) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَلَوْ ترى إذْ وُقِفوا على رَبِّهم ﴾ . قال مقاتل : عُرِضُوا على رَبِّهم ، قال : أَلَيْسَ هذا العذاب بالحق ؟. وقال غَيره : أليسَ هذا البعث حَقًّا؟.فعلى قول مقاتل ﴿ بما كُنتم تَكْفُرُون ﴾ بالعذاب. وعلى قَول غَيره: تكفرون بالبعث)) اهـ.وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمِنهُم مَن يقولُ ائذَن لِي ولا تَفْتِنِّي ألا في الفِتنةِ سَقَطُوا وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحيطةٌ بالكافرين ﴾ [التَّوبة : ٤٩] . مِن المنافقين مَن يقول لَكَ يا محمد : اسْمَحْ لِي في القُعود والتخلف عن الجهاد ، ولا تَبْتَلِنِي برؤية نساء الرُّوم وبناتهم ، فإنني عاشقٌ للنساء ومُغرَم بهنَّ ، ولا أصبر عنهنَّ. وإذا خَرجتُ للجهاد ورَأيتهنَّ وقعتُ في الإثم والمعصية . وهذا يدل على وُجود قرار مُسبق بالتخلف عن الجهاد ، سَواءٌ أَذِنَ له النبيُّ ﷺ أَم لَم يَأذَن. وقال أبو السُّعود في تفسيره (٤/ ٧٢): ((يُريد إني مُتخلِّف لا مَحالة أذنتَ أو لَم تأذن ، فَأْذَنْ لي حتى لا أقع في المعصية بالْمُخالَفة ، أو لا تُلْقِني في الْهَلَكَة ، فإني إن خرجتُ معكَ ، هَلَكَ مالي وعِيالي ، لعدم مَن يقوم بمصالحهم)) اهـ . وقد كان هذا المنافق كاذبًا في دَعْواه ، ولَم تكن لَدَيه أيَّة مُشكلة غَير النفاق . وقد أرادَ التهربَ مِن الجهاد . ألا في الإثم والمعصية سَقطوا بِتَخلفهم عن النبيِّ ﷺ ، والإعراض عن الجهاد . لقد وَقعوا في الفِتنة الكُبرى، وهي النفاق والتَّخلف عن النبيِّ ﷺ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٣٤): ((والمعنى: أنهم ظَنُّوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يَقعون في الفِتنة ، وهُم بهذا التخلف سَقطوا في الفِتنة العظيمة. وفي التعبير بالسقوط ما يُشعِر بأنهم وقعوا فيها وقوع مَن يَهْوي من أعلى إلى أسفل،وذلك أشد من مجرَّد الدخول في الفِتنة)) اهـ . وإن مَصيرهم إلى النار، وهي مُحيطة بِهم مِن كُل الجوانب ، وجامعة لهم ، ولا مَهْرَب مِنها ، ولا يَقْدِرُون على الإفلات مِن عذابها بحالٍ مِن الأحوال . وهذا وعيدٌ شديد لهم .

ووضعُ الْمُظهَر مَوضع الْمُضمَر في الآية : ﴿ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحيطةٌ بالكافرين ﴾ للتسجيل عليهم بالكُفر ، وفضحهم ، ووَصْمهم بالخِزي والعار . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٤٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَن يقولُ ائذَن لِي ﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ قال للجَد بن قَيْس : " يا جَد ، هل لك في جِلاد بني الأصفر _ يعني قتالهم بالسَّيف _ ، لَعَلَّكَ أن تَغنَم بعض بنات الأصفر " . فقال: يا رسول الله ، ائذن لي فَأُقِيم ، ولا تَفْتِنِّي ببنات الأصفر . فأعرضَ عنه ، وقال : " قد أذنتُ لَك " ، ونزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ... قَوله تعالى : ﴿ وَمِنهُم ﴾ يعني المنافقين . ﴿ مَن يقولُ ائذَن لِي ﴾ أي : في القعود عن الجهاد، وهو الجد بن قيس. وفي قَوله: ﴿ ولا تَفْتِنِّي ﴾ أربعة أقوال: أحدها لا تَفْتِنِّي بالنساء ، قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد . والثاني لا تُكْسِبْني الإثم بأمرك إيَّاي بالخروج ، وهو غَير مُتيسِّر لي ، فَآثَم بالْمُخالَفة ، قاله الحسن وقتادة والزَّجاج ... . قَوله تعالى: ﴿ ألا في الفِتنةِ سَقَطُوا ﴾ في هذه الفِتنة أربعة أقوال : أحدها أنها الكفر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني الحرَج ، قاله عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث الإثم ، قاله قتادة والزَّجاج . والرابع العذاب في جهنم ، ذَكَره الماوردي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إن تُصِبْكَ حَسنةٌ تَسُؤهُم وإن تُصِبْكَ مُصيبةٌ يَقولوا قَدْ أخَذْنا أمْرَنا مِن قَبْلُ ويَتَوَلَّوا وهُم فَرِحون ﴾ [التَّوبة : ٥٠]. يُوضِّح اللهُ عداوةَ المنافقين للنبيِّ ﷺ والمؤمنين ، ويَكشف طبيعة النِّفاق وخطورته في المجتمع . وهؤلاء المنافقون كانوا يَحْزنون في حال سُرور النبيِّ وأصحابه ، ويَفرحون إذا أصابتهم المصائب . وهذا يدل على فساد قلوب المنافقين ، وحِقْدهم الشديد ، وحسدهم الفظيع ، وعداوتهم المتجذِّرة، وسُوء أفعالهم ، وأنهم وصلوا إلى مُنتهى العداوة والكراهية . والحسَنة هي النَّصر والغنيمة والظَّفَر ، والمصيبةُ هي الهزيمة والانكسار والخيبة . ومعنى الآية عام في كُل مَحبوب ومَكروه ، وليس مَحصورًا في شُؤون القتال والحروب .

إذا انتصرتَ يا محمد على أعدائك ، وسُرِرْتَ أنتَ وأصحابك بالنصر والظَّفَر والغنيمة ، فإن هذا الأمر يُزْعِج المنافقين ويُحْزِنهم ، ويُقْلِقهم ، ويُضايقهم، بسبب حسدهم وجهلهم وعداوتهم

للإسلام والمسلمين . وإن أصابكَ قَتلٌ أو هزيمة أو شِدَّة (كما حصل في غَزوة أُحُد) ، يقولوا : قَدْ أخَذْنا حِذْرَنا واحْتَرَزْنا واحْتَطْنا لأنفسنا ، فلم نَخرج إلى القِتال . وهُم بذلك يَمدحون أنفسَهم ، ويَتبجَّحون بِما قاموا بِه ، ويَحمدون رأيَهم في التخلف عن القتال ، ويُقدِّمون أنفسهم كأذكياء لَدَيهم بُعْد نظر وحُسن تخطيط ، حيث إنهم لَم يَخرجوا إلى القتال ، كما خَرج المؤمنون ، وأصابهم السُّوء والمصيبة . ويَنصرِف هؤلاء المنافقون ، ويَعودون إلى أهلهم مُعْرِضين عن الإيمان ، ومَسرورين بسلامتهم ونَجاتهم ، وفَرِحين بالمصيبة التي أصابت النبيَّ والمؤمنين ، ومُعْجَبِين بذلك .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ٧٣) : ((﴿ إن تُصِبْكَ ﴾ في بعض مَغازيك ﴿ حَسنةٌ ﴾ مِن الظَّفَر والغنيمة ، ﴿ تَسُؤهُم ﴾ تِلك الحسَنة . أي تُورثهم مَساءة لِفَرْط حسدهم وعداوتهم لك .
﴿ وإن تُصِبْكَ ﴾ في بعضها ﴿ مُصيبةٌ ﴾ مِن نوع شِدَّة ، ﴿ يَقولوا ﴾ مُتبجِّحين بما صَنعوا ، حامدين لآرائهم : ﴿ قَدْ أخَذْنا أمْرَنا ﴾ ،أي: تَلافَيْنا ما يَهُمُّنا مِن الأمر، يَعْنُون به الاعتزال عن المسلمين ، والقعود عن الحرب ، والْمُداراة مع الكَفَرة ، وغَير ذلك من أمور الكفر والنِّفاق قَوْلا وفِعلاً .
﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي مِن قَبْل إصابة المصيبة في وقت تَدارُكه . يُشيرون بذلك إلى أن المعاملة المذكورة إنما تروج عند الكفرة بوقوعها حال قوة الإسلام لا بعد إصابة المصيبة . ﴿ ويَتَوَلَّوا ﴾ عن مجلس الاجتماع، والتحدث إلى أهاليهم ، أو يُعْرِضوا عن النبيِّ ﷺ ، ﴿ وهُم فَرِحون ﴾ بِما صَنعوا من أخذ الأمر ، وبما أصابه ﷺ . والجملة حال من الضمير في : ﴿ يَقولوا ﴾ و﴿ يَتَوَلَّوا ﴾ لا في الأخير فقط ، لمقارنة الفرح لهما مَعًا، وإيثار الجملة الاسمية للدَّلالة على دوام السرور، وإسناد الْمَساءة إلى الحسَنة، والمسَرَّة إلى أنفسهم دُون المصيبة بأن يُقال:وإن تُصِبْكَ مُصيبة تَسْرُرْهم، للإيذان باختلاف حَالَيْهم حَالَتَي عُروض المساءة والمسَرَّة ، بأنهم في الأولى مُضطرون ، وفي الثانية مختارون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَن يَلْمِزُكَ في الصَّدقاتِ فإنْ أُعْطُوا مِنها رَضُوا وإن لَم يُعْطَوْا مِنها إذا هُم يَسْخَطُون ﴾ [التَّوبة : ٥٨] .

وَمِنَ المنافقين مَن يَطعن فِيك يا محمد بسبب الصدقات ، ويَعيب عَلَيْكَ في طريقة تَوزيعها . وهو لا يُريد وَجْهَ اللهِ بهذا الكلام ، ولا يَنطلق مِن مَوقف شَرعيٍّ ، ولَيْسَ حريصًا على الحق والهدى وأحكام الشريعة . ولا يَغضب مِن أجل الدِّين ، وإنما يَغضب لِنَفْسه وهواه ومصلحته . وتَركيزه مُنْصَب على المال، وكيفية الحصول عليها. إنَّ مَتاع الدُّنيا الفاني هو كُل ما يُريده ، والآخرة لَيْسَتْ ضِمن اهتماماته . وإذا أعْطَيْتَهُم يا محمد مِن الصَّدقات فَرِحُوا ورَضُوا ، فلا هَمَّ لهم إلا جَمْع حُطام

الدُّنيا ، وإذا لَم تُعْطِهِم غَضِبوا مِنكَ وَذَمُّوكَ وانتقصوكَ وطَعنوا فِيك ، ولَيْسوا معنيين بتعظيم الدِّين والحِرص على الشريعة واحترامِ النبيِّ ﷺ . وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٩٤) : ((﴿ إذا هُم يَسْخَطُون ﴾ " إذا " للمفاجأة، أي : وإن لَم يُعْطَوْا مِنها ، فاجؤوا السَّخَط . وصفهم بأن رضاهم وسَخَطهم لأنفسهم ، لا للدِّين وما فيه صلاح أهله)) اهـ .

وهؤلاء المنافقون واقعون تحت سيطرة مصالحهم الشخصية ومنافعهم المادية . إذ إن حُب المال أعماهم ، وجعلهم رافضين لِحُكم النبيِّ ﷺ غير راضين به ، لأن الإيمان لَم يتجذر في قلوبهم ، فهم يميلون مع أهوائهم دون تحكيم الشريعة في أفعالهم . فقد أصبح المالُ عندهم هو الفيصل والحاكم على الشريعة وليس العكس ، لذا فإنهم يُطَوِّعون عقائدهم لتتماشى مع المكاسب المادية ، فقد أصبح دينُهم قائمًا على حُطام الدنيا الفاني ، وتابعًا للدرهم والدينار ، يَدور معهما حيث دارا . وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٥٤٠) : عن أبي سعيد قال : بَيْنا النبيُّ ﷺ يَقْسِم ، جاء عبد الله ابن ذِي الْخُوَيصرة التميمي ، فقال : اعْدِلْ يا رسول الله ، فقال : ((وَيْحَك ، وَمَن يَعْدِل إذا لَم أَعْدِل ؟)) ... . قال : فَنَزلت فيه ﴿ ومنهم مَن يلمزكَ في الصدقات ﴾ .

إن البعض يرمي الكلامَ السَّيئ ولا يُدرِك أبعادَ ما يقول . فَمُطالَبةُ النبيِّ ﷺ بالعدل وقاحةٌ ، لأنَّ النبيَّ ﷺ هو مُؤسِّس العدل على الأرض التي كان فيها القويُّ يأكل الضعيفَ، والغنيُّ يسرق الفقيرَ. وإذا كان النبيُّ ﷺ ظالِمًا_ حاشاه_،فهذا يعني موت العدل على الأرض ، ولا يوجد أحدٌ سَيَعْدِل . والنبيُّ ﷺ ذو الصدر الواسع ، والصابر على الأذى وجهل الآخرين ، لا يمكن استفزازه بهذه الأقوال القبيحة ، أو إخراجه عن قيم العدالة والحق ، لذلك رسَّخ مفهومَ العدل في النفوس ، ونَبَّه إلى أنه الإمام العادل ، وأن لا أحد سَيَعْدِل إذا لَم يَعْدِل هُوَ ﷺ .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥١٢) : ((وفيه أن أهل الفضل قد يُغضِبهم ما يُقال فِيهم مِمَّا لَيس فِيهم ، ومَعَ ذلك فيتلقون ذلك بالصبر والحِلْم كما صنع النبيُّ ﷺ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ومِنْهُمُ الذينَ يُؤذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُم يُؤمِنُ باللهِ ويُؤمِنُ للمُؤمنينَ ورَحمةٌ للذينَ آمَنُوا مِنكُم والذينَ يُؤذُونَ رَسولَ اللهِ لَهُم عَذابٌ أليمٌ ﴾[التَّوبة: ٦١][73].

---

(٧٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٦٠): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ ومِنْهُمُ الذينَ يُؤذُونَ النَّبِيَّ ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال:أحدها أن خِذَام بن خالد والجُلاَّس بن سُوَيد وعُبَيد بن هلال في آخرين كانوا يُؤذون رسولَ الله ﷺ ، فقال بعضُهم لبعضٍ: لا تفعلوا فإنَّا نخاف أن يَبلغه فَيَقع بِنا، فقال الجلاس : =

ومِنَ المنافقين جماعةٌ يُؤذون النبيَّ ﷺ بالكلام ، ويَطعنون فِيه ، ويَعيبون تَصَرُّفَه ، ويقولون عنه إنَّه يَسمع كلامَ كُلِّ شَخصٍ فَيَقبله ويُصدِّقه . وقَصْدُ هؤلاء المنافقين هو رَمْيُ النبيِّ ﷺ بالسَّذاجة والغَفلة ، وأنَّه لا يُميِّز الكلامَ ، فَيَسمع كلامَ كُلِّ شخصٍ ، ويَقبله ، دُون التَّحقق مِنه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٢): ((﴿ وَيَقُولونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي : مَن قال له شَيئًا صَدَّقه فِينا، وَمَن حَدَّثه صَدَّقه ، فإذا جئناه وحَلَفْنا له صَدَّقَنا.رُوِيَ معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة)).

وطَعْنُ المنافقين في النبيِّ ﷺ يُشير إلى فساد نَواياهم ، وخُبثهم ، وحِقدهم ، وجَهْلهم . وقد فضحهم اللهُ تعالى ، وكشفَ كلامَهم السَّيئ ، وأظهرَ أفعالَهم القبيحة .

وقد سَمَّى المنافقون النبيَّ ﷺ بِاسْمِ الجارحة (أُذُن) للمُبالَغة في أنَّه يَسمع كُلَّ شَيء فَيُصدِّقه. وقد اغْتَرُّوا بِحِلْمه، وصَفْحه، وكَرَمه، وإحسانه، وتجاوزه عَن تصرفاتهم السَّيئة.وقد اعْتَبروا أخلاقَ النبيِّ الحميدة غَفلةً وسَذاجةً، وهذا يدل على جَهْلهم وصفاتهم الذميمة، والناسُ أعداءُ ما يَجْهَلون. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٤): ((سُمِّيَ بالجارحة للمُبالَغة، كأنه مِن فَرْط استماعه ، صار جُملته آلةَ السَّماع ، كما سُمِّيَ الجاسوس عَيْنًا)) اهـ .

﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُم ﴾ . النبيُّ ﷺ أُذُن خَير لا أُذُن شَر ، يَسمع الخيرَ ولا يَسمع الشَّرَّ ، ويُميِّز الصادقَ مِنَ الكاذب . وهو حُجَّةٌ على الكافرين . ﴿ يُؤمِنُ باللهِ ويُؤمِنُ للمُؤمنينَ ورَحمةٌ للذينَ آمَنُوا مِنكُم ﴾ . يُصدِّق باللهِ ، ويُصدِّق المؤمنين لِمَا عَلِمَ فِيهم مِن الإيمان الصادق والأخلاق الحميدة والصفات الطيبة. والنبيُّ ﷺ يَسمع كلامَ المؤمنين، ويَقبله ، ويُصدِّقه . ولا يُصدِّق كلامَ المنافقين .

=بَل نقول ما شِئنا فإنما محمد أُذُن سامعة ، ثُمَّ نأتيه فَيُصدِّقنا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني أنَّ رَجلاً من المنافقين يُقال له : نَبْتَل بن الحارث ، كان يَنِمُّ حديثَ رسول الله ﷺ إلى المنافقين، فَقِيل له : لا تفعل ، فقال : إنما محمد أُذُن ، مَن حَدَّثه شَيئًا صَدَّقه . نقول ما شِئنا ثُمَّ نأتيه فنحلف له فَيُصدِّقنا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله محمد بن إسحاق . والثالث أنَّ ناسًا مِنَ المنافقين ، مِنهم الجُلاس بن سُوَيد ووَدِيعة بن ثابت اجتمَعوا ، فأرادوا أن يَقعوا في النبيِّ ﷺ وعِندهم غُلام من الأنصار، يُدعَى عامر بن قَيس، فَحَقَّروه، فَتَكلموا ، وقالوا : لئن كان ما يَقوله محمد حَقًّا لَنَحْنُ شَرٌّ من الحمير، فَغَضب الغلام ، وقال : واللهِ إنَّ ما يَقوله محمد حَق، وإنكم لَشَرٌّ من الحمير، ثُمَّ أتى النبيَّ ﷺ فأخبره فدعاهم، فسألهم ، فَحَلفوا أنَّ عامرًا كاذب ، وحَلَفَ عامر أنهم كَذَبوا ، وقال: اللهمَّ لا تُفرِّق بيننا حتى تُبيِّن صِدْقَ الصادق وكَذِبَ الكاذب ، فَنَزلت هذه الآية)) .

إن النبيَّ ﷺ أُذُن خَير ورحمة للمؤمنين، لأنه كان سبب إيمانهم، إذْ أرشدَهم إلى الطريق المستقيم، وهَداهم إلى الإيمان باللهِ تعالى . وأيضًا ، النبيُّ ﷺ رَحمةٌ للمنافقين ، حيث قَبِلَ إيمانَهم الظاهرَ ، ولَم يَكشف أسرارَهم ، ولَم يُعاملهم مُعاملةَ المشركين ، وأجْرَى الأحكامَ على الظاهر . ولا شَكَّ أنَّ النبيَّ ﷺ رَحمةٌ للإنس والجِن ، مُؤمنهم وكافرهم ، وهو رَحمةٌ _ أيضًا _ للشَّجَر والحيوانات والجمادات.﴿ والذينَ يُؤذُونَ رَسولَ اللهِ لَهُم عَذابٌ أليمٌ ﴾.والذينَ يَطعنون في النبيِّ ﷺ ويَعيبونه، ويُؤذونه بالقَول أو الفِعل، لهم عذابٌ شديد ، وقد أضاعوا أنفسَهم ، وأوْرَدُوها المهالِك . وقد وَصَفَ اللهُ في الآية محمدًا ﷺ بالرِّسالة ، وأضافه إلى ذاته العَلِيَّة فقال: ﴿ رَسولَ اللهِ ﴾ للتنبيه على مكانته الجليلة ، ومنزلته الرفيعة ، وأنه في حماية اللهِ تعالى ، وهو الذي تَكَفَّلَ بالدفاع عنه . وأيَّةُ إساءة للنبيِّ ﷺ تُمثِّل إساءةً في حقِّ اللهِ تعالى ، وهذا الأمر مُوجِب لغضب اللهِ وعذابه . والآيةُ تَحمل وعيدًا أكيدًا وتهديدًا شديدًا للذين يُؤذون النبيَّ ﷺ [74].

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٤) : ((﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُم ﴾ تَصديق لهم بأنه أُذُن ، ولكن لا على الوجه الذي ذَمُّوا بِه ، بَل مِن حَيث أنه يَسمع الخيرَ ويَقبله ، ثُمَّ فَسَّرَ ذلك بِقَوله : ﴿ يُؤمِنُ باللهِ ﴾ يُصدِّق بِه لِمَا قَامَ عِنده مِن الأدلة ﴿ ويُؤمِنُ للمُؤمنينَ ﴾ ويُصدِّقهم لِمَا عَلِمَ مِن خُلوصهم. واللام مزيدة للتَّفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم، وإيمان الأمان.﴿ ورَحمةٌ ﴾ أي : وهو رحمة ﴿ للذينَ آمَنُوا مِنكُم ﴾ لِمَن أظهرَ الإيمانَ ، بِحَيث يَقبله ، ولا يَكشف سِرَّه . وفيه تنبيه على أنه ليس يَقبل قَوْلَكم جَهْلاً بحالكم ، بَل رِفْقًا بِكم ، وتَرَحُّمًا عليكم)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ يَستمع للجميع ، لكنه يَميز الخبيثَ مِن الطَّيب ، ويَحكم على الظاهر إلا إذا أخبرَه الوَحْيُ بِخِلاف ذلك ، وهو مُتمسِّك بالأخلاق الصافية النقية المستندة إلى الإيمان بالله تعالى ، وتصديقِ المؤمنين ، وعدمِ الطعن فيهم إلا بِحُجَّة شرعية . فالْخُلُقُ النبويُّ الشريف يستلزم إحسانَ الظن بالآخرين ، بلا غَفلةٍ ولا جهل ولا سَذاجة.وليس مِن وظيفة النُّبوةِ التنقيبُ عن خبايا القلوب ، ورَمْي الناس بالشكوك والأوهام ، وتفتيت الجماعة المسلمة، واعتماد القِيل والقال منهجًا حياتِيًّا . فهذا يتعارض تمامًا مَعَ سُمُوِّ أخلاق النُّبوة ، ويتعارض مع الشخصية النبوية النبيلة .

---

(٧٤) قال أبو السعود في تفسيره (٤/ ٧٧): ((﴿ والذينَ يُؤذُونَ رَسولَ اللهِ ﴾ بما نُقل عنهم مِن قَولهم "هو أُذُن " ونَحوه . وفي صيغة الاستقبال الْمُشعِرة بِتَرَتُّب الوعيد على الاستمرار على ما هُم عليه ، إشعار بقبول توبتهم)) .

وبُعد النظر الذي كان يتحلى به النبيُّ ﷺ مُرتكز إلى يقين ثابت ، ووضوح الرؤية الثاقبة . فلا تستفزُّه الأحداث الجِسام ، أو تُخرجه عَن طَوْره ، ولا يهتزُّ أمام الأزمات العاصفة . فهو الْمَلاذُ الآمن عند اشتداد الْخُطُوب ، وتأجُّج نار الفِتَن .

ومِمَّا يَدل على ذلك امتناع النبيِّ ﷺ عن قتل رأس المنافقين عبد الله بن أُبَي بن سَلول ، لئلا يَقود هذا الأمر إلى تشتيت القوى المؤمنة ، وتفتيت أوصال الدولة الإسلامية ، وضرب الوَحدة الاجتماعية الإيمانية، لذلك قال النبيُّ ﷺ: ((لا يَتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمدًا يَقتل أصحابَه))[75].

وقد كانت الأخلاقُ النبوية تأخذ بأيدي الآخرين إلى النجاة، وتخرجهم من المستنقعات الكارثية التي يغرقون فيها . وقد كان النبيُّ ﷺ حريصًا أشد الحرص على إيمان الآخرين، ليس لمنفعة شخصية يَجنيها من المؤمنين ، أو زيادة راتب شهريٍّ كُلما جَمع مؤمنين أكثر، أو تجميع أتباع من هنا وهناك ليلعب دور الزعيم مُستغلاً نفوذه لامتصاص موارد البلاد والعباد .

لقد كان حِرْصُه نابعًا مِن حُبِّه للناس، وإنقاذهم من النار الأبدية، لينالوا الفوز في الدارَيْن. فلم يَقُل النبيُّ ﷺ : لقد قُمتُ بواجبي، وليذهب غير المؤمنين إلى الجحيم ، لقد حَصلتُ على الجنة ، وَلْيَكُن الطوفانُ مِن بَعْدي . لَم يفعل ذلك ، لأنَّ أخلاقَه السامية تدفعه إلى تعزيز الأُخُوَّة البشرية ، والحرص على إنقاذ الناس حتى اللحظة الأخيرة ، ومساعدتهم إلى أقصى درجات المساعدة ، لِيَنالوا النعيمَ ، ويَنبذوا الشقاءَ . فلم تكن النُّبوةُ إلا خَلاصًا للبشرية، ولَيْسَ لَعنةً على الإنسانية ، أو حِمْلاً ثقيلاً على كاهل المخلوقات .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ومِنهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِن آتانا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَّنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ [التَّوبة : ٧٥] .

وَمِن هؤلاء المنافقين يا محمد مَن أعطى اللهَ عَهْدَه، وقال: عليَّ عَهْد الله، إذا أغنانا اللهُ، ومَنَحَنَا المالَ، ووسَّع عَلَينا ، سَنُخْرِج الصدقةَ ، ونَحرص على الإنفاق في سبيل اللهِ ، ونكون مِن الصالحين الذي يُؤدُّون حَقَّ اللهِ في أموالهم ، ونعمل بعمل أهل التقوى والصلاح في أموالهم مِن صلة الرَّحِم والنفقة في الخير. وقد كَذَبَ فِيما قَال، وأخلفَ وَعْدَه، ونَكَثَ عَهْدَه. ولَم يقم بالوفاء بما تعهَّد بِه .

والآيةُ تُحذِّر مِن الكذب ، وعدم الالتزام بعهد اللهِ تعالى ، فإنه يستجلب غضب الله وعذابه .

(٧٥) متفق عليه. البخاري(٤/ ١٨٦١)برقم(٤٦٢٢)،ومسلم (٤/ ١٩٩٨) برقم (٢٥٨٤).

وفي تفسير القرطبي (٨/ ١٩٠):((قال عُلماؤنا: لَمَّا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ومِنهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ احتمل أن يكون عاهدَ اللهَ بلسانه ، ولَم يعتقده بقلبه. واحتمل أن يكون عاهدَ اللهَ بهما، ثُمَّ أدركته سُوء الخاتمة ، فإن الأعمال بخواتيمها ، والأيام بعواقبها)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٧٢و٤٧٣): ((قَوله تعالى: ﴿ ومِنهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال : أحدها أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ادْعُ اللهَ أن يَرزقني مالاً ، فقال : " وَيْحَكَ يا ثعلبة ، قليل تُؤَدِّي شُكْرَه خَيْرٌ مِن كثير لا تُطيقه " . قال : ثُمَّ قال مَرَّةً أخرى . فقال : " أمَا ترضى أن تكون مِثْلَ نبيِّ الله ، فوالذي نَفْسي بيده لو شِئْتُ أن تسير مَعِيَ الجبال ذَهَبًا وفِضَّةً لَسَارت " ، فقال : والذي بعثك بالحق لَئِن دَعوتَ اللهَ أن يَرزقني مالاً لأُوتِيَنَّ كُلَّ ذِي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ : " اللهُمَّ ارزق ثعلبةَ مالاً " . فاتَّخذَ غَنَمًا ، فَنَمَت ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، ونزل واديًا مِن أوديتها ، حتى جعل يُصلِّي الظهر والعصر في جماعة ، ويترك ما سِواهما ، ثُمَّ نَمَت حتى ترك الصلوات إلى الْجُمُعة ، ثُمَّ نَمَت ، فترك الجمُعة ، فسألَ عنه رسولُ الله ﷺ ، فَأُخْبِرَ خَبَرَه ، فقال : " يا وَيْحَ ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة " . وأنزل اللهُ تعالى : ﴿ خُذ مِن أموالهم صَدَقة ﴾ ، وأنزل فرائض الصَّدقة ، فبعث رسولُ الله ﷺ رَجلين على الصدقة، وكتب لهما كتابًا يأخذان الصدقة، وقال: " مُرَّا بثعلبة وبِفُلان ــ رَجل من بني سُلَيم ــ ". فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذا إلا جِزية ، ما هذه إلا أُخت الجِزية ، ما أدري ما هذا ، انطلقا حتى تَفْرغا ، ثُمَّ تعودا إِلَيَّ ، فانطلقا ، فَأُخْبِرَ السُّلَمي ، فاستقبلهما بِخِيار ماله ، فقالا : لا يجب هذا عليك ، فقال : خُذاه ، فإن نَفْسي بذلك طَيِّبة ، فأخذا منه ، فلمَّا فَرَغا مِن صدقتهما مَرَّا بثعلبة ، فقال : أروني كتابكما ، فقال : ما هذه إلا أخت الجِزية ، انطلقا حتى أرى رأيي ، فانطلقا فأخبرا رسول الله ﷺ بما كان . فَنَزلت هذه الآية إلى قَوله : ﴿ بِما كانوا يَكْذِبُون ﴾ . وكان عند رسول الله ﷺ رَجل مِن أقارب ثعلبة، فخرج إلى ثعلبة، فأخبره، فأتى رسولَ الله ، وسَأله أن يَقبل مِنه صَدَقته ، فقال : " إن الله قد منعني أن أقبل مِنك صدقتك " ، فجعل يَحثو التراب على رأسه ، فقال :" هذا عملك ، قد أَمَرْتُكَ فلم تُطِعْني " ، فرجع إلى مَنْزله ، وقُبِض رسولُ الله ، ولَم يَقبل منه شيئًا . فلمَّا وَلِيَ أبو بكر ، سأله أن يَقبل منه ، فأبى . فلمَّا وَلِيَ عُمر ، سأله أن يَقبل منه ، فأبى ، فلمَّا وَلِيَ عُثمان ، سأله أن يقبلها ، فقال : لَم يَقْبلها رسول الله ولا أبو بكر ولا عُمر ، فلم يَقْبَلْها . وهَلَكَ ثعلبة في خِلافة عثمان ــ رضي اللهُ عنه ــ . روى هذا الحديث القاسم ، عن أبي أُمامة الباهلي .

وقال ابن عباس : مَرَّ ثعلبة على مجلس ، فأشهدهم على نَفْسه ، لَئِن آتانيَ اللهُ مِن فضله ، آتَيْتُ كُل ذِي حَق حقه ، وفعلتُ كذا وكذا ، فآتاه الله مِن فضله ، فأخلف ما وَعَد ، فَقَصَّ اللهُ عَلَينا شَأنَه ...)) اهـ . هذه القصةُ باطلة رغم شُهرتها عند المفسِّرين ، لأن ثعلبة بدري أنصاري ، ومِمَّن شَهِدَ اللهُ له ورسوله بالإيمان.وبالتالي، لا يمكن أن يكون مُنافِقًا. وقد طعن كثيرٌ مِن العلماء في سند هذه القصة. وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((اعتبروا المنافقين بثلاث ، إذا حَدَّثَ كَذَب ، وإذا وَعَدَ أخلفَ ، وإذا عَاهَدَ غَدَر . وأنزلَ اللهُ تصديقَ ذلك في كتابه: ﴿ ومِنهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِن آتانا مِن فَضْلِهِ ﴾ _ إلى آخر الآية _)) [76].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلمَّا آتاهُم مِن فَضْلِهِ بَخِلوا بِهِ وتَوَلَّوا وهُم مُعْرِضُون ﴾ [التَّوبة : ٧٦] .

لَمَّا رَزقهم اللهُ، وأعطاهم مِن فَضْله ، وأنعمَ عليهم بكثرة المال ، بخلوا به ، ومَنعوا حَقَّ الله مِنه، ولَم يَتصدَّقوا ، ولَم يُنفقوا مِنه في سبيل الله، ونَكثوا عهدهم مَعَ اللهِ ، ولَم يلتزموا بِه ، وأعرَضوا عن الإسلام والطاعات وإخراج الصدقات، وأعرَضوا عن عهدهم . وهُم مُصِرُّون على الإعراض ، والإعراضُ هو دَيْدَنهم وعادتهم وطريقتهم في الحياة .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ٨٥) : ((﴿ وهُم مُعْرِضُون ﴾ جُملة مُعترِضة ، أي : وَهُم قَوم عادتهم الإعراض ، أو حالية ، أي : تَوَلَّوْا بإجرامهم ، وهُم مُعْرِضُون بقلوبهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فأعقبهم نِفاقًا في قُلوبِهم إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وبِما كانوا يَكْذِبُون ﴾ [التَّوبة : ٧٧] . لقد جَعل اللهُ عاقبةَ أمرهم هي النِّفاق ، وعاقبهم بنفاق قلوبهم ، وحَرَمهم مِن التَّوبة إلى يوم القِيامة، ومَنَعَهم من الإيمان ، وحَجَبَه عنهم ، عُقوبةً لهم على سُوءِ أفعالهم ، وفساد قلوبهم ، وجَزاءً لإخلافهم العهد،وكَذِبهم في الوعد . والنفاقُ في القلب كُفر ، أمَّا النفاق في الأعمال فهو معصية. فأعقبهم اللهُ بسبب بُخلهم ومَنعهم للصَّدقات وإعراضهم عن الإيمان والطاعات ، نِفاقًا راسخًا ومُتَمَكِّنًا مِن قلوبهم إلى يَوم يَلْقَوْنَ اللهَ بالموت ، أو يَلْقَوْن جَزاءَ بُخلهم ، وهو عذاب النار يوم القِيامة . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ١٩٤) : ((وَقِيل : ﴿ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي : يَلْقَوْنَ اللهَ . وفي هذا دليل على أنه مات منافقًا ، وهو يبعد أن يكون الْمُنَزَّل فيه ثعلبة بن حاطب لأن النبيَّ ﷺ قال لعمر: " وما يُدريك ؟، لعلَّ اللهَ اطَّلعَ على أهل بدر، فقال اعملوا ما شِئتم فقد غَفرتُ لكم " . وثعلبة بن حاطب مِمَّن حضر بَدْرًا وشَهِدها)) اهـ .

---

(٧٦)رواه الطبراني في الكبير(٩/٢٢٢).قال الهيثمي في المجمع(١/ ٣٠١):((رجاله رجال الصحيح)).

﴿ بِما أخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وبِما كانوا يَكْذِبُون ﴾ ، أي : بسبب نَكثهم لِعَهدهم مَعَ الله ، وإخلافهم للوعد الذي قَطَعوه على أنفسهم وهو التَّصدق والصلاح والتقوى . إنَّ كَذِبهم يتَّضح في نقضهم العهد ، وعدم الوفاء بما التزموه . وهُم مُصِرُّون على الكذب في كل حالاتهم . والجديرُ بالذِّكر أن خَلْف الوعد هو ثُلث النفاق . وأيضًا خَلْف الوعد عبارة عَن كِذْبَتَيْن مَعًا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٧٥) : ((قَولـه تعالى : ﴿ فأعقبهم ﴾ أي صَيَّرَ عاقبةَ أمرهم النفاق . وفي الضمير في " أعقبهم " قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى الله ، فالمعنى جازاهم الله بالنفاق ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد . والثاني أنها ترجع إلى البُخل، فالمعنى أعقبهم بُخلهم بما نذروا نِفاقًا، قاله الحسن)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يتَّخذ ما يُنفِق مَغرمًا ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السَّوْء واللهُ سميع عليم ﴾ [التَّوبة : ٩٨] [77].

مِن الأعراب مَن يعتبر تقديم المال وإنفاقه في سبيل الله كالجهاد والصدقة خسارةً كبرى ، ومشروعًا فاشلاً لا يَعود عليه بالربح، وذلك لأنه يُنفِق رِياءً وتَقِيَّةً وخَوْفًا مِن المسلمين ، ولا يُنفِق لِوَجْهِ الله تعالى ، وابتغاءِ الأجْرِ عِندَه . كما أن عقله محصور في الأرباح المادية ومنطق الربح والخسارة من منظور شكلي، لا ينطلق من إيمان راسخ بأن الله تعالى رزاق يُثيب الْمُنفِقين، ويرزقهم السعادة والرضا والمكاسب الروحية والمادية في الدنيا، ويُعِدُّ لهم نعيمًا أُخْرَوِيًّا لا يَنفد ، جزاءَ ما قَدَّموه من مال في سبيل الدعوة . قال الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ومِن الأعراب مَن يُعِدُّ نفقته التي يُنفقها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم ، أو في بعض ما نَدَبَ اللهُ إليه عباده ﴿ مَغرمًا ﴾ .يعني: غُرْمًا لَزِمَه لا يرجو له ثوابًا ، ولا يدفع به عن نفْسه عقابًا)).

وهؤلاء المنافِقون ينتظرون حدوث المصائب في صفوف المسلمين، مِمَّا يدل على خُبثهم وفساد بواطنهم . لكن المصائب ترتد عليهم . وعليهم تقع دائرة السَّوْء . وسُلوكُهم ينطلق من حقد

(٧٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٨٨):((قَوْله تعالى: ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يتَّخذ ما يُنفِق ﴾ إذا خرج في الغزو . وقِيل: ما يَدفعه من الصدقة مَغرَمًا، لأنه لا يرجو له ثوابًا. قال ابن قُتَيْبة : الْمَغرَم هو الغُرْم والخُسْر . وقال ابن فارس: الغُرْم ما يَلزم أداؤه، والغرام اللازم. وسُمِّيَ الغريم لإلحاحه وقال غَيْره : الغُرْم التزام ما لا يَلْزَم. قَوْله تعالى: ﴿ ويتربص ﴾ أي: وينتظر بكم الدوائر، أي دوائر الزمان بالمكروه، بالموت ، أو القتل ، أو الهزيمة . وقِيل : يَنتظر مَوْتَ الرسول ﷺ وظُهور المشركين)).

دفين على الدعوة الإسلامية ، لذلك يحاولون الاصطياد في الماء العَكِر بكل قُوَّتهم ، ولا يدَّخرون في ذلك جُهدًا. كما أنهم يترقبون نزول المصائب على المسلمين وغرقهم في الكوارث كي تضعف قُوَّتهم ، ويخسروا نفوذهم ، وتُستأصل شأفتهم ، ويُقضَى على وجودهم . الأمرُ الذي يُفسِح المجالَ لقوى الظلام بأن تنتشر ، وتبث باطلها ، وتعيد الناس إلى الضلال من أجل استغلالهم لصالح طبقة الفاسدين والمفسِدين . لكنَّ الله تعالى حافظٌ دِينَه ، وناشرٌ شريعَتَه ، شاء مَن شاء وأبى مَن أبى . ولا يمكن لأحد أن يوقف نورَ الشمس ، مهما امتلك من الوسائل والإمكانيات الهائلة . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢١٤) : ((والدوائر جمع دائرة وهي الحالة المنقلِبة عن النِّعمة إلى البَلِيَّة ، أي يَجمعون إلى الجهل بالإنفاق سُوءَ الدُّخلة (باطن الأمر) ، وخُبثَ القلب)) اهـ . ﴿ واللهُ سميع عليم ﴾ . واللهُ سَميع لأقوال عباده ، عليم بأفعالهم .

والقرآنُ حَكَمٌ عادل ، فكما أنه قَدَّم صورةً لكُفر الأعراب ونِفاقهم وقَسوة طِباعهم ، قَدَّم صورةً طيبة للصالحين من الأعراب المؤمنين بالله واليوم الآخِر ، وهُم القِسْم الممدوح لا المذموم .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ومِن الأعراب مَن يؤمن بالله واليومِ الآخِر ويتَّخذ ما يُنفِق قُرُباتٍ عند الله وصلواتِ الرسول ﴾[التَّوبة : ٩٩] [78].

مِن الأعراب مَن يؤمن بِوَحدانية الله والثواب والعقاب بعد الموت، ويُنفِق في سبيل الله تعالى مُخلِصًا في ذلك ، راجيًا الأجر من الله تعالى، ومُتَطَلِّعًا إلى استغفار الرسول ﷺ له ودعائه . وسُمِّيت الصلاة بالدُّعاء لأنهم كانوا يَدْعُون فيها. ومن الأدلة على ذلك صلاةُ الجِنازة ، فهي دُعاء، وليس فيها رُكوع ولا سُجود. وروى الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥٢) عن مجاهد في هوية هؤلاء الأعراب المؤمنين قال : ((هُم بَنُو مُقَرِّن مِن مُزَيْنة)) اهـ .

والأعرابُ لا يمكن وضعهم في خانة واحدة ، فهناك المؤمن فيهم وهناك الكافر . وقد أنصفَ القرآنُ مؤمني الأعراب وأشاد بأفعالهم الطيبة ، وفضحَ الكافرين بأن وضَّح انحرافهم وجهلهم .

---

(٧٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٨٩): ((قَوْله تعالى : ﴿ ومِن الأعراب مَن يؤمن بالله ﴾ قال ابن عباس : وهُم مَن أسْلَمَ مِن الأعراب مثل جُهَيْنَة وأسْلَم وغِفَار. وفي قَوْله: ﴿ ويتَّخذ ما يُنفِق ﴾ قَوْلان. أحدهما في الجهاد.والثاني في الصَّدقة. فأمَّا القُرُبات فَجَمْع قُرْبة،وهي ما يُقرِّب العبدَ من رِضى الله ومحبته . قال الزَّجاج : وفي القُرُبات ثلاثة أوجه : ضم الرَّاء وفتحها وإسكانها . وفي المراد بصلوات الرسول قَوْلان: أحدهما استغفاره، قاله ابن عباس. والثاني دعاؤه ، قاله قتادة وابن قُتَيْبة والزَّجاج)).

وقال الشاطبي في الموافقات (٣/ ١١٥) : ((والمقصود أن عموم الأعراب مخصوص بمن كَفر دُون مَن آمَن)) اهـ . وقال الأبشيهي في الْمُسْتَطْرَف (٢/ ١٢) : ((وسَمِعَ أعرابيٌّ قَوْلَه تعالى : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كُفرًا ونفاقًا ﴾ ، فانتفضَ ، ثم سَمِعَ قَوْلَه تعالى : ﴿ ومِن الأعراب مَن يؤمن بالله واليومِ الآخِر ﴾ ، فقال : الله أكبر ، هَجَانا ثُمَّ مَدَحَنا . وكذلك قال الشاعر :

هَجَوْتُ زُهَيْرًا ثُمَّ إني مَدَحْتُهُ وما زالت الأشرافُ تُهجَى وتُمدَحُ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ومِمَّن حَوْلكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنُعذِّبهم مرَّتَيْن ثم يُرَدُّون إلى عذابٍ عظيم ﴾ [التَّوْبة : ١٠١] .

يتواصل توضيح أحوال المنافقين الدنيئة . فهؤلاء المنافقون الذين هم حَوْل المدينة : مُزَيْنة ، وجُهَيْنَة ، وأسْلَم ، وغِفَار ، وأشْجَع . ومن أهل المدينة (الأوس والخزرج) منافقون أيضًا ، أقاموا على النفاق وغرقوا فيه فلم يُفارقوه، وتخصَّصوا فيه، فَخَفِيَ أمرُهم على النبيِّ ﷺ والمؤمنين، فلم يَقْدِروا على تحديد أسمائهم، لكن الله تعالى يَعْلَمهم، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . وينتظرهم عذابان قبل نار الآخرة وهما : عذاب في الدنيا وعذاب في القبر[79]، كَي يذوقوا جزاء أعمالهم البشعة الرامية إلى القضاء على الدعوة الإسلامية ، وإعادة الناس إلى الكفر والضلال .

---

(٧٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٩٢و٤٩٣) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ سنُعذِّبهم مرَّتَيْن ﴾ ، فيه عشرة أقوال : أحدها أن العذاب الأول في الدنيا وهو فضيحتهم بالنفاق ، والعذاب الثاني عذاب القبر قاله ابن عباس ، قال : وقام رسول الله ﷺ يَوْمَ جُمُعةٍ خطيبًا ، فقال : " يا فُلان اخْرُجْ فإنك منافق ، ويا فلان اخْرُجْ " ففضحهم . والثاني أن العذاب الأول إقامة الحدود عليهم ، والثاني عذاب القبر ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا . والثالث أن أحد العذابَيْن الزكاة التي تؤخذ منهم ، والآخَر الجهاد الذي يُؤمرون به، قاله الحسن . والرابع الجوع وعذاب القبر ، رواه شبل عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد وبه قال أبو مالك . والخامس الجوع والقتل ، رواه سفيان عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد . والسادس القتل والسَّبْي ، رواه مَعْمَر عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد ، وقال ابن قُتَيْبة : القتل والأَسْر .والسابع أنهم عُذِّبوا بالجوع مَرَّتين ، رواه خُصَيْف عن مجاهد . والثامن أن عذابهم في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد وفي الآخرة بالنار ، قاله ابن زَيْد . والتاسع أن الأول عند الموت تَضرب الملائكةُ وُجوهَهم وأدبارهم والثاني في القبر بِمُنكَر ونكير ، قاله مُقاتِل بن سليمان. والعاشر أن الأول بالسَّيْف والثاني عند الموت ، قاله مُقاتِل بن حَيَّان)).

وعن ابن عباس : في قَوْله : ﴿ ومِمَّن حَوْلكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنُعذِّبهم مرَّتَيْن ثم يُرَدُّون إلى عذابٍ عظيم ﴾ . قال : قامَ رسول الله يَوْمَ جُمُعةٍ خطيبًا ، فقال : ((قُم يا فُلان فاخْرُجْ ، فإنك منافق ، اخْرُجْ يا فلان فإنك منافق))، فأخْرَجَهم بأسمائهم، ففضحهم ، ولَم يكن عمر بن الخطاب شَهِدَ تلك الْجُمُعة لحاجة كانت له ، فَلَقِيَهُم عُمر ، وهُم يَخرجون من المسجد، فاختبأ منهم استحياءً أنه لَم يَشهد الْجُمُعة، وظنَّ الناسَ قد انصرَفوا ، واختبؤوا هُم مِن عُمر ، فظنوا أنه قد عَلِمَ بأمرهم ، فدخل عمر المسجد، فإذا الناس لَم ينصرفوا ، فقال له رَجل : أَبْشِرْ يا عمر ، فقد فضح اللهُ المنافقين اليوم ، فهذا العذاب الأول ، والعذاب الثاني عذاب القبر[80].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ فَمِنْهُم مَن يَقولُ أيُّكُم زادَتْهُ هَذِهِ إيمانًا فأمَّا الذينَ آمَنوا فزادَتْهُم إيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون ﴾ [التَّوْبة : ١٢٤]. إذا أنزلَ اللهُ سُورةً مِن سُوَرِ القُرآنِ على رسوله محمد ﷺ ، فَمِنَ المنافقين مَن يَقول استهزاءً وسُخريةً : أيُّكم زادَتْهُ هذه السُّورةَ تَصديقًا باللهِ وآياتِه . والمنافقون إنما يُخاطِبُون إخوانَهم لِيُثَبِّتوهم على النِّفاق، أو يُخاطبون ضُعفاءَ المؤمنين لكي يُخرِجوهم من الإيمان إلى الكفر . وقد فَضَحَهم اللهُ، وَكَشَفَ باطلَهم . ويأتي الرَّدُّ الإلهيُّ الواضح : فأمَّا الذينَ آمَنوا فزادَتْهُم يَقينًا وتَصديقًا وثباتًا وخَشيةً، ويَفرحون بِنُزول القُرآن، لأنه يَشتمل على المنافع الدينية والدُّنيوية ، وهو مَصْدَرُ سعادتهم في الدُّنيا والآخِرة . كما أنَّ زِيادةَ التكليف دليلُ التشريف. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٠) : ((﴿ فأمَّا الذينَ آمَنوا فزادَتْهُم إيمانًا ﴾ بِزيادة العِلْم الحاصل مِن تدبُّر السُّورة ، وانضمام الإيمان بها وبِما فيها إلى إيمانهم . ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون ﴾ بِنُزولها ، لأنها سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم)) اهـ . والجديرُ بالذِّكر أن الآية : ﴿ فأمَّا الذينَ آمَنوا فزادَتْهُم إيمانًا ﴾ دليلٌ واضح على أن الإيمان يَزيد ويَنقُص . وما جازَ عليه الزيادة ، جازَ عَلَيهِ النُّقصان . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأمَّا الذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ فزادَتْهُم رِجْسًا إلى رِجْسِهِم وماتوا وَهُم كافرون ﴾ [التَّوْبة : ١٢٥].

يُوَاصِلُ القُرآنُ صَعْقَ المنافقين وإفحامَهم وفَضْحَهم . فكما أن السُّورة مِنَ القُرآن تَزيد المؤمنين إيمانًا ، فكذلك تَزيد المنافقين شَكًّا إلى شَكِّهم.وأمَّا الذينَ في قلوبهم شَكٌّ وريبةٌ ونِفاق ،

(٨٠) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٤١) برقم (٧٩٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١١) : ((رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي ، وهو ضعيف)) اهـ .

فزادَتْهُم شَكًّا إلى شَكِّهم ، وكُفرًا إلى كُفرهم ، وإِثْمًا إلى إثمهم ، وكُلما نَزلتْ سُورةٌ كَفروا بِها ، وكلما كَفَروا بِسُورةٍ ازدادَ كُفْرُهم ، وسيطرَ الكُفرُ على قلوبهم ، إلى أن يَموتوا عَلَيْهِ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٤/ ١١٣): ((﴿ وأمَّا الذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ ﴾ أي: كُفْرٌ وسُوءُ عَقيدة ، ﴿ فزادَتْهُم رِجْسًا إلى رِجْسِهِم ﴾ أي: كُفرًا بها(بالسُّورة) مَضمومًا إلى الكفر بِغَيرها، وعقائد باطلة، وأخلاقًا ذميمة كذلك)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٥١٨) : ((وفي المراد بالرِّجْس ثلاثة أقوال : أحدها الشَّك ، قاله ابن عباس. والثاني الإثم ، قاله مُقاتِل . والثالث الكفر ، لأنهم كُلما كَفروا بِسُورةٍ زَادَ كُفْرُهم ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوَلا يَرَوْنَ أنهم يُفْتَنُونَ في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ ولا هُم يَذَّكَّرُون ﴾ [التَّوبة : ١٢٦] .

أوَ لا يَرى هؤلاء المنافقون أن اللهَ يَختبرهم بالقحط والشِّدة، ويَمتحنهم بالأمراض التي هي بريد الموت ، ويَبتليهم بالغزو والجهاد مَعَ النبيِّ ﷺ ، ثُمَّ لا يتوبون مِن ذُنوبهم ومعاصيهم ، ولا يَرتدعون ولا يَتركون النفاقَ، ولا يُؤمنون، ولا يَستفيدون مِن حُجَج اللهِ وآياتِه ، ولا يتَّعظون بِها ، ويبقون مُصِرِّين على النفاق ، ثابتين عليه ؟ . والهمزةُ في ﴿ أوَلا ﴾ للإنكار والتوبيخ والتقريع .

وليسَ المقصود مِن ﴿ مَرَّةً أوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ العدد بالضبط ، وإنما المراد التكثير .

إنَّ هؤلاء المنافقين لا يَعتبرون ، ولا يَنظرون في الأدلة والبراهين ، ولا يتفكرون في أحوالهم ، ولا يتَّعظون بما يُشاهدونه مِن انتصارات النبيِّ والمؤمنين ، ولا يَتأمَّلون في صِدْق الوعد الإلهيِّ بنصر الإسلام. وهذا تَعجيبٌ مِنَ اللهِ للمؤمنين مِن حال المنافقين ، وعِنادهم ، وغُرورهم ، واستكبارهم ، وإصرارهم على النفاق ، وتمسُّكهم بِه ، وتركهم للتفكر والاتِّعاظ والتأمُّل والاعتبار .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥١٩ و٥٢٠): ((وفي معنى ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ ثمانية أقوال : أحدها يَكْذِبون كِذبة أو كذبتين يُضَلُّون بِها ، قاله حُذَيفة بن اليمان. والثاني يُنافقون ثم يؤمنون ثم يُنافقون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثالث يُبْتَلون بالغزو في سبيل الله، قاله الحسن وقتادة. والرابع يُفْتَنون بالسَّنة والجوع ، قاله مجاهد . والخامس بالأوجاع والأمراض، قاله عطية. والسادس يَنقضون عهدهم مرة أو مرتين، قاله يمان.والسابع يَكفرون،وذلك أنهم كانوا إذا أخبرهم النبيُّ ﷺ بما تكلموا بِه إذْ خَلَوا علموا أنه نبيٌّ ، ثم يأتيهم الشيطان فيقول: إنما بَلَغه هذا عنكم فَيُشْرِكون، قاله مقاتل بن سليمان . والثامن يُفْضَحون بإظهار نفاقهم ، قاله مقاتل بن حيان . قَوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ ﴾ أي : مِن نِفاقهم . ﴿ ولا هُم يَذَّكَّرُون ﴾ أي : يَعتبرون ويَتَّعظون)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ نظرَ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُم مِن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفوا صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم بأنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهون ﴾ [التَّوْبة : ١٢٧] . فَضَحَ اللهُ المنافقين . فإذا أُنزِلَت سُورةٌ مِنَ القُرآن ، فإن قلوبهم تضطرب وتشمئز رافضةً لنور الحق، فهم ينظرون إلى بعضهم البعض مُتلفِّتين من أجل الهروب من حقيقة القُرآن ، والفِرار من مجلس النبيِّ ﷺ ، فلا يريدون الاستماع إلى القرآن الكريم ، لذلك يَفِرُّونَ مِنه وينصرفون عنه ، لأن الخفافيش لا تُطيق ضوءَ النهار . وَلَو استقر الإيمانُ في قلوبهم لاحتضنت كلامَ الله تعالى وتَدَبَّرَتْه، ولكنَّ القرآنَ لا يمكن أن يستقر في قلب نجس غير نظيف . فالأزهارُ لا تنبت في المزابل. لقد صَرَفَ اللهُ قلوبهم عن الإيمان والخير والهدى بسبب خُبثهم . لقد خَذَلهم اللهُ بسبب أفعالهم الدنيئة ، وأغلقَ أمامَهم بابَ الهداية ، فَهُم قَوم لا يَفهمون آياتِ اللهِ ، ولا يَتدبَّرونها . والآيةُ تَكشف تصرُّفاتِ المنافقين المستندة إلى الخداع والرياء ، وتَفضح مخططاتهم الشريرة التي لا يَحكمها وازعٌ دِيني ولا دافعٌ أخلاقي ، لأن أمانيهم محصورة في الحياة الدنيا دون التفكر في الحساب بعد الموت . فالتخندقُ في المصلحة الذاتية الآنية الزائلة يجعلهم لا ينظرون إلى ما وراء الأحداث بعينٍ إيمانية ، وهذا أدى إلى وجود البصر في اصطياد الأزمات مع غياب تام للبصيرة . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨١) : ((﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ نظرَ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ ﴾ تغمَّزوا بالعُيون إنكارًا لها وسُخريةً ، أو غَيظًا لِمَا فيها مِن عُيوبهم . ﴿ هَلْ يَراكُم مِن أَحَدٍ ﴾ أي: يقولون : هَل يراكم أحد إن قُمتم مِن حضرة الرسول ﷺ ، فإن لَم يَرَهم أحد قاموا ، وإن يَرَهم أحد أقاموا . ﴿ ثُمَّ انصَرَفوا ﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة . ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم ﴾ عن الإيمان وهو يَحتمل الإخبار (عَنهم) والدعاء (عليهم) . ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لا يَفْقَهون ﴾ لِسُوء فَهمهم أو لعدم تدبُّرهم)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٧٢) : ((أخبرَ اللهُ _ سُبحانه وتعالى _ في هذه الآية أنه صارفُ القلوبِ ومُصَرِّفُها وقَالِبُها ومُقَلِّبُها، رَدًّا على القَدَريةِ في اعتقادهم أن قلوبَ الخلق بأيديهم، وجوارحَهم بِحُكْمهم ، يتصرفون بمشيئتهم ، ويَحكمون بإرادتهم واختيارهم)) اهـ .

وعن أبي العالية قال : كنتُ أطوفُ معَ ابن عباس بالبَيت ، فكان يأخذ بِيَدِي ، فَيُعَلِّمُني لَحْنَ الكلام ، فقال : ((يا أبا العالية، لا تَقُلْ: انصَرَفْتُم مِنَ الصلاة ، ولكنْ قُل : قَضَيْتُم الصلاةَ ، فإنَّ الله تعالى يَقول : ﴿ انصَرَفوا صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم ﴾))(81).

(٨١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٦٨) برقم (٣٢٩٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

واللحْنُ هو الخطأُ في الكلام . ومن الواضح أن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ يَرفض كلمةَ الانصراف في هذا السياق ، مُحْتَجًّا بالآية الكريمة ، ويَرى استخدام كلمة القضاء .

وفي لسان العرب (١٣/ ٣٧٩) : ((قال أَبو عُبَيْد : وإنما سَمَّاهُ لَحْنًا ، لأَنَّه إذا بَصَّره بالصواب ، فقد بَصَّره اللَّحْن)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ما يأتيهم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهم مُحْدَثٍ إلا استمعوهُ وهُم يَلْعَبُون﴾[الأنبياء: ٢].

ما يَنْزِل عليهم شَيء مِن القُرآن مِن عِند اللهِ ، جديدٌ إنزاله ، لتذكيرهم وموعظتهم وهدايتهم إلى الحق، إلا استمعوه بِسُخرية واستهزاء ، لا يَعتبرون ولا يَتَّعظون ، بسبب غفلتهم وجهلهم وعنادهم وإعراضهم عن التفكر في آيات اللهِ، والنظرِ في حُجَجه وبراهينه.أي إنهم كانوا لا يُصغون إلى الوَحْي الإلهيِّ، ولا يهتمون بشأنه . والخطاب شامل لجميع الكفار (قُرَيش وغَيرهم) .

ما يُحْدِثُ اللهُ مِن تَنْزيل شَيء مِن القرآن، لتذكيرهم، وإرشادهم، وتعليمهم ، وتنبيههم مِن غفلتهم وجَهلهم ، إلا استمعوه في حالة اللعب ، لذلك لا يَنتفعون بالقُرآن ولا يصل إلى قلوبهم .

كُلَّما جَدَّدَ اللهُ لهم الوَحْيَ ، وتتابعَ نُزولُه من أجل تذكيرهم وموعظتهم ، جَدَّدُوا الكُفرَ والضلالَ والإعراضَ عنه . أي : كُلما نَزَلَ القُرآن كَفروا بِه،فازدادوا كُفْرًا إلى كُفرهم، وضلالاً إلى ضلالهم. وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٧): ((ومعنى ﴿ يَلْعَبُون ﴾ أي: يَلْهُون، وقِيل: يشتغلون . فإنْ حُمِل تأويله على اللهو احتمل ما يلهو به وجهين : أحدهما : بلذاتهم . الثاني : بِسَماع ما يُتلَى عليهم . وإنْ حُمِل تأويله على الشُّغل ، احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما : بالدنيا لأنها لَعِب ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْو ﴾ [محمد : ٣٦]. الثاني: يتشاغلون بالقَدْح فيه والاعتراض عليه. قال الحسن: كُلَّما جُدِّدَ لهم الذِّكر، استمروا على الجهل . وقِيل : يستمعون القُرآن مُستهزئين)) اهـ .

والقُرآنُ مُتجدِّد في النُّزول، فقد كانَ يَنْزِل آيةً بعد آية، وسُورةً بعد سورة . ونُزول القُرآن مُحْدَث مُتجدِّد ، وليس القُرآنُ مُحْدَثًا ولا مُتَجَدِّدًا .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٥٤) : ((وقَوله: ﴿ ما يأتيهم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهم مُحْدَثٍ ﴾ ، فالمراد أن تَنْزيله إِلَينا هو الْمُحْدَثُ ، لا الذِّكْر نَفْسه . وبهذا احتجَّ الإمام أحمد)) اهـ .

والقُرآنُ كلام الله. لفظُه مخلوق حادث، أمَّا مَعناه فهو قديم غَير مخلوق، لأن معناه مِن عِلْم اللهِ. وعِلْمُ الله لا يُوصَف بالحدوث. فالعِلْمُ صِفة للهِ ، وصفات الله قديمة قِدَم ذاته . واللهُ واحدٌ في ذاته ، وواحد في صِفاته .

والآية﴿مِن رَبِّهم﴾ تدل على شرف القُرآن وفضله ورِفعة شأنه ، وتدل أيضًا على أن محمدًا ﷺ لا يأتي بشيء مِن عنده، والقُرآن كلام اللهِ أنزله على النبيِّ محمد ﷺ لتبليغه للناس بلا زيادة ولا نقصان.والنبيُّ ﷺ لا يتكلم إلا بالوَحْي، لذلك كانَ كلامُه معصومًا. وفي الآية إشارةٌ إلى عِظَم جريمة الْمُكذِّبين بالقُرآن، إذ إنهم يُكذِّبون بكلام رَبِّهم ، وليس بكلام شخص مِن الناس .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/٣٣٩):((قَوله تعالى:﴿ما يأتيهم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهم مُحْدَثٍ ﴾ وفي هذا الذِّكر ثلاثة أقوال : أحدها أنه القُرآن ، قاله ابن عباس . فعلى هذا تكون الإشارة بِقَوله : ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ إلى إنزاله له ، لأنه أُنزِل شيئًا بعد شيء . والثاني أنه ذِكْر مِن الأذكار وليس بالقرآن، حكاه أبو سليمان الدمشقي. وقال النَّقاش: هو ذِكْر من رسول الله وليس بالقرآن . والثالث أنه رسول الله بدليل قَوله في سِياق الآية : ﴿ هَلْ هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُم ﴾ ، قاله الحسن بن الفضل)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٦٨) : ((﴿ ما يأتيهم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهم مُحْدَثٍ ﴾ ، " مِن " لابتداء الغاية. وقد اسْتُدِل بِوَصف الذِّكْر لِكَونه مُحْدَثًا على أن القرآن مُحْدَث، لأن الذِّكْر هنا هو القرآن ، وأُجِيب بأنه لا نزاع في حُدوث الْمُرَكَّب من الأصوات والحروف ، لأنه مُتجدِّد في النُّزول . فالمعنى : مُحْدَثٌ تَنْزيله . وإنما النِّزاع في الكلام النَّفسي ، وهذه المسألة : أعني قِدَم القُرآن وحُدوثه قد ابْتُلِيَ بها كثير من أهل العِلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية. وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل، وضُرِب بسببها عُنق محمد بن نصر الخزاعي ، وصارت فِتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده ، والقصة أشهر مِن أن تُذكَر . ومن أحب الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبي ، ولقد أصاب أئمة السُّنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحُدوثه ، وحَفِظَ اللهُ بِهم أُمَّة نَبِيِّه عن الابتداع ، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى تكفير مَن قال : لَفْظي بالقرآن مَخلوق ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير مَن وقف . وَلَيْتهم لَم يُجاوزوا حَد الوقف، وإرجاع العِلم إلى عَلام الغيوب ، فإنه لَم يُسمَع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قِيام المِحنة وظهور القَول في هذه المسألة شَيء من الكلام ، ولا نُقِل عنهم كلمة في ذلك ، فكان الامتناع مِن الإجابة إلى ما دُعوا إليه،والتَّمسك بأذيال الوقف، وإرجاع عِلْم ذلك إلى عَالِمه، هو الطريقة الْمُثلى.وفيه السلامة والْخُلوص من تكفير طوائف مِن عباد الله،والأمر لله سُبحانَه)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لاهيةً قلوبُهم وأسَرُّوا النَّجوى الذينَ ظَلَموا هَلْ هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُم أفتأتُونَ السِّحْرَ وأنتُم تُبْصِرُون ﴾ [الأنبياء : ٣] .

إنَّ قلوبهم غافلة عن الحق ، وساهية عن آيات القُرآن . لا يَتدبَّرون مَعناه ، ولا يتفكرون في حِكَمه ومواعظه وبراهينه . قلوبُهم ساهية ، غافلة عمَّا يُراد بِهم ، مُعْرِضة عن ذِكْر الله . إنهم يَستمعون القُرآن لاعبين وساخرين ومُستهزئين وغافلين عن التفكر فِيه ، ومُعْرِضين عن التأمُّل في آياته ومواعظه. وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ لاهيةً قلوبُهم ﴾ أي : ساهيةً قلوبُهم ، مُعْرِضة عَن ذِكْر اللهِ ، مُتشاغِلة عن التأمل والتفهم)) اهـ . وفي تفسير النسفي (٣/ ٧٤) : ((قال أبو بكر الوراق: القلب اللاهي المشغول بزينة الدنيا وزَهْرتها ، الغافل عن الآخرة وأهوالها)) اهـ . وتَكَلَّمَ المشركون فيما بينهم سِرًّا (تَنَاجَوْا فِيما بينهم بالكفر والضلال والتكذيب) ، وبالغوا في إخفاء النجوى : هل محمد الذي يزعم أنه رسول الله إلا إنسان مِن جِنْسكم مِن لحم ودم ، لا يَختلف عنكم بشيء في الصُّورة والشكل ، ويأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ؟ . وهذا الكلامُ قالوه فيما بينهم سِرًّا وخُفيةً وبعيدًا عن الناس .

وإسرارُ النجوى يدل على الْمُبالَغة الشديدة في السِّرِّية والإخفاء . وهذا هو شأن الطابور الخامس في كُل المجتمعات. إذ إنهم يَتحرَّكون كتنظيم سِرِّي بعيدًا عن الأضواء، ويُخطِّطون لنشر الشر والفساد ، وهدم الحق ، وإطفاء نُور الحقيقة . ويَطعنون في الظَّهْر، ولا يَملكون القُدرة على المواجهة ، وتقديم الأدلة المنطقية ، ومُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة .

لقد بَالَغوا في إخفاء النجوى مِن أجل حياكة المؤامرات ، وتنظيم الأفكار القبيحة ، وتدعيم مبادئ الفساد والإفساد ، وتعزيز المكر والخديعة لطمس أمر النُبُوَّة ، وهدم معالمها ، وإبطال الرسالة الإلهية وإطفاء نُورها . واللهُ تعالى يَختار رُسُلَه مِن البشر ، ويُرْسِلهم إلى البشر ، مِن أجل تعليمهم وإرشادهم والتعامل معهم بدون عوائق ولا حواجز ، لأنَّ كُل جِنس يَميل إلى جِنسه . ولو أرسلَ اللهُ مَلَكًا إلى البشر لَمَا عَرَفوا كيفَ يتعاملون مَعه لاختلاف طبيعته عن طبيعتهم . وبالتالي ، لَن يستفيدوا مِنه شيئًا . وقد وَصَفَهم اللهُ بالظلم وذَمَّهم بذلك . إنهم الموصوفون بالظلم فِيما أسَرُّوا بِه . وقد ظَلموا أنفسَهم بِكُفرهم باللهِ وتكذيبهم للنبيِّ ﷺ . كما أنَّ حُكمهم على النبيِّ ﷺ بعيدٌ كُل البُعد عن العدل والإنصاف . إنه حُكم قائم على الظلم والجهل والعِناد والهوى والحسد، ولا يقوم على مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة ، أو تقديم الأدلة والبراهين، أو مُناقَشة النبيِّ ﷺ ومُناظرته وإفحامه وإقامة الْحُجَّة عليهم . وقال بعضُهم لبعض سِرًّا : أتَقْبَلُون السِّحرَ وتُصدِّقون بِه وأنتم تَعْلَمون أنه سِحْر ؟ . ومعنى الكلام الإنكار والتَّوبيخ . وهُم يَقصدون بالسِّحر القُرآن . إذ إنهم مُقتنعون بأن الرسول لا يَكون إلا مَلَكًا، وكُل مَن ادَّعى الرسالة مِن البشر فهو ساحر ، ومُعجِزاته هي سِحْر .

وبما أنَّ محمدًا إنسان وليس مَلَكًا، إذن ، فهو _ حَسَبَ رؤيتهم القاصرة _ ساحر كَذَّاب ، ومُتابَعة محمد ﷺ هي مُتابَعة السِّحر . والمعجِزات التي تَظهر على يديه هي سِحْر وخُدعة بصرية ، والقُرآن هو سِحْر . والسِّحْرُ في اللغة هو كُل مُمَوَّه لا حقيقة له ولا صِحَّة . لقد أنكَروا إرسال إنسان مِن البشر ، وطَلبوا إرسال مَلَك مِن الملائكة . حيث إنهم يَرَوْنَ أن الرسالة الإلهية شرف عظيم لا يَحملها إلا الملائكة، والبشر لا يَستحقون أن يَحملوها ، لأن مُستواهم أقل مِن الملائكة.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٦٨) : ((والمعنى : إذا كان بَشَرًا مِثْلَكم، وكان الذي جاء به سِحْرًا، فكيف تُجيبونه إليه وتتَّبعونه ؟، فأطلعَ نَبِيَّه ﷺ على ما تَنَاجَوْا به)) اهـ .وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٢) : ((كأنهم استدلوا بِكَوْنه بَشَرًا على كَذِبه في ادِّعاء الرسالة ، لاعتقادهم أن الرسول لا يَكون إلا مَلَكًا،واستلزموا مِنه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سِحْر، فأنكروا حُضوره ، وإنما أَسَرُّوا بِه تشاورًا في استنباط ما يَهْدِم أمْرَه ، ويُظْهِر فسادَه للناس عامة)).

لقد رَفضوا نُبُوَّة محمد ﷺ لأن محمدًا بشر مِثْلُهم ، فكيفَ نَزَلَ عليه الوَحْي مِن بينهم ، وهو الذي عاشَ يتيمًا فقيرًا ، في حِين أنهم أصحاب الأموال والأولاد والجاه والسيادة والنفوذ ؟ . وهذا يدل على أن صدورهم تغلي بالحسد والحقد والكراهية والعناد . وصدقَ القائلُ :

كلُّ العداوةِ قد تُرْتجى إماتتها   إلا عداوةَ مَن عاداكَ مِن حَسَدِ
فإن في القلبِ منها عُقدةً عُقِدَتْ   وليس يفتحُها راقٍ إلى الأبدِ

وَلَوْ كان المشركون صادقين في دَعْواهم لَقَدَّموا الدليلَ على صِدْق كلامهم ، وبما أنهم لَم يُقدِّموا أيَّ دليل . إذن ، فهم كاذبون مُعانِدون ، وغارقون في الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ قالوا أضغاثُ أحلامٍ بَلِ افتراهُ بَلْ هُوَ شاعرٌ فَلْيَأتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلون ﴾ [الأنبياء : ٥] .

يَكشفُ اللهُ عِنادَ الكافرين وتناقضَهم وَضَلالَهم. فَهُم في حَيْرةٍ مِن أمرهم ، تائهون بلا بوصلة، ضائعون في متاهة أهوائهم وأفكارِهم الْمُتضارِبة . أذهانُهم مُشتَّتةٌ ، ولَيْسَ لهم رأي واحد . فقد قالوا عن القُرآن إِنَّهُ أخلاطُ أحلامٍ كالتي تأتي في المنام ، وأباطيلُ وهمية لا حقيقة لها . ولم يستقروا على هذا الرأي، وانتقلوا إلى رأي آخَر، وهو أن القُرآنَ كلامٌ مُخْتَلَق جاءَ بِهِ محمد مِن تِلقاء نفْسه، وأيضاً عارَضُوا أنفسَهم ، وانتقَلوا إلى رأي جديد ، وهو أنَّ محمدًا شاعرٌ ، والقُرآنَ شِعْرٌ يُخيَّل للسامع أنَّهُ كلامٌ حقيقيٌّ ، وإنَّما هو خيالات لا حقيقة لها .

لقد كَذَّبوا أنفسَهم بأنفسهم، واحتاروا في أمرِ القُرآنِ، فاضطَرَبَت أقوالُهم الواهية، وتعارَضت أفكارُهم الباطلةُ.وحتَّى الكُفْر لَم يتَّفقوا عَلَيه. لقد اعتَبروا القُرآنَ تخاليطَ أحلامٍ، ومُفْتَرى، وشِعْرًا . ولا رابطَ منطقِيًّا بين هذه الأشياء ، ولَم يَعترِفوا بأنَّ القُرآنَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ أنزلَه على النبيِّ ﷺ .

وزَعْمُ الكافرين بأنَّ القُرآنَ أضغاثُ أحلامٍ، كلام ساقط ، لأنَّ الأحلام الْمُختلِطة في المنام خليط من الخيالات والأوهام والكوابيس ولا رَابط بينها .

أمَّا القُرآنُ فهو كلامٌ واضح يَشتمل على الْحُجَجِ المنطقية التي تُخاطِب العقلَ ، ويُقدِّم البراهينَ المتماسكة التي تُصيب كَبِدَ الحقيقة .

وَزَعْمُ الكافرين أن القُرآنَ مِن تأليف محمد ، كلامٌ لا وَزْنَ له ، فالنبيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، ولَم يُعرَف أنَّه كان طالبَ عِلْمٍ . والنبيُّ ﷺ معروف في الجاهلية بِصِدْقِه وأمانته ، حتَّى لُقِّبَ بالصادق الأمين ، ولا يُعقَل أن يَترك الكذبَ على الناس ، ثُمَّ يَذهب لِيَكذبَ على اللهِ تعالى .

وزَعْمُ الكافرين أنَّ محمدًا شاعرٌ وأنَّ القُرآنَ شِعْرٌ ، كلامٌ واهٍ . إذْ إنَّ محمدًا ﷺ لا يَعْرِف أوزان الشِّعر ، ولَم يُؤلِّف بَيْتَ شِعْرٍ واحدًا في حياته كُلِّها . ونَظْمُ القُرآن يختلف تمامًا عن نَظْمِ الشِّعر، والعربُ هُم أهلُ الفصاحة والبلاغة والبيان، وفِيهم نَبَغَ الشُّعراءُ الفُحول، والخطباءُ العِظَام، فلماذا عَجِزوا جَميعًا عن تأليف كتاب كالقُرآنِ ما دامَ شِعْرًا _ حَسَبَ زَعْمهم _ ؟! .

وقال ابنُ كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٢) : ((هذا إخبار عَن تَعَنُّتِ الكفار ، وإلحادِهم ، واختلافِهم فِيما يَصِفون بِهِ القُرآنَ ، وحَيْرَتِهم فِيه ، وضَلالِهم عنه . فتارةً يَجعلونه سِحرًا ، وتارةً يَجعلونه شِعرًا ، وتارةً يَجعلونه أضغاثَ أحلام ، وتارةً يَجعلونه مُفْتَرى)) اهـ .

﴿فَلْيَأتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلون ﴾ . يُمَثِّلُ الكافرون دَوْرَ الحريص على الآياتِ والإيمان . فقالوا عِنادًا وتَعَنُّتًا : فَلْيَجِئْنا محمد إن كان صادقًا بِمُعْجزةٍ مِثْل : ناقة صالح ، وعصا مُوسى .

وهذا الأمرُ يُشير إلى معرفتهم بالرُّسُل السابقين وآياتِهم الباهرة . والجديرُ بالذِّكر أنَّ الْمُعْجِزةَ هي أمرٌ خارقٌ للعادة ، يَأتي بها نبيٌّ مُرْسَلٌ ، كَي يُقام الدليلُ على صِدْق رِسالته . وسُمِّيت الْمُعجِزة بهذا الاسم لأنها تُعْجِزُ العقلَ عن تفسيرها. وتَكون الْمُعجِزةُ فوق قُدرات البشر في المجال الذي يُتقنونه ، ويَشتهرون بِه . فقد كانَ السِّحرُ مشهورًا في زمن موسى ﷺ فكانت مُعجِزته هي العَصا ، حيث تحوَّلت إلى حيَّةٍ تَسعى . وكانَ الطبُّ مَشهورًا في زمن عيسى ﷺ ، فكانت مُعجِزَتُه إبراءَ الأكْمَه (الأعمى) والأبرص وإحياء الموتى . وكلُّ ذلك بإذن اللهِ تعالى . وكانَ العربُ مشهورين بالفصاحة والبلاغة والشِّعر والخطابة ، فكانت مُعجِزة محمد ﷺ هي القُرآن (كلام الله) .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٩) : ((﴿فَلْيَأتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلون ﴾ ، أي : كما أُرْسِلَ موسى بالعَصا وغَيْرِها مِن الآيات ، ومِثْل ناقة صالح ، وكانوا عالِمين بأنَّ القُرآنَ ليس بِسِحْر ولا رؤيا ، ولكن قالوا : يَنبغي أن يأتِيَ بآية نقترحها، ولَم يكن لهم الاقتراح بَعدما رَأَوا آيةً واحدة، وأيضًا إذا لَم يُؤمنوا بآية هي مِن جِنْسِ مَا هُم أعلم الناس بِه ، ولا مجال للشُّبهة فيها . فكيف يُؤمنون بآية غَيْرِها ؟ ، ولو أَبْرَأ (محمد ﷺ) الأكمهَ والأبرصَ ، لقالوا : هذا من باب الطب ، وليس ذلك مِن صناعتنا ، وإنما كان سؤالُهم تَعَنُّتًا ، إذ كان اللهُ أعطاهم من الآيات ما فيه كِفاية ، وبَيَّنَ اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ أنهم لَوْ كانوا يُؤمنون لأعطاهم ما سَألوه ، لِقَوْله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيْرًا لأسْمَعَهُم وَلَوْ أسْمَعَهُم لَتَوَلَّوا وهُم مُعرِضون ﴾ [الأنفال : ٢٣])) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى :﴿ ومِن الناس مَن يعبد اللهَ على حَرْف فإن أصابه خيرٌ اطمأنَّ به وإن أصابته فِتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الحج : ١١] .

هؤلاء الفئة الضَّالة مُتَذَبْذِبُون وقَلِقون وشاكُّون.يَعبدون اللهَ تعالى على جانب وطَرَف مِن الدِّين ، دُون أن يتغلغل الإيمانُ في قلوبهم ويثبت . يَعبدون اللهَ على شَك ، كالشخص الذي على حَرْف الجبل ، غير ثابت ولا متوازن ، ومُعرَّض للسقوط في أيَّة لحظة . وقال النسفي في تفسيره (٣/ ٩٧) : ((﴿ ومِن الناس مَن يعبد اللهَ على حرف ﴾ على طَرَف مِن الدِّين ، لا في وَسَطه وقلبه . وهذا مَثَل لِكَوْنهم على قلق واضطراب في دِينهم ، لا على سُكون وطمأنينة)) اهـ .

يَعبدون اللهَ تعالى على جهة واحدة وهي السَّراء دون الضَّراء . فإن حصلوا على الرفاهية ورَغَد العَيش ثَبَتوا على الدِّين ، وإن تعرَّضوا لاختبار إلهيٍّ ، أو خسروا أموالهم ومكانتهم ، ارتدوا عن الإسلام وعادوا إلى الكفر . وبذلك يخسرون دنياهم وآخرتهم . وهذه هي أعظم خسارة . لقد خسروا الدنيا بفقدانهم المنافع المادية والسيرة العَطِرة،ولا حظ لهم في الغنيمة. وفي الآخرة، لا أجر لهم ولا ثواب ، وهم خالدون في عذاب النار. والحرفُ هو الشَّك . وحَرْفُ الشَّيء طَرَفُه مِثْل حَرْف الجبل والحائط . والقائمُ على طَرَفٍ وجانبٍ يكون مُضْطَرِبًا وغَير مُستقر ولا مُتوازِن ، وقد يَسقط في أيَّة لحظة بسبب انعدام التوازن ، وغياب الثبات . ومَن يَعبد اللهَ على طَرَفٍ وجانبٍ مِن الدِّين ، يَكون مُضْطَرِبًا وقَلِقًا وغير ثابت، بسبب انعدام الثقة باللهِ وفقدان اليقين . أمَّا المؤمن فهو واثقٌ باللهِ، ويَعبده على يقين وبصيرة . يَشكر على السَّراء، ويصبر على الضَّراء . وهذا هو الثبات .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١١٦) : ((﴿ ومِن الناس مَن يعبد اللهَ على حرف ﴾ على طرف مِن الدِّين، لا ثبات له فيه، كالذي يكون على طَرَف الجيش، فإن أحسَّ بِظَفَر قَر وإلا فَر)).

مِن الناسِ مَن يَعبد اللهَ على شَك واضطراب . وهؤلاء يَغرقون في القلق والشُّكوك والوساوس والهواجس . يدَّعون الإيمانَ بألسنتهم ، ولَم يستقر في قلوبهم ، فَهُم بَعيدون كُل البُعد عن اليقين والثباتِ على الحق . والدِّينُ بالنسبة إليهم صفقة تجارية . فإن حصلوا على الأولاد والأموال ، وتمتَّعوا بالصحة والعافية والرخاء ، استقرُّوا على الدِّين وثبتوا على الحق ، وواصلوا العبادة بقلب مُطمئِن . وقالوا إنه دِين صالح، وهو سبب كُل خَير .

وإن أصابهم بلاء وشِدَّة وضِيق وفِتنة في الدُّنيا ، ونالهم مكروه في أموالهم أو أولادهم أو أنفسهم ، قالوا هذا دِين سُوء ، وهو سبب كُل شَر ، واعتقدوا أنَّ ذلك مِن غضب اللهِ عليهم ونِقمته بهم ، فيرتدون عن الإسلام . وهؤلاء لا حَظ لهم مِن الغنيمة في الدنيا، وليس لهم ذِكْر ولا ثناء حَسَن ، ولا هُم نالوا الأجرَ في الآخرة ، وليس لهم مكان في الجنة . والخلود في النار مصيرهم. لقد خسروا الدنيا والآخرة مَعًا،وهُم خالدون في النار بسبب كُفرهم وضلالهم،وهذه هي الخسارة العُظمى والشقاء الأبدي . إنها الخسارة الواضحة التي لا تخفى على أحد، وليس لها مثيل ولا نظير . وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨١): ((قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق إن صَلَحَت له دُنياه أقام على العبادة، وإن فَسَدت عليه دُنياه وتغيَّرت انقلبَ، فلا يُقيم على العبادة إلا لِمَا صَلَح مِن دُنياه، فإن أصابته فِتنة أو شِدَّة أو اختبار أو ضِيق، تركَ دِينَه ، ورجعَ إلى الكفر)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٦٨) : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ﴿ ومِن الناس مَن يعبد اللهَ على حرف ﴾ . قال : ((كان الرَّجل يَقْدُمُ المدينة ، فإن وَلدتْ امرأته غُلامًا ونتجت خَيْلُه، قال: هذا دِين صالح. وإن لَم تلد امرأته ولَم تُنْتَج خَيْلُه ، قال : هذا دِين سَوْء)) .

وهؤلاء يربطون الدِّين بالمصالح المادية الدنيوية الزائلة ومدى تحصيلهم لها . وهم لا يملكون رؤيةً شمولية تقودهم إلى فهم السراء والضراء ، ومنهجيةِ الابتلاء بالشر والخير لتمييز الصادق من الكاذب . إن عقولهم ــ في هذا السياق ــ بدائية لا تتجاوز أرباحهم المحسوسة في محيطهم الضيق . وينبغي على الإنسان أن يثبت على الدِّين ، مهما كانت الظروف والفِتَن والابتلاءات . والدنيا يُعطيها اللهُ لِمَن يُحِب ومَن لا يُحِب . أمَّا الدِّينُ فلا يُعطيه اللهُ إلا لِمَن أحَبَّه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤١١) : ((قَوله تعالى : ﴿ على حرف ﴾ قال مجاهد وقتادة : على شك . قال أبو عبيدة : كُل شَاك في شيء ، فهو على حَرْف ، لا يثبت ولا يدوم . وبيان هذا أن القائم على حَرْف الشيء غير مُتمكِّن مِنه ، فَشُبِّه به الشَّاك ، لأنه قَلِق في دينه ،

على غير ثبات.ويُوضِّحه قَوله تعالى: ﴿ فإن أصابه خيرٌ ﴾ أي:رخاء وعافية﴿ اطمأنَّ به ﴾ على عبادة الله. ﴿ وإن أصابته فِتنةٌ ﴾ اختبار بِجَدْب وقِلَّة مال﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي: رجع عن دِينه الى الكفر. والمعنى : انصرفَ إلى وجهه الذي تَوَجَّه مِنه، وهو الكفر . ﴿ خسر الدنيا ﴾ حيث لَم يظفر بما أراد مِنها ، وخسر الآخرة بارتداده عن الدِّين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يقولُ آمَنَّا باللهِ فإذا أُوذِيَ في اللهِ جَعَلَ فِتنةَ الناسِ كعذابِ اللهِ ولَئِن جاءَ نصرٌ مِن رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إنَّا كُنَّا مَعَكُم أوَلَيْسَ اللهُ بأعلمَ بما في صُدورِ العالَمين ﴾ [العنكبوت : ١٠] . هؤلاء فِئة يقولون بألسنتهم آمَنَّا باللهِ، ولَم يستقر الإيمان في قلوبهم . وإذا أُوذِيَ أحدُهم بسبب إيمانه الظاهريِّ، وعَذَّبه الكافرون على إيمانه ، جَعل أذى الناسِ وعذابهم في الدنيا كعذاب الله في الآخرة . أي إنه جَعل عذاب الناس كعذاب الله في الشِّدة . فلم يصبر ولَم يَتحمَّل، وخَضع للناس كما يَخضع لله تعالى، وارتدَّ عن الإسلام ، وعادَ إلى الكفر . وهذا هو طريق المنافقين في الحياة الدنيا ، إذا أُوذُوا في اللهِ تركوا الدِّينَ، وكفروا. لقد جَعلوا عذابَ الناسِ مانعًا لهم مِن الإيمان، كعذاب الله الشديد الذي يَمنع الناسَ مِن الكفر . وفي صَفوة التفاسير (١١/ ٥٦) : ((قال المفسِّرون : والتَّشبيه ﴿ كعذابِ اللهِ ﴾ من حيث إن عذاب الله مانع للمؤمنين مِن الكفر ، فكذلك المنافقون جَعلوا أذاهم مانعًا لهم مِن الإيمان، وكان مُقتضى إيمانهم أن يصبروا ويَتشجَّعوا، ويَرَوْا في العذاب عُذوبة ، وفي المِحنة مِنحة ، فإن العاقبة للمُتَّقين)) اهـ .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٥/ ٣٧) : ((أقسام الْمُكلَّفين ثلاثة : مؤمن ظاهر بِحُسن اعتقاده ، وكافر مُجاهِر بِكُفره وعِناده ، ومُذبذب بينهما ، يُظهِر الإيمانَ بلسانه ، ويُضمِر الكفر في فؤاده،فلمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى القِسْمَيْن بِقَولِه:﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين﴾ [العنكبوت : ٣] ، ذَكَر القِسم الثالث هنا : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يقولُ آمَنَّا باللهِ ﴾ ، واللطيفة في الآية أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر ، وخِسَّة المنافق الكافر ، فقال هناك : أُوذِيَ المؤمن في سبيل الله ليترك سبيلَه ولَم يتركه ، وأُوذِيَ المنافق الكافر فتركَ اللهَ بنفْسه ، وكان يُمكنه أن يُظهِر مُوافقتهم، ويكون قلبه مُطمئنًّا بالإيمان، ومعَ هذا لَم يَفعله ، بَل تَرك اللهَ بالكُلِّية)).

وإذا نَصَرَ اللهُ المؤمنين ، وفَتح عليهم بهزيمة أعدائهم والحصول على الغنائم، فإن هؤلاء المرتدين يقولون كَذِبًا وزُورًا: إنَّا كُنَّا معكم أيها المؤمنون، ونحن إخوانكم في الدِّين، ننصركم على أعدائكم. وذلك مِن أجل الحصول على الغنائم، وتحقيق مكاسب مادية . يقولون للمؤمنين : إنَّا كُنَّا معكم في الثبات على الدِّين والتمسُّك بِه ، فأعطونا نصيبَنا مِن الغنائم .

واللهُ أعلمُ بِما في قلوبهم مِنهم ، مِن خَير(إيمان) وشَر (نفاق) . فكيفَ يَزعمون أنهم مُؤمنون صادقون وناصروا المؤمنين على أعدائهم ؟. والاستفهامُ في الآية: ﴿ أوَلَيْسَ اللهُ بأعلمَ بما في صُدورِ العالَمين ﴾ للتقرير والتأكيد . أي : أوَ لَيْسَ اللهُ هو العالِم بما في قلوب الناس مِن إيمان ونِفاق ؟ . بلى ، إن الله يَعلم السِّر والعلانية ، وهو أعلم بالناس مِن أنفسهم . يَعلم ما في القلوب والضمائر ، ولا يُمكن خداعه ولا التحايل عليه ، لأنه لا تخفى عليه خافية . والمعنى العام : إن اللهَ عالِم بإيمان المؤمن، وكُفر الكافر. ودائمًا، يَضغط الكافرون على المؤمنين بسبب إيمانهم وطاعتهم للهِ، ويُؤذونهم من أجل ترك دِينهم.والمؤمنُ الصادقُ هو الذي يثبت في الفِتنة والابتلاء والامتحان ، ويصبر على الأذِيَّة في الله، ويرى في المِحنة مِنحة . والامتحانُ الإلهيُّ للناس إنما هو مِن أجل غَرْبلتهم وتمييزهم، وإظهار الصادق مِن الكاذب . ولا بُدَّ مِن الفِتَن في الدنيا . والفِتَنُ حصاد المنافقين . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٥٨و٢٥٩): ((قَوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يقولُ آمَنَّا باللهِ ﴾ . اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال : أحدها أنها نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بَدْر فارتدوا،رواه عِكرمة عن ابن عباس.والثاني نزلت في قوم كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله ، أو مصيبة في أنفسهم وأموالهم، افتتنوا ، قاله مجاهد . والثالث نزلت في ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أُوذُوا وأصابهم بلاء من المشركين ، رجعوا إلى الشِّرك، قاله الضَّحاك . والرابع أنها نزلت في عَيَّاش بن أبي ربيعة، كان أسلمَ ، فخاف على نَفْسه مِن أهله وقَومه، فخرج مِن مكة هاربًا إلى المدينة ، وذلك قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجزعت أُمُّه، فقالت لأخويه أبي جهل والحارث ابني هشام ، وهُما أخواه لأُمِّه : والله لا آوي بَيْتًا ، ولا آكل طعامًا ، ولا أشرب شرابًا ، حتى تأتياني بِه ، فخرجا في طلبه ، فَظَفِرا بِه ، فلم يَزالا به حتى تابعهما، وجاءا به إليها ، فَقَيَّدته ، وقالت : واللهِ لا أَحُلُّك مِن وَثاقك حتى تكفر بمحمد ، ثُمَّ أقبلت تجلده بالسِّياط وتُعذِّبه حتى كفر بمحمد عليه السلام ، جَزَعًا مِن الضَّرب ، فَنَزلت فيه هذه الآية ، ثم هاجر بَعْد ، وحَسُن إسلامه ، هذا قول ابن السائب ومقاتل . وفي رواية عن مقاتل أنهما جلداه في الطريق مائتي جلدة ، فَتَبَرَّأ مِن دِين محمد ، فَنَزلت هذه الآية . قَوله تعالى : ﴿ فإذا أُوذِيَ في اللهِ ﴾ أي: ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه . ﴿ جَعَلَ فِتنةَ الناسِ ﴾ أي : ما يُصيبه مِن عذابهم في الدنيا ﴿كعذابِ اللهِ ﴾ في الآخرة . وإنما ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله تعالى ، لِمَا يرجو مِن ثوابه . ﴿ ولَئِن جاءَ نصرٌ مِن رَبِّكَ ﴾ يعني دَولة للمؤمنين ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ يعني المنافقين للمؤمنين : ﴿ إنَّا كُنَّا مَعَكُم ﴾ على دِينكم ، فَكَذَّبهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ،

وقال : ﴿ أَوَ لَيْسَ اللهُ بأعلمَ بما في صُدورِ العالَمين ﴾ مِن الإيمان والنفاق)) اهـ . وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ قال: كان ناس من أهل مكة قد أسلموا،وكانوا مُسْتَخْفين بالإسلام، فلمَّا خرج المشركون إلى بَدْر أخرجوهم مُكْرَهين،فأُصِيب بعضهم يوم بدر مع المشركين، فقال المسلمون : أصحابنا هؤلاء مسلمون ، أَخْرَجوهم مُكْرَهين ، فَاسْتَغفِرُوا لهم . فنزلت هذه الآية : ﴿ إن الذين توفَّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم ﴾ [النساء: ٩٧] . فكتب المسلمون إلى مَن بَقِيَ مِنهم بمكة بهذه الآية ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ظهر عليهم المشركون وعلى خروجهم ، فلحقوهم فَرَدُّوهم فرجعوا معهم ، فَنَزلت هذه الآية :﴿ ومن الناس مَن يقول آمَنَّا بالله فإذا أُوذِيَ في الله جعل فتنةَ الناس كعذاب الله ﴾ (82).

هؤلاء الذين رجعوا مع المشركين لَم يصمدوا في وجه هذا التحدي ، ولَم يحاولوا المقاومة أو الدفاع عن دينهم بسبب ضعفهم الذاتي وعدم تمكُّن الإيمان من قلوبهم ، لذلك انهاروا عند أول تجربة ، وسقطوا في أول امتحان . وهذه الفِتنةُ قد اجتاحتهم وجرفتهم ، فخسروا الدنيا والآخرة .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يَشتري لَهْوَ الحديثِ لِيُضِلَّ عَن سبيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ويَتَّخِذَها هُزُوًا أُولئكَ لهم عذابٌ مُهين ﴾[لُقمان : ٦] .

مِن الناس مَن يَشتري ما يُلْهي عن ذِكْر الله وطاعته ، ويختار الكلامَ الذي يصدُّ عن سبيل الله.

وإنما يَصنع هذا لإبعاد الناس عن طريق الحق ، وإضلالهم عن الهدى ، ومنعهم من اعتناق الإسلام واستماع القُرآن ، جهلاً مِنه بعواقب جريمته النكراء ، وبدون دليل ولا بُرهان. وإذا أضلَّ الشخصُ غَيْرَه ، فهو ضَال في نَفْسه . إنه ضَال ومُضِل في آنٍ معًا .

ويتَّخذ سَبيلَ اللهِ للسُّخرية ، ويَستهزئ بآيات الله ، وهذا أشدُّ قُبْحًا ، وأعظم إثمًا . أولئك لهم عذابٌ شديد يُهينهم ويُذِلُّهم ،كما استهانوا بآياتِ اللهِ . والجزاء مِن جِنس العمل . لقد أهانوا الحقَّ بتفضيل الباطل عليه ، وعظَّموا الشَّر ، واستهانوا بالحق وأهانوه ، لذلك يَنتظرهم عذاب مُؤلِم وشديد ، يُهينهم ويُخزيهم ، جزاء ما كسبت أيديهم .

واسم الإشارة ﴿ أُولئكَ ﴾ للبعيد.وفي هذا دَلالة على بُعد مكانتهم في الكفر والضلال والشَّر، وأنهم بعيدون كُل البُعد عن الحق والهدى ، وأنهم مَطرودون مِن رحمة الله تعالى .

(٨٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٦٨) : ((رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح غير محمد ابن شريك ، وهوثقة)).

ولهوُ الحديث هو الأساطير والخرافات والكلام الذي لا خَير فيه ولا فائدة ، والخيالات التي لا أساس لها مِن الصِّحة. وسُمِّيَ اللهو بهذا الاسم، لأنه يُلهي عن ذِكْر الله، ويُشغِل الناسَ عن عبادته. وفي الآية أُضِيف لَهْو الحديث إلى الكفر (الإضلال عن سبيل الله) ، لذلك كانت ألفاظ الآية في غاية القوة والشِّدة ، لأن القضية لا تَحتمل اللين والتسامح . والآيةُ حُكمها عام وشامل ، والعِبرة بِعُموم اللفظ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣١٥و٣١٦):((﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يَشتري لَهْوَ الحديثِ ﴾ قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رَجل اشترى جارية مُغنِّية . وقال مجاهد: نزلت في شراء القِيَان والمغنِّيات . وقال ابن السائب ومقاتل : نزلت في النَّضْر بن الحارث ، وذلك أنه كان تاجرًا إلى فارس ، فكان يشتري أخبار الأعاجم ، فَيُحدِّث بها قُرَيْشًا ، ويقول لهم : إن محمدًا يُحدِّثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أُحدِّثكم بحديث رُستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن ، فَنَزلت فيه هذه الآية . وفي المراد بلهو الحديث أربعة أقوال : أحدها أنه الغناء، كان ابن مسعود يقول : هو الغناء والذي لا إله إلا هُوَ ، يُردِّدها ثلاث مرات . وبهذا قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبَير وعِكرمة وقتادة. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: اللهو الطبل. والثاني أنه ما ألهى عن الله، قاله الحسن، وعنه مِثل القول الاول . والثالث أنه الشِّرك،قاله الضَّحاك. والرابع الباطل،قاله عطاء . وفي معنى:﴿ يَشتري ﴾ قَولان:أحدهما يشتري بماله، وحديث النَّضْر يُعضِّده، والثاني يختار ويستحب ، قاله قتادة ومطر)).

وروى الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٥) وصحَّحه ووافقه الذهبي : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :_﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يَشتري لَهْوَ الحديثِ لِيُضِلَّ عَن سبيلِ اللهِ ﴾ قال : هو واللهِ الغِناء .

وفي كتاب الحلال والحرام في الإسلام للقَرَضاوي (ص ٢٩٤) : ((وقال ابن حَزْم : إن الآية ذَكرت صفة مَن فَعَلَها كان كافرًا بلا خلاف إذا اتَّخذ سبيل الله هُزُوًا ، ولو أنه اشترى مُصحفًا لِيُضِل به عن سبيل الله ويتَّخذه هُزُوًا لكان كافرًا، فهذا هو الذي ذَمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ، وما ذَمَّ سُبحانه قَط من اشترى لَهْوَ الحديث ليتلهَّى بِه ، ويُروِّح نَفْسَه ، لا لِيُضِل عن سبيل الله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كأن لَم يَسْمَعْها كأنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أليم ﴾ [لُقمان : ٧] .

إذا قُرِئت على هذا اللاعب اللاهي الذي اشترى لَهْوَ الحديث للإضلال عن سبيل الله آياتُ القُرآن، أعرضَ عنها لأنه يتضايق من سماعها، ولا يحتاج إِلَيها، ورَفَضَ سماعَ الحق مُبَالِغًا في التكبر، وأدبرَ مُسْتَكْبِرًا كأنه لَم يَسمع آيات الله . وهذا هو الحال المتكبِّرين المغرورين ، يُعرِضون

عن الكلامَ ، ويُديرون ظُهورَهم له ، كأنه غَير موجود أصلاً. كأن في أُذنيه ثِقْلاً وصَمَمًا يَمنعانه مِن سَماع آيات القُرآن . فأخْبِرْه يا محمد بأن عذابًا شديدًا ومُؤلِمًا يَنتظره يوم القيامة ، كما تألَّمَ بسماع آيات القُرآن. والجزاء مِن جِنس العمل. ووضعُ البِشارة موضع الإنذار للتَّهكم والسخرية.

وقال أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ١٨٤):((تضمَّنت هذه الآية ذَم المشتري مِن وجوه : التَّولية عن الحكمة ، ثم الاستكبار عن الحق ، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات ، ثم الإيغال في الإعراض ، مُشَبِّهًا حال مَن لَم يسمعها ، لِكَوْنه لا يُلقي لها بالاً ، ولا يلتفت إليها ، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمِنهُم مَن يَستمعُ إلَيْكَ حتى إذا خَرجوا مِن عِندِكَ قالوا للذينَ أُوتُوا العِلْمَ ماذا قالَ آنِفًا أُولئكَ الذينَ طَبَعَ اللهُ على قُلوبِهم واتَّبعوا أهواءَهُم ﴾[مُحَمَّد : ١٦] .

مِن هؤلاء المنافقين جماعة يستمعون إلى حديثك يا محمد ، فلا يَفهمون شيئًا ، ولا يَستفيدون مِن مواعظك وإرشاداتك ، استخفافًا بكلام الله ، وتهاونًا بكلام النبيِّ ﷺ ، وهُم لا يَكترثون ولا يهتمون بالدَّعوة الإسلامية . حتى إذا خرجوا مِن مجلسك وفارقوه ، قالوا لعلماء الصحابة سُخريةً واستهزاءً : ماذا قال محمد الساعة ؟. أُولئك الذين خَتم اللهُ على قلوبهم بالكفر عُقوبةً لهم، فلا يَهتدون إلى الحق ، ولا يَعرفون طريق الهدى . ورَفضوا أوامرَ اللهِ ورسوله ، واتَّبعوا أفكارَهم الشخصية، والتزموا بآرائهم الباطلة، وساروا وراء أهوائهم المنحرفة . وأقوالُهم قائمة على الوَهْم ، وأفعالهم قائمة على الشَّك والْحَيرة. إنهم يَغرقون في الضلال، وبَعيدون كُل البُعد عن الحق والهدى. واسمُ الإشارة ﴿ أُولئكَ ﴾ للبعيد ، ويدل على بُعد مكانتهم في الضلال ، وطردهم من رحمة الله . والآيةُ تدل على جهل المنافقين ، وضعف عُقولهم ، وأهوائهم الفاسدة . فهم يَستمعون إلى كلام النبيِّ ﷺ ، ولا يَفهمون شيئًا بسبب نجاسة قلوبهم ، وغرقهم في السُّخرية والاستهزاء والاستخفاف بآياتِ القُرآن وكلام النبيِّ ﷺ . إنهم لا يَملكون فَهْمًا صحيحًا ، ولا نِيَّة صالحة . هؤلاء المنافقون كان يستمعون إلى خُطَب النبيِّ ﷺ وتَوجيهاته ومواعظه ، ويَحضرون مجالسه مع الصحابة ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لعلماء الصحابة : ماذا قال قبل قليل ؟. وهذه السُّخرية تُشير إلى أنهم لَم يُركِّزوا في كلام النبيِّ ﷺ ، ولَم يهتموا بِه . مِمَّا يُشير إلى تهاونهم بكلامه واستخفافهم بِه . إنهم لَم يفهموا كلامَه ﷺ ، فأضافوا إلى جهلهم سُخريةً ووقاحة وسُوء أدب. فختم اللهُ على قلوبهم بالكفر والضلال ، فلم تعد قادرةً على فهم الحق واستيعاب الخير ، واتبعوا أهواءهم الباطلة في النفاق والعناد، وساروا وراء أمانيهم التي لا أساس لها على أرض الواقع.

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : في قوله ــعز وجل ــ :﴿ حتى إذا خرجوا من عندكَ قالوا للذين أُوتوا العلمَ ماذا قال آنفًا ﴾ . قال : ((كُنتُ فِيمَن يُسأل))[83].

والمنافقون لا يسألون حِرْصًا على العِلم والتعلم . فأسئلتهم تُظهر ما في قلوبهم من حقد وحسد وكُفر وسخرية واستهزاء . فَهُم يَحملون فكرةً مسبقة ثابتة ، ولا يُريدون تغييرها سواءٌ ظَهر لهم الحق أم لَم يَظهر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٠٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَن يَستمعُ إلَيْكَ ﴾ يعني المنافقين. وفِيما يَستمعون قَولان : أحدهما أنه سماع خُطبة رسول الله ﷺ يوم الْجُمُعة . والثاني سماع قَوله على عُموم الأوقات . فأمَّا الذين أُوتوا العِلم فالمراد بهم علماء الصحابة. قَوله تعالى : ﴿ ماذا قالَ آنِفًا ﴾ . قال الزَّجاج : أي ماذا قال الساعة ؟ ... . فالمعنى : ماذا قال في أول وقت يقرب مِنَّا ؟... . وفي استفهامهم قَولان: أحدهما لأنهم لَم يَعْقِلوا ما يقول، ويدل عليه باقي الآية، والثاني أنهم قالوه استهزاء)) اهـ .

٧ــ تَقريع مَن لا يُقِرُّ بالوَحدانية :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أرأيْتُم إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القِيامةِ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يأتيكُم بِضِياءٍ أفلا تَسْمَعُون ﴾ [القَصَص : ٧١] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام : أخبروني إن جَعل اللهُ عليكم الليلَ دائمًا بلا انقطاع، ولا نهار معه إلى يوم القيامة، مِن هو الإلهُ الذي يَقْدِر أن يأتيَكم بِنُور النهار تستضيئون بِه في حياتكم وتُبْصِرون بِه وتطلبون بِه المعيشة غَير الله ؟ . أفلا تَسمعون سَماع فَهْم وقَبول فتخضعون للحق، وتتَّعظون، وتستدلون بذلك على وَحدانية الله وقُدرته المطْلقة وحِكمته العظيمة؟. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٠٢) : ((﴿ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يأتيكُم بِضِياءٍ ﴾ . كان حقه " هل إله " فذكر بِـ﴿ مَنْ ﴾ على زعمهم أن غَيره آلهة)) اهـ .

والآيةُ تُقيم الْحُجَّة على المشركين، وتُلْزِمهم بِها بالدليل والبُرهان ، وليس بالشتائم والجعجعة.

واللهُ يمتنُّ على عباده بنعمة النهار، ولو كان الليلُ دائمًا بلا انقطاع إلى يوم القيامة ، لانهارت عقول الناس، وتعطَّلت مصالحهم ، وفسدت حياتهم ، وأصابهم الملَل والسآمة والكآبة . واللهُ يُوضِّح للناسِ أنه سَخَّرَ النهار لِمَا فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، حيث الحركة والنشاط والكسب وطلب المعاش . ولا بُدَّ أن يشكروا هذه النِّعمة الإلهية الجليلة .

(٨٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٦) برقم (٣٧٠٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٣) : ((قَوله : ﴿ قُلْ أرأيْتُم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليلَ سَرْمَدًا ﴾. السَّرْمد الدائم المستمر،مِن السَّرْد، وهو الْمُتابَعة... . بَيَّنَ لهم سُبحانَه أنه مَهَّد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بِشُكر النِّعمة ، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه لَيلاً دائمًا إلى يوم القيامة لَم يتمكنوا من الحركة فيه ، وطلب ما لا بُد لهم منه مِمَّا يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس ، ثُمَّ امتنَّ عليهم فقال: ﴿ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يأتيكُم بِضِياءٍ ﴾ أي : هل لكم إلَه مِن الآلهة التي تَعبدونها يَقْدِر على أن يرفع هذه الظُّلْمة الدائمة عنكم ﴿ بِضِياءٍ ﴾ ؟، أي: بِنُور تطلبون فيه المعيشة ، وتُبصِرون فيه ما تحتاجون إليه ، وتصلُح به ثماركم وتنمو عنده زرائعكم وتعيش فيه دوابكم . ﴿ أفلا تَسْمَعُون ﴾ هذا الكلام سماع فهم وقَبول وتدبُّر وتفكر)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أرأيْتُم إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهارَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القِيامةِ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يأتيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلا تُبْصِرُون ﴾[القَصَص : ٧٢] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين : أخبروني إن جَعل اللهُ عليكم النهار دائمًا بلا انقطاع ، ولا لَيْل معه إلى يوم القيامة ، مَن هو الإله الذي يَقْدِر أن يَأتيَكم بِلَيْلٍ تستريحون فيه من الحركة والتعب غَيْر الله ؟ ، أفلا تُبصِرون ما أنتم عليه من الكفر والضلال فترجعون عن الشِّرك ؟ . وإذا اعترفتم بأن الله وَحْدَه هو القادر على جعل الليل والنهار يتعاقبان ، فَلِمَ تَعبدون غَيْره ولا تَشكرونه ؟ .

واللهُ يمتنُّ عليهم بنعمة الليل كما امتنَّ عليهم بنعمة النهار ، كَي يُوحِّدوه ويَشكروه . وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٧) : ((﴿ أفلا تُبْصِرُون ﴾ . يقول : أفلا تَرَوْنَ بأبصاركم اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من الله لكم ، وحُجَّة منه عليكم ، فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلُح إلا لِمَن أنعمَ عليكم بذلك دون غَيره ، وَلِمَن له القُدرة التي خالفَ بها بين ذلك)) اهـ . والجديرُ بالذِّكر أنَّ الله تعالى قالَ:﴿ بِضِياءٍ أفلا تَسْمَعُون ﴾ ، ولَم يقل: بنهار تتحرَّكون فيه،كما قال: ﴿ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلا تُبْصِرُون ﴾ . وذلك لأن الضياء (ضَوء الشمس) فوائده كثيرة ومُتعدِّدة ، وليس مُجرَّد الكسب وطلب المعاش . أمَّا الظلام _ برغم فائدته _ فهو لا يصل إلى أهمية الضياء وكثرة فوائده ومنافعه . وأيضًا ، رَبَطَ اللهُ الضياءَ بحاسة السمع ، لأن السمع يُدْرِك ما لا يُدرِكه البصر مِن ذِكر منافعه وفوائده . في حِينَ أن اللهَ ربط الليل بحاسة البصر ، لأن البصر يُدْرِك ما لا يُدْرِكه السمع مِن ذلك . وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٣) : ((﴿ أفلا تُبْصِرُون ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار مُتَّعظ حتى تَنْزجروا عمَّا أنتم فيه من عبادة غير الله ، وإذا أقَرُّوا بأنه لا يَقْدِر على ذلك إلا الله عَزَّ وجلَّ فقد لزمتهم الْحُجَّة ، وبَطَل ما يتمسكون به من الشُّبه الساقطة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرزقُكُم مِنَ السماواتِ والأرضِ قُلِ اللهُ ﴾[سَبَأ : ٢٤] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنامَ مِن دُون الله : مَن الذي يُنْزِل ماءَ المطرِ (رِزق السماوات) فَيُنْبِت لكم الشجر والثمر والنبات (رِزق الأرض) ؟ . والجوابُ واضحٌ ومعروف ، ولا جواب غَيره . لذلك ، لَم يُذكَر جواب المشركين . وحتى لو سَكت المشركون ، ولَم يُجيبوا عن السؤال ، خوفًا مِن إقامة الْحُجَّة عليهم وإلزامهم بها ، فإن قلوبهم مُوقِنة بأن الله هو رازقهم . قُل يا محمد : إنَّ الله هو رازقكم . وهذا احتجاج عليهم ، وتَقريع لهم . والمشركون أمام خيارين لا ثالث لهما : الأول _ الاعتراف والقَول بأن الله هو رازقهم . والاعتراف سَيِّد الأدلة، وبذلك يُقيمون الْحُجَّة على أنفسهم.وبما أن الله هو رازقكم_ باعترافكم_، فلماذا تعبدون غَيْرَه ؟. لماذا تَتركون تَوحيد الذي يَرزقكم وتَعبدون الذي لا يَقْدِر أن يَرزقكم؟.الثاني_ الصمت أو القَول : لا ندري ، هَرَبًا من التزام الْحُجَّة ، وعندئذٍ ، قُل لهم يا محمد : إن الله هو رازقكم .

ولا شَكَّ أن عقول المشركين لا تَقبل أن يُنسَب الرِّزق إلى آلهتهم الأصنام ، لأنهم يُدْرِكون أن الأصنام جمادات لا تخلق ولا تَرزق. وسؤال النبيِّ ﷺ للمشركين احتجاجٌ عليهم ، وفضحٌ لباطلهم.

والآيةُ تُقيم الْحُجَّة على المشركين ، لأن الرازق هو وَحْدَه المستحق للعبادة . والمشركون يُؤمنون بأن لا رازق إلا الله ، ولا يمكن الهروب من هذه الحقيقة الواضحة كالشمس .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٢٦٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرزقُكُم مِنَ السماواتِ والأرضِ ﴾ . لَمَّا ذَكَر أن آلهتهم لا يَملكون مِثقال ذَرَّة مِمَّا يَقْدِر عليه الرَّب ، قَرَّر ذلك ، فقال : قُل يا محمد للمشركين: ﴿ مَن يَرزقُكُم مِنَ السماواتِ والأرضِ ﴾ أي: مَن يَخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة ﴿مِنَ السماواتِ﴾ أي عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع﴿ والأرضِ ﴾ أي:الخارجة من الأرض، عن الماء والنبات. أي: لا يُمكنهم أن يقولوا هذا فِعل آلهتنا ، فيقولون : لا ندري ، فَقُل : إن الله يفعل ذلك ، الذي يَعلم ما في نفوسكم، وإن قالوا: إن الله يرزقنا ، فقد تقرَّرت الْحُجَّة بأنه الذي يَنبغي أن يُعبَد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أرُونِيَ الذينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كلا بَلْ هُوَ اللهُ العزيزُ الحكيم ﴾[سَبَأ: ٢٧] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين : أرُونِيَ الأصنامَ والأوثانَ التي جَعلتموها آلهةً مَعبودة، وشريكةً للهِ تعالى . هَل تَخلق شيئًا ؟ ، هَل تَرزقكم ؟ . إنْ كانت الأصنامُ خالقةً رازقةً ، فَبَيِّنُوا للناسِ ماذا خَلقتْ ؟ ، وكيف رَزقتْ ؟ . وإذا كانت عاجزةً عن الخلق والإيجاد والرِّزق ، فلماذا تَعبدونها وتَتركون تَوحيدَ الله الخالق الرازق ؟ .

﴿ كلا ﴾.ارْتَدِعُوا واترُكوا الشِّرك،وأفيقوا مِن غَفلتكم وانتبهوا،واستيقظوا قبل فوات الأوان، فإن عقيدتكم باطلة ، سوف تقودكم إلى الخلود في النار إن مُتُّم عليها . إن الله وَحْدَه هو الخالق الرازق . وقد زعم المشركون كَذِبًا وزُورًا أن لله شريكًا في أُلوهيته ومُلْكه . إن اللهَ لا شريك له ، ولا نِد ، ولا تصلُح العبادة إلا لله وَحْدَه ، وهو الواحد الأحد ، واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله ، صاحب العِزَّة والغَلَبة والموصوف بكمال القُدرة ، وهو العزيز في انتقامه مِن أعدائه ، قَهر كُلَّ شَيء، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشَرْعه وتدبير شُؤون خَلْقه . فكيفَ يكون له شريك في أُلوهيته ومُلْكه ؟ . وبما أن الله وَحْدَه هو الإله الحق العزيز الغالب على أمره ، إذن ، فالأصنام الآلهة الباطلة هي الذليلة الحقيرة. وبما أن الله هو الحكيم الْمُنَزَّه عن الجهل والعبث، إذن ، فالأصنام لا تَملك شيئًا مِن العِلم والحكمة والقدرة .

وقد كان النبيُّ ﷺ يرى المشركين ويرى أصنامهم(آلهتهم الباطلة)التي يعبدونها.إذن ﴿ أرُونِيَ ﴾ هي استفسار عن دليل المشركين على شِرْكهم ، وشُبهتهم التي تعلَّقوا بها في رفض التَّوحيد ، والهدف هو إقامة الْحُجَّة عليهم ، وتوبيخهم ، وتقريعهم ، وتَبكيتهم ، وفضح جهلهم ، وإطلاعهم على سُوء حالتهم (الشِّرك) كي يَكتشفوا بُطلان عقيدتهم بأنفسهم ، ويُدرِكوا كُفرهم وضلالَهم في إلحاق الشُّركاء بالله تعالى. وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٣٧٧): ((يَقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين باللهِ الآلهةَ والأصنام : ﴿ أرُونِيَ ﴾ أيها القوم الذين ألحقتموهم بالله ، فَصَيَّرْتموهم له شُركاء في عبادتكم إيَّاهم : ماذا خلقوا مِن الأرض أَم لهم شِرك في السماوات ؟ . ﴿ كلا ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه : كذبوا ، ليس الأمر كما وصفوا، ولا كما جعلوا وقالوا مِن أن لله شريكًا ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ المعبود الذي لا شريك له ، ولا يصلُح أن يكون له شريك في مُلكه ﴿ العزيزُ ﴾ في انتقامه مِمَّن أَشرك بِه مِن خَلْقه ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره خَلْقه)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٥٥) : ((﴿قُلْ ﴾ للكفار ﴿ أرُونِيَ الذينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أي : أعلموني مِن أي وجه ألحقتموهم ، وهم لا يَخلقون ولا يَرزقون . ﴿ كلا ﴾ رَدْع وتنبيه ، والمعنى : ارْتَدِعُوا عن هذا القَول، وتنبَّهوا عن ضلالتكم، فليس الأمر على ما أنتم عليه)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ أأمِنتُم مَن في السماءِ أن يَخسِفَ بِكُمُ الأرضَ فإذا هِيَ تَمُور﴾[الْمُلْك: ١٦]. إن الله قادرٌ على خَسْف الأرض بالكافرين ، وتعذيبهم بسبب شِركهم ومعاصيهم . ولكنَّه رحيم بِخَلْقه ، لطيف بهم ، يُمهِلهم ويُؤجِّلهم ، ويُعطيهم الفرصة تِلْو الفرصة لتصحيح مسارهم ، ولا يُعاجلهم بالعقوبة والعذاب .

الخطاب الإلهيُّ للكافرين: هل أمِنْتُم رَبَّكم الأعلى صاحب القدرة والسُّلطان والعرش، أن يُحرِّك بِكم الأرض، فَيُغيِّبكم في أعماقها كما فَعل بقارون ؟، فإذا الأرض تذهب وتجيء وتضطرب، وتتحرَّك بكم ، وترتفع فوقكم . والمعنى أن الأرض تتحرَّك ، وتعلو فوقهم ، وتبتلعهم في جَوْفها .

والآيةُ لا تعني أن اللهَ حالٌّ في السماء. فاللهُ تعالى أكبر مِن كُل شيء،وَمُنَزَّه عن المكان والزمان. إن سُلطان الله ومَلكوته وعَرْشه في السماء . فكأنه قال : أأمنتم خالقَ السماء ؟، أو لأن المشركين كانوا يعتقدون أن الله حالٌّ في السماء ، وأن الرحمة والعذاب يَنْـزلان مِنه ، فتمَّت مُخاطبتهم حَسَبَ اعتقادهم ، مع ضرورة تَنْزيه الله عن المكان ، لأن المكان مخلوق ، واللهُ هو الخالق . والخالقُ غَير مَحصور ضمن حدود خَلْقه. إن اللهَ تعالى في السماء، بمعنى أنه العَلِيُّ الكبيرُ الذي قَهر المخلوقاتِ ، وعَلا فَوْقَها فَوْقِيَّة المكانة لا المكان . أمَّا اعتقاد أن اللهَ حالٌّ في السماء، فهذه عقيدة كُفرية، لأنها تعني أن السماء أكبر من الله تعالى ، وأنها محتوية عليه سُبحانه.

واللهُ أكبر مِن كُل شيء ، وقاهرٌ لكل شيء . واعتقادُ أن الله تعالى في جهة العُلُو بذاته عقيدةٌ كُفرية لأنها تعني أن الله محصور في نطاق ضيِّق . واللهُ أكبر من الأمكنة والأزمنة . واللهُ تعالى كان موجودًا ولا شيء معه. فالخالقُ قديم، والمخلوقات حوادث وُجِدَتْ بعد إذ لَم تَكُنْ .

وقال السُّيوطي في تنوير الحوالك (١/ ١٤٠) : ((وقال الباجي : ... يُقال : مكان فلان في السَّماء : يعني عُلُو حاله ورِفعته وشَرفه)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٨٩) : ((قال ابن عباس : أأمنتم عذاب مَن في السماء إن عصيتموه . وقِيل : تقديره : أأمنتم مَن في السماء قُدرتُه وسُلطانُه وعرشه ومملكته . وخُصَّ السماء وإن عَمَّ مُلْكُه تنبيهًا على أن الإله الذي تنفذ قُدرته في السماء ، لا مَن يُعظِّمونه في الأرض. وقِيل : هو إشارة إلى الملائكة . وقِيل : إلى جبريل وهو الملَك الْمُوكَّل بالعذاب . قلتُ : ويحتمل أن يكون المعنى: أأمنتم خالق مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون. فإذا هي تمور ، أي تذهب وتجيء . والْمَوْر : الاضطراب بالذهاب والمجيء... وإذا خُسِف بإنسان دارت به الأرض فهو الْمَوْر. وقال المحققون: ﴿ أأمِنتُم مَن في السماءِ ﴾ كَقَوله:﴿ فَسِيحوا في الأرض ﴾[التَّوبة:٢]. أي : فَوْقَها لا بالْمُمَاسَّة والتحيز ، لكن بالقهر والتدبير . وقِيل: معناه : أأمنتم مَن على السماء ، كَقَوله تعالى:﴿ ولأُصَـلِّبَنَّكُم في جُـذوعِ النَّخْـل ﴾ [طـه: ٧١] أي: عليها.ومعناه أنه مُدبِّرها ومالكها، كما يُقال : فُلان على العراق والحجاز ، أي : واليها وأميرها . والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة ، مُشيرة إلى العُلُو ، لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل

مُعانِد. والمراد بها توقيره وتَنْزيهه عن السِّفَل والتحت.ووَصْفُه بالعُلُو والعَظَمة لا بالأماكن والجهات والحدود، لأنها صفات الأجسام.وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء لأن السماء مَهْبِط الوَحْي ، ومَنْزِل القَطْر (المطر)، ومَحَل القُدْس، ومَعْدِن الْمُطهَّرين من الملائكة، وإليها تُرفَع أعمال العباد ، وفوقها عَرْشه وجنته ، كما جَعل اللهُ الكعبةَ قِبلة للدعاء والصلاة ، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها ، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان . ولا مكان له ولا زمان . وهو الآن على ما عليه كان)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ أرأيْتُم إنْ أهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَعِيَ أوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الكافرينَ مِنْ عَذابٍ أليم ﴾ [الْمُلْك : ٢٨] .

قُل يا محمد للمشركين مِن قَومك الجاحدين للنِّعَم الإلهية الذين يَتَمَنَّوْنَ مَوْتَكَ وهلاكَكَ والتخلص مِن دَعوتك : أخبروني إن أماتني اللهُ ومَن مَعِيَ مِن المؤمنين، أو رَحِمَنا فأخَّرَ آجالَنا ولَم يُعَذِّبْنا ، فَمَن يَحمي الكافرين مِن عذاب النار الشديد الموجِع المؤلِم بسبب كُفرهم ؟ . لا معنى لانتظار المشركين هلاك النبيِّ وأصحابه ، ولا معنى لاستعجالهم قيام الساعة . على المشركين أن يُنقِذوا أنفسهم بأنفسهم ، ولا يَنتظروا أحَدًا ، ولا يَتوقَّعوا شيئًا . لَن يُنقِذ المشركين أحد مِن عذاب النار ، سواءٌ أهلكَ اللهُ النبيَّ ﷺ والمؤمنين _ كما يتمنى المشركون _ ، أو أمهلهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٧٣) : ((يقول : ليس يُنجِّي الكفارَ مِن عذاب الله مَوْتُنا وحياتنا ، فلا حاجة بكم إلى أن تستعجلوا الساعة ونزول العذاب ، فإن ذلك غَير نافعكم ، بل ذلك بلاء عليكم عظيم)) اهـ .

والتعبيرُ عن الإماتة بالإهلاك ، لأن المشركين كانوا يَدْعُون على النبيِّ ﷺ والمؤمنين بالهلاك . وهذا يدل على شِدَّة كُفر المشركين وحِقدهم وضلالهم وحسدهم وكُرههم للنبيِّ والمؤمنين .

وقال النسفي في تفسيره (٤/ ٢٦٧) : ((كان كفار مكة يَدْعُون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك ، فَأُمِرَ بأن يقول لهم : نحن مؤمنون مُتَرَبِّصون لإحدى الْحُسْنَيَيْن ، إمَّا أن نَهْلِك كما تَتَمَنَّوْن ، فَنُقْلَب إلى الجنة ، أو نُرحَم بالنُّصرة عليكم ، كما نرجو ، فأنتم ما تصنعون ؟ ، مَن مُجيركم _ وأنتم كافرون _ من عذاب النار ؟ . لا بُد لكم منه)) اهـ .

ووضعُ ﴿ يُجِيرُ الكافرينَ ﴾ مَوضع الضمير " يُجيركم " ، للتسجيل عليهم بالكفر والضلال ، وفضحهم ، وكشف باطلهم ، ووَصْمهم بالخِزي والعار . وبيان أن كُفرهم كان السبب لهلاكهم وعذابهم وعدم نجاتهم .

والمعنى : أنقِذُوا أنفسَكم أيها الكافرون مِن عذاب النار، وذلك بالتَّوبة والرُّجوع إلى الله ، وعبادته وَحْدَه، بلا شريك ولا نِد. ولا يَنفعكم انتظار هلاك النبيِّ وأصحابه أو عذابهم . ولو عَذَّبهم اللهُ أو رحمهم ، فلا مُنقِذ لكم مِن عذاب النار الشديد .

والإنسانُ يموت وَحْدَه ، ويُبعَث وَحْدَه ، ويُحاسَب وَحْدَه ، فعليه أن يُنقِذ نَفْسَه بِنَفْسِه قبل مَوْته ، ويبتعد عن مُراقَبة الناس ، وانتظار ما يُصيبهم مِن الهلاك أو الرحمة . فالناسُ لا يَملكون مِن أمرهم شيئًا ، ولا يَقْدِرون على إدخال أحد الجنة أو إنقاذه مِن النار .

والنبيُّ ﷺ والمؤمنون يَعبدون اللهَ وَحْدَه ، وهُم مَعَ إيمانهم وتَصديقهم بين الخوف والرجاء ، فَمَن يَحمي الكافرين ـ مَعَ كُفرهم وضلالهم ـ مِن عذاب النار ؟ .

لا رجاء للكافرين كرجاء المؤمنين . والعذاب واقع بالكافرين لا مَحالة ، ولا يُنجِّيهم أحد من العذاب سواءٌ ماتَ النبيُّ والمؤمنون أَم عاشوا .

وفي التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٧٦):((قال المفسرون: كان الكفار يَتَمَنَّوْنَ هلاك النبيِّ ﷺ والمسلمين ، فأمره اللهُ أن يقول لهم : إن أهلكني اللهُ بالإماتة وأهلكَ مَن مَعي ، فأيُّ راحة وأيُّ منفعة لكم فِيه ، ومَن الذي يُجيركم مِن عذاب الله إذا نزل بكم ؟ . هل تظنون أن الأصنام تُخلِّصكم وتُنقذكم من العذاب الأليم ؟)) اهـ .

<u>٨ـ دَعْوتهم إلى الاعتبار بِمَن سَبَقهم :</u>

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَم يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِن قَبْلِهِم مِن قَرْنٍ مَكَّنَّاهُم في الأرضِ ما لَم نُمَكِّن لكم وأرْسَلْنا السماءَ عَلَيهم مِدْرارًا وَجَعَلْنا الأنهارَ تَجري مِن تَحْتِهم فأهْلَكْناهُم بِذُنوبِهم وأنشَأنا مِن بَعْدِهِم قَرْنًا آخَرِين ﴾ [الأنعام : ٦] .

هذه دَعوة إلهية للاعتبار والاتِّعاظ بحال الأمم الغابرة التي أهلكها اللهُ وعذَّبها بسبب تكذيبها للأنبياء. والآيةُ تحضُّ على أخذ الدروس والعِبَر والاستفادة مِنها. والرؤيةُ هُنا رؤية القلب لا العَين.

أَلَم يَرَ المشركون الذين يُكذِّبون بآياتِ الله ، ويَجحدون نُبُوَّتَكَ يا محمد ، ماذا حصل للأمم الماضية التي كَفرت باللهِ، وكذَّبت أنبياءه ؟ . لقد أهلكهم اللهُ وعذَّبهم، ومَحاهم مِن الوجود، وجَعلهم أثَرًا إثر عَيْن ، ألا يَعتبرون بحالهم ويتَّعظون ويأخذون الدروس والعِبَر ؟ . أَلَم يَعرفوا حال الأمم الماضية بسماع أخبارهم ورُؤية آثارهم ؟ . إن العاقل مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهل مَن اتَّعظ بِنَفْسه ، وينبغي أخذ الفوائد مِن التاريخ لعدم تكرار الأخطاء والخطايا .

لقد أعطاهم اللهُ الأموالَ والأولادَ والجاه وطُول الأعمار والقوة البدنية والقوة العسكرية والرخاء الاقتصادي ، ومَنحهم أسباب التقدم والازدهار والحضارة والتمكين في الأرض ، ما لَم يُعطِكم يا كفار مكة . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٤٦) : ((والمعنى : إنَّا أعطينا القرون الذين هُم قبلكم ما لَم نُعْطِكم مِن الدنيا ، وطُول الأعمار وقوة الأبدان . وقد أهلكناهم جميعًا ، فإهلاككم وأنتم دُونهم بالأَوْلَى)) اهـ .

وأنزلَ عليهم المطرَ من السماء غزيرًا دائمًا ، و﴿ مِدْرارًا ﴾ تدل على كثرة المطر في أوقات الحاجة وحَسَب المنفعة والمصلحة ، وعُبِّر عنه بِ ﴿ السماءَ ﴾ ، لأن المطر يَنْزل من السماء .

وفي زاد المسير (٣/ ٦) : ((والمراد بالمِدرار الْمُبالَغة في اتصال المطر ودوامه ، يعني أنها تُدِرُّ وقت الحاجة إليها ، لا أنها تدوم ليلاً ونهارًا فَتُفْسِد ، ذَكَره ابن الأنباري)) اهـ .

وجَعل الأنهارَ تجري مِن تحت أشجارهم ومنازلهم، وهذا يُشير إلى أنهم يعيشون في رخاء وسَعَة ، ويتمتَّعون بِرَغَد العَيش والخِصب ، ويَغرقون في النِّعَم الإلهية الكثيرة ، لكنهم جَحدوها ، ولَم يَشكروا اللهَ عليها ، فأهلكهم اللهُ بسبب كفرهم وضلالهم ومعاصيهم وآثامهم ، مِمَّا يدل على أن الذنوب سبب العذاب وزوال النِّعَم . وأوجدَ اللهُ جيلاً آخَر بعد إهلاك الجيل الأول ، وذلك من أجل اختبارهم وامتحانهم . فليحذروا مِن العقوبة أيضًا. وهذا يدل على قُدرة الله المطْلقة ، وسُلطانه الواسع، وحِكمته الباهرة ، فهو يُحيي ويُميت ، ويُوجِد مَن يَشاء ، ويُفْنِي مَن يَشاء . وفي هذا دليلٌ على البعث ، واحتجاجٌ على مُنكريه . والآيةُ تَحمل تهديدًا شديدًا لكفار مكة: احذروا أن يُصيبكم ما أصابهم. لا تُكرِّروا أخطاءهم ، فَيَحِل عليكم العذاب ، وتَنْزِل بكم العقوبة ، ويُهْلِككم اللهُ بكفركم ومعاصيكم كما أهلكَ الأممَ التي قبلكم . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٦٩) : ((فاحذروا أيها المخاطَبون أن يصيبكم مِثل ما أصابهم ، فما أنتم بأعز على الله مِنهم ، والرسول الذي كَذَّبتموه أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومُعاجَلة العقوبة منهم ، لَوْلا لُطفه وإحسانه)) اهـ . ينبغي النظر إلى الأمم الخالية التي أُوتِيَت من أسباب القوة والسَّعة والقدرات الفائقة ما لَم يَحصل عليه أهل مكة . ومع هذا أهلكهم اللهُ تعالى وهم أصحاب التمكين والْمَنَعة . إذن ، ماذا ستكون حالُ أهل مكة وهم أضعف منهم بكثير ؟! . فالقادرُ على إهلاك الجبابرة لن يَعجز عن إهلاك الضعفاء . ومن هنا تنبع أهميةُ التفكر في أحوال الأقوام السابقين الذين اعتمدوا على قوتهم الذاتية والأسبابِ المادية معتقدين أنها كفيلة بجعلهم صامدين في وجه الأزمات ، وضمان بقائهم على طول الدهر . لكنَّ شيئًا من هذا لَم يَحدث .

والمشكلةُ الكبرى في عقلية الظالمين عبر العصور، هي اعتقادهم أنهم استثناء من القاعدة ، وأن ما يَنطبق على غيرهم لا يَنطبق عليهم . وهذا الوهمُ مرجعه إلى غرور القوة الذي يمنع المرءَ من رؤية الأمور على حقيقتها . فالظالِمُ سائرٌ إلى حَتْفه بكل غرور وتكبُّر . فقد غَرَّه حِلمُ الله عليه ، وطولُ أمله ، وثناءُ الناس عليه . ولو كان الظالِمُ قارئًا للتاريخ لأدركَ أن للهِ سُنناً ثابتة تنطبق على الجميع ولا تتغير . وإن الحضارات العظمى التي زالت ، وعُتاةَ الجبابرة الذين ذهبوا إلى غير رجعة، وانتصار المظلوم على الظالم ولو بَعْد حِين . كل هذه الأمور تدعو للتفكر من أجل اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٢) : ((﴿ أَلَم يَرَوْا كَمْ أهْلَكْنا مِن قَبْلِهِم مِن قَرْنٍ ﴾ أي: مِن أهل زمان . والقَرْن مُدة أغلب أعمار الناس ، وهي سبعون سنة، وقِيل : ثمانون، وقِيل : القرن أهل عصر فيه نبيٌّ أو فائق في العِلم ، قَلَّت المدة أو كَثُرت ، واشتقاقه مِن قرنت. ﴿ مَكَّنَّاهُم في الأرضِ ﴾ جعلنا لهم فيها مكانًا ، وقَرَّرناهم فيها ، وأعطيناهم مِن القوى والآلات ما تمكنوا بها من أنواع التصرف فيها ﴿ ما لَم نُمَكِّن لكم ﴾ ما لَم نجعل لكم مِن السَّعَة وطُول الْمُقام يا أهل مكة ، ما لَم نُعْطِكم من القوة والسَّعَة في المال والاستظهار في العدد والأسباب.﴿ وأرْسَلْنا السماءَ عَلَيهم﴾ أي : المطر أو السحاب أو المِظَلَّة إن مبدأ المطر منها . ﴿ مِدْرارًا ﴾ أي مِغزارًا ﴿ وَجَعَلْنا الأنهارَ تَجري مِن تَحْتِهم ﴾ فعاشوا في الخِصب والريف بين الأنهار والثمار﴿ فأهْلَكْناهُم بِذُنوبِهم ﴾ أي لَم يُغنِ ذلك عنهم شيئًا ، ﴿ وأنشَأنا ﴾ وأَحْدَثْنا ﴿ مِن بَعْدِهِم قَرْنًا آخَرين ﴾ بدلاً منهم . والمعنى أنه سُبحانَه وتعالى كما قَدِرَ على أن يُهْلِك مَن قبلكم كعاد وثمود ، ويُنشِئ مكانهم مَن يُعمِّر بهم بلادَه، يَقْدِر أن يفعل ذلك بكم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولقدْ أهْلَكْنا القُرونَ مِن قَبْلِكُم لَمَّا ظَلموا وجاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ وما كانوا لِيُؤمِنُوا كذلكَ نجزي القَوْمَ المجرمين ﴾[يُونُس : ١٣] .

لقد أهلكَ اللهُ الأممَ الماضية التي كَذَّبت رُسُلَها مِن قَبلكم أيُّها المشركون (كفار مكة) ، لَمَّا ظَلموا أنفسَهم، باختيار الكفر على الإيمان ، وغرقهم في العِناد والْمُكابَرة . والكفر هو أقبح أنواع الظلم ، لأن الكافر ظَلَم نَفْسَه بأن قادها إلى الخلود في عذاب النار .

وجاءتهم رُسلهم بالمعجِزات والبراهين على وَحدانية اللهِ وصِدْق الرُّسل . وقد أهلكَهم اللهُ لِعِلْمه أنهم لا يُؤمنون ، إذ إن قلوبهم نجسة رافضة للإيمان ، وليس لديهم استعداد نفسي لِقَبول الحق . وقد طَبَع اللهُ على قلوبهم عُقوبةً لهم على كُفرهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٨) : ((﴿ وما كانوا لِيُؤمِنُوا ﴾ وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم ، وخِذلان الله لهم ، وعِلمه بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النَّفْي)) .

والآيةُ تشتمل على تخويف شديد لأهل مكة ، احذروا أن يُهْلِككم اللهُ كما أهلكَ الأممَ التي قبلكم . وقد أمهلَ اللهُ أهلَ مكة المشركين ، ولَم يُعاجلهم بالعقوبة والعذاب ، رحمةً بهم ، وكرامةً للنبيِّ ﷺ ، ولِعِلْمه تعالى أن مِن المشركين مَن سَيُؤمِن ، وسيخرج من أصلاب المشركين مَن يُوحِّد اللهَ ، ويعبده بلا شريك ولا نِد . وكما أنَّ اللهَ عَذَّبَ الأممَ الماضية وأهلكها بسبب كُفرهم وتكذيبهم للأنبياء،وعاجلها بالعقوبة، ولَم يُمهلهم ، لِعِلْمه بعدم جَدوى إمهالهم ، ولا فائدة مِن تأجيل عذابهم ، بعد إقامة الْحُجَّة عليهم بإرسال الرُّسل . كذلك يُعاقِب ويُهْلِك ويُعذِّب الذين يُكذِّبون محمدًا ﷺ . أي إن اللهَ يُهْلِك الذين يُكذِّبون محمدًا ﷺ كما أهلكَ مَن قَبلهم جَزاءَ كُفرهم وضلالهم ورفضهم للحق والهدى.واللهُ يُحذِّر كفار مكة ويُخوِّفهم بعذاب الأمم الماضية الكافرة . وهذا وعيدٌ شديد لهم على إجرامهم وتكذيبهم للنبيِّ ﷺ.ووضعُ الْمُظهَر موضع الضمير في﴿ نجزي القَوْمَ المجرمين ﴾ للتسجيل عليهم بكفرهم ، وبيان جريمتهم الشنيعة ، ووَصْمهم بالخِزي والعار ، وتوضيح أن جُرمهم (كُفرهم) سبب عذابهم.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٢٢) : ((أي : مِثل ذلك الجزاء نجزي القوم المجرمين،وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم ، وهذا وعيد شديد لِمَن كان في عصره من الكفار ، أو لكفار مكة على الخصوص)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٣٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : كما أهلكنا هذه القرون مِن قبلكم أيها المشركون بظلمهم أنفسهم ، وتكذيبهم رسلهم ، ورَدِّهم نصيحتهم ، كذلك أفعل بكم فأُهلِككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمدًا ﷺ ، وظلمكم أنفسكم بِشِرككم بربكم إن أنتم لَم تُنيبوا وتتوبوا إلى الله مِن شِرككم ، فإن مِن ثواب الكافر بِي على كُفره عندي أن أُهلِكه بِسَخطي في الدنيا ، وأُورِده النار في الآخرة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٣):((قَوله تعالى: ﴿ ولقدْ أهْلَكْنا القُرونَ مِن قَبْلِكُم ﴾ قال مقاتل: هذا تخويف لكفار مكة، والظلم هاهُنا بمعنى الشِّرك. وفي قَوله : ﴿ وما كانوا لِيُؤمِنُوا ﴾ قولان: أحدهما أنه عائد على أهل مكة، قاله مقاتل.والثاني: على القرون المتقدِّمة، قاله أبو سليمان. قال ابن الأنباري : ألزمهم اللهُ تركَ الإيمان لِمُعاندتهم الحق، وإيثارهم الباطل . وقال الزَّجاج : جائز أن يكون جَعَلَ جزاءهم الطبع على قلوبهم ، وجائز أن يكون أعلمَ ما قد عَلِمَ منهم. قَوله تعالى:﴿ كذلكَ نجزي ﴾ أي نُعاقِب ونُهلِك ﴿ القَوْمَ المجرمين ﴾ يعني المشركين من قومك)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُم خَلائِفَ في الأرضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون﴾[يُونُس: ١٤].

لقد جَعَلكم اللهُ أيها الناس سُكَّانًا في الأرض ، مِن بَعد الأمم التي أهلكها اللهُ بكفرهم ومعاصيهم، والتي تَسمعون أخبارَها ، وتُشاهدون آثارها . تَخلفونهم في الأرض، وتكونون مِن بَعدهم، لِيَنظر اللهُ كيفَ تعملون من أعمال الخير والشر ، وهو أعلم بِكُم مِن أنفسكم .

هَل سَتُوحِّدون اللهَ ، وتُخْلِصون له العبادة ، وتلتزمون أوامره، وتجتنبون نَواهيه ، أَم سَتَكفرون باللهِ ، وتعصونه ، وتتَّبعوا أهواءكم وشهواتكم ؟ . واللهُ يُعامل الناسَ حَسَبَ أعمالهم ، يُجازي المحسِن بإحسانه ، ويُعاقِب الْمُسيء بإساءته . والخلائف جمع خليفة .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٨٨) : ((أي : لِيَقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب، ولَم يَزَلْ يَعلمه غَيْبًا ، وقيل : يُعاملكم مُعاملة الْمُخْتَبِر إظهارًا للعدل ، وقِيل : النظر راجع إلى الرُّسل ، أي : لِيَنظر رُسُلُنا وأولياؤنا كيف أعمالكم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُم خَلائِفَ ﴾ قال ابن عباس: جعلناكم يا أُمَّة محمد خلائف، أي استخلفناكم في الأرض. وقال قتادة:ما جَعَلَنا اللهُ خلائف إلا لِيَنظر إلى أعمالنا ، فأرُوا اللهَ مِن أعمالكم خيرًا بالليل والنهار)) اهـ .

والاستفهام في ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُون ﴾ يُوضِّح أن الهدف من عملية الاستخلاف هو صُدور الأفعال الطيبة عن الناس، وفِعل الطاعات، واكتساب الحسنات.والمفروض أن الأمم اللاحقة قد تعلَّمت مِن أخطاء الأمم السابقة،فتبتعد عن المعاصي التي هي سبب الانتقام والعذاب . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٨) : ((وفائدته _ أي الاستفهام _ الدَّلالة على أن الْمُعْتَبَر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها ، لا هي مِن حيث ذاتها ، ولذلك يَحْسُن الفِعل تارةً ، ويَقْبُح أُخرى)) اهـ .

واللهُ يَعلم ما كان ، وما يكون ، وما هو كائن . وهو سُبحانَه يَعلم كُل شَيء عن الناس قبل أن يَخلقهم . وعِلْمُ اللهِ صِفة للهِ، وصِفات الله قديمة قِدَم ذاته العَلِيَّة . واللهُ يَعلم كُل شَيء مُنذ الأزل . ولكنَّه تعالى يَختبر الناسَ ويَمتحنهم ، إظهارًا للعدل ، وإقامةً للحُجَّة .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ١٧٣) : ((وقَوله : ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ معناه لِنُبَيِّن في الوجود ما عَلِمْناه أزَلاً ، لكن جرى القَول على طريق الإيجاز والفصاحة والمجاز)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨) : عن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ _ رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ الدنيا حُلْوةٌ خَضِرة ، وإن اللهَ مُسْتَخْلِفُكُم فيها ، فينظر كيف تعملون)) .

إن الدنيا منظرها فتَّان ومُحبَّب للنَّفْس بما فيها من زينة ولمعان. وهي دار ابتلاء واختبار .وإن الله تعالى جعل الناس مُسْتَخْلَفِين فيها، أي أنهم خَلَفوا الأممَ السابقة ، ووصلت إليهم الأمور ، من أجل الامتحان والابتلاء . وإن الله تعالى ناظر إليهم كيف يعملون (مَن الذي سَيُؤدي شُكرَ النِّعَم فيفوز ، ومن الذي سَيَجْحدها فَيَخسر) . ومَن جَرَّعَتْهُ الدنيا حلاوتها ، جَرَّعَتْهُ الآخرةُ مرارتها .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٥٥) عن معنى " الدنيا حُلوة خَضِرة " : ((يُحْتَمَل أن المراد به شيئان: أحدهما حُسْنها للنفوس ونضارتها ولذتها، كالفاكهة الخضراء الحلوة ، فإن النفوس تطلبها طلبًا حثيثًا فكذا الدنيا ، والثاني سُرعة فنائها كالشيء الأخضر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِن قَريةٍ أهْلَكْناها وَهِيَ ظالمةٌ فَهِيَ خَاويةٌ على عُروشِها وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ [الحج : ٤٥] .

كَم مِن قريةٍ أهلكَ اللهُ أهلَها بعذاب الاستئصال ، وجَعلها أثَرًا إثر عَيْن ، لأن أهلها كانوا ظالمين لأنفسهم ، يَكفرون باللهِ ، ويَعصونه ، ويُكذِّبون رُسله . وقد سَقطت سُقوفُها على الأرض ، وانهارت حيطانها فوق السُّقوف ، فهي مُهدَّمة مهجورة متروكة مُخرَّبة ، لا فائدة مِنها ، ولا أثر للحياة فيها . وَكَم مِن بئر عُطِّلت وتُرِكَت لا يُسْتَقَى مِنها، لفناء أهلها وهلاكهم، ولا يأتي إليها أحد بعد أن كان الناس يَزدحمون عليها . وَكَم مِن قصر مَنيع حصين مَرفوع البنيان ، أصبحَ مهجورًا وخاليًا بلا سُكان بسبب هلاك أهله . والتقدمُ الحضاري ، والرخاء الاقتصادي ، وقُوَّة البناء وإحكامه ، كُل ذلك لَم يَحْمِ الناسَ مِن عذاب اللهِ وشِدَّة بأسه .

إنَّ هذا درس بليغ ينبغي الاستفادة مِنه ، وعِبرة واضحة مِن أجل الاعتبار والاتِّعاظ ، وعدم تكرار أخطاء السابقين ، فإن عذاب الله أليم شديد ، ينبغي الابتعاد عنه، وذلك بالتزام أوامر الله واجتناب نواهيه .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٦٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وَكَم يا محمد مِن قرية أهلكتُ أهلَها وهم ظالمون . يقول : وهم يعبدون غَير مَن ينبغي أن يُعبَد ، ويعصون مَن لا ينبغي لهم أن يَعصوه . وقَوله : ﴿ فَهِيَ خَاويةٌ على عُروشِها ﴾ . يقول : فبادَ أهلُها وخَلَت وخَوَت مِن سكانها ، فخربت وتداعت وتساقطت على عُروشها، يعني على بنائها وسقوفها... . وقَوله: ﴿ وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ يقول تعالى : فكأيِّن مِن قرية أهلكناها ، وَمِن بئر عَطَّلْناها بإفناء أهلها وهلاك وارديها ، فاندفعت ، وتعطلت ، فلا واردة لها ، ولا شاربة منها ، وَمِن قصر مَشِيد رفيع بالصخور والجِص ، قد خلا مِن سُكانه بما أذقنا أهله مِن عذابنا بِسُوءِ فِعالهم، فبادوا، وبقي قصورهم الْمَشِيدة خالية منهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفَلَم يَسيروا في الأرضِ فَتَكُونَ لهم قُلوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكِن تَعْمَى القُلوبُ التي في الصُّدورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

أفَلَم يُسافر كفار مكة الذين يَرفضون وَحدانيةَ الله ويَجحدون نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، في البلاد ، ويَرَوْا هذه القُرى الْمُدَمَّرة فيعتبروا ويتَّعظوا بما حَل بأصحابها من العقوبة والعذاب، ويَحرصوا على عدم نزول العذاب الإلهيِّ بهم كما نَزل بالأمم الكافرة قبلهم ؟ . واللهُ يَحُثُّهم على السفر لِيَروا مصارع الأقوام التي أهلكها اللهُ بكفرهم وضلالهم ، ويتَّعظوا بمصيرها السَّيئ .

أفَلَم يسيروا في الأرض فَيُشاهِدوا بأعينهم مصارع الكافرين مِن الأمم السابقة ، ومواضع هلاكهم وعذابهم ، فيتفكروا ويَعتبروا ويتَّعظوا ، ويُدْرِكوا أن مصير الكافرين الْمُكذِّبين هو الهلاك والعذاب ، وأن عذاب الله شديد وأليم واستئصالي ، فيتركوا الشِّرك ، ويَعبدوا اللهَ وَحْدَه ، ويلتزموا أوامرَه ، ويجتنبوا نَواهيه ؟ . وكفارُ مكة قد سافروا كثيرًا في حياتهم للتجارة وغَيرها ، ولكنَّهم لَم يُسافروا للاتِّعاظ بمواضع هلاك الأمم السابقة والاعتبار بأحوالهم . لذلك ، تَمَّ اعتبارهم غَير مُسافرين ، ودُعُوا إلى ذلك . واللهُ تعالى يُنكِر على أهل مكة عدم الاعتبار بالآثار والأطلال وبقايا الديار ، وعدم الاتِّعاظ بمصير الأمم السابقة التي كَفرت بالله ، وكَذَّبت رُسله ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ . والسَّيْرُ في الأرض إنما هو سَيْرٌ بالأبدان والفِكر مَعًا . السَّيْرُ بالأبدان لمشاهدة مواقع هلاك الكافرين وعذابهم،والسَّيْر بالفِكر، لتحليل هذه الْمَشَاهِد، وأخذ الدروس والعِبر منها .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٥):((قال بعض الحكماء : أَحْيِ قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالتفكر، ومَوِّته بالزُّهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت، وقَرِّره بالفناء، وبَصِّره فجائعَ الدنيا،وحَذِّره صَولةَ الدهر وفُحشَ تقلب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذَكِّرْه ما أصاب مَن كان قَبله، وسَيِّره في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا وأين حَلُّوا وعَمَّ انقلبوا، أي فانظروا ما حَل بالأمم المكذِّبة من النِّقَم والنَّكال)) اهـ .

واللهُ يَدعوهم إلى التفكر والتفكير والاعتبار والاتِّعاظ، ومعرفة حُجَج الله على خَلْقه، وضرورة أن يَفهموا الإيمانَ والتوحيد ، ويَعرفوهما حَقَّ المعرفة . وينبغي أن يستمعوا إلى الحق والمواعظ والإرشادات وأخبار الأمم السابقة الهالكة التي مَصْدرها الوَحْي .

وقد أُضيف العقل إلى القلب ، لأن القلب هو محل العقل ، كما أن الأُذن محل السمع . وقد جَعل اللهُ الجوارحَ والحواس خاضعةً للقلب ، وتابعةً له . وما استقرَّ في القلب ظهر عليها . والقلبُ هو مَلِك الأعضاء . وأمرُ الملِك يَسري على كُل مَن هُوَ دُونه .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣/ ٨٣) : ((وَبَّخهم تعالى على الغفلة وترك الاعتبار بِقَوله : ﴿ أفَلَم يَسيروا في الأرضِ فَتَكُونَ لهم قُلوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ﴾ . وهذه الآية تقتضي أن العقل في القلب،وذلك هو الحق،ولا يُنكَر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يُوجب فساد العقل متى اختل الدماغ)).

وفي حقيقة الأمر، إن العمى الحقيقي ليس الذي يُصيب البصر ، وإنما الذي يُصيب البصيرة . والقلبُ الأعمى لا فائدة مِنه ، لأنه لا يَعتبر ولا يتَّعظ ولا يَستوعب حقيقةَ الإيمان . وأعمى البصر يستطيع رؤية الآيات والتفكر بها والاعتبار والاستدلال . أمَّا أعمى القلب فلا يتفكر ولا يتَّعظ . والمشكلةُ إنما كانت في بصائر الكافرين لا أبصارهم، والخلَل في عقولهم لا حَوَاسِّهم ، لأنهم غارقون في تقليد آبائهم ، ومُتَّبعون لأهوائهم وشهواتهم ، ومُنْهَمِكُون في غَفلتهم وضلالهم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩١) : ((معناه أن العمى الضَّار هو عَمى القلب ، فأمَّا عَمى البصر فليس بضار في أمر الدِّين . قال قتادة : البصر الظاهر : بُلغة ومُتعة ، وبصر القلب : هو البصر النافع)) اهـ . وقال ابن حزم في الإحكام (١/ ٩) : ((وقال بعض السلف الصالح : ترى الرجل لبيبًا داهيًا فَطِنًا ، ولا عقل له ، فالعاقلُ مَن أطاعَ اللهَ ــ عَزَّ وَجَلَّ)) اهـ .

والقلوبُ لا تُوجَد إلا في الصدور . وهذا أمرٌ معروف للجميع . لذلك كانت الآية : ﴿ التي في الصُّدورِ ﴾ للتأكيد على الكلام وتَوكيده ، وإثبات الأمر على حقيقته ، ونفي توهُّم المجاز .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٣٩): ((قَوله تعالى: ﴿ أفَلَم يَسيروا ﴾ .قال المفسرون: أفَلَم يَسِرْ قَوْمُك في أرض اليمن والشام ، ﴿ فَتَكُونَ لهم قُلوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ﴾ إذا نظروا آثارَ مَن هَلَك ، ﴿ أوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ﴾ أخبارَ الأمم الْمُكَذِّبة ، ﴿ فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ﴾ ، قال الفَرَّاء:الهاء في قَوله : ﴿ فإنها ﴾ عماد ، والمعنى أن أبصارهم لَم تَعْمَ ، وإنما عَمِيَت قلوبُهم. وأمَّا قَوله : ﴿ التي في الصُّدورِ ﴾ ، فهو توكيد ، لأن القلب لا يكون إلا في الصدر)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كألفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ [الحج : ٤٧] .

ويَستعجلك يا محمد مُشركو قَومك بالعذاب في الدنيا سُخريةً واستهزاءً . وهؤلاء الكفار الجاحدون لِوَحدانية الله ، والْمُكذِّبون بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، لا يَعرفون عَظَمَة الله ، ولا يُدرِكون سُننه الكَونية ، لذلك يُكذِّبون بعذاب الله ويُنكِرون مَجيئه ، ويستعجلون به جهلاً مِنهم ، وسُخريةً مِن النبيِّ ﷺ ، وتعجيزًا له ــ وَفْقَ تفكيرهم القاصر ــ ، واستهزاءً بالوعد الإلهيِّ الحق . وقد رَحِمَهم اللهُ بأن أمهلهم ، وأعطاهم الفرصة تِلْو الفرصة ، ولَم يُعاجلهم بالعقوبة والعذاب . ولكنَّهم ــ لكفرهم

وجهلهم وعِنادهم _ اعتبروا الْمُهْلَة إخلافًا للوعد . وهذا العذابُ حَق لا شَك فيه ، وواقع لا مَحالة في الوقت الذي يُريده اللهُ ، وليس في الوقت الذي يُريده الناس.ولَن يُخلِف اللهُ وَعْدَه الذي وَعَدَك فيهم يا محمد مِن إهلاكهم وتعذيبهم. وهذا تأكيدٌ للوعد ، ووعيدٌ شديد وتخويف لهم . وقد قَتلهم اللهُ يوم بدر . ومصيرهم الخلود في النار يوم القيامة . وهذا يدل على أن إنكار الكافرين للعذاب الإلهيِّ باطلٌ ، وأن سُوء تقديرهم للأمور قادهم إلى الهلاك والعذاب . والمعنى العام : كيف تَستعجلون بالعذاب سُخريةً واستهزاءً وتُنكِرونه أشدَّ الإنكار ، والوعدُ الإلهيُّ واقعٌ حَتْمًا ، لا يتأخَّر عن وقته ولا يَتخلَّف ؟. إن اللهَ لا يُغيِّر كلامَه ، ولا يُخْلِف وَعْدَه. والشواهدُ التاريخيةُ على أرض الواقع تدل على ذلك . ولا بُد من أخذ الدروس والعِبر مِن الأمم السابقة التي كَفرت بالله وكَذَّبت رُسله ، واستعجلت بالعذاب الإلهيِّ سُخريةً واستهزاءً ، وقد جاءها العذاب في الوقت المحدَّد بلا تقديم ولا تأخير . فتمَّ استئصالهم عن بَكرة أبيهم ، ودفعوا ثمن كُفرهم وضلالهم وسُخريتهم وعنادهم . فلا بُد أن يستفيد كفار مكة من دراسة أحوال الأمم الكافرة الهالكة ، لئلا يُكرِّروا أخطاءهم ، ويَسيروا بأرجلهم إلى الهلاك الشامل والعذاب الأبديِّ .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٦) : ((قال الأصمعي : كنتُ عند أبي عمرو بن العلاء ، فجاءه عمرو بن عُبَيد فقال : يا أبا عمرو، هل يُخْلِف اللهُ الميعادَ ؟ ، فقال : لا . فذكر آية وعيد ، فقال له : أَمِن العَجَم أنت ؟ ، إن العرب تَعُدُّ الرجوع عن الوعد لُؤمًا ، وعن الإيعاد كَرَمًا ، أما سمعتَ قول الشاعر : ليرهب ابن العم والجار سَطوتي ... ولا أنثني عن سَطوة المُتهدِّدِ ... فإني وإن أوعدته أو وعدته ... لَمُخْلِف إيعادي ومُنجِز مَوعدي)) اهـ .

ووقوعُ العذاب الإلهيِّ له وقت يُحدِّده اللهُ ويختاره وَفْق عِلْمه السابق وإرادته النافذة، وحِكمته البالغة، والناس لا علاقة لهم بالأمر ، لأن تفكيرهم قاصر ومحدود . واللهُ هو مُدبِّر شُؤون خَلْقه ، المهيمِن على الوجود بكل ما فيه . مَشيئته نافذة في كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء .

واللهُ لا يَعْجَل لِعَجَلة أحد ، ولا يستفزُّه كفر الكافرين ولا معاصي خَلْقه ، وهو يُمْلي للظالم ، ويُمْهِل ولا يُهْمِل ، فهو الصبور الحليم . واليوم مِن أيام الآخرة كألف سنة في الدنيا ، أي : مِقدار ألف سنة عند الناس كيوم واحد عِند الله تعالى. وهذا يُشير إلى حِلْم الله وصَبره ، ورحمته بِخَلْقه ، حيث أمهلهم ، وأجَّلهم ، وهو القادر على الانتقام مِنهم . فلا معنى لاستعجالهم بالعذاب . فالمخلوقُ لا يُعجِز الخالق . والآيةُ تدل على قِصَر نظر الكافرين وجهلهم وعنادهم وسُخريتهم ، وضِيقهم الشديد ، وقلقهم المستمر ، وانعدام صبرهم . ولا يوجد عاقل يتمنَّى العذاب ويَستعجله.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٣٩): ((قَوله تعالى : ﴿ ويَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذابِ ﴾ . قال مقاتل : نزلت في النَّضْر بن الحارث القُرَشي، وقال غَيره : هو قَولهم له : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [الْمُلْك : ٢٥] ، ونَحْوه من استعجالهم ، ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ في إنزال العذاب بِهم في الدنيا ، فأنزله بهم يوم بَدْر، ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي:مِن أيام الآخرة ﴿كألفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ من أيام الدنيا ... . فإن قِيل : كيف انصرف الكلام مِن ذِكر العذاب إلى قَوله : ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ ﴾ فعنه جوابان: أحدهما أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا ، فَقِيل لهم : لن يُخلِف اللهُ وَعْدَه في إنزال العذاب بكم في الدنيا، وإن يَوْمًا مِن أيام عذابكم في الآخرة كألف سنة مِن سِنِيِّ الدنيا ، فكيف تستعجلون بالعذاب ؟ ، فقد تضمَّنت الآية وعدهم بعذاب الدنيا والآخرة ، هذا قول الفَرَّاء. والثاني : وإن يَوْمًا عند الله وألف سنة سَواء في قُدرته على عذابهم، فلا فرق بين وقوع ما يستعجلونه وبين تأخيره في القدرة، إلا أن الله تفضَّلَ عليهم بالإمهال، هذا قول الزَّجاج)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وكَأيِّن مِن قَرْيَةٍ أمْلَيْتُ لها وَهِيَ ظالمةٌ ثُمَّ أخَذْتُها وَإلَيَّ المصيرُ ﴾ [الحج: ٤٨]. هذا تحذيرٌ إلهيٌّ شديد ، ودَعوة واضحة لعدم الاغترار بِحِلْم اللهِ وصَبْره . وفي الآية مُبالَغة في تَهويل أمر إهلاك الأمم وتعظيمه وتعميمه ، مِن أجل أخذ الحِيطة والحذر .

لقد أمهلَ اللهُ أقوامًا كثيرين مَعَ كُفرهم وضلالهم وظُلمهم، وإصرارهم على انحرافهم، وأجَّلهم ، وأخَّرهم ، ومنحهم الفُرص المتتابعة ، ولَم يُعاجلهم بالعقوبة والعذاب ، فاغتروا بهذه الْمُهْلَة ، وفهموا حِلْم الله عليهم بشكل خاطئ ، فَتَمَادَوْا في كُفرهم وضلالهم ، وازدادوا ظُلْمًا إلى ظُلمهم . ثُمَّ أخذهم اللهُ بالعذاب الشديد بعد طُول الإمهال ، وعذَّبهم في الدنيا ، واستأصلهم مِن الوجود ، فلم يعد لهم أثَر ولا صَوت . وإلى اللهِ المرجعُ والمصيرُ ، وليس لأحدٍ آخَر ، واللهُ هو الْحَكَم الحاكم ، ولا شريك له في حُكمه وأمره . ولا أحد يَهرب مِنه سُبحانَه ، ولا يَفوته شيء . وكما عذَّبهم في الدنيا سَيُعذِّبهم في الآخرة أشد العذاب.وهُم خالدون في النار ولَن يَخرجوا مِنها أبَدًا.وهذا وعيدٌ لكفار قُرَيش وتهديد وتخويف لهم ، فقد اغترُّوا بِحِلْم الله عليهم ، وطُول الإمهال، مَعَ كفرهم بالله وتكذيبهم للنبيِّ ﷺ . فليحذروا ولينتبهوا ، لئلا يُعذِّبهم اللهُ كما عذَّب مَن قَبلهم .

والآيةُ تشير إلى حِلْم الله وصَبْره، وتُشير أيضًا إلى ظُلم المستعجِلين بالعذاب وجهلهم وضلالهم. وقال أبو حيان في البحر المحيط (٦/ ٣٧٩): ((لَمَّا كان تعالى قد أمهلَ قُرَيْشًا حتى استعجلت بالعذاب ، ذكر الآية تنبيهًا على أن السابقين أُمْهِلوا ثم أُهْلِكوا ، وأن قُرَيْشًا وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم ، فإنه لا بُد مِن عذابهم ، فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم)) اهـ .

وعن أبي موسى ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظالِم ، حتى إذا أَخَذَهُ لَم يُفْلِتْه))[84].

إنَّ اللهَ يُعطي الظالِمَ فُرَصًا زمنية عديدة ، فيُطيل له في المدة ، ويُمهله ولا يُهمله ، وإذا أخذه لَم يُطْلِقْه ، لأن أَخْذَه ــ سُبحانَه وتعالى ــ أليم شديد . فإذا رأيتَ ظالِمًا يزداد تكبرًا وغطرسةً ونفوذًا وسَطوةً ، فاعلم أن الله تعالى يَستدرجه . والعاقلُ مَن يقرأ حركةَ التاريخ جَيِّدًا . فالقويُّ لا يظل قَوِيًّا حتى النهاية ، والضعيف لن يبقى ضعيفًا للأبد . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٧) : ((معنى يُمْلي : يُمْهِل ويُؤَخِّر ويُطيل له في المدة ، وهو مشتق من الملوة وهي المدة والزمان ، بضم الميم وكسرها وفتحها . ومعنى " لَم يُفلته " لَم يُطْلقه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فَيَنظروا كَيْفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِن قَبْلِهِم كانوا أشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً وأثارُوا الأرضَ وعَمَرُوها أكثرَ مِمَّا عَمَرُوها وجاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ فما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم ولكِن كانوا أنفُسَهُم يَظْلِمُون ﴾ [الرُّوم : ٩] .

أوَلَم يُسافر هؤلاء المشركون (كفار مكة) الذين يَجحدون وَحدانيةَ الله ويُكذِّبون محمدًا ﷺ ، في البلاد ، فينظروا إلى مَصارع الأمم قبلهم التي أهلكهم اللهُ بكفرهم وضلالهم ، واستأصلهم بالعذاب، فيعتبروا ويتَّعظوا ؟! . ينبغي أن يسيروا بأجسامهم لرؤية مواطن عذاب الأمم الماضية ، ويسيروا بعقولهم وبصائرهم لتحليل مَشاهِد العذاب، وسَماع أخبار الماضين، وأخذ الدروس والعِبر مِن هلاكهم وعذابهم وعاقبة أمرهم السَّيئة. والهدفُ مِن دراسة التاريخ هو عدم تكرار الأخطاء، لأن تكرار الأخطاء يعني الوصول إلى نفس المصير الكارثي (الهلاك والعذاب والدمار والخراب).

والاستفهامُ في ﴿ أوَلَم يَسيروا في الأرضِ ﴾ للتوبيخ ، لعدم تفكُّرهم في آثار الأمم الماضية ، والاعتبار بها ، والاتِّعاظ بعاقبة أمرها . كانت الأممُ الماضيةُ أقوى أجسامًا مِن كفار مكة ، وأطْوَل أعمارًا ، وأكثر أموالاً وأولادًا ، واستخرجوا المعادن مِن باطن الأرض ، وحرثوها للزراعة ــ وأهل مكة ليس لهم علاقة بالزراعة والحراثة ــ ، واستخدموا أحدث الوسائل لاستغلال الأرض والاستفادة مِنها، وعَمَرُوها بالأبنية والزراعة أكثر مِمَّا عَمَرَها كفار مكة ، بسبب طُول أعمارهم وشِدَّة قُوَّتهم . فأهلكهم اللهُ وعذَّبهم بكفرهم وتكذيبهم لِرُسله ، فلم تَمنعهم قُوَّتهم مِن بأس الله ، ولَم يَحْمِهم تقدُّمهم العمراني والاقتصادي مِن عذاب الله ، ولَم تَعصمهم قُوَّة أجسامهم وكثرة

(٨٤) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٢٦)برقم (٤٤٠٩)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٣).

أموالهم وأولادهم مِن العقوبة والهلاك . فماذا أنتم فاعلون يا كفار مكة وأنتم أضعف مِنهم وأقل شأنًا مِنهم في كل المجالات؟!.إن الأمم الماضية التي أهلكها اللهُ وعذَّبها كانوا أكثر زراعةً وعِمارةً من أهل مكة. وهذا تهكُّم بأهل مكة وسُخرية مِنهم واستهزاء بِهم .

وجاءتهم رُسلهم بالْمُعجِزات الواضحة، والبراهين الْجَلِيَّة ، والآيات الباهرة ، والأدلة المنطقية، وكُلُّها تُشير إلى وَحدانية اللهِ وصِدق رُسله ، فكذَّبوهم ، فعاقبهم اللهُ أشد العقاب ، وأهلكهم ، وعذَّبهم .

واللهُ لَم يَظلمهم بهذا العذاب الذي كان سببه الكفر بالله وإنكار آياته وتكذيب رُسله ، ولَم يكن اللهُ لِيُعَذِّبهم بلا جريمة ولا معصية ، ولَم يكن اللهُ لِيُهْلِكَهم وهُم مؤمنون أبرياء أنقياء . لقد أرسلَ اللهُ إليهم الرُّسل لإرشادهم ، ومَنحهم الفُرص لتصحيح أوضاعهم ، وأقامَ عليهم الْحُجَّة .

ولكنَّهم ظلموا أنفسَهم باختيارهم الكفر على الإيمان ، وقادوها إلى الخلود في عذاب النار ، فاستحقوا الهلاك والعذاب والدمار . وهذا دليل على أنهم لَم يُؤمنوا فَعُذِّبُوا وأُهْلِكُوا .

أي إن إصرارهم على الكفر كان سبب هلاكهم وفنائهم وعذابهم . والكفرُ أسوأ أنواع الظلم ، حيث يَظلم الكافرُ نَفْسَه ، بأن يَقودها إلى الهلاك الشامل والعذاب الأبديِّ . وبذلك يكون قد أضاعَ نَفْسَه بنفْسه ، ومشى إلى الهاوية السحيقة بِرِجْلَيه .

والإنسانُ قَد يَخدع الآخرين ويتحايل عليهم ويَظلمهم لتحقيق منافع شخصية ، أمَّا أن يَظلم نَفْسَه ويَخدعها فهذه هي الكارثة الحقيقية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٨) : ((﴿ أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فَيَنظروا كَيْفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ ، تقرير لِسَيرهم في أقطار الأرض ، ونظرهم في آثار الْمُدمَّرين قَبلهم . ﴿ كانوا أشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً ﴾ كعاد وثمود ، ﴿ وأثارُوا الأرضَ ﴾ وقلبوا وجهها لاستنباط المياه ، واستخراج المعادن ، وزرع البذور وغَيرها، ﴿ وعَمَرُوها ﴾ وعَمَروا الأرض ﴿ أكثرَ مِمَّا عَمَرُوها ﴾ مِن عِمارة أهل مكة إيَّاها ، فإنهم أهل واد غَير ذِي زَرْع ، لا تبسُّط لهم في غَيرها ، وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مُغترون بالدنيا ، مُفتخِرون بها، وهُم أضعف حالاً فيها، إذ مدار أمرها على التبسُّط في البلاد ، والتسلط على العباد ، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العِمارة ، وهم ضعفاء مُلْجَؤون إلى دار لا نفع لها ، ﴿ وجاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ ﴾ بالمعجِزات أو الآيات الواضحات ، ﴿ فما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم ﴾ لِيَفعل بهم ما تفعل الظَّلَمَة فَيُدمِّرهم مِن غَير جُرم ولا تذكير ، ﴿ ولكِن كانوا أنفُسَهُم يَظْلِمُون ﴾ حيث عملوا ما أدَّى إلى تدميرهم)) اهـ .

٩_ إنذارهم بالانتقام :

قالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ ورَسُولَهُ ويَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نارًا خَالِدًا فِيها ولهُ عذابٌ مُهِين﴾ [النِّساء: ١٤].

وَمَن يَعْصِ أمرَ اللهِ وأمرَ رسوله ﷺ ، ويتجاوز ما بَيَّنه اللهُ من الطاعات والأحكام والشرائع استحلالاً أو استهانةً ، يَجعله خالدًا مُخَلَّدًا في عذاب النار الهائل ، ولا يَخرج مِنها أبدًا ، وله عذاب شديد يُخزيه ويُهينه ويُذِلُّه .

ومعصيةُ اللهِ ورسولِه ، إذا تَمَّ استحلالُها (اعتبارها حلالاً) ، أو اشتملت على الاستهانة بالله ورسوله ، فهي كفر صريح ، وصاحبها خالد في عذاب النار ، لا يَخرج مِنها أبدًا .

أمَّا إن كانت معصية الله ورسوله بدافع الشهوة أو الضعف الإنساني ، فهي من الكبائر ، وصاحبها لا يخلُد في النار . وبالتالي يكون المقصود بالخلود في الآية هو طُول مُدَّة العذاب . وهذا يُشير إلى تهويل أمر العذاب وتعظيمه ، وبيان شِدَّته ، وكأنه بلا نهاية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٣) : ((فإن قِيل : كيف قطع للعاصي بالخلود ؟ . فالجواب أنه إذا رَدَّ حُكم الله وكفر به ، كان كافرًا مُخَلَّدًا في النار)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ قُلْ هُوَ القادرُ على أن يَبعثَ عَلَيكم عَذابًا مِن فَوْقِكم أوْ مِن تَحْتِ أرْجُلِكُم أوْ يَلْبِسَكُم شِيَعًا ويُذِيقَ بَعْضَكُم بَأسَ بَعْضٍ انظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لعلهم يَفْقَهُون ﴾[الأنعام:٦٥].

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين مِن قَومك الذين يعبدون الأصنام : إن الله الذي يُنجِّيكم من الأزمات والشدائد والكُرُبات قادر على إهلاككم وتعذيبكم، وهو سُبحانَه القادرُ على أن يُعذِّبكم بالطوفان والصَّيحة والريح (العذاب مِن فَوقكم) ، كما فَعل بالأمم الكافرة قبلكم . أو يُعذِّبكم بالخسف والرَّجفة (العذاب مِن تحت أرجلكم) كما فَعل بقارون وأصحاب مَدْين .

وهناك أقوام أتاهم العذابُ مِن فَوقهم ، كما أمطرَ اللهُ الحجارةَ على قوم لُوط وعلى أصحاب الفِيل . وهناك أقوام أتاهم العذاب مِن تحت أرجلهم ، كما أغرقَ اللهُ فِرْعَوْن ، وخَسف بقارون .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٥٣):((قَوله: ﴿ عَذابًا مِن فَوْقِكم ﴾ يعني: الصَّيحة والحجارة والريح والطوفان كما فَعل بعاد وثمود وقوم شُعَيب وقوم لُوط وقوم نُوح ﴿ أوْ مِن تَحْتِ أرْجُلِكُم﴾ يعني : الرجفة والخسف ، كما فَعل بقوم شُعَيب وقارون)) اهـ . أو يَأتيهم العذابُ مِن الحكام الظلَمة وأُمراء السوء، وهذا العذاب من جهة الفَوق، أو يأتيهم العذاب مِن الرَّعاع وحُثالة المجتمع، وهذا العذاب من جهة التحت .وقِيل : المراد بالفوق حبس المطر ، وبالتحت منع الثمرات .

أو يَجعلكم فِرَقًا مُتناحرة وطوائف مُتقاتلة. تحاربون بعضكم بعضًا، ويُقتَل بعضكم بيد بعض، من أجل حُطام الدنيا الفاني ، وتحقيق منافع مادية شخصية ، وهذا وعيدٌ وتهديد لهم .

انظر يا محمد كيف نُوضِّح لهم الآياتِ بالوعد والوعيد ، ونُبيِّن الأدلةَ والبراهين ، ونَكشف الْحُجَج والدَّلالات على قُدرتنا ، ونُقدِّم المواعظ والإرشادات ، من أجل أن يعرفوا بُطلان شِركهم وقُبح معاصيهم ، فيعتنقوا الإسلام الدِّين الحق القائم على التوحيد . والمعنى : إن اللهَ يُبيِّن أدلته وحُجَجه لهؤلاء الكافرين الذين يَجحدون وَحدانية الله ويُكذِّبون محمدًا ﷺ كَي يَفهموا ويَستوعبوا ويَعتبروا ويتَّعظوا ، فَيَنْزجروا ، ويَرفضوا الكفرَ ، ويتركوا التكذيب ، ويعتنقوا الإسلام .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٥٢٩) : ((وفي قَوله تعالى : ﴿ انظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ﴾ ، استرجاع لهم ، وإن كان لفظها لفظ تعجيب للنبيِّ ﷺ ، فَمُضَمَّنها أن هذه الآيات والدَّلائل إنما هي لاستصرافهم عن طريق غَيِّهم . والفِقْه الفَهْم)) اهـ .

إنَّ اللهَ يُعلِّمهم ويُرشِدهم ويُنبِّههم كَي يَفهموا آياتِه ، ويتدبَّروها ، فيتركوا الشِّرك ، ويُؤمنوا بِوَحدانيةِ اللهِ ، ويُصدِّقوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ الذي كذَّبوه ، مَعَ أنهم مِن قَومه ، ويتحدَّث بِلُغتهم . وهذا يدل على شِدَّة كُفرهم وعنادهم وحسدهم وجهلهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٩و٦٠) : ((وَفِيمَن عُنِيَ بهذه الآية ثلاثة أقوال : أحدها أنها في المسلمين أهل الصلاة، هذا مذهب ابن عباس وأبي العالية وقتادة. وقال أُبَي بن كعب في هذه الآية : هُنَّ أربع خِلال وكُلهنَّ عذاب، وكُلهنَّ واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، أُلْبِسُوا شِيَعًا، وأُذيِق بعضهم بأس بعض، وثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرَّجْم [85]. والثاني أن العذاب للمشركين، وباقي الآية للمسلمين، قاله الحسن ... والثالث أنها تهدُّد للمشركين ، قاله ابن جرير الطبري وأبو سليمان الدمشقي)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٩٤): عن جابر _ رضي اللهُ عنه_ قال: لَمَّا نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ القادرُ على أن يَبعثَ عَلَيكم عَذابًا مِن فَوْقِكم ﴾. قال رسول الله ﷺ:((أعوذ بوجهك)). قال : ﴿ أوْ مِن تَحْتِ أرْجُلِكُم ﴾ . قال : ((أعوذ بوجهك)). ﴿ أوْ يَلْبِسَكُم شِيَعًا ويُذِيقَ بَعْضَكُم بَأسَ بَعْضٍ ﴾ . قال رسول الله ﷺ : ((هذا أَهْوَن _ أو هذا أيسر _)) .

(٨٥) قال الحافظ في الفتح (٨ / ٢٩٢) : ((وقد أُعِلَّ هذا الحديث بأن أُبَيَ بن كعب لَم يُدرِك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية)) .

لقد احتجَّ بهذا الحديث مَن قال إن الآية نزلت في المؤمنين . وفي تفسير الثعالبي (١/ ٥٢٩) : ((قال الطبري وغيره:مُمتنع أن يكون النبيُّ ﷺ تَعَوَّذ لأُمَّته من هذه الأشياء التي تُوُعِّد بها الكفار)) اهـ . ومعنى : " أعوذ بوجهك " ، أي : أحتمي بِك وألتجئ إليك . ومعنى : " هذا أَهْوَن _ أو هذا أيسر _ " ، والشك من الراوي . أي إن فِتنة الخلق وتسليط بعضهم على بعض بالقتل أهون مِن عذاب الله تعالى. وبعبارة أخرى، إن الفِتَن بين الناس وعذابهم أهون مِن العذاب الإلهيِّ . والأُمَّةُ المحمدية الإسلامية مُبتلاة بالفِتَن على مَدار تاريخها ، لأن الفِتَن هي امتحانٌ إلهيٌّ مِن أجل تمييز الصالح من الفاسد ، والفِتَن حصاد المنافقين ، ولا بُد مِن الغَرْبلة والتَّنقية والتَّمييز .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥) : عَن ثَوبان قال: قال رسول الله ﷺ: ((... وإني سألتُ ربي لأُمَّتي أن لا يُهْلِكَها بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وأن لا يُسَلِّطَ عَلَيهم عَدُوًّا مِن سِوى أنفسهم، فَيَستبيح بَيْضَتَهُم ، وإنَّ ربي قال : يا مُحَمَّد ، إني إذا قَضَيْتُ قَضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ ، وإني أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتكَ أن لا أُهلِكَهم بِسَنة عامة ، وأن لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوى أنفسهم يَستبيح بَيضتهم، ولو اجتمعَ عَلَيهم مَن بأقطارها_أوْ قال مَن بَيْنَ أقطارها (والشَّك مِنَ الراوي) _ ، حتى يكون بعضُهم يُهلِك بَعضًا ، وَيَسْبي بَعْضُهم بعضًا)) .

لقد حَفِظَ اللهُ تعالى هذه الأُمَّة مِنَ القَحْطِ العام الْمُهْلِك، وحَمَاها مِن أعدائها، فلا يَقْدِرُون عَلى استئصالها (استباحة بَيضتها)، حتى لَوْ اجتمعوا عَلَيها جَميعًا . لكنَّ أفرادَ الأُمَّة الإسلامية سَيَتقاتلون فِيما بَيْنَهم ، ويُهْلِك بعضُهم بَعضًا ، ويَسبي بعضُهم بَعضًا .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تُعْجِبْكَ أموالُهُم ولا أولادُهُم إنما يُريدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِها في الحياةِ الدُّنيا وتَزْهَقَ أنفُسُهُم وَهُم كافرون ﴾[التَّوبة : ٥٥] .

الدنيا سراب ووهم.وكُل ما فيها مَتاع زائل،والعاقلُ لا يغترُّ بِها، وإنما يَنظر إلى الآخرة الباقية. والإعجابُ بالشَّيء أن تُسَرَّ بِه سُرور راضٍ به ، مُتَعَجِّب مِن حُسنه . لا تستحسن يا محمد كثرة أموالهم وأولادهم، فهذه زِينة الحياة الدنيا الزائلة الفانية ، ولا يُعْجِبْكَ ذلك ، فهو استدراج مِن الله تعالى ، ووَبال عليهم. والآيةُ تُهينهم ، وتُخزيهم ، وتُذِلُّهم ، وتَضعهم في مكانة دُونية حقيرة .

إنما يُريد الله لِيُعَذِّبهم بها في الدنيا ، وذلك باستيلاء المسلمين على أموالهم وأخذها غنائم ، وسَبْي أولادهم ، فَيُعانون من الألم والهم والغم والحزن والقلق ، كما أنهم يُعانون من المصائب والكوارث التي تُصيب أموالهم وأولادهم . بالإضافة إلى تعبهم وقلقهم ولُهاثهم من أجل جمع الأموال وحفظها وحمايتها من الضياع ، والبُخل بها ، والخوف عليها . وكُل هذا عذاب .

وأيضًا، سَيُعَذِّبهم اللهُ بِها في نار جهنم يوم القيامة ، لأنهم لَم يَشكروا اللهَ عليها ، ولَم يُؤَدُّوا حق الله فيها ، كالزكاة وغَيرها . وإن أدُّوا الزكاةَ والصدقات _ على اعتبار أنهم مُنافقون_ ، فهو رِياء وسُمعة ، وواقعون تحت الضغط والكراهية الشديدة. وإذا أنفقوا فهُم يُنفِقون عن كراهة واضطرار ، لا عن رغبة واختيار . ونِيَّتُهم الفاسدة أبطلت أعمالهم ، لأنهم غَير مُخْلِصين لله تعالى ، ولا يشعرون بحلاوة الإيمان ، ولا يَحُسُّون بمتعة الإنفاق في سبيل الله.وهذا يزيد عذابهم النفسي، وقلقهم الروحي، وتعبهم الجسماني. فيزدادون عذابًا إلى عذابهم ، وإِثْمًا إلى إثمهم .

إن أموالهم وأولادهم سبب لعذابهم في الدنيا ، حيث يُصيبها الكوارث والأزمات والشدائد والمصائب، وهذا عذابٌ لهم ، ولا أجر لهم . وأيضًا إجبار الشرع لهم على أداء الزكاة والحقوق المالية، وهُم كارهون مُضْطَرُّون، وهذا أيضًا عذاب لهم.والجديرُ بالذِّكر أن المصائب في المال والولد عذابٌ للكافر، وأجرٌ للمؤمن .

ويُريد اللهُ أن يُميتهم على الكفر عقوبةً لهم ، سبق بذلك القضاء . إنهم لا يستحقون شرفَ الإيمان بسبب إنكارهم لِوَحدانية الله،وجُحودهم لِنُبُوَّة محمدﷺ، وغرقهم في العِناد والجهل والطغيان والضلال والاستكبار. وبذلك يستحقون الخلود في عذاب النار . وفي هذا دليل أن الله مَنحهم الأموال والأولاد لاستدراجهم، وإهلاكهم وتعذيبهم ، وليس حُبًّا لهم ، أو رِضا عنهم . إن أموالهم وأولادهم نِقمة عليهم ، وسبب لإهلاكهم وعذابهم ، وليست نعمةً .

وأصل الزُّهوق الخروج بصعوبة . أي إن أرواحهم ستخرج بصعوبة وشِدَّة عند موتهم ، وهذا عذابٌ لهم بما كسبت أيديهم من الذنوب والمعاصي والآثام .

وقال النسفي في تفسيره (٢/ ٩٤) : ((ودَلَّت الآية على بُطلان القول بالأصلح لأنه أخبرَ أن إعطاء الاموال والأولاد لهم للتعذيب والإماتة على الكفر ، وعلى إرادة الله تعالى المعاصي ، لأن إرادة العذاب بإرادة ما يُعذَّب عليه ، وكذا إرادة الإماتة على الكفر)) اهـ .

إن أموال الكافرين وأولادهم زينةٌ ظاهرية سُرعان ما تضمحل وتختفي ، فينبغي عدم الإعجاب بها ، أو الاغترار بهذا اللذة الوهمية التي هي _في واقع الأمر _ نِقمة على أصحابها . فاللهُ تعالى يُريد أن يُعذِّبهم بها في الدنيا فيتعبوا في جمعها وحفظها ، ثم يوم القيامة تكون سببًا في دخولهم النار لأنهم لَم يُؤَدُّوا حقَّ الله تعالى ، وأعرضوا عن شريعته رافضين لها ، غير مُقدِّرين للنِّعَم العظيمة التي أسبغها اللهُ عليهم . وقد كانوا مشغولين بهذه المتعة الوقتية التي كانت استدراجًا، فلم يتفكروا في ما بعد الموت.وسوف يُداهمهم الموتُ فجأةً ، فتخرج أرواحهم بشدة بالغة ، ويموتون كافرين.

وهذا إخبار من الله تعالى بأنهم _ مُسْتَقْبَلاً _ سيموتون على الكفر . فالله تعالى يَعلم ما حدث ويحدث وسَيَحدث ، فهو سُبحانَه خالق الماضي والحاضر والمستقبل ، لا يَحصره زمانٌ ، ولا يَحُدُّه مكان . وفي تفسير الثعالبي (٢/ ١٣٤و١٣٥) : ((قال الفخر : أمَّا كَوْن كثرة الأموال والأولاد سببًا للعذاب في الدنيا فحاصل مِن وجوه منها : أن كلما كان حُب الإنسان للشيء أشد وأقوى كان حُزنه وتألُّم قلبه على فراقه أعظم وأصعب ، ثم عند الموت يَعظم حزنه وتشتد حسرته لمفارقته المحبوب . فالمشغوف بحب المال والولد لا يزال في تعب فيحتاج في اكتساب الأموال وتحصيلها إلى تعب شديد ومشقة عظيمة ، ثم عند حصولها يحتاج إلى متاعب أشد وأصعب في حفظها وصَوْنها ، لأن حفظ المال بعد حصوله أصعب من اكتسابه ، ثم أنه لا ينتفع إلا بالقليل من تلك الأموال ، فالتعب كثير والنفع قليل . واعلم أن الدنيا حُلوة خَضِرة، والحواس الخمس مائلة إليها، فإذا كَثُرت وتوالت استغرقت فيها ، وانصرف الإنسان بِكُليته إليها ، فيصير ذلك سببًا لِحِرمانه مِن ذِكر الله ، ثم أنه يحصل في قلبه نوع قسوة وقوة وقهر،وكلما كان المال والجاه أكثر كانت تلك القسوة أقوى، وإلى ذلك الإشارة بِقَوله تعالى:﴿ إِنَّ الإنسانَ لَيَطْغى(٦) أَن رَآه استغنى (٧) ﴾ [العَلَق]. فظهرَ أن كُثرة الأموال والاولاد سبب قوي في زوال حب الله تعالى وحب الآخرة من القلب ، وفي حصول الدنيا وشهواتها في القلب، وعند الموت كأن الإنسان ينتقل من البستان إلى السجن، ومن مجالسة الأقرباء والأحبة إلى موضع الغربة والكُربة،فَيَعظم تألمه ويقوى حُزنه، ثم عند الحشر حلالها حساب، وحرامها عقاب، فثبت أن كثرة الأموال والأولاد سبب لحصول العذاب في الدنيا والآخرة)) اهـ .

إن الدنيا مَجبولة بالتعب والكَدَر والمصائب. وما الأموالُ والأولاد إلا فِتنة شديدة لا يَنجح فيها إلا القليلون . والْمُتَعُ الدنيوية ممزوجة بالألم والعذاب ، ولا يمكن الحصول عليها إلا ببذل الوقت والجهد ، ولا يمكن الحفاظ عليها إلا بالتعب والسهر والقلق. لذلك كانت الْمُتَعُ حقلاً خصبًا للغِواية ، يتحرك فيه الشيطان بكل سهولة ، لأنها نقطة ضعف للإنسان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٥٢و٤٥٣):((قَوله تعالى: ﴿ فلا تُعْجِبْكَ أموالُهُم ﴾ أي : لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد . وفي معنى الآية أربعة أقوال : أحدها فلا تُعْجِبْكَ أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يُريد اللهُ لِيُعَذِّبهم بها في الآخرة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدي وابن قُتَيبة، فعلى هذا في الآية تقديم وتأخير، ويكون تعذيبهم في الآخرة بما صنعوا في كسب الأموال وإنفاقها . والثاني أنها على نَظْمها ، والمعنى لِيُعذِّبهم بها في

الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد ، فهي لهم عذاب ، وللمؤمنين أجر، قاله ابن زيد . والثالث أن المعنى لِيُعَذِّبهم بأخذ الزكاة من أموالهم والنفقة في سبيل الله ، قاله الحسن . فعلى هذا ترجع الكِناية إلى الأموال وَحْدَها . والرابع لِيُعذِّبهم بِسَبْي أولادهم وغنيمة أموالهم ، ذَكَره الماوردي فعلى هذا تكون في المشركين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما في الأرضِ لافْتَدَتْ بِهِ وأسَرُّوا النَّدامةَ لَمَّا رَأَوُا العذابَ وقُضِيَ بَيْنَهُم بالقِسْطِ وَهُم لا يُظْلَمُون ﴾[يُونُس : ٥٤] .

وَلَوْ أن لكل نَفْسٍ كافرة ، ظَلمت نَفْسَها بعبادة غَير اللهِ ، وترك طاعته ، ما في الأرض كُلِّها . أي امتلكت كُلَّ شَيء على كوكب الأرض بلا استثناء(الأموال والأراضي والقصور والذهب والفضة ... إلخ) ، لافتدت بذلك كُلِّه مِن العذاب الإلهيِّ الشديد عند رُؤيته . أي : جعلته فِديةً لها مِن العذاب . ولا يُقبَل مِنها، لأن الآخرة دار جزاء (إعلان نتيجة الامتحان)، أمَّا الدنيا فهي دار عمل (الامتحان) . كما أن مال الدنيا في الدنيا ، والآخرة هي حصاد الأعمال لا الأموال .

وأخفى رُؤساء الكافرين وزعماؤهم الندامةَ حِينَ رَأَوْا نارَ جهنم رَأي العَين ، وعايَنوا فظاعة الأمر الرهيب ، ووجدوا أَلَمَ الحسرة والندم في قلوبهم ، وشَعروا بصدمة هائلة أخْرَسَتْهُم، وسلبتهم القدرة على التفكير ، وأخذت عقولَهم، واستولت على حَوَاسِّهم، ففقدوا التركيزَ، وعجزوا عن الكلام، وانهارت قَواهم العقلية والجسدية . وقد أخفى الرُّؤساءُ الندامةَ عن الأتباع والضعفاء خَوْفًا مِن التوبيخ والتعيير والشماتة واللوم . والنَّدامة : الحسرة لوقوع شيء أو فَوْت شيء .

لقد أخْفَوا الندامةَ ليس تَصَبُّرًا ولا تَجَلُّدًا. ففي ذلك اليوم العظيم ، لا مجال للتصبُّر والتَّصَنُّع . وإنما أخْفَوا الندامةَ لأنهم بُهِتُوا وصُدِمُوا ، جَرَّاء رُؤيتهم للنار العظيمة ، والأهوال الشديدة ، والعذاب الفظيع ، ولَم يَعملوا له حسابًا ، ولَم يتوقعوا فظاعةَ الأمر ، وشِدَّة العذاب . لذلك كانت صَدمتهم مُضَاعَفَة ، وفُوجئوا بهذا المنظر الْمُرعِب . ودائمًا عُنصر المفاجأة صادم وقاتل . وإخفاءُ الندامة قبل دُخول النار. أمَّا بعد دُخول النار، فإن شِدَّة العذاب تُلهيهم عن أيِّ شَيء آخَر.

وقد رأى هؤلاء الرؤساء المتبوعون النارَ العظيمة الهائلة التي كانوا يَسمعون بها ، فانهارت معنوياتهم ، وأيقنوا أن العذاب واقع بهم لا مَحالة . وقضى اللهُ في ذلك اليوم الرهيب بين الرؤساء والأتباع بالحق والعدل ، ويُجَازَى كُلٌّ على فِعله وصَنيعه .

واللهُ لَم يَظْلمهم ، وإنما ظَلموا أنفسَهم باختيار الكفر على الإيمان ، وقادُوها إلى الخلود في عذاب النار . واللهُ عادلٌ في أحكامه ، يُبغِض الكافرين ، ولكنَّه لا يَظلمهم . ولا يُعاقِب أحَدًا بلا

ذَنْب ، ولا يَأخذه بِذَنْب غَيْره . وقد أرسلَ اللهُ الرُّسُلَ إلى الناس ، لإرشادهم وهدايتهم ، وأقامَ عليهم الْحُجَّة ، وقَطَعَ أعذارَهم . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٥٥) : ((زَادَ اللهُ في التأكيد ، فقال: ﴿ وَلَوْ أنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما في الأرضِ لافْتَدَتْ بِهِ ﴾ ، أي: وَلَوْ أن لكل نَفْس من الأنفس الْمُتَّصفة بأنها ظَلمت نَفْسَها بالكفر بالله وعدم الإيمان بِه ، ﴿ ما في الأرضِ ﴾ مِن كل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها مِن الأموال النفيسة والذخائر الفائقة،﴿لافْتَدَتْ بِهِ ﴾ أي جعلته فِديةً لها مِن العذاب... . ﴿ وأسَرُّوا النَّدامةَ لَمَّا رَأوُا العذابَ ﴾ ، الضمير راجع إلى الكفار الذين سِياق الكلام معهم ، وقِيل : راجع إلى الأنفس المدلول عليها بِكُل نَفْس . ومعنى أَسَرُّوا : أَخْفَوْا ، أي: لَم يُظْهِروا النَّدامة ، بل أَخْفَوْها لِمَا قد شاهدوه في ذلك الموطن ، مِمَّا سلب عقولهم ، وذهب بتجلُّدهم ، ويمكن أنه بَقِيَ فيهم وَهُمْ على تلك الحالة عِرْق ينزعهم إلى العصبية ، التي كانوا عليها في الدنيا ، فأسَرُّوا الندامةَ لئلا يشمت بهم المؤمنون . وقِيل : أسَرَّها الرؤساء فِيما بينهم دون أتباعهم ، خَوْفًا مِن توبيخهم لهم لِكَونهم هُم الذين أضلوهم ، وحالوا بينهم وبين الإسلام ، ووقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ... . وقيل:معنى أسَرُّوا:أظْهَرُوا، وقِيل: وجدوا ألَمَ الحسرة في قلوبهم، لأن الندامة لا يمكن إظهارها ... وذَكَر الْمُبَرِّد في ذلك وجهين : الأول : أنها بدت في وجوههم أَسِرَّة الندامة ، وهي الانكسار . واحدها سِرَار ، وجمعها أسارير . والثاني : ما تَقَدَّم . وَقِيل معنى : ﴿ أسَرُّوا النَّدامةَ ﴾ أَخْلَصُوها، لأن إخفاءَها إخلاصُها، و﴿ لَمَّا ﴾ في قَوله : ﴿ لَمَّا رَأوُا العذابَ ﴾ ظرف بمعنى " حِين " منصوب بِ﴿ أسَرُّوا ﴾ ، أو حرف شرط جوابه محذوف لِدَلالة ما قَبله عليه ، ﴿ وقُضِيَ بَيْنَهُم بالقِسْطِ ﴾ أي : قضى اللهُ بين المؤمنين وبين الكافرين ، أو بين الرؤساء والأتباع ، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين ، وقِيل : معنى القضاء بينهم : إنزال العقوبة عليهم ، والقِسْط : العدل، وجُملة ﴿ وَهُم لا يُظْلَمُون ﴾ في محل نصب على الحال:أي لا يَظْلِمهم اللهُ فيما فعل بهم مِن العذاب الذي حَل بهم، فإنه بسبب ما كَسبوا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إن نَشَأ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرضَ أوْ نُسْقِطْ عَلَيهم كِسَفًا مِنَ السماءِ﴾[سَبَأ : ٩].

يُهدِّدهم اللهُ ويُخوِّفهم كَي يَرتدعوا ويَنْزجروا عن كُفرهم ، ويلتزموا بعبادة الله وَحْدَه .

إن يَشَأ اللهُ يَخسِف بهم الأرضَ كما خَسف بمن قبلهم ، أو يُسقِط عليهم قِطَعًا من السماء ، لتكذيبهم بآيات الله وكُفرهم بالنبيِّ ﷺ وبما جاءَ بِه ، بعد ظُهور الأدلة والْحُجَج والبراهين . وهذا يدل على أن الأرض والسماء خاضعتان لأمر الله ، ومقهورتان تحت حُكمه وإرادته ومشيئته. وإذا شاءَ اللهُ عَذَّبَ بأرضه ، وإذا شاءَ عَذَّبَ بسمائه . والأرضُ والسماءُ جُنديان مِن جُنود الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٩٤) : ((أي : لَو شِئنا لفعلنا بهم ذلك بِظُلمهم وقُدرتنا عليهم ، ولكن نُؤخِّر ذلك لِحِلْمنا وعَفْونا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فَذَرْهُم يَخُوضوا ويَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُون﴾[الزُّخرُف:٨٣] .

اترُكْ كفارَ مكة يا محمد ، يَخوضوا في باطلهم وكُفرهم وضَلالهم ، ويَلعبوا في هذه الدنيا ، حتى يُلاقَوا عذابَ يَوْمِ القيامة الذي يَنتظرهم ، وعندئذٍ سَوْفَ يَعْلَمون مصيرَهم وحالَهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٥) : ((وهو دَلالة على أنَّ قَوْلَهم هذا جَهْل واتِّباع هَوى ، وإنهم مطبوع على قلوبهم ، مُعذَّبون في الآخرة)) اهـ .

والآيةُ وعيدٌ لكفار مكة ، وتهديدٌ شديدٌ لهم .

وقال ابن الأثير في المثل السائر (٢/ ٩٠) : ((وأمَّا حذف جواب الفِعل ، فإنه لا يكون في الأمر المحتوم كَقَوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُم يَخُوضوا ويَلْعَبُوا ﴾ ، فَجَزَمَ ﴿ يَخُوضوا ويَلْعَبُوا ﴾ لأنهما جواب أمر ﴿ فَذَرْهُم ﴾ . وحَذْفُ الجواب في هذا لا يَدخل في باب الإيجاز، لأنَّا إذا قُلنا : ذَرْهُم، أي : اترُكْهم ، لا يحتاج ذلك إلى جواب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[القمر : ٤٥] .

سَيُهْزَمُ كفار مكة، ويتفرَّق جَمْعُهم ، ويَتَشَتَّت شَمْلُهم ، ويُغلَبون ، ويَرجعون على أدبارهم ، أي يُديرون ظُهورهم هاربين ، وينصرفون مهزومين مخذولين مُجَلَّلين بالخِزي والعار والذل .

وهذا أمرٌ غَيبيٌّ أخبرَ اللهُ بِه محمدًا ﷺ ، فكانت هزيمة الشِّرك والمشركين يوم بَدْر. لقد هَزَمَهم اللهُ، وقَتل زُعماءهم وصناديدهم، ونصرَ رسولَه والمؤمنين عليهم . وهذا مِن دلائل النُبُوَّة ، ومِن مُعجِزات النبيِّ ﷺ ، لأنه أخبرَ عن الغَيب ، فكانَ كما أخبر . لقد نزلت الآيةُ في مكة ، وتشتمل على وعد إلهيٍّ واضح ، واللهُ لا يُخلِف وَعْدَه ، ولا يَتراجع في كلامه . وتَمَّ إنجاز الوعد يوم بدر بشكل كامل غير منقوص . والآية تدل على صِدق القُرآن وأنه مِن عِند الله عَلاَّم الغيوب . فقد أخبرَ عن أمرٍ مُستقبلي غَيْبِيٍّ قبل حُدوثه، وحدث على أرض الواقع بالضبط ، كما أخبرَ بذلك.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٥٦٧) : ((فقالَ اللهُ جَل ثناؤه : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ يعني جَمْع كُفار قُرَيش ، ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ . يقول : ويُوَلون أدبارهم المؤمنين بالله عند انهزامهم عنهم. وقِيل : ﴿ الدُّبُرَ ﴾ ، فَوَحَّدَ ، والمراد به الجمع ، كما يُقال : ضَرَبْنا مِنهم الرأس : أي ضَرَبْنا منهم الرؤوس ، إذ كان الواحد يُؤدِّي عن معنى جَمْعه ، ثُمَّ إن الله تعالى ذِكْرُه صَدَقَ وَعْدَه المؤمنين بِه ، فَهَزم المشركين به مِن قُرَيش يوم بَدْر ، وَوَلَّوْهُم الدُّبُر)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٤٥٦) : عن ابن عباس قال : قال النبيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْر : ((اللهُمَّ إني أنشُدُكَ عَهْدَكَ ووعدكَ ، اللهم إن شِئتَ لَم تُعْبَدْ)) . فأخذَ أبو بكر بيده ، فقال : حَسْبُكَ ، فخرجَ وهو يقول : ((﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾)) .

معنى : " أنشُدُكَ " أي : أسألك .

لقد أَلَحَّ النبيُّ ﷺ بدعاء الله وسؤاله وإنجاز وعده . وهذا يدل على كمال عبادة النبيِّ ﷺ واستسلامه المطْلق لأمر اللهِ ، وخُضوعه التام لإرادته وحُكمه ، وثقته الكاملة بوعد الله وإنجازه ، وتعظيمه لعبادة الدعاء والإلحاح في السؤال بلا مَلَل ولا ضَجَر ولا تَعَب . وَلَوْ هُزِم المؤمنون يوم بَدْر لانتهى الإسلام ، واختفى وُجوده من الأرض ، ولَمَا قامت له قائمة بعد ذلك . وهذا معنى قَول النبيِّ ﷺ : " اللهم إن شِئتَ لَم تُعْبَدْ ". ولكنَّ اللهَ أرسلَ النبيَّ محمدًا بالإسلام ، كَي يَنتشر الإسلام في أنحاء العالَم . ولا تُوجد قوة على الأرض تستطيع إطفاء نُور دِين التَّوحيد (الإسلام) ، لأنه الدين السماويُّ الوحيد ، ولا يَقبل اللهُ غَيْرَه .

وقد أرادَ أبو بكر الصِّديق ــ رضي اللهُ عنه ــ التخفيفَ عن النبيِّ ﷺ ، قال له : حَسْبُك . يعني : يَكفيك . أي إن الله يَكفيك أمرَ المشركين ، وينصرك عليهم . وهنا تتجلى ثقة أبي بكر بالله، وهي ثقة مستمدة مِن ثقة النبيِّ ﷺ باللهِ ومعرفته التامَّة بِه . والنبيُّ ﷺ بالغَ في الدعاء ، وأطالَ فِيه ، لأن الدعاءَ مِن أعظم العبادات،والنبيُّ ﷺ هو أعظم العابدين لله، وأكمل العارفين بِه. وهو ﷺ يُؤدِّي حقَّ العبادة على أكمل وجه، كما أنه هو القائد ورأس جماعة المسلمين والمسؤول عنهم ، والقائد دائمًا يكون مُشْفِقًا على أتباعه ، وحريصًا على إنقاذهم وانتصارهم وعُلُوِّ شأنهم .

وقال الحافظ في الفتح (٢٨٩/٧):((قال السُّهَيلي:سبب شِدَّة اجتهاد النبيِّ ﷺ ، ونَصَبه في الدعاء ، لأنه رأى الملائكة تَنصِب في القتال ، والأنصار يخوضون غِمار الموت ، والجهاد تارةً يكون بالسلاح ، وتارةً بالدعاء . وَمِن السُّنة أن يكون الإمام وراء الجيش ، لأنه لا يُقاتِل معهم ، فلم يكن لِيُريح نَفْسَه ، فتشاغلَ بأحد الأمرين ، وهو الدعاء. قَوْلُه :" اللهُمَّ إن شِئتَ لَم تُعْبَدْ " . في حديث عُمر : " اللهُمَّ إن تَهلِك هذه العُصابةُ مِن أهل الإسلام لا تُعْبَدْ في الأرض " ... . وإنما قال ذلك لأنه عَلِمَ أنه خاتَم النبيين، فلو هلك هو ومَن معه حينئذ لَم يُبعَث أحد مِمَّن يدعو إلى الإيمان، ولاستمرَّ المشركون يَعبدون غَيْرَ الله ، فالمعنى : لا يُعبَد في الأرض بهذه الشريعة ... . قال الخطابي : لا يجوز أن يَتوهَّم أحد أن أبا بكر كان أوثق بِرَبِّه من النبيِّ ﷺ في تلك الحال ، بَل الحامل للنبيِّ ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه ، وتقوية قلوبهم ، لأنه كان أول مشهد شَهِده ،

فبالغَ في التَّوجه والدعاء والابتهال ، لِتَسكن نفوسهم عند ذلك، لأنهم كانوا يَعلمون أن وسيلته مُستجابة. فلمَّا قال له أبو بكر ما قال كَفَّ عن ذلك، وعَلِم أنه اسْتُجِيب له لِمَا وَجد أبو بكر في نَفْسِه مِن القوة والطمأنينة ، فلهذا عَقَّبَ بِقَوله:" ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ ". انتهى مُلَخَّصًا. وقال غَيره: وكان النبيُّ ﷺ في تلك الحالة في مَقام الخوف، وهو أكمل حالات الصلاة، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ،لأن وعده بالنصر لَم يكن مُعَيِّنًا لتلك الواقعة، وإنما كان مُجْمَلاً ، هذا الذي يَظهر)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرينَ أمْهِلْهُم رُوَيْدًا ﴾[الطارق : ١٧] .

لا تَعجَل على الكافرين يا محمد ، ولا تَستعجل عذابَهم وهلاكَهم ، ولا تشتغل بالانتقام مِنهم. أمْهِلْهُم قليلاً حتى يَحِين وقت الانتقام مِنهم ، ونزول العذاب بهم . وكأن اللهَ تعالى يقول لرسوله محمد ﷺ : أنظِر الكافرين وأمْهِلْهُم حتى ترى كيف أُعَذِّبهم وأُهْلِكهم، وتَعرِف ما أصنع بهم . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد قَتلهم اللهُ يوم بَدْر ، وأهلكهم ، وعذَّبهم . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٤):((أي: أَخِّرْهُم، ولا تسأل الله تعجيلَ إهلاكهم، وارضَ بما يُدبِّره في أمورهم)).

١٠_ الوعد والوعيد :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأمَّا الذينَ كفروا فأُعَذِّبُهُم عذابًا شديدًا في الدُّنيا والآخرةِ وما لهم مِن ناصِرِين ﴾ [آل عِمران : ٥٦] .

فأمَّا الذين كفروا بِنُبُوَّة عِيسى ﷺ ، وجَحدوا رِسالته ، وخالفوا شريعته ، ولَم يَلتزموا بِها ، فإن اللهَ مُعذِّبهم عذابًا أليمًا شديدًا في الدنيا ، وذلك بالقتل والسَّبي والجِزية والخِزي والعار والذل وخسارة الأموال والأولاد ، وفي الآخرة عذابهم أشدُّ وأشق وأكثر صعوبة، فهم خالدون في عذاب النار . وقد عذَّب اللهُ الكافرين بعيسى ﷺ مِن اليهود الذين اعتبروه ابنَ زِنا ، ومِن النصارى الذين أَلَّهوه واعتبروه ابنًا لله . وما لهم مِن ناصرين يَحمونهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة ، ويَمنعونه عنهم . وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٩٢):((﴿ فأمَّا الذينَ كفروا ﴾ ، فأمَّا الذين جَحدوا نُبُوَّتَكَ يا عيسى ، وخالَفوا مِلَّتَكَ ، وكَذَّبوا بما جِئتهم به مِن الحق ، وقالوا فِيك الباطل، وأضافوك إلى غَير الذي ينبغي أن يُضيفوك إليه من اليهود والنصارى وسائر أصناف الأديان ، فإني أُعذِّبهم عذابًا شديدًا ، أَمَّا في الدنيا فبالقتل والسِّباء (السَّبْي) والذِّلة والمسكنة . وأمَّا في الآخرة فبنار جهنم خالدين فيها أبدًا . ﴿ وما لهم مِن ناصِرِين ﴾ . يقول : وما لهم مِن عذاب الله مانع ، ولا عن أليم عقابه لهم دافع بقوة ولا شفاعة ، لأنه العزيز ذو الانتقام)) اهـ .

وقـالَ اللهُ تعـالى:﴿وأمَّـا الـذينَ آمَنـوا وعَمِلـوا الصـالحاتِ فَيُـوَفِّيهِم أُجُـورَهُم واللهُ لا يُحِـبُّ الظالمين﴾ [آل عِمران : ٥٧] .

وأمَّا المؤمنون بِوَحدانيةِ الله، الْمُصدِّقون بِنُبُوَّة عيسى ﷺ، الْمُتَّبعون لِدِين الإسلام الذي جاءَ بِه، الْمُلتزمون بأوامر الله ، والْمُجتنبون لِنَواهيه ، الذين يَعملون الطاعات ويُؤدُّون العبادات على أكمل وجه ، ويَبتعدون عن المعاصي والذنوب ، فإن الله _ بِفَضله وكَرَمه _ يُعطيهم جَزاءَ أعمالهم كاملاً غَير منقوص . واللهُ لا يحب مَن ظَلَم غَيْرَه وأخذَ حَقَّه ، فكيفَ يَظلم عبادَه ؟ . والمعنى : إن الله لا يحب الكافرين ولا يَرحمهم ، ولا يَمدحهم ، وإنما يُعاقبهم ويُعذِّبهم. والكفر هو أسوأ أنواع الظلم ، لأن الكافرَ ظَلَمَ نَفْسَه بأن قادها إلى الهلاك والخلود في عذاب النار . واللهُ يَمنح المؤمنين في الدنيا النصرَ والتمكين، ويَمنحهم في الآخرة الدرجات الرفيعة مِن الجنة.

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٩٢) : ((فنفى جَل ثناؤه عن نَفْسه بذلك أن يَظلم عبادَه ، فَيُجَازِيَ الْمُسيء مِمَّن كَفر جزاء المحسنين مِمَّن آمنَ به ، أو يُجازيَ الْمُحسِن مِمَّن آمنَ به واتَّبعَ أمره وانتهى عمَّا نهاه عنه فأطاعه جَزاء الْمُسيئين مِمَّن كَفر به، وكَذَّب رُسُلَه ، وخالفَ أمْرَه ونَهْيَه. فقال : إني لا أُحِب الظالمين ، فكيف أظلم خَلْقي ؟ . وهذا القول مِن الله تعالى ذِكْرُه ، وإن كان خَرج مَخرج الخبر ، فإنه وعيد مِنه للكافرين به وبرسله ، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله ، لأنه أعلمَ الفريقين جميعًا أنه لا يبخس هذا المؤمن حَقَّه، ولا يظلم كرامته فيضعها فيمن كفر به، وخالفَ أمرَه ونَهْيَه ، فيكون لها بوضعها في غير أهلها ظالِمًا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ اشْتَرَوُا الكُفْرَ بالإيمانِ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا ولهم عَذابٌ أليم ﴾ [آل عِمران : ١٧٧] .

إن المنافقين الذين باعو إيمانَهم بِعَرَض مِن الدنيا قليل ، واستبدلوا الكفرَ بالإيمان ، وارتدوا عن الإسلام بعد دُخولهم فيه ، لَن يَضُرُّوا اللهَ بكفرهم ، ولَن يُنقِصوا اللهَ شيئاً بارتدادهم ، ولَن يَضُرُّوا أولياءَ الله شيئًا . وإنما يضرُّون أنفسَهم دُون غَيرهم. لقد ظَلموا أنفسَهم ، وألحقوا بها أشدَّ الضَّرَر ، لأنهم قادوها إلى الهلاك واستحقاق عِقاب الله . ولهم عذاب شدبد مُؤلم ومُوجِع .

إنهم لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا بتفضيلهم الكفر على الإيمان . إنهم يَضُرُّون أنفسَهم ، لأنهم قَادُوها إلى الهلاك الأبديِّ والعذابِ الحتميِّ . وَضَرَرُ الكافر على نَفْسِه ، وَوَبَالُ كُفره عليه ، لا يَتعدَّى إلى الآخرين. والمخلوق لا يَقْدِر على إلحاق الأذى والضَّرر بالخالق العظيم . واللهُ تعالى لا تَنفعه طاعة الطائعين ، ولا تَضُرُّه معصية العُصاة .

وتنكيرُ ﴿ شَيئًا ﴾ يُفيد التقليل والتحقير. أي إن المنافقين لَن يَضُرُّوا الله شيئًا مهما كان صغيرًا، ولَن يُنقِصوا مِن مُلْكه وسُلطانه أيَّ شَيء . وفي هذا إهانة للمنافقين وتحقير لِشَأنهم ، وتصوير وُجودهم كَعَدَمه . وارتدادهم يُشير إلى قِلَّة عقولهم ، واتِّباعهم لأهوائهم ، وركاكة آرائهم ، وانهيار أفكارهم . والآيةُ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين ، وتخفيفٌ عنهم ، ورفعٌ لمعنوياتهم ، وتشريف لهم ، ورفعٌ لشأنهم. والمعنى : إن المنافقين لَن يَضُرُّوكم شيئًا أيها المؤمنون ، فلا تهتموا لأمرهم ، ولا تعبؤوا بِهم . وكأن الله يقول : إن مَن عاداكم فقد عاداني ، وأنا أتولى أمورَكم ، وأتكفَّل بكم ، وأحميكم مِن أعدائكم . وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ١١٦): ((وتعليق نَفْي الضَّرَر به تعالى لتشريفهم، والإيذان بأن مُضارتهم بمنْزلة مُضارته سُبحانَه ، وفيه مزيد مُبالَغة في التسلية. وقَوله تعالى :﴿ شَيئًا ﴾ في حَيِّز النصب على المصدرية، أي: شيئًا مِن الضَّرَر، والتنكير لتأكيد ما فيه مِن القِلَّة والحقارة. وقِيل: على نزع الجار أي: بشيء ما أصلاً. وقيل: المعنى لن يُنقِصوا بذلك مِن مُلْكه تعالى وسُلطانه شيئًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذينَ كفروا أنَّما نُمْلِي لهم خَيْرٌ لأنفُسِهم إنَّما نُمْلِي لهم لِيَزْدَادُوا إثمًا ولهم عَذابٌ مُهين ﴾ [آل عِمران : ١٧٨] .

إنَّ اللهَ يُملي للكافرين ، ويُعطيهم الأموال والأولاد ، ويُطيل أعمارَهم ، ويَمنحهم الصحة والعافية ، ليس حُبًّا لهم ، ورِضا عنهم . وإنما استدراج لهم ، مِن أجل تعذيبهم بهذه النِّعَم التي لَم يُؤدُّوا حقَّ شُكرها . والإملاءُ (الإمهال والتأخير) هو طُول العُمر ، ورَغَد العَيش .

لا يَظُن هؤلاء الكافرون الذين جَحدوا وَحدانيةَ الله ، وأنكروا آياتِه ، وكذَّبوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ، أن إطالة أعمارهم ، وتأخير آجالهم ، بلا حساب ولا عقاب ، خَيْرٌ لهم ، بَل هو شَر نازل عليهم ، ومُصيبة واقعة بهم . إن إملاء الله لهم هُوَ عَين عِقابه وعَذابه ، وإمداد الكافر إنما هو استدراج .

وهذا إزالة لِسُرورهم وفرحهم ، وتحطيم لمعنوياتهم . فالكافرون كانوا يَعتقدون أن طُول أعمارهم ورَغَد عَيشهم دليل واضح على حُب الله لهم، ورِضاه عنهم،وأنهم أشخاص صالحون، ودِينهم حق، وحياتهم فاضلة ، وطريقهم صحيح . فَخَيَّبَ اللهُ ظَنَّهم ، وأعلمَهم بحقيقة أمرهم الكارثية . وهذا تحذيرٌ شديد لهم، وعليهم الانتباه، والإقلاع فَوْرًا عن المعاصي والآثام، وتدارُك ما فات مِن تقصير ، والعودة إلى الله بالتَّوبة بلا تأخير ولا تَسويف .

إن الله قادر على إهلاكهم وتعذيبهم فَوْرًا بلا تأخير ، ولكنه سُبحانَه يُمهلهم ويُطيل أعمارَهم لِيَغرقوا في المعاصي أكثر فأكثر ، بسبب عنادهم وضلالهم وكُرههم للحق ، فتزداد آثامُهم ، وتكثُر

ذُنوبهم . ولهم في الآخرة عذاب شديد يُهينهم ويُذِلهم ويُخزيهم . والجزاء مِن جِنس العمل . وهذا وعيدٌ شديد لهم.وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٧٨) : ((ويُقال : ﴿ أنَّما نُمْلِي لهم ﴾ بِما أصابوا من الظفَر يوم أُحُد . لَم يكن ذلك خَيْرًا لأنفسهم ، وإنما كان ذلك ليزدادوا عُقوبةً)) اهـ .

إن الله تعالى حِينما يُمهِل الكافرين بدون عذاب فتطول أعمارهم مع رَغَد العَيش ، فهذا لا يعني نجاتهم من العقوبة، وإفلاتهم من الغضب الإلهيِّ، لأن الإمهال هو عَينُ العقوبة . فالجزاءُ الإلهيُّ الواقع على الكافرين هو تركهم في غَيِّهم وضلالهم وغرقهم في مستنقع الآثام دون مساعدتهم أو إخراجهم . فالله تعالى يُمهلهم ليغرقوا أكثر فأكثر في المعاصي فيزدادوا ذنوبًا إلى ذنوبهم . وهذا هو الخِذلانُ ورفض منحهم الهداية ، وتيسيرهم للعُسرى ، وهو استدراج بالنِّعَم مِن حيث لا يَعْلَمون . فالتمتع ، واللعب ، وطول الأمل ، وامتداد العُمر ، ورَغَد العَيش ، والغرق في الشهوات . كل ذلك يمنعهم من النظر إلى ما وراء الاستمتاع المؤقَّت،وماوراء الحياة الدنيا،وهو المصير الأبدي: الجنة أو النار. واللهُ تعالى يَستدرجهم إلى هاويتهم السحيقة ، وهلاكهم الحتميِّ ، وعذابهم الأبديِّ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذينَ كفروا أنَّما نُمْلِي لهم خَيْرٌ لأنفُسِهم ﴾ .اختلفوا فِيمَن نزلت على أربعة أقوال: أحدها في اليهود والنصارى والمنافقين قاله ابن عباس . والثاني في قُرَيظة والنَّضير ، قاله عطاء . والثالث في مُشركي مكة ، قاله مقاتل . والرابع في كل كُافر ، قاله أبو سليمان الدمشقي)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الآية:﴿ إنَّما نُمْلِي لهم لِيَزْدَادُوا إثمًا ﴾ حُجَّة لأهل السُّنة على المعتزلة في قضية " الأصلح"، وقضية "إرادة الله للمعاصي". فالآيةُ تُبيِّن بوضوح أن اللهَ أطالَ أعمارَ الكافرين ، وجعل عَيشهم رغدًا ، لِيَغرقوا في المعاصي ، ويزدادوا آثامًا وذُنوبًا ، ويُميتهم على الكفر عُقوبةً لهم على مُعاندتهم للحق ، وتكذيبهم للنبيِّ ﷺ وما جاء بِه . فهُم لا يَستحقون نَيْلَ شرف الإيمان .

وفي الحديث أن رَجلاً قال : يا رسول الله ، أيُّ الناس خَيْر؟، قال: ((مَن طَالَ عُمْرُه ، وَحَسُنَ عَمَلُه)) . قال : فأيُّ الناس شَر ؟ . قال : ((مَن طَالَ عُمْرُه ، وسَاءَ عَمَلُه)) [86].

إن الذي طالَ عُمره في طاعة الله تعالى ، ازدادت حسناته ، وارتفعَ مَقامه ، ووصل إلى مكانة رفيعة يوم القيامة . وهذا يعني أنه قضى حياته في تطوُّر مستمر ، وكان يترقى من وضع إلى وضع أعلى . مِمَّا يدل على أنه استثمرَ حياته أفضل استثمار ، ووصل إلى أعظم المراتب والمنازل .

(٨٦) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٥٦٦) برقم (٢٣٣٠) . وقال : ((حسن صحيح)) .

أمَّا مَن طال عُمره وساءَ عمله ، فقد ازدادت سَيِّئاته ، وكَثُرت معاصيه وآثامه ، فهو يَهبط في هاوية سحيقة بشكل مستمر. ويكون وضعه يوم القيامة في غاية الصعوبة، لأنه استكثرَ من الذنوب والآثام ، ومصيره إلى العذاب الشديد . وبذلك يكون قد دمَّر مستقبله ، وأضاعَ مصيره بيديه .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٤٨٠) : (((خَير الناس مَن طال عُمره وحَسُن عمله) ، لأن مَن كَثُرَ خَيْرُه كلما امتد عُمره كَثُر أجْرُه، وضُوعِفت درجاته، ففي الحياة زيادة الأجور بزيادة الأعمال ، ولو لَم يكن إلا الاستمرار على الإيمان ، فأي شيء أعظم منه ، وليس لك أن تقول : قد يُسلَب الإيمان ، لأنَّا نقول : إن سَبَقَ له في عِلم الله خاتمة السُّوء ، فلا بد من وقوع ذلك ، طالَ عُمرُه أَم قَصُر ، فزيادة عُمره زيادة في حسناته ، ورَفْع في درجاته كَثُرت أو قَلَّت ، كما حَرَّره المحقِّق أبو زُرعة . (وشَر الناس مَن طال عُمره وساء عمله) . سبق أن الأوقات والساعات كرأس المال للتاجر ، فينبغي الاتجار فيما يَربح فيه ، وكُلما كان رأس المال كثيرًا ، كان الربح أكثر ، فمن مضى لطيبه فاز وأفلح ، ومن أضاع رأس ماله فقد خَسِرَ خُسرانًا مُبينًا)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((والذي لا إِلَهَ غَيْرُه ، ما على الأرض نَفْسٌ إلا الموتُ خَير لها ، إن كان مؤمنًا فإن الله يقول :﴿ لكنِ الذين اتَّقَوْا ربَّهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾[آل عمران: ١٩٨] . وإن كان فاجرًا فإن الله يقول :﴿ إنما نُمْلِي لهم ليزدادوا إثمًا ﴾ [آل عمران: ١٧٨]))(87).

إن الموت خَيْرٌ للمؤمن والفاجر . فالمؤمنُ تنتظره جنَّاتٌ عرضها السماوات والأرض ، فيرتاح من تعب الدنيا، والحياة الْمُمِلَّة ، وزينتها الفانية ، وفِتنتها الزائفة ، وأحوالها المضطربة . أمَّا الفاجرُ، فتنقطع آثامه ، ولا يزداد سُوءًا ، ولا يَغرق أكثر في المعاصي ، بل يصل إلى حُد مُعيَّن من الخطايا والذنوب والآثام ، فلا يتجاوزه ، وبالتالي يَخِف الحِمْل عن كاهله .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ ويَتُوبَ اللهُ على المؤمنينَ والمؤمناتِ وكانَ اللهُ غَفُورًا رَحيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٣] .

لقد حَمَّلَ اللهُ الإنسانَ أمانةَ التكاليف الشرعية كَي يُعذِّب اللهُ المنافقين والمنافقات الذين يُظهِرون الإيمانَ،ويُبْطِنون الكفرَ،ويُعذِّب أيضًا المشركين والمشركات الذين يَعبدون الأصنامَ والآلهة، ويَرحم المؤمنين والمؤمنات الذين يَلتزمون بأوامره ، ويَجتنبون نَواهيه .

---

(٨٧)) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٢٦) برقم (٣١٦٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ اللهَ حَمَّلَ الإنسانَ هذه الأمانةَ كي يُعذِّب العاصي ويُثِيب المطيعَ . يُجازي الْمُحْسِنَ بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته . والمنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات خانوا الأمانةَ وأضاعوها، ولَم يُؤدُّوا حقَّ اللهِ. أمَّا المؤمنون والمؤمنات فقد أدُّوا الأمانةَ ، لذلك سيرحمهم اللهُ ويتوب عليهم بفضله وكرمه ، ويرضى عنهم ، ويَمنحهم الجنة . وكان اللهُ غُفورًا لذنوب المؤمنين ، حيث سَتَرَهم في الدنيا ، ولَم يُعاقبهم في الآخرة ، ورحيمًا بهم ، فلم يُعذِّبهم على ذنوبهم بعد تَوبتهم مِنها . واللهُ كثير المغفرة والرحمة بعباده المؤمنين إذا أذنبوا وتابوا . يتجاوز عن سَيِّئاتهم ، ويَمنحهم الأجرَ على طاعته ، ويُدخِلهم الجنة بِمَنِّه وكَرَمه وفضله .

وإظهار لفظ الجلالة في ﴿ ويَتُوبَ اللهُ على المؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾ لتعظيم خَشية الله في قلوب عباده . وكما أنه قادرٌ على أن يتوب على عباده قادر أن يُعذِّبهم . فيجب الخوف مِنه واحترام أوامره وتطبيقها . وإظهارُ لفظ الجلالة في ﴿ وكانَ اللهُ غَفُورًا رَحيمًا ﴾ لبيان سَعَة مغفرة الله وعظيم رَحمته ، وإظهار عنايته بالمؤمنين ورعايته لهم . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٨٢) : ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ ﴾ . قال مقاتل : لِيُعذِّبهم بما خانوا الأمانةَ ونقضوا الميثاق . ﴿ ويَتُوبَ اللهُ على المؤمنينَ والمؤمناتِ وكانَ اللهُ غَفُورًا رَحيمًا ﴾ . يَهديهم ويرحمهم بما أَدُّوا مِن الأمانة . وقال ابن قُتَيبة : أي : عَرَضْنا الأمانةَ لِيَظهر نفاق المنافق وشِرك المشرك، فَيُعذِّبهما اللهُ، ويَظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه . أي : يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات)) .

١١ ــ عِلْمُ الله جَلَّ وعلا :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

إنَّ اللهَ هو خالق الناس ، وهو أعلمُ بِهم مِن أنفسهم . فهو سُبحانَه يَعلم ما فيه صلاحهم وفسادهم ، وخَيرهم وشرهم ، وهم لا يَعلمون ذلك . وهو سُبحانَه يُدبِّر أمورَهم وشُؤونهم . والناسُ أصحاب نظر قاصر ومحدود ، لأنهم غَير مُطَّلعين على الغَيب ، ولا يَعرِفون عواقبَ الأمور . لذلك كان عِلْمُ الإنسان جُزئيًّا ومحدودًا ونِسبيًّا . أمَّا عِلْمُ الله فهو عِلْم مُطْلَق وشامل لكل شَيء بلا استثناء . فيجب اتِّباع أوامر الله وأحكامه ، وعدم اتِّباع الأهواء الشخصية والآراء الذاتية .

إنَّ اللهَ يَعلم ما فيه صلاحكم وخَيركم ، لذلك يأمركم بِه ، فينبغي الْمُبادَرة إلى تطبيق الأوامر الإلهية ــ حتى لَو بَدت للوهلة الأولى صعبة وشاقَّة ــ ، فهي الخير ، وفيها مصلحتكم ومنفعتكم.

وهو سُبحانَه أعلم مِنكم بعواقب الأمور ومآلات الأشياء، ويَعرف ما يَنفعكم في الدنيا والآخرة، فاعتمدوا عليه، وثِقُوا بِه، وأطيعوه، ولا تَعصوه، واخضعوا لأمره ، واستسلموا لِحُكمه ، وبذلك تنالون الرضا الإلهيَّ ، والأجرَ العظيم.

وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٤٩٩):((﴿ واللهُ يَعْلَمُ ﴾ ما هو خَير لكم ﴿ وأنتم لا تَعْلَمُون ﴾ ذلك ، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة ، وإن لَم يُعرَف عَيْنها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِن عِلْمِهِ إلا بما شاء ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

إنَّ عِلْم الله صِفة لله تعالى . وصِفات الله قديمة قِدَم ذاته العَلِيَّة . واللهُ هو المنفرِد بالعِلم الذاتي الكامل الشامل التام ، وهذا يدل على وَحدانيته وأُلوهيته. وعِلْمُ الله شاملٌ للأشياء إجمالاً وتفصيلاً. ولا أحد يطَّلع على شَيء مِن عِلم ذات الله وصِفاته إلا إذا أطلعه اللهُ على ذلك. والناسُ لا يَعلمون شيئًا مِن معلومات الله ، إلا إذا أطلعهم على ذلك ، وأعلمَهم به. ويكون ذلك بإخبار الأنبياء . و﴿ عِلْمِهِ ﴾ يعني : معلوماته ، لأن عِلْم الله صِفة ذاته ، لا يَتبعَّض ولا يَتجزَّأ ولا يَتقسَّم . ومعنى الآية : لا معلوم لأحدٍ إلا ما شاء اللهُ أن يَعلمه .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٦):((وأمَّا قَوله: ﴿ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِن عِلْمِهِ إلا بما شاء ﴾ فإنه يعني تعالى ذِكْرُه أنه العالِم الذي لا يخفى عليه شيء، محيط بذلك كُلِّه. مُحْصٍ له دون سائر مَن دُونه ، وأنه لا يَعلم أحد سِواه شيئًا إلا بما شاء هُوَ أن يَعلمه فأراد فَعَلِمَه ، وإنما يعني بذلك : أن العبادة لا تنبني لِمَن كان بالأشياء جاهلاً، فكيف يُعبَد مَن لا يَعقل شيئًا البَتَّة مِن وَثن وصنم ؟!. يقول: فأخْلِصوا العبادة لِمَن هو مُحيط بالأشياء كُلِّها، يَعلمها، لا يخفى عليه صغيرها وكبيرها)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ عَليمٌ بِذَاتِ الصُّدور ﴾ [المائدة : ٧] .

إنَّ اللهَ مُطَّلع على ما في قلوبكم، ويَعلم ما في ضمائركم ، ويَعرف أسرارَكم وخواطركم ، وما تُخفيه نفوسكم. لا يَخفى عليه شَيء مِن ذلك . إن الله عليم بما في القلوب مِن خَير وشَر .

ومَن كان عَالِمًا بالسِّر ، فهو ـ بالأَوْلَى ـ يَعلم العلانيةَ . ومَن كان عَالِمًا بما تُخفيه القلوب ، فكيفَ بما تُظْهِره وتُعْلِنه ؟! . وعِند الله يَستوي السِّر والعلانية ، لأنه سُبحانَه عَالِمٌ بكل شيء ، إجمالاً وتفصيلاً . ولا تخفى عليه خافية. واللهُ لَم يقل : إنه عليم بذات الصدور، وإنما قال : ﴿ إنَّ اللهَ عَليمٌ بِذَاتِ الصُّدور ﴾ . وإظهار لفظ الجلالة لتعظيم خشية الله في القلوب ، والخوف مِنه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٠٢) : ((﴿ إنَّ اللهَ عَليمٌ بِذَاتِ الصُّدور ﴾ أي : بِخَفِيَّاتها فَيُجازيكم عليها ، فضلاً عَن جَلِيَّات أعمالكم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما تَكْتُمون ﴾ [المائدة : ٩٩] .

إن الله لا يخفى عليه شَيء، سواءٌ كانَ ظاهرًا أَم باطنًا . يَعلم أقوالَ العباد وأفعالَهم وأحوالَهم ، وما يُظْهِرونه وما يُخفونه ، وسَيُجازيهم عليها ، إن خَيْرًا فَخَير ، وإن شَرًّا فَشَر .

والآيةُ تهديدٌ للعباد ووعيدٌ لهم ، فاللهُ مُطَّلعٌ على ظاهرهم وباطنهم ، وسِرِّهم وعلانيتهم ، وسَيُجازي الْمُحسِن بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته . إنَّ اللهَ يَعلم ما تُظْهِرونه ، ويَعلم ما تُخفونه في قلوبكم مِن إيمان أو كفر أو نفاق . وَسَوْفَ يُثيب الْمُحسِن ، ويُعاقب الْمُسِيء .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٨٠) : ((﴿ واللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما تَكْتُمون ﴾ يقول : وغَير خَفِيٍّ عَلَينا الْمُطيع مِنكم، القابل رسالتنا،العامل بما أمرتُه بالعمل به، مِن العاصي الآبي رسالتنا ، التارك العمل بما أمرتُه بالعمل به ، لأنَّا نعلم ما عَمِله العامل منكم ، فأظهره بجوارحه ، ونطق به بلسانه، ﴿ وما تَكْتُمون ﴾ . يعني : وما تُخفونه في أنفسكم مِن إيمان وكفر ، أو يقين وشك ونفاق. يقول تعالى ذِكْرُه : فَمَن كان كذلك ، لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور ، وظواهر أعمال النفوس ، مِمَّا في السماوات وما في الأرض ، وبيده الثواب والعقاب ، فحقيقٌ أن يُتَّقَى ، وأن يُطاع فلا يُعصَى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأخْفَى ﴾ [طه : ٧] .

إنَّ اللهَ يَعلم السِّر (ما يُسِر العبد في نَفْسه) وأخفى مِن السِّر ، وهو الوساوس والخواطر وأحاديث النَّفْس مِمَّا لَم يكن بَعْد . والسِّر هو ما أسْرَرْتَهُ في نَفْسِك ، وأخفى مِن ذلك : ما لَم تُحدِّث به نَفْسَك. والمعنى:إذا كانَ اللهُ يَعلم السِّر وأخفى مِن السِّر، فما بالُك بالجهر والعلانية ؟ . وتنكيرُ ﴿ أخْفَى ﴾ للمُبالَغة في الخفاء . وهذا يدل على إحاطة عِلم الله بكل شيء، وأن الله لا يَخفى عليه شيء ، فهو سُبحانَه يعلم ما أسَرَّ العبدُ في نَفْسه ، والأخفى مِنه هو ما خَفِيَ على العبد مِمَّا هو فاعله ، وهو لا يَعلمه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٢٧١) : ((وفي المراد بِـ ﴿ السِّرَّ وأخْفَى ﴾ خمسة أقوال: أحدها أن السِّر ما أسَرَّه الإنسانُ في نَفْسه ، وأخفى : ما لَم يكن بَعْد، وسيكون . رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال الضَّحاك . والثاني أن السِّر ما حَدَّثْتَ به نَفْسَكَ ، وأخفى : ما لَم تَلَفَّظ به ، قاله سعيد بن جُبَير . والثالث أن السِّر العمل الذي يُسِرُّه الإنسان مِن الناس، وأخفى منه الوَسْوسة قاله مجاهد. والرابع أن معنى الكلام : يَعلم إسرار عباده ، وقد أخفى سِرَّه عنهم فلا يُعلَم ، قاله زيد بن أسلم وابنه. والخامس يَعلم ما أسَرَّه الإنسان إلى غَيره، وما أخفاه في نَفْسه، قاله الفَرَّاء)) .

١٢ ـ انفراده بالأمر والْحُكْم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفعلُ وهُم يُسْأَلُون ﴾[الأنبياء : ٢٣] .

إنَّ اللهَ هو الْحَكَم الحاكم ، كُل شَيء سِواه مَخلوق وعَبْدٌ له . واللهُ مالكُ كُل شَيء ، وهو يَتصرَّف في مُلكه كما يشاء. ولا أحد يُناقشه أو يعترض عليه ، ولا أحد يَسأله عن قضائه في خَلْقه، لأنه الإله العظيم العادل الحكيم ، أفعاله حكيمة مُنَزَّهة عن العبث ، وقراراته عادلة مُنَزَّهة عن الظلم . واللهُ سَائِلُ خَلْقِه عن أعمالهم ، لأنهم عبيده ومِلْكه ومخلوقاته ، وهو سَيِّدهم ومالكهم وخالقهم . وهذا يدل على وَحدانيته وتفرُّده بالألوهية والرُّبوبية ، وقوة سُلطان الله وعظيم مُلكه ، وقُدرته المطْلقة ، وحِكمته البالغة ، وعِلمه الشامل .

وقد بَيَّن اللهُ لعباده أن مَن يُسأل عن أعماله كالمسيح والملائكة، لا يصلُح أن يكون إِلَهًا. إن الله وَحْدَه هو الإله ، لأنه يَسأل خَلْقَه عن أعمالهم، ولا أحد مِن خَلْقه يَسأله عن أعماله . والأعلى هو الذي يَحكم على الأدنى ، وليس العكس. إن اللهَ يَحكم في عباده بما يشاء. يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء ، ويُعِز مَن يشاء ، ويُذِل مَن يشاء ، لأنه مَلِك الخلق ومالكهم ، ولا أحد يَسأله عن أحكامه وشرائعه وأوامره ، واللهُ يَسأل خَلْقَه عن أعمالهم ، ويُحاسبهم عليها ، لأنه إلههم ، وهُم عبيده . ويجب على العبد المخلوق أن يُنفِّذ أوامر سَيِّده الخالق .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : لا سائل يسأل رَبَّ العرش عن الذي يفعل بِخَلْقه ، مِن تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال وغير ذلك مِن حُكمه فيهم ، لأنهم خَلْقه وعبيده ، وجميعهم في مُلكه وسُلطانه ، والْحُكم حُكمه ، والقضاء قضاؤه ، لا شيء فوقه يسأله عمَّا يفعل فيقول له : لِمَ فَعَلْتَ ؟ ، وَلِمَ لَم تفعل ؟ . ﴿ وهُم يُسْأَلُون ﴾ . يقول جَل ثناؤه : وجميع مَن في السماوات والأرض مِن عباده مسؤولون عن أفعالهم ، ومُحاسَبون على أعمالهم ، وهو الذي يسألهم عن ذلك ويُحاسبهم عليه ، لأنه فوقهم ومالكهم وهُم في سُلطانه)).

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٤٦): ((قَوله تعالى: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفعلُ وهُم يُسْأَلُون ﴾ قاصمة للقَدَرية وغَيرهم . قال ابن جُرَيج : المعنى: لا يسأله الخلق عن قضائه في خَلْقه ، وهو يسأل الخلق عن عملهم لأنهم عبيد . بَيَّنَ بهذا أن مَن يُسأل غَدًا عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلُح للإلهية . وقِيل : لا يُؤاخَذ على أفعاله وهُم يُؤاخَذون . ورُوِيَ عن عليٍّ ـ رضي اللهُ عنه ـ أن رَجلاً قال له : يا أمير المؤمنين ، أيُحِبُّ رَبُّنا أن يُعصَى؟، قال :" أفَيُعْصَى رَبُّنا قَهْرًا ؟"، قال :

أرأيتَ إن منعني الهدى ومَنحني الرَّدى، أأحسنَ إِلَيَّ أَم أساء ؟، قال :" إن مَنَعَكَ حَقَّكَ فقد أساء ، وإن منعك فَضْلَه،فهو فَضْلُه يُؤتيه مَن يشاء"،ثُمَّ تلا الآية :" ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفعلُ وهُم يُسْأَلُون ﴾".
وعن ابن عباس قال : لَمَّا بَعث اللهُ عَزَّ وَجَلَّ موسى، وكَلَّمه ، وأنزل عليه التوراة، قال: اللهُمَّ إنَّكَ رَب عظيم، لو شِئتَ أن تُطاع لأُطِعْتَ،ولو شِئْتَ ألا تُعصَى ما عُصِيت،وأنتَ تحبُّ أن تُطاع، وأنتَ في ذلك تُعصَى، فكيف هذا يا رَب ؟، فأوحى الله إِلَيه : إني لا أُسْأل عَمَّا أفعل ، وهُم يُسألون)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤١) : عن أبي الأسود الدِّيلي قال : قال لي عِمران بن الْحُصَين: أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم، ويَكْدَحُون فيه ، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى عليهم مِن قَدَرِ ما سَبَق ؟، أو فيما يستقبلون به مِمَّا أتاهم به نَبِيُّهم وثبتت الْحُجَّة عليهم ؟ ، فقلتُ : بَل شيء قُضِيَ عليهم ومضى عليهم . قال : فقال : أفلا يكون ظُلْمًا ؟ ، قال : فَفَزِعْتُ مِن ذلك فَزَعًا شديدًا ، وقُلتُ : كُل شيء خَلْق الله ومِلْك يده ، فلا يُسأل عمَّا يَفعل وهُم يُسألون ، فقال لي : يرحمك الله ، إني لَم أُرِدْ بما سألتُك إلا لأحْرِزَ عَقْلَك)) اهـ . ومعنى " يَكْدَحُون " أي : يَسْعَوْنَ في العمل سواءٌ كان للآخرة أَم للدنيا.و " لأحْرِزَ عَقْلَك " أي : لأمتحنَ عقلك وفهمك ومعرفتك .
إنَّ اللهَ حكيمٌ في أفعاله لا يَعْبَث ، وعادلٌ في أحكامه لا يَظْلِم . والإيمانُ بالقضاء والقَدَر ليس من الكماليات ، بل هو من أُسس الإيمان . ومُنكِرُ القضاء والقَدَر كافرٌ لا ينفعه أي عمل صالح يقوم به. وكل ما يجري للخلائق مِن خيرٍ أو شر تَمَّ بقضاء الله وقَدَره،ولَم يحدث مُصادفةً ولا عبثًا ، وإنما قدَّره اللهُ تعالى بشكل دقيق غير عشوائي ، ولا يُخطِئ صاحبَه . ولا ينبغي تركُ العمل ، والاتّكالُ على القَدَر السابق . فيجب الامتثال للشريعة الإلهية في أوامرها ونواهيها. وكلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلق له. فَمَن كان من أهل الجنَّة يسَّره اللهُ لعمل الطاعات فينال السعادةَ ، ومَن كان من أهل النار يسَّره اللهُ للمعاصي فَيَنال التعاسة . والإيمانُ لا يُكتسَب بعبقرية الإنسان وقدراته الذاتية ، بَل هُوَ فضلٌ رَبَّانِيٌّ مَحْض يُعطيه اللهُ لِمَن يَشاء ويَحجبه عمَّن يشاء . ومعَ هذا فالإنسان يتحمَّل مسؤوليةَ اختياره ، لأن الله لَم يُجبِر المؤمنَ على الإيمان ، ولَم يُرغِم الكافرَ على الكفر. فكلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِق له. فإن هدى اللهُ العبدَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ الله وله المِنَّة . وإن هداه إلى الكفر فَبِعَدْله ، ولله على العبد الْحُجَّة . والأعمال بالخواتيم ، والمؤمنُ لا يَدخل الجنةَ بذكائه وعبادته ، وإنما يَدخلها برحمة الله. وعلى الطائع ألا يَرْكَن إلى طاعته، ويَعتمد على مستواه الشخصي، لأنَّ القلوب مُتقلِّبة ، واحتمالُ انقلابِ الحال واردٌ بقوة.وعلى العاصي ألا يَقْنَط مِن رحمة الله ويَستسلم للكآبة واليأس ، ويَعتبر ذُنوبَه عَقَبةً في طريق التوبة لأنَّ رحمة الله أعظم مِن كُلِّ شيء، واللهُ أكبرُ مِنَ الإيمانِ والكُفرِ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ يَقضي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ العزيزُ العليمُ ﴾[النَّمْل : ٧٨] .

إن رَبَّكَ يا محمد يَفصل بين المختلفين في الدِّين يوم القيامة، ويَحكم بينهم بعدلٍ وإنصاف . والْحُكم الإلهيُّ هو الحق والعدل . فَيُجازي الْمُحسِن (الْمُحِق) بإحسانه ، والْمُسِيء (الْمُبْطِل) بإساءته . يُثيب الطائعَ ، ويُعاقب العاصي . وهو العزيز في انتقامه ، المنيع الغالب الذي لا يُرَدُّ له أمر، ولا يُنقَض له حُكم ، العليم بأقوال عباده وأفعالهم ، فلا يخفى عليه شيء .

والآية تتحدث عن بني إسرائيل ، واختلافهم في الدِّين .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٢) : ((﴿ إنَّ رَبَّكَ يَقضي بَيْنَهُم ﴾ . يقول: إن ربك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ فيهم ، فينتقم مِن الْمُبْطِل مِنهم ، ويُجازي الْمُحْسِن مِنهم الْمُحِق بجزائه ﴿ وَهُوَ العزيزُ العليمُ ﴾ . يقول : وربك ﴿ العزيزُ ﴾ في انتقامه مِن الْمُبْطِل ، مِنه وَمِن غَيرهم ، لا يَقْدِر أحد على منعه من الانتقام مِنه إذا انتقمَ ، ﴿ العليمُ ﴾ بالْمُحِق الْمُحْسِن مِن هؤلاء المختلفين مِن بني إسرائيل ، فيما اخلتفوا فيه ، وَمِن غَيرهم)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ للهِ الأمرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾[الرُّوم : ٤] .

للهِ الأمرُ أوَّلاً وآخِرًا . للهِ الأمرُ في البداية والنهاية . للهِ الأمرُ قبل كل شيء وبعد كل شيء . وله سُبحانَه القُدرة المطْلَقة والحكمة البالغة . وكُل شَيء بأمر الله وإرادته وقضائه وقَدَره . وهو القادر على إنفاذ الأحكام ، وأفعالُه حكيمة مُنَزَّهة عن العبث والفوضى .

والآيةُ تتحدَّث عن انتصار الرُّوم على الفُرس . قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٨٨) : ((﴿ للهِ الأمرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ . أي : مِن قَبْل أن تَغلِب الرُّومُ ، وَمِن بعد ما غَلبتْ . والمعنى أن غَلَبة الغالب وخِذلان المغلوب بأمر الله وقضائه)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السماواتِ والأرضِ عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهادةِ أنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي ما كانوا فِيهِ يختلفون ﴾[الزُّمَر : ٤٦]. يُوجِّه اللهُ محمدًاﷺ ويُرشده إلى ضرورة الالتجاء إلَيه بالدعاء والخضوع والاستسلام والتَّضَرُّع، فهو سُبحانَه القادر على كل شيء، ولا يُعجِزه شيء . قُل يا محمد : يا الله ، أنتَ وَحْدَكَ الإله ، لا شريك لك ولا نِد . يا خالق السماوات والأرض ومُبدعهما ومُوجِدهما مِن العدم ، يا عَالِمَ السِّر والعلانية، تَعلم الباطنَ والظاهر، ولا يخفى عليك شيء.واللهُ يَعلم الغَيْبَ(كُل ما غابَ عن العباد)، ويَعلم الشَّهادةَ (ما عَرَفَه العباد وشَهِدوه).

وقال الطبري في تفسيره (١١/١١): ((﴿ عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهادةِ ﴾ الذي لا تراه الأبصار ، ولا تَحُسُّه العيون . والشهادة الذي تشهده أبصار خَلْقه ، وتراه أعينهم)) اه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٧٠) : ((التجِئْ إلى الله بالدُّعاء لَمَّا تَحَيَّرْتَ في أمرهم ، وضَجِرْتَ مِن عنادهم وشِدَّة شكيمتهم ، فإنه القادر على الأشياء ، والعالِم بالأحوال كُلِّها)) اهـ .

أنتَ تَفصل بَيْنَ خَلْقك بالحق والعدل، يوم تَجمعهم للقضاء بينهم ، فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين الرَّافضين لِوَحدانيتك، الذين يَكرهون ذِكر الله وَحْدَه،ويَفرحون بِذِكر أصنامهم وآلهتهم. فأنتَ وَحْدَك تَقْدِر أن تَحكم بيني وبينهم. أنتَ وَحْدَكَ يا الله تَفصل بين عبادك ، وتقضي بينهم فيما كانوا يَختلفون مِن أمر الدِّين ، فاهْدِني إلى الحق والرَّشاد والصواب .

واللهُ يَجمع الخلائقَ لفصل القضاء بينهم ، ويَحكم للعبد أو يَحكم عليه. يُجازي الْمُحسِن بإحسانه،والْمُسيء بإساءته، وعندئذٍ يَظهر الْمُحِق، ويَظهر الْمُبْطِل. فيزول النِّزاع، ويختفي الخِصام. ويَعرف كُل طَرَف نتيجة عمله، ويُدرِك مصيرَه. واللهُ يَحكم، لا مُعقِّب لِحُكمه ، ولا أحد يَستدرك عليه ، ولا مجال للنقاش أو الاعتراض ، لأن الله هو الحق ، وحُكمه حَق ، وقراره عَدْل .

وقال أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٤٣٢) : ((لَمَّا أخبرَ عن سخافة عقول المشركين باشمئزازهم مِن ذِكر الله ، واستبشارهم بِذِكر الأصنام ، أمرَ رسولَه أن يَدعوَه بأسمائه العُظمى مِن القُدرة والعِلم ، ليفصل بينه وبين أعدائه . وفي ذلك وعيد للمشركين ، وتسلية للرسول ﷺ)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٣٤) أن السيدة عائشة أُم المؤمنين ــ رضي اللهُ عنها ــ سُئِلَت : بأيِّ شيء كان نبيُّ الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام مِن الليل ؟ ، قالت : كان إذا قام من الليل افتتحَ صلاته : ((اللهُمَّ رَبَّ جِبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السماوات والأرض ، عَالِمَ الغَيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهْدِني لِمَا اخْتُلِف فيه مِن الحق بإذنك، إنك تهدي مَن تشاء إلى صراط مستقيم)) .

لقد طَلَب النبيُّ ﷺ مِن الله أن يُثبِّته على الحق والهدى ، بِتَوفيقه وتَيسيره . واللهُ هو الهادي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيئًا والأمرُ يَوْمَئِذٍ للهِ ﴾[الانفطار : ١٩] .

إنه يوم القيامة العظيم الرهيب . حيث لا يَستطيع أحدٌ أن يَنفع أحَدًا ، ولا يَدفع عنه شَرًّا أو ضررًا . والأمرُ في ذلك اليوم لله وَحْدَه ، لا يُنازعه فيه أحد . ولا أمر لِغَير الله فيه .

لا تَملك نَفْسٌ مِن النُّفوس لنفس أخرى شيئًا مِن النفع والضَّر ، ولا يَقْدِر أحدٌ أن يُدخِل أحَدًا الجنة ، ولا يَستطيع أحدٌ أن يَحميَ أحَدًا مِن عذاب النار .

و﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بإضمار " اذْكُر " . وهذا يُشير إلى تعظيم يَوم القيامة ، وتفخيم شأنه ، وتقرير لصعوبته وشِدَّة أهواله. والمعنى : اذْكُر يا محمد يَوْمَ القيامة الرهيب ، حَيث لا أمر ولا

حُكم إلا لله ، وَحْدَه لا شريك له . واللهُ هو الحاكم الْمُنصِف والقاضي العادل ، لا يُجامِل ، ولا يُحابي ، ولا يَظلم ، ولا يَسهو ، ولا يُخطِئ ، ولا يَقبل الرِّشوة . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٨١) : ((يقول : ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ ﴾ .يقول: يَوْم لا تُغني نَفْس عن نَفْس شيئًا ، فتدفع عنها بَلِيَّة نزلت بها ، ولا تنفعها بنافعة. وقد كانت في الدنيا تحميها، وتدفع عنها مَن بغاها سُوءًا ، فَبَطَلَ ذلك يومئذ ، لأن الأمر صار لله الذي لا يَغلبه غالب، ولا يقهره قاهر ، واضمحلَّت هنالك الممالك ، وذهبت الرِّياسات ، وحصل الْمُلْك للمَلِك الجبار، وذلك قَوله : ﴿ والأمرُ يَوْمَئِذٍ للهِ ﴾ . يقول : والأمر كُله يومئذ _ يعني الدِّين _ لله دُون سائر خَلْقه ، ليس لأحد مِن خَلْقه معه يومئذ أمر ولا نَهْي)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٥٠) : ((قال المفسِّرون : ومعنى الآية أنه لا يَمْلِك الأمرَ أحَدٌ إلا الله،ولَم يُملِّك أحدًا مِن الخلق شيئًا كما مَلَّكهم في الدنيا.وكان مقاتل يقول:لا تَملك نَفْس لنفس كافرة شيئًا من المنفعة. والقول على الإطلاق أصَح ، لأن مقاتلاً فيما أحسب خافَ نَفْيَ شفاعة المؤمنين ، والشفاعة إنما تكون عن أمر الله وتمليكه)).

١٣_ إرادته :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا يَنفَعُكُم نُصْحِي إِنْ أردتُ أن أنصَحَ لكم إِن كانَ اللهُ يُرِيدُ أن يُغوِيَكُم ﴾ [هُود : ٣٤].

قال النبيُّ نُوح ﷺ لِقَومه : ولا يَنفعكم تحذيري مِن عذاب الله بسبب كُفركم وضلالكم ، ولا يُفيدكم إرشادي وتَوجيهي إلى الطريق المستقيم، ولا فائدة من نصيحتي وتحذيري لكم بسبب رَفْضكم لكلامي ، وجَحْد نُبُوَّتي ، إن كان اللهُ يُريد أن يُهلككم بعذابه . وهذا يدل على أن إرادة الله نافذة في كل شيء ، ولا شيء يقف أمامها . والمعنى : لا يَنفعكم تبليغي لكم، ولا يُفيدكم نصحي وإرشادي وإنذاري، ولا يُجدي اجتهادي في هدايتكم للإيمان، إن كان اللهُ يُريد أن يُضِلَّكم عن طريق الحق بسبب سُوء أعمالكم، ويَخذلكم، ويُعاقبكم على كُفركم ، ويُعذِّبكم أشد العذاب.

أي : إن كان اللهُ يُريد أن يُضِلَّكم ويُعذِّبكم لِمَا سَبَق لكم مِن الشقاء ، فإن أردتُ أن أنصحَ لكم ، لا يَنفعكم نُصحي ، ولا يُفيد شيئًا .

وقد أضافَ النبيُّ نُوح ﷺ إغواءهم إلى الله تعالى : ﴿ إن كانَ اللهُ يُرِيدُ أن يُغوِيَكُم ﴾ ، لأن اللهَ هو الهادي والْمُضِل . إن هدى العبدَ إلى الإيمان فبفضله وله المِنَّة . وإن أضَلَّه ومَنعه من الإيمان فبعدله وله الْحُجَّة . والإيمانُ شرف عظيم لا يُمنَح لأيِّ شخص . إن الله يَمنحه للمُستحِق فقط .

والآيةُ دليل واضحٌ على أن الكفر والمعاصي خاضعة لإرادة الله تعالى ، ولا شَيء يَخرج عن إرادته تعالى ، سواءٌ كان إيمانًا أَم كُفْرًا ، طاعةً أَم معصية . واللهُ يَتصرَّف في عباده وَفْق إرادته النافذة وحِكمته البالغة . ولا رَادَّ لإرادته النافذة في كل شيء .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٧): ((قَوله تعالى: ﴿ ولا يَنفَعُكُم نُصْحِي ﴾ إي : إبلاغي واجتهادي في إيمانكم ﴿ إنْ أردتُ أن أنصَحَ لكم ﴾ أي : لأنكم لا تَقْبلون نُصْحًا ﴿ إن كانَ اللهُ يُرِيدُ أن يُغوِيَكُم ﴾ أي: يُضِلَّكم،وهذا مِمَّا يدل على بُطلان مذهب المعتزلة والقَدَرية ومَن وافقهما، إذ زعموا أن الله تعالى لا يُريد أن يَعصيَ العاصي ، ولا يَكفرَ الكافر ، ولا يَغويَ الغَوِيُّ ، وأنه يَفعل ذلك ، والله لا يُريد ذلك ، فَرَدَّ اللهُ عليهم بِقَوله : ﴿ إن كانَ اللهُ يُرِيدُ أن يُغوِيَكُم ﴾)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٠٠):((قَوله تعالى:﴿ إن كانَ اللهُ يُرِيدُ أن يُغوِيَكُم ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها يُضِلكم ، قاله ابن عباس . والثاني يُهلككم ، حكاه ابن الأنباري، وقال : هو قول مرغوب عنه . الثالث يُضِلكم ويُهلككم ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فَدَمَّرْناها تدميرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] .

إن اللهَ تعالى أرشد عبادَه إلى طريق سعادتهم ، وأمرَ الْمُترَفين _ الذين هُم عِلْيةُ القوم وأصحاب الثروة والسُّلطة والنفوذ _ بالطاعة والخير . واللهُ يَأمر بالطاعات ، ولا يَأمر بالمعاصي . وإذا قال أحدهم : أمرتُه فعصاني ، فيُفهَم من هذا الكلام أن الأمر كان بعكس المعصية . وقوله تعالى: ﴿ أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها ﴾ يشير إلى أن الأمر كان بمخالفة الفِسق.لكنهم خرجوا عن الأمر الإلهيِّ وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فاستحقوا العذابَ، وحَلَّ بهم الدمار الْمُهلِك. وقد خُصَّ المترَفون بالذِّكْر لأنهم الرؤساء، وهُم الأكثر طَيْشًا وغُرورًا وسفاهةً ، والأقدر على المعصية والفجور ، والأسرع إلى سَفْك الدماء ، وتبذير الأموال . والناسُ تَبَعٌ لهم . وإذا أرادَ اللهُ إهلاكَ قرية بسبب سُوء حالها ، أمرَ الأغنياءَ المتنعِّمين في ملذات الدنيا وشهواتها بطاعته وشُكر نِعَمه . فخالفوا وعَصَوْا . لقد أمرَهم اللهُ بطاعته فَعَصَوْهُ ، وغرقوا في كُفرهم وضلالهم ، واغترُّوا بكثرة أموالهم وأولادهم ، وظَهرت فيهم الفواحش والمعاصي ، ولَم يَشكروا اللهَ على نِعَمه الكثيرة ، فاستحقوا عقاب الله الذي توعَّدهم به ، فَوجَبَ على هذه القرية العذاب بسبب معاصي أهلها وظُهور فِسقهم ، فَدَمَّرَ اللهُ هذه القرية دمارًا شديدًا ، لا يُمكن تخيُّله ولا تصوُّره، وجعلها خرابًا ، وأهلكَ أهلَها ، وجعلهم أثَرًا إثر عَيْن . لقد عَذَّبهم اللهُ وأهلكهم إهلاكَ استئصال ، ولا أحد يَهلِك

إلا بإرادة الله تعالى . ولا رَادَّ لإرادته النافذة في كل شيء ، ولا شيء يقف أمام قضائه السابق . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٠٣) : ((يُعلمك أنَّ مَن هَلَكَ هَلَكَ بإرادته،فهو الذي يُسبِّب الأسباب، ويَسوقها إلى غاياتها، لِيَحِقَّ القَوْلُ السابق مِن الله تعالى)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٨) : ((واختلف المفسرون في معناها . فقيل : معناها أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها أمْرًا قَدَرِيًّا ... فإن الله لا يأمر بالفحشاء . قالوا : معناه أنه سَخَّرهم إلى فِعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل : معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة ، رواه ابن جُرَيج عن ابن عباس ، وقاله سعيد بن جُبَير أيضًا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ١٨و١٩):((قَوله تعالى:﴿ وإذا أردنا أن نُهلك قريةً ﴾ في سبب إرادته لذلك قَولان: أحدهما ما سبق لهم في قضائه من الشقاء، والثاني عِنادهم الأنبياء وتكذيبهم إيَّاهم ... . فأمَّا الْمُتْرَفون ، فهم الْمُتنعِّمون الذين قد أبطرتهم النِّعمة وسَعَة العيش . والمفسرون يقولون: هُم الجبارون والْمُسلَّطون والملوك ، وإنما خَصَّ الْمُتْرَفين بالذِّكر لأنهم الرؤساء، وَمَن عَداهم تَبَع لهم . قَوله تعالى : ﴿ ففسقوا فيها ﴾ أي : تَمَرَّدُوا في كُفرهم ، لأن الفِسق في الكفر الخروج إلى أفحشه)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن المعاصي إذا ظَهَرت ، ولَم يَتم تغييرها ، ولا مُكافحتها ، كانت سببًا لهلاك الجميع . وعندئذٍ يأتي العذابُ دون تفريق بين الْمُحسِن والْمُسِيء . وإذا كَثُرت المعاصي والآثام عَمَّت العقوبة الصالح والطالح . فعن زينب بنت جحش _ رضي الله عنها _ أنها سألت النبيَّ ﷺ : أنهلِكُ وفِينا الصالحون ؟ ، قال : ((نعم ، إذا كَثُرَ الْخَبَثُ)) [88].

والْخَبَثُ هو الفُسوق والفُجور والمعاصي.وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٨/ ٣): ((وفسَّره الجمهور بالفُسوق والفُجور.وقِيل: المراد الزنى خاصة، وقيل : أولاد الزنى . والظاهر أنه المعاصي مُطْلَقًا.معنى الحديث أن الْخَبَث إذا كَثُر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يَفعلُ ما يُريد ﴾[الحج : ١٤] .

إن الله يهدي مَن يشاء ، ويُضِل مَن يشاء . يُدخِل المؤمنين الجنة بفضله ، وله المِنَّة ، ويُدخِل الكافرين النار بعدله ، وله الْحُجَّة . لا رَادَّ لإرادته ، ولا مُعقِّب لِحُكمه . واللهُ يَفعل ما يُريده مِن

---

(٨٨)متفق عليه. البخاري(٣/ ١٣١٧)برقم (٣٤٠٣)،ومسلم (٤/ ٢٢٠٧) برقم (٢٨٨٠).

الأفعال ، وكُل أفعاله حكيمة وعادلة مُنَزَّهة عن العبث والظلم . يُثيب المؤمن ، ويُعذِّب الكافر . ولا دافع لإرادة الله ، ولا مانع يقف أمام أمره . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٢٢) : ((أي : يُثيب مَن يشاء ، ويُعذِّب مَن يشاء ، فللمؤمنين الجنة بِحُكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سَبَق مِن عدله ، لا أن فِعل الرب مُعلَّل بِفِعل العبيد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾[الحج : ١٦] .

اللهُ وَحْدَه هو الهادي ، ولا تكون الهداية إلا بإرادته سُبحانَه . يَهدي مَن يَشاء إلى الحق والصواب ، ويُضِل مَن يشاء . والهدايةُ شرفٌ عظيم، لا يَمنحها اللهُ إلا لأصحاب القلوب النقية ، واللهُ يَهدي الذين يَعلم أنهم يُؤمنون ، ويُثبِّت الذين آمَنوا على الحق بفضله وكرمه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٨٣) : ((أي : يُضِل مَن يشاء ، ويَهدي مَن يشاء ، وله الحِكمة التامة ، والْحُجَّة القاطعة في ذلك)) اهـ .

١٤_ مَشيئته :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشاءُ ﴾ [البقرة : ١٠٥] .

لقد اختصَّ اللهُ محمدًا ﷺ بالنُّبُوَّة ، وشرَّفه على جميع الأنبياء والمرسَلين ، وهذا فضل إلهيٌّ وكرمٌ رَبَّانِيٌّ ، وليس واجبًا على اللهِ تعالى . فاللهُ لا يجب عليه شيء ، وليس لأحد عليه حق . واللهُ يَمنح مَن يشاء ، ويَحْرِم مَن يشاء . وأفعالُ اللهِ حكيمةٌ مُنَزَّهة عن العبث . وللهِ الفضلُ الكامل ، والْحُجَّة الواضحة ، والحكمة البالغة . عَلِمَها مَن عَلِمَها ، وجَهِلَها مَن جَهِلَها .

كما اختصَّ اللهُ المؤمنين بالفضل والشرف الرفيع ، حيث أرسلَ إليهم أعظم رُسله محمدًا ﷺ ، وأنزلَ عليهم أعظم كُتبه السماوية (القُرآن)، وهداهم إلى الدين الحق (الإسلام) ، ووفَّقهم إلى الشريعة الكاملة المعصومة (الشريعة المحمدية الإسلامية) . وكُل هذا إنما هو بفضل الله ورحمته، وليس ذكاءً مِن المؤمنين ولا عبقرية مِنهم. فالهدايةُ الإلهيةُ إنما هي فضل من الله ، يَمنحها لِمَن يشاء، ويحجبها عمَّن يشاء ، وهذه الهدايةُ لا تُكْتَسَب بالذكاء والمواهب الذاتية ، وإنما هي مِنحة ربَّانية عظيمة . والرحمة الإلهية تتجلى في إنعام الله على المؤمنين وعَفْوه عنهم .وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٢٧) : ((في هذه الرحمة قَولان : أحدهما أنها النُّبُوَّة، قاله علي بن أبي طالب ومحمد بن علي بن الحسين ومجاهد والزَّجاج . والثاني أنها الإسلام ، قاله ابن عباس ومقاتل)) اهـ .

والمشركون كان يَحْسُدون النبيَّ ﷺ ، لأنَّ اللهَ أنزلَ عليه الوَحْيَ ، واختصَّه بالنُّبُوَّة دُونهم . وكانوا يَرَوْنَ أنهم الأحق بالنُّبُوَّة والأجدر بها ، بسبب غِناهم وسُلطتهم ونفوذهم وسَطْوتهم . وقد أعلمَهم اللهُ أن النُّبُوَّة فضل إلهيٌّ ، ورحمةٌ للخَلْق ، واللهُ يختصُّ بالنُّبُوَّة مَن يشاء ، وإيتاء النُّبُوَّة مِن فضل الله العظيم ، ولا تُكْتَسَب بالمواهب الذاتية ولا القدرات الشخصية . واللهُ يَختار مَن يشاء مِن عباده لحمل رسالة السماء ، ولله الفضل الكامل ، والْحُجَّة الباهرة . والآيةُ تعريضٌ بالمشركين (كفار مكة) . إن النُّبُوَّة فضل إلهيٌّ ومِنحة ربَّانية ، لا تُكْتَسَب بكثرة الأموال والأولاد والجاه والسُّلطة. كما أنها تعريض بأهل الكتاب. لقد اختصَّ اللهُ محمدًا بحمل آخر الرسالات السماوية ، وهدى المؤمنين إلى الإيمان والحق . واللهُ يَختصُّ مَن يشاء مِن خَلْقه بِنَعمه وفضله وكرمه ، ولا تُكْتَسَب الهداية الإلهية بالشعارات والأماني والدعاوى الفارغة . وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٢٠) : ((والله يختصُّ مَن يشاء بِنُبُوَّته ورسالته ، فَيُرسله إلى مَن يشاء مِن خَلْقه ، فيتفضل بالإيمان على مَن أحبَّ فيهديه له . واختصاصه إيَّاهم بها إفرادهم بها دُون غَيرهم مِن خَلْقه ، وإنما جعل اللهُ رسالته إلى مَن أُرْسِل إليه مِن خَلْقه وهدايته مَن هدى مِن عباده رحمةً منه له ، لِيُصَيِّرَه بها إلى رِضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة ، واستحقاقه بها ثناءه ، وكُل ذلك رحمة مِن الله له)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يَرزقُ مَن يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَاب ﴾ [البقرة : ٢١٢] .

إنَّ اللهَ يَرزق مَن يشاء مِن خَلْقه ، ويُعطيه عطاءً كثيرًا ، بلا عَد ولا حَصْر في الدنيا والآخرة . واللهُ لا يخاف الفقرَ ، ولا يَخشى أن تَنفد خزائنُه ، ولن يَنقص مِن مُلْكه وسُلطانه شَيء ، لذلك يُعطي بلا عَد ولا إحصاء ، ولا يَحتاج سُبحانَه أن يَحسِب كَم أعطى ، ولا يَحتاج أن يُحصيَ كَم بَقِيَ . فهذا الفِعل يكون لِمَن يَخاف أن يَقِل رصيده ، أو تَنفد خزائنه . واللهُ يُعطي بلا تقتير ولا تضييق، ويُنفِق بغير حساب ، ويُوسِّع على مَن يشاء مِن خَلْقه في النفقة ولا يَحْسِبُها ، لأنه لا يخاف الفقرَ أو الإفلاس أو نفاد خزائنه أو انحسار ممتلكاته ، ولا يخشى أن يُحاسبه أحد .

وقد تكون التَّوسعة في الرِّزق استدراجًا للعبد ، كما حصل مع قارون ، فإن الله مَنحه الأموالَ الهائلة كَي يَستدرجه إلى نهايته الكارثية المحتومة، وهذا الاستدراج بالنِّعَم شديد الخطورة . ولو كان كثرة المال كرامةً ودليلاً على محبة الله ، لكانَ المؤمنون أحق الناس بالغِنى والثروة . واللهُ يُعطي الدنيا لِمَن يُحِب ومَن لا يُحِب ، أمَّا الآخرة فلا يُعطيها إلا لِمَن أحبَّ .

والرِّزقُ خاضعٌ للمشيئة الإلهية ، وأفعال الله تجري وَفْق حِكمته البالغة . فهو يَرزق مَن يشاء مِن خَلْقه رِزقًا واسعًا بلا تقدير ولا حصر ولا تضييق . ويَرزق مَن يشاء في الآخرة بلا مُحاسبة .

وقِيل : هو إشارة إلى المؤمنين الْمُستضعفين ، فاللهُ يَرزقهم الرتبةَ السامية والمكانة الرفيعة ، ويُنعِم عليهم ، ويتفضَّل عليهم ، ويَجعل رِزقهم دائمًا مُستمرًّا بلا انقطاع ولا حساب . والفضلُ الإلهيُّ كُلُّه بغير حساب . وإذا وَسَّعَ اللهُ الرزقَ على عبده المؤمن فهذا امتحان له وابتلاء ، لرفع درجته . وإذا وَسَّعَ على عبده الكافر ، فهذا استدراج له بالنِّعَم ، واللهُ يَسُوقه إلى الهلاك والعذاب.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٤٢) : ((﴿ واللهُ يَرزقُ مَن يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَاب ﴾ . قال ابن عباس : يعني كثيرًا بغير مقدار ، لأن كُل ما دخل عليه الحساب فهو قليل . يرزق : يُوسِّع على مَن يشاء ، ويبسط لمن يشاء من عباده. وقال الضَّحاك: يعني مِن غَير تَبِعة يرزقه في الدنيا ، ولا يُحاسبه في الآخرة . وقِيل : هذا يرجع إلى الله تعالى ، معناه : يُقَتِّر على مَن يشاء ويبسط على مَن يشاء ، ولا يُعطي كل أحد بِقَدْر حاجته، بل يُعطي الكثير مَن لا يحتاج إليه،ولا يُعطي القليل مَن يحتاج إليه، فلا يُعْتَرَض عليه، ولا يُحَاسَب فيما يَرزق، ولا يُقال : لِمَ أعطيتَ هذا وحَرمتَ هذا ؟ ، وَلِمَ أعطيتَ هذا أكثر مِمَّا أعطيتَ ذاك ؟ . وقِيل : معناه : لا يخاف نفاد خزائنه فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها ، لأن الحساب مِن الْمُعطي إنما يكون لِمَن يخاف مِن نفاد خزائنه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يَهدي مَن يَشاءُ إلى صِرَاطٍ مُستقيم ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

إنَّ الله يُرشِد مَن يشاء مِن خَلْقه إلى طريق الحق الذي لا يَضِل سالكه ، ويُوفِّقه إلى الصواب والرشاد والهدى ، وله الحِكمة الجليلة ، والْحُجَّة البالغة . والصراطُ المستقيم هو دِين الإسلام ، فهو طريق الحق الذي لا لَبْس فيه ولا اعوجاج . واللهُ وَحْدَه هو الهادي ، وبيده الهداية إلى الإيمان. أمَّا الرُّسل فهم يَهدون إلى طريق الإيمان ، ولا يَقْدِرون على إدخال الإيمان إلى قلوب العباد . إن هداية التوفيق والقَبول بيد الله وَحْدَه،أمَّا الرُّسل فَهُم مُعلِّمون ومُرْشِدُون وهُداة مَهْدِيُّون ، وهدايتهم هي هداية الدَّلالة والبيان والتوضيح والإرشاد . وكل رسول مُبلِّغ عن الله ، ومُبيِّن عنه ، ودال على دِينه وشَرْعه . وهدايةُ العبد خاضعة لمشيئة الله ، والعبد لا يَهدي نَفْسَه بنفْسه ، مهما كان ذَكِيًّا أو مَوهوبًا . وهذا يعني أن الهداية مخصوصة لأشخاص مُعيَّنين يختارهم اللهُ تعالى، ويشاء لهم الهداية معَ استغنائه عنهم ، ولله الفضل والمِنَّة . والآية تردُّ على المعتزلة الذين قالوا إن العبد يهدي نفسه بنفسه . وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٤٧):((واللهُ يُسدِّد مَن يشاء مِن خَلْقه، ويُرشده إلى الطريق القويم على الحق، الذي لا اعوجاج فيه ، كما هدى الذين آمنوا بمحمد ﷺ لِمَا اختلف الذين أُوتوا الكتاب فِيه بَغيًا بينهم ، فَسَدَّدهم لإصابة الحق والصواب فيه . وفي هذه الآية البيان الواضح على صِحَّة ما قاله أهل الحق مِن أن كل نِعمة على العباد في دِينهم أو دنياهم فَمِن

اللهِ جَلَّ وَعَزَّ)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ شاءَ اللهُ لأعْنَتَكُم ﴾ [البقرة : ٢٢٠] . لَوْ شَاء اللهُ لأحرجَ عبادَه ، وضَيَّقَ عليهم ، وأتعبهم ، وشَدَّد عليهم في الأوامر والأحكام ، وتعبَّدهم بما يَصعُب عليهم، ولكنه رحمهم، فوسَّع عليهم ، ويسَّر أمورَهم ، وخفَّف عنهم . والعَنَت المشقة . والإعنات التكليف بما يفوق طاقة العبد وقُدرته على التَّحمل . والمعنى : لو شاءَ اللهُ لَكَلَّفكم في كُل شيء ما يشقُّ عليكم ، وما لا تُطيقون . والآيةُ تذكيرٌ بالنِّعمة الإلهية العظيمة التي تتجلى في التَّوسعة والتسهيل والتَّيسير . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٤٤): ((﴿ وَلَوْ شاءَ اللهُ لأعْنَتَكُم ﴾ . قال ابن عباس: أي لأحْرَجَكُم وَلَضَيَّقَ عليكم. وقال ابن الأنباري: أصل العَنَت التشديد.تقول العرب: فُلان يَتَعَنَّت فُلانًا ويُعْنِته، أي يُشدِّد عليه ويُلْزِمه بما يَصْعُب عليه أداؤه. قال: ثم نُقِلت إلى معنى الهلاك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يُؤتِي مُلْكَهُ مَن يَشاءُ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

إن الله هو الْحَكَم الحاكم، يَفعل ما يشاء، ولا يُسأل عَمَّا يَفعل، لكمال عِلمه، وطلاقة قُدرته ، ورحمته بِخَلْقه . حِكمته بالغة ، وحُجَّته باهرة . والْمُلْك بيد الله وَحْدَه ، يَضعه حيث يشاء ، وهو أعلم بالمصلحة والمنفعة.ولا علاقة للخلق به. فالْمُلْكُ مُلْك الله، والناس عبيده ، فلا معنى لاعتراض بعض الخلق ، ولا أحد طَلَب رأيهم . واللهُ يَختار مَن يشاء مِن خَلْقه ويُؤتيه مُلْكَه ، لا اعتراض عليه ، وليس الْمُلْك بالوراثة . ولله الْحُكْم والْخَلْق والأمر . وكُل شيء خاضع للمشيئة الإلهية . والأمرُ كُلُّه للهِ وَحْدَه ، خاضعٌ لمشيئته المقدَّسة ، ولا يَخضع لاختيارات الناس وأهوائهم وآرائهم . وإضافة مُلْك الدنيا إلى الله ، لأن الله هو الْمَلِك المالك ، يَملك كُلَّ شَيء بلا استثناء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٤٣) : ((إنَّ الله تعالى مَالِك الْمُلْك على الإطلاق ، فلهُ أن يُؤتِيَه مَن يَشاء)) اهـ . وقال النسفي في تفسيره (١/ ١٢٠) : ((الْمُلْك له غَير مُنَازَع فيه ، وهو يُؤتيه مَن يشاء إيتاءَه ، وليس ذلك بالوراثة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُؤتِي الحِكمةَ مَن يَشاءُ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

الحكمة مأخوذة من الإحكام ، وهو الإتقان في القَول والفِعل . والحكمةُ تمنع الإنسانَ من السَّفَه والطيش والأقوال السَّيئة والأفعال القبيحة ، وتُرشده إلى الحق والصواب . والحكمة هي العمل بالعِلم النافع . ورأس الحكمة مخافة الله. واللهُ يُؤتي الفهمَ والإصابة في القَول والفِعل مَن يشاء مِن خَلْقه . وهذا يدل على خصوصية الحكمة ، وأنها تُمنَح لأشخاص مُحدَّدين ، وَفْق مَشيئة الله النافذة وحِكمته البالغة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٢٤): ((في المراد بهذه الحِكمة أحد عشر قولاً : أحدها أنها القرآن ، قاله ابن مسعود ومجاهد والضَّحاك ومقاتل في آخرين. والثاني معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ومُحْكَمه ومُتَشَابِهه ومُقَدَّمه ومُؤَخَّره ونَحو ذلك، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث النُّبُوَّة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع الفهم في القرآن، قاله أبوالعالية وقتادة وإبراهيم . والخامس العِلم والفقه ، رواه ليث عن مجاهد. والسادس الإصابة في القَول، رواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد. والسابع الوَرَع في دِين الله ، قاله الحسن . والثامن الخشية لله، قاله الربيع ابن أنس . والتاسع العقل في الدِّين ، قاله ابن زيد . والعاشر الفهم ، قاله شريك. والحادي عشر العِلم والعمل . لا يُسمَّى الرَّجل حكيمًا إلا إذا جمعهما ، قاله ابن قُتَيبة)) اهـ .

إن النُّبُوَّة هي الحكمة العُليا التي لا يَعلوها شيء . ولكن الحكمة لا تختصُّ بالنُّبُوَّة ، فمفهوم الحكمة واسع وشامل . والسائرون على خُطى الأنبياء لهم نصيب مِن الحق والهدى والخير ، لأنهم تابعون لأعظم البشر الذين يأتيهم الوَحْيُ السماويُّ . وهؤلاء التابعون هم العُلماء الراسخون في العِلم ، الذين يَعملون بالعِلم النافع .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((مَن قَرأ القُرآنَ ، فقد استدرجَ النُّبوةَ بين جَنْبَيْهِ ، غَيْرَ أنه لا يُوحَى إلَيه)) (89).

تتَّضح فضيلةُ القُرآن العظيمة . فَمَن قَرأ القُرآنَ وحَفِظَه ، وأصبحَ في صَدره محفوظًا ، فقد جَمَعَ النُّبُوَّةَ في صَدْره ، لأنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ أوحاه اللهُ إلى محمد ﷺ ، فَمَن اعتنى بالقُرآن قراءةً وحِفْظًا وفَهْمًا صارَ شَبيهًا بالنبيِّ ﷺ إلا أنه ليس نَبِيًّا ولا يُوحَى إلَيه لأنَّ محمدًا ﷺ هو خاتَمُ الأنبياء.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَيَغفِرُ لِمَن يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] .

إنَّ مغفرة ذُنوب العباد أو تعذيبهم ، كلاهما خاضع للمشيئة الإلهية . واللهُ يَغفِر لِمَن يَشاء المغفرةَ له بفضله ، ويُعذِّب مَن يشاء تعذيبَه بِعَدْله . والآيةُ صريحة في نَفْي وجوب التعذيب .

واللهُ يَفعل ما يشاء، ولا يُسأل عَمَّا يَفعل. لا أحد يَفرِض عليه شَيْئًا، ولا أحد يُلْزِمه بأمرٍ مُعيَّن.

وفي تفسير البغوي (١/ ٣٥٣) : ((وروى طاووس عن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : ﴿ فَيَغفِرُ لِمَن يَشاءُ ﴾ الذنب العظيم ، ﴿ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ ﴾ على الذنب الصغير)) اهـ .

---

(٨٩) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٧٣٨) برقم (٢٠٢٨) وصحَّحه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يَفعلُ ما يَشاءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

اللهُ تعالى يَفعل ما يَشاء ، يُكْرِم مَن يشاء بالإيمان، ويُهين مَن يشاء بالكفر . والسعادةُ والشقاوة والإكرام والإهانة تحت إرادته ومَشيئته.ولا اعتراض لأحدٍ عليه .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٣): ((قِيل لعليٍّ : إنَّ هَهُنا رَجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له عليٌّ : يا عَبْدَ اللهِ ، خَلَقَكَ اللهُ كما يشاء أو كما شِئت ؟، قال : بل كما شاء، قال : فَيُمْرِضُك إذا شاء أو إذا شِئت ؟ ، قال : بل إذا شاء ، قال : فَيَشْفِيك إذا شاء أو إذا شِئت ؟ ، قال : بل إذا شاء ، قال : فَيُدْخِلُك حيث شِئت أو حيث شاء ؟، قال: بل حيث يشاء، قال : واللهِ لَوْ قُلْتَ غَيْرَ ذلك ، لَضَرَبْتُ الذي فيه عَيناك بالسَّيف)) اهـ .

إنَّ اللهَ مُسَيْطِرٌ على كُل شيء ، يَفعل ما يَشاء ، لا أحد يَستدرِك على حُكْمِه ، أو يَنْقُضُه ، أو يَعترض عليه . فاللهُ سُبحانه يَرحم ويُعذِّب ، يُعِزُّ ويُذِلُّ ، يُغني ويُفقِر ، يُحيي ويُميت . وكُلُّ ما سِوى اللهِ مِلْكٌ للهِ ، واللهُ يَتصرَّف في مُلْكِهِ كَيْفَ يشاء . وكُل شيء خاضع للمشيئة الإلهية .

١٥ـ تَنْزيهه عن الظُّلْم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما اللهُ يُريدُ ظُلمًا للعالَمين ﴾ [آل عِمران : ١٠٨] .

إن الله مُنَزَّه عن الظلم . لا يشاءُ أن يَظلم عباده . وهو سُبحانَه لا يُعاقِب أحَدًا بلا معصية ، ولا يَزيد في عقاب مُجرِمٍ ، ولا يُنقِص مِن أجر طائع . الناس مقهورون في قبضته ، وخاضعون لِحُكمه وأمره . يحتاجون إليه، وهو غنيٌّ عنهم ، لذلك لا يحتاج أن يَظلمهم . واللهُ لا يُعذِّب أحَدًا بدون ذنب ، ولا يُعاقبه بلا إثم، ولا يَترك الظالِم بغير انتقام . والكافرون هُم الظالمون ، فقد ظَلموا أنفسَهم بأن قادوها إلى الخلود في عذاب النار . إن الله لا يُعذِّب إلا المستحقين للعذاب. والعقابُ الإلهيُّ ليس ظُلْمًا مِنَ الله للعباد ، وإنما هو بسبب ذنوب العباد وآثامهم وظُلمهم لأنفسهم . لذلك استحقوا العقوبة والعذاب بما كسبت أيديهم.وتنكير﴿ ظُلمًا﴾ يدل على أن الله لا يَظلم أيَّ شخص كائنًا مَن كان، ولا يَظلم الناسَ شيئًا مهما كان صغيرًا أو بسيطًا.وهذا نَفْيٌ شامل لكل أنواع الظلم ومراتبه.والآيةُ تنفي تعلُّق إرادة الله بالظلم،وهذا في غاية البلاغة ، ويُشير إلى العدل المطْلق لله تعالى.

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٧٠) : ((فإن تنكير الظلم وتوجيه النفي إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه ، وتعليق الْحُكم بآحاد الجمع الْمُعرَّف ، والالتفات إلى الاسم الجليل ،

إشعارًا بِعِلَّة الْحُكم ، بيان لكمال نزاهته عَزَّ وَجَلَّ عن الظلم ، بما لا مزيد عليه ، أي: ما يُريد فَرْدًا مِن أفراد الظلم لفرد مِن أفراد العالَمِين ، في وقت من الأوقات ، فضلاً عن أن يظلمهم ، فإن المضارع كما يُفيد الاستمرار في الإثبات ، يُفيده في النَّفْي بِحَسَب المقام)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٥) : ((أي ليس بظالِم لهم ، بل هو الْحَكَم العَدْل الذي لا يَجور ، لأنه القادر على كل شيء، العالِم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يَظلم أحَدًا مِن خَلْقه)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٧٧): ((إذْ يستحيل الظلم منه ، لأنه لا يَحِق عليه شيء فَيَظلم بنقصه ، ولا يُمنَع عن شيء فَيَظلم بِفِعله ، لأنه المالك على الإطلاق)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا ﴾[الأنعام : ١٥٢] .

إنَّ اللهَ خَلق الناسَ ، وهو أرحم بهم مِن أُمَّهاتهم . لذلك لَم يُحْرِجْهم ، ولَم يُضيِّق عليهم . والتكاليفُ الشرعية متوافقة مع قدرات الناس ، ومتلائمة مع طبيعتهم ، وليست فوق طاقتهم ، ولا تفوق قُدرتهم على التحمل . واللهُ لا يُكلِّف أحَدًا إلا بمقدار طاقته وإمكانياته وقُدراته .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٨٢) : ((﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا ﴾ إلا ما يَسَعها ، ولا تضيق عنه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ الناسَ شَيئًا ولَكِنَّ الناسَ أنفُسَهُم يَظْلِمُون ﴾[يُونُس : ٤٤].

إن الله لا يَظلم قليلاً ولا كثيرًا ، لأنه في جميع أفعاله مُتَفَضِّل وعادل . إذا هدى العبدَ إلى الإيمان فبفضله، ولهُ سُبحانَه المِنَّة . وإذا مَنعه مِن الإيمان فبعدله ، ولهُ سُبحانَه الْحُجَّة . واللهُ لَم يَظلم الكافرين حِين قَدَّرَ عليهم الكفرَ والشقاءَ ، لأنه يتصرَّف في مُلكه كما يشاء ، وهو الْحَكَم الحاكم ، لا يُسأل عمَّا يَفعل وهُم يُسألون ، لِعِلْمه الشامل ، وقُدرته المطْلَقة ، وحِكمته البالغة ، وعَدْله التام . واللهُ خَلق الناسَ، وزوَّدهم بالعقول والأعضاء والحواس ، وبيَّن لهم طريق الخير كي يسلكوه ، ووضَّح لهم طريق الشر كي يَجتنبوه ، وأنعمَ عليهم بالنِّعَم الكثيرة ، وأظهرَ لهم المصالح الدنيوية والمنافع الدينية.ومَنَحَ الإنسانَ حرية الاختيار بدون ضغط ولا إكراه. واللهُ يُجازي المحسِن بإحسانه، والمسيء بإساءته . واللهُ لا يُنقِص مِن حسنات المحسِن ، ولا يزيد في سيئات الْمُسِيء .

ولكنَّ الناسَ يَظلمون أنفسَهم بالكفر والمعاصي وترك طريق الحق ، وبذلك يُعرِّضون أنفسَهم للعذاب الإلهيِّ الشديد ، والفِعل منسوب إليهم ، وإن كان بقضاء الله وقَدَره .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٠٠) : ((﴿ إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ الناسَ شَيئًا ﴾ بسلب حَوَاسِّهم وعقولهم ، ﴿ ولَكِنَّ الناسَ أنفُسَهُم يَظْلِمُون ﴾ بإفسادها ، وتفويت منافعها عليهم . وفيه دليل على

أن للعبد كَسْبًا ، وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكُلِّية كما زعمت الْمُجْبَرَة، ويجوز أن يكون وعيدًا لهم بمعنى أن ما يَحيق بهم يوم القيامة مِن العذاب عَدْل مِن الله ، لا يظلمهم به ، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه)) اهـ . وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤) : عن أبي ذَر عن النبيِّ ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : ((يا عبادي إنِّي حَرَّمْتُ الظلمَ على نَفْسي ، وجعلته بينكم مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا)) ، إلى أن قال في آخر الحديث : ((إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أُوفِّيكم إيَّاها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه)) .

لقد حَرَّمَ اللهُ على نَفْسِه الظلمَ ، وألزمَ ذَاتَه العَلِيَّة بالعدل . ولا ينبغي ولا يجوز على اللهِ الظلم، فالظلم مُحال في حق الله تعالى . لقد تَقَدَّسَ اللهُ وتعالى عن الظلم ، فهو في حَقِّه كالشيء المحرَّم على الناس . والظلمُ هو مُجاوزة الحد ، واللهُ لا يَحُدُّه شَيء . والظلم هو التصرف في أملاك الآخرين بدون إذنهم ، واللهُ هو مالك كُل شيء ، ويَتصرَّف في مُلكه كما يشاء .

وجَعَلَ اللهُ الظلمَ بين عباده مُحَرَّمًا ، وحَكَمَ بتحريمه عليهم . فلا يَجوز أن يَظلموا بعضهم بعضًا ، فلا بُد مِن اقتصاصه سُبحانَه للمظلوم من الظالم ، وعندئذٍ سيدفع الظالِمُ ثمنَ ظُلمه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٢):((" إنِّي حَرَّمْتُ الظلمَ على نَفْسي". قال العلماء: معناه تَقَدَّسْتُ عنه وتعاليتُ. والظلم مُستحيل في حق الله سُبحانَه وتعالى. كيف يُجاوز سُبحانَه حَدًّا وليس فوقه مَن يُطيعه، وكيف يتصرف في غَير مُلْك، والعالَمُ كُله في مُلكه وسُلطانه. وأصل التحريم في اللغة المنع،فَسُمِّيَ تَقَدُّسُه عن الظلم تحريمًا لمشابهته للممنوع في أصل عدم الشيء. قَوله تعالى:" وجعلتُه بينكم مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا ". أي: لا تتظالموا. والمراد : لا يَظلم بعضُكم بعضًا. وهذا توكيد لِقَوله تعالى : " يا عبادي" ،" وجعلتُه بينكم مُحَرَّمًا "، وزيادة تغليظ في تحريمه)) اهـ.

واللهُ يُحصِي أعمال الناس ويحفظها بِعِلْمه المطْلَق الشامل لكل شيء،كما أن الملائكة الحفَظَة تُسجِّل أعمالَ الناس. ويُجازيهم اللهُ عليها. يُجازي المحسِن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . وهذا الجزاء الإلهيُّ كامل وشامل وتام ، لا نقص فيه ولا سَهْو ولا نسيان . والتَّوفيةُ إعطاء الحق على التمام ، كاملاً غير منقوص . ومَن وَجَدَ خيرًا فليشكر اللهَ على فضله وكرمه ، فهو يَهدي مَن يشاء إلى طريق الحق ، ويُخرِج مَن يشاء مِن الظلمات إلى النُّور ، ويُوفِّقه لعمل الصالحات . ومَن وَجد شَرًّا بما كَسبت يداه، عليه أن يَلوم نَفْسَه الْمُقَصِّرة الغارقة في المعاصي والذنوب. واللهُ لَم يَظلم العبدَ،ولكن العبدَ ظَلَم نَفْسَه بأن أغرقها في الضلال ، وأوردها المهالك ، وقادها إلى عذاب النار.

واللهُ تعالى يُحصي كلَّ أعمال الخلائق كاملةً غير منقوصة ، ويضعها في متناول يد العبد كَي يَعلم أن اللهَ تعالى لَم يَظْلمه. فهو العَفُوُّ الغفور، يغفر لمن يشاء، وهو شديد العقاب يُعذِّب من يشاء. فمن وجدًا خيرًا فبفضل الله تعالى وله المِنَّة ، ومن وجد شَرًّا فبعدل الله تعالى وله الْحُجَّة .

والخيرُ مِنَ الله وَحْدَه . وعلى العبد دائمًا أن يُرجِع الفضل في عبادته وطاعته إلى الله تعالى ، لأن عبادات الإنسان قائمة على هداية الله وتوفيقه ، وليست بسبب ذكاء الإنسان وقُوَّته .

والجديرُ بالذِّكر أن الله قال : ((ومن وجد غير ذلك)) . ولَم يقل : ومَن وَجد شَرًّا . وهذا تعليمٌ إلهيٌّ للناس كَي يَتأدَّبوا في كلامهم ، ويَستخدموا الكِناية عن الأشياء القبيحة والسَّيِّئة .

وقَوله تعالى : ((فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه)) . تَمَّ التأكيد بالنُّون ، لحصر المسؤولية بِنَفْسِ الإنسان، أي إن الإنسان وَحْدَه هو المسؤول عن سَيِّئاته ومعاصيه وذنوبه ، وَوَحْدَه يَستحق اللوم والعقاب . لقد ظَلَمَ نَفْسَه ، وقادَ نفسه إلى الهلاك بدون ضغط ولا إكراه ، واللهُ لَم يَظلمه شيئًا .

والإنسانُ ظَالِمٌ بطبيعته ، وغير عادل ولا مُنصِف . فهو يُسنِد طاعته وعبادته إلى ذكائه وقُوَّته وإيمانه ومواهبه الشخصية وقدراته الذاتية ، ولا يُسنِدها إلى هداية الله وتوفيقه . في حِين أنه يَتَبَرَّأ مِن ذنوبه ومعاصيه وآثامه ، ويُسْنِدها إلى القضاء والقَدَر ، ولا يَعترف بتقصيره وسُوء أعماله .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٧٦) : ((" فمن وجد خيرًا " ثوابًا ونعيمًا بأن وُفِّق لأسبابهما ، أو حياة طيبة هنيئة ، " فليحمد الله " على توفيقه للطاعات التي يترتب عليها ذلك الخير والثواب فضلاً منه ورحمة،" ومَن وجد غير ذلك " أي شَرًّا . ولَم يَذكره بلفظه تعليمًا لِخَلْقه كيفية أدب النُّطق بالكِناية عمَّا يُؤذي أو يُسْتَهْجَن، أو يُسْتَحَى مِنه، أو إشارة إلى أنه إذا اجتنب لفظه، فكيف فِعله ؟." فلا يلومنَّ إلا نفسه" فإنها آثرت شهواتها على رضى رزاقها، فكفرت بأنعمه ولَم تُذعِن لأحكامه وحُكمه،فاستحقت أن يقابلها بمظهر عَدْله، وأن يَحْرمها مزايا جُوده وفضله)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أنا بِظَلَّامٍ للعَبيدِ ﴾[ق : ٢٩] .

إنَّ اللهَ عادلٌ غَير ظالم. لا يُعاقب أحَدًا بلا ذَنب،ولا يَأخذه بذنب غَيْره،ولا يُعذِّب إلا الْمُذنِب المستحق للعذاب بعد قيام الْحُجَّة عليه وانقطاع عُذره . واللهُ عادلٌ لا يزيد على إساءة الْمُسيء ، ولا يُنقِص مِن إحسان المحسِن . ومعنى ﴿ بِظَلامٍ ﴾ بِذِي ظُلم . وهي على لفظ الْمُبالَغة .

وقال أبو السعود في تفسيره (١٣٢/٨):((﴿ وما أنا بِظَلامٍ للعَبيدِ ﴾ وما أنا بِمُعَذِّب للعبيد بغير ذنب. ليس بِظُلم _ على ما تقرَّر من قاعدة أهل السُّنة _ فضلاً عَن كَونه ظُلْمًا مُفْرِطًا ، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سُبحانه من الظلم . وصيغة

الْمُبالَغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض الْمُبالَغة في الظلم. وقيل: هي لرعاية جميع العبيد،مِن قَولهم:فُلان ظالم لعبده،وظَلاَّم لعبيده على أنها مبالغة كَمًّا لا كَيْفًا)) .

١٦_ غِناه وافتقار الناس إليه :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولله ما في السماواتِ وما في الأرضِ ﴾[آل عِمران : ١٠٩] .

إنَّ اللهَ هو مالكُ السماوات والأرض وما فيهما. وكُل ما في السماوات وما في الأرض خاضعٌ للهِ ، وفي قبضته . وقد وضَّح اللهُ للناس أنه مالك كُل شيء ، كَي يُوحِّدوه ، ويَسألوه ، ويَتوجَّهوا إلَيه وَحْدَه . فهو القادر على العطاء والمنع ، لأنه يَملك السماوات والأرض وما فيهما ، والجميع مِلْكٌ له وعبيد . والآيةُ تُشير إلى قُدرة الله المطْلقة ، وسَعَة مُلكه ، وعَظَمَة سُلطانه . وهذا يُشير إلى غِناه واستغنائه عن كل شيء . كُل شَيء يحتاج إلى الله ، واللهُ لا يحتاج شيئًا، لأنه الغنيُّ الْمُستغني . كُل ما في السماوات وما في الأرض ، لله وَحْدَه ، مِلْكًا وخَلْقًا وعبيدًا . لا شريك للهِ في مُلكه وسُلطانه . وهو الْمُتفرِّد بالخلق والإيجاد والإحياء والإماتة والإثابة والتعذيب .

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٧٠) : ((وإيراد كلمة ﴿ ما ﴾ إمَّا لتغليب غير العقلاء على العقلاء ، وإمَّا لتنزيلهم منزلة غيرهم ، إظهارًا لحقارتهم في مقام بيان عَظَمَته تعالى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما عِندَكُم يَنفَدُ وما عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾[النَّحْل : ٩٦] .

ما عِند الناس (في الدنيا) ينتهي وينقضي وينقطع ، لأنه محصور ومحدود . والدنيا دارٌ فانية زائلة ، وما فيها يَفنى . أمَّا ما عِند الله مِن الأجر والكرامة والنعيم والثواب الْمُتمثِّل في الجنة ، فهو باقٍ دائم ، لا يَنتهي ، ولا يَنقطع ، لأن الآخرة هي الدار الباقية التي لا تفنى ولا تزول . ونعيمُ أهل الجنة باقٍ ودائم ومُتَّصل ، بلا انقطاع ولا انفصال .

إن الشيء الذي ينتهي ويَزول يُعتبَر تافهًا حقيرًا مهما بَلَغَ مِن الكثرة . وإن الشيء الذي لا يَنتهي ولا يَزول يُعتبَر عظيمًا جليلاً ، مهما كان قليلاً . ولو كانت الدنيا مِن ذهب ، والآخرة مِن حديد ، لَفَضَّلَ العاقلُ الحديدَ الباقي على الذهب الزائل . فما بالُكَ والدنيا تافهة حقيرة زائلة ، والآخرة عظيمة جليلة باقية ؟! . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٥٤) : ((فَبَيَّنَ الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة، بأن هذه تنفد وتَحول ، وما عِند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت ، لا يزول لِمَن وفى بالعهد ، وثبت على العَقْد)) اهـ .

المال يَنفدُ حِلُّه وحَرامُه يَوْمًا وتبقى في غَدٍ آثامُهُ
لَيْسَ التقيُّ بِمُتَّقٍ لإِلَهِهِ حتى يَطيبَ شرابُه وطعامُهُ

....

هَب الدنيا تُساق إليك عَفْوًا أليسَ مَصيرُ ذَاكَ إلى انتقالِ
وما دُنياكَ إلا مِثْل فَيْءٍ أظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بالزوالِ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ أنتُمُ الفُقراءُ إلى اللهِ واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحميدُ ﴾[فَاطِر : ١٥].

يا أيها الناسُ ، أنتم المحتاجون إلى الله ، والفقراء إلَيه . تحتاجون إليه في بقائكم وجميع حالاتكم، وتحتاجون إليه في أمور دِينكم ودُنياكم وآخرتكم ، وهو لا يَحتاج إليكم . فاعبدوه وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ، يُخرجكم مِن الفقر إلى الغِنى ، ومِن الفاقة والحاجة إلى رَغَد العَيش ونعيمه . واللهُ الغنيُّ عن كل شيء ، وكُل شيء يحتاج إليه . وهو سُبحانَه الْمُستغني على الإطلاق ، أنعمَ على عباده وتفضَّلَ عليهم ، وهو غنيٌّ عنهم وعن عبادتهم ، وغَير مُحتاج إليهم . وهو المحمود على نِعَمه ، المستحق للحمد مِن عباده لإحسانه إليهم. فينبغي حَمْدُه وشُكره على آلائه ونِعَمه وعطاياه. وكُل النِّعَم مِن الله وَحْدَه ، فهو الْمُنْعِم على الناس ، الْمُتَفَضِّل عليهم .

والخلقُ كُلُّهم بلا استثناء محتاجون إلى الله في حركاتهم وسَكَناتهم . ووجودُهم باللهِ تعالى ، ولا بقاء لهم إلا بالله . أمَّا اللهُ تعالى فهو قائمٌ بذاته ، غنيٌّ بذاته ، مُسْتَغْنٍ بذاته عن كُل شيء . وينبغي على الإنسان أن يَكون فقيرًا إلى الله ، غَنِيًّا به عمَّن سِواه ، وهذه هي حقيقة الإيمان .

وتعريف ﴿ الفُقراءُ ﴾ ليس للإهانة والتحقير، وإنما للمُبالَغة في فقرهم، وتصوير شِدَّة احتياجهم وافتقارهم إلى الله الغنيِّ عنهم . إنهم مُفتقِرون إليه أشدَّ الافتقار ، ومحتاجون إليه في كل أحوالهم . ولا يَقْدِرون على الاستغناء عنه ، سُبحانَه وتعالى .

وَذِكْر ﴿ الحميدُ ﴾ للدَّلالة على أن غِنى الله نافع للناس، فهو يُغنيهم ويُنعِم عليهم ، ولا يَبخل، ولا يُخبِّئ المالَ خَوْفًا من الفقر والحاجة . إن الله جوادٌ كريم ، يُنفِق على عباده ، ويَتفضَّل عليهم بأنواع النِّعَم ، ويَنفع الناسَ بِغِناه . وليس كُل غنيٍّ نافعًا بِغِناه [90].

(٩٠) قال النسفي في تفسيره (٣/ ٣٣٩) : ((قال سهل : لَمَّا خلق الله الخلق حَكَم لنفْسه بالغِنى ، ولهم بالفقر، فمن ادَّعى الغِنى حُجِبَ عن الله، ومَن أظهرَ فقره أوصله فقره إليه، فينبغى للعبد أن يكون =

وقال الزمخشري في الكشَّاف (١/ ١٠٣٤) : ((فَإن قُلت : لِمَ عَرَّفَ الفقراء ؟، قُلت : قصد بذلك أن يُرِيَهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هُم جِنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كُلهم مُفتقرين إليه من الناس وغَيرهم... ولو نَكَّرَ لكان المعنى أنتم بَعض الفقراء . فإن قُلت : قد قُوبِل الفقراء بالغِنى، فما فائدة ﴿ الحميدُ ﴾ ؟ ، قلت : لَمَّا أثبتَ فقرهم إليه وغِناه عنهم ، وليس كُل غنيٍّ نافعًا بغناه ، إلا إذا كان الغني جوادًا مُنْعِمًا ، فإذا جادَ وأنعمَ حَمِدَه الْمُنْعَم عليهم ، واستحقَّ عليهم الحمد ، ذَكَرَ ﴿ الحميدُ ﴾ ليدل به على أنه الغنيُّ النافع بِغِناه خَلْقَه، الجواد الْمُنعِم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يَحمدوه)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢٧) : ((يُخبِر تعالى بِغِناه عمَّا سِواه ، وبافتقار المخلوقات كُلِّها وتذللها بين يديه ، فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ أنتُمُ الفُقراءُ إلى اللهِ ﴾ ، أي : هُم مُحتاجون إليه في جميع الحركات والسَّكَنات ، وهو تعالى الغنيُّ عنهم بالذات ، ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحميدُ ﴾ أي : هو المنفرِد بالغِنى ، وَحْدَه لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يَفعله ويقوله ويُقدِّره ويُشرِّعه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَسألهُ مَن في السماواتِ والأرضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأنٍ ﴾[الرحمن: ٢٩] .

كُلُّ مَن في السماوات والأرضِ ، مُفتقِر إلى الله ، ومُحتاج إليه . يَطلبون مِنه العَون والرِّزق والمساعدة والهداية والتوفيق بلسان المقال أو بلسان الحال . وهذا يُشير إلى غِنى الله واستغنائه عن كُل شَيء، وافتقار الخلق إليه ، وخُضوعهم له في كل أحوالهم .

إن الملائكة والإنس والجن يَسألون اللهَ لأنهم مُحتاجون إليه، ولا يَقْدِرون على الاستغناء عنه ، وهو غنيٌّ عنهم . إنهم فقيرون إليه ، وعبيد له ، وخاضعون لأمره وحُكمه وحِكمته . واللهُ تعالى في كُل لحظة هو في شأن مِن شُؤون خَلْقه : يُحيي ويُميت ، يُغنِي ويُفْقِر، يُعِز ويُذِل ، يَشفي ويُمْرِض ، إلى غَير ذلك مِن أفعاله التي يُظْهِرها للناس ، كَي يُوحِّدوه ويُعظِّموه ويُطيعوه .

=مُفْتَقِرًا بالسِّر إليه، ومُنْقَطِعًا عن الغير إلَيه، حتى تكون عبوديته محضة ، فالعبودية هى الذل والخضوع ، وعلامته أن لا يَسأل مِن أحد. وقال الواسطي: مَن استغنى بالله لا يفتقر، ومن تعزَّز بالله لا يَذِل. وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غَنِيًّا بالله، وكلما ازداد افتقارًا ازدادَ غِنى . وقال يحيى: الفقر خير للعبد من الغنى، لأن المذلة في الفقر، والكِبر في الغِنى، والرجوع إلى الله بالتواضع والذلة خَير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال.وقِيل: صِفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إليه في كل شيء، والرجوع إليه مِن كل شيء . وقال الشبلي : الفقر يَجُرُّ البلاء ، وبلاؤه كُلُّه عِز)) .

والآيةُ ﴿ هُوَ في شَأنٍ ﴾ تعني أن اللهَ يُظْهِر أفعالَه كما قَدَّرها في الأزل مِن إحياء وإماتة، وهداية وإضلال، وإعزاز وإذلال، وإغناء وإفقار ... إلخ . والشأنُ _ في اللغة _ هو الْخَطْب العظيم .

وفي صَفوة التفاسير (٥٢/١٧): ((قال المفسِّرون : هي شؤون يُبديها ولا يَبتديها ، أي : يُظْهِرها للخلق ، ولا يُنشِئها من جديد ، لأن القلم جَفَّ على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، فهو تعالى يَرفع مَن يشاء، ويَضع مَن يشاء ، ويَشفي سقيمًا ، ويُمْرِض سليمًا، ويُعِز ذليلاً ، ويُذِل عزيزًا ، ويُفْقِر غَنِيًّا ، ويُغنِي فقيرًا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١١٤):((وقال الحسين بن الفضل: هو سَوق المقادير إلى المواقيت. قال مقاتل: وسبب نزول هذه الآية أن اليهود قالت إنَّ الله لا يَقضي في يوم السبت شَيْئًا، فَنَزلت: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأنٍ ﴾)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٤٤): ((قَوله تعالى: ﴿ يَسألهُ مَن في السماواتِ والأرضِ ﴾ . قِيل : المعنى يسأله مَن في السماوات الرحمة ، ومَن في الأرض الرزق. وقال ابن عباس وأبو صالح: أهل السماوات يسألونه المغفرة ، ولا يسألونه الرزق . وأهل الأرض يسألونهما جميعًا . وقال ابن جُرَيج: وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعًا من أهل السماء وأهل الأرض ، لأهل الأرض)) اهـ .

وروى ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٦٤) : عن أبي الدَّرداء عن النبيِّ ﷺ في قَوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأنٍ ﴾ . قال: ((مِن شأنه أن يَغفِر ذنبًا ، ويُفرِّج كَرْبًا ، ويَرفع قَوْمًا، ويَضَع آخرين)).

١٧_ حَمْده وتسبيحه :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ [الفاتحة : ٢] .

الشُّكرُ الخالصُ لله وَحْدَه لا شريك له.أنعمَ على عباده بالنِّعَم الكثيرة الْمُتنوِّعة التي لا تُحصَى، ومنحهم الصحة والعافية والأموال والأولاد ، وبيَّن لهم طريقَ الهداية ، وهداهم إلى سبيل النجاة من عذاب النار، والفوز بنعيم الجنة ، رحمةً بهم وتفضُّلاً عليهم، وهو الغنيُّ عنهم ، لا يَحتاج إليهم، وهُم يحتاجون إليه .

و﴿ الحمدُ للهِ ﴾ ثناء على الله وتعظيمٌ له ، ومدحٌ له ، واعتراف بفضله ونِعَمه الدينية والدنيوية على خَلْقه وعبيده . وهذه العبارةُ المقدَّسةُ أفضل مِن الدنيا وما فيها ، لأن الدنيا فانية ، وهذه العبارة باقية خالدة . واللهُ تعالى قد أثنى بالحمد على نَفْسِه في الأزل ، وحَمِدَ نَفْسَه بنفْسه ، لِعِلْمه أن عباده عاجزون عن حَمْده حق الحمد . ولا يَعْرِف اللهَ إلا الله .

وهو سُبحانَه رَبُّ كُل شيء ومالكه ، رَبُّ السماوات والأرض وما فيهما ، وما بينهما ، وَرَبُّ الملائكة والإنس والجن والحيوانات والكائنات الحية والجمادات . وكلمة ﴿ العَالَمِين ﴾ تشمل جميع المخلوقات بلا استثناء . وكُل ما سِوى الله مخلوقٌ وعبدٌ له .

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ١٧٥) : ((أجمعَ المسلمون على أن الله محمود على سائر نِعَمه، وأن مِمَّا أنعمَ اللهُ به الإيمان ، فدل على أن الإيمان فِعله وخَلْقه ، والدليل على ذلك قَوله : ﴿ رَبِّ العَالَمِين ﴾ والعَالَمُون جُملة المخلوقات، ومِن جُملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرية إنه خَلْق لهم... . الحمد _ في كلام العرب _ معناه الثناء الكامل ، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سُبحانَه يستحق الحمد بأجمعه ، إذ له الأسماء الحسنى والصفات العُلا ... . قال علماؤنا : الحمد أعمُّ مِن الشُّكر ، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص ، إنما يكون مكافأة لِمَن أولاكَ معروفًا ، فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر ... . فمعنى : ﴿ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ ، أي: سبق الحمد مِنِّي لنفْسي قبل أن يَحمدني أحد مِن العالَمِين ، وحَمْدي نَفْسي لنفْسي في الأزل لَم يكن بِعِلَّة ، وحَمْدي الخلق مَشُوب بالعِلَل . قال علماؤنا : فَيُسْتَقْبَح من المخلوق الذي لَم يُعْطَ الكمال أن يَحمد نَفْسَه ، ليستجلب لها المنافع ، ويدفع عنها المضار . وقِيل : لَمَّا عَلِمَ سُبحانَه عَجْز عباده عن حَمْده ، حَمِدَ نَفْسَه لنفْسه في الأزل ... وقيل : حَمِدَ نَفْسَه في الأزل لِمَا عَلِمَ مِن كثرة نِعَمه على عباده ، وعجزهم عن القيام بواجب حَمْده ، فَحَمِدَ نَفْسَه عنهم ، لتكون النعمة أهنأ لديهم ، حيث أسقطَ عنهم به ثِقْل المِنَّة)) اهـ . وفي صحيح مسلم (١/ ٢٩٦) : أن النبيَّ ﷺ قال: ((قال اللهُ تعالى: قَسَمْتُ الصلاةَ بَيْني وبَيْنَ عَبدي نِصْفَيْن، وَلِعَبدي ما سَأل، فإذا قال العبدُ: ﴿ الحمد لله رب العالَمين ﴾ ، قال اللهُ تعالى: حَمِدَني عَبْدي ...)) . وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٥) : عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ الله لَيَرْضَى عن العبد أن يَأكُلَ الأكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها ، أو يَشْرَبَ الشَّربةَ فَيَحْمَدَهُ عليها)) . والأكلةُ هي المرة الواحدة من الأكل كالغداء والعَشاء . وفي الحديث استحباب حمد الله بعد الأكل والشُّرب.وإذا اكتفى بالقول: الحمد لله ، فقد طَبَّقَ السُّنة .

و"الحمدُ لله" أعظم من كل النِّعَم وأفضل مِنها. فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : ((ما أنعمَ اللهُ على عبد نِعمة ، فقال : الحمد لله ، إلا كان الذي أعطاه أفضل مِمَّا أخذ)) [91].

---

(٩١) رواه ابن ماجة في سُننه (٢/ ١٢٥٠) . وصحَّحه السيوطي في الدُّر المنثور (١/ ٣١).

إذا حَمِدَ العبدُ اللهَ على نِعمةٍ بِقَولِه : الحمد لله ، فإن ما أدَّاه وفَعله من الحمد أعظم مِن النعمة، وأفضل منها.وهذا يُشير إلى أن تعظيم الله ومدحه أفضل من كل النِّعَم والعطايا والآلاء،ولا يعني أن فِعل العبد أفضل مِن فِعل الله ، وإنما يعني أن تعظيم الله والثناء عليه فوق كُل النِّعَم المعنوية والمادية.

وإذا وَفَّقَ اللهُ العبدَ لحمده والثناء عليه ، فهذه أعظم نِعمة على الإطلاق ، وأعظم مِن الدنيا وما فيها ، لأن أجر " حَمْد الله " باقٍ لا يَفنى ، أمَّا الدنيا فتفنى وتزول .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٢٨) : ((لأن قَول: الحمد لله ، نِعمة من الله ، والمحمود عليه نِعمته أيضًا ، وبعض النِّعَم أجَلُّ مِن بعض ، فنعمة الشكر أجل من نعمة مال أو جاه أو ولد، ولا يستلزم ذلك كَون فِعل العبد أفضل مِن فِعل الله ، وإن دل على أن فِعل العبد للشُّكر قد يكون أفضل مِن بعض مفعول الله ، وفِعل العبد هو مفعول الله ، ولا رَيْب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض كما بَيَّنه البَيهقي وغَيره كابن القَيِّم . فما نُقِل عن الإمام الوَرِع ابن عُيَينة أنه عزا المتن إلى الحسن ، ثُمَّ قال : هو خطأ ، لأن فعل العبد ليس بأفضل من فعل الرَّب، كما أنه ذُهل عن كَونه حديثًا مرفوعًا ، فقد غَفَلَ عن معناه المقرَّر ، فَتَدَبَّر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سُبحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشركون ﴾[النَّحْل : ١] .

تَنْزِيهًا لله وتعظيمًا له ، وعُلُوًّا له عن الشِّرك الذي كان مُنتشرًا في قُرَيش والعرب كُلِّهم . لقد نَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عَن شِرك المشركين وعبادتهم الأصنام والأوثان . تعاظَمَ اللهُ وَتَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ وتعالى بالصفات الحميدة عَن وصف المشركين بأن له شُركاء وأندادًا. واللهُ أعظم مِن أن يكون له شريك.

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٦١) : ((قَوله تعالى : ﴿ سُبحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشركون ﴾ ، أي: تَنْزيهًا له عمَّا يصفونه بِه مِن أنه لا يَقْدِر على قيام الساعة. وذلك أنهم يقولون : لا يَقْدِر أحد على بعث الأموات، فوصفوه بالعجز الذي لا يُوصف بَه إلا المخلوق، وذلك شِرْك. وقِيل : ﴿ عَمَّا يُشركون ﴾ أي: عن إشراكهم. وقِيل : " ما " بمعنى " الذي" أي: ارتفع عن الذين أشركوا به)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَبَّحَ للهِ ما في السماواتِ والأرضِ ﴾[الحديد : ١] .

كُل شَيء سِوى اللهِ مخلوقٌ للهِ ، وخاضع لأمره وحُكمه ، ويُسبِّحه ويُمجِّده ويُصلِّي له، ويُنَزِّهه عمَّا لا يليق به ، ويُعظِّمه ، ويُقِر بألوهيته ورُبوبيته ، ويستسلم لطاعته . والتسبيحُ تَنْزيه الله عن كل سُوء ، اعتقادًا وقَولاً وفِعلاً . يُنَزِّه اللهَ ويُعظِّمه ويُمجِّده كُلُّ شيء: الملائكةُ والإنس والجن والحيوانات والنباتات والجمادات. يعني : كُل شيء مِن ذِي رُوح ، وغَير ذِي رُوح .

والتسبيحُ قِسمان : تسبيحٌ بلسان المقال ، كتسبيح الملائكة والإنس والجن. وتسبيحٌ بلسان الحال ، كتسبيح غَيرهم . وكُل شيء في الوجود يدل على وجود الخالق ووَحدانيته وألوهيته .

وقال الصاوي في حاشيته على الجلالين (٤/ ١٦٨) : ((والتسبيح تَنْزيه المولى عَن كُل ما لا يليق به قولاً وفِعلاً واعتقادًا . مِن: سَبَحَ في الأرضِ والماءِ إذا ذهب وأبعد فيهما ، وتسبيح العقلاء بلسان المقال ، وتسبيح الجماد بلسان الحال ، أي إن ذاتها دالة على تَنْزيه صانعها عَن كُل نقص ، وقيل : بلسان المقال أيضًا ، ﴿ ولكن لا تَفْقَهُون تَسبيحَهُم ﴾)) اهـ .

وقال الخازن في تفسيره (٤/ ٢٩) : ((تسبيح العقلاء تَنْزيه الله عز وجل عن كل سُوء ، وعمَّا لا يليق بجلاله ، وتسبيح غير العقلاء مِن ناطق وجماد اختلفوا فيه ، فقيل : تسبيحه دَلالته على صانعه ، فكأنه ناطق بتسبيحه . وقِيل : تسبيحه بالقول ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وإن مِن شَيء إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تَفْقَهُون تَسبيحَهُم ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، أي : قولهم . والحق أن التسبيح هو القول الذي لا يصدر إلا مِن العاقل العارف بالله تعالى ، وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان : أحدهما أنها تدل على تعظيمه وتَنْزيهه ، والثاني أن جميع الموجودات بأسرها مُنقادة له، يتصرَّف فيها كيف يشاء ، فإن حَمَلْنا التسبيح على القول كان المراد بقوله : ﴿ سَبَّحَ للهِ ما في السماواتِ والأرضِ ﴾ الملائكة والمؤمنون العارفون بالله. وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي، فجميع أجزاء السماوات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وغير ذلك ، وجميع ذرَّات الأرضين وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب وغير ذلك ، كلها مُسبِّحة خاشعة خاضعة لجلال عَظَمة الله ، مُنقادة له ، يتصرَّف فيها كيف يشاء . فإن قِيل : قد جاء في بعض فواتح السُّور ﴿ سَبَّحَ للهِ ﴾ بلفظ الماضي ، وفي بعضها : ﴿ يُسبِّح لله ﴾ بلفظ المضارع ، فما المراد ؟ . قلت : فيه إشارة إلى كَون جميع الأشياء مُسَبِّحًا لله أبدًا ، غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مُسَبِّحة أبدًا في الماضي، وستكون مُسبِّحة أيضًا في المستقبل))اهـ. وعن عبد الله بن سلام_ رضي اللهُ عنه _ قال : قَعَدْنا نَفَرٌ مِن أصحاب رسول الله ﷺ ، فَقُلنا: لَو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملناه ، فأنزلَ الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ سَبَّحَ للهِ ما في السماواتِ والأرضِ ﴾ إلى آخر السورة [92].

هذا يدل على فضل تسبيح الله وعِظَم هذه العبادة المقدَّسة ، لِمَا تشتمل عليه مِن تعظيم لله وتَنْزيه له عن كل سُوء ، وتقديس له ، وإثبات لأسمائه الحسنى وصِفاته العُلى .

---

(٩٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٧٨) برقم (٢٣٨٤) ، وصحَّحه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾[الْمُلْك : ١] .

تعالى اللهُ وتعاظمَ وتمجَّدَ وتَقَدَّسَ ، فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا نهاية لدوامه . يَملِك السماوات والأرض وما فيهما ، ويَملِك الدنيا والآخرة وما فيهما . إرادته نافذة في كل شيء . وكل شيء خاضع لأمره وحُكمه،وهو الْمُتصرِّف في جميع المخلوقات وَفْق حِكمته ومشيئته. لا أحد يُعارِضه ولا يُناقشه ولا يَعترض عليه، ولا يُسأل عمَّا يَفعل، لحكمته وعدله وقُوَّته وسُلطانه ومجده .

وهو القادرُ على فِعل كُل شيء ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا مُساعِد، ولا مُنافِس، ولا مُنازِع . لا يَمنعه مانع ، ولا يُعجِزه شيء ، قُدرته مُطْلقة ، يتصرَّف في مُلكه كما يُريد . يُؤتي الْمُلْك مَن يشاء ، ويَنْزعه مِمَّن يشاء . يُحيي ويُميت،ويُعِز ويُذِل، ويُغني ويُفقِر، ويُعطي ويَمنع،ويُنعِم ويَنتقم.

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٨٠) : ((﴿ تَبَارَكَ ﴾ تَفَاعَلَ مِن البَرَكة . وقال الحسن : تقدَّسَ . وقِيل : دامَ ، فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخِر لدوامه .﴿ الذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ أي: مُلْك السماوات والأرض في الدنيا والآخرة. وقال ابن عباس : بيده الْمُلْك ، يُعِز مَن يشاء ، ويُذِل مَن يشاء، ويُحيي ويُميت، ويُغني ويُفقِر،ويُعطي ويَمنع.وقال محمد بن إسحاق: له مُلْك النُّبوَّة التي أعزَّ بها مَن اتَّبعه، وأذلَّ بها مَن خالفه. ﴿ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ مِن إنعام وانتقام)).

وروى الحاكم في المستدرَك (١/ ٧٥٣) وصحَّحه : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((سُورة من القرآن ثلاثون آية ، شَفعت لِرَجل حتى غُفِر له ، وهي: ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾)) . وروى الحاكم أيضًا في المستدرَك (١/ ٧٥٣) وصحَّحه : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : ((وَدِدْتُ أنها في قلب كُل مؤمن)). يعني: ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾)) .

وهذا يدل بوضوح على عَظَمة سُورة الْمُلْك وفضلها الكبير ، لِمَا تشتمل عليه مِن معاني تعظيم الله وتقديسه وتَنْزيهه ومَدْحه ، وبيان آياته الباهرات ، وإظهار حُجَجه وبراهينه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى ﴾[الأعلى : ١] .

نَزِّهْ رَبَّكَ يا محمد عن صفات النقص ، وعن كُل سُوء ، وعن كُل ما لا يليق به ، وعَظِّمْهُ فهو الربُّ العليُّ الأعلى ، الذي لا يوجد أعلى مِنه ولا أعظم مِنه . واذكره وأنتَ خاشعٌ مُعَظِّمٌ له . ولا شَكَّ أن أساس الإسلام هو تعظيمُ اللهِ وتَنْزيهه وتقديسه واحترام ذِكْره .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩٩) : ((﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى ﴾ يعني : قُل: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى . وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين . وقال قوم : معناه : نَزِّهْ رَبَّكَ الأعلى

عمَّا يصفه به الملحدون . وجعلوا الاسم صِلة . ويَحتج بهذا مَن يَجعل الاسم والمسمَّى واحدًا ، لأن أحدًا لا يقول: سُبحانَ اسم الله، وسُبحانَ اسمِ رَبِّنا ، إنما يقول : سُبحانَ الله ، وسُبحانَ رَبِّنا ، فكان معنى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى ﴾ : سَبِّحْ رَبَّك . وقال آخرون : نَزِّهْ تسمية ربك بأن تذكره وأنت له مُعظِّم ، ولِذِكْره مُحْتَرِم، ولأوامره مُطَاوِع. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية . وقال ابن عباس : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى ﴾ أي : صَلِّ بأمر ربك الأعلى)) اهـ .

وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قَرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى﴾،قال:((سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى))[93].

١٨_ رحمته :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيكم ورَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيطانَ إلا قَليلاً ﴾ [النِّساء: ٨٣].

الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين : وَلَوْلا فضل الله عليكم بإرسال رسوله محمد ﷺ إليكم ، ورحمته بإنزال القُرآن عليكم وهدايتكم إلى الحق ، لَبَقيتُم على الكفر والضلال ، إلا قليلاً منكم .

لقد تفضَّلَ اللهُ على المؤمنين بالإسلام ، ورحمهم بإنزال القُرآن الذي أخرجهم من الظلمات إلى النُّور. ولولا الرحمة الإلهية العظيمة لاتَّبعَ الناسُ الشيطانَ فيما يأمرهم به من الفواحش والآثام .

والمقصود بالقليل هُم الذين اهْتَدَوْا إلى الحق قبل مجيء النبيِّ ﷺ ونزولِ القُرآن ، مِثل : زيد ابن عَمْرو بن نُفَيل ، ووَرَقة بن نَوْفَل وقُس بن ساعدة ، وغيرهم . وهؤلاء كانوا مُوحِّدين للهِ في الجاهلية . فقد تفضَّلَ اللهُ عليهم ورحمهم بأن منحهم عقولاً نيِّرة ، قادتهم إلى توحيد اللهِ ، واتِّباع الحق ، ورفض الشِّرك. أي: إنهم اهْتَدَوْا بعقولهم لتوحيد الله بدون رسول ولا كتاب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤٨) : ((في المراد بالفضل أربعة أقوال : أحدها أنه رسول الله ، والثاني الإسلام ، والثالث القرآن ، والرابع أُولو الأمر.وفي الرحمة أربعة أقوال: أحدها أنها الوَحْي ، والثاني اللطف، والثالث النِّعمة ، والرابع التوفيق ... . وقال بعض العلماء : المعنى : لَوْلا فضل الله بإرسال النبيِّ إليكم لضللتُم إلا قليلاً منكم ، كانوا يستدركون بعقولهم معرفة الله ، ويعرفون ضَلال مَن يَعبد غَيْرَه)) اهـ .

---

(٩٣) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٩٥) برقم (٩٧٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحمةَ ﴾[الأنعام : ١٢] .

إن اللهَ هو الرحمن الرحيم ، ألزمَ نَفْسَه المقدَّسة الرحمةَ تفضُّلاً على عباده وإحسانًا إليهم . وقد أوجبَ الرحمةَ على ذاته المقدَّسة بالذات ، بلا واسطة ولا بتوسُّط شَيء . كتب على نفسه الرحمة ، أن يَرحم التائبين من الذنوب ، الراجعين إليه بالتَّوبة والإنابة .

ومِن رحمة الله بعباده أن أرسلَ إليهم الرسل ، وأنزلَ عليهم الكتب ، وأقامَ لهم الأدلةَ والبراهين على وجوده ووَحدانيته، وأمهلهم على الكفر والضلال والمعاصي والآثام،وأعطاهم الفُرصَ الكثيرة لتصحيح مسارهم ، وفتح لهم باب التوبة ، ووعدهم بقبول التائبين ، ومغفرة ذنوبهم . وكُل هذا لِيُخرجهم من الظلمات إلى النُّور ، ويُنعِم عليهم بالسعادة الأبدية في الجنة التي لا تَفنى ولا تَزول .

لقد قضى اللهُ على نفسه الرحمةَ ، وأوجبها على ذاته العَلِيَّة ، فضلاً منه وتكرُّمًا . وهذا يُشير إلى رحمته ولُطفه وتلطُّفه في دعوة الناس إلى التوبة والإيمان . وقد وعد اللهُ عباده بالرحمة والمغفرة تفضُّلاً مِنه ، وتكرُّمًا عليهم ، لذلك أمهلهم ، ومَنحهم الفرصة تِلْو الفرصة ، ولَم يُعاجلهم بالعقوبة والعذاب . وهذا يدل على سَعَة رحمة الله ، وشُمولها لجميع خَلْقه ، وأنه سُبحانَه رحيم بعباده ، ولطيف بهم ، لا يُعاجلهم بالعقوبة ، وإنما يُمهلهم . والوعدُ الإلهيُّ واقعٌ لا مَحالة ، واللهُ لا يَتراجع في كلامه ، ولا يُخْلِف وَعْدَه . إن خَبر الله حق ، ووعده صِدق .

والآيةُ تُمثِّل دَعوةً إلهيةً كريمة للناس أن يَعودوا إلى الله بالتوبة والإنابة ، فهو سُبحانَه يَقبل التائبين ، ويَعفو عنهم ، ويَغفر لهم .

وهكذا ، تتجلى رحمة الله بعباده ، وإحسانه إليهم ، ومغفرة ذنوبهم ، ومنحهم الأجر الجزيل والدرجات الرفيعة . واللهُ يَتَوَدَّد إلى خَلْقه ، وهو غنيٌّ عنهم ، لا يحتاجهم ، وإنما هُم الذين يَحتاجونه .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٦٣) : ((وذِكر النَّفْس هنا ، عبارة عن وجوده ، وتأكيد وعده ، وارتفاع الوسائط دُونه . ومعنى الكلام الاستعطاف منه تعالى للمُتَوَلِّين عنه ، إلى الإقبال إليه، وإخبار منه سُبحانَه بأنه رحيم بعباده، لا يَعْجَل عليهم بالعقوبة، ويَقبل منهم الإنابة والتوبة)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩): ((قال ابن عباس : قضى لنفسه أنه أرحم الراحمين. قال الزَّجاج : ومعنى ﴿ كَتَبَ ﴾ أوجبَ ذلك إيجابًا مُؤَكَّدًا . وجائز أن يكون : كتب في اللوح المحفوظ، وإنما خُوطِب الخلق بما يَعقلون ، فهم يعقلون أن توكيد الشَّيء المؤخَّر أن يُحفَظ بالكتاب.وقال غَيره : رحمته عامة ، فمنها تأخير العذاب عَن مُستحقه ، وقبول توبة العاصي)) اهـ.

وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لَمَّا قَضى اللهُ الخلقَ ، كَتَبَ في كتابه ، فهو عِندَه فوق العرش ، إن رَحمتي غَلَبَتْ غَضبي)) (94).

لَمَّا خَلَق اللهُ الخلْقَ وأحكمَه وفَرَغَ مِنه ، أمرَ القلم أن يَكتب في اللوح المحفوظ ، إن رحمة الله غَلبت غضبه وسَبَقته، أي إن الله هو الرحمن الرحيم، رحمته أكثر مِن غضبه، لأنها وَسِعَتْ كُلَّ شَيء. واللهُ تعالى لَم يَخلق الخلقَ لِيُدمِّرهم ويُعذِّبهم، وإنما خَلقهم لِيَرحمهم،ويَمنحهم الخلود في الجنة. وقد رَحِمَ اللهُ عبادَه بأن أرشدهم إلى طريق الهداية والحق، وأرادَ لهم الخيرَ والسعادة في الدارين. والرحمةُ الإلهيةُ تتجلى في إرادة الثواب والإحسان ، والغضب الإلهيُّ يتجلى في إرادة العقاب والانتقام .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٢/ ٢٥٨) : (((إن الله تعالى لَمَّا) أي حِين (خلق الخلق كتب بيده على نفْسه) أي أثبتَ في عِلمه الأزليِّ . قال القاضي : يعني أنه لَمَّا خَلق الخلق حكم حُكمًا جازمًا ، ووَعد وعدًا لازمًا لا خُلْف فيه، فَشَبَّه حُكم الجازم الذي لا يعتريه نسخ ولا يتطرق إليه تغيير بِحُكم الحاكم إذا قضى أمرًا ، وأراد إحكام أمر ، عقد عليه سِجِلاً، وحفظه ليكون حُجَّة باقية محفوظة عن التبديل والتحريف (إن رحمتي تغلب غضبي) أي غلبت عليه بكثرة آثارها . ألا ترى أن قِسط الخلق من الرحمة أكثر مِن قِسطهم من الغضب، لِنَيلهم إيَّاها بلا استحقاق، وأن قلم التكليف مرفوع عنهم إلى البلوغ، ولا يَعْجَل بالعقوبة عليهم إذا عَصَوْه، بل يرزقهم ويَقبل توبتهم. وما تَعَلَّقَ بالرحمة والفضل أحب إليه مِن فِعل ما تعلق بالغضب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف : ١٥٦] .

لقد عمَّت رحمةُ اللهِ خَلْقَه كُلَّهم بلا استثناء . والرحمةُ صِفة لله ، وصِفات الله قديمة قِدَم ذاته المقدَّسة . ورحمةُ الله شملت المؤمن والكافر في الدنيا ، فالكافرُ يُمنَح الأموال والأولاد ورَغَد العَيش، ولا يُعَاجَل بالعقوبة والعذاب . أمَّا في الآخرة فهي للمؤمنين خاصَّة . وليس للكافرين إلا عذاب النار، بسبب كفرهم ومعاصيهم .

ورحمة الله عامَّة وشاملة وواسعة ، لكنَّها مخصوصة في قَوله : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، والمقصود مَن سَبَقَ في عِلم الله أن يَرحمهم . فالرحمةُ الإلهيةُ عامَّة مِن حيث سَعَتها وشُمولها ، لكنها خاصة بِمَن كُتِبَت له .

---

(٩٤) متفق عليه.البخاري (٣/١١٦٦) برقم (٣٠٢٢) ، ومسلم (٤/ ٢١٠٧) برقم (٢٧٥١).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٧١): ((قَوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ في هذا الكلام أربعة أقوال : أحدها أن مَخْرَجه عام،ومعناه خاص. وتأويله: ورحمتي وَسِعَت المؤمنين مِن أُمَّة محمد ﷺ ، قاله ابن عباس . والثاني أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا، والخصوص في الآخرة، وتأويلها: ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا البَر والفاجر، وفي الآخرة هي للمُتَّقين خاصَّة، قاله الحسن وقتادة . فعلى هذا معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يُرزَق ويُدفَع عنه . والثالث أن الرحمة التَّوبة، فهي على العموم، قاله ابن زيد . والرابع أن الرحمة تَسَع كُل الخلق إلا أن أهل الكفر خارجون منها، فَلَوْ قُدِّر دخولهم فيها لَوَسِعَتْهُم، قاله ابن الأنباري)) اهـ .

وروى ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٤٩٢) : عن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ أن رسول الله ﷺ قال : ((افتخرت الجنةُ والنار، فقالت النار : يَدخلني الجبارون والملوك والأشراف، وقالت الجنة: يَدخلني الفقراء والمساكين، فقال الله جَلَّ وعلا للنار : أنتِ عذابي أُصِيب بِكِ مَن أشاء، وقال للجنة : أنتِ رحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيء ، ولكلِّ واحدة مِنكما مِلْؤُها)) .

إذا أدخلَ اللهُ العبدَ النارَ فبعدله ، وله الْحُجَّة . وإذا أدخله الجنة ، فبفضله ، وله المِنَّة . وكما أن الله واسع الرحمة وعظيم المغفرة ، فهو شديد العذاب والانتقام . والإنسانُ يختار طريقَه بإرادته الشخصية ، دُون ضغط ولا إكراه ، ووَفْق قراره الشخصي ، يَتحدَّد مصيره ، إمَّا الجنة أو النار .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٠٨) : عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ للهِ مائةَ رحمة ، أنزلَ مِنها رحمةً واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوَام ، فَبِها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تَعطِفُ الوحشُ على ولدها ، وأخَّرَ اللهُ تِسْعًا وتسعين رحمة ، يَرحم بها عِبادَه يوم القيامة)) .

وهذا يدل على عَظَمة الرحمة الإلهية وسَعَتها، وأنها بلا نهاية . واللهُ سُبحانَه خلق العبادَ لِيَرحمهم، وليس لِيُهْلِكهم ويُعذِّبهم . واللهُ مَوصوفٌ بالرحمة . ولكن هناك بعض العباد يَختار الطريقَ الخاطئ، ويَرفض رحمة الله ، وذلك بالكفر والضلال والفُجور ، وعليه أن يتحمَّل مسؤولية اختياره ، ويُلقيَ اللوم على نَفْسه ، فقد ظلمها أشدَّ الظلم ، ولَم يَظلمه اللهُ تعالى ، لأن الله مُنَزَّه عن الظلم .

إنَّ لله مائة نوع من الرحمة أو مائة جُزء مِنها . وهذا يدل على الكثرة . والرحمةُ التي جعلها الله في عباده هي مَخلوقة ، كَي يعطفوا على بعضهم البعض، ويتراحموا فيما بينهم ، ضِمن منظومة المشاعر الدافئة والأحاسيس العميقة،والرأفة والحب والمودة.أمَّا الرحمة التي هي صِفة مِن صفات الله، فهي صفة قديمة قائمة بذات الله ، وصفات الله قديمة غَير مخلوقة . إنها قديمة قِدَم ذاته

المقدَّسة ، واللهُ هو الخالق ، وصفاته قائمة بذاته . والخالقُ لا يكون مخلوقًا . إنه يُغيِّر ولا يَتغيَّر ، ولا تَطرأ عليه الحوادث والتغيُّرات . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٢/ ٢٣٥) _ وهو يتحدث عن رواية أخرى للحديث _ : (((إن اللهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ مِئةَ رحمة) أي : أظهر تقديرها يوم أظهر تقدير السماوات والأرض ، وفيه بشرى للمؤمنين ، لأنه إذا حصل من رحمة واحدة في دار الأكدار ما حصل مِن النِّعَم الغِزار ، فما ظَنُّك بباقيها في دار القرار ؟ ... . (فجعل في الأرض منها رحمة) قال القرطبي : هذا نص في أن الرحمة يُراد بها مُتعلق الإرادة ، وأنها راجعة إلى المنافع والنِّعَم (فيها تَعطِف) أي تَحِن وتَرِق وتُشفِق ، وفي المصباح : عَطَفَت الناقة على ولدها عطفًا حَنَّت (الوالدة على ولدها) مِن الآدميين وكُل ذي رُوح ، (والوحش والطير) أي : وغيرهما من كل نوع من أنواع ذوات الأرواح، ولعل تخصيص الوحش والطير لشدة نفورها، والله أعلم بمراد رسول اللهﷺ. قال القرطبي : وحِكمة ذلك تسخير القوي للضعيف ، والكبير للصغير ، حتى يتحفظ نوعه وتتم مصلحته ، وذلك تدبير اللطيف الخبير . (بعضها على بعض، وأخَّرَ تسعًا وتسعين، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة) ، فالرحمة التي في الدنيا يتراحمون بها أيضًا يوم القيامة . قال المهلَّب : الرحمة رحمتان : رحمة من صفة الذات، وهي لا تتعدد. ورحمة من صفة الفعل ، وهي هذه . وقال العارف البوني رضي الله تعالى عنه: الذاتية واحدة، ورحمته المتعدية مُتعددة، وهي كما في هذا الخبر مئة،ففي الأرض منها واحدة يقع بها الارتباط بين الأنواع،وبها يكون حُسن الطِّباع، والميل بين الجن والإنس والبهائم، كُل شكل إلى شكله، والتسعة والتسعون حَظ الإنسان يوم القيامة يَتَّصل بهذه الرحمة، فتكمل مئة فيصعد بها في درج الجنة، حتى ترى ذات الرحيم وتُشاهد رحمته الذاتية)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ يا عِبادِيَ الذينَ أسْرَفوا على أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا إنَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحيم ﴾[الزُّمَر : ٥٣] (95).

---

(٩٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٩٠) : ((في سبب نزولها أربعة أقوال : أحدها أن ناسًا من المشركين كانوا قد قَتلوا فأكثروا، وزَنَوْا فأكثروا ، ثم أَتَوْا رسول الله ﷺ ، فقالوا : إن الذي تدعو إليه لَحَسَن لو تُخبِرنا أن لِمَا عملنا كفارة ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .[والحديث مُتَّفق عليه]. والثاني أنها نزلت في عَيَّاش بن أبي ربيعة والوليد، ونَفَر من المسلمين،كانوا قد أسلموا ثُمَّ عُذِّبوا فافتتنوا، فكان أصحاب رسول الله يَقولون: لا يَقبل اللهُ مِن هؤلاء صَرْفًا ولا عَدْلاً، قوم تركوا دينهم =

هذه دعوة إلهية كريمة للناس كُلِّهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، فهو سُبحانَه يَقبل التائبين ، ويَعفو عنهم ، ويَمنحهم الأجرَ الجزيل ، والكرامة العُظمى في جَنَّته الخالدة الباقية .

وهذه الآيةُ عامة وشاملة لجميع الناس إلى يوم القيامة ، غير مُقيَّدة ولا مُخصَّصة . حيث إن توبة الكافر تَمحو ذَنبه ، والإسلامُ يهدم ما قبله . وتوبةُ العاصي تَمحو ذنبه ، وتُعيده نظيفًا طاهرًا.

أخْبِرْ عبادي يا محمد ، الذين ظلموا أنفسهم وأهلكوها بكثرة المعاصي والآثام والذنوب ، والغرق في الكبائر والفواحش والشهوات المحرَّمة ، والاستكثار منها ، أن لا يَيأسوا مِن رحمة الله ومغفرته ، ولا يَفقدوا الأملَ، ولا يُصابوا بالإحباط، إن الله يَعفو عن الذنوب جميعًا لِمَن شَاء ، مهما كانت كثيرة وهائلة ، والرحمة الإلهية أكبر من كُل الذنوب وأعظم مِن جميع المعاصي .

إن الله واسع المغفرة ، عظيم الرحمة. والآيةُ تَدعو الناسَ إلى عدم اليأس من رحمة الله . ولا شَكَّ أن باب الرحمة والتوبة واسع . وهذه الآيةُ أرجى آية في القُرآن على الإطلاق ، لأنها تتضمَّن وعدًا إلهيًّا قاطعًا وجازمًا بمغفرة كُل الذنوب مهما كانت ، لِمَن تابَ وأنابَ وعادَ إلى الله تعالى . وهذا يدل على سَعَة رحمة الله ، ورأفته بِخَلْقه ، وإحسانه إليهم .

لقد أضافَ اللهُ عباده إلى نَفْسِه المقدَّسة : ﴿ عِباديَ ﴾ وهذا تشريفٌ لهم ، ورفعٌ لمكانتهم ، وإشعارٌ لهم بالقُرب والكرامة والشرف والرِّفعة . ووَفْق عُرف القُرآن فإن كلمة ﴿ عِباديَ ﴾ خاصة بالمؤمنين . ثُمَّ ذَكَرَ الغارقين في الآثام والذنوب ﴿ الذينَ أسْرَفوا على أنفُسِهِم ﴾ ، وهذا يدل على الضعف الإنساني أمام الشهوات والمحرَّمات والمعاصي . وجاءَ النَّهْيُ الإلهيُّ : ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَحمةِ اللهِ ﴾ ، وهذا تحذير شديد من اليأس من رحمة الله ، فرحمة الله أعظم من كل الصغائر والكبائر . وجاءَ التأكيدُ الإلهيُّ على سَعَة رحمة الله ، ووعده الأكيد بغفران الذنوب بلا استثناء، ومهما كانت كبيرة وكثيرة : ﴿ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا ﴾. وبيَّن اللهُ أنه واسع المغفرة، عظيم الرحمة : ﴿ إنَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحيم ﴾ ، كَي يطمئن عباده، وترتاح قلوبهم ، ولا يقلقوا ولا يَنْزعجوا ولا يتضايقوا .

=بعذاب عُذِّبوه، فَنَزلت هذه الآية ، فكتبها عمر إلى عَيَّاش والوليد وأولئك النَّفَر ، فأسلموا وهاجروا ، وهذا قول ابن عمر . والثالث أنها نزلت في وَحْشِيٍّ ، عن ابن عباس . والرابع أن أهل مكة قالوا : يَزعم محمد أنَّ مَن عبد الأوثان وقتل النفس التي حَرَّم اللهُ لَم يُغفَر له ، فكيف نهاجر ونُسلِم وقد فعلنا ذلك ؟ ، فَنَزلت هذه الآية ، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضًا)) .

والآيةُ تدل على أن الله أرحم بالعباد من أمهاتهم ، وأن الإسراف في المعاصي يضرُّ الإنسانَ ، ولا يضرُّ اللهَ تعالى . فاللهُ لا تضرُّه المعاصي ، ولا تنفعه الطاعات . وهو سُبحانَه يَدعو الناس إلى التوبة من المعاصي ، وعمل الطاعات ، لمصلحتهم ومنفعتهم ، فهو غنيٌّ عنهم ، لا يَحتاج إليهم ، ولا يَحتاج إلى تَوبتهم ، ولا يَحتاج إلى طاعاتهم . وهذا يدل على سَعَة رحمة الله ، فهو سُبحانَه يَتَوَدَّد إلى خَلْقه ، وهو لا يَحتاجهم ، إنما هُم الذين يَحتاجونه . هو الغنيُّ عنهم ، وهُم الفقراء إليه. واللهُ تعالى لَم يقل : إنه يغفر الذنوب جميعًا . بَل قال : ﴿ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا ﴾ . ووضعُ لفظ الجلالة ﴿ اللهَ ﴾ موضع الضمير ، لبيان عَظَمته تعالى ، وسَعَة رحمته ، وكَرَمه الذي يتجلى في غُفران جميع الذنوب بلا استثناء. وهذا يعني أن الله هو الْمُستغني الْمُنعِم على الإطلاق.

واللهُ يغفر الذنوب جميعًا ولا يُبالي ، وهذه المغفرة لا تُنقِص مِن مُلْكه شيئًا . وينبغي على الدُّعاة أن يُبشِّروا الناسَ بمغفرة الله وعَفْوه، ويَفتحوا أمامهم باب التوبة ، ولا يَدفعوهم إلى اليأس من رحمة الله . وينبغي أن يُرشدوا الناسَ إلى محبة الله ، والتزام أوامره، دُون أن يُبسِّطوا لهم المعاصي والآثام، ويُميِّعوا الشريعة ويتلاعبوا بها بذريعة أن الله رحمن رحيم . فلا بد من التوازن والموازنة بين الأمور. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٥) : ((هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العُصاة مِن الكَفَرة وغَيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يَغفر الذنوب جميعًا لِمَن تاب منها، ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كَثُرت وكانت مِثل زَبَد البحر ، ولا يَصِح حَمْل هذه على غَير توبة ، لأن الشِّرك لا يُغفَر لِمَن لَم يَتُبْ مِنه)) اهـ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٦٧) : ((واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سُبحانَه ، لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نَفْسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم ، ثُمَّ وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب ، ثُم عَقَّب ذلك بالنهي عن القُنوط مِن الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالنَّهي عن القنوط للمُذنبين غير الْمُسرفين من باب الأَوْلَى وبفحوى الخطاب ، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظَن، فقال: ﴿ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ ﴾ فالألف واللام قد صَيَّرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس، الذي يستلزم استغراق أفراده فهو في قوة ، إن الله يغفر كُل ذنب كائنًا ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشِّرك . ثم لَم يَكتفِ بما أخبر عباده به من مغفرة كُل ذنب ، بل أكَّد ذلك بقوله : ﴿ جَميعًا ﴾ فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظَنَّهم بربهم ، الصادقين في رجائه ، الخالعين لثياب القُنوط ، الرافضين لسوء الظن بِمَن لا يتعاظمه ذنب ، ولا يبخل

بمغفرته ورحمته على عباده، المتوجهين إليه في طلب العفو ، وما أحسنَ ما عَلَّلَ سُبحانَه به هذا الكلام قائلاً: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحيم ﴾ أي : كثير المغفرة والرحمة ، عظيمهما بليغهما واسعهما ، فمن أبى هذا التفضل العظيم والعطاء الجسيم ، وظنَّ أن تقنيط عباد الله وتأييسهم مِن رحمته أَوْلَى بِهم مِمَّا بشَّرهم اللهُ بِه ، فقد ركب أعظم الشَّطَط ، وغلط أقبح الغلط)) اهـ .

وعن ثَوبان مَوْلى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما أُحِبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية : ﴿ يا عِبادِيَ الذينَ أسْرَفوا على أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحمةِ اللهِ ﴾)) [96].

إنَّ النبيَّ ﷺ لا يَختار الدنيا وما فيها بديلاً عن هذه الآية ، لأنها أرجى آية في القُرآن ، وهي تشتمل على الطمع في رحمة الله والثقة المطْلقة المبصِرة بِه ، وهذا هو طريق الخلود في الجنة الباقية . أمَّا الدنيا وما فيها ، فزائلة وفانية . والحديثُ يُشير إلى معرفة النبيِّ ﷺ بِرَبِّه ، ورجاحة عقله ، وبُعد نظره، وتعلقه بنعيم الجنة في الدار الآخرة ، الذي لا يَفنى ولا يَزول ، وعدم الاغترار بالدنيا الفانية.

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤١١) : ((قال ابن حجر : واستدل بعموم هذه الآية على غُفران جميع الذنوب كبيرها وصغيرها ، سواءٌ تعلَّقت بحق الآدميين أَم لا ، والمشهور عند أهل السُّنة أن الذنوب كُلَّها تُغفَر بالتوبة وبدونها لِمَن شاء الله، لكنَّ حق الآدمي لا بُد مِن رَدِّه لصاحبه، أو مُحاللته ، وهي أرجى آية في القرآن على الأصح من أقاويل كثيرة ، وذلك لأنه عُرِض على قاتل حمزة (وحشي) آيات كثيرة ، فما اطمأنَّ ولا آمنَ إلا بها . (فائدة) رُئِيَ الشلبي في النوم فقيل له : ما فَعل اللهُ بِك . قال : حاسبونا فدققوا ... ثُمَّ مَنُّوا فأعتقوا)) اهـ .

١٩ـ رِضاه :

قالَ اللهُ تعالى:﴿وَمِنَ الناسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابتغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ واللهُ رَؤوفٌ بالعِباد﴾[البقرة: ٢٠٧].

وَمِن الناس مَن يبيع نَفْسَه طلبًا لرضا الله ورِضوانه . يُقدِّم نَفْسَه رخيصةً في سبيل الله ، ومِن أجل نَيل مرضاته . أي : يَبذُل نَفْسَه في الجهاد أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر حتى مقتله .

---

(٩٦) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٦٢) . وحسَّنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٦٠) .

لقد أرشدهم اللهُ لتقديم أنفسهم في سبيله كي يَمنحهم النعيمَ الأبديَّ في الجنة ، وهكذا تتجلى رأفة الله بهم ، وإحسانه إليهم ، ولُطفه بهم ، ورضاه عنهم . لقد وضَّح اللهُ لهم عملية الشَّراء ، وأرشدهم إلى الجهاد في سبيله، كي يَختارهم شُهداء، ويَمنحهم الدُّرجات العُليا في الجنة. وبذلك ، يكون سُبحانَه قد رحمهم ورضي عنهم . وتتجلى رأفة الله بعباده في إرشادهم وهدايتهم لِمَا فيه رِضاه ، وإثابتهم على جهودهم وتضحياتهم .

إنَّ هذا المؤمن الصادق هو البائع ، حيث باعَ نَفْسَه لله تعالى ، واللهُ هو الشاري ، حيث أرادَ شراء هذه النَّفْس المؤمنة وقَبِل بها . وعمليةُ البيع والشراء ، لا بُد أن يُوجد فيها ثمن . فكانَ الثمن هو الجنة . ومَعَ أنَّ النَّفْسَ الإنسانية هي مِلْك لله تعالى لأنه خالقها ، إلا أن الله تعالى اعتبرها مِلْكًا للعبد ، وأرادَ أن يَشتريَها مِنه بثمن ، وليس بلا مقابل . وهذا يدل على كرم الله وفضله وإحسانه.

وقال ابن منظور في لسان العرب (١٤/ ٤٢٧) : ((﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يَشْري نَفْسَهُ ابتغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ﴾ ، أي : يبيعها ، ويبذُلها في الجهاد ، وثمنها الجنة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٢٣و٢٢٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يَشْري نَفْسَهُ ﴾ . اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على خمسة أقوال : أحدها أنها نزلت في الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر ، وهو معنى قول عُمر وعليّ ــ رضي اللهُ عنهما ــ . والثاني أنها نزلت في الزبير والمِقداد حين ذهبا لإنزال خُبَيب مِن خَشبته ، وهذا قول ابن عباس والضَّحاك. والثالث أنها نزلت في صهيب الرومي، واختلفوا في قصته، فَرُوِيَ أنه أقبل مُهاجرًا نحو النبيِّ ﷺ ، فاتَّبعه نَفَر من قريش، فَنَزل ، فانتثلَ كِنانته ، وقال : قد علمتم أني مِن أرماكم بسهم ، وأيْمُ الله لا تصلون اِلَيَّ حتى أرميَكم بكل سهم معي ، ثُمَّ أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، فإن شئتم دللتكم على مالي ، قالوا : فَدُلَّنا على مالك نُخَلِّ عنك ، فعاهدهم على ذلك ، فَنَزلت فيه هذه الآية ، فلمَّا رآه النبيُّ ﷺ قال : " رَبِحَ البيع ، أبا يحيى " ، وقرأ عليه القرآن ، هذا قول سعيد بن المسيِّب ، وذَكَر نحوه أبو صالح عن ابن عباس . وقال : إن الذي تلقَّاه فبشَّره بما نزل فيه أبو بكر الصِّديق ، وذَكَر مقاتل أنه قال للمشركين: أنا شيخ كبير لا يَضُرُّكم إن كنت معكم أو عليكم، ولي عليكم حق لجواري ، فخذوا مالي غَير راحلة ، واتركوني ودِيني ، فاشترط أن لا يُمنَع عن صلاة ولا هجرة ، فأقامَ ما شاء الله ، ثُمَّ ركب راحلته، فأتى المدينة مُهاجرًا، فَلَقِيَه أبو بكر فبشَّره ، وقال : نزلت فيك هذه الآية . وقال عِكرمة : نزلت في صهيب وأبي ذَر الغِفاري ، فأمَّا صُهَيب

فأخذه أهله ، فافتدى بماله ، وأمَّا أبو ذَر فأخذه أهله فأفلتَ منهم ، حتى قَدِم مُهاجرًا . والرابع أنها نزلت في المجاهدين في سبيل الله، قاله الحسن وابن زيد في آخرين. والخامس أنها نزلت في المهاجرين والأنصار حين قاتلوا على دِين الله حتى ظَهروا ، هذا قول قتادة . و﴿ يَشْري ﴾ كلمة من الأضداد . يُقال : شرى بمعنى باع ، وبمعنى اشترى . فمعناها على قَول مَن قال : نزلت في صُهَيب معنى" يشتري "، وعلى بقية الأقوال بمعنى " يبيع ")) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفاسقين ﴾[التَّوبة : ٩٦] .

هؤلاء الفاسقون ، خرجوا من الإيمان إلى الكفر ، ومِن الطاعة إلى المعصية ، ومِن الحق إلى الباطل، لذلك استحقوا غضب الله عليهم . وحتى لو رضيتم عنهم أيها المؤمنون ، فرضاكم غير نافع لهم ولا فائدة مِنه ، لأن قلوبهم مليئة بالكفر والنفاق، وهُم واقعون في سَخَط الله ، ومُعرَّضون لعقابه وعذابه ، واللهُ لا يَرضى عنهم . وإن خدعوكم بالكلام المعسول والشعارات البَرَّاقة ، فإنهم لا يَستطيعون أن يَخدعوا اللهَ تعالى ، لأن الله مُطَّلِع على ضمائرهم وقلوبهم وأسرارهم ، ويَعلم عنهم ما لا يَعلمون عن أنفسهم .

وينبغي أن يكون رضا المؤمنين خاضعًا لرضا الله ، وعدم رضاهم خاضعًا لعدم رضاه . فإذا رضي اللهُ عن شخص يجب على المؤمنين أن يَرضوا عنه . وإذا غضب اللهُ على شخص ، يجب على المؤمنين أن يَغضبوا عليه ، وألا يغترُّوا بالأعذار الواهية والكلام الجذَّاب وادِّعاء الإيمان والتقوى. ووضع ﴿ الفاسقين ﴾ موضع ضميرهم لإدانتهم وفضحهم ، والتسجيل عليهم بالفِسق ، وهو الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٧٤) : ((﴿ فإنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفاسقين ﴾ وإذا كان هذا هو ما يُريده الله سُبحانَه مِن عدم الرضا على هؤلاء الفَسَقة العُصاة ، فينبغي لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خِلاف ذلك ، بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم . على أن رضاكم عنهم لو وقع لكان غير مُعتَد بِه ، ولا مُفيد لهم . والمقصود من إخبار الله سُبحانَه بعدم رِضاه عنهم نَهْي المؤمنين عن ذلك ، لأن الرضا على مَن لا يَرضى اللهُ عليه ، مِمَّا لا يَفعله مؤمن)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَرْضَى لِعِبادِهِ الكُفْرَ وإن تَشكروا يَرْضَهُ لَكُم ﴾[الزُّمَر : ٧] .

إنَّ اللهَ لا يَنفعه إيمان الناس ، ولا يضرُّه كُفرهم . ومَعَ أن الكفر خاضع لمشيئة الله وإرادته ، إلا أنه سُبحانَه لا يَرضى لعباده الكفر ، ولا يُحِبه ، ولا يأمر بِه . وهذا مِن أجل مصلحة الناس ومنفعتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، واللهُ غنيٌّ عنهم ، لا يَحتاجهم ، ولا يَحتاج إلى إيمانهم .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٦/ ٢٤٦) : ((أشار تعالى إلى أنه ، وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضرُّه كُفران، إلا أنه لا يرضى بالكفر ، بمعنى أنه لا يَمدح صاحبه ، ولا يُثيبه عليه، وإن كان واقعًا بمشيئته وقضائه)) اهـ .

وإن تُؤمنوا بالله وتُطيعوه وتشكروه على هدايته لكم ونِعَمه العظيمة ، يَرْضَ شُكركم له . أي : يُحِبه لكم ، ويَزِدكم مِن خَيره وفضله وإحسانه ، ويُثِبْكم على شُكركم .

والشُّكر يتجلى في حقيقة الإيمان وماهية الطاعة . واللهُ تعالى يرضى الشكر مِن عباده لمصلحتهم ومنفعتهم ، لأنه لا يَنتفع بعبادتهم ولا طاعتهم .

إن الله تعالى لا يَرضى لعباده أن يَكفروا به ، ولا يُحِب ذلك ، ولا يأمر بِه ، رحمةً بعباده ، لأن الكفر يَقودهم إلى الخلود في عذاب النار .

وكفرُ الكافر غير مَرضيٍّ لله تعالى ، وإن كان بمشيئته وإرادته . وإن تشكروا فَتُؤمنوا يَرْضَ الشُّكر لكم ، لأنه سبب نجاتكم وفَوزكم بالجنة . والآيةُ تُفرِّق بين رضا الله وإرادته . فالكفرُ بإرادة الله ، ولكنْ ليس برضاه .

وقال أبو السعود في تفسيره (٧/ ٢٤٤) : ((عدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرَّتهم ، رحمةً بهم ، لا لتضرُّره تعالى بذلك . ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم ، لأنه سبب فَوزهم بسعادة الدارين ، ولهذا فرَّق بين اللفظين فقال : ﴿ ولا يَرْضَى لِعِبادِهِ الكُفْرَ ﴾ ، وقال هنا : ﴿ يَرْضَهُ لَكُم ﴾ ، لأن المراد بالأول تعميم الْحُكم ، ثم تعليله بِكَوْنهم عباده)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنهُم ورَضُوا عَنهُ ﴾[الْمُجَادِلة : ٢٢] .

هؤلاء هُم عباد الله الصادقون ، الذي عبدوا اللهَ بلا شريك ولا نِد، وأطاعوه، فَرَضِيَ اللهُ عنهم بطاعتهم إيَّاه في الدنيا ، ورَضوا عن الله تعالى في الآخرة ، حيث أدخلهم الجنةَ ، وأنعمَ عليهم بكل أنواع النِّعَم ، ولَم يَجعلهم مُحتاجين إلى أي شيء .

لقد وفَّقهم اللهُ في الدنيا لعمل الصالحات ، وتَكَرَّمَ عليهم بِقَبول أعمالهم ، وتفضَّلَ عليهم بالرِّضا عنهم ، ومنحهم الأجرَ العظيم ، فرضوا بهذا العطاء الإلهيِّ . وبعبارة أخرى ، لقد قَبِلَ اللهُ أعمالَهم الحسنة ، وفَرِحوا بما أعطاهم مِن الثواب الجليل . ولا شَكَّ أن رِضا الله على العبد هو أعظم نِعمة ، وأسمى مرتبة ، وأعلى مكانة .

وقد قِيل: إذا كُنتَ لا ترضى عن الله ، فكيفَ تسأله الرِّضا عنك ؟ . والرضا عن الله هو التسليم الكامل بقضاء وقَدَره ، والصبر على بلائه ، والثقة بالله ، وتسليم الأمور إليه ، والأخذ

بالأسباب . وإذا رَضِيَ العبدُ عن الله ، فإن الله يَرضى عنه بفضله وكرمه وجُوده ، فيحميه من العقوبة والعذاب ، ويمنحه النعيم الأبديَّ في الجنة [97].

وفي فَيض القدير (٢/ ١٠٧) : ((قال الراغب : منزلة الرِّضى أشرف المنازل بعد النُّبوة ، فمن رضي عن الله فقد رضي الله عنه لِقَوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنهُم ورَضُوا عَنهُ ﴾ ، فجعل أحد الرِّضَاءَيْن مقرونًا بالآخر)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٢١) : ((وفي قَوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنهُم ورَضُوا عَنهُ ﴾ سر بديع، وهو أنه لَمَّا سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى ، عَوَّضهم اللهُ بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم)) اهـ. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٤٨): ((قال العلماء: رَضِيَ اللهُ عنهم بطاعتهم ، ورَضوا عنه بما أكرمهم بِه ، وأعطاهم إيَّاه من الخيرات . والرضى مِن الله تعالى إفاضة الخير والإحسان والرحمة ، فيكون مِن صفات الأفعال ، وهو أيضًا بمعنى إرادته فيكون مِن صفات الذات)) اهـ .

٢٠ _ غضبه :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفَمَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ اللهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ومَأواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ﴾ [آل عِمران : ١٦٢] .

---

(٩٧) في فَيض القدير (٦/ ١٣٧) : ((قال السَّهْرَوَرْدي : الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه ، وانشراح القلب من نور اليقين ، فإذا تمكَّنَ النُّور من الباطن اتَّسعَ الصدر ، وانفتحت عين البصيرة ، وعاينَ حُسن تدبير الله ، فَيُنْزَعِ التَّسَخُّط والتَّضَجُّر ، لأن انشراح الصدر يتضمن حلاوة الحب ، وفِعل المحبوب بموقع الرضا عند الْمُحِبِّ الصادق، لأن المحِب يرى أن الفِعل من المحبوب مُراده واختياره، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نَفْسه . وقال بعض العارفين: الرِّضا عن الله باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ولذة العارفين ، والرضوان عن الله في الجنة، وَهُمْ في الدنيا راضون عنه، مُتَلَذِّذُون بمجاري أقضيته ، سليمة صدورهم مِن الغِل، مُطهَّرة قلوبهم عن الفساد، لا يتحاسدون ولا يتباغضون . وقال ابن أبي رواد : ليس الشأن في أكل الشعير ولبس الصوف ، ولكن في الرضا عن الله . وقال ميمون ابن مهران : مَن لَمْ يَرْضَ بالقضاء فليس لِحُمقه دواء . وقال رَجل لابن كرام : أوصني ، فقال : اجتهد في رضا خالقك ، بِقَدْر ما تجتهد في رضا نفسك)) اهـ .

لا يُمكن المساواة بين المؤمن والكافر ، فَهُمَا ضِدَّان لا يجتمعان . لا مُساواة بين المؤمن الذي أطاعَ اللهَ، وقامَ بالتزاماته الدينية على أكمل وجه، وبين الكافر العاصي الغارق في ذُنوبه وآثامه ، المستحق لغضب الله وسَخَطه، لأنه خالفَ التعاليم الإلهية. ومصيره ومرجعه جهنم إن لَم يَتُب ، وبِئسَت النار مُستقرًّا له . والاستفهامُ للإنكار. أي:ليسَ مَن اتَّبعَ رِضوانَ الله، فالتزمَ أوامره، واجتنبَ نَواهيه، كَمَن رَجَع بغضب الله وسخطه، بسبب المعاصي والذنوب. والآيةُ تُبيِّن استحالة المساواة بين الطائع والعاصي.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٥٦) : ((أي : لا يستوي مَن اتَّبعَ رِضوان الله فيما شَرَعه، فاستحق رِضوان الله وجزيل ثوابه ، وأُجِير مِن وَبيل عقابه ، ومَن استحق غضب الله ، وأُلْزِم به ، فلا مَحيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم ، وبئس المصير)) اهـ .

٢١_ خَشيته وتَقواه :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تَخْشَوْهُم واخْشَوْني ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

نهى اللهُ المؤمنين عن الخوف والْخَشية من الناس . لا تخافوا مِن كلامهم وطَعنهم وأهوائهم وافتراءاتهم ، فإنها باطلةٌ وساقطة ، لا تضرُّكم ولا تُؤذيكم . لا تَلْتَفِتُوا إلى مطاعنهم وشُبهاتهم ، فهم لا يَملكون نفعًا ولا ضَرًّا . والتزموا بطاعة الله ، واحذروا مُخالفة أمره . لقد أمرهم بالخشية من الله وَحْدَه ، فهو أهل أن يُخشَى مِنه ، لأنه النافع والضار .

والآيةُ تُهوِّن مِن شأن الناس ، وتُثبِت عجزهم وضعفهم ، وتُعظِّم اللهَ القادر على كل شيء ، لذلك يجب إفراده بالخشية وعدم مُخالفة أوامره . وهذا يُؤدي بالضرورة إلى تثبيت الإيمان في القلب، وزيادة اليقين فيه ، وترك الخوف مِن المخلوقات ، وتجذير الخوف مِن الله وَحْدَه .

وتتَّضح في الآية معاني تسلية المؤمنين وتثبيتهم، وإهمال أهواء الناس ومطاعنهم، وعدم الالتفات إليها ، والتزام طاعة الله وَحْدَه ، ومُراقبته ، والخشية مِنه ، فهو خالق الناس ، والناس مقهورون في قبضته ، لا يَضُرُّون ولا يَنفعون . واللهُ وَحْدَه هو النافع والضار .

وقال القرطبي في تفسيره (٢ / ١٦٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ فلا تَخْشَوْهُم ﴾ يُريد الناس ﴿ واخْشَوْني ﴾ الْخَشية أصلها طُمأنينة في القلب تبعث على التَّوَقِّي. والخوف : فَزَع القلب تَخِفُّ له الأعضاء ، وَلِخِفَّة الأعضاء به سُمِّيَ خَوْفًا . ومعنى الآية : التحقير لكل مَن سِوى الله تعالى ، والأمر باطِّراح أمرهم ، ومُراعاة أمر الله تعالى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِين ﴾[البقرة : ١٩٤] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ بتقوى الله وطاعته ، والتزام أوامره ، واجتناب نَواهيه ، واللهُ يُؤَيِّد المتقين بالنصر والثبات والتمكين والنجاة والفَوز في الدنيا والآخرة. اعلموا أن الله يَنصر الذين يُطيعونه في الأوامر والنَّواهي، ولا يَعصونه، ويكون معهم بالنصر والتأييد. يَحميهم ويَحرسهم، ويَجعلهم المنتصرين الغالبين. ومَن كان اللهُ معه، فلن يَغلبه أحد. لقد حضَّهم على التقوى ، ووعدهم بالنصر والتمكين. ولا يُوجد أجمل ولا أعظم مِن هذه الْمَعِيَّة : ﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِين ﴾ .

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ٢٠٥) : ((﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِين ﴾ فَيُحرسهم ، ويُصْلِح شؤونهم بالنصر والتمكين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّقَى وأصلحَ فلا خَوْفٌ عَلَيهم ولا هُم يَحْزَنون ﴾[الأعراف : ٣٥] .

هذه بِشارة إلهية للمُتَّقين الذين تركوا المحرَّمات وفعلوا الطاعات ، بأن لا خَوْف عليهم في الآخرة ، ولا هُم يَحزنون على ما فاتهم من الدنيا . والخطابُ في الآية للناس جميعًا بلا استثناء .

إن الذين آمنوا بالله ، وعبدوه وَحْدَه لا شريك له ، والتزموا أوامره ، واجتنبوا نَواهيه ، وأخلَصوا له النِّية ، وأصلحوا أعمالَهم وأنفسهم باتِّباع الرُّسل والتصديق بآيات الله ، فلا خَوْفٌ عليهم يوم القيامة مِن عقاب الله وعذابه ، ولا هُم يَحزنون على ما فاتهم مِن الدنيا مِن الشهوات والملذات المحرَّمة التي تركوها لوجه الله ، وذلك حِين يَرَوْنَ ما أعَدَّه اللهُ لهم مِن النعيم والسعادة في الجنة التي لا تزول ولا تفنى . إنهم لا يَخافون إذا خاف الناس ، ولا يَحزنون إذا حزنوا . ونَفْيُ الخوف والحزن ، يعني بالضرورة نَفْي جميع ما تَكرهه النَّفْس على الإطلاق .

والآيةُ دليلٌ على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ، وهذا يعني أنهم آمِنُون مِن أهوال يوم القيامة. وقِيل: قد يَخافون ويَحزنون مِن أهوال يوم القيامة، ولكن مآلهم الأمن والأمان.

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٤٧٧) : ((﴿ فَمَنِ اتَّقَى وأصلحَ ﴾ . يقول : فَمَن آمنَ مِنكم بما أتاه به رُسلي مِمَّا قُصَّ عليه من آياتي، وصدق ، واتقى الله ، فخافه بالعمل بما أمره به، والانتهاء عمَّا نهاه عنه على لسان رسوله ، ﴿ وأصلحَ ﴾ . يقول : وأصلحَ أعمالَه التي كان لها مُفْسِدًا قبل ذلك مِن معاصي الله بالتَّحَوُّب منها _ يعني التَّوَجُّع والتَّحَزُّن _ ﴿ فلا خَوْفٌ عَلَيهم ﴾ يقول : فلا خوف عليهم يوم القيامة مِن عقاب الله إذا وَردوا عليه ، ﴿ ولا هُم يَحْزَنون ﴾ على ما فاتهم مِن دُنياهم التي تركوها ، وشهواتهم التي تَجَنَّبوها اتِّباعًا منهم لِنَهْي الله عنها ، إذا عاينوا من كرامة الله ما عاينوا هنالك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الْمُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وعُيُون ﴾[الحِجْر : ٤٥] .

إنَّ الذين اتَّقَوْا عذابَ اللهِ بطاعته ، والتزام أوامره ، واجتناب نَواهيه ، في بساتين يوم القيامة، وأنهار مِن ماء وخمر ولبن وعسل . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٩١) : ((أي : الْمُتَّقين للشِّرك بالله، كما قاله جمهور الصحابة والتابعين.وقِيل: هُم الذين اتَّقَوْا جميعَ المعاصي ﴿ في جَنَّاتٍ ﴾ وهي البساتين ، ﴿ وعُيُون ﴾ وهي الأنهار)) اهـ . وعن عطية بن سعد ـ رضي اللهُ عنه ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ:((إن الرَّجل لا يكون مِن المتقين حتى يَدَعَ ما لا بَأسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا به بأس)) [سبق تخريجه ، ص ١٧] .

وهذا يدل على ضرورة الابتعاد عن الشُّبهات ، لأنها مُقدِّمة للوقوع في الحرام ، وذلك سَدًّا للذرائع . والحديثُ يُبيِّن المعنى الشرعي الخاص للتقوى ، ويُوضِّح حقيقة المتَّقين وصفتهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ لهم مَغفرةٌ وأجرٌ كبير ﴾[الْمُلْك : ١٢] .

إن الذين يَخافون اللهَ ولَم يَرَوْهُ ، ويُطيعونه ولا يَعصونه ، طلبًا لرضاه سُبحانَه ، لهم مغفرة عظيمة يَغفر اللهُ بها ذنوبهم ، وثواب جَزيل لا يَعْرِف قَدْرَه إلا الله ، وهو نعيم الجنة .

إنهم يَخافون اللهَ قبل مُعايَنة العذاب ، وجزاؤهم مغفرة ذنوبهم ، وإكرامهم بالجنة التي لا تفنى.

وقد يكون المعنى : إن الذين يخافون اللهَ ، عندما يغيبون عن أعين الناس ، فَيُطيعونه سِرًّا . ومَن أطاعَ اللهَ سِرًّا ، فتكون العلانية أَوْلَى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥١٠):((يقول تعالى مُخْبِرًا عَمَّن يخاف مقام رَبِّه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس ، فينكف عن المعاصي ، ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أي تُكفَّر عنه ذنوبه ، ويُجَازَى بالثواب الجزيل)) اهـ .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ يَوْمَ القِيامةِ في ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه)). وذَكَرَ مِنهم : ((ورَجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها ، فقال : إني أخاف الله . ورَجل تصدَّقَ بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شِمالُه ما صَنعت يمينه))[متفق عليه.البخاري (٦/ ٢٤٩٦)، ومسلم (٢/ ٧١٥)].

هؤلاء يُظِلُّهم اللهُ في ظِل عَرشه ، وكنفِ رحمته ، ويُنعِم عليهم بالنِّعَم العظيمة ، ويتفضَّل عليهم بالسعادة الأبدية في الجنة .

رَجل دعته امرأة لها مكانة اجتماعية وحَسَب ونَسَب ومال وجَمال إلى الزِّنا بها ، فقال : إني أخاف الله. ورَجل أخفى الصدقةَ ، وأخرجها في السِّر ، وبالغَ في السِّر والإخفاء . وهذان الرَّجلان

وصلا إلى أعلى درجات الإخلاص ، والعمل لوجه الله دون شائبة رِياء أو سُمعة . إذ إن الناس غَير مُطَّلعين عليهما . وقد راقبا اللهَ وَحْدَه في طاعتهما ، وهكذا تجلَّت حقيقة الإيمان والإخلاص لله .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٢٠و١٢٢) : ((قال القاضي : إضافة الظِّل إلى الله تعالى إضافة مِلْك ، وكُل ظِل فهو لله ومِلْكه وخَلْقه وسُلطانه. والمراد هنا ظِل العرش. ... قوله ﷺ : " ورَجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ".قال القاضي: يحتمل قَوله : أخاف الله باللسان ، ويحتمل قَوله في قلبه ليزجر نفسه، وخُصَّ ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعُسْر حصولها ، وهي جامعة للمنصب والجمال ، لا سِيَّما وهي داعية إلى نفسها ، طالبة لذلك ، قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مُراودة ونَحْوها، فالصبر عنها لخوف الله تعالى وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال، مِن أكمل المراتب وأعظم الطاعات، فرتَّب اللهُ تعالى عليه أن يُظِلَّه في ظِلِّه . وذات المنصب هي ذات الحسَب والنَّسَب الشريف، ومعنى " دعته " أي دعته إلى الزنى بِها،هذا هو الصواب في معناه... .وفي هذا الحديث فضل صدقة السِّر. قال العلماء: وهذا في صدقة التطوع، فالسر فيها أفضل لأنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء، وأمَّا الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل، وهكذا حُكم الصلاة، فإعلان فرائضها أفضل، وإسرار نوافلها أفضل)).

٢٢_ حِلْمه :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهِم ما تَرَكَ عَلَيها مِن دَابَّةٍ ولكِن يُؤَخِّرُهُم إلى أجلٍ مُسمًّى ﴾ [النَّحْل : ٦١] .

ولو يُؤاخذ اللهُ الناسَ بكفرهم ومعاصيهم وذنوبهم وآثامهم، لأهلكَ جميع الدواب على الأرض تَبَعًا لإهلاك الناس. وهذا يدل على أن شُؤم معاصي الظالمين يعمُّ الجميع . ولكن اللهَ _ بفضله وكَرَمه وحِلْمه _ ، يُمهلهم ويمنحهم الفرصة تِلْو الفرصة ، ويستر عليهم ، ولا يُعاجلهم بالعقوبة، إلى منتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم ، وذلك كَي يتوالدوا ويتكاثروا . ولو عاجلهم بالعقوبة لَمَا أبقى مَخلوقًا على الأرض، لأن عذاب الاستئصال سَيَمحيهم من الوجود، ويَجعلهم أثَرًا إثر عَيْن . وهذا يدل على حِلْم الله ، وسَعَة رحمته ، وعَظَمَة كَرَمه وفضله .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٥٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهِم ﴾ أي : بِشِرْكهم ومعاصيهم ، كلما وجد شيء منهم أُوخِذوا به، ﴿ ما تَرَكَ ﴾ على ظَهْرها يعني : الأرض . وهذه كِناية عَن غَير مذكور ، غَير أنه مفهوم ، لأن الدواب إنما هي على الأرض.

وفي قَوله : ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنه عنى جميع ما يَدُبُّ على وجه الأرض، قاله ابن مسعود. قال قتادة : وقد فعل ذلك في زمن نُوح عليه السلام . وقال السُّدي : المعنى لأقحطَ المطر فلم تبق دابة إلا هلكت، وإلى نحوه ذهب مقاتل. والثاني أنه أراد مِن الناس خاصة، قاله ابن جُرَيج. والثالث مِن الإنس والجن ، قاله ابن السائب ، وهو اختيار الزَّجاج)) اهـ .

لو يُؤاخذ اللهُ العُصاةَ والفاسقين والكافرين بذنوبهم ومعاصيهم وآثامهم ، لَعَمَّ العذابُ جميع الخلائق بلا استثناء . ويكون إهلاك الكافر انتقامًا مِنه وعذابًا له ، وإهلاك المؤمن رَفْعًا لدرجاته في الآخرة. والجميع يُبْعَثُون حَسَبَ نِيَّاتهم.وهذا يدل على خطورة شُؤم ظُلم الظالمين وعُمومه وشُموله.

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٠٦) : ((فإن قِيل : كيف يَعُمُّ بالهلاك مع أن فيهم مؤمنًا ليس بظالم ؟. قِيل : يجعل هلاك الظالم انتقامًا وجزاء، وهلاك المؤمن مُعَوَّضًا بثواب الآخرة)) اهـ.

وعن ابن عمر ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا أنزلَ اللهُ بقومٍ عذابًا ، أصابَ العذابُ مَن كان فيهم ، ثُمَّ بُعِثُوا على أعمالهم))(98).

إذا أنزلَ اللهُ بقومٍ عذابًا وعقوبةً على أعمالهم السَّيئة ، فإن العذابَ الإلهيَّ يَعُمُّ الجميع، ويَشمل الكافرين والمؤمنين ، والمطيعين والعُصاة ، كُلهم جميعًا . ثُمَّ يُبْعَثُون على نِيَّاتهم . وتتم محاسبتهم حَسَب أعمالهم. فَيُثاب الصالح ، ويُمنَح الأجر العظيم ، لأن العذاب كان امتحانًا لهم وتمحيصًا له ، مِن أجل رفع درجاته . ويُعاقَب العاصي ، ويتم تعذيبه .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٦٠) : ((قَوله : " ثُمَّ بُعِثُوا على أعمالهم " أي: بُعِث كُل واحد مِنهم على حَسَب عمله ، إن كان صالِحًا فَعُقباه صالحة ، وإلا فسيئة . فيكون ذلك العذاب طُهرة للصالحين ، ونِقمة على الفاسقين ... والحاصل أنه لا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب أو العقاب ، بل يُجازَى كُل أحد بعمله على حَسَب نِيَّته)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٦) : ((﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهِم ﴾ فَيُعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم ﴿ ما تَرَكَ عَلَيها ﴾ أي: على الأرض، كِناية عن غَير مَذكور،﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ . وقال قتادة في الآية : قد فعل الله ذلك في زمن نوح ، فأهلكَ مَن على الأرض ، إلا مَن كان في سفينة نوح عليه السلام . رُوِيَ أن أبا هريرة سمع رَجلاً يقول : إن الظالِم لا يَضُرُّ إلا نَفْسَه، فقال :

---

(٩٨) متفق عليه.البخاري (٦/ ٢٦٠٢) برقم (٦٦٩١)،ومسلم (٤/ ٢٢٠٦) برقم (٢٨٧٩) .

" بِئْسَ ما قُلت، إن الحبارى تموت في وَكْرها بظلم الظالم ". وقال ابن مسعود : " إن الْجُعْلَ لَتُعَذَّب في جُحرها بذنب ابن آدم ". وقيل: معنى الآية : لو يُؤاخذ الله آباء الظالمين بظلمهم انقطعَ النَّسل ، ولَم توجد الأبناء ، فلم يبق في الأرض أحد . ﴿ ولكِن يُؤخِّرُهُم إلى أجلٍ ﴾ يُمهلهم بحِلْمه إلى أجل ﴿ مُسمًّى ﴾ إلى مُنتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَوْ يُؤاخِذُهُم بِما كَسبوا لَعَجَّلَ لهمُ العذاب ﴾[الكهف : ٥٨] .

لو يُعاقبهم اللهُ بسبب ذنوب وآثامهم ومعاصيهم وكُفرهم وضلالهم وتكذيبهم ، لَعَجَّلَ لهم عذاب الدنيا لاستحقاقهم لذلك ، ولكنه _ لرحمته وحِلْمه _ أمهلهم ، وأعطاهم الفُرصَ الكثيرة لتصحيح مسارهم ، وأخَّرَ عنهم العذاب الذي يستعجلونه ويستهزئون به رحمةً بهم ، فاللهُ هو الرحيم بِخَلْقه، الحليم عليهم. يَحْلُم ويستر ويعفو ويغفر. وقد يَهدي بعض الكافرين المستهزئين إلى الإسلام، ويَمنحهم الجنة في الآخرة.ومَن مات على كُفره ومعاصيه وجرائمه في الدنيا،فلن يَهرب مِن عذاب النار يوم القيامة. وسُنَّة الله ثابتة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ، وهي إمهال الظالِم وعدم إهماله . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٠٦) : ((﴿ لَوْ يُؤاخِذُهُم بِما كَسبوا لَعَجَّلَ لهمُ العذاب ﴾ استشهاد على ذلك بإمهال قريش مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ)) اهـ .

وإمهالُ الله لهم وعدم تعجيل عقوبتهم وعذابهم_معَ كُفرهم بآيات الله وتكذيبهم برسوله ﷺ_ يدل على حِلْم الله عليهم ورحمته بهم . وليس عجزًا من الله أو ضعفًا مِنه . فيجب أن يستغلوا هذه المهلة في التوبة والإيمان والرجوع إلى الله تعالى .

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ يُؤاخِذُهُم ﴾ تُشير إلى سرعة الأخذ وشِدَّة العذاب . والمقصود تخويفهم كَي يَرتدعوا عن كُفرهم ومعاصيهم ، ويَعودوا إلى الله بالتَّوبة والإنابة .

٢٣_ حُبُّه :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

إنَّ الله يُحِب التَّوابين من الذنوب والآثام والمعاصي ، العائدين إليه بالتوبة ، ويُحِب المتطهرين بالماء من النجاسات والأحداث والجنابات، الْمُنَزَّهين عن القاذورات والفواحش، كَجِماع الحائض، وإتيان المرأة في دُبُرها . والآيةُ تدل بوضوح على أهمية التوبة والطهارة بالمعنى المعنوي والماديّ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٤٩): ((في قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ قَولان : أحدهما التوابين من الذنوب ، قاله عطاء ومجاهد في آخرين . والثاني التوابين من إتيان الحيض ، ذَكَره بعض المفسرين . وفي قَوله تعالى : ﴿ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها

المتطهرين مِن الذنوب، قاله مجاهد وسعيد بن جبير وأبوالعالية. والثاني: المتطهرين بالماء، قاله عطاء. والثالث المتطهرين مِن إتيان أدبار النساء ، رُوِيَ عن مجاهد)) اهـ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ ﴾[آل عِمران : ٣١][99].

قُل يا محمد: إن كُنتُم تُحِبُّون اللهَ حَقًّا وصِدقًا ، فاتَّبعوني ، فأنا رسولُ اللهِ إلَيكم ، وحُجَّتُه عَلَيكم . اتَّبعوا سُنَّتي، وتَمَسَّكوا بأقوالي وأفعالي ، والتزموا بالشريعة المحمَّدية الإسلامية ، وطَبِّقوها على أرض الواقع ، يُحِبَّكم اللهُ ، ويَرْضَ عنكم باتِّباعكم الرسول ﷺ، ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم ببركة شريعته ، ويُكَفِّرْ عَنكم سَيِّئاتكم ، ويَمْحُ خطاياكم وآثامكم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٧) : ((هذه الآية الكريمة حاكمة على كُل مَن ادَّعى محبةَ الله ، وليس هو على الطريقة المحمَّدية ، فإنه كاذب في دَعْواه في نَفْس الأمر ، حتى يَتَّبع الشَّرْعَ المحمَّديَّ والدِّينَ النبويَّ ، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣) : عن عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((مَن عَمِلَ عَمَلاً ليس عليه أمرُنا ، فَهُوَ رَد)) .

مَن عَمِلَ عَملاً مُخالِفاً للشريعة الإسلامية ، ومُعارِضًا للسُّنة النبوية ، فهو باطل ومَردود عَلَيه .

إنَّ الآيةَ تُوضِّح أنَّ الْحُبَّ الحقيقيَّ للهِ تعالى يتجلى في اتِّباع رسوله ﷺ، وليس الكلام المُجرَّد، أو الشِّعارات المفرَغة مِن مَعناها. والطريقُ الوحيدُ الْمُوصِلُ إلى محبة اللهِ هو حُبُّ النبيِّ ﷺ، والعلامةُ الوحيدة لحب النبيِّ ﷺ هي اتِّباع سُنَّته والتزام شريعته ، ويتَّضح ذلك في امتثال أوامره

---

(٩٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٣٧٣):((في سبب نزولها أربعة أقوال : أحدها أنَّ النبيَّ ﷺ وَقَفَ على قُرَيش، وقد نَصَبوا أصنامَهم يَسجدون لها ، فقال : " يا مَعْشَرَ قُرَيش ، لقد خالفتُم مِلَّةَ أبيكم إبراهيم"، فقالوا: يا محمد، إنما نعبد هذه حُبًّا للهِ لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلفى، فَنَزَلت هذه الآية . رواه الضَّحاك عن ابن عباس. والثاني أنَّ اليهود قالوا : نَحْنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤه ، فَنَزَلت هذه الآية، فَعَرَضها النبيُّ ﷺ عليهم فلم يَقبلوها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث أنَّ ناسًا قالوا : إنَّا لَنُحِبُّ رَبَّنا حُبًّا شديدًا، فأحبَّ اللهُ أن يَجعل لِحُبِّه عَلَمًا، فأنزل هذه الآية، قاله الحسن وابن جُرَيج. والرابع أنَّ نصارى نَجران قالوا : إنما نقول هذا في عيسى حُبًّا للهِ وتعظيمًا له ، فَنَزلت هذه الآية ، ذَكَرَه ابن اسحاق عن محمد ابن جعفر ابن الزُّبَير ، واختاره أبو سليمان الدمشقي)) .

واجتناب نَواهيه . ومحبةُ العبدِ للهِ تتجلى في طاعته في السِّر والعلانية ، والتزام أوامره ، واجتناب نَواهيه . ومحبةُ اللهِ للعبد تتجلى في مغفرة ذُنوبه ، والعَفْو عنه ، والإنعام عَلَيه .

ولا يَكفي أن تُحِبَّ اللهَ ، وإن كان أمرًا هَامًّا . لكنَّ الأهَم والأعظم أن يُحِبَّكَ اللهُ تعالى ، وهُنا العِبرة . وطاعةُ اللهِ هي عُنوان مَحبته . والحبُّ مِنَ اللهِ عِصمةٌ وهدايةٌ وتَوفيق ، ومِن العباد طاعة.

تَعصي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ　　　هذا لَعَمْري في القِياسِ بَديعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادقًا لأطَعْتَهُ　　　إنَّ الْمُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧) : ((المحبةُ مَيْل النَّفْس إلى الشَّيء لكمال أدركته فيه، بحيث يَحملها على ما يُقرِّبها إليه . والعبد إذا عَلِمَ أنَّ الكمال الحقيقيَّ ليس إلا للهِ ، وأنَّ كُل ما يَراه كمالاً مِن نَفْسه أو غَيْره ، فهو مِن اللهِ ، وباللهِ ، وإلى الله ، لَم يكن حُبُّه إلا للهِ ، وفي الله . وذلك يقتضي إرادة طاعته ، والرغبة فيما يُقرِّبه إليه ، فلذلك فُسِّرت المحبة بإرادة الطاعة، وجُعلت مُستلزمة لاتِّباع الرسول ﷺ في عبادته ، والحِرص على مُطاوَعته)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (٤/ ٦٤) : ((قال ابن عرفة : المحبة عند العرب إرادة الشيء على قَصْد له ، وقال الأزهري : مَحَبَّةُ العبدِ لله ورسولِه طاعته لهما واتِّباعه أمرهما، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ إن كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُوني ﴾ . ومَحَبَّةُ اللهِ للعباد إنعامُه عليهم بالغُفران ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافرين ﴾ [آل عِمران: ٣٢]. أي: لا يَغفِر لهم. وقال سهل بن عبدالله : علامة حُب الله حُب القرآن ، وعلامة حُب القرآن حُب النبيِّ ﷺ ، وعلامةُ حُب النبيِّ ﷺ حُب السُّنة، وعلامةُ حُب الله وحُب القرآن وحُب النبيِّ وحُب السُّنة حُب الآخِرة،وعلامةُ حُب الآخرة أن يُحِبَّ نَفْسَه، وعلامةُ حُب نَفْسِه أن يُبغِض الدنيا، وعلامةُ بُغض الدُّنيا ألا يأخذ منها إلا الزَّاد والبُلْغة)) .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ _ تَبارك وتعالى _ إذا أحبَّ عبدًا ، نادى جِبريلَ إنَّ اللهَ قد أحبَّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبريلُ ، ثُمَّ يُنادي جِبريلُ في السماء إنَّ اللهَ قد أحبَّ فُلانًا فأحِبُّوه ، فَيُحِبُّه أهلُ السماء ، ويُوضَع له القَبول في أهل الأرض))[100].

---

(١٠٠)متفق عليه. البخاري(٦/ ٢٧٢١)برقم(٧٠٤٧) ، ومسلم (٤/ ٢٠٣٠) برقم (٢٦٣٧).

إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا ، وفَّقه لطاعته ، ومَنَحه التوفيق . وهذا العبدُ قَد هَداه اللهُ إلى الخير ، فصارَ في حياته الدُّنيا إنسانًا مَحبوبًا مِن الناس، يَميلون إِلَيه، ويَطمحون إلى مُخالطته . وفي الآخرة، يَغفر اللهُ ذُنوبَه ، ويُدخِله الجنةَ بلا سابق عذاب . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٨٣/١٦):((قال العلماء: مَحَبَّةُ اللهِ تعالى لعبده، هي إرادته الخير له وهدايته وإنعامه عليه ورحمته. وحُب جبريل والملائكة يحتمل وجهين: أحدهما استغفارهم له وثناؤهم عليه ودعاؤهم. والثاني أنَّ محبتهم على ظاهرها المعروف من المخلوقين وهو مَيْل القلب إليه، واشتياقه إلى لقائه، وسببُ حُبِّهم إيَّاه كَوْنُه مُطيعًا لله تعالى محبوبًا له. ومعنى يوضع له القبول في الأرض،أي: الحب في قلوب الناس، ورضاهم عنه فتميل إليه القلوب وترضى عنه)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿قُلْ أطيعُوا اللهَ والرَّسولَ فإِن تَوَلَّوْا فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافرين ﴾[آل عِمران: ٣٢].(101)

قُل يا محمد : التزِموا بأوامر اللهِ ورسولِه ، واجتنِبوا نَواهيهما ، وهذه هي علامة المحبة . فإِن رَفضوا الإيمانَ، وأصَرُّوا على الكفر، وأعرَضوا عن طاعة الله ورسوله ﷺ ، فإنَّ اللهَ يُبغِض الكافرين الذين جَحدوا آياتِه ، وعَصَوا رُسُلَه، ولا يَرضى فِعْلَهم، ولا يَغفر لهم. وسَوْفَ يُعاقبهم ، ويُعذِّبهم ، ويُخزيهم. والآيةُ تُشير بوضوح إلى أنَّ التَّوَلِّي عَن طاعة اللهِ ورسوله كُفر، وأنَّ مَحَبَّة اللهِ مَخصوصة بالمؤمنين .

واللهُ تعالى قالَ : ﴿ والرَّسولَ ﴾ ، ولَم يَقُل : " ومحمدًا " . وفي هذا دَلالة على أنَّ الطاعة الواجبة له ﷺ مِن حَيث إنه رسول الله ، لا مِن حَيث ذاته . فالرسولُ ﷺ حامل الرسالة الإلهية ، والْمُتحدِّث باسمِ اللهِ تعالى ، ولا يَتحدَّث باسمِ نَفْسِه ، ولا يأتي بشيء مِن عِنده .

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٢٥) : ((ولا رَيْبَ في أنَّ عنوان الرسالة مِن مُوجبات الإطاعة ودَواعيها)) اهـ .

---

(١٠١)قال ابن الجوزي في زاد المسير(٣٧٣/١و٣٧٤):((في سبب نزولها ثلاثة أقوال:أحدها أنَّ عبد الله ابن أُبَي قال لأصحابه : إنَّ محمدًا يَجعل طاعته كطاعة الله ، ويَأمرنا أن نُحِبَّه كما أحَبَّت النصارى عيسى بن مريم،فَنَزلت هذه الآية،هذا قَول ابن عباس.والثاني أنَّ النبيَّ ﷺ دَعا اليهود إلى الإسلام فقالوا: نَحْنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤه ، ونَحن أشدُّ حُبًّا للهِ مِمَّا تَدعونا إِلَيه، فَنَزلت: ﴿ قُلْ إن كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ ﴾ ، ونَزلت هذه الآية،هذا قَول مُقاتل.والثالث أنها نزلت في نصارى نَجْران ، قاله أبو سليمان الدمشقي)).

واللهُ تعالى قالَ:﴿ فإنَّ اللهَ ﴾ ولَم يَقُل:"فإنَّه" تعظيمًا للهِ.وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٦٤) : ((قال : ﴿ فإنَّ اللهَ ﴾ وَلَم يَقُل " فَإِنَّه " ، لأنَّ العرب إذا عَظَّمت الشَّيْءَ أعادتْ ذِكْرَه)) اهـ.

واللهُ تعالى قالَ: ﴿ لا يُحِبُّ الكافرين ﴾ ولَم يَقل: " لا يُحِبُّهم " ، للتَّعميم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٧) : ((﴿ فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافرين ﴾ فَدَلَّ على أنَّ مُخالفته في الطريقة كُفر، واللهُ لا يُحب مَن اتَّصف بذلك ، وإن ادَّعى وزعم في نَفْسه أنه مُحِب للهِ ويتقرَّب إليه ، حتى يُتابع الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسل ، ورسولَ الله إلى جميع الثقلَيْن : الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء ، بَل الْمُرسَلون ، بَل أُولُو العَزْمِ مِنهم في زمانه ، ما وَسِعَهم إلا اتِّباعه والدخول في طاعته ، واتِّباع شريعته)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٥٥) : عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((كُلُّ أُمَّتي يَدخلون الجنةَ إلا مَن أبى)) . قالوا : يا رسولَ اللهِ ، وَمَن يَأبى ؟ ، قال : ((مَن أطاعني دَخَلَ الجنةَ، وَمَن عَصاني فقد أبى)) .

مَن التزمَ أوامرَ النبيِّ ﷺ، واجتنبَ نَواهيه، دَخل الجنة ، ومَن رَفض الدَّعوةَ المحمَّديةَ الإسلامية، أو امتنعَ عن طاعة النبيِّ ﷺ دَخل النارَ . ومَن تَرَكَ التَّسَبُّبَ إلى شيء ، لا يُوجَد بِغَيره ، فقد أَبَاهُ .والإباءُ أشدُّ الامتناع . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٥/ ١٢): ((" كُلُّ أُمَّتي يَدخلون الجنةَ إلا مَن أبى" بامتناعه عن قبول الدَّعوة، أو بتركه الطاعة التي هي سبب لدخولها،لأنَّ مَن تَرك ما هو سبب شَيء لا يُوجَد بِغَيره فقد أبى ، أي : امتنعَ . والمراد أُمَّة الدعوة ، فالآبي هو الكافر بامتناعه عن قَبول الدعوة، وقِيل:أُمَّة الإجابة،فالآبي هو العاصي مِنهم،استثناهم تغليظًا وزَجْرًا عن المعاصي. "مَن أطاعني " أي : انقادَ وأذعنَ لِمَا جِئتُ بِه ، " دَخَلَ الجنةَ " ، وفاز بنعيمها الأبديِّ . بَيَّنَ أنَّ إسناد الامتناع عن الدخول إليهم مَجاز عن الامتناع لِسَببه وهو عِصيانه ، بِقَوله : " وَمَن عَصاني " بعدم التصديق أو بِفِعْل الْمَنْهِيِّ،" فقد أبى " ، فله سُوء الْمُنقلَب بإبائه ، والموصوف بالإباء إن كان كافراً لا يَدخل الجنةَ أصلاً ، أو مُسلمًا لَم يَدخلها مع السابقين الأوَّلين)) اهـ .

وعن أبي رافع ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((لا أُلْفِيَنَّ ــ أي لا أجِد وألقى ــ أحَدَكُم مُتَّكِئًا على أريكته، يأتيه الأمرُ مِن أمري مِمَّا أَمرتُ بِه أو نَهَيْتُ عَنه،فيقول: ما أدري، مَا وَجَدْنا في كتاب الله اتَّبعناه))[102].

---

(١٠٢) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٩٠) برقم (٣٦٨) ، وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ السُّنة النبوية مُفسِّرة للقُرآن ، فَمَن أخذَ بالقُرآنِ دُون السُّنة ، فقد انحرفَ وهَلَكَ . ولَم يَعرف القُرآنَ، ولَم يَعرِف السُّنةَ. ومَن أسقطَ السُّنةَ فهو كافرٌ ، ولا يَنفعه التَّمسك بالقرآن _ على حَدِّ زَعْمه _ ، لأنَّ القُرآنَ أمرَ بطاعة الرسول ﷺ ، وطاعة الرسول هي اتِّباع سُنَّته .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقين ﴾ [آل عِمران : ٧٦] .

إن الله يُحب الذين يتَّقون عذابَه وعُقوبته ، بالتزام أوامره ، واجتناب نَواهيه . وفي الآية وضع الظاهر موضع الْمُضمَر، فاللهُ لَم يقل: يُحبهم، وإنما قال : ﴿ يُحِبُّ الْمُتَّقين ﴾ . لقد ذَكَرَهم لمدحهم وتخليد ذِكرهم والإشادة بهم . فهو يُحِبُّهم ويُكرِمهم ويُثيبهم ، ويَمنحهم الدرجات العُليا في الجنة . والآيةُ تدل على أن التقوى هي سبب رفع الدرجات ، وهي الأساس في العبادات ، وهي الغاية من أداء الطاعات والابتعاد عن المعاصي . والتقوى كلمة عامة تشمل الإيمان وعمل الصالحات والابتعاد عن الكفر والذنوب والأعمال السَّيئة .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣١٨) : ((﴿ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقين ﴾ يعني : فإن الله يُحِب الذين يَتَّقونه فيخافون عقابه ، ويحذرون عذابه ، فيجتنبون ما نهاهم عنه وحَرَّمه عليهم ، ويُطيعونه فيما أمرهم به)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يُحِبُّ الْمُحسنين ﴾ [آل عِمران : ١٣٤] .

إنَّ اللهَ يُحِب الذين يُنفِقون في طاعة الله في اليُسر والعُسر ، ويَكظمون غَيْظَهم مع قُدرتهم على إمضائه ، ويتركون عقوبة مَن ظَلَمَهم مِن الناس ، ويَعفون عنهم ، واللهُ يُحِب المحسنين المتَّصفين بهذه الأوصاف العظيمة ، ويُكرمهم ، ويُثيبهم ، ويُريد بهم الخير . والإحسانُ هو الإتيان بالأعمال على أكمل وجه ، وأفضل صورة ، مع إخلاص النية لله تعالى . والإحسانُ أن تُحسِن إلى الْمُسيء .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٠٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ واللهُ يُحِبُّ الْمُحسنين ﴾ ، أي : يُثيبهم على إحسانهم . قال سري السقطي : الإحسان أن تُحسِن وقت الإمكان، فليس كل وقت يمكنك الإحسان)) اهـ . وقال النسفي في تفسيره (١/ ١٧٩) : ((عن الثوري : الإحسان أن تُحسِن إلى الْمُسِيء ، فإن الإحسان إلى المحسِن مُتاجرة)) اهـ .

قال الشاعر :

بَادِرْ بخيرٍ إذا ما كُنتَ مُقتدِرًا ... تتهيَّأ صنائع الإحـــــسانِ
وإذا أمكنت فبادِرْ إليها ... حَذَرًا مِن تَعَذُّرِ الإمكانِ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يُحِبُّ الصابرين ﴾ [آل عِمران : ١٤٦] .

إنَّ اللهَ يُحِب الذين يُقاسُون الشدائد ، ويتحمَّلون الأعباءَ الثقيلة ، ويَتجشَّمون الصِّعاب ، في سبيل الله تعالى . إن الله يُحِب الصابرين على الجهاد ، ويُثيبهم ، ويُكرمهم ، ويَنصرهم .

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٩٦) : ((﴿ واللهُ يُحِبُّ الصابرين ﴾ أي : على مُقاساة الشدائد ومُعاناة المكاره في سبيل الله ، فينصرهم ويُعظِم قَدْرَهم . والمراد بالصابرين إمَّا المعهودون. والإظهار في موضع الإضمار للثناء عليهم بِحُسْن الصبر والإشعار بِعِلَّة الْحُكم، وإمَّا الجنس وهُم داخلون فيه دخولاً أوَّلِيًّا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين ﴾ [آل عِمران : ١٥٩] .

إنَّ اللهَ يُحِبُّ المعتمِدِين عَلَيه ، المعتَرِفِين بِعَجْزِهم أمامَه . والتَّوكُّل على اللهِ هُوَ الاعتماد عَلَيهِ سُبحانه، مَعَ الأخذ بالأسباب دُون الاعتماد عَلَيها ، والتَّفويض في الأمور إلى اللهِ تعالى . والتَّوكُّل علامة واضحة على صِدْق إيمان العَبْد، وتَعظيمه لِقُدرة خالقه اللامحدودة ، والتأدُّب مَعَ اللهِ تعالى. والتَّوكُّلُ دليل واضح على حُبِّ العَبْدِ للهِ ، وحُب الله للعبد .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٩٤) : ((﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين ﴾ ، وَهُم الرَّاضون بِقَضائه ، والمستسلِمُون لِحُكْمِه فِيهم ، وافق ذلك مِنهُم هَوًى أو خالفه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين للإنذار والتحذير والوعيد : يا أيها الذين صَدَّقوا بِوَحدانية الله ونُبُوَّة محمد ﷺ : مَن يَرجع مِنكم عن الإسلام (الدين الحق) ، ويَتركه ، ويَعتنق أيَّ دِينٍ آخر مِن أديان الكفر ، فإنه يضرُّ نفسه ، ولن يَضُرَّ اللهَ شيئًا ، لأنه اختار الكفر على الإيمان ، ورجع عن الحق إلى الباطل ، وهذا يعني خُلوده في عذاب النار . وسيأتي اللهُ مكانهم وبدلهم بمؤمنين صادقين ثابتين على الإسلام ، يُحِبُّهم اللهُ، ويُحِبُّون اللهَ ، ويُريد بهم خَيْرَ الدنيا ونعيم الآخرة .

وقد قَدَّمَ اللهُ محبته لهم على محبتهم له ، لأنها هي الأساس والمحبة الحقيقية . ولولا سبق محبته لَمَا أحَبُّوه . إن حُبَّ الله لهم قادهم إلى الهداية والتوفيق وخير الدنيا والآخرة ، كما قادهم إلى حُبِّهم لله تعالى . والفضلُ كُلُّه لله أوَّلاً وآخِرًا.والآيةُ تدل على أن القُرآن كلام الله، وأن النبيَّ ﷺ صادق وأمين، لأن في الآية إخبارًا بالغيب قبل وُقوعه ، فقد أخبرَ اللهُ أن بعض المسلمين سيرتدون عن الإسلام ، وهذا ما حصل فِعلاً على أرض الواقع .

وقال النسفي في تفسيره (١/ ٢٨٨) : ((﴿ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ ﴾ يرضى أعمالهم ، ويُثني عليهم بها ، ويطيعونه ، ويُؤثرون رضاه . وفيه دليل نُبُوَّته ــ عليه السلام ــ حيث أخبرهم بما لَم يكن فكان ، وإثبات خلافة الصِّديق لأنه جاهدَ المرتدين ، وفي صحة خلافته، وخلافة عمر ــ رضي اللهُ عنهما ــ)) اهـ .

وعن عِيَاض الأشعريِّ قال : لَمَّا نزلت : ﴿ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ:((هُم قَوْمُكَ يا أبا موسى)).وأومأ رسولُ الله ﷺ بيده إلى أبي موسى الأشعريِّ[103].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨١) : ((وفي المراد بهؤلاء القوم ستة أقوال : أحدها أبو بكر الصِّديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الرِّدة، قاله علي بن أبي طالب والحسن عليهما السلام، وقتادة والضَّحاك وابن جُرَيج . قال أنس بن مالك: كَرِهت الصحابةُ قتالَ مانعي الزكاة، وقالوا: أهل القِبلة ، فتقلَّد أبو بكر سيفه وخرج وحده، فلم يجدوا بُدًّا من الخروج على أثره . والثاني أبو بكر وعمر، رُوِيَ عن الحسن أيضًا . والثالث أنهم قوم أبي موسى الأشعريِّ، روى عِيَاض الأشعري أنه لَمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : " هُم قوم هذا "، يعني أبا موسى . والرابع أنهم أهل اليمن، رواه الضَّحاك عن ابن عباس وبه قال مجاهد.والخامس أنهم الأنصار، قاله السُّدي. والسادس المهاجرون والأنصار ، ذَكَره أبو سليمان الدمشقي . قال ابن جرير: وقد أنجزَ اللهُ ما وعد ، فأتى بقوم في زمن عمر ، كانوا أحسن موقعًا في الإسلام مِمَّن ارتد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين ﴾[الْحُجُرات : ٩] .

إنَّ اللهَ يُحِب العادلين في أحكامهم ، الْمُحِقِّين الذين لا يَظلمون ، القاضين بين الناس بالحق والعدل. ومحبة الله لهم تعني أن الله يُثيبهم، ويُكرمهم، ويَجزيهم أحسن الجزاء ، ويَمنحهم الدرجات العُليا في الجنة . وَمَن أحَبَّه اللهُ لا يُعذِّبه إطلاقًا .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٥) : ((يَحمد فِعْلَهم بِحُسن الجزاء)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٨) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ الْمُقسطين عند الله على منابر مِن نور عن يمين الرحمن عَزَّ وَجَلَّ ، وكِلتا يَدَيه يمين، الذين يَعْدِلُون في حُكمهم وأهليهم وما وَلُوا)) .

إنَّ اللهَ يَمنح العادلين أعلى الدرجات ، ويُكرِمهم بأعظم الكرامات في الآخرة ، فلهم المنازل الرفيعة ، والجوائز العظيمة. وهُم الذين لا يَجورون في حُكمهم ، وإنما يَعدِلون في حُكمهم

---

(١٠٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢٢٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وأهليهم ومَن كانت لهم عليه وِلاية . والعادلون هُم الذين يتَّبعون أمرَ الله بوضع كُل شيء في موضعه مِن غير إفراط ولا تفريط. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٢١١و٢١٢): ((وأمَّا المنابر فجمع مِنبَر ، سُمِّيَ به لارتفاعه . قال القاضي : يُحتمَل أن يكونوا على منابر حقيقة على ظاهر الحديث ، ويُحتمَل أن يكون كِناية عن المنازل الرفيعة ، قلتُ: الظاهر الأول، ويكون مُتَضَمِّنًا للمنازل الرفيعة ، فَهُم على منابر حقيقة ومنازلهم رفيعة ، أمَّا قَوله ﷺ : " عن يمين الرحمن " . فهو من أحاديث الصفات،وقد سبق بيان اختلاف العلماء فيها، وأن منهم مَن قال: نؤمن بها، ولا نتكلم في تأويله، ولا نعرف معناه ، لكن نعتقد أن ظاهرها غير مُراد ، وأن لها معنى يليق بالله تعالى. وهذا مذهب جماهير السلف وطوائف من المتكلمين . والثاني أنها تُؤوَّل على ما يليق بها، وهذا قول أكثر المتكلمين، وعلى هذا قال القاضي عِياض رضي الله عنه : المراد بِكَونهم عن اليمين الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة . قال : قال ابن عرفة : يُقال : أتاه عن يمينه إذا جاءه من الجهة المحمودة، والعرب تنسُب الفِعلَ المحمود والإحسان إلى اليمين، وضِده إلى اليسار، قالوا : واليمين مأخوذة مِن اليُمْن . وأمَّا قَوله ﷺ : " وكِلتا يديه يمين " فتنبيه على أنه ليس المراد باليمين جارحة ، تعالى الله عن ذلك فإنها مستحيلة في حَقِّه سُبحانَه وتعالى،وأمَّا قَوله ﷺ : " الذين يَعْدِلُون في حُكمهم وأهليهم وما وَلُوا". فمعناه أن هذا الفضل إنما هو لِمَن عدل فيما تقلده من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حِسبة، أو نظر على يتيم أو صدقة أو وَقْف، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك، والله أعلم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلُونَ في سَبيلِهِ صَفًّا كأنهم بُنيانٌ مَرْصُوص﴾[الصَّف: ٤].

إن الله يُحِب المجاهدين الذين يُقاتلون لإعلاء كلمة التوحيد، ويَصُفُّون أنفسهم عند القتال صَفًّا مُتماسكًا ومُتَرَاصًّا ، لا ضعف فيه ولا اعوجاج ولا ثغرات ولا خلل، ويثبتون أمام لقاء العدو . فَهُم ثابتون كالبناء الشامخ الذي لا يتزعزع أمام التحديات الجسيمة والأهوال الشديدة والأخطار الرهيبة . إنهم بُنيان لاصق بعضه ببعض . وهذا يعني أن الله يُحِب المجاهدين الثابتين أثناء القتال ، والذين يَلزمون أماكنهم كثبوت البُنيان، لا يُغادرونها ، ولا يَهْربون ، ولا يَتململون ، ولا يَرجفون.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٨) : ((فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صَفُّوا مُواجِهين لأعداء الله في حَوْمة الوغى ، يُقاتِلون في سبيل الله مَن كفر بالله لتكون كلمةُ الله هي العُليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٧٣) : ((ومعنى الآية : يُحِبُّ مَن يَثبُت في الجهاد في سبيل الله ، ويلزم مكانه كثبوت البناء. وقال سعيد بن جُبَير : هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم)) اهـ .

وسببُ نزول الآية ما ذَكَرَه عبد الله بن سلام ــ رضي الله عنه ــ . قال : ((قَعَدْنا نَفَرٌ مِن أصحاب النبيِّ ﷺ فَقُلنا : لَوْ نعلمُ أيَّ الأعمالِ أحَبَّ إلى اللهِ عَمِلْنا)) (104).

وقد أرادَ اللهُ أن يُبيِّن لهم أنَّ أحب الأعمال إِلَيه هي الجهاد في سبيله صَفًّا متماسكًا وثابتًا .

٢٤ــ التَّوكل عليه :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ على العزيزِ الرحيم ﴾ [الشُّعراء : ٢١٧] .

واعتمد يا محمد على اللهِ في كُلِّ أُمورك وشُؤونك ، وثِقْ بِه ثِقَةً مُطْلَقَةً مُبْصِرَةً ، فهو ناصرُك ومُؤيِّدُك وحافظُك . فاللهُ هو القادر على قَهْر أعدائه بِعِزَّته وجَبَروته ، عزيز في انتقامه ، رَحيم بِخَلْقِه،يَرْحَم عبادَه الصالحين رحمةً خاصَّةً،ويَرحم الكافرين رَحمةً عامَّةً،وذلك بعدم تعجيل عُقوبتهم. وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٣٠): ((أي: فَوِّضْ أمْرَكَ إِلَيه، فإنه العزيز الذي لا يُغالَب، الرحيم الذي لا يَخْذُل أولياءَه)) اهـ .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ٢٠٠) : ((﴿ وَتَوَكَّلْ عَلى العَزيزِ الرَّحيمِ ﴾ على الذي يَقْهَر أعداءَك بِعِزَّته، ويَنصرك عَلَيهم برحمته، يَكْفِكَ شَرَّ مَن يَعصيك مِنهم ومِن غَيرهم. والتَّوَكُّل تفويض الرَّجل أمْرَه إلى مَن يَمْلِك أمْرَه ، ويَقْدِر على نَفْعِه وضَرِّه ، وقالوا : الْمُتَوَكِّل مَن إذا دَهَمَه أمرٌ لَم يُحاول دَفْعَه عَن نَفْسه بما هو معصية لله، وقال الجنيد ــ رضي اللهُ عنه ــ : التَّوَكُّل أن تُقْبِل بالكُلِّية على رَبِّكَ ، وتُعرِض بالكُلِّية عَمَّا دُونَه ، فإنَّ حَاجتك إِلَيه في الدَّارَيْن)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ وَكَفَى باللهِ وَكِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٣] .

واعتمد يا محمد على الله في كُل شُؤونك وأحوالك ، وتَوَكَّلْ عليه ، فإنه يَكفيك ما أهَمَّكَ من أمور الدنيا والآخرة . والآيةُ تُشير إلى عَظَمَة التَّوكل على اللهِ ، وأنه أساس متين مِن أُسُس الدِّين ، فَمَن تَوَكَّلَ على اللهِ كَفَاه أُمورَ دِينه ودُنياه ، وحَمَاه مِن كُل الشرور والأخطار. وكفى بالله مُفَوَّضًا إِلَيه الأمور الصغيرة والكبيرة . والوكيل الحافظ القائم على الأمر .

---

(١٠٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٤٨) برقم (٢٨٩٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤١٠): ((﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ تُوكَل إلَيه الأمور ، وتُفوَّض إلَيه الشؤون. فَمَن فَوَّضَ إلَيه أمورَه كفاه، ومَن وَكَلَ إلَيه أحوالَه، لَم يَحتج فيها إلى سِواه)).

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٧) : ((قَوْلُه : ﴿ وَتَوَكَّلْ على اللهِ ﴾ يقول : وَفَوِّضْ إلى الله أمورَك ، وَثِقْ بِه ، فإنه كَافِيك جميع مَن دُونه حتى يأتيَك أمرُه وقضاؤه.﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ يقول: وحَسْبُكَ بالله قَيِّمًا بأمورك ، وحافظًا لك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ [التغابُن : ١٣] .

على الله وَحْدَه تَوَكَّلُوا أيها المؤمنون في جميع شُؤونكم وأموركم وأحوالكم ، فهو الكافي والناصرُ والقادرُ على جَلْب الخير ودَفْع الشَّر . ومَن تَوَكَّلَ على الله ، فإن الله يَحفظه ويُدافع عنه، أمَّا غَيْرُه فلا يستطيع دَفع الشَّر ، ولا جَلْب الخير ، لأنَّ الله وَحْدَه هو النافع والضَّار .

والآيةُ دعوة إلهية للنبيِّ ﷺ أن يتوكَّل على الله ، ويثق به ، ويلتجئ إليه . وفي هذا إرشاد للأُمَّة المحمدية الإسلامية وتعليم لها بضرورة الالتجاء إلى الله دائمًا وأبدًا ، والثقة بوعده ونصره وتأييده.

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٨٥) : ((﴿ وعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ يقول : وإلى اللهِ فَلْيُلْقِ أزِمَّةَ أمورهم ويستسلم لقضائه ويثق بِنُصرته وعَوْنه المقرون بِوَحدانية الله ورسالة رسوله ، العاملون بأمره ونَهْيِه ، فإنَّ ذلك مِن كمال دِينهم ، وتَمام إيمانهم ، وأنهم إذا فَعلوا ذلك كَلأهم ورَعَاهم وحَفِظَهم مِمَّن أرادَهم بِسُوء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وَمَن يثق بالله ، ويعتمد عليه ، ويُفوِّض أمرَه إليه، فإن الله كافيه ما أهَمَّه مِن الدنيا والآخرة ، ومُؤيِّده وناصره في جميع أموره . والتوكلُ لا يُنافي الأخذ بالأسباب، لأن الأخذ بالأسباب جُزء مِن التوكل ، ولكن ينبغي للمؤمن أن لا يعتمد على الأسباب ، بَل يعتمد على خالق الأسباب .

والآيةُ تحضُّ العباد على تفويض أمورهم للهِ ، والثقة به ، والاعتماد عليه . كما أنه ربطت بين التوكل والكفاية بشكل وثيق . والتوكلُ له رُكنان : الاعتماد على الله والأخذ بالأسباب . ومَن زَعَمَ أنه مُتَوَكِّل على الله ولَم يأخذ بالأسباب فهو أحمق وجاهل بالدِّين. ومَن اعتمدَ على الأسباب وَحْدَها ، واعتبرَ أن لها تأثيرًا استقلاليًّا ، فهو كافر . فالأسبابُ خاضعة لِقُدرة الله وإرادته ومشيئته.

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٤٣): ((قَوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي مَن فَوَّض إليه أمره كفاه ما أهَمَّه.وقِيل : أي مَن اتقى اللهَ وجانبَ المعاصي وتوكلَ عليه، فله فيما يُعطيه في الآخرة من ثوابه كِفاية، ولَم يُرِد الدنيا لأن المتوكِّل قد يُصاب في الدنيا وقد يُقتَل)).

وفي شرح الأربعين النووية (١/ ٥٣) : ((فَبِقَدْر ما يركن الشخص إلى غَير الله تعالى بطلبه أو بقلبه أو بأمله ، فقد أعرضَ عن ربه بمن لا يضرُّه ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله)) اهـ .

وعن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((لو أنكم توكلتم على الله حَقَّ توكله ، لَرَزقكم كما يَرزُق الطيرَ ، تغدو خِمَاصًا ، وتَرُوح بِطَانًا))[105].

لو أن الناس يتوكَّلون على اللهِ أكمل التَّوَكُّل وأحزمه ، فيتعلقون بالله وَحْدَه ، ويثقون بأنه الرَّزاق الذي ضمن الرزق لعباده ، فلا يقع في قلوبهم شِك ، ولا يَتعلقون بِغَير الله تعالى ، ولا يُصابون بالضجر والخوف من الرزق، والقلق على المستقبل، ولا يتصارعون على جمع حُطام الدنيا، لَرَزقهم كُلَّ يَوم رِزْقًا جديدًا مُتَجَدِّدًا مِن غَير حاجة إلى حفظ المال، كما يَرزق الطيرَ، تَخرج مِن أول النهار جِيَاعًا، وتَرُوح آخر النهار ممتلئة الأجواف. إن الله لَم يَحمل أرزاق الطير إليها في الأوكار ، وإنما ألهمها الأخذ بالأسباب والسَّعي في طلب الرزق بالغُدُوِّ والرَّواح . وهكذا يتجلى الارتباط الوثيق بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب . وقد ذُكِرَ في الحديث أنها تغدو وتروح في طلب الرزق،ولا تظل نائمة في أوكارها أو مُختبئة. وكان الصحابة ــ رضي اللهُ عنهم ــ يُتاجرون، ويَعملون ، ويَذهبون إلى الأسواق ، والقُدوة بهم . والرِّزقُ محفوظٌ للإنسان ومضمون له . وقد تَكَفَّلَ اللهُ بهذا. والأخذ بالأسباب في الرِّزق واجبٌ، وهذا لا يُنافي التوكل على الله ، لأن الأخذ بالأسباب جُزء مِن التوكل على الله . لكنَّ العِبرة تكمن في الاعتماد على خالق الأسباب ، وليس الاعتماد على الأسباب. والإنسانُ كائن من لحم ودم ، ولديه مشاعر وأحاسيس ، ويخاف ويقلق . وعليه أن يتغلب على المشاعر السلبية باللجوء إلى الله والثقة به والاعتماد عليه . ومَن تَوَكَّلَ على اللهِ كَفاه ما أَهَمَّه . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٩٥) : ((فأخبرَ أن التوكل الحقيقي لا يُضاده الغُدُو والرَّواح في طلب الرزق . ابن العربي : ولكن شيوخ الصوفية قالوا : إنما يغدو ويَروح في الطاعات فهو السبب الذي يجلب الرزق ، قالوا : والدليل عليه أمران : أحدهما ــ قَوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيها لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه : ١٣٢]. الثاني ــ قَوله تعالى : ﴿ إِلَيْه يَصْعد الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصالِحُ يَرفعه ﴾ [فاطر : ١٠] . فليس يَنْزل الرزق من محله وهو السماء، إلا ما يصعد وهو الذِّكر الطيب والعمل الصالح، وليس بالسعي في الأرض فإنه ليس فيها رِزق. اهـ . والصحيح ما أحكمته السُّنة عند فقهاء الظاهر وهو العمل بالأسباب الدنيوية من

(١٠٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣٥٤) برقم (٧٨٩٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الحرث والتجارة في الأسواق والعمارة للأموال وغرس الثمار ، وقد كانت الصحابة تفعل ذلك والنبيُّ ﷺ بين أظهرهم)) اهـ .

٢٥_ نِعَمُه والأمر بالتحدث بها :

قالَ اللهُ تعالى:﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعمةَ اللهِ مِن بَعْدِ ما جَاءَتهُ فإنَّ اللهَ شَديدُ العِقاب﴾[البقرة : ٢١١].

إن النِّعَم الإلهية دليل على وجود الله ووَحدانيته وقُدرته وحِكمته وكرمه وفضله . وعلى الناس أن يَشكروا اللهَ على نِعَمه الكثيرة، ولا يُقابلوها بالجحود والاستخفاف والاستهانة . وبالشُّكر تَدوم النِّعَم . والإنسانُ لا يَعرف قيمة النِّعمة إلا بعد فقدانها . ومَن جَحد النِّعَم سَلَبَها اللهُ مِنه وعَذَّبه .

وأعظمُ نِعمة على الإطلاق هي الإسلام ، فهذه النِّعمة الإلهيةُ الجليلة هي التي تُنقِذ الإنسانَ من عذاب النار ، وتَمنحه الخلود في الجنة . لذلك ، لا يوجد نِعمة أعظم مِن الإسلام .

والآيةُ عامة وشاملة في كُل مَن يُبدِّل نِعمة الله ويُغيِّرها . والعِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والمعنى : ومَن يكفر بنعمة الله ويَجحدها ويَرفضها استهانةً بها واستخفافًا بِحَقِّها ، فإنه هالك لا مَحالة ، ومُستحق للعذاب الإلهيِّ بسبب كُفره وضلاله ، وسَيُعاقبه اللهُ أشد عُقوبة ، ويُعذِّبه في نار جهنم ، لأنه اقترفَ أسوأ ذنب ، وارتكبَ أبشع جريمة .

وإظهار لفظ الجلالة في ﴿ فإنَّ اللهَ شَديدُ العِقاب ﴾ لتعظيم الله ، والخوف مِنه ، ومِن عذابه. وهذا الخبرُ الإلهيُّ في الآية يتضمَّن الوعيد الشديد والعقاب الأليم .

وَمَن يَكفر بآيات الله وعهده ويُنكِر نُبُوَّة محمد ﷺ مِن بعد ما جاءته ، وأُقيمت عليه الْحُجَّة ، وقُطِع عُذره ، فإن الله يُعذِّبه أشد العذاب ، وعذابُ الله أليم شديد لا يمكن تخيُّله ولا تصوُّره .

وآياتُ اللهِ هي طريق الهدى والحق والنُّور والخلاص ، وأعظم النِّعَم وأجلُّها على الإطلاق ، لأنها سبب الهداية والنجاة من النار والفوز بالجنة . وتبديل آيات الله يعني الكفر بها وإنكارها والتلاعب بها وتحريفها ، وجعلها سببًا للضلال والكفر . لقد أنعمَ اللهُ عليهم بآياته العظيمة لتكون سببًا لهدايتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، فَبَدَّلوا هذه الآيات ، وغيَّروها ، وجعلوها سببًا لضلالهم . والآيةُ ﴿ مِن بَعْدِ ما جَاءَتهُ ﴾ تدل على أن كُفرهم كان عن عِلم ومعرفة ، ولَم يكن عن جهل. لذلك ، لا عُذر لهم في الكفر وتبديل آيات الله والتلاعب بها ، والكفر بنعمة الله العظيمة ، لأن الْحُجَّة مُقامة عليهم ، وقاطعة لِعُذرهم .

وكما قِيل :

فَإن كُنتَ لا تدري فتلك مُصيبة وإن كُنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٩):((قوله تعالى:﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعمةَ اللهِ مِن بَعْدِ ما جَاءَتهُ ﴾ لفظ عام لجميع العامة ، وإن كان المشار إليه بني إسرائيل لِكَونهم بَدَّلوا ما في كتبهم ، وجحدوا أمر محمد ﷺ . فاللفظ منسحب على كل مُبدِّل نعمة الله تعالى . وقال الطبري : النِّعمة هنا الإسلام . وهذا قريب من الأول ، ويدخل في اللفظ أيضًا كفار قريش فإن بَعْث محمد ﷺ فيهم نعمة عليهم، فَبَدَّلوا قبولها والشُّكر عليها كفرًا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٢٧) : ((وفي المراد بنعمة الله قَولان : أحدهما أنها الآيات _ كالعصا والغمام والمن والسَّلوى والبحر _ ، قاله قتادة . والثاني أنها حُجَج الله الدالة على أمر النبيِّ ﷺ ، قاله الزجاج . وفي معنى تبديلها ثلاثة أقوال : أحدها أنه الكفر بها ، قاله أبو العالية ومجاهد . والثاني : تغيير صفة النبيِّ ﷺ في التوراة ، قاله أبو سليمان الدمشقي. والثالث تعطيل حُجَج الله بالتأويلات الفاسدة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن تَعُدُّوا نِعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها ﴾[النَّحْل : ١٨] .

وإن تَحْسِبُوا وتعدُّوا نِعَمَ الله ، لا تستطيعوا عَدَّها لكثرتها مهما بذلتُم من جهود ، ولا تَقْدِروا على القيام بشُكرها . فالنِّعَمُ الإلهيةُ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى . وهذا يدل على وَحدانية الله وكرمه وفضله وإحسانه ، واستحقاقه للعبادة والشُّكر ، بلا شريك ولا ند ، وأن النِّعَم الإلهية كثيرة وغير مُتناهية ، ولا أحد يَستطيع أن يَعبد الله حَق عبادته . وإذا كان الإنسانُ عاجزًا عن حساب النِّعَم الإلهية وإحصائها وعَدِّها، فَمِن باب أولى أنه عاجز عن القيام بحق شُكرها. والتقصيرُ صفة للإنسان، لأنه كائن عاجز وناقص ومحدود القُدرات ، فينبغي عليه أن يبذل قُصارى جُهده في طاعة الله وشُكره ، ويَعترف بتقصيره في حق الله تعالى ، وعدم طاعته حق الطاعة . ومعَ هذا ، لا معنى لليأس والقنوط والعجز والكسل ، فاللهُ لَن يُحمِّله فوق ما يَطيق . والنِّعمةُ هي كُل نفع قُصِد به الإنسان . وأعظم نِعمة هي الإسلام ، لأنها تُنقِذ الإنسان من النار ، وتُدخله الجنة بفضل الله تعالى .

والآيةُ : ﴿ نِعمةَ اللهِ ﴾ تُشير إلى أن المفرَد يُفيد الاستغراق بالإضافة. فكلمة ﴿ نِعمةَ ﴾ مُفرَد ، أُضيفت إلى لفظ الجلالة ﴿ اللهِ ﴾ . وهذا يعني أن المقصود هو جميع النِّعَم الإلهية على الإطلاق.

واللهُ كثير المغفرة وعظيم الرحمة ، يتجاوز عن تقصير عباده ، ويُسامحهم بسبب غفلتهم عن شُكر النِّعَم الإلهية والتقصير في أداء حق شُكرها ، والعجز عن عَدِّها وإحصائها . واللهُ يُعامل الناسَ بما هو أهله، وهو أهل الكرم والفضل والمغفرة، ولا يُعاملهم بما هُم أهله، وهُم أهل التقصير والعجز والغفلة.لذلك يُسبِغ اللهُ النِّعَم على عباده في الظاهر والباطن،ويُديمها عليهم في حركاتهم وسكناتهم. وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٢٠) : ((قال العقلاء : إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص ، لَنَغَّصَ النِّعَم على الإنسان ، وتمنى أن يُنفِق الدنيا لو كانت في مِلْكه حتى يزول عنه ذلك الخلل ، فهو سُبحانَه يُدير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له ، معَ أن الإنسان لا عِلم له بوجود ذلك ، فكيف يُطيق حصر بعض نِعَم الله عليه، أو يَقْدِر على إحصائها أو يتمكن مِن شُكر أدناها ؟)) اهـ .

وفي فيض القدير للمُناوي (١/ ١٧٧):((قال الفخر الرازي: نِعَم الله سبحانه وتعالى لا تُحصَى لأن كل ما أَوْدَع فينا ، مَعَ المنافع واللذات التي ننتفع بها ، والجوارح والأعضاء التي نستعملها في جلب المنافع ودفع المضار، وما خلق في العالَم، مِمَّا يُستدَل به على وجود الصانع، وما أوجد فيه مِمَّا لا يحصل الزجر برؤيته عن المعاصي ، ومِمَّا لا يُحصَى عدده ، كُله منافع ، لأن المنفعة من اللذة أو ما يكون وسيلة إليها ، وجميع ما خلق الله كذلك ، لأن كل ما يلتذ به نعمة ، وكل ما لا يلتذ به وسيلة إلى دفع ضُر ، وهو كذلك ، وما لا يكون جالبًا للنفع الحاضر ، ولا دافعًا للضرر ، هو صالح للاستدلال به على وجود الصانع الحكيم ، يقع وسيلة إلى معرفته وطاعته ، وهما وسيلتان للذات الأبدية ، فثبت أن جميع مخلوقاته نِعمة على العبيد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واشْكُرُوا نِعمةَ اللهِ ﴾ [النَّحْل : ١١٤] .

واشكروا اللهَ على نِعَمه الجليلة الكثيرة ، التي أنعمَ بها عليكم ، واعرفوا حَقَّها وقَدْرَها ، ولا تُقابلوها بالجحود والإنكار. وإظهارُ لفظ الجلالة في موضع الإضمار ، لتعظيم الله ، والتذكير بِنَعمه، وضرورة شُكره عليها . والنِّعَمُ الإلهيةُ تدل على فضل الله وكَرَمه ، وشُكرها لا يُنال إلا بهدايته وتوفيقه . وبالشُّكر تدوم النِّعَم .

وقال الطبري في تفسيره(٧/ ٦٥٧):((يقول: واشكروا الله على نِعَمه التي أنعم بها عليكم)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا أَنعمْنا على الإنسان أَعرضَ ونأى بجانبه ﴾ [الإسراء : ٨٣] .

الإنسانُ في حال النِّعمة وسَعَة العيش ورَغَد الحياة ، يَنسى اللهَ صاحبَ النعمة الذي تَفضَّل عليه بهذه العطايا الكبيرة ، ويَركن إلى إمكانياته المادية ، فيُعرِض عن المنهج الإلهيِّ القويم ،

ويبتعد بنفْسه عن طريق الله الموصل إلى النجاة . إذ إنه يعتمد بالكُلِّية على الأسباب المادية مُعرِضًا عن خالق الأسباب القادر على منحها وسَلْبها . وبالتالي فالإنسانُ يُعرِّض نفسه للهلاك ، لأنه اغترَّ بنفْسه ولَم يَرَ أبعد منها ، ولَم يَلتزم بمنهج اللهِ واهبِ النِّعَم . وعندئذ تتحول النِّعمة إلى نِقمة بسبب سُوء تصرُّف الإنسان الْمُغتَرِّ بقُوَّته الزائلة ، وقدراته الوهمية ، وإمكانياته الفانية .

ولا شَكَّ أن الإعراض عن الطاعة ، والتمرد على الأوامر الإلهية ، من شأنهما قيادة الإنسان إلى الهلاك الحتميِّ . لقد اغترَّ هذا الإنسانُ بالصحة والعافية وكثرة الأموال والأولاد ، وأعرضَ عن شُكر الله، واستكبرَ عن طاعته، كأنه مُسْتغنٍ بقدراته الشخصية وإمكانياته الذاتية عن خالقه تعالى ، وهذه هي عادة المستكبرين المغرورين في كل زمان ومكان . والغرورُ قاتل ، والاستكبار مُهْلِك .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٨٠) : ((قِيل : نَزلت في الوليد بن المغيرة)) اهـ .

وينبغي قراءة التاريخ لمعرفة نهاية الملوك والأغنياء ، وسقوطِ الحضارات التي أُتيح لها من أسباب القوة والثروة الشيء الكثير ، لكنها ذَهبت إلى غير رَجْعَة . والعاقلُ مَن اتَّعظ بغَيره . والجاهلُ مَن اتَّعظ بنفْسه . وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٣٥٧) : ((يُحتمَل أن يكون الإنسان عَامًّا للجِنس . فالكافر يُبالغ في الإعراض ، والعاصي يأخذ بحظ منه)) اهـ .

والناسُ متفاوتون في الإعراض . ولا يُوجد إنسان يُفلِت مِنه . ولكنْ كُل شخص يأخذ بنصيب مُعيَّن مِنه ، وهذا النصيبُ يتم تحديد حَجْمه وَفْقَ المستوى الدينيِّ للشخص .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٨٠): ((قَوله تعالى: ﴿ وإذا أَنعمْنا على الإنسان ﴾. قال ابن عباس:الإنسان هاهُنا الكافر.والمراد به الوليد بن المغيرة.قال المفسِّرون:وهذا الإنعام سَعَة الرزق وكشف البلاء. ﴿ ونأى بجانبه ﴾...والمعنى: تباعدَ عن القيام بحقوق النِّعَم. وقِيل: تَعَظَّمَ وتكبَّرَ)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأسبغَ عَلَيكم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وباطنةً ﴾[لُقمان : ٢٠] .

لقد أتَمَّ اللهُ عليكم نِعَمه الكثيرة وأكملها بلا نقص ولا خلل ، ووسَّعها وأدامها وأكثرَها ، ظاهرةً مرئية تُرى بالأبصار كالإسلام والمال والصحة والأولاد والعافية والسمع والبصر ، وباطنةً خَفِيَّة لا تُرى بالأبصار ، كالعقل والمعرفة واليقين . لقد أتَمَّ اللهُ عليكم نِعَمه المحسوسة والمعقولة ، ما تَعرفونه وما تَجهلونه، ما تَرَوْنَه وما لا تَرَوْنَه.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٣٢٤): ((وروى الضَّحاك عن ابن عباس قال: سألتُ رسول الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول الله ، ما هذه النعمة الظاهرة والباطنة ؟، فقال : " أمَّا ما ظهر

فالإسلام وما سَوَّى الله مِن خَلْقك،وما أفضلَ عليك من الرزق، وأمَّا ما بَطَن فَسَتْر مساوئ عملك، ولَم يفضحك " . وقال الضَّحاك : الباطنة المعرفة ، والظاهرة حُسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضُّحى : ١١] .

حَدِّث الناسَ يا محمد بِنعمة الله وفَضْلِه عَلَيْكَ . ونِعَمُ اللهِ على النبيِّ ﷺ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى . وأعظمُها نِعمةُ القُرآن. والتحديثُ بالنِّعَم هو شُكْرٌ للهِ عَلَيها ،كما أنَّ الاعتراف بِها شُكْرٌ للهِ تعالى.

وكِتمانُ النِّعمةِ هو جُحودٌ لها ، وعدم اعتراف بفضل الله الْمُنعِم . انشُر يا محمد بين الناسِ ما أنعمَ اللهُ بِه عَلَيْكَ ، وذلك بالشُّكر والثناء ، وإظهار آثار النِّعمة وأحكامها .

وقد أنعمَ اللهُ على محمد ﷺ بالنُّبُوَّة . والتحديثُ بهذه النِّعمة العظيمة يَكون بتبليغها كاملةً بأسلوب جميل وجذَّاب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٦٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ في النِّعمة ثلاثة أقوال : أحدهما النُّبُوَّة . والثاني القُرآن . رُوِيَا عن مجاهد . والثالث أنها عامَّة في جميع الخيرات ، وهذا قول مقاتل)) اهـ . وقال عِياض في الشِّفا (١/ ٣٣) : ((أَمَرَه بإظهار نِعمته عَلَيه ، وشُكر ما شَرَّفه بِنَشره ، وإشادة ذِكْره بِقَوله تعالى : ﴿ وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، فإنَّ مِن شُكْر النِّعمة الحديث بها ، وهذا خاصٌّ له ، عامٌّ لأُمَّته)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٧٤) : ((وقال مجاهد : يَعني النُّبُوَّة التي أعطاكَ رَبُّك . وفي رواية عنه : القُرآن . وقال ليث عن رَجل عن الحسن بن عليٍّ :ـ ﴿ وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : مَا عَمِلْتَ مِن خَير فَحَدِّثْ إخوانَك . وقال محمد بن إسحاق : ما جَاءَكَ مِن الله مِن نِعمةٍ وكرامةٍ مِن النُّبُوَّة ، فَحَدِّثْ بِها ، واذْكُرْها ، وادْعُ إِلَيها)) اهـ .

والشُّكرُ يَدل على مَعرفة قيمة النِّعمة ، وهذا هو الطريق لمعرفة عَظَمَة اللهِ الْمُنْعِم ، لأنَّ النِّعمة تدل على الْمُنعِم . والشُّكْرُ له ثلاثة أنواع : ١ــ شُكر اللسان ، وذلك بالتحدث بالنِّعمة ونَشْرها، والثناء على الْمُنْعِم. ٢ــشُكْر الجوارح والأعضاء،وذلك بأداء العبادات على أكمل وَجْه.٣ــ شُكْر القلب ، وذلك بمعرفة أنَّ كُلَّ نِعمة مِنَ اللهِ المستحق للشُّكر والثناء الجميل .

وقال الألوسي في رُوح المعاني (٣٠/ ١٦٤) : ((وحاصل المعنى أنَّكَ كُنتَ يَتيمًا وضالاً وعائلاً ، فآواكَ وهداكَ وأغناكَ . فَمَهْما يَكُن مِن شيء ، فلا تَنْسَ نِعمةَ الله تعالى عليك في هذه الثلاث ، واقْتَدِ باللهِ تعالى ، فَتَعَطَّفْ على اليتيم ، وتَرَحَّمْ على السائل، فقد ذُقْتَ اليُتْمَ والفقرَ)).

وقد وَردت أهميةُ شُكْر اللهِ على نِعَمِه في الدُّعاء النبويِّ ، فقد قالَ النبيُّ ﷺ : ((واجْعَلْنا شاكرينَ لِنِعَمِكَ ، مُثْنِينَ بِها عَلَيْكَ ، قَابِلِينَ لها ، وأَتِمَّها عَلَينا)) [106].

إنَّ النبيَّ ﷺ يُعظِّم اللهَ تعالى ، ويُمجِّده ، ويَشكره على إنعامه وفَضْله وتَوفيقه ، ويُثني على اللهِ الثناءَ الحسَنَ الجميلَ ، ويَقبل نِعَمَه ، ويُقدِّرها ، ولا يَجحدها ، ويَطلب من اللهِ أن يُتِمَّها عَلَيه وعلى المسلمين . وبالشُّكْر تَدوم النِّعَم ، وجَحْدُ النِّعَم يُؤدِّي إلى زوالها ، وتعذيبِ أصحابها .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٢/ ١١٨) : ((سَأَلَ التوفيقَ لِدَوام الشُّكْر ، لأنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعَم . فِيه تَدوم وتبقى ، وبتركه تَزول وتَحول . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهِم ﴾[الرَّعْد : ١١] . وقال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُم لأزِيدَنَّكُم ﴾ [إبراهيم : ٧] . فالحقُّ تَقَدَّسَ إذا رأى عَبْدَه قام بحق نِعمته بالدَّوام على شُكْرها مَنَّ بَأُخرى رَآه لها أهلاً، وإلا قَطع عنه ذلك)) .

وعن النُّعمان بن بشير قال : قال النبيُّ ﷺ على المِنبر : ((مَن لَم يَشْكُر القليلَ ، لَم يَشْكُر الكثيرَ ، وَمَن لَم يَشْكُر الناسَ ، لَم يَشْكُر اللهَ . والتحدثُ بِنِعمة اللهِ شُكْر ، وتَرْكُها كُفْر ، والجماعة رَحمة ، والفُرقةُ عذاب)) [107] .

هذا الحديثُ سنده ضعيف ، لكنَّ مَعناه صحيح ، ويَشتمل على فوائد شرعية كثيرة :

١ــ ضرورة الشُّكْر على الشَّيء الصغير وعدم احتقاره ، لأنَّ الشُّكْر قضية مبدأ ، ولا تتعلق بحجم النِّعمة . ومَن جَحَدَ النِّعمةَ القليلةَ ، فَسَوْفَ يَجحد النِّعمةَ الكبيرة . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٧٩) : ((فاشْكُر لِمَن أعطى وَلَوْ سِمْسَمة)) اهـ .

٢ــ مَن جَحَدَ إحسانَ الناسِ ، ولَم يَعترف بفضلهم وإنعامهم ، فَسَوْفَ يَجحد نِعَمَ اللهِ ، ولَن يَعترف بِفَضل خالقه ، ولَن يَشكره . فَمَن كانت عادته الجحود ، فسيظلُّ جاحدًا سَوَاءٌ في تعامله مَعَ الناس أَم تعامله مع الله تعالى. وهذا يُشير إلى أهمية شُكْر الناسِ، والاعتراف بمعروفهم وفَضْلهم.

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٧٩) : ((أي : مَن كان طَبْعُه وعادتُه كُفران نِعمة الناس، وتَرْك الشُّكر لمعروفهم، كان عادته كُفران نِعَم الله ، وتَرْك الشُّكر له . أو المراد أنَّ اللهَ لا

---

(١٠٦) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٩٧) برقم (٩٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٠٧)رواه أحمد في مسنده(٤/ ٢٧٨).وقال الهيثمي في المجمع(٥/ ٣٩٢): ((رواه عبد الله بن أحمد والبزَّار والطبراني، ورجالهما ثقات)) اهـ.وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٦٧٤): ((إسناده ضعيف)).

يَقبل شُكْرَ العبد على إحسانه إلَيه ، إذا كان العبدُ لا يَشكر إحسانَ الناس ويُنكِر مَعروفَهم ، لاتِّصال أحد الأمرين بالآخَر)) اهـ .

وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن لَم يَشْكُر الناسَ ، لَم يَشْكُر اللهَ)) (108).

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن أُعْطِيَ عَطاءً فَوَجَد ، فَلْيَجْزِ بِه ، فَإِن لَم يَجِدْ ، فَلْيُثْنِ بِه ، فَمَن أثنى بِه فَقد شَكَرَه ، وَمَن كَتَمَه فَقد كَفَرَه)) (109).

إذا أحسنَ إلَيْكَ شخص ، وأسْدَى إلَيْكَ معروفًا ، وكان معك مال ، فادفع له مالاً مُكافأةً له على إحسانه إلَيك ، وحُسْن صَنيعه . وإذا لَم يكن معك مال ، فامْدَحْهُ ، واشكُره ، وقُل له كلامًا طَيِّبًا . فَمَن أثنى فقد شَكَرَ النِّعمةَ وصاحبَها ، ومَن سَكَتَ فقد جَحَدَ النِّعمةَ ، واحتقرَ صاحبَها، ولَم يَعترف بوجوده ولا فَضْلِه .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير(٦/ ٧٥): ((وفيه معنى قَوْلِه : " الحمدُ رأسِ الشُّكر ، ما شَكَرَ اللهَ عَبْدٌ لَم يَحْمَدْهُ ". والفاء في (وَجد) عاطفة على الشَّرْط ، وفي (فليجز به) جوابية. وفائدة التعبير بحرف الترتيب الإشارة إلى أنَّ مَن أُعْطِيَ لا يُؤخِّر الجزاءَ عَن الإعطاء أيَّما وَجد اليَسار)).

٣ــ التحدثُ بِنِعمة اللهِ، إنما يَكون بإشاعتها ونَشْرِها بين الناس مَعَ تَعظيمِ اللهِ الْمُنعِم والثناء الحسَن عَلَيه . والتحدثُ بِنِعمة اللهِ هو اعترافٌ بِها ، وتقديرٌ لها ، وتَعظيمٌ للمُنعِم ، لذلكَ كان التحدثُ بِنِعمة اللهِ شُكْرًا له سُبحانَه ، والشُّكْرُ عبادةٌ جليلةٌ ، مكانها القلبُ واللسان والأعضاء .

٤ــ تَرْكُ النِّعمة يَكون بإخفائها وجَحْدها وعدم الاعتراف بوجودها.وهذا يَعني رَفْضَ نِعمة اللهِ، وعدم الاعتراف بِفَضْلِ اللهِ وإنعامه . وهذا هو سبب زوال النِّعَم . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٧٩): ((" وتَرْكُها كُفْر " أي سَتْر وتغطية لِمَا حَقُّه الإظهار والإذاعة. قال بعضُ العارفين : ذِكْرُ النِّعَم يُورِث الحبَّ في اللهِ، ثُمَّ هذا الخبر موضعه ما لَم يترتب على التَّحدث بها ضَرر كحسد، وإلا فالكِتمان أوْلَى، كما يُفيده قول الزمخشري : وإنما يجوز مِثْل هذا إذا قَصد أن يُقتدَى بِه ، وأَمِنَ على نفْسه الفِتنةَ ، وإلا فالسَّتْرُ أفضل . وَلَوْ لَم يكن فيه إلا التَّشبه بأهل السُّمعة والرِّياء لَكَفى)) .

---

(١٠٨) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٣٣٩) ، وقال : حسن صحيح .

(١٠٩)رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٦٧١)، والترمذي في سُننه (٤/ ٣٧٩) ، وقال : حسن غريب.

٥_ اجتماعُ كلمة المسلمين رَحمة للجميع، وسعادة، وهَناء، وتقدُّم سياسي،وازدهار اجتماعي، ورخاء اقتصادي. حيث يتعاون المسلمون معًا ، ويَبنون مجتمعاتهم ، ويَقودون مسيرةَ التنمية الحقيقية لا الشعاراتية ، ويُطوِّرون بلادهم، ويُحسِّنون أوضاعَ الناس المعنوية والمادية . لذلك كانت الجماعةُ بركةً ورحمةً . أمَّا الفُرقة والتناحر واختلاف الكلمة فَتُؤدِّي إلى النِّزاعات المسلَّحة ، والانهيار الاقتصادي ، والتفكك الاجتماعي ، وانتشار القتل والجريمة والفساد والخراب والدمار الشامل .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٧٩) : ((أي : اجتماع جماعة المسلمين ، وانتظام شَمْلهم زِيادة خَير وأجر . وتفرُّقهم يترتب عليه مِنَ الفِتَن والحروب والقتل وغَير ذلك ، مِمَّا هو أعظم مِن كُل عذاب في الدنيا ، وأمرُ الآخِرة إلى اللهِ)) اهـ .

إنَّ شُكْرَ النِّعمة يُؤدِّي إلى الاحتفاظ بها وزيادتها ، وجَحْدَها يُؤدِّي إلى زَوالها ، أو تَحَوُّلِها إلى نِقمة . ودائمًا ، الأحمق يُحوِّل النِّعمةَ إلى نِقمة بِسُوء تصرُّفه ، ويَصير الإحسانُ والنَّعيمُ هلاكًا وتعاسةً ، لأنَّ الجاهلَ عَدُوُّ نَفْسِه ، يُدمِّر نَفْسَه بنفْسه ، ويَقودها إلى الهاوية السحيقة .

ويَنبغي أن تَظهر آثار النِّعَم الإلهية على الإنسان ، فإن أعطاه اللهُ مالاً ، ارتدى ثيابًا جميلة ، وأكلَ طَعامًا شَهِيًّا، وسَكَنَ في بيت واسع ومُريح ، وأنفقَ وتَصَدَّقَ. وإن أعطاه اللهُ عِلْمًا نَشَرَ عِلْمَه بين الناس بِكُلِّ الوسائل . واللهُ أعطى العبدَ النِّعمةَ كَي تتغيَّر حياتُه إلى الأفضل، ويَظهر آثارُها عَلَيه، وليس كَي يَكتمها ويَجحدها، ويَظهر كمظهر البائس الفقير. وإظهارُ آثارِ النِّعمةِ شُكْرٌ للهِ عَلَيها. ولْتَكُنْ نِيَّته امتثال أمرِ اللهِ وتعظيمه وتقدير نِعمته ، وليس الرِّياء أو السُّمعة أو الْمُباهاة أو الْمُفاخَرة أو الغرور.

وعن عمرو بن شُعَيب عن أبيه عن جَدِّه أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((كُلوا، واشْرَبوا، وتَصَدَّقوا ، في غَيْرِ سَرَفٍ (تبذير) ، ولا مَخِيلة (كِبْر) ، إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ أن يَرى أثرَ نِعمته على عَبْده))(110).

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٧٩) : ((" فائدة " أخرج في الحِلْية عن وَهْب أنَّ بعض الأنبياء عليه السلام سَأل رَبَّه عن سَبَب سَلْب بَلْعام بعد تلك الآيات والكرامات ، فقال تعالى: إنه لَم يَشْكُرْني يَومًا على ما أَعْطَيْتُه ، وَلَوْ شَكَرني على ذلك مَرَّةً واحدةً لَمَا سَلَبْتُه نِعْمتي)).

---

(١١٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ١٥٠) برقم (٧١٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

و" بَلْعَام بن باعوراء " عالِم مِن عُلماء بني إسرائيل ، أعطاه اللهُ عِلْمَ بعض كُتب اللهِ ، لكنَّه كَفَرَ بِها ، وانحرفَ عن منهج الحق ، فَسَلَبَ اللهُ مِنه الكراماتِ ، وطَرَدَه ، وذَمَّه .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ : في قوله _ عَزَّ وَجَلَّ _: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ، قال : ((هو بَلْعَام بن باعوراء))(111).

٢٦_ الرُّجوع إلَيه :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ يَظُنُّونَ أنهم مُلاقُو رَبِّهِم وأنهم إِلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ [البقرة : ٤٦] .

إن الإنسانَ مهما دار في هذه الحياة الدنيا ، وتقلَّبَ فيها ، فسوفَ يَرجع _ رَغْمَ أنفه_ إلى الله، لأنه مخلوق مقهور في قبضة خالقه ، ولا أحد يَهْرب مِن الله ، الذي يُهيمن على كُل المخلوقات ، ويُسيطر عليها ، والدنيا والآخرة كِلتاهما تحت إرادته ومشيئته . والمقصود بالظن في الآية هو اليقين لا الشَّك ، لأن الشاك في مُلاقاة الله كافر . والعربُ قد تُسمِّي اليقين ظَنًّا ، والشَّك ظَنًّا . والظن من الأضداد ، يكون شَكًّا ويقينًا ، كالرجاء يَكون خَوْفًا وأملاً وأمْنًا .

وهؤلاء المؤمنون الصادقون في إيمانهم يُوقنون أنهم مبعوثون بعد الموت للحساب،وأنهم راجعون إلى الله خالقهم ، فيجزيهم بأعمالهم. إنهم مُصَدِّقُون بالبعث والحساب والرجوع إلى الله في الآخرة . وهو وَحْدَه يَملك أمرهم ، ويُقرِّر مصيرَهم .

إنهم يتوقعون لقاءَ الله ، والحصول على ثوابه وكرامته ، ويَطمعون في أجره ومغفرته وإحسانه . وبما أن الظن مُشابِه للعِلم في الرَّجحان، أُطْلِق الظن على العِلم ، لاشتراكهما في معنى التوقع .

إنهم يَعلمون ويُوقنون بحتمية لقاء الله والجزاء ، لذلك يَعْمَلون لذلك اليوم باجتهاد ونشاط ، أمَّا الكافر بالبعث الذي لا يُصدِّق بالجزاء،ولا يَرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا، ولا يُؤمن بجنة ولا نار، فسوفَ يكون ذلك اليوم شديد الصعوبة عليه ، لأنه قادَ نفسه إلى الخلود في عذاب النار .

وفُسِّرَ لقاء الله برؤيته بلا كَيْف ، معَ تَنْزيه الله عن كُل ما لا يليق به .

وقال أبو السعود في تفسيره(١/ ٩٨):((﴿ الذينَ يَظُنُّونَ أنهم مُلاقُو رَبِّهِم وأنهم إِلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ أي : يتوقعون لقاءه تعالى ونَيل ما عنده من المثوبات.والتعرض لعنوان الرُّبوبية مع الإضافة إليهم، للإيذان بِفَيَضَان إحسانه إليهم ، أو يتيقَّنون أنهم يُحشَرون إليه للجزاء، فيعملون على حَسَب ذلك

(١١١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٥٥) برقم (٣٢٥٨) ، وصحَّحه الذهبي .

رغبةً ورهبةً ، وأمَّا الذين لا يُوقنون بالجزاء ، ولا يَرجون الثواب ، ولا يَخافون العقاب ، كانت عليهم مشقة خالصة ، فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين . فالتعرض للعنوان المذكور للإشعار بِعِلِّية الرُّبوبية والمالكية للحُكم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ الذينَ إذا أصابَتْهُم مُصيبةٌ قالوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ [البقرة: ١٥٦] .

هذه بشارة إلهية للصابرين على الشِّدة والبلاء والمصائب . لقد مَدحهم اللهُ وشكرهم وأعلى قَدْرَهم ، ورفع مَنْزلتهم. الذينَ إذا أصابهم بلاء وشِدَّة ، عَلِموا أنهم مِلْك لله وعباد له ، واقعون تحت إرادته، وخاضعون لمشيئته ، واللهُ يتصرَّف في عباده بما يشاء ، وهو سُبحانَه يَمتحن عباده بالمصائب كَي يَرفع درجتهم في الآخرة، ويَجزيَهم خَير الجزاء إذا صَبروا ، ولَم يَسخَطوا .

والمصيبةُ هي كُل ما يُؤذي المؤمن ويُصيبه . إنهم يَعترفون لله بالْمُلْك والألوهية ، ويُقِرُّون على أنفسهم بالموت . والخطابُ في الآية للنبيِّ ﷺ ، أو لِمَن تتأتى مِنه البشارة .

والآيةُ ﴿ إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ هي ملجأ المؤمنين عند الشدائد والكوارث والمصائب والمِحَن، وهي تتضمَّن أعظم المعاني وأسمى العقائد : تَوحيد الله ، والاعتراف بعبوديته ، والإيمان بالبعث والنُّشور . إنهم يَعتصمون بهذه الآية العظيمة عند المصائب ، حيث يقولون : إنَّا للهِ مِلْكًا وعبيدًا ، يَفعل بنا ما يشاء ، والسَّيدُ هو الذي يُحدِّد طبيعةَ حياة عبيده، ومرجعنا إليه في الآخرة ، ومصيرنا إليه ، فَيُجازينا ويُثيبنا . وهذا يدل على ثقتهم بالله تعالى وتصديقهم باليوم الآخر ، والحياة بعد الموت . إنهم يُقِرُّون بالبعث ، والجزاء على أعمالهم ، والثواب على صبرهم . ولا فائدة من الجزع والسَّخَط عند المصيبة ، لأن ما حدث قد حدث ، وصارَ واقعًا ، والجزع والسخط لَن يُعيدا عقارب الساعة إلى الوراء ، ولَن يَمنعا حُدوث المصيبة . إذن ، لا مَفر من الصبر وتحمُّل المسؤولية.

والصبرُ يقوم على الاسترجاع : ﴿ إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ باللسان والقلب مَعًا ، حيث يُذكِّر المؤمنُ نَفْسَه أنه مخلوق لله وعبد له ، وواقع تحت أمره وحُكمه ، وراجع إليه بعد الموت . والاسترجاع تسليمٌ لله وإذعان له ، وهكذا يتحقق معنى العبودية الخالصة بلا شوائب . وعلى المؤمن أن يتذكر نِعَم الله الكثيرة التي تُحيط به من كل الجوانب ، فإذا أخذَ اللهُ مِنه نِعمةً واحدةً لاختباره وامتحانه ، هل يصبر أَم يَسخَط؟، هَل يَزداد إيمانًا أَم يكفر؟،فقد تَرَكَ له نِعَمًا كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، وهذا يُهوِّن على المؤمن المصيبة ، ويَمنحه القدرة على الصبر والصمود والتماسك في أصعب الظروف ، وأشد المواقف ، ويُصبح من السهل عليه الاستسلام لقضاء الله وقَدَره ،

والتسليم لأمره وحُكمه،والانصياع لإرادته ومشيئته.والدنيا دار بلاء وامتحان ومصائب وكوارث. وقد أعلمَ اللهُ عباده بحتمية وقوع البلاء، وذلك قبل وقوعه، من أجل الاستعداد والانتباه ، وتَوْطين النَّفْس على الصبر والتحمُّل ، بلا خَوف ولا جَزع ولا سَخَط ، فلا معنى للمُفاجأة ، ولا داعي للقلق والاضطراب ، لأن البلاء قادم لا مَحالة ، والمصائب آتية بلا شك ، وهذا هو الامتحان الدُّنيوي ، الذي تتوقف عليه النتيجة في الآخرة ، إمَّا النجاح (الصبر وزيادة الإيمان) وإمَّا الفشل (السَّخَط والكفر). ومعَ هذا ، فاللهُ رحيمٌ بعباده ، لا يأخذ مِنهم كُل شيء ، ولا يُعطيهم كُل شيء. يَقطع ويَصِل ، ويَصِل ويَقطع . ويُثبِّت عباده المؤمنين في لحظات الشِّدة ، ويُنْزِل عليهم السَّكينة والطمأنينة . فعلى سبيل المثال، إذا أخذَ اللهُ مِن المؤمن نعمةَ المال ، تركَ له نِعمة الصحة.وإذا أعطاه المالَ،أخذَ مِنه الولَد.وإذا ضَيَّقَ عليه في الدنيا ، وَسَّعَ عليه في الآخرة ... إلخ.

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٤٥) : ((يعني تعالى ذِكْرُه : وبَشِّرْ يا محمد الصابرين الذين يعلمون أن جميع ما بهم من نعمة فَمِنِّي ، فَيُقِرُّون بعبوديتي ، ويُوحِّدونني بالرُّبوبية ، ويُصدِّقون بالمعاد والرجوع إِلَيَّ ، فيستسلمون لقضائي ، ويَرجون ثوابي ، ويَخافون عقابي ، ويقولون _ عند امتحاني إيَّاهم ببعض مِحَني ، وابتلائي إيَّاهم بما وعدتهم أن أبتليَهم به من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، وغَير ذلك من المصائب التي أنا مُمتحنهم بها _ : إنَّا مَماليك رَبِّنا ومعبودنا أحياءً ، ونحن عبيده وإنَّا إليه بعد مَماتنا صائرون ، تسليمًا لقضائي ، ورضا بأحكامي)) .

وعن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ وعن أبي هريرة : عن النبيِّ ﷺ قال : ((ما يُصيب المسلمَ مِن نَصَب، ولا وَصَب ، ولا هَم ، ولا حَزَن ، ولا أذًى ، ولا غَم ، حتى الشَّوكةُ يُشَاكُها ، إلا كَفَّرَ اللهُ بِها مِن خَطاياه))[112].

إنَّ اللهَ لا يَبتلي عباده بالمصائب كَي يُدمِّرهم ويُنغِّص عليهم حياتهم ويَقضيَ على مستقبلهم ، وإنما يَبتليهم ويَختبرهم ويَمتحنهم،لِيُطَهِّرهم من ذُنوبهم وآثامهم،ويَمنحهم الأجرَ العظيم في الآخرة. ولا بُد من الامتحان لمعرفة النتيجة ، واللهُ يَعلم كُل شَيء قبل وقوعه ، ولكنه سُبحانَه يَضع نتيجة

(١١٢)متفق عليه واللفظ للبخاري(٥/٢١٣٧)برقم(٥٣١٨)،ومسلم(٤/ ١٩٩٢)برقم (٢٥٧٣) .
[نَصَب : تَعَب / وَصَب : مَرَض / هَم : كُره لِمَا يتوقعه مِن سُوء / حَزَن : أسى على ما حصل له مِن مكروه في الماضي / أذى : مِن تَعَدِّي غَيره عليه / غَم : ما يُضيِّق النفس والقلب / يُشَاكها: يُصاب بها جسده / كفَّر اللهُ بها مِن خطاياه : مُحِيَ بسببها من ذنوبه].

الامتحان أمام عبده ، فلا مجال للهرب ولا التهرُّب ولا الإنكار . واللهُ غنيٌّ عن إيمان المؤمن وكفر الكافر ، ولا يَحتاج إلى اختبار عباده ولا امتحانهم . إنَّ الأمة المحمَّدية الإسلامية مرحومة . فقد رحمها اللهُ وأحسنَ إليها وتفضَّلَ عليها ، إكرامًا لرسولها ﷺ (أعظم الأنبياء والمرسَلين) . والحديثُ يشتمل على مدح لهذه الأمة ، وخاصية لها دُون سائر الأمم ، مِمَّا يدل على عناية الله بها ، ورعايته لها . فكل مُصيبة تُصيبهم في الدنيا ــ صغيرةً كانت أم كبيرةً ــ ، فإن الله يَمحو بِها في الآخرة ذنبًا مِن ذُنوبهم ، حتى يُطهِّرهم بشكل كامل ، ويأتوا يوم القيامة طاهرين من الذنوب والخطايا ، مُطهَّرين مِن الآثام والمعاصي .

وهذه مَزِيَّة خاصة بالأمة المحمدية الإسلامية لِكَوْنها أفضل الأمم ، وخاتمة الأمم . وقد استمدَّت مكانتها مِن مكانة رسولها محمد ﷺ ، صاحب الشرف الرفيع والسيادة العُظمى . والتابعُ يستمدُّ شَرَفَه مِن شَرَف رئيسه وقائده .

والحديثُ يُشير إلى لُطف الله ورحمته بالأمة المحمدية الإسلامية ، وعنايته بها ، ورعايته لها ، وإعطائها الخصائص المتفرِّدة ، والمزايا الباهرة . ولا شَكَّ أن مَن حُوسِب بعمله عاجلاً في الدنيا ، خَفَّ حِمْلُه يوم القيامة . والتطهيرُ بالمصائب في الدنيا أفضل من عذاب النار في الآخرة .

كُل المصائب هي رفع درجات للمؤمن ، وتطهير له ، وتنقية من الذنوب ، حتى يموت طاهرًا مِن دَنَس المعاصي والذنوب . كالشخصُ الذي يتعاهد بَدَنَه وثَوبه بالتنظيف والطهارة أولاً بأوَّل .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٧٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ قالوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ جَعل اللهُ تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب وعِصمة للمُمْتَحَنِين ، لِمَا جَمعت من المعاني المبارَكة ، فإن قَوله : ﴿ إنَّا للهِ ﴾ توحيد وإقرار بالعبودية والْمِلْك ، وقَوله : ﴿ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ إقرار بالْهُلْك على أنفسنا ، والبعث من قبورنا ، واليقين أن رجوع الأمر كُلِّه إليه ، كما هو له ، قال سعيد بن جُبَير ــ رحمه الله تعالى ــ : لَم تُعْطَ هذه الكلمات نَبِيًّا قبل نَبِيِّنا ، وَلَو عرفها يعقوب لَمَا قال : ﴿ يا أسَفَى على يُوسُف ﴾ [يُوسُف : ٨٤])) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٢ / ٦٣١) : عن أُم سَلَمَة أنها قالت : سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((ما مِن مسلم تُصيبه مُصيبة ، فيقول ما أمَرَه اللهُ : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون . اللهُمَّ أجُرْني في مُصيبتي ، وأخْلِفْ لي خَيْرًا مِنها ، إلا أخلفَ اللهُ له خَيْرًا مِنها)) .

وأمرُ اللهِ هو ما وردَ ضِمن مدح الصابرين: ﴿ الذينَ إذا أصابَتْهُم مُصيبةٌ قالوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ . وكُل خِصلة مَمدوحة في القُرآن تتضمَّن الأمر بها، وكُل خِصلة مذمومة تتضمَّن النهيَ

عنها . وبعد أن يَسترجع المؤمن ، يَطلب مِن الله أن يُعطيَه الأجرَ وجَزاءَ صبره ، وأن يَرُدَّ عليه أفضلَ مِمَّا أُخِذ منه ، مِثل ذهاب مال أو موت ولد ... إلخ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٢٢٠) : ((قَوله ﷺ : " ما مِن مسلم تُصيبه مصيبة ، فيقول ما أمَرَه اللهُ : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ". فيه فضيلة هذا القول، وفيه دليل للمذهب المختار في الأصول أن المندوب مأمور به ، لأنه ﷺ مأمور به ، معَ أن الآية الكريمة تقتضي نَدْبه ، وإجماع المسلمين منعقد عليه . قَوله ﷺ : " أجُرْني في مُصيبتي، وأخْلِفْ لي خَيْرًا مِنها "... ومعنى أَجَرَه اللهُ : أعطاه أجره وجزاء صبره وهَمِّه في مصيبته . وقَوله ﷺ : " وأخْلِفْ لي " ... قال أهل اللغة: يُقال لِمَن ذهب له مال أو ولد، أو قريب أو شيء يتوقع حصول مِثْله : أخلفَ اللهُ عليك، أي رَدَّ عليك مِثْلَه ، فإن ذَهَبَ ما لا يتوقع مِثْله بأن ذهب والد أو عَم أو أخ لِمَن لا جَد له ، ولا والد له ، قِيل : خَلَفَ اللهُ عليك ، بغير ألف ، أي : كان الله خليفة منه عليك)) اهـ .

وإذا أصابَ المؤمنَ مصيبةٌ ، فليتذكر مُصيبته بموت النبيِّ ﷺ الذي يُمثِّل أعظم المصائب على الإطلاق، فقد انقطعَ الوَحْيُ إلى الأبد، واختفت النُّبُوَّة مِن العالَم ، لأن محمدًا ﷺ هو خاتَم الأنبياء، ولا نبيَّ بَعْده ،كما ارتدَّت العربُ عن الإسلام بعد مَوت النبيِّ ﷺ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٧٠) : ((قال أبو سعيد : ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكَرْنا قُلوبَنا)) اهـ . وصَدَقَ أبو العتاهية إذ يقول :

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصيبةٍ وتَجَلَّدِ	وَاعْلَمْ بأن المرءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
أوَمَا ترى أن المصائب جَمَّة	وترى الْمَنِيَّة للعبادِ بِمَرْصَدِ
مَن لَم يُصَبْ مِمَّن ترى بِمُصيبة ؟	هذا سبيلٌ لَسْتَ فيه بأوحدِ
فإذا ذَكَرْتَ مُصيبةً تَسْلُو بِها	فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بالنبيِّ مُحَمَّدِ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهُم لا يُظْلَمُون ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

إنَّ اللهَ يَعِظ الناسَ ويُحذِّرهم ويُرشدهم ، ويُنبِّهُهم ، ويُذكِّرهم بأن الدنيا فانية ، وأنهم مَيِّتون لا مَحالة، وأنهم مَبعوثون مِن قبورهم ، ومرجعهم ومصيرهم إلى الله تعالى ، ولا يُمكن الهروب مِنه.

واللهُ يُحاسب الناسَ على أعمالهم ، ويُجازيهم عليها ، إن خَيْرًا فخير ، وإن شَرًّا فَشَر . واللهُ هو الْحَكَم العادل ، والحاكم الْمُنصِف ، والقاضي الذي لا يَظلم ولا يُحابي ولا يُجامل ولا يَرتشي .

وهذه الآية عبارة عن موعظة إلهية حسنة للناس جميعًا،وهذا الأمر يخصُّ كل إنسان بلا استثناء. مِمَّا يُشير إلى أن الله قد خَلق الناسَ لِيُنقذهم لا لِيُدمِّرهم، لذلك أرشدهم اللهُ إلى طريق الحق، ونبَّههم ، لأخذ الحِيطة والحذَر ، والتأهُّب لمصيرهم ومرجعهم إليه . واللهُ أرحم بالعباد مِن أُمَّهاتهم ، لأنه هو خالقهم وصانعهم ، وهُم مَخلوقاته ومصنوعاته ، التي كرَّمها ، وبيَّن لها طريق الخير وطريق الشر . والإنسان حُر في اختياره بلا ضغط ولا إكراه، ووَفْق اختياره الشخصي يتحدَّد مصيره في الآخرة : الخلود في الجنة ، أو الخلود في النار .

وفي تفسير القرطبي (٣/ ٣٥٧) : ((قال ابن جِنِّي : كأن الله تعالى رَفَقَ بالمؤمنين على أن يُواجههم بِذِكْر الرَّجعة ، إذ هي مِمَّا ينفطر لها القلوب . فقال لهم : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا ﴾ ، ثُمَّ رجع في ذِكر الرَّجعة إلى الغَيبة رِفْقًا بهم . وجمهور العلماء على أن هذا اليوم الْمُحَذَّر منه هو يوم القيامة والحساب والتَّوفية)) اهـ .

إن المراد بِ﴿ يَوْمًا ﴾ هو يوم القيامة ، وتنكيره لتهويل أمره ، وتعظيم أهواله ، والتخويف مِن شِدَّته . وتعليق الاتِّقاء بِه : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا ﴾ لتفخيم أمره وتعظيمه ، والتحذير الشديد مِن صعوبته البالغة . فاتَّقوا أيها الناس يوم القيامة واحذروا مِنه ، وكُونوا على استعداد له ، بعمل الطاعات، واجتناب المعاصي . ففي هذا اليوم الرهيب ، تُرْجَعون إلى حُكم الله وقضائه ، ثُمَّ تُجَازَى كُل نفس من النفوس الْمُكَلَّفة شَرْعًا بما عَمِلَت مِن خير أو شر ، واللهُ لا يَظلم أحَدًا ، لا يَزيد في سَيِّئات العُصاة ، ولا يُنقِص مِن حسنات الطائعين . لا يُضاعِف العِقاب ، ولا يُنقِص الثواب .

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ﴾ تدل على الإفراد لتتناسب مع حالة الكسب، أمَّا ﴿ وهُم لا يُظْلَمُون ﴾ فالضمير للجمع ، وهذا يتناسب مع حالة الجزاء . فالإنسانُ مسؤول عن عمله الشخصي ، إمَّا أن يَكسب الحسنات أو يَكسب السَّيئات . في حِين أن الجزاء عامل وشامل للجميع ، واللهُ لا يَظلم الناسَ ، لا استثناء في ذلك ، ولا تخصيص . فاللهُ مُنَزَّهٌ عن الظلم جُملةً وتفصيلاً . لا يَظلم الفردَ ولا يَظلم الجماعة . لا يَظلم المؤمنين ، ولا يَظلم الكافرين.

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ١١٥): ((يعني بذلك جَل ثناؤه: واحذروا أيها الناس ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ﴾ فَتَلْقَوْنَه فيه ، أن تَرِدُوا عليه بسيئات تُهلككم ، أو بِمُخزيات تُخزيكم ، أو بفاضحات تفضحكم فتهتك أستاركم ، أو بِمُوبقات تُوبقكم فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قِبَل لكم به ، وإنه يوم مُجازاة بالأعمال ، لا يوم استعتاب ، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة ، ولكنه يوم جزاء وثواب ومُحاسبة، تُوَفَّى فيه كُل نفس أجرها على ما قَدَّمت واكتسبت مِن سَيِّئ وصالح،

لا تُغَادِر فيه صغيرة ولا كبيرة مِن خَير وشر إلا أُحْضِرَت، فَوُفِّيَت جَزاءها بالعدل مِن رَبِّها. ﴿ وهُم لا يُظْلَمُون ﴾ ، وكيف يُظلَم مَن جُوزِيَ بالإساءة مِثلها وبالحسنة عشر أمثالها ؟! . كلا ، بل عدل عليك أيها الْمُسيء ، وتَكَرُّم عليك ، فأفضِل وأسبِغ أيها المحسِن ، فاتَّقى امرؤ رَبَّه ، وأخذ منه حِذره وراقبه أن يَهجم عليه يَوْمُه ، وهو من الأوزار ظَهْرُه ثقيل ، ومن صالحات الأعمال خفيف ، فإنه عَزَّ وَجَلَّ حَذَّرَ فأعذرَ ، وَوَعَظَ فأبلغَ)) اهـ . وعن ابن عباس : في قَوله : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ﴾ : ((أنها آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ)) [113].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٣٤) : ((هذه آخر آية نزلت مِن القرآن . قال ابن عباس : وَتُوُفِّيَ رسول الله ﷺ بعدها بأحد وثمانين يَوْمًا . وقال ابن جُرَيج: تُوُفِّيَ بعدها بتسع ليالٍ . وقال مقاتل : بسبع ليال)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرضَ وَمَن عَلَيْها وإِلَيْنَا يُرْجَعُون ﴾[مريم : ٤٠] .

إنَّ اللهَ هو الحيُّ الباقي ، يَتصرَّف في مُلكه كما يشاء ، ويُدبِّر شُؤون خَلْقه كما يُريد . والخلقُ جميعًا يَفنون ويَهلكون ، ويبقى الله وَحْدَه ، لا مُلْك لِغَيره ، ولا تصرُّف لِسِواه . وَحْدَه المالك الْمُتصرِّف ، وهو الوارث لجميع خَلْقه ، الحيُّ الباقي الذي لا يَموت .

لقد تَفَرَّدَ اللهُ بالْمُلْك والبقاء عند مَوت الخلائق وهلاكهم الشامل . والآيةُ عبارة عن بقاء الله تعالى بعد مَوت مخلوقاته وفنائهم. وذِكْرُ ﴿ مَن ﴾ لتغليب العقلاء . ومَرجع الخلق ومصيرهم إلى الله وَحْدَه ، لا إلى غَيره . يُحاسبهم ، ويُجازيهم حَسَب أعمالهم ، ولا يَظلمهم . وهو الْحَكَم الحاكم ، يَحكم لهم أو عليهم. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٧) : ((﴿ إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرضَ وَمَن عَلَيْها ﴾ لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم مُلْك . أو نَتوفى الأرض وَمَن عليها بالإفناء والإهلاك ، تَوَفِّي الوارث لإرْثه ، ﴿ وإِلَيْنَا يُرْجَعُون ﴾ يَرِدُون للجزاء)) اهـ .

واللهُ كَتب الموتَ على خَلْقه كُلِّهم ، وجَعل مرجعهم ومصيرهم إليه للحساب والجزاء . وهو الحاكم فيهم بالعدل ، والقاضي الذي يفصل بينهم بالحق . وهو سُبحانَه مُنَزَّهٌ عن الظلم ، لا يَزيد في سَيِّئات العُصاة ، ولا يُنقِص مِن حسنات الطائعين . يُجازي المحسِن بإحسانه ، ويُدخِله الجنةَ بفضله ، وله المِنَّة الكُبرى . ويُجازي الْمُسيء بإساءته ، ويُدخِله النارَ بعدله ، وله الْحُجَّة البالغة .

(١١٣) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٧١) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٤) : ((رواه الطبراني بإسنادين ، رجال أحدهما ثقات)) .

إنه سُبحانَه يُميت سُكانَ الأرض ويُهْلكهم جميعًا ، فلا يبقى فيها أحد يَرِث الأموات . واللهُ سُبحانَه يَرِث الأرضَ والناسَ الذين أماتهم ، ويَرِدُون إلى الله يوم القيامة ، ويَجزيهم بأعمالهم ، إمَّا الثواب ، وإمَّا العِقاب.وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٣٤٦): ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ: لا يَحْزُنكَ تكذيب هؤلاء المشركين لك يا محمد ، فِيما أتيتهم بِه مِن الحق ، فإنَّ إلَينا مرجعهم ومصيرهم ، ومصير جميع الخلق غَيرهم ، ونَحْن وارثو الأرض ومَن عليها مِن الناس ، بفنائهم منها وبقائها ، لا مالكَ لها غَيْرُنا ، ثُمَّ علينا جزاء كُل عامل مِنهم بعمله عند مرجعه إلَينا ، المحسِن منهم بإحسانه ، والمسِيء بإساءته)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٣٥) : ((فَإن قِيل: ما الفائدة في ﴿ نَحْنُ ﴾ وقد كفت عنها ﴿ إنَّا ﴾ ؟ ، فالجواب أنه لَمَّا جَاز في قول الْمُعَظَّم : إنَّا نفعل، أن يُوهم أن أتباعه فعلوا، أبانت ﴿ نَحْنُ ﴾ بأن الفِعل مُضاف إليه حقيقةً . فإن قِيل : فَلِمَ قال : ﴿ وَمَن عَلَيْها ﴾ وهو يَرِثُ الآدميين وغَيرهم ؟ ، فالجواب أن " مَن " تختص أهل التمييز ، وغير المميِّزين يدخلون في معنى الأرض ، ويَجرون مَجراها . ذَكَرَ الجوابين عن السؤالين ابن الأنباري)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائقةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إلَيْنَا تُرْجَعُون ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

لا أحد يَهْرب مِن الموت ، والموتُ آتٍ لا مَحالة ، وكُلُّ آتٍ قَريبٌ . والموتُ مَكتوب على الناس جميعًا ، فعلى الإنسان أن يَكون دائمًا في عبادة الله وطاعته ، لأن الموت يَأتي بَغتةً وبشكل مُفاجئ ، ولا أحد يَعرف متى سيموت ، لذلك على الإنسان أخذ الحيطة والحذر ، والاستعداد دائمًا للموت ، وذلك بفعل الطاعات واجتناب المعاصي ، ثُمَّ إلى اللهِ المرجعُ والمصير للحساب والجزاء . والإنسانُ ــ رَغم أنفه ــ سَيَرجع إلى الله تعالى الذي يُثيب الطائعَ ، ويُعاقب العاصي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٦) : ((أي : أينما كُنتم يُدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله ، وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بُد منه ، ولا مَحيد عنه ، ثُمَّ إلى الله المرجع والمآب ، فَمَن كان مُطيعًا له ، جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتَمَّ الثواب)) اهـ .

كُلُّ النفوس سوف تتجرَّع كأسَ الموت وتُصارِع غُصَّاتِه . فلن تنجوَ أيةُ نَفْس من الموت ، فمصيرها المحتوم إلى الفناء . وفي هذا إشارة بالغة إلى أن النفوس مقهورة خاضعة للسُّلطة الإلهية العُليا المطْلَقة التي تتحكم في كُل شيء. واللهُ تعالى هو المسيطر على هذه النفوس، فقد وضع لها آجالاً لا يمكن للمخلوقات تجاوزها . واللهُ وَحْدَه هو الحيُّ الذي لا يموت ، المنفرد بالبقاء والحياة والدَّيمومة . وهو الأول (ليس قبله شَيء) ، وهو الآخِر (ليس بعده شيء) . وفي الآية تعزية لجميع الناس ، حيث إن الموت مكتوب على الجميع ، ولا أحد يبقى على وجه الأرض .

والجدير بالذكر أن لفظة ﴿ ذَائقة ﴾ تدل على صورة تشبيهية للموت ، وكأنه طعام أو شراب لا بد من تذوقه ، وعندئذ يُعرَف طَعْمُه المر . وكل الخلائق آتية لتذوقه رغمًا عنها . فلا مهرب من الموت . وكُلٌّ ينتظر دورَه . والموتُ شاملٌ عام لا يُفلِت من قبضته أَحد . وليس بدعةً تصيب البعضَ وتترك البعضَ الآخر . فالموتُ يصيب الجميعَ بلا استثناء . وكما قال طَرَفة بن العبد :

تمنَّى رِجالٌ أن أموت وإن أَمُت   فتلكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيها بأوحدِ (114)

والآيةُ تشتمل على تحقير لأمر الدنيا ، فهي فانية زائلة . ولا أحد يأخذ مِنها شيئًا عند الموت. والكفنُ ليس له جُيوب ، ومال الدنيا في الدنيا . فلا بُد من الحرص على طاعة الله تعالى ، وبناء المستقبل في الآخرة الباقية .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣١٩): ((كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه مِن مكة أنه يَموت أو يجوع ، أو نَحْو هذا ، فَحَقَّرَ اللهُ شأنَ الدنيا ، أي : أنتم لا مَحالة مَيِّتون ، ومَحشرون إلَينا ، فالبِدار إلى طاعة الله والهجرة إليه)) اهـ .

لقد ذَكَّرهم اللهُ بالموت ، وخوَّفهم مِنه ، كَي يَحتقروا الدنيا الفانية ، وتصغر في أعينهم ، ويهون عليهم أمر الهجرة. فكل نفس ستتجرَّع مَرارة الموت، وتُغادر هذه الحياة رَغْمًا عنها ، فلا داعي للخوف مِن ترك الأوطان ، ولا داعي للقلق مِن فراق الأحبة ، فالجميعُ راحلون عن هذا العالَم . والمعنى : كُل شخص مَيِّت أينما كان ، فلا تُقيموا في دار المشركين وتتركوا الهجرة خوفًا من الموت . ثُمَّ المرجع والمصير إلى الله بالموت والبعث ، لا إلى غَيره . وهو الحاكم العادل والقاضي الْمُنصِف الذي يَجزيكم بأعمالكم .

كُل نَفْس ستتجرَّع مرارة الموت ، وتُلاقي شِدَّته وصعوبته وأهواله . سَوْفَ تتذوَّق الموتَ وتعرف طَعمه ومَذاقه ، كما يجد الذائق طَعْمَ الْمَذُوق . ومَن أيقنَ بالموت ، صارَ سهلاً عليه فِراق الأوطان والأحبة . وتَرجع كُل نَفْس إلى حُكم الله وجزائه العادل حَسَب أعمالها ، إمَّا الثواب أو العِقاب . ومَن كانت هذه نهايته ومصيره ، فعليه الاجتهاد والاستعداد بشكل كامل، وذلك بعمل الطاعات واجتناب المعاصي.وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٤/ ٢٩٩): ((فَكُل حَيٍّ في سَفَر إلى دار القرار ، وإن طال لُبثه في هذه الدار)) اهـ .

---

(١١٤) ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٤٠) أن الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ كان يُنشد هذا البيت ويستشهد به . وقد روى ذلك أيضًا ابن حِبَّان في روضة العقلاء (١/ ٢٨٧) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾[العَلَق : ٨] .

إلى الله مَرجعك ومصيرك أيها الإنسان . فاللهُ سَيُميتك ثُمَّ يَبعثك من قبرك يوم القيامة ، ويُحاسبك على ظُلمك وطُغيانك ، ولا أحد يَهْرب مِن الله تعالى . وفي الآية تهديدٌ شديد للإنسان وتخويف له ، ووعيدٌ أكيد ، وتحذير له مِن الطغيان . والآيةُ موعظة للإنسان وإرشاد وتنبيه له، لأنه _مهما لَفَّ ودارَ في هذه الأرض وطالَ عُمره _ راجعٌ رغم أنفه إلى الله تعالى الذي سَيُحاسبه على كل صغيرة وكبيرة. والمصيرُ إلى الله لا إلى غَيْره. فينبغي الاجتهاد في الاستعداد لذلك اليوم الرهيب . إن المرجع في الآخرة إلى الله تعالى ، فَيُجازي الطاغي بما يستحقه . وهذا تحذيرٌ له مِن عاقبة الطغيان . وفي هذا الخبر وعيد للطاغين . والرُّجعى هي الرُّجوع ، وهي مَصْدر كالبُشرى .

وقال أبو السعود في تفسيره (٩/ ١٧٩) : ((أي : إنَّ إلى مالك أمرك رُجوع الكل بالموت والبعث ، لا إلى غَيره ، استقلالاً ولا اشتراكًا ، فسترى حينئذ عاقبة طُغيانك)) اهـ .

٢٧_ يُحيي ويُميت :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يُحْيي ويُمِيت ﴾ [آل عِمران : ١٥٦] .

إنَّ الخلق كُلهم خاضعون لإرادة الله ومَشيئته.والإحياءُ والإماتة بيد الله وَحْدَه ، ولا يَحيا أحد ، ولا يموت أحد ، إلا بمشيئة الله تعالى ، فالأمرُ ليس صُدفة ولا عَبَثًا ولا ضَربة حَظ .

واللهُ قادرٌ على أن يُحيي مَن يَخرج إلى القتال ، وقادرٌ على إماتة مَن يَنام في بَيته . إذ إن إرادة الله نافذة في كُل شيء، ولا يَمنعها شَيء . والحياةُ والموت خاضعان لقضاء الله وقَدَره . وكما يُقال: المكتوب لَيس مِنه مَهروب .

وإذا انتهى أجلُ الإنسان الذي كَتَبَه اللهُ له ، فسيموت الإنسان ، سَواءٌ كان يُقاتل في المعركة أَم مُخْتَبِئًا في بَيته . فالموتُ لا يَعرف الحواجز ولا الجدران ، وغَير مُتعلِّق بحال الإنسان. فاللهُ قَد يُحيي المسافر والغازي في ظل وجود المخاطر التي تُهدِّد الحياة ، ويُميت الْمُقيم والقاعد في ظِل توفُّر أسباب الراحة والنجاة . ولا يَمنع عن الموت قُعود. وحَذَرُ الإنسانِ وذكاؤه لا يَحميانه مِن مجيء أجله المكتوب في الأزل .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٨٤) : ((أي : ليس تَحَرُّز الانسان يَمنعه مِن أجله)) اهـ .

إن الله يَفعل ما يَشاء ، ويَحكم ما يُريد . يُحيي مَن يشاء ، ويُميت مَن يشاء ، ولا يوجد للسَّفَر أو الجهاد أو النَّوم أو الاختباء أثر في ذلك . والآيةُ تردُّ على الذين يَعتقدون أن القتالَ يَقطع أجلَ الإنسان. فاللهُ وَحْدَه هو الذي يَقطع أجلَ الإنسان إذا شاء. ولا يوجد أيُّ تأثير لِغَير الله تعالى. وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٨٩) : ((والله الْمُعجِّل الموت لِمَن يشاء مِن حيث يشاء ، والْمُميت مَن يشاء كُلما شاء دُون غَيره مِن سائر خَلْقه . وهذا مِن الله عَزَّ وَجَلَّ ترغيب لعباده المؤمنين على جهاد عدوه ، والصبر على قتالهم ، وإخراج هَيبتهم مِن صدورهم ، وإن قَل عددهم وكَثُرَ عدد أعدائهم وأعداء الله ، وإعلام منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده ، وأنه لن يموت أحد ولا يُقتَل إلا بعد فناء أجله الذي كُتِب له ، ونَهْي منه لهم إذ كان كذلك أن يَجزعوا لموت مَن مات مِنهم ، أو قَتْل مَن قُتِل مِنهم في حرب المشركين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَضَرَبَ لنا مَثَلًا ونَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم﴾[يس : ٧٨].

إن الإنسان كائن مغرور ، يغترُّ بصحته وقوته وإمكانياته المادية ، ومواهبة الذاتية . يَغرَق في النِّعَم الإلهية ، ويستمتع بِها ، ويَفتخر بها ، ويتكبَّر بسببها ، ويَنسى اللهَ الْمُنْعِمَ الْمُتفضِّل . تفكيرُه محصور في النِّعَم ، دُون التفكر في مصدر النِّعَم . وهذا الإنسانُ المغرورُ المتكبِّرُ استبعدَ تمامًا إحياء الله للأموات ، وبعثهم مِن قبورهم بعدما صاروا تُرابًا. لقد أنكرَ قُدرة الله على بعث الأموات ، وهو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما . وهذا الإنسانُ الجاحدُ نَسِيَ نَفْسَه ، ولَم يُفكِّر في خَلْقه وبَدْء أمره . ولو فكَّر في ابتداء خَلْقه ، لَمَا أنكرَ الإعادةَ . فاللهُ خَلَقَه مِن نُطفة مَيْتة لا وزن لها ، وجعل فيه الحياة ، ونقله من العدم إلى الوجود. ودليلُ البعثِ كامنٌ في خَلْق الإنسان . والجواب عن سؤال الإنسان حاضر في الإنسان نَفْسه.فالإلهُ القادرُ على خلق الإنسان من العدم ، وجَعْله كائنًا حَيًّا ذا حواس وجوارح وأعضاء ، لَن يَعجَز أن يُعيد الأموات مِن قبورهم أحياءً .

وقد استدلَّ بعض العلماء بظاهر هذه الآية ، وأثبتَ للعظم حياةً ، وأن الموت يُؤثِّر فيه كسائر الأعضاء . وعلى هذا الأساس حَكموا بنجاسة عَظْم الْمَيْتَة . والْمُعارِضون لهذا الرأي قالوا إن المراد بإحياء العِظام هي إعادتها إلى حالة الرطوبة والغضاضة في بدن حَي حسَّاس .

وقال أبو السعود في تفسيره (٧/ ١٨١) : ((﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلاً ﴾ أي : أوردَ في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر هي في الغرابة والبُعد عن العقول كالْمَثَل، وهي إنكار إحيائنا العظام، أو قصة عجيبة في زعمه واستبعدها ، وعَدَّها مِن قَبيل الْمَثَل ، وأنكرَها أشد الإنكار ، وهي إحياؤنا إيَّاها ، وَجَعَلَ لنا مَثَلاً ونظيرًا مِن الخلق ، وقاسَ قُدرتنا على قُدرتهم ، ونفى الكُل على العموم)) .

واستفهامُ الإنسان:﴿ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم﴾ يعني:مَن يُحيي العظام البالية الْمُفَتَّتة ؟ . وهو استفهام يَحمل معنى الإنكار والاستبعاد . وهذا يدل على جهل الإنسان وعناده وغُروره واستكباره وعدم تفكُّره في خَلْق نفْسه . والإشكاليةُ التي وقع فيها هذا الكافرُ الْمُنكِر للبعث ، هي قِياس قُدرة الله على قُدرة البشر . فالبشرُ لا يَقْدِرون على إحياء العظام البالية، وعاجزون عن فِعل ذلك ، وبالتالي ـ وَفْق تفكير هذا الإنسان ـ ، فإن الله لا يَقْدِر على ذلك أيضًا . وهذا التفكير القاصر يدل على الكفر والضلال والجهل والغباء، لأن قُدرة الله الخالق مُطْلقة ، أمَّا قُدرة الإنسان المخلوق فهي محدودة وقاصرة . ولا يُمكن أن يتساوى الخالقُ معَ المخلوق . وعلى الإنسان أن يتفكَّر في أصله (نُطفة مَيْتة) ثُمَّ صارَ كائنًا حَيًّا مُفَكِّرًا . وخَلْقُ الإنسان مِن الْمَنِيِّ أكثر غرابةً وعَجَبًا مِن إحياء العظام البالية . وفي قِياس العقل ، إحياءُ العظام البالية أسهل وأهْوَن مِن إيجاد الإنسان مِن العدم . إنَّ هذا الكافر الْمُنكِر لإحياء الموتى من قبورهم ، ضَرَبَ للهِ مَثَلاً في إنكار البعث بالعظام البالية الْمُفتَّتة ، واستغربَ مِن القائلين بأن الله يُحييها ، وتعجَّبَ مِنهم ، ونَسِيَ خَلْقَ اللهِ له ، ولَم يتفكر في بَدْء خَلْقه (نُطفة مَيْتة) . وهنا ، يتجلى الجهل والعِناد والْمُكابَرة .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٦٥): ((قَوله: ﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ . يقول : وَمَثَّلَ لنا شَبَهًا بِقَوله : ﴿ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم ﴾ إذْ كان لا يَقْدِر على إحياء ذلك أحد. يقول : فَجَعَلَنَا كَمَن لا يَقْدِر على إحياء ذلك مِن الخلق ، ﴿ ونَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ . يقول : ونَسِيَ خَلْقَنا إيَّاه كيف خلقناه ، وأنه لَم يكن إلا نُطفة ، فجعلناها خَلْقًا سَوِيًّا ناطقًا . يقول : فلم يُفكِّر في خَلْقنا إيَّاه ، فيعلم أنَّ مَن خَلَقَه مِن نُطفة حتى صار بَشَرًا سَوِيًّا ناطقًا مُتَصَرِّفًا، لا يَعجَز أن يُعيد الأموات أحياءً ، والعظام الرميم بَشَرًا كهيئتهم التي كانوا بها قبل الفناء)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ، فَفَتَّه ، فقال : يا محمد ، أيبعثُ اللهُ هذا بعدما أَرِمَ ؟ ، قال : ((نعم ، يَبعثُ اللهُ هذا . يُميتك ، ثُمَّ يُحييك ، ثُمَّ يُدخِلك نارَ جهنم)) [115]. إن العاص بن وائل السَّهمي، هو سَيِّد بني سهم في قُرَيش، وكان من الكافرين المغرورين المتكبِّرين الْمُعانِدين.جاءَ إلى النبيِّ ﷺ بعظم مُتغيِّر مِن البِلى ، وفَتَّته أمام النبيِّ ﷺ ، وسأله باستكبار وعِناد : هل يَبعث اللهُ هذا العظم بعدما فَنِيَ وصارَ تُرابًا ؟ . والمقصودُ : هل يُعيد اللهُ الْمَيْتَ صاحب العظم إلى الحياة ؟ . والاستفهامُ للإنكار والاستبعاد . إنه

---

(١١٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٦٦) برقم (٣٦٠٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يُنكِر بعثَ الأمواتِ مِن قُبورهم . وقد جاءه الردُّ النبويُّ الواضحُ الصاعقُ لتحطيم غرور هذا الكافر وهدم معنوياته . وَبَيَّنَ له النبيُّ ﷺ قُدرةَ الله على البعث وإخراج الناس مِن قُبورهم ، كما بشَّره بدخوله نار جهنم خالدًا فِيها ، عُقوبةً له على كُفره بالله وسُخريته واستهزائه وتكذيبه بالبعث . ونارُ جهنم هي مصير الكافرين المتكبِّرين. وقد أرسلَ اللهُ جِبريلَ ــ عليه السلام ــ إلى النبيِّ ﷺ لإهلاك العاص بن وائل وغَيره . ومات شَر مِيتة، وهو خالد في نار جهنم.

وفي زاد المسير (٤/ ٤٢٢) : ((مَرَّ العاص بن وائل ، فقال جِبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ ، فقال : بِئْسَ عبدُ الله ، فأشار إلى أخْمَصِ رِجْله ، وقال : قد كُفِيتَ ، فَدَخَلَتْ شَوْكَةٌ في أخْمَصِه ، فانتفخت رِجْلُه ومات)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ يُحيِيها الذي أنشأها أوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم ﴾[يس : ٧٩] .

قُل يا محمد لهذا المشرِك الذي يُكذِّب بالبعث ، ويُنكِر قُدرة الله على إحياء الأموات مِن قُبورهم ، القائل لك جهلاً وعِنادًا واستكبارًا : ﴿ مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم ﴾ ؟ : يُحييها الذي خَلَقَها أوَّل مَرَّة مِن العدم، وأوجدها مِن اللاشيء . والذي أوجدها مِن اللاشيء قادر على إعادتها.

ولا شَكَّ أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الثانية . واللهُ تعالى يَعْلَم كُل شيء عن خَلْقه ، وكيف يُبدِئ ويُعيد . لا يخفى عليه خافية ، ويَعلم العِظامَ في باطن الأرض ، ويَعلم أجزاء الإنسان الْمُفَتَّتة الْمُمَزَّقة ومواقعها .

واللهُ عليمٌ بكل مَخلوق إجمالاً وتفصيلاً قبل خَلْقه وبعد خَلْقه. إنه سُبحانَه عليمٌ بكل مخلوق مِن ابتداء خَلْقه وإعادته . لا تخفى عليه أجزاؤه وأعضاؤه وحَواسه ، وإن تفرَّقت وتحلَّلت في التراب ، فاللهُ تعالى يَجمعها ويُعيدها . وهو أعلم بالمخلوق مِن نَفْسه، لأن الله هو الخالق الذي ابتدعَ الخلق أول مَرَّةٍ مِن العدم واللاشيء .

واللهُ يُرشِد النبيَّ ﷺ إلى كيفية الجواب والرد على هذا الكافر تبكيتًا له ، وإفحامًا له ، وإقامةً للحُجَّة عليه ، وتنبيهًا على ضرورة الاستشهاد بأن الذي ابتدأ الْخَلْقَ مِن العدم قادرٌ على إعادته. وفي الآية دليلٌ على صِحَّة القِياس،لأنَّ اللهَ تعالى احتجَّ على مُنكِري البعث بالنشأة الأولى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٥٤) : ((في هذه الآية دليل على أن في العِظام حياة ، وأنها تنجس بالموت ، وهو قول أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي . وقال الشافعي ــ رضي الله عنه ــ: لا حياة فيها . فإن قِيل: أراد بِقَوله : ﴿ مَن يُحيي العِظَامَ ﴾ أصحاب العِظام، وإقامة المضاف مَقام المضاف إليه كثير في اللغة موجود في الشريعة ، قُلنا: إنما يكون إذا احتيج

لضرورة، وليس هاهُنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقر إلى هذا التقدير، إذ الباري سُبحانَه قد أخبر به وهو قادر عليه، والحقيقة تشهد له، فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه، قاله ابن العربي)) اهـ .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((قال رَجل لَم يَعمل خَيْرًا قَط : فإذا مات فَحَرِّقوه ، وأذروا نِصفه في البَر ، ونِصفه في البحر ، فواللهِ لَئِن قَدَرَ اللهُ عليه لَيُعَذِّبَنَّه عذابًا لا يُعذِّبه أحَدًا مِن العالَمِين ، فأمرَ اللهُ البحرَ ، فَجَمَعَ ما فيه ، وأمرَ البَر ، فَجَمَعَ ما فيه ، ثُمَّ قال : لِمَ فَعَلْتَ ؟ ، قال: مِن خَشيتك وأنتَ أعلم ، فَغَفَرَ له)) (116). هذه حالة خاصة لِرَجل جاهل ، سيطرَ عليه الخوف والرُّعب مِن عذاب اللهِ ، لأنه غرق في المعاصي والذنوب والآثام ، فَشَلَّ الخوفُ تفكيرَه ، واستولى الهلعُ على عقله حتى غَيَّبه.والرَّجل كان مُؤمنًا بالبعث ولقاء الله تعالى ، بدليل قَوله: ((مِن خَشيتك وأنتَ أعلم)) ، والكافرُ لا يُؤمِن بالبعث بعد الموت . وقد غَفَرَ اللهُ له تفضُّلاً عليه، ورَحِمَه . وهذه حالة خاصة لا يُقاس عليها ، ولا تعني أن يغرق الإنسان في المعاصي ويتَّكل على رحمة الله ، لأن العاصي يَنتظره عذاب النار . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٧١) : ((اختلف العلماء في تأويل هذا الحديث ، فقالت طائفة : لا يَصِح حمل هذا على أنه أراد نفي قُدرة الله ، فإن الشَّاك في قدرة الله تعالى كافر ، وقد قال في آخر الحديث أنه إنما فعل هذا مِن خشية الله تعالى ، والكافر لا يخشى الله تعالى ولا يَغفر له. قال هؤلاء : فيكون له تأويلان أحدهما أن معناه لَئِن قَدَّر عليَّ العذاب أي قضاه، والثاني أن " قدر" هنا بمعنى ضَيَّقَ عليَّ... . وقالت طائفة: اللفظ على ظاهره ولكن قاله هذا الرَّجل وهو غير ضابط لكلامه ولا قاصد لحقيقة معناه ومُعتقد لها، بل قاله في حالة غَلَبَ عليه فيها الدَّهَش والخوف وشِدَّة الجزَع ، بحيث ذهب تيقظه وتدبُّر ما يقوله فصار في معنى الغافل والناسي ، وهذه الحالة لا يُؤاخَذ فيها)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوَلَم يَرَوْا أنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلى أن يُحْيِيَ الموتى بَلى إنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾[الأحقاف : ٣٣] . أوَلَم يَعلم هؤلاء الكفار الْمُنكِرون للبعث أن اللهَ العظيم الذي خلق السماوات والأرض مِن اللاشيء، وابتدعَ خَلْقَهُنَّ بلا مثال سابق ، وأوجدهنَّ مِن العدم ، ولَم يَضعُف، ولَم يَتعَب بخلقهنَّ، بقادر على إحياء الموتى مِن قبورهم ، ونقلهم مِن الموت إلى الحياة ، كما كانوا قبل وفاتهم ؟ . إنه سُبحانَه قادر لا يُعجِزه شيء ، وإرادته

(١١٦) متفق عليه.البخاري(٦/ ٢٧٢٥) برقم (٧٠٦٧)،ومسلم (٤/ ٢١٠٩) برقم (٢٧٥٦) .

نافذة في كل شيء . قادر على إنشاء الخلق بعد الفناء ، وإخراج الموتى من قبورهم أحياءً ، وكما خَلقهم يُعيدهم ، فهو القادر على إحياء الموتى . والقادرُ على النشأة الأولى قادرٌ على النشأة الثانية . والعاجزُ الضعيفُ لا يَكون إلَهًا . فالإلهُ الحق قادرٌ على كُل شيء ، وكُل شيء خاضع له .

والآيةُ ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ تُشير إلى وُجوب إثبات صفات الكمال للهِ تعالى ، فهو الكاملُ صاحب القُدرة المطْلقة ، مُنَزَّه عن صفات النقص . والتعبُ صِفة نقص ، وهي تُصيب الإنسان بعد بذله مجهودًا كبيرًا .

أمَّا اللهُ الخالقُ العظيمُ فقد خَلَقَ السماواتِ والأرض، وَحْدَه، بلا شريك ولا مُساعِد ولا مُعاوِن، ولا مُستشار ، ولا آلات ، ولا أدوات ، ولَم يَتعَب ، ولَم يُصَب بالإرهاق .

وهذا يدل على أن الله هو المنفرِد بصفات الكمال ، وأن صِفاته كاملة ومُقدَّسة ومُطْلَقة ، ومُنَزَّهة عن كل نقص وسُوء. والآيةُ تتضمَّن إقامة الْحُجَّة بشكل قاطع ، معَ دفع شُبهات الكافرين والملاحدة والجاحدين . وأسلوبُ القُرآن في الرَّد على شُبهات الكافرين ، ليس شعاراتٍ فارغة ، ولا مقالات حماسية، ولا خُطُبًا رنَّانة بلا معنى ، ولا شتائم . إنه أسلوبٌ مُقدَّس يشتمل على الْحُجَّة والبُرهان والدليل ، وعَرْضها وتقديمها بكل وضوح وجَمَال . وهذا يدل على تقدير القُرآن للعقل .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٦) : ((﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ولَم يتعب ولَم يعجز . والمعنى أن قدرته واجبة ، لا تنقص ولا تنقطع بالإيجاد أبد الآباد ﴿ بِقَادِرٍ عَلى أن يُحْيِيَ الموتى ﴾ أي : قادر . ﴿ بَلى إنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ تقرير للقُدرة على وجه عام ، يكون كالبرهان على المقصود ، كأنه صَدَّر السورة بتحقيق المبدأ ، أراد خَتْمَها بإثبات الْمَعَاد)) اهـ .

والرؤية في الآية هي الرؤية القلبية ، أي : بمعنى العِلم . والآيةُ احتجاجٌ على إحياء الموتى ، ورَد باهر على مُنكِري البعث بالدليل القاطع المتوافق مع العقل البشريِّ والمنطق السليم ، بدون شتائم ولا جَعجعة ولا شعارات فارغة .

إن الله قَدَّمَ الدليلَ والْحُجَّةَ والبُرهان ، وحَرَّضَ العقولَ على التأمل والتفكير والتحليل والاستنباط ، للوصول إلى الحقيقة بدون عناد ولا مُكابَرة ولا أهواء ذاتية ولا مصالح شخصية .

والآية تُقدِّم استدلالاً على البعث والنُّشور بخلق السماوات والأرض ، فإن خَلْقهما أعظم من إحياء الموتى .

وخَلْق هذه الأجرام العظيمة الهائلة بكل ما فيها مِن مخلوقات باهرة أعظم مِن إخراج الميْت مِن قبره .

ولا يَنبغي قياس قُدرة الخالق على قُدرة المخلوق . إن قُدرة اللهِ واجبة ، لا تَنقص بالخلق ، ولا تَنقطع بالإيجاد ، وهي قُدرة مُطْلقة . والقُدرة صِفة لله ، وصِفات الله قديمة قِدَم ذاته المقدَّسة ، أمَّا قُدرة الإنسان فهي محدودة وضعيفة ومحصورة في الزمان والمكان ، لأن الإنسان مخلوق عاجز مُحتاج إلى العناصر ، أمَّا اللهُ الخالقُ العظيمُ فهو غنيٌّ عن كل شيء ، وكُل شيء يَحتاج إلَيه .

وقال النسفي في تفسيره (٤/ ١٤٣) : ((وقَوله : ﴿ بَلى ﴾ مُقرِّرة للقُدرة على كل شيء مِن البعث وغَيره ، لا لرؤيتهم ﴿ عَلى أن يُحْيِيَ الموتى ﴾ . ﴿ بَلى ﴾ هو جواب النَّفْي)) اهـ . وقال ابن القَيِّم في الصواعق المرسَلة (٢/ ٤٧٦): ((فأخبرَ سُبحانَه أن الذي أبدعَ السماواتِ والأرض ، على جلالتهما ، وعِظَم شأنهما ، وكِبَر أجسامهما ، وسَعَتهما ، وعجيب خِلْقتهما ، أقدر على أن يُحييَ عظامًا قد صارت رميمًا ، فَيَرُدَّها إلى حالتها الأولى)) اهـ .

ه

الفصل الثالث

الصلاة

تمهيد

إن الصلاة هي عَمود الدين الإسلاميّ، وهي أعظم أركان الإسلام العملية، وهي تجسيد واقعي لمعنى الشهادتين (أعظم أركان الإسلام على الإطلاق) . والصلاة واجبة على كل مسلم بالغ عاقل، ذكرًا كان أَم أنثى . وقد فَرَضَ اللهُ على رسوله ﷺ الصلوات الخمس ، في ليلة الإسراء ، قبل الهجرة بسنة ونصف . إن الصلاة أول عبادة أوجبها اللهُ على المسلمين ، وهذا يدل على مكانتها الرفيعة ، ومَنْزلتها السَّامية ، كما أنها أول عبادة يُحاسَب عليها المسلم يوم القيامة ، فإذا صَلَحَتْ صَلَحَ باقي عباداته، وإن فَسَدَتْ فَسَدَ باقي عبادته. والصلاةُ مِن المعلوم مِن الدِّين بالضرورة ، بحيث إن مُنكِرها كافر . وَمَن تركها جُحودًا لها فهو كافر مُرتد عن الإسلام بإجماع الأمة، وَمَن تركها كسلاً فهو فاسق، ويُستتاب حتى يُصَلِّيَ ، فإن أصرَّ على تركها قُتِلَ حَدًّا لا كُفْرًا . وبما أن الصلاة عبادة مُقدَّسة ، فلا بُد أن تكون قائمة على الطهارة المعنوية والمادية ، وهنا تظهر أهمية صفاء الروح، وتنقية القلب ، والوضوء الذي يُعتبَر مُقدِّمةً تطهيريةً للدخول في الصلاة. والإسلامُ حَضَّ على الصلاة ، وحَث على أدائها ، لأنها هي الصِّلة بين المخلوق والخالق ، ومَن تَركها ، فقد قَطع العلاقة بينه وبين خالقه العظيم . وهذا هو الانهيار الشامل ، والانتكاسة التَّامة . والْمُصَلُّون هُم نُخبة المجتمع ، وينبغي أن يَكونوا قادته ومُرشديه إلى الخير والحق والصواب . وهكذا تبرز خصائص المصلِّين المتفرِّدة ، وصفاتهم الجميلة ، فَهُم مُتواضعون للناسِ ، لا يَتكبَّرون عليهم بعبادتهم وصلاتهم وطاعتهم . كما أن صلاتهم قائمة على العِلم والفقه والخشوع والتقوى . يَعبدون اللهَ على عِلْم وبصيرة . والمصلون هُم أولياء الله في كل زمان ومكان ، يتمتَّعون بالأخلاق الحميدة، والعِلم الوافر. واللهُ لا يتَّخذ وَلِيًّا جاهلاً ، ولو اتَّخذه جاهلاً لَعَلَّمَه . واللهُ لا يُعْبَد بالجهل، إنما يُعْبَد بالعِلْم.ولا معنى للصلاة إلا بالتوجه إلى القِبلة (الكعبة المقدَّسة) ، فهي قِبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . كُلهم يتوجَّهون إِلَيها على اختلاف ألوانهم وأعراقهم ومذاهبهم ، فيتجلى مَعنى الوَحدة الإسلامية على أرض الواقع ، ويتحقق التلاحم بين أبناء الأمة الإسلامية حقيقةً لا شعارًا . ولا يمكن تجاهُل أهمية المساجد ، فهي بيوت الله العامرة بعبادته وطاعته وذِكره وشُكره وتقديسه . وينبغي نقل رسالة المسجد إلى تفاصيل المجتمع لإحداث التغيير الإيجابي . فقد جاءَ الإسلامُ لإنقاذ الناس كُلِّهم ، والنهوض بالمجتمع ، وليس لحصر العبادة في مكان محدود .

أولاً : الطهارة

١_ التَّطَهُّر :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ويُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّماءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ [الأنفال : ١١] .

يُلقي اللهُ على المؤمنين النُّعاسَ أمانًا لهم مِن الأعداء، فالنعاسُ أمانٌ إلهيٌّ للمؤمنين في الحرب. لقد أنزلَ اللهُ النُّعاسَ على المؤمنين أمانًا لهم مِن الخوف الذي أصابهم يوم بَدْر . وهذه مُعجِزة إلهية للنبيِّ ﷺ ، وتكريمٌ له ، ورحمة بالمؤمنين ، حيث هبط النَّوم عليهم في وقت الخوف (الحرب). واللهُ يُذكِّرهم بنعمته العظيمة ، فقد ألقى عليهم النعاسَ أمانًا لهم مِن خَوفهم ، بسبب قِلَّة عددهم ، وكثرة أعدائهم . وكان ذلك راحة للمؤمنين مِن القلق والخوف والتعب ، وليكونوا واثقين بنصر الله وتأييده . إن هذه العملية إراحة للجسد ، وتثبيت لليقين في القلب . ولا شَك أن الحرب الطاحنة تَبعث الخوف والقلق والرعب في النُّفوس. فأرادَ اللهُ أن يُريح المؤمنين ذهنيًّا وبدنيًّا، ويجعل قلوبهم آمنة ومطمئنة بنصر الله ، وواثقة بتأييده .

وروى ابن خُزَيمة في صحيحه (٢/ ٥٢) : عن عليٍّ قال : ((ما كان فِينا فارسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ المِقداد ، ولقد رَأَيْتُنَا وما فِينا إلا نائم ، إلا رسولَ الله ﷺ تحت شجرة يُصلِّي ويبكي حتى أصبح)).

لقد امتنَّ اللهُ عليهم بالنَّوم في ذلك الموقف الرهيب (الحرب) عند شِدَّة البأس . فكانَ النوم استراحةً لهم كَي يُقاتِلوا الأعداءَ بقوة ونشاط وتركيز . وأيضًا ، كان النَّوم أمانًا لهم ، حيث أزالَ الخوف مِن قلوبهم . والإنسانُ لا يَستطيع النَّوم إلا في حالة الأمن والأمان ، لأن الخوف مُسْهِر . والنَّومُ يُزيل الخوفَ ، ويُريح النَّفْسَ والبدنَ .

﴿ ويُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّماءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ . إن الكفار يوم بَدْر سبقوا المؤمنين إلى ماء بَدْر، وسيطروا عليه ، فصارَ المؤمنون بلا ماء ، فأصابهم العطش والخوف والقلق ، وكان مِنهم مَن أصابته جَنَابة ، وصَلُّوا جُنُبًا لعدم وجود الماء ، وتضايقوا مِن هذا الأمر ، وانزعجوا ، فأنزلَ اللهُ عليهم المطرَ، حتى سالت الأودية، فشربوا، واغتسلوا، وتَوَضَّؤوا، وتَطَهَّروا مِن الأحداث والجنابة .

وهذه نِعمة إلهية ثانية ، يُذكِّرهم اللهُ بها ، ويمنُّ عليهم بها ، كَي يَزدادوا إيمانًا به ، ويَشكروه . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١٩٢) : ((وأمَّا قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ويُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّماءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ ، فإن ذلك مطر أنزله الله من السماء يوم بَدْر لِيُطهِّر به المؤمنين لصلاتهم ، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مُجْنِبين على غَير ماء، فلمَّا أنزلَ اللهُ عليهم الماء ، اغتسلوا وتطهَّروا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٢٨):((قَوله تعالى:﴿ ويُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ قال ابن عباس : نزل النبيُّ ﷺ يوم بَدْر ، وبينه وبين الماء رَمْلَة ، وغلبهم المشركون على الماء ، فأصاب المسلمين الظمأ ، وجعلوا يُصَلُّون مُحْدِثِين ، وألقى الشيطان في قلوبهم الوَسوسة يقول : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تُصَلُّون مُحْدِثِين، فأنزلَ اللهُ عليهم مطرًا ، فشربوا ، وتطهَّروا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُون ﴾[الواقعة : ٧٩] .

المقصودُ في الآية هو الكتاب المكنون (الكتاب الذي في السماء) ، وليس القرآن الكريم . فالقرآنُ يَمَسُّه المؤمنُ الطاهر والكافرُ النجس . أمَّا الكتاب المكنون فلا يَمَسُّه إلا الْمُطَهَّرون ، وهُم الملائكة الذينَ طهَّرهم اللهُ مِنَ الشِّرْك ، والذنوبِ ، والنَّجاساتِ . وقِيل : المقصود بالكتاب الْمُصْحَف الذي بأيدينا . فعن حَكيم بن حِزام ــ رضي اللهُ عنه ــ أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا بَعَثَهُ وَالِيًا إلى اليَمن ، قال : ((لا تَمَسَّ القُرآنَ إلا وأنتَ طاهر)) [1].

وقال القرطبي في تفسيره(١٧/ ١٩٣):((قَوْلُه تعالى:﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرون ﴾ اخْتُلِفَ في معنى﴿لا يَمَسُّهُ﴾ ،هل هو حقيقة في الْمَسِّ بالجارحة أو معنى؟،وكذلك اخْتُلِف في﴿ الْمُطَهَّرون ﴾ مَن هُم ؟ ، فقال أنس و سعيد بن جُبَير : لا يَمَسُّ ذلك الكتاب إلا الْمُطَهَّرون مِنَ الذُّنوب ، وهُم الملائكة ، وكذا قال أبو العالية وابن زَيد : إنهم الذين طُهِّروا مِنَ الذنوب كالرُّسل من الملائكة ، والرُّسلِ مِن بني آدم ، فَجِبريلُ النازل بِه مُطَهَّر ، والرُّسل الذين يَجيئهم بذلك مُطَهَّرون)) اهـ .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : كُنَّا معَ سَلْمان ــ رضي اللهُ عنه ــ فانطلقَ إلى حاجةٍ ، فَتَوارى عَنَّا ، ثُمَّ خرجَ إلَينا ، ولَيْسَ بَيْنَنا وبَيْنَهُ ماء. قال: فَقُلْنا له: يا أبا عبد الله ، لَوْ تَوَضَّأتَ فسألناكَ عن أشياءَ مِنَ القرآن، قال: فقال: ((سَلُوا، فإني لَسْتُ أَمَسُّهُ))، فقال: ((إنَّما يَمَسُّهُ الْمُطَهَّرون)) . ثُمَّ تلا:((﴿ إنَّهُ لَقُرآنٌ كريم ﴾ [الواقعة : ٧٧] ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المطَهَّرون ﴾ [الواقعة : ٧٩])) [2] .

وَفْقَ هذا الحديث يتَّضح أن سلمان الفارسيَّ ــ رضي الله عنه ــ يعتقد أن المقصود في الآية هو القرآن الكريم ، لذا رَفض أن يَمَسَّه وهو على غَير وضوء . وهذا ما ذهب إليه بعضُ المفسِّرين

(١) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٥٥٢) برقم (٦٠٥١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥١٩) برقم (٣٧٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الذي يَرَوْنَ أن القرآن الكريم لا يَجوز مَسُّه مِن قِبَل غَير الْمُطَهَّرين، ومَن لَم يلتزم بذلك ، فقد خالفَ الشريعةَ. ومن خلال النصوص الشرعية تتَّضح أهمية الطهارة والتطهر على جميع الأصعدة ، لِمَا في ذلك مِن تهيئة الفرد للاضطلاع بمسؤولياته الجسيمة، باعتباره حامل أمانة الدِّين ، وخليفة الله في الأرض. فالمنهج الشرعيُّ واضحٌ في مساره، حيث يُحاط الإنسان بسياج الطهارة والتطهر ، لكي يظل دائمًا على اتصال مع خالقه تعالى، وهو في أبهى حُلَّة مُشتمِلة على نقاء العبودية ، وصِدْقِ التَّوجه إلى الله تعالى .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[الْمُدَّثِّر : ٤] .

هذا الأمرُ الإلهيُّ يشير إلى أهمية الطهارة ، سواءٌ كان المقصود بالآية الطهارة المادية ، وهي تطهير الثياب من النجاسات التي قد تلحق بها. أو الطهارة المعنوية ، كتطهير القلب أو الجسم .

والمعنى اللغوي الظاهر من الآية هو تطهير الثياب الملبوسة . والأصلُ حَمْلُ آياتِ القرآن على المعنى الظاهر ، ولا يتم اللجوء إلى المجاز إلا في حال ظهور قرينة .

أمَّا مَن فسَّر " الثياب " في الآية بالقلب ، فقد استدل بقول امرئ القيس في مُعلَّقته :

وَإن تَكُ قد ساءتكِ مِنِّي خَليقةٌ   فَسُلِّي ثيابي مِن ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

أو بقول عنترة :

فَشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَهُ   ليسَ الكريمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ

قال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٥٤) : ((المراد بها الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوي . أمره اللهُ _ سبحانه _ بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات ، وإزالة ما وقع فيها منها . وقيل : المراد بالثياب العمل ، وقيل : القلب ، وقيل : النفس ، وقيل : الجسم ، وقيل : الأهل ، وقيل : الدِّين ، وقيل : الأخلاق . قال مجاهد وابن زيد وأبو رَزين: أي : عَمَلَكَ فأصْلِحْ . وقال قَتادة : نَفْسَكَ فَطَهِّرْ مِن الذنب، والثياب عبارة عن النفس. وقال سعيد بن جُبَير : قَلْبَكَ فَطَهِّرْ . ومِن هذا قول امرئ القَيس : (فسلي ثيابي من ثيابك تنسل) . وقال عكرمة : المعنى ألبسها على غير غَدْر وغير فَجْرة ، وقال : أمَا سَمعت قول الشاعر :

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر   لَبستُ ولا مِن غَدْرة أتقنع)) اهـ .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ وهو يحدِّث عن فترة الوَحْي ، قال في حديثه : ((بَيْنا أنا أمشي سمعتُ صوتًا من السماء فرفعتُ بصري فإذا الْمَلَك الذي جاءني بِحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَفَرِقْتُ منه، فرجعتُ، فقلتُ : زَمِّلُوني زملوني)) ، فدثَّروه ، فأنزل الله تعالى :﴿ يا أيها المدَّثر . قُمْ فأنذِرْ . وربَّكَ فكبِّرْ . وثيابكَ فطهِّرْ . والرُّجْزَ فاهْجُرْ ﴾ [المدثر ١ــ٥] (3).

الملَكُ هو جِبريلُ ــ عليه السلام ــ ، وهو عَظيم الخِلقة ، ذُو هَيبة تَخلع القلوبَ . وعندما رآه النبيُّ ﷺ أُصيبَ بِخَوفٍ شديد ، وفزعٍ رهيب ، فرجعَ فقالَ لأهله : لُفُّوني وَغَطُّوني حتى يَهدأ ويَذهب عنه الخوف ، فقاموا بِتَغطيته ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيات .

لقد أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ بالطهارة الحِسِّية والمعنوية . وهذا الأمرُ شامل لكل الأمة . وهنا تتجلى رحمة الله تعالى بعباده الذين أرادهم أنقياء أصفياء بلا شوائب ، يدخلون إلى حضرته العَلِيَّة وَفْق أحسن صورة ، قَلْبًا وقَالِبًا . والطريقُ إلى الله تعالى لا مكان فيه للنجاسات والشوائب ، فهو طريق نوراني مُمتلئ بالطهارة والتَّطَهُّر والخير والسعادة . ومَن اختارَ أن يمشيَ فيه ، عليه أن يكون طاهرَ السَّريرة ، وطاهرَ البدن . يُهاجِر إلى خالقه تعالى في أحسن شكل وصُورة ، وأنقى جوهر . ظاهره نظيف وطاهر ، وباطنه نظيف وطاهر . وهذه هي أعلى درجات الجهوزية والاستعداد .

٢ ــ الوُضوء والغُسْل والتَّيَمُّم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنتم سُكَارَى حتى تَعْلَمُوا ما تَقُولونَ ولا جُنُبًا إلا عَابِرِي سَبِيلٍ حتى تَغتَسِلُوا وإن كُنتم مَرْضَى أوْ عَلى سَفَرٍ أوْ جَاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ أوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وأيْدِيكُم إنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النِّساء : ٤٣] .

هذا توجيهٌ إلهيٌّ للمؤمنين ، وإرشادٌ لهم . يا أيُّها الذين صَدَّقوا بِوَحدانيةِ اللهِ ونُبُوَّةِ محمد ﷺ ، لا تُصَلُّوا في حالة السُّكر ، حتى تَعلموا ما تقولون في صلاتكم ، وتفهموا الآياتِ، وتُميِّزوا بين الأحكام الشرعية ، وتُفرِّقوا بين الأوامر والنَّواهي . ومعلومٌ أن الخمر تُدمِّر العقلَ ، وتُفقِد الإنسان قُدرته على التركيز . وبالتالي ، لا يُمكن للسكران أن يَخشع في صلاته ، ويَدعوَ اللهَ ويُناجِيَه .

(٣) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٩٥)برقم(٤٦٧١).ومسلم(١/ ١٤٣) برقم (١٦١).

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٩٧) : ((يعني بِقَوله جَلَّ ثناؤه : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ﴾ صَدَّقوا اللهَ ورسولَه ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ ﴾ لا تُصَلُّوا ﴿ وأنتم سُكَارَى ﴾ وهو جمع سكران ﴿ حتى تَعْلَمُوا ما تَقُولونَ ﴾ في صلاتكم ، فَتُميِّزون فيها ما أمركم اللهُ به ، أو ندبكم إلى قِيله فيها ، مِمَّا نهاكم عنه وزَجَرَكم)) اهـ .

والخطابُ الإلهيُّ خاص بالمؤمنين ، لأنهم كانوا يَقْرَبون الصلاة في حالة السُّكر ، أمَّا الكفار فلا يَقْرَبون الصلاةَ سُكارى ولا غَير سُكارى . وهذه الآيةُ تشتمل على إباحة السُّكر في غَير أوقات الصلاة ، ثُمَّ نُسِخَت بتحريم الخمر . والجديرُ بالذِّكر أن تحريم الخمر كان تدريجيًّا مُراعاةً لحال الناس وضعفهم ووضعهم الاجتماعي والنفسي ، فالخمرُ كانت مُتغلغلة في أدق تفاصيل حياتهم . وتحريمها فَوْرًا ومَرَّةً واحدة ، سَيُفضي إلى اضطرابات اجتماعية ونفسية . لذلك ، رَحِمَ اللهُ الناسَ ، وحرَّمها بشكل تدريجي ، حتى أخرجَ عِشْقَها من قلوبهم ، وطهَّر المجتمعَ مِن رِجْسِها وخُبثها .

لقد نهاهم اللهُ عن الصلاة ودخولِ المسجد في حال السُّكر . وكان هذا قبل نزول تحريم الخمر. وبعد نزول الآية ، صارَ المسلمون يَبتعدون عن السُّكر في أوقات الصلاة .

والسكرانُ هو الذي اختلطَ عقله، وفقد قُدرته على التركيز، وغرق في الهذيان والكلام غَير المفهوم. والسكرانُ لا يَعقِل ما يقول ، ولا يَعْقِل ما يُقال له . ولكنه ليس مجنونًا ، لأن المجنون فاقدٌ لقواه العقلية، ولا يَصِح أمر ولا نَهْيه. أمَّا السكرانُ فيهذي ، ويَخلط الحق بالباطل في كلامه، فالخمرُ أثقلت لسانه ، وخدَّرت جسمه ، وأفقدته القدرة على التركيز والكلام المنطقي ، ولكنَّها لَم تسلب عقله بشكل كامل ، ولَم تُحوِّله إلى مجنون . والمجنون غير مُكلَّف بالأحكام الشرعية ، لأن العقل مَناط التكليف.والشرطُ الإلهيُّ للصلاة ودخول المسجد هو﴿حتى تَعْلَمُوا ما تَقُولونَ ﴾ . فإذا عَلِمَ الشخصُ ما يَقول ، فهو غَير سكران . وعندئذٍ ، يجوز أن يُصَلِّيَ بلا حَرَج .

وعن عليٍّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((دعانا رَجل من الأنصار قبل تحريم الخمر ، فحضرتْ صلاةُ المغرب ، فتقدَّمَ رَجل ، فقرأ : ﴿ قُل يا أيُّها الكافرون ﴾ [الكافرون : ١] . فالتبس عليه، فَنَزلت : ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنتم سُكَارَى حتى تَعْلَمُوا ما تَقُولونَ ﴾ ــ الآية ــ)) [4].

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٣٦) برقم (٣١٩٩) وصحَّحه، ووافقه الذهبي . وقال الحاكم : ((وفي هذا الحديث فائدة كثيرة ، وهي أن الخوارج تنسب هذا السُّكر وهذه القراءة إلى أمير المؤمنين عليٍّ ابن أبي طالب دون غَيره ، وقد بَرَّأه اللهُ منها ، فإنه راوي هذا الحديث)) .

﴿ ولا جُنُبًا إلا عَابِرِي سَبِيلٍ حتى تَغتَسِلُوا ﴾ . ولا تَقْرَبوا الصلاةَ وأنتم جُنُب غَير طاهرين ، ويكون ذلك بإنزال أو إيلاج، إلا إذا كُنتم مُسافرين، وأصابتكم الْجَنَابة، ولَم تجدوا الماءَ ، فَتَيَمَّمُوا وصَلُّوا.وأصلُ الجنابة البُعد.وَسُمِّيَ جُنُبًا لأنه يَتجنَّب موضع الصلاة أو يتجنَّب الناس حتى يغتسل. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩٠) : ((في تسمية الْجُنُب بهذا الاسم قَولان: أحدهما لمجانبة مائه محله، والثاني : لِمَا يلزمه من اجتناب الصلاة ، وقراءة القرآن، ومَس المصحف، ودخول المسجد . قَوله تعالى : ﴿ إلا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أن المعنى: لا تقربوا الصلاة وأنتم جُنُب إلا أن تكونوا مُسافرين ، غَير واجدين للماء ، فَتَيَمَّمُوا وتصلوا . وهذا المعنى مرويٌّ عن عليٍّ رضي الله عنه ومجاهد والحكم وقتادة وابن زيد ومقاتل والفرَّاء والزَّجاج . والثاني لا تقربوا مواضع الصلاة وهي المساجد وأنتم جُنُب إلا مُجتازين ، ولا تقعدوا . وهذا المعنى مرويٌّ عن ابن مسعود وأنس بن مالك والحسن وسعيد بن المسيِّب وعِكرمة وعطاء الخراساني والزُّهري وعمرو بن دينار وأبي الضحى وأحمد والشافعي وابن قتيبة ، وعن ابن عباس وسعيد ابن جبير كالقَولين. فعلى القول الأول : عابر السبيل المسافر وقُربان الصلاة فِعلها ، وعلى الثاني:عابر السبيل المجتاز في المسجد وقُربان الصلاة دخول المسجد الذي تُفعَل فيه الصلاة)).

﴿ وإن كُنتم مَرْضَى أوْ عَلى سَفَرٍ أوْ جَاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ ﴾.وإن كُنتم مرضى يَضُرُّكم استعمال الماء ، كأن يُسبِّب تلف أحد الأعضاء ، أو تأخير علاج جُرح ، أو زيادة الوجع . والمرضُ الذي يَضُرُّه الماء كالقُروح والْجُدَري والجروح. أو كُنتم مُسافرين وأنتم جُنُب أو مُحْدِثُون، بخروج شيء مِن أحد السَّبيلين ، ولَم تجدوا الماءَ . وأصل الغائط المكان المطمئن مِن الأرض . والمجيء مِن الغائط كِناية عن الْحَدَث . فالعادة أن يَذهب الشخص إلى ذلك المكان البعيد عن الأنظار لقضاء حاجته ، فَكُنِّيَ عن الْحَدَث بمكانه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإن كُنتم مَرْضَى ﴾ في سبب نزول هذا الكلام قَولان : أحدهما أن رَجلاً من الأنصار كان مريضًا ، فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولَم يكن له خادم ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فذكر له ذلك، فَنَزلت هذه الآية : ﴿ وإن كُنتم مَرْضَى أوْ عَلى سَفَرٍ ﴾ ، قاله مجاهد . والثاني أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم جِراحات، ففشت فيهم، وابْتُلوا بالْجَنَابة، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فَنَزلت : ﴿ وإن كُنتم مَرْضَى ﴾ الآية كلها، قاله إبراهيم النَّخعي . قال القاضي أبو يعلى : وظاهر الآية يقتضي جواز التيمم مع حصول المرض ، الذي يَستضرُّ معه باستعمال المال ، سواء كان يخاف التلف أو لا يخاف ،

وكذلك السفر يجوز فيه التيمم عند عدم الماء سواء كان قصيرًا أو طويلاً، وعدم الماء ليس بشرط في جواز التيمم للمريض، وإنما الشرط حصول الضرر ، وأمَّا السفر فعدم الماء شرط في إباحة التيمم ، وليس السفر بشرط، وإنما ذُكِر السَّفر ، لأن الماء يُعْدَم فيه غالبًا)) اهـ .

﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ . أو جامعتُم النساءَ. وَكُنِّيَ باللمس عن الجِماع ، لأن الجِماع لا يحصل إلا باللمس . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩٢) : ((وفي المراد بالْمُلامَسَة قَولان : أحدهما أنها الجِماع ، قاله عليٌّ وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة . والثاني أنها الْمُلامَسَة باليد، قاله ابن مسعود وابن عمر والشعبي وعبيدة وعطاء وابن سيرين والنخعي والنهدي والحكم وحماد)) اهـ .

﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ . فلم تجدوا ماءً تتطهَّرون بِه للصلاة بعد البحث والتفتيش .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ . سبب نزولها أن عائشة رضي الله عنها كانت مع النبيِّ ﷺ في بعض أسفاره ، فانقطع عِقْد لها ، فأقام النبيُّ ﷺ على التماسه ، ولَيسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فَنَزلت هذه الآية . فقال أُسَيد ابن حُضَير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر . أخرجه البخاري ومسلم)) اهـ .

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وأيْدِيكُم ﴾ . اقْصِدُوا _ عند عدم وجود الماء ، وبعد دخول وقت الصلاة _ ترابًا طاهرًا ، فاضربوا به ضَربتين ، وتطهَّروا بِه ، وامسحوا وجوهكم وأيديكم مع المِرْفَقَيْن بهذا التراب الطاهر . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢١٩) : ((اعلم أن مسح الوجه واليدين واجب في التيمم ، واختلفوا في كيفيته : فذهب أكثر أهل العِلم إلى أنه يمسح الوجه واليدين مع المرفقين بضربتين ، يضرب كفيه على التراب ، فيمسح جميع وجهه ، ولا يجب إيصال التراب إلى ما تحت الشعور ، ثُمَّ يضرب ضربة أخرى ، فيمسح يديه إلى المرفقين)) اهـ .

﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ . إنَّ اللهُ يُسهِّل على عباده ، ويُيسِّر أمورَهم ، ويُرخِّص ، لئلا يَقعوا في الحرَج والمشقة. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٢):((﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فلذلك يَسَّر الأمرَ عليكم ، ورخَّص لكم)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٦٥) : ((أي : وَمِن عَفْوه عنكم وغُفرانه لكم أن شَرَعَ التيمم، وأباح لكم فِعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، تَوْسِعَةً عليكم ورُخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تَنْزيه الصلاة أن تُفعَل على هيئة ناقصة مِن سُكر حتى يصحوَ المكلَّف ويَعقِل ما

يقول، أو جَنابة حتى يَغتسل ، أو حَدَث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضًا أو عادمًا للماء،فإن الله عز وجل قد أرخص في التيمم، والحالة هذه رحمة بعباده، ورأفة بهم، وتوسعة عليهم، ولله الحمد والمِنَّة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إذا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم وأيْدِيَكُم إلى الْمَرَافِقِ وامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم وأرْجُلَكُم إلى الكَعْبَيْنِ وإن كُنتم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا وإن كُنتم مَرْضَى أوْ عَلى سَفَرٍ أوْ جَاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ أوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وأيْدِيكُم مِنْهُ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ولَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لعلكم تَشْكُرُون ﴾[المائدة : ٦] .

هذه آيةُ الوضوء التي حدَّدت كيفية الاستعداد قبل الدخول في الصلاة ، حيث غسل الوجه واليدين إلى المرافق ، ومسح الرأس، وغسل الرِّجْلين إلى الكعبَيْن. والترتيبُ أحد فرائض الوضوء ، فلم يثبت عن النبيِّ ﷺ أنه خالف هذا الترتيب . والعباداتُ توقيفية تستند إلى الاتباع لا الابتداع .

يا أيُّها الذين صَدَّقْتُم بِوَحدانيةِ اللهِ ونُبُوَّةِ محمد ﷺ، إذا أردتم الصلاةَ وأنتم مُحْدِثُون (على غَير طُهْر)، فاغسلوا الوجوه والأيدي إلى المرافق،وامسحوا رؤوسكم،واغسلوا أرجلكم مع الكعبين.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٩٨) : ((وللعلماء في المراد بالآية قَولان : أحدهما إذا قُمتم إلى الصلاة مُحْدِثِين فاغتسلوا ، فصار الْحَدَث مُضْمَرًا في وجوب الوضوء ، وهذا قول سعد ابن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري وابن عباس والفقهاء . والثاني أن الكلام على إطلاقه من غير إضمار ، فيجب الوضوء على كل مَن يُريد الصلاة ، مُحْدِثًا كان أو غَير مُحْدِث، وهذا مرويٌّ عن علي رضي الله عنه، وعِكرمة وابن سيرين، ونُقِل عنهم أن هذا الْحُكْم غير منسوخ ، ونُقِل عن جماعة من العلماء أن ذلك كان واجبًا ثم نُسِخ بالسُّنة ، وهو ما روى بُرَيدة أن النبيَّ ﷺ صلى يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد. فقال له عمر: لقد صنعتَ شيئًا لَم تكن تصنعه ، فقال: " عَمْدًا فعلتُه يا عُمر ")) اهـ .

وقال الزمخشري في الكشَّاف (١/ ٤٧٤) : ((وفائدة المجيء بالغاية ﴿ إلى الكَعْبَيْنِ ﴾ لدفع ظن مَن يحسبها مَمسوحة ، لأن المسح لَم تُضرَب له غاية في الشريعة)) اهـ .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال : ((وَيْلٌ للأعقاب مِن النار))(5).

---

(٥) متفق عليه . البخاري (٤٨/١) برقم (٩٦) ، ومسلم (١/ ٢١٤) برقم (٢٤١) .

العَقِب مُؤخَّر القَدَم . والمعنى : هلاك وعذاب لأعقاب أرجلكم مِن عذاب نار جهنم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ١٢٩) : ((فتواعدها بالنار لعدم طهارتها ، ولو كان المسح كافيًا لَمَا تواعدَ مَن ترك غَسْل عَقِبَيْه)) اهـ .

وهذا الحديث يردُّ على الشِّيعة الروافض الذين يقولون إن الرجلين فرضهما المسح لا الغُسل .

والآيةُ واضحة وصريحة لأن ﴿ وأرْجُلَكُم ﴾ جاءت بالنَّصْب ، لأنها معطوفة على المغسول ، وجِيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب . والترتيبُ فَرْض في الوضوء ، والوضوء يبطل بدونه .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٨٤) : عن عائشة _ رضي الله عنها _ : سَقطتْ قِلادةٌ لي بالبَيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخَ النبيُّ ﷺ ونزل ، فثنى رأسه في حِجْري راقدًا . أقبل أبو بكر فَلَكَزَني لَكْزَةً شديدة . وقال : حَبستِ الناسَ في قِلادة ؟! ، فَبِي الموت ، لمكان رسول الله ﷺ ، وقد أوجعني ، ثم إن النبيَّ ﷺ استيقظَ ، وحَضرت الصُّبْحُ ، فَالْتُمِسَ الماءُ فلم يُوجَدْ ، فَنَزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ الآية . فقال أُسَيد بن حُضَير : لقد باركَ اللهُ للناس فيكم يا آل أبي بكر ، ما أنتم إلا بركة لهم [6].

إن اللهَ تعالى يُخفِّف عن الناس ولا يضطرهم إلى أضيق المسالك . فقد أنزل هذه الآيةَ ليرشد المؤمنين إلى كيفية التصرف في حال القيام إلى الصلاة . كما بيَّن لهم الإجراءات الواجب اتباعها.

ولَم يتركهم لأهوائهم أو أمزجتهم الشخصية . وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرَج عن الناس ، فلا مكان للضِّيق والمشكلات والْمُنغِّصات فيها . والأمر كُلما ضاق اتَّسع .

قال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٥) : ((قد اختلف أهل العلم في هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة ، فقالت طائفة : هو عام في كل قيام إليها سواء كان القائم مُتَطَهِّرًا أو مُحْدِثًا ، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ ... وقال جماعة : هذ الأمر خاص بمن كان مُحْدِثًا. وقال آخرون : المراد إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، فيعم الخطاب كل قائم من نوم)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (١/ ٨٧): عن عمرو بن عامر عن أنس قال : ((كان النبيُّ ﷺ يتوضأ عند كل صلاة)). قلتُ : كيف كنتم تصنعون ؟، قال: ((يُجْزِئ أحَدَنَا الوضوءُ ما لَم يُحْدِثْ)).

---

(٦) (فثنى رأسه) وضعه.(راقدًا) أي يريد الرُّقود والنوم.(لكزني) دفعني في صدري بِكَفِّه.(فبي الموت) أي كاد يَنْزل بي الموت من شدة الوجع ، ولَم أتحرك حتى لا أُزعِج رسول الله ﷺ. (فيكم) بسببكم .

لا يمكن إنكار أهمية الوضوء في الطهارة والتطهر قبل الدخول إلى حضرة الله تعالى، والاتصال معه عبر الصلاة . فالوضوءُ سلاح المؤمن ، ويمنح كلَّ أعضائه نورًا وبهجة ، فليس هو مجرَّد إسالة الماء على بعض الأعضاء ، بل هو نظام حياة متكامل يضع المؤمنَ في أقصى مدى النُّور . والنبيُّ ﷺ كان حريصًا على الوضوء عند كل صلاة . وهذه هي حالة الكمال الإيماني ، مع أن هذا الأمر ليس بواجب. فيجوز للمسلم أن يُصلِّيَ كل الصلوات بوضوء واحد ، فالعِبرةُ في انتقاض الوضوء أم لا. وفضلُ الوضوء عام في الحياة الدنيا ، حيث يجعل المؤمنَ واثقًا بنفسه ، في أعلى درجات النظافة والتطهر ، مُقْبِلاً على الله تعالى وهو في شكل نوراني حسن . ويتعدى فضلُ الوضوء إلى الحياة الآخرة . حيث إن الوضوء يُساهم في رفع درجة المؤمن يوم القيامة ، ومجيئه طاهرًا شريفًا مكتمل الهيئة ، وفي أفضل حال ، ظاهرًا وباطنًا . مظهره طاهر ، وجوهره طاهر .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ أُمَّتي يُدْعَوْنَ يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلين من آثار الوضوء ، فَمَن استطاعَ مِنكم أن يُطيل غُرَّته فليفعل))(7).

إن الأمة المحمدية الإسلامية تأتي يوم القيامة يعلوها البياضُ الوهاج، والصفاءُ الباهر ، نتيجة الوضوء في الحياة الدنيا الذي منحهم النظافة والتألق والبياض المنتشر من غير عِلَّة . فيتحولون إلى كائنات بشرية نورانية، لأنهم ــ في الدنيا ــ التزموا أوامرَ الله تعالى في الطهارة والتطهر والاستعداد للصلاة ، فيأتون في الآخرة ، وعليهم الوقارُ الناصع ، حيث وجوههم مشرقة ، وأجسادهم طاهرة نقية . والوضوءُ ليس عمليةً ميكانيكية أو تعاملاً عَبَثِيًّا مع الماء . إنه منظومة إيمانية وأخلاقية واجتماعية متكاملة ، وحالة إيمانية شاملة يتعدى أثرُها إلى الحياة الآخرة .

وفي الحديث أنَّ النبيَّﷺسَأله رَجل:يا رسول الله،وكيف تعرف أُمَّتك مِن بين الأمم، ما بين نوح إلى أُمَّتك؟،قال: ((غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِن أثر الوضوء، ولا يكون لأحدٍ مِنَ الأُمَم غَيْرِهم ، ...))(8).

لقد خَصَّ اللهُ تعالى الأُمَّةَ المحمَّدية الإسلامية بالمجد والشَّرف في الدُّنيا والآخرة إكرامًا لرسولها محمد ﷺ ، وليس هذا تَكَبُّرًا أو اعتناقًا لِخُرافة نَقاء العِرْق ، بَل إنها الحقيقة الساطعة . فالمسلمون وَحْدَهم هُم حَمَلةُ كلمة اللهِ على كوكب الأرض . وإذا زالوا فإِنَّ اللهَ لَن يُعْبَد في الأرض أبَدًا .

---

(٧) متفق عليه . البخاري (١/ ٦٣) برقم (١٣٦) ، ومسلم (١/ ٢١٦) برقم (٢٤٦) .

(٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٢٠) برقم (٣٧٨٤) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

والنبيُّﷺ يَعرِف أُمَّته يوم القيامة بين الأُمم الكثيرة بالنُّور الظاهر على وجوهها مِن أثَر الوضوء. وقد ذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ الوضوء مِن خصائص الأُمَّة المحمَّدية دُون باقي الأُمم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(٣/ ١٣٥):((قال أهل اللغة : الغُرَّة بَياض في جَبهة الفَرَس ، والتَّحجيل بَياض في يَدَيها ورِجْلَيْها . قال العلماء : سَمَّى النُّورَ الذي يكون على مواضع الوضوء يَوْمَ القيامة غُرَّةً وتَحجيلاً ، تَشبيهًا بِغُرَّة الفَرَس ، والله أعلم)) اه .

﴿ وإن كُنتم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا ﴾ . وإن أصابتكم جَنابة ، فتطهَّروا مِنها بِغَسْل جميع البدن بالماء ، قبل دُخولكم في الصلاة. والمعنى: بالِغوا في تطهير أبدانكم ، ولا يكون ذلك إلا بِغَسْل جميع البدن.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٥) : ((أي : فاغتسلوا بالماء . وقد ذهب عمر ابن الخطاب وابن مسعود إلى أن الْجُنُب لا يَتيمَّم البَتَّة ، بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالاً بهذه الآية ، وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنابة مع عدم الماء . وهذه الآية هي للواجد ، على أن التطهر هو أعم من الحاصل بالماء ، أو بما هو عوض عنه مع عدمه وهو التراب . وقد صح عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور ، للأحاديث الصحيحة الواردة في تيمُّم الْجُنُب مع عدم الماء)) اه .

﴿ وإن كُنتم مَرْضَى أوْ عَلى سَفَرٍ ﴾ . وإن كُنتم مرضى يضرُّكم استعمال الماء ، أو كُنتم مُسافرين ولَم تجدوا الماء . وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٧١) : ((يعني بِقَوله جَل ثناؤه : إن كُنتم جرحى أو مُجَدَّرين وأنتم جُنُب. وأمَّا قَوله : ﴿ أوْ عَلى سَفَرٍ ﴾ ، فإنه يقول : وإن كنتم مُسافرين وأنتم جُنُب)) اه .

﴿ أوْ جَاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ ﴾ . أو جاءَ أحدُكم مِن موضع البُراز . يعني : قضى أحدُكم حاجته وهو مُسافر . وفي تفسير الجلالين (١/ ١٣٦) : ((أي : أحدثَ)) اه .

﴿ أوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ . أو جامعتم النساءَ . ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ . إذا لَم تجدوا الماءَ بعد طلبه والبحث عنه ، فاقْصِدُوا الترابَ الطاهرَ للتيمُّم بِه .

﴿ فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وأيْدِيكُم مِنْهُ ﴾ . فامسحوا وجوهكم وأيديكم مع المرفقين بالتراب بضربتين . وقد بَيَّنت السُّنةُ كيفيةَ التيمم . والباء للإلصاق . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٠) : ((فيه دليل على أنه يَجب مسح الوجه واليدين بالصعيد ، وهو التراب)) اهـ . وفي تفسير الجلالين (١/ ١٣٦) : ((وبَيَّنت السُّنة أن المراد استيعاب العُضْوَيْن بالمسح)) اه .

﴿ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

لقد فَرَضَ اللهُ على المؤمنين الوضوءَ والغُسل والتيمم ، للتخفيف عنهم ، وتسهيل أمورهم ، وعدم إحراجهم ولا التضييق عليهم . والشريعةُ جاءت لرفع الحرَج عن الناس ، وليس حشرهم في الزاوية الضَّيقة . وقد جعل اللهُ الدين واسعًا ورحبًا حِين رخَّص في التيمم . وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٧١) : ((ما يريد الله بما فرض عليكم من الوضوء إذا قُمتم إلى صلاتكم ، والغُسل من جَنَابتكم ، والتيمم صعيدًا طَيِّبًا عند عدمكم الماء ﴿ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ﴾ لِيُلْزِمَكُم في دِينكم مِن ضِيق ولا لِيُعْنِتكم فيه)) اهـ .

﴿ ولَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لعلكم تَشْكُرُون ﴾ .

يُريد اللهُ ـ بفضله وكرمه ـ أن يُطهِّركم بالوضوء والغُسل والتيمم مِن الأحداث والجنابة والذنوب . والوضوءُ تكفير للذنوب.

وَلِيُكْمِل نعمته عليكم بالهداية إلى الإيمان ، وبيان شرائع الدِّين الحنيف القائمة على اليُسر والتسهيل والتَّوسعة ورفع الحرَج ، والترخيص في التيمم عند المرض والسفر . وتمام النِّعمة دخول الجنة والنجاة مِن النار ، وَلِتَشكروا اللهَ على نِعَمه العظيمة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، وتُطيعوا أوامرَه، وتجتنبوا نَواهيه . وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٧١) : ((ولكن الله يريد أن يُطهِّركم بما فرض عليكم من الوضوء من الأحداث ، والغُسل من الجنابة ، والتيمم عند عدم الماء ، فَتُنَظِّفوا ، وتُطهِّروا بذلك أجسامكم مِن الذنوب)) اهـ .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال : ((الوضوء يُكفِّر ما قَبْلَه)) [9].

إن الوضوء يَمحو الخطايا والذنوب ، يعني الصغائر . فينبغي الحرص عليه بفرائضه وسُننه .

وفي صحيح مسلم (١/ ٢١٦) : عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن تَوَضَّأ فأحسنَ الوُضوء ، خَرجت خطاياه من جسده ، حتى تخرج مِن تحت أظفاره)) .

هذا يدل على أهمية الإتيان بالوضوء على الوجه الأمثل ، دُون خلل ولا نقص ، والحرص على فرائضه وسُننه وآدابه ، وتجنُّب منهياته ، لأن الوضوء تكفير للخطايا والذنوب ، وتطهير للجسد معنويًّا وماديًّا . وهكذا ، يصبح المسلم طاهرًا من دَنَس الخطايا والذنوب ، ونظيفًا مِن كُل شائبة .

---

(٩) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥١) . وفي فَيض القدير للمُناوي (٦/ ٣٧٥) : ((قال المنذري والهيثمي : سنده صحيح)) .

ثانيًا : أداء الصلاة

١_ الحض عليها :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] .

الأمرُ الإلهيُّ يُفيد الوجوب. فالصلاة فَرْض ، وهي مِن المعلوم مِن الدِّين بالضرورة ، بحيث إن مُنكِرها كافر . وينبغي أداؤه على الوجه الأمثل، وإقامتها على أكمل صورة. وإقامة الصلاة تعني أداء الصلوات الخمس بأوقاتها وحُدودها وفرائضها وسُننها وشُروطها . واللهُ تعالى لَم يقل : صَلُّوا، وإنما قال : ﴿ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ ، وهذا يعني أن الهدف هو إقامة الصلاة لا وُجود الصلاة ، وكُل مُقيمٍ للصلاة مُصَلٍّ ، ولَيس كُل مُصَلٍّ مُقيمًا للصلاة . والصلاة في الآية هي اسم جِنس .

والآيةُ دليل على أن الكافرين مُخَاطَبُون بإقامة الصلاة . وفي تفسير ابن كثير (١/ ١٢٣) : ((قال مقاتل : قَوله تعالى لأهل الكتاب : ﴿ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ ، أمَرَهم أن يُصَلوا مع النبيِّ ﷺ)).

وفي تفسير الجلالين (١/ ١٠): ((صَلُّوا مَعَ الْمُصَلِّين محمد وأصحابه ، ونزل في علمائهم، وكانوا يقولون لأقربائهم المسلمين : اثبتوا على دين محمد ، فإنه حق)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإنها لَكَبِيرةٌ إلا عَلى الخاشِعِين ﴾ [البقرة: ٤٥].

لا يُمكن للإنسان أن يسير في طريق العبادة إلا بالصبر على أداء الفرائض والسُّنن ، وتثبيتِ نفسه على الطاعة ، ومنعها من الحرام ، وهذا لا يتأتى إلا بالاستعانة بالصبر الذي قُدِّم ذِكْرُه على الصلاة ، لأن الصبر هو مفتاح العبادات ، وبدونه لا يمكن أداء أيَّة عبادة .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ : أنه جاءه نَعْيُ بعض أهله وهو في سَفَر ، فصلى ركعتين، ثم قال : ((فَعَلْنا ما أَمَرَ اللهُ ، استعينوا بالصبر والصلاة)) [10]. هذا هو التطبيق العملي للأوامر الإلهية التي ليست شعاراتٍ على الورق . إنها منهاجٌ متكامل لصلاح الفرد وإصلاح المجتمع ، فالصبرُ إن لَم يتحقق على أرض الواقع وعند الصدمات ، فعندئذ يكون الفردُ كالحمار الذي يحمل أسفارًا ، يحملها على ظَهْره ، لكنه لا يَفهم ما فيها، ولا يعمل بها. إنَّ حقيقة الصبر تتجلى في مَنع النفس مِن شَهواتها المحرَّمة ، ورفض اتِّباع هَواها . ومعنى الآية: استعينوا بالصبر على طاعة الله ، وتطبيق أوامره ، واجتناب نَواهيه ، وبإقامة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكَر. والصلاة عبادة عظيمة شاقة وثقيلة إلا على المؤمنين المتواضعين للهِ ، والمستسلمين لأحكام شريعته، والْمُصَدِّقين

(١٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٦) برقم (٣٠٦٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

بوعده ووعيده، والذليلين أمام عَظَمته وكِبريائه، والخائفين مِن عذابه. وقِيل إن المقصود بالصبر في الآية هو الصَّوم ، ومِنه قِيل لرمضان شهر الصبر.ووَفْق هذا القَول،فإن تخصيص الصوم والصلاة بالذِّكر لعلاقتهما الوثيقة، وتناسبهما الواضح، فالصَّوْمُ يَمنع الإنسان من الشهوات ، ويُزهِّد في الدنيا . والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٤١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإنها لَكَبِيرةٌ ﴾ . اختلف المتأوِّلون في عَوْد الضمير مِن قَوله : ﴿ وإنها ﴾ ، فَقِيل : على الصلاة وَحْدَها خاصة ، لأنها تكبُر على النفوس ما لا يكبُر الصَّوم . والصبر هنا : الصوم ، فالصلاة فيها سَجْن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ، فليس مِن منع شهوة واحدة أو شهوتين ، كما منع جميع الشهوات ، فالصائم إنما فيه مُنِع شهوة النساء والطعام والشراب،ثم ينبسط في سائر الشهوات مِن الكلام والمشي والنظر ، إلى غَير ذلك مِن مُلاقاة الخلق ، فيتسلى بتلك الأشياء عَمَّا مُنِع ، والمصلِّي يمتنع من جميع ذلك، فجوارحه كُلها مُقيَّدة بالصلاة عن جميع الشهوات ، وإذا كان ذلك ، كانت الصلاة أصعب على النفس ، ومُكابدتها أشد ، فلذلك قال : ﴿ وإنها لَكَبِيرةٌ ﴾)) اهـ . والصلاةُ خفيفةٌ على الخاشعين ، لأنهم مُخْلِصُون للهِ تعالى ، ومُتعلِّقون بالجزاء والنعيم في يوم القيامة ، ومُسْتَغرِقُون في مُناجاة اللهِ تعالى ، وهذه اللذة أنستهم شِدَّة الصلاة وتعبها ومَشقتها ، لذلك تسهُل عليهم الصلاة . وفي الصلاة تتجلى لذة العبادة ، ويتَّضح الاستمتاع بالطاعة. وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال : ((... وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصلاة)) [(11)].

لقد جُعِلَت سعادة النبيِّ ﷺ ومُتعته واستمتاعه في الصلاة . لذلك ، فهو حريصٌ عليها، لا يُريد مُفارقتها ولا الخروج مِنها . فالإنسانُ حريص على ما يُسْعِده ، ويَتمسَّك بِه ، ولا يحب تَرْكه.

لقد صارت الصلاةُ صفةً للنبيِّ ﷺ ، وحالاً له ، يجد فيها فرحه وسعادته ولذته ونعيمه وهناءه .

والعبدُ يتقرَّب إلى اللهِ بالصلاة ، لذلك يُعظِّم قَدْرَها ، ويحرص عليها أشد الحرص ، وهي محل القُربة والمناجاة ، ولا واسطة في الصلاة بين العبد وربِّه ، إذ إن العبدَ في الصلاة يُكلِّم اللهَ مُباشرةً. وقال الحافظ في الفتح(١١/ ٣٤٥):((ولا شيء أقَر لعين العبد من الصلاة،ولهذا جاء في حديث أنس المرفوع:" وَجُعِلت قُرَّةُ عَيْني في الصلاة".أخرجه النَّسائي وغَيره بسند صحيح . ومَن كانت قُرَّة عَينه في شيء، فإنه يود أن لا يفارقه ولا يخرج منه، لأن فيه نعيمه،وبه تطيب حياته، وإنما يحصل ذلك للعابد بالْمُصابَرة على النَّصَب (التعب) ، فإن السالك غرض الآفات والفُتور)).

---

(١١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ١٧٤) برقم (٢٦٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والجديرُ بالذِّكر أن الصلاة تُورِث الخشوع والتواضع واللين،وتَنْفي الكِبر والتكبُّر والعِناد والغرور. والخشوعُ هو الإخبات والتواضع. والخشوعُ مكانه القلب، وتَظهر آثارُه على الجوارح .

والصبرُ والصلاةُ يُعينان على فِعل الطاعات ، وترك المحرَّمات . وتَمَّ تخصيص الصلاة بالذِّكر لمكانتها العظيمة ، ومَنْزلتها الرفيعة ، وتنويهًا بشرفها وفضلها وعَظَمَتها .

والصلاةُ تُمثِّل أعظم درجات الصبر ، لأن جَوارح المصلِّي وأعضاءه وحَوَّاسه ، كُلُّها مُقيَّدة بالصلاة ، وهذا سبب شِدَّة الصلاة ومشقتها ، فهي شديدة على النفس . ولا بُد من بذل جُهد كبير في مُكابدتها وتحمُّلها والصبر عليها . والصلاةُ هي عَمود الدِّين ، وأعظمُ أركان الإسلام بعد الشَّهادَتَيْن . والصلاةُ راحةُ المؤمن ، ومَنبع السَّكينة والطمأنينة . فالعبدُ أثناء الصلاة ، يُكلِّم اللهَ ، ويَدعوه . وهي الصِّلةُ الوثيقة بين العبد وربِّه . والشخصُ الذي لا يُصلِّي، قَد قَطَعَ العلاقةَ بينه وبين الله تعالى. والنبيُّ ﷺ كانَ إذا تضايقَ مِن أمرٍ ، أو أُصيب بالحزن والغَم ، لَجَأ إلى الصلاة .

فعن حُذَيفة قال : كان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى [12].

وقال الزبيدي في تاج العروس (١/ ٤٠٦) : ((حَزَبَهُ الأَمْرُ يَحْزُبُه حَزْبًا : نَابَه أَي أَصَابَهُ واشْتَدَّ عليه ، أَوْ ضَغَطَهُ فَجْأَةً ، وفي الحديثِ : " كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى " ، أَي: إِذَا نَزَلَ به مُهِمٌّ وأَصَابَه غَمٌّ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٧٥و٧٦) في تفسير الآية : ((الأصل في الصبر الحبس، فالصابر حابس لنفْسه عن الجزَع ، وسُمِّيَ الصائم صابرًا لحبسه نَفْسَه عن الأكل ، والشُّرب ، والجِماع ، والمصبورة البهيمة تُتَّخذ غَرَضًا ، وقال مجاهد : الصبر هاهُنا الصَّوم. وفيما أُمِرُوا بالصبر عليه ثلاثة أقوال : أحدها أنه أداء الفرائض ، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني أنه ترك المعاصي، قاله قتادة. والثالث عدم الرئاسة ، وهو خطاب لأهل الكتابَيْن . ووجه الاستعانة بالصلاة أنه يُتلَى فيها ما يُرغِّب في الآخرة، ويُزهِّد في الدنيا. قَوله تعالى : ﴿ وإنها ﴾ في الْمُكَنَّى عنها ثلاثة أقوال : أحدها أنه الصلاة ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد والجمهور . والثاني أنها الكعبة والقِبلة، لأنه لَمَّا ذَكَر الصلاة دَلَّت على القِبلة ، ذَكَره الضَّحاك عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل . والثالث أنها الاستعانة، لأنه لَمَّا قال : ﴿ وَاسْتَعِينُوا ﴾ دَلَّ على الاستعانة ، ذكره محمد بن القاسم النحوي)) اهـ .

---

(١٢) رواه أبو داود في سُننه (١/ ٤٢٠) برقم (١٣١٩) . وحسَّنه الحافظ في الفتح (٣/ ١٧٢).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿حَافِظُوا عَلى الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الوُسْطى وقُومُوا للهِ قَانِتِين﴾[البقرة : ٢٣٨].

وَاظِبُوا على الصلوات المفروضة (المكتوبة) في أوقاتها ، واحفظوا حُدودها ، واحرصوا على أدائها بفرائضها وسُننها وشُروطها ، وعلى الصلاةِ الوُسطى (الفُضلى) . وتَمَّ تخصيصها بالذِّكر تنويهًا بفضلها وشرفها ومكانتها. وروى ابن خُزَيمة في صحيحه (٢/ ٢٩٠) عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ قال: قال رسول الله ﷺ : ((الصلاةُ الوُسطى صَلاةُ العَصْر)) .

إن الصلاةَ الوُسطى هي صلاة العَصْر. وسُمِّيَت الصلاة الوُسطى لأنها أفضل الصلاة وأعظمها، وأكثرها فضلاً وأجرًا ، لذلك خُصَّت بالذِّكر للتنبيه على مكانتها الرفيعة وضرورة المحافظة عليها.

وأيضًا ، لأن قَبْلها صَلاتَين في النهار ، وبعدها صَلاتَيْن في الليل ، فهي الوُسطى . وصلاةُ العَصْر تعني التَّضحية بالتجارةِ والأشغالِ والسَّعْيِ في الدنيا مِن أجل الله تعالى . لذلك كانت هي الصلاة الفُضلى لِمَا في وقتها مِن اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٣٦) : ((فضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها ، واجتماع الملائكة)) اهـ .

وعن ابن عُمر أن رسول الله ﷺ قال: ((الذي تفوته صَلاةُ العصرِ كأنما وَتَرَ أهْلَهُ وَمَالَهُ))(13).

إن الشخص الذي لا يُؤَدِّي صلاةَ العصر في وقتها ، فكأنما خَسِرَ أهلَه ومالَه ، وبَقِيَ وحيدًا حزينًا بلا أهل ولا مال . وهذا هو مُنتهى الخسران . سيظل حزينًا مهمومًا بائسًا فاقدًا للسعادة ، يُعاني مِن غَم المصيبة ، ونادمًا بسبب تفويته للصلاة ، وغارقًا في الأسف والحسرة كشخصٍ خَسِرَ أهلَه ومالَه ، وفقدهما مَعًا ، وليس أمامه أيَّة فرصة لتعويضهما ولا استرجاعهما . فما بالُك بِمَن ترك الصلاةَ عامدًا مُتَعَمِّدًا ؟ . لقد خَسِرَ دُنياه وآخرته مَعًا . فهو بائس مُنهار في الدنيا ، وحياته ضائعة بلا هدف ، وفي الآخرة مصيره العذاب في نار جهنم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٢٦) : ((رُوِيَ بنصب اللامَيْن ورفعهما _ أهله وماله _ ، والنَّصْب هو الصحيح المشهور الذي عليه الجمهور على أنه مفعول ثانٍ، ومَن رَفع فعلى ما لَم يُسَمَّ فاعله ، ومعناه انتُزِع منه أهلُه ومالُه ، وهذا تفسير مالك بن أنس. وأمَّا على رواية النَّصْب فقال الخطابي وغَيره : معناه نَقص هو أهلَه ومالَه ، وسَلَبَه ، فَبَقِيَ بلا أهل ولا مال، فليحذر مِن تفويتها كحذره من ذهاب أهله وماله)) .

وقُوموا للهِ بين يَدَيه خاشعين ذليلين مُنكَسِرين مُستسلمين ، وهذا يدل على أهمية السُّكوت والتفكر والتأمُّل . والقِيامُ للهِ قانتين يشتمل على معنى الطاعة وطُول القِيام وعدم الكلام .

---

(١٣) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٠٣) برقم (٥٢٧) ، ومسلم (١/ ٤٣٥) برقم (٦٢٦) .

والمعنى : قُوموا للهِ في الصلاة مُطيعين وخاشعين وذاكرين الله في قِيامكم . وعن زيد بن أرقم قال: ((كُنَّا نتكلم في الصلاة، يُكلِّم أحَدُنا أخاه في حاجته، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ حَافِظُوا عَلى الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الوُسْطى وقُومُوا للهِ قَانِتِين ﴾ ، فَأُمِرْنَا بالسُّكوت))[14].

القُنُوتُ هو لُزوم الطاعة مع الخضوع والاستسلام والخشوع . وقد أمَرَهم اللهُ بالسُّكوت في الصلاة وعدم الكلام . والحديثُ يدل على تحريم الكلام في الصلاة سواءٌ كان لمصلحتها أَم لا .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ٢٧) : ((وأجمعَ العلماء على أن الكلام في الصلاة عامدًا عالِمًا بتحريمه بغير مصلحتها ، وبغير إنقاذها وشَبَهه ، مُبطِل للصلاة ، وأمَّا الكلام لمصلحتها فقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد ـ رضي الله عنهم ـ والجمهور: يُبطِل الصلاة . وجوَّزه الأوزاعي وبعض أصحاب مالك، وطائفة قليلة. وكلام الناسي لا يُبطِلها عندنا (الشافعية)، وعند الجمهور ما لَم يَطُلْ . وقال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ والكوفيون : يُبطِل)) اهـ .

والخطابُ الإلهيُّ في الآية لجميع الأُمَّة.والأمرُ للوجوب.حافظوا على إقامة الصلوات في أوقاتها، واحرصوا على أدائها بشكل كامل وصحيح.والْمُحَافَظَةُ هي الْمُداوَمة على الشَّيء والموَاظَبَة عليه. وعن ابن مسعود قال: سألتُ النبي ﷺ: أيُّ العملِ أحبُّ إلى الله ؟،قال:((الصلاة على وقتها))[15].

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٨٧) في التفسير العام للآية: ((وَاظِبوا ودَاوِموا على الصلوات المكتوبات بمواقيتها وحُدودها ، وإتمام أركانها . ثُمَّ خَصَّ مِن بينها الصلاة الوُسطى بالمحافظة عليها دَلالة على فضلها، والوُسطى تأنيث الأوسط، ووسط الشيء: خَيْرُه وأعدله...قَوله تعالى:﴿وقُومُوا للهِ قَانِتِين ﴾ أي: مُطيعين. قال الشَّعبي وعطاء وسعيد بن جُبَير والحسن وقتادة وطاووس.والقُنُوت : الطاعة . وقال الكلبي ومقاتل:لكل أهل دِين صلاة يقومون فيها عاصين،فقوموا أنتم لله في صلاتكم مُطيعين. وقِيل : القُنوت السُّكوت عمَّا لا يَجوز التكلم به في الصلاة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُم فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فإذا أمِنتُم فاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَا لَم تَكونوا تَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ٢٣٩] . وقُوموا للهِ قانتين (مُطيعين خاشعين) ، فإن خِفتم مِن عَدُوِّكم ، فَصَلُّوا على أيَّة حال تَتيسَّر لكم. صَلُّوا رِجالاً (جَمْع راجل) أو رُكبانًا (جَمْع راكب). وهذا في

---

(١٤) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٦٤٨) برقم (٤٢٦٠) ، ومسلم (١/ ٣٨٣) برقم (٥٣٩) .

(١٥) متفق عليه . البخاري (١/ ١٩٧) برقم (٥٠٤) ، ومسلم (١/ ٨٩) برقم (٨٥) .

حالة قتال العدوِّ . والمعنى: صَلُّوا واقفين على أرجلكم، أو رَاكبين على دَوَابِّكم ، مُستقبلي القِبلة أو غَير مُستقبليها . في حالة القِتال ، يُصلِّي المرءُ حيث كان وجهه ، سواءٌ استقبلَ القِبلة أم لَم يستقبلها، ويُومئ بالركوع والسجود ، ويَجعل السجود أخفض من الركوع. وأيضًا، إذا هاجمه سبع ، أو داهمه سَيْل أو فَيضان ، ويخاف على نَفْسه الهلاك ، يجوز له أن يُصَلِّيَ بالإيماء . وهذا يدل على عَظَمة الصلاة وأهميتها القُصوى ، فقد أمرَ اللهُ بأدائها على أيَّة حال، ولَم يُسْقِطْها في حالة الحرب والقِتال وتطايُر الرؤوس . فما بالُك بوضع الأمن والأمان ؟! . وإذا كانت الصلاةُ لا تسقط في حالة القتال ومُقارَعة السُّيوف ، فالأَوْلَى أن لا تَسقط في حالة المرض أو التعب أو السَّفر . فالصلاةُ واجبة في كل الظروف بلا استثناء ، حَسَب قُدرة الإنسان وطاقته ، حتى لو لَم يستطع أداءها إلا بالإشارة بالعَيْن ، فيجب أداؤها . وهكذا ، تتميَّز الصلاة عن باقي العبادات ، فهي لا تَسقط بالأعذار ولا الرُّخَص ، ولا تساهُل فيها إطلاقًا . فإذا أمنتُم وزالَ الخوفُ وتهديدُ العدوِّ ، فَصَلُّوا كما كُنتم تُصَلُّون آمنين مُطمئنين مُستقبلي القِبلة ، قائمين بجميع فُروض الصلاة وسُننها وحُدودها وحقوقها وآدابها ، مَعَ تعظيم اللهِ والثناء عليه ، وتقديسه ، وحَمْده ، وشُكره . وقد علَّمكم اللهُ كيفيةَ الصلاة في حَالَتَي الخوف والأمن ، فالتزموا بشريعة اللهِ جُملةً وتفصيلاً . واللهُ يُذَكِّرهم بنعمته عليهم ، وضرورة شُكره ، لأنه علَّمهم ما لَم يكونوا يَعلمونه مِن الشرائع والأحكام ، ومِنها كيفية الصلاة في حَالَتَي الخوف والأمن . اشكروا اللهَ على نِعمته العظيمة التي تتجلى في تعليمكم هذه الصلاة المخصوصة (صلاة شِدَّة الخوف) ، فهي صلاة مُعْتَبَرَة شَرْعًا ، تُجْزِئ وتُسْقِط الفرض عن العبد . وبالتالي ، لا تفوته صلاة من الصلوات ، ولا يَرتكب ذَنْبًا عظيمًا في تركه الصلاة . وهذا مِن رحمة الله وفضله وكَرَمه . لقد أمرَ اللهُ بالمحافظة على الصلوات وأدائها على الوجه الأمثل (الوقار والهدوء والسَّكينة). وهذه هي القاعدةُ العامة ، والحالة الغالبة (الأمن والأمان والطمأنينة). وهناك استثناء ، وهو حالة الخوف الطارئة ولقاء العدو وقتاله . فرخَّص اللهُ في أداء الصلاة واقفين على الأرجل ، أو راكبين على الدواب ، مُستقبلي القِبلة أو غَير مُستقبليها ، بالإيماء والإشارة بالرأس . لقد وضَّح اللهُ للمؤمنين أن الصلاة عبادة واجبة لا تَسقط تحت أيِّ ظرف ، ويجب أداؤها في كل الأحوال حَسَب الإمكان، ووَفْق قُدرة العبد، واللهُ لا يُكلِّف الناسَ فوق طاقتهم ، ولا يُحمِّلهم أكثر مِمَّا يحتملون. وفي حالة وجود خطر على حياة الإنسان أو تهديد لمصيره أو خوف على رُوحه، فلهُ أن يُصَلِّيَ صلاةَ شِدَّة الخوف وَفْق أحكام هذه الآية . وعلى العبد أن يَتصرَّف بما فيه نجاة نفْسه من الهلاك ، وإنقاذ حياته من الموت .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٨٩): ((لَمَّا أمرَ تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها ، وشَدَّد الأمر بتأكيدها ، ذَكَر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل ، وهي حال القتال والتحام الحرب ، فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُم فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ، أي فَصَلُّوا على أيِّ حال كان ، رِجالاً أو رُكبانًا ، يعني مُستقبلي القِبلة وغَير مُستقبليها ، كما قال مالك عن نافع أن ابن عمر كان إذا سُئِل عن صلاة الخوف وصفها ، ثُمَّ قال : " فإن كان خوف أشد من ذلك صَلُّوا رِجالاً على أقدامهم ، أو رُكبانًا مُستقبلي القِبلة أو غَير مُستقبليها ". قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبيِّ ﷺ . ورواه البخاري وهذا لفظ مسلم ... ولمسلم أيضًا عن ابن عُمر قال : " فإن كان خوف أشد من ذلك فَصَلِّ راكبًا أو قائمًا تُومِئ إيماءً ". وفي حديث عبد الله بن أُنَيس الْجُهَني لَمَّا بعثه النبيُّ ﷺ إلى خالد بن سُفيان الْهُذَلِيِّ ليقتله ، وكان نَحْوَ عَرَفَة أو عرفات، فلمَّا واجهه حانت صلاة العصر ، قال : " فخشيتُ أن تفوتني فجعلتُ أُصلِّي وأنا أُومِئ إيماءً ". الحديث بِطُوله رواه أحمد وأبو داود بإسناد جَيِّد . وهذا مِن رُخَص الله التي رَخَّص لعباده، ووَضْعه الآصار والأغلال عنهم . وقد ذهب الإمام أحمد فِيما نَصَّ عليه إلى أن صلاة الخوف تُفعَل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان ... وقال البخاري : (باب الصلاة عند مُناهَضة الحصون ولقاء العدو) ، وقال الأوزاعي : إن كان تهيَّأ الفتح ولَم يَقْدِروا على الصلاة صَلُّوا إيماءً، كُل امرئ لنفْسه ، فإن لَم يَقْدِروا على الإيماء أخَّرُوا الصلاة حتى ينكشف القتال ، ويأمنوا ، فَيُصَلُّوا ركعتين ، فإن لَم يَقْدِروا صلوا ركعة وسجدتين ، فإن لَم يَقْدِروا لا يُجزيهم التكبير ، ويُؤخِّرونها حتى يأمنوا ، وبه قال مكحول ... وقَوله : ﴿ فإذا أَمِنتُم فاذْكُرُوا اللهَ ﴾ ، أي: أقيموا صلاتكم كما أُمِرْتُم ، فأتِمُّوا رُكوعها وسُجودها وقِيامها وقُعودها وخُشوعها وهُجودها ، ﴿ كَمَا عَلَّمَكُم مَا لَم تَكونوا تَعْلَمُون ﴾ ، أي : مِثْل ما أنعمَ عليكم وهداكم وعَلَّمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، فقابلوه بالشُّكر والذِّكر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا نَادَيْتُم إلى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بأنهم قَوْمٌ لا يَعْقِلُون ﴾ [المائدة : ٥٨] .

إذا أذَّنتُم إلى الصلاة ودَعَوْتُم إليها، سَخِرَ اليهود والنصارى والمشركون مِنها،واستهزؤوا بكم. إنهم يتضاحكون ويتغامزون فيما بينهم ، ويَغرَقون في السَّفَه والطَّيْش والْمُجُون تجهيلاً للمؤمنين وسُخريةً مِنهم ، ومِن أذانهم وصلاتهم . وهذا يدل على جهلهم بالله وكُرههم للحق ، وحسدهم للمؤمنين ، وعدم معرفتهم بشريعة الله ومعنى عبادته . لذلك اعتمدوا مبدأ الاستهزاء بأحكام

الشريعة ، والسُّخرية مِن الدِّين . وفي هذا دَلالة واضحة على كُفرهم وضلالهم وشقاوتهم . وكان الكفارُ إذا سمعوا الأذانَ إلى الصلاة سخروا واستهزؤوا ، وإذا شاهدوا المسلمين يَركعون ويسجدون ضحكوا ولعبوا.إن الصلاة أعظم الأعمال وأفضل العبادات لَو كانوا يَفهمون أو يَعْقِلون، ولكن عقولهم محصورة في مصالح الدنيا،ومنافعهم الشخصية، ولا يَفهمون حِكمة الأذان والصلاة، ولا يَعْرِفون معنى العبادات وأهميتها. ونَفْيُ العقل عنهم، لأنهم لَم يستفيدوا مِنه في أمر دِينهم، ولَم يَنتفعوا بِه لفهم الْمُراد الإلهيِّ ، ووجودُ عقولهم كعدمه . فكأنهم بلا عقول أصلاً .

والسُّخريةُ والاستهزاء واللعب مِن خصائص الجاهلين الطائشين السُّفهاء ، أمَّا العقلاء فإن عقولهم تمنعهم مِن القبائح والأمور السَّيئة .

والآيةُ تدل بوضوح على شرعية الأذان ، وثُبوته بنص القُرآن . كما تدل على أن المستهزِئ بالأذان أو الصلاة، هو عَدُوٌّ أحمق ، ينبغي إيقافه عن حَدِّه ، وعدم محبته ولا مُوالاته . والإيمانُ الحقيقيُّ يَرفض مُوالاة أعداء الدِّين .

والدِّينُ الإسلاميُّ مُنَزَّهٌ عن السُّخرية والاستهزاء واللعب ، والمستهزِئ إنما يضرُّ نَفْسَه ، ويُدمِّر حياته، ويَقضي على مستقبله، ويَجعل نَفْسَه أضحوكةً في الدنيا ، ومصيره عذاب النار يوم القيامة. وما ضَرَّ السَّحَابَ نُباحُ الكلاب . والقافلةُ تَسير والكلاب تَنبح . وصدق القائل : لَن تصل أبدًا إلى وِجهتك إذا توقفتَ لتُلقيَ حجرًا على كُل كلب ينبح .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨٥و٣٨٦):((قَوله تعالى: ﴿ وإذا نَادَيْتُم إلى الصَّلاةِ ﴾ في سبب نزولها قَولان : أحدهما أنَّ مُنادي رسول الله ﷺ كان إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها ، قالت اليهود : قاموا لا قاموا ، صلوا لا صلوا ، على سبيل الاستهزاء والضحك ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب . والثاني أن الكفار لَمَّا سمعوا الأذانَ حسدوا رسول الله ﷺ والمسلمين على ذلك ، وقالوا : يا محمد لقد أبدعتَ شيئًا لَم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية ، فإن كنتَ تدَّعي النُّبوة فقد خالفتَ في هذا الأذان الأنبياء قبلك ، فما أقبحَ هذا الصوت وأسمجَ هذا الأمر ، فَنَزلت هذه الآية ، ذكره بعض المفسرين . وقال السُّدي : كان رَجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي يُنادي : أشهد أن محمدًا رسول الله ، قال : حُرِقَ الكاذب ، فَدَخلت خادمة ذات ليلة بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة ، فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله. والْمُناداة هي الأذان، واتخاذهم إيَّاها هُزُوًا تضاحكهم وتغامزهم . ﴿ ذَلِكَ بأنهم قَوْمٌ لا يَعْقِلُون ﴾ ما لهم في إجابة الصلاة، وما عليهم في استهزائهم بِها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفًا مِنَ الليلِ إنَّ الحسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيئاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى للذاكِرِين ﴾ [هُود : ١١٤] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : وأقِمِ الصلاةَ يا محمد ، أتِمَّ رُكوعها وسُجودها طَرَفَي النهار (صلاة الفجر وصلاة المغرب) ، وساعاتٍ من الليل (صلاة العِشاء) . إن طاعة اللهِ وعبادته والتزام أوامره واجتناب نَواهيه ، تُزيل آثامَ المعاصي ، وتُكفِّر الذنوبَ .

والمعنى : إن الصلوات الخمس تُكفِّر صغائرَ الذنوب وتَمحوها ، وتُطهِّر العبدَ من الآثام .

والمقصود من الصلاة في الآية هو الصلوات المفروضة ، وتَمَّ تخصيص الصلاةُ بالذِّكر تنويهًا بشرفها ومكانتها العظيمة ومنزلتها الرفيعة ، ولأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، كما أنها مصدر الراحة والسعادة والطمأنينة ، وهي الملجأ والمأوى في الكرب والشِّدة والمصيبة .

وروى ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٩) عن أبي بكر الصِّديق رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال : ((ما مِن عبد يُذنِب ذنبًا ، ثُمَّ يتوضأ ، ثُمَّ يُصلِّي ركعتين ، ثُمَّ يستغفر الله لذلك الذنب ، إلا غَفر اللهُ له)) .

ما مِن رَجل ــ أو امرأة ــ يَقترف إثمًا ، ويَرتكب أيَّ ذنب كان ، ثُمَّ يتوضأ بشكل صحيح ، ويُحسِن الوضوء ، ثُمَّ يُصلِّي ركعتين بلا خلل ، فيتم الركوع والسجود ، ثُمَّ يَطلب المغفرة مِن اللهِ لذلك الإثم ، إلا غَفر اللهُ له . ووعدُ اللهِ واقعٌ لا مَحالة ، وحق وصِدق ، لا يَتخلف ولا يُلغَى .

والمقصود بالاستغفار هو تحقيق شروط التوبة: الإقلاع عن الذنب وتركه ، والندم عليه ، والعَزْم على عدم العودة إليه أبدًا ، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها إذا كان هناك حقوق ، وطلب المغفرة مِن الله تعالى. و" ثم " تُفيد التراخي. يعني : حتى لو ارتكبَ العبدُ الذنبَ ، وتأخَّرَ في التَّوبة، فلا تزال الفرصة أمامه ، وليس شرطًا التَّوبة مِن الذنب فَوْرًا ، المهم أن يتوب العبدُ. و" ثم " تدل على عدم اشتراط التعقيب، كما تدل على الرجاء. والحديث يُشير إلى سَعَة رحمة الله وفضله.

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ سَأل أصحابه : ((أرأيتُم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل مِنه كُل يوم خمس مرات ، هل يَبقى مِن دَرَنه شيء ؟)) ، قالوا : لا يبقى مِن دَرَنه شيء ، قال : ((فذلك مَثَلُ الصلوات الخمس ، يَمحو الله بهنَّ الخطايا))[16] . إن وجود النهر بالباب يدل على قُربه وسهولة الاغتسال مِنه ، بلا مشقة ولا عناء . ولو اغتسلَ الإنسانُ خمس مرات في هذا النهر ، لا

(١٦) متفق عليه . مسلم (١/ ٤٦٢) برقم (٦٦٧) ، والبخاري (١/ ١٩٧) برقم (٥٠٥) .

يبقى مِن وَسَخه شَيء . سيصبح طاهرًا نظيفًا في أعلى درجات النقاء والصفاء . وهذا هو مَثَل الصلوات الخمس ، فهي تُطهِّر الإنسانَ مِن ذُنوبه ، وتَغسله مِن آثامه ، وتُنقِّيه مِن الأوساخ المعنوية والمادية . وفي صحيح مسلم (١/ ٢٠٩) : عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال : ((الصلواتُ الخمس ، والْجُمُعة إلى الجمعة ، كَفَّاراتٌ لِمَا بينهنَّ)) .

والقُرآنُ موعظة إلهية وتذكرة للذين يَذكرون وعدَ الله ووعيده ، ويُصدِّقون بِهما ، ويتَّعظون بالمواعظ والإرشادات والتنبيهات، ويَرجون ثَواب الله ، ويَخافون عقابَه . والمواعظُ لا تَنفع إلا أصحابَ القلوب الحيَّة العامرة بالإيمان.أمَّا أصحاب القلوب النجسة، فلا يستفيدون مِن المواعظ، ولا يَنتفعون من التذكير والإرشاد . والقُرآن ذِكرى للذاكرين ، أي : عِظَة للمُتَّعظين .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٩٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ذِكْرَى للذاكِرِين ﴾ أي : القرآن موعظة وتوبة لِمَن اتَّعظَ وتذكَّرَ، وخَصَّ الذاكرين بالذِّكر لأنهم المنتفعون بالذِّكرى))اهـ .

إن إقامةَ الصلاة تملأ اليومَ كاملاً بالبهجة والسرور والتوفيق. فحينما يبدأ المسلمُ يومَه بالصلاة ويُنهيه بالصلاة، فعندئذ سوف تَحُل البركةُ في الزمان والمكان، وتترسَّخ العلاقةُ بين العبد والمعبود، ولا تنقطع الصلة بين المخلوق والخالق . وبما أن الصلاة سَدٌّ منيع يَحمي العبدَ مِن الغرق في الآثام ، فإن اليوم سوف يتحول إلى منبع للطهارة والأعمال الصالحة وترك الذنوب والخطايا.وبذلك يُصبح الفردُ مُسَيْطِرًا على حياته ، يأخذ زِمامَ المبادرة في الصالحات ، ولا يترك الدنيا تتلاعب به أو تخطفه الشهوات الدنيئة وحظوظ النفس الأمَّارة بالسُّوء . وعندئذ يصبح الزمنُ ذا قيمة سامية ، ويختفي وقتُ الفراغ المفسِد ، فالعمرُ صار مملوءًا بالطاعة والأفعال النافعة للإنسان ومجتمعه وحضارته .

أمَّا سبب نزول الآية فروى البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٢٧) : عن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ أن رَجلاً أصاب مِن امرأة قُبلة ، فأتى رسولَ الله ﷺ فَذَكر ذلك له ، فأُنزلت عليه : ﴿وأقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَي النَّهارِ وَزُلَفًا مِنَ الليلِ إنَّ الحسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيئاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى للذاكِرِين﴾. قال الرَّجل : ألي هذه ؟ ، قال : ((لِمَن عمل بها مِن أُمَّتي)) .

لقد ارتكبَ الرَّجلُ ذنبًا ، ووقع تحت تأنيب ضميره الحيِّ . فقد عَصى اللهَ تعالى وأراد أن يتوب من إثمه الذي اعترف به للنبيِّ ﷺ مِن أجل أن يُرشده إلى طريق التوبة والخلاص. فَنَزَلت الآيةُ الكريمة التي تأمر بإقامة الصلاةِ لأنها الحبل المتين بين العبد وخالِقه تعالى .والحسناتُ تُذهِب السيئاتِ وتقضي عليها بشكل تام، لذا على الإنسان_ مهما بَلغت ذنوبه _ أن يُكثِر من

الحسناتِ ، ولا يَستسلم لآثامه، أو يَفقد الأملَ في التوبة. فبابُ التوبةِ مفتوحٌ. ولا كبيرةٌ مع الاستغفار ، ولا صَغيرةٌ مع الإصرار . والحسناتُ تنقيةٌ للقلب ، وتطهيرٌ له من كل الشوائب . فالإنسانُ الذي يواصل فِعلَ الخيرات يتحول قلبُه إلى مرآة صافية عَصِيَّة على الخدش أو الكسر .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٧٦٨) : ((لَمَّا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه الاستقامةَ خَصَّ من أنواعها إقامة الصلاة لِكَونها رأس الإيمان. وانتصاب ﴿ طَرَفَيِ النَّهارِ ﴾ على الظرفية، والمراد صلاة الغداة والعَشِيِّ ، وهُما الفجر والعصر ... . ورجَّح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب. قال : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدل على أن الطرف الآخر المغرب)) اهـ .

إن أوقات المؤمن مليئة بالصلاة في أوقات محددة ، وذلك لكي يبقى على اتصال مع الله تعالى . فلا وقت للغفلة في حياة المؤمن ، ومع هذا فلن يتم قضاء كل الوقت في الصلاة ، فالصلواتُ هي أركان الحياة الإيمانية التي تُحدِّد مَعَالِمَ حياة المسلم ، وتجذبه إلى الخير ، وتُبعده عن الشر.وقالَ اللهُ تعالى:﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[إبراهيم: ٤٠].

هذه دَعوة النبيِّ إبراهيم ﷺ : رَبِّ اجعلني مُحَافِظًا على الصلاة ، حريصًا على أدائها على الوجه الأمثل والأكمل ، مُقِيمًا لأركانها وحُدودها وآدابها ، واجعل ذُرِّيتي مُقيمين للصلاة أيضًا .

وهذه أعظم دَعوة يَدعوها الوالدُ لنفسه وَلِذُرِّيته.وينبغي أن يكون الوالدُ حريصًا على التمسك بالإسلام ، والثبات عليه ، وتطبيق أحكام الشريعة كاملةً . وكذلك ، ينبغي أن يَكون حريصًا على دِين أبنائه وذُرِّيته ، ويُرشِدهم إلى ضرورة الالتزام بتعاليم الإسلام في كُل صغيرة وكبيرة .

والصلاةُ هي عمود الدِّين ، ولا تُوجد عبادة أعظم مِنها ، ولا أفضل مِنها . فيجب الحرص الشديد عليها، لأنها النجاة والخلاص في الدنيا والآخرة . وتم تخصيص الدعاء ببعض ذُرِّيته لا كُلِّها، لِعِلْمه أن بعضًا مِن ذُرِّيته لَن يكون مُقِيمًا للصلاة . وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٣٥٣): ((﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ عطف على المنصوب في ﴿ اجْعَلْنِي ﴾ والتبعيض لِعِلْمه بإعلام الله ، أو استقراء عادته في الأمم الماضية أن يكون في ذُرِّيته كفار)) اهـ .

رَبَّنا وتَقَبَّلْ عِبادتي التي أعبدك بِها ، أو : استجب دُعائي فيما دَعَوْتُكَ بِه . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأوْصَاني بالصَّلاةِ ﴾[مريم : ٣١] . في الآية إشارة واضحة إلى أهمية الصلاة وضرورة المحافظة عليها، حيث أوصى اللهُ بها رسولَه عيسى بن مريم ﷺ، أي أمَرَه بأدائها على أكمل وجه ، والمحافظة عليها . وهذا أمرٌ إلهيٌّ مُؤكَّد ، لا مجال للتهاون فيه . وعليه أن يُحافظ على الصلاة ، ويُقيم حدودها ، ويلتزم بها طريقًا في الحياة ، حيث إنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكَر .

والصلاةُ قادرة على تصحيح مسار الفرد والجماعة ، وتوجيه كافة الجهود نحو إصلاح الإنسان والأرض ، وتأسيس حياة فُضلى في ظل الشريعة الإلهية المعصومة .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٣٣٨) : ((يعني المحافظة على حُدود الصلاة ، وإقامتها على ما فرضها عليَّ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكانَ يَأمُرُ أهْلَهُ بالصَّلاةِ ﴾[مريم : ٥٥] .

يَمدح اللهُ النبيَّ إسماعيل ﷺ ، ويُثني عليه ، ويُبيِّن إحدى صِفاته العظيمة ، فقد كان يحثُّ أهلَه على طاعة اللهِ وأداء العبادات، والحرص عليها ، وعلى رأسها الصلاة ، لأنها عَمود الدِّين ، وأعظم العبادات . ولَم يكن يُداهِن ولا يُجامِل ولا يُحابي أقرب الناس إلَيه على حساب دِينه وطاعة الله تعالى ، وهذه صِفة كمال، تدل على قوة إيمان إسماعيل ﷺ وصبره وتحمُّله ، ودَعوة الناس إلى الحق بلا مَلَل ولا كَسَل . والآيةُ تُشير إلى أهمية حِرص الإنسان على طاعة اللهِ وعبادته ، وإرشاد أقرب الناس إلَيه . وقِيل : المراد بأهله في الآية أُمَّته ، لأن الأنبياء آباء الأمم . وقِيل : جُرْهُم (قبيلة عربية قديمة تزوَّجَ إسماعيل مِنها) . وقِيل : عشيرته .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦٩) : ((هذا أيضًا من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والْخَلَّة (الْخَصْلَة) السديدة، حيث كان مُثَابِرًا على طاعة رَبِّه عزَّ وجلَّ، آمِرًا بها لأهله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ أضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم : ٥٩] .

جاء مِن بَعد الأنبياء الكرام وأتباعهم الأتقياء قَوْمٌ أشقياء فاجرون خَلَفُوهم في الأرض، أضاعوا الصلاةَ، وأهملوها ، ولَم يُحافظوا عليها ، ومَن أضاعَ الصلاة التي هي عمود الدِّين ، أضاعَ باقي العبادات والطاعات . والآيةُ دليلٌ على أن إضاعة الصلاة هي طريق الضياع والعذاب الشديد .

ومَن أضاعَ الصلاةَ فهو لِغَيرها أضْيَع . ومَن ترك الصلاةَ ، فقد هدم أساس الدِّين ، وأضاعَ دُنياه وآخرته ، لأن الصلاة أول عبادة يُحاسَب عليها المرء يوم القيامة .

وقد روى الترمذي في سُننه (٢/ ٢٦٩) وحسَّنه عن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إنَّ أوَّلَ ما يُحَاسَبُ به العبد يوم القيامة مِن عمله صلاتُه ، فإن صَلَحَتْ فقد أفلح وأنجحَ ، وإن فَسَدت فقد خاب وخَسِر ، فإن انتقص مِن فريضته شيء ، قال الرَّب _ عزَّ وَجَلَّ _: انظروا ، هل لعبدي مِن تطوُّع فَيُكَمَّلَ بها ما انتقصَ مِن الفريضة ؟ ، ثُمَّ يكون سائر عمله على ذلك)) .

أوَّل ما يُحاسَب العبد عليه مِن حقوق اللهِ تعالى ، هو الصلاة ، فإن أدَّى الصلاةَ كاملةً بلا خلل ولا نقص ، فقد فاز بمقصوده ، وظَفَر بمطلوبه . وإن لَم يُصَلِّ أو صلى بشكل غير صحيح ، فقد حُرِم الأجر ، ولَم يحصل على الثواب ، وندم أشد الندم ، واستحق العقوبة والعذاب . وإذا كانت فريضته ناقصة ، فإن الله _ بكرمه وفضله_ يَسأل وهو أعلم : هل في صحيفة العبد سُنن أو نوافل من الصلاة لجبر النقص الحاصل في الفريضة وإتمام الخلَل ؟ . وأيضًا ، إذا انتقصَ فريضة من سائر الأعمال تُكَمَّل من التطوع . وهذا يدل على سَعَة رحمة الله ، وفضله العظيم ، وإحسانه إلى خَلْقه ، فهو لَم يَخلقهم لِيُعذِّبهم ويُهلِكهم ، وإنما خَلَقهم لِيَرحمهم ، ويَمنحهم نعيمَ الجنة الأبديَّ . وفي تحفة الأحوذي (٢/ ٣٨٤) : ((قال العراقي في شرح الترمذي : يُحتمَل أن يُراد به ما انتقصه مِن السُّنن والهيئات المشروعة فيها، مِن الخشوع والأذكار والأدعية، وأنه يحصل له ثواب ذلك في الفريضة، وإن لَم يفعله فيها، وإنما فعله في التطوع، ويحتمل أن يراد به ما انتقص أيضًا مِن فروضها وشروطها، ويحتمل أن يُراد ما ترك مِن الفرائض رأسًا فلم يُصَلِّه فَيُعوَّض عنه من التطوع، والله سبحانه وتعالى يَقبل مِن التطوعات الصحيحة عِوَضًا عِن الصلوات المفروضة)) اهـ .

إن الصلاة هي العبادة الأولى التي يُحاسَب عليها العبدُ ، ضِمن حقوق الله تعالى ، وهذا يدل على عَظَمَتها ، وشرفها ، ومنزلتها الرفيعة ، وضرورة الاهتمام بها ، والإتيان بها على أكمل وجه ، فهي مُقدَّمة على سائر العبادات ، ولها الأولوية المطْلقة ، وهي أول فريضة يُبدَأ بها الحساب .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٩٦): ((وكان المصطفى ﷺ إذا أسلمَ رَجل، أول شيء يُعلِّمه الصلاة، لأنه إنما يضع الأمور على حَسَب وَضْع رَبِّه ، ناظرًا في ذلك إلى حكمته الإلهية، فبعد تقرُّر هذه الأولية والأهمية عند العبد،ناسبَ أن يكون أول السؤال عنها،إذ لا عُذر لها حينئذ)).

﴿ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ . وغرقوا في شَهوات الدنيا كشرب الخمر والزنا ، واشتغلوا بجمع حُطامها ، وفضَّلوا الشهوات والملذات والمعاصي على طاعة الله وعبادته ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ شَرًّا وخُسرانًا وخَيبةً وهلاكًا يوم القيامة . والشهوات هي ما يشتهيه الإنسانُ ، ويُوافق هواه ، ويُناسب طبيعته . والمقصود في الآية هو الشهوات المحرَّمة ، وتفضيلها على عبادة الله تعالى . إذ إنهم آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٤٥و٢٤٦) : ((وفي المراد بهذا الْخَلْفِ ثلاثة أقوال: أحدها أنهم اليهود ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس. والثاني اليهود والنصارى، قاله السُّدي. والثالث أنهم مِن هذه الأُمَّة ، يأتون عند ذهاب صالحي أُمَّة محمد ﷺ ، يتبارون بالزنا ، يَنْزو

بعضهم على بعض في الأزقة زُناة، قاله مجاهد وقتادة. قَوله تعالى: ﴿ أضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾ ...وفي المراد بإضاعتهم إيَّاها قَولان : أحدهما أنهم أخَّروها عن وقتها ، قاله ابن مسعود والنَّخعي وعمر بن عبد العزيز والقاسم بن مُخَيْمِرَة.الثاني تركوها قاله القُرَظي،واختاره الزَّجاج. قَوله تعالى:﴿ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي : وذلك مثل استماع الغناء وشرب الخمر والزنا واللهو ، وما شاكلَ ذلك مِمَّا يقطع عن أداء فرائض الله عز وجل . قَوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ ليس معنى هذا اللقاء مُجَرَّد الرؤية ، وإنما المراد به الاجتماع ، والْمُلابَسة مع الرؤية)) اهـ . وفي تفسير القرطبي (١١/ ١١٢) : ((قال ابن عباس : غَي واد في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ مِن حَرِّه ، أَعَدَّ تعالى ذلك الوادي للزاني الْمُصِر على الزنى،ولشارب الخمر المدمِن عليه،ولآكل الربا الذي لا يَنْزع عنه ، ولأهل العُقوق ، ولشاهد الزُّور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولدًا ليس منه)) اهـ . وعن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ أنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ _ وتلا هذه الآية : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ ﴾، فقال ﷺ: ((يَكون خَلْفٌ مِن بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتَّبعوا الشهوات، فسوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ، ثُمَّ يكون خَلْفٌ يَقرؤون القرآن لا يعدو تَرَاقِيَهُم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ومنافق وفاجر))[17]. إنَّ " الْخَلَف " هو الذي يَخْلُف بالخير.أمَّا "الْخَلْف"(بتسكين اللام) هو الذي يَخْلُف بالشر.وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٢/ ١٤٣): ((الْخَلَف بالتحريك والسُّكون : كُل مَن يجيء بَعد مَن مَضى ، إلا أنه بالتحريك في الخير ، وبالتسكين في الشَّر . يُقال : خَلَفُ صِدْقٍ ، وخَلْفُ سُوءٍ . ومعنى الحديث : سَيَأتي قَوْمٌ أشقياء فاسدون فاجرون مِن بعد ستين سنة ، يُهمِلون الصلاةَ (عمود الدين) ، ويَنغمسون في الشهوات والملذات ، ويُفضِّلون شهوات أنفسهم على عبادة الله وطاعته، فسوفَ يكون مصيرهم الهلاك والخيبة والعذاب. وعبارة " بعد ستين سنة " تعني: بعد طبقة الصحابة الذين يُمثِّلون الجيل الذهبي في الإسلام ، فقد كانوا القُدوة في الصلاح والتقوى والإيمان . ثُمَّ يَأتي قَوْمٌ أشقياء فاسدون فاجرون ، يَقرؤون القُرآنَ ، ويَحرصون على قراءته، ويَحفظونه، ويَعتنون بحفظه ، ولكنهم لا يَفهمونه ، ولا يَعْرِفون معاني الآيات ولا مقاصدها. وهذا سبب انحرافهم وضلالهم . إنهم يتعاملون مع آيات القرآن بجهل وسذاجة ، ويُفسِّرون الآياتِ حَسَب أهوائهم ومصالحهم ، ونُصرةً لمذاهبهم المنحرفة وعقائدهم الزائغة . إنهم سطحيون في فَهمهم للآيات ، ولا يُفرِّقون بين الآيات التي نزلت في

(١٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٠٦) برقم (٣٤١٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

المؤمنين ، والآيات التي نزلت في الكافرين. وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٤٩٥) : ((التَّراقِي : جمع تَرْقُوَة وهي العَظْم الذي بين ثُغرة النَّحر والعَاتِق . وهما تَرْقُوَتان مِن الجانِبَين . وَوَزْنها فَعْلُوَة بالفتح. والمعنى أن قِراءتهم لا يرفعُها الله ، ولا يَقبَلها ، فكأنها لن تتَجاوز حُلوقَهُم . وقِيل : المعنى أنهم لا يَعْملون بالقرآن ، ولا يُثابُون على قراءته ، فلا يحصل لهم غير القراءة)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾[طه : ١٤] . وأقِم الصلاةَ لِتَذْكرني فِيها . والعبدُ إذا صلى ذَكَرَ اللهَ تعالى ، فالصلاةُ تشتمل على الأذكار ، وتحتوي على تسبيح الله وتقديسه وتمجيده وتعظيمه . وذِكر الله لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا في العبادات ، وعلى رأسها الصلاة. وتَمَّ تخصيص الصلاةُ بالذِّكر بسبب فضلها وشرفها وعَظَمَتها، واحتوائها على الأذكار ، واشتغال القلب واللسان والأعضاء بها، كما أنها أعظم أركان الإسلام بعد التوحيد (الشهادتين)، وهي أفضل عبادة ، وأشرف طاعة . والأمرُ في الآية للوجوب . فَمَن غَفَلَ في صلاته أو سها أو أخطأ ، فهو ليس مُقِيمًا للصلاة لِذِكْر الله تعالى . ويُؤجَر المرء في صلاته حَسَب درجة خُشوعه وتركيزه واستيعابه . وليس للمرء مِن صلاته إلا ما عَقِلَ مِنها ، وحضره بقلبه . والخشوعُ هو رُوح الصلاة وجوهرها الأصيل . وروى ابن حبان في صحيحه (٥/ ٢١٠) أن النبيَّ ﷺ قال: ((إن الرَّجل لَيُصَلِّي الصلاةَ ولعله لا يكون له مِنها إلا عُشْرُها أو تُسْعُها أو ثُمْنُها أو سُبْعُها أو سُدْسُها)) حتى أتى على العدد . وفي هذا الحديث التشديد على أهمية الخشوع والتركيز في الصلاة ، وحُضور القلب مع الله، وأداء الصلاة بفرائضها وسُننها وحدودها على الوجه الأمثل والأكمل. والمطلوبُ هو إقامة الصلاة ظاهرًا وباطنًا. والخشوعُ يكون بفهم ما يقوله المصلِّي ويَفعله ، أمَّا الساهي والغافل فلا خُشوع له . أو مَعنى الآية : أقِم الصلاةَ متى ذَكَرْتَ أن عليك صلاة ، سواءٌ كنتَ في وقتها أَم لا . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤) : ((﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ خَصَّها بالذِّكر وأفردها بالأمر ، للعِلَّة التي أناط بها إقامتها ، وهو تذكُّر المعبود ، وشَغل القلب واللسان بِذِكْره . وقِيل : ﴿ لِذِكْرِي ﴾ ، لأني ذكرتُها في الكتب، وأمرتُ بها، أو لأن أذكرك بالثناء ، أو ﴿ لِذِكْرِي ﴾ خاصَّة ، لا تُرائي بها ، ولا تشوبها بِذِكْر غَيري ، وقِيل : لأوقات ذِكْري ، وهي مواقيت الصلاة ، أو لِذِكْر صَلاتي)) اهـ . وعن أنس عن النبيِّ ﷺ قال : ((مَن نَسِيَ صلاةً ، فَلْيُصَلِّ إذا ذَكَرَها ، لا كفارة لها إلا ذلك ، ﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾)) [18].

(١٨) متفق عليه . البخاري (١/ ٢١٥) برقم (٥٧٢) ، ومسلم (١/ ٤٧٧) برقم (٦٨٤) .

إن اللهَ تعالى _ بكرمه وفضله _ لا يُؤاخِذ العبدَ على النسيان ، لأن النسيان خارج عن إرادة العبد. فَمَن نَسِيَ صلاةً ، فلا شَيء عليه ، ولكن إذا تَذَكَّرَ أنه لَم يُصَلِّها ، فيجب عليه أداؤها عِند ذِكرها _ مهما كان الوقت _ ، لأن مَن ذَكَرَ الصلاةَ ذَكَرَ اللهَ تعالى .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٩٣) : ((معناه : لا يُجزئه إلا الصلاة مِثْلها ، ولا يَلزمه مع ذلك شيء آخر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيها لا نَسْألُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ والعَاقِبَةُ للتَّقْوَى ﴾ [طه : ١٣٢] .

وأمُر يا محمد أهلكَ وأُمَّتكَ بالصلاة ، واصبر على أدائها بحدودها وفرائضها وسُننها وخُشوعها وآدابها،ودَاوِم عليها،فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكَر،ولا تنشغل عنها بزينة الدنيا وحُطامها. والآيةُ تدعو إلى الإقبال على الطاعة والعبادة،والثبات عليهما،والصبر على الشدائد والمشاق . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٠) : ((أي : اسْتَنْقِذْهُم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فِعْلها)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٣) : ((﴿ وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ ﴾ أمَرَه تعالى بأن يأمر أهلَه بالصلاة ، ويمتثلها معهم ، ويصطبر عليها ، ويُلازمها . وهذا خطاب للنبيِّ ﷺ ، ويدخل في عمومه جميع أُمَّته ، وأهل بيته على التخصيص . وكان _ عليه السلام _ بعد نزول هذه الآية ، يذهب كُل صباح إلى بيت فاطمة وعليٍّ _ رضوان الله عليهما _ فيقول : " الصلاة " ... . وكانَ عمر بن الخطاب_رضي اللهُ عنه_ يُوقِظ أهلَ داره لصلاة الليل،ويُصلِّي، وهو يتمثَّل بالآية)) اهـ.

لا نطلب مِنكَ مالاً ، ولا نَسألك رِزْقًا ، ولا نُكلِّفك أن تَرزق نَفْسَك ، ولا أن تَرزق أحَدًا مِن الناس،بل نُكلِّفك بأداء العبادة، ونَمنحكَ الأجرَ العظيم عليها، ونحن نَعطيكَ المال، ونُنْعِم عليك بأنواع النِّعَم ، ولا نأخذ مِنكَ شيئًا ، فاشتغل بالعبادة والطاعة ، ولا تقلق بشأن الرزق وطلب المعاش، وفَرِّغْ بالك لشأن الآخرة . وقد كان الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ إذا أصابهم حُزن أو هَم أو شِدَّة ، فَزِعُوا إلى الصلاة ، فهي الحِصن الحصين ، والمأوى الآمِن ، والملجأ الْمُرِيح .

والعاقبةُ الجميلة الحميدة (الجنة) للمُتَّقين الذينَ اتَّقَوا اللهَ في كُل صغيرة وكبيرة ، وصَدَّقوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ، واتَّبعوه . وحُسن العاقبة لهؤلاء الْمُتَّقين (صَفوة المؤمنين) الذين يَرجون رحمة الله ، ويخافون عذابَه . وهذا يدل على أن التقوى هي الأساس ، ومَنبع الخير والتوفيق .

والخطابُ الإلهيُّ في الآية للنبيِّ ﷺ ، ويَدخل فيها أهل بَيته وعشيرته وأُمَّته .

والآيةُ تدل إلى أهمية أن يأمر الإنسانُ أهلَه وقرابته بالعبادة والطاعة ، ويُنقِذهم مِن عذاب النار بإقامة الصلاة على أكمل وجه . والمسلمُ صَالِحٌ ومُصْلِحٌ ، لا يَكتفي بصلاح نفسه ، بَل أيضًا ، يُصلِح أهلَه ويُرشِدهم ويَهديهم إلى الحق. وهنا، تبرز أهمية الدَّعوة إلى اللهِ تعالى. فالدَّعوةُ الإسلاميةُ مشروعٌ للجميع ، لخلاص الفرد والجماعة والمجتمع ، وليس مشروعًا شخصيًّا للخلاص الفردي. وإذا أقامَ العبدُ الصلاةَ ظاهرًا وباطنًا، أتاه الرِّزق والخيرات مِن كل الجهات،مِن حَيث لا يَدري ولا يَحتسب،فلا داعي للقلق من الرزق،ولا معنى للخوف من المستقبل.فاللهُ هو الرزاق، ولا يُضيِّع مَن يَأتيه عابدًا طائعًا . واللهُ الذي يَرزق المخلوقات مُنذ بَدْء الخليقة ، ولا يَنسى شيئًا مِن مَخلوقاته، لَن يُعجِزه أن يَرزق عبده المؤمن ، ويُطعِمه ، ويَسقيه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٣٣٥و٣٣٦): ((قَوله تعالى: ﴿ وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ ﴾ قال المفسِّرون : المراد بأهله قَومه ، ومن كان على دِينه ، ويدخل في هذا أهل بيته . قَوله تعالى : ﴿ واصْطَبِرْ عَلَيها ﴾ أي : واصْبِرْ على الصلاة، ﴿ لا نَسْألُكَ رِزْقًا ﴾ ، أي: لا نُكلِّفك رِزْقًا لنفسك ولا لِخَلْقنا ، إنما نأمرك بالعبادة ، ورزقك علينا ، ﴿ والعَاقِبَةُ للتَّقْوَى ﴾ أي : وحُسن العاقبة لأهل التقوى . وكان بكر بن عبد الله الْمُزَني إذا أصاب أهله خَصَاصَة (حاجة) ، قال : قُوموا فصلوا ، ثم يقول : بهذا أمرَ اللهُ تعالى ورسوله ، ويتلو هذه الآية)) اهـ .

وعن محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال: كان النبيُّ إذا نزل بأهله الضِّيق أمَرَهم بالصلاة، ثُمَّ قَرَأ : ((﴿ وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيها ﴾))[19].

إن الصلاة تُفرِّج الكَرْب ، وتُزيل الهم ، وتَشرح الصدر . وعُمومًا ، إن النبيَّ ﷺ كانَ إذا أصابه ضِيق أو حزن ، لجأ إلى الصلاة ، وكان يَأمر أهلَه بالصلاة ، ويُنبِّههم على أهميتها ، وضرورة المحافظة عليها ، لأنها الْمُنَجِّية مِن مصائب الدنيا ، وعذابِ الآخرة . وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يقول اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ابْنَ آدم ، تَفَرَّغْ لعبادتي أملأْ صَدركَ غِنًى ، وأَسُدَّ فَقْرَكَ ، وإلا تفعل ، مَلأتُ صَدركَ شُغْلاً ، ولَم أَسُدَّ فَقْرَكَ))[20].

---

(١٩)رواه الطبراني في الأوسط(١/ ٢٧٢).قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦٦):((رجاله ثقات)) اهـ. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٢٣): ((ومحمد بن حمزة بن يوسف عن عبد الله بن سلام ، إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جَدِّه ، فيبعد سماعه مِن جَد أبيه)) .

(٢٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٨١) برقم (٣٦٥٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا توجيهٌ إلهيٌّ للإنسان مِن أجل نجاحه، وإرشادٌ رَبَّانِيٌّ يجب التمسُّك بِه ، والعمل بِمُقتضاه.

تَفَرَّغْ عن شُؤونك ومهماتك لطاعتي وعبادتي، أملأ قلبك قِناعةً ورِضًى ، والمقصود غِنى القلب وعِزَّة النَّفْس، وأُنقِذك من الفقر والحاجة وشَظَف العَيش، وأجعلكَ غنيًّا عن الناس، لا تحتاج إليهم. والغنيُّ هو الْمُستغني عن الناس ، الذي لا يحتاج إليهم . وإذا لَم تفعل ما آمرُكَ بِه ، ملأتُ صدرك ضِيقًا وشُغلاً واحتياجًا ولُهاثًا وراء الناس ، وتَركتُكَ فقيرًا بائسًا تعيسًا حزينًا ، بلا مُساعدة ولا إنقاذ . والمعنى : إذا لَم تتفرَّغ لعبادتي ، واشتغلتَ بغير طاعتي ، جعلتُكَ فقيرًا إلى الناس ، مُحتاجًا إليهم ، ولَم أُنقِذك من الفقر والحاجة . أي إن الله يتخلى عنه ، ويتركه ضائعًا وهائمًا على وجهه . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٠٨) : (((إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم ، تَفَرَّغْ لعبادتي) أي: تَفَرَّغْ عن مهماتك لطاعتي، ولا تشتغل باكتساب ما يزيد على قُوتك وقُوت مَمُونك ــ يعني مَن يَقوم بمؤونتهم وكفايتهم ــ ، فإنك إن اقتصرتَ على ما لا بُد منه واشتغلتَ بعبادتي (أملأ صدرك) أي قلبك الذي في صدرك (غِنًى) وذلك هو الغنيُّ على الحقيقة ... . (وأَسُد) بسين مهملة (فقرك) يعني تَفَرَّغْ عن مهماتك لعبادتي أقضِ مهماتك، ومن قضى الله مهماته استغنى عن خَلْقه، لأنه الغنيُّ على الإطلاق ، وهو المعنيُّ بِقَوله : (أملأ صدرك غِنًى)... . (وإن لَم تفعل) ذلك (ملأتُ يديك شُغلاً) ... تَلَهَّيْتَ بِه ، وخَصَّ اليدين لأن مُزاولة الاكتساب بهما (ولَم أَسُدَّ فقرك) أي : وإن لَم تتفرَّغ لذلك واشتغلتَ بغيري، لَم أَسُدَّ فقرك، لأن الخلق فقراء على الإطلاق فتزيد فقرًا على فقرك ، وهو المراد بِقَوله : (ملأتُ يديك) إلخ ، ذكره الطيبي . قال العلائي : أمرَ اللهُ في هذا الخبر بالتفرغ لعبادته ، ومِن جُملة ذلك أن لا يكون في القلب شاغل عن الإقبال على طاعته ، وقد صرَّح المصطفى ﷺ في غَير ما خبر، بأن الفراغ مِن النِّعَم التي لا يليق إهمالها . قال ابن عطاء الله : فَرِّغْ قلبك مِن الأغيار يملأه من المعارف والأسرار ، ربما وَردت عليك الأنوار فوجدتَ القلب مَحْشُوًّا بصور الآثار، فارتحلتَ مِن حَيث نزلتَ، لا تستنبط منه النَّوال،ولكن استنبط مِن نفسك وجود الإقبال . وقال : الخِذلان كُل الخِذلان أن تتفرَّغ مِن الشواغل ، ثُمَّ لا تتوجَّه إليه ، ويَقِل عوائقك ، ثُمَّ لا ترحل إليه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا ارْكَعوا واسْجُدوا واعْبُدوا رَبَّكُم وافْعَلوا الْخَيْرَ لعلكم تُفْلِحُون ﴾ [الْحَج : ٧٧]. صَلُّوا للهِ بكل إخلاص وخُشوع وطُمأنينة ، وتَمَّ تَخصيص الرُّكوع والسُّجود بالذِّكْر لأنهما أعظم أركان الصلاة وأشرفها ، والصلاةُ هي عمودُ الدِّين ، وأشرفُ العبادات . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩١): ((وخُصَّ الرُّكوع والسُّجود تشريفًا للصلاة)) .

واعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ ، ولا تُشرِكوا بِه شَيئًا ، وامْتَثِلُوا أمْرَه ، وقُوموا بأداء كل العبادات التي فَرَضَها اللهُ عليكم . وافْعَلوا الخيرَ الذي هو سبب لرضا اللهِ عنكم ، كَصِلَةِ الأرحام ، ومكارم الأخلاق ، وقِيام الليل ... إلخ . لكي تَفوزوا بالسَّعادةِ الدُّنيوية ، والنعيمِ في الآخرة .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١١٤) : ((وكان أوَّل ما أسْلَموا يُصَلُّون بلا ركوع وسجود، فأُمروا أن تكون صلاتُهم بركوع وسجود . وفيه دليل على أن الأعمال لَيست من الإيمان ، وأن هذه السَّجدة للصلاة لا للتِّلاوة ، ﴿ واعْبُدوا رَبَّكُم ﴾ واقْصِدُوا بركوعكم وسُجودكم وَجْهَ الله لا الصنم ، ﴿ وافْعَلوا الْخَيْرَ ﴾ . قِيل : لَمَّا كان للذِّكْر مَزِيَّة على غَيره من الطاعات ، دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذِكْرٌ خالص لِقَوْلِه تعالى : ﴿ وأقِمِ الصلاةَ لِذِكْري ﴾ [طه : ١٤]. ثُمَّ إلى العبادة بِغَير الصلاة كالصَّوم والحج وغَيرهما، ثُمَّ عَمَّ الحثُّ على سائر الخيرات، وقِيل: أُريد به صِلَة الأرحام ومكارم الأخلاق . ﴿ لعلكم تُفْلِحُون ﴾ أي : كي تَفوزوا ، وافعلوا هذا كُلَّه وأنتم رَاجُونَ للفلاح ، غَير مُسْتَيْقِنِين ، ولا تَتَّكِلُوا على أعمالكم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[العنكبوت : ٤٥] .

إن العبد إذا أدَّى الصلوات الخمس بفرائضها وسُننها وحدودها وآدابها وخُشوعها ، وَدَاوَمَ على أدائها على أكمل وجه ، وأقامَها ظاهرًا وباطنًا ، مُعَظِّمًا للهِ تعالى ، ومُسْتَوْعِبًا لآياته وأحكامه ، فإنه يَبتعد عن المحرَّمات والذنوب والمعاصي ، حيث إن مُواظبته على الصلاة تمنعه مِن الفواحش والمنكَرات والصغائر والكبائر ، وذلك لاشتمال الصلاة على آياتِ القُرآن المحتوية على الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب . وبذلك تكون الصلاةُ سببًا في الابتعاد عن الذنوب والآثام والمعاصي ، حيث إنها تُذَكِّر باللهِ العظيم ، وتُورِث في النفس خَشيته والخوف مِنه ، وتَهْدي إلى الحق والصواب . والصلاةُ مُناجاة للهِ تعالى ، مَعَ إقبال تام وكامل على طاعته وعبادته ، والابتعاد عن المعاصي. ومَن لَم تَنْهَهُ صلاته عن المنكَر ، فلَيست صلاته بصلاة ، وكأنه لَم يُصَلِّ أصلاً ، ووجود صلاته كعدمه .

وتَمَّ تخصيص الصلاة بالذِّكر ، لأنها أعظم أركان الإسلام بعد التوحيد ، وأفضل العبادات البدنية . وإذا لَم تُؤَثِّر الصلاةُ في العبد ، وتُرْشِده إلى الحق والهدى والصواب ، فلا صلاة له ، ولَن يَستفيد مِن العبادات ، ولَن يَنتفع بالطاعات ، لأنه أضاعَ الصلاةَ (أعظم عبادة وعَمود الدِّين) ، ومَن أضاعَ الصلاةَ فهو لِغَيرها أضْيَع .

والفحشاءُ : ما قَبُحَ مِن الأعمال ــ كالزنا مَثَلاً ــ . والمنكَر : ما يُنكِره الشرعُ والعقلُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٧٤) : ((وفي معنى هذه الآية للعلماء ثلاثة أقوال أحدها أن الإنسان إذا أدى الصلاة كما ينبغي وتدبَّرَ ما يتلو فيها نَهَتْهُ عن الفحشاء والمنكر، هذا مُقتضاها ومُوجبها . والثاني أنها تنهاه ما دام فيها . والثالث أن المعنى: ينبغي أن تنهى الصلاةُ عن الفحشاء والمنكَر)) اهـ. وفي تفسير القرطبي (١٣/ ٣٠٨) : ((فإذا دخل المصلِّي في مِحرابه ، وخشع ، وأخبتَ لِرَبِّه، وادَّكَرَ أنه واقف بين يديه ، وأنه مُطَّلع عليه ويراه ، صَلَحَتْ لذلك نَفْسُه ، وتذلَّلت ، وخامرها ارتقاب الله تعالى ، وظهرت على جوارحه هَيْبتها ، ولَم يكد يفتر مِن ذلك حتى تُظِله صلاة أخرى، يرجع بها إلى أفضل حالة ، فهذا معنى هذه الأخبار ، لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون . قلتُ: لا سِيَّما وإن أشعر نفسه أن هذا رُبما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ في المقصود، وأتم في المراد،فإن الموت ليس له سِن محدود، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مِمَّا لا خلاف فيه . ورُوِيَ عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعدَ واصفرَّ لَوْنُه ، فَكُلِّمَ في ذلك ، فقال : إني وافق بين يَدَي الله تعالى ، وَحُق لي هذا مع ملوك الدنيا ، فكيف مع مَلِك الملوك . وهذه صلاة تنهى ولا بُد عن الفحشاء والمنكَر)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن لَم تَنْهَهُ صلاتُه عَن الفحشاء والمنكَر ، لَم يَزْدَدْ مِن الله إلا بُعْدًا)) [21].

مَن أدَّى الصلاةَ وهو غافلٌ ، ولَم يفهم الآياتِ والأحكام ، ولَم يستوعب المواعظ والحِكَم والإرشادات ، ولَم تمنعه صلاتُه من الذنوب والمعاصي ، فكأنه لَم يُصَلِّ أصلاً . لقد صلى بشكل صُوَرِيٍّ ظاهري ، وقلبه نجس وقَذِر مليء بالمعاصي والآثام . وبالتالي ، تكون الصلاة سببًا لهلاكه وعذابه ، لأنها صارت حُجَّةً عليه ، لا حُجَّة له . وهو يَبتعد ــ بذنوبه ومعاصيه ــ عن اللهِ تعالى .

(٢١) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٥٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٥٣١) : ((وفيه ليث ابن أبي سُلَيم وهو ثقة ولكنه مُدلِّس . وعن عبد الله بن مسعود قال:" مَن لَم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكَر لَم يزدد مِن الله إلا بُعْدًا " . رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصحيح)) اهـ . وقال العراقي في تخريج الإحياء (١/ ١٠٤) : ((أخرجه علي بن مَعْبَد في كتاب الطاعة والمعصية مِن حديث الحسن مُرْسَلاً بإسناد صحيح . ورواه الطبراني وأسنده ابن مَرْدَوَيْه في تفسيره مِن حديث ابن عباس بإسناد لَيِّن ، والطبراني مِن قول ابن مسعود:" مَن لَم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكَر لَم يزدد مِن الله إلا بُعْدًا "، وإسناده صحيح)) اهـ .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٦/ ٢٢١) : (((مَن لَم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكَر) أي لَم يفهم في أثناء صلاته أمورًا تلك الأمور تنهى عن الفحشاء والمنكَر (لم يزدد) بصلاته (من الله إلا بُعْدًا) ، لأن صلاته ليست هي المستحق بها الثواب ، بل هي وَبال يترتب عليه العذاب . قال الْحَرَالِّي : هذه الآفة غالبة على كثير من أبناء الدنيا . واستدل به الغزالي على أن الخشوع شرط للصلاة ، قال : لأن صلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكَر)) اهـ .

وروى ابن حبان في صحيحه (٦/ ٣٠٠): عن أبي هريرة قال: قِيل : يا رسول الله ، إنَّ فُلانًا يُصلِّي الليلَ كُلَّه ، فإذا أصبحَ سَرَقَ ، قال : ((سَيَنهاه ما تقول)) .

إن إقامة الصلاة ظاهرًا وباطنًا ، معنويًّا وماديًّا ، هي الصلاة الحقيقية . وَمَن أدَّاها على الوجه الأمثل ، ابتعدَ عن الذنوب والمعاصي . أي إن الصلاة الحقيقية تَنهى عن الفحشاء والمنكَر .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلا صَدَّقَ ولا صَلَّى ﴾ [القِيامة : ٣١] .

هذا الكافر الجاحدُ لَم يُصدِّق بآيات القُرآن ، ولَم يُصَلِّ للهِ صلاةً . لقد كَذَّب بالقُرآن ، وجَحد نُبُوَّةَ محمد ﷺ، وأعرضَ عن عبادة الله، ورَفض طاعته، واستكبرَ عن الركوع والسجود له . أي إنه لَم يُؤمِن بقلبه ، ولَم يَعمل ببدنه . وهذا يُشير إلى أن الصلاة تطبيق عملي للتَّصديق القلبي، وكُلُّ مُكذِّب غَير مُصدِّق ، لَن يُصَلِّيَ ، ولَن يَقتنع بالصلاة .

و﴿ فَلا ﴾ نَفْي لا عاطفة. وهذا يدل على أن " لا " تدخل على الفِعل الماضي فتنفيه .

والآيةُ تحمل معنى الذم لهذا الكافر العنيد المغرور المتكبِّر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٠) : ((هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مُكَذِّبًا للحق بقلبه ، مُتَوَلِّيًا عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ٤٢٥):((قال أبو عبيدة: "لا " هاهُنا في موضع " لَم". قال المفسرون : هو أبو جهل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ للمُصَلِّين ﴾ [الماعُون : ٤] . هلاكٌ وعذابٌ للمُصَلِّين المنافقين. وقال القرطبي في تفسيره(٢٠/ ١٩٤):((أي: عذاب لهم)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ هُمْ عَن صَلاتِهِم سَاهُون ﴾[الماعُون : ٥] .

مِن أبرز الصفحات القبيحة لهؤلاء المصلِّين المنافقين أنهم غافلون عن صلاتهم ، غَير مُبالين بأمرها ، ولا مُهْتَمِّين بِشأنها . يُؤَخِّرونها عن وقتها ، تضييعًا لِحَقِّها ، وتهاوُنًا بها، وإهمالاً لها. وهذا يدل على عدم اهتمامهم بالصلاة ، واعتبارها عِبئًا ثقيلاً يجب التخلص مِنه بشكل سريع .

نزلت ﴿ فَوَيْلٌ للمُصَلِّين (٤) الذينَ هُمْ عَن صَلاتِهِم سَاهُون (٥) ﴾ في المنافقين ، فقد كانوا يُهْمِلون الصلاةَ ، ولا يُعظِّمونها ، وكانوا إذا صَلُّوا لا يَرجون ثوابًا ولا أجرًا ، ولا يَأتون بها على الوجه الصحيح ، حيث إنهم يَتلاعبون بها ، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها . وإذا لَم يُصَلُّوا ، لا يَخافون عقابًا ولا عذابًا. وهذا استخفاف واضح بأمر الصلاة وتهاوُن بِها ، وتضييع لحقها العظيم .

والجديرُ بالذِّكر أن اللهَ قال : ﴿ عَن صَلاتِهِم سَاهُون ﴾ ، ولَم يقل : في صلاتهم . وهناك فرق جوهري بينهما. فلفظةُ ﴿ عَن ﴾ تُشير إلى أنهم مُنافقون ، مشغولون عن الصلاة ، ومُهْمِلُون لأمرها، وغَير مُهتمين لشأنها ، وهذه إهانة للصلاة وتهاوُن بها ، وتجاهُل لعَظَمَتها وشرفها وفضلها .

أمَّا " في صلاتهم " ، فتدل على المؤمنين ، والمؤمنُ قَد يَسهو في صلاته ، وقد يَنسى . وَسَهْوُ المنافق مصدره احتقار الصلاة وإهمالها وتضييعها ، أمَّا سَهْوُ المؤمن ، فمصدره النسيان ووساوس الشَّيطان وتشتُّت الذِّهن ، مع تعظيمه للصلاة واحترامه لها ، وعدم التهاوُن بحقها . وسَهْوُ المؤمن خارج عن إرادته وطاقته ، وليس باختياره ، كما أنه يُجبَر بسجود السَّهْو .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧١٨) : ((قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ للمُصَلِّين (٤) الذينَ هُمْ عَن صَلاتِهِم سَاهُون (٥) ﴾ . قال ابن عباس وغَيره : يعني المنافقين الذين يُصَلُّون في العلانية ، ولا يُصَلُّون في السِّر ، ولهذا قال : ﴿ للمُصَلِّين ﴾ الذين هُم مِن أهل الصلاة، وقد التزموا بها ، ثُم هُم عنها ساهون ، إمَّا عَن فِعلها بالكُلِّية ، كما قاله ابن عباس . وإمَّا عن فِعلها في الوقت المقدَّر لها شرعًا ، فَيُخرِجها عن وقتها بالكُلِّية ، كما قاله مسروق وأبو الضحى . وقال عطاء بن دينار : الحمد لله الذي قال : ﴿ عَن صَلاتِهِم سَاهُون ﴾ ، ولَم يقل : في صلاتهم ساهون . وإمَّا عن وقتها الأول فَيُؤَخِّرونها إلى آخِره دائمًا أو غالبًا، وإمَّا عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإمَّا عن الخشوع فيها ، والتدبُّر لمعانيها ، فاللفظ يشمل ذلك كُلَّه)) اهـ .

وعلى العبد أن يُقيِّم نَفْسَه ، ويَعرِف درجته . فَمَن اتَّصفَ بشيء مِن ذلك ، كان له نصيب مِن صفات المنافقين ، ومَن اتَّصفَ بجميع ذلك ، فهو مُنافق خالص ، وغارق في النفاق العملي .

وفي صحيح مسلم (١/ ٤٣٤) : عن العلاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس بن مالك في داره بالبصرة حين انصرف مِن الظُّهْر ، وداره بجنب المسجد، فلمَّا دَخَلْنا عليه ، قال : أصليتم العصر ؟ ، فَقُلنا له : إنما انصرفنا الساعة مِن الظُّهْر ، قال : فَصَلُّوا العصر، فَقُمنا فصلينا ، فلمَّا انصرفنا قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((تِلك صلاة المنافق ، يجلس يَرْقُب الشمس ، حتى إذا كانت بين قَرْنَي الشَّيطان ، قامَ فنقرها أربعًا ، لا يَذكر اللهَ فيها إلا قليلاً)) .

إن صلاة المنافق قائمة على التلاعب والتَّحايل والتهاون والتكاسل ، يُؤدِّيها بحركات سريعة كنقر الطائر ، بلا طُمأنينة ، ولا خُشوع ، ولا تدبُّر ، ولا فهم للآيات ، ولا استيعاب للأحكام ، ولا اهتمام بالفرائض والسُّنن والآداب . لا يَذكر اللهَ إلا قليلاً ، وربَّما هذا بدافع الرياء ، وليس الإخلاص لله ، وابتغاء وجهه الكريم . وبالتالي ، فكأنه لَم يُصَلِّ أصلاً . ووجود صلاته كعدمه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٢٤) : ((قَوله ﷺ :" تِلك صلاة المنافق " فيه تصريح بذم تأخير صلاة العصر بلا عُذر لِقَوله ﷺ:" يجلس يرقب الشمس". قَوله ﷺ :"بين قَرْنَي الشَّيطان " ، اختلفوا فِيه فَقِيل : هو على حقيقته وظاهر لفظه، والمراد أنه يُحاذيها بقرنيه عند غروبها، وكذا عند طلوعها ، لأن الكفار يَسجدون لها حينئذ ، فَيُقارنها ليكون الساجدون لها في صورة الساجدين له،ويُخيَّل لنفسه ولأعوانه أنهم إنما يَسجدون له.وقِيل:هو على المجاز والمراد بقرنه وقرنيه عُلوه وارتفاعه وسُلطانه وتسلطه وغلبته وأعوانه. قال الخطابي: هو تمثيل ومعناه أن تأخيرها بتزيين الشيطان ومُدافعته لهم عن تعجيلها، كَمُدافعة ذوات القرون لِمَا تدفعه . والصحيح الأول . قوله ﷺ : " فنقرها أربعًا ، لا يَذكر الله فيها إلا قليلاً " تصريح بذم مَن صلى مُسْرِعًا ، بحيث لا يُكمِل الخشوع والطمأنينة والأذكار، والمراد بالنَّقْر سُرعة الحركات كنقر الطائر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ هُمْ يُرَاؤون ﴾[الماعُون: ٦]. إنهم يُصَلون مِن أجل السُّمعة والشُّهرة، فهم غَير مُخلِصين للهِ، ولا يَرجون ثوابَه ، ولا يَخافون عقابَه . يُصَلون أمامَ المؤمنين لِيَظهروا بمظهر الأتقياء الصالحين ، الذين استقرَّ الإيمان في قلوبهم ، وخَشَعَت جوارحهم وأعضاؤهم . وأساسُ الرياء هو طلب الدُّنيا بالدِّين . فالْمُرائي يُظهِر الطاعةَ والعبادةَ مِن أجل السُّمعة والشُّهرة والجاه والمدح ، ونَيل الحظوة عند الناس ، وطلب المنْزلة في قلوبهم.والمنافقون يُصَلون رِياءً،وليس ابتغاء وجه الله تعالى،وإذا تركوا الصلاةَ لَم يَندموا ولَم يُبالوا. إنهم يُصَلون في العلانية ، ويَتركون الصلاةَ في السر . وهؤلاء المنافقون يُدْخِلون أنفسهم في جماعة المصلِّين في الظاهر ، أمَّا في الباطن فَهُم غافلون عن الصلاة ، غَير مُخلِصين للهِ تعالى . لا يَرجون أجرًا ، ولا يَخافون عذابًا . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٥٥٢) : ((قال ابن عباس : هُم المنافقون يَتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويُصَلونها في العلانية إذا حضروا، لِقَوله تعالى: ﴿ الذينَ هُمْ يُرَاؤون ﴾. وقال قتادة: ساهٍ عنها لا يُبالي صلى أم لَم يُصَلِّ. وقِيل : لا يَرجون لها ثوابًا إن صلوا ، ولا يَخافون عقابًا إن تركوا. وقال مجاهد: غافلون عنها يتهاونون بها.وقال الحسن: هو الذي إن صلاها صلاها رِياءً،وإن فاتته لَم يندم . قال أبو العالية : لا يُصلونها لمواقيتها ، ولا يُتِمُّون ركوعها وسجودها)).

والجديرُ بالذِّكر أنَّ مَن عمل عملاً ابتغاء وجه الله، فرآه الناسُ ، واطَّلعوا عليه ، ففرحَ بذلك ، وأعجبه ، فهذا ليس مِن الرياء . فعن أبي هريرة قال : جاء رَجل إلى النبيِّ ﷺ ، فقال : إني أعملُ عملاً يُطَّلع عليه ، فَيُعْجِبني ، فقال : ((لَكَ أجران أجر السِّر ، وأجر العلانية))[22].

هذا الرَّجل يَعمل العملَ خالصًا لوجه الله تعالى ، فَيَظهر العمل ، ويُطَّلع عليه ، فيفرح هذا الرَّجل بذلك ، ويُعجِبه الأمر. فهل هذا رِياء أَم لا ؟. الجوابُ النبويُّ يُفيد بأن لهذا الرَّجل أجْرَيْن : أجر السِّر لإخلاصه ، وأجر العلانية للاقتداء به ، أو لفرحه بالطاعة وسُروره بالعبادة .

وفي غريب الحديث لابن سلام (٢/ ٢١٧) : ((قال ابن مهدي : وجهه أنه إنما يُسَرُّ به إذا اطُّلع عليه لَيَسْتَنَّ بِه مَن بعده.قال أبو عُبَيد(ابن سلام): يعني أنه ليس يُسَرُّ به لِيُزَكَّى ويُثْنَى عليه خَير،وليس للحديث عندي وجه إلا ما قالَ عبدالرحمن(ابن مهدي) لأن الآثار كُلها تُصدِّقه)) .

٢ــ صِفات الْمُصَلِّين :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ هُمْ في صَلاتِهِم خَاشِعُون ﴾[المؤمنون : ٢] .

الخشوعُ في الصلاة علامة المؤمن الصادق البعيد عن النفاق والرياء ، فما كانت أعضاؤه لَتَخْشَع لَوْلا خُشوع قلبه. وهذا يدل على ارتباط القلب بالله تعالى، وهو علامة الصلاح والتقوى. أمَّا تصنُّع الخشوع فهو الرِّياء بِعَينه ، حيث إظهار الصفات الحميدة دون وجودها في القلب ، وذلك لِنَيل الحظوة عند الناس ، والمديح ، والشُّهرة ، والسُّمعة ، وتحقيق منافع شخصية .

إنَّ المؤمنين الصادقين خائفون ساكنون في صَلاتهم، تعظيمًا للهِ تعالى ، وخُضوعًا لجلاله وسُلطانه وعَظَمَته ، وهَيْبة الله مُسيطرة على قلوبهم بشكل تام وكامل . والخشوعُ مكانه القلب ، ويَظهر أثَرُه على الحواس والجوارح والأعضاء . وخُشُوعُ القلب هو استقرار الخوف والرَّهبة فِيه . وهذا ينعكس على الجوارح ، وخُشوع الجوارح يتجلى في سُكونها وترك الالتفات والعبث . والجديرُ بالذِّكر أن العبد ليس له مِن صَلاته إلا ما عَقِلَ مِنها ، وخَشَعَ فِيها . والخشوعُ في الصلاة واجبٌ ، ولا يُمكن تدبُّر القُرآن إلا بفهم مَعناه ، ولا يُمكِن فهم مَعناه إلا بالخشوع والتركيز وترك الغفلة .

---

(٢٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٧١).وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٥١٧):((رجاله ثقات)).

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٩٦) : ((والذين هُم في صلاتهم مُتَذَلِّلُون للهِ بإدامة ما ألزمهم مِن فَرضه وعبادته، وإذا تَذَلَّلَ للهِ فيها العبدُ، رُئِيَت ذِلَّة خُضوعه في سكون أطرافه، وشُغله بفرضه، وتركه ما أُمِرَ بتركه فيها)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩٥) : ((اختلف الناس في الخشوع ، هل هو مِن فرائض الصلاة ، أو من فضائلها ومُكمِّلاتها ؟ . على قَولين ، والصحيح الأول)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٥٩): ((وأصل الخشوع في اللغة الخضوع والتواضع. وفي المراد بالخشوع في الصلاة أربعة اقوال: أحدها أنه النظر الى موضع السجود. روى أبو هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى رَفَع بَصَرَه إلى السماء ، فَنَزلت : ﴿ الذينَ هُمْ في صَلاتِهِم خَاشِعُون ﴾ فَنَكَّسَ رَأسَه [23]. وإلى هذا المعنى ذهب مسلم بن يسار وقتادة.والثاني أنه ترك الالتفات في الصلاة وأن تَلين كتفك للرَّجل المسلم،قاله عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه . والثالث أنه السُّكون في الصلاة، قاله مجاهد وإبراهيم والزُّهري . والرابع أنه الخوف، قاله الحسن)) اهـ .

وقد أُضيفت الصلاة في الآية إلى المصلِّين لا إلى الْمُصَلَّى له ، وهو الله تعالى ، لأن المصلِّي وحده هو المستفيد مِن صلاته ، والمنتفع بها ، وهي سعادته في الدنيا ، ونجاته في الآخرة . أمَّا اللهُ تعالى فغنيٌّ عن الصلاة والمصلِّي ، لا تنفعه الطاعة ، ولا تضرُّه المعصية . وقال الغزالي في الإحياء (١/ ١٦٧): ((واعلم أن مِن مكائد الشيطان أن يُشغِلك في صلاتك بِذِكْر الآخرة وتدبير فِعل الخيرات ، لِيَمنعك عن فَهم ما تقرأ ، فاعلم أن كل ما يُشغِلك عن فهم معاني قراءتك فهو وَسْواس، فإن حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود معانيها)) اهـ . وعن عليٍّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ : أنه سُئِل عن قَوله ــ عز وجل ــ :﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ . قال: ((الخشوع في القلب ، وأن تلين كَتِفَك للمرء المسلم ، وأن لا تلتفت في صلاتك))[24].

هذا تعريفٌ دقيق للخُشوع في الصلاة ، ينبغي الالتزام بِه وتطبيقه على أرض الواقع .

---

(٢٣) في المستدرَك للحاكم (٢/ ٤٢٦) : [عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه : " أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فَنَزلت : ﴿ الذينَ هُمْ في صَلاتِهِم خَاشِعُون ﴾ ، فطأطأ رأسه "] . صحَّحه الحاكم ، وقال : لَولا خِلاف فيه على محمد ، فقد قِيل عنه مُرْسَلاً ، ولَم يُخرِجاه . وقال الذهبي : الصحيح مُرسَل .

(٢٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٢٦) برقم (٣٤٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إن القلبَ هو مَلِك الأعضاء والحاكم عليها ، وما وَقَرَ فيه ، لا بُد أن يَظهر على الجوارح بقصد أو بغير قصد . والخشوعُ مكانه في القلب (المركز / المنبع / الأساس) ، والخضوع مكانه البدن،وإذا خَشَعَ القلبُ خشعت الجوارح، لأن الجوارح تابعة لما استقرَّ في القلب (مَلِك الأعضاء). ويقتضي الخشوعُ التعاملَ مع المسلم بِلِين وأدب ، وعدم الالتفات في الصلاة ، لأنه يُشتِّت التركيز، ويُؤثِّر سَلْبًا على حُضور القلب وتماسكِ الأعضاء. والمؤمنون خائفون مِن الله، مُتَذَلِّلون له، ساكنون في صلاتهم، لا يَرفعون أبصارهم عن مواضع سجودهم. إنهم خائفون بالقلب، وساكنون بالجوارح. وحِينَ يستقر الخشوع في القلب ، فإن تغييرًا هائلاً سَيَطرأ على باقي الأعضاء. فيغدو المسلمُ كائنًا مُتَّزِنًا يضع الكلمةَ في موضعها الصحيح ، لا تأخذه فَوْرة الغضب ، ولا يستسلم للاستفزاز وسَفَاهة الجهَّال، ويمشي بِسَكينة ووَقار ، يُساعد الآخرين ويأخذ بأيديهم نحو بَر الأمان . وعندئذ يُصبِح المسلمُ شُعلةَ نشاط ، ومنارةً تهدي الحيارى وتُرشِد الضائعين . كما أنه سيتعامل مع الناس باحترام ، فلا يتطاول عليهم ولا يحتقرهم ، ولا ينظر إليهم نظرةً دُونية أو يُعاملهم كالشياطين الذين ضَلوا السبيلَ . فالخشوعُ أساسٌ للسَّكينة واللين وسهولة التعامل . وإلانةُ الكَتِف للمسلم تُشير إلى معاملته بالأدب لا الوقاحة ، واحتوائه لا رفضه .

وفي صحيح البخاري (١/ ٢٦١) : عن عائشة قالت : سألتُ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة ؟ ، فقال : ((هو اختلاس يَخْتَلِسُه الشَّيطانُ مِن صلاة العبد)) .

إن الشيطان لا يرتاح إلا حينما يُشوِّش على صلاة العبد ، ويَجعلها تغرق في السَّهْو والنِّسيان والعبث وغياب الخشوع ، وتشتُّت الأفكار ، وكثرة الوساوس والهواجس . والاختلاسُ هو أخذ الشَّيء بسرعة ، وعلى وجه الغفلة . والالتفاتُ في الصلاة عبارة عن سرقة شيطانية بسرعة من الصلاة. وذلك كَي يَحْرِمَ المصلِّي مِن أجر الخشوع، ويُبعده عن السَّكينة والطمأنينة في الصلاة. وهذا هو طبعُ الشيطان الرجيم الذي يتركز منهجُه في إفساد العبادات، وجعلها خالية مِن المعنى عبر تشتيت ذِهن المصلِّي ، وطرحِ القضايا المتشعبة في نَفْسه كَي ينشغل بها بعيدًا عن صلاته ، وهذا يُؤثِّر سَلْبًا على أجره ، ويُفقِده لذة الطاعة ، ويَجعله فاقدًا للشعور بحقيقة العبادة ورُوحها .

والالتفاتُ في الصلاة مكروهٌ ، ويُبطِل الصلاةَ إذا بلغ حَد استدبار القِبلة . والحِكمةُ مِن كراهة الالتفات ، أنه يُنقِص الخشوعَ ، ويُشتِّت الذهن ، ويَمنع من فهم آيات القرآن . كما أنه يتضمَّن معنى الإعراض عن اللهِ وآياته ، والاستسلام أمام وساوس الشَّيطان والتَّعاطي معها . والمصلِّي الحقيقيُّ يُخالِف وساوسَ الشَّيطان ، ويُهْمِلها ، ويَخشع في صلاته ، ويُركِّز في طاعته وعبادته .

وفي سُبُل السلام (١/ ٣٣) : ((قال الطيبي : سَمَّاه اختلاسًا لأن المصلِّي يُقبِل على رَبِّه تعالى، ويترصَّد الشيطانُ فَواتَ ذلك عليه ، فإذا التفتَ استلبه ذلك ، وهو دليل على كراهة الالتفات في الصلاة، وحَمَله الجمهور على ذلك إذا كان التفاتًا لا يبلغ إلى استدبار القِبلة بصدره أو عُنقه كُلِّه، وإلا كان مُبْطِلاً للصلاة.وسبب الكراهة:نُقصان الخشوع _ كما أفاده إيراد المصنِّف للحديث في هذا الباب_أو ترك استقبال القِبلة ببعض البدن،أو لِمَا فيه مِن الإعراض عن التَّوجه إلى الله تعالى)).

وعن أبي ذَر قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يَزال اللهُ مُقْبِلاً على العبد ما لَم يلتفت ، فإذا صَرَفَ وَجْهَه ، انصرفَ عنه))[25]. إنَّ اللهَ يَنظر إلى العبد بالرحمة ، وإعطاء الأجر العظيم ، ما دامَ خاشعًا في صلاته ، ناظرًا إلى مكان سُجوده ، لا يَلتفت يَمنةً ولا يَسرةً ، فإذا التفتَ العبدُ بِعُنُقه ، أعرضَ اللهُ عنه . والمعنى أن الالتفات في الصلاة يُنقِص الأجرَ ، ويُقلِّل الثواب . والأجرُ على قَدْر الخشوع . وفي عَون المعبود (٣/ ١٢٥) : ((والحديث يدل على كراهة الالتفات في الصلاة ، وهو إجماع، لكن الجمهور على أنها للتَّنْزيه. وقال المتولِّي: يَحْرُم إلا للضرورة، وهو قول أهل الظاهر)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ هُمْ عَلى صَلَوَاتِهِم يُحَافِظُون ﴾ [المؤمنون : ٩] .

مِن صفات المؤمنين الصادقين أنهم يحافظون على أوقات الصلاة، فلا يُضيِّعونها ، ولا ينشغلون عنها . فهم يحرصون على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها بدون نقص ولا خَلَل . إنهم يُقيمون الصلوات المفروضة بفرائضها وسُننها وحُدودها وآدابها،وبشكل كامل وتام، لا نقص فيه ولا تهاون ولا تكاسل . والصلاةُ على وقتها أعظم قُربة إلى الله تعالى. فعن ابن مسعود قال: سألتُ النبي ﷺ : أيُّ العمل أحب إلى الله ؟ ، قال : ((الصلاة على وقتها)) [سبق تخريجه] .

والمحافظةُ على الصلاة تعني إقامتها على أكمل وجه ، والمواظَبة على أدائها بشكل صحيح في أوقاتها ، وإتمام رُكوعها وسُجودها وقراءة الآيات ، والأذكار المشروعة .

والفِعل المضارع ﴿ يُحَافِظُون ﴾ يدل على تجدُّد الصلاة وتكرُّرها في اليوم والليلة ، وهذا هو سبب مجيء الصلاة بصيغة الجمع : ﴿ صَلَوَاتِهِم ﴾ ، وليس بصيغة المفرَد : صلاتهم .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٠) : ((والذين هُم على أوقات صلاتهم يُحافظون ، فلا يُضيِّعونها ، ولا يشتغلون عنها حتى تَفوتهم ، ولكنهم يُراعونها حتى يُؤدُّوها فِيها)) اهـ .

---

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٦١) برقم (٨٦٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والعلاقة بين الآيتين:﴿الذينَ هُمْ في صَلاتِهِم خَاشِعُون﴾، ﴿والذينَ هُمْ عَلى صَلَوَاتِهِم يُحَافِظُون﴾ تكاملية ، بدون تكرار ولا عَبث . فالآيةُ الأولى تتحدث عن الخشوع في الصلاة ، والثانية تتحدث عن المحافظة على الصلاة،فهما آيتان مُختلفتان،لكنهما مُتكاملتان ومُترابطتان بلا تعارض ولا تضاد. وهاتان الآيتان المتكاملتان تُشيران إلى وُجوب الخشوع في الصلاة ، ووجوب المحافظة عليها ، كما تُشيران إلى عِظَم شأن الصلاة ، وفضلها ، وشرفها ، ومكانتها الجليلة ، ومَنْزلتها الرفيعة . والفصلُ بين الآيتين للدَّلالة على أن كُلاًّ مِن الخشوع والمحافظة على الصلاة ، فضيلة مستقلة قائمة بذاتها. إذن، هُما فضيلتان مُستقلتان. ولو قُرِنَ الخشوع والمحافظة على الصلاة في آية واحدة، لظنَّ الكثيرون أن الخشوع والمحافظة على الصلاة فضيلة واحدة .

وقال النسفي في تفسيره (٣/ ١١٧) : ((﴿ يُحَافِظُون ﴾ يُدَاوِمُون في أوقاتها ، وإعادة ذِكر الصلاة ، لأنها أهم ، ولأن الخشوع فيها غير المحافظة عليها ، أو لأنها وُحِّدَتْ أولاً لِيُفاد الخشوع في جِنس الصلاة، أيَّة صلاة كانت، وجُمِعَتْ آخِرًا لِيُفاد المحافظة على أنواعها مِن الفرائض والواجبات والسُّنن والنوافل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِم دَائِمُون ﴾ [الْمَعَارِج : ٢٣] [26].

مِن صفات المؤمنين الصادقين أنهم يُحافظون على الصلوات الخمس المفروضة ، ويُواظِبون على أدائها على أحسن وجه بلا كَسَل ولا مَلَل ، ولا ضجر بتكرُّرها عليهم ، ولا يَنشغلون عنها بأيِّ شَيء،ولا يَشغلهم عنها شاغل،ولا يَصرفهم عنها صارف ، لأن قلوبهم مُتعلِّقة باللهِ تعالى ، وسعادتهم ولَذَّتهم في طاعته وعبادته . والدَّيمومةُ على أداء الصلاة تعني المحافظة على أوقاتها وفرائضها وسُننها وخُشوعها والطمأنينة فيها ، ومَن لَم يطمئن في رُكوعه وسُجودها ، فقد هَدَمَ صلاته ، وأضاعها ، ولَم يستفد منها شيئًا .

وفي تفسير الثعالبي (٤/ ٣٤٠) : ((قال الغزالي : فينبغي لك أن تفهم ما تَقْرَؤه في صلاتك، ولا تغفل في قراءتك عن أمره سُبحانَه ، ونَهْيه ، ووعده ، ووعيده ، ومواعظه ، وأخبار

---

(٢٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٦٣) : ((وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها أنهم الذين يحافظون على المكتوبات، وهو معنى قول ابن مسعود . والثاني أنهم لا يلتفتون عن أيمانهم وشمائلهم في الصلاة، قاله عُقبة بن عامر ، واختاره الزَّجاج ، قال : ويكون اشتقاقه مِن الدائم وهو الساكن. والثالث أنهم الذين يُكثِرون فِعل التطوع ، قاله ابن جُرَيج)) .

أنبيائه ، وذِكر مِنَّته وإحسانه ، فلكل واحد حق ، فالرجاء حق الوعد ، والخوف حق الوعيد ، والعزم حق الأمر والنَّهْي، والاتعاظ حق الموعظة، والشُّكر حق ذِكر المِنَّة، والاعتبار حق ذِكر أخبار الأنبياء. قال الغزالي : وتكون هذه المعاني بحسَب درجات الفهم ، ويكون الفهم بحسَب وُفور العِلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر ، فهذا حق القراءة ، وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضًا ، ثُمَّ يُراعَى الهيئة في القراءة فَيُرَتِّل ولا يَسْرُد ، فإن ذلك أيسر للتأمل ، ويُفرِّق بين نغماته في آيات الرحمة وآيات العذاب ، والوعد والوعيد ، والتحميد والتعظيم)) اهـ .

وروى ابن حبان في صحيحه (٤/ ٤٤٦) : عن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ قالت : ((وكان أحبُّ الأعمال إلى رسول الله ﷺ أدْوَمَهَا ، وإن قَلَّ . كان إذا صَلى صلاةً دَاوَمَ عليها)) . يقول أبو سَلَمة : ((قال الله : ﴿ الذينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِم دَائِمُون ﴾)) .

إن معنى العبادات يَظهر في المحافظة عليها ، ورُوح الطاعات تَظهر في الدَّيمومة على أدائها . وقليلٌ دائمٌ خَير مِن كثير مُنقطع . وأحب العمل إلى الله تعالى ، مَا دَاوَمَ عليه صاحبه ، حتى لَوْ كانَ قليلاً ، لأن الدَّيمومة على العمل تُورِث في النَّفْس تعظيم الله ، ورجاء مغفرته ، والطمع في رحمته ، والخوف مِن عذابه . وهذا هو المقصود مِن الطاعات والعبادات . والصلاةُ هي أعظم الطاعات ، وأشرف العبادات ، ويجب إقامة الصلاة ظاهرًا وباطنًا ، رُوحًا ومَعْنًى .

وقال الشاطبي في الموافقات (٢/ ٢٤٢) : ((مِن مَقصود الشارع في الأعمال دوام الْمُكَلَّف عليها، والدليل على ذلك واضح كَقَوله تعالى : ﴿ الذينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِم دَائِمُون ﴾)) .

٣_ الرَّكوع :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِين ﴾[البقرة : ٤٣] .

هذا الخطابُ الإلهيُّ لليهود. فقد أمرَهم اللهُ تعالى بالصلاة مع النبيِّ ﷺ ، والرَّكوع مع الراكعين من الأُمَّة المحمَّدية الإسلامية، أي الصلاة مع النبيِّ ﷺ وأصحابه في جماعة. والمعنى: كُونوا أيها اليهود معَ المؤمنين ومِنهم . وهذه دَعوة إلهية كريمة لليهود أن يُسْلِمُوا ، ويَعْملوا عملَ المسلمين ، ويَكونوا معهم ومِنهم. ومُطْلَق الأمر لوجوب العمل. ولا يخفى أن قوة المسلمين كامنة في وَحْدتهم وجماعتهم. وقد خُصَّ الرَّكوع بالذِّكر لأنه رُكن من أركان الصلاة ، وصلاةُ اليهود لا رُكوع فيها .

وقد كان علماء اليهود يقولون لأقربائهم المسلمين : اثبُتوا على دِين محمد ، فإنه حَق .

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٣٨٢) : ((الرَّكوع الشرعي هو أن يَحْنِيَ الرَّجلُ صُلْبَه ، ويَمُدَّ ظَهْرَه وعُنقه ، ويفتح أصابع يديه ، ويقبض على رُكبتيه ، ثم يطمئن راكعًا ، يقول : سُبحانَ رَبِّيَ العظيم ، ثلاثًا ، وذلك أدناه)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٧٥) : ((قَوْله تعالى: ﴿ واركعوا مَعَ الراكعين ﴾ ، أي: صَلُّوا معَ المصلِّين . قال ابن عباس : يُريد محمدًا ﷺ والصحابة ــ رضي اللهُ عنهم ــ وقِيل : إنما ذُكِرَ الرَّكوع، لأنه ليس في صِلاتهم رُكوع، والخطابُ لليهود. وفي هذه الآية دليل على أن الكفار مُخاطَبون بالفروع ، وهي إحدى الروايتين عن أحمد ــ رضي الله عنه ــ)) اهـ .

وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وُجوب صلاة الجماعة . وصلاةُ الجماعة أعظم من صلاة الفرد، وأفضل مِنها ، لِمَا فيها مِن وَحدة المسلمين، واجتماعهم على طاعة الله ومُناجاته، وتوحُّد الهمم والجهود لعبادة اللهِ تعالى ، وهذه أسباب لحصول الخير وانتشار البركة ونزول الرحمة. وعن عبد الله بن عمر ــ رضي اللهُ عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((صَلاةُ الجماعةِ تَفْضُلُ صلاةَ الفَذِّ بسبعٍ وعشرين درجة)) [27].

الفَذُّ هو الفرد ، أي : المنفرِد الذي ترك الجماعة . واحتجَّ جُمهور العلماء بهذا الحديث على أن صلاة الجماعة لَيست شرطًا لصحة الصلاة ، ولا فَرْض عَين ، خِلافًا لجماعة مِن العلماء . ولو كانت صلاة الجماعة واجبة ، لَم تكن صلاة الفذ ذات درجة حتى تفضُل عليها صلاة الجماعة بدرجات. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٥١) : ((والمختار أنها فرض كفاية، وقِيل: سُنَّة)) اهـ . ومعنى الحديث أن صلاة الفرد الواحد في جماعة يزيد ثوابها على ثواب صلاته وَحْدَه سبعًا وعشرين ضِعْفًا . أو : إن صلاة الجماعة تُعادِل سَبْعًا وعشرين صلاة .

والتعبيرُ بِـ " درجة " للدَّلالة على أن الأجر والثواب مِن جهة عُلُوِّ المكانة ، وارتفاع الرُّتبة . وسِرُّ العدد لا مجال لمعرفة حِكمته لأنه أمر غَيبيٌّ . والعلماء يَذكرون كثيرًا من الاحتمالات الظنية.

٤ــ السُّجود :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّدًا وقِيَامًا ﴾[الفُرقان : ٦٤] .

هذه الآيةُ دَعوةٌ إلهيةٌ كريمةٌ إلى قيام الليل بالصلاة ، وحَث على أداء هذه العبادة باستمرار.

---

(٢٧) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٣١) برقم (٦١٩) ، ومسلم (١/ ٤٥٠) برقم (٦٥٠) .

هؤلاء المؤمنون الصادقون يَقْضُون لَيْلَهُم في طاعة الله وعبادته ، بلا كسل ولا مَلَل ولا ضَجَر . لقد وَصَفَ اللهُ لَيْلَهُم ، فَهُم يَبيتون لربهم بالليل في الصلاة ، سُجَّدًا على وجوههم ، وقِيامًا على أقدامهم . والبَيْتُوتةُ هي أن يُدْرِكك الليل ، سواءٌ نِمْتَ أَم لَم تنم . ولا تَكون إلا مَعَ سَهَر الليل . وقد تَمَّ تشريع البَيْتُوتة للهِ والصلاةِ له ، مِن أجل إخلاص العمل للهِ ، والابتعاد عن السُّمعة والرِّياء.

و﴿ سُجَّدًا ﴾ جمع ساجد ، و﴿ قِيَامًا ﴾ جمع قائم . إنهم يَقضون الليلَ في طاعة الله وعبادته ، بين سُجود على وُجوههم في صلاتهم ، والقِيام على أقدامهم ، يُصَلُّون الليلَ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٧) : ((وتخصيص البَيْتُوتة ، لأن العبادة بالليل أحزم ، وأبعد عن الرياء))اهـ. وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ٢٢٨) : ((بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم ، أي: يكونون ساجدين لربهم وقائمين . أي يُحْيُون الليلَ كُلاًّ أو بَعْضًا بالصلاة ، وقِيل : مَن قَرأ شيئًا مِن القرآن في صلاة وإن قَل، فقد باتَ ساجدًا وقائمًا. وقِيل : هُما الركعتان بعد المغرب ، والركعتان بعد العِشاء ، وتقديم السُّجود على القِيام لرعاية الفواصل)) اهـ . وفي صحيح مسلم (١/ ٤٥٤) عن عُثمان بن عفان_ رضي اللهُ عنه_ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((مَن صلى العِشاءَ في جماعة ، فكأنما قام نِصف الليل، وَمَن صلى الصُّبحَ في جماعة، فكأنما صلى الليلَ كُلَّه)) اهـ .

إن المؤمن قلبه مُعلَّق بالمساجد ، وهو شديد الحِرص على صلاة الجماعة ، وهذا يدل على قُوة يقينه ، وإصراره على أداء الطاعات والعبادات على أكمل وَجْه . وفضيلةُ صلاةِ العِشاء في جماعة تُعادِل قِيام نِصف ليلة ، وفَضيلةُ صلاة الفجر في جماعة تُعادِل قِيام ليلة كاملة . وهكذا ، يكون قلبُ المؤمن مُعَلَّقًا باللهِ وطاعته ، ودائم الاتصال بخالقه ، وهذه العلاقة المقدَّسة بين العبد ورَبِّه مَتينة لا تَنقطع ، ولا تضعُف، لأنها قائمة على إخلاص العبادة للهِ. ومَن كان حريصًا على إقامة الصلوات الخمس ، فإن حياته ستصبح في غاية الجمال والرَّوعة ، ويُصبِح نشيطًا طَيِّب النَّفْس ، ومسرورًا ، وسعيدًا بتوفيق اللهِ له لأداء الطاعة ، ومُسْتَبْشِرًا بثواب الله وأجره العظيم ، مَعَ وُجود البركة والخيرات في أموره كُلِّها، والابتعاد عن شَياطين الإنس والجن. وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٦/ ١٦٥) : (((من صلى العِشاء في جماعة) أي معهم (فكأنما قام نصف الليل) أي اشتغل بالعبادة إلى نصف الليل (ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله) نَزَّلَ صلاة كُل مِن طَرَفَي الليل مَنْزلة نوافل نِصفه، ولا يلزم منه أن يبلغ ثوابه ثواب مَن قام الليل كُله، لأن هذا تشبيه في مُطْلَق مقدار الثواب، ولا يلزم مِن تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه،ولو كان قَدْر الثواب سواء، لَم يكن لِمُصَلِّي العِشاء والفجر جماعةً منفعة في قيام الليل

غَير التعب، ذَكَره البيضاوي)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَرَاهُم رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا ﴾[الفَتْح : ٢٩] . لقد وَصَفَ اللهُ الصحابةَ ـ رضي اللهُ عنهم ـ بكثرة العبادة والصلاة ، فَهُم يَقْضُون أوقاتَهم راكعين ساجدين بكل إخلاص وخُشوع . إنهم مُشتغلون بالصلاة في أكثر أوقاتهم . تراهم رُكَّعًا أحيانًا للهِ في صلاتهم ، وسُجَّدًا أحيانًا . وهذا يدل على مُواظبتهم على إقام الصلاة ظاهرًا وباطنًا . ولا يَنتظِرون أجْرًا إلا مِنَ الله تعالى. إنهم رُهبان بالليل، أُسُود بالنهار. يَطلُبون رِضاه سُبحانه ، ويَرْجُون رَحمته، ويَشتاقون إلى جَنَّته.وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ٤٤٦): ((وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٦٠) : ((وَصَفَهم بِكَثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خَير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عَزَّ وَجَلَّ ، والاحتساب عند الله تعالى جَزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عَزَّ وَجَلَّ ، وهو سَعَة الرِّزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكبر من الأول)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَاسْجُدوا للهِ واعْبُدُوا ﴾[النَّجْم : ٦٢] .

اسجدوا أيُّها الناسِ للهِ وَحْدَه، ولا تَسْجُدوا للأصنام البشرية ولا الأصنام الحجرية ، وأخْلِصُوا للهِ العبادةَ، ولا تَجعلوا في عبادةِ اللهِ نَصيبًا لأيِّ مخلوق. فاللهُ وَحْدَهُ هو المستحق للعبادة ، لا شَريك له ولا نِد . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٠٩) : ((قِيل : المراد به سُجود تِلاوة القُرآن ، وهو قول ابن مسعود ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي)) اهـ .

والرأي الآخَر أنه سُجود الفَرْض في الصلاة .

وفي صحيح البخاري (١/ ٣٦٤) : عن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ أنَّ النبيَّ ﷺ سَجَدَ بالنَّجْم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجِن والإنس .

عِندَما قرأ النبيُّ ﷺ آيةَ السَّجدة في سُورة النَّجْم ، سَجَدَ . ولم يَسْجُد وَحْدَه ، بل سَجَدَ معه المسلمون اقتداءً بإمامهم النبيِّ ﷺ،وسجد المشركون، وسجد الجنُّ والإنس، وهذا ليس غريبًا ، فالجنُّ والإنس مُكَلَّفون شَرْعًا. وسجودُ التلاوة لا يَختصُّ بالإنس، بل هو شامل للجن والإنس مَعًا. وقد عَلِمَ الراوي بسجود الجِن بإخبار النبيِّ ﷺ ، لأنه أمرٌ غَيبيٌّ .

وقَد ذُكرت تفسيرات لسجود المشركين : الأوَّل ـ إن المشركين أرادوا مُعارَضة المسلمين ، وذلك بالسُّجود لأصنامهم عِنادًا وتَحَدِّيًا ورَفْضًا للإسلام . الثاني ـ إن سُجود المشركين كان بلا قصد . الثالث ـ إن المشركين خافوا من مُخالَفة المسلمين في ذلك المجلس .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦١٤) : ((والاحتمالات الثلاثة فيها نظر . والأول منها لِعِياض. والثاني يُخالفه سياق ابن مسعود ، حيث زاد فيه أن الذي استثناه مِنهم أخذَ كَفًّا مِن حصى فَوَضَعَ جبهته عليه ، فإن ذلك ظاهر في القَصْد ، والثالث أبعد ، إذ المسلمون حينئذ هم الذين كانوا خائفين من المشركين لا العكس ، قال: وما قِيل مِن أن ذلك بسبب إلقاء الشيطان في أثناء قراءة رسول الله ﷺ ، لا صِحة له عَقْلاً ولا نقلاً)) اهـ . ويمكن القَول إنَّ سُجود المشركين بسبب سَماع ذِكْر أصنامهم (آلهتهم) في السُّورة ، أو بسبب الخوف الذي أصابهم عِندَ سَماع السُّورة ، والدهشةِ التي سيطرت عليهم بسبب عَظَمَة آياتِ القُرآن وقوة تأثيرها.وقد اعتبرَ ابنُ عباس أن الجميع قد سجدوا ، وسَوَّى بَيْنَهم في السُّجود. ولا شَكَّ أن فيهم مَن هو على غَير وضوء ، وهذا يُشير إلى أن السجود صحيح بوضوء وبِغَير وضوء.وقال الحافظ في الفتح(٢/ ٥٥٤) : ((فائدة : لَم يوافق ابنَ عمر أحدٌ على جواز السجود بلا وضوء إلا الشَّعبي ، أخرجه ابن أبي شَيبة عنه بسند صحيح ، وأخرجه أيضًا بسند حسن عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ أنه كان يقرأ السَّجدة ثُمَّ يُسَلِّم ، وهو على غَير وضوء إلى غَير القِبلة)) اهـ .

وفي مسند أحمد (٤/ ٢١٥) : عن جعفر بن الْمُطَّلب بن أبي وَدَاعة عن أبيه ، قال : ((قرأ رسولُ الله ﷺ بمكة سُورةَ النَّجْم ، فَسَجَدَ، وسَجَدَ مَن عِندَه، فرفعتُ رأسي، وأبَيْتُ أن أسجدَ)). _ وَلَم يكن أسلم يومئذ الْمُطَّلب _ ، وكان بعد ذلك لا يسمع أحدًا يقرأ بها إلا سجد معه .

إنَّ سُجودَ العبدِ للهِ اعترافٌ بعبوديته لخالقه ، واستسلامٌ له ، وإقرارٌ بأنه عبد ضعيف ذليل أمام خالقه العظيم . والسُّجودُ للهِ هو خُضوعٌ له ، يُورِث الإنسانَ عِزًّا ومَجْدًا في الدُّنيا والآخرة . والذينَ يتكبَّرون على السُّجود للهِ تعالى ، إنما يُنازِعون اللهَ في صِفة التَّكَبُّر ، ولا يَعترفون بالْمُتكبِّر الذي هو اسمٌ مِن أسماء اللهِ الْحُسْنَى . وهُم بهذا الفِعْل الشَّنيع يَكفرون بخالقهم ، ويَمشون إلى عذاب النار بأرجلهم.وروى البخاري في صحيحه (١/ ٣٦٤) عن زيد بن ثابت قال : قَرأتُ على النبيِّ ﷺ : ﴿ والنَّجْم ﴾ ، فلم يسجد فيها .

وهذا دليلٌ على أنَّ السُّجودَ سُنَّةٌ لا واجبٌ . فَمَن سَجَدَ يُؤجَر ، ومَن لَم يَسجُد لا إثم عليه . وهذا الحديثُ حُجَّةٌ على مَن جعل السجود واجبًا . وتركُ السجود لبيان الجواز ، وأن السجود ليس بواجب . وَلَوْ كان واجبًا لأمرَه النبيُّ ﷺ بالسجود .

وقال ابن عبد البَر في الاستذكار (٢/ ٥٠٥) : ((ومَن شاء سجد ، ومَن شاء ترك ، على أن زيدًا كان القارئ وَلَم يسجد ، فلذلك لَم يسجد رسولُ الله ﷺ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُون ﴾[القَلَم: ٤٢].

في يوم القيامة الرهيب الممتلئ بالشدائد والأهوال، يُدعَى الكفار والمنافقون للسُّجود لله تعالى ، فلا يُطيقون ذلك ، ولا يَستطعيون ، لأن ظَهْر أحدهم يُصبِح طَبَقًا واحدًا ، وكلما أرادَ السُّجودَ وقع على قَفاه . والطَّبَقُ هو فَقَارُ الظَّهْر .

والدَّعوةُ إلى السُّجود ليس تكليفًا لهم ، لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل ، ولكنه امتحان لإيمانهم ، وتوبيخٌ شديد لهم ، بسبب تركهم السجود للهِ في الدنيا .

وفي فتح القدير للشَّوكاني (٥/ ٣٨٤) : ((قال الواحدي : قال المفسرون : يَسجد الخلق كُلهم لله سجدة واحدة، ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون، لأن أصلابهم تيبس ، فلا تلين للسجود . قال الربيع بن أنس : يُكشَف عن الغطاء ، فيقع مَن كان آمن بالله في الدنيا فيسجدون له ، ويُدعَى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون ، لأنهم لَم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨٧١) أن النبيَّ ﷺ قال : ((فيسجد له كُل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى كُل مَن كان يَسجد في الدنيا رِياءً وسُمعةً ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظَهْرُه طَبَقًا واحدًا)) .

إن المؤمنين الذين كانوا يَسجدون للهِ في الدنيا مِن تِلقاء أنفسهم، إيمانًا باللهِ وتصديقًا بأوامره، واستسلامًا لطاعته، وحِرْصًا على عبادته ، يُسهِّل اللهُ عليهم السجود ، ويُهوِّنه عليهم ، فَيَسجدون بسهولة بلا مشكلات. أمَّا مَن كان يَسجد في الدنيا لِيَراه الناسُ ويَمدحوه،وينتشر صِيته بينهم، ويُصبِح مشهورًا ، لا يَستطيع السجودَ يوم القيامة ، لأنه ظَهْرَه يُصبِح كالصحيفة الواحدة، لا يَنثني للسجود ، ولا يَقْدِر عليه .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٥١) : ((أي : يَستوي فَقَار ظَهْره ، فلا ينثني للسجود)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقَدْ كانوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ وَهُم سَالِمُون ﴾ [القَلَم : ٤٣] .

لقد كانوا يُدْعَوْن في الدنيا إلى السجود ، وهُم بصحة وعافية ، ويَشعرون بالأمن والأمان . لا يُعانون مِن أيِّ مرض ولا عِلَّة، وقادرون على أداء الصلاة وفِعل الطاعة ، لا يَمنعهم مِن ذلك مانع، ولا يَحُول بينهم وبين العبادة حائل ، فَيَرفضون السجودَ كُفرًا ، وعِنادًا ، واستكبارًا ، وتكبُّرًا على أوامر اللهِ ، وإعراضًا عنها. لذلك، مَنعهم اللهُ مِن السجود يوم القيامة ، وحَرَمَهم مِن هذا الشرف.

وقِيل : السجود في الآية هو الصلاة المكتوبة (المفروضة). والآيةُ تحمل وعيدًا شديدًا لِمَن تركَ صلاةَ الجماعة بدون عُذر .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢١٩) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كانوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ ﴾ أي : في الدنيا ، ﴿ وَهُم سَالِمُون ﴾ مُعَافُون أصِحَّاء . قال إبراهيم التَّيمي : أي يُدْعَوْن بالأذان والإقامة فَيَأبَوْنه ، وقال سعيد بن جُبَير : كانوا يسمعون " حَيَّ على الفلاح " فلا يُجيبون ، وقال كعب الأحبار : واللهِ ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. وقِيل: أي بالتكليف الموجَّه عليهم في الشرع ، والمعنى متقارب ، وقد مضى في سورة البقرة الكلام في وجوب صلاة الجماعة . وكان الربيع بن خَيْثَم قد فُلِجَ (أصابه الفالج)، وكان يُهادي (يتمايل) بين الرجلين إلى المسجد، فقيل: يا أبا يزيد لو صَلَّيْتَ في بيتك لكانت لك رُخصة،فقال: مَن سمع "حَيَّ على الفلاح" فَلْيُجِبْ ولو حَبْوًا. وقِيل لسعيد بن المسيِّب : إن طارقًا يُريد قتلك فَتَغيَّب، فقال : أبحيث لا يَقْدِر اللهُ عليَّ ؟ ، فَقِيل له : اجلس في بيتك، فقال: أسمعُ " حَيَّ على الفلاح " فلا أُجِيب ؟!)) اهـ .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٣٠/ ٩٦) : ((لا يُدْعَوْنَ إلى السجود تعبُّدًا وتكليفًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا،ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود، ويَحُول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرَّطوا فيه ، حين دُعُوا إليه في الدنيا ، وهُم سالمو الأطراف والمفاصل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ الليلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾[الإنسان : ٢٦] .

وَمِنَ الليلِ فَصَلِّ للهِ تعالى ، واخشع في صلاتك ، وَرَكِّزْ في مُناجاتك ، وأكثِر مِن قِيام الليل في الصلاة والتَّهَجُّد ، والناس نِيام . والمقصودُ مِن الآية : ﴿ وَمِنَ الليلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ صلاة المغرب وصلاة العِشاء ، أمَّا ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ فالمقصود هو صلاة التَّطَوُّع في الليل (بعد الصلاة المكتوبة). وصلاةُ الليل كانت فريضةً على النبيِّ ﷺ ، وهي لأُمَّته تطوُّع .

وتقديم الظرف على الفِعل : ﴿ وَمِنَ الليلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ لِمَا في صلاة الليل مِن الإخلاص ، والقوة ، والاجتهاد في الطاعة ، والابتعاد عن الرياء والسُّمعة . والمقصودُ مِن الآية الإكثار مِن طاعة الله وعبادته في كُل الأوقات، بالقلب واللسان، كَي يزداد إيمانُ النبيِّ ﷺ ، ويَقوى قلبُه وبدنُه. وبالتالي، يَستطيع مُواجَهة الأعداء،والثبات في أصعب المواقف. وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٣٣): ((وقال ابن عباس وسُفيان: كُل تسبيح في القرآن فهو صلاة . وقِيل : هو الذِّكْر المطْلَق سواءٌ كان في الصلاة أو في غَيرها ، وقال ابن زَيد وغَيره : إن قَوله:﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ منسوخ بالصلوات الخمس، وقِيل: هو نَدْب، وقِيل: هو مخصوص بالنبيِّ ﷺ)) اهـ .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((يَنْزِلُ رَبُّنا تباركَ وتعالى كُلَّ لَيْلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخِر ، يقول : مَن يدعوني فأستجيب له ؟ ، مَن يَسألني فَأُعطيه ؟ ، مَن يَستغفرني فأغفر له ؟))[28].

هذا يدل على أهمية قيام الليل في الصلاة والتسبيح وقراءة القُرآن والدعاء ، واللهُ أقرب إلى العبد مِن نَفْسِه التي بين جَنبيه ، وهو سُبحانَه كريم جواد ، يتودَّد إلى خَلْقه ، وهو غنيٌّ عنهم ، يَحُثُّهم على دُعائه ، ويَعِدهم بالإجابة ، ووعد الله واقع لا مَحالة ، ولا يَتخلف ، ويَدعوهم إلى سُؤاله والطلب مِنه ، ويَعِدهم بإعطائهم ما يُريدون وما يَطلبون وما يَحتاجون إليه ، ويَدعوهم إلى طلب المغفرة مِنه ، ويَعِدهم بغفران ذُنوبهم ، والتجاوز عن خطاياهم ، ومَنحهم الثوابَ العظيم ، كَي يَفوزوا بنعيم الجنة ، ويَنجوا مِن عذاب النار . فيجب استغلال هذه الفُرص الذهبية على أكمل وجه، ويجب أيضًا استغلال الأوقات المبارَكة مِن الليل ، لأن الزمنَ إذا ذَهب لا يَعود . وإذا أضاعَ الإنسانُ عُمره سيندم يوم لا يَنفع الندم،وتكون حياته الضائعة وَبالاً عليه، وسببًا في هلاكه وعذابه. والوقتُ للعابد كرأس المال للتاجر . يجب استغلاله واستثماره على أحسن صورة . والجديرُ بالذِّكر أن الله تعالى مُنَزَّه عن الحركة ، لأن الحركة انتقال من مكان إلى مكان ، ومن كان هكذا شأنه، فهو حادث ، والله تعالى قديم . كما أنه تعالى مُنَزَّه عن المكان والزمان ، فكان الله ولا أين ، وهو الآن حيث كان، وهو الآن كما كان . وأيضًا، إن الله تعالى لا يَحُلُّ في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياء فيه ، وما كان مَحَل الحوادث فهو حادث ، وما خالطته الحوادث فهو حادث ، وكل الحوادث مُفتقِرة إلى مُوجِد ، والله تعالى غنيٌّ عن كل شيء ، وهذا يَنفي صِفة الْحُدُوث عن ذاته العَلِيَّة .

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٣٠و٣١): ((قَوله :" يَنْزل رَبُّنا إلى السماء الدنيا ". استدل به من أثبت الجهة ، وقال : هي جهة العُلُو . وأنكر ذلك الجمهور ، لأن القول بذلك يُفضي إلى التحيز ــ تعالى الله عن ذلك ــ. وقد اخْتُلِف في معنى النُّزول على أقوال : فَمِنهم مَن حمله على ظاهره وحقيقته ، وهم الْمُشبِّهة ــتعالى الله عن قولهم ــ . ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جُملة،وهم الخوارج والمعتزلة، وهو مُكابَرة. والعجب أنهم أوَّلوا ما في القرآن من نحو ذلك، وأنكروا ما في الحديث، إمَّا جهلاً وإمَّا عنادًا . ومِنهم مَن أجراه على ما ورد ، مؤمنًا به على طريق الإجمال مُنَزِّهًا الله تعالى عن الكيفية والتشبيه، وهم جمهور السلف.ونقله البَيهقي وغيره عن

(٢٨) متفق عليه. البخاري (١/ ٣٨٤) برقم (١٠٩٤)، ومسلم (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨) .

الأئمة الأربعة والسفيانَيْن (الثَّوري وابن عُيَينة) والحمَّادَيْن (ابن زَيد وابن سَلَمَة) والأوزاعي والليث وغَيرهم. ومنهم مَن أوَّله على وجه يليق مُستعمَل في كلام العرب ، ومنهم مَن أفرط في التأويل حتى كاد أن يخرج إلى نوع من التحريف، ومنهم مَن فصَّل بين ما يكون تأويلُه قريبًا مُستعمَلاً في كلام العرب ، وبين ما يكون بعيدًا مهجورًا ، فأوَّلَ في بعض وفوَّض في بعض، وهو منقول عن مالك ، وجزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد ...والحاصل أن تأوُّلَه بوجهَيْن : إمَّا بأن المعنى يَنْزِل أمرُه، أو الْمَلَكُ بأمره ، وإمَّا بأنه استعارة بمعنى التلطف بالداعين والإجابة لهم ونحوه. وقد حكى أبو بكر بن فورك أن بعض المشايخ ضبطه بِضَم أوَّله على حذف المفعول، أي يُنْزِل مَلَكًا [29] ... . وقال البيضاوي : ولَمَّا ثبت بالقواطع أنه سُبحانه مُنَزَّه عن الجِسمية والتَّحيُّز ، امتنع عليه النُّزول على معنى الانتقال من موضع إلى موضع أخفض منه، فالمراد نور رحمته، أي ينتقل من مُقتضى صفة الجلال التي تقتضي الغضب والانتقام ، إلى مقتضى صفة الإكرام التي تقتضي الرأفة والرحمة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في دفع شُبه التشبيه (ص ١٩٤و١٩٦) : ((وقد روى حديث النُّزول عشرون صحابيًّا ، وقد سبق القول أنه يستحيل على الله ــ عز وجل ــ الحركة والنُّقْلة والتغير ... والواجب على الخلق اعتقاد التَّنْزيه ، وامتناع تجويز النُّقْلة ، وأن النَّزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان يفتقر إلى ثلاثة أجسام: جسم عالٍ، وهو مكان الساكن، وجسم سافل، وجسم ينتقل من عُلُو إلى أسفل ، وهذا لا يجوز على الله تعالى قطعًا . فإن قال العامي : فما الذي أراد بالنُّزول ؟، قيل: أراد به معنى يليق بجلاله لا يلزمك التفتيش عنه ، فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟، قُلنا: قد عَلمتَ أن النازل إليك قريب منك ، فاقتنع بالقُرب ، ولا تَظُنَّه كَقُرب الأجسام)) اهـ .

٥ــ الجهر بالصلاة :

قالَ اللهُ تعالى:﴿ولا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ولا تُخَافِتْ بِها وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[الإسراء: ١١٠].

تُبرِز الآيةُ أهميةَ التوسُّط والاعتدال بين الجهر بالصلاة ، والْمُخافَتة بِها .

---

(٢٩) يُؤَيِّد هذا الرأيَ ما رواه النَّسائي في سُننه الكبرى(٦/ ١٢٤): عن أبي هريرة وأبي سعيد ــ رضي الله عنهما ــ أن النبيَّ ﷺ قال : ((إن الله ــ عز وجل ــ يُمهل حتى يمضيَ شَطرُ الليل الأول ، ثم يأمر مُناديًا يُنادي، يقول: هل مِن داعٍ يُستجاب له ؟، هل مِن مُستغفرٍ يُغفَر له ؟، هل مِن سائل يُعطَى ؟)) . قال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٣٤) : ((صحَّحه أبو محمد عبد الحق)) اهـ .

ولا تَجهر يا محمد بالقراءة في صلاتك حتى تُسْمِع المشركين ، فإن ذلك يَدعوهم إلى شَتم القُرآن واللغو فيه ، والقُرآنُ مُقدَّس ينبغي تَنْزيهه عن أيِّ اعتداء لفظيٍّ عليه ، ولا تُخفِض صَوْتَك في القراءة حتى لا تُسمِع المؤمنين الذين يُصَلُّون خَلْفَك، ولتكن قراءتك مُعتدلة ومُتوسِّطة بين الجهر والْمُخافَتة ، واسلُك طريقًا وَسَطًا بينهما . وخَير الأمور أوسطها ، والاقتصاد في جميع القضايا مَطلوب ومَحبوب ومَرغوب فيه .

وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما _ في قوله تعالى : ﴿ ولا تَجهر بصلاتكَ ولا تُخافِت بها ﴾. قال : نزلت ورسول الله ﷺ مُختفٍ بمكة ، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سَبُّوا القرآنَ ومَن أَنزله ومَن جاء به، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿ ولا تَجهر بصلاتكَ ﴾، أي بقراءتك فيسمع المشركون فَيَسُبُّوا القرآنَ،﴿ ولا تُخافِت بها ﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم[30] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ: لا ترفع صَوتك في القراءة أكثر مِمَّا يُحتاج إليه، فيسمعك المشركون ويُؤذوك ، ولا تُسِرَّ إلى الحد الذي لا تُسْمِع نَفْسَك ولا تُسْمِع مَن خَلْفَك ، يعني : لا تُخفِض صَوْتَك حتى لا تُسْمِع أُذُنَيْك ، واسلُك طريقًا وَسَطًا مُعتدلاً بين الجهر (رفع الصوت) والسِّر (خفض الصوت) .

وهنا تظهر أهمية التَّوَسُّط في قراءة القرآن ، فالصوتُ ينبغي أن يكون مُعتدلاً واضحًا ، ليس عَالِيًا يصل إلى آذان المشركين فيعتدون على القرآن بألفاظهم القبيحة، ولا خافتًا لا يصل إلى آذان المؤمنين فيَعجزون عن أداء الصلاة . بل يجب أن يكون الصوتُ وَسَطًا ، بلا إفراط ولا تفريط .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٩٩و١٠٠و١٠١):((فأمَّا قَوله:﴿ولا تَجهر بصلاتكَ ﴾ فَنَزل على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بالقرآن بمكة ، فَيَسُب المشركون القرآنَ ، ومَن أتى به ، فخفض رسولُ الله ﷺ صَوْتَه بعد ذلك ، حتى لا يَسمع المشركون فَيَسُبُّوا القرآن ، ولا تُخافت بها عن أصحابك فلا يَسمعون . قاله ابن عباس . والثاني أن الأعرابي كان يَجهَر في التشهد ، ويَرفع صوته ، فَنَزلت هذه الآية ، هذا قول عائشة . والثالث أن رسول الله ﷺ كان يُصلِّي بمكة عِند الصَّفا ، فجهر بالقرآن في صلاة الغَدَاة (الفجر) ، فقال أبو جهل : لا تَفْتَرِ على الله ، فخفض النبيُّ ﷺ صَوْتَه ، فقال أبو جهل للمشركين : ألا تَرَوْنَ ما فعلت بابنِ أبي كَبْشَة ، رددتُه عن قراءته ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . قوله تعالى : ﴿ ولا

(٣٠) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٤٩) برقم (٤٤٤٥)، ومسلم (١/ ٣٢٩) برقم (٤٤٦) .

تَجهر بصلاتكَ ﴾ ، فيه قَولان : أحدهما أنها الصلاة الشرعية ، ثُمَّ في المراد بالكلام سِتَّة أقوال : أحدها : لا تجهر بقراءتك، ولا تُخافِت بها ، فكأنه نَهْي عن شِدَّة الجهر بالقراءة وشِدَّة الْمُخافَتة ، قاله ابن عباس. فعلى هذا في تسمية القراءة بالصلاة قَولان ذَكرهما ابن الأنباري : أحدهما أن يكون المعنى: فلا تجهر بقراءة صلاتك، والثاني أن القراءة بعض الصلاة ، فنابت عنها ، كما قِيل لعيسى : كلمة الله ، لأنه بالكلمة كان . والثاني لا تُصَلِّ مُراءاةً للناس ولا تَدَعْهَا مَخافة الناس ، قاله ابن عباس أيضًا. والثالث لا تجهر بالتشهد في صلاتك ، رُوِيَ عن عائشة في رواية ، وبه قال ابن سيرين . والرابع لا تجهر بِفِعل صلاتك ظاهرًا ، ولا تُخافت بها شديد الاستتار ، قاله عِكرمة . والخامس لا تُحسِن علانيتها وتُسِيء سَريرتها ، قاله الحسن . والسادس لا تجهر بصلاتك كُلِّها ، ولا تُخافِت بجميعها ، فاجهر في صلاة الليل ، وخَافِت في صلاة النهار ، على ما أمرناكَ به ، ذكره القاضي أبو يعلى . والقول الثاني أن المراد بالصلاة الدعاء ، وهو قول عائشة وأبي هريرة ومجاهد . قَوله تعالى : ﴿ ولا تُخافِت بها ﴾ الْمُخَافَتَة الإخفاء . يُقال : صَوت خَفِيت . ﴿ وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ أي : اسْلُك بين الجهر والْمُخَافَتَة طريقًا)) اهـ .

٦ــ التَّهَجُّد وقِيام الليل :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ الليلِ وقُرْآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ بإقامة الصلوات المكتوبة في أوقاتها على أحسن وجه . وتخصيص الصلاة بالذِّكر لأنها أعظم العبادات ، وأشرف الطاعات .

أقِم الصلاةَ يا محمد لزوال الشمس إلى ظُهور ظُلمة الليلِ . والغَسَقُ سَوَاد الليل . ودُلُوكُ الشمس يشمل صلاة الظُّهْر وصلاة العصر . وسُمِّيَ زَوال الشمس دُلُوكًا ، لأن الشخص يَدْلُكُ عينيه لشدة شُعاعها . و﴿ غَسَقِ الليلِ ﴾ يشمل صلاة المغرب وصلاة العِشاء. و ﴿ قُرْآنَ الفَجْرِ ﴾ هو صلاة الفجر . وبالتالي ، تكون الآيةُ جامعةً للصلوات الخمس المفروضة ، وأهمية إقامتها كاملةً. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٥) : ((وقد بَيَّنت السُّنة عن رسول الله ﷺ تواتُرًا مِن أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مِمَّا تَلَقَّوْهُ خَلَفًا مِن سَلَف ، وقَرْنًا بعد قَرْن ، كما هو مُقرَّر في مواضعه ، ولله الحمد)) اهـ .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : كان عبد الله ــ رضي الله عنه ــ يُصلِّي المغرب ، ونحن نرى أن الشمس طالعة . قال : فنظرنا يَوْمًا إلى ذلك ، فقال : ما تَنظرون ؟ ، قالوا : إلى الشمس . قال عبد الله : ((هذا والذي لا إلهَ غَيْرُه مِيقاتُ هذه الصلاة))، ثُمَّ قال: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ الليلِ ﴾ ، فهذا دُلُوكُ الشمس))[31].

﴿ وقُرْآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ . إن صلاة الفجر هي أعظم الصلوات على الإطلاق ، وهي صلاة مَشهودة ، لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يَجتمعون فِيها ، ويَشهدونها .

وسُمِّيَت صلاة الفجر قُرآنًا ، لأنه رُكْنُها ، والصلاة لا تَصِحُّ إلا بقراءة القُرآن . والآيةُ تُشير بوضوح إلى أن الصلاة لا تَكون إلا بقراءة القُرآن ، إذ إن الصلاة سُمِّيَت قُرآنًا . وقد دلَّت الأحاديثُ الصحيحة على أنه لا صلاة إلا بسورة الفاتحة . ومَن لَم يَقرأ الفاتحةَ ، لا صلاة له .

وإظهارُ ﴿ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ ﴾ في موضع الإضمار ، للتشديد على أهمية صلاة الفجر ، وضرورة الاهتمام بشأنها ، والاعتناء بأمرها .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٦٢):((قَوله تعالى: ﴿ وقُرْآنَ الفَجْرِ ﴾ انتصبَ ﴿ قُرْآنَ ﴾ مِن وجهين : أحدهما أن يكون معطوفًا على الصلاة ، المعنى : وأقِم قُرآنَ الفجر، أي صلاة الصبح، قاله الفرَّاء . وقال أهل البصرة : انتصبَ على الإغراء ، أي : فعليك بقرآن الفجر ، قاله الزَّجاج. وعَبَّرَ عنها بالقرآن خاصة دون غَيرها مِن الصلوات ، لأن القرآن هو أعظمها ، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور ، عن الزَّجاج أيضًا . قلتُ : وقد استقرَّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قَدْرًا لا يَضُرُّ بِمَن خَلْفَه)) اهـ .

وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((... وتجتمع ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهار في صلاة الصُّبح)) . يقول أبو هريرة : اقْرَؤوا إن شئتم : ﴿ وقُرْآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [32]. وقال الحافظ في الفتح (٢/ ١٣٨):((يشير إلى أن الاهتمام بهاــ بصلاة الصبحــ آكَد)) . والحديثُ يدل على أن صلاة الفجر هي أعظم الصلوات، وأفضل الطاعات، حيث تجتمع فيها ملائكةُ الليل وملائكة النهار ، ويَشهدونها . والملائكةُ لا يَحضرون إلا لأمرٍ عظيم ، وشأنٍ جليل .

---

(٣١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٥) برقم (٣٣٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣٢) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٧٤٨) برقم (٤٤٤٠) ، ومسلم (١/ ٤٤٩) برقم (٦٤٩) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ الليلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

أمرَ اللهُ محمدًا ﷺ بتركِ النَّوم (الْهُجُود) ، والصلاةِ في الليل بعد الصلوات المفروضة .

والتَّهَجُّد هو التَّيَقُّظ والسَّهر بَعد نَومة مِن الليل . والآيةُ تَمدح صلاةَ التهجد ، وتُعْلِي مِن قَدْرِها ، وتُبيِّن شرفها ، وفضلها ، ومكانتها .

ومعنى : ﴿ نافِلَةً لَكَ ﴾ كرامةً لَكَ يا محمد ، وفريضةً زائدة على الصلوات المفروضة على أُمَّتك ، وفضيلة خاصة بِك ، لاختصاص وجوبها بِك ، ورفعًا لدرجاتك ، وزيادة لك في الأجر ، لأن النبيَّ ﷺ قد غُفِرَ له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر . وكُل صلاة بعد الفريضة هي نافلة له ، لزيادة درجاته . وهُنا يَظهر تميُّز النبيِّ ﷺ عن المؤمنين ، فالمؤمنون يَأتون بصلاة التطوع لتكفير ذُنوبهم ، وجَبْر النقص في فرائضهم ، وإصلاح الخلَل والخطأ . ولفظُ ﴿ لَكَ ﴾ يدل على اختصاص الوجوب بالنبيِّ ﷺ ، وهذا يعني أنه غير واجب على غَيْره .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١١٥) : ((فإن قِيل : فما معنى التخصيص وهي زيادة في حق كافة المسلمين كما في حَقِّه ﷺ ؟ . قِيل : التخصيص مِن حيث إن نوافل العباد كفارة لذنوبهم ، والنبيُّ ﷺ قد غُفِر له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر ، فكانت نوافله لا تعمل في كفارة الذنوب ، فتبقى له زيادة في رفع الدرجات)) اهـ .

ألزمَ اللهُ النبيَّ ﷺ بقيام الليل (شرف المؤمن) لِمَا في ذلك من مجدٍ ورِفعة للنبيِّ ﷺ وزيادة في إيمانه ، وتقوية لجسمه . وصلاةُ الليل تفتح آفاقًا جديدة للعبد الذي يبتعد عن ضجيج النهار ، وصخب الناس ، ويهجر النومَ ، مِن أجل مُلاقاة خالقه تعالى . فالناسُ يَغُطُّون في سُبات عميق ، أمَّا هو فيكسر شهوةَ نَفْسه ، وينقلها إلى عوالم القُرب مِن الله تعالى . ولا شك أن قيام الليل هو قمةُ الإخلاص، ويدل على صِدق التَّوجه إلى الله تعالى ، والتفاني في الطاعة والعبادة ، والتعلق بالآخرة ، وعدم الاشتغال بِمَتاع الدنيا الزائل . والصالحون _ في كل زمان ومكان _ كان قيامُ الليل جزءًا أساسِيًّا من حياتهم ، يُجدِّدون به عهدَهم مع الله تعالى. وقيامُ الليل هو العلاقة الصافية بين العبد وربِّه ، والتي لا يُمكِن أن يُخالطها رِياء ولا شُهرة ولا سُمعة .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٥) : ((أمرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة ... فإن التهجد ما كان بعد النوم ... واخْتُلِف في معنى قوله تعالى : ﴿ نافلةً لكَ ﴾ ، فقيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجبًا في حقه دون الأُمَّة . رواه العَوفي عن ابن عباس

وهو أحد قَوْلَي العلماء ، وأحد قولي الشافعي ـ رحمه الله ـ واختاره ابن جرير . وقيل : إنما جُعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غُفِر له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر ، وغَيره مِن أمته إنما يُكفِّر عنه صلواته النوافلُ)) اهـ .

إن قيامَ الليل واجبٌ في حق النبيِّ ﷺ ، وذلك لكي يبقى على اتصال بخالقه تعالى . ففي الليل يخلو كلُّ حبيبٍ بحبيبه ، وأعظمُ حُب هو حب الله تعالى . وأُنس العبد بربِّه تعالى لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا في الليل ، لأن النهار وعاء الضجيج والعلاقات الاجتماعية ولهاث الفرد وراء متطلبات الحياة التي لا تنتهي . أمَّا الليل فهو السَّكينة المطْلقة ، وفيه تهدأ الجوارحُ ، وترتاح من صخب الحياة اليومية، فيصبح القلبُ في أعلى درجات الصفاء ، مُسْتَعِدًّا لتلقي التجليات الربانية ، والنفحاتِ الإيمانية. ومَن كان مع الله تعالى لا يحب أن يكون مع غَيره ، ومن أَنِسَ بالخالق تعالى لَم يأنس بالمخلوقين ، وشعر بالوحشة منهم . ولا شَك أن قِيامَ الليل دليلٌ باهر على محبة العبد لخالقه تعالى ، وهروبه من سراب الدنيا وضوضاءِ الحياة الاستهلاكية إلى حقيقة الإيمان الصافية . وفي المستطرَف للأبشيهي (١/ ١٩):((قيل : أوحى اللهُ تعالى إلى داود ـ عليه السلام ـ : يا داود،كَذب مَن ادَّعى محبتي،وإذا جَنَّ عليه الليل نام عَنِّي،أليسَ كُل محب يحب الخلوة بحبيبه ؟)) اهـ . ويقول عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ :

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدوه　　فَيُسْفِر عنهم وهُم رُكُوعُ
أطار الخوفُ نومَهم فقاموا　　وأهلُ الأمن في الدنيا هُجُوعُ

إن الليل هو متعة العابدين الذين يَجدون فيه سعادتهم ، فهم يملؤونه بالعبادة . وقد مَلَكَ قلوبَهم الخوفُ مِن الله تعالى فطار النومُ مِن عيونهم ، فقاموا الليلَ لعِلمهم بأهمية العبادة لنيل رضا الله ، والفَوز بجنته ، والنجاة من عذابه . أمَّا أهلُ الدنيا فهُم غاطسون في غفلتهم وشهواتهم لذلك قَضَوا حياتهم نائمين . وسوف يَسْتيقظون عندما يَصعقهم الموتُ، ويَدفعون ثمنَ تفريطهم .

و ((الناسُ نِيام ، فإذا ماتوا انتبهوا)) [قال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٨): لَم أجده مرفوعًا ، وإنما يُعزَى إلى عليِّ بن أبي طالب] اهـ .

وروى الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣٦٠) وصحَّحه ووافقه الذهبي أن جبريل عليه السلام قال مُخَاطِبًا النبيَّ ﷺ : ((يا مُحمَّد ، شَرَفُ المؤمنِ قِيامُ الليلِ)) .

إن قيامَ الليل هو تاريخُ المؤمن وشَرَفه الذي يَعتز به، ولا يسمح بزواله مهما حَدث . فالشرفُ الحقيقي نابع من الإيمان وليس من العلاقات الاجتماعية . وذلك لأن رابطة الدِّين أسمى من كل الروابط. وكلما ازداد الإيمانُ في قلب المرء ازداد شَرَفًا وسُلطةً _ مهما كانت مَنْزلته الاجتماعية _ أمَّا إذا ابتعد عن الدِّين فقد سَقط في قاع الذل، ولن ينتفع بماله أو رابطةِ الدمِ أو علاقاتِ المصلحة. وفي صحيح مسلم (٢/ ٨٢١): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ أن النبيَّ ﷺ قال : ((أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة الصلاة في جَوف الليل)) . وأيضًا ، في صحيح مسلم (٢/ ٨٢١) : أن النبيَّ ﷺ قال : ((... وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)) .

وهذا يُشير إلى أهمية قيام الليل ، وأن يتوجَّه العبدُ إلى خالقه تعالى حيث لا يراه الناس ، ولا يشعرون به . وهذا يزرع في النفس الإنسانية الإخلاصَ ، ويُنقِّيها مِن أيَّة شائبة رِياء . ولا يصل إلى هذه المرحلة إلا العباد الصادقون أصحاب الهِمَّة العالية .

وقيامُ الليل يدل على الإخلاص الصافي المكتمل . فلا يمكن للمرء أن يقوم في جوف الليل فيتوضأ ويُصلِّي ويُضحِّي بشهوة النوم اللذيذة إلا وهو يُريد وجهَ الله تعالى ، ولا شَيء سِواه . وهذا السلوكُ انعكاس للإيمان الراسخ في القلب ، والتصديق بالحساب يوم القيامة .

إن صلاة الليل قائمة على الإخلاص للهِ تعالى ، والبُعد عن الرياء والسُّمعة ، كما أنها تدل على قوة اليقين في القلب ، وقوة البدن . ولا يَحرص عليها إلا أولياء الله الصالحون الذين اختارهم اللهُ لعبادته والصلاة له ، في الوقت الذي ينام فيه الناس .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٥٥) : ((فيه دليل لِمَا اتفق العلماء عليه أن تطوُّع الليل أفضل مِن تطوُّع النهار . وفيه حُجَّة لأبي إسحاق المروزي من أصحابنا ومَن وافقه أن صلاة الليل أفضل مِن السُّنن الراتبة . وقال أكثر أصحابنا : الرواتب أفضل لأنها تُشبِه الفرائض، والأول أقوى ، وأوفق للحديث ، والله أعلم)) اهـ . وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٣٥٥): ((قال صاحب المدخل وهو أبو عبد الله بن الحاج: وقد قالوا أن مَن كان يتفلَّت مِنه القرآن فليقم به في الليل، فإن ذلك يُثبِّته له، ببركة امتثال السُّنة سِيَّما الثلث الأخير مِن الليل لِمَا ورد في ذلك مِن البركات والخيرات. وفي قيام الليل مِن الفوائد جملة فلا ينبغي لطالب العِلم أن يفوته منها شيء، فَمِنها أنه يَحُط الذنوب ، كما يَحُط الريحُ العاصفُ الورقَ اليابسَ مِن الشجرة. الثاني أنه يُنوِّر القلب. الثالث أنه يُحسِّن الوجه . الرابع أنه يُذهِب الكسل ويُنشِّط البدن . الخامس أن مَوضعه تراه الملائكة مِن السماء كما يتراءى الكوكب الدُّرِّي لنا في السماء)) اهـ .

وعن أبي أُمامة الباهليِّ : عن رسول الله ﷺ قال : ((عليكم بِقِيام الليل ، فإنه دَأْبُ الصالحين قَبْلَكم ، وهو قُربة لكم إلى ربكم ، ومُكفِّر للسَّيئات ، ومَنْهاة عن الإثم))(33).

صلاةُ التَّهَجُّد هي عادة الصالحين وشأنهم ، فيجب الحرص عليها ، وأداؤها على أكمل وجه، وهي مِن أعظم الطاعات التي يُتَقَرَّب بِها إلى الله تعالى ، وتَمحو الذنوبَ والخطايا ، وتَنهى عن الفحشاء والمنكر والآثام . كما أن صلاة التهجد تُقوِّي اليقينَ في القلب ، وتُعزِّز الإخلاصَ ، وتَنْفي الرِّياء والشُّبهات ، وأيضًا تُقوِّي البدنَ ، وتَجعله سليمًا في أفضل حالات الصحة والعافية ، بلا أمراض ولا عِلَل ولا ضَعف . وهذه الصلاةُ العظيمةُ تُطهِّر الإنسانَ مِن الأمراض الروحية والمادية . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٣٥١) : (((عليكم بقيام الليل) يعني التهجد فيه (فإنه دَأْب الصالحين)أي عادتهم وشأنهم، مِن دَأَبَ في العمل إذا جَدَّ، فَحَوَّلُوه إلى العادة والشأن (قبلكم) أي هي عادة قديمة واظبَ عليها الكُمَّل السابقون، واجتهدوا في إحراز فضلها . (وقُربة إلى الله تعالى) وفي رواية : وهو قُربة لكم إلى ربكم . نَكَّرَ القُربة إيذانًا بأن لها شأنًا ، وأتى بالجملة، ولَم يعطف (قُربة) على (دأب الصالحين) لتدل باستقلالها على مزيد تقريب (ومَنْهاة) بفتح الميم وسُكون النُّون (عن الإثم) أي حال مِن شأنها أن تنهى عن الإثم . مَفْعلة مِن النَّهي، والميم زائدة، وقال القاضي : مفعلة بمعنى اسم فاعل ونظائره كثيرة، مُطهِّرة ومَرْضَاة ومُبَجِّلة (وتكفير للسيئات) أي خَصْلة تُكفِّر سيئاتكم ، (ومَطْرَدة للداء عن الجسد) أي حالة شأنها إبعاد الداء ، مَفْعَلة من الطرد . قال القاضي : معناه أن قيام الليل قُربة تُقرِّبكم إلى ربكم ، وخَصلة تُكفِّر سيئاتكم ، وتنهاكم عن المحرَّمات . ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكرِ ﴾)) اهـ .

﴿ عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ . التزمْ بصلاة الليل التي أمرَكَ اللهُ بها يا محمد ،كَي يُقيمك اللهُ يوم القيامة في مَقام محمود شريف رَفيع القَدْر ، وهو مَقام الشَّفاعة العُظمى لأُمَّته ، حيث يَحْمَدُه فيه الأوَّلون والآخِرُون .

---

(٣٣) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٤٥١) برقم(١١٥٦) وصحَّحه . وقال العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٣٢٧):((حديث:" عليكم بِقِيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، فإن قيام الليل قُربة إلى الله عز وجل، وتكفير للذنوب، ومَطْرَدة للداء عن الجسد، ومَنهاة عن الإثم ". أخرجه الترمذي من حديث بلال، وقال : غريب ولا يَصِح . ورواه الطبراني والبيهقي مِن حديث أبي أسامة بسند حسن ، وقال الترمذي : إنه أصَح)) .

إن النبيَّ ﷺ يَشفع لأُمَّته يوم القيامة ، فَيُريحهم اللهُ مِن الأهوال والشدائد في ذلك الموقف الرهيب . وهذا تشريفٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ ، ومَنْزلة رفيعة ، لا يصل إليها مخلوق . مِمَّا يدل على تميُّز النبيِّ ﷺ عن باقي الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . وهذا ليس غريبًا ، إذ إن النبيَّ ﷺ هو أعظم مخلوقات الله على الإطلاق .

و"عسى" مِن الكريم إطماع واجب الوُقوع . والكريمُ إذا أطمعَ أوصلَ إلى الغاية ، لأنه لا يُغيِّر كلامَه ، ولا يَتلاعب به ، ولا يُخلِف الوعد . وقال البغوي في تفسيره (١/ ١١٥) : ((" عسى " من الله تعالى واجب ، لأنه لا يَدَع أن يُعطيَ عباده أو يفعل بهم ما أطمعهم فيه)) اهـ .

وفي الآية تشجيعٌ للنبيِّ ﷺ على صلاة الليل ، وتسهيل لأمرها ، وتهوين لصعوبتها وشِدَّتها .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٣٥٥) : ((قال ابن العربي في أحكامه : واخْتُلِف في وجه كَوْن قِيام الليل سببًا للمَقام المحمود على قولين للعلماء : أحدهما أن الباري تعالى يجعل ما يشاء من فضله سببًا لفضله مِن غَير معرفة لنا بوجه الحكمة. الثاني أن قيام الليل فيه الْخَلْوة بالباري تعالى، والمناجاة معه دون الناس، فَيُعْطَى الْخَلْوة به ومُناجاته في القيامة،فيكون مقامًا محمودًا، ويتفاضل فيه الخلق بحسَب درجاتهم،وأجَلُّهم فيه درجة نَبِيِّنا محمد ﷺ ، فَيُعطَى من المحامد ما لَم يُعْطَ أحد ، ويَشْفَع فَيُشَفَّع)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٧٤و٧٥): ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ قال ابن عباس : فَصَلِّ بالقرآن . قال مجاهد وعلقمة والأسود : التَّهَجُّد بعد النوم. قال ابن قُتَيبة : تَهَجَّدْتُ سَهِرْتُ وَهَجَدْتُ نِمْتُ.وقال ابن الأنباري:التهجد ها هُنا بمعنى التيقظ والسهر. واللغويون يقولون : هو من حروف الاضداد، يُقال للنائم: هاجد ومُتهجِّد، وكذلك للساهر... . قَوله تعالى: ﴿ نافِلَةً لَكَ ﴾ . النافلة في اللغة : ما كان زائدًا على الأصل . وفي معنى هذه الزيادة في حَقِّه قَولان: أحدهما أنها زائدة فيما فُرِضَ عليه ، فيكون المعنى فريضة عليك، وكان قد فُرِض عليه قيام الليل، هذا قول ابن عباس وسعيد بن جُبَير . والثاني أنها زائدة على الفرض، وليست فرضًا، فالمعنى تطوُّعًا وفضيلة . قال أبو أُمَامة والحسن ومجاهد : إنما النافلة للنبيِّ ﷺ خاصةً ، قال مجاهد: وذلك أنه قد غُفِرَ له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر،فما زاد على فرضه فهو نافلة له وفضيلة ، وهو لغيره كفارة. وذكر أهل العِلم أن صلاة الليل كانت فرضًا عليه في الابتداء ، ثم رُخِّص له في تركها ، فصارت نافلة . وذكر ابن الأنباري في هذا قولين : أحدهما يُقارِب ما قاله مجاهد،فقال: كان رسول الله ﷺ إذا تَنَفَّل لا يُقَدَّر له أن يكون بذلك ماحيًا للذنوب ، لأنه قد غُفِر له ما تقدَّم

مِن ذنبه وما تأخَّر، وغَيره إذا تنفَّل كان راجيًا ومُقَدِّرًا محو السيئات عنه بالتَّنَفُّل ، فالنافلة لرسول الله ﷺ زيادة على الحاجة ، وهي لغيره مُفتقِر إليها ، ومأمول بها دفع المكروه . والثاني أن النافلة للنبيِّ ﷺ وأُمَّته ، والمعنى : وَمِن الليل فتهجدوا به نافلةً لكم ، فَخُوطِب النبيُّ ﷺ بخطاب أُمَّته . قَوله تعالى : ﴿ عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ . " عسى " مِن الله واجبة ، ومعنى يبعثك : يُقيمك ﴿ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ وهو الذي يَحْمَدُه لأجله جميع أهل الموقف، وفيه قولان : أحدهما أنه الشفاعة للناس يوم القيامة، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عمر وسلمان الفارسي وجابر ابن عبد الله والحسن، وهي رواية ابن أبي نَجيح عن مجاهد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كانوا قَليلاً مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُون ﴾ [الذاريات : ١٧] .

هذه إحدى صِفات المؤمنين الصادقين . لقد مدحهم اللهُ بِقلة النَّوم ، وكثرة الصلاة . وهذا المديحُ الإلهيُّ لتثبيتهم ، ورفع معنوياتهم ، وتشجيعهم على مُواصلة العبادة والطاعة .

كانوا يَنامون قليلاً مِن الليل ، ويُصَلُّون أكثرَه ، وكَابَدوا قِيامَ الليلِ وصبروا على صُعوبته ومشقته ، ولَم يكونوا يَنامون مِن الليل إلا قليلاً . والْهُجُوعُ هو النَّوم بالليل دُون النهار .

والآيةُ تُشير إلى سهر المؤمنين الصادقين في طاعة الله تعالى ، وتضحيتهم بساعات نومهم مِن أجل إعطاء العبادة حَقَّها، والقيام بها ظاهرًا وباطنًا، بشكل صحيح وسليم ، دُون خَلَل ولا ثغرات. لقد ضَحُّوا بشهوة النَّوم اللذيذة ، وكَابَدُوا قِيام الليلِ ، وتحمَّلوا مشقته مِن أجل رِضا اللهِ تعالى ، لذلك مدحهم اللهُ ، وأثنى عليهم ، بكثرة الطاعة والعبادة في أصعب حالة وأشد موقف . وسَهَرُ الليلِ في الطاعة يَحتاج إلى توفيق إلهيٍّ وجُهد بشري خارق ، وهو أمر شاق وصعب للغاية .

وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٦٩٣):((﴿ كانوا قَليلاً مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُون ﴾ ينامون ، و﴿ مَا ﴾ زائدة . و﴿ يَهْجَعُون ﴾ خبر كان ، و﴿ قَليلاً ﴾ ظرف . أي : ينامون في زمن يسير مِن الليل ، ويُصَلُّون أكثرَه))اهـ. وعن أنس رضي اللهُ عنه قال : ((كانوا يُصَلون بين العشاء والمغرب))[34] .

إنهم حريصون على الصلاة لأنها العلاقة المقدَّسة بين المخلوق والخالق ، والرابطة الوثيقة بين الأرض والسماء. لذلك هم يملؤون أوقاتهم بالصلاة، ولا يُضيِّعون أوقاتهم في اللهو والعبث. فالمؤمنُ وقتُه ثمين ، ويستغل كلَّ لحظة في طاعة الله تعالى ، ولا يوجد في عُمره وقت فراغ ، لأن الفراغ أكبر مفسدة . ونَفْسُك إن لَم تشغلها بالحق شَغَلَتْكَ بالباطل . وصدقَ القائل :

---

(٣٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٠٧) برقم (٣٧٣٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَةْ مَفسدةٌ للمَرءِ أيُّ مفسدةْ

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:((لا يمرُّ بهم ليلة ينامون حتى يُصبحوا يُصلون فيها))(35).

إن وقتَ المؤمن حَلْقة متصلة من العبادات ، وإعمار الأرض ، ونشر الخير . فالليلُ والنهار هما ساحة العبادة. والعبادةُ مفهومٌ شامل لكل ما يحبُّه الله تعالى ويرضاه. وفي واقع الأمر، لا توجد _ في حياة المؤمن _ أفعال دنيوية وأفعال دينية ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة . فالمؤمنُ فارسٌ في النهار ، راهبٌ في الليل ، يُحوِّل جميعَ أفعاله إلى عبادات ، وذلك بجعل النِّية خالصةً لوجه الله تعالى . وعن عبد الله بن سلام _ رضي اللهُ عنه _ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول : ((يا أيها الناس ، أفْشُوا السلامَ ، وأطْعِمُوا ، وصِلُوا الأرحام ، وَصَلُّوا والناسُ نِيام ، تدخلوا الجنةَ بسلام))(36).

إذا قُمتُم بأداء هذه الطاعات على الوجه الأمثل ، وقضيتُم حياتكم في هذه الطاعات ، ومُتُّم على ذلك ، دخلتُم الجنةَ آمنين مُطمئنين ، بلا خوف ولا حُزن ولا قلق ولا اضطراب .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وبالأسحارِ هُمْ يَسْتغفرون ﴾[الذاريات : ١٨] .

الصِّفةُ الثانية لهؤلاء المؤمنين الصادقين هي الاستغفار في الأسحار (جمع سَحَر ، وهو وقت ما قبل الفجر) . والآيةُ تشتمل على مدح ثانٍ لهم . حيث إنهم يَطلبون المغفرةَ مِن اللهِ في آخر الليل ، ومَحْو ذُنوبهم ، والتجاوز عن سيئاتهم . إنهم يَعتبرون أنفسهم مُقصِّرين ومُذنِبين ، معَ أنهم يَقضون وقتهم في الطاعة والعبادة . وهذا يدل على تعظيمهم لله تعالى ، واعترافهم بالتقصير والذنوب ، لذلك يَستغفرون اللهَ بكثرة في الأسحار (أواخر الليل) ، وكأنهم قَضَوا الليلَ في المعاصي ، عِلْمًا بأنهم قليلو النَّوم، كثيرو التهجُّد، يُكثِرون مِن الاستغفار في الأسحار . وهذا يدل

(٣٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٠٧) برقم (٣٧٣٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي فتح الباري (٣/ ٢٩) : ((زاد الأصيلي أي ينامون. وقد ذكر الطبري وغيره الخلاف عن أهل التفسير في ذلك . ونقل عن قتادة ومجاهد وغيرهما ، أن معناه : كانوا لا ينامون ليلةً حتى الصباح لا يتهجدون ... عن ابن عباس قال : معناه لَم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئًا ... . ورجَّح الأول ، لأن الله تعالى وصفهم بذلك مادحًا لهم بكثرة العمل. قال ابن التين : وعلى هذا تكون ﴿مَا ﴾ زائدة أو مصدرية وهو أبين الأقوال وأقعدها بكلام أهل اللغة.وعلى الآخر تكون﴿مَا ﴾ نافية)).

(٣٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ١٤) برقم (٤٢٨٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

على عُلُوِّ هِمَّتهم. لقد مدحهم اللهُ ووصفهم بأنهم يُحْيُون الليلَ في الصلاة مُتَهَجِّدين ، فإذا وَصَلوا إلى وقت السَّحَر، انتقلوا إلى كثرة الاستغفار، وكأنهم قَضَوا لَيْلَهم في الذنوب والمعاصي والآثام . وهذا يدل على تعظيمهم للهِ تعالى ، وخَشيته ، وشِدَّة خَوفهم مِنه ، واعترافهم بالتقصير في أداء الطاعات . والمؤمنُ دائمًا يتَّهم نَفْسَه بالتقصير في حَق اللهِ تعالى ، وإذا رَضِيَ عَن نَفْسَه اضطره ذلك إلى الخمول وفساد العمل. والسَّحَرُ هو السُّدُس الأخير مِن الليل .

وقِيل : إنهم يُصَلون بالأسحار ، لأن صلاتهم في هذه الأوقات لطلب المغفرة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٣٦) : ((﴿ وبالأسحارِ هُمْ يَسْتغفرون ﴾ . أي أنهم مع قِلَّة هُجُوعهم وكثرة تهجُّدهم، إذا أسْحَرُوا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسْلَفوا في ليلهم الجرائم . وفي بناء الفِعل على الضمير إشعارًا بأنهم أحقاء بذلك ، لِوُفور عِلمهم بالله وخَشيتهم منه)) اهـ .

وهذه الأوقاتُ العظيمة (الأسحار) يُرجَى فيها استجابة الدعاء . كما تدل على إخلاص المؤمن وحِرصه على العبادة في وقت يكون فيه الناس نائمين ، أمَّا هو فمستيقظ لأداء العبادة المقدَّسة ، مُتفوِّقًا على شهواته الطينية ، والنَّزعةِ الإنسانية نحو الراحة والنَّوم. وعلى قَدْر المشقة يكون الأجرُ . كما ينبغي للمؤمن أن يختار الأوقات المبارَكة والأزمنة الشريفة لأداء عباداته لكي تكون أشد تأثيرًا في النفس البشرية ، وأدعى للقَبول .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٩٧) : ((قال مجاهد وغَير واحد : يُصَلون. وقال آخرون : قاموا الليل ، وأخَّرُوا الاستغفارَ إلى الأسحار)) اهـ. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٢٠) : ((أي : يطلبون أوقات السَّحَر مِن الله سُبحانَه أن يَغفر ذنوبهم ... وقال الكلبي ومقاتل ومجاهد : هم بالأسحار يُصَلون وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة، وقال الضَّحاك: هي صلاة الفجر)).

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٣٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وبالأسحارِ هُمْ يَسْتغفرون ﴾ . مدحٌ ثانٍ . أي : يستغفرون مِن ذُنوبهم ، قاله الحسن . والسَّحَر وقت يُرجَى فيه إجابة الدعاء . وقال ابن عمر و مجاهد: أي يُصَلون وقت السَّحَر، فَسَمُّوا الصلاةَ استغفارًا.وقال الحسن: في قوله تعالى: ﴿كانوا قَليلاً مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُون ﴾ : مَدُّوا الصلاةَ مِن أول الليل إلى السَّحَر، ثم استغفروا في السَّحَر ... . قال الأحنف بن قيس : عَرَضْتُ عملي على أعمال أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بَوْنًا بعيدًا لا نبلغ أعمالهم : ﴿كانوا قَليلاً مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُون ﴾ ، وعرضتُ عملي على أعمال أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم ، يُكذِّبون بكتاب الله ، وبرسوله ، وبالبعث بعد الموت ، فوجدنا خَيْرَنا مَنْزلةً ، قَوْمًا خلطوا عملاً صَالِحًا وآخَر سيئًا)) اهـ .

٧_ صلاة الجُمُعة :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُم خَيْرٌ لكُم إن كُنتم تَعْلَمُون ﴾[الْجُمُعة : ٩] (37).

هذه دَعوة إلهيةٌ كريمة للمؤمنين، وأمرٌ لهم بالاجتماع يوم الجمُعة لطاعة الله وعبادته . ومُخاطَبة لله للمؤمنين دُون الكافرين ، تشريفًا لهم ، وإعلاءً لقَدْرهم ، ورَفْعًا لِشَأنهم ومكانتهم . والأمرُ بالسَّعْي يدل على وُجوب صلاة الجمُعة.يا أيُّها الذين صَدَّقْتُم بِوَحدانيةِ اللهِ ونُبُوَّةِ محمدﷺ: إذا نادى الْمُنادي لصلاة الجمُعة، وأذَّنَ لها، فامْضُوا إلى سَماع خُطبة الجمُعة ، وأداء الصلاة ، واعملوا للهِ تعالى.والمقصودُ بالسَّعْي في الآية هو العمل والقَصْد والاهتمام في السَّيْر إلى الصلاة، وليس المشي السريع. ويُسْتَحَب للمؤمن قبل صلاة الجمُعة أن يلبسَ أجمل ثيابه ، ويتنظَّف ، ويَتسوَّك ، ويَتطهَّر . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦٨): ((وقَوله تعالى: ﴿ إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ المراد بهذا النِّداء هو النداء الثاني، الذي كان يُفعَل بين يَدَي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المِنبَر ، فإنه كان حينئذ يُؤذَّن بين يَدَيه ، فهذا هو المراد ، فأمَّا النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان _ رضي اللهُ عنه _ فإنما كان هذا لكثرة الناس)) اهـ .

إن يوم الجمُعة هو عيد المسلمين العظيم الذي يتفوق على عِيدَيْ أهل الكتاب، ويتقدم عليهما. فهو يَسبق السبتَ (عيد اليهود) ، ويسبق الأحدَ (عيد النصارى) . وصلاة الجمُعة هي العهد بين العبد وخالقه تعالى ، حيث يجدِّد المؤمنُ ولاءه لله تعالى والعهدَ الإيماني الذي يهدف إلى الثبات على الحق ، والتوبةِ من كل الذنوب ، واستدراكِ ما فات من التقصير ، والعملِ بشكل مُخلِص ودقيق لأداء العبادات على أكمل صورة دون أية ثغرة .

(٣٧) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦٨) : ((إنما سُمِّيَت الجمُعة جُمُعة لأنها مُشتقة من الجمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكِبار، وفيه كَمُلَ جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس مِن الستة التي خلق اللهُ فيها السماواتِ والأرض، وفيه خُلِق آدم، وفيه أُدخِل الجنة، وفيه أُخرِج مِنها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يُوافقها عبد مؤمن يَسأل اللهَ فيها خَيْرًا إلا أعطاه إيَّاه ، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصِّحاح... . وقد كان يُقال له في اللغة القديمة: يوم العَرُوبة. وثبت أن الأمم قَبْلَنا أُمِروا به فَضَلُّوا عنه، واختار اليهود يوم السَّبت الذي لَم يقع فيه خلق آدم، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابْتُدِئ فيه الخلق، واختارَ اللهُ لهذه الأمَّة يوم الجمُعة الذي أكملَ اللهُ فيه الخليقة)) .

والسَّعْيُ هو قَصْدُ صلاة الجمُعة وإتمامها والانشغال بها عن كُل ما سِواها مِن مَتاع الدنيا الزائل. أمَّا السَّعْي بالمفهوم المحسوس (المشي السريع) فمنهيٌّ عنه . والمرءُ حين يأتي للصلاة فهو يُقبِل على الله تعالى بكل جوارحه ، ويُلقي الدنيا وراء ظَهْره . فعندما يقف العبدُ بين يَدَي الخالق لا تصبح هناك أدنى قيمة للمخلوقات . والسَّعْيُ الحقيقيُّ يتجلى في إقبال العبد على الصلاة بقلبه وأعضائه وعمله . والمؤمنُ يُلبِّي نداءَ الحق، ويُنقِّي قلبَه من إغراءاتِ الدنيا ، وشوائبِ الحياة الاستهلاكية العنيفة. وهذا هو المِحَك الحقيقي في حياة الإنسان . وقلبُ العبدِ إمَّا أن يكون لله تعالى أو للدنيا ، ولا يمكن الجمعُ بينهما . ومن نَجح في تفريغ قلبه من سراب الدنيا وزينتها الخادعة ، وجعله مُتوجِّهًا بالكُلِّية نحو الخالق تعالى ، فقد نجح في الاختبار نجاحًا باهرًا ، وانتصرَ على هواه الذي يُعتبَر مِن ألد أعدائه .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسْعَوْن ، وَأْتُوها تمشون عليكم السَّكينة ، فما أدركتُم فصَلُّوا، وما فاتكم فَأَتِمُّوا))[38].

إنَّ السَّعْيَ يتنافى مَعَ الوَقار الذي ينبغي أن يتحلى به الْمُصلِّي أثناء مجيئه إلى الصلاة ، كما أنه يُؤدِّي إلى دخول سريع في الصلاة، وهو غير مُستعد نفسِيًّا، وهذا يُشتِّت التركيز، ويُزيل الخشوع، ويَجعل المصلِّي عاجزًا عن فهم الألفاظ وتدبُّر المعاني . وكُل هذه الأمور تدل على أهمية الصلاة بشكل عام ، وأهمية صلاة الجمُعة بشكل خاص . فالصلاةُ هي الصِّلة بين المخلوق والخالق ، لذلك لها فرائض وسُنن وأوقات ، لأنها ذات مكانة سامية في التشريع الإسلاميِّ ، فلا بد أن تكون صلاةُ العبد كاملةً، أو قريبة إلى الكمال بِقَدْر المستطاع، لأنها الحبل المتين بين الأرض والسماء ، وإذا انقطع هذا الحبلُ ، فسيفقد الإنسانُ دورَه ، ويُصاب بانتكاسة شديدة من شأنها أن تجعل دنياه جحيمًا لا يُطاق ، وهذه مُقدِّمة لعذاب الآخرة .

---

(٣٨) متفق عليه . البخاري (١/ ٣٠٨) برقم (٨٦٦) ، ومسلم (١/ ٤٢٠) برقم (٦٠٢) . وقال الحافظ في الفتح(٣٩٢/٢):((وكأن البخاري استشعر إيراد الفرق بين الساعي إلى الجمُعة وغَيرها بأن السَّعْي إلى الصلاة غير الجمُعة منهيٌّ عنه لأجل ما يلحق الساعي من التعب، وضِيق النفَس، فيدخل في الصلاة وهو مُنبهِر،فَيُنافي ذلك خشوعه،وهذا بخلاف الساعي إلى الجمُعة، فإنه في العادة يحضر قبل إقامة الصلاة ، فلا تُقام حتى يستريح مِمَّا يلحقه مِن الانبهار وغَيره، وكأنه استشعر هذا الفرق فأخذ يستدل على أن كل ما آل إلى إذهاب الوقار مُنع منه ، فاشتركت الجمُعة مَعَ غَيرها في ذلك)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٦٢و٢٦٣و٢٦٤و٢٦٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ إذا نُودِيَ للصَّلاةِ ﴾ ، وهذا هو النداء الذي يُنادَى به إذا جلس الإمام على المِنبَر ، ولَم يكن في عهد رسول الله نِداء سِواه . كان إذا جلس على المِنبَر أذَّنَ بلال على باب المسجد، وكذلك كان على عهد أبي بكر وعُمر، فلمَّا كَثُر الناس على عهد عثمان ، أَمَرَ بالتأذين على دار له بالسوق يُقال لها: الزَّوراء . وكان إذا جلس أَذَّنَ أيضًا . قَوله تعالى : ﴿ للصَّلاةِ ﴾ أي : لوقت الصلاة ... . وفي تسمية هذا اليوم بيوم الجمُعة ثلاثة أقوال : أحدها لأن فيه جُمِعَ آدم . روى سلمان قال : قال لي رسول الله ﷺ :" أتدري ما الجمُعة ؟ "، قُلتُ: لا . قال : " فيه جُمِع أبوك " يعني: تمام خَلْقه في يوم الجمُعة . والثاني لاجتماع الناس فيه للصلاة . والثالث لاجتماع المخلوقات فيه ، لأنه اليوم الذي مِنه فُرِغَ مِن خَلْق الأشياء . وفي أول مَن سَمَّاها بالجمُعة قَولان : أحدهما أنه كَعْب بن لؤي، سَمَّاها بذلك ، وكان يُقال ليوم الجمُعة : العَرُوبة ، قاله أبو سَلَمة . وقِيل : إنما سَمَّاها بذلك لاجتماع قُرَيش فيه . والثاني أول مَن سَمَّاها بذلك الأنصار ، قاله ابن سيرين . قَوله تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ ، وفي هذا السَّعْي ثلاثة أقوال : أحدها أنه المشي ، قاله ابن عباس ... وقال عطاء : هو الذهاب والمشي إلى الصلاة . والثاني أن المراد بالسَّعْي العمل ، قاله عِكرمة والقُرَظي والضَّحاك . فيكون المعنى: فاعملوا على الْمُضِيِّ إلى ذِكر الله بالتفرغ له والاشتغال بالطهارة، ونَحْوها. والثالث أنه النِّية بالقلب ، قاله الحسن . وقال ابن قُتَيبة : هو المبادَرة بالنِّية والجِد . وفي المراد بِذِكْر الله قَوْلان: أحدهما أنه الصلاة، قاله الأكثرون. والثاني موعظة الإمام ، قاله سعيد بن المسيِّب)) اهـ .

﴿ وَذَرُوا البَيْعَ ﴾. امْضُوا إلى ذِكر الله تعالى، واترُكوا البيعَ والشِّراءَ إذا نُودِيَ لصلاة الجمُعة . ويَلحق بالبيع والشراء سائر المعامَلات. وفي يوم الجمُعة يجتمع الناسُ ويَكْثُرون ، وتَكثر عمليات البيع والشراء، وهذا يُلهي عن ذِكر اللهِ تعالى . فَحَرَّمَ اللهُ ما يُلْهي عن ذِكره مِن مَتاع الدنيا الزائل. وهذا سبب تخصيص يوم الجمُعة بذلك . والمعنى العام : اشتغلوا بأمر الآخرة (الْمَعَاد) ، واترُكوا أمرَ الدنيا (الْمَعَاش). وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٤٦٨): ((ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النِّداء الثاني.واختلفوا هل يَصِح إذا تعاطاه مُتعاطٍ أم لا ؟ على قَولين، وظاهر الآية عدم الصحة)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٨٦) : ((وخُصَّ البيع لأنه أكثر ما يَشتغل به أصحاب الأسواق . وَمَن لا يجب عليه حُضور الجمُعة ، فلا يُنهَى عن البيع والشراء))اهـ .

﴿ ذَلِكُم خَيْرٌ لكُم ﴾.إن طَلَبَكم لرضا الله تعالى،والإقبال على طاعته وعبادته وذِكْره، وسَعْيَكم لصلاة الجمُعة أعظم وأفضل من البيع والشراء ، فإن تجارة الدنيا زائلة ، ومال الدنيا في الدنيا . والكَفَنُ لَيس له جُيوب . أمَّا نَفْعُ الآخرة فدائمٌ،ونعيمها باقٍ لا يَزول.وهذا هو الفرق بين خُلود الدار الآخرة وفناء الدار الدنيا. والالتزامُ بأوامر الله هو الطريق لنيل رِضاه ، وثوابه ، وجنَّته . ومُخالفة أوامره تُؤدِّي إلى العقوبة والعذاب . ﴿ إن كُنتم تَعْلَمُون ﴾ . إن كُنتم مِن أصحاب العقول والعِلم ، وتَعْرِفون مصالحكم ، وتَعْلَمون ما يَنفعكم وما يَضُرُّكم. والمعنى:إن تَرْكَ البيع والشراء والإقبال على ذِكر الله خَيْرٌ لكم في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٨) : ((﴿ وَذَرُوا البَيْعَ ﴾ ، واترُكوا المعامَلة ،﴿ ذَلِكُم ﴾ أي : السَّعْي إلى ذِكْر الله ﴿ خَيْرٌ لكُم ﴾ مِن المعامَلة ، فإن نفع الآخرة خَيْرٌ وأبقى ، ﴿ إن كُنتم تَعْلَمُون ﴾ الخير والشَّر الحقيقيين ، أو إن كُنتم مِن أهل العِلم)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١١٥) : ((واعلم أن صلاة الجمُعة مِن فُروض الأعيان، فتجب على كل مَن جمع العقل والبلوغ والحرية والذكورة والإقامة ، إذا لَم يكن له عُذر ، وَمَن تركها استحق الوعيد . وأمَّا الصبيُّ والمجنون فلا جُمُعة عليهما، لأنهما لَيْسَا مِن أهل أن يُلْزِمهما فروض الأبدان ، لنقصان أبدانهما ، ولا جُمُعة على النساء بالاتفاق)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فانتَشِرُوا في الأرضِ وَابْتَغوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لعلكم تُفْلِحُون ﴾ [الْجُمُعة : ١٠] .

إذا قُمتُم بأداء صلاة الجمُعة، وفَرَغْتُم مِنها، فانتشروا في الأرض وتفرَّقوا فيها لقضاء مصالحكم وحوائجكم، وطلب الْمَعَاش، ومُمارسة البيع والشراء وشُؤون التجارة. وهذا الأمرُ الإلهيُّ للإباحة، وليس للوُجوب . إباحة لطلب الرزق بالتجارة بعد مَنعها بِقَوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا البَيْعَ ﴾.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٩) : ((﴿ فانتَشِرُوا في الأرضِ وَابْتَغوا مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ إطلاق لِمَا حظر عليهم . واحتجَّ بِه مَن جَعل الأمر بعد الحظر للإباحة)) اهـ .

واطلُبوا مِن فَضل الله ورزقه وإنعامه ، فهو الرَّازق الذي يَتفضَّل على عباده ، ويُنعِم عليهم ، وهو الغنيُّ الذي لا يخاف الفقر ، وخزائنه لا تَنفَد مهما أعطى ورزق وأنعمَ ومَنح وتفضَّلَ . وقد أَذِنَ اللهُ لهم في الانصراف والتفرُّق في الأرض بعد صلاة الجمُعة التي فَرَضَت عليهم الاجتماعَ وعدم المغادَرة . واذكروا اللهَ كثيرًا في كُل الحالات ، بالقلب واللسان ، وليس في حال الصلاة فقط ، ولا تنشغلوا بجمع حُطام الدنيا الفاني عن نعيم الآخرة الباقي، واحمدوا اللهَ واشكروه على

نِعَمه الكثيرة، حيث رزقكم ، ومتَّعكم بالصحة والعافية ، ووفَّقكم لأداء الطاعات والعبادات ، ومنحكم هذا الشرف العظيم ، لِتُفلحوا ، وتفوزوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة. وبذلك ، يكون اللهُ قد جمع لكم خَير الدارَيْن . وهذا يدل على فضل الله وكرمه وإنعامه ورحمته بعباده . وينبغي القول إن ذِكر الله ليس مُجرَّد كلمات على اللسان . إنَّ ذِكْرَ الله هو طاعته وعبادته قَوْلاً وفِعلاً .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٩٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فانتَشِرُوا في الأرضِ ﴾ ، هذا أمر إباحة . يقول : إذا فرغتُم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم ، ﴿ وَابْتَغوا مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ أي : مِن رِزقه . وكان عِراك بن مالك إذا صلى الجمُعة انصرفَ، فوقفَ على باب المسجد، فقال: اللهُمَّ إني أجبتُ دَعوتك، وصَلَّيْتُ فَريضتك ، وانتشرتُ كما أمرتني،فارزقني مِن فَضلك، وأنتَ خَير الرازقين. وقال جعفر بن محمد في قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغوا مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ إنه العمل في يوم السبت . وعن الحسن وسعيد بن المسيِّب : طلب العِلْم. وقِيل : صلاة التطوُّع. وعن ابن عباس : لَم يُؤمَرُوا بطلب شيء من الدنيا ، إنما هو عِيادة المرضى وحضور الجنائز ، وزيارة الأخ في الله تعالى . قَوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا ﴾ أي : بالطاعة واللسان ، وبالشُّكر على ما بِه أنعمَ عليكم مِن التوفيق لأداء الفرائض ، ﴿ لعلكم تُفْلِحُون ﴾ كي تُفلِحوا . قال سعيد بن جُبَير: الذِّكر طاعة الله تعالى ، فمن أطاعَ اللهَ فقد ذَكَرَه ، وَمَن لَم يُطِعْه فليس بذاكر، وإن كان كثير التسبيح)) اهـ .

٨_ قَصْر الصلاة والصلاة وقت الحرب :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا ضَرَبْتُم في الأرضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إنْ خِفْتُم أن يَفْتِنَكُمُ الذينَ كَفروا إنَّ الكافرينَ كانوا لَكُم عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [النِّساء : ١٠١] .

وإذا سافرتم أيها المؤمنون في البلاد للتجارة أو الغَزْو أو قضاء مصالحكم ، فليسَ عليكم حَرَج ولا إثم أن تَقْصُروا مِن الصلاة ، فَتُصَلوا الصلاةَ الرُّباعية ركعتين (الظُّهر والعصر والعِشاء) .

والآيةُ دليل على قَصْر الصلاة في السَّفَر بشرط أن لا يكون السَّفَر لمعصية . أمَّا سَفَر المعصية فلا يجوز القَصْر فِيه، لأن ذلك يكون عَوْنًا على معصية الله تعالى . وقَصْرُ الصلاة في السَّفَر سُنَّة ، وليس فرضًا. وهذا تخفيفٌ مِن الله على الناس. ويجوز إتمام الصلاة في السَّفَر ، ولكن القَصْر أفضل.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٤) : ((ونَفْي الحرَج فيه يدل على جوازه دون وُجوبه، ويُؤيِّده أن عليه الصلاة والسلام أتَمَّ في السَّفَر)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٧٤) : ((اعلم أن قَصْر الصلاة في السَّفَر جائز بإجماع الأُمَّة. واختلفوا في جَواز الإتمام ، فذهب أكثرهم إلى أن القَصْر واجب ، وهو قول عمر وعليٍّ وابن عمر وجابر وابن عباس رضي اللهُ عنهما، وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة ، وهو قول مالك وأصحاب الرأي... وذهب قوم إلى جَواز الإتمام. رُوِيَ ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما،وبه قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ . مَن شاء أتَمَّ ، ومَن شاء قَصَر ، والقَصْر أفضل)) .

﴿ إنْ خِفْتُم أن يَفْتِنَكُمُ الذينَ كَفروا ﴾ . إن خشيتم أن ينالكم أذًى مِن أعدائكم الكفار أو مَكروه. وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٢٤٤) : ((وفِتنتهم إيَّاهم فيها : حَمْلهم عليهم وهُم فيها ساجدون ، حتى يقتلوهم ، أو يأسروهم ، فيمنعوهم مِن إقامتها وأدائها ، ويَحُولوا بينهم وبين عبادة الله وإخلاص التوحيد له)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الآية ﴿ إنْ خِفْتُم ﴾ تتعلق بأغلب الأحيان ، والكلام على الغالب ، وكانت الحالة الغالبة على المسلمين في أسفارهم هي الخوف مِن أعدائهم المشركين لكثرة عددهم . وذِكْرُ الخوف في الآية ليس شرطًا ، وإنما هو لتوضيح الأمر الواقع والحالة الْمُعاشة .

وفي صحيح مسلم (١/ ٤٧٨) : عن يعلى بن أُمَيَّة قال : قلتُ لعمر بن الخطاب : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إنْ خِفْتُم أن يَفْتِنَكُمُ الذينَ كَفروا ﴾ . فقد أَمِنَ الناس ، فقال: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنه ، فسألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فقال: ((صدقةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِها عليكم، فاقبلوا صَدَقَته))[39].

إن الآية تشتمل على إباحة القَصْر في حالة الخوف،وليس في الآية مَنْع القَصْر في حالة الأمن. وإثبات الشَّيء لا يَنفي ما عَداه . لذلك ، يجوز قَصْر في الصلاة في كُل سَفَر مُباح ، سواءٌ كان في حالة الخوف أَم حالة الأمن،والخوفُ ليس شرطًا لقصر الصلاة.والإجماعُ مُنعقد على أن

---

(٣٩) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٩٦): ((وفيه جَواز قَول:" تَصَدَّقَ اللهُ عَلَينا " ، " واللهُمَّ تَصَدَّقْ عَلَينا " . وقد كَرِهَه بعض السلف ، وهو غلط ظاهر . وفيه جواز القَصْر في غير الخوف، وفيه أن المفضول إذا رأى الفاضل يَعمل شيئًا يَشْكُل عليه يسأله عنه ، والله أعلم)) .

القَصْر يجوز في السَّفَر مِن غَير خَوْف،وثبتت السُّنة بهذا عن النبيّﷺ.وذِكر الخوف في الآية لأنه الحالة الأغلب والأعم في أسفار المسلمين في ذلك الوقت. فقد كان المشركين كثيري العَدَد والعَتَاد، ويَتربَّصون بالمسلمين ، ويُشكِّلون خطرًا حقيقيًّا على حياتهم ومُمتلكاتهم ، وكان المسلمون يَخافون مِنهم . إن الكافرين الجاحدين لِوَحدانية اللهِ والْمُنكِرين لِنُبُوَّة محمد ﷺ ، كانوا لكم أعداء ظاهري العداوة، فقد أظهروا حِقدهم عليكم ، وكراهتهم لكم ، وحربهم على دِينكم ومُقدَّساتكم ، وهُم على استعداد لقتلكم في كل وقت ، وعلى أيَّة حال . وسوفَ يستغلون انشغالكم بالصلاة والطاعة والعبادة لإيذائكم والاعتداء عليكم وقتلكم ، فكونوا على حَذَر ، وعلى أُهبة الاستعداد .

وهذا تنبيه إلهيٌّ للمؤمنين وإرشاد لهم إلى ضرورة الأخذ بأسباب الحِيطة والحذر ، وحماية أنفسهم من الأعداء بكل الوسائل المتاحة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٨١و١٨٢) : ((روى مجاهد عن أبي عَيَّاش الزُّرَقِيِّ قال : كُنَّا مَعَ رسول الله ﷺ بِعُسْفَان (قرية بين مكة والمدينة) ، وعلى المشركين خالد بن الوليد قال: فَصَلَّيْنَا الظُّهْر، فقال المشركون: لقد أَصَبْنا غِرَّةً (غَفلةً) لو كُنَّا حَمَلْنا عليهم وهُم في الصلاة. فَنَزلت آية القَصْر فيما بين الظُّهر والعصر. والضَّرْب في الأرض السَّفَر، والْجُناح الإثم، والقَصْر النَّقْص ، والفِتنة القَتْل. وفي القَصْر قَولان : أحدهما أنه القَصْر من عدد الركعات . والثاني أنه القَصْر مِن حُدودها. وظاهر الآية يدل على أن القصر لا يجوز إلا عند الخوف،وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية على غالب أسفار رسول الله ﷺ ، وأكثرها لَم يَخْلُ عَن خوف العدو)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا كُنتَ فِيهِم فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائفةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأخُذُوا أسْلِحَتَهُم فإذا سَجَدُوا فَلْيَكُونوا مِن وَرَائِكُم وَلْتَأتِ طَائِفَةٌ أُخرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأخُذُوا حِذْرَهُم وأَسْلِحَتَهُم ﴾ [النِّساء : ١٠٢] . إن للصلاة مكانةً جليلة في الإسلام لدرجة أنها لا تسقط في وقت الحرب، ولكن تتغير كيفيتها لتُلائِم وضعيةَ الحرب . فالصلاةُ في حالة الأمن والأمان تختلف عن الصلاة في حالة القتل والقتال . وما وُجوب الصلاة في المعركة إلا مؤشر على أهميتها الكبرى، وعدم إسقاطها تحت أيِّ ظرف. كما أنها تستجلب النصرَ الإلهيَّ ، حيث التوجه الخالص لله تعالى في أرض المعركة ، والاتصال به ، وطلب العَون منه ، مع الأخذ بأسباب النصر المادية . وصلاةُ الخوف في الحرب لها وضع خاص . حيث ينقسم المسلمون إلى طائفتَيْن ،

الأولى تأتم بالنبيِّ ﷺ وهي مُدجَّجة بالسلاح ، والطائفة الثانية تقوم بمواجهة العدو . فإذا انتهت الطائفة الأولى من الصلاة ، تأتي الطائفةُ الثانية للصلاة خلف النبيِّ ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٢٧) : ((وأمَّا الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف ، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية ، وهو أحد قَوْلَي الشافعي)) اهـ .

الخطابُ الإلهيُّ في الآية للنبيِّ ﷺ : وإذا كُنتَ يا محمد مع المؤمنين ، فصليتَ بهم إمامًا في صلاة الخوف في الحرب . فلتقم جماعة من المؤمنين تُصلِّي معك ، وتقف معك في الصلاة ، وليأخذ الذين يُصلون معك أسلحتهم،ليكونوا على أُهبة الاستعداد لحدوث أيِّ هجوم مِن العدو،ولئلا يُبَاغَتُوا، فيتم قتلهم وهُم مشغولون بالصلاة . ووجودُ السلاح معهم في وقت الصلاة يَقطع رجاءَ العدوِّ ، ويُبطِل حِيلته ، ويُخيفه، ويُرهبه. فالعدوُّ قد يستغل انشغالهم بالصلاة للانقضاض عليهم ، وقتلهم . لذلك يجب أن يَحملوا السلاحَ لأخذ الحِيطة والحذَر . ولتقم الطائفة الأخرى في مُواجهة العدو . ولا شَك أنها ستكون حاملةً للسلاح ، فإذا انتهت الجماعة (الطائفة) الأولى من الصلاة ، فلتأتِ الجماعة التي لَم تُصَلِّ إلى مكان الطائفة التي انتهت مِن الصلاة ، للصلاة وراء النبيِّ ﷺ ، وليكونوا مُستعدين وحَذِرين مِن العدو ، وجاهزين لقتاله بحملهم السلاح . وهذا يدل على أن الحذَر والسلاح هُما الرُّكنان الماديان اللذان يقوم عليهما النصر في الحرب ، ولا غِنًى للمُجاهِد عنهما .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٢٧) : ((وما أحسن ما استدل به مَن ذهب إلى وجوب الجماعة مِن هذه الآية الكريمة ، حيث اغْتُفِرَت أفعال كثيرة لأجل الجماعة ، فلولا أنها واجبة لَمَا سَاغَ ذلك)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن هذا الخطاب الإلهيَّ ليس خاصًّا بالنبيِّ ﷺ . إنه يشمل كُل مَن قام بَعْدَه إمامًا في صلاة الخوف في الحرب.وقد صلى الصحابةُ_وهُم أعلم هذه الأُمَّة بعد نَبِيِّها ﷺ _ هذه الصلاة المخصوصة أكثر مِن مَرَّة بعد وفاة النبيِّ ﷺ. وهُم أعرف بمعاني القرآن مِن كُل الذين جاؤوا بعدهم، لأنهم الجيل الذهبي المعاصِر للنبيِّ ﷺ ، والذي يعيش في ظِل نُزول الوَحْي السماويِّ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٧٦) : ((وجُملته أن العدو إذا كانوا في معسكرهم في غَير ناحية القِبلة ، فيجعل الإمام القوم فِرقتين ، فتقف طائفة وِجَاه العدو (وَجْهًا لوجه) تَحرسهم ، ويَشْرَع الإمام مع طائفة في الصلاة ، فإذا صلى بهم ركعة قام وثبت قائمًا ، حتى أتَمُّوا صلاتهم

ذهبوا إلى وِجاه العدو ، ثُمَّ أتت الطائفة الثانية ، فصلى بهم الركعة الثانية ، وثبتَ جالسًا ، حتى أتَمُّوا لأنفسهم الصلاة ، ثُمَّ يُسلِّم بِهم)) اه .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : خرج رسول الله ﷺ في غَزاة ، فَلَقِيَ المشركين بِعُسْفَان، فلمَّا صلى رسول الله ﷺ الظُّهْرَ، فَرَأَوْهُ يَركع ويَسجد هو وأصحابه ، فقال بعضُهم لبعض : كان هذه فرصة لكم ، لو أغرتُم عليهم ما عَلِموا بكم حتى تُواقعوهم ، فقال قائل منهم : فإن لهم صلاة أخرى هي أحب إليهم مِن أهليهم وأموالهم ، فاستعدوا حتى تُغيروا عليهم فيها ، فأنزل اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ على نَبِيِّه ﷺ : ﴿ وإذا كُنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ ﴾ إلى آخر الآية . وأعلمه ما ائْتَمَرَ به المشركون ، فلمَّا صلى رسول الله ﷺ العصرَ وكانوا قُبالته في القِبلة ، جَعل المسلمين خَلْفَه صَفَّين ، فَكَبَّرَ رسولُ الله ﷺ ، فكَبَّروا معه [40].

لقد عَلَّمَ اللهُ النبيَّ ﷺ كيفية صلاة الخوف في الحرب ، لِيَأتم به الأئمة بعده ، فإن كُل إمام قائمٌ مَقام النبيِّ ﷺ ، وحُضور الإمام كَحُضور النبيِّ ﷺ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٢٠٤) : ((... وَكَقَوْله تعالى: ﴿ وإذا كُنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ ﴾ ونَحْو ذلك من خطاب المواجَهة، فكل ذلك غير مختص برسول الله ﷺ، بَل تُشاركه فيه الأُمَّة ... وإنما الفائدة في مُواجَهة النبيِّ ﷺ بالخطاب أنه هو الداعي إلى الله تعالى ، والْمُبيِّن عنه معنى ما أراد ، فَقُدِّم اسْمُه في الخطاب ، ليكون سلوك الأمر في شرائع الدِّين على حَسَب ما يَنهجه ويُبيِّنه لهم)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ فإذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِكُم فإذا اطْمَأننتُم فأقيموا الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ كانتْ عَلى المؤمنينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النِّساء : ١٠٣] [41].

فإذا فرغتُم مِن صلاة الخوف وانتهيتم مِن أدائها، فاذكروا اللهَ كثيرًا بعدها في جميع حالاتكم ، وعلى كُل أحوالكم ، قِيَامًا وقُعودًا ومُضطجعين . أكثروا مِن ذِكر الله بالقلب واللسان، وعَظِّموه ، واشكروه ، وادْعُوه أن يَمُنَّ عليكم بالثبات والنصر والتمكين ، لعلَّ اللهَ أن يَنصركم على عُدُوِّه وعدوكم .

---

(٤٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٣٢) برقم (٤٣٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤١) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٣١) : ((يأمرُ اللهُ تعالى بكثرة الذِّكر عَقِيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعًا مُرَغَّبًا فيه أيضًا بعد غَيرها ، ولكن ههنا آكَد لِمَا وقع فيها مِن التخفيف في أركانها، ومِن الرُّخصة في الذهاب فيها والإياب وغَير ذلك ، مِمَّا ليس يُوجَد في غَيرها)) .

وروى الطبري في تفسيره (٤/ ٢٦٠) عن ابن عباس قال: ((لا يَفْرِض اللهُ على عباده فريضة إلا جعل لها حَدًّا معلومًا ، ثُمَّ عَذَرَ أهْلَها في حال عُذْر غَيْر الذِّكر ، فإن الله لَم يَجعل له حَدًّا ، ينتهي إليه ، ولَم يَعْذِر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عَقْله ، فقال: ﴿ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِكُم ﴾ بالليل والنهار ، في البَر والبحر ، وفي السَّفَر والحضَر ، والغِنى والفقر ، والسَّقَم والصِّحة ، والسِّر والعلانية ، وعلى كل حال)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٨١):((﴿ فإذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ ﴾ يعني : صلاة الخوف، أي : فرغتُم مِنها ، ﴿ فَاذْكُرُوا اللهَ ﴾ أي : صَلُّوا للهِ ﴿ قِيَامًا ﴾ في حال الصِّحة ، ﴿ وَقُعُودًا ﴾ في حال المرض ، ﴿ وَعَلى جُنُوبِكُم ﴾ عند الحرَج والزَّمَانة (المرض الْمُزمِن).وقِيل: اذكروا الله بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد على كل حال)) اهـ . فإذا زالَ خَوْفُكم، وشعرتُم بالأمن والأمان ، وحصلت الطمأنينة (سُكون النَّفْس مِن الخوف)، فأتِمُّوا الصلاةَ وأقيموها كما أُمِرْتُم بسجودها وركوعها وشُروطها وأركانها وحُدودها وخُشوعها ، دون نقص ولا خَلَل ولا قَصْر .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٥٥) : ((﴿ فأقيموا الصَّلاةَ ﴾ ، أي: فأتوها بأركانها وبكمال هَيئتها في السَّفَر ، وبكمال عَدَدها في الحضَر)) اهـ . إن الصلاة كانت على المؤمنين فَريضةً واجبةً ، ومحدودة بأوقات مُعيَّنة . ويجب أداء كل صلاة في وقتها بلا تأخير ، ولا تلاعب ، ولا تغيير ، ولا كَسَل . وقد كَتب اللهُ الصلاةَ على عباده في أوقات محدودة ومخصوصة ، ولا يَجوز لأحدٍ أن يُصَلِّيَ في غَير وقت الصلاة إلا لِعُذرٍ شَرعيٍّ ، مِثل: النَّوم أو النِّسيان ، ونَحْوهما .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٧) : ((﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانتْ عَلى المؤمنينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ فَرْضًا محدود الأوقات،لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال. وهذا دليل على أن المراد بالذِّكر الصلاة ، وأنها واجبة الأداء حال الْمُسايَفة والاضطراب في المعركة ، وتعليل للأمر بالإيتاء بها كَيفما أمكن. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا يُصلِّي الْمُحَارِب حتى يَطمئن)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٨٧و١٨٨):((قَوله تعالى: ﴿ فإذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ ﴾ يعني صلاة الخوف،و﴿ قَضَيْتُمُ ﴾ بمعنى فَرَغْتُم . قَوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللهَ ﴾ في هذا الذِّكر قَولان: أحدهما أنه الذِّكر لله في غَير الصلاة،وهذا قول ابن عباس والجمهور،قالوا:وهو التسبيح والتكبير والدعاء والشُّكر . والثاني أنه الصلاة، فيكون المعنى : فصلوا قِيامًا ، فإن لَم تستطيعوا فَقُعودًا ، فإن لَم تستطيعوا فعلى جُنوبكم ، هذا قول ابن مسعود. وفي المراد بالطمأنينة قَولان : أحدهما أنه الرجوع إلى الوطن عن السَّفَر، وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة. والثاني أنه الأمن بعد

الخوف ، وهو قول السُّدي والزَّجاج وأبي سليمان الدمشقي . وفي إقامة الصلاة قَولان : أحدهما إتمامها، قاله مجاهد وقتادة والزَّجاج وابن قُتَيبة . والثاني أنه إقامة رُكوعها وسُجودها وما يجب فيها مِمَّا قد يُترَك في حالة الخوف ، هذا قول السُّدي . قَوله تعالى : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانتْ عَلى المؤمنينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ أي: فَرْضًا. وفي الموقوت قَولان: أحدهما أنه بمعنى المفروض،قاله ابن عباس ومجاهد والسُّدي. والثاني أنه الْمُوَقَّت في أوقات معلومة ، وهو قول ابن مسعود وقتادة وزيد أسلم وابن قُتَيبة)) اهـ .

ثالثًا : القِبلة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنا القِبلةَ التي كُنتَ عَلَيها إلا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ وإن كانت لَكَبِيرةً إلا على الذينَ هَدى اللهُ وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُم إنَّ اللهَ بالناسِ لَرَؤُوفٌ رحيم ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

إن حادثة تحويل القِبلة مِن بيت المقدس(القِبلة الأولى) إلى الكعبة المشرَّفة (القِبلة الثانية) كانت اختبارًا إلَهِيًّا لعباده المؤمنين وابتلاءً لهم ، لِيَعلم اللهُ مَن يَتَّبع النبيَّ ﷺ مِمَّن لا يتَّبعه ، ويَمِيز المؤمنين الصادقين أهل اليقين مِن أهل الشَّك والرِّيبة والقلق. وقد ارتدَّ بعض ضِعاف الإيمان بسبب تحويل القِبلة، وشَكُّوا في الإسلام، وارتابوا في أمر النبيِّ ﷺ، وأظهرَ كثيرٌ مِن المنافقين نفاقَهم بشكل علنيٍّ ، واستغلَ اليهود هذه الحادثة للطعن في النبيِّ ﷺ . ومَن ثَبَّته اللهُ على الحق وعَصَمَه بالهداية ، صَدَّقَ النبيَّ ﷺ وصلى معه إلى القِبلة الثانية، ومَن خَذَله اللهُ، شَكَّ في النبيِّ ﷺ، وارتدَّ عن الإسلام.

وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٢٧) : ((﴿ التي كُنتَ عَلَيها ﴾ أولاً، وهي الكعبة. وكان ﷺ يُصلِّي إليها ، فلمَّا هاجرَ أُمِرَ باستقبال بيت المقدس ، تَأَلُّفًا لليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهرًا، ثُمَّ حُوِّلَ)) اهـ .

واللهُ يَعلم كُل شيء قبل وُقوعه . وعِلْمُ الله صفة له ، وصفات الله قديمة قِدَم ذاته المقدَّسة . وهذا الامتحانُ الإلهيُّ (تحويل القِبلة) ليرى اللهُ ويَمِيز مَن يتَّبع الرسول في القِبلة ، مِمَّن يرتد عن الإسلام لاعتياده على قِبلة آبائه أو قلقه وضعف إيمانه . أي : يَرجع إلى الكفر شَكًّا في الدِّين ، وتكذيبًا للنبيِّ ﷺ ، واعتباره في حَيرة مِن أمره . وهكذا ، صارت حادثة تحويل القِبلة سببًا لهداية

قَوم ، وضلال آخرين . وهنا تتَّضح الحِكمة الإلهية في حادثة تحويل القِبلة . والأحكامُ الشرعية مبنية على المصالح والمنافع والحِكَم الجليلة إجمالاً وتفصيلاً .

وتحويلُ القِبلة أمرٌ عظيم في القلوب ، وشديد على النفوس ، وثقيل على الأذهان ، وشَاق على الناس . ولا يَقْدِر كُل الناس أن يَتحمَّلوه ويَستوعبوه . وهذه الحادثةُ صعبة وشاقَّة وثقيلة ، إلا على الذين هداهم اللهُ،وثبَّت اليقينَ في قلوبهم،فآمنوا إيمانًا راسخًا بِوَحدانية اللهِ وصِدْق محمدﷺ.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٥٨) : ((يقول تعالى : إنما شَرَعْنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثُمَّ صرفناكَ عنها إلى الكعبة ، لِيَظهر حال مَن يَتَّبعك ويُطيعك ويَستقبل معك حيثما تَوَجَّهْتَ مِمَّن ينقلب على عَقِبَيْه ، أي: مُرْتَدًّا عن دِينه . ﴿ وإن كانت لَكَبِيرةً ﴾ أي : هذه الفَعْلة وهو صَرْف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيمًا في النفوس، إلا على الذين هدى اللهُ قلوبهم ، وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مِرْية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويَحكم ما يُريد ، فله أن يُكلِّف عباده بما شاء ، ويَنسَخ ما يشاء ، وله الحِكمة التامة والْحُجَّة البالغة في جميع ذلك ، بِخِلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدثَ لهم شَكًّا ، كما يحصل للذين آمنوا إيقانٌ وتصديق)) اهـ .

﴿ وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُم ﴾ . تتجلى رحمة الله بعباده ، ويتَّضح فضلُه العظيم عليهم . فالذينَ ماتوا وهُم يُصَلون إلى بيت المقدس (قبل حادثة تحويل القِبلة) ، لَن يُضِيعَ اللهُ أجرَهم ، ولَن يَمحوَ ثوابَهم . إن أجر صلاتهم محفوظ ، وثوابهم مُسجَّل لهم كاملاً غَير مَنقوص . وقد شَكَرَ اللهُ فِعلهم الجميل ، ومَدَحَ عبادتهم وطاعتهم ، وأعدَّ لهم الأجر العظيم والثواب الجزيل والنعيم الدائم. إنهم تَوَجَّهوا إلى بيت المقدس تطبيقًا لأمر اللهِ وطلبًا لرضاه،وتصديقًا للنبيِّ ﷺ، لذلك سَيَمنحهم اللهُ أجرَهم كاملاً. ولَن يُضِيع اللهُ صلاتهم إلى بيت المقدس وتصديقهم بالقِبلة الأولى .

وقد سمَّى اللهُ الصلاةَ إيمانًا ، لاشتمالها على نِيَّة وقَول وعمل. وهذه هي حقيقة الإيمان (ما وَقَرَ في القلب ، وصدَّقه اللسان، وظَهَر على الجوارح). والآية تردُّ على الْمُرجئة الذين قالوا إن الصلاة ليست من الإيمان. إن الصلاة هي المظهر الأسمى للإيمان، وأعظم نتائجه ، وأشرف تجلياته .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٥٨) : ((وذلك أن حُيَي بن أخْطَب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس ، إن كانت هُدًى فقد تحولتم عنها ، وإن كانت ضلالة فقد دِنتُم الله بِها ، ومَن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة ، فقال

المسلمون : إنما الهدى ما أمر الله به، والضلالة ما نهى الله عنه . قالوا : فما شهادتكم على مَن مات مِنكم على قِبلتنا ؟، وكان قد مات قبل أن تُحوَّل القِبلة من المسلمين أسعد بن زُرارة مِن بني النجار ، والبراء ابن مَعرور من بني سَلَمة، وكانوا مِن النُّقباء، ورجال آخرون، فانطلق عشائرهم إلى النبيِّ ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله، قد صَرَفَكَ اللهُ إلى قِبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهُم يُصَلون إلى بيت المقدس ؟، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُم ﴾ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس)) .

إن صفة اليهود_في كل زمان ومكان_الاصطياد في ماء أفكارهم العَكِر ، واستغلال أيِّ موقف أو حادثة لصالحهم.فقد استغلوا حادثة تحويل القِبلة للطعن في الإسلام،وتكذيب النبيِّﷺ، وتشكيك المسلمين بِدِينهم . والمسلمون مُتمسِّكون بِدِينهم ، وقد ذَهَبوا إلى النبيِّ ﷺ لسؤاله عن الشُّبهة التي أثارها اليهود ، ومِن أجل الاطمئنان على مصير المسلمين الذين ماتوا وهُم يُصلون إلى بيت المقدس.

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما_ قال: لَمَّا وُجِّهَ رسول الله ﷺ إلى الكعبة، قالوا : يا رسول الله ، فكيفَ بالذين ماتوا وهُم يُصَلون إلى بيت المقدس ؟ ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُم ﴾ إلى آخر الآية (42).

وهذا يدل على رحمة الله ، وكَرَمه ، وفضله ، وإحسانه إلى عباده . ومعنى الآية : وما كانَ اللهُ لِيُضيع صلاتكم إلى بيت المقدس ، فهو كريمٌ عادل ، يُجازي المحسِن بإحسانه ، ولا يَمحو أجْرَه وثوابَه ، لأن هذا ظُلم ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن الظلم . إن أجركم محفوظ ، ولا يُنقَص مِنه شَيء . وقد خُوطِبوا تغليبًا للأحياء. وقد سمَّى اللهُ الصلاةَ إيمانًا، لأنها أعظم مظاهر الإيمان ، وأفضل نتائجه. وهذا دليل واضح على أن الصلاة مِن أُسس الإيمان .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ١٤٩) : ((وأمَّا إطلاق اسم الإيمان على الأعمال فَمُتَّفق عليه عند أهل الحق، ودلائله في الكتاب والسُّنة أكثر مِن أن تُحصَر، وأشهر مِن أن تُشهَر . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُم ﴾ . أجمعوا على أن المراد "صلاتكم " ... . واتَّفقَ أهل السُّنة مِن المحدِّثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذى يُحكَم بأنه مِن أهل القِبلة ، ولا يَخلُد في النار لا يكون إلا مَن اعتقد بقلبه دِين الإسلام ، اعتقادًا جازمًا خاليًا مِن

(٤٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٥) برقم (٣٠٦٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الشكوك ، ونطق بالشهادتين ، فإن اقتصر على إحداهما لَم يكن مِن أهل القِبلة أصلاً ، إلا إذا عَجَزَ عن النُّطق لخلل في لسانه ، أو لعدم التمكن مِنه لِمُعاجَلة الْمَنِيَّة ، أو لغير ذلك ، فإنه يكون مؤمنًا . أمَّا إذا أتى بالشهادتين ، فلا يُشترَط معهما أن يقول : وأنا بريء مِن كُل دِين خالفَ الإسلام ، إلا إذا كان من الكفار الذين يعتقدون اختصاص رسالة نَبِيِّنا ﷺ إلى العرب ، فإنه لا يُحكَم بإسلامه إلا بأن يَتبرَّأ . وَمِن أصحابنا أصحاب الشافعي ـ رحمه الله ـ مَن شَرَطَ أن يتبرأ مُطْلَقًا ، وليس بشيء. أمَّا إذا اقتصر على قَوله: لا إله إلا الله، ولَم يَقُل : محمد رسول الله ، فالمشهور مِن مذهبنا ومذاهب العلماء أنه لا يكون مسلمًا . ومِن أصحابنا مَن قال : يَكون مسلمًا ويُطالَب بالشهادة الأخرى ، فإن أبى جُعِل مُرْتَدًّا)) اهـ .

﴿ إنَّ اللهَ بالناسِ لَرَؤُوفٌ رحيم ﴾ . الرأفة هي مُنتهى الرحمة ، وأرق مِنها . واللهُ لا يُضِيع ثوابَ المؤمنين، ولا يَمحو أجرَهم ، ولا يُبْطِل صلاحهم وتَقواهم وأعمالهم الصالحة . ومَن قَدَّمَ عملاً صَالِحًا سيجده في اليوم الآخِر ، كاملاً غير منقوص . وكُل شيء مكتوب ومحفوظ .

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ١٧٤) : ((﴿ إنَّ اللهَ بالناسِ لَرَؤُوفٌ رحيم ﴾ تحقيق وتقرير للحُكم ، وتعليل له . فإن اتِّصافه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بهما يقتضي لا مَحالة أن لا يُضِيع أجورهم ، ولا يَدَع ما فيه صلاحهم . والباء متعلقة برؤوف . وتقديمه على ﴿ رحيم ﴾ مَعَ كَوْنه أبلغ مِنه ، لِمَا مَرَّ في وجه تقديم " الرحمن " على " الرحيم ". وقِيل : الرحمة أكثر مِن الرأفة في الكَمِّية ، والرأفة أقوى مِن الرحمة في الكيفية ، لأنها عبارة عن إيصال النِّعَم الصافية عن الآلام ، والرحمة إيصال النِّعمة مُطْلَقًا ، وقد يكون مع الألم كقطع العُضو المتآكل)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنا القِبلةَ التي كُنتَ عَلَيها ﴾ ، يُريد قِبلة بيت المقدس ، ﴿ إلا لِنَعْلَمَ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها لِنَرى ، والثاني : لِنَمِيز، رُوِيَا عن ابن عباس. والثالث لِنَعلمه واقعًا، إذْ عِلْمه قديم، قاله جماعة من أهل التفسير، وهو يرجع إلى قول ابن عباس: لِنَرى. والرابع أن العِلم راجع إلى المخَاطَبِين،والمعنى: لِتَعلموا أنتم، قاله الفرَّاء. قَوله تعالى : ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ ﴾ أي : يرجع إلى الكفر، قاله ابن زيد ومقاتل . قَوله تعالى : ﴿ وإن كانت لَكَبِيرةً ﴾ في الْمُشار إليها قَولان : أحدهما أنه التَّولية إلى الكعبة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل. والثاني أنها قِبلة بيت المقدس قبل التَّحول عنها، قاله أبوالعالية والزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُم ﴾ ... . قال الفرَّاء : وإنما أُسنِد الإيمان إلى الأحياء مِن المؤمنين ، والمعنى فِيمَن مات من المسلمين قبل أن تُحَوَّل القِبلة ، لأنهم داخلون

معهم في المِلَّة ... . والرَّؤوف بمعنى الرحيم ، هذا قول الزَّجاج . وذَكَر الخطابي عن بعض أهل العِلم أن الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها . قال : وَيُقال : الرأفة أخص ، والرحمة أعم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلةً تَرْضَاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحرامِ وَحَيْثُ مَا كُنتم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ وإنَّ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحقُّ مِن رَبِّهِم وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

عندما هاجرَ النبيُّ ﷺإلى المدينة،كان أكثر أهلها من اليهود.وقد أمرَه اللهُ بالصلاة نحو بيت المقدس استمالةً لقلوب اليهود وتألُّفًا لهم ، وقد يُؤدِّي هذا إلى إيمانهم وتصديقهم للنبيِّ ﷺ معَ ما يجدونه مِن وَصْفه في التوراة . وقد فرحت اليهودُ بذلك ، لأن النبيَّ ﷺ تَوَجَّهَ إلى قِبلتهم . وصلى النبيُّ ﷺ نحو بيت المقدس بضعة عشر شهرًا. وكان يُحِبُّ أن يُصَلِّيَ نحو الكعبة ، لأنها قِبلة أبيه إبراهيم ﷺ، ومُخَالَفَةً لليهود، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مركزهم الدينيِّ وفخرهم ومجدهم ومَطافهم.وكان النبيُّ ﷺ يَدعو اللهَ بذلك،ويُحوِّل وجهه إلى السماء، وينظر إليها. والسماءُ مختصة بالتعظيم والبهاء. وفي تفسير البغوي (١/ ١٦١) : ((قال مجاهد : كان يُحِب ذلك _ التوجه للكعبة _ لأجل اليهود ، لأنهم كانوا يَقولون : يُخالفنا محمد ﷺ في دِيننا ، ويَتَّبع قِبلتنا. فقال لجبريل عليه السلام : وَدِدْتُ لَوْ حَوَّلني اللهُ إلى الكعبة ، فإنها قِبلة أبي إبراهيم عليه السلام ، فقال جبريل : إنما أنا عبد مِثْلُك، وأنتَ كريم على ربك، فَسَلْ أنتَ ربك، فإنك عند الله عز وجل بمكان ، فرجع جِبريل عليه السلام، وجعل رسول الله ﷺ يُديم النظر إلى السماء رجاء أن يَنْزل جبريل بما يحب مِن أمر القِبلة)) .

لقد استجابَ اللهُ دعاءَ النبيِّ ﷺ ، وحَقَّقَ رغبته . وقد خاطبه اللهُ قائلاً : إننا نرى تردُّد وجهك يا محمد في جهة السماء تَطَلُّعًا للوَحْي، فَلَنَجْعَلَنَّكَ مُتَوَلِّيًا إلى جهة الكعبة في الصلاة. أي: فَلَنُحَوِّلَنَّكَ إلى قِبلةٍ تُحِبُّها وتَهْواها وتُفْرِحُك وتتشوَّق إليها لأسباب دِينية.وقد وافقت رغبةُ النبيِّ ﷺ مشيئةَ الله وحِكمته البالغة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٠) : ((وكان رسول الله ﷺ يقع في رُوعِه (نَفْسِه)، ويتوقع مِن رَبِّه أن يُحوِّله إلى الكعبة، لأنها قِبلة أبيه إبراهيم، وأقدم القِبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولَم يسأل)) اهـ .

فَحَوِّلْ وجهكَ يا محمد ناحيةَ المسجد الحرام وجهته . يعني : فلتكن صلاتك باتجاه الكعبة المشرَّفة . وقد ذُكِر المسجد الحرام دُون الكعبة ، لأن النبيَّ ﷺكان في المدينة . والبعيدُ يَكفيه

استقبال ناحية الكعبة لا عَيْنِها ، لأن هذا مُحَال وشاق ، وفيه حَرَج كبير . واستقبالُ عَيْن الكعبة فَرْض على الْمُصَلِّي الْمُعَايِن (الذي يَراها) . أمَّا الذي لا يَراها ، فإنه يُصَلِّي ناحيتها ، ويستخدم الوسائل للاستدلال على ناحيتها وجهتها واتِّجاهها. وحيث ما كُنتم أيها المؤمنون (في البَر أو البحر ، في الشرق أو الغرب) ، فَتَوَجَّهُوا ناحيةَ الكعبة في صلاتكم، وصلوا باتجاهها . وتَمَّ تخصيص النبيِّ ﷺ بالخطاب تعظيمًا له ، وتشريفًا لمكانته ، وتنويهًا بفضله ، فهو قائد المؤمنين وزعيمهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٠): ((خُصَّ الرسول بالخطاب تعظيمًا له، وإيجابًا لرغبته،ثُمَّ عُمِّمَ تصريحًا بِعُموم الْحُكم ، وتأكيدًا لأمر القِبلة ، وتحضيضًا للأُمَّة على الْمُتَابَعَة)) اهـ.

وإن أهل الكتاب لَيَعلمون أن تحويل القِبلة إلى جهة الكعبة حَق وصِدق. ومصدر عِلْمُ أهل الكتاب إمَّا أن يكون بَلَغهم مِن أنبيائهم ، أو كُتبهم الدينية .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٢٣٨) : ((وعِلم أهل الكتاب بذلك ، إمَّا لِكَوْنه قد بَلَغهم عن أنبيائهم ، أو وجدوا في كُتب الله المنْزلة عليهم أن هذا النبيَّ يَستقبل الكعبة ، أو لِكَوْنهم قد عَلِموا مِن كُتبهم أو أنبيائهم أن النَّسْخ سيكون في هذه الشريعة ، فيكون ذلك مُوجِبًا عليهم الدخول في الإسلام ، ومُتابعة النبيِّ ﷺ)) اهـ .

﴿ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون ﴾.إن الله يَعلم كُل شَيء، ولا تخفى عليه خافية، يُمهِل ولا يُهْمِل. يَعلم أفعالَ العباد ، ولا يَغفُل عنها . ويَعلم أفعالَ اليهود السَّيئة ، وسَيُجازيهم عليها في الدنيا والآخرة . والآيةُ تحمل معنى الوعيد الأكيد والتهديد الشديد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٦و١٥٧) : ((قَوله تعالى: ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ ﴾ . سبب نزولها أن النبيَّ ﷺ كان يُحِب أن يُوجَّه إلى الكعبة، قاله البراء وابن عباس وابن المسيِّب وأبو العالية وقتادة ، وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية مُقدَّمة في النُّزول عَلى قَوله تعالى : ﴿ سيقولُ السُّفهاءُ مِنَ الناسِ ﴾ [البقرة : ١٤٢]. واختلفوا في سبب اختيار النبيِّ الكعبة على بيت المقدس على قَولين: أحدهما أنها كانت قِبلة إبراهيم ، رُوِيَ عن ابن عباس. والثاني لمخالفة اليهود ، قاله مجاهد . ومعنى تقلب وجهه نظره إليها يمينًا وشمالاً . و ﴿ في ﴾ بمعنى " إلى " . و﴿ تَرْضَاها ﴾ بمعنى : تُحِبها . والشَّطْر النَّحْو ، مِن غَير خِلاف . قال ابن عُمر : أتى الناسَ آتٍ ، وهُم في صلاة الصبح بِقُباء ، فقال : إن رسول الله ﷺ قد أُنزِل عليه الليلة قُرآن ، وأُمِرَ أن يستقبل الكعبة ، ألا فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا وهُم في صلاتهم . فَصْل: اختلفَ العلماء أي وقت حُوِّلَت القِبلة على ثلاثة أقوال : أحدها أنها حُوِّلَت في صلاة

الظهر يوم الاثنين للنصف من رجب ، على رأس سبعة عشر شهرًا مِن مَقْدَم رسول الله المدينة ، قاله البراء بن عازب ومَعقِل بن يَسار . والثاني أنها حُوِّلت يوم الثلاثاء للنصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا مِن مَقْدَمه المدينة ، قاله قتادة . والثالث أنها حُوِّلت في جُمادى الآخِرة ، حكاه ابن سلامة المفسِّر عن إبراهيم الحربي . وفي ﴿ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ قَولان : أحدهما اليهود ، قاله مقاتل . والثاني اليهود والنصارى ، قاله أبو سليمان الدمشقي . قَوله تعالى : ﴿ لَيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحقُّ ﴾ يُشير إلى ما أُمِرَ به مِن التَّوَجُّه إلى الكعبة، ثُمَّ توعَّدهم بباقي الآية على كِتمانهم ما عَلِموا.وَمِن أين عَلِموا أنه الحق؟، فيه أربعة أقوال : أحدها أن في كتابهم الأمر بالتوجه إليها ، قاله أبو العالية . والثاني يَعلمون أن المسجد الحرام قِبلة إبراهيم . والثالث أن في كتابهم أن محمدًا رسول صادق ، فلا يأمر إلا بحق . والرابع أنهم يَعلمون جواز النَّسْخ)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (١/ ١٥٥) : عن البراء بن عازب_ رضي اللهُ عنهما _ قال : كان رسولُ الله ﷺ صلى نَحْوَ بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ أن يُوَجَّه إلى الكعبة ، فأنزلَ اللهُ :﴿ قد نرى تقلبَ وجهك في السماء ﴾ [البقرة : ١٤٤]. فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الكعبة . وقال السُّفهاء مِن الناس وهُم اليهود : ﴿ ما وَلاَّهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها ﴾ . ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [البقرة : ١٤٢] . فصلى مع النبيِّ ﷺ رَجل ، ثُمَّ خَرج بعدما صلى ، فَمَرَّ على قَوم من الأنصار في صلاة العصر ، نَحْوَ بيت المقدس ، فقال وهو يَشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ، وأنه تَوَجَّهَ نَحْوَ الكعبة، فَتَحَرَّفَ القَوْمُ ، حتى تَوَجَّهُوا نَحْوَ الكعبة .

إن الله تعالى قادرٌ على جعل الكعبة هي القِبْلة الأولَى مُباشَرةً،دون الحاجة للتَّوَجُّه إلى بيت المقدس، لكنَّه _ تعالى _ أراد ترسيخ الترابطَ الحتميَّ والمصيري بين هذين المسجدين (المسجد الحرام والمسجد الأقصى)، من أجل توجيه رسالة إلى المسلمين باستحالة فَكِّ الارتباط بين القِبْلتين مهما حصل، ومَن يُفرِّط بالمسجد الأقصى فهو مُفرِّط بالكعبة ، خالعًا الانتماء للإسلام ، وراميًا قداسة القِبْلة وراء ظَهْره . ومن خلال هذا التأصيل لا ينبغي النظر إلى فلسطين كبلد مُحْتَل، وانتهى الأمر.بل يُنظَر إليها كَوَقْفٍ عَرَبِيٍّ إسلاميٍّ حاضن للقِبْلة الأُولَى ، والْمَسْرَى النبويِّ الشريف ، ومكان العُروج إلى السماوات العُلى . وهذه الطبيعة الإيمانية الخالصة والخاصَّة بفلسطين تجعل منها جزءًا من العقيدة ، وقضيةً إسلاميةً عالمية ، وليست أرضًا ولاجئين وقرارات الأمم المتحدة . وبالتالي ينبغي الانتباه إلى مكانة فلسطين في العقيدة الإسلامية ، لا قرارات شرعية الوهم الدولية .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَئِن أَتَيْتَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ بِكُلِّ آيةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وما أنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُم وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهُم مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إنَّكَ إذًا لَمِنَ الظالمين ﴾ [البقرة : ١٤٥] (43).

لَوْ قَدَّمَ النبيُّ محمد ﷺ لليهود والنصارى كُل الأدلة والْحُجَج والبراهين على صِدقه وصِحَّة نُبُوَّته،وأنه مُؤيَّد بالوَحْي الإلهيِّ،وأن التوجه إلى الكعبة هو الحق، ما صَدَّقوه ولا آمنوا بِه، ولا اتَّبعوا قِبلته . وسَوْفَ يُكذِّبونه ، ويَكفرون بما جاء بِه مِن عِند الله تعالى، ويتَّبعون أهواءهم ومصالحهم الشخصية، معَ قيام الْحُجَّة عليهم ، وانقطاع أعذارهم ، وعِلمهم بما في كُتبهم الدينية مِن وَصْف محمد ، وأنه نبيٌّ صادق على منهج الحق . لقد كفروا بالحق بعد ظُهوره لهم ويَقينهم به ، لذلك لا تَنفعهم الآيات ولا المعجزات ولا البراهين.وهذا يدل على قَسوة قلوبهم،وعنادهم الشديد،ورفضهم للحق مهما كانت الظروف. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٢): ((والمعنى : ما تركوا قِبلتك لِشُبهة تُزيلها بالْحُجَّة ، وإنما خالفوك مُكابرةً وعِنادًا)) اهـ .

وهذه الآيةُ تُخفِّف عن النبيِّ ﷺ ، وتُسلِّيه، وترفع معنوياته . فهؤلاء الكافرون لا تُؤثِّر فيهم آية، ولا يَعتنقون الحقَّ ، ولو جاءهم النبيُّ ﷺ بكل الآيات والمعجِزات . إن رفضهم للحق مبنيٌّ على التمرد والعِناد والعِلم ، وليس مبنيًّا على الجهل والشُّبهات. ومَن كان هذا حاله ، فلن يَستفيد من النصائح والمواعظ والأدلة والبراهين ، ولن يُؤثِّر فيه الترغيب ولا الترهيب . إن كُفرهم قائم على موقف مسبق وقناعة ذاتية ، سواءٌ ظَهَرَ لهم الحق أَم لَم يَظهر . فلا فائدة مِنهم ولا أمل فيهم .

والنبيُّ ﷺ مُتمسِّك بالحق وثابت على المبدأ، وملتزم بالوَحْي الإلهيِّ.وكما أن اليهود متمسكون بآرائهم وأهوائهم ومصالحهم ، فالنبيُّ ﷺ أيضًا مُتمسِّك بأوامر اللهِ تعالى في كل صغيرة وكبيرة .

والآيةُ : ﴿ وما أنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُم ﴾ لفظ خبر ، لكن معناها الأمر . أي : اثبُت يا محمد على الحق، والتزم بأوامر الله وطاعته ، ولا تتَّبع أهواءَ اليهود ، ولا تتَّبع قِبلتهم ، ولا تخضع لرغباتهم

(٤٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٨) : ((سبب نزولها أن يهود المدينة ونصارى نَجْران قالوا للنبيِّ: ائتنا بآية كما أتى الأنبياء قَبْلك، فَنَزلت هذه الآية. قاله مقاتل. قَوله تعالى: ﴿ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ ، يُريد الكعبة . ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ ، لأن اليهود يُصَلون قِبَل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قِبَل المشرق. ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهُم ﴾ فصليتَ إلى قِبلتهم،﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ . قال مُقاتل : يُريد بالعِلم البيان)) .

وآرائهم، ولا تستسلم لأمزجتهم، ولا تتأثر بطعنهم وكلامهم وضلالهم. وهذا يَقطع طَمَعَ النبيِّ ﷺ في إسلام اليهود،كما يَقطع طمع اليهود الطامحين إلى رجوع النبيِّ ﷺ إلى قِبلتهم (بيت المقدس). وَوُحِّدت القِبلة : ﴿ قِبْلَتَهُم ﴾ معَ أن أهل الكتاب لهم قِبلتان : قِبلة لليهود ، وقِبلة للنصارى ، لاتحادهم في الضلال والبُطلان.وقال البيضاوي في تفسيره (١/٤٢٢):((﴿وما أنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُم﴾ قَطْع لأطماعهم ، فإنهم قالوا : لو ثبت على قِبلتنا لَكُنَّا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره ، تغريرًا له، وطمعًا في رُجوعه، وقِبلتهم وإن تعدَّدت ، لكنها مُتَّحدة بالبُطلان ومخالفة الحق)) اهـ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٢٣٩) : ((وقَوله : ﴿ وما أنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُم ﴾ هذه الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النَّهْي مِن الله سُبحانَه لِنَبِيِّه ﷺ : أي: لا تَتَّبِع يا محمد قِبلتهم . ويمكن أن يكون على ظاهره دفعًا لأطماع أهل الكتاب ، وقطعًا لِمَا يَرجونه مِن رُجوعه ﷺ إلى القِبلة التي كان عليها))اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٦٥): ((وقَوله: ﴿ وما أنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُم ﴾ ، إخبار عن شِدَّة مُتابَعة الرسولﷺلِمَا أمَرَه الله تعالى بِه،وأنه كما هُم مُستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضًا مُستمسك بأمر الله وطاعته واتِّباع مَرضاته ، وأنه لا يَتَّبِع أهواءهم في جميع أحواله ، ولا كَوْنه مُتَوَجِّهًا إلى بيت المقدس لِكَوْنها قِبلة اليهود ، وإنما ذلك عَن أمر الله تعالى)).

﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ . أهل الكتاب (اليهود والنصارى) غارقون في الحقد والكراهية والتناقض والتنازع والاختلاف والعداوة. فاليهودُ لا يتَّبعون قِبلة النصارى، والنصارى لا يتَّبعون قِبلة اليهود. إذ إن اليهود يستقبلون بيت المقدس (المغرب) ، والنصارى تستقبل مطلع الشمس (المشرق) . ولا يُمكن أن يتَّفقوا فيما بينهم ، كما أنهم لَن يَتَّفقوا على التوجُّه إلى قِبلة المسلمين (الكعبة)، بسبب تشدُّد أهل الكتاب وعنادهم ومُكابرتهم . وأهلُ الكتاب يعتقدون أنهم على الحق، وأنهم شعب الله المختار . وفي الحقيقة، إنهم على الباطل ، ودِينهم قائم على الضلال والتناقض والأهواء الذاتية والمصالح الشخصية .

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهُم مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إنَّكَ إذًا لَمِنَ الظالمين ﴾ . ولَئِن اتَّبعتَ أهواءهم يا محمد بعد ظُهور العِلم ، ووُضوح الْحُجَّة ، ومعرفة أن القِبلة هي الكعبة ، وأن الإسلام هو الدين الحق ، إنَّكَ إذًا لِمَن الظالمين الذين ارتكبوا الظلمَ الشنيع ، والإثم الفاحش .

هذا تهديدٌ ووعيد، وتحذيرٌ إلهيٌّ شديد عن ترك الحق واعتناق الباطل . فإن التشديد على العالِم أكبر من التشديد على الجاهل ، لأن الْحُجَّة على العالِم قائمة وأقْوَم مِن غَيره . والخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ ، والمراد أُمَّته ، لأن النبيَّ ﷺ مَعصوم مِن الكفر والضلال واتِّباع الهوى .

وُوُجِّه الخطاب للنبيِّ ﷺ لأنه قائد الأُمَّة وزعيمها ، وحامل الوَحْي الإلهيِّ ، وتعظيمًا للأمر ، وبيانًا لشدته . وإذا كانَ اللهُ تعالى يُخاطِب النبيَّ ﷺ ويُحذِّره مِن اتِّباع أهواء الكافرين بعد العِلم ، وهو النبيُّ الكامل المعصوم ، سَيِّد المخلوقات ، فما بالُك بمن هُم دُونه ؟ . وكُل الناس دُونه وتحته وأقل مِنه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٢) : ((جَعْله مِن ﴿ الظالمين ﴾ ولَم يَقل : إنك ظالِم ، لأن في الاندراج معهم إيهامًا بحصول أنواع الظلم. والتقييد بمجيء العِلم تعظيمًا للحق المعلوم ، وتحريضًا على اقتفائه ، وتحذيرًا عن مُتابعة الهوى ، واستفظاعًا لصدور الذنب عن الأنبياء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أيْنَ ما تَكونوا يَأتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

ولكل أصحاب دِين قِبلة يَستقبلونها في صلاتهم، ويتوجَّهون إليها ، إمَّا بحق أو باطل . فاليهودُ لهم قِبلة، والنصارى لهم قِبلة، وقد هداكم اللهُ أيها المسلمون إلى قِبلتكم، وأضلَّ اليهودَ والنصارى، فبادروا بالأعمال الصالحة ، واحرصوا على الطاعات ، واسبقوا غَيْركم في القُرُبات والعبادات والفوز بالجنة، واشكروا اللهَ على فضله ونِعمه وهدايته لكم، وحافظوا على صلاتكم في أول وقتها، وتمسَّكوا بِقِبلتكم ، ولا تُضيِّعوها كما ضيَّعتها الأمم مِن قَبلكم ، فتضلوا كما ضَلوا ، وتَكفروا كما كفروا . ولا طاعة ولا فضل ولا نجاة في الدنيا والآخرة إلا بإخلاص العبادة لله وَحْدَه ، واتِّباع النبيِّ ﷺ ، قَولاً وفِعلاً .

والأمرُ الإلهيُّ : ﴿ فاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ يُفيد الوجوب . فيجب وُجوبًا شرعيًّا الْمُسارَعة إلى عبادة الله وطاعته . وقال ابن حزم في الإحكام (٣/ ٣٠٧) : ((وقد قَدَّمْنا أن أوامر الله تعالى على الوُجوب ، فإذا أَمَرَنَا تعالى بالاستباق إلى الخيرات والْمُسارَعة إلى ما يُوجِب المغفرة ، فقد ثبت وجوب البِدار إلى ما أَمَرَنَا به ساعة وُرود الأمر ، دُون تأخُّر ولا تردُّد)) اهـ .

في أيِّ مكان في هذا العالَم تكونون فِيه ، فإن الله سَيَأتي بكم يوم القيامة للحساب والجزاء ، فإمَّا الثواب وإمَّا العقاب . واللهُ يُجازي المحسِن بإحسانه ، والمسِيء بإساءته . واللهُ قادرٌ على جمعكم من الأرض بعد الموت والبِلى ، وإن تفرَّقت أجسادكم ، وتحلَّلت أجزاؤكم . أو : إن اللهَ يَجمعكم إلى جهة واحدة (جهة القِبلة) أينما كُنتم في هذا العالَم ، ومهما تفرَّقت بلادكم وجِهاتكم .

واللهُ لا يُعجِزه شيء. قُدرته مُطْلقة ونافذة في كُل شيء. وقادرٌ على الإماتة والبعث من القبور.

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٠) : ((وإنما حَضَّ اللهُ عز وجل المؤمنين بهذه الآية على طاعته والتزود في الدنيا للآخرة، فقال جَل ثناؤه لهم : ﴿ فاسْتَبِقُوا ﴾ أيها المؤمنون إلى العمل بطاعة ربكم، ولُزوم ما هداكم له مِن قِبلة إبراهيم خَليله وشرائع دِينه ، فإن الله تعالى ذِكْرُه يأتي بكم وَبِمَن خالفَ قِبلتكم ودِينكم وشريعتكم جميعًا يوم القيامة ، مِن حَيث كُنتم مِن بقاع الأرض ، حتى يُوَفِّيَ المحسِن منكم جزاءه بإحسانه ، والمسيء عقابه بإساءته ، أويتفضل فيصفح . وأمَّا قَوله : ﴿ إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ ، فإنه تعالى ذِكْرُه يعني : إن الله تعالى على جَمعكم ــ بعد مَماتكم ــ مِن قبوركم إليه ، مِن حيث كُنتم وكانت قبوركم ، وعلى غَير ذلك مِمَّا يَشاء قدير، فَبَادِروا خروج أنفسكم بالصالحات من الأعمال قبل مَماتكم ، ليوم بعثكم وحشركم)) اهـ .

رابعًا : المساجد

١ــ مكانتها وحُرمتها :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مَساجدَ اللهِ أن يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وسعى في خَرابِها أُولئكَ ما كانَ لهم أن يَدْخُلوها إلا خائفينَ لهم في الدُّنيا خِزْيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيم﴾ [البقرة: ١١٤]. لا أحد أظلم وأسوأ مِمَّن مَنع الناسَ مِن الصلاة في المساجد ، ومَنع ذِكرَ الله فيها والعِلمَ والتعلمَ ، وعمل جاهدًا لهدم المساجد وتعطيلها ، والقضاء على مكانتها ، وإلغاء دورها الإيماني . وهذا عام وشامل لكل مَن خرَّب مسجدًا ، أو سعى في تدمير مكان الصلاة والعبادة . والعِبرةُ بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب . والآيةُ تدل على عَظَمَة المساجد ، وشرفها ، وفضل العبادة فيها ، وتُحذِّر من هدمها أو تخريبها أو تعطيلها .

أولئك المانعون كان الواجب عليهم أن يَدخلوا المساجدَ بخوف وخُشوع وخُضوع ، لا أن يَقوموا بتخريبها . أو : أولئك المانعون ما كان لهم أن يَدخلوا المساجدَ إلا خائفين من قوة المسلمين وبأسهم . وهذا خبر يكون بمعنى الأمر : أخيفوا أيها المؤمنون هؤلاء المانعين بالجهاد والسَّيف ، فلا يَدخلها أحدٌ آمِنًا . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٥) : ((ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بِخَشية وخُشوع فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها ، أو : ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يَبطشوا بهم فضلاً عن أن يمنعوهم منها ، أو : ما كان لهم في عِلم الله وقضائه ، فيكون وعدًا للمؤمنين بالنُّصرة ، واستخلاص المساجد مِنهم ، وقد نَجَزَ وَعْدُه . وقِيل : معناه النَّهْي عن تمكينهم مِن الدخول في المسجد . واختلف الأئمة فيه ، فَجَوَّز أبو حنيفة ، ومنع مالك ، وفَرَّق الشافعي بين المسجد الحرام وغَيره)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٧٤) : ((إذا استولى عليها المسلمون _ أي المساجد _ وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها، فإن دخلوها فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم وتأديبهم على دخولها . وفي هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد)) .

لهم في الدنيا هَوَان يتمثَّل في القتل والسَّبْي والجِزية . والقتل للحربي ، والجِزية للذِّمي . ولهم في الآخرة عذاب عظيم في نار جهنم بسبب كفرهم وظُلمهم .

إن هؤلاء المانعين الذين يُناصبون مساجدَ الله العَداء ، يكون المسجدُ_ بالنسبة إليهم _ سِجْنًا يريدون أن لا يدخلوه ، وإذا دخلوه فسيبقون خائفين غير مرتاحين نفسِيًّا ، لأنهم يفتقدون إلى الطمأنينة ولا يشعرون بهدوء الأعصاب ، ويريدون الهروب منه بأسرع وقت ممكن .

ومنعُ الصلاة والطاعة والعبادة وذِكر الله إعلانُ حرب على المساجد (بيوت الله) ، وهذا يعني مُحارَبة الله تعالى . وهذا دليلٌ واضح على حجم الانتكاسة التي وصل إليها الفرد الطامح إلى محاربة الشريعة عبر خنق المساجد وتحجيمها ومحاصرتها . فالمسجدُ ذو مركزية عظيمة في المجتمع الإسلامي ، وإذا تم إبعاده عن صناعة القرار ، فإن المجتمع سيفقد بوصلته ، ويتحول إلى كيان مسخ بلا هُوِيَّة ولا وُجهة. وهذا ما يطمح إليه أعداء الشريعة في كل زمان ومكان_ مهما اختلفت أسماؤهم أو أديانهم _ . كما أن السَّعْي في خراب المساجد يرمي إلى إطفاء جَذوة الإيمان ، وجعل المجتمع بلا منارة هداية ، وتجريد الأفراد من الضوء الهادي الذي يرشدهم إلى الطريق . فالمسجدُ ليس بناءً محصورًا في رُقعة جغرافية ، إنه نظام حياة كامل تنتشر أفكارُه في صميم المجتمع الإنساني لإنقاذ الفرد والجماعة ، وإعادة بناء المصطلحات الاجتماعية وَفْق منظور إيماني راسخ ، وعلاج الأزمات التي تعصف بوجدان الإنسان وحياة المجتمع ، وتطهير الجماعة البشرية من أمراضها الروحية ، وانتشالها من متاهاتها ومشكلاتها المتكاثرة .

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٢٠٤) : ((هذا الاستفهام _ ﴿ وَمَن أظلمُ ﴾ _ فيه أبلغ دَلالة على أن هذا الظلم مُتناهٍ ، وأنه بمنْزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم. أي لا أحد أظلم مِمَّن مَنع مساجدَ الله ﴿ أن يُذكر فيها اسمه ﴾ ... والمراد بمنع المساجد أن يُذكر فيها اسم الله ، منع مَن يأتي إليها للصلاة والتلاوة والذِّكر وتعليمه . والمراد بالسَّعْي في خرابها : هو السَّعْي في هدمها ... ويجوز أن يُراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وُضعت لها)) اهـ .

إن منع مساجد الله تعالى هو أعظم الظلم ، لأنه إعلان حرب على الخالق سُبحانَه ، وذلك بمحاربة دِينه وبيوته التي تُقام فيها شعائره _ عزَّ وَجَلَّ _ . فمن أعاقَ بناءَ المساجد ، أو منعَ ذِكر

الله تعالى فيها ، أو حاربَ تلاوةَ القرآن ، أو منعَ حَلَقَاتِ التعلم والتعليم ، فهو مُحارِبٌ لله تعالى ، عَدُوٌّ لمساجده. وَمَن أحبَّ خَرابَ المساجد وتمنى زوالها، أو ابتعاد المصلين عنها، أو اختفاء العبادات منها، فهو عدو لله تعالى لأنه ساعٍ في خراب بيوت الله بكل ما أُوتِيَ مِن قوة ومال ونفوذ.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/١٣٤):((قَوله تعالى:﴿وَمَن أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مَساجدَ اللهِ ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما أنها نزلت في الروم، كانوا ظاهروا بُخْتُنَصَّر على خراب بيت المقدس من أجل أن بني اسرئيل قتلوا يحيى بن زكريا ، فَخُرِّب وطُرِحَت الجِيَف فيه ، قاله ابن عباس في آخرين . والثاني أنها في المشركين الذين حالوا بين رسول الله وبين مكة يوم الْحُدَيبية ، قاله ابن زيد . وفي المراد بخرابها قَولان : أحدهما أنه نقضها ، والثاني منع ذِكر الله فيها. قَوله تعالى : ﴿ أُولئكَ ما كانَ لهم أن يَدْخُلوها إلا خائفينَ ﴾ فِيه قَولان: أحدهما أنه إخبار عن أحوالهم بعد ذلك. قال السُّدي : لا يَدخل رُوميٌّ بيت المقدس إلا وهو خائف أن يُضرَب عُنقه، أو قد أُخِيف بأداء الجِزْية. والثاني أنه خبر في معنى الأمر تقديره : عليكم بالجِد في جهادهم كي لا يدخلها أحد إلا وهو خائف . ﴿ لهم في الدُّنيا خِزْيٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن خِزْيهم الجِزية، قاله ابن عباس. والثاني أنه فتح القُسطنطينية ، قاله السُّدي . والثالث أنه طردهم عن المسجد الحرام ، فلا يدخله مُشرك أبدًا ظاهرًا ، قاله ابن زيد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وأقيموا وُجوهَكُم عِندَ كُلِّ مَسجدٍ وادْعُوهُ مُخلِصينَ لَهُ الدِّين﴾[الأعراف: ٢٩].

توجَّهوا إلى الله وَحْدَه في كُل صلاة نَحْو الكعبة (القِبلة) أينما كُنتم. فهي قِبلة المسلمين التي تُوحِّدهم على كلمة واحدة ، وتجمع قلوبهم على هدف واحد ، بحيث تتوحَّد الأُمَّة، وتتماسك كلمتها أمام التحديات. إنه التوجه السامي، والتركيز في العبادة ، دون تشتيت الجهود أو الجهات.

لقد أمرَهم اللهُ أن يَتوجَّهوا إليه في صلاتهم ، ولا يتوجَّهوا إلى الأصنام والأوثان والأنداد . فَالتَّوَجُّهُ ينبغي أن يكون لله وَحْدَه ، والدعاء ينبغي أن يكون خالصًا له . أي: اعبدوا اللهَ وَحْدَه ، مُخلصين له الطاعةَ والعبادة ، بلا شريك ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٩) : ((أي : أمَرَكم بالاستقامة في عبادته في مَحالها، وهي مُتابَعة المرسَلين المؤيَّدين بالمعجِزات فِيما أَخبروا بِه عن الله ، وما جاؤوا به مِن الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يَتقبَّل العمل حتى يَجمع هذين الرُّكنين: أن يكون صوابًا مُوافِقًا للشريعة، وأن يكون خالصًا مِن الشِّرك))اهـ. وقد ذَكَرَ ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٨٥) أربعة أقوال في تفسير الآية : ((أحدها : إذا حَضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فَصَلوا فيه ، ولا يَقُولَنَّ أَحَدُكم : أُصلِّي في

مَسجدي ، قاله ابن عباس والضَّحاك، واختاره ابن قُتَيبة . والثاني : تَوَجَّهوا حيث كُنتم في الصلاة إلى الكعبة ، قاله مجاهد والسُّدي وابن زيد . والثالث : اجعلوا سجودكم خالصًا لله تعالى دُون غَيره ، قاله الربيع ابن أنس. والرابع: اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة أمْرًا بالجماعة لها، ذكره الماوردي)) اهـ .

إذا حَضرت الصلاةُ فينبغي على المسلم أن يُصَلِّيَ في المسجد ، ولا يُؤَخِّر الصلاةَ أو ينتظر العودة إلى مسجده الذي تعوَّد الصلاةَ فيه . فخيرُ البِر عاجلُه . وفي كل الحالات سوف يتم التوجه إلى الكعبة المقدَّسة (قِبلة المؤمنين) التي تُوحِّدهم، وتجمع شَمْلهم ، وتجعلهم على قلبِ رَجلٍ واحد . والصلاةُ الحقيقية لا مكان فيها للرِّياء أو السُّمعة. فجميعُ الحركاتِ والسَّكَنَات منذ تكبيرة الإحرام حتى التسليم هي لله تعالى، خالصةً له دُون غَيره. وعلى المؤمن أن يَحرص على أداء صلاة الجماعة، ولا يَكتفيَ بالصلاة في بيته. فالمسْلمُ قويٌّ بإخوانه ، والذئبُ يأكل الغنمَ القاصية ، فَمَن ابتعد عن الجماعة فإن فرصة الشيطان ستكون كبيرة في السيطرة عليه والاستفراد به . والرِّفعةُ والمجدُ والقوة ، كلها كامنة في الجماعة ، لأنها تجميعٌ لنقاط القوة ، وتقليص لنقاط الضعف .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا بَني آدمَ خُذوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

الخطابُ للناس كُلِّهم:البسوا أجملَ ثيابكم وأطهرها،واعتنوا بنظافتكم عند كُل صلاة أو طواف.

وهذه الآية توضح ضرورة أن يكون المؤمن في أحسن هيئة ، وأن يتزيَّن بأجمل الثياب عند الصلاة أو الطواف. لذلك، يُستحب التجمُّل والتزيُّن عن كل صلاة ، خصوصًا صلاة الْجُمُعة ، ويوم العيد، والتَّطَيُّب، واستخدام السِّواك، وارتداء أجمل الثياب. وأفضلُ الثياب البياض . والصلاةُ مُناجاةٌ للهِ تعالى، فَيُستحَب لها التزيُّن والتجمُّل والتعطر ، ويجب التطهُّر وسَتر العَورة . والزينةُ لها أثرٌ بالغ في بعث الراحة النفسية. كما أنها توفِّر الاستعدادَ الضروري للدخول في العبادة بكل ثقة وطمأنينة وراحة. وإذا كان المرءُ يتزين بأبهى حُلَّة حين يذهب لمقابلة مسؤول كبير أو شخصية مهمة، فما بالك حين يذهب للصلاة ويقف بين يَدَي مَلِك الملوك ؟!.فعليه أن يكون في أجمل صورة وأبهى زينة. وَلِكُلِّ جوهرٍ نقيٍّ مظهرٌ رائعٌ ، كما أن فساد الصورة يُشير إلى فساد المضمون .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٦٧) : ((هو خطاب لجميع العالَم وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عُرْيَانًا ، فإنه عام في كل مسجد للصلاة ، لأن العِبرة للعموم لا للسبب . وَمِن العلماء مَن أنكر أن يكون المراد به الطواف، لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد ، والذي يَعُمُّ كُل مسجد هو الصلاة ، وهذا قول مَن خَفِيَ عليه مقاصد الشريعة)) اهـ .

والمؤمنُ يتزينُ لربِّه تعالى مَلِكِ الملوك . وقد كان العربُ في الجاهلية يَطوفون بالبيت عُراةً ، وهذا مُنافٍ للفِطرة السليمة، والأدب مع الله تعالى، واحترامِ المساجد ، وسَترِ العَورات . ويتعارض بالكُلِّية مع مبادئ الحضارة البشرية ، ومدنية الإنسان ، وسُمُوِّه ، ورُقِّيِّه .

والعُري إجراء بدائي يتصادم مع نضوج الفكر البشري ، والتقدمِ الإنساني . والمؤمنُ ينبغي أن يأتيَ إلى المسجد في أبهى حُلَّة . رائحته طَيِّبة ، وثيابه نظيفة . فهو كائنٌ متميز يستمد شَرفه من شَرف المكان الذي يتوجه إليه (المسجد) . ولا بد أن يكون في هيئة حسنة لأنه سيقف بين يَدَي الله تعالى بكل انضباط وخشوع . وهذا لا يتأتى إلا إذا جهَّز نَفْسَه ظاهرًا وباطنًا .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٠) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: ((كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة ، فتقول: مَن يُعيرني تَطْوَافًا [44] ؟، تجعله على فَرْجها ، وتقول : اليوم يَبدو بَعْضُه أو كُلُّه...فَمَا بَدا مِنه فلا أُحِلُّه.فَنَزلت هذه الآية:﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾)).

قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٦٥): ((ونقل ابن حزم الاتفاق على أن المراد سَتر العَورة)).

إن أهل الجاهلية كانوا يرتعون في مأزق العُري وكشف العَورات،خصوصًا في البيت الحرام. وهذا يدل على جهلهم بالله تعالى، وفسادِ عقائدهم المختلِطة بالهوى والجهل والكفر. فأراد اللهُ تعالى أن يرشدهم إلى الأخلاق العالية ، وسَتر العَورات ، والالتزام بالهيئة الحسنة البعيدة كُل البعد عن العُري ، والانحرافِ الأخلاقي . والحرصُ على الزينة عند الصلاة والطواف مِن شأنه أن يرتقيَ بإنسانية الإنسان ، وينتشلها من مستنقع الرذيلة والتعري . لقد نَزلت الآيةُ في الذين كانوا يَطوفون بالكعبة عُراةً . والآيةُ دليلٌ واضح على وُجوب سَتْر العَوْرة في الصلاة . فيجب على الناس سَتر عَوراتهم عند الصلاة والطواف. وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٦٧) : ((دَلَّت الآية على وُجوب سَتْر العَورة. وذهب جمهور أهل العِلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة . وقال الأبهري : هي فرض في الجملة ، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغَيرها)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٨٦و١٨٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ يا بَني آدمَ خُذوا زِينَتَكُم ﴾ سبب نزولها أن ناسًا من الأعراب كانوا يَطوفون بالبيت عُراة ، الرجال بالنهار، والنساء

---

(٤٤) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢):((وهو ثوب تلبسه المرأة تطوف به. وكان أهل الجاهلية يطوفون عُراة، ويرمون ثيابهم، ويتركونها مُلقاة على الأرض ، ولايأخذونها أبدًا ، ويتركونها تُداس بالأرجل)) .

بالليل ، وكانت المرأة تُعلِّق على فَرْجها سُيُورًا (قطعة جِلدية)،وتقول: اليوم يبدو بعضُه أو كُلُّه ... وما بدا منه فلا أُحِلُّه . فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . وقال أبو سَلَمَة بن عبد الرحمن : كانوا إذا حَجُّوا فأفاضوا مِن مِنًى ، لا يصلح لأحد منهم في دِينه الذي اشترعوا أن يطوف في ثوبيه فَيُلقيهما ، حتى يَقضيَ طوافه ، فَنَزلت هذه الآية . وقال الزُّهري: كانت العرب تطوف بالبيت عُراة إلا الْحُمْس قُرَيش وأحلافها ، فَمَن جاء مِن غَيرهم وضع ثيابه ، وطاف في ثَوْبَي أحْمُس، فإن لَم يجد مَن يُعيره مِن الْحُمْس ألقى ثيابَه وطاف عُريانًا ، فإن طاف في ثياب نَفْسه جعلها حرامًا عليه إذا قضى الطواف ، فلذلك جاءت هذه الآية . وفي هذه الزِّينة قَولان : أحدهما أنها الثياب، ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه وَرد في سَتْر العَورة في الطواف ، قاله ابن عباس والحسن في جماعة، والثاني أنه وَرد في سَتْر العَورة في الصلاة ، قاله مجاهد والزَّجاج. والثالث أنه ورد في التَّزَيُّن بأجمل الثياب في الْجُمَع والأعياد ، ذَكَره الماوردي . والثاني أن المراد بالزِّينة الْمُشط ، قاله أبو رَزِين)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما كانَ للمُشركينَ أن يَعْمُروا مَساجدَ اللهِ شَاهِدينَ على أنفُسِهِم بالكُفْرِ أُولئكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُم وفي النارِ هُمْ خَالِدُون ﴾ [التَّوبة : ١٧] . إن إعمار المساجد دليل على الإيمان. ولا يُمكن أن يَقوم بهذا العمل إلا المؤمنون الصادقون. والمشركون سواءٌ كانوا وثنيين أَم كتابيين لا يمكن أن يُساهموا في إعمار مساجد الله تعالى ، لأن قلوبهم خالية من الإيمان والتصديق بوعد الله ووعيده . ودائرةُ عقائدهم الباطلة محصورة في نطاق دُنيوي ضَيِّق لا يُفيدهم يوم القيامة. وإعمارُ المساجد قائم على إيمان راسخ في القلوب، وصدقٍ تطبيقي مرتبط بالجوارح ، وتضحية في سبيل الله تعالى ، وإخلاص النية له ، بلا رِياء ولا سُمعة . وإعمارُ المساجد يشمل المعنيين الحقيقي والمجازي . فالمعنى الحقيقيُّ يتجلى في بناء المساجد والاعتناء بِها ، والمعنى المجازي يتجلى في التعبُّد فيها ، وكِلا المعنيين بعيدٌ عن المشركين . فالمشركون لا يَبنون المساجدَ، وإنما يُحاربون وجودَها، كما أنهم لا يتعبَّدون فيها، ولا يُمارِسون فيها شعائرهم. والهدفُ من وجود المساجد هو توحيد الله وطاعته وعبادته وذِكره ، فلا مكان فيها للكفر والشِّرك والضلال والعقائد الزائغة. والكافرُ غارقٌ في الضلال والزَّيغ ، بعيدٌ عن الحق والهدى ، لذلك لا يُمكنه أن يَعْمُر المساجدَ . والمشركون شاهدون على أنفسهم بالكفر والضلال بلسان الحال (يعبدون الأصنام ويتَّخذونها آلهةً)، وبلسان المقال(يَعترفون بألسنتهم بأنهم غَير مُسلمين) . والمعنى : ما صَحَّ للمشركين ولا استقامَ لهم أن يَعْمُروا مساجدَ اللهِ القائمة على توحيد اللهِ ، وهُم مُشركون يَعبدون غَيْرَه . فهذان أمران مُتناقضان مُتضادان ، لا يَجتمعان ، ولا يَلتقيان .

ليس معقولاً ولا منطقيًّا أن يَعْمُر المشركون المساجدَ ، وهُم يَشهدون على أنفسهم بالكفر والضلال، حيث يُظْهِرون الشِّرك، ويَعبدون الأصنام والأوثان، ويتَّخذونها آلهةً ، ويُكذِّبون النبيَّ ﷺ ولا يُصدِّقون بِنُبُوَّته . فكيفَ يَعْمُرون مساجدَ الله بعد كل هذا ؟ . إن عمارة المساجد قائمة على التوحيد والإيمان ، وهذا يتنافى مع الشِّرك . والضِّدانُ لا يَجتمعان ، والمتناقضان لا يَلتقيان .

أولئك المشركون بَطَلَت أجورهم واضمحلَّت ، بسبب شِركهم ، والشِّرْكُ مُحبِط للعمل ، ومُفسِد له. لقد زالت أعمالهم التي كانوا يَفتخرون ويتفاخرون بِها ، وبَطَلَت ، وصارت أثَرًا إثر عَيْن، لأنها أعمال قائم على الشِّرك باللهِ تعالى . والعملُ لا يُقبَل إلا إذا كان قائمًا على الإخلاص لله وَحْدَه ، وَفْق سُنَّة النبيِّ ﷺ . وما بُنِيَ على باطل فهو باطل . وفي عذاب جهنم هُم خالدون لكفرهم ومعاصيهم.واسمُ الإشارة ﴿ أُولئكَ ﴾ للبعيد،ويدل على بُعد المشركين وطردهم وضلالهم. كما أن الجملية الاسمية في : ﴿ وفي النارِ هُمْ خَالِدُون ﴾ للمُبالَغة في الدلالة على الخلود في النار . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٠٧و٤٠٨) : ((سبب نزولها أن جماعة مِن رُؤساء قُرَيش أُسِرُوا يوم بَدْر ، فيهم العباس بن عبد المطلب ، فأقبل عليهم نَفَر مِن أصحاب رسول الله ﷺ فَعَيَّروهم بالشِّرك ، وجَعل علي بن أبي طالب يُوبِّخ العباس بقتال رسول الله ﷺ ، وقطيعة الرَّحِم . فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ ، فقالوا : وهل لكم مِن محاسن ؟ ، قالوا : نعم ، لَنَحْنُ أفضل منكم أجرًا ، إنَّا لَنَعْمُر المسجد الحرام ، ونَحْجُب الكعبةَ ، ونسقي الحجيج ، ونفكُّ العاني (يعني الأسير) ، فَنَزلت هذه الآية . قاله مقاتل في جماعة . وفي المراد بالعِمارة قَولان : أحدهما دخوله والجلوس فيه ، والثاني البناء له وإصلاحه ، فكلاهما محظور على الكافر . والمراد مِن قَوله : ﴿ ما كانَ للمُشركينَ ﴾ أي : يجب على المسلمين منعهم مِن ذلك . قال الزَّجاج : وقَوله : ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ حال . المعنى : ما كانت لهم عِمارته في حال إقرارهم بالكفر . ﴿ أُولئكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُم ﴾ لأن كفرهم أذهبَ ثوابها . فإن قِيل : كيف يَشهدون على أنفسهم بالكفر وهُم يَعتقدون أنهم على الصواب، فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنه قَول اليهودي: أنا يهودي، وقَول النصراني : أنا نصراني ، قاله السُّدي . والثاني أنهم ثَبَّتوا على أنفسهم الكفر بعدولهم عن أمر النبيِّ ﷺ ، وهو حق لا يخفى على مُميِّز ، فكانوا بمنْزلة مَن شَهِدَ على نَفْسه . والثالث أنهم آمنوا بأنبياء شهدوا لمحمد ﷺ بالتصديق ، وحَرَّضوا على اتِّباعه ، فلمَّا آمنوا بِهم وكَذَّبوه ، دَلُّوا على كفرهم، وجرى ذلك مجرى الشهادة على أنفسهم بالكفر، لأن الشهادة هي تبيين وإظهار. ذَكَرهما ابن الأنباري)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلا اللهَ فَعَسَى أُولئكَ أن يَكُونوا مِنَ الْمُهْتَدِين ﴾ [التَّوبة : ١٨] .

إنما يَعْمُر مساجدَ اللهِ الْمُصَدِّق بِوَحدانيةِ اللهِ تعالى، الذي أخلصَ العبادة للهِ، والتزمَ أوامره ، واجتنبَ نَواهيه ، والذي يُصدِّق بالحياة بعد الموت ، وأن الله يَبعث الموتى من قبورهم يوم القيامة للجزاء . وعِمارة المساجد تشمل بناءها وتجهيزها وفَرْشها وإنارتها وتنظيفها وصيانتها وكثرة العبادة والطاعة وذِكر الله فيها ، وحَلَقَات العِلم والتعليم ... إلخ .

وأقامَ الصلاةَ المكتوبة بفرائضها وسُننها وشروطها وآدابها وحُدودها، وأخرجَ الزكاةَ التي تجب في ماله كاملةً غير منقوصة . ولَم يتم ذِكر الإيمان بالنبيِّ ﷺ ، لأن المعنى مفهوم وموجود ضمنًا . فإن الإيمان بالله لا معنى له إلا بالإيمان بالنبيِّ ﷺ ، كما أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تُشيران إلى الإيمان بالنبيِّ ﷺ والسَّير على خُطاه .

ولَم يَخَف في الدِّين إلا مِن اللهِ تعالى ، ولَم يَخْشَ أحَدًا سِواه ، ولَم يَترك أمرَ اللهِ خوفًا من الناس. وهذا يدل على أهمية الإخلاص. والخشيةُ هاهُنا هي خَشية التعظيم والعبادة. والخوفُ شُعور إنساني غريزي لا سَيطرة لعقل الإنسان عليه. ولكن المقصود هو مجال الدِّين والعبادات والطاعات. ومَن جَمَعَ هذه الصفات الجميلة ، والأوصاف الرائعة ، فهو الجديرُ والخليقُ والحقيقُ بأن يكون مِن الذين هداهم اللهُ للحق ، ووفَّقهم للصواب والرشاد .

والمساجدُ هي بُيوت اللهِ تعالى ، والمصلون هُم ضُيوف الله وزُوَّاره ، واللهُ يُكْرِم ضُيوفَه وَزُوَّاره، ولا يَرُدهم خائبين ، ولا يَطردهم . بَل يُحسِن إليهم ، ويُعاملهم بالرحمة والرِّفق والرأفة ، ويُنعِم عليهم في الدنيا والآخرة . والآيةُ تَشهد لِعُمَّار المساجد بالإيمان، وتُعْلِي مِن قَدْرهم ومَنْزلتهم، وتُشرِّفهم، وتُخلِّد ذِكْرَهم . ومَعَ أن لفظ الآية خَبَر ، إلا أنها _ ضمنيًّا _ تَدعو المؤمنين إلى عِمارة المساجد . لقد قدَّمت الآيةُ أوصافًا مُحدَّدة للشخص الجدير بعمارة المساجد والحقيق بهذه العبادة المقدَّسة: أ_ الإيمان بالله واليوم الآخِر. ب_ إقامة الصلاة . ج _ إيتاء الزكاة . د_ عدم الخشية إلا مِن الله .

وتَمَّ الاقتصار على ذِكر الصلاة والزكاة ، لأن الصلاة أعظم العبادات البدنية ، والزكاة أعظم العبادات المالية ، ويتعدَّى نفعُها وفائدتها إلى الآخرين ، وتنويهًا بشرف هاتين العبادتين، وفضلهما العظيم ، ومكانتهما الرفيعة ، وتأثيرهما على الفرد والجماعة . فالصلاةُ والزكاةُ هُما العبادتان اللتان تُحْدِثان نهضةً حقيقية على المستوى الفرديِّ والجماعيِّ مَعًا ، لاشتمالهما على معنى التقوى

والوَحدة والتكافل الاجتماعي وتقديم المال للمحتاجين . والتقوى هي أساسُ البناء الروحي للفرد والجماعة ، والمالُ هو العمود الفِقري لاقتصاد أيِّ مجتمع . وبدون التقوى والمال ، سينهار الفردُ والمجتمعُ مَعًا .

﴿ فَعَسَى أُولئكَ أن يَكُونوا مِنَ الْمُهْتَدِين ﴾ . إن الذين جَمَعوا بين الأوصاف السابقة هُم أهل الإيمان ، ويشهد بذلك عمارتهم للمساجد . وخليقٌ بهم أن يكونوا مِمَّن هداهم اللهُ للحق والرشاد.

و " عسى " مِن الله واجبة . أي : أولئك الذين جمعوا بين هذه الأوصاف هُم المهتدون الذين تمسَّكوا بطاعة الله ، التي تَقُودهم إلى الجنة والنعيم الأبديِّ . وهذه الآيةُ تَنفي الهدى عن الكافرين، وتُبيِّن أن أعمالهم باطلة،ولا فائدة منها، ولَن يَنتفعوا بها، لأنهم لَم يتَّصفوا بأيِّ صفة مِن الصفات السابقة . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٦) : ((﴿ فَعَسَى أُولئكَ أن يَكُونوا مِنَ الْمُهْتَدِين ﴾ ،ذَكَره بصيغة التوقع قطعًا لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم ، وتوبيخًا لهم بالقطع بأنهم مُهتدون ، فإن هؤلاء مَعَ كمالهم ، إذا كان اهتداؤهم دائرًا بين عسى ولعل ، فما ظَنُّكَ بأضدادهم ؟! ، ومنعًا للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتَّكلوا عليها)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٨٣): ((قَوله تعالى : ﴿ إنما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ دليل على أن الشهادة لِعُمَّار المساجد بالإيمان صحيحة ، لأن الله سُبحانَه ربطه بها ، وأخبرَ عنه بملازمتها . وقد قال بعض السلف: إذا رأيتُم الرَّجل يَعْمُر المسجد فَحَسِّنوا به الظن ... قَوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إلا اللهَ ﴾ . إن قِيل : ما مِن مؤمن إلا وقد خَشِيَ غَيْرَ الله ، وما زال المؤمنون والأنبياء يَخْشَوْنَ الأعداء مِن غَيرهم ، قِيل له : المعنى : ولَم يَخْشَ إلا الله مِمَّا يُعبَد ، فإن المشركين كانوا يَعبدون الأوثان ويَخْشَوْنها ويَرجونها. جواب ثان : أي لَم يَخَفْ في باب الدِّين إلا الله . فإن قِيل : فقد أثبتَ الإيمان في الآية لِمَن عَمَرَ المساجد بالصلاة فيها ، وتنظيفها وإصلاح ما وَهَى منها ، وآمن بالله ، ولَم يذكر الإيمان بالرسول فيها ، ولا إيمان لِمَن لَم يُؤمن بالرسول ، قِيل له : دَل على الرسول ما ذُكِر مِن إقامة الصلاة وغَيرها ، لأنه مِمَّا جاء به ، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يَصِح من المؤمن بالرسول ، فلهذا لَم يُفرِده بالذِّكر))اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٠٨و٤٠٩) : ((فإن قِيل : فعسى تَرَجٍّ، وفاعل هذه الخصال مُهْتَدٍ بلا شك ، فالجواب أن " عسى " مِن الله واجبة، قاله ابن عباس . فإن قِيل: قد يَعْمُر مساجدَ الله مَن ليس فيه هذه الصفات، فالجواب أن المراد أنه مَن كان على هذه الصفات المذكورة كان مِن أهل عِمارتها ، وليس المراد أن مَن عَمَرَها كان بهذه الصفة)) اهـ .

وعن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ : ((إذا رأيتُم الرَّجُلَ يَعتاد المسجد، فاشهدوا عليه بالإيمان . قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إنما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾))[45].

هذا الحديثُ معناه صحيح ، لكنه سنده ضعيف .

إذا رأيتُم الرَّجلَ يُلازِم المسجد، ويُصلِّي فيه باستمرار ، وبدون انقطاع ، وقلبُه مُعلَّق بالمسجد، يتردَّد عليه باستمرار ، ويحب الجلوس فيه ، ويَعبد اللهَ فيه ويُطيعه ويَذكره ، ويَجلس في حِلَق العِلم والتعليم فِيه ، فاقطعوا القَول بالإيمان ، واحكموا بأنه مِن المؤمنين ، وَفْق ظاهر حاله ، فإن الْحُكم على الظاهر .

ومَن عَمَرَ المساجد من المسلمين بالعبادة والطاعة هو مِن المؤمنين ، كما أن حضوره المساجد عِمارة لها .

وفي تفسير القرطبي (٨/ ٨٣) : ((قال ابن العربي : وهذا في ظاهر الصلاح ليس في مقاطع الشهادات، فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها، فإن منهم الذكي الفَطِن المحصِّل لِمَا يعلم اعتقادًا وإخبارًا،ومنهم المغفَّل، وكل واحد يُنَزَّل على منْزلته ويُقدَّر على صفته)) اه .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (١/ ٣٥٧) : (((إذا رأيتُم الرَّجل يعتاد المساجد) أي الجلوس في المساجد التي هي جَنَّات الدنيا لِكَوْنها أسبابًا مُوصلة إلى الجِنان التي هي مَقر أهل الإيمان. أو معناه : وجدتم قلبه مُعَلَّقًا بها مُنذ يَخرج منها إلى عَوْده إليها ، أو شديد الحب لها ، والْمُلازَمة لجماعتها ، وتعهُّدها بالصلاة فيها كُلما حَضرت ، أو يَعْمُرها ويُجَدِّد ما دَرَس منها ، ويسعى في مصالحها ، والأوْجَه حَمْله على الكُل ، فمن لزمها لنحو اعتكاف أو اجتهاد ، أو تعلق قلبه بها ، أو عَمَرها بنحو ذِكر وصلاة ، أو عَمَّرَ ما تَهَدَّم مِنها ، وسعى في إقامة شِعارها،(فاشهدوا له بالإيمان) أي : اقطعوا له بأنه مؤمن حَقًّا في ظاهر الحال ، فإن الشهادة قول صدر عن مُواطأة القلب اللسان على سبيل القَطْع ، ذكره الطيبي)) اه .

وفي إحياء علوم الدِّين (١/ ١٥٢) : ((قال سعيد ابن المسيِّب : مَن جَلس في المسجد فإنما يُجالس رَبَّه ، فما حقه أن يقول إلا خَيْرًا)) اه .

---

(٤٥) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٣٢) برقم (٧٧٠) وصحَّحه . وقال الذهبي عن أحد رُواة الحديث : ((درَّاج كثير المناكير)) اه . وقال العراقي في تخريج الإحياء (١/ ١٠٦) : ((رَواه الترمذي وحسَّنه وابن ماجة والحاكم وصحَّحه من حديث أبي سعيد)) .

وعن أبي الدَّرداء قال : سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((المسجدُ بَيت كُلِّ تقيٍّ ، وقد ضَمِنَ اللهُ عز وجل لِمَن كانت المساجدُ بُيوتَه ، الرَّوْحَ والرحمةَ والجوازَ على الصراط))[46].

إن المسجد بيت المؤمن الصالح التقيِّ الذي يُلازم صلاةَ الجماعة ولا يُفارقها . والمسجدُ بَيت الله، وَبَيت كُل تقيٍّ، وحقيقٌ على الْمَزُور إكرام الزائر،فما بَالُك بأكرم الأكرمين سُبحانَه وتعالى؟!. وقد ضَمِنَ اللهُ للمُصلِّين الذين يُلازِمون المساجد ، ويتَّخذونها بيوتًا لهم ، ويحرصون عليها ، ويُواظبون على عِمارتها بكافة الأشكال ، أن يُنعِم عليهم، ويُكرِمهم ، ويُريحهم، ويَرحمهم ، ويُثبِّتهم على الحق والهدى حتى يَجتازوا الصراطَ بلا عقبات نحو نعيم الجنة الأبديِّ.والرَّوْحُ الراحة والرحمة. وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وكُفْرًا وتَفْرِيقًا بَيْنَ المؤمنينَ وإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إلا الْحُسْنَى واللهُ يَشْهَدُ إنهم لَكَاذِبُون ﴾ [التَّوبة: ١٠٧] . هؤلاء المنافقون بَنَوْا مسجدًا لإلحاق الضَّرَر والأذى بالمؤمنين ، وتفريق كلمتهم ، وتَشتيت شَمْلهم، ولَم يَبْنُوه خالصًا لوجه الله تعالى . لقد بَنَوْا المسجد مُضَارَّةً لأهل مسجد قُبَاء ، ظَنًّا مِنهم أن حِيلتهم الدنيئة ستنطلي على المؤمنين ، وأن خُطتهم الخبيثة ستصبح واقعًا ملموسًا. وقد فضحهم اللهُ ، وكشفَ باطلَهم ، وجلَّلهم بالخِزي والعار مدى الحياة .

لقد أخبرَ اللهُ تعالى عن أسباب بنائهم لمسجد الضِّرار : أ ــ إلحاق الضَّرَر والأذى بالمؤمنين(الإضرار بالمؤمنين أهلِ مسجد قُبَاء،أول مسجد في الإسلام). ب ــ الكفر بالله ورسوله ودِين الإسلام ، وتمزيق الإيمان ، وتقوية النفاق . ج ــ التفريق بين المؤمنين ، وتمزيق كلمتهم ، وتشتيت شَمْلهم ، وإزالة المحبة والألفة بينهم ، لأن المنافقين أرادوا تقليل عدد المصلِّين في مسجد قُبَاء ، وزيادة عدد المصلِّين في مسجد الضِّرار . وبذلك يتم شق صف المسلمين ، وتمزيقهم ، وتحويلهم إلى طائفتين مُتناحرتين تتقاتلان فيما بينهما . د ــ الإرصاد (الانتظار والتَّرَقُّب) لِمَن حاربَ الله ورسوله ﷺ قبل بناء مسجد الضِّرار. أي: الإعداد والتجهيز والتحضير لأجل مَن حاربَ الله ورسوله ﷺ ، وهو أبو عامر الراهب الفاسق . فالمنافقون بَنَوا مسجد الضِّرار بأمر أبي عامر ليكون مَقَرًّا ومَعْقِلاً له ، يَقْدُم فيه مَن يأتي مِن عِنده ، وكان قد ذَهَبَ لِيَأتِيَ بجنود

---

(٤٦) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٣٤) : ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزَّار، وقال: إسناده حسن. قُلت: ورجال البزَّار كُلهم رجال الصحيح)) اهـ . وحسَّنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٣٨) .

مِن قَيْصَر الرُّوم لقتال النبيِّ ﷺ ، وأرسلَ إلى المنافقين أن ابْنُوا لي مسجدًا . والإرصاد هو الانتظار مع العداوة .

وَسَوْفَ يَحْلِف هؤلاء المنافقون (بُناة مسجد الضِّرار) أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا طاعة الله وعبادته وإقامة الصلاة وجمع كلمة المسلمين وتقوية الإسلام . وهُم كاذبون في كلامهم ، خائبون في مَسعاهم الباطل وخُطتهم الخبيثة . واللهُ يَشهد إنهم لَكاذبون فِيما حَلَفوا عليه . وكانوا قد سَألوا النبيَّ ﷺ الصلاةَ في مسجد الضِّرار لنيل الشَّرعية ، فنهاه اللهُ عن ذلك ، وفضح المنافقين بإنزال الوَحْي على رسوله ﷺ، وكشفَ خُطتهم القذرة ، ووَصَمَهم بالعار والنفاق والكذب.

وقد ماتَ أبو عامر بالشام . وقد أضاعَ دُنياه وآخرته . فإلى جهنم ، وبِئس المصير .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥١٠): ((سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسول الله ﷺ إليها رَجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب . وكان قد تنصَّر في الجاهلية وقرأ عِلم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير . فلمَّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ مُهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بَدْر ، شَرِقَ اللعينُ أبو عامر بِرِيقِه (أخذته الغُصَّة)، وبارزَ بالعداوة ، وظاهرَ بها ، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش يُمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقَدِموا عام أُحُد فكان من أمر المسلمين ما كان . ... لَمَّا فرغ الناس مِن أُحد ورأى أمرَ الرسول ﷺ في ارتفاع وظُهور ، ذهب إلى هِرَقْل مَلِك الروم يستنصره على النبيِّ ﷺ فوعده ومنَّاه وأقام عنده . وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والرَّيْب يَعِدهم ويُمنِّيهم أنه سَيَقْدُم بجيش يُقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويَرُدُّه عمَّا هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له مَعْقِلاً يَقْدُم عليهم فيه مِن يَقْدُم مِن عنده لأداء كُتبه ، ويكون مَرْصَدًا له إذا قَدِمَ عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قُبَاء ، فَبَنَوْهُ وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يَأتِيَ إليهم فيُصلِّيَ في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ... . نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضِّرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قُبَاء الذي أُسِّس مِن أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَن هَدَمَه قبل مَقْدَمه المدينة)) اهـ .

إن العِلم _ بحدِّ ذاته _ لا ينفع ما دام لَم يرتبط بالعمل الصالح . والعِبرةُ لا تتجلى في العقل وإنما تتجلى في الهداية الرَّبانية . فَكَم مِن عبقري أوردته عبقريته المهالك بسبب غياب التوفيق .

وأبو عامر الراهب كان رَجلاً ذا عِلم ، شريفًا في قَومه ، لكنَّ عِلمه لَم يُرشده إلى الحق بسبب غياب الهداية . فلمَّا ظَهَر أمرُ النبيِّ ﷺ كالشمس في رابعة النهار ، دَبَّ الحِقد والحسد والغَيرة في نفْس أبي عامر ، فأخذ على عاتقه محاربة الدعوة بكل ما أُوتيَ من قوة . فبدلاً من التسليم للأمر النبويِّ ، والانخراطِ في جماعة المسلمين ، وإنقاذ نفسه ، وتقديم مواهبه لخدمة الإسلام والمسلمين لكي يصبح عنصرًا مُهِمًّا وفاعلاً في صناعة الحضارة الإنسانية ، اختار طريقَ الكفر وحرب الدعوة بكل الأشكال . وبالطبع ، سوف يذهب إلى الحاضنة الاجتماعية للانحراف العَقَدي (مُشركي قُريش) لكي يحتضنوه ويُقدِّموا له كل مساعدة يحتاجها في سبيل تنفيذ مخططه البائس. فالطيورُ على أشكالها تقع . ثم ذهب إلى هِرَقْل ملك الروم لتأليبه على الإسلام والمسلمين. ونحن نلاحظ أن أبا عامر كان لديه مخطط يشتمل على الجهات التي يتوجه إليها . إذ إنه يَعلم مسبقًا عداوة مشركي قُريش والرُّوم للدعوة الإسلامية، مِمَّا جعله يعتقد أنهم هم الوُجهة الصحيحة القادرة على حرب الدعوة الإسلامية، وتوفير كل مساعدة له لإنجاح خطته المتهاوية . وبعد أن استقر به المقام في معقل الكفر ، راح يتصل بأعوانه في الداخل يُشجِّعهم ويُمنِّيهم أنه سيُحارب النبيَّ ﷺ بجيش لا يُقهَر . ولا بد أن يكون له مركز قيادة ، فكان مسجدُ الضِّرار هو مركز قيادة العمليات . وهذا الاختيارُ لَم يجئ عبثًا . فاختيارُ المسجد سوف يُبعد كل الشبهات عنهم ، فصورةُ المسجد في أذهان الناس أنه مكان للصلاة ونشر الخير . وبالتالي يستطيع أهلُ الضلال التحرك علانيةً أمام الأنظار دون أن يُثيروا الشبهات أو الشكوك. وأرادوا أن يحصلوا على الشرعية، فسألوا رسولَ الله ﷺ أن يُصلِّيَ فيه لكي تكون صلاتُه حُجَّةً لهم، وشهادةَ حُسن سِيرة وسلوك لهم. والنبيُّ ﷺ لا يعلم الغيبَ ، بل يُجري الأمورَ على الظاهر . لكنَّ الوَحْيَ أخبره بأن هذا المسجد لَم يُبْنَ لرفع كلمة الله تعالى ، بل لنشر الضلال . فأمرَ النبيُّ ﷺ بهدم المسجد لاستئصال هذا الباطل من جذوره ، وتجنيب المسلمين الانشقاق والتفرق والتمزق والتناحر والاختلاف، وبالتالي حماية الدَّعوة من الانكسار والسقوط .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلى التَّقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُ الْمُطَّهِّرِين ﴾ [التَّوبة : ١٠٨] .

هذا نَهْيٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ عن الصلاة في مسجد الضِّرار ، والأُمَّةُ المحمديةُ تابعة لِنَبِيِّها ﷺ .

لا تَقُم يا محمد للصلاة في هذا المسجد الذي بَناه المنافقون لهدم الإسلام ، وتفريق كلمة المسلمين . إن المسجد الذي أساسه وأصله تَقوى الله وعبادته ، وطاعة النبيِّ ﷺ ، وجمع

المسلمين وتوحيد صفوفهم، مِن أول يوم ابْتُدِئ في بنائه ، أَوْلَى أن تَقوم فيه للصلاة وطاعة الله وعبادته . والمقصودُ هو مسجد قُبَاء (أول مسجد في الإسلام) ، لأنه أوفق للقصة ، والسِّياق القُرآنِيِّ . وهذا لا يُناقض ولا يُنافي كَوْن المسجد النبويِّ الشريف أُسِّسَ على التقوى مِن أول يوم ، فالمسجدُ النبويُّ هو أعظم المساجد بعد المسجد الحرام ، وهو أعظم مِن مسجد قُبَاء وأشرف مِنه وأطهر وأفضل.والجديرُ بالذِّكر أن لا استحقاق في مسجد الضِّرار، ولا خَير فيه، ولا فائدة مِنه. والتعبيرُ بصيغة التفضيل : ﴿ أَحَقُّ ﴾ لَيست للمُقارَنة، وإنما لبيان فضل مسجد قُبَاء ومكانته العظيمة.أو:لأنه الأفضل في استحقاق الصلاة فيه مِن مسجد الضِّرار الذي يَعتقد أصحابه أنهم على الحق. وفي تحفة الأحوذي (٢/٢٧٤):((وأمَّا الصلاة في مسجد الضِّرار، فقال ابن حزم إنه لا يُجزِئ أحدًا الصلاة فيه لقصة مسجد الضِّرار. وقَوله:﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أبَدًا ﴾ فصحَّ أنه ليس موضع صلاة)) اهـ. ومَسجد قُبَاء له مكانة جليلة، ومَنْزلة عظيمة، وفضل كبير. ففي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال : ((الصلاةُ في مسجد قُبَاءَ كَعُمرة)) [47] . أي:الصلاة الواحدة في مسجد قُبَاء يَعدِل ثوابُها ثوابَ عُمرة . في مسجد قُبَاء رِجالٌ (الأنصار) يُحِبُّون الطهارةَ المعنوية والمادية . إنهم يُحِبُّون التطهُّر من المعاصي والآثام والذنوب ، طلبًا لرضا الله وجَنَّته . وهُم أيضًا حريصون على الاستنجاء بالماء ، حيث يُزيلون أثر الغائط والبَول بالماء ، كما أنهم حريصون على الوُضوء ، وتنظيف أنفسهم من الأوساخ والقاذورات . إنهم يتطهرون مِن الأحداث والجنابات والنجاسات . وفي تفسير البغوي (١/ ٩٥) : ((قال عطاء : كانوا يستنجون بالماء ، ولا ينامون بالليل على الجنابة)) اهـ . وهذا مدحٌ إلهيٌّ لأهل مسجد قُبَاء ، وتنويهٌ بشأنهم ، وتشريفٌ لِقَدْرهم ، ورفعٌ لمكانتهم . وقد أثنى اللهُ في هذه الآية على المؤمنين الحريصين على الطهارة والتطهُّر والنظافة . وهذا هو شعار الإسلام في كل زمان ومكان. واللهُ يَرضى عن المتطهرين ، ويُحسِن إليهم ، ويُثيبهم. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥١٠) : ((وقَوله : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلى التَّقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِين ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسَّسة مِن أول بنائها على عبادة الله ، وَحْدَه لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتَّنَزُّه عن مُلابَسة القاذورات)) اهـ .

(٤٧) رواه الترمذي في سُننه (٢/ ١٤٥) برقم (٣٢٤) وحسَّنه،والحاكم في المستدرَك (١/ ٦٦٢) وصحَّحه . وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥١٠) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٠٠و٥٠١): ((قَوله تعالى : ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ ﴾ ، أي: لا تُصَلِّ فيه أبدًا . ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلى التَّقوى ﴾ أي : بُنِيَ على الطاعة ، وبناه المتقون ، ﴿ مِنْ أوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أي : مُنذ أول يوم . قال الزَّجاج : " مِن " في الزمان ، والأصل مُنذ ومُذ ، وهو الأكثر في الاستعمال ، وجائز دخول " مِن " لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبعيض ... . وفي هذا المسجد ثلاثة أقوال : أحدها أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة الذي فيه مِنبره وقبره . روى سهل ابن سعد أن رَجلين اختلفا في عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد الرسول ، وقال الآخر : هو مسجد قُبَاء ، فَذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ ، فقال : " هو مسجدي هذا " . وبه قال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الْخُدْرِي وسعيد بن المسيِّب . والثاني أنه مسجد قُبَاء ، رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جُبَير وقتادة وعُروة وأبو سَلَمة بن عبد الرحمن والضَّحاك ومُقاتل.والثالث أنه كُل مسجد بُنِيَ في المدينة،قاله محمد بن كعب. قَوله تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرُوا ﴾ . سبب نزولها أن رِجالاً مِن أهل قُبَاء ، كانوا يَستنجون بالماء ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله الشَّعبي . قال ابن عباس : لَمَّا نزلت هذه الآية أتاهم رسول الله ﷺ ، فقال : " ما الذي أثنى الله بِه عليكم ؟ " ، فقالوا : إنَّا نستنجي بالماء . فعلى هذا المراد به الطهارة بالماء ، وقال أبو العالية أن يَتطهَّروا من الذنوب)) اهـ .

نُلاحظ مِن قصة مسجد الضِّرار ومُلابساتها وأحداثها ، أن أعداء الدِّين لا يتورَّعون أن يستخدموا الرموزَ الدينية المقدَّسة لتنفيذ مشروعاتهم الهدامة . فهم يختبئون وراء طهارة المقدَّسات لكي يحصلوا على الشرعية ، فيصبغوا بها باطلَهم وانحرافاتهم العَقَدية . فهم يُريدون هدم الإسلام من الداخل . أي محاربة الدعوة الإسلامية بنفس أسلحة الدعوة . وهذه الخطةُ الفاسدة منتشرة عبر العصور . فكثيرٌ من أهل الضلال يُحاربون القرآن بالقرآن ، أي إنهم يَسْعَوْنَ إلى لَوْي أعناق النصوص، وتأويلها بشكل يتعارض مع دَلالات اللغة، وذلك للقضاء على قُدسية القرآن وتشكيك المؤمنين به. وتراهم يحارِبون الإسلام بالإسلام، فنجد أشخاصًا يحملون أسماءً إسلامية مثل عبد الله ، عبد الرحمن ، محمد ... . لكنهم يحملون عقائد كفرية يطمحون إلى نشرها داخل الجماعة المسلمة ، وذلك للقضاء على الإسلام من الداخل _ كما يتخيلون _ . فهم يعتقدون أن هذا الأسلوب سيُبعد عنهم الشبهاتِ والشكوك والاتهامات ، ويُصوِّرهم في زِيِّ العلماء والباحثين والمفكرين والفلاسفة الذين لديهم اجتهادات مُعتبَرة،ويُمارسون دورَهم في الثقافة والفِكر والتنوير وإعمال العقل وممارسة الاجتهاد، وينتمون للحضارة الإسلامية ، ويَدينون بالولاء للكتاب والسُّنة .

وهذا الأسلوبُ العقيم صارَ مكشوفًا ومفضوحًا . وإن حضاراتٍ عُظمى عبر التاريخ حاولت استئصالَ الإسلام لكنها دَخلت في الإسلام ورَفعت لواءه وقامت بنشره مثل المغول والتتار _ على سبيل الذِّكر لا الحصر _ . فالشريعةُ المحمَّدية الإسلامية موجودة منذ أكثر من أربعة عشر قَرْنًا ، ولو استطاع أهلُ الضلال أن يَستأصلوها لقاموا بذلك مُنذ قُرون. لكنَّ نورَ الله لا يمكن اجتثاثه . واللهُ غالبٌ على أمره .

كناطحٍ صَخرةً يَوْمًا لِيُوهِنَها فَلَم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَالَ الذينَ غَلَبُوا عَلى أمْرِهِم لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا ﴾[الكَهْف : ٢١] .

سياقُ الآية يتحدَّث عن قصة أصحاب الكهف . لقد قرَّر القومُ الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف أن يبنوا على باب الكهف مسجدًا للصلاة فِيه، وعبادة الله فيه ، والتَّبَرُّك بمكان الفِتية المؤمنين (أصحاب الكهف) الذين أماتهم اللهُ أكثر من ثلاثمائة سنة ثُمَّ بعثهم .

وَمِن الواضح أن القائلين هُم أصحاب الكلمة والنفوذ والسُّلطان والْمُلْك ، وهُم السادة الرؤساء الْمُطَاعون أصحاب القرار . ولكنْ ، هل كانوا مسلمين أو مشركين ؟ . إن ذِكر اتخاذ المسجد يدل على أنهم مُسلمون . وفي فتح القدير للشَّوكاني (٣/ ٣٩٥) : ((قال الزَّجاج : هذا يدل على أنه لَمَّا ظَهَرَ أمرُهم ، غَلَبَ المؤمنون بالبعث والنُّشور ، لأن المساجد للمؤمنين)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٠٦) : ((﴿ قَالَ الذينَ غَلَبُوا عَلى أمْرِهِم لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا ﴾ . حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين (أحدهما) أنهم المسلمون مِنهم (والثاني) أهل الشِّرك مِنهم ، فاللهُ أعلم . والظاهر أن الذين قالوا ذلك هُم أصحاب الكلمة والنفوذ ، ولكن هل هُم محمودون أم لا ؟. فيه نظر، لأن النبيَّ ﷺ قال : " لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارى ، اتَّخذوا قُبورَ أنبيائهم وصالحيهم مساجد "، يُحذِّر ما فعلوا. وقد رُوِّينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه _ أنه لَمَّا وَجد قبر دانيال في زمانه بالعراق ، أمرَ أن يُخفَى عن الناس ، وأن تُدفَن تلك الرُّقعة التي وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغَيرها)) اهـ .

وعن عائشة وابن عباس _ رضي الله عنهم _ قالا : قال رسول الله ﷺ : ((لعنةُ الله على اليهود والنصارى ، اتَّخذوا قُبورَ أنبيائهم مساجد)) [48].

---

(٤٨) متفق عليه . البخاري (٣/ ١٢٧٣) برقم (٣٢٦٧) ، ومسلم (١/٣٧٧) برقم (٥٣١) .

إن أهل الكتاب كان إذا مات فيهم رَجلٌ صالح جعلوا قبره مسجدًا ، وَصَوَّروا فيه التصاوير، وقاموا بالزخرفة والتزيين. وهذه الْمُغالاة في التعظيم مُجرَّد واجهة برَّاقة لا جوهر لها. فهم يُقدِّسون الصالحين لكنهم لا يَسيرون وَفْق منهج الصلاح ، ويعتنون بالمظاهر الشكلية في حين أن جوهرهم عامر بالفساد. وهذا التناقض في حياتهم قادهم إلى اختراع العبادات والشرائع من بنات أفكارهم .

قال السُّيوطي في شرحه لِسُنن النَّسائي(٢/ ٤٠): ((" كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " [49]. أو المراد بالاتخاذ أعم مِن أن يكون ابتداعًا أو اتِّباعًا ، فاليهود ابتدعتْ، والنصارى اتَّبعتْ، ولا رَيْبَ أن النصارى تُعظِّم قُبورَ جَمْع من الأنبياء الذين يُعظِّمهم اليهود)) اهـ . وفي المهذَّب (١/ ٢٥٧) : ((قال الشافعي رحمه الله : وأَكْره أن يُعظَّم مخلوق حتى يُجعل قبره مسجدًا مَخافة الفِتنة عليه ، وعلى مَن بعده مِن الناس)) اهـ .

واتخاذ القبور مساجد محاولة يائسة من اليهود لتجميل أعمالهم القبيحة، وصبغها بصبغة الجمال والمحبة ! ، والأدهى من هذا أن النصارى تبعوهم في ضلالهم الواضح رغم معرفتهم بالكوارث التي ارتكبوها.مِمَّا يشير إلى غَبَش الرؤية، والتضارب الأيديولوجي في البُنية الفكرية عند أهل الكتاب .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٦٦): (((قاتلَ اللهُ اليهودَ) أي أبعدهم عن رحمته لأنهم (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) أي اتَّخذوها جهة قِبلتهم مع اعتقادهم الباطل، وأن اتخاذها مساجد لازم لاتخاذ المساجد عليها كَعَكسه ، وهذا بُيِّن به سبب لَعنهم لِمَا فيه مِن الْمُغالاة في التعظيم . وخُص هنا اليهود لابتدائهم هذا الاتخاذ،فهُم أظلم، وضُم إليهم في رواية للبخاري"النصارى"، وهُم وإن لَم يكن لهم إلا نبيٌّ واحد ، ولا قبر له ، لأن المراد النبيُّ وكبار أتباعه كالحواريين ، أو يُقال : الضمير يعود لليهود فقط لتلك الرواية ، أو على الكُل . ويُراد بأنبيائهم: مَن أُمِرُوا بالإيمان بهم وإن كانوا من الأنبياء السابقين كَنُوح وإبراهيم . قال القاضي : لَمَّا كانت اليهود يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنهم، ويَجعلونها قِبلةً، ويَتوجَّهون في الصلاة نَحْوها، فاتَّخذوها أوثانًا لعنهم الله ، ومَنع المسلمين عن مِثل ذلك ، ونهاهم عنه ، أمَّا مَن اتَّخذ مسجدًا بجوار صالح ، أو صلى في مقبرته وقَصد به الاستظهار بروحه،أو وصول أثر من آثار عبادته إليه لا التعظيم له والتَّوَجُّه نَحْوه، فلا حرج عليه. ألا ترى أن مدفن إسماعيل في المسجد

---

(٤٩) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٧٧) برقم (٥٣٢) من حديث جُندب مرفوعًا .

الحرام عند الْحَطِيم ؟، ثم إن ذلك المسجد أفضل مكان يتحرى المصلِّي لصلاته، والنَّهي عن الصلاة في المقابر مختص بالمنبوشة لِمَا فيها مِن النجاسة، انتهى. لكن في خبر الشيخين كراهة بناء المسجد على القبور مُطْلَقًا،والمراد قبور المسلمين خَشية أن يُعبَد فيها المقبور لقرينة خَبر:"اللهُمَّ لا تجعل قبري وَثَنًا يُعبَد".وظاهره أنها كراهة تحريم.لكن المشهور عند الشافعية أنها كراهة تَنْزيه، فَيُحمَل ما تقرَّر عن القاضي على ما إذا لَم يُخَف ذلك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ﴾[الحج: ٤٠] .

لَولا الجهاد في سبيل الله وقتال الأعداء، لعمَّ الفساد في الأرض، وانتشر الخراب والفساد والظلم والطغيان ، وأكلَ القويُّ الضعيفَ ، وسيطرَ المشركون الظالمون على أتباع الأديان،ودمَّروا أماكنَ عبادتهم، وأهانوا مُقدَّساتهم، وأَلْغَوا الشعائرَ والطقوس الدينية ، وانقطعت العبادات بخراب أماكنها ، ولكنَّ اللهَ دَفَع شَرَّهم ، ومَنع طُغيانهم بما شَرَعَه مِن جهادهم وقتالهم لتخويفهم وردعهم وإيقافهم عند حَدِّهم. والآيةُ تشير إلى أهمية تخويف الظالم وردعه ومنعه من تجاوز حُدوده باستخدام القوة القادرة على منعه من نشر الخراب والفساد والدمار.وَمَن أَمِنَ العُقوبةَ أساءَ الأدبَ.

لَولا ما شَرَعَه اللهُ للأنبياء والمؤمنين مِن الجهاد وقتال الأعداء وإقامة الحدود، وتسليط المؤمنين على الكافرين ، لاستولى المشركون على الأرض، ونشروا الفسادَ والخراب والدمار ، ودمَّروا مواضع العبادة ، وخُرِّبَت ودُمِّرَت معابد الرُّهبان (الصوامع)، وكنائس النصارى (البِيَع)، وكنائس اليهود (الصلوات) ، وسُمِّيت بهذا الاسم لأنه يُصَلى فيها ، ومساجد المسلمين التي يُعبَد الله فيها ويُطاع، ويُذكَر فيها اسْمُه العظيم صباحًا مساءً. والمعنى العام:وَلَوْلا دَفْع الله المشركين بالمسلمين ، وقيام المسلمين بكف أذى المشركين بقتالهم واستخدام القوة الرادعة ، لَهُدِّمَ في شريعة كل نبيٍّ مكان صلاتهم ومَوضع عبادتهم . لَهُدِّمَ في زمن موسى ﷺ الكنائس ، وفي زمن عيسى ﷺ الصوامع والبِيَع ، وفي زمن محمد ﷺ المساجد. والآيةُ تنتقل من الأدنى إلى الأعلى ، ومِن الأقل إلى الأكثر، وصولاً إلى القمة ، وهي المساجد ، لأنها الأماكن الصحيحة للعبادة ، وهي أكثر عُبَّادًا وعُمَّارًا . وأيضًا ، قُدِّمت أماكن العبادة لأهل الكتاب على مساجد المسلمين، لأنها أقدم بناءً، وأقرب مِن الهدم،والتصاق المساجد بِذِكر الله تعالى . وتَمَّ تخصيص المساجد بأنه يُذكَر فيها اسمُ الله كثيرًا دُون غَيْرها مِن أماكن العبادة ، تنويهًا بفضلها ، وتعظيمًا لمكانتها ، وتشريفًا لِقَدْرها ، باعتبارها الأماكن الصحيحة للعبادة ، والمواضع الحقَّة للطاعة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٦٦) : ((﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : لَوْلا ما شَرَعَه اللهُ تعالى للأنبياء والمؤمنين مِن قتل الأعداء ، لاستولى أهل الشِّرك، وعطَّلوا ما بَيَّنته أرباب الدِّيانات من مواضع العبادات ، ولكنه دَفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدِّين للعبادة ، فالجهاد أمر مُتقدِّم في الأمم ، وبِه صَلَحَت الشرائع ، واجتمعت الْمُتعبَّدات ، فكأنه قال : أُذِنَ في القتال ، فليُقاتِل المؤمنون ، ثُمَّ قَوَّى هذا الأمر في القتال بِقَوله : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ الناسَ ﴾ ، الآية. أي : لَولا القتال والجهاد لَتُغُلِّبَ على الحق في كل أُمَّة ، فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مُناقض لمذهبه ، إذ لَولا القتال لَمَا بَقِيَ الدِّين الذي يُذَبُّ عنه ، وأيضًا هذه المواضع التي اتُّخِذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك المِلَل بالإسلام ، إنما ذُكِرت لهذا المعنى، أي : لَولا هذا الدَّفْع لَهُدِّمَ في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبِيَع ، وفي زمن محمد عليه السلام المساجد . ﴿ لَهُدِّمَتْ ﴾ مِن : هَدَمْتُ البناءَ ، أي : نَقَضْتُهُ فانهدمَ . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية ... . قال ابن خويزمنداد : تضمَّنت هذه الآية المنع مِن هدم كنائس أهل الذِّمة وبِيَعهم وبيوت نيرانهم ، ولا يُتركون أن يُحدِثوا ما لَم يكن ، ولا يزيدون في البنيان ، لا سَعَة ولا ارتفاعًا ، ولا ينبغي للمسلمين أن يَدخلوها ، ولا يُصَلوا فيها ، ومتى أحدثوا زيادةً وَجَبَ نقضُها ، ويُنقَض ما وُجِد في بلاد الحرب مِن البِيَع والكنائس ، وإنما لَم يُنقَض ما في بلاد الإسلام لأهل الذِّمة ، لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة ، ولا يجوز أن يُمَكَّنوا من الزيادة ، لأن في ذلك إظهار أسباب الكفر ، وجائز أن يُنقَض المسجد لِيُعاد بنيانه . وقد فعل ذلك عُثمان ــ رضي الله عنه ــ بمسجد النبيِّ ﷺ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ﴾ [النُّور : ٣٦].

إن المساجد هي بيوت الله التي يُعبَد فيها ويُطاع ، ويُذكَر فيها اسْمُه العظيم. وهي أحب بِقاع الأرض إلى الله تعالى . وفي تفسير البغوي (١/ ٤٩): ((قال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه قال : المساجد بيوت الله في الأرض ، وهي تُضيء لأهل السماء ، كما تُضيء النجوم لأهل الأرض. وروى صالح بن حَيَّان عن ابن بُرَيْدة في قَوله تعالى : ﴿ في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ ﴾ ، قال : إنما هي أربعة مساجد لَم يَبْنِها إلا نبيٌّ : الكعبة بَناها إبراهيم وإسماعيل ، فجعلاها قِبلة ، وبيت المقدس بناه داود وسُلَيمان ، ومسجد المدينة بناه رسول الله ﷺ ، ومسجد قُبَاءَ أُسِّس على التقوى ، بناه رسول الله ﷺ)) اهـ .

وقد أمرَ الله ببناء المساجد وتعظيمها وصيانتها واحترامها وتنظيفها وتطهيرها مِن كُل سُوء ، والمحافظة عليها ، وتَنْزيهها عن كُل ما لا يَليق بها من الأقوال والأفعال . والمقصودُ مِن التَّسبيح في الآيةِ ، الصلاةُ المفروضة . ومَن زارَ اللهَ في بَيته أكرمه اللهُ ، وحَق على الْمَزُور إكرام زائره .

والغايةُ من وجود المساجد: تَوحيد اللهِ وذِكره،وقراءة القُرآن،وإقامة الصلاة فيها،ونشر العِلم.

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٢٤٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها ﴾ . قِيل : معناه يُصلِّي . وقال ابن عباس : كُل تسبيح في القرآن صلاة ، ويدل عليه قَوله : ﴿ بالغُدُوِّ والآصَالِ ﴾ ، أي : بالغَدَاةِ والعَشِيِّ . وقال أكثر المفسِّرين : أراد الصلاة المفروضة ، فالغُدُوُّ صلاة الصُّبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والعِشاءَيْن ، لأن اسم الآصال يَجمعها)) اهـ .

وتَمَّ تخصيص طَرَفَي النهار بالذِّكر، لأن ذِكرهما يشمل جميع أوقات النهار، وهُما الأكثر شُهرةً، وفيهما تُمارَس الأنشطة الإنسانية المختلفة . وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ١٧٨) : ((وإفراد طَرَفَي النهار بالذِّكر لقيامهما مَقام كُلِّها، لِكَوْنهما العُمدة فيها بِكَوْنهما مُشهودين ، وكَوْنهما أشهر ما يَقع فيه المباشَرة للأعمال ، والاشتغال بالأشغال)) اهـ .

وعن عُثمان بن عفان ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : سَمعتُ رسول الله ﷺ يَقول : ((مَن بَنَى مسجدًا لله ، بَنى اللهُ له في الجنة مِثْلَه))[50].

هذا الحديثُ يُبيِّن أهمية بناء المساجد، ويُوضِّح أنها عبادة جليلة لها مكانة عظيمة، وفضل كبير. وتنكيرُ " مسجدًا " للشُّيوع ، فيشمل كل مسجد ، صغيرًا كان أَم كبيرًا . وَمَن بنى مسجدًا طلبًا لرضا الله ، بلا رياء ولا سُمعة . والمقصود هو الإخلاص لله تعالى ، بنى اللهُ له في الجنة بيتًا عظيمًا شريفًا، جَزاءً له على عبادته وطاعته وإخلاصه. وكلمةُ" مِثْلَه " لا تعني الْمُمَاثَلَة ، فلا مُقارَنة بين الجنة والدنيا ، كما أن شرف المساجد بالتَّعَبُّد فِيه ، لأن الدنيا دار عمل . أمَّا شرف بُيوت الجنة فهي النعيم والسعادة والاستمتاع ، لأن الآخرة دار جزاء .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٤): ((يحتمل قَوله: " مِثْلَه" أمرين، أحدهما: أن يكون معناه : بَنى اللهُ تعالى له مِثْلَه في مُسمَّى البيت ، وأمَّا صِفته في السَّعَة وغَيرها ، فمعلوم فضلها أنها مِمَّا لا عَين رأت ، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خَطَر على قلب بَشَر . الثاني : أن معناه أن فضله على بيوت الجنة كفضل المسجد على بيوت الدنيا)) اهـ .

---

(٥٠) متفق عليه . مسلم (٤/ ٢٢٨٧) برقم (٥٣٣) ، والبخاري (١/ ١٧٢) برقم (٤٣٩) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وإِقَامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأبصارُ ﴾[النُّور : ٣٧] .

هذا مَدْحٌ إلهيٌّ للصحابة الذين كانوا أمهر الناس في التجارة وأكثرهم بَراعة ، وكانوا يُمارِسون التجارة بحرفية عالية، ويَشترون ويَبيعون بذكاء وفِطنة واحتراف مُنقطع النظير. ولكنهم لَم يَنشغلوا بالتجارة عن ذِكر الله تعالى ، ولَم تُلْهِهم عن أداء حُقوق الله كاملةً غير منقوصة . وهؤلاء الرجال الصادقون الذي يُصَلون في المساجد (بُيوت الله)، لا يُشغِلهم شراء ولا بَيع عن الصلاة المفروضة، وإقامتها بفرائضها وسُننها وشُروطها وآدابها في وقتها ، وإخراجِ الزكاة الواجبة في أموالهم لِمُستحقيها. إنهم ملتزمون بعبادة الله ، ويُقدِّمون طاعته على مَتاع الدنيا الفاني . وتنكيرُ ﴿رِجَالٌ ﴾ للتعظيم والتفخيم والتشريف، وبيان تَقواهم وحِرصهم على طاعة الله تعالى. وتخصيص ﴿ بَيْعٌ ﴾ بالذِّكر لأن الربح فيه أكيد ومُتَيَقَّن ، وهُؤلاء المؤمنون الصادقون يُضَحُّون بالمكاسب الدنيوية الأكيدة والأرباح المادية الْمُتَيَقَّنَة مِن أجل عبادة الله وطاعته. وهذه قمة التقوى. وتخصيص التجارة والبيع بالذِّكر ، لأنهما أعظم ما يشتغل بِه الإنسان عن الصلاة والطاعات . والمقصود بِ ﴿ ذِكْرِ اللهِ ﴾ الصلاة المفروضة،والمقصود بِ ﴿ إِقَامِ الصَّلاةِ ﴾ أداؤها بحدودها في وقتها (حفظ المواقيت). ومَن أخَّرَ الصلاةَ عن وقتها ، لا يُعتبَر مُقِيمًا لها . لذلك أُعِيد ذِكر إقامة الصلاة . وقد ذُكِرت ﴿ الزَّكاةِ ﴾ مع أنها لا علاقة لها بالمساجد ، لبيان اقتران إيتاء الزكاة بإقامة الصلاة ، وأنهما عبادتان مُتلازمتان لا تفترقان . يَخافون يوم القيامة الرهيب ، الذي تضطرب وتتغير وتتحوَّل فيه القلوبُ والأبصارُ من شِدَّة الخوف والرُّعب،وعَظَمَة الأهوال والشدائد، وحَذَرًا من الهلاك والعذاب،وطمعًا في الفَوز والنجاة. وتخصيص الرجال بالذِّكر يدل على أن النساء لا نصيب لهنَّ في المساجد ، ولا جُمُعة عليهنَّ ، ولا جماعة . وبالتأكيد، إن صلاة المرأة في بَيتها أفضل مِن صَلاتها في المسجد . وقد روى ابن خُزَيمة في صحيحه (٣/ ٩٥) أن النبيَّ ﷺ قال : ((صَلاةُ المرأةِ في مَخْدَعِها أفضلُ مِن صَلاتها في بَيتها)) . ومَخْدَعُها هو غُرفتها التي تكون داخل بَيتها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٧و٤٨): ((قَوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم ﴾ ، أي: لا تُشغِلهم تجارة ولا بَيع . قال ابن السائب : التُّجار الجلاَّبون ، والباعة الْمُقيمون. وقال الواقدي: التجارة ها هنا بمعنى الشراء . وفي المراد بِذِكر الله ثلاثة أقوال : أحدها الصلاة المكتوبة، قاله ابن عباس وعطاء . وروى سالم عن ابن عمر أنه كان في السُّوق ، فَأُقِيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم، ودخلوا المسجد،فقال ابن عمر:" فِيهم نزلت: ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تِجارةٌ ولا بَيْعٌ

عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾ ". والثاني عن القيام بحق الله ، قاله قَتادة. والثالث عن ذِكر الله باللسان، ذَكَره أبو سُلَيمان الدمشقي. قَوله تعالى : ﴿ وإِقَامِ الصَّلاةِ ﴾ أي : أداؤها لِوَقتها وإتمامها . فإن قِيل: إذا كان المراد بِذِكر الله الصلاة فما معنى إعادتها ؟. فالجواب أنه بَيَّنَ أنهم يُقيمونها بأدائها في وقتها. قَوله تعالى : ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأبصارُ ﴾ في معناه ثلاثة أقوال : أحدها أن مَن كان قلبه مؤمنًا بالبعث والنُّشور ازدادَ بصيرةً برؤية ما وُعِد به ، ومَن كان قلبه على غَير ذلك رأى ما يُوقِن معه بأمر القيامة ، قاله الزَّجاج . والثاني أن القلوب تتقلب بين الطمع في النجاة ، والخوف من الهلاك . والأبصار تتقلب تنظر مِن أين يُؤتَوْنَ كُتُبَهم ، أَمِن قِبَل اليمين أم مِن قِبَل الشمال ، وأي ناحية يُؤخَذ بهم ، أذات اليمين أم ذات الشمال، قاله ابن جرير.والثالث تتقلب القلوب فتبلغ إلى الحناجر، وتتقلب الأبصار إلى الزُّرق بعد الكُحل ، والعمى بعد النظر)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : ــ ﴿ في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ (٣٧) ﴾ . قال : ((ضَرَبَ اللهُ هذا الْمَثَل قَوله:﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصْبَاحٌ المِصباحُ في زُجاجة﴾[النُّور: ٣٥]. لأولئك القوم الذين لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذِكر الله . وكانوا أتجرَ الناس وأبيعهم ، ولكن لَم تكن تُلهيهم تجارتهم ولا بَيعهم عَن ذِكر الله))[51].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنَّ المساجدَ للهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴾[الجِن : ١٨] .

إن المساجد هي المواضع التي بُنِيَت للصلاة فيها ، وهي بُيوت الله ومواضع عبادة المسلمين، وهي مُخصَّصة لتوحيد الله وذِكره وعبادته وطاعته، فيجب أن يُعبَد الله فيها ، وَحْدَه لا شريك له ، وأن تكون الطاعة خالصةً لوجهه الكريم. ولَم تُوجَد المساجد للبيع والشراء واللعب والتَّسلية واللغو والجدال وأحاديث الدنيا والنَّوم.وإنما وُجِدَت لعبادة الخالق وَحْدَه، ولا نصيب فيها لمخلوق، ولا يَجوز أن يُدعَى مَعَ اللهِ أحد مِن خَلْقه ، كائنًا ما كان . وهذا أمرٌ إلهيٌّ بتوحيد الله في الصلاة .

والآيةُ تشتمل على توبيخ للمُشركين الذين كانوا يَدْعُون مَعَ اللهِ الأصنامَ والأوثانَ في المسجد الحرام . والمساجد تُضاف إلى الله ، تشريفًا لها ، وتعظيمًا لِقَدْرها ، وهو سُبحانَه مالكها . ويَجوز نِسبة المساجد إلى غَير الله تعالى على وجه التعريف ، مِثل : مسجد فُلان أو مسجد القبيلة الفُلانية .

---

(٥١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٣٢) برقم (٣٥٠٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٨٢و٣٨٣): ((قَوله تعالى : ﴿ وأنَّ المساجدَ للهِ ﴾ فيها أربعة أقوال : أحدها أنها المساجد التي هي بُيوت الصلوات، قاله ابن عباس. قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا ، فأمرَ اللهُ عز وجل المسلمين أن يُخلِصوا له إذا دخلوا مساجدهم. والثاني الأعضاء التي يَسجد عليها العبد، قاله سعيد بن جُبَير وابن الأنباري، وذَكَره الفَرَّاء ، فيكون المعنى : لا تسجدوا عليها لِغَيره . والثالث أن المراد بالمساجد هاهُنا البِقاع كلها ، قاله الحسن ، فيكون المعنى أن الأرض كُلها مواضع للسجود ، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها . والرابع أن المساجد السُّجود ، فإنه جمع مَسْجَد، يُقال : سَجَدْتُ سُجُودًا ومَسْجَدًا ، كما يُقال: ضَرَبْتُ في الأرض ضَرْبًا ومَضْرَبًا ، ثُمَّ يُجمَع فَيُقال: المساجِد والمضارِب. قال ابن قُتَيبة : فعلى هذا يكون واحدها مَسْجَدًا، بفتح الجيم، والمعنى: أخْلِصُوا له ، ولا تسجدوا لغيره)) اهـ .

٢ _ المسجد الحرام :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تُقَاتِلُوهُم عِندَ المسجدِ الحرامِ حتى يُقَاتِلُوكُم فِيهِ فَإن قَاتَلُوكُم فَاقْتُلُوهم كَذَلِكَ جَزَاءُ الكافرين ﴾ [البقرة : ١٩١] .

لا يجوز البَدْءُ في القتال عند المسجد الحرام تعظيمًا لِحُرمته ، وإبرازًا لمكانته العظيمة . والحالةُ الوحيدة التي يُقاتَل فيها عند المسجد الحرام هي القتال الدفاعي الذي يكون رَدَّةَ فِعلٍ وليس فِعلاً . أمَّا الابتداءُ في القتال في هذا الموضع الشريف فهو غير جائز البتَّة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٤٨) : ((للعلماء في هذه الآية قولان : أحدهما أنها منسوخة، والثاني أنها مُحْكَمَة . قال مجاهد : الآية مُحْكَمَة ، ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يُقاتِل، وبه قال طاوس. وهو الذي يقتضيه نص الآية وهو الصحيح مِن القَوْلين وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه)) اهـ .

ويُؤيِّد كَوْنَها مُحْكَمَة ما قاله النبيُّ ﷺ يوم فتح مكة : ((إن هذا البلد حَرَّمه اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السماواتِ والأرض ، فهو حرامٌ بِحُرْمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لَم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحد قَبْلي ، ولم يَحِلَّ لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرامٌ بِحُرمة الله إلى يوم القيامة)) [52].

(٥٢) متفق عليه. البخاري(٣/ ١١٦٤) برقم (٣٠١٧) ، ومسلم (٢/ ٩٨٦) برقم (١٣٥٣).

وهذا يشير إلى الْحُرمة الأبدية الثابتة لمكة المكرمة ، وهذه الحرمة مستمرة حتى يوم القيامة لا يمكن تغييرها ، لأن باب النَّسخ قد أُغلق بوفاة النبيِّ ﷺ . مما يدل على المنْزلة السامية لمكة وشرفها المقدَّس الذي يَعلو ، ولا يُعلَى عليه .

وفي تفسير القرطبي (٢/ ٣٤٨) : ((قال قتادة: الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهُمْ ﴾ [التَّوبة : ٥]. وقال مقاتل: نسخها قولُه تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [النساء : ٩١] ، ثم نَسخ هذا قولُه : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهُمْ ﴾[التوبة : ٥]، فيجوز الابتداء بالقتال في الْحَرَم)) اهـ .

ومِن الواضح أن الآية مُحْكَمة وليست منسوخةً . والمذهبُ الأقوى في تفسيرها هو الاعتماد على أنها ثابتة غير منسوخة . وهي مقيَّدة بشرط أن يبدأ الأعداءُ القتالَ في الحرَم ، فيكون دور المسلمين في هذه الحالة رَد فِعلٍ لا أكثر ولا أقل . وهذا واضح تمامًا من سياق الآية الشريفة ، ولا يحتاج إلى كثير بحث ، فقوله تعالى : ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ أبرزَ القاعدةَ الأساسية في التعامل مع هذه الحالة الخاصة . فإن بدأ الكفارُ بالقتال ، فعندئذ يقوم المسلمون برد العدوان وقتلهم . وقال الكاساني في بدائع الصنائع (٦/ ٨٣) : ((أمَّا إذا دَخَلَ مُكابِرًا أو مُقاتِلاً ، يُقتَل لقوله تعالى : ﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ ، ولأنه لَمَّا دخلَ مُقاتِلاً فقد هَتَكَ حُرمةَ الحرَم ، فيُقتَل تلافيًا للهتك زجرًا لغيره عن الهتك . وكذلك لو دخلَ قوم من أهل الحرب للقتال فإنهم يُقتَلون ، ولو انهزموا من المسلمين فلا شيء على المسلمين في قتلهم وأسرهم)) اهـ .

وهدفُ القتل هو الحماية والردع ، والحفاظ على حُرمة الحرَم لئلا يصبح ملعبًا لكل مَن تُسَوِّل له نَفْسه أن يتعدى على هذه البقعة المقدَّسة ، فالذي دخل مُقاتِلاً هتكَ حُرمةَ الحرَم ولَم يحترمها ، فالواجب قتله لمنع هذا الهتك، وردع كل مَن يُفكِّر أن يصنع صنيعه . ولو تُرِك الحبل على الغارب، ولَم يتم قتلُ هاتك حُرمةِ الحرَم، لصار الحرَمُ حلبةَ مصارعة ، ولعبةً من الألعاب ، وهذا يُضاد قُدسيةَ هذا المكان الشريف. وإذا تُرِك الجاني في الحرَم دون عقاب لانتشر الفسادُ بصورة كارثية . وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٧/ ١١٨):((الجاني في الحرَم هاتك لِحُرمته بخلاف الملتجىء إليه،وأيضًا لو تُرِك الحد والقِصاص على مَن فعل ما يُوجبه في الحرَم لَعَظُمَ الفسادُ في الحرَم)) اهـ.

لا يجوز الابتداء بقتال الكافرين عند المسجد الحرام ، ولكن إذا بَدَؤوا بالقتال فعندئذ يُقاتَلون لرد عدوانهم وردعهم ، ولكي يدفعوا ثمنَ جرائمهم .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ١٩٧) : ((ولا تبتدئوا _ أيها المؤمنون _ المشركين بالقتال عند المسجد الحرام، حتى يَبْدَأوكم به، فإن بدأوكم به هناك عند المسجد الحرام في الحرَم فاقتلوهم، فإن الله جعل ثواب الكافرين على كفرهم وأعمالهم السيئة القتلَ في الدنيا ، والخِزي الطويل في الآخرة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما لهم ألا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وهُم يَصُدُّونَ عَنِ المسجدِ الحرامِ وما كانوا أولياءَهُ إنْ أولياؤُهُ إلا الْمُتَّقُونَ ولكنَّ أكثرَهُم لا يَعْلَمُون ﴾[الأنفال : ٣٤] .

إن كفار مكة مستحقون للعذاب الإلهيِّ ، ولكن اللهَ لَم يُعاجلهم بالعقوبة والعذاب تعظيمًا للنبيِّ ﷺ وإكرامًا له ، وتشريفًا لِمَقامه بين أظهرهم . وعندما خرج النبيُّ ﷺ مِن بينهم ، عذَّبهم اللهُ يوم بَدْر على أيدي المؤمنين ، فقتلوا صَناديدَهم ، وأسَرُوا أشرافَهم .

كيف لا يُعذِّبهم اللهُ وهُم مستحقون للعذاب بسبب شِرْكهم وضلالهم وآثامهم وجرائمهم ؟ . أيُّ شَيء يَمنع مِن تعذيبهم وهُم يَصُدُّون المؤمنين عن المسجد الحرام ، ويَمنعونهم مِن الصلاة فيه والطواف بِه ؟ . وقد صَدَّ مُشركو مكة النبيَّ ﷺ عام الْحُدَيبية ، كما أجبروا المؤمنين على الهجرة مِن مكة ، وترك ديارهم وممتلكاتهم . وهؤلاء المشركون لَيسوا أهل المسجد الحرام بسبب كفرهم وضلالهم . إنَّ أهلَ المسجد الحرام النبيُّ ﷺ وصحابته _ رضي اللهُ عنهم _ ، لأنهم المؤمنون باللهِ تعالى ، يَعبدونه وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد، ويُطيعون أوامره، ويجتنبون نَواهيه. وهذا رَدٌّ إلهيٌّ بليغ على المشركين ، وتوبيخ لهم ، وتكذيبٌ لهم ، لأنهم كانوا يَعتبرون أنفسهم أولياء المسجد الحرام.

إن أولياء المسجد الحرام وأهْله هم الْمُؤمنون الْمُتَّقون الذين يُوحِّدون اللهَ ، ويَبتعدون عن الشِّرك والمعاصي، ولكنَّ أكثرَ كفار مكة جاهلون لا يَعْلَمون أن لا وِلاية لهم على المسجد الحرام. وهذا يدل على أن الأقلية من كفار مكة يَعْلَمون ولَيسوا جُهَّالاً، ولكنهم يُعانِدون عن عِلْم ومعرفة وبصيرة ، حِفاظًا على مصالحهم الشخصية ومنافعهم الذاتية . وقد كان كفار مكة يعتبرون أنفسهم وُلاة المسجد الحرام وحُماته وأهله، والمسؤولين عنه، وهُم الذين يُقرِّرون مَن يَدخله ومَن لا يَدخله. وكأنه عَقار شخصي ومِلْك لهم ، ومُسجَّل باسمهم . فردَّ اللهُ عليهم ، وفضحهم ، وكشف باطلَهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٥١و٣٥٢):((قَوله تعالى: ﴿ وما لهم ألا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ﴾ هذه الآية أجازت تعذيبهم ، والأُولَى _ يعني الآية : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وأنتَ فِيهِم وما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وهُم يَستغفرون ﴾ [الأنفال : ٣٣] _ ، نَفَتْ ذلك ، وهل المراد بهذا العذاب الأول أَم لا ؟،فيه قَولان: أحدهما أنه هو الأول، إلا أن الأول امتنع بشيئين أحدهما: كَوْن النبيِّ ﷺ

فيهم. والثاني كَوْن المؤمنين المستغفرين بينهم، فلمَّا وقع التمييز بالهجرة، وقع العذاب بالباقين يوم بَدْر . وقِيل : بَل وقع بفتح مكة . والثاني أنهما مختلفان، وفي ذلك قَولان: أحدهما أن العذاب الثاني قتل بعضهم يوم بَدْر، والأول استئصال الكُل، فلم يقع الأول لِمَا قد عَلِمَ مِن إيمان بعضهم وإسلام بعض ذراريهم، ووقع الثاني. والثاني أن العذاب الأول عذاب الدنيا، والثاني عذاب الآخرة ، قاله ابن عباس. فيكون المعنى : وما كان اللهُ مُعذِّب المشركين لاستغفارهم في الدنيا ، وما لهم ألا يُعذِّبهم اللهُ في الآخرة. قَوله تعالى: ﴿ وهُم يَصُدُّونَ ﴾. قال الزَّجاج: المعنى وَهُم يصدون عن المسجد الحرام أولياءَه، وفي هاء الكِناية في قَوله : ﴿ وما كانوا أولياءَهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى المسجد، وهو قَول الجمهور.قال الحسن: إن المشركين قالوا: نحن أولياء المسجد الحرام، فردَّ اللهُ عليهم بهذا. والثاني أنها تعود إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ذَكَره أبو سليمان الدمشقي . قَوله تعالى : ﴿ إِنْ أولياؤُهُ ﴾ أي : ما أولياؤه إلا الْمُتَّقون للشِّرك والمعاصي، ولكن أكثر أهل مكة لا يَعْلَمون مَن الأَوْلَى ببيت الله)) .

وعن أنس بن مالك ــ رضي اللهُ عنه ــ : قال أبو جهل : اللهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ مِن عِندك ، فأمطِر علينا حِجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . فَنَزلت : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وأنتَ فِيهِم وما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وهُم يَستغفرون (٣٣) وما لهم ألا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وهُم يَصُدُّونَ عَنِ المسجدِ الحرامِ ﴾[الأنفال : ٣٤] . الآية [53]. لقد قالَ أبو جهل مقولته الشنيعة سُخريةً واستهزاء ، ومعنى كلامه : اللهمَّ إن كان القُرآن حقًّا مِن عِندك ، فأنزِلْ عَلَينا حِجارةً من السماء عُقوبةً لنا على كُفرنا بِه، أو أَهْلِكْنا بعذاب مُؤلِم . إنه يَدعو على نفْسِه بالعذاب والهلاك جَهلاً مِنهُ وسَفَهًا وسُخريةً واستهزاءً ، وهو يُريد إظهار اليقين التام على كَون القُرآن باطلاً، وأن المشركين على حَق. لقد استعجلَ العذابَ بِنَفْسِه ، وأرادَ أن يُدمِّر نَفْسَه بنفْسه، وهذه هي فلسفة المشركين الباطلة . ولو كان أبو جهل خاصَّةً والمشركون عامَّةً أصحاب عُقول لقالوا : اللهمَّ إن كانَ هذا هُوَ الحقَّ مِن عِندِكَ فاهْدِنا له ، أوْ وَفِّقْنا للإيمان به . واللهُ تعالى يُمْهِل ولا يُهمِل ، لا تَستفزُّه معصية العُصاة ، ولا يُثيره كُفر الكافرين . لا تَنفعه الطاعةُ ، ولا تَضُرُّه المعصية . وقد بَيَّنَ اللهُ عِلَّةَ عدم تَعذيبهم ، إِذْ إنَّ فِيهم أمانَيْن : الأمان الأول ــ وُجود النبيِّ ﷺ فِيهم . والأمان الثاني : الاستغفار . وإذا زالَ هذان الأمانان ، فإنَّ العذابَ نازلٌ بِهم . وهذا تَخويفٌ لهم وتهديد شديد .

---

(٥٣) متفق عليه.البخاري(٤/ ١٧٠٤) برقم (٤٣٧١) ، ومسلم (٤/ ٢١٥٤) برقم (٢٧٩٦).

وفي الحديث: جَمَعَ رَسولُ الله ﷺ قُرَيْشًا، فقال: ((مَن غَيْرُكم ؟))، قالوا : فِينا ابنُ أختنا ، وفِينا حَليفُنا ، وفِينا مَولانا ، فقال : ((حَليفُنا مِنَّا ، وابنُ أختنا مِنَّا ، ومَولانا مِنَّا ، إنَّ أوليائي مِنكم المتقون)) [(54)].

إن التمسُّك بِسُنَّة النبيِّ ﷺ واتِّباعه في كُل صغيرة وكبيرة ، هو طريق النجاة والفَوز في الدنيا والآخرة ، وهذا وَحْدَه هو طريق الخلاص الذي يُعوَّل عليه . وكلما كان الإنسان حريصًا على الْمُتابَعة كان قريبًا مِن النبيِّ ﷺ ، وإذا أعرض عن الاتِّباع كان بعيدًا مطرودًا حتى لو كان من آل بَيته أو مِن صحابته . وفي واقع الأمر ، إن آل البيت منهجٌ لا نَسَب .

قال الحافظ في الفتح (١١/ ١٦٠) : ((وقِيل : المراد بالآل جميع الأُمَّة أُمَّة الإجابة ، وقال ابن العربي: مالَ إلى ذلك مالك، واختاره الأزهري، وحكاه أبو الطيب الطبري عن بعض الشافعية، ورجَّحه النووي في شرح مسلم، وقيَّده القاضي حسين والراغب بالأتقياء منهم . وعَلَيْه يُحمَل كلام مَن أَطلق. ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿ إنْ أولياؤه إلا المتقون ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وقوله ﷺ : " إنَّ أوليائي مِنكم الْمُتَّقون " . وفي نوادر أبي العَيناء أنه غَضَّ من بعض الهاشميين ، فقال له : أتغضُّ مِنِّي وأنتَ تُصلِّي عليَّ في كل صلاة في قَوْلِك: اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ؟!، فقال : إني أريد الطيبين الطاهرين ، ولستَ منهم)) اهـ .

وهذا يدل على أن الأتقياء هُم آل البَيْت الحقيقيون ، بغضِّ النظر عن كَوْنهم هاشميين أو غير هاشميين . فالعِبرةُ هي بالتقوى (رابطة الدِّين) ، وليس بالنَّسَب (رابطة الدَّم) . وهذا هو الفارقُ الجوهريُّ بين الفكر الإسلاميِّ والفكر القَوميِّ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ للمُشركينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إلا الذينَ عَاهَدتُم عِندَ المسجدِ الحرامِ فَمَا استقاموا لكم فاسْتَقِيمُوا لَهُم إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِين ﴾ [التَّوبة : ٧] .

كيف يكون للمشركين أمن وأمان عند الله وعند رسوله،وتُترَك لهم حرية الحركة والتَّصَرُّف ؟.
لا عهد لهم ولا ذِمَّة ولا أمن ولا أمان، لأنهم خَوَنة ، يُضمِرون الغدر ، ونكث العهد ، ويجب قتلهم أينما وُجِدوا،فلا عِصمة لدمائهم بسبب خيانتهم وغدرهم. والخائنُ خيانة عُظمى ليس له إلا القتل. وهذا ثابت في كل الشرائع السماوية والوضعية . وكُل القوانين البشرية في دُوَل العالَم تَحكم بالقتل على الخائن خيانة عُظمى مع الخِزي والعار . و﴿ كَيْفَ ﴾ استفهام للتَّعَجُّب والإنكار.

---

(٥٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٥٨) برقم (٣٢٦٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي تفسير القرطبي (٨/ ٧٣) : ((وقِيل : المعنى : كيف يكون للمشركين عهد عِند الله يأمنون به عذابه غَدًا ؟ ، وكيف يكون لهم عند رسوله عهد يأمنون به عذاب الدنيا ؟)) اهـ .

واللهُ عادلٌ مُنصِف بيَّن حالة الاستثناء : إلا الذين أُعْطُوا العهدَ عند المسجد الحرام ، يعني يوم الْحُدَيبية ، وهؤلاء يجب الوفاء بعهدهم ما داموا مُتمسِّكين بِه ، وقائمين بحقوقه كاملةً . أي : إذا التزموا بالوفاء بعهدكم ، فأوفوا بعهدهم . إن الله يُحب الذين يتَّقونه، ويُطيعونه، ولا يَعصونه ، ويلتزمون بالوفاء بالعهود ، ولا يَخونون ، ولا يغدرون . والوفاءُ بالعهود مِن أفعال المتَّقين .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٤٥) : ((وقد فَعل رسولُ الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر العَقد والهدنة مع أهل مكة مِن ذي القِعدة في سنة سِت إلى أن نقضت قُرَيش العهد ، ومالؤوا حلفاءهم وهُم بنو بَكْر على خُزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، فقتلوهم معهم في الْحَرَم أيضًا ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ، ففتحَ اللهُ عليه البلد الحرام، ومَكَّنه مِن نواصيهم، ولله الحمد والمِنَّة ، فأطلقَ مَن أسلمَ منهم بعد القهر والغَلَبة عليهم ، فَسُمُّوا الطُّلَقَاء ، وكانوا قريبًا مِن ألفين ، ومَن استمر على كُفره وَفَرَّ مِن رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر ، يذهب حيث شاء ، ومِنهم صَفوان بن أُمَيَّة وعِكرمة بن أبي جهل وغَيرهما، ثُمَّ هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يُقدِّره ويَفعله)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ للمُشركينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ ، هذا على وجه التَّعَجُّب ، ومعناه جَحْد ، أي : لا يكون لهم عند الله ، ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ، ثُمَّ استثنى ، فقال جَلَّ وعلا : ﴿ إلا الذينَ عَاهَدتُم عِندَ المسجدِ الحرامِ ﴾ . قال ابن عباس : هُم قُرَيش . وقال قَتادة : هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الْحُدَيبية. قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَا استقاموا لكم ﴾ أي: على العهد ﴿ فاسْتَقِيمُوا لَهُم ﴾ . فلم يَستقيموا ، ونقضوا العهد ، وأعانوا بني بَكْر على خُزاعة ، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر، يَختارون مِن أمرهم: إمَّا أن يُسْلِموا، وإمَّا أن يَلحقوا بأي بلاد شاؤوا ، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر . قال السُّدي والكلبي وابن إسحاق : هُم مِن قبائل بَكْر : بَنُو خُزَيمة ، وبنو مُدْلِج، وبنو ضَمْرَة، وبنو الدِّيل،وهُم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قُرَيش يوم الْحُدَيبية ، ولَم يكن نَقَضَ العهد إلا قريش وبنو الدِّيل مِن بني بكر ، فأمر بإتمام العهد لِمَن لَم ينقض وهُم بنو ضَمْرَة . وهذا القول أقرب إلى الصواب، لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قُرَيش العهد، وبعد فتح مكة ، فكيف يقول لشيء قد مضى : ﴿ فَمَا استقاموا لكم فاسْتَقِيمُوا لَهُم ﴾ ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إنما المشركونَ نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عَامِهِم هذا وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إن شَاءَ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيم ﴾ [التَّوبة : ٢٨] .

يا أيها الْمُصَدِّقون بِوَحدانيةِ الله ونُبُوَّة محمد ﷺ إنما المشركون نَجَسٌ دِينًا ، وهُم عَيْن القذارة والْخُبث، فلا تسمحوا لهم أن يَدخلوا جميعَ الْحَرَم ، وامنعوهم من الحج والعُمرة كما كانوا يفعلون في الجاهلية ، بعد سنة تسع للهجرة التي حَجَّ فيها أبو بكر الصِّديق ـ رضي اللهُ عنه ـ . والْحَرَمُ حرامٌ على المشركين . والمقصود بالمسجد الحرام في الآية الْحَرَمُ كُلُّه . ويجب منع المشركين مِن دخول الْحَرَم ، مهما كانت الظروف . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١١٦) : ((والمراد بالمسجد الحرام هاهُنا الْحَرَم كُلُّه ، فلا يُمكَّن مُشرك من دخول الْحَرَم بحال ، حتى لو جاء في رسالة أو أمر مهم لا يُمكَّن مِن الدخول ، بل يخرج إليه مَن يقضي الأمر المتعلق به ، ولو دَخل خُفية ومرض ومات ، نُبِش ، وأُخرِج مِن الْحَرَم)) اهـ . وروى ابن خُزَيمة في صحيحه (٢/ ٢٨٥) : أن جابر بن عبد الله قال في قوله تعالى : ﴿ إنما المشركونَ نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عَامِهِم هذا ﴾ ، قال : ((إلا أن يكون عبدًا ، أو أحدًا مِن أهل الذِّمة)) .

والآيةُ دليل على نجاسة المشرك، وليس المقصود نجاسة أبدانهم ، وإنما نجاسة عقائدهم، وفساد باطنهم ، وخُبث أفعالهم ، وقُبح أقوالهم. والكافرُ ليس نجس الذات بدليل أن الله أحلَّ طعامَهم، وأحلَّ للمسلم أن يتزوَّج مِن نساء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) . وقِيل : المشركون نَجَس لأنهم لا يغتسلون مِن جَنابة ، ولا يَتوضَّؤون مِن حَدَث .

وإن خِفْتُم فَقْرًا وحاجةً، بسبب منعهم من الحج ودُخول الْحَرَم، وانقطاع الأسواق، وكساد التجارة، فَسَوْفَ يُعوِّضكم الله ، ويَرزقكم رِزْقًا واسعًا ، ويُغنيكم مِن عطائه إن شاء . وهذا يدل على أن الرزق بيد الله، وليس بذكاء العبد ولا اجتهاده ، واللهُ يَقْسِم فَضْلَه بين الناس وَفْقَ حِكمته الجليلة . فيجب تعليق الآمال بالله وَحْدَه ، وهذا لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب .

وقد كان المشركون يَجلبون الأطعمة والتجارات ، ومَنْعُهم من دُخول جميع الْحَرَم ، يَعني انتشار الفقر والجوع والحاجة ـ وَفْق تصوُّر المسلمين ـ . فوعدهم اللهُ أن يُعوِّضهم ويُكْرِمهم ويُغنيَهم مِن فضله العظيم ، وقد عوَّضهم بالفُتوح ، وأموال الجزية التي يأخذونها مِن أهل الذِّمة .

إن الله عليم بمصالحكم ومنافعكم وأحوالكم ، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وأوامره . فهو الخالقُ الكاملُ الرازق الْمُدَبِّر ، مُنَزَّهٌ عن العبث والظلم والفوضى . يُعطي مَن يَشاء ، ويَمنع مَن يَشاء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤١٦و٤١٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنما المشركونَ نَجَسٌ ﴾ . قال أبو عبيدة : معناه قَذَر . قال الزَّجاج : يُقال لكل شيء مُسْتَقْذَر نَجَس ، وقال الفرَّاء : لا تكاد العرب تقول نَجَس إلا وقبلها رِجس ، فإذا أفردوها قالوا : نَجَس . وفي المراد بِكَوْنهم نَجَسًا ثلاثة أقوال : أحدها أنهم أنجاس الأبدان كالكلب والخِنزير ، حكاه الماوردي عن الحسن وعمر بن عبد العزيز ، وروى ابن جرير عن الحسن قال : مَن صافحهم فليتوضأ . والثاني أنهم كالأنجاس لتركهم ما يجب عليهم مِن غُسل الجنابة ، وإن لَم تكن أبدانهم أنجاسًا ، قاله قتادة . والثالث أنه لَمَّا كان علينا اجتنابهم كما تُجتنَب الأنجاس ، صاروا بِحُكم الاجتناب كالأنجاس ، وهذا قول الأكثرين ، وهو الصحيح . قَوله تعالى : ﴿ فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ ﴾ . قال أهل التفسير : يُريد جميع الْحَرَم بعد عامهم هذا ، وهو سنة تسع مِن الهجرة ، وهي السنة التي حَجَّ فيها أبو بكر ، وقُرِئت براءة (يعني سُورة التَّوبة). وقد أخذ أحمد ـ رضي الله عنه ـ بظاهر الآية وأنه يَحْرُم عليهم دخول الْحَرَم ، وهو قول مالك والشافعي . واختلفت الرواية عنه في دخولهم غير المسجد الحرام من المساجد ، فَرُوِيَ عنه المنع أيضًا إلا لحاجة كالْحَرَم ، وهو قول مالك . ورُوِيَ عنه جواز ذلك ، وهو قول الشافعي . وقال أبو حنيفة : يجوز لهم دخول المسجد الحرام وسائر المساجد . قَوله تعالى : ﴿ وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً ﴾ ... . قال سعيد ابن جُبَير : لَمَّا نزلت : ﴿ إنما المشركونَ نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عَامِهِم هذا ﴾ ، شَق على المسلمين ، وقالوا : مَن يأتينا بطعامنا ؟ ، وكانوا يَقْدُمون عليهم بالتجارة ، فَنَزلت : ﴿ وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً ﴾ الآية . قال الأخفش : العَيْلَة الفقر ... . قالوا : وإنما خاف المسلمون الفقر، لأن المشركين كانوا يحملون التجارات إليهم ، ويجيئون بالطعام وغَيره . وفي قَوله : ﴿ فَسَوْفَ يُغنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إن شَاءَ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنه أنزل عليهم المطر عند انقطاع المشركين عنهم ، فَكَثُرَ خَيْرُهم ، قاله عِكرمة . والثاني أنه أغناهم بالجِزية المأخوذة من أهل الكتاب ، قاله قتادة والضَّحاك . والثالث أن أهل نَجْد وجُرَش (بلد بين مكة واليمن) وأهل صنعاء أسلموا ، فحملوا الطعام إلى مكة على الظَّهْر، فأغناهم الله به ، قاله مقاتل . قَوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾. قال ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ : عليم بما يُصلِحكم ، ﴿ حَكِيم ﴾ فِيما حَكَم في المشركين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ والمسجدِ الحرامِ الذي جَعَلْنَاهُ للنَّاسِ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإلحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أليم ﴾ [الحج : ٢٥] .

إن الذين جَحدوا وَحدانيةَ اللهِ ، ورَفضوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، وأنكَروا الوَحْيَ السماويَّ ، ويَصْرِفون الناسَ عن اعتناق الإسلام ، ويَمنعونهم مِن الدخول فيه ، ويَمنعون المؤمنين مِن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك ، وهُم أحق الناس به . والفِعل المضارع ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ يُفيد الدَّيمومة والاستمرارية ، أي إن الكافرين مستمرون في صَد المؤمنين عن المسجد الحرام. ومِن شأن الكافرين وعادتهم الصَّد عن سبيل الله . فَهُم مُستمرون على فِعلهم القبيح ، ويَحْرِصون عليه ، ويُديمونه . وهذه الآية نزلت عام الْحُدَيبية حِينَ صَدَّ الكافرون النبيَّ ﷺ عن المسجد الحرام .

وقد جَعل اللهُ المسجدَ الحرام للناس كُلِّهم بلا استثناء ، قِبلةً لصلاتهم ومكانًا لعبادتهم وطاعتهم وطوافهم، يَستوي في ذلك العاكفُ (الْمُقيم الْمُلازِم) والبادي (المسافر الذي أتى من خارج مكة) . سَواءٌ في تعظيم حُرمته وقضاء النُّسُك به الْمُقِيم الحاضر ، والطارئ الذي يَأتيه من البلاد . وأهلُ مكة لَيسوا أحق بِه مِن الواصل إلَيه.فالمسجدُ الحرامُ بَيت اللهِ، ولَيس مِن مُمتلكات أهل مكة. ومَن تكن إرادته في المسجد الحرام بأن يُلْحِد بِظُلم ، مِثل: الشِّرك واقتراف الآثام ، والإلحادُ هو الْمَيْل عن القصد . أي : ومَن يرتكب في المسجد الحرام فِعلاً قبيحًا وهو مُنحرِف عن الحق ، ومائل عن القصد ، وظالم . فإن اللهَ يُعذِّبه أشدَّ العذاب المؤلِم الْمُوجِع في نار جهنم. وذلك ، تعظيمًا لِحُرمة المكان وشرفه وفضله . لذلك ، تُضَاعَف السَّيئات في مكة كما تُضَاعَف الحسنات. ومكة هي حَرَمُ الله ، وأعظم بُقعة على وجه الأرض . لذلك يجب تقديسها وتَنْزيهها عن كُل سُوء.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٤١٩_ ٤٢٢):((قَوله تعالى:﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي : يَمنعون الناسَ مِن الدخول في الإسلام . قال الزَّجاج : ولفظ ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ لفظ مستقبل عطف به على لفظ الماضي _ ﴿كَفروا ﴾ _ ، لأن معنى ﴿ الذينَ كَفروا ﴾ الذين هُم كافرون . فكأنه قال : إن الكافرين والصَّادين ، فأمَّا خَبَر ﴿ إنَّ ﴾ فمحذوف . فيكون المعنى : إن الذين هذه صفتهم هلكوا . وفي المسجد الحرام قَولان : أحدهما جميع الحرَم ، روى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس أنه قال : " كانوا يَرَوْنَ الحرَمَ كُلَّهُ مَسْجِدًا ". والثاني نفْس المسجد، حكاه الماوردي . قَوله تَعالى : ﴿ الذي جَعَلْنَاهُ للنَّاسِ ﴾ هذا وقف التمام . وفي معناه قَولان : أحدهما جعلناه للناس كُلِّهم لَم نَخُصَّ به بعضَهم دُون بعض ، هذا على أنه جميع الحرَم . والثاني : جعلناه قِبلةً لصلاتهم ومَنْسَكًا لِحَجَّتهم ، وهذا على أنه نفْس المسجد ... فأمَّا العاكف فهو الْمُقيم ، والبادي الذي يأتيه مِن غَير أهله ، وهذا مِن قَولهم : بدا القوم ، إذا خرجوا مِن الحضَر إلى الصحراء ... ثُمَّ في معنى

الكلام قَولان: أحدهما أن العاكف والبادي يستويان في سُكنى مكة والنُّزول بها، فليس أحدهما أحق بالمنْزل من الآخر ، غَير أنه لا يُخرَج أحد من بيته ، هذا قول ابن عباس وسعيد بن جُبَير وقتادة ، وإلى نحو هذا ذهب أبو حنيفة وأحمد ، ومذهب هؤلاء أن كِراء (أُجرة) دُور مكة وبَيْعها حرام ، هذا على أن المسجد الحرَم كُله . والثاني أنهما يستويان في تفضيله وحُرمته وإقامة المناسك به ، هذا قول الحسن ومجاهد ، ومِنهم مَن أجاز بيع دُور مكة ، وإليه يذهب الشافعي ، وعلى هذا يجوز أن يراد بالمسجد الحرَم ، ويجوز أن يُراد نَفْس المسجد . قَوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإلحاد ﴾ الإلحاد في اللغة العُدول عن القَصْد ... وفي المراد بهذا الإلحاد خمسة أقوال: أحدها أنه الظلم، رواه العَوفي عن ابن عباس، وقال مجاهد : هو عمل سيئة ، فعلى هذا تدخل فيه جميع المعاصي ، وقد رُوِيَ عن عمر بن الخطاب أنه قال : " لا تحتكروا الطعام بمكة ، فإن احتكار الطعام بمكة إلحاد بِظُلم " . والثاني أنه الشِّرك ، رواه ابن ابي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وقتادة . والثالث الشِّرك والقتل، قاله عطاء . والرابع أنه استحلال مَحظورات الإحرام، وهذا المعنى محكيٌّ عن عطاء أيضًا.والخامس استحلال الحرام تَعَمُّدًا، قاله ابن جُرَيج . فإن قِيل : هل يُؤاخَذ الإنسان إن أراد الظلم بمكة ولَم يفعله ؟ . فالجواب مِن وجهين : أحدهما أنه إذا هَمَّ بذلك في الحرَم خاصةً عُوقِب، هذا مذهب ابن مسعود، فإنه قال : " لَو أن رَجلاً هَمَّ بخطيئة لَم تُكتَب عليه ما لَم يعملها، ولو أن رَجلاً هَمَّ بقتل مؤمن عند البيت ، وهو بِعَدَنِ أبْيَن ، أذاقه اللهُ في الدنيا مِن عذاب أليم". وقال الضَّحاك : إن الرَّجل لَيَهُمُّ بالخطيئة بمكة، وهو بأرض أخرى، فَتُكتَب عليه ولَم يعملها. وقال مجاهد : تُضَاعَف السَّيئات بمكة كما تُضَاعَف الحسنات . وسُئِل الإمام أحمد : هَل تُكتَب السيئة أكثر مِن واحدة ؟ . فقال : لا ، إلا بمكة ، لتعظيم البلد . وأحمد على هذا يرى فضيلة المجاورة بها ، وقد جاورَ جابر ابن عبد الله ، وكان ابن عمر يُقيم بها . والثاني أن معنى : ﴿ وَمَن يُرِدْ ﴾ مَن يَعمل . قال أبو سليمان الدمشقي : هذا قول سائر مَن حَفِظْنا عنه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ هُمُ الذينَ كَفروا وَصَدُّوكُم عَنِ المسجدِ الحرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ [الفَتْح: ٢٥].

إن كفار قُرَيش هُم المعتدون الآثِمون دُون غَيرهم ، أنكَروا تَوحيدَ اللهِ ، وجَحدوا وَحدانيته ، ومَنعوا المؤمنين من دخول المسجد الحرام لأداء مناسك العُمرة عام الْحُدَيبية . والمؤمنون أحق بالمسجد الحرام من المشركين ، وأولى به . ولَم يَكتفوا بهذا ، بَل أيضًا منعوا الْهَدْيَ مِن الوصول

إلى مكان ذَبْحه . وهذا يدل على ظُلمهم وعِنادهم وتكبُّرهم وطُغيانهم . لقد صَدُّوا الْهَدْيَ ــ ما يُهدَى لبيت الله لفقراء الحرَم ــ ، مَحبوسًا أن يَبلغ مكانه الذي يُذبَح فيه ، وهو الحرَم . وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢٤٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ هُمُ الذينَ كَفروا ﴾ يعني قُرَيْشًا ، منعوكم دخول المسجد الحرام عام الْحُدَيبية ، حِين أحرمَ النبيُّ ﷺ معَ أصحابه بِعُمرة ، ومَنعوا الْهَدْيَ ، وحَبسوه عن أن يَبلغ مَحِلَّه ، وهذا كانوا لا يَعتقدونه ، ولكنه حَملتهم الأنَفَة ، ودعتهم حَمِيَّة الجاهلية إلى أن يَفعلوا ما لا يعتقدونه دِينًا ، فَوَبَّخهم اللهُ على ذلك ، وتَوَعَّدهم عليه، وأدخلَ الأُنسَ على رسول الله ﷺ ببيانه ووعده)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٤٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ هُمُ الذينَ كَفروا ﴾ يعني أهل مكة ، وصَدُّوكم عن المسجد الحرام أن تَطوفوا به، وتَحِلُّوا مِن عُمرتكم . ﴿ وَالْهَدْيَ ﴾ . قال الزَّجاج: أي وَصَدُّوا الْهَدْيَ ﴿ مَعْكُوفًا ﴾ أي: مَحْبُوسًا ﴿ أن يَبْلُغَ ﴾ أي: عَن أن يبلغ ﴿ مَحِلَّهُ ﴾. قال المفسرون : مَحِلَّهُ مَنْحَرَه ، وهو حيث يَحِلُّ نَحْرُه ــ يعني ذَبْحه ــ)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بالحقِّ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفَتْح : ٢٧] . لقد جَعل اللهُ رُؤيا النبيِّ حَقًّا وصِدْقًا ، لا شَكَّ فِيها ولا مجال فيها للشَّيطان . ورؤيا الأنبياء صادقة وواقعة لا مَحالة ، لأنها جُزء مِن الوَحْي الإلهيِّ . وقد رأى النبيُّ ﷺ في مَنامه أنه يَدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين مِن أعدائهم المشركين ، لا يَخافونهم ولا يَقلقون بشأنهم ، وقد حَلَقَ بعضُهم شَعْرَ رأسه، وقصَّر بعضُهم. وقد أخبرَ أصحابَه بهذه الرؤيا ، ففرحوا بها ، واستبشروا خَيْرًا، فلمَّا خرج إلى الْحُدَيبية مع الصحابة ، ومَنعه المشركون من دخول مكة ، وتَمَّ الصُّلح ، شَكَّ المنافقون في أمر النبيِّ ﷺ ، وارتابوا ، وأثاروا البلبلة حول صِدق رؤيا النبيِّ ﷺ وتحققها على أرض الواقع ، وتضايقَ بعضُ الصحابة ، وشعروا بالانزعاج ، ووقع في نفوسهم شيء . فَنَزلت الآيةُ تصديقًا للنبيِّ ﷺ ، وأنه لَم يَكذب فيما رآه ، وأن رُؤياه صادقة وواقعة لا مَحالة ، ولكن الرؤيا لَم تُخبِر أنه يَدخلها عام ست للهجرة ، وقد حقَّق اللهُ رُؤيا النبيِّ ﷺ على أرض الواقع بعد عام . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٥٦): ((كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دَخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبرَ أصحابَه بذلك وهو بالمدينة، فلمَّا ساروا عام الْحُدَيبية لَم يَشُك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسَّر هذا العام ، فلمَّا وقع ما وقع مِن قضية الصُّلح ورَجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا مِن قَابِل (السنة القادمة)، وقع في نَفْس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء)).

وفي صحيح البخاري (٢/ ٩٧٤) : أن عمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ قال للنبيِّ ﷺ : أَوَ لَيْسَ كُنتَ تُحدِّثنا أنَّا سنأتي البيتَ فنطوف به ؟ ، قال : ((بلى ، فأخبرتك أنَّا نأتيه العام ؟)) ، قال : قُلت : لا ، قال : ((فَإنَّكَ آتِيه ومُطَوِّفٌ به)) .

﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شَاءَ اللهُ ﴾ . هذا خبرٌ يقينيٌّ مُؤكَّد ، وواقعٌ لا مَحالة ، ولا يَحمل معنى الاستثناء الْمُفيد للشَّك، لأن اللهَ يَعلم كُل شيء، ولا يَشُك . واللهُ يُعلِّم عبادَه الأدبَ وتعليق أمورهم بمشيئة الله ، والتَّبَرُّك باسمه تعالى . وفي فتح القدير للشَّوكاني (٥/ ٧٨) : ((قال ثعلب : إن الله استثنى فيما يَعلم لِيَستثنيَ الخلق فِيما لا يَعلمون)) اهـ . لَتَدْخُلُنَّ يا محمد أنتَ وأصحابك المسجدَ الحرام بمشيئة الله في العام القادم . ﴿ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ ﴾ . تَدخلون آمنين من العدو ، لا تخافون مِنه ، تُؤدُّون مناسكَ العُمرة ، ثم يَحْلِق بعضُكم شَعْرَ رأسه ، ويُقصِّر بعضُكم . والحلقُ أفضل . ﴿ لا تَخَافُونَ ﴾ . إنهم يَتمتَّعون بالأمن والأمان حال الدخول ، وحال البقاء ، وحال الخروج ، ولا يَشعرون بالخوف ولا القلق . والآيةُ لا تكرار فيها . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٥٦) : ((فأثبتَ لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد، وهذا كان في عُمرة القضاء في ذي القِعدة سنة سبع)).

﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ . فَعَلِمَ اللهُ تعالى أن الصُّلح وتأخير دخول المسجد الحرام خَيْرٌ لكم، وفيه مصلحتكم ومنفعتكم . وقد عَلِمَ سُبحانَه أن الإسلام سينتشر في تلك المدة ، ويَدخل الناس فيه . وهذا الأمرُ كان غائبًا تمامًا عن المؤمنين ، ولا يَعلمونه . وقال ابن جُزَي في التسهيل لعلوم التَّنزيل (٤/ ٥٦) : ((يُريد ما قدَّره اللهُ من ظهور الإسلام في تلك المدة ، فإنه لَمَّا انعقد الصُّلح، وارتفعت الحرب ، رَغِبَ الناسُ في الإسلام ، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الْحُدَيبية في ألف وأربعمائة ، وغزا " غزوة الفتح " بعدها بعامين ، ومعه عشرة آلاف)) اهـ . ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ . فَجَعل اللهُ قبل دخولكم المسجد الحرام فتحًا عظيمًا باهرًا ، وهو صُلح الْحُدَيبية ، وهو فتح بكل معنى الكلمة ، لأنه ساهمَ في انتشار الإسلام وزيادة عدد المسلمين . ففي حالة القتال ، لا مجال للحوار والنقاش . فلمَّا انتهت الحرب ، وكانت الهدنة بين المؤمنين والكافرين، التقى الناسُ ، وتحاوروا ، وتبادلوا الحديث ، وشرح المؤمنون معاني الإسلام بهدوء وتركيز بدون قتال ولا صخب ولا عُنف ، فانتشرَ الإسلام بصورة كبيرة. وأكبر دليل على ذلك أن المؤمنين كانوا سنة سِت للهجرة يوم الْحُدَيبية ألفًا وأربعمائة ، وكانوا بعد عام الْحُدَيبية سنة ثمان عشرة آلاف . وهذا يدل على الآثار الحميدة والمنافع الجليلة التي ترتَّبت على صُلح الْحُدَيبية لذلك سُمِّيَ فَتْحًا.

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٥٢٥) : عن البراء رضي الله عنه قال : ((تَعُدُّونَ أنتم الفتحَ فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نَعُدُّ الفتحَ بَيعةَ الرِّضوان يوم الْحُدَيبية)) .

سُمِّيت بَيعة الرِّضوان بهذا الاسم لأنها كانت سببًا لِرِضوان الله تعالى . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لقد رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] .

وتُعتبَر الفتح العظيم والانتصار الكبير ، لأنها كانت مُقدِّمة لفتح مكة ، وسببًا لانتشار الإسلام ودخول القبائل فيه وزيادة عدد المسلمين ، فقد أَمِنُوا مِن قُرَيش، ولَم تعد تُشكِّل لهم تهديدًا ، واجتهدَ النبيُّ ﷺ في الدعوة الإسلامية بهدوء ، وباستخدام وسائل الحوار والنقاش ، بعيدًا عن القتال والمعارك .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٤٢و٤٤٣و٤٤٤) : ((قال المفسِّرون : سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان أُرِي في المنام قبل خروجه إلى الْحُدَيبية قائلاً يَقول له : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ﴾ . ورأى كأنه هو وأصحابه يدخلون مكة،وقد حلقوا وقصَّروا، فأخبرَ بذلك أصحابه، ففرحوا، فلمَّا خرجوا إلى الْحُدَيبية ، حَسِبوا أنهم يدخلون مكة في عامهم ذلك ، فلمَّا رجعوا ، ولَم يدخلوا ، قال المنافقون: أين رُؤياه التي رأى ؟ . فَنَزلت هذه الآية ، فدخلوا في العام المقبِل . وفي قَوله : ﴿ إِن شَاءَ اللهُ ﴾ ستة أقوال : أحدها أن ﴿ إن ﴾ بمعنى " إذ " ، قاله أبو عبيدة وابن قُتَيبة. والثاني أنه استثناء من الله وقد عَلِمَه ، والخلق يَستثنون فيما لا يَعلمون ، قاله ثعلب . فعلى هذا يكون المعنى أنه عَلِمَ أنهم سيدخلونه ، ولكن استثنى على ما أمرَ الخلق بِه مِن الاستثناء . والثالث أن المعنى لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرام إن أمركم الله به ، قاله الزَّجاج . والرابع أن الاستثناء يعود إلى دخول بعضهم أو جميعهم ، لأنه عَلِمَ أن بعضهم يموت ، حكاه الماوردي . والخامس أنه على وجه الحكاية لِمَا رآه النبيُّ ﷺ في المنام أن قائلاً يقول : لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرام إن شاء الله آمنين ، حكاه القاضي أبو يعلى . والسادس أنه يعود إلى الأمن والخوف ، فأمَّا الدخول فلا شك فيه ، حكاه الثعلبي . قَوله تعالى : ﴿ آمِنِينَ ﴾ مِن العدو، ﴿ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ ﴾ مِن الشَّعْر ﴿ لا تَخَافُونَ ﴾ عَدُوًّا ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها عَلِمَ أن الصلاح في الصُّلح. والثاني أن في تأخير الدخول صلاحًا. والثالث فَعَلِمَ أن يفتح عليكم خَيْبَر قبل ذلك. قَوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ فِيه قَولان: أحدهما فتح خيبر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبِه قال عطاء وابن زيد ومقاتل . والثاني صُلح الْحُدَيبية ، قاله مجاهد والزُّهري وابن إسحاق)) اهـ .

خامسًا : الدُّعاء

١ــ الحث على الدُّعاء :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا سَألَكَ عِبادي عَنِّي فإنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيستجيبوا لِي وَلْيُؤمنوا بِي لعلهم يَرْشُدُون ﴾ [البقرة : ١٨٦] [55].

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : إذا سَألوكَ عن الإله المعبود ، فأخبرهم أنه قريب مِنهم بِعِلْمه وفضله وإحسانه ، يَمنح الأجرَ على الطاعة والعبادة ، ويَستجيب دعاءَ العبد ، ويُعطيه ما سأل ، فضلاً مِنه وتَكَرُّمًا . والآيةُ تُثبِت قُرب الله مِن عباده ، وتُبيِّن أن الوعدَ الإلهيَّ باستجابة دُعاء العباد ثابتٌ وواقعٌ لا مَحالة ، واللهُ لا يُخْلِف وَعْدَه ، ولا يَتراجع في كلامه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٦٧) : ((أي : فَقُل لهم : إني قريب ، وهو تمثيل لكمال عِلْمه بأفعال العباد وأقوالهم ، واطِّلاعه على أحوالهم بِحَال مَن قَرُبَ مكانه منهم)) اهـ .

إن اللهَ قريبٌ مِن عباده بِعِلْمه المحيط بكل شيء ، وإجابته التي لا تتخلف. يُجيب دعاءهم إذا توجَّهوا إليه لأن الكريم لا يَرُدُّ مَن يَأتيه . وهذه الاستجابة تشير إلى الرحمة الإلهية المحيطة بالعباد ، والكرمِ الربانِيِّ الذي يغرق فيه الناسُ . وبالطبع فالقُرْبُ الإلهيُّ ليس كَقُرب الأجسام ، لأن الله تعالى مُنَزَّه عن الحركةِ والحلولِ في الزمان والمكانِ .

قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن (٤/ ٥٤) : ((إن قيل : كيف جاء ﴿ وإذا سألكَ عبادي عني فإني قريب ﴾ ، وعادة السؤال يجيء جوابه في القرآن بِقُلْ، نحو﴿ يسألونكَ عن

---

(٥٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٩): ((في سبب نزولها خمسة أقوال : أحدها أن أعرابيًّا جاء إلى النبيِّ ﷺ ، فقال: أقريبٌ رَبُّنا فَنُناجيه أم بعيد فَنُناديه، فَنَزلت هذه الآية. رواه الصَّلْت بن حكيم عن أبيه عن جَدِّه. والثاني أن يهود المدينة قالوا : يا محمد، كيف يسمع رَبُّنا دعاءنا وأنتَ تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، فَنَزلت هذه الآية،رواه ابو صالح عن ابن عباس. والثالث أنهم قالوا : يا رسول الله، لو نعلم أيَّة ساعة أحب إلى الله أن ندعوَ فِيها دَعوانا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله عطاء . والرابع أن أصحاب النبيِّ قالوا له : أينَ الله ؟ ، فَنَزلت هذه الآية، قاله الحسن . والخامس أنه لَمَّا حُرِّمَ في الصَّوم الأول على المسلمين بعد النوم الأكلُ والجِماع ، أكلَ رَجل منهم بعد أن نام ، وَوَطِئَ رَجل بعد أن نام ، فسألوا : كيف التوبة مِمَّا عملوا ؟ ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . ومعنى الكلام : إذا سألوك عني فأعلمهم أني قريب)) اهـ .

الأهِلَّة قُل هِيَ مواقيت للناس والْحَج ﴾ ونظائره . قِيل : حُذفت للإشارة إلى أن العبد في حالة الدعاء مُستغنٍ عن الواسطة ، وهو دليل على أنه أشرف المقامات ، فإن الله _ سُبحانَه_ لَم يجعل بينه وبين الداعي واسطة . وفي غير حالة الدعاء تجيء الواسطة)) اهـ .

وفي هذا إشارة واضحة إلى مكانة الدعاء وشرفه الرفيع ، فلا واسطة بين العبد الداعي والخالقِ الذي يستجيب الدعاء رحمةً بعباده . كما أن القُرب الإلهيَّ يزيد الإنسانَ طمأنينة ، ويجعله ذا ثقة بخالقه لا تهتز . فاللهُ تعالى سميع قريب لا تختلط عليه الأصوات ، ولا يَعجَز عن الإجابة . يَعلم دبيبَ النملة السَّوداء على الصخرة الصَمَّاء في الليلة الظلماء . فإذا استشعرَ المؤمنُ القُربَ الإلهيَّ فإن حياته سوف تتغير إلى الأفضل ، ويزداد قوةً في مواجهة الأزمات ، ولا تنكسر رايتُه مهما اجتمع عليه الخصوم ، أو حاصرته الكوارث والمصائب من كل الجهات .

وعن أبي موسى الأشعريِّ _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ارْبَعُوا على أنفسكم ، إنكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا ، إنكم تَدْعُونَ سميعًا قريبًا ، وهو معكم))[56].

على المؤمن أن يخفض صوتَه لأن الله تعالى ليس بعيدًا ولا أصم ، فهو السميعُ البصير . فالمرءُ إذا نادى على إنسان بعيد فإنه يرفع صوتَه لكي يُسمعه بسبب قُصور الأعضاء البشرية ونقصها . أمَّا اللهُ تعالى الْمُنَزَّه عن الجوارح فلا يُعجزه شيء ، ولا تختلط عليه الأصوات .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٦): ((معناه : ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم ، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لِبُعد مَن يُخاطبه ليسمعه ، وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب ، بل هو سميع قريب ، وهو معكم بالعِلم والإحاطة . ففيه النَّدْب إلى خفض الصوت بالذِّكر إذا لَم تدعُ حاجة إلى رفعه ، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه ، فإن دعت حاجة إلى الرفع رُفِع)) اهـ .

ينبغي استشعار مَعِيَّة الله تعالى وقُربه المعنوي لا الحِسِّي ، والدعاء بقلب مخلص واثق بأن الله يستجيب ، لأنه كريم لا يَرُدُّ مَن يَسأله ، ولا يطرد مَن يَأتيه صادقًا . ومهما ارتكب الإنسان من ذنوب عليه أن يحافظ على طريق العودة إلى خالقه تعالى ، ويَحفظ خَط الرَّجعة . فلا مهرب مِن الله إلا إليه . فلا يقول قائل: إني ارتكبتُ ذنوبًا جسيمة ولن يغفرها اللهُ لي.فالغفرانُ الإلهيُّ غير محدود بالصغائر أو الكبائر. فالطاعةُ لا تنفع اللهَ تعالى ،كما أن المعصية لا تضرُّه . وبالتالي ينبغي

(٥٦) متفق عليه.البخاري(٤/ ١٥٤١) برقم (٣٩٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٦) برقم (٢٧٠٤).

التَّمَسُّك بالدعاء كمنهج ثابت لا مَحيد عنه سواءٌ كان العبدُ طائعًا أم عاصِيًا. إذ إن صدق التوجه إلى الخالق تعالى يعمل على تثبيت الإنسان على الصراط المستقيم بعد انتشاله مِن مستنقع الأخطاء والخطايا . وَسَعَةُ الرحمة الإلهية لا تعني أن يُسرِف الإنسانُ في المعاصي ، أو يستهين بالذنوب والآثام ، فعلى المرء أن يتذكر عَظَمَةَ الخالق تعالى لا حجم المعصية أو أثرها . وإذا وقع الإنسانُ في الإثم فإن باب التوبة مفتوح ، ولا يوجد عاقلٌ يقنط مِن رحمة الله تعالى. وكما قال البوصيري ــ رحمه الله ــ : يا نَفْسُ لا تقنطي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إن الكبائرَ في الغُفرانِ كاللمَمِ .

وعن سلمان الفارسيِّ ــ رضي الله عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال: ((إنَّ رَبَّكُم حَيِيٌّ كريم ، يستحيي مِن عبده إذا رفع يديه إليه أن يَرُدَّهما صِفْرًا))[57]. هذا يدل على سَعَة رحمة الله تعالى الذي كرَّم عَبْدَه ، ورفعَ شَأنَه ، وجعله عزيزًا ذا مكانة سامية وحُرمة عظيمة . فاللهُ تعالى لَم يُرِدْ أن يُقفِل الأبوابَ في وجه العبد ، أو يُضيِّق عليه ، أو يحشره في الزاوية الضيقة . فقد فتح له بابَ التَّوبة والإنابة ، واستجابَ دعاءه دون أن يَرُدَّه صِفْر اليدين . لقد استجابَ اللهُ للعبدِ ، وهو غنيٌّ عَنه ، لا يَحتاج إليه ، ولا يَحتاج إلى دُعائه.وعن أبي سعيد ــ رضي الله عنه ــ : أن النبيَّ ﷺ قال : ((ما مِن مُسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مَأثَم ولا قطيعة رَحِم ، إلا أعطاه إحدى ثلاث : إمَّا أن يستجيب له دعوته ، أو يَصرِف عنه من السُّوء مِثْلَها ، أو يَدَّخر له مِن الأجر مِثْلَها)) [58]. يتَّضح لنا من خلال سياق الحديث أن دعوة المسلم لا تُرَد ، لكنها تتخذ أشكالاً متعددة ، فإمَّا أن تُستجاب فَوْرًا، أو يُدفَع عنه مِن السُّوء والمصائب بِقَدْر الدعوة ، أو تتحول إلى أجر في الآخرة.

وعلى المسلم أن يطمئن في هذا السياق، ويثق أن الله تعالى اختار له الأفضل في دُنياه وآخرته ، فالإنسانُ عَجُول ذو عِلم محدود قد يطلب شيئًا فيه هلاكه وهو لا يَدْري . ورُبَّ امرئٍ حَتْفُه فيما تَمَنَّاه . فلا ينبغي له أن يتذمَّر من الدعاء أو يَمَلَّ بِحُجَّة أن دعوته لَم تتحقق على أرض الواقع . فهذا السلوكُ يتنافى مع آداب الدعاء، كما يتعارض مع ثقة العبد بربِّه تعالى . فوعدُ الله تعالى باستجابة الدعاء ثابت لا يتخلف ، وعلى العبد أن يسلك طريقَ إجابة الدعاء ، ويُحقِّق شروطه التي تتجلى في طاعة الله ، وعدم معصيته ، فإن ارتكاب المعاصي تَمنع إجابةَ الدعاء ،

(٥٧) رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٣/ ١٦٠) برقم (٨٧٦) ، والحاكم (١/ ٦٧٥) وصحَّحه ، والترمذي (٥/ ٥٥٦) وحسَّنه . وقال الحافظ في الفتح (١١/ ١٤٣) : ((وسنده جيِّد)) .

(٥٨) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٧٠) برقم (١٨١٦) وصحَّحه .

والدعاء بقلب مُخلِص وصادق وخاشع ، واللهُ لا يَقبل الدعاء مِن قلب وَسِخ وغافل . وقال الحافظ في الفتح (١١/ ١٤١): ((ومِن جُملة آداب الدعاء تحرِّي الأوقات الفاضلة كالسجود، وعند الأذان ، ومنها تقديم الوضوء ، والصلاة ، واستقبال القِبلة ، ورفع اليدين ، وتقديم التوبة، والاعتراف بالذنب، والإخلاص، وافتتاحه بالحمد والثناء، والصلاة على النبيِّ ﷺ ، والسؤال بالأسماء الحسنى)) اهـ . وعلى المؤمن أن يتحلى بالصبر ، ويتحلى بالأدب بعد انقضاء الدعاء . فلا يستعجل الإجابةَ، ويبدأ في عَدِّ الأيام والشهور مُنتظِرًا تحققها ، ثم يقول : لَم تحصل الإجابة . فعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال:((يُستجاب لأحدكم ما لَم يَعْجَلْ ، يقول : دَعوتُ فلم يُستجَب لي)) [59].

هُنا إشارةٌ دقيقة إلى ضرورة الصبر قبل الدعاء وأثناءه وبعده ، وأهميةِ الإلحاح في الدعاء وعدم القنوط أو الملل . فاللهُ تعالى يَستجيب للعبد في الوقت الذي يُريده ، وليس في الوقت الذي يُريده العبدُ ، وبالشكل الذي يَختاره اللهُ تعالى ، وليس بالشكل الذي يَختاره العبدُ . وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ، فهو خالقهم ، وأعلم بِهم مِنهم ، ويُعلم ما يُصلِحهم وما يُفسِدهم .

﴿ فَلْيستجيبوا لِي وَلْيُؤمنوا بِي لعلهم يَرْشُدُون ﴾ . هذه دعوة إلهية كريمة للعباد أن يُطيعوا اللهَ، ويتوجَّهوا إليه بالدعاء وطلب حوائجهم ، ويُصدِّقوا بِوَحدانيته ورسالاته، ويَتمسَّكوا بالإيمان بِه ، كَي يَهتدوا إلى طريق الحق ، بلا انحراف ولا اعوجاج .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٠٤) : ((قِيل : الاستجابة بمعنى الإجابة، أي: فَلْيُجيبوا لي بالطاعة . والإجابة في اللغة : الطاعة ، وإعطاء ما سُئِل . فالإجابة من الله تعالى العطاء ، ومِن العبد الطاعة. وقِيل: ﴿ فَلْيستجيبوا لِي ﴾ . أي: لِيَستدعوا مِنِّي الإجابة ، وحقيقته : فَلْيُطيعوني)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الله قَدَّمَ إجابته لعباده إذا دَعَوْهُ على إجابة عباده له إذا دعاهم : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيستجيبوا لِي ﴾ ، وجَعَلَ سُبحانَه الاستجابة مِن العبد في غاية الأهمية ، لأن المشكلة في العبد ، وليس في قُدرة الله تعالى . فإرادةُ الله نافذة في كُل شيء ، وكُل شيء خاضع لِقُدرته ، ولا شَيء يَمنعه من استجابة دعاء العبد . أمَّا العبدُ ففي طريقه عقبات كثيرة تمنع استجابة دعائه . لذلك يجب أن يُنَقِّيَ العبدُ قلبَه وحياته من المحرَّمات، ويُصحِّح مسارَه . وقال الْمُناوي في فَيض القدير(٤/ ٤٩٧):((فَقَدَّمَ إجابته لنا إذا دَعَوْناه على إجابتنا له إذا دَعَانا ،

---

(٥٩) متفق عليه. البخاري(٥/ ٢٣٣٥)برقم (٥٩٨١)،ومسلم (٤/ ٢٠٩٥) برقم (٢٧٣٥).

وجَعلَ الاستجابةَ مِن العبد ، لأنها أبلغ مِن الإجابة ، لأنه سُبحانَه لا مانع له مِن الإجابة، فلا فائدة للتأكيد، وللإنسان موانع منها الهوى والنَّفْس والشيطان والدنيا، فلذلك أمرَ بالاستجابة، فإن الاستفعال أشد في المبالغة مِن الأفعال ، وأين الاستخراج مِن الإخراج ؟ ، ولهذا يَطلب الكَوْنُ مِن اللهِ العَوْنَ)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَاسْألوا اللهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النِّساء : ٣٢] .

اطلبوا مِن الله أن يُعطيَكم مِن فَضله ، ويُكْرِمكم بِنَعمه ، واسألوه بصدق وإخلاص يُعْطِكم ، فهو الجوادُ الكريم الوَهَّاب ، لا تَنفد خزائنه ، ولا يَخشى الفقر . وهو مُنَزَّهٌ عن البُخل والحِرص .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٤٨) : ((لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلنا به بعضكم على بعض ، فإن هذا أمر محتوم ، والتمني لا يُجدي شيئًا، ولكن سَلُوني مِن فضلي أُعْطِكم، فإني كريم وهاب)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٠٤): ((فنهى اللهُ تعالى عن التمني لِمَا فيه مِن دواعي الحسد. والحسد أن يتمنى زوال النِّعمة عن صاحبه ويَتَمَنَّاها لنفْسه، وهو حرام. والغِبطة أن يتمنى لنفْسه مِثْلَ ما لصاحبه، وهو جائز. قال الكلبي : لا يتمنى الرَّجل مالَ أخيه ولا امرأته ولا خادمه، ولكن لِيَقُلْ : اللهُمَّ ارزقني مِثْلَه . وهو كذلك في التوراة . كذلك في القرآن قَوله : ﴿ وَاسْألوا اللهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ . قال ابن عباس: ﴿ وَاسْألوا اللهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : مِن رِزقه . قال سعيد بن جُبَير : مِن عِبادته ، فهو سؤال التوفيق للعبادة . قال سفيان بن عُيَينة : لَم يَأمر بالمسألة إلا لِيُعْطِيَ)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال: قال رسول الله ﷺ: ((سَلُوا اللهَ مِن فَضله ، فإن الله عز وجل يُحِب أن يُسْأل ، وأفضل العبادة انتظار الفَرَج)) [60]. اطلبوا مِن الله أن يتفضَّل عليكم ، ويَمنحكم بعض فضله ، فإن فضله عظيم وواسع . ومِن كَرَم الله وجُودِه ، يُحِب أن يُسْأل، فهو كريم وهاب ، مُنَزَّهٌ عن الفقر والبُخل . وأعظمُ العبادة هي انتظار فَرَج الله وذهاب الحزن والغم والمصائب، والشكوى له وَحْدَه ، وعدم الشكوى للناس. والصبرُ على المصائب والكوارث هو أساس العبادة ، لأنه استسلام كامل لقضاء الله وقَدَره . وروى الترمذي في سُننه (٥/٤٥٦)عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال: قال رسول الله ﷺ : ((إنه مَن لَم يَسْأل اللهَ يَغضَبْ عَلَيه)) .

إن عدم سُؤال الله والطلبِ مِنه ، هو استغناء وتكبُّر من المخلوق على الخالق ، وعدم اعتراف بفضله وإنعامه ، وهذا لا يَنبغي أن يقوم بِه العبدُ . والحديثُ يدل على أن سؤال العبد لله واجب .

(٦٠) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٥٦٥).وفي كشف الخفاء (٢/ ٤٩٢) : ((قال العراقي : ضعيف . وحسَّنه الحافظ ابن حجر)) .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٢) : (((إنه) أي الشأن (مَن لَم يسأل الله تعالى) أي: يطلب مِن فضله (يغضب عليه) لأنه إمَّا قانط ، وإمَّا مُتكبر، وكُل واحد من الأمرين موجب الغضب. قال بعض المفسِّرين في قَوله تعالى : ﴿ إن الذينَ يَستكبرونَ عَن عِبادتي ﴾ [غافر: ٦٠]. أي : عَن دعائي . فهو سُبحانَه يحب أن يُسْأل، وأن يُلَحَّ عليه، ومَن لَم يَسْأله يُبغِضْه ، والمبغوض مغضوب عليه . قال ابن القَيِّم : هذا يدل على أن رضاه في مسألته وطاعته، وإذا رَضِيَ الرَّبُّ تعالى فكُل خَير في رِضاه ، كما أن كُل بلاء ومصيبة في غضبه ، والدعاء عبادة)) اهـ .

وما أجملَ قَوْلَ الشاعر :

لا تَسْألَنَّ بَني آدَمَ حَاجةً وَسَل الذي أبوابه لا تُحْجَبُ
فاللهُ يَغضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤالَهُ وَبَني آدَمَ حِينَ يُسْألُ يَغضَبُ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

ادْعُوا اللهَ ربَّكم وَحْدَه بقلوب مُنكسِرة خاشعة ، وبكل تَذَلُّل واستكانة وخضوع، في خُفية واستتار (بشكل سِرِّي) . والأفضل في الدعاء الإسرار فِيه ، لأنه أبعد عن الرياء والشُّهرة ، وأقرب إلى القَبول والإجابة ، وهو دليل الإخلاص .

إنَّ اللهَ لا يُحِب المعتدين في الدعاء الذينَ يَرفعون أصواتهم،ويَتشدَّقون، ويُجاوِزون ما أُمِرُوا بِه، أو يَدْعُون على المؤمنين بالشر والدمار ، أو يَطْلُبون منازلَ ومراتب لَيست لهم .

والآيةُ تُرشِد العباد إلى أهمية الدعاء وكيفيته الصحيحة . والدعاءُ هو نجاة العبد في الدارَيْن. ومِن أبرز آداب الدعاء : الطهارة ، واستقبال القِبلة ، وحُضور القلب، وافتتاحه واختتامه بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ ، وتحرِّي ساعات الإجابة ، والأوقات الفاضلة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٣٧): ((﴿ ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا ﴾ تَذَلُّلاً واستكانةً ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ أي: سِرًّا. قال الحسن: بين دعوة السِّر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يُسمَع لهم صوت ، وإن كان إلا هَمْسًا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله سُبحانَه يقول : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ . وإن الله ذَكَرَ عبدًا صالِحًا ، ورَضِيَ فِعْلَه ، فقال : ﴿ إذْ نادى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [مريم : ٣] . اهـ . ﴿ إنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين ﴾ قِيل : المعتدين في الدعاء. وقال أبو مِجْلَز : هُم الذين يَسألون منازل الأنبياء عليهم السلام)) اهـ .

وفي مُسند أحمد (١/ ١٧٢) : عن مَوْلى لسعد : أن سعدًا ــ رضي اللهُ عنه ــ سمع ابنًا له يَدعو وهو يقول : اللهُمَّ إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ، ونَحْوًا مِن هذا ، وأعوذ بك من

النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألتَ الله خيرًا كثيرًا ، وتَعَوَّذْتَ بالله مِن شَرٍّ كثير، وإني سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إنه سيكون قوم يَعْتدون في الدعاء)) ، وقَرأ هذه الآية : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين ﴾ . وإنَّ حَسْبَكَ أن تقول : اللهُمَّ إني أسألك الجنة وما قَرَّبَ إليها مِن قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قَرَّبَ إليها مِن قول أو عمل .

ينبغي على المؤمن الحِرص على الدعاء بخشوع وتَذَلُّل في استتار ، وعدم الاعتداء في الدعاء، والتَّحَلِّي بالصبر والمواظَبة والإلحاح . فإن خزائن الله لا تنفد ، ولا يَعجَز ــ سُبحانَه ــ عن إعطاء كُل سائل مسألته . فالدعاءُ هو العبادة المقدَّسة التي تُديم الاتصال بين المخلوق والخالق .

وفي الحديث القُدْسِيِّ الذي رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤) أن الله تعالى قال : ((يا عبادي، لو أن أوَّلَكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مِمَّا عِندي ، إلا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ ــ يعني الإبرة ــ إذا أُدخِل البحر)) .

هذا يدل على سَعَة الفضل الإلهيِّ ، وعَظَمَة مَلكوت الله ، وأنه تعالى الغنيُّ الْمُستغني عن كُل شيء، وكُل شَيء مِلْك له وفقير إليه . والإنسانُ يَغضب حِين يُطلَب منه شيء ، لكن الله تعالى يأمر عباده أن يَدعوه ، ويطلبوا منه تحقيقَ حوائجهم . وهو سُبحانَه يُنفِق مُنذ بَدْء الخليقة ليلاً نهارًا ، فَلَم يُصَب بالتعب والإرهاق، ولَم يأمر عباده بالكف عن مسألته . فصاحبُ الخزائن التي لا تَنفَد ، هو الإلهُ الحق الْمُنَزَّه عن الفقر والحاجة والبُخل.وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٣): ((قال العلماء: هذا تقريب إلى الأفهام، ومعناه : لا يَنقص شيئًا أصلاً ، لأن ما عند الله لا يَدخله نقص، وإنما يدخل النقصُ المحدودَ الفاني، وعطاء الله تعالى مِن رحمته وكَرَمه ، وهُما صِفتان قديمتان، لا يتطرق إليهما نقص ، فَضَرَبَ المثَلَ بالمِخيَط في البحر، لأنه غاية ما يُضرَب به المثَل في القِلَّة، والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه، فإن البحر من أعظم المرئيات عِيانًا وأكبرها ، والإبرة مِن أصغر الموجودات ، مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء ، والله أعلم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

هـذا أمـرٌ إلهـيٌّ للعبـاد أن يُخلِصـوا لـه العبـادة ، ويتوجَّهـوا إليـه بالـدعاء والتَّضَـرُّع والخضـوع والاستسـلام والتَّـذَلُّل.والمعنـى: وادْعُـوا اللهَ وَحْـدَه، خَوْفًـا مِـن عذابـه الشـديد، وطَمَعًـا فـي رحمتـه الواسعة. واللهُ إن عَذَّبَ فَبِعَدْلِه ، وينبغي الخوف مِن عَدْله ، وإن رَحِمَ فَبِفَضْله ، وينبغي الطمع في فَضْله . والخوفُ هـو الانزعـاج مِـن الأضـرار التـي قَـد تَحصـل . والطمـع : تَوَقُّـع حُصـول الأشـياء المحبوبة .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٥١٥) : ((وأخلِصوا له الدعاء والعمل ، ولا تُشركوا في عملكم له شيئًا غَيره مِن الآلهة والأصنام وغَير ذلك ، وليكن ما يكون منكم في ذلك خَوْفًا مِن عِقابه ، وطَمَعًا في ثوابه)) اهـ .

والآيةُ تُوضِّح ثنائية (الخوف / الرجاء) ، وينبغي أن يَجمع المؤمن بينهما في الدعاء بشكل مُتَّزِن ، بلا إفراط ولا تفريط ، كَي يُقبَل دعاؤه ، ويُستجاب له . والمؤمنُ يَرجو اللهَ ، ويَطمع في إجابته ، فهو سُبحانَه الْمُنعِم الْمُحسِن الْمُتَفَضِّل واسع الرحمة . وأيضًا ، يَخاف المؤمنُ مِن رَدِّ أعماله ورفضها لتقصيره وذُنوبه ومَعاصيه . وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٠٣) : ((أمرَ بأن يكون الإنسان في حالة ترقُّب وتخوُّف ، وتأميل لله عز وجل ، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر ، يَحملانه في طريق استقامته ، وإن انفرد أحدهما هَلَك الإنسان)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢١٦): ((وفي قَوله : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قَولان: أحدهما: خَوْفًا مِن عقابه ، وطَمَعًا في ثوابه . والثاني : خَوْفًا مِن الرد ، وطَمَعًا في الإجابة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولله الأسماءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِها ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

ولله الأسماءُ التي هي أعظم الأسماء وأفضلها وأشرفها ، وتدل على تَوحيده وصِفاته الكاملة المقدَّسة . وهي حسنة في الأسماع والقلوب ، فَسَمُّوا اللهَ بتلك الأسماء ، وادْعُوه بِها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٢٩٢):((قَوله تعالى: ﴿ ولله الأسماءُ الْحُسْنَى ﴾ سبب نزولها أن رَجلاً دعا اللهَ في صلاته ، ودعا الرحمنَ ، فقال أبو جهل : أليسَ يَزعُم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رَبًّا واحدًا ؟ ، فما بالُ هذا يدعو اثنين ؟ . فأنزلَ اللهُ هذه الآية ، قاله مقاتل . فأمَّا ﴿ الْحُسْنَى ﴾ فهي تأنيث الأحسن . ومعنى الآية أن أسماء الله حُسنى، وليس المراد أن فيها ما ليس بِحَسَن . وذَكَر الماوردي أن المراد بذلك ما مالت إليه النفوس مِن ذِكْره بالعفو والرحمة ، دُون السَّخَط والنِّقمة . وقَوله : ﴿ فَادْعُوهُ بِها ﴾ أي : نادُوه بِها كَقَوْلك : يا الله ، يا رحمن)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ ﴾ [النَّمْل : ٦٢] .

تُوضِّح الآيةُ أن الله وَحْدَه هو الذي يُدعَى عِند الشدائد ، وهو الذي يُرجَى عِند الكوارث ، وأن الإنسان مُحتاج إلى الله ، وفقيرٌ إليه ، ولا يَقْدِر المخلوقُ أن يَستغنيَ عن الخالق .

واللهُ سُبحانَه هو الذي يُجيب المكروبَ المجهود الذي لا حَوْلَ له ولا قوة . يَستجيب دُعاءه، ويُلبِّي نِداءه، ويَكشف ضُرَّه، ويُفرِّج كُربته، ويُنقِذه مِن أزمته.وهذا دليل واضح على وَحدانية الله، وقُدرته المطْلقة ، وأنه وَحْدَه الإله المعبود بحق . والآيةُ تتضمَّن وَعْدًا إلهيًّا بإجابة دَعوة المضطَر ،

لأن الاضطرار يَدفع إلى الإخلاص بلا رِياء ولا شُهرة ، كما يَدفع إلى التَّوَجُّه إلى الله وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد . والإخلاصُ هو أساس العبادة . لذلك يَستجيب اللهُ دَعوةَ المضطَر الذي لَجَأ إليه ، سواءٌ كان مؤمنًا أَم كافرًا ، طائعًا أَم عاصيًا ، لأن الكريم لا يَطْرُد مَن يَلجأ إليه ، ويَطرق بابَه .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : أَم ما تشركون بالله خَيْرٌ أَم الذي يُجيب المضطرَّ إذا دعاه ، ويكشف السُّوء النازل به عنه ؟)) اهـ .

وفي مسند أحمد (٥/ ٦٤) أن رَجلاً سألَ النبيَّ ﷺ : يا رسول الله ، إلامَ تدعو ؟ ، قال : ((أدعو إلى الله وَحْدَه ، الذي إن مَسَّكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَه كَشَفَ عَنكَ ...)) .

ولا أحد يَستطيع كشف الضُّر عن الإنسان إلا الله. وهذا دليل على أنه الإله المستحق للعبادة. وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ [غَافِر : ٦٠] . يُوجِّه اللهُ العبادَ إلى أن يَدعوه بصدق وإخلاص . وقد تكفَّل لهم بالإجابة . وهذا يدل على فضل الله وكَرَمه وإحسانه . ادْعُوني واطلبوا مِنِّي ، أُعْطِكم مُرادكم وحاجاتكم ، وأُنعِم عليكم . والآيةُ وعدٌ للأمة المحمدية الإسلامية بالإجابة عند الدعاء بلا واسطة ، وهذا من خصوصيات هذه الأمة ، ويدل على مكانتها الجليلة ، ومنزلتها الشريفة . في حين أن الأمم السابقة كانت تطلب مِن أنبيائها أن يَدعوا اللهَ لها في حوائجها . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٣٤): ((قَوله: ﴿ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ فِيه قَولان : أحدهما : وَحِّدُوني واعبدوني أُثِبْكُم، قاله ابن عباس. والثاني: سَلُوني أُعْطِكُم، قاله السُّدي)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٦٧) وصحَّحه: عن النُّعمان بن بشير_رضي الله عنه_ قال: سَمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:((إن الدعاء هو العبادة)) ثم قرأ:((﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾)).

إن الدعاء هو العبادة الحقيقية، لأنه تَوَجُّه إلى الخالق بصدق وإخلاص، وإعراض عن المخلوقين. وقد أمرَ اللهُ بِدُعائه ، مِمَّا يدل على أن الدعاء عبادة واجبة ، ومَن تَرَكَها فهو هالك لا مَحالة .

٢_ المأثور مِنَ الدُّعاء :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نستعين ﴾ [الفاتحة : ٥] .

لَكَ يا الله نَخضع ونستسلم اعترافًا بِرُبوبيتك ، بلا شريك ولا نِد . أي : نُوحِّدك ، ونُطيعك ، ونستسلم لأوامرك ، ونخضع لإرادتك ، ونعبدك وَحْدَك . وهذا اعتراف مِن العبد بِعُبوديته لله ، وإقرار مِن العبد بِرُبوبية الله تعالى . والعبادةُ اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحِبُّه اللهُ تعالى ، وهي غاية

الخضوع والتَّذَلُّل . وَسُمِّيَ العبد عبدًا لِذِلَّته وانقياده . يُقال : طريق مُعبَّد ، أي مُذَلَّل. ﴿ وإيَّاكَ نستعين ﴾ ، أي : نطلب مِنكَ يا الله التوفيق والتأييد والمعونة على عبادتك وجميعِ أمورنا . وقَد قُدِّمَ المفعول على الفِعل للاهتمام والاختصاص . والمعنى : نَخُصُّكَ بالعبادة وَحْدَك، ونَقْصِدك بالطاعة والخضوعِ والتَّذَلُّل . ونَخُصُّكَ بالاستعانة وَحْدَك ، ومِنكَ نطلب المعونةَ على العبادة وغَيرها . ولا يجوز أن يَتقدَّم ذِكر العبد والعبادة على الله المعبود . ولا ينبغي أن يُقال : نعبدك ونستعينك . كما قُدِّمَت العبادة على الاستعانة ، لأن العبادة هي المعنى الإجمالي الكُلِّي ، والاستعانة هي المعنى التفصيلي الجزئي،ولبيان أن العبادة لا معنى لها ولا تتمُّ إلا بالاستعانة بالله وطلب التوفيق والهداية مِنه سُبحانَه. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٨): ((والعبادة في اللغة مِن الذِّلة. يُقال : طريق مُعبَّد ، وبعير مُعبَّد، أي مُذَلَّل . وفي الشَّرع عبارة عمَّا يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقُدِّمَ المفعول وهو : ﴿ إيَّاكَ ﴾ وكُرِّر للاهتمام والحصر . أي : لا نَعبد إلا إيَّاك ، ولا نتوكل إلا عليك. وهذا هو كمال الطاعة ، والدِّين كُله يرجع إلى هذين المعنيين . وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سِر القرآن ، وسِرُّها هذه الكلمة : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نستعين ﴾ . فالأول تَبَرُّؤ مِن الشِّرك ، والثاني تَبَرُّؤ مِن الْحَوْل والقوة ، والتفويضُ إلى الله عز وجل ... وكذلك هذه الآية الكريمة : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نستعين ﴾ ، وتحوُّل الكلام مِن الغَيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب ، وهو مناسبة ، لأنه لَمَّا أثنى على الله، فكأنه اقتربَ وحضرَ بين يَدَي الله تعالى، فلهذا قال:﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نستعين ﴾))اهـ.وقالَ اللهُ تعالى:﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المستقيمَ ﴾[الفاتحة: ٦].

اللهُمَّ أرْشِدْنا إلى الطريق المستقيم ، والمنهاجِ الواضح الذي لا انحراف فيه ، ولا لَبْس ، وَثَبِّتْنا عليه . والطريقُ المستقيمُ هو الإسلام ، الدِّين السماويُّ الوحيد . والمؤمنُ يَطلب الهداية والتوفيق مِن الله في كل وقت وحِين، لأن العبد _ مهما كان تَقِيًّا _ يظل فقيرًا إلى اللهِ ، ومُحتاجًا إلى هِدايته ومعونته وتثبيته، ولا يُمكنه أن يَستغنيَ عن التوفيق الإلهيِّ، والمؤمنُ يَطلب مزيدًا من الهداية والتوفيق ، كي يزداد إيمانًا بالله ، وطاعةً له . والهِدايةُ هي الدَّلالة بِلُطف . وأغلب استعمالها في الخير والحق . وقال الطبري في تفسيره (١/ ١٠١): ((وَفِّقْنا للثبات على ما ارتضيتَه ووفقتَ له مَن أنعمتَ عليه مِن عبادك مِن قول وعمل ، وذلك هو الصراط المستقيم، لأن مَن وُفِّقَ لِمَا وُفِّقَ له مَن أنعمَ اللهُ عليه مِن النبيين والصديقين والشهداء، فقد وُفِّقَ للإسلام وتصديق الرُّسل، والتَّمَسُّك بالكتاب،والعمل بما أمرَ اللهُ به، والانزجار عمَّا زَجَره عنه، واتِّباع منهج النبيِّ ﷺ، ومِنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ ، وكُل عبد لله صالح ، وكُل ذلك من الصراط المستقيم)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿صِراطَ الذين أنعمتَ عَلَيهم غَيْرِ المغضوبِ عَلَيهم ولا الضَّالِّين ﴾[الفاتحة: ٧].

هذه الآيةُ تُوضِّح طبيعةَ الصراط المستقيم وماهيته. إنه طريقُ المؤمنين الذين أنعمَ اللهُ عليهم بالهداية والتوفيق والطاعة ، وامتثال أوامره ، واجتناب نَواهيه .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٥٢) : ((قال الضَّحاك عن ابن عباس: صِراطَ الذين أنعمتَ عليهم بطاعتك وعبادتك مِن ملائكتك وأنبيائك والصِّديقين والشهداء والصالحين)) اهـ .

﴿ غَيْرِ المغضوبِ عَلَيهم ﴾ غَيْرِ طريق اليهود الذين غَضِبَ اللهُ عليهم، بسبب كُفرهم وضلالهم وعنادهم وقَسوة قلوبهم، وقُبح أفعالهم، وسُوء أقوالهم . ﴿ ولا الضَّالِّين ﴾ ولا طريق النصارى الذين ضَلُّوا طريقَ الحق ، وضاعوا في أهوائهم وشُبهاتهم ومصالحهم الشخصية .

لقد أرشدَ اللهُ المسلمين إلى سُؤاله والطلب مِنه أن يَهديَهم طريقَ الذينَ أنعمَ عليهم ، ولَم يغضب عليهم ، كما غضب على اليهود ، ولَم يَضِلُّوا عن الحق كما ضَلَّ النصارى .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٢) : ((إنما جِيء لتأكيد النَّفْي لِئَلا يُتوهَّم أنه معطوف على ﴿ الذين أنعمتَ عَلَيهم ﴾ ، وللفرق بين الطريقتين ، ليتجنب كُل واحد ، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العِلم بالحق والعمل به، واليهودُ فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العِلم، ولهذا الغضب لليهود ، والضلال للنصارى ، لأن مَن عَلِمَ وترك استحقَّ الغضب خِلاف مَن لَم يَعْلَم ، والنصارى لَمَّا كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه ، لأنهم لَم يأتوا الأمر مِن بابه وهو اتِّباع الحق، ضَلُّوا . وكُلٌّ مِن اليهود والنصارى ضَال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، وأخص أوصاف النصارى الضلال)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإِذْ يَرفعُ إبراهيمُ القواعدَ مِنَ البَيْتِ وإسماعيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنتَ السميعُ العليم ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

لقد كان إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والصلاة ـ يَرفعان أُسُسَ الكعبة وأصولها ، ويقولان : رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا بناءنا ، إنَّكَ أنتَ السميع لدعائنا ، العليم بِضمائرنا ونِيَّاتنا وبما في قلوبنا .

واللهُ هو السميعُ للقَول ، العليمُ بالفِعل . والسمعُ والعِلمُ صِفتان لله تعالى ، وصِفات الله قديمة قِدَم ذاته المقدَّسة . وتَمَّ تخصيص هاتين الصفتين بالذِّكر ، لتناسبهما مع قَولهما وفِعلهما وحالهما، ومن أجل بيان أن دُعاءهما مُوَجَّه لله وَحْدَه ، وأن عملهما خالص لوجه الله الكريم .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٩٥) : ((يقولان : رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا عَمَلَنا ، وطاعتنا إيَّاك ، وعبادتنا لك ، في انتهائنا إلى أمْرِكَ الذي أمرتنا به ، في بناء بَيتك ، الذي أمرتنا ببنائه)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال: جاء إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام، فوجدَ إسماعيل يُصلِح له بيتًا مِن وَراء زَمْزَم ، فقال له إبراهيم : يا إسماعيل ، إن ربك قد أمرني ببناء البيت ، فقال له إسماعيل: فأطِعْ رَبَّكَ فِيما أمرك، قال: فأعِنِّي عليه. قال:فقام معه فَجَعل إبراهيمُ يَبنيه وإسماعيل يُناوله الحجارة ، ويقولان : ﴿ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنتَ السميعُ العليم ﴾ [61]. هذا الحديثُ يدل على الخضوع التام لإرادة الله ، وتنفيذ أمره المقدَّس ، بلا كَسَل ولا نِقاش ، والاستعانة بالله ، والإخلاص في القول والعمل والدعاء لله تعالى ، وطلب رِضاه وَحْدَه بلا شريك . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَن يَقولُ رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً وفي الآخرةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] . إن المسلمين يَطلبون خَيْرَي الدنيا والآخرة ، بعكس المشركين في الجاهلية الذين كان دُعاؤهم مُنْصَبًّا على الأمور الدُّنيوية فقط ، وكانوا يَسألون الغنم والإبل والكَلأ والمراعي الخصبة والانتصار على الأعداء ، ولا يَدْعُون بشيء مِن أمور الآخرة ، لأنهم لا يَعْرِفونها ، ولا يُؤمنون بالبعثِ مِن القُبور ، والحياةِ بعد الموت . لقد كانت الدنيا بالنسبة إليهم هي البداية والنهاية ، ولا شَيء بعدها. وهذا الدعاء شامل لأحوال الدنيا والآخرة، ضِمن منظومة مُتوازنة، لا تُهمِل الدنيا(الْمَعَاش)، ولا تُهمِل الآخرة (الْمَعَاد). إنه دعاء جامعٌ لكل خَير ، وطارد لكل شر . وهذه الآيةُ تدل على شمولية المنهج الإسلاميِّ. فهذا المنهجُ يُغطِّي تفاصيلَ حياة الإنسان في الدنيا الزائلة، والآخرةِ الباقية . وقد اشتملت الآيةُ على جوامع الدعاء المختص بالدنيا والآخرة مَعًا . فالحسنةُ في الدنيا هي النِّعَم الْمُعينة على طاعة الله تعالى . والحسنةُ في الآخرة هي المغفرة والجنَّة . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٢٩) : ((فَجَمعت هذه الدعوة كُل خير في الدنيا، وصَرَفَت كُل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كُل مطلوب دُنيوي ، مِن عافية ودار رحبة وزوجة حسنة ورِزق واسع وعِلم نافع وعمل صالح ومركب هني وثناء جميل ، إلى غَير ذلك مِمَّا اشتملت عليه عبارات المفسِّرين، ولا مُنافاة بينها ، فإنها كُلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، وأمَّا الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه مِن الأمن مِن الفَزَع الأكبر في العَرَصَات وتيسير الحساب وغَير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأمَّا النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا مِن اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.وقال القاسم بن عبد الرحمن:مَن أُعْطِيَ قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وجسدًا صابرًا،فقد أُوتِيَ في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وَوُقِيَ عذاب النار)).

---

(٦١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٦٠١) برقم (٤٠٢٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقد رغَّبت السُّنة في هذا الدعاء وحثَّت عليه ، لاشتماله على خَير الدارين. فعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان أكثرُ دُعاء النبيِّ ﷺ : ((اللهُمَّ رَبَّنا آتِنا في الدنيا حَسَنة ، وفي الآخِرة حَسَنة، وقِنا عذاب النار))[62].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قالوا رَبَّنا أفْرِغْ عَلَيْنا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنا وانصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافرين ﴾ [البقرة : ٢٥٠] . عندما تواجهَ فريق الإيمان (طالوت وجنوده)، وكان عددهم قليلاً، مَعَ فريق الكفر (جالوت وجنوده) وكان عددهم كثيرًا ، دَعا طالوت وجنوده المؤمنون بهذا الدعاء العظيم الذي يدل على إخلاصهم وتوجُّههم لله وَحْدَه : رَبَّنا أنزِلْ واصبُبْ علينا صبرًا مِن عِندك ، واملأ قلوبنا بالإيمان واليقين والقوة على جهادهم لتثبت أقدامُنا فلا ننهزم أمامهم، ولا نضعُف ولا نهرب. والأقدام تثبت عند قوة القلوب. وانصرنا على الكافرين الذين جَحدوا وَحدانيتك ، وعبدوا الأوثانَ . وفي زاد المسير (١/ ٢٩٩) : ((قال مقاتل : كان جالوت وجنوده يعبدون الأوثان)) اهـ . ولا شَك أن حالة الحرب مِن أصعب المواقف ، ففيها تتطاير الرؤوس، وترتعب القلوب ، وتنهار المعنويات ، وتتقلب الأبصار . ولَن يَثْبُت إلا مَن ثبَّته اللهُ تعالى.

وتنكيرُ ﴿ صَبْرًا ﴾ للتعظيم والتفخيم . ووضعُ الظاهر ﴿ القَوْمِ الكافرين ﴾ موضع الْمُضمَر لإدانتهم وفضحهم وَوَصْمهم بالخِزي والعار والتَّسجيل عليهم بالكُفر ، وأنه السبب في هزيمتهم ، وانتصار المؤمنين عليهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٤٨) : ((﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي : ظَهَرُوا لهم وَدَنَوْا مِنهم ، ﴿ قالوا رَبَّنا أفْرِغْ عَلَيْنا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنا وانصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافرين ﴾ التجؤوا إلى الله سُبحانَه وتعالى بالدعاء . وفيه ترتيب بليغ ، إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم، الذي هو مَلاك الأمر (ما يُعتمَد عليه) ، ثم ثبات القَدَم في مَداحض الحرب الْمُسبَّب عنه ، ثُمَّ النصر على العدو المترتِّب عليهما غالبًا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ المصير ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

قالوا وهُم يَدْعُون اللهَ وَحْدَه : اغْفِرْ لنا رَبَّنا ، إلَيْكَ مَرجعنا ومَعادنا يوم الحساب ، فاغْفِرْ لنا ذُنوبنا وآثامنا. إنهم يَسألون اللهَ المغفرة والتجاوز عن ذُنوبهم ، والرحمة ، واللطف بهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٨٥) : ((﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنا ﴾ اغْفِرْ لنا غُفرانك ، أو نطلب غُفرانك ، ﴿ وَإِلَيْكَ المصير ﴾ المرجع بعد الموت ، وهو إقرار منهم بالبعث)) اهـ .

---

(٦٢) متفق عليه.البخاري (٥/ ٢٣٤٧) برقم (٦٠٢٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٠) برقم (٢٦٩٠).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إن نَسِينَا أوْ أخْطَأْنا رَبَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلى الذينَ مِن قَبْلِنا رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أنتَ مَوْلانا فانصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافرين ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

لقد أرشدَ اللهُ عبادَه إلى كيفية دُعائه وعلَّمهم كلمات الدعاء ، وتَكَفَّلَ لهم بالإجابة ، ووعدهم بذلك . ووعدُ الله واقعٌ لا مَحالة في الوقت الذي يُريده اللهُ . واللهُ لا يَعْجَل لِعَجَلَة أحد مِن خَلْقه .

رَبَّنا لا تُعاقِبنا إن تَرَكْنا فَرْضًا في حالة النسيان (السَّهْو)، أو ارتكبنا إثْمًا وفَعَلْنا حَرَامًا مِن غَير قصد ، أو جهلاً مِنَّا بالْحُكم الشرعيِّ . وهذا دليل على جواز الْمُؤاخَذة في النسيان والخطأ عقلاً ، ولَوْلا هذا لَمَا كان للسؤال والدعاء معنى. وعن ابن عباس رضي اللهُ عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((تَجَاوَزَ اللهُ عَن أُمَّتي الخطأَ والنِّسيانَ ، وما اسْتُكْرِهُوا عَلَيه)) [63].

ومعنى التَّجاوز العَفْو وعدم الْمُؤاخَذة . وقد عفا اللهُ عن هذه الأشياء الثلاثة رحمةً مِنه وتفضُّلاً على عِباده المؤمنين . الأول _ الخطأ : فَمَن أخطأ في القَول أو الفِعل بلا تَعَمُّد ، فلا شَيء عليه . والثاني_ النِّسيان ، وهو ترك الشَّيء عن ذُهول وغَفْلة ، والثالث _ إجبار المرء على فِعل شَيء أو تَرْكه ، فإنَّ الواقع تحت الإجبار دون وُجود إرادة مِنه ، لا شَيء عليه .

﴿ رَبَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلى الذينَ مِن قَبْلِنا ﴾ . رَبَّنا ولا تُكَلِّفْنا بالأحمال الثقيلة والعهود الشديدة التي لا نستطيع القِيام بها ، فَتُعذِّبنا على تركها وعدم تحمُّلها . وقد شَدَّد اللهُ على بني إسرائيل بِظُلمهم وفسادهم وضلالهم ، وضيَّق عليهم بسبب قسوة قلوبهم ، وألزمهم بالعهود الثقيلة عقوبةً لهم بسبب ضلالهم وانحرافهم ، وعذَّبهم بترك تلك العهود ونَقْضِها .

والإصْرُ هو العِبْء الثقيل . والمقصودُ في الآية التكليف الشاق والأمر الصعب .

ومِن أبرز التشديدات والتكاليف الشاقة على بني إسرائيل : قتل أنفسهم في التَّوبة ، وقطع مَوضع النجاسة مِن الجِلد والثوب ، ووجوب خمسين صلاة في اليوم والليلة ، وإنفاق رُبع المال في الزكاة ، وتحريم الطيبات عليهم كُلما ارتكبوا ذَنْبًا واقترفوا خطيئةً .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٨٦):((والمراد به ما كُلِّفَ به بنو إسرائيل مِن قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة ، وخمسين صلاة في اليوم والليلة ، وصَرْف رُبع المال للزكاة ، أو ما أصابهم من الشدائد والمِحَن)) اهـ .

---

(٦٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢١٦) برقم (٢٨٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٥): ((أي: لا تُكَلِّفْنا من الأعمال الشاقة ، وإن أطقناها ، كما شرعته للأمم الماضية قَبْلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم،التي بَعثتَ نَبِيَّكَ محمدًاﷺ نبيَّ الرحمة بوضعه في شَرْعه ، الذي أرسلته به مِن الدِّين الحنيفيِّ السهل السمح)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ بُعِثَ بالحنيفية السَّمْحة، وهي الشريعة المائلة عن كُل دِينٍ باطل، فهي حنيفية في التوحيد ، سَمْحة في العمل . ﴿ رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لَنا بِهِ ﴾ . رَبَّنا ولا تُكَلِّفْنا بما فوق قُدرتنا على التَّحَمُّل ، ولا تَختبرنا بالمصائب والشدائد التي لا نَستطيع دَفْعَها ولا تحمُّلها ، ولا تُشدِّد علينا بالأعمال التي لا نُطيقها فَتُعذِّبنا . وفي هذا دَلالة على جَواز التكليف بما لا يُطاق عقلاً، وإلا لَمَا سُئِل التخلص مِنه . ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ . واعْفُ عن ذنوبنا وامْحُها ، وتجاوَزْ عنها ، ولا تُعاقِبنا عليها . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٥) : ((وقَوله : ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ أي : فِيما بَيننا وبينك مِمَّا تَعْلمه مِن تقصيرنا وزَلَلنا)) اهـ . ﴿ وَاغْفِرْ لَنا ﴾ . واستُر على ذُنوبنا ولا تفضحنا ، وتجاوَزْ عَنَّا بفضلك وكَرَمك . والغَفْر هُوَ السَّتْر والتغطية. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٥): ((﴿ وَاغْفِرْ لَنا ﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك ، فلا تُظْهِرهم على مَساوينا وأعمالنا القبيحة)) اهـ .

﴿ وَارْحَمْنا ﴾ . وتَفَضَّلْ علينا بالرحمة والعطف والرأفة . فإنَّنا لا نحصل على الأجر إلا بعبادتك وطاعتك ، ولا نَقْدِر على ترك المعاصي والذنوب والآثام إلا برحمتك وفضلك وتوفيقك .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٥) : ((﴿ وَارْحَمْنا ﴾ أي : فيما يُستقبَل ، فلا تُوقِعنا بتوفيقك في ذَنْب آخر، ولهذا قالوا: إن الْمُذنِب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يَعفوَ الله عنه فيما بينه وبينه ، وأن يَستره عن عباده فلا يَفضحه بِه بينهم ، وأن يَعصِمه فلا يُوقعه في نظيره)) اهـ .

﴿ أنتَ مَوْلانا ﴾ أنتَ سَيِّدُنا وَوَلِيُّنا وحافظنا وناصرنا.وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٥) : ((وقَوله : ﴿ أنتَ مَوْلانا ﴾ أي : أنتَ وَلِيُّنا وناصرنا ، وعليكَ تَوَكَّلْنا ، وأنت الْمُستعان ، وعليك التُّكْلان ، ولا حَوْلَ لنا ولا قوة إلا بِك)) اهـ. ﴿ فانصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافرين ﴾ . إن السَّيد (المولى) يَنصر عبيده (مَواليه) على الأعداء، وهُم عُموم الكافرين في كل زمان ومكان . فانصُرنا على الكافرين بإقامة الْحُجَج والبراهين ، وهزيمتهم في الحروب والمعارك، حتى يَظهر الإسلامُ على كافة الأديان كما وَعَدْتَنا.وفي هذا إشارة إلى الجهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمة الله، وانتشار الإسلام في أنحاء العالَم . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٥) : ((﴿ فانصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافرين ﴾ أي : الذين جَحدوا دِينك ، وأنكَروا وَحدانيتك ورسالة نَبِيِّك ، وعبدوا غَيْرَك ، وأشركوا معك مِن عبادك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ١١٥) : عن أبي هريرة قال : ... وأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَها لها مَا كَسَبَتْ وعَلَيها ما اكتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إن نَسِينَا أوْ أخْطَأنا ﴾.ــ فقال النبيُّ ﷺ ــ : ((قال : نعم)) . ﴿ رَبَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلى الذينَ مِن قَبْلِنا ﴾ . ((قال : نعم)) . ﴿ رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لَنا بِهِ ﴾ . ((قال : نعم)) . ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أنتَ مَوْلانا فانصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافرين ﴾ . ((قال : نعم)) .

لقد أرشدَ اللهُ عباده المؤمنين إلى هذا الدعاء العظيم ، وعلَّمهم إيَّاه ، كَي يَستجيب لهم ، ويُحقِّق مطلوبهم . واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن العبث واللعب والخِداع . فكلامُه حق وصِدق ، ووعده حق وصِدق. والوعدُ الإلهيُّ واقعٌ لا مَحالة . وقد استجابَ اللهُ دعاء المؤمنين بفضله وكَرَمه .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحمةً إنَّكَ أنتَ الوَهَّاب﴾ [آل عِمران : ٨] . رَبَّنا لا تُمِلْ قُلوبنا عن الحق ، ولا تَصْرِفْها عن الهدى ، ولا تُضِلَّنا بعد أن هَدَيْتَنا إلى الإسلام (الدِّين السماويِّ الوحيد)، وأرشدتنا إلى شريعتك الكاملة المعصومة. وثَبِّتْنَا على طريقك المستقيم، وهَبْ لَنا مِن عِندك توفيقًا لِدِينك وثباتًا عليه ، وامْنَحْنا ــ بفضلك وكَرَمك وإحسانك وليس بسبب أعمالنا ــ رحمةً عظيمةً واسعةً تُثبِّت بها قلوبنا على الإيمان واليقين. وهذا مُنتهى الاستسلام لله والخضوع له . وتنكيرُ ﴿ رَحمةً ﴾ للتعظيم والتكثير . إنَّكَ أنتَ الْمُتَفَضِّل على عبادك الذي تُعطيهم التوفيق والهداية للثبات على دِينك الحق . وقال البغوي في تفسيره (١/ ١١) : ((قَوله تعالى : ﴿ رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا ﴾ أي : ويقول الراسخون : ﴿ رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا ﴾ أي:لا تُمِلْها عن الحق والهدى كما أزَغْتَ قلوبَ الذين في قلوبهم زَيْغ﴿ بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا ﴾ وَفَّقْتَنا لِدِينك والإيمان بالْمُحكَم والْمُتشابِه مِن كتابك ، ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ ﴾ أعْطِنا مِن عِندك ﴿ رَحمةً ﴾ توفيقًا وتثبيتًا للذي نحن عليه من الإيمان والهدى،وقال الضَّحاك:تَجَاوُزًا ومَغفرةً﴿ إنَّكَ أنتَ الوَهَّاب ﴾)). وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٠) : ((﴿ إنَّكَ أنتَ الوَهَّاب ﴾ لكل سُؤال. وفيه دليل على أن الهدى والضلال مِن الله ، وأنه مُتَفَضِّل بما يُنعِم على عباده ، لا يجب عليه شيء)) اهـ . وهذه الآية حُجَّة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يُضِل العباد. إذ إن الآية تُبيِّن بوضوح أن القلوب بيد الله ، وهو القادر على هدايتها وإزاغتها . واللهُ يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء . وروى الترمذي في سُننه (٥/ ٥٣٨) وحسَّنه : عن أُم سَلَمة ــ رضي اللهُ عنها ــ قالت : يا رسول الله ، ما أكثرَ دُعاءَكَ: يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دِينك ؟ ، قال : ((يا أُمَّ سَلَمة ، إنه ليس آدميٌّ إلا وقلبُه بين أُصْبَعَيْن مِن أصابع الله ، فَمَن شاءَ أقامَ ، وَمَن شاءَ أزاغَ)) . فتلا معاذ

_ أحد رواة الحديث _ : ﴿ رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا ﴾ . اهـ . إن القلبَ شديد التقلُّب والتغيُّر بسبب كثرة الخواطر التي تَرِد عليه . وقد أنشدَ أحدُهم :

ما سُمِّيَ القلبُ إلا مِن تَقَلُّبِهِ   فَاحْذَرْ على القلبِ مِن قَلْبٍ وتحويلِ

واللهُ يُقلِّب القلوب مِن الكفر إلى الإيمان، ومِن الإيمان إلى الكفر،ومِن المعصية إلى الطاعة، ومِن الطاعة إلى المعصية ، وَفْقَ عِلْمه الأزليِّ، وحِكمته البالغة، وقَدَره السابق . واللهُ يَفعل بعباده ما يشاء لأنه إلههم ومالكهم.وهو سُبحانَه يخذُل الكافرين والمنافقين بعدله،ويُثبِّت أولياءه المؤمنين بفضله. والمقصودُ بالقلب هو السِّر الإلهيُّ واللطيفة الرَّبانية الرُّوحانية ، وليس قطعة اللحم ، فهي موجودة في الدواب والبهائم . واللهُ مُنَزَّهٌ عن الجوارح والأعضاء، لأنها صفات الأجسام المخلوقة العاجزة . وخالقُ الجوارح والأعضاء لا يَحتاج إليها، واللهُ هو الخالقُ القائمُ بذاته. غنيٌّ عن كُل شيء، وكُل شيء يَحتاج إليه . تعالى اللهُ وتَقَدَّس عن كُل ما لا يَليق به .

والتعبيرُ بالأُصبعين يعني أن الله وَحْدَه هو الْمُتَحَكِّم بالقلوب ، والْمُتَصَرِّف بها ، وَفْق مشيئته وإرادته ، ولا يُشاركه في ذلك أحد . وفيه إشارة إلى سُرعة تقلُّب القلوب ، وهو معقود بمشيئة الله وعِلْمه السابق.وتخصيص ذِكر الأصابع كِناية عن أجزاء القوة والقُدرة والسيطرة، لأن ذلك باليد ، والأصابع أجزاؤها . ومَن شَاءَ اللهُ هِدايته هَداه إلى الحق بفضله ، ومَن شاءَ إضلالَه أضَلَّه عن الحق بِعَدْله. واللهُ مُنَزَّهٌ عن الظلم والعبث واللعب . يَتصرَّف في مخلوقاته وعباده كما يشاء، لأنه إلههم وسَيِّدهم ومالكهم . وكُل ما سِوى اللهِ مَخلوق وعبد لله تعالى .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٧٩) : ((" يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دِينك " . أي : طاعتك . وعَبَّرَ بالتثنية دون الجمع إشارة إلى أن الأُصبعين هما ظُهور القدرة الرَّبانية بِمَظْهَرَي الخير والشر في قلب العبد ، لا أن لله جارحة ، تعالى عن ذلك . وعَبَّرَ بالأُصبعين دون اليدين ، لأن أسرع التقليب ما قَلَّبته الأصابع لصغر حجمها ، فحركتها أسرع من حركة اليد وغَيرها ، فلمَّا كان تقليب الله قلوب عباده أسرع شيء ، خَاطَبَ المصطفى ﷺ العربَ بما تَعقِل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤتي الْمُلْكَ مَن تشاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تشاءُ وتُعِزُّ مَن تشاءُ وتُذِلُّ مَن تشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾[آل عِمران : ٢٦] .

قُل يا محمد مُعَظِّمًا للهِ ومُعْتَرِفًا بِقُدرته المطْلقة: يا الله، يا مَالِكَ كُل شيء، أي: لَكَ الْمُلْكُ كُلُّه. أنتَ الْمُعطِي ، تُعْطي الْمُلْكَ لِمَن تشاء ، وأنتَ المانع ، تَخْلَع الْمُلْكَ مِمَّن تشاء . وهذا يدل على أن الله وَحْدَه هو المسيطِر على المخلوقات ، والْمُتَحَكِّم بالأكوان ، والْمُتَصَرِّف بالموجودات.

وما شاءَ اللهُ كان ، وما لَم يَشأ لَم يكن . وهو سُبحانَه خالقُ الخلق ، والْمُتصرِّف فيهم ، والفَعَّال لِمَا يُريد. وتُعِزُّ مَن تشاء في الدنيا والآخرة، وتُعطيه المجد والكرامة، وتُذِل مَن تشاء في الدنيا والآخرة ، وتُجلِّله بالخِزي والعار . بِيَدك الخيرُ وَحْدَك ، لا شريك لك . وتخصيص الخير بالذِّكر دُون الشَّر ، مَعَ أن الخير والشَّر كلاهما بيد الله تعالى ، لأن الخير فَضْل إلهيٌّ خالص ، أمَّا الشر فهو نتيجة أعمال الإنسان السَّيئة ، أو لِمُراعاة الأدب في الخطاب . وأنتَ على كل شيء قدير ، لا يُعْجِزك شَيء . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٥) : ((وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شُكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأُمَّة ، لأن الله تعالى حَوَّلَ النُّبوةَ مِن بني إسرائيل ، إلى النبيِّ العربيِّ القرشيِّ الأُمِّيِّ المكيِّ خاتَم الأنبياء على الإطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثَّقَلَيْن : الإنس والجن ، الذي جمع اللهُ فيه محاسنَ مَن كان قَبله، وخصَّه بخصائص لَم يُعْطِها نَبِيًّا مِن الأنبياء ولا رسولاً مِن الرسل في العِلم بالله وشريعته، واطِّلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكَشْفه له عن حقائق الآخرة ونشر أُمَّته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها،وإظهار دِينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدِّين، ما تعاقبَ الليل والنهار، ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ الآية . أي : أنتَ الْمُتَصَرِّف في خَلْقك ، الفَعَّال لِمَا تُريد)) اهـ . إن ظُهور النُّبوة في العرب كان صدمةً حقيقية لليهود الذين جعلوا هذه القضيةَ عُقدةَ حياتهم ، وأدى هذا الأمرُ إلى اشتعال الحقد في صدورهم ، وانتشار الحسد في قلوبهم ، فَبَنَوْا أفكارَهم على معاداة الحق الذي جاء به محمد ﷺ مُعتقدين أنهم بذلك يُطْفِئون نارَهم المتأججة ، ويشفون غليلهم، ويَطمسون الشمسَ المحمَّدية الإسلامية . وقد كانت النتيجة أنهم خسروا في الدنيا على كافة الأصعدة ، وقادُوا أنفسهم إلى الخلود في عذاب النار في الآخرة ، وازدادَ الإسلامُ انتشارًا ورِفعةً . والسُّلطة لله تعالى يُعطيها لِمَن يشاء ويَنْزعها مِمَّن يشاء ، والنَّـزْعُ يُشير إلى الأخذ بقوة . وهذا يعني أن الإنسان يتشبَّث بالكرسي بأظافره وأسنانه . والحاكمُ ينبغي أن يتذكر أن وصوله إلى سُدة الْحُكْم لَم يكن بذكائه لأن هناك مَن هو أذكى منه ، ولَم يكن بِغِناه، فهناك مَن هو أغنى منه . ولو دامَ الْحُكْمُ لِغَيره ما وصل إليه، فهذه السُّلطة امتحان إلهيٌّ ، وليست مجالاً للترف واللعب والتفاخر بالأموال والأولاد. وكُل حاكم سيترك السُّلطةَ بإرادته أو رغم أنفه . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بغيره ، والجاهلُ مَن اتَّعظَ بنفْسه . ومَن نظر إلى تعاقُب الحضارات ، وتداوُل الأنظمة الحاكمة التي جاءت على كوكب الأرض سَيُدرِك _ تمامًا _ أن التعاقب على السُّلطة لا يُسيطر عليه البشر بصورة استقلالية ، وإنما هو بيد الله تعالى . فالْمُلْكُ للهِ تعالى يتصرَّف فيه كما

يشاء . واللهُ مالكٌ للناس ، ومالكٌ لِمَا مَلَّكهم . وعلى المرء أن ينتبه إلى أن الْمُلْك هو اختبار، فلا ينبغي أن ينخدع المرء بالبَهْرَج الفَتَّان ، والزينة الظاهرية. وسوف تظهر نتيجة هذا الاختبار الصعب (النجاح أو الفشل) في الدنيا الفانية والآخرة الباقية . والْمُلْكُ زائلٌ لا مَحالة ، عاجلاً أو آجلاً .

رَأيتُ الدَّهْرَ مُخْتَلِفًا يَدُورُ فَلا حزْنٌ يَدُومُ ولا سُرُورُ
وقد بَنَت الملوكُ بِهِ قُصُورًا فَلَم تَبْقَ الملوكُ ولا القُصُورُ

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٣٦٨و٣٦٩):((قَوله تعالى:﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن النبيَّ ﷺ لَمَّا فَتح مكة ووعد أُمَّته مُلك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هَيْهَات. فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن عباس وأنس بن مالك. والثاني أن النبيَّ ﷺ سأل رَبَّه أن يجعل مُلك فارس والروم في أُمَّته ، فَنَزلت هذه الآية . حكاه قتادة. والثالث أن اليهود قالوا : واللهِ لا نُطيع رَجلاً جاء ينقل النُّبوة من بني اسرائيل إلى غَيرهم ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله أبو سليمان . قال الخطابي : ومعنى : ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ أنه بيده يُؤتيه مَن يشاء . قال: وقد يكون معناه مالك الملوك ، ويُحتمَل أن يكون معناه : وارث الْمُلْك يَوْمَ لا يَدَّعيه مُدَّعٍ كَقَوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحقُّ للرحمن ﴾ [الفُرقان : ٢٦] . قَوله تعالى : ﴿ تُؤتي الْمُلْكَ مَن تشاءُ ﴾ في هذا الْمُلْك قَولان: أحدهما أنه النُّبوَّة ، قاله ابن جُبَير ومجاهد. والثاني أنه المال والعبيد والحفَدة، ذَكَره الزَّجاج. وقال مُقاتل : ﴿ تُؤتي الْمُلْكَ مَن تشاءُ ﴾ يعني محمدًا وأُمَّته ، ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تشاءُ ﴾ يعني : فارس والرُّوم ، ﴿ وتُعِزُّ مَن تشاءُ ﴾ محمدًا وأُمَّته ، ﴿ وتُذِلُّ مَن تشاءُ ﴾ فارس والروم. وبماذا يكون هذا العِز والذل ؟ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها العز بالنصر والذل بالقهر ، والثاني العز بالغنى والذل بالفقر، والثالث العز بالطاعة والذل بالمعصية . قَوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ . قال ابن عباس : يعني النصر والغنيمة، وقِيل: معناه: بيدك الخير والشَّر،فاكتفى بأحدهما، لأنه المرغوب فيه)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أنتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنا وأنتَ خَيْرُ الغافِرين ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . أنتَ يا الله سَيِّدُنا وناصرُنا وحافظُنا والْمُتَوَلِّي لأمورنا والقائم بشؤوننا في الدنيا والآخرة ، وَحْدَكَ لا شريك لك . فاستر ذُنوبنا ، ولا تُعاقبنا عليها ، واغفِر لنا مَعاصينا وآثامنا ، وسَامِحْنا ، وتَفَضَّلْ علينا برحمتك الواسعة الشاملة ، وأنتَ أعظمُ مَن صَفَحَ ، وخَيْرُ مَن سَتَرَ . تَغفِر السَّيئةَ ، وتُبدِّلها بالحسنة . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٣٢) : ((الغَفْرُ هو السَّتْر وترك المؤاخَذة بالذنب . والرحمة إذا قُرِنَت مَعَ الغَفْر يُراد بها أن لا يُوقعه في مِثله في المستقبل ، ﴿ وأنتَ خَيْرُ الغافِرين ﴾ أي: لا يَغفِر الذنبَ إلا أنت)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٥٢) وصحَّحه ووافقه الذهبي : عن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ واختارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبعينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. قال : دعا مُوسى، فَبَعَثَ اللهُ سبعين، فَجَعَلَ دُعاءه حِينَ دَعاه لِمَن آمنَ بمحمد ﷺ واتَّبعه ، قَوله : ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنا وأنتَ خَيْرُ الغافِرين ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا للذينَ يَتَّقُونَ ويُؤتونَ الزَّكاةَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، والذين يَتَّبعون محمدًا ﷺ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبَّنا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وللمؤمنينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِساب ﴾[إبراهيم : ٤١] . هذا دُعاء النبيِّ إبراهيم ﷺ الذي يدل على إيمانه العميق ، ويَقينه الثابت ، وخُشوعه التام . لقد طَلب المغفرةَ له ولوالديه اللذين رَبَّيانه ، وللمؤمنين كُلِّهم ، يوم القيامة . حيث يَقوم الناس لله من أجل الحساب ، ويَظهر الجزاء على الأعمال. إن الله يُحاسب عبادَه ، فَيُجازيهم بأعمالهم ، إن خَيْرًا فَخَير ، وإن شَرًّا فَشَر . لقد بَدأ دُعاءه بالأخص (نَفْسه)،وانتقل إلى الخاص(والديه)، وانتهى إلى العام (جميع المؤمنين).

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٣٢١) : ((﴿ رَبَّنا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ . قِيل: استغفرَ إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عَدُوَّان لله. قال القُشَيري: ولا يَبْعُد أن تكون أُمُّه مسلمة ، لأن الله ذَكَرَ عُذره في استغفاره لأبيه دون أُمِّه... . وقِيل: استغفرَ لهما طمعًا في إيمانهما. وقِيل : استغفرَ لهما بشرط أن يُسْلِما. وقِيل: أراد آدم وحوَّاء . وقد رُوِيَ أن العبد إذا قال : اللهم اغفر لي ولوالديَّ ، وكان أبواه قد ماتا كافرين ، انصرفت المغفرة إلى آدم وحوَّاء ، لأنهما والدا الخلق أجمع ... . ﴿ وللمؤمنينَ ﴾ . قال ابن عباس : مِن أُمَّة محمد ﷺ . وقِيل: ﴿ وللمؤمنينَ ﴾ كُلِّهم، وهو أظهر.﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحِساب ﴾ أي : يوم يقوم الناس للحساب)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقُل رَبِّ ارْحَمْهُما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[الإسراء : ٢٤] . على الابن أن يَدعوَ اللهَ تعالى أن يَرْحم أبَوَيْه برحمته الواسعة ، كما رَحِمَاه في صِغره ، وأحسنا إليه ، واعتنيا به في أشد لحظات ضَعفه ، حتى كَبُرَ واشتدَّ عُوده ، وصارَ مُسْتَقِلاً بنفسه . حتى لو كانا كافرَيْن ، لأن الدعاء لهما بالرحمة دعاءٌ بأن يَهديَهما اللهُ إلى الإسلام . أمَّا التَّرَحُّم على الأبَوَيْن الكافرين بعد موتهما، فلا يَجوز. وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٦١): ((ادْعُ اللهَ لوالديك بالرحمة، ﴿ وَقُل رَبِّ ارْحَمْهُما ﴾ ، وَتَعَطَّفْ عليهما بمغفرتك ورحمتك ، ﴿كَمَا ﴾ تَعَطَّفَا عليَّ في صِغَري فَرَحِمَاني ورَبَّياني صغيرًا ، حتى استقللتُ بنفسي ، واستغنيتُ عنهما)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٠٧):((قَوْله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي ﴾ . خَصَّ التربية بالذِّكر ليتذكر العبدُ شَفقةَ الأبوين وتعبهما في التربية ، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما ، وحنانًا عليهما ، وهذا كُله في الأبوَيْن المؤمنَيْن . وقد نهى القرآنُ عن الاستغفار للمشركين

الأموات، ولو كانوا أُولي قُربى)) اهـ . ولا يمكن للولد أن يَقوم بحق أبيه (وأُمه بطريق الأَوْلَى) ويُكافئه بإحسانه، إلا إذا وجده عَبْدًا، فقام بإعتاقه . ففي صحيح مسلم (٢/ ١١٤٨): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا يَجْزي وَلَدٌ والدًا إلا أن يَجِدَه مَمْلوكًا فيشتريَه فَيُعْتِقَه)) . إن الوالدين أخرجا الابن مِن العدم إلى الوجود بإرادة الله ومشيئته ، كما أنهما ربَّيا الابنَ ، ونَقَلاه من حالة الضعف إلى القوة ، ومِن العجز إلى القُدرة ، ومِن التابعية إلى الاستقلالية. وكذلك الابن الذي يُعتِق أباه أو أُمَّه، فإنه يُخرِجهما من العبودية (العدم) إلى الحرية (الوجود) . أي إنه يُخرِجهما مِن عجز العبودية إلى قُدرة الحرية . وبذلك ، يكون قد أحسنَ إليهما ، وكافأهما ، وردَّ جميلهما، وأدَّى حَقَّهما كاملاً . وهذه هي الحالة الوحيدة التي يُمكن للولد أن يَجزيَ أباه أو أُمَّه . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقُل رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِن لَدُنكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

المقصود بالْمُدخَل والْمُخرَج هو الإدخال والإخراج،وإضافتهما إلى الصدق لتعظيمهما ومدحهما.

وقُل يا محمد : يا رَبِّ أدخلني القبرَ إدخالاً حسنًا مَرْضِيًّا ، وأخْرِجْني من قبري عند البعث إخراجًا حَسَنًا كريمًا. أو : أدْخِلْني المدينةَ المنورة إدخالاً مَرْضِيًّا مُحَبَّبًا للنفس ، لا أرى فيه مكروهًا. وأخْرِجْني مِن مكة آمِنًا مُطْمَئِنًّا ، لا ألتفت إليها بقلبي. وذلك حين أُمِرَ النبيُّ ﷺ بالهجرة. واجعلْ لِي مِن عِندك حُجَّةً بَيِّنةً لإقامة شَرْعك ، وقُوةً تنصرني بها على أعدائك ، وتُعِزُّ بها دِينك .

وقد استجابَ اللهُ دعاء النبيِّ ﷺ ، ونصره على الأعداء ، وجعل الإسلام فوق كُل الأديان والشرائع ، وأعزَّ المؤمنين ، وأيَّدهم بالقوة والنصر والتمكين .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ تعالى عنهما _ قال : كان رسول الله ﷺ بمكة ، فَأُمِرَ بالهجرة . وأُنزِل عليه : ﴿ وَقُل رَبِّ أَدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِن لَدُنكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [64].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٧٧و٧٨):((وللمُفسِّرين في المراد بهذا الْمُدْخَل والْمُخْرَج أحد عشر قولاً : أحدها أدخلني المدينة مُدخَل صِدق، وأخرجني من مكة مُخرَج صدق. روى أبو ظبيان عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ بمكة ، ثم أُمِرَ بالهجرة ، فنزلت عليه هذه الآية. وإلى هذا المعنى ذهب الحسن في رواية سعيد بن جُبَير وقتادة وابن زيد . والثاني أدخلني

(٦٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٤) برقم (٤٢٥٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

القبر مدخل صدق ، وأخرجني منه مخرج صدق ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث أدخلني المدينة وأخرجني إلى مكة، يعني لفتحها. رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع أدخلني مكة مدخل صدق،وأخرجني منها مخرج صدق ، فخرج منها آمِنًا من المشركين ، ودخلها ظاهرًا عليها يوم الفتح، قاله الضَّحاك. والخامس أدخلني مدخل صدق الجنة ، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة، رواه قتادة عن الحسن . والسادس أدخلني في النُّبوَّة والرسالة ، وأخرجني منها مخرج صدق ، قاله مجاهد . يعني أخرجني مِمَّا يجب عليَّ فيها . والسابع أدخلني في الإسلام ، وأخرجني منه ، قاله أبو صالح . يعني مِن أداء ما وَجَبَ عليَّ فيه إذا جاء الموت. والثامن أدخلني في طاعتك ، وأخرجني منها ، أي سَالِمًا غير مُقصِّر في أدائها ، قاله عطاء . والتاسع أدخلني الغار وأخرجني منه ، قاله محمد بن المنكدِر . والعاشر أدخلني في الدِّين ، وأخرجني من الدنيا وأنا على الحق . ذَكَرَه الزَّجاج . والحادي عشر أدخلني مكة ، وأخرجني إلى حُنَين ، ذَكَره أبو سليمان الدمشقي . وأمَّا إضافة الصدق الى المدخل والمخرج فهو مدح لهما . قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِي مِن لَدُنكَ سُلْطَانًا ﴾ . وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه التَّسلط على الكافرين بالسَّيف ، وعلى المنافقين بإقامة الحدود ، قاله الحسن. والثاني أنه الْحُجَّة البَيِّنة ، قاله مجاهد . والثالث الْمُلْك العزيز الذي يُقهَر به العُصاة ، قاله قتادة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾[طه : ٢٥] .

هذا دعاء النبيِّ موسى ﷺ ، فقد طلبَ العَوْنَ مِن الله تعالى ، وأن يَشرح صَدْرَه لاستيعاب الوَحْي الإلهيِّ وفَهْمه ، وتحمُّل أعباء الرسالة ، والصبر على الشدائد ، وامتلاك القُدرة على مُواجهة فِرْعَوْن وجنوده . وقد كان فِرْعَوْن حاكمًا جَبَّارًا ، ورأسًا للكفر والطغيان ، ومِن شِدَّة كُفره ادَّعى الألوهية . وهذا يدل على طغيانه ، وكثرة جنوده وأتباعه ، وتمرُّده ، وعناده ، وقَسوة قلبه .

رَبِّ وَسِّعْ لي صدري ونَوِّرْهُ بالإيمان والنُّبوَّة والحق، حتى أقْدِر على مُخاطبة فِرْعَوْن ، ومُواجهة جنوده وأتباعه ، ولا أخاف مِنهم ، ولا أقلق بشأنهم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٧٠) : ((﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ . وَسِّعْهُ للحق . قال ابن عباس : يُريد حتى لا أخاف غَيْرَك . وذلك أن موسى كان يخاف فِرْعَوْن خوفًا شديدًا لِشِدَّة شَوْكته،وكثرة جنوده. وكان يَضِيق صدرًا بما كُلِّفَ مِن مُقاومة فِرْعَوْن وَحْدَه، فسألَ اللهَ أن يُوسِّع قلبه للحق حتى يَعْلَم أن أحدًا لا يَقْدِر على مَضَرَّته إلا بإذن الله ، وإذا عَلِمَ ذلك لَم يَخَف فِرْعَوْن ، وشِدَّة شَوْكته ، وكثرة جنوده)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أمْرِي ﴾ [طه : ٢٦] . وَسَهِّلْ عَلَيَّ القِيام بأعباء الدَّعوة ، وتبليغ الرسالة إلى فِرْعَوْن. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٨١):((ومعنى قَوله:﴿ وَيَسِّرْ لِي أمْرِي ﴾ ، سَهِّلْ عليَّ ما بعثتني له)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْني عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] . واسأل اللهَ يا محمد أن يَزيدك مِن العِلم النافع والفهم الصحيح . وقد استجابَ اللهُ دُعاءه ، وزاده في العِلم ، ووفَّقه للعمل بِه حتى تَوَفَّاه اللهُ تعالى . والنبيُّ ﷺ في تَرَقٍّ مُستمر وصعود دائم ، ولا يُمكن لمخلوق أن يصل إلى رُتبته السَّامية ، ومكانته الرفيعة .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٦٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وَقُل يا محمد : ربي زِدْني عِلْمًا إلى ما عَلَّمتني . أمَرَه بمسألته في فوائد العِلم ما لا يَعْلَم)) اهـ . وقال الواحدي في الوجيز (ص ٧٠٦) : ((﴿ وَقُل رَبِّ زِدْني عِلْمًا ﴾ بالقرآن . وكان كُلما نَزَلَ عليه شيء مِن القرآن ، ازدادَ به عِلْمًا)) اهـ . واللهُ لَم يَأمر النبيَّ ﷺ أن يطلب الزيادة في المال أو الأولاد . إنما أمره بطلب الزيادة في العِلم ، وهذا يدل على شرف العِلم وفضله . وما أَمَرَ اللهُ رسولَه بطلب الزيادة في شيء إلا في العِلم . والعِلمُ هو الطريق الموصِل إلى الله تعالى . وما اتَّخَذَ اللهُ وَلِيًّا جاهلاً ، وَلَوْ اتَّخذه جاهلاً لَعَلَّمَه.وقال القرطبي في تفسيره(٤/ ٤٤):((فلو كان شيء أشرف من العِلم،لأمرَ الله تعالى نَبِيَّه ﷺ أن يَسأل المزيدَ مِنه ، كما أَمَرَ أن يَستزيده مِن العِلم))اهـ. وقال الحافظ في الفتح (١/ ١٤١) : ((وَقَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْني عِلْمًا ﴾ واضح الدَّلالة في فضل العِلم ، لأن الله تعالى لَم يأمر نَبِيَّه ﷺ بطلب الازدياد مِن شيء إلا مِن العِلم . والمراد بالعِلم العِلم الشرعي الذي يُفيد معرفة ما يجب على الْمُكَلَّف مِن أمر دِينه في عباداته ، ومُعاملاته . والعِلم بالله وصفاته ، وما يجب له مِن القيام بأمره ، وتَنْزيهه عن النقائص ، ومَدار ذلك على التفسير والحديث والفقه)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٩٠) وصحَّحه : عن أنس بن مالك _ رضي اللهُ عنه _ أن النبيَّ ﷺكان يقول: ((اللهُمَّ انفعني بما عَلَّمتني، وَعَلِّمْني ما يَنفعني،وارزقني عِلْمًا تنفعني به)).

الانتفاعُ بالعِلم يتجلى في العمل بِه . لقد دعا النبيُّ ﷺ رَبَّه أن يُوفِّقه للعمل بالعِلم ، وأن يُعلِّمه العِلمَ النافع . وهذا دليل على أن المرء لا يَطلب الازدياد إلا مِن العِلم النافع. والعِلمُ النافع هو كُل عِلم دينيٍّ أو دُنيويٍّ يَقُود المرء إلى السعادة والنجاح في الدنيا والآخرة مَعًا . وما عداه ، فهو عِلم ضار وفاسد وباطل ، ولا فائدة مِنه . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٢/ ١٣٣) : (((اللهُمَّ انفعني بما عَلَّمتني) بالعمل بِمُقتضاه خالصًا لوجهك ، (وَعَلِّمْني ما يَنفعني) لأرتقيَ مِنه إلى عمل زائد على ذلك ... . وبِه ظهر أن العِلم وسيلة للعمل وهُما مُتلازمان)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَنَادَى في الظُّلُمَاتِ أن لا إلهَ إلا أنتَ سُبحانَكَ إنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . هذا دُعاء النبيِّ يُونُس ﷺ في كَرْبِه وشِدَّته . لقد نادى رَبَّه في ظُلمة الليل وهو في بَطْن الحوت الذي ابتلعه . والظلمات هي ظُلمة بطن الحوت ، وظُلمة البحر ، وظُلمة الليل .

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ: في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَى في الظُّلُمَاتِ ﴾ . قال : ((ظُلمة الليل ، وظُلمة بطن الحوت ، وظُلمة البحر)) [65].

نادى بأن لا إلهَ إلا أنتَ يا الله، تَقَدَّسْتَ وتَنَزَّهْتَ عن النقص والعَيب والعَجْز والعبث والظلم. وأفعالُ الله تَجري على مُقتضى الحِكمة البالغة بلا عبث ولا فوضى ولا شهوة للانتقام . إني كُنتُ ظَالِمًا لنفْسي ، وأخطأتُ حِينَ تركتُ قَوْمي بلا إِذن مِنكَ يا رَب ، وقد عُدْتُ إليكَ نادمًا وتائبًا ، فاغفر لي زَلَّتي، واكْشِفْ عَنِّي الكَرْب والمِحنة. فأنا إنسان ضعيف،ولا أقْدِر على أداء حق العبودية. وقد نجَّاه اللهُ مِن هذه الشِّدة ، لأنه نَزَّهَ اللهَ عن الظلم ، ونَسَبَ الظلمَ إلى نَفْسه ، وأقرَّ بِزَلَّته ، واعترفَ بِخَطَئه . والاعترافُ بالذَّنْب فضيلة . والرُّجوع إلى الحق خَيْر من التمادي في الباطل . وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٨٧) : ((﴿ أن لا إلهَ إلا أنتَ سُبحانَكَ إنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ يُريد فِيما خَالَفَ فيه مِن ترك مُداومة قَوْمه ، والصبر عليهم. وقِيل : في الخروج مِن غَير أن يُؤذَن له،ولَم يكن ذلك مِن الله عقوبة، لأن الأنبياء لا يجوز أن يُعَاقَبُوا، وإنما كان ذلك تمحيصًا، وقد يُؤدَّب مَن لا يستحق العِقاب كالصِّبيان ، ذَكَره الماوردي . وقِيل : مِن الظالمين في دُعائي على قَوْمي بالعذاب ، وقد دعا نُوح على قَومه فلم يُؤاخَذ. وقال الواسطي في معناه : نَزَّهَ رَبَّهُ عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفْسه اعترافًا واستحقاقًا)) اهـ . وعن سعد بن أبي وقاص ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((دَعوةُ ذِي النُّون التي دعا بها في بطن الحوت: لا إلهَ إلا أنت ، سُبحانَك إني كُنتُ مِن الظالمين . لَم يَدْعُ بها مسلم في كُربة إلا استجابَ اللهُ له))[66]. يُبيِّن الحديثُ فضلَ هذا الدعاء وعَظَمَته ، لأنه يشتمل على معاني العبودية للهِ تعالى ، والخضوع له ، والاستسلام لِحِكمته وأمره ومشيئته ، واعتراف العبد بِذَنْبه وتقصيره ، بلا مُكابَرة ولا عِناد .

وقال الْمُناوي في فيض القدير (٣/ ٥٢٦) ــ والكلام عن إحدى روايات الحديث ــ : (((دَعوة ذِي النُّون) أي صاحب الحوت، وهو يُونُس (إذْ) أي حِينَ (دعا بها وهو في بطن

---

(٦٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤١٥) برقم (٣٤٤٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٦٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٦٣٧) برقم (٤١٢١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الحوت لا إله إلا أنت) أي إنك الذي تَقْدِر على حفظ الإنسان حَيًّا في باطن الحوت، ولا قُدرة لغيرك على هذه الحالة، ثُمَّ أردفَ ذلك بِقَوله (سُبحانَك إني كنت من الظالمين) تصريحًا بالعجز والانكسار، وإظهار الذِّلة والافتقار. قال الحسن : ما نَجَا إلا بإقراره على نفْسه بالظلم ، وإنما قَبِلَ مِنه ولَم يَقْبَل مِن فِرْعَوْن حِين قال : ﴿ لا إلهَ إلا الذي آمنتْ بِهِ بَنُو إسرائيل ﴾ [يُونُس : ٩٠] ، لأن يُونُس ذَكَرَها في الحضور والشُّهود، وفِرْعَوْن ذَكَرها في الغَيبة تقليدًا لبني إسرائيل.ذَكَره الإمام الرازي. (لَم يَدْعُ بها رَجل مسلم في شيء) بنية صادقة صالحة (إلا استجابَ اللهُ له) لأنها لَمَّا كانت مسبوقة بالعجز والانكسار، مَلحوقة بهما ، صارت مقبولة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْني فَرْدًا وأنتَ خَيْرُ الوَارِثِين﴾[الأنبياء: ٨٩].

واذكُر يا محمد خَبَرَ نبيِّ الله زكريا ، حين دعا اللهَ بإخلاص وصِدق : رَبِّ لا تتركني وحيدًا مُنْفَرِدًا، لا ولد لي ولا وارث يَحمل الدعوة مِن بَعْدي، ويقوم بأمر الدِّين في الناس . وأنتَ خَيْر مَن يبقى بعد كُل مَن يموت.وهذا مدحٌ لله بالبقاء بعد فناء الخلق،وتمجيدٌ له لأنه أفضل مَن بَقِيَ حَيًّا.

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٩٣) : ((أي : أعلم أنك لا تُضِيع دِينَك ، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التي هي القيام بأمر الدِّين عَن عَقِبي)) اهـ .

إن الله سينشر دِينه ، عاشَ مَن عاش ، ومات مَن مات . والنبيُّ زكريا ﷺ كان يَعرِف هذه الحقيقة . وكان يَعلم أن الله لا يُضِيع دِينه ، سواءٌ رَزَقَه بالولد أَم لَم يَرزقه . ولكنه أرادَ وَلَدًا يَحمل الدَّعوة الإسلامية مِن بَعده ، كَي يظل النُّور في عَقِبه .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٠٨) : ((فأنتَ حَسْبي إن لَم ترزقني وَلَدًا ، فإني أعلم أنك لا تُضِيع دِينَك ، وأنه سيقوم بذلك مِن عبادك مَن تختاره له ، وترتضيه للتبليغ)) اهـ .

وقال الفخر الرازي في تفسيره (٢٢/ ٢١٧): ((كان سِنُّه مائة، وسِن زوجته تِسْعًا وتسعين)).

والإنسانُ إذا كَبُرَ هو وزوجته في السِّن استبعدَ إنجاب الولد ، ولكن الله على كل شيء قدير.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقُل رَبِّ أنزِلْني مُنزَلاً مُبَارَكًا وأنتَ خَيْرُ الْمُنزِلين ﴾[المؤمنون : ٢٩] .

هذا دُعاء النبيِّ نُوح ﷺ حِينَ خرج مِن السفينة : رَبِّ أنزِلْني إنزالاً طَيِّبًا مُبَارَكًا بالسلامة والنجاة لا أرى فيه مَكروهًا . وأنتَ خَيْرُ الْمُنْزِلين لأوليائك ، وأفضل مَن أنزلَ عباده المنازلَ . وهذا ثناءٌ على الله بعد دُعائه له ، وتمجيدٌ لله تعالى إظهارًا لقدرته وفضله ، وتَوَسُّلاً إلى الإجابة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ١١٠) : ((فالآية تعليم مِن الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا ، أن يقولوا هذا ، بل وإذا دخلوا بيوتهم)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤١٦) : ((فالبركة في السفينة النجاة، وفي النُّزول بعد الخروج كثرة النَّسْل مِن أولاده الثلاثة _ أي : سام ، وحام ، ويافث _)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ يَقولونَ رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَها كانَ غَرَامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٥] . هذا مدحٌ إلهيٌّ للمؤمنين الذين يَعبدون اللهَ ، ويحرصون على طاعته ، ويَجتنبون المعاصي . ومعَ هذا ، فهم خائفون مِن غضب الله، ومُشْفِقون مِن عذابه، ويَدْعُون اللهَ أن يَحميَهم مِن عقابه ، ويُجيرهم مِن عذاب جهنم، إن عذابها كان دائمًا مُلازِمًا غَير مُفارِق . ومِنهُ سُمِّيَ الغريم لِمُلازمته . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٧) : ((وهو إيذان بأنهم مَعَ حُسن مُخالطتهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الحق ، وَجِلُون من العذاب، مُبْتَهِلون إلى الله تعالى في صَرْفه عنهم ، لعدم اعتدادهم بأعمالهم ، ووثُوقهم على استمرار أحوالهم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٠٢) : ((قَوله تعالى : ﴿كانَ غَرَامًا ﴾ فيه خمسة أقوال مُتقارب معانيها : أحدها دائمًا ، رواه أبو سعيد الْخُدْرِيُّ عن رسول الله ﷺ . والثاني مُوجِعًا، رواه الضَّحاك عن ابن عباس. والثالث مُلِحًّا،قاله ابن السائب. وقال ابن جُرَيج: لا يُفَارِق. والرابع هَلاكًا ، قاله أبو عبيدة . والخامس أن الغرام في اللغة أشد العذاب ... ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ يَقولونَ رَبَّنا هَبْ لَنَا مِن أزواجِنا وَذُرِّياتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ واجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إمَامًا ﴾ [الفُرقان : ٧٤] . هذا مدحٌ إلهيٌّ للمؤمنين الذين يتوجَّهون إلى الله وَحْدَه ، ويَدْعُونه بصدق وإخلاص : رَبَّنا اجعلْ لنا مِن أزواجنا وذُرِّياتنا أولادًا أتقياء ومُطيعين وصالحين ، فَتَقَرُّ أعْيُننا بذلك ، ونفرح بهم ، ويحصل لنا الرضى والسُّرور . وأكثرُ شيء يُسْعِد المؤمن أن يرى زوجته وأولاده مُطيعين لله تعالى، لأنهم يُساعدونه في الدِّين والعبادة والطاعة ، ويتوقَّع أن يَجتمع بهم في الجنة . وأيضًا ، تحصل الأُلفة في الأسرة، وتَحُل فيها البركة، وتبتعد عن المشكلات والصراعات ، وتغدو أسرةً صالحة متماسكة. واجعلنا قُدوةً وأئمةً يُقتدَى بنا في الخير والطاعة. وقِيل : ﴿ أعْيُنٍ ﴾ وهو جَمْع قِلَّة . ولَم يقل: عُيون ، لأن المقصود أعين المتَّقين ، وهي قليلة مُقارَنةً مع عُيون غَيْرهم، لأن المتَّقين هُم نخبة كُل مجتمع،وعددهم دائمًا يكون قليلاً. ولَم يقل: أئمة . بل قال : ﴿ إمَامًا ﴾ لأن المراد هو الجِنس . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذينَ يَقولونَ رَبَّنا هَبْ لَنَا مِن أزواجِنا وَذُرِّياتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ ﴾ يعني : الذين يَسألون اللهَ أن يُخرج مِن أصلابهم مِن ذُرِّياتهم مَن يُطيعه ويَعبده وَحْدَه لا شريك له . قال ابن عباس : يَعْنُون مَن يعمل بطاعة الله فَتَقَرُّ بِه أعْيُنهم في الدنيا والآخرة . قال عِكرمة : لَم يُريدوا بذلك صَباحةً ولا جَمَالاً ، ولكن

أرادوا أن يكونوا مُطيعين . وسُئِل الحسن البصري عن هذه الآية فقال : أن يُرِيَ اللهُ العبدَ المسلم مِن زوجته ومِن أخيه ومِن حميمه طاعةَ الله ، لا والله لا شيء أقَر لِعَين المسلم مِن أن يرى ولدًا أو ولد ولد أو أخًا أو حميمًا مُطيعًا لله عز وجل . قال ابن جُرَيج في قَوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِن أزواجِنا وَذُرِّياتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ ﴾ . قال : يَعبدونك فَيُحسِنون عبادتك ، ولا يَجُرُّون علينا الجرائر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : يَسألون اللهَ تعالى لأزواجهم وذُرِّياتهم أن يَهديَهم للإسلام ... . وقَوله تعالى:﴿واجْعَلْنا للمُتَّقِينَ إمَامًا ﴾ . قال ابن عباس والحسن والسُّدي وقَتادة والربيع بن أنس : أئمة يُقتدَى بنا في الخير. وقال غيرهم : هُداة مُهتدين دُعاة إلى الخير)) اهـ .

هؤلاء المؤمنون الذين يُوحِّدون اللهَ ، ويُطيعون أوامرَه ، ويَجتنبون نَواهيه ، كانوا حريصين على اتصال عبادتهم بعبادة أولادهم وأحفادهم وذُرِّياتهم ، وأن تكون سُلالة العائلة في ظِل طاعة الله والابتعاد عن مَعاصيه. وهذا يعني عُموم الأجر والثواب ، ووصول النفع والمغفرة إلى أكبر عدد ممكن من أفراد العائلة. وهذه هي السعادة الحقيقية في الدنيا، التي تُؤدِّي إلى النعيم الأبديِّ في الجنة. وفي صحيح مسلم (٣/ ١٢٥٥): عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ: أن رسول الله ﷺ قال : ((إذا مات الإنسانُ انقطعَ عنه عَمَلُه إلا مِن ثلاثة ، إلا مِن صَدقةٍ جارية ، أو عِلْمٍ يُنتفَع به ، أو وَلَدٍ صالح يدعو له)) .

حِين يُغادر الإنسانُ هذه الحياة فإن صحيفته تُطوَى ، فلا يعود قادرًا على العمل وفِعل الخيرات وكَسب الحسنات . فينقطع عملُه ، ولا يستفيد بعد موته إلا من هذه الأمور الثلاثة لكَوْنها من كَسْبه ، وقد كان سببًا فيها . فالصدقةُ الجارية وهي الوَقْف ، قد قام بأدائها في حياته الدنيا فيلحق به أجرُها بعد موته ، وكذلك العِلم النافع الذي نشره وسعى في تعليمه للآخرين ، وأيضًا الولد الصالح الذي أنجبه وربَّاه أحسن تربية ليخدم دِينَه وأُمَّته .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ٨٥) : ((قال العلماء : معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته ، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لِكَوْنه كان سببها ، فإن الولد مِن كَسْبه ، وكذلك العِلم الذي خلَّفه من تعليم أو تصنيف ، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف. وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح ...وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه، وبيان فضيلة العِلم، والحث على الاستكثار منه، والترغيب في توريثه بالتعليم والتصنيف والإيضاح وأنه ينبغي أن يختار مِن العلوم الأنفع فالأنفع ، وفيه أن الدُّعاء يصل ثوابه إلى الميت ، وكذلك الصدقة ، وهُمَا مُجمَع عليهما)) اهـ .

وعن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير عن أبيه قال : جَلَسْنا إلى المِقداد بن الأسود يَوْمًا ، فمرَّ به رَجل فقال : طُوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسولَ الله ﷺ ، واللهِ لَوَدِدْنا أنَّا رأينا ما رأيتَ ، وشَهِدْنا ما شهدتَ ، فَاسْتُغضِب . فجعلتُ أعجبُ ، ما قال إلا خَيْرًا ، ثُمَّ أقبلَ إليه فقال : ((ما يَحمل الرَّجل على أن يتمنى مَحْضَرًا غَيَّبه اللهُ عنه ، لا يَدري لو شَهِده كيف كان يكون فيه ، واللهِ لقد حَضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ أكَبَّهم اللهُ على مَناخرهم في جهنم ، لَم يُجيبوه ، ولَم يُصدِّقوه ، أوَ لا تَحمدون اللهَ إذ أخرجكم لا تعرفون إلا رَبَّكم،مُصدِّقين لِمَا جاء به نَبِيُّكم،قد كُفِيتم البلاءَ بغيركم، واللهِ لقد بَعث اللهُ النبيَّ ﷺ على أشد حال بُعِثَ عليها فِيه نبيٌّ مِن الأنبياء ، في فَتْرة وجاهلية ، ما يَرَوْنَ أن دِينًا أفضل مِن عبادة الأوثان ، فجاء بِفُرْقان فَرَقَ به بين الحق والباطل ، وفَرَّقَ بين الوالد وولده ، حتى إنْ كان الرَّجل لَيَرى والده وولده أو أخاه كافرًا ، وقد فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قلبه للإيمان، يعلم أنه إنْ هَلَكَ دخل النار، فلا تَقَرُّ عَيْنُه، وهو يَعلم أن حبيبه في النار، وإنها لَلتي قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ والذينَ يَقولونَ رَبَّنا هَبْ لَنَا مِن أزواجِنا وَذُرِّياتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ ﴾)) [67].

على المسلم أن يَحمد اللهَ ويَشكره ، لأنه وُلِد مُسْلِمًا لأبوين مُسْلِمَيْن في مجتمع إسلاميٍّ ، ويبتعد عن تَمَنِّي الأمورَ غير الواقعية . لقد جعله اللهُ مُسْلِمًا بسهولةٍ وبِلا مُعاناة . أمَّا الصحابةُ (الجيل الذهبي)ـ رضي اللهُ عنهم ـ فقد صاروا مُسلِمين بعد العذاب والشِّدة والحروب والقتل والقِتال . حيث إنهم ظَهروا في بيئة وثنية ، تُقدِّس الأصنامَ ، ولا تَعترف بتوحيد الله تعالى ، وظَهَرَ النبيُّ ﷺ في هذه البيئة القذرة ، وهذا المجتمع الكافر ، فعملَ جاهدًا على تطهيره وتنظيفه . وكانت مهمته في غاية الصعوبة والقَسوة ، وساعده صحابة كِرام في نشر الدَّعوة في أصعب الظروف ، حيث الفقر والجوع والخوف والقتل . وعَمَّ الانقسامُ المجتمعَ والعشائرَ والعائلات ، وتفرَّقَ الناس إلى مؤمنين وكافرين . وكثيرٌ من الناس رَأَوا النبيَّ ﷺ وحَادَثُوه وجَالَسُوه ، ومعَ هذا كفروا به . والإنسانُ لا يَعْرِف قَلْبَه عِند الفِتَن والمِحَن والشدائد ، فليحمد اللهَ ويَشكره على النجاة والسلامة. وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبِّ أوْزِعْني أن أشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أنعمتَ عَلَيَّ وَعَلى وَالِدَيَّ وأن أعملَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وأدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصالحين ﴾[النَّمْل : ١٩] .

هذا دعاء النبيِّ سُلَيمان ﷺ : رَبِّ ، ألْهِمْني ووَفِّقْني لِشُكر نِعَمك الكثيرة ، وآلائك الجليلة ، التي أنعمتَ بِها عليَّ وعلى أبي وأُمِّي . والإنعامُ على الوالدَيْن هو إنعام على الولد. وَوَفِّقْني لطاعتك

(٦٧) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢) . وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٩) .

وعمل الخير الذي يُقرِّبني مِنكَ ، والذي تُحِبُّه وترضاه ، إكمالاً للشُّكر وإتمامًا للنِّعَم ، وأدْخِلْني برحمتك الجنةَ مَعَ الأنبياء والمؤمنين ، لا بصالح عملي . وهذا دليل على أن لا أحد يَدخل الجنة بعمله ، ولا حتى الأنبياء ، وإنما يَدخلونها برحمة الله وفضله .

وعن أبي هريرة_رضي اللهُ عنه_قال:قال رسول الله ﷺ:((لَن يُدْخِلَ أحَدًا مِنكُم عَمَلُه الجنةَ)). قالوا : ولا أنتَ يا رسول الله ؟ . قال : ((ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ مِنه بفضلٍ ورحمة))[68].

إنَّ عمل الإنسان وَحْدَه لا يُؤهِّله لدخول الجنة ، ولا يَجعله مُستحِقًّا لها ، لأنه لا يُكافئ نِعَمَ الله على الإنسان. والأعمالُ الصالحةُ إنما هي بفضل الله وتوفيقه، وليست بذكاء الإنسان ومهاراته. ودخول الجنة إنما هو بفضل الله ورحمته ، والعملُ سبب ظاهري لا يقوم بنفْسه ، وإنما يتوقف على توفيق الله وهدايته . ومعنى " يَتَغَمَّدَني " يَغمرني ويَسترني .

والجديرُ بالذِّكر أن الله تعالى أنعمَ على النبيِّ سُلَيمان ﷺ بِنِعَم كثيرة ، أعظمها : النُّبوَّة والعِلم والْمُلْك ، وفهم لغة الطيور والحيوانات .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٧٦) : ((أي : ألْهِمْني أن أشكر نِعمتك التي مَنَنْتَ بها عليَّ مِن تعليمي مَنطِق الطير والحيوان ، وعلى والديَّ بالإسلام لك والإيمان بك ، ﴿ وأن أعملَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أي: عملاً تُحِبُّه وترضاه، ﴿ وأدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصالحين ﴾ أي : إذا تَوَفَّيْتَني فألحقني بالصالحين مِن عبادك ، والرفيق الأعلى مِن أوليائك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ جَاؤوا مِن بَعْدِهِمْ يَقولونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ولإخوانِنا الذينَ سَبَقُونا بالإيمانِ ولا تَجْعَلْ في قُلوبِنا غِلاًّ للذينَ آمَنُوا رَبَّنا إنَّكَ رَؤوفٌ رَحيمٌ ﴾ [الْحَشْر : ١٠] .

هؤلاء التابعون للمهاجرين والأنصار بإحسانٍ إلى يوم القيامة (وهُم الذين يَجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة) . واتِّباعُهم بإحسانٍ يعني اتِّباع آثارهم الحسنة وأخلاقهم الحميدة وصفاتهم الجميلة ، والسَّير على خُطاهم في الدَّعوة إلى اللهِ في السِّر والعلانية .

وهؤلاء التابعون يَدعون لأنفسهم ، ولِمَن سَبَقهم بالإيمان بالمغفرة . وفي هذا دليلٌ على أنَّ الشخص يَبدأ بالدعاء لنفْسه أوَّلاً ، وبعدها يَدعو للآخرين .

إنهم يَدْعُون قائلين: يا رَبَّنا ، اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذينَ سَبَقُونا بالإيمان ، وهُم السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار ، ولا تَجعل في قلوبنا بُغضًا وحِقدًا وحَسَدًا لأحدٍ من

---

(٦٨) متفق عليه.مسلم (٤/ ٢١٦٩) برقم (٢٨١٦)، والبخاري (٥/ ٢١٤٧) برقم (٥٣٤٩) .

المؤمنين ، إنَّكَ عظيم الرأفة وواسع الرحمة ، لِمَن يَستحق ذلك مِن عبادك ، فاستجِبْ لنا ، فإنَّكَ جديرٌ بأن تُجيب دُعاءنا . والآيةُ اسْتَوعبت جَميعَ المؤمنين (المهاجرين ، والأنصار ، والتابعين) .

والأُخُوَّة المقصودة في الآية هي أُخُوَّة الدِّين لا أُخُوَّة النَّسَب . وقد وصفوهم بالسَّبْق بالإيمان اعترافًا بفضلهم وشرفهم ، وإشادةً بمكانتهم الرفيعة ، وتعظيمًا لِدَورهم الحاسم في نُصرة الإسلام .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ٢٣٠) : ((والجملة مَسُوقة لمدحهم بمحبتهم لِمَن تَقدَّمهم من المؤمنين ، ومُراعاتهم لحقوق الأُخُوَّة في الدِّين والسَّبْق بالإيمان... . ﴿ ولإخوانِنا ﴾ أي: في الدِّين الذي هو أعز وأشرف عِندهم مِن النَّسَب)) اهـ .

وقد أمرَهم اللهُ بالاستغفار للمهاجرين والأنصار ، وأن يَطلبوا من اللهِ تعالى أن يَنْزِع مِن قلوبهم الحِقدَ والحسدَ للمؤمنين على الإطلاق . والصحابةُ داخلون في هذا المعنى ، لأنهم سادة المؤمنين وأعظمُهم وأشرفُهم . ومَن لَم يستغفر للصحابة ، ويَطلب رِضوان الله لهم ، فهو مُخالِف للأمر الإلهيِّ في الآية . ومَن تَرحَّم على صحابة النبيِّ ﷺ ، وطلب مِنَ اللهِ أن يَرضى عنهم ، ولَم يَحْمِل في قلبه حِقْدًا عليهم ، ولا حَسَدًا لهم ، فهو من أهل هذه الآية . ومَن يَشتُم واحدًا مِنهم ، ولَم يَترحَّم عليه ، كانَ خارجًا مِن جُملة أقسام المؤمنين (المهاجرين ، والأنصار، والتابعين) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧٩): ((فَكُل مَن كان في قلبه غِل على أحد من الصحابة، ولَم يَترحَّم على جميعهم ، فإنَّه ليس مِمَّن عَناه اللهُ بهذه الآية ، لأنَّ الله تعالى رَتَّبَ المؤمنين على ثلاث منازل : المهاجرين ، والأنصار، والتابعين الموصوفين بما ذَكَرَ اللهُ . فَمَن لَم يكن مِن التابعين بهذه الصِّفة ، كان خارجًا من أقسام المؤمنين)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (١٨/ ٣٠):((وقال بعضُهم: كُن شَمْسًا ، فإن لَم تستطع ، فَكُن قمرًا ، فإن لَم تستطع ، فكن كوكبًا مُضيئًا ، فإن لَم تستطع ، فَكُن كوكبًا صغيرًا ، ومن جهة النُّور لا تنقطع . ومعنى هذا : كُن مُهاجريًّا ، فإن لَم تستطع ، فإن قُلْتَ : لا أجد ، فَكُن أنصاريًّا ، فإن لَم تجد ، فاعمل كأعمالهم ، فإن لَم تستطع ، فأحِبَّهم واستغفر لهم كما أمَرَكَ الله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وإلَيْكَ أنَبْنا وإلَيْكَ المصير ﴾[الْمُمْتَحَنَة : ٤] .

رَبَّنا عَلَيْكَ اعتمدنا في كل شؤوننا ، وتَوَكَّلْنا عليك في كل أمورنا، وإلَيْكَ رَجَعْنا وتُبْنا ، وإلَيْكَ المرجع والمصير في الدار الآخرة ، يوم تبعثنا مِن قُبورنا للعَرْض والحساب .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢٩٨) : ((هذا مِن دُعاء إبراهيم وأصحابه ، ومِمَّا فيه أُسوة حسنة يُقْتَدَى بِه فيها . وقِيل : هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القَول. والتَّوَكُّل هو تفويض

الأمور إلى الله ، والإنابة الرجوع ، والمصير المرجع . وتقديم الجار والمجرور لِقَصْر التوكل والإنابة والمصير على الله)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتنةً للذينَ كفروا واغْفِرْ لَنا رَبَّنا إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ [الْمُمْتَحَنَة : ٥] .

هذا دعاء النبيِّ إبراهيم ﷺ وأصحابه : رَبَّنا لا تَجعل الكافرين يَظْهَرون علينا ويَهزموننا ، فيظنوا أنهم على حق ، ونحن على باطل ، فَيَفْتَتِنُوا بذلك. أي: لا تُظْهِرْهم عَلَينا فنكون لهم فِتنةً وسَبَبًا لانحرافهم وضلالهم. وقِيل: لا تُسلِّطهم عَلَيْنا فَيَفْتِنُونا عن دِيننا بعذابٍ لا نُطيقه ولا نتحمَّله .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٤٦):((﴿ رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتنةً للذينَ كفروا ﴾ . قال مجاهد: معناه : لا تُعذِّبنا بأيديهم ولا بعذاب مِن عندك ، فيقولوا : لَوْ كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا. وكذا قال الضَّحاك. وقال قتادة: لا تُظْهِرْهم علينا فيفتنونا بذلك ، يَرَوْنَ أنهم إنما ظَهَروا علينا لحق هُم عليه. واختاره ابن جرير.وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تُسَلِّطْهم علينا فَيَفتنونا)) .

واسْتُر ذُنوبنا بِعَفْوك وكَرَمك ، وتجاوَزْ عَنَّا يا رَبَّنا ، إنكَ أنتَ الغالبُ الذي لا يُقهَر ، الحكيمُ في أقوالك وأفعالك وشَرْعك وقضائك وقَدَرك ومُلْكك وصُنعك .

والعزيزُ الحكيمُ قادرٌ على حماية المتوكِّل عليه ، وإجابة الداعي . وتكرارُ النداء ﴿ رَبَّنا ﴾ للمُبالَغة في التَّضَرُّع لله والاستسلام له ، والخضوع التام لإرادته ومشيئته .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ: في قَوله تعالى: ﴿ رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتنةً للذينَ كفروا ﴾ قال: ((لا تُعَذِّبْنا بأيديهم،ولا بعذابٍ مِن عِندك، فيقولون: لَوْ كان هؤلاء على الحق ما أصابهم))[69].

والمعنى العام : لا تُظْهِرْهم عَلَينا ، ولا تَجعلنا مهزومين أمامهم ، فَيَرَوْنَ أنهم خَيْرٌ مِنَّا ، وأنهم على الحق ، ونحن على الباطل ، وأن الله راضٍ عنهم ، لذلك نصرهم وأعلى كلمتهم ورفع رايتهم.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ [الفَلَق : ١] .

قُل يا محمد : ألتجِئ وأحتمي برب الصُّبح الذي ينفلق عنه ظلام الليل .

إن الله فَلَقَ ظلامَ الليلِ بِنُور الصُّبح ، وهذا يدل على قُدرته المطْلقة . وتخصيص " الفَلَق " بالذِّكر ، لأن يشتمل على تغيُّر الحال من الظلام إلى النور ، ومِن الوحشة إلى الأُنس . والقادرُ على إزالة ظلام الليل بنور الصُّبح قادرٌ على إزالة هموم العبد وأحزانه ومُشكلاته وخَوْفه .

وفي أمثال العرب: " هو أبْيَنُ مِن فَلَق الصُّبح " . وهو مَثَل يُضرَب في الشُّهرة وشِدَّة الوضوح.

---

(٦٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٢٧) برقم (٣٨٠٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي صَفوة التفاسير (٢٠/ ١٢٣) : ((قال المفسرون : سبب تخصيص الصُّبح بالتَّعَوُّذ أن انبثاق نور الصُّبح بعد شِدَّة الظُّلْمَة ، كالْمَثَل لمجيء الفَرَج بعد الشِّدة ، فكما أن الإنسان يكون مُنتظِرًا لطلوع الصباح ، فكذلك الخائف يترقَّب مجيء النجاح)) اهـ .

وعن عُقبة بن عامر _ رضي اللهُ عنه _ قال : قلتُ : يا رسول الله ، أقْرَأُ مِن سُورة يُوسُف وسورة هُود ؟ . قال : ((يا عُقبة ، اقْرَأْ بأعوذ برب الفلق ، فإنك لن تقرأ بِسُورةٍ أحبَّ إلى الله ، وأبلغَ عنده مِنها ، فإن استطعتَ أن لا تفوقك ، فافعلْ)) [70].

وهذا الحديثُ يُوضِّح فضيلة سُورة الفَلَق لاشتمالها على معنى الالتجاء إلى الله وَحْدَه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفَلَق : ٢] .

مِن شَرِّ جميع المخلوقات.والآيةُ عامة،أي:مِن شَر كُل ذِي شَر خَلَقَه اللهُ تعالى،فيعمُّ جميع الشُّرور، ويَشمل كُل موجود له شَر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٧٣) : ((وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه عام ، وهو الأظهر.والثاني أن ﴿ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ إبليس وذُرِّيته،قاله الحسن. والثالث جهنم، حكاه الماوردي)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إذا وَقَبَ ﴾ [الفَلَق : ٣] .

وَمِن شَر الليل إذا أظلمَ ، واشتدَّ ظلامُه . وتخصيصه بالذِّكر ، لأن الليل سِتار كثيف ، تكثر فيه الشُّرور والمفاسد والأضرار، ويَصعُب الإنقاذ والمساعدة والإغاثة. وفي الليل ، تَخرج الحيوانات والوحوش مِن مَخابئها ، ويَنطلق الأشرارُ والمفسِدون (شياطين الإنس والجن) إلى المعاصي والآثام. وقال الرازي في التفسير الكبير(٣١/١٩٥):((وإنما أُمِرَ أن يتعوَّذ مِن شر الليل، لأن في الليل تخرج السِّباع مِن آجامها،والهوام من مكانها،ويهجم السارقُ والمكابِر،ويقع الحريق،ويقل فيه الغَوث)) اهـ . وتنكيرُ ﴿ غَاسِقٍ ﴾ ، لأن ليس كل غاسق فيه الشر ، وإنما الشر في بعض دُون بعض . وعن عائشة _ رضي الله عنها _ : أن رسول الله ﷺ أَخَذَ بيدها ، فأشار بها إلى القمر ، فقال : ((استعيذي بالله مِن شَر هذا ، فإنه الغاسق إذا وَقَب))[71].

إن القمر هو آية الليل ، ولا سُلطان للقمر إلا في الليل . لذلك ، لا يوجد تعارض بين هذا الحديث وتفسير الغاسق بالليل إذا أقبلَ بظلامه. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٧٤) :

---

(٧٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٨٩) برقم (٣٩٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٧١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٨٩) برقم (٣٩٨٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

((وفي الغاسق أربعة أقوال : أحدها أنه القمر... والثاني أنه النجم،رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ والثالث أنه الليل، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد والقُرَظي والفرَّاء وأبو عُبَيد وابن قُتَيبة والزَّجاج. قال اللغويون : ومعنى " وَقَبَ " دخل في كل شُيء فأظلمَ ، والغَسَق الظُّلْمَة . وقال الزَّجاج : الغاسق البارد ، فَقِيل لليل غاسق ، لأنه أبرد من النهار. والرابع أنه الثُّرَيَّا إذا سَقطتْ . وكانت الأسقام والطواعين تكثُر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها ، قاله ابن زيد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ ﴾ [الفَلَق : ٤] .

ومِن شَر السَّواحر اللواتي يَنْفُخْنَ في عُقَدِ الخيط حِينَ يَرْقِينَ عليها ، لإلحاق الضرر والأذى بالناس [72]. والنَّفْثُ هو النَّفْخُ بدون رِيق. وتعريفُ ﴿ النَّفَّاثاتِ ﴾ لأنهنَّ كُلهنَّ شَر بلا استثناء .

وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٥) : ((وقد اخْتُلِف في هذه العُقَد. فقيل: هو على الحقيقة، وأنه كما يَعْقِد الساحرُ مَن يَسحره . وأكثر مَن يفعله النساء ، تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عُقدة ، وتتكلم عليه بالسِّحر ، فيتأثر المسحور عند ذلك)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٧٥) : ((وقال بعض المفسِّرين: المراد بالنفاثات هاهُنا بنات لَبِيد بن أعصم اليهودي ، سَحَرْنَ رسولَ الله ﷺ)) [73]. وتنبع خطورةُ السِّحر مِن كُمونه واستتاره، فالشخص يكون أمام عدو خفي لا يدري وُجهته. وعلى الفرد التحصن بالكتاب والسُّنَّة في مواجهةِ هذا العدو الشرس. وحتى لو حافظَ على الأذكارِ الشَّرعية فهو ليس بمعصومٍ من الوقوعِ في السِّحر ، فالنبيُّ محمد ﷺ عبدُ الله ورسوله المعصومُ أَعْبَدُ المخلوقاتِ وأتقاها . ولن يَبلغَ إنسيٌّ أو جِنِّيٌّ مَبلغَه مِن العِلم النافع والعمل الصالح ، ومع هذا سُحِرَ على أيدي اليهود ، وكان اللهُ تعالى قادرًا أن يُدافع عنه ، إلا أنه تعالى أراد تحذيرنا كي نأخذ حِذْرنا. فمشيئة اللهِ نافذة في كل شيء، وينبغي التَّحلي بالصَّبر ومقاومة السِّحر بالوسائل الشَّرعية .

---

(٧٢) " النَّفاثات السواحرُ " هو تفسير الحسن البصري . رواه الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٥٠) بسند صحَّحه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٥) .

(٧٣) قال أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ٥٣٠):((وسبب نزول الْمُعوِّذتين قصة " لَبِيد بن الأعصم" الذي سَحر رسولَ الله ﷺ في مُشط ومُشاطة وجُف (قِشر) طَلْعةٍ ذَكَر ، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عُقدة، مغروز بالإبر، فأُنزِلت عليه المعوِّذتان ، فجعل كلما قرأ آيةً انحلت عُقدة ، ووجد في نفسه خِفَّة ﷺ حتى انحلت العُقدة الأخيرة ، فقام ، فكأنما نَشِطَ مِن عِقَال)) اهـ .

وعن السَّيدة عائشة ـ رضي اللهُ عنها ـ قالت : سَحَرَ رسولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ من بني زُرَيْق يُقال له لَبِيد بن الأعصم حتى كان رسولُ الله ﷺ يُخَيَّلُ إليه أنه يفعل الشيءَ وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي، لَكِنَّه دعا ودعا، ثم قال:((يا عائشة، أَشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيتُه فيه ، أتاني رَجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رِجلي ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرَّجل ؟ ، فقال: مطبوب . قال: مَن طَبَّه ؟ ، قال : لَبِيد بن الأعصم، قال : في أي شيء، قال : في مُشط ومُشاطة وجُف طَلْع نخلة ذَكَر، قال : وأين هو ؟، قال : في بِئر ذَرْوَان)). فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال: ((يا عائشة، كأن ماءها نُقَاعة الحِنَّاء ، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين)) . قلتُ : يا رسول الله أفلا اسْتَخْرَجْتَه. قال : ((قد عافاني الله ، فكرهتُ أن أُثَوِّرَ على الناس فيه شَرًّا)) . فَأَمَرَ بِها ، فَدُفِنَت [(74)].

والنبيُّ ﷺ مُعرَّض ـ مِثل باقي الناس ـ للإعياء والمرض والتعب النفسي والجسماني، وحتى إنه تَعَرَّضَ للسِّحر ، لكن هذه العوامل لا سبيل لها إلى الدعوةِ والرِّسالة ، فالنَّبيُّ معصومٌ في التبليغ عن اللهِ الحافظ للرسالة،وهذا لا يتنافى مع تعرُّض النبيِّ ﷺ لِمَا قد يتعرَّض له أي إنسان. والنبيُّ ﷺ هو القُدوة الأسمى والْمَثَل الأعلى ، اختاره اللهُ إنسِيًّا للاقتداء بِه والتعلم مِنه والتعامل معه ، لذلك لَم يَجعله مَلَكًا ولا جِنِّيًّا . وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٧): ((وقد قال بعضُ العلماء: لا يلزم مِن أنه كان يظن أنه فعلَ الشيء ولَم يكن فَعَلَه أن يَجزم بِفِعله ذلك، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر ، يَخطُر ولا يَثبُت ، فلا يَبقى على هذا للمُلحِد حُجَّة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَدَ ﴾ [الفَلَق : ٥] . ومِن شَر الحاسد الذي يتمنَّى زوالَ النِّعمة ، ويَرفض قَضاء الله وقَدَره وقِسْمته. ومُجرَّد الحسد لا يَضُرُّ المحسودَ ، وإنما يضرُّ الحاسدَ ، ويَحرق قلبَه ، ويُدمِّر أعصابه . لذلك تَمَّ تقييد الآية ﴿ إذا حَسَدَ ﴾ . يعني : إذا أظهرَ الحاسدُ ما في نَفْسه مِن الحسد ، وحوَّل الحسدَ إلى إجراء على أرض الواقع ، لجلب الضرر للمحسود ، ومحاولة إيذائه ، والإساءة إليه . وتخصيص الحسد بالذِّكر،لأنه منبع الأضرار النفسية والمشكلات الاجتماعية.وتنكيرُ﴿ حَاسِدٍ ﴾ لأنه ليس كل حاسد يَضُر ويُؤذي. والحاسدُ الذي يضرُّ

(٧٤) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٥/ ٢١٧٤)برقم(٥٤٣٠)،ومسلم(٤/ ١٧١٩)برقم (٢١٨٩) . [مَطْبُوب : مَسحور. والْمُشاطة : ما يخرج مِن الشَّعر إذا مُشِّطَ]. وفي الحديث دليل على أن ساحرَ أهل الذِّمة لا يُقتَل ، لأن النَّبي لَم يَقتله . أمَّا إذا تَرَتَّب على سِحره قَتل نَفْس ، فإنه يُقتَل بها .

ويُؤذي هو الذي يسعى في الفساد والأذى. وخُتِمَت السُّورة بِذِكر الحسد لبيان أنه الأشد سُوءًا وضَرَرًا،وأنه أخَس الطباع وأقذر الصفات. والحاسدُ مكروه مطرود.والحسدُ أول معصية عُصِيَ اللهُ بها في السماء، حيث حَسد إبليسُ آدمَ ﷺ، فرفض السجود له . والحسدُ أيضًا ، أول معصية في الأرض ، حيث حَسد قابيلُ أخاه هابيل فقتله .

وعلى المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى لِيَحميَه من شر الحاسد الذي يتمنى زوالَ النعمة ، ويتربَّص بالناس ، حيث يُراقب أمورَهم وشؤونهم ، ويتمنى لهم الشقاء والتعاسة ، وأن تبتعد السعادة عن حياتهم . وهذا العدو المستتر ينبغي التحصن مِن شَرِّه بالأوراد الشرعية . أمَّا الاستسلام له ، واتخاذه شَمَّاعةً تُعلَّق عليها كل المصائب التي تُحاصِر الإنسان ، فهذا من شأنه توليد حالة مَرَضِيَّة مهووسة تضرب المجتمع ، وتشُل حركته ، وتبث فيه الخوف .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((لا تَحَاسَدُوا)) [75]. وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧١٩) : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((العَيْنُ حَق ، ولو كان شَيْءٌ سَابِقَ القَدَرِ سَبَقَتْهُ العَيْنُ)) . وهذا يدل على أن القَدَر عقيدة ثابتة ، وكُل الأشياء إنما تَقع وَفْقَ إرادة الله ومَشيئته وحِكمته، على الصورة التي يُريدها اللهُ تعالى، ولا يَقع في مُلْكه إلا ما شاء . ولا يُصاب الإنسان بشر أو سُوء إلا بِقَدَر الله تعالى . والحديثُ يدل على أن الإصابة بالعَين حَق وحقيقة،وأنها شديدة الخطورة.وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٤/ ١٧٤): ((فيه إثبات القَدَر ، وهو حق بالنصوص وإجماع أهل السُّنة ، ومعناه أن الأشياء كُلها بِقَدَر الله تعالى ، ولا تقع إلا على حَسَب ما قَدَّرها اللهُ تعالى، وسَبَقَ بِها عِلْمُه ، فلا يقع ضَرر العَيْن ولا غَيره من الخير والشر ، إلا بِقَدَر الله تعالى . وفيه صِحة أمر العَين ، وأنها قوية الضرر ، والله أعلم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢٤٠) : ((معنى الحسد تَمَنِّي زوال نعمة المحسود ، وإن لَم يَصِرْ للحاسد مِثْلُها. والمنافسة هي تمنِّي مِثلها، وإن لَم تَزُلْ. فالحسد شَر مذموم ، والمنافسة مُباحة ، وهي الغِبطة... . قلتُ : قال العلماء : الحاسد لا يضرُّ إلا إذا ظَهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود ، فَيَتَّبع مَساوئه ويطلب عثراته ... . هذه سُورة دالة على أن الله سُبحانَه خالق كُل شَر ، وأمرَ نَبِيَّه ﷺ أن يتعوَّذ من جميع الشرور ، فقال : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ، وجعلَ خاتمة ذلك الحسد تنبيهًا على عَظَمَة وكثرة ضَرَره ، والحاسد عدو

---

(٧٥) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٢٥٣) برقم(٥٧١٧)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢) برقم (٢٥٥٨).

نِعمة الله . قال بعض الحكماء : بَارَزَ الحاسدُ رَبَّه مِن خمسة أوجه : أحدها أنه أبغض كُل نعمة ظهرت على غَيره . وثانيها أنه ساخط لِقِسمة رَبِّه ، كأنه يقول : لِمَ قَسمتَ هذه القِسمة ؟ ، وثالثها أنه ضادَّ فِعلَ الله ، أي أن فضل الله يُؤتيه مَن يشاء ، وهو يبخل بفضل الله . ورابعها أنه خذل أولياء الله أو يريد خِذلانهم ، وزوال النِّعمة عنهم.وخامسها أنه أعانَ عدوه إبليس. وقِيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء ، ولا ينال في الْخَلوة إلا جَزَعًا وغَمًّا ، ولا ينال في الآخرة إلا حزنًا واحتراقًا ، ولا ينال مِن الله إلا بُعْدًا ومَقْتًا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس : ١] .

قُل يا محمد : ألتجِئ وأحتمي وأستجير بخالق الناس ، ومالك أمورهم ، الذي رَبَّاهم ، ودبَّر شُؤونهم ، وأصلحَ أحوالهم ، وأخرجهم مِن العدم إلى الوجود ، وأنعمَ عليهم بالنِّعَم الكثيرة .

وقد خُصَّ ﴿ النَّاسِ ﴾ بالذِّكر ، معَ أن الله رَب جميع المخلوقات ، تشريفًا لهم ، ورفعًا لمكانتهم، فقد سخَّر اللهُ لهم ما في الكَوْن ، وميَّزهم بالعقل والعِلم ومعرفة الله تعالى ، وأسجدَ لهم الملائكة ، لأن سُجود الملائكة لآدم ﷺ ، هو تشريفٌ لآدم وذُرِّيته (الناس) . وهذا دليل على أفضلية الناس على جميع المخلوقات.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٩/٢٧٧): ((فإن قِيل: لِمَ خَصَّ الناس هاهُنا بأنه ربهم ، وهو رَب كُل شيء . فعنه جوابان:أحدهما لأنهم مُعَظَّمُون مُتَمَيِّزون على غَيرهم.والثاني: لأنه لَمَّا أمرَ بالاستعاذة مِن شَرِّهم، أعلمَ أنه ربهم لِيُعْلَمَ أنه هو الذي يُعيذ مِن شَرِّهم)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٩١٦) : عن عائشةَ أن النبيَّ ﷺ كان إذا أوى إلى فِراشه كُل ليلة ، جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهما، فقرأ فِيهما : ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾. و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ . و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ثُمَّ يَمسح بهما ما استطاع مِن جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبلَ مِن جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات .

يعني : يَقرأ سُوَرَ الإخلاص والفَلَق والناس . والنَّفْثُ : نَفْخ لطيف بِلا رِيق .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٥٨) : عن عُقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ((أَلَم تَرَ آياتٍ أُنزِلَت الليلة لَم يُرَ مِثْلُهُنَّ قَط ؟. ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾)).

والمقصود سُورَتا الفلق والناس . وهذا يدل على عَظَمَة هاتين السُّورتين، وفضلهما الكبير .

وفي تحفة الأحوذي (٨/ ١٧٣): ((قَوله: " لَم يُرَ مِثْلُهُنَّ " بصيغة المجهول، وبرفع مثلهن ، أي في بابها ، وهو التَّعَوُّذ ، يعني : لَم يكن آيات سورة كُلهنَّ تعويذًا للقارىء غَير هاتين السورتين،

ولذلك كان ﷺ يَتَعَوَّذ مِن عَين الجان وعَين الإنسان ، فلمَّا نزلت الْمُعَوِّذَتان ، أخذهما ، وترك ما سِواهما ، ولَمَّا سُحِرَ استشفى بهما)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ [الناس : ٢] .

إن اللهَ مَلِكُ جَميعِ الخلق ، ومالكهم، وحاكمهم . واللهُ يَملِك جميع الناس مِلْكًا كاملاً وشاملاً، وكُلهم خاضعون لِسُلطانه القاهر، وواقعون تحت تصرُّفه الكُلِّي. يَفعل بِهم ما يَشاء. يُحيي ويُميت، ويَشفي ويُمرِض ، ويُعِز ويُذِل ، ويُغني ويُفقِر ، ويُدخِل مَن يشاء الجنة ، ويُدخِل مَن يشاء النار . وبما أن في الناس مُلُوكًا ، قال اللهُ تعالى : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ، لِيُثْبِتَ أن الله مَلِك جميع الخلق حُكَّامًا ومحكومين .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ [الناس : ٣] .

إن الله معبود الناس كُلِّهم ، ولا مَعبود بحق إلا الله . وهذا يدل على أن سيطرة الله على البشر وهيمنته عليهم ، وتدبير شؤونهم ، وحفظهم ، وحمايتهم ، ليست كأعمال ملوك الدنيا ، الذين يُديرون مصالح الناس ، ويمارسون السياسة ، ويقومون بحاجات الدول والشعوب . إن ملوك الدنيا عبيد لله تعالى، واللهُ وَحْدَه هو الإلهُ، صاحب القُدرة التامة ، والسُّلطان القاهر ، والتصرُّف الكُلِّي. واللهُ هو إله الناس ومَلِكهم ، وهو مالك الناس وما مَلَّكهم . وبما أن في الناس مَن يَعبد غَيْرَ الله ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ ، لِيُثْبِتَ أن الله وَحْدَه هو مَعبود الناس ، ولا إله لهم سِواه ، ولا رَب لهم سِواه . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢٤١) : ((وإنما قال : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) ﴾ لأن في الناس مُلُوكًا يَذكر أنه مَلِكُهم ، وفي الناس مَن يَعبد غَيْرَه ، فَذَكَرَ أنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ، ويُلْجَأ إليه دون الملوك والعظماء)) اهـ .

وترتيبُ السُّورة بهذا الشكل في غاية البلاغة والفصاحة والبيان :

أ ـ إن الإنسان يُشاهد نِعَم الله الكثيرة ، ومظاهر العناية الإلهية ، والتربية الرَّبانية له ، فَيَعرف أولاً أن له رَبًّا ، وهذا يتجلى في قَوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

ب ـ مِن خلال النظر والتأمُّل في المخلوقات وحركة الوجود ، يُدرِك أن الرَّب قائمٌ بذاته ، غنيٌّ عن كل شيء، وكُل شيء فقير إليه.يتصرَّف في خَلْقه بما يشاء وَفْق حِكمته البالغة،وهو مَلِكُهم ومالكهم وقاهرهم وحاكمهم والمسيطِر عليهم.وهذا المعنى يتَّضح في قَوله تعالى:﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾.

ج ـ إذا أدركَ الإنسانُ حقيقة استغناء الله عَن خَلْقه، وافتقارهم إليه، وأنه المتحكِّم فيهم، ولا أحد يُعارِضه ولا يُناقشه، آمنَ أنه الإله الحق، وهو وَحْدَه المستحق للعبادة، لأن مِن مُقتضيات الأُلوهية:الاستغناء عن كُل شيء،والسيطرة على كل شيء،وهذا يتَّضح في قَوله تعالى:﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾.

إن اللهَ وَحْدَه هو الْمُتَّصف بالرُّبوبية ، والْمَلَكِيَّة ، والأُلوهية ، فهو رَب كُل شيء ومَلِكُه وإلهه، وكُل ما سِوى الله مخلوقٌ لله ، وعبدٌ له . والْمُتَّصف بهذه الصفات الثلاث هو وَحْدَه القادر على الإنقاذ والحماية والمساعدة والإغاثة والإعاذة ، لذلك ينبغي التَّوَجُّه إلى الله وَحْدَه ، الْمُتَّصف بهذه الصفات العظيمة ، واللجوء إليه ، والتَّعَوُّذ بِه مِن كُل سُوء وشَر .

وتكرار لفظة ﴿ النَّاسِ ﴾ ثلاث مَرَّات وعدم ذِكر الضمير ، تشريفٌ للناس ، وتعظيمٌ لهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥٣) : ((﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ عَطْفًا له ، فإن الرَّب قد لا يكون مَلِكًا ، والْمَلِكُ قد لا يكون إلَهًا . وفي هذا النَّظْم دَلالة على أنه حقيق بالإعاذة ، قادر عليها ، غَير مَمنوع عنها ، وإشعار على مراتب الناظر في المعارف، فإنه يَعلم أولا بما عليه مِن النِّعَم الظاهرة والباطنة أن له رَبًّا ، ثُمَّ يَتَغَلَّل في النظر ، حتى يتحقق أنه غنيٌّ عن الكُل ، وذاتُ كل شيء له، ومصارف أمره مِنه ، فهو الْمَلِك الحق ، ثُم يستدل به على أنه المستحق للعبادة لا غَير)) اهـ.

إن تكرار الاسم:﴿ قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) ﴾ إنما هو لتعظيم الناس ، وتشريفهم ، وإعلاء قَدْرهم . والآياتُ هي قمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، لأنه لو قال : (مَلِكِهم . إلَهِهِم) لَفَقَدَ الكلامُ قوةَ التأثير . وبالتالي ، لا معنى للتعظيم والتشريف .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤] .

مِن شَر الشَّيطان الذي يُوَسْوِسُ للعبد تارةً ، ويَخْنِسُ تارةً أُخرى .

والشَّيطانُ يُلقي الأوهام والشُّبهات والأمور السَّيئة في نَفْس العبد ، ويُوَسْوِس له كَي يَرتكب المعاصي ويَبتعد عن الطاعات . وإذا ذَكَرَ العبدُ رَبَّه ، خَنَسَ الشَّيطان واختفى . وإذا غَفَلَ العبدُ عن ذِكر الله ، عادَ الشَّيطان لِيُوَسْوِس له .

والمقصودُ بِ﴿ الْوَسْوَاسِ ﴾ هو الشَّيطان، سُمِّيَ بالْحَدَثِ لكثرة مُلابسته له . أي إن الشيطان والوسواس وجهان لِعُملة واحدة . يُوجدان معًا ، ويَغيبان معًا.

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((مَا مِن مولود إلا على قلبه الوَسْوَاس ، فإن ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ ، وإن غَفَلَ وَسْوَسَ ، وهو قَوله تعالى : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾))(76).

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٥٢) : ((إن اللهَ أمرَ نَبِيَّه محمدًا ﷺ أن يستعيذ به مِن شَر شَيطان يُوَسْوِس مَرَّةً ، ويَخْنِس أخرى ، ولَم يَخُص وَسْوَسَتَه على نوع من أنواعها، ولا بِخُنُوسه على

(٧٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٩٠) برقم (٣٩٩١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وجه دون وجه ، وقد يُوَسْوِس بالدعاء إلى معصية الله ، فإذا أُطِيع فيها خَنَسَ ، وقد يُوَسْوِس بالنَّهْي عن طاعة الله ، فإذا ذَكَرَ العبدُ أمرَ رَبِّه ، فأطاعه فيه ، وعصى الشيطان ، خَنَسَ ، فهو في كل حالتيه وَسْوَاس خَنَّاس ، وهذه الصِّفة صِفته)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ ﴾ [الناس : ٥] .

الذي يُلقي في قلوب البشر جميعَ أنواع الشُّبهات والأوهام والوساوس ، عندما يَغفُلون عن ذِكر الله تعالى . وهذا يدل على خُبث الشيطان ، وضلاله ، وعداوته للإيمان ، وكراهيته للحق .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢٤٣): ((ووَسْوَسته : هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب مِن غَير سماع صوت))اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ ﴾ [الناس: ٦] .

الذي يُوَسْوِسُ في قلوب الناس هو مِن شياطين الجن والإنسِ . والآيةُ استعاذة مِن شر الجن والإنس جميعًا . كما قال اللهُ تعالى : ﴿ شياطينَ الإنس والجن يُوحي بعضُهم إلى بعض زُخرفَ القول غُرورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وشياطين الإنس أشد خطورةً من شياطين الجن، لأن شيطان الجن يَخْنِس بالاستعاذة وذِكر الله، أمَّا شيطان الإنس فَيُزَيِّن المعاصي، ويُخَادِع، ويُنافِق، ويَدعو إلى الفجور والآثام، ولا يُوقفه شيء. وشيطانُ الجن يَهْرُب حِين تقرأ عليه القُرآن ، أمَّا شيطان الإنس ، حِين تقرأ عليه القُرآن، فإنه يُفسِّر لك الآيات ، ويشرح لك الألفاظ والمعاني ، وَفْقَ هَواه ومصلحته الشخصية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٧٩) : ((في معنى الآية قَولان : أحدهما يُوَسْوِس في صدور الناس جِنَّتِهم وناسِهم ، فسمَّى الجن هاهُنا ناسًا ... . هذا قول الفَرَّاء . وعلى هذا القول يكون الوَسْوَاس مُوَسْوِسًا للجن ، كما يُوَسْوِس للإنس . والثاني أن الوَسْوَاس الذي يُوَسْوِس في صدور الناس هو مِن الجِنَّة ، وهُم مِن الجِن . والمعنى : مِن شَر الوَسْوَاس الذي هو مِن الجن ، ثُمَّ عَطَفَ قَوْلَه تعالى : ﴿ والنَّاسِ ﴾ على ﴿ الوَسْوَاسِ ﴾ . والمعنى : مِن شَر الوَسْوَاس ، وَمِن شَر الناس ، كأنه أَمَرَ أن يَستعيذ مِن الجن والإنس ، هذا قول الزَّجاج)) اهـ .

ه

الفصل الرابع
الزَّكاة والصَّدَقات

تمهيد

الزَّكاةُ ـ لُغةً ـ : هي النَّماء والزيادة والبركة. والزَّكاةُ ـ اصطلاحًا ـ: هي المال اللازم إنفاقه في مصارفه الثمانية وَفْقَ شروط مخصوصة . والزكاةُ حَق معلوم من المال ، مُقدَّر بِقَدْر مُعيَّن ، يجب على المسلم بشروط مخصوصة ، في أشياء مخصوصة . وهي في الشرع الإسلاميِّ نوع من العبادات، بمعنى: إنفاق المال على جهة الفَرْض . وتُطلَق الصَّدقة على الإنفاق المفروض وغَيره .

والزَّكاةُ هي أعظم العبادات المالية على الإطلاق . وتُعتبَر ثالث أركان الإسلام الخمسة (بعد الشهادتين والصلاة)، وهي مِن المعلوم مِن الدِّين بالضرورة ، ومفروضة بإجماع المسلمين ، وفَرْضها ثابت في القُرآن والسُّنة ، بحيث إن مُنكِرها كافر. والزكاة هي الصدقة المفروضة، بِقَدْر معلوم في المال، وهي إلزامية، وليست مُسَاهَمَة خَيرية، ولا تُعتبَر ضريبة، بل تختلف عنها، ولا خلاف في مقاديرها، وأحكامها إلا في مسائل فرعية قليلة، ويدفعها الْمُزكِّي، أو مَن يَنُوب عنه للمُستحقين ، وإذا طلبها السُّلطان ، لَزِمَ دفعها إليه ، وتُصرَف في مصارف الزكاة . ولا تُصرَف للجمعيات الخيرية ، ولا لبناء المساجد، وغير ذلك من الأعمال الخيرية . ومنعُ الزكاة سبب لتلف المال، والعقوبة في الآخرة، ومانعها مع اعتقاد وجوبها يأخذها السلطان منه ، وإن كان بذلك خارجًا عن قبضة الإمام،قاتله بحق الإسلام،ولا يُخرِجه ذلك عن الإسلام. وفُرِضَت الزكاة بعد البعثة النبوية،في مكة قبل الهجرة،حيث دَلَّت على ذلك آيات من القرآن نزلت في مكة،وكان هذا الفَرْض على سبيل الإجمال.وكان بيان أحكامها، وتطبيقها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وتُعتبَر مرحلة ما بعد الهجرة النبوية أهم مرحلة في تشريع الزكاة،حيث كان بيان تفاصيل أحكامها، وتحديد مقاديرها ومصارفها،وتكليف العاملين على تحصيلها،ومِن ثَمَّ صَرْفها في مصارفها.إن المنهجَ الاقتصاديَّ الإسلاميَّ عَالَجَ قضايا المجتمع بصورة واقعية بعيدة عن المثالية النظرية الجوفاء . فقد وضع أنظمةً تطبيقية فعَّالة لتجذير العدالة الاجتماعية عبر مُحاربة الشَّطط الطبقي واحتكارِ الثروة مِن قِبَل فئة محدودة. وعَبْرَ تشريع الزكاة ، نَقَل الإسلامُ المجتمعَ مِن الحقد إلى الأُخُوَّة ، ومِن الظلم إلى العدل. فالزكاةُ تعني مُساعدة الأغنياء لإخوانهم الفقراء ، الأمر الذي يَنْزع الحسدَ والحقد والغِل من صدور الفقراء تجاه مجتمعهم وأغنيائه، ويعمل على تقوية الروابط المجتمعية وتثبيتها كَوَحْدة جَمْعية متماسكة، ويُتيح فرصةً كبيرة لتداول المال بين أبناء المجتمع الواحد دون تركُّز الثروة في أيدي أفراد مَعدودين.وهذا يَحمي المجتمع مِن الكراهية والصراع الطبقي.

الزَّكاة والصَّدَقات :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وآتُوا الزَّكاةَ ﴾[البقرة : ٤٣] .

الخطابُ الإلهيُّ في هذه الآية لليهود . لقد أمرَهم اللهُ أن يَدفوا الزكاةَ إلى النبيِّ ﷺ ، لأن الزكاة فريضة واجبة يجب أداؤها . والمعنى: أدُّوا زَكاةَ أموالكم المفروضة. واللهُ يَدعوهم إلى الإسلام، والقيام بعمل المسلمين،وأن يَكونوا معهم ومِنهم.ومُطْلَق الأمر لوجوب العمل.والإيتاءُ هو الإعطاء. وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ١٠) : ((ونزل في علمائهم . وكانوا يقولون لأقربائهم المسلمين : اثْبُتوا على دِين محمد ، فإنه حق)) اهـ .

والزَّكاةُ مأخوذة مِن الزَّكاء ، وهو النَّماء والبَرَكة والزيادة . وسُمِّيَت الزكاة بهذا الاسم ، لأنها تزيد في المال الذي تَخرج مِنه ، وتَجلب له البَرَكة ، وتَحميه مِن النقص والضياع والآفات .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٤) : و﴿ الزكاةَ ﴾ مِن زَكا الزرع، إذا نما ، فإن إخراجها يَستجلب بَرَكة في المال ، ويُثمِر للنَّفْس فضيلة الكرم ، أو مِن الزكاة بمعنى : الطهارة ، فإنها تُطهِّر المالَ مِن الْخَبَث ، والنَّفْسَ مِن البُخل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَسألونَكَ ماذا يُنفِقُونَ قُلْ ما أنفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربينَ واليتامى والمساكينِ وابْنِ السَّبيلِ وما تَفعلوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ اللهَ بِهِ عَليم ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

يَسألك أصحابُك يا محمد: كيف يُنْفِقُون ؟.وهذا يدل على حِرصهم على الإنفاق في سبيل الله. لقد سَألوا عن بيان ما يُنفِقون ، فأُجِيبوا ببيان الْمَصْرِف ، لأنه أكثر أهميةً . والنَّفقةُ لا فائدة مِنها إلا إذا وُضِعت في مكانها الصحيح ،كي تصل إلى مُستحقيها . ويجب وضع الأمور في نِصابها الصحيح . لذلك ، بَيَّنَ اللهُ لهم المصارف التي يَنبغي أن يَضعوا فيها نفقاتهم وصدقاتهم .

أنفِقوا مِن أموالكم ، وتصدَّقوا على آبائكم وأمهاتكم ، وأقاربكم ، واليتامى مِنكم والمساكين (جمع مِسكين)، وهو صاحب الحاجة، الذي ليس له مِن المال إلا اليسير الذي لا يَسُدُّ حاجته ، وابن السَّبيل (المسافر المجتاز في بلد ، وليس معه شيء يستعين به على سَفَره) . وسُمِّيَ ابن السَّبيل نِسبةً إلى السبيل ، وهي الطريق . وما قُمتُم بِه مِن خَير ، فإنَّ اللهَ يَعْلَمه ، ومُطَّلع على نِيَّاتكم ، وهو مُحْصِي أعمالكم حتى يَمنحكم الأجرَ يوم القيامة، ويَجزيَكم أحسنَ الجزاء بسبب إحسانكم. وكُل عَمل مِن أعمال المعروف والخير تقومون به ، فإن الله يَعْلَمه ، وسَيَجْزيكم عليه أعظم الجزاء . والخبرُ في الآية يَتضمَّن الوعد بالْمُجَازَاة . والمعنى : إن تفعلوا خَيْرًا ، فإن اللهَ يَعْلَمه ، وسَيُجازِيكم عليه خير الجزاء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٣٣و٢٣٤):((قَوله تعالى:﴿ يَسألونَكَ ماذا يُنفِقُونَ ﴾ في سبب نزولها قَولان : أحدهما أنها نزلت في عَمْرو بن الْجَمُوح الأنصاريّ ، وكان له مال كثير ، فقال : يا رسول الله ، بماذا نتصدَّق ؟ ، وعلى مَن نُنفِق ؟ ، فَنَزلت هذه الآية . رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أن رَجلاً قال للنبيِّ ﷺ : إن لي دينارًا ، فقال : " أنفِقْهُ على نَفْسِك " ، فقال : إن لي دينارين ، فقال : " أنفِقها على أهلك "، فقال: إن لي ثلاثة، فقال :" أنفِقها على خادمك ". فقال : إن لي أربعة ، فقال : " أنفِقها على والدَيْك " ، فقال : إن لي خمسة ، فقال :" أنفِقها على قرابتك" . فقال : إن لي ستة ، فقال : " أنفِقها في سبيل الله وهو أحسنها " ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس . قال الزَّجاج : (ماذا) في اللغة على ضَرْبَيْن : أحدهما أن تكون (ذا) بمعنى الذي ، و ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ صِلته ، فيكون المعنى : يَسألونك : أيُّ شَيء الذي يُنفِقون ؟ والثاني أن تكون (ما) مَعَ (ذا) اسْمًا واحدًا، فيكون المعنى : يَسألونك : أيُّ شيء يُنفِقون ؟. قال : وكأنهم سألوا : على مَن يَنبغي أن يُفْضِلوا ؟، وما وجه الذي يُنفِقون ؟ ، لأنهم يَعْلَمُون ما الْمُنْفَق. وأعلَمَهم الله أن أَوْلَى مَن أُفْضِل عليه، الوالدان والأقربون . والخير المال ، قاله ابن عباس في آخرين . وقال ومعنى : ﴿ فَلِلْوَالِدَيْنِ ﴾ فعلى الوالدين . فصل : وأكثر علماء التفسير على أن هذه الآية منسوخة. قال ابن مسعود : نسختها آية الزكاة . وذهب الحسن إلى إحكامها . وقال ابن زيد : هي في النوافل ، وهذا الظاهر مِن الآية ، لأن ظاهرها يَقتضي النَّدْب ، ولا يَصِح أن يُقال إنها منسوخة ، إلا أن يُقال إنها اقتضت وُجوب النفقة على المذكورين فيها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا أنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِن قَبْلِ أن يَأتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شَفَاعَةٌ والكافرونَ هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة : ٢٥٤] . هذا أمرٌ إلهيٌّ للمؤمنين بالإنفاق في سبيل الله في الحياة الدنيا ، وادِّخار ثواب ذلك عِند الله ، كَي يَمنحهم النعيمَ الأبديَّ في الحياة الآخرة . والمقصود هو الزَّكاة المفروضة ، أو النفقة في الجهاد. يا أيها الذين صَدَّقوا بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ محمد ﷺ : أنفِقوا مِن أموالكم التي رَزقكم اللهُ إيَّاها ، وتصدَّقوا مِنها ، وأدُّوا الحقوقَ الواجبة فيها ، مِن قَبل مجيء يوم القيامة ، حيث لا بَيع ولا شِراء ، ولا تَقْدِرون على تدارُك ما فاتكم مِن الإنفاق وتعويض ذلك ، لأن في الآخرة لا تُوجد مُعاملات مالية ولا تجارية ، ولا أحد يَقْدِر أن يَفديَ نَفْسَه بالمال (لا فِدية يوم القيامة ولو جاء بِمِلْءِ الأرض ذهبًا) ، ولا تَنفعه صداقة أحد ولا نَسَبه حتى يُسامحه أو يُساعده (لا خُلَّة نافعة) ، ولا أحد يَشفع لأحد إلا بإذن الله تعالى . والْخُلَّةُ هي خالص المودة . مأخوذة مِن تَخَلُّل الأسرار بين الصديقين .

والآخرة دار جزاء لا دار عمل ، والدنيا دار عمل لا دار جزاء . لذلك ، كانت الدنيا مزرعة الآخرة . والكافرون بالله وبما فَرض عليهم هُم الظالمون الحقيقيون ، لأنهم وضعوا العبادة في غَير موضعها . ولا ظالم أشد ظُلْمًا مِن الكافر ، لأنه ظَلَمَ نَفْسَه بأن قادها إلى الخلود في عذاب النار ، ولا ظُلم أشد مِن هذا . والآيةُ دليلٌ على أن كل كافر ظالِم لنفْسه، وليس كُل ظالِم لنفْسه كافرًا ، لأن الله تعالى قال : ﴿ والكافرونَ هُمُ الظالمون ﴾ ، ولَم يقل : والظالمون هُم الكافرون . وهذا يدل على رحمة الله بعباده ، وفضله عليهم ، وتخفيفه عنهم .

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٥٤) : ((قال الحسن : هي الزكاة المفروضة . وقال ابن جُرَيج وسعيد بن جُبَير: هذه الآية تجمع الزكاة المفروضة والتَّطوع . قال ابن عطية : وهذا صحيح. ولكن ما تقدَّم مِن الآيات في ذِكر القتال ، وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين ، يترجَّح مِنه أن هذا النَّدْب ، إنما هو في سبيل الله،ويُقوِّي ذلك في آخِر الآية قَوْلُه: ﴿ والكافرونَ هُمُ الظالمون ﴾ أي : فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال . قلتُ : وعلى هذا التأويل يكون إنفاق الأموال مَرَّة واجبًا، ومرة نَدْبًا بحَسَب تعيُّن الجهاد وعدم تعيُّنه . وأمرَ تعالى عباده بالإنفاق مِمَّا رزقهم الله ، وأنعمَ به عليهم ، وحذَّرهم من الإمساك إلى أن يَجيء يوم ، لا يمكن فيه بيع ، ولا شراء ، ولا استدراك نفقة)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥١) : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا أنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم ﴾ ، ما أوجبَ عليكم إنفاقه ، ﴿ مِن قَبْلِ أن يَأتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شَفَاعَةٌ ﴾ مِن قَبْل أن يأتِيَ يوم لا تَقْدِرون فيه على تدارُك ما فَرَّطْتُم ، والخلاص من عذابه ، إذ لا بيع فيه ، فَتُحَصِّلُون ما تُنفقونه ، أو تَفتدون بِه مِن العذاب ، ولا خُلَّة حتى يُعينكم عليه أخلاؤكم أو يُسامحوكم به ، ولا شفاعة ﴿ إلا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه : ١٠٩]، حتى تتكلموا على شُفعاء تَشفع لكم في حَط ما في ذِمَمكم ، وإنما رُفِعت ثلاثتها مع قَصْد التعميم، لأنها في التقدير جواب : هل فيه بَيْع ؟أو خُلَّة ؟ أو شفاعة؟... .﴿والكافرونَ هُمُ الظالمون﴾ يُريد : والتاركون للزَّكاة هُم ظالمون ، الذين ظَلَموا أنفسهم ، أو وَضعوا المال في غيره مَوضعه ، وصَرَفوه على غير وجهه، فوضع ﴿ الكافرونَ ﴾ مَوضعه، تغليظًا لهم وتهديدًا، كَقَوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ [آل عِمران : ٩٧] مكان : وَمَن لَم يَحُج ، وإيذانًا بأن ترك الزكاة من صفات الكفار ، لِقَوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ للمُشركين (٦) الذينَ لا يُؤتونَ الزَّكاةَ ﴾ [فُصِّلَت])) اه .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَعروفٌ ومَغفرةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذًى واللهُ غَنِيٌّ حَليم﴾[البقرة: ٢٦٣].

كلمة طَيِّبة ورَد جميل للسَّائل ودُعاء لِمُسلم ، وسَتْر على إلحاحه وسُوء حالته ، أفضل وأعظم مِن صَدقة يَدفعها إليه ، ويتبعها أذًى كالْمَنِّ والفضيحة والتعيير ، واللهُ غنيٌّ عَن خَلْقه ، لا يَحتاج إليهم ، ولا يَحتاج إلى صدقاتهم ، وإنما أمرَ بها لمصلحتهم ، وكَي يُثيبهم عليها ، وهو سُبحانَه حليمٌ عليهم . يَصفح ويتجاوز عنهم،ولا يُعاجِلهم بالعقوبة بسبب سُوء أعمالهم . وهذا وعيدٌ لهم .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٦٤) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بِقَوله : ﴿ قَوْلٌ مَعروفٌ ﴾ قَول جميل ودُعاء الرَّجل لأخيه المسلم، ﴿ ومَغفرةٌ ﴾ يعني : وسَتْر مِنه عليه لِمَا عَلِمَ مِن خَلَّته (حاجته وفقره) وسُوء حالته ، ﴿ خَيْرٌ ﴾ عِند الله ﴿ مِن صَدَقَةٍ ﴾ يَتَصَدَّقها عليه ﴿ يَتْبَعُهَا أذًى ﴾ يعني : يَشتكيه عليها ويُؤذيه بسببها ... . عن الضَّحاك : ــ ﴿ قَوْلٌ مَعروفٌ ومَغفرةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذًى ﴾ يقول : أن يُمْسِك ماله خَير مِن أن يُنفِق مالَه ثُمَّ يُتْبِعه مَنًّا وأذًى . وأمَّا قَوله : ﴿ واللهُ غَنِيٌّ حَليم ﴾ فإنه يعني : ﴿ واللهُ غَنِيٌّ ﴾ عمَّا يَتَصَدَّقون بِه ، ﴿ حَليم ﴾ حِين لا يَعْجَل بالعقوبة على مَن يَمُنُّ بِصَدقته منكم ، ويُؤذي فيها مَن يَتصدَّق بها عليه)) اهـ . وفي صحيح مسلم (١/ ١٠٢) : عن أبي ذَر عن النبيِّ ﷺ قال : ((ثلاثة لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة : الْمَنَّانُ الذي لا يُعطِي شيئًا إلا مِنَّة ...)) . إن الْمَنَّان الذي لا يُعْطِي شيئًا إلا مَنَّ بِه على مَن أعطاه ، بعيدٌ عن اللهِ تعالى ، لا يُكْرِمه اللهُ بكلامه ، ولا يَسُرُّه بِه ، ولا يَنظر إليه نظرة رحمة ، وإنما يُعْرِض عنه ، لأنه شخص سَيِّئ الْخُلُق ، وغارق في الدَّناءة والخِسَّة ، ولا يَعْرِف معنى الأدب واحترام الناس . فهو يَرى نَفْسَه أعلى وأعظم مِن الْمُعْطَى له ، وأنه صاحب الفضل والمكانة الرفيعة ، لذلك يَمُنُّ عَلَيه ، ويُعَيِّره ، ويُؤذيه . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١١٦): ((قِيل : معنى " لا يُكلِّمهم"، أي : لا يُكلِّمهم تكليم أهل الخيرات وبإظهار الرِّضى ، بَل بكلام أهل السَّخَط والغضب . وقِيل : المراد الإعراض عنهم . وقال جمهور المفسِّرين : لا يُكلِّمهم كلامًا يَنفعهم ويَسُرُّهم . وقِيل : لا يُرْسِل إليهم الملائكة بالتحية)) اهـ .

وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: ((... والكلمةُ الطَّيبة صدقة))[1].

محبة الكلمة الطيبة فِطرة مغروسة في الناس . والنُّفوسُ مجبولةٌ على حُب مَن أحسنَ إليها .

وكما أن المال يُسعِد الإنسانَ ويُفرحه ، فكذلك الكلمة الطيبة . وهذا وجهُ الشَّبَه بين الكلمة الطيبة والصَّدقة.فَكِلتاهما تَبعثان في النَّفْس البهجة والسُّرور والأمل.

(١) متفق عليه . البخاري (٣/ ١٠٩٠) برقم (٢٨٢٧) ، ومسلم (٢/ ٦٩٩) برقم (١٠٠٩) .

وفي فتح الباري (١٠/ ٤٤٩) : ((قال ابن بطال : وجه كَوْن الكلمة الطيبة صَدقة ، أن إعطاء المال يَفرح به قلب الذي يُعطاه ، ويُذهِب ما في قلبه ، وكذلك الكلام الطيِّب ، فاشتبها مِن هذه الحيثية)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمَثَلُ الذينَ يُنفِقُونَ أموالَهُمُ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ وتثبيتًا مِن أنفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصابَها وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فإن لَم يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ واللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصير﴾[البقرة:٢٦٥].

وَمَثَلُ المؤمنين الذين يَتصدَّقون بأموالهم ، ويُنفِقونها في طاعة الله طَلَبًا لِرضاه ، مُوقِنين بوعد الله وأجره ونعيمه، ومُصدِّقين بذلك، ومُتَحَقِّقين أن الله سَيَجزيهم خَير الجزاء، ومُتأكِّدين أن ما أخرجوا مِن أموالهم خَيْرٌ لهم مِمَّا تَركوا . إذ إن المال الذي أخرجوه محفوظٌ عِند الله تعالى ، أمَّا المال الذي تركوه فهو زائلٌ وفانٍ ، ومالُ الدنيا في الدنيا ، والكَفَنُ ليس له جُيوب . والإنسانُ لا يَستطيع أن يأخذ أمواله معه إلى قبره، ولكنَّه _ إذا أنفقَ في سبيل الله في حال حياته _ سيجد أثر أمواله في قبره. واللهُ غنيٌّ عن الناس وأموالهم ونفقاتهم ، ولكنَّه حَثَّ على الإنفاق لتطهير نفوس الناس مِن البُخل والصفات الذميمة ، وتخليصهم مِن عشق المال الذي هو رأس كل خطيئة .

والآيةُ تُوضِّح الفرقَ الجوهري في عملية الإنفاق بين المؤمنين والمنافقين . فالمؤمنون يُنفِقون أموالهم مُخْلِصين لله ، طالبين لرضاه ، راجين لثوابه ، مُوقِنين بوعده . أمَّا المنافقون فَيُنفِقون أموالهم رِياءً وسُمعةً، وطلبًا للشُّهرة، وواقعين تحت الضغط والإكراه ، وغَير رَاجين للثواب لأنهم يُنكِرونه.

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ . كَمَثَل بُستان بأرض مُرتفعة . وهذا الوصفُ الإلهيُّ يدل على عَظَمَة هذا البستان وجَماله وحُسنه وكثرة ثماره وزُروعه . والبُستان في الأرض المرتفعة يكون ترابُه كثيفًا وخشنًا، ونباته أحسن ، وثماره أفضل ، لذلك خُص بالذِّكر. والأراضي المرتفعة أفضل مِن الأراضي المنخفضة مِن حيث جَودة الهواء وطبيعة التراب . كما أن شجر الأراضي المرتفعة أحسن منظرًا ، وأفضل ثمرًا . والجنةُ هي البُستان ، وهي قطعة أرض تنبت فيها الأشجار حتى تُغطِّيها. وهي مأخوذة مِن لفظ الجِن والجنين لاستتارهم وخفائهم .

أصابَ الجنةَ التي بالمكان المرتفع مطرٌ شديدٌ (وابل) ، فازدادَ ثمرُها ضِعفين ، وعمَّت البركات والخيرات فيها . والأُكُلُ هو الثمر المأكول . فإن لَم يُصِبْها مطرٌ شديدٌ ، فيُصيبها طَل ، وهو المطر الخفيف . وكما أن هذه الجنة تُثمِر في كل حال ، ويَفرح صاحبُها ويَربح ، ولا يَخيب أبَدًا ، سواءٌ قَلَّ المطر أو كَثُر ، كذلك يُنمِّي اللهُ ثوابَ صدقة المؤمن ، سواءٌ كانت كثيرةً أَم قليلة .

إن هذه الجنة ستظل ناضرة ومُثمرة ومُفْعَمَة بالحياة ، ولن تُصبح قاحلةً أبَدًا ، لأن المطرَ يأتي إليها باستمرار ويَكفيها لِجَودة أرضها وطِيبها ، سواءٌ كان المطرُ شديدًا أَم خفيفًا . وهذا يدل على الخير والبركة والنَّماء في كل الأحوال . والمطرُ الخفيفُ إذا استمرَّ ، قامَ مَقام المطر الشديد .

وكذلك عمل المؤمن ، إذا أنفقَ في سبيل الله ، وتَصَدَّقَ مُخْلِصًا للهِ ، ولَم يُتْبِع صدقته مَنًّا ولا أذًى ، فإن اللهَ يَتقبَّل صدقته ، سواءٌ كانت كثيرة أَم قليلة ، ويُنَمِّيها ، ويُكثِّرها ، ويُبارك فيها . وهذا يعني أن عمل المؤمن لا يَزول ولا يَضمحل ولا يَفنى ، والمؤمن رابح وفائز في كل الأحوال ، واحتمال خسارته معدوم . إنه فائز أو فائز ، ولا شَيء آخَر .

واللهُ بما تَعْمَلون أيها الناس في أموالكم ونفقاتكم وصدقاتكم بصيرٌ . مُطَّلِعٌ على نِيَّاتكم وأعمالكم ، ولا يَخفى عليه شيء . يُحْصِي أعمالكم كي يُجازيَكم عليها . وهذا وعد لاشتماله على ترغيبهم في الإنفاق بإخلاص ويقين وثبات ، ووعيدٌ لترهيبهم مِن الرِّياء والبُخل .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٦٧) : ((﴿ وَمَثَلُ الذينَ يُنفِقُونَ أموالَهُمُ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ وتثبيتًا مِن أنفُسِهِم ﴾ . وتثبيتًا بَعْضَ أنفسهم على الإيمان ، فإن المال شقيق الرُّوح ، فمن بذل ماله لوجه الله ، ثَبَّتَ بعضَ نفْسه ، ومَن بَذل ماله ورُوحه ثَبَّتها كُلَّها ، أو تصديقًا للإسلام ، وتحقيقًا للجَزاء ، مُبتدأ من أصل أنفسهم . وفيه تنبيه على أن حِكمة الإنفاق للمُنفِق تزكية النَّفْس عن البُخل وحُب المال ، ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ أي : وَمَثَل نفقة هؤلاء في الزكاة كَمَثَل بُستان بموضع مُرتفع ، فإن شجره يكون أحسن منظرًا ، وأزكى ثمرًا ... . ﴿ أصابَها وَابِلٌ ﴾ مطر عظيم القَطْر ، ﴿ فَآتَتْ أُكُلَها ﴾ ثمرتها ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ مِثْلَي ما كانت تُثمِر بسبب الوابل ، والمراد بالضِّعْف المِثْل . ﴿ فإن لَم يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ أي : فَيُصيبها ، أو : فالذي يُصيبها طَل ، أو : فَطَل يَكفيها لِكَرَم مَنبتها ، وبُرودة هوائها ، لارتفاع مكانها ، وهو المطر الصغير القَطْر. والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله ، لا تضيع بحال ، وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضمُّ إليها مِن أحواله ، ويجوز أن يكون التَّمثيل لحالهم عند الله تعالى بالجنة على الرَّبوة ، ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين في زُلفاهم بالوَابِل والطَّل ، ﴿ واللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصير ﴾ تحذير عن الرياء ، وترغيب في الإخلاص)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا أنفِقُوا مِن طَيِّباتِ ما كَسَبْتُم وَمِمَّا أخْرَجْنا لكم مِنَ الأرضِ ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بآخِذِيهِ إلا أن تُغمِضُوا فِيهِ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَميد﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

هذه دعوة إلهية كريمة للمؤمنين بالتَّصَدُّق بالطَّيبات الجِياد ، وليس الخبائث الرَّديئة .

يـا أيهـا الـذين صَـدَّقوا بِوَحدانيـة الله وآياتـه ونُبُـوَّة محمـد ﷺ : تَصَـدَّقوا مِـن أمـوالكم الجيِّـدة الحسنة لا السَّيئة الرَّديئة، فإن الله طَيِّب لا يَقْبل إلا طَيِّبًا. تَصَدَّقوا مِن الأموال التي حصلتم عليها ـــ بفضل الله وكَرَمه وتيسيره ـــ مِن التجارة والصناعة . والطَّيباتُ تَشمل الذهب والفضة والمعادن والثمار والزُّروع التي أخرجها اللهُ لكم مِن الأرض ، ورَزقكم إيَّاها مِن غَير حَوْل مِنكم ولا قُوَّة . وفي الآية دَلالة على إباحة الكَسْب ، وأنه يَنقسم إلى طَيِّب وخبيث.وفي تفسير ابن كثير(١/ ٤٢٨) : ((قال ابن عباس : أمَرَهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفَسِه ، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه، فإن الله طَيِّب لا يَقْبل إلا طَيِّبًا)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٢٢) : ((وفي المراد بهذه النَّفقة قَولان : أحدهما أنها الصَّدقة المفروضة ، قاله عُبَيدة السلماني في آخرين، والثاني أنها التطوع. وفي المراد بالطَّيِّب هاهُنا قَولان:أحدهما أنه الجيِّد الأنفَس ، قاله ابن عباس.والثاني أنه الحلال،قاله أبو مَعْقِل في آخرين))اهـ . ولا تَقْصِدوا المالَ الخبيث الرَّديء كي تُنفِقوه ، والحال أنكم لا تأخذونه في مُعاملاتكم وحقوقكم في وقت مِن الأوقات ، إلا إذا تساهلتم في أخذه ، وتجاوزتم عنه . أي : ولستُم بآخِذي ذلك الخبيث(الرَّديء من المال) لو أُعْطِيتُم في حق لكم، إلا بالتَّساهل وغَض البصر، فكيف تُؤدُّون مِنه حقَّ الله تعالى ؟. إنكم لا تَقْبَلون الخبيث لأنفسكم ، فكيفَ تَقبلونه لله تعالى ؟ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٢٩):((﴿وَلَسْتُم بآخِذِيهِ﴾ يعني الخبيث﴿ إلا أن تُغمِضُوا فِيهِ ﴾ الإغماض غَض البصر، وأراد هاهُنا التَّجَوُّز والْمُسَاهَلة. معناه: لو كان لأحدكم على رَجل حق فجاءه بهذا ، لَم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقه وتركه . وقال الحسن وقتادة : لو وجدتموه يُباع في السُّوق ما أخذتموه بِسِعر الجيِّد . ورُوِيَ عن البراء قال : لو أُهْدِيَ ذلك لكم ما أخذتموه إلا على استحياء مِن صاحبه وغَيْظ ، فكيف تَرْضَوْنَ ما لا ترضون لأنفسكم ؟)) اهـ . وقد أمركم اللهُ بالصدقات الطيبة ، وهو غنيٌّ عنكم وعنها . وهو سُبحانَه غنيٌّ عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه ومحتاج إلى فضله وكَرَمه . واللهُ كريمٌ جواد ، أمركم بالإنفاق لمصلحتكم ، كَي يُثيبكم على صدقاتكم ، ويُكثِّرها لكم ، ويَجزيَكم خَير الجزاء . وهو سُبحانَه المحمود في أقواله وأفعاله وشَرْعه وقضائه وقَدَره. وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٨٠): ((يعني بذلك جَلَّ ثناؤه : واعلموا أيها الناس أن الله عَزَّ وَجَلَّ غنيٌّ عن صدقاتكم وعن غَيرها، وإنما أمركم بها وفرضها في أموالكم ، رحمةً منه لكم لِيُغنِيَ بها عائلكم (فقيركم) ، ويُقَوِّيَ بها ضعيفكم ، ويُجْزِل لكم عليها في الآخرة مَثوبتكم ، لا مِن حاجة بِه فِيها إليكم . ويعني بِقَوله : ﴿ حَميد ﴾ أنه محمود عند خَلْقه بما أَوْلاهم مِن نِعَمه ، وبَسَط

لهم مِن فضله)) اهـ . وعن البَرَاء بن عَازِب ــ رضي اللهُ عنه ــ : في قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لكم مِنَ الأرضِ ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ . قال : نزلت في الأنصار . كانت الأنصار تُخْرِجُ إذا كان جُذَاذُ النَّخْلِ مِن حِيطانِها أقناءَ البُسْر ، فَيُعلِّقونه على حَد رأس أُسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ ، فيأكل منه فقراء المهاجرين ، فَيَعْمَد أحدُهم ، فَيُدْخِل قِنْوَ الْحَشَف ، يظن أنه في كثرة ما يُوضَع مِن الأقناء ، فَنَزل فِيمَن فَعل ذلك : ﴿ ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بآخِذِيهِ إلا أن تُغمِضُوا فِيهِ ﴾ . يقول : لَوْ أُهْدِيَ لكم لَم تَقبلوه إلا على استحياء مِن صاحبه عَطاءً أنه بَعَثَ إليكَ بما لَم يكن له فيه حاجة . ﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَنِيٌّ ﴾ عن صدقاتكم ﴿ حَميد ﴾ [2].

كانَ بعضُ الناس يَتعاملون بجهل مَعَ مفهوم الصَّدقة ، ولا يَقومون بأداء حَقِّها ، حيث يَعْمَدُون إلى إخراج التمر الفاسد الرَّديء ، مِن أجل التَّصَدُّق بِه على الفقراء والمحتاجين . وهذا الأمرُ لا يَليق بالمؤمن .

وعلى المؤمن إخراج أفضل ما لَدَيه في الصَّدقة ، لأنها قُربة إلى الله ، ومصلحة للعبد ومنفعة له . واللهُ غنيٌّ عن الصَّدقات. لا يَحتاج إليها، ولا يَحتاج لأصحابها ، ولكنه سُبحانَه يَحفظها لهم ، ويُكثِّرها ، ويُثيبهم عليها ، ويَجزيهم أحسن الجزاء .

وعن سَهْل بن حَنِيف: أن رسول الله ﷺ نهى عن لَوْنَيْن مِن التَّمر: الْجُعْرُورِ وَلَوْنِ الْحُبَيْق . قال: وكان ناس يَتَيَمَّمُون شَرَّ ثِمارهم، فَيُخرِجونها في الصدقة، فَنُهُوا عن لونين من التمر ، ونزلت: ﴿ ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [3].

كان بعض الناس يَقْصِدون إخراج أسوأ ثمارهم في الصَّدقة ، ويتعمَّدون فِعل ذلك للتخلص مِن ثمارهم الفاسدة الرَّديئة ، في حِين أنهم يَحتفظون لأنفسهم بالثمار الجيِّدة . فَنُهوا عن ذلك . وقد نهى النبيُّ ﷺ عن نَوْعَيْن مِن التَّمر الرَّديء ، الْجُعْرُور وَلَوْنِ الْحُبَيْق . وتَمَّ تنبيههم إلى ضرورة التَّصَدُّق بالثمار الجيِّدة ، لأن الله طَيِّب لا يَقْبَل إلا طَيِّبًا .

---

(٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣١٣) برقم (٣١٢٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

[الْجُذَاذ : القِطَع والكِسَر / الحِيطان : البساتين / أقناء : جَمْع قِنْو وهو العِذْق / البُسْر : التَّمر قبل أن يُصبح رُطَبًا / الأسطوانة : العمود / الْحَشَف : التمر الفاسد اليابس] .

(٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣١٢) برقم (٣١٢٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وما أنفقتُم مِن نفقةٍ أوْ نَذَرْتُم مِن نَذْرٍ فإنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وما للظالمينَ مِن أنصار ﴾ [البقرة : ٢٧٠] .

إنَّ اللهَ عَالِمٌ بَجميع أقوال الناس وأفعالهم.يَعلم ما يَقومون بِه مِن النفقات والصدقات والنُّذور، وسوفَ يُجازي الْمُحسِن (الْمُخلِص) بإحسانه ، ويُجازي الْمُسيء (الْمُرائي) بإساءته .

وهذه الآيةُ تتضمَّن الوعد والوعيد . فَمَن أنفقَ طَلَبًا لرضا الله وَحْدَه ، فهو مَأجور ومُثاب ، ومَن أنفقَ رِياءً وسُمعةً ، أو أتبعَ نفقته مَنًّا وأذًى ، فهو آثم وظالم لنفْسه ، ولا فائدة مِن عمله ، ولَن يُنقِذه أحد مِن عذاب الله ، ولَن يَجد له ناصرًا يوم القيامة .

والنَّذْرُ هو ما أوجبه الْمُكَلَّفُ على نَفْسِه مِن العبادات والطاعات تَقَرُّبًا إلى الله.وحُكمه مَكروه. وإذا ألزمَ الْمُكَلَّفُ نَفْسَه بشيء مِن ذلك ، وَجَبَ عليه وُجوبًا شرعيًّا أن يَقوم بِه .

إنَّ أيَّة نفقة تُنفِقونها أيها الناس ، سواءٌ كانت قليلة أم كثيرة، سِرًّا أم علانية ، حَقًّا أم باطلاً ، وأي نَذْر نَذرتموه ، سواءٌ كان بشرط أم بغير شرط ، في طاعة أم معصية، فإن اللهَ عَالِمٌ بِه ، ومُطَّلع على نِيَّاتكم ، وسَيُجازيكم على أعمالكم التي أحصاها ، إن خيرًا فخير ، وإن شَرًّا فشر .

والذين يُنفِقون في المعاصي ، ويَتصدَّقون رِياءً وسُمعة ، ويُؤذون الناسَ بصدقاتهم ونفقاتهم ، ويُنذِرون في المجالات المحرَّمة ، أو يَمنعون الصدقات ، ولا يُوفُون بالنَّذْر ، لَن يَجدوا مَن يَنصرهم مِن الله ، ويَحميهم مِن عقابه وعذابه ، لأن المخلوق مهما كان بَطْشه وقُوَّته وجبروته ، يظل عبدًا ذليلاً خاضعًا لِسَيِّده وخالقه سُبحانَه وتعالى. وهذا وعيدٌ شديدٌ لِمَن أنفقَ في غَير الوجه الشرعيِّ.

والمقصود بالظالمين في الآية : الْمُنْفِقُون بالْمَن والأذى والرياء ، والْمُنذِرون في المعاصي والآثام. لقد ظَلموا أنفسَهم ومجتمعهم ، لأنهم أنفقوا المالَ ونَذروا في غَير الموضع الشرعيِّ الصحيح . والظالِمُ هو الذي يَضع الشَّيء في غَير مَوضعه .

والجديرُ بالذِّكر أن اللهَ تعالى قال : ﴿ فإنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾ ، ولَم يقل : يَعلمهما ، مَعَ أن الكلام عن النفقة والنَّذْر . وذلك لأن المعنى : فإن اللهَ يَعلم ما أنفقتم أو نذرتم . لذلك وَحَّدَ الكِناية .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٩١) : ((يعني بذلك جَل ثناؤه : وأي نفقة أنفقتم ــ يعني : أي صدقة تصدقتم ــ ، أو أي نذر نذرتم ، يعني بالنَّذْر ما أوجبه المرء على نفْسه تَبَرُّرًا في طاعة الله ، وتَقَرُّبًا بِه إليه، مِن صدقة أو عمل خَير ، ﴿ فإنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾ أي : إن جميع ذلك يَعْلمه الله ، لا يَعْزُب (يَغِيب) عنه مِنه شيء ، ولا يخفى عليه مِنه قليل ولا كثير ، ولكنه يُحصيه أيها الناس

عليكم ، حتى يُجازيَكم جميعكم على جميع ذلك ، فَمَن كانت نفقته مِنكم وصدقته ونَذْره ، ابتغاء مَرضاة الله ، وتثبيتًا مِن نفْسه ، جازاه بالذي وَعَدَه مِن التَّضعيف ، ومَن كانت نفقته وصدقته رِئاء الناس ، ونذوره للشيطان ، جازاه بالذي أوعده مِن العقاب وأليم العذاب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إن تُبْدُوا الصَّدقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وإن تُخْفُوها وتُؤتُوها الفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لكم وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِن سَيِّئاتِكُم واللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبير ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

إن أظهرتم الصدقات وأعلنتم عنها ، فَنِعْمَ الشَّيء هِيَ ، وإن تَسْتُروها بدون إظهار ولا إعلان، وتُعطوها الفقراءَ في السِّر ، فإخفاؤها أفضل وأحسن وخَيْرٌ لكم مِن إظهارها . وذلك في صدقة التَّطَوُّع . أمَّا الزكاةُ المفروضة فإظهارها أفضل كي يَقتديَ بِه الناس ، ويَنفيَ التُّهمة عن نفْسه ، ولا يُساء بِه الظن . والآيةُ دليل على أن صدقة السِّر أفضل من صدقة العلانية ، لأنها أبعد عن الرياء والشُّهرة والسُّمعة ، إلا إذا كان المقصود تشجيع الناس على الصدقة والاقتداء بالْمُتَصَدِّق ، فعندئذ ، إعلان الصدقة يَكون أفضل مِن إخفائها . وبشكل عام، إن إظهار الواجبات في العبادات أفضل مِن إخفائها، وإخفاء النَّوافل في العبادات أفضل مِن إظهارها. والحكمةُ في ذلك أن إظهار الواجبات دليل على إقامة شعائر الدِّين، ونشرها في المجتمع ، وتقوية الالتزام بالإسلام قَولاً وفِعلاً . أمَّا إخفاء النَّوافل فَمِن أجل الابتعاد عن الرياء والشُّهرة والعُجْب . والفرائضُ (الواجبات) لا يَدخلها رِياء ، في حِين أن النَّوافل عُرضة لذلك . وروى الحاكم في المستدرَك(١/٧٤١)وصحَّحه: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول:((الجاهرُ بالقرآن كالجاهر بالصَّدقة، والْمُسِرُّ بالقرآن كَالْمُسِرِّ بالصدقة)) . إن الذي يُخفي قراءته للقُرآن ويُسِرُّ بها ، أفضل مِن الذي يُعْلِنها ويَجهر بها ، لأن صدقة السِّر أفضل من صدقة العلانية ، وذلك كَي يَأمن الرَّجل مِن العُجْب والغرور والرياء والشُّهرة . لذلك تَمَّ تشبيه قراءة القُرآن جَهْرًا وسِرًّا بإعطاء الصدقة جَهْرًا وسِرًّا [4] . والآيةُ تُوضِّح أن الأصل هو إخفاء الصدقة . وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(٤) في تحفة الأحوذي (٨/ ١٩١): ((قال الطيبي : جاء آثار بفضيلة الجهر بالقرآن ، وآثار بفضيلة الإسرار به . والجمع بأن يُقال : الإسرار أفضل لِمَن يخاف الرياء، والجهر أفضل لِمَن لا يخافه ، بشرط أن لا يُؤذيَ غَيْرَه مِن مُصَلٍّ أو نائم أو غَيرهما. وذلك لأن العمل في الجهر يتعدى نفعه إلى غَيره ، أي : مِن استماع أو تعلم أو ذَوْق أو كَوْنه شِعارًا للدِّين، ولأنه يُوقِظ قلب القارئ ، ويَجمع هَمَّه ، ويطرد النوم عنه ، ويُنشِّط غَيْرَه للعبادة ، فمتى حضره شيء من هذه النِّيات ، فالجهر أفضل)) .

((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ يَوْمَ القِيامةِ في ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه)) . وذَكَرَ مِنهم : ((ورَجل تصدَّقَ بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلمَ شِمالُه ما صَنعت يَمينه))[5]. هؤلاء يُظِلُّهم اللهُ في ظِل عَرشه ، وكَنَفِ رحمته ، ويُنعِم عليهم بالنِّعَم العظيمة ، ويتفضَّل عليهم بالسعادة الأبدية في الجنة . مِنهم : رَجل أخفى الصدقةَ ، وأخرجها في السِّر ، وبالغَ في السِّر والإخفاء . وهذ الرَّجل وصل إلى أعلى درجات الإخلاص ، والعمل لوجه الله دون شائبة رِياء أو سُمعة . إذ إن الناس غَير مُطَّلعين عليه . وقد راقبَ اللهَ وَحْدَه في طاعته ، وهكذا تجلَّت حقيقة الإيمان والإخلاص لله تعالى .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ١٢٠و١٢٢) : ((قال القاضي : إضافة الظِّل إلى الله تعالى إضافة مِلْك، وكُل ظِل فهو لله ومِلْكه وخَلْقه وسُلطانه. والمراد هنا ظِل العرش . ... وفي هذا الحديث فضل صدقة السِّر. قال العلماء: وهذا في صدقة التطوع، فالسِّر فيها أفضل لأنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء ، وأمَّا الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل ، وهكذا حُكم الصلاة ، فإعلان فرائضها أفضل ، وإسرار نوافلها أفضل)) اهـ .

وعن أبي أُمَامة قال : قال رسول الله ﷺ : ((... وصدقةُ السِّر تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّب)) [6].

هذا دليل على أن صدقة السِّر أفضل من صدقة العلانية ، لأنها خالصة لوجه الله ، بلا رياء ولا شُهرة . والإخلاصُ لله هو أساس العبادات ، وهو الطريق الموصِل إلى رِضا الله ، وتجنُّب غضبه .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ١٩٣) : ((يمكن حَمْل إطفاء الغضب على المنع من إنزال المكروه في الدنيا، ووَخامةِ العاقبة في العُقبى ، مِن إطلاق السبب على الْمُسَبَّب، كأنه نفى الغضبَ، وأرادَ الحياة الطيبة في الدنيا ، والجزاء الحسن في العُقبى . قال ابن عربي : وهو الْمُوَفِّق عَبْدَه لِمَا تَصَدَّقَ به ، فهو الْمُطفِئ غَضَبَه بِما وَفَّقَ عَبْدَه . اهـ . قال بعضهم : المعنى المقصود في هذا الموضع الحث على إخفاء الصدقة)) اهـ .

وعن أنس بن مالك عن النبيِّ ﷺ قال : ((لَمَّا خَلق اللهُ عز وجل الأرضَ جَعلت تَمِيد ، فَخَلق الجبالَ ، فألقاها عليها ، فاستقرَّت ، فتعجَّبت الملائكةُ مِن خَلْق الجبال ، فقالت : يا رَب ، هل

---

(٥) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٤٩٦) برقم (٦٤٢١) ، ومسلم (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١).

(٦) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦١) . وحسَّنه الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٩٣) . وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥٨٠): ((أخرجه الطبراني في الكبير بسند حسن عن معاوية بن حَيْدة مَرفوعًا: أن صدقة السِّر تُطفِئ غَضَبَ الرَّب)) .

مِن خَلْقك شَيء أشد من الجبال ؟ ، قال : نعم ، الحديد . قالت : يا رَب ، هل مِن خَلْقك شيء أشد مِن الحديد ؟، قال: نعم ، النار. قالت : يا رَب ، هَل مِن خَلْقك شيء أشد مِن النار ؟، قال: نعم ، الماء . قالت : يا رَب ، فهل مِن خَلْقك شيء أشد من الماء ؟، قال : نعم ، الريح. قالت : يا رَب ، فهل مِن خَلْقك شيء أشد مِن الريح، قال: نعم، ابن آدم يَتصدَّق بيمينه ، يُخفيها مِن شماله))(7). المقصود الْمُبالَغة في إخفاء الصدقة ، ولا يَعْرِف بها أقرب المقرَّبين . ولو كان للشِّمال إدراك ومعرفة ، فينبغي أن لا تُدرِك ولا تَعرِف ما أنفقت اليمين ، معَ شِدَّة قُربهما وارتباطهما. وقال الحافظ في الفتح (٢/ ١٤٧) : ((إن المقصود منه الْمُبالَغة في إخفاء الصدقة ، بحيث إن شِماله مَعَ قُرْبها مِن يَمينه وتلازمهما ، لو تُصُوِّرَ أنها تَعْلَم لَمَا عَلِمَتْ ما فَعَلَت اليمين لِشِدَّة إخفائها، فهو على هذا مِن مَجاز التشبيه)) اهـ .

﴿ وإن تُخْفُوها وتُؤتُوها الفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لكم وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِن سَيِّئاتِكُم ﴾ . والذينَ يُخْفُون صدقاتهم ويَسترونها ويُعطونها للفقراء سِرًّا ، فَجَزاؤهم أن الله يَمحو بعض ذنوبهم ، ويُكفِّر عنهم بصدقاتهم مِن سَيِّئاتهم ، ويَرفع درجاتهم. واللهُ لا يُكفِّر السَّيئات كُلَّها بالصدقة، وذلك كَي يَبقى المؤمن خائفًا مِن اللهِ تعالى، وحَذِرًا مِن عقابه وعذابه ، ولا يتمادى في المعاصي والذنوب اعتمادًا على الصدقات . وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ٢٦٣): ((ولعل التصريح بإيتائها الفقراء مع أنه واجب في الإبداء أيضًا ، لِمَا أن الإخفاء مَظَنَّة الالتباس والاشتباه ، فإن الغنيَّ رُبَّما يَدَّعي الفقر، ويُقْدِم على قَبول الصَّدقة سِرًّا ، ولا يَفعل ذلك عند الناس)) اهـ .

﴿ واللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبير ﴾ . واللهُ بما تعملون في صدقاتكم مِن إخفاء أو إعلان ، ذُو خِبرة وعِلم . خبيرٌ بأقوالكم وأفعالكم، وباطنكم وظاهركم ، وعليمٌ بِنِيَّاتكم ، لا يَخفى عليه شيء ، لأن عِلْمه أحاطَ بكل شيء . وقد أحصى أعمالَ عباده كَي يُجازيَهم عليها . وهذا وعد ووعيد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٢٥و٣٢٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ إن تُبْدُوا الصَّدقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ . قال ابن السائب : لَمَّا نَزل قَوْلُه تعالى : ﴿ وما أنفقتُم مِن نفقةٍ ﴾[البقرة : ٢٧٠] . قالوا : يا رسول الله ، صدقة السر أفضل أم العلانية ؟ . فنزلت هذه الآية ... . وقَوله تعالى : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لكم ﴾ يعني: الإخفاء. واتفق العلماء على أن إخفاء الصَّدقة النافلة أفضل مِن إظهارها. وفي الفريضة قَولان : أحدهما أن إظهارها أفضل ، قاله ابن عباس في آخرين. واختاره

(٧) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٤) . وحسَّنه الحافظ في الفتح (٢/ ١٤٧) .

القاضي أبو يعلى . وقال الزَّجاج : كان إخفاء الزكاة على عهد رسول الله ﷺ أحسن ، فأمَّا اليوم ، فالناس يُسيؤون الظن ، فإظهارها أحسن . والثاني : إخفاؤها أفضل ، قاله الحسن وقتادة ويزيد بن أبي حبيب ... . وإنما فُضِّلت صدقة السِّر لمعنيين : أحدهما : يرجع إلى الْمُعْطِي ، وهو بُعده عن الرياء، وقُربه من الإخلاص ، والإعراض عمَّا تُؤثِر النفس من العلانية . والثاني يَرجع إلى الْمُعْطَى ، وهو دفع الذل عنه بإخفاء الحال ، لأنه في العلانية ينكسر... . قَوله تعالى: ﴿ مِن سَيِّئاتِكُم ﴾ في ﴿ مِن ﴾ قَولان : أحدهما أنها زائدة ، والثاني أنها داخلة للتبعيض . قال أبو سليمان الدمشقي: ووجه الحكمة في ذلك أن يكون العباد على خَوْف وَوَجَل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وما تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فلأنفُسِكُم وما تُنفِقُونَ إلا ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ وما تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُم وأنتم لا تُظْلَمُون ﴾ [البقرة : ٢٧٢] (8).

وما تتصدَّقوا بِه مِن مال على الفقراء والمحتاجين ، فهو لمنفعتكم ومصلحتكم ، وفي صحائف أعمالكم ، ولا يَنتفع به غيرُكم ، فكونوا مُخلِصين لله تعالى ، وأنفِقوا مِن الطيب لا الخبيث ، وابتعدوا عن الرياء ، ولا تَمُنُّوا عَلى مَن تصدَّقتم عليه ، ولا تُؤذُوه بأيِّ شكل . فأنتم وَحْدَكم المستفيدون مِن الصدقات والإنفاق ، فاحرصوا على أجركم وثوابكم ومنفعتكم الشخصية .

واللهُ غنيٌّ عنكم وعن صدقاتكم . لا تَنفعه الطاعاتُ ، ولا تضرُّه المعاصي . ونفقةُ المسلم يجب أن تكون خالصةً للهِ تعالى ، بلا رياء ولا سُمعة ولا مَن ولا أذى . ومَن تَصَدَّقَ طَلَبًا لرضا الله وَحْدَه ، فقد حصل على الأجر والثواب. والْمُراد بالخير في الآية المال ، لوجود قرينة " الإنفاق ".

والآيةُ ﴿ وما تُنفِقُونَ إلا ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ ﴾ خبر بمعنى النَّهْي : لا تُنفِقوا إلا ابتغاءَ وجه الله .

وثَواب الإنفاق يُوَفَّى إلى الْمُتَصَدِّقِين، ويَرجع إليهم أضعافًا مُضَاعَفَة ــ بفضل الله وكَرَمه ــ ويَعود عليهم بالخير والبركة في الدنيا، والسعادة والنعيم في الآخرة، ولا يُنقَص مِن أجورهم شَيء ،

(٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٢٧) : ((في سبب نزولها قَولان : أحدهما أن المسلمين كَرِهوا أن يَتَصَدَّقوا على أقربائهم مِن المشركين ، فَنَزلت هذه الآية . هذا قول الجمهور . والثاني أن النبيَّ ﷺ قال: " لا تَتَصَدَّقوا إلا على أهل دِينكم " ، فَنَزلت هذه الآية . قاله سعيد بن جُبَير . والخير في الآية أُريد به المال ، قاله ابن عباس ومقاتل . ومعنى ﴿ فلأنفُسِكُم ﴾ أي : فَلَكُم ثوابه . قَوله تعالى : ﴿ وما تُنفِقُونَ إلا ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ ﴾ . قال الزَّجاج: هذا خاص للمؤمنين، أعلمهم اللهُ أنه قد عَلِمَ أن مُرادهم ما عِندَه ، وإذا أعلمهم بِصِحَّة قَصْدهم، فقد أعلمهم بالجزاء عليه)) .

فهي مَحفوظة لهم كاملةً . واللهُ لا يَظلم أحدًا بإنقاص أجْره. وهذا ترغيبٌ لهم في الصَّدقة ، وحَث على أدائها بحقوقها، ولا عُذر في ترك الإنفاق. ولا عُذر في أن تكون الصدقة على أحسن الوجوه. والآيةُ تَتحدَّث عن صدقة التَّطَوُّع ، حيث يَجوز إعطاؤها للمسلمين وأهل الذِّمة. أمَّا الزكاة(الصدقة المفروضة) فلا يَجوز إعطاؤها إلا للمسلمين المستحقين لها ، لِقَول النبيِّ ﷺ لِمُعاذ ــ رضي اللهُ عنه ــ حِين بعثه إلى اليمن : ((... فَأَعْلِمْهُم أن الله افترضَ عليهم صَدقةً في أموالهم ، تُؤخَذ مِن أغنيائهم ، وَتُرَد على فقرائهم))[9]. هذا دليل واضح على أن الصدقة المفروضة (الزكاة) تُؤخَذ مِن أغنياء المسلمين ، وتُرَد على فقرائهم . ولا يَجوز إعطاؤها لكافر ، لأن الضمير في " فقرائهم " يَعود على المسلمين فقط . وفي تفسير القرطبي (٣/ ٣١٩) : ((قال ابن المنذر : أجمعَ كُل مَن أحفظ عنه مِن أهل العِلم أن الذِّمي لا يُعطَى مِن زَكاة الأموال شيئًا. ثُمَّ ذَكَر جماعة مِمَّن نَصَّ على ذلك ، ولَم يذكر خِلافًا . وقال المهدوي: رُخِّصَ للمسلمين أن يُعطوا المشركين مِن قَراباتهم مِن صدقة الفريضة لهذه الآية . قال ابن عطية : وهذا مردود بالإجماع ، والله أعلم)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٣١٩) : ((وَحُكِيَ أن بعض العلماء كان يَصنع كثيرًا مِن المعروف ، ثُمَّ يَحْلِف أنه ما فَعل مع أحد خَيْرًا ، فَقِيل له في ذلك ، فَيَقول : إنما فعلتُ مَعَ نفْسي، ويَتلو : ﴿ وما تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فلأنفُسِكُم ﴾ ، ثُمَّ بَيَّنَ تعالى أن النَّفقة الْمُعْتَد بِقَبولها إنما هي ما كان ابتغاء وجهه ، و ﴿ ابتغاءَ ﴾ هو على المفعول له . وقِيل : إنه شَهادة من الله تعالى للصحابة رَضِيَ اللهُ عنهم ، أنهم إنما يُنفِقون ابتغاء وجهه ، فهذا خَرج مخرج التفضيل والثناء عليهم. وعلى التأويل الأول ، هو اشتراط عليهم ، ويتناول الاشتراطُ غَيْرَهم مِن الأُمَّة)) اهـ .

وعن سعد بن أبي وقاص ــ رضي اللهُ عنه ــ : أن رسول الله ﷺ قال : ((إنكَ لَن تُنفِق نفقةً تبتغي بها وجه الله ، إلا أُجِرْتَ عليها ، حتى ما تَجعل في في امرأتك))[10]. هذه النفقةُ مُقيَّدة بالإخلاص لله ، وابتغاء وجهه الكريم ، وَحْدَه لا شريك له . والحديثُ يدل على أن الواجب يَزداد أجره بالنِّية ، وأن ثَواب الإنفاق مشروط بصحة النِّية . والمسلمُ يُثاب على ما يُنفِقه على زوجته مِن طعام وغَيْره ، إذا كانت نِيَّته خالصةً لله تعالى. وقَد يَكون المعنى: أن يُطعِم الرَّجل زوجته بيده ، لِمَا في ذلك مِن الحب والاحترام والتقدير وحُسن العِشرة والْمُؤانَسة.ومعنى" في في امرأتك":في فمها.

(٩) متفق عليه . البخاري (٢/ ٥٠٥) برقم (١٣٣١) ، ومسلم (١/ ٥٠) برقم (١٩) .

(١٠) متفق عليه.واللفظ للبخاري(١/ ٣٠) برقم (٥٦) . ومسلم (٣/ ١٢٥٠) برقم (١٦٢٨).

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ٧٧) : ((قَوله ﷺ : " وَلَسْتَ تُنفِق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ بها، حتى اللقمةَ تَجعلها في في امرأتك"_ رواية مسلم_. فيه استحباب الإنفاق في وجوه الخير ، وفيه أن الأعمال بالنيات، وأنه إنما يُثاب على عمله بنيته. وفيه أن الإنفاق على العِيال يُثاب عليه إذا قُصِد به وجه الله تعالى ، وفيه أن المباح إذا قُصِد به وجه الله تعالى صار طاعةً ، ويُثاب عليه . وقد نَبَّه ﷺ على هذا بِقَوله ﷺ : " حتى اللقمةَ تجعلها في في امرأتك " ، لأن زوجة الإنسان هي مِن أخص حُظوظه الدنيوية ، وشهواته وملاذه المباحة . وإذا وضع اللقمة في فِيها ، فإنما يكون ذلك في العادة عند الْمُلاعَبة والْمُلاطَفة ، والتلذذ بالْمُباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة ، ومعَ هذا فأخبرَ ﷺ أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالى حصل له الأجر بذلك،فغير هذه الحالة أَوْلَى بحصول الأجر إذا أراد وجه الله تعالى. ويتضمَّن ذلك أن الإنسان إذا فعل شيئًا أصله على الإباحة وقَصد به وجه الله تعالى، يُثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التَّقَوِّي على طاعة الله تعالى، والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطًا، والاستمتاع بزوجته وجاريته لِيَكُفَّ نَفْسَه وبصره ونحوهما عن الحرام، وليقضيَ حَقَّها، وليُحصِّل ولدًا صالِحًا)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((قال رَجل : لأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تُصُدِّقَ على سارق ، فقال : اللهُمَّ لك الحمد ، لأتصدقنَّ بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تُصُدِّقَ الليلة على زانية ، فقال : اللهُمَّ لك الحمد على زانية . لأتصدقنَّ بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها في يَدَي غنيٍّ ، فأصبحوا يتحدثون : تُصُدِّقَ على غنيٍّ، فقال : اللهُمَّ لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غنيٍّ . فَأُتِيَ فَقِيل له : أمَّا صدقتك على سارق ، فلعله أن يَستعفَّ عن سرقته، وأمَّا الزانية فلعلها أن تستعفَّ عن زِناها،وأمَّا الغنيُّ فلعله يَعتبر فَيُنفِق مِمَّا أعطاه الله))[11].

إن أجر الْمُتَصَدِّق ثابت ، حتى لو وَقعت الصدقة في يد غَير أهلها . وثوابُه محفوظ عند الله بسبب نِيَّته الصالحة . وهذا الرَّجل تَصَدَّق على سارق وزانية وغنيٍّ ، وهو لا يَعْلَم عنهم شيئًا . كان يَظُنُّهم من الفقراء والمحتاجين ، وقرَّر مُساعدتهم والإحسان إليهم . وقد حصل على أجره كاملاً بسبب النية الصالحة ، حيث إنه تَصَدَّقَ مُخْلِصًا لله تعالى ، وطالبًا لِرِضاه . وقد حَمِدَ اللهَ أن

(١١) متفق عليه . البخاري (٢/ ٥١٦) برقم (١٣٥٥) ، ومسلم (٢/ ٧٠٩) برقم (١٠٢٢) .

وفَّقه لأداء الصدقة ، وتَمَّ الأمر بإرادة الله لا إرادة العبد ، والخِيرةُ في ما اختاره اللهُ تعالى . وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٩٠و٢٩١) : ((... سَلَّمَ وَفَوَّضَ ورَضِيَ بقضاء الله ، فَحَمِدَ اللهَ على تلك الحال ، لأنه المحمود على جميع الحال ، لا يُحمَد على المكروه سواه ... . قَوله " فَأُتِيَ فَقِيل له" في رواية الطبراني في مسند الشاميين عن أحمد بن عبد الوهاب عن أبي اليمان بهذا الإسناد: فساءه ذلك ، فَأُتِيَ في مَنامه ... . وفي الحديث دَلالة على أن الصدقة كانت عندهم مختصة بأهل الحاجة مِن أهل الخير ، ولهذا تعجَّبوا من الصدقة على الأصناف الثلاثة، وفيه أن نية المتصدِّق إذا كانت صالحة ، قُبِلت صدقته ، ولو لَم تقع الموقع . واختلف الفقهاء في الإجزاء إذا كان ذلك في زكاة الفَرْض ، ولا دَلالة في الحديث على الإجزاء ولا على المنع ... . وفيه فضل صدقة السر ، وفضل الإخلاص، واستحباب إعادة الصدقة إذا لَم تقع الموقع ، وأن الْحُكم للظاهر حتى يتبيَّن سِواه، وبركة التسليم، والرِّضا ، وذَم التَّضَجُّر بالقضاء ، كما قال بعض السلف : لا تَقطع الخدمة ولو ظَهر لك عدم القَبول)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ للفُقَراءِ الذينَ أُحْصِرُوا في سَبيلِ اللهِ لا يَستطيعونَ ضَرْبًا في الأرضِ يَحْسَبُهُمُ الجاهِلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُم لا يَسألونَ النَّاسَ إلْحَافًا وما تُنفِقُوا مِن خَيْرٍ فإنَّ اللهَ بِهِ عَلِيم ﴾ [البقرة : ٢٧٣] . يُبيِّن اللهُ أن النفقة والصدقة تكون لفقراء المهاجرين الذين مَنعهم الجهاد مِن التَّصَرُّف في معايشهم والتجارة والكسب. وتخصيصهم بالذِّكر لأنه لَم يكن هناك سِواهم ، وهُم أهل الصُّفَّة ، وكانوا تقريبًا أربعمائة رَجل. لَم يكن لهم بيوت في المدينة ولا عشائر ، وكانوا في المسجد ، يَقضون أوقاتهم في تعلم القُرآن والعبادة. وكانوا يَخرجون في كُل سَرِيَّة بعثها النبيُّ ﷺ، ولا يتخلفون عنها. وقد كَشف اللهُ حالَهم للناس كَي يُشفِقوا عليهم ويُساعدوهم ويعتنوا بهم ، ويَتصدَّقوا عليهم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٤٧) : ((أصحاب الصُّفة : هُم الفقراء الغرباء الذين كانوا يَأوون إلى مسجد النبيِّ ﷺ ، وكانت لهم في آخره صُفَّة ، وهو مكان منقطع مِن المسجد ، مُظَلَّل عليه ، يَبيتون فيه . قاله إبراهيم الحربي والقاضي)) اهـ .

لا يَقْدِرون على السَّفر (الضَّرْب في الأرض) لطلب المعاش ، لاشتغالهم بالجهاد والعبادة . وأيضًا ، الكفر يعمُّ البلادَ ، وعداوة الكفار لهم تمنعهم مِن مُمارسة التجارة والزراعة والبحث عن الرِّزق ، كما أنهم ضُعفاء لا يَمْلِكون القدرة على العمل والكسب ، فَظَلُّوا فقراء مُحتاجين .

يَظُنُّهم الجاهل بأمرهم وحالهم أغنياء مِن تَعفُّفهم في مَقالهم وحالهم ، وعِزَّة أنفسهم ، وعدم مَد أيديهم للناس . لقد تَوَكَّلوا على الله ، وتركوا سُؤالَ الناس ، وَرَضُوا بالقضاء والقَدَر .

والتَّعَفُّفُ هو الإمساك عن الشَّيء ، والتَّرَفُّع عن طَلبه ، والتَّنَزُّه عن السؤال .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ : أن رسول الله ﷺ قال : ((ليس المِسكينُ الذي يَطُوفُ على الناس ، تَرُدُّه اللقمة واللقمتان ، والتَّمرة والتَّمرتان ، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يَجِد غِنًى يُغنيه، ولا يُفطَن به فَيُتَصَدَّق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس))[12].

ليسَ المِسكين الحقيقي (الكامل المسكنة) هو مَن يَطُوف على الناس ، ويَتصدَّقون عليه بِلُقمة ولُقمتين ، وتمرة وتمرتين ، لأن المتردِّد على الأبواب ، قادرٌ على تحصيل قُوته ، والحصول على المال والطعام. إن المِسكين الحقيقيَّ (شَرْعًا لا عُرْفًا) هو الذي لا يَجِد غِنًى يُغنيه ، ولا أحد يَنتبه إلى وَضْعه فَيُساعده ، ويَتصدَّق عليه ، ولا يمدُّ يَده إلى الناس طالبًا العَون والمساعدة والصَّدقة . وهو يَظهر بمظهر الغنيِّ غير المحتاج ، بسبب تَعَفُّفه ، ورفضه لسؤال الناس ، وترفُّعه عن طلب المساعدة . إنه عزيز النَّفْس ، وكريم الأصل ، وعفيف ، ومُسْتَتِر ، لا يَلفِت الأنظار ، ولا يُثير الشفقة ، ولا يمدُّ يده للناس ، ولا يَطُوف عليهم طلبًا للمال أو الطعام . وبشكل عام ، إن وضع المِسكين أفضل مِن وضع الفقير، وأحسن حالاً. فالمِسكين الذي له شيء ، لكنه لا يَكفيه . أمَّا الفقير فهو الذي لا شَيء له . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٢٩) : ((معناه: المِسكين الكامل المسكنة الذي هو أحق بالصدقة، وأحْوَج إليها، ليس هو هذا الطوَّاف، بَل هو الذي لا يجد غِنًى يُغنيه ، ولا يُفطَن له ، ولا يَسأل الناسَ . وليس معناه نفي أصل المسكنة عن الطوَّاف ، بَل معناه نفي كمال المسكنة)) اهـ .

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُم﴾. تَعْرِفهم بصفتهم التي وُجوههم،والتي تَظهر لأصحاب العقول والفِراسة ودِقَّة الْمُلاحَظة . وهذا يدل على أن السِّيما لها اعتبار في الأحكام الشرعية . والسِّيما هي العلامة. وهي أثر الحاجة أو أثر السُّجود، لأنهم كانوا مَعروفين بكثرة الصلاة والصِّيام .والجديرُ بالذِّكر أن وجوههم الذابلة ، وأجسامهم الضعيفة ، وملابسهم الرَّثة ، تدل على حاجتهم وسُوء وضعهم.

﴿ لا يَسألونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ . لا يُلِحُّون في المسألة ، ولا يُصِرُّون على الطلب . والمعنى أنهم لا يَسألون الناسَ البَتَّة ، ولا يَطلبون مِنهم بالْمَرَّة، لا سؤال إلحاح ولا سؤال غير إلحاح . أي : لا سؤال لهم أصلاً ، فلا يَقع منهم إلحاف ، وهو الإلحاح . وبما أن الجاهل يَظُنُّهم أغنياء ، فهذا يَعني أنهم لَم يكونوا يَسألون الناسَ البَتَّة . ولو سألوا الناسَ ، لَعُرِفَ أنهم محتاجون غَير أغنياء .

---

(١٢) متفق عليه . البخاري (٢/ ٥٣٨) برقم (١٤٠٩) ، ومسلم (٢/ ٧١٩) برقم (١٠٣٩).

والإلحافُ هو مُلازَمة المسؤول حتي يُعطيَه . مأخوذ مِن اللحاف ، لاشتماله على وُجوه الطلب في المسألة كاشتمال اللحاف مِن التغطية.أي إن هذا السَّائل يعمُّ الناسَ بسؤاله،ويُلْحِفهم، ويُحيط بهم. وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((ليس المِسكينُ الذي تَرُدُّه التَّمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يَتَعَفَّف.واقرؤوا إن شِئتم _ يعني قَوْلَه : _ ﴿ لا يَسألونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾))[13].

وفي مُسنِد أحمد (٣/ ٩): عن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ قال : سَرَّحَتْنِي أُمِّي إلى رسول الله ﷺ أسأله، فأتيتُه ، فقعدتُ . قال : فاستقبلني ، فقال : ((مَن استغنى أغناه الله ، ومَن استعفَّ أَعَفَّه اللهُ ، ومَن اسْتَكْفى كَفَاه اللهُ ، ومَن سَأل وله قِيمة أُوقِيَّة ، فقد أَلْحَفَ)) ، قال: فقلتُ : ناقتي الياقوتة هِي خَير مِن أُوقِيَّة ، فرجعتُ ولَم أسأله .

لقد أرسلته أُمُّه إلى النبيِّ ﷺ كي يَسأله مِن حاجةٍ شديدة ، ويَطلب مِنه مُساعدةً عاجلةً ، بسبب ظروفهم الصعبة ، وأحوالهم المعيشية القاسية . وقد استقبله النبيُّ ﷺ ، وقدَّم له إرشادات هامة ، وقواعد أساسية ، ومبادئ مركزية . وهي : مَن أظهرَ الغِنى عن الخلق ، ولَم يَمُد يده إليهم، واستغنى بالله الخالق عن كل مخلوق ، جَعل الله في قلبه الغِنى والقِناعة والاكتفاء وعدم الحاجة ، والغِنى غِنى النَّفْس . ومَن امتنعَ عن السؤال ، وتَرَفَّعَ عنه ، جَعله اللهُ عفيفًا ، وحَفِظَ ماءَ وجهه ، وسَدَّ حاجته ، ومَن استكفى بالله ، واستغنى بِه عن كل مخلوق ، كفاه اللهُ ما أهَمَّه ، وأزالَ قلقَه وخوفَه ، وبَث في قلبه الأمن والأمان واليقين والطمأنينة والثقة بالله ، وعدم الخوف مِن المستقبل ، وعدم القلق بشأن الرزق . ومَن سَألَ الناسَ ، وطلبَ مِنهم ، وهو يَملِك أربعين دِرهمًا (أُوقِيَّة) ، فقد سَألَ الناسَ إلحافًا. وهذا يدل على عدم رِضاه بِمَا قَسَم اللهُ له. ويكون قد وقع في المحظور ، ونالَ غضب الله تعالى ، وغرق في الخوف والقلق والاضطراب النَّفْسي . وقد التزمَ الصحابيُّ الجليل بكلام النبيِّ ﷺ ، وتَذَكَّرَ ناقته التي يَملكها ، فوجدَ أن ثمنها أكبر مِن أُوقِيَّة ، فرَجع ، ولَم يَسأل النبيَّ ﷺ ، وقوفًا عِند كلامه ، والتزامًا به ، ولئلا يَقع في الْمُخالَفة الشرعية .

والحديثُ يدل على أن مَن سَأل المخلوقَ شيئًا مِن الرِّزق ، فَقد ذَلَّ وأراقَ ماءَ وجهه ، ومَن سَألَ اللهَ الرِّزقَ ، فقد صَارَ عزيزًا كريمًا شريفًا ، وحقَّق مُراده ، وبَلَغَ الْمُنى والغِنى . واللهُ قَد يَرزقه مِن المال ما يَستغني بِه عن سؤال الناس ، وبالتالي يُصبح مُكْتَفِيًا غَير محتاج لمخلوق .

---

(١٣) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٦٥١) برقم (٤٢٦٥) ، ومسلم (٢/ ٧١٩) برقم (١٠٣٩).

وقد يَرزقه اللهُ القناعةَ ، والقناعة كنز لا يَفنى. والغِنى غِنى النَّفْس. والمؤمنُ فقيرٌ إلى اللهِ غنيٌّ بِه عَمَّن سِواه ، ومَن استغنى باللهِ افتقرَ الناسُ إليه . وصَدق القائل :

إن الغنيَّ هو الغنيُّ بنفْسه ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كُل ما فوق البسيطة كافي فإذا قَنعتَ فبعض شَيء كافي

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٦/ ٥٦) _عن إحدى روايات الحديث_: (((مَن استعفَّ) أي: طَلب العِفَّة وهي الكَف عن الحرام وعن السؤال (أَعَفَّه الله) أي: جَعله عفيفًا، مِن الإعفاف وهو إعطاء العِفَّة ، وهي الحفظ عن الْمَناهي (ومَن) تَرَقَّى من هذه المرتبة إلى ما هو أعلى منها ، و(استغنى) أي: أظهرَ الغِنى عن الخلق (أغناه الله) أي مَلأ اللهُ قلبه غِنًى، لأن مَن تَحَمَّلَ الْخَصَاصة (الحاجة)، وكَتَم الفقر فَصَبر_ عِلْمًا بأن الله القادر على كشفها _ كان ذلك تَعَرُّضًا لإزالتها عنه، كالْمُعْتَرِّ الذي يتعرَّض ولا يَسأل ، وقد أمرَ اللهُ بإعطاء المعتر ، فالله أَوْلَى أن يُعْطِيَ مَن يَتعرَّض لفضله)) اهـ . وفي فَيض القدير (٦/ ٥٨) : ((قال ابن الجوزي : لَمَّا كان التَّعَفُّف يَقتضي سَتْر الحال عن الخلق ، وإظهار الغِنى عنهم ، كان صاحبه مُعَامِلاً لله في الباطن ، فيقع له الربح على قَدْر صِدْقه في ذلك . وقال الطيبي : معنى قَوله : " مَن استغنى أَعَفَّه الله " ، يَعُف عن السؤال ، وإن لَم يُظْهِر الاستعفاف عن الناس ، لكنه إنْ أُعْطِيَ شيئًا لَم يَتركه . يَملأ اللهُ قلبه غِنًى بحيث لا يحتاج إلى سؤال . ومَن دَاوَمَ على ذلك ، وأظهرَ الاستعفاف ، وتَصَبَّرَ ، ولو أُعْطِيَ لَم يَقبل ، فهو أرفع درجة ، والصبر جامع لمكارم الأخلاق)) اهـ .

وعن الزُّبير بن العَوَّام _ رضي اللهُ عنه _ : عن النبيِّ ﷺ قال : ((لأن يَأخُذَ أحَدُكم حَبْلَه ، فيأتِيَ بِحُزمةِ الحطب على ظَهْره ، فَيَبِيعَها فَيَكُفَّ اللهُ بِها وَجْهَه ، خَيْرٌ له مِن أن يَسأل الناسَ ، أَعْطَوْهُ أو مَنعوه))[14].

لقد حَارَبَ الإسلامُ الفقرَ والبطالةَ والتَّسَوُّل ، وأمرَ القادرَ على العمل أن يَجتهد في طلب الرِّزق والمعاش، ولا ينام في بَيته ، أو يظل تحت صدقات الناس وإحسانهم . والعملُ مهما كان نوعُه فهو أفضل مِن سؤال الناس ، ومَدَّ اليد إليهم،وإراقة ماء الوجه أمامهم بكل ذُل وخِزي وعار . ومَهما كان العملُ صعبًا وشاقًّا ، فهو أفضل وأرحم مِن ذُل السؤال ، والانكسارِ أمام الناس .

---

(١٤) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٢/ ٥٣٥) برقم (١٤٠٢).ومسلم(٢/ ٧٢١) برقم (١٠٤٢).

ولأن يأخذ المرءُ حَبْلَه ، ويَذهب إلى الغابة ، ويَقتطع الحطب مِن الأشجار ، ويَجمعه على ظَهْره ، ويَحمله إلى السُّوق ، ويَبيعه ، أشرف وأفضل وأكرم وأرحم مِن مَد يده إلى الناس ، سواءٌ أَعْطَوْه أَم مَنعوه ، لأنهم إذا أَعْطَوْه مَنُّوا عليه ، واعتبروا أنفسَهم أعلى مِنه ، وأنهم أصحاب المنْزلة الرفيعة ، وهُو الذليل الحقير صاحب المكانة الوضيعة ، وهذا هو ثِقْل المِنَّة . وإن مَنعوه ، كَسروا نَفْسَه ، وأهانوه ، وجَرحوا مشاعره ، وهذا هو ذُل الخيبة . ومعنى " فَيَكُفَّ اللهُ بِها وَجْهَه " : يَمنعه اللهُ تعالى ويَحميه بسببها مِن أن يُريق ماءَ وجهه، ويُذِل نَفْسَه بالسؤال ومَد اليد .

والحديثُ يُرغِّب في السَّعْي والعمل المشروع لطلب المعاش وكسب الرِّزق ، بشرف وكرامة وعِزَّة نَفْس . وكُل عمل مُباح شرعًا فهو عمل شريف ، بغض النظر عن مَردوده ، ومهما كانت نظرة الناس إليه . والجديرُ بالذِّكر أن الفقير القادر على العمل والكسب لا تَحِل له الزكاة .

ومَن كسب المالَ الحلال ، لِيُنفِق على أسرته وأولاده ، وتعفَّف بِه عن السؤال ، فهو مأجور على فِعله ، وقد أحسنَ صُنْعًا بأن اختارَ الطريق الشرعيَّ لكسب المال ، وليس التَّسَوُّل أو الحرام.

وصدقَ القائل :

ونقلُ الصخر مِن قِمَمِ الجبالِ أخفُّ عليَّ مِن مِنَنِ الرِّجالِ
يَقولُ الناس : كَسْبٌ فِيه عَار فقلتُ : العارُ في ذُلِّ السُّؤالِ

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٥٧) : ((وهذا حَث على التَّعَفُّف ، وتفضيل الكسب والسبب على البطالة ، وجمهور المحققين كابن جرير وأتباعه على أن السَّبب لا يُنافي التوكل ، حيث كان الاعتماد على الله ، لا على السبب . فإن احتاج ولَم يَقْدِر على كسب لائق جاز ، بشرط أن لا يُذِل نَفْسَه ، ولا يُلِح ، ولا يُؤْذِيَ المسؤول ، فإن فُقِد شرط منها حُرِّم اتفاقًا)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمر رضي اللهُ عنهما: أن رسول الله ﷺ قال ـ وهو على المِنبر وذَكَر الصدقة والتَّعفف والمسألة ـ : ((اليدُ العُليا خَيْرٌ مِن اليد السُّفلى))[15].

إن اليد العُليا هي الْمُنفِقة التي تُعطِي ، والسُّفلى هي السَّائلة التي تَأخذ . وهذا يَدل على أن الْمُتَصَدِّق أفضل مِن الْمُتَصَدَّق عليه ، وأعظم مكانةً في الدنيا والآخرة ، وأكثر ثوابًا وأجرًا . كما يدل على أن الغنيَّ الذي يُؤدِّي حقوقَ ماله أفضل وأعظم من الفقير ، لأن الإعطاء يَكون عَن غِنًى

(١٥) متفق عليه . البخاري (٢/ ٥١٩) برقم (١٣٦٢) ، ومسلم (٢/ ٧١٧) برقم (١٠٣٣) .

ولا يكون عَن فقر . وفي الحديث دَلالة على كراهة السؤال إلا للضرورة . والمقصودُ بالعُلُوِّ هُوَ عُلُوُّ الفضائل وكثرة الأجر . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٢٥) : ((وفي هذا الحديث الحث على الإنفاق في وجوه الطاعات ، وفيه دليل لمذهب الجمهور أن اليد العليا هي الْمُنفِقة. وقال الخطابي: الْمُتَعَفِّفة . وقال غَيره : العُليا الآخِذة ، والسُّفلى المانعة ، حكاه القاضي، والله أعلم . والمراد بالعُلُوِّ عُلُوُّ الفضل والمجد ونَيل الثواب)) اهـ .

﴿ وما تُنفِقُوا مِن خَيْرٍ فإنَّ اللهَ بِهِ عَلِيم ﴾ . وما تَصَدَّقْتُم به ، وأنفقتموه في سبيل الله ، فهو محفوظ لكم عِند الله ، واللهُ لا يَخفى عليه شَيء مِنه ، وسَيَجزيكم عليه خَير الجزاء، ويُثيبكم يوم القيامة ، حيث يَكون المرء أحْوَج ما يَكون للأجر والثواب . وهذا ترغيبٌ في الإنفاق ، خصوصًا على أهل الصُّفة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٢٧_ ٣٢٩): ((قَوله تعالى: ﴿ للفُقَراءِ الذينَ أُحْصِرُوا في سَبيلِ اللهِ ﴾ . لَمَّا حَثَّهم على الصدقات والنفقات ، دَلَّهم على خَير مَن تُصُدِّق عليه . وفي المراد بـ﴿ الذينَ أُحْصِرُوا ﴾ أربعة أقوال : أحدها أنهم أهل الصُّفة ، حَبسوا أنفسهم على طاعة الله ، ولَم يكن لهم شيء ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني أنهم فقراء المهاجرين ، قاله مجاهد . والثالث أنهم قَوم حَبسوا أنفسهم على الغَزْو ، فلا يَقْدِرون على الاكتساب ، قاله قتادة . والرابع أنهم قوم أصابتهم جِراحات معَ النبيِّ ﷺ، فصاروا زَمْنَى (أصحاب الأمراض الْمُزْمِنة التي لا يُرجَى شفاؤها) قاله سعيد بن جُبَير ، واختاره الكِسائي ، وقال : أُحْصِرُوا من المرض ، ولو أراد الحبس ، لَقَالَ : حُصِروا . وإنما الإحصار من الخوف أو المرض ، والحصر الحبس . و﴿ في سَبيلِ اللهِ ﴾ قَولان : أحدهما أنه الجهاد ، والثاني الطاعة . وفي الضَّرْب في الأرض : قَولان : أحدهما أنه الجهاد ، لَم يُمكنهم لفقرهم ، نُقِل عن ابن عباس . والثاني الكسب ، قاله قتادة. وفي الذي منعهم من ذلك ثلاثة أقوال : أحدها الفقر ، قاله ابن عباس . والثاني أمراضهم ، قاله ابن جُبَير وابن زيد . والثالث التزامهم بالجهاد ، قاله الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجاهِلُ ﴾ ... لَم يُرِد الجهل الذي هو ضِد العقل ، إنما أراد الجهل الذي هو ضد الخبر ، فكأنه قال : يَحْسَبُهم مَن لا يَخْبِر أمْرَهم . والتَّعفف ترك السؤال . يُقال : عَفَّ عن الشيء وتَعَفَّفَ . والسِّيما العلامة التي يُعرَف بها الشيء ، وأصله مِن السِّمة . وفي المراد بسيماهم ثلاثة أقوال : أحدها تَجَمُّلهم ، قاله ابن عباس . والثاني خُشوعهم ، قاله مجاهد . والثالث أثر الفقر عليهم ، قاله السُّدي والربيع بن أنس . وهذا يدل على أن للسِّيما حُكْمًا يتعلق بها . قال إمامنا أحمد في الميْت

يُوجَد في دار الحرب ، ولا يُعرَف أمره ، يُنظَر إلى سِيماه ، فإن كان عليه سِيما الكفار مِن عدم الخِتان حُكِم له بِحُكمهم، فلم يُدفَن في مقابر المسلمين ، ولَم يُصَلَّ عليه ، وإن كان عليه سِيما المسلمين ، حُكِم له بِحُكمهم . وأمَّا الإلحاف فهو الإلحاح . قال ابن قُتَيبة : يُقال : أَلْحَفَ في المسألة ، إذا أَلَحَّ . وقال الزَّجاج : معنى أَلْحَفَ شَمِلَ بالمسألة ، ومِنه اشتقاق اللحاف ، لأنه يشمل الإنسان بالتغطية ، فإن قِيل : فهل كانوا يَسألون غَير مُلْحِفين ، فالجواب أن لا ، وإنما معنى الكلام أنه لَم يكن منهم سؤال فيكون إلحاف . قال الفَرَّاء : ومِثله أن تقول : قَلَّمَا رَأيتُ مِثلَ هذا الرَّجل ، ولعلك لَم تَرَ قليلاً ولا كثيرًا مِن أشباهه ، فَهُم لا يَسألون الناس إلحافًا ولا غير إلحاف،وإلى نحو هذا ذهب الزَّجاج وابن الأنباري في آخرين)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ الذينَ يُنفِقُونَ أموالَهُم بالليلِ والنهارِ سِرًّا وعَلانيَةً فَلَهُم أجْرُهُم عِندَ رَبِّهِم ولا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يَحْزَنون ﴾ [البقرة : ٢٧٤] (16).

هذا مدحٌ إلهيٌّ للمُنفِقين أموالَهم في طاعة الله طلبًا لرضاه ، في كل الأوقات والأحوال . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٧٣) : ((أي : يَعُمُّون الأوقات والأحوال بالخير)) اهـ .

والآيةُ عامة شاملة ، ومَن عمل بها دَخل فيها . والعِبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إنهم شديدو الحرص على الإنفاق في سبيل الله تعالى ، والتقرُّب إليه بالصدقات ، لذلك يَتصدَّقون في الليل والنهار (في كل الأوقات) ، ويَتصدَّقون سِرًّا وعلانية (في كل الأحوال) ، ولا يَتركون الصدقةَ مُطْلَقًا . إنهم يَتصدَّقون سِرًّا ، ويُخفُون صدقاتهم ، ويُعطونها للفقراء دُون أن يَراهم أحد ، وهذا هو قِمَّة الإخلاص لله تعالى ، والبُعد عن الرياء والشُّهرة . وأيضًا ، يَتصدَّقون علانيةً أمام عُيون الناس كَي يَقتدوا بِهم ، ويَتشجَّعوا على الإنفاق والتَّصَدُّق .

(١٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٢٩و٣٣٠) : ((اختلفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في الذين يرتبطون الخيل في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ ، رواه حَنَش الصنعاني عن ابن عباس. وهو قول أبي الدَّرداء و أبي أُمامه ومكحول والأوزاعي في آخرين. والثاني نزلت في عليٍّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ فإنه كان معه أربعة دراهم، فأنفق في الليل دِرهمًا ، وبالنهار دِرهمًا، وفي السِّر دِرهمًا، وفي العلانية دِرهمًا ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وابن السائب ومقاتل . والثالث أنها نزلت في عليٍّ وعبد الرحمن بن عَوف،فإن عَلِيًّا بَعث بِوَسْق مِن تمر إلى أهل الصُّفَّة ليلاً ــ الوَسْق ستون صاعًا أو حِمْل بعيرــ، وبعث عبد الرحمن إليهم بدنانير كثيرة نهارًا، رواه الضَّحاك عن ابن عباس)) .

وتقديمُ الليل على النهار ، والسِّر على العلانية ، للتَّنبيه على أفضلية الإخفاء والاستتار .

وثوابُهم محفوظ عند الله ، وسَيَجزيهم خَير الجزاء يوم القيامة بسبب إنفاقهم أموالهم في الطاعات . وقال ابن جِنِّي في سِر صناعة الإعراب (١/ ٢٥٩) : ((فالفاء _ في ﴿ فَلَهُم ﴾ _ قد دَلَّت على أن الأجر إنما اسْتُحِق عن الإنفاق)) اهـ .

ولا خَوْف عَلَيهم فيما يَستقبلونه ، ولا هُم يَحْزَنون عَلى ما مضى مِمَّا يتركونه . لا خَوْفٌ عليهم مِن العذاب الإلهيِّ ، ولا هُم يَحْزَنون على ما تَركوا وراءهم في الدنيا . لا خَوْفٌ عليهم في الآخرة ، ولا يَحْزَنون للموت . والجديرُ بالذِّكر أن النفقة على الأهل داخلة في الآية ، وأصحابها داخلون في المدح الإلهيِّ . فعن أبي مسعود الأنصاريِّ عن النبيِّ ﷺ: ((إذا أنفقَ المسلمُ نفقةً على أهله ، وهو يَحْتَسِبُها ، كانت له صدقة))[17].

إذا أنفقَ المسلمُ المالَ على زَوجته وأولاده وأقاربه ، وهو مُخلِص لله تعالى ، طالبًا لرضاه ، وقاصدًا للأجر الإلهيِّ ، فإنه يُثاب على المال الذي أنفقه ،كما يُثاب على الصدقة . وهذا يدل على فضل الصدقة والنفقة على الأهل. والأقربون أَوْلَى بالمعروف. والحديثُ يُبيِّن أهمية النِّية ، وأنها هي أساس العبادات والطاعات.وكُل أقوال المسلم وأفعاله يُؤجَر عليها إذاكانت نِيَّته خالصة لله تعالى . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٨٨و٨٩) : ((فيه بيان أن المراد بالصدقة والنفقة المطْلقة في باقي الأحاديث إذا احتسبها ، ومعناه أراد بها وجه الله تعالى ، فلا يَدخل فيه مَن أنفقها ذاهلاً ، ولكن يَدخل الْمُحْتَسِب ، وطريقه في الاحتساب أن يتذكر أنه يجب عليه الإنفاق على الزوجة وأطفال أولاده والمملوك وغَيرهم مِمَّن تجب نفقته،على حَسَب أحوالهم، واختلاف العلماء فيهم ، وأن غيرهم مِمَّن يُنفَق عليه مَندوب إلى الانفاق عليهم ، فَيُنفِق بنية أداء ما أُمِر بِه ، وقد أُمِر بالإحسان إليهم ، والله أعلم)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ١٣٦) : ((قال القرطبي : أفادَ منطوقه أن الأجر في الإنفاق إنما يَحصل بِقَصد القُربة ، سَواءٌ كانت واجبة أو مُباحة ، وأفاد مفهومه أن مَن لَم يقصد القُربة لَم يُؤجَر ، لكن تَبْرَأ ذِمَّته مِن النفقة الواجبة ، لأنها معقولة المعنى. وأطلق الصدقة على النفقة مَجازًا ، والمراد بها الأجر . والقرينةُ الصارفة عن الحقيقة الإجماع على جواز النفقة على الزوجة الهاشمية ، التي حُرِّمَت عليها الصدقة)) اهـ .

---

(١٧) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٠٤٧) برقم (٥٠٣٦)، ومسلم (٢/ ٦٩٥) برقم (١٠٠٢) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَن تنالوا البِرَّ حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[آل عِمران : ٩٢] (18).

لن تنالوا أيها المؤمنون الخيرَ والثوابَ والجنةَ ، حتى تُنفِقوا مِن الأشياء التي تُحِبُّونها ، والتي هي قريبة مِن قلوبكم وعقولكم. والتَّخلي عن الأشياء التي يَعشقها القلبُ هو قمة الصِّدق والتضحية . ولَن يَبلغ المرءُ حقيقةَ الإيمان ، حتى يَكون إنفاقه مِن أحب المال إليه .

وقد كان السَّلَفُ الصالح إذا أحَبُّوا شيئًا جَعلوه لله تعالى. وما يُنفِقه العبدُ في سبيل الله فهو محفوظ عند الله ، وَسَوْفَ يُجازيه خَير الجزاء ، ويُثيبه أعظمَ الثواب . والخطابُ في الآية لجميع المؤمنين . كما أن الآية تعمُّ الإنفاق الواجب والْمُسْتَحَب . وعن أنس بن مالك ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحَاء ، وكانت مُستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب مِن ماء فيها طَيِّب . قال أنس : فلما أُنزلت هذه الآية: ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبُّون ﴾.قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، إن الله ــ تبارك وتعالى ــ يقول :﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبُّون ﴾ . وإن أحب أموالي إِلَيَّ بَيْرُحَاء ، وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذُخْرها عند الله، فَضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله. قال:فقال رسول الله ﷺ : ((بَخٍ ــ كلمة تُقال لتعظيم الأمر ــ ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح. وقد سمعتُ ما قُلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين)) . فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فَقَسَمَها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه (19).

---

(١٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٠و٤٢١) : ((في البِر أربعة أقوال : أحدها أنه الجنة ، قاله ابن عباس ومجاهد والسُّدي في آخرين. قال ابن جرير : فيكون المعنى : لن تنالوا بِرَّ الله بكم الذي تطلبونه بطاعتكم، والثاني التقوى، قاله عطاء ومقاتل. والثالث الطاعة ، قاله عطية. والرابع الخير الذي يُسْتَحَق به الأجر، قاله أبو رُوق. قال القاضي أبو يعلى: لَم يُرِدْ نَفْيَ الأصل، وإنما نَفْي وجود الكمال، فكأنه قال: لَن تنالوا البِرَّ الكامل. قَوله تعالى: ﴿ حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنه نفقة العبد مِن ماله، وهو صَحِيح شَحِيح،رواه ابن عمر عن النبيِّ ﷺ . والثاني أنه الإنفاق مِن محبوب المال، قاله قتادة والضَّحاك. وفي المراد بهذه النفقة ثلاثة أقوال: أحدها أنها الصَّدقة المفروضة (الزَكاة)،قاله ابن عباس والحسن والضَّحاك. والثاني أنها جميع الصدقات، قاله ابن عمر. والثالث أنها جميع النفقات التي يبتغي بها وجه الله تعالى، سواء كانت صدقة أو لَم تكن، نُقِل عن الحسن واختاره القاضي أبو يعلى)).

(١٩) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٢/ ٥٣٠) برقم(١٣٩٢).ومسلم (٢/ ٦٩٣) برقم (٩٩٨).

إن أبا طلحة _ رضي الله عنه _ لَم تُشغِله أمواله عن طاعة الله تعالى ، وكثرة عبادته . وقد كان رضا الله تعالى مسيطرًا على قلبه وعقله. والآيةُ الكريمة : ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبُّون ﴾ فيها دَلالة واضحة على أن مرتبة البِر لا يمكن الحصول عليها إلا بالإنفاق من الأشياء المحبَّبة للنَّفْس . وهذا هو أعلى درجات البذل والعطاء والتضحية . فمن السهل أن يُقدِّم الإنسانُ شيئًا يَكرهه فيتخلص منه، ويرتاح من رؤيته . أمَّا المِحَك الحقيقي فهو تقديم ما يُحِبُّه الإنسانُ رخيصًا في سبيل الله تعالى . وفي هذا الأمر قهرٌ للنَّفْس العاشقة للامتلاك والسيطرة ، مِن أجل نيل الرضا الإلهيِّ. وهذا ما فعله أبو طلحة الذي قَدَّم بُستانه الأثير صدقةً لله تعالى . وقد وجَّهه النبيُّ ﷺ إلى وضعه في الأقربين، وذلك تطييبًا لنفوسهم ، وتعميقًا للتكافل الاجتماعيِّ ، والتماسك العائليِّ ، فلا يُصبِح في القلوب مكانٌ للحسد أو الغَيرة أو الحقد. وهذا يُساهم في تقوية الروابط الاجتماعية، ونشر قيم الحق والتضحية التي تُعتبَر من أُسس المجتمع الفاضل . وفي الحديث دَلالة واضحة على أن إنفاق أحب المال على الأقارب هو الأفضل. وفي هذا أجران: أجر الصَّدقة، وأجر صِلَة الرَّحِم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٨٥): ((وفي هذا الحديث استحباب الإنفاق مِمَّا يُحب، ومُشاورة أهل العِلم والفضل في كيفية الصدقات ووجوه الطاعات وغَيرها ... . وفي هذا الحديث مِن الفوائد غَير ما سبق ، مِن أن الصدقة على الأقارب أفضل مِن الأجانب إذا كانوا مُحتاجين ، وفيه أن القرابة يُرعى حقها في صِلة الأرحام ، وإن لَم يجتمعوا إلا في أب بعيد ، لأن النبيَّ ﷺ أمرَ أبا طلحة أن يجعل صدقته في الأقربين ، فجعلها في أُبَي بن كعب وحسان بن ثابت ، وإنما يجتمعان معه في الجد السابع)) اه .

إن الصحابة _ رضي الله عنهم _ هُم الجيل الذهبي . فقد فهموا النصوصَ الشرعية ، وقاموا بتطبيقها على أرض الواقع دون تأخير أو تكاسل . فالتطبيق العملي للإنفاق من الممتلكات المحبَّبة للنفس خُضوعًا للآية القرآنية قد تَمَّ واقعًا ملموسًا. فينبغي على المسلم أن يبذل أحبَّ الأشياء لنيل رضا الله تعالى . وهذا إن دل على شيء ، فيدل على عُلُو الهِمَّة التي تدفع المؤمن إلى التخلي عن أحب ممتلكاته لوجه الله تعالى دُون النظر إلى مديح الناس ، أو نَيل الحظوة عندهم . وهذا هو الإخلاص الصافي الذي لا تشوبه شائبة ، وأعلى درجات التضحية .

لقد فَهِمَ الصحابةُ الآيةَ : ﴿ لَن تنالوا البِرَّ حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ على ظاهرها وعُمومها ، وقاموا بتطبيق الآية على أرض الواقع ، دُون طلب تفصيلات عن مجالات الإنفاق ، ودُون انتظار بيان إلهيٍّ أو سُنَّة نبوية ، تُفسِّر معنى الآية . لقد فهموا الآية بِفِطْرتهم النَّقِيَّة ، وسَليقتهم العربية .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٢٨) : ((وكذلك فعل زَيْد بن حارثة : عَمَدَ مِمَّا يُحِب إلى فَرَس يقال له سَبَل ، وقال : اللهُمَّ إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إِلَيَّ مِن فَرَسي هذه ، فجاء بها إلى النبيِّ ﷺ ، فقال: هذا في سبيل الله، فقال لأسامة بن زيد : " اقْبِضْهُ". فكأن زيدًا وَجد مِن ذلك في نَفْسه ، فقال رسول الله ﷺ : " إن الله قد قَبِلَها مِنك"، ذَكَره أسد بن موسى. وأعتقَ ابن عمر نافعًا مَولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار ، قالت صفية بنت أبي عُبَيد : أَظُنُّه تأوَّلَ قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَن تنالوا البِرَّ حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . وروى شِبْل عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعريِّ أن يبتاع له جارية مِن سَبْي جَلُولاء ـ قرية على شاطئ الفرات ـ يوم فتح مدائن كِسرى في قتال سعد بن أبي وقاص ، فدعا بها عمر فأعجبته ، فقال : إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول : ﴿ لَن تنالوا البِرَّ حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، فأعتقها عمر ـ رضي اللهُ عنه ـ . ورُوِيَ عن الثَّوري أنه بَلَغه أن أُمَّ ولد الربيع بن خَيْثَم قالت : كان إذا جاءه السائل ، يقول لي : يا فُلانة ، أَعطي السائل سُكَّرًا ، فإن الربيع يُحِب السُّكَّر . قال سُفيان : يتأوَّل قَوله جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ لَن تنالوا البِرَّ حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، ورُوِيَ عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالاً مِن سُكَّر ، ويتصدَّق بِها ، فَقِيل له : هَلاَّ تَصَدَّقْتَ بِقِيمتها ؟ ، فقال : لأن السُّكر أحب إِلَيَّ ، فأردتُ أن أُنفِق مِمَّا أُحِب . وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تُحِبُّون ، إلا بترك ما تَشتهون ، ولا تُدرِكوا ما تأملون ، إلا بالصبر على ما تَكرهون)) اهـ .

وعلى الإنسان أن يحرص على الإنفاق والتَّصَدُّق في حياته وحال الصحة ، ولا يَنتظر الموت كَي يَأتيَه ، مِن أجل البذل والإنفاق.فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رَجل إلى النبيِّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أَيُّ الصدقةِ أعظمُ أجْرًا ؟ ، قال : ((أن تَصَدَّقَ وأنتَ صَحِيحٌ شَحِيح ، تَخشى الفقر، وتَأمُلُ الغِنى، ولا تُمْهِلُ حتى إذا بَلَغَت الْحُلْقُوم ، قُلتَ : لِفُلان كذا ، وَلِفُلان كذا ، وقد كَان لِفُلان))[20].

ينبغي الْمُسارَعة إلى عمل الخيرات،وبذل الصدقات، والإنفاق في سبيل الله،قبل أن تَبلغ الرُّوحُ الحلقومَ،ويبدأ العبدُ حينئذٍ بالحسرة وتمنِّي تدارُك ما فاته من أعمال البِر.فما دام في العُمر فُسحةٌ فعلى المرء أن يستغلها على أكمل وجه قبل أن يغرق في الاحتضار، وتُفارِق الرُّوحُ البدنَ ، ويُصبح في عِداد الموتى الذين انقطعت أعمالهم،وحان وقتُ حصاد ما زرعوه دون أيَّة فرصة للتعويض.

---

(٢٠) متفق عليه. البخاري (٢/ ٥١٥) برقم (١٣٥٣)،ومسلم (٢/ ٧١٦) برقم (١٠٣٢).

إن أفضل الصدقة هي صدقة الصَّحيح الشَّحيح ، الذي يتمتَّع بالصِّحة والعافية والنشاط ، ولا يُعاني مِن أيِّ مرض يَقطع أمَلَه في الحياة ، والذي مِن شأنه الشُّح ، وهو البُخل مع الحرص . يَخاف من الفقر ويَحسِب له حِسابًا ، ويَطمع في الغنى ويَرجو امتلاك الثروة . ومعنى " ولا تُمْهِلُ حتى إذا بَلَغَت الْحُلْقُوم " : لا تُؤخِّر ولا تُؤجِّل حتى بُلوغ الرُّوح الحلق ، والمراد الشُّعور باقتراب الموت. وعندئذٍ، تُحاوِل أن تُسابِق الزمن ، وتتدارك ما فات بعد فوات الأوان، وتُوصِي لِفُلان ، وتتصدَّق على فُلان . " وقد كَان لِفُلان " أي : أصبح مَالُكَ مِلْكًا لِغَيرك، وهُم وَرثتك . وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٢٣) : ((قال الخطابي : فمعنى الحديث أن الشُّح غالب في حال الصِّحة ، فإذا شَحَّ فيها وتَصَدَّقَ كان أصدق في نِيَّته وأعظم لأجره ، بِخِلاف مَن أشرف على الموت وآيَسَ مِن الحياة ، ورأى مصير المال لِغَيره، فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حالة الصِّحة والشُّح ، رَجاء البقاء وخوف الفقر ، " وتأمُل الغِنى " بضم الميم أي تطمع به . ومعنى " بَلَغَت الحلقوم " بَلَغَت الرُّوح ، والمراد: قاربت بُلوغ الحلقوم ، إذ لو بلغته حقيقةً لَم تَصِحَّ وَصِيَّته ولا صدقته ، ولا شيء مِن تصرُّفاته باتفاق الفقهاء . وقَوله ﷺ : " لِفُلان كذا ولِفُلان كذا ألا وقد كان لِفُلان ". قال الخطابي: المراد به الوارث.وقال غَيره: المراد به سَبْق القضاء به للمُوصَى له . ويُحتمَل أن يكون المعنى أنه قد خرج عن تصرُّفه ، وكمال مِلْكه ، واستقلاله بما شاء مِن التصرف ، فليس له في وصيته كبير ثواب ، بالنسبة إلى صدقة الصَّحِيح الشَّحِيح)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧٤) : ((وفي الحديث أن تَنجيز وفاء الدَّيْن والتَّصَدُّق في الحياة وفي الصحة أفضل مِنه بعد الموت ، وفي المرض . وأشار ﷺ إلى ذلك بِقَوله: " وأنت صَحيح حريص تأمُل الغِنى ... " إلخ ، لأنه في حال الصحة يَصعُب عليه إخراج المال غالبًا لِمَا يُخوِّفه به الشيطان ، ويُزيِّن له مِن إمكان طول العُمر ، والحاجة إلى المال ، كما قال تعالى : ﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] . وأيضًا فإن الشيطان ربما زَيَّن له الْحَيْف في الوصية أو الرجوع عن الوصية ، فيتمحَّض تفضيل الصدقة الناجزة. قال بعض السلف ـ عن بعض أهل التَّرَف ـ : يَعْصُونَ اللهَ في أموالهم مرتين ، يَبخلون بِها وهي في أيديهم ، يعني في الحياة ، ويُسْرِفون فيها إذا خَرجت عن أيديهم ، يعني بعد الموت . وأخرج الترمذي بإسناد حسن وصحَّحه ابن حِبَّان عن أبي الدَّرداء مرفوعًا قال : " مَثَلُ الذي يُعتِق ويَتصدَّق عِند مَوْته مَثَلُ الذي يُهْدِي إذا شَبِعَ ". وهو يرجع إلى معنى حديث الباب. وروى أبو داود وصحَّحه ابن حِبَّان من حديث أبي سعيد الْخُدْرِيِّ مرفوعًا: " لأن يَتَصَدَّقَ الرَّجل في حياته وصِحَّته بِدِرْهم ، خَيْرٌ له مِن أن يَتصدَّق عِند مَوْته بمائة ")) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ يُنفِقُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ﴾[آل عِمران : ١٣٤] .

يُبيِّن اللهُ صِفة أهل الجنة ، ويَمدحهم ، ويُخلِّد ذِكرهم. إنهم المؤمنون المتَّقون الذين يَبذُلون أموالهم لوجه الله في كل الأحوال ، في اليُسر والعُسر ، وفي الرخاء والشِّدة ، وكثرة المال وقِلَّته .

وهذا يعني أنهم مشغولون بالإنفاق والتَّصَدُّق في سبيل الله، وحريصون أشدَّ الحِرص على بَذل أموالهم في الطاعات.والمرءُ إمَّا أن يَكون في رخاء أو شِدَّة ، ولا يَخلو عن مَسَرَّة أو مَضَرَّة . وهذا يعني أنهم يُنفِقون ما قَدِرُوا عليه في الأحوال كُلِّها ، سواءٌ كان كثيرًا أم قليلاً .

وفي الآية دليل على تميُّزهم عن غَيرهم، فهُم مؤمنون أتقياء يَمتازون بالكَرَم والسَّخاء. وقلوبهم مُعلَّقة بعبادة الله وطاعته . لَم يَجعلهم الرَّخاء مُتكبِّرين مَغرورين غارقين في الشهوات والمعاصي ، ولَم تَجعلهم الشِّدة بُخَلاء حريصين على تخزين المال ، وعدم إنفاقه في طاعة الله تعالى .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٣٧) : ((يعني جَلَّ ثناؤه بِقَوله : ﴿ الذينَ يُنفِقُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ﴾ . أُعِدَّت الجنة التي عَرْضها السماوات والأرض للمُتَّقين ، وهُم الْمُنفِقون أموالهم في سبيل الله ، إمَّا في صَرْفه على مُحتاج ، وإمَّا في تَقوية مُضْعِف على النهوض لجهاده في سبيل الله. وأمَّا في قَوله: ﴿ في السَّرَّاءِ ﴾، فإنه يعني:في حال السُّرور بكثرة المال ورَخاء العَيش. و﴿ السَّرَّاءِ ﴾ مَصْدَر مِن قَوْلهم : سَرَّني هذا الأمر مَسَرَّةً وسُرورًا . ﴿ والضَّرَّاءِ ﴾ مَصْدَر مِن قَوْلهم : قَد ضُرَّ فُلان، فهو يُضَرُّ ، إذا أصابه الضُّر ، وذلك إذا أصابه الضِّيق والْجَهْد (المشقة) في عَيْشه)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٠٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ الذينَ يُنفِقُونَ ﴾ هذا مِن صِفة المتَّقين الذين أُعِدَّت لهم الجنة ، وظاهر الآية أنها مدح بفعل المندوب إِلَيه ، و﴿ السَّرَّاءِ ﴾ اليُسر، ﴿ والضَّرَّاءِ ﴾ العُسْر ، قاله ابن عباس والكلبي ومقاتل . وقال عُبَيد بن عُمَير والضَّحاك : السَّراء والضَّراء : الرَّخاء والشِّدة . ويُقال: في حال الصحة والمرض ، وقِيل: في السَّراء في الحياة ، وفي الضَّراء ، يعني يُوصِي بعد الموت . وقِيل: في السَّراء في العُرس والولائم ، وفي الضَّراء في النوائب والمآتم . وقِيل: في السَّراء النَّفقة التي تَسُرُّكم مِثل النفقة على الأولاد والقَرابات ، والضَّراء على الأعداء . ويُقال : في السَّراء ما يُضِيف به الفتى ويُهْدى إِلَيه ، والضَّراء ما يُنفِقه على أهل الضُّر ، ويتصدَّق به عليهم . قُلتُ ــ أي القرطبي ــ : والآية تَعُمُّ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذا أثمرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ولا تُسْرِفوا إنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِين ﴾ [الأنعام : ١٤١] . كُلوا أيها الناسُ مِن رُطَبه وعِنَبه ، وهذا أمر إباحة . وأعطوا الفقيرَ والمِسكين مِن ثمره يوم الحصاد ، يعني : العُشْر ونِصف العُشْر . وإيتاء الحق واجب .

هذا أمرٌ إلهيٌّ بإيتاء الزكاة (الصدقة المفروضة) مِن الثمر . ولا تُبَذِّرُوا ولا تُسْرِفوا بإعطاء كُلِّه للناس فلا يَبقى لأهلكم وأولادكم شيء . إن اللهَ لا يُحِب الذينَ يَتجاوزون أمْرَه ، وَيَتَعَدَّوْنَ حُدودَه. وبشكل عام، ينبغي أن يَكون الإنفاقُ والإعطاء بتوازن واعتدال ، بلا إفراط ولا تفريط . والآيةُ تنهى عن التبذير والإسراف في كُل شيء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٣٥و١٣٦): ((قَوله تعالى: ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذا أثمرَ ﴾ هذا أمر إباحة . وقِيل : إنما قَدَّمَ الأكلَ لِيَنهى عن فِعل الجاهلية في زُروعهم من تحريم بعضها . قَوله تعالى : ﴿ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ . وفي المراد بهذا الحق قَولان : أحدهما أنه الزكاة ، رُوِيَ عن أنس بن مالك وابن عباس وسعيد بن المسيِّب والحسن وطاووس وجابر بن زيد وابن الحنفية وقتادة في آخرين ، فعلى هذا الآية مُحْكَمَة . والثاني أنه حَق غَير الزكاة فُرِض يوم الحصاد ، وهو إطعام مَن حَضَر ، وتَرْك ما سَقَط مِن الزَّرع والثمر ، قاله عطاء ومجاهد . وهل نُسِخ ذلك أَم لا ؟ ، إن قُلنا إنه أمر وجوب، فهو منسوخ بالزكاة، وإن قُلنا إنه أمر استحباب فهو باقي الْحُكْم . فإن قِيل : هل يجب إيتاء الحق يوم الحصاد ؟ ، فالجواب : إن قُلنا إنه إطعام مَن حَضَر مِن الفقراء ، فذلك يكون يوم الحصاد ، وإن قُلنا إنه الزكاة ، فقد ذُكِرت عنه ثلاثة أجوبة : أحدها أن الأمر بالإيتاء محمول على النخيل ، لأن صدقتها تجب يوم الحصاد ، فأمَّا الزُّروع فالأمر بالإيتاء منها محمول على وجوب الإخراج، إلا أنه لا يمكن ذلك عند الحصاد، فَيُؤخَّر إلى زمان التَّنقية ، ذَكَرَه بعض السَّلَف. والثاني أن اليوم ظَرْف للحق لا للإيتاء ، فكأنه قال : وآتوا حقه الذي وَجب يوم حصاده بعد التَّنقية . والثالث أن فائدة ذِكر الحصاد أن الحق لا يَجِب فيه بنفْس خُروجه وبُلوغه ، إنما يجب يوم حُصوله في يد صاحبه، وقد كان يَجوز أن يُتوهَّم أن الحق يَلزم بنفْس نباته قبل قطعه ، فأفادت الآية أن الوجوب فيما يحصل في اليد دون ما يُتلَف، ذَكَرَ الجوابين القاضي أبو يعلى. وفي قَوله : ﴿ ولا تُسْرِفوا ﴾ ستة أقوال: أحدها أنه تجاوز المفروض في الزكاة إلى حَد يُجْحِف به، قاله أبو العالية وابن جُرَيج . وروى أبو صالح عن ابن عباس أن ثابت بن قَيْس بن شَمَّاس صَرَمَ (قَطَعَ) خمسمائة نخلة ، ثُمَّ قسمها في يوم واحد ، فأمسى ولَم يترك لأهله شيئًا ، فَكَرِهَ اللهُ تعالى له ذلك، فَنَزلت : ﴿ ولا تُسْرِفوا إنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفين ﴾ . والثاني أن الإسراف مَنْع الصدقة الواجبة ، قاله سعيد بن المسيِّب. والثالث أنه الإنفاق في المعصية، قاله مجاهد والزُّهري. والرابع أنه إشراك الآلهة في الحرث والأنعام، قاله عطية العَوفي وابن السائب .والخامس أنه خطاب للسلطان لئلا يأخذ فوق الواجب من الصدقة، قاله ابن زيد.والسادس أنه

الإسراف في الأكل قبل أداء الزكاة، قاله ابن بحر)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنما الصَّدَقَاتُ للفُقَراءِ والمساكينِ والعَامِلِينَ عَلَيْهَا والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم وفي الرِّقَابِ والغارِمِينَ وفي سَبيلِ اللهِ وابْنِ السَّبيلِ فَريضةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكيم﴾ [التَّوبة: ٦٠] (21).

لقد قَصَرَ اللهُ جِنس الصدقات على هذه الأصناف الثمانية فقط ، وحَصَرَه فيهم . فهي لهم ، ومُختصة بهم ، وليس لِغَيرهم . ويَجوز أن تُصرَف الزكاة إلى الأصناف كُلِّها ، ويَجوز أن تُصرَف إلى بعضها . وفي أيِّ صِنف وُضِعت الزكاة ، فقد أجزأك ، وبَرِئت الذِّمة .

هذه القِسمةُ تجسيد للعدالة الرَّبانية ، فهي قِسمةٌ إلهية ، ولَم تنبع مِن اجتهاد النبيِّ ﷺ . فاللهُ تعالى هو الذي حَكَم فيها وَتَوَلاَّها بنفْسه . لذلك لا يمكن الاعتراض عليها . وكما قال الشاعر :

فاقْنَع بِما قَسَمَ الْمَليكُ فإنما قَسَمَ الخلائِقَ بَيْننا عَلاَّمُها

لقد أعطى اللهُ الأموالَ لبعض الناس ، وحَرَم آخرين مِنها ، وَفْق مشيئته النافذة ، وحِكمته البالغة . وأمرَ الأغنياءَ أن يُؤدُّوا حقَّ مالهم ، ويَقوموا بِشُكر النِّعمة الإلهية ، وذلك بإخراج الزكاة (الصدقة المفروضة) للمُستحقين لها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٧٩) : ((لَمَّا ذَكَر تعالى اعتراض المنافقين الجهَلة على النبيِّﷺ ولَمْزهم إيَّاه في قَسْم الصدقات ، بيَّن تعالى أنه هو الذي قَسَمَها ، وبيَّن حُكمها ، وتَوَلَّى أمرها بنفْسه ، ولَم يَكِل قَسْمَها إلى أحد غَيْره ، فجزَّأها لهؤلاء المذكورين)) اهـ .

وقد بيَّنت الآيةُ الكريمة مصارف الزكاة (الأصناف المستحقة لها) وهي ثمانية أصناف :

١_ ٢_ الفقراء والمساكين : هُم المحتاجون الذين لا يَجِدون كفايتهم ، ويُقابِلهم الأغنياء الْمَكْفِيُّون ما يَحتاجون إليه . وهؤلاء المحتاجون في أَمَسِّ الحاجة إلى المساعدة المالية مِن قِبَل إخوانهم الأغنياء . فتأتي الزكاةُ لردم أي ثغرة في المجتمع، مِن أجل تحويل الأفراد إلى عناصر إيجابية بَنَّاءة لا هَدَّامة ، تَملك كفايتها ، ولا تمدُّ الأيدي إلى الناس، أو تلجأ إلى وسائل الكسب الحرام .

---

(٢١) اللام في ﴿ للفُقَراءِ ﴾ للمِلْك ، أو الاستحقاق ، أو بتقدير مفروضة ، كما يدل عليه آخر الآية : ﴿ فَريضةً مِنَ اللهِ ﴾ .

وتَمَّ تقديم الفقراء على المساكين ، لأنهم أحْوَج مِن غَيرهم ، وأسوأ حالاً ، وأشد حاجةً . والفقراء هُم الْمُتَعَفِّفُون عن السؤال ، والمساكين هُم الذين يَسألون ويَطوفون على الناس .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٥٥و٤٥٦) : ((اختلفوا في صفة الفقير والمِسكين على سِتَّة أقوال : أحدها أن الفقير الْمُتَعَفِّف عن السؤال ، والمِسكين الذي يَسأل ، وبِه رَمَق ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وجابر بن زيد والزُّهري والحكم وابن زيد ومُقاتل . والثاني أن الفقير المحتاج الذي به زَمَانة ، والمِسكين المحتاج الذي لا زَمَانة به ، قاله قتادة . والثالث الفقير المهاجر ، والمِسكين الذي لَم يُهاجر ، قاله الضَّحاك بن مُزاحم والنَّخعي . والرابع الفقير فقير المسلمين ، والمِسكين من أهل الكتاب ، قاله عِكرمة . والخامس أن الفقير مَن له البُلغة مِن الشيء ، والمِسكين الذي ليس له شيء ، قاله أبو حنيفة ... . والسادس أن الفقير أَمَسُّ حاجةً مِن المسكين ، وهذا مذهب أحمد ، لأن الفقير مأخوذ من انكسار الفَقَار ، والْمَسْكَنة مأخوذة مِن السُّكون والخشوع ، وذلك أبلغ . قال ابن الأنباري : ويُرْوَى عن الأصمعي أنه قال : المِسكين أحسن حالاً مِن الفقير . وقال أحمد بن عُبَيد : المِسكين أحسن حالاً مِن الفقير ، لأن الفقير أصله في اللغة المفقور، الذي نُزِعَت فِقَره مِن فِقَر ظَهْره ، فكأنه انقطع ظَهْره مِن شِدَّة الفقر)) اهـ.

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنهما ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((لا تَحِلُّ الصَّدقةُ لغنيٍّ ، ولا لِذِي مِرَّةٍ قَوِيٍّ)) [22].

إن منهج الصدقات قائم على مساعدة الفقراء والضعفاء ، والطبقاتِ المتدنية . أمَّا الأغنياء والأقوياء فهُم قادرون على الكسب ، ولا يَحتاجون إلى مساعدة الآخرين . لذلك ، لا نصيب لهم في الزكاة التي شُرِعت لتقوية الضعفاء وإخراجهم مِن ذُل الحاجة، ومُساعدةِ الفقراء وجعلهم أغنياء لا يَنتظرون أحدًا يَمُدُّ لهم يَدَ العَون . والمِرَّةُ هي القُوَّة والشِّدة .

وفي الحديث أنَّ رَجُلَيْن أتَيَا النبيَّ ﷺ يسألانه مِن الصدقة، فقلَّب فيهما البصر، ورآهما جَلْدَيْن ، فقال : ((إن شِئتما أعطيتكما ، ولا حَظ فيها لغنيٍّ ، ولا لقويٍّ مُكتسِب)) [23].

---

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٥٦٥) برقم (١٤٧٨) وصحَّحه . وحسَّنه الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٠٨) .

(٢٣) رواه أحمد في مُسنده (٤/ ٢٢٤) برقم (١٨٠٠١) . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٧٩) : ((رواه أحمد وأبو داود والنَّسائي بإسناد قوي)) .

هذان الرَّجلان طَلَبا مِن النبيِّ ﷺ أن يُعطيَهما شيئًا من الصَّدقة ، فَدَقَّقَ النبيُّ ﷺ النظرَ فيهما ، فرآهما قَوِيَّيْن . وقد بَيَّنَ لهما أن لا نصيب في الصدقة لغنيٍّ ولا لقويٍّ يَكتسب قَدْرَ كِفايته .

وفي عَون المعبود (٥/ ٢٩) : ((والحديث قَوَّاه أبو داود والنَّسائي . وقال أحمد بن حنبل : ما أجْوَده مِن حديث . قال الطيبي : أي لا أُعطيكما ، لأن في أخذ الصدقة ذِلَّة ، فإن رضيتما بها أعطيتكما ، أو أنها حرام على الْجَلْد (الشخص القوي) ، فإن شِئتما تناول الحرام أعطيتكما. قاله توبيخًا وتغليظًا.اهـ.والحديث من أدلة تحريم الصدقة على الغني،وهو تصريح بمفهوم الآية))اهـ .

إن الأغنياء والأقوياء القادرين على العمل والكَسْب ، لا يَجوز إعطاؤهم شيئًا مِن الزكاة ، لأنهم قادرون على توفير مصادر دخل كريمة لأنفسهم وأُسرهم ، فهم لا يحتاجون إلى مساعدة مالية مِن أي نوع .

٣ــ العاملون عليها : وهُم السُّعاة الذين يَعملون على جمع الزكاة مِن الأغنياء ، وتحصيلها ، وحفظها ، والقيام بشؤونها ، ووضعها في مُستحقيها . ويُعْطَوْنَ ذلك بسبب عملهم وسِعايتهم ، سواءٌ كانوا أغنياء أَم فقراء . وأجرهم يَكون على قَدْر عملهم وتعبهم ، وليس ما يَأخذونه بزكاة ، وإنما أُجرة لأنهم عَطَّلوا أنفسهم لمصلحة الفقراء .

وفي فتح الباري (٣/ ٣٦٥) : ((قال ابن بطال : اتفق العلماء على أن العاملين عليها السُّعاة الْمُتَوَلون لقبض الصدقة)) اهـ .

وعن أبي حُمَيد السَّاعديِّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : استعملَ رسولُ الله ﷺ رَجلاً مِن الأَسْدِ على صَدَقات بني سُلَيم ، يُدعَى ابن اللُّتْبِيَّة ، فلمَّا جاء حاسبه [24].

لقد عَيَّنَ النبيُّ ﷺ هذا الصحابِيَّ في وَظيفة جَمْع الصَّدقات (الزكاة) وتحصيلها ، ووكَّله على ذلك . وعندما جاء ، حَاسَبَه النبيُّ ﷺ مُحاسَبة العُمَّال لِيَعلم ما قَبَضَه وما صَرَفَه . فالحقوقُ الماليةُ يجب أن تكون محفوظة ومنضبطة ، ولا مجال فيها للتلاعب أو السرقة أو الفساد . وفي فتح الباري (٣/ ٣٦٦):((واللُّتْبِيَّة مِن بني لُتْب،حَي مِن الأَزْد،قاله ابن دُرَيد.قِيل إنها كانت أُمَّه،فَعُرِف بها)). وقال السَّيد سابق في فقه السُّنة (١/ ٣٦٥) : ((ويجب أن يكونوا ــ يعني العاملين عليها ــ مِن المسلمين، وأن لا يكونوا مِمَّن تَحْرُم عليهم الصدقة، مِن آل رسول الله ﷺ، وهُم : بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب)) اهـ .

---

(٢٤) متفق عليه. البخاري (٢/ ٥٤٦) برقم (١٤٢٩)، ومسلم (٣/ ١٤٦٣) برقم (١٨٣٢) .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٥٦) أن النبيَّ ﷺ قال : ((إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس)) .

الصدقةُ تنقيةٌ لأموال الناس، وتنظيفٌ لذواتهم، وكأنها غَسْلٌ لأوساخهم ، وجَبْرٌ لتقصيرهم. وينبغي على المسلمين الاقتداء بالنبيِّ ﷺ في عدم أخذ الصدقة ولا الزكاة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٧٩) : ((قَوله ﷺ : " إنما هي أوساخ الناس " ، تنبيه على العِلَّة في تحريمها على بني هاشم وبني المطَّلب ، وأنها لكرامتهم وتنزيههم عن الأوساخ ، ومعنى " أوساخ الناس " أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم ، كما قال تعالى : ﴿ خُذْ مِن أموالِهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهِم بِها ﴾ [التَّوبة : ١٠٣] ، فهي كغسَّالة الأوساخ)) اهـ .

إن أخذ الصدقة مَنْزلة ضعيفة ومُتَدَنِّية تمسُّ الكرامةَ الإنسانية ، والأنبياءُ أصحاب المكانة السَّامية أعظم مِن أن يَمُدُّوا أيديهم لِمَن هُم دُونَهم . واللهُ تعالى أَغنى الأنبياءَ مِن فضله العظيم ، وجَعَلهم لا يَمُدُّون أيديهم إلا إِلَيه سُبحانَه، ومَن كان اللهُ سَيِّدَه ، لا يَبحث عن مُساعدة سَيِّد آخر .

وفي فتح الباري (٥/ ٢٠٤) : ((قال ابن بطال : إنما كان النبيُّ ﷺ لا يَأكل الصدقة ، لأنها أوساخ الناس . ولأن أخذ الصدقة مَنْزلة ضَعَة (ذُل) ، والأنبياءُ مُنَزَّهون عن ذلك ، لأنه ﷺ كان كما وصفه الله تعالى :﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [الضُّحى : ٨]. والصدقة لا تَحِل للأغنياء، وهذا بخلاف الهدية ، فإن العادة جارية بالإثابة عليها)) اهـ .

٤ـ الْمُؤلَّفة قُلُوبُهم: مِن التأليف (التجميع) . وهُم جماعة من الناس يُهدَف إلى تأليف قلوبهم واستمالتهم. وهؤلاء يُعْطَوْنَ مِن الزكاة، لِيُسلموا أو لتثبيت إسلامهم . وقد استألفَ النبيُّ ﷺ قومًا من أشراف العرب ، لِيَرُدُّوا عنه قومهم ، ويُساعدوه على عَدُوِّه .

وقد كان المؤلفة قلوبهم مِن المسلمين والكافرين ، يتمُّ استيلافهم لجلب منفعة للإسلام ، أو دفع عنه مَضَرَّة ، وحُكمهم ثابت وباقٍ إذا وُجِدت حاجة وضرورة لهم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٦١): ((أَمَّا اليوم فقد أعزَّ اللهُ الإسلامَ ، فله الحمد ، وأغناه أن يُتَألَّف عليه رِجال، فلا يُعطَى مشرك تَأَلُّفًا بحال.وقد قال بهذا كثير مِن أهل العِلم:إن المؤلفة مُنقطعة، وسَهمهم ساقط . رُوِيَ ذلك عن عِكرمة ، وهو قول الشَّعبي ، وبِه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي وإسحاق بن راهويه . وقال قوم : سَهمهم ثابت، يُروَى ذلك عن الحسن، وهو قول الزُّهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثَور، وقال أحمد : يُعْطَوْنَ إن احتاج المسلمون إلى ذلك)) اهـ .

ومِن المؤلفة قلوبهم مَن يُرجَى إسلامهم وحُسن حالهم إذا أُعْطُوا من المال ، وهؤلاء يَكون لهم أتباع يُسلِمون بإسلامهم ، ولهم دَور في نُصرة الإسلام والمسلمين . أو مَن أسْلَمُوا حديثًا (يعني جديدي الدخول في الإسلام) ، وفي إسلامهم ضعف ، لأن الإسلام لَم يتمكَّن في قلوبهم ، فَيُعْطَوْنَ مِن المال، ويُرجَى حُسن حالهم بإعطائهم . ومِنهم مَن يُعطَى لِمَا يُرجَى مِن إسلام نظرائهم، ومِنهم مَن يُعطَى لِيَجمع الصدقاتِ مِن أقاربه وعشيرته ، أو لِيُدافع عن الإسلام والمسلمين ، ويَدفع عنهم الضَّرَر مِن أطراف البلاد .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٤٧) : عن أنس ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((إنِّي أُعْطِي قُرَيْشًا ، أَتَأَلَّفُهُم ، لأنهم حَدِيثُ عَهْدٍ بجاهلية)) .

لقد كان النبيُّ ﷺ يُعْطِي قُرَيَشًا المالَ، طالبًا لإلفهم، ومِن أجل جلبهم إلى الدِّين الحق (الإسلام) وتثبيتهم عليه ، وذلك باستمالة قلوبهم بالإحسان إليهم ، وإكرامهم ، والإنعام عليه . وهُم قريب العهد بالكفر ، ولَم يَمْضِ على إسلامهم زَمَن يَتمكَّن فيه الإيمان في قلوبهم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ٢٢) : ((قال العلماء: الجاهلية ما قبل وُرود الشَّرْع ، سُمُّوا جاهلية لكثرة جَهالاتهم وفُحشهم)) اهـ .

والمؤلفةُ قلوبهم أصناف . مِنهم مَن يُعطَى لِيُسْلِم . فالأموال التي تُعطَى لهم تهدف إلى إبراز وجه الإسلام المشرق الذي يحتوي أبناءه ويُغنيهم مِن فضل الله تعالى، ولا يتركهم فقراء محتاجين. كما أن البعض قد يَفقد أموالَه في حال اعتناقه للإسلام . فالأسرة أو القبيلة قد تمارس ضغطًا هائلاً على الفرد الذي يَعتنق الإسلامَ ، فيُصادِرون أمواله وممتلكاته كي يَرُدُّوه عن الإيمان . لذلك يُعطَى من المال كي ينفتح قلبُه للإيمان دون وجود عوائق مادية ، أو حواجز نفسية ، أو إشكاليات من أي نوع تؤثر سلبًا على مسار الدعوة .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٤٨) : عن عبد الله ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((لَمَّا كان يوم حُنَين ، آثرَ النبيُّ ﷺ أُناسًا في القِسْمة ، فأعطى الأقرعَ بن حابس مائة مِن الإبل ، وأعطى عُيَينة مِثْلَ ذلك ، وأعطى أُناسًا مِن أشراف العرب ، فآثرهم يَومئذٍ في القِسمة)) .

إنَّ النبيَّ ﷺ قد طبَّق على أرض الواقع منهجية إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ، لذلك اختارَ أشخاصًا مُحدَّدين ، وخصَّهم بالمال دُون غَيرهم . والمقصود بالقِسمة : قِسمة الغنيمة .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٦): عن ابن شهاب قال : ((غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح ، فتح مكة . ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين ، فاقتتلوا ــ أي مع الكفار ــ بِحُنَيْن ،

فنصرَ اللهُ دينه والمسلمين ، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صَفْوان بن أُمَيَّة مائة مِن النَّعَم ، ثُمَّ مائة ، ثُمَّ مائة)) . وعن سعيد بن المسيِّب أن صفوان قال : ((والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغضُ الناس إلَيَّ ، فما بَرِحَ يُعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إلَيَّ)) .

إن الإسلام يُقدِّم الحوافز التشجيعية للآخرين ، ولا يتركهم ضحيةً لهواجسهم ومخاوفهم . فإعطاءُ المال لصفوان بن أمية أظهر محاسنَ الإسلام ، وفتح قلبَه لمحبة النبيِّ ﷺ ، لأن النفوس مجبولة على حُب مَن أحسنَ إليها. فليست هذه رِشوةً لتغيير عقائد الناس، أو شراء ولائهم، أو خداعهم . وليست ـ كذلك ـ وصفةً تجميلية للدِّين . فالإسلامُ جميلٌ لا يحتاج إلى وصفات ، ولا يحتاج إلى الآخرين ، فهم الذين يحتاجونه لكي ينالوا سعادة الدنيا ونعيم الآخرة .

والقضيةُ هي أن منح المال يُدخِل الطمأنينة والأمان إلى النفس البشرية المجبولة على حب المال ، وهذا يؤدي إلى انشراح الصدر لسماع الحق واعتناقه دون الانشغال بالأمور المادية ، أو حصر التفكير بطرق جمع المال لتأمين المستقبل وتوفير الحماية من المجهول ، كما يفعل الكثيرون . فالمرءُ حِين يَتحرَّر مِن ضَغط الأمور المادية والحاجات المعيشية، فإنه يَتفرَّغ للتفكير بمعالَم الحق واعتناقه . ومِن المؤلفة قلوبهم مَن يُعطَى لِيَحْسُن إسلامُه ويثبت على الحق . وهؤلاء يُعْطَوْن ليزدادوا طُمأنينةً وثباتًا على الإسلام ، ويبتعدوا عن التأثيرات السلبية للمال ، ويُركِّزوا في تدعيم أركان إيمانهم دون تأثيرات مادية ضاغطة على عقائدهم ، قد تُؤدِّي إلى إعادتهم إلى الكفر بفعل الضغوط الاقتصادية ، لأن الفقر والكفر وجهان لعملة واحدة . وعن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: ((بَعَثَ عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله ﷺ مِن اليمن بِذُهَيْبَةٍ في أدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَم تُحَصَّلْ مِن تُرابها، فَقَسَمَهَا بين أربعة نَفَر، بين عُيَيْنةَ بن بَدْر ، وأقرعَ بن حابس ، وزَيدِ الخيل ، والرابع إمَّا عَلْقَمة، وإمَّا عامرُ بن الطُّفَيْل)) [25]. لقد بَعَثَ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ إلى النبيِّ ﷺ من اليمن بقطعة مِن الذهب (والذُّهَيْبَة تصغير ذَهَبة)، في جِلْد مَدْبُوغ أو مصبوغ بالقَرَظِ (نبات معروف لديهم) . وهذه القطعةُ لَم تَصْفُ مِن تُراب مَعدنها ، ولا يَزال آثار التراب عليها . وهذا يدل على أمانة عليٍّ ـ رضي اللهُ عنه ـ ، وحِرصه على كُل صغيرة وكبيرة .

---

(٢٥) متفق عليه. البخاري(٤/ ١٥٨١)برقم (٤٠٩٤)، ومسلم (٢/ ٧٤١) برقم (١٠٦٤). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٦٢) : ((قال العلماء: ذِكْر عامر هنا غلط ظاهر ، لأنه تُوُفِّيَ قبل هذا بسنين ، والصواب الجزم بأنه عَلْقَمة بن عُلاثة)) اهـ .

وقد قَسَمَها النبيُّ ﷺ بين أربعة أشخاص تحديدًا، لاستمالة قلوبهم بالإحسان إليهم ، وإكرامهم، وإظهار تقديرهم واحترامهم ، والاعتناء بهم ، ورعايتهم . وفي هذا قُوَّة ونصر للإسلام والمسلمين . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٥٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم ﴾ وهُم قَوم كان رسول الله ﷺ يَتَألَّفهم على الإسلام بِما يُعطيهم ، وكانوا ذَوِي شَرَف ، وهُم صِنفان : مسلمون وكافرون . فأمَّا المسلمون فَصِنفان : صِنف كانت نِيَّاتهم في الإسلام ضعيفة ، فَتَألَّفهم تقوية لِنيَّاتهم كَعُيَيْنة بن حِصْن والأقرع. وصِنف كانت نِيَّاتهم حسنة ، فَأُعْطُوا تَألُّفًا لعشائرهم مِن المشركين مِثل عَدِيِّ بن حاتم . وأمَّا المشركون فَصِنفان : صِنف يقصدون المسلمين بالأذى، فَتَألَّفهم دفعًا لأذاهم مِثل : عامر بن الطُّفَيْل ، وصنف كان لهم مَيْل إلى الإسلام ، تَألَّفهم بالعَطِيَّة لِيُؤمنوا كَصَفْوان بن أُمَيَّة. وحُكمهم باقٍ عند أحمد في رواية، وقال أبو حنيفة والشافعي: حُكمهم مَنسوخ. قال الزُّهري : لا أعلم شيئًا نَسَخَ حُكم المؤلفة قلوبهم)) اهـ .

٥_ الرِّقاب: وهُم الْمُكَاتَبُون يُعْطَوْن مِن مال الزكاة لِفَك رِقابهم مِن الرِّق فيتخلصون من العبودية ، ويُصبحون أحرارًا . وقد يكون فَك الرِّقاب بأن يَشتريَ رِقَابًا ثُمَّ يُعْتِقها (26).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٣) : ((والعُدول عن اللام إلى ﴿ في الرِّقَابِ ﴾ للدَّلالة على أن الاستحقاق للجهة ، لا للرِّقاب . وقِيل : للإيذان بأنهم أحق بها)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٧٩):((وأمَّا الرِّقاب،فَرُوِيَ عن الحسن البصري ومقاتل ابن حَيَّان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جُبَير والنَّخعي والزُّهري وابن زيد، أنهم الْمُكَاتَبُون. ورُوِيَ عن أبي موسى الأشعريِّ نَحْوه، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما. وقال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تُعتِق الرَّقَبة مِن الزكاة ، وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق ، أي أن الرِّقاب أعَم مِن أن يُعْطِيَ الْمُكَاتَب ، أو يَشتريَ رَقَبة فَيُعْتِقها استقلالاً . وقد ورد في ثواب الإعتاق وفَك الرَّقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يُعتِق بكل عُضو منها عُضوًا مِن مُعتِقها حتى الفَرْج بالفَرْج ، وما ذاك إلا لأن الجزاء مِن جِنس العمل.﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنتم تَعْمَلُون﴾[الصَّافات:٣٩])) اهـ .

---

(٢٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٩):((قَوله تعالى: ﴿ وفي الرِّقَابِ ﴾ أي في فَك الرِّقاب. ثم فِيه قَولان: أحدهما أنهم الْمُكَاتَبُون يُعَانون في كِتابتهم بما يُعْتَقُون به، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وهو مرويٌّ عن علي بن أبي طالب والحسن وابن زيد والشافعي. والثاني أنهم عبيد يُشْتَرَوْن بهذا السَّهم ويُعْتَقُون.رواه مجاهد عن ابن عباس وبه قال مالك بن أنس وأبو عُبَيد وأبو ثَور وعن أحمد كالقولين)).

إن المنهج الإسلاميَّ واضح ومتماسك في إعتاق الرِّقاب ، والحث عليه، ونقلِ العبيد مِن الرِّق إلى الحرية، لكنه منهج تدريجي عبر مراحل منطقية لضمان عدم حدوث خلل في المجتمع ، أو فوضى عارمة لا يمكن إصلاحها . فهؤلاء الأرِقَّاء السابقون بحاجة إلى وقت كي يدخلوا في السياق الفكري الحياتي للمجتمع، إذ إنهم ينتقلون من وضع نفسي واجتماعي إلى وضع آخر ذي طبيعة مختلفة ، كما أن المجتمع بحاجة إلى وقت كي يستوعبهم ، ويضعهم في مكانتهم اللائقة ، ويقود الأفرادَ للتعامل معهم بأسلوب صحيح . ومن هنا نفهم منهجية التدرج في تعامل الإسلام مع مسألة الرِّق . إذ إن إقحام العبيد في الحرية مباشرةً دون مقدمات من شأنه تفتيت الأواصر الاجتماعية ، وإحداث اضطراب هائل في المجتمع الذي سيعجز عن استيعابهم وإعطائهم أدوارًا اجتماعية لتحريك عجلة المجتمع ، وصناعة التقدم ، والقيام بعملية الإعمار والتعمير. مِمَّا يؤدي إلى انتكاسة كبرى في النسق الحضاري ، وتراجع مرعب في التنمية ، وانكسار حلم المشروعات الضخمة . والسبب يعود إلى وجود جُزء كبير من المجتمع في حالة شَلَل وعجز ، ويُشكِّل عِبئًا على الآخرين، وهذا الوضعي غير الصحي سيعود بالضرر الشامل على الفرد والجماعة.فليست القضيةُ مسألة شعارات ولافتات تحرُّر وتحرير وجعجعة بلا طحن . إنها قضية أمن قومي لها تماس مباشر مع كل تفاصيل المجتمع ومفاصل الدولة . وبالطبع فإن كل عملية إصلاح بحاجة إلى وقت للتخطيط ورسم السياسات وتطبيقها على أرض الواقع ، وليست فِعلاً ارتجاليًّا أو خُطبةً عصماء أو شعارات رنَّانة ، ثُمَّ ينتهي الأمر .

وعن النبيِّ ﷺ قال : ((ثلاثةٌ حَقٌّ على الله أن يُعينهم : الْمُكَاتَبُ الذي يُريد الأداءَ ...))[27].

لقد تعهَّدَ اللهُ تعالى بإعانة الْمُكَاتَب الذي يسعى إلى تحرير نفْسه مِن الرِّق عبر إعطاء مبلغ من المال لسَيِّده، وهو صادقٌ في أداء هذا المبلغ، لا يريد الهروب أو التحايل. مِمَّا يشير بوضوح إلى منهجية الشريعة في القضاء على ظاهرة الرِّق نهائيًّا عبر خطوات فعَّالة وتدريجية تُفضي إلى ولادة نظام اجتماعي متماسك لا فوضى اجتماعية . وعمليةُ تحرير العبيد لَيْستْ سهلةً ، لأنها متعلقة بالمشاعرِ الإنسانية ، والاستعدادِ النَّفْسي ، والعلاقاتِ الاجتماعية ، والتعقيداتِ على أرض الواقع.

وعن البَراء بن عَازِب_ رضي اللهُ عنه _ قال : جاء أعرابِيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، عَلِّمْني عملاً يُدخلني الجنة . فقال : ((أعْتِق النَّسَمَةَ ، وفُكَّ الرَّقَبَة)) ، فقال : يا رسول الله ، أوَ

(٢٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٣٦) برقم (٢٨٥٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لَيْستا بواحدة ؟ ، قال : ((لا، إن عِتْقَ النَّسَمة أن تفرَّدَ بِعِتقها ، وفَكَّ الرَّقبة أن تُعين في عِتقها))[28]. هذا التوجه النبويُّ لنشر عبادة " عِتق الرِّقاب " في المجتمع ، وتوجيه انتباه الناس إلى هذه القضية الحسَّاسة التي كانت مُهْمَلةً قبل الإسلام، يدل على المنهج الإسلاميِّ في تخليص الناس مِن ذُل الرِّق، وجَعْلهم أحرارًا مُتساوين في الكرامة الإنسانية ، وعلى قَدَم المساواة مع الآخرين دون شعور بالدُّونية أو اللاجدوى . والعبيدُ والجواري في المجتمع الجاهلي كانوا جزءًا من الأثاث لا يُعبَأ بهم ، فيُعامَلون كالدواب أو أقل. فلمَّا جاء الإسلامُ رَفع مِن مكانتهم وسَلَّط الضوء على معاناتهم ، ووضع تشريعات لتخليصهم من أوضاعهم البائسة. وإننا لنجد آياتٍ قرآنية عديدة تتحدث عنهم، وهذا الشرفُ ما كانوا لِيَحصلوا عليه لَوْلا الإسلام .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٣٠١) : (((عِتْق النَّسَمَة أن تنفرد بِعِتقها) أي لا يُشاركك في عِتْقها أحد، بأن ينفذ مِنك إعتاق جميعها،(وفَك الرَّقبة أن تُعين في عِتقها) بأن تُعتِق شِقْصًا (نصيبًا) مِنها ، وتتسبَّب في عِتْقها بوجهٍ ما ... . والنَّسَمَةُ النَّفْس . ووجه الفرق المذكور أن العِتق إزالة الرِّق،وذلك لا يكون إلا من المالك الذي يُعْتِق. وأمَّا الفَك فهو السَّعْي في التخليص، فيكون مِن غَيره، كَمَن أدَّى النَّجْمَ [29] عن الْمُكَاتَب ، أو أعانه فيه ، ذَكَره القاضي)).

٦_ الغارمون : وهُم الأشخاص الخاضعون لِدَيْن لا يَقْدِرون على سداده . وهؤلاء الْمُثْقَلُون بالدُّيون في غَير معصية ولا إسراف ، وليس لَدَيهم وفاء لها ، يُعْطَوْن من مال الزكاة لِسَداد دُيونهم، وتفريجِ كُرباتهم، وقضاءِ حاجاتهم . فالشخصُ الخاضع للدَّيْن تجده مُحَاصَرًا وواقعًا تحت الضغط، فتأتي الزكاة لِتُعيده إلى الوضع الطبيعي المتحرر من ثِقل الحياة الاجتماعية بكل أبعادها النفسية والمادية . والجديرُ بالذِّكر أن مَن كان دَيْنه في معصية ، لا يُدفَع إليه ، إلا إذا تاب .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٣):((﴿ والغارِمِينَ ﴾ والمديونين لأنفسهم، في غَير معصية، ومِن غَير إسراف، إذا لَم يكن لهم وفاء . أو لإصلاح ذات البَيْن، وإن كانوا أغنياء)) اهـ.

وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٢٢) : عن قَبِيصَةَ بنِ مُخَارِقٍ الهِلالِيِّ قال : تَحَمَّلْتُ حَمَالَة ، فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال : ((أَقِمْ حتى تَأتِيَنا الصَّدقة ، فَنَأمُرَ لَكَ بِها)) .

---

(٢٨) رواه أحمد في مُسنده (٤/ ٢٩٩) برقم (١٨٦٧٠)، والحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٣٦) برقم (٢٨٦١) وصحَّحه، ووافقه الذهبي . وصحَّحه الحافظ في الفتح (٥/ ١٤٦) .

(٢٩) النَّجْم : الوقت الْمُعَيَّن لأداء دَيْن أو عمل .

هذا الصحابيُّ الذي عليه دَيْنٌ أدركَ أن الشريعةَ الإسلامية لن تتركه يَغرق ، ولن تُغلق الأبوابَ في وجهه . فجاء إلى النبيِّ ﷺ طالبًا العَوْن ، فقرَّرَ النبيُّ ﷺ إعطاءه من الزكاة حينما تأتيه . وهذا تجسيدٌ فِعلي لا شعاراتي للتكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم الذي يحضن أبناءه ولا يُميِّز بينهم . والمسلمُ يَعلم أن له دولةً تُؤويه وتُدافع عنه، وإذا وقع فإنها ستُقيل عثرته ، وتنتشله من مأزقه . وهذا يبعث الطمأنينة في نفوس الرَّعِيَّة ، ويزيد من انتمائهم لمجتمعهم الإيماني ، ويُقوِّي الروابط بين الحاكم والمحكوم، وبين المحكوم والتعاليم الشرعية . فالمجتمعُ الإيماني الحامل للفكرة الإسلامية نظريةً وتطبيقًا لا يمكن أن يكون طاردًا لأبنائه ، أو عِبئًا عليهم ، أو يُضيِّق عليهم في طُرق معيشتهم ، لأن هذا المجتمع المحكوم بالشَّريعة ينطلق من مبدأ تحقيق مصالح الناس وحماية مكتسباتهم ، وتخفيف الضغوط الحياتية عن كاهلهم ، وليس سرقتهم وفرض الضرائب عليهم ، وتحطيم حياتهم . وهذا ليس بغريبٍ إذا عَلِمْنا أن الشريعة جاءت لرفع الحرَج ، وأن الأمر كُلما ضَاقَ اتَّسَع . وحَيْثُما كانت مصالح الناس ومنافعهم ، فَثَمَّ شَرْع الله تعالى .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٣٣) : ((قَوله : (تَحَمَّلْتُ حَمَالَة) ... وهي المال الذي يَتحمَّله الانسان ، أي يَستدينه ، ويدفعه في إصلاح ذات البَيْن ، كالإصلاح بين قبيلتين ونحو ذلك . وإنما تَحِل له المسألة، ويُعطَى مِن الزكاة بشرط أن يَستدين لغير معصية)) .

٧_ في سبيل الله : المقصود به هو الغَزْو . فهؤلاء المجاهِدون يمارسون دورًا محوريًّا في الدفاع عن الإسلام والأوطان ، والذَّوْد عن حِياض الأُمَّة . إنهم يضعون أرواحهم على أيديهم ، ويُضَحُّون بأوقات راحتهم وسعادتهم في أحضان نسائهم وأبنائهم، مِن أجل رفع كلمة الله تعالى. وهُم يَعْلَمون أن ذهابهم قد يكون بلا عَوْدة . ومع هذا فهم يواصلون عملَهم دون تردُّد أو إجبار من أحد ، لأنهم ينطلقون من قناعاتهم الداخلية المستمدة من قوة الإيمان ، ورباطةِ الجأش ، وشرفِ الجهاد . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ١٦٦) : ((وهُم الغُزاة وموضع الرِّباط ، يُعْطَوْن ما يُنفقون في غَزْوهم ، كانوا أغنياء أو فقراء ، وهذا قول أكثر العلماء)) اهـ .

وهؤلاء المجاهِدون يُعْطَوْن مِن مال الزكاة، للاستعانة على أمر الجهاد ، مِن نفقة ولِباس وسلاح وعُدَّة وعَتَاد ، وإن كانوا أغنياء . ولا يَخفى أن المجاهدين بحاجة ماسَّة إلى مال الزكاة ، للإنفاق على متطلبات الجهاد الذي يتكلف أموالاً كثيرة ، وذلك للدفاع عن الإسلام وأهله وأراضيه . ومن أجل قهر الأعداء وتحجيمهم ، ورَدِّهم خاسرين خائبين ، يَجُرُّون أذيال الهزيمة ، ويَرفعون رايةَ الاستسلام . والجهادُ يَقوم على رُكنين : التَّضحية بالنَّفس وبَذْل المال .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٦١) : ((ولا يُعطَى مِنه شَيء في الحج عند أكثر أهل العِلم . وقال قوم : يجوز أن يُصرَف سَهْم في سبيل الله إلى الحج ، ويُروَى ذلك عن ابن عباس ، وهو قول الحسن وأحمد وإسحاق)) اهـ .

وعن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : ((لا تَحِلُّ الصَّدقةُ لغنيٍّ إلا لخمسة : لغازٍ في سبيل الله ، أو لعاملٍ عليها ، أو لغارمٍ ، أو لِرَجُلٍ اشتراها بماله ، أو لِرَجُلٍ كان له جار مِسكين ، فَتَصَدَّقَ على المِسكين ، فأهداها المِسكينُ للغنيِّ)) (30).

هؤلاء خمسة أصناف، يَحِل لهم أخذ الصدقة وهُم أغنياء، لأنهم أخذوها لاعتبار آخَر ، وصِفة أخرى . أ ـ الغازي في سبيل الله ، لِقَوله تعالى : ﴿ وفي سَبيلِ اللهِ ﴾ ، أي : لِمُجَاهِدٍ ، أو الحج . ب ـ العامل عليها ، لِقَوله تعالى : ﴿ والعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ . والمقصود العامل على الصدقة، كَمَن جَمعها أو حفظها أو حَسَبَها أو كَتَبَها . ويَجب أن لا يكون هاشميًّا ولا مُطَّلِبِيًّا . ج ـ الغارِم ، لِقَوله تعالى : ﴿ والغارِمِينَ ﴾ . وهو الْمَدِين ، كَمَن استدانَ للإصلاح بين الناس، أو دَفْع دِيَة ، إخمادًا للفِتنة بين عشيرتين أو ما شابه . د ـ رَجل اشتراها بماله . أي : رَجل غني اشترى الصدقة بماله مِن الفقير الذي أخذها . هـ ـ رَجل غني كان له جار مِسكين أو فقير ، فَتَصَدَّقَ عليه ، فأهدى الصدقةَ للغنيِّ ، فَيَحِل للغنيِّ أخذ الصدقة ، لأنها صارت هديةً .

وفي عَوْن المعبود (٥/ ٣١) : ((وَقَوله : " له جار " خرج على جهة التمثيل ، فلا مفهوم له، فالمدار على إهداء الصدقة التي مَلَكَها المسكين لجارٍ أو لغيره ... . قال ابن عبد البَر: هذا الحديث مُفسِّر لِمُجْمَل قَوله : " لا تَحِلُّ الصدقة لغنيٍّ ، ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ " ، وأنه ليس على عمومه . وأجمعوا على أن الصدقة المفروضة لا تَحِل لغير الخمسة المذكورين . قال الباجي : فإن دفعها لغنيٍّ لغير هؤلاء عَالِمًا بِغِناه ، لَم تُجْزِه بلا خِلاف ، فإن اعتقد فَقْرَه ، فقال ابن القاسم : يَضمن إن دفعها لغنيٍّ أو كافر . وأمَّا صدقة التَّطَوُّع فهي بمنزلة الهدية ، تَحِل للغني والفقير . ذَكَرَه الزُّرقاني في شرح الموطأ . قال الخطابي : فيه بيان أن الغازي ، وإن كان غنيًّا ، له أن يأخذ الصدقة، ويَستعين بها في غَزْوه ، وهو مِن سَهْم السَّبيل . وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد ابن حنبل وإسحاق ابن راهويه. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يَجوز أن يُعطَى الغازي مِن الصَّدقة، إلا أن يكون مُنْقَطِعًا بِه. وسَهْم السبيل غَير سهم ابن السبيل ، وقد فرَّق اللهُ بينهما في التسمية ، وعَطَف

(٣٠)رواه أبو داود في سُننه(١/٥١٤).قال ابن حجر في تلخيص الحبير(٣/١١١):(صحَّحه جماعة).

أحدهما على الآخر بالواو الذي هو حرف الفَرْق بين المذكورَيْن، المسبوق أحدهما على الآخر ، فقال : ﴿ وفي سَبيلِ اللهِ وابْنِ السَّبيلِ ﴾ والمنقطع بِه هو ابن السبيل ، وكما سهم السبيل ، فهو على عمومه وظاهره في الكتاب . وقد جاء في هذا الحديث ما بَيَّنه ، ووكَّد أمْرَه ، فلا وجه للذهاب عنه . وفي قَوله : " أو لِرَجل اشتراها بماله " دليل على أن الْمُتَصَدِّق إذا تَصَدَّقَ بالشيء ثُمَّ اشتراه مِن المدفوع إليه ، فإن البيع جائز ، وكرهه أكثر العلماء مع تجويزهم البيع في ذلك ، فقال مالك بن أنس : إن اشتراه فالبيع مفسوخ . وأمَّا الغارِم الغنيُّ فهو الرَّجل يتحمَّل الحمَالة ، ويُدان في المعروف وإصلاح ذات البَيْن ، وله مال إن يَقع فيها افتقر ، فَيُعطَى مِن الصدقة ما يَقضي به دَيْنَه ، فأمَّا الغارِم الذي يُدان لنفْسه وهو مُعْسِر ، فلا يدخل في هذا الغِنى ، لأنه من جملة الفقراء . وأمَّا العامل فإنه يُعطَى منها عَمَالة على قَدْر عمله وأُجرة مِثْله ، فسواء كان غنيًّا أو فقيرًا ، فإنه يستحق العَمَالة إذا لَم يَفعله تطوُّعًا . فأمَّا الْمُهْدَى له الصدقة ، فهو إذا مَلَكَها ، فقد خَرَجَت أن تكون صدقة، وهي مِلْك لمالك تام المِلْك ، جائز التصرف في مِلْكه . انتهى كلامه)).

٨ــ ابن السبيل : وهو المسافر الذي انقطع عن أهله ، ونَفِدَ مالُه ، وانقطعت به السُّبل . فيتم إعطاؤه من مال الزكاة ما يُوصله إلى بلده، كَي يتجاوز عثرته، ويتخلص من غربته، ويعود إلى أهله . ويُعطَى ما يَكفيه في ذهابه وإيابه (في حال سَفَر الطاعة) ، ويَشمل ذلك الضَّيْف . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨١) : ((وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يَستعين به على سَفَره، فَيُعطَى مِن الصدقات ما يَكفيه إلى بلده ، وإن كان له مال ، وهكذا الْحُكْم فِيَمن أراد إنشاء سَفَر مِن بلده، وليس معه شيء، فَيُعطَى مِن مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٥٨) : ((هو المسافر المنقطع بِه ، وإن كان له مال في بلده . قاله مجاهد وقتادة وأبو حنيفة وأحمد. فأمَّا إذا أراد أن يُنشِئ سَفَرًا، فهل يجوز أن يُعطَى ؟ . قال الشافعي: يجوز. وعن أحمد مِثله))اهـ. ﴿ فَريضةً مِنَ اللهِ ﴾ . إن اللهَ جَعل الصدقات (الزكاة) فريضةً،وفَرَضَها لهذه الأصناف الثمانية.وهذا حُكْمٌ إلهيٌّ كاملٌ ومعصوم ، ومُقدَّر بتقدير الله تعالى . وقال الواحدي في الوجيز(١/ ٤٦٩):((﴿ فَريضةً مِنَ اللهِ ﴾ افترضها الله على الأغنياء في أموالهم))اهـ. ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الناس ومصالحهم ومنافعهم ﴿ حَكيم ﴾ في قَوْله وفِعْله وشَرْعه وتدبير خَلْقه، مُنَزَّهٌ عن العبث والفوضى والظلم والخلَل . يَفعل ما تقتضيه الحِكمة مِن الأمور الحسَنة ، ويضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، وقد أعطى الحقوق لأصحابها الذين يستحقونها.وقال النَّسَفي في تفسيره(٩٥/٢): ((والله عليمٌ بالمصلحة ، حكيمٌ في القِسمة)) اهـ.

إن الأصناف الثمانية (مصارف الزكاة) التي تَمَّ تحديدها في القرآن الكريم لَم تَجِئ عَبَثًا أو مُصادَفة . بَل هي مِن عِلم الله المحيط بكل شيء ، فاللهُ الذي خلق الإنسانَ ، يعرف ما يُصلحه وما يُفسده. كما أن القرآنَ يُجذِّر الإيمانَ في النفوس بأن كل كلمة إلهية لها معنى دقيق، ودَلالة محدَّدة ، وتُؤسِّس لمجتمع الخير المنشود على أرض الواقع. فليس القرآن شعاراتٍ خيالية حول مكافحة الفقر، وإنشاءِ مجتمع العدالة . بل هو منهاج متكامل قابل للتطبيق على أرض الواقع لسعادة الإنسان في الدارَيْن . والمنهجية الاقتصادية متكاملة في القرآن، وهي ترمي إلى اجتثاثِ الفقر من جذوره ، وتأسيسِ العدالة الاجتماعية ، وتكوينِ مجتمعِ الأخوة البشرية الحقيقي بعيدًا عن الطبقية المرَضِيَّة ، والشَّطَطِ الطبقي الْمُخزي الذي يُنذِر بتفكيك المجتمع إلى كيانات حاقدة ومُتناحرة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٥٨و٤٥٩) : ((وَحَدُّ الغني الذي يمنع أخذ الزكاة عند أصحابنا (الحنابلة) بأحد شيئين : أن يكون مالكًا لخمسين درهمًا ، أو عَدْلها مِن الذهب ، سواءٌ كان ذلك يقوم بكفايته أو لا يقوم. والثاني: أن يكون له كفاية إمَّا من صناعة أو أُجرة عقار أو عروض للتجارة يقوم ربحها بكفايته. وقال أبو حنيفة: الاعتبار في ذلك أن يكون مالكًا لنصاب تجب عليه فيه الزكاة . فأمَّا ذَوُو القُربى الذين تَحْرُم عليهم الصدقة ، فهم بنو هاشم وبنو المطلب. وقال أبو حنيفة : تَحْرُم على ولد هاشم ، ولا تَحْرُم على ولد المطلب.ويجوز أن يعمل على الصدقة من بني هاشم وبني المطلب، ويأخذ عمالته مِنها خلافًا لأبي حنيفة.فأمَّا موالي بني هاشم وبني المطلب فَتَحْرُم عليهم الصدقة خِلافًا لمالك . ولا يجوز أن يُعطيَ صدقته مَن تَلزمه نفقته ، وبه قال مالك والثوري. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يُعطِي والدًا وإن علا، ولا ولدًا وإن سَفَل ، ولا زوجة، ويُعطي مَن عَدَاهم ، فأمَّا الذِّمي فالأكثرون على أنه لا يجوز إعطاؤه . وقال عُبَيد الله بن الحسن : إذا لَم يجد مسلمًا أُعْطِيَ الذِّمي ، ولا يجب استيعاب الأصناف، ولا اعتبار عدد من كل صنف ، وهو قول أبي حنيفة ومالك . وقال الشافعي : يجب الاستيعاب مِن كل صنف ثلاثة . فأمَّا إذا أراد نقل الصدقة من بلد المال إلى موضع تُقْصَر فيه الصلاة، فلا يَجوز له ذلك ، فإن نقلها لَم يُجْزِئه ، وهو قول مالك والشافعي . وقال أبو حنيفة : يُكْرَه نقلها وتُجْزِئه . قال أحمد : ولا يُعطِي الفقير أكثر مِن خمسين درهمًا . وقال أبو حنيفة : أكره أن يُعطيَ رَجل واحد مِن الزكاة مائتي درهم ، وإن أعطيته أجزأك . فأمَّا الشافعي فاعتبر ما يدفع الحاجة مِن غَير حَد ، فإن أعطى مَن يَظُنُّه فقيرًا ، فبانَ أنه غني ، فهل يُجزِئ فيه ؟ . عن أحمد روايتان)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ المؤمنينَ في الصَّدَقَاتِ والذينَ لا يَجِدُونَ إلا جُهْدَهُم فَيَسْخَرُونَ مِنْهُم سَخِرَ اللهُ مِنْهُم وَلَهُم عَذَابٌ أليم ﴾ [التَّوبة : ٧٩] .

هذه مِن صفات المنافقين. إنهم يَطعنون في المؤمنين الْمُتَصَدِّقين، وَيَعيبونهم . فإذا تصدَّقَ المؤمن بمالٍ كثير ، قالوا إنه يَتصدَّق رِياءً وسُمعةً ، وإذا تصدَّقَ بمالٍ قليل ، قالوا إن اللهَ غنيٌّ عن صدقته . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٩٣) : ((وهذا أيضًا مِن صفات المنافقين ، لا يَسْلَم أحد مِن عَيْبهم ولَمْزهم في جميع الأحوال ، حتى ولا الْمُتَصَدِّقُون يَسْلَمُون منهم . إن جاء أحد منهم بمال جزيل، قالوا : هذا مُرَاءٍ . وإن جاء بشيء يسير ، قالوا : إن الله لَغنيٌّ عن صدقة هذا)).

وقد ذَمَّ اللهُ هؤلاء المنافقين الذين يَعيبون تصرُّف المؤمنين دُون وجه حق ، وفضحهم ، وكشفَ باطلهم . ومعنى ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الذين يَتصدَّقون ويَتبرَّعون مِن تِلْقاء أنفسهم مِن غَير أن يَجب عليهم.إنهم يَفعلون ذلك طلبًا لرضا الله وتقرُّبًا إليه . ولكنهم لَم يَسْلَمُوا مِن ألسنة المنافقين.

لقد كان المنافقون يَعيبون الْمُتَبَرِّعِين مِن المؤمنين في الصدقات،ويَطعنون فِيهم، اتِّبَاعًا لأهوائهم، وحسدًا لهم، وحِقدًا عليهم، وكراهةً للإسلام والمسلمين، والذين لا يَجِدُون إلا طاقتهم . حيث إنهم يَتَبَرَّعُون وَفْقَ إمكانياتهم وقدرتهم وطاقتهم.والْجُهْد (بالضَّم) الطاقة،والْجَهْد (بالفتح) المشقَّة. فَيَستهزئون بِهم لِقِلَّة المال الذي تصدَّقوا به، وهذا هو جُهْد الْمُقِل. وقد جازاهم اللهُ على سُخريتهم بالمؤمنين بأن سَخِرَ مِنهم ، وذلك بإهانتهم وإذلالهم وتعذيبهم ، وصاروا إلى النار . وهذا مِن باب الْمُشَاكَلَة (الْمُقَابَلَة في الألفاظ) [31].

والفِعلان المضارِعان:﴿ يَلْمِزُونَ ﴾، ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ يُشيران إلى التَّجَدُّد والتَّكَرُّر والاستمرارية. أي إن المنافقين اتَّخذوا مِن الطعن في المؤمنين والاستهزاء بهم والسُّخرية مِنهم والتقليل مِن شأنهم منهجًا حياتيًّا وفلسفةً لا مَحِيد عنها . والمنافقون مُستمرون في ضلالهم ، ودائمون عليه ، ولا يَرْدعهم رادع .

ولهم عذابٌ شديد ومستمر ودائم ومُوجِع ومُؤلِم بسبب كفرهم وضلالهم . وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ٨٧) : ((﴿ وَلَهُم عَذَابٌ أليم ﴾ التنوين للتَّهويل والتفخيم ، وإيراد الجملة اسمية للدَّلالة على الاستمرار)) اهـ .

---

(٣١)قال ابن حِجَّة الحموي في خِزانة الأدب(٢/ ٢٥٢):((الْمُشَاكَلَةُ في اللغة هي الْمُمَاثَلَة. والذي تحرَّر في المصطلَح عند علماء هذا الفن أن المشاكَلة هي ذِكْرُ الشيء بِغَيْر لفظه ، لوقوعه في صُحبته)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٩٣) : ((وقَوله : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُم سَخِرَ اللهُ مِنْهُم ﴾ . هذا مِن باب الْمُقَابَلَة على سُوء صَنيعهم ، واستهزائهم بالمؤمنين ، لأن الجزاء مِن جِنس العمل ، فَعَامَلَهم مُعاملة مَن سَخِرَ منهم، انتصارًا للمؤمنين في الدنيا ، وأعدَّ للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا، لأن الجزاء مِن جِنس العمل)) اهـ .

وعن أبي مسعود قال : لَمَّا أُمِرْنا بالصَّدقة ، كُنَّا نتحامل ، فجاء أبو عقيل بنصف صاع ، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون إن الله لَغَنِيٌّ عَن صَدَقة هذا، وما فعل هذا الآخَر إلا رِئاءً. فَنَزلت: ﴿ الذينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ المؤمنينَ في الصَّدَقَاتِ والذينَ لا يَجِدُونَ إلا جُهْدَهُم ﴾ الآية [32]. هذا الحديثُ يدل على إخلاص الصحابة وتضحياتهم . ويدل كذلك على خُبث المنافقين وسُوء أفعالهم . فالصحابةُ عندما أُمِرُوا بالصدقة، كانوا يَحْمِلون على ظُهورهم بالأجرة، ويَتَكَلَّفون الحِمْل على مشقة ، ويتصدَّقون مِن تلك الأجرة ، أو يتصدَّقون بها كُلِّها . في حِين أن المنافقين لا يَفْعَلون شيئًا غَير الطعن في المؤمنين والسُّخرية مِنهم . وهذا يدل على الفرق الجوهري بين المؤمن والمنافق .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٠٥) : ((ففيه التحريض على الاعتناء بالصدقة ، وأنه إذا لَم يكن له مال يتوصَّل إلى تحصيل ما يتصدَّق به ، حَمَلَ بالأجرة أو غَيره مِن الأسباب المباحة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ خُذْ مِن أموالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهِم بِها ﴾ [التَّوبة : ١٠٣] [33].

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ: خُذ يا محمد مِن أموال المؤمنين صدقةً تُطهِّرهم بِها مِن الذنوب، وتُنقِّيهم مِن الآثام، وتُخلِّصهم مِن البُخل وحُب المال وسُوء الأخلاق . وتُزكِّيهم بها ، أي : تُنمِّي بتلك الصدقة حسناتهم وتُكثِّرها ، وتَرْفعهم إلى منازل المؤمنين الْمُخْلِصين .

وأفضلُ تفسير أن تكون الأفعال في الآية مُسْنَدَة إلى ضمير النبيِّ ﷺ .

---

(٣٢) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧١٤) برقم (٤٣٩١) ، ومسلم (٢/ ٧٠٦) برقم (١٠١٨).

(٣٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٩٥و٤٩٦) : ((قال المفسِّرون : لَمَّا تابَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على أبي لُبابة وأصحابه ، قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فَتَصَدَّقْ بِها عَنَّا ، فقال : " ما أُمِرْتُ أن آخذ مِن أموالكم شيئًا " ، فَنَزلت هذه الآية. وفي هذه الصَّدقة قَولان : أحدهما أنها الصدقة التي بذلوها تطوُّعًا ، قاله ابن زيد والجمهور . والثاني : الزكاة ، قاله عِكرمة)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٤٨٠) : ((فأخذ رسولُ الله ﷺ ثُلث أموالهم. وكانت كفارة للذنوب التي أصابوها . وهو قَوله : ﴿ تُطَهِّرُهُم ﴾ ، يعني : هذه الصَّدقة تُطهِّرهم من الذنوب ، ﴿ وَتُزَكِّيهِم بِها ﴾ ، أي : تَرفعهم أنتَ يا محمد بهذه الصدقة مِن منازل المنافقين)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الصَّدقة مأخوذة مِن الصِّدق ، لأنها علامة على صِدْق مُخْرِجها ، وصِحَّة إيمانه، وقوة يقينه، واتفاق ظاهره مع باطنه، أي إنه ليس مُنَافِقًا . ومعنى التَّزكية الْمُبالَغة في التَّطهير. والآيةُ عامة شاملة ، والعِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠٨) : ((أمَرَ تعالى رسولَه ﷺ بأن يأخذ مِن أموالهم صدقةً ، يُطهِّرهم ويُزكِّيهم بها ، وهذا عام ، وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالِحًا وآخَر سيئًا. ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان هذا خاصًّا بالرسول ﷺ . ولهذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِن أموالِهِم صَدَقَةً ﴾الآية.وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصِّديق وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدُّوا الزكاة إلى الخليفة ، كما كانوا يُؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ ، حتى قال الصِّديق : واللهِ لو مَنَعوني عَناقًا ــ وفي رواية عِقالاً ــ كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لأُقَاتِلَنَّهم على مَنْعه))اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ هُمْ للزَّكاةِ فَاعِلُون ﴾[المؤمنون : ٤] .

هذا مدحٌ إلهيٌّ للمؤمنين الذين يُؤدُّون الزكاةَ (الصدقة المفروضة) . وعبَّر عن التَّأدية بالفِعل، لأنها فِعل. لقد التزموا بالطاعات البدنية والمالية،ووصلوا إلى قِمَّة التقوى التي تتجلى في اجتناب المحرَّمات ، وفِعل الطاعات ، فاستحقوا المدح والإشادة وخُلود الذِّكْر .

وقِيل : المقصود بالزكاة في الآية العملُ الصالح . أي : والذين هُم للعمل الصالح فاعلون .

والزَّكاةُ هي طُهرة للأموال ، كما أنها تُطهِّر النَّفْسَ مِن البُخل والأخلاقِ الذميمة ، وتُطهِّر الجسدَ مِن الأمراض والعِلَل . وكثيرٌ مِن الأمراض العُضوية سببها مشكلات نفسية ورُوحية .

والآيةُ تدل على النَّماء والزيادة والبركات والخيرات والطهارة المعنوية والمادية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣١٩): ((وقَوله: ﴿ والذينَ هُمْ للزَّكاةِ فَاعِلُون ﴾ . الأكثرون على أن المراد بالزَّكاة هَهُنا زكاة الأموال ، معَ أن هذه الآية مكية ، وإنما فُرِضَت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة . والظاهر أن التي فُرِضت بالمدينة إنما هي ذات النُّصُب (جَمْع نِصاب ، وهو القَدْر الذي عِنده تجب الزَّكاة) والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة ، كما قال تعالى في سورة الأنعام ، وهي مكية : ﴿ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ . وقد يُحتمَل

أن يكون المراد بالزكاة هَهُنا زكاة النَّفْس مِن الشِّرك والدَّنَس ، كَقَوله: ﴿ قَد أفلحَ مَن زَكَّاها (٩) وقد خابَ مَن دَسَّاها (١٠) ﴾ [الشَّمْس]،وكَقَوله: ﴿ وَوَيْلٌ للمُشركين (٦) الذينَ لا يُؤتونَ الزَّكاةَ ﴾ [فُصِّلَتْ] على أحد القَولين في تفسيرهما . وقد يُحتمَل أن يكون كِلا الأمرين مُرَادًا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه مِن جُملة زكاة النفوس. والمؤمن الكامل هو الذي يَفعل هذا وهذا ، والله أعلم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿والذينَ إذا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[الفُرقان: ٦٧].

هؤلاء هُم المؤمنون الصادقون ، حيث إنهم مُعْتَدِلُون في إنفاقهم ، يلتزمون المنهج الوسطيَّ في العلاقات المالية . وهُم لا يُنفِقون مالَهم في معصية الله وإن قَلَّ . ولا يَمنعون حقَّ الله تعالى .

والإسرافُ هو مُجاوَزة الحد في الإنفاق ، والتَّقتيرُ هو التقصير عن الأمور الضرورية ، ومنع الواجب . وقِيل : الإسراف هو الإنفاق في معصية الله وإن قَل . والإقتار هو منع حق الله تعالى .

إنهم لا يُجاوِزون حَدَّ الكَرَم، فيصيرون مُبذِّرين، ولا يُضيِّقون على أنفسهم وغَيرهم، فيصيرون بُخَلاء . إنهم يُنفِقون أموالَهم باعتدال وتوازن بين الإسراف والإقتار: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ وَسَطًا عَدْلاً . سُمِّيَ بِه لاستقامة الطرفين . والقَوَامُ هو العَدْل بين الشَّيئين . وصدق القائل :

ولا تَغْلُ في شَيء مِن الأمرِ واقْتَصِدْ   كِلا طَرَفَي قَصْدِ الأمورِ ذَمِيمُ

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) : ((أي : لَيْسوا بِمُبذِّرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بُخلاء على أهليهم فيُقصِّرون في حقهم فلا يَكفونهم ، بل عَدْلاً خِيَارًا ، وخَير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا)) اهـ .

إن الشريعة المحمدية الإسلامية أسَّست المبدأ الأصيل في عِلم الاقتصاد، وهو التوازن بين الطرفَيْن ، والاعتدال بين الإفراط والتفريط . فالإنفاقُ ينبغي أن يكون بلا إسراف ولا تقتير . وإنما بشكل معتدل لا تطرُّف فيه إلى أيَّة جهة . وهذا من شأنه الحفاظ على سَيْر الأمور دون مشكلات غير محسوبة. فالاقتصاد في الإنفاق هو الضمانة الأكيدة للاستمرارية وعدمِ تعطل المشاريع التي فيها صلاح معيشة الناس . كما أن التوسُّط في الإنفاق يمنع حدوث مفاجآت غير سارة ، لأن الأمور تكون محسوبةً بدقة مع وجود هامش لحالات الطوارئ ، وهذا يَحُول دون انبعاث صدمات قاتلة. وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٧١) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذينَ إذا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ . اختلفَ المفسِّرون في تأويل هذه الآية . فقال النَّحاس : ومِن أحسن ما قِيل في معناه أن مَن أنفقَ في غَير طاعة الله ، فهو الإسراف . ومَن أمسكَ عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ فهو الإقتار ، ومَن أنفقَ في

طاعة الله تعالى فهو القَوَام . قال ابن عباس : مَن أنفق مائة ألف في حق فليس بِسَرَف ، ومَن أنفقَ دِرهمًا في غَير حَقِّه فهو سَرَف، ومَن مَنَعَ مِن حق عليه، فقد قَتَّرَ . وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما. ... والوجه أن يُقال : إن النفقة في معصية أمر حَظرت الشريعةُ قليله وكثيره ، وكذلك التَّعدي على مال الغَير ، وهؤلاء الموصوفون مُنَزَّهون عن ذلك ، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات ، فأدب الشرع فيها ألا يُفْرِط الإنسان حتى يُضيِّع حَقًّا آخَر أو عِيالاً ، ونَحْو هذا ، وألا يُضيّق أيضًا ويُقتِّر حتى يُجِيع العِيال ، ويُفْرِط في الشُّح . والْحُسن في ذلك هو القَوَام ، أي العَدْل . والقَوَام في كُل واحد بحسَب عِياله وحاله وخِفة ظَهْره وصَبْره وجَلَده على الكسب ، أو ضد هذه الخِصال، وخَير الأمور أوساطها، ولهذا تَرك رسولُ الله ﷺ أبا بكر الصِّديق أن يَتصدَّق بجميع ماله ، لأن ذلك وَسَط بنسبة جَلَده وصَبْره في الدِّين ، ومَنع غَيْرَه مِن ذلك ، ونِعْمَ ما قال إبراهيم النَّخعي:هو الذي لا يُجِيع ولا يُعرِّي ، ولا يُنفِق نفقةً يَقول الناس : قد أسرفَ . وقال يزيد بن أبي حبيب : هم الذين لا يَلبسون الثياب لجمال ، ولا يأكلون طعامًا للذة ، وقال يزيد أيضًا في هذه الآية : أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا لا يأكلون طعامًا للتَّنَعُّم واللذة، ولا يلبسون ثيابًا للجَمَال ، ولكن كانوا يُريدون مِن الطعام ما يَسُدُّ عنهم الجوع ، ويُقوِّيهم على عبادة رَبِّهم ، ومِن اللباس ما يَستر عوراتهم ، ويُكِنُّهم (يَحفظهم) مِن الحر والبرد. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوَّجه ابنته فاطمة : ما نفقتك ؟، فقال له عمر : الحسنة بين سيئتين ، ثُمَّ تلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سَرَفًا ألا يَشتهيَ شيئًا إلا اشتراه فأكله)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِن رِبًا لِيَرْبُوَ في أموالِ الناسِ فلا يَرْبُو عِندَ اللهِ وما آتَيْتُم مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فأُولئكَ هُمُ الْمُضْعِفُون ﴾[الرُّوم : ٣٩] .

ما أعطيتم مِن أموالكم عَطِيَّةً لتزداد في أموال الناس وتَكْثُر ، وتُريدون أن يَرُدَّ الناسُ عليكم بأكثر مِمَّا أعطيتم، فهذا لا أجر لكم عند الله ولا ثواب، ولا يُبارك الله فيه، ولا يُكثِّره ، ولا يُنمِّيه، لأن نِيَّتكم لَيست خالصةً لله تعالى . واللهُ لا يَقبل العملَ إلا إذا كان خالصًا له سُبحانَه .

وما أعطيتم مِن صدقة مُخلِصين لله وطالبين لرضاه ، فأولئك _ يعني المتصدِّقين بأموالهم ابتغاء وجه الله وليس طلبًا للمُكافأة من الناس ولا رِياءً ولا سُمعة _ لهم الأُجور العظيمة والثواب الْمُضَاعَف أضعافًا كثيرة ، وهُم الذين تُضَاعَف لهم الحسنات .

والرِّبا _ لُغةً _ يعني الزيادة . والآيةُ تدل على أن الرِّبا قِسْمَان : حلال وحرام . الرِّبا الحلال هو إعطاء الهدية لأخذ أكثر مِنها . وبعبارة أخرى ، هو الذي يُهْدِي لِيُثاب ما هو أفضل مِنه .

وهذا لا أجر له ، ولا إثم عليه . أمَّا الرِّبا الحرام فهو كُل زيادة مشروطة مُقَدَّمًا على رأس المال مقابل الأجل وَحْدَه (كُل قَرْض يُؤخَذ بِه أكثر مِنه) . والرَّجل إذا أعطى غَيْرَه العَطِيَّة لِيُثِيب أكثر مِنها ، ويَحصل على مردود أعلى ، فهذا جائز حلال ، ولكن لا أجر له عِند الله تعالى. وهذا حرام على النبيِّ ﷺ خَاصَّةً دُون المؤمنين لِقَوله تعالى:﴿ ولا تَمْنُن تَسْتَكْثِر ﴾ [الْمُدَّثِّر: ٦]. أي: لا تُعْطِ يا محمد وتطلب أكثر مِمَّا أعطيتَ. واسمُ الإشارة ﴿ فأُولئكَ ﴾ والالتفات في الخطاب ، يُشيران إلى عُلُوِّ مكانة هؤلاء المتصدِّقين المخلِصين لله تعالى ، وعَظَمَة قَدْرهم ، والاعتناء بشأنهم ، والإشادة بفضلهم وكرمهم وإخلاصهم. وقال النسفي في تفسيره (٣/ ٢٧٥): ((وقَوله: ﴿ فأُولئكَ هُمُ الْمُضْعِفُون ﴾ التفات حَسَن لأنه يُفيد التعميم ، كأنه قِيل : مَن فَعل هذا ، فسبيله سبيل الْمُخَاطَبِين)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٠٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِن رِبًا ﴾ في هذه الآية أربعة أقوال: أحدها أن الرِّبا هاهُنا أن يُهْدِيَ الرَّجل للرَّجل الشيء يَقصد أن يُثيبه عليه أكثر من ذلك ، هذا قول ابن عباس وسعيد بن جُبَير ومجاهد وطاووس والضَّحاك وقتادة والقُرَظي . قال الضَّحاك : فهذا ليس فيه أجر ولا وِزْر . وقال قتادة : ذلك الذي لا يَقبله الله، ولا يَجزي به ، وليس فيه وِزْر . والثاني أنه الرِّبا المحرَّم ، قاله الحسن البصري. والثالث أن الرَّجل يُعطي قرابته المال ليصير به غنيًّا لا يَقصد بذلك ثواب الله تعالى ، قاله إبراهيم النَّخعي . والرابع أنه الرَّجل يُعطي مَن يَخدمه لأجل خدمته ، لا لأجل الله تعالى ، قاله الشَّعبي. قَوله تعالى : ﴿ لِيَرْبُوَ في أموالِ الناسِ ﴾ أي : في اجتلاب أموال الناس واجتذابها ، ﴿ فلا يَرْبُو عِندَ اللهِ ﴾ أي : لا يَزكو ولا يُضَاعَف، لأنكم قصدتم زيادة العِوَض ، ولَم تقصدوا القُربة . ﴿ وما آتَيْتُم مِن زَكَاةٍ ﴾ أي : ما أعطيتم مِن صدقة لا تطلبون بها المكافأة، إنما تريدون بها ما عِند الله ﴿ فأُولئكَ هُمُ الْمُضْعِفُون ﴾. قال ابن قُتَيبة: الذين يجدون التضعيف والزيادة، وقال الزَّجاج: أي ذَوُو الأضعاف من الحسنات)).

وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمرةٍ مِن كَسْب طَيِّب، ولا يَقبل اللهُ إلا الطَّيب، وإن الله يَتقبَّلها بيمينه ، ثُمَّ يُرَبِّيها لصاحبها ، كما يُرَبِّي أحَدُكُم فَلُوَّهُ ، حتى تكون مِثْلَ الجبل)) (34).

مَن تَصَدَّقَ بوزن تمرة أو قيمتها مِن مالٍ حلال ومِن طريق مشروع ، وهذا دليل على القِلَّة والبساطة ، واللهُ طَيِّبٌ لا يَقبل إلا الطَّيب ، فإن الله يَتقبَّل هذه الصَّدقة التي تُعتبَر بسيطة في أعين

(٣٤) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٢/ ٥١١) برقم (١٣٤٤).ومسلم(٢/ ٧٠٢) برقم (١٠١٤).

الناس بِقَبُول حَسَن، ويُجْزِل العطاءَ لصاحبها، ويَرضى عنه ، فضلاً منه وتكرُّمًا ، ويُكثِّرها لصاحبها الذي أنفقها ، ويُنمِّيها له ، حتى تُصبح عظيمةً . واللهُ يُربِّي الصدقة لصاحبها كما يُربِّي المرءُ مُهْرَه ، وهو الصَّغير مِن الخيل، حتى يَكْبُر، ويُصبح حجمه عظيمًا. والمعنى أن الله يُكثِّر الصدقة ويعتني بها ، حتى يُصبح ثوابها كثواب مَن تَصَدَّقَ بمقدار الجبل مِن المال . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٩٨و ٩٩) : ((قال القاضي عِياض : لَمَّا كان الشيء الذي يُرتَضى ويُعَز ، يُتلقى باليمين ، ويُؤخَذ بها ، اسْتُعْمِل في مِثل هذا . واسْتُعِير للقَبُول والرِّضا،كما قال الشاعر: إذا ما رَايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ ... تَلَقَّاها عَرَابة باليمين ... . قال: وقِيل: عَبَّرَ باليمين هنا عن جهة القَبول والرضا، إذ الشمال بِضِدِّه في هذا... قال: وقد قِيل في تربيتها وتعظيمها حتى تكون أعظم من الجبل أن المراد بذلك تعظيم أجرها وتضعيف ثوابها . قال : ويَصِح أن يكون على ظاهره ، وأن تَعْظُم ذاتها ، ويُبارِك اللهُ تعالى فيها ، ويَزيدها مِن فضله حتى تَثْقُل في الميزان ... قال أهل اللغة : الفَلُوُّ الْمُهْر . سُمِّيَ بذلك لأنه فُلِيَ عن أُمِّه ، أي : فُصِل وعُزِل)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أنفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِين ﴾[سَبَأ : ٣٩] .

وما أنفقتم أيها الناس مِن نفقة في طاعة الله، فهو سُبحانَه يُخْلِفُها عليكم في الدنيا بأفضل مِنها، وفي الآخرة بالأجر والثواب . إمَّا أن يُعوِّضها في الدنيا بالمال أو القناعة التي هي كَنز لا يَفنى ، أو يدَّخر الأجرَ والثواب في الآخرة. ومالُ الدنيا في الدنيا ، يَزول ويَفنى . أمَّا الأجر في الآخرة فدائم. واللهُ تعالى هو أعظم مَن رَزَقَ ومَنَحَ وأعطى . وقد يُقال إن الأب يَرزق أهله وعِياله ، والأمير يَرزق جُنده. ورِزق العباد للعباد على معنى المجاز ، لأنه رِزق الله الذي أجراه على أيدي عباده . واللهُ وَحْدَه هو الرازق على الحقيقة ، لأنه خالق الناس ، ومُوجِدهم مِن العدم ، ورازقهم بالأسباب وبدون الأسباب وضِد الأسباب . وقد بَيَّنَ اللهُ أنه أعظم الرَّازقين ، لأنه يُنفِق ولا يَخشى الفقر ، ولا تَنفد خزائنه . أمَّا الناسُ فَيُنفِقون مِن مالٍ مُعرَّض للنقصان والضياع ، وهُم مُعرَّضون للفقر . أمَّا إذا أنفقَ المرءُ في المعاصي ، فهو آثِم غَير مأجور ، ولا مَخلوف له . وفي الدنيا ، يُعاني مِن الخسارة والحرمان والشقاء والتعاسة وغياب البركة . وفي الآخرة ، يَنتظره عذاب النار الشديد . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٦١و٤٦٢) : ((قَوله : ﴿ وما أنفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي : يأتي بِبَدَله . يُقال : أخلفَ اللهُ له وعليه ، إذا أبدلَ ما ذَهب عنه . وفي معنى الكلام أربعة أقوال : أحدهما ما أنفقتم مِن غَير إسراف ولا تقتير فهو يُخْلِفه ، قاله سعيد ابن جُبَير . والثاني ما أنفقتم في طاعته فهو يُخْلِفه في الآخرة بالأجر ، قاله السُّدي . والثالث ما

أنفقتم في الخير والبِر فهو يُخْلِفه ، إمَّا أن يُعجِّله في الدنيا أو يَدَّخره لكم في الآخرة ، قاله ابن السائب . والرابع أن الإنسان قد يُنفِق مالَه في الخير ، ولا يرى له خَلَفًا أبَدًا ، وإنما معنى الآية : ما كان مِن خَلَف فهو مِنه ، ذَكَره الثعلبي . قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِين ﴾ لَمَّا دار على الألسُن أن السلطان يَرزق الجند ، وفُلان يَرزق عِيالَه ، أي : يُعطيهم . أخبرَ أنه خَيْرُ الْمُعْطِين)) .

وعن أبي هريرة_رضي اللهُ عنه_أن رسول الله ﷺقال:((قال الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنفِقْ أُنفِقْ عَلَيْكَ))[35].

هذا الحديثُ القُدْسِيُّ دَعوة إلهية كريمة إلى الإنفاق والتَّصدُّق في دُروب الخير والطاعات ، كما يتضمَّن بُشرى إلهية بالْخَلَف والعِوَض.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٧٩): ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ:" أَنفِقْ أُنفِقْ عَلَيْكَ" هو معنى قَوله عَزَّ وَجَلَّ:﴿ وما أنفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ ، فيتضمَّن الحث على الإنفاق في وجوه الخير ، والتَّبشير بالخلَف مِن فَضل الله تعالى)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ أن النبيَّ ﷺ قال : ((ما مِن يَوم يُصبح العِباد فيه ، إلا مَلَكان يَنْزِلان،فيقول أحَدُهما:اللهُمَّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا،ويقول الآخَر:اللهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا))[36].

إن دُعاء الملائكة الكِرام مُستجاب . وفي كُل يوم يَنْزِل مَلَكان كريمان . يَدعو أحَدُهما أن يُعْطِيَ اللهُ الْمُنْفِقَ في طاعته عِوَضًا عمَّا أنفقه، وهذا دعاء له ، وأن يُعْطِيَ اللهُ الْمُمْسِكَ الذي لا يُنفِق تَلَفًا، أي : أتْلِفْ ما لَدَيه ، وهذا دعاء عليه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٩٥) : ((قال العلماء : هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق ، وعلى العِيال والضِّيفان والصَّدقات، ونَحْو ذلك ، بحيث لا يُذَم ، ولا يُسمَّى سَرَفًا . والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا)) اهـ . وفي شرح السُّيوطي على صحيح مسلم (٣/ ٨٢): ((" اللهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا " . قال القرطبي : هذا يَعُمُّ الواجبات والمندوبات. " اللهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " . قال القرطبي : يعني الْمُمْسِك عَن النَّفقات الواجبات. وأمَّا الْمُمْسِك عن المندوبات فقد لا يستحق هذا الدعاء ، اللهُمَّ إلا أن يَغلب عليه البُخل بِها ، وإن قَلَّت كالحبَّة واللقمة ، فهذا قد يتناوله هذا الدُّعاء ، لأنه إنما يكون كذلك لِغَلَبة صِفة البُخل المذمومة عليه ، وقَلَّ ما يكون كذلك ، إلا ويَبخَل بكثير من الواجبات ، أو لا يَطِيب نَفْسًا بِها)) .

---

(٣٥) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٧٢٤) برقم (٤٤٠٧) ، ومسلم (٢/ ٦٩٠) برقم (٩٩٣) .

(٣٦) متفق عليه . البخاري (٢/ ٥٢٢) برقم (١٣٧٤) ، ومسلم (٢/ ٧٠٠) برقم (١٠١٠) .

وعن أبي كَبشة الأنماريِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يَقول : ((ثلاثة أُقْسِمُ عليهنَّ ، وأُحدِّثكم حديثًا فاحفظوه : ما نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِن صَدَقَة ، ...)) [37].

إنَّ الله يُبَارِك في المال الذي تُخْرَج مِنه الصَّدَقة بما يُعوِّض نقصَه المادي الحِسِّي ، وهذا في الدنيا. أمَّا في الآخرة ، فإن اللهَ يُثِيب العبدَ على صدقته ، ويُضَاعِف ثوابَها .

والله يُبارِك في أموال المتصدِّق وصِحَّته وأهله وعِياله . وإمَّا أن يُعوِّضه عاجلاً في الدنيا بالمال، أو يدَّخر له الأجر العظيم الْمُضَاعَف في الآخرة . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣ / ٢٩٨) : ((فإنه وإن نقص في الدنيا ، فنفعه في الآخرة باقٍ ، فكأنه ما نقص . وليس معناه أن المال لا يَنقُص حِسًّا . قال ابن عبد السلام : ولأن الله يُخْلِف عَلَيه)) اهـ .

وأعظمُ صدقة هي الصدقة المفروضة (الزَّكاة) ، فهي تطهيرٌ للنَّفْس مِن البُخل وعِشق المال الذي هو رأس كل خطيئة ، وأيضًا تطهير للعبد من الذنوب والآثام . والمالُ الذي تُخْرَجُ مِنه الصدقة والزكاة ، لا تَلْحقه آفة ولا كارثة ولا مُصيبة ، وإنما يَزداد ، وتَحِل فيه البَرَكة ، ويَحصُل له النَّماء . وهذا سبب تسمية الزَّكاة بهذا الاسم ، لأن المال يَنمو بها ، ويُبَارَك فِيه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وفي أموالِهم حَقٌّ للسائلِ والمحرومِ ﴾[الذاريات : ١٩] .

هذا مدحٌ إلهيٌّ للمؤمنين الذين في أموالهم نصيب مَفروض ومعلوم ، ألزموا أنفسهم بِه ، وأوجبوه عليها للسائل والمحروم ، تقرُّبًا إلى الله تعالى ، وابتغاء رِضاه ، ورحمةً بالناس ، وإحسانًا إليهم ، وشفقةً عليهم . والحقُّ في الآية هو الزكاة . وليس في المال حق سِوى الزكاة .

والسائل هو الذي يَسأل الناس لحاجته وفاقته ، والمحروم هو الْمُتَعَفِّف عن السؤال ، حيث يَحسبه الناسُ غنيًّا ، فلا يُفطَن له ، ولا يَتصدَّقون عليه . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٣٦) : ((قال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هُنا الزَّكاة المفروضة . وقِيل إنه حق سِوى الزكاة ، يَصِل به رَحِمًا ، أو يَقْرِي به ضَيْفًا (يُكرمه) ، أو يَحْمِل به كَلاًّ (المعنى : يَحْمِل أثقال الفقراء والضعفاء والأيتام بالإنفاق عليهم ومساعدتهم بالمال) . أو يُغنِي مَحرومًا ، قاله ابن عباس، لأن السُّورة مكية، وفُرِضت الزكاة بالمدينة.ابن العربي: والأقوى في هذه الآية أنها الزكاة لِقَوله تعالى:﴿والذين في أموالهم حقٌّ معلوم (٢٤)للسائل والمحروم(٢٥)﴾ [المعارج] . والحق المعلوم هو الزكاة التي بَيَّنَ الشارعُ قَدْرَها وجِنسها ووقتها ، فأمَّا غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم ، لأنه غير مُقدَّر ولا

(٣٧) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٥٦٢) وقال : ((حسن صحيح)) .

مُجنَّس ولا مُوقَّت . قَوله تعالى : ﴿ للسائلِ والمحرومِ ﴾ السائل : الذي يَسأل الناسَ لفاقته ، قاله ابن عباس وسعيد بن المسيِّب وغَيرهما ، ﴿ والمحرومِ ﴾ الذي حُرِم المال. واخْتُلِف في تعيينه، فقال ابن عباس وسعيد بن المسيِّب وغيرهما: المحروم الْمُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم . وقالت عائشة رضي الله عنها : المحروم المحارَف الذي لا يَتيسَّر له مكسبه . يُقال : رَجل مُحارَف بفتح الراء : أي محدود محروم . وهو خِلاف قَولك : مُبارَك . وقد حُورِف كَسْب فُلان ، إذا شُدِّد عليه في مَعاشه ، كأنه مِيل برزقه عنه . وقال قتادة والزُّهري : المحروم الْمُتَعَفِّف الذي لا يَسأل الناس شيئًا ، ولا يُعلَم بحاجته . وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة ، وليس له فيها سهم... . وقال عِكرمة: المحروم الذي لا يَبقى له مال . وقال زيد بن أسلم : هو الذي أُصِيب ثمره أو زَرْعه أو نَسْل ماشيته .... . وروى ابن وَهْب عن مالك : أنه الذي يُحرَم الرزق ، وهذا قول حسن ، لأنه يَعُمُّ جميع الأقوال)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وأنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فالذينَ آمَنُوا مِنكُم وأنفَقُوا لَهُم أجْرٌ كَبير ﴾ [الحديد : ٧] .

صَدِّقُوا بِوَحدانيةِ اللهِ ونُبُوَّةِ محمد ﷺ . وهذا أمرٌ للمؤمنين بالثبات على الإيمان والتمسُّك بِه. وتَصَدَّقُوا مِن الأموال التي ورثتموها عمَّن كان قَبلكم ، وجَعَلكم اللهُ خُلَفاء في التصرُّف فيها.

وهذا يدل على أن الأموال في الحقيقة للهِ تعالى ، فهو خالقها ومُقسِّمها بين الناس ، وهُم لا يَملكونها ، وإنما هُم بِمَنْزلة الوُكَلاء ، وعَلَيهم أن يُنفِقوا الأموالَ في طاعة الله تعالى، قبل أن تنتقل إلى غَيرهم مِمَّن يَرِثهم . فالمالُ مالُ الله ، والناس خُلفاء الله في أمواله .

فالذينَ آمنوا بالله وصَدَّقوا بِوَحدانيته وأقَرُّوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، وعملوا الصالحات ، وأنفقوا أموالَهم في سبيل الله ، ابتغاء وجهه الكريم ، لهم أجرٌ عظيم ، وثوابٌ جزيل ، وهو الجنة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٩١) : ((أمرَ تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحَث على الإنفاق مِمَّا جعلكم مُسْتَخْلَفِين فيه، أي مِمَّا هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان في أيدي مَن قَبْلكم ، ثُمَّ صَار إليكم ، فأرشدَ اللهُ تعالى إلى استعمال ما اسْتُخْلِفْتُم فيه من المال في طاعته ، فإن تفعلوا ، وإلا حاسبكم عليه ، وعاقبكم لترككم الواجبات فيه . وقَوله تعالى : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مُخَلَّفًا عنك ، فلعل وارثك أن يُطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعمَ اللهُ بِه عليك مِنك ، أو يَعصي الله فيه ، فتكون قد سَعَيْتَ في مُعاونته على الإثم والعدوان)) اهـ .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٢٦٢) : ((وقَوله : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ تزهيد وتنبيه على أن الأموال إنما تصير إلى الإنسان مِن غَيره ، ويتركها لغيره ، وليس له مِن ذلك إلا ما أكل فأفنى ، أو تَصَدَّقَ فأمضى . ويُروَى أن رَجلاً مَرَّ بأعرابي له إبِل ، فقال له : يا أعرابي ، لِمَن هذه الإبل ؟ ، قال : هي للهِ عِندي . فهذا مُوفَّق مُصِيب إن صَحِبَ قَوْلُه عَمَلَه)) اهـ .

وبشكل عام ، إن الآية تحث على الإنفاق في طاعة الله ، وتُرغِّب في بذل الصدقات ، قبل أن يَنتقل المال إلى الوَرَثة . إنها دَعوة إلهية كريمة إلى أهمية الإنفاق في الطاعات ، وضرورة الزُّهد في مَتاع الدنيا الفاني.وفي الآية تهوين للإنفاق على النَّفْس ، لأن العبد إذا أدركَ أن المال الذي بين يديه ليس له على وجه الحقيقة، وإنما هو لله وَحْدَه، وأن العبد بمنزلة النائب أو الوكيل، وأن المال سينتقل إلى الوَرَثة عاجلاً أو آجِلاً ، هانَ عليه الإنفاق في طاعة الله تعالى ، وسَهُل عليه البذل والتَّصَدُّق . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩٧) : ((﴿ فالذينَ آمَنُوا مِنكُم وأنفَقُوا لَهُم أجْرٌ كَبير ﴾ . وعد فيه مُبالَغات : جَعْل الجملة اسمية ، وإعادة ذِكر الإيمان والإنفاق ، وبناء الْحُكم على الضَّمير، وتنكير الأجر ، ووَصْفه بالكِبَر)) اهـ .

والجملةُ الاسميةُ ﴿ فالذينَ آمَنُوا ﴾ تدل على العناية بالمؤمنين ورفع شأنهم والتَّنويه بفضلهم . وإعادة ذِكر الإيمان والإنفاق : ﴿ فالذينَ آمَنُوا مِنكُم وأنفَقُوا ﴾ تدل على أهمية الجمع بين الإيمان والإنفاق، وأنهما مُتلازِمان لا يَفترقان، وأن الإنفاق هو التطبيق العملي للإيمان (التَّصديق القلبي).

والإسناد (الضَّمير) : ﴿ لَهُم ﴾ يدل على شرفهم وفضلهم ومنزلتهم الرفيعة .

وتنكيرُ ﴿ أجْرٌ ﴾ للتَّفخيم ، و﴿ كَبير ﴾ يدل على أنه أجر عظيم هائل ليس له حدود .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣) : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((يقول العبد : مالي مالي ، إنما له مِن ماله ثلاث : ما أكلَ فأفنى ، أو لَبِسَ فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ، وما سِوى ذلك ، فهو ذاهب ، وتاركه للناس)) . إن الإنسان يغترُّ بماله ، ويَفتخر به ، ويَنسُبه إلى نَفْسه فَخْرًا وتكبُّرًا وغُرورًا . وليس له مِن ماله إلا ثلاث: ما أكل فأفناه، حيث يَأكل الطعامَ اللذيذ، ثُمَّ يَذهب إلى الخلاء على شكل فضلات، أو ما لَبِسَه مِن الثياب الأنيقة والملابس الجميلة ، فصارت باليةً رَثَّة مِن كثرة الاستخدام . وفي نهاية المطاف ، تُلقَى في القُمامة . أو ما تَصَدَّقَ بِه في الدنيا ، فله الأجر الذي لا يَزُول في الآخرة . وما سِوى ذلك فمصيره للوَرَثة ، بعد مَوت الإنسان .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ٩٤) : ((" فاقتنى " بالتاء. ومعناها ادَّخَرَه لآخرته ، أي : ادَّخَرَ ثوابَه . وفي بعضها : فأقنى ، بحذف التاء)) اهـ .

وعن عبد الله بن الشِّخِّير ــ رضي الله عنه ـ قال : انتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ ، وهو يَقرأ : ((﴿ ألهاكُمُ التكاثر (١) حتى زُرتم المقابر (٢) ﴾)) . قال : ((يقول ابنُ آدم : مالي مالي ، وهل لَكَ مِن مالك إلا ما لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أو أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أو تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟)) [38].

يَفتخر الإنسانُ بماله ، ويُصيبه الغرور بسببه ، ولا شيء يَنفعه مِن ماله إلا ما لَبِسَه مِن الثياب فأبلاها (صارت رَثَّةً بالية) ، أو ما أكله مِن الأطعمة وشربه مِن المشروبات ، فاستفادَ مِنها لصحته وجِسمه ، ثُمَّ صارت بَقايا فانية وفضلاتٍ قذرة ، أو ما تَصَدَّقَ بِه ، فصارَ له ثوابًا محفوظًا ودائمًا في الآخرة ، لا يَزول ولا يَضمحل ولا يَختفي .

وفي تحفة الأحوذي (٧/ ٥و٦)ـ عن رواية الترمذي ـ: ((قَوله : انتهى إلى النبيِّ ﷺ ، أي : وصل إليه، (وهو) أي : النبيُّ ﷺ . " ﴿ ألهاكُمُ التكاثر ﴾ " ، أي : أي أشغلكم طلب كثرة المال. (قال) أي : النبيُّ ﷺ . " مالي مالي " أي يَغترُّ بِنِسبة المال إلى نفْسه تارةً ، ويفتخر به أخرى . " وهل لك مِن مالك " أي : هل يحصل لك من المال ويَنفعك في المال،" إلا ما تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ " أي : فَأَمْضَيْتَهُ وَأَبْقَيْتَهُ لنفْسك يوم الجزاء . قال تعالى : ﴿ ما عِندَكُم يَنفَدُ وما عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ . " أو أكلتَ " أي استعملتَ مِن جِنس المأكولات والمشروبات ، ففيه تغليب أو اكتفاء ، " فأفنيتَ " أي : فَأَعْدَمْتَهَا ، " أو لَبِسْتَ " مِن الثياب ، " فَأَبْلَيْتَ " ، أي : فَأَخْلَقْتَهَا)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الْمُصَّدِّقِينَ والْمُصَّدِّقاتِ وأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُم وَلَهُم أجْرٌ كَريم ﴾ [الحديد : ١٨] .

إن الذين تصدَّقوا بأموالهم على الفقراء والمحتاجين ، وأنفقوا في سبيل الله وفي الطاعات ابتغاء وجهه الكريم ، وعَن طِيب نَفْس، بلا رياء ولا سُمعة ولا مَن ولا أذى ، ولا يُريدون جزاءً مِن الناس، ولا يَنتظرون شُكْرًا مِنهم ولا مديحًا ، يُضَاعِف اللهُ لهم حسناتهم ، الحسنة بعشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضِعف وأكثر ، ولهم ثوابٌ عظيمٌ مِن الله تعالى ، على إخلاصهم وصِدقهم وتَصَدُّقهم. وهو الجنة . والقَرْضُ الحسَن عبارة عن التَّصدق والإنفاق في سبيل الله بِطِيب نَفْس ، مع إخلاص النِّية، وصِحَّة القَصْد، واحتساب الأجر . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٢١٦): ((وهو حَث على الصدقات، ولهذا قال: ﴿ وأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ . والصدقة والنفقة في سبيل الله . قال الحسن : كل ما في القرآن مِن القَرْض الحسَن فهو التَّطوُّع. وقِيل: هو العمل الصالح، مِن الصَّدقة

(٣٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣٥٨) برقم (٧٩١٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وغَيرها ، مُحْتَسِبًا صادقًا ، وإنما عطف بالفِعل على الاسم ، لأن ذلك الاسم في تقرير الفعل، أي: إن الذين تَصَدَّقوا وأقْرَضُوا)) اهـ . وفي صَفوة التفاسير (١٧ / ٨١) : ((قال المفسِّرون : أصل ﴿ الْمُصَّدِّقِينَ ﴾ الْمُتَصَدِّقِين . أُدْغِمَت التاء في الصاد ، فصارت ﴿ الْمُصَّدِّقِينَ ﴾ ، ومعنى القَرْض الحسَن هو التَّصَدُّق عن طِيب النَّفْس ، وخُلوص النِّية للفقير ، فكأن الإنسان بإحسانه إلى الفقير ، قد أقرضَ اللهَ قَرْضًا ، يستحق عليه الوفاء في دار الجزاء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وأنفِقُوا مِن ما رَزَقْناكُم مِن قَبْلِ أن يَأتِيَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أخَّرْتَني إلى أجلٍ قَرِيبٍ فأصَّدَّقَ وأكُن مِنَ الصالحين ﴾[المنافقون : ١٠] .

وأنفِقُوا في طاعة الله ومَرضاته مِن الأموال التي رَزقكم اللهُ إيَّاها ، ادِّخارًا للآخرة ، مِن قَبل أن يَنْزِل بأحدكم الموت، وعِندئذ، لا فرصة للإنفاق، ولا مجال للطاعات. و﴿ مِن ﴾ للتَّبعيض ، أي : أنفِقوا بعضَ ما رزقناكم في طاعة الله تعالى . وقِيل : المراد هو الزَّكاة المفروضة . فيقول: يا رَبِّ ، هَلاَّ أمْهَلْتني وأخَّرْتَ مَوْتي إلى زمن قريب ، فأتصدَّق ، وأُصبِح صالِحًا تقيًّا . أعمل بطاعتك،وأقوم بواجباتك،وأُؤدِّي فرائضك. والمقصود مُشاهدة علامات الموت (الاحتضار) . وتقديم المفعول ﴿ أحَدَكُمُ ﴾ على الفاعل ﴿ الْمَوْتُ ﴾ للاهتمام والعناية والتَّنبيه . وهذا الإنسانُ سَأل الرَّجعة إلى الدنيا لعمل الصالحات ، والقيام بالطاعات . وكُل مَن يتمنَّى الرُّجوع إلى الدنيا أو تأخير الموت ، فهو لَم يجد له عند الله خيرًا ولا نعيمًا ، وهذا يدل على أنه عبد مُذنِب عاصٍ غارق في الآثام والخطايا ، لذلك يتمنى تدارُك ما فات وتصحيح المسار بعد فوات الأوان . والاستثناء الوحيد هو الشَّهيد ، فهو يتمنى الرجوع إلى الدنيا حتى يُقتَل مِن جديد لِمَا يرى من النعيم والكرامة والأجر العظيم والسعادة الأبدية . والآيةُ تحثُّ على الإنفاق في سبيل الله قبل مجيء الموت الذي يَقطع الأعمال . وأيضًا ، تشتمل الآية معنى تعجيل أداء الزكاة إذا حان وقتُها ، وكذلك سائر الطاعات والعبادات ، وعدم تأخيرها عن وقتها المعيَّن . وخَير البِر عاجله . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٧٨) : ((فكُل مُفرِّط يَندم عند الاحتضار ، ويسأل طُول المدة، ولو شيئًا يسيرًا ، لِيَستعتب ، ويَستدرك ما فاته ، وهَيْهَات . كان ما كان ، وأتى ما هو آت. وكُلٌّ بحسَب تفريطه)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ٢٧٧و٢٧٨):((قَوله تعالى: ﴿ وأنفِقُوا مِن ما رَزَقْناكُم ﴾ في هذه النفقة ثلاثة أقوال : أحدها أنه زكاة الأموال ، قاله ابن عباس. والثاني أنها النفقة في الحقوق الواجبة بالمال ، كالزَّكاة والحج ونَحْو ذلك ، وهذا المعنى مرويٌّ عن الضَّحاك . والثالث أنه صدقة التَّطوُّع ، ذَكَره الماوردي . فعلى هذا يكون الأمر نَدْبًا، وعلى ما قَبْله يكون أمر وجوب .

قَوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِ أن يَأتِيَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ . قال الزَّجاج : أي : مِن قَبْل أن يُعَايِن ما يَعلم منه أنه مَيت . قَوله تعالى : ﴿ لَوْلا أخَّرْتَني ﴾ أي:هَلاَّ أخَّرْتَني ﴿ إلى أجلٍ قَريبٍ ﴾ يعني بذلك الاستزادة في أجله لِيَتصدَّق ويُزَكِّيَ. وهو قَوله تعالى: ﴿ فأصَّدَّقَ ﴾ ، قال أبو عبيدة: نُصِب ، لأن كُل جواب بالفاء للاستفهام منصوب.قال الزَّجاج: المعنى إن أخَّرْتَني أَصَّدَّق وأكُن.وروى أبو صالح عن ابن عباس:﴿ فأصَّدَّقَ ﴾ أي: أُزَكِّيَ مالي. ﴿ وأكُن مِنَ الصالحين ﴾ أي: أَحُج مع المؤمنين)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إذا جَاءَ أجَلُهَا واللهُ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُون﴾[المنافقون: ١١].

إن الله تعالى لن يُؤخِّر نَفْسًا إذا حان وقتُ وفاتها. لن يُعطيَها فرصةً أخرى أو عُمرًا آخر ، أو فترةً إضافية . والله لَن يُمْهِل أحَدًا إذا انتهى عُمره المكتوب ، ولَن يَزيد في عُمره . وإذا حانَ أجلُ الإنسانِ المحتومُ ، فارقت الروحُ الجسدَ ، ومات الإنسانُ في الوقت الذي قَدَّره اللهُ له دون زيادة أو نقصان. والآيةُ تَدعو إلى المبادَرة لأداء العبادات، والمسارَعة إلى الطاعات، والاستعداد لِمَا هُو آت،وتُحذِّر مِن عَدَم الاستعداد للقاء الله تعالى ، لأن الموت يأتي فَجأةً في الوقت الذي يُريده الله، وليس الوقت الذي يُريده العبد ، لذلك على العبد أن يَكون مُسْتَعِدًّا وجاهزًا على الدَّوام ، فهو لا يَعرف مَتى تَحِين لحظة وفاته التي قدَّرها اللهُ تعالى . وهذا يدحض عقيدةَ الفوضى والعبث والصُّدفة التي تتجلى في قول الشاعر الجاهلي زُهَير بن أبي سُلمى :

رأيتُ المنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِبْ　　　تُمِتْهُ وَمَنْ تُخطِئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

فهو يُقرِّر أن الموت يُصيب الناس على غير نسق وترتيب وبصيرة. وهذه عقيدة تُصادِم العقيدة الصحيحة ، وهي أن الله تعالى يَقبض أرواح مَن يشاء إذا انتهت أعمارهم المكتوبة. لكنَّ البيئة الجاهلية الوثنية التي عاش فيها الشاعرُ أصابَتْه بِلَوْثتها وانحرافها وضلالها . واللهُ ذُو خِبرة بأعمال عباده ، مُطَّلِع عليها ، وعَالِم بِها ، سواءٌ كانت خَيْرًا أَم شَرًّا، ولا يَخفى عليه شيء، وهو سُبحانَه مُجازِي الْمُحسِن بإحسانه، والْمُسيء بإساءته. والآيةُ ﴿ واللهُ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُون ﴾ فيها معنى التحذير والوعيد . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١١١) : ((وقَوله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إذا جَاءَ أجَلُهَا ﴾ يقول: لَن يُؤخِّر اللهُ في أجل أحَد ، فَيَمُدَّ له فيه إذا حَضر أجَلُه ، ولكن يَخترمه (يأخذه). ﴿ واللهُ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُون ﴾.يقول: واللهُ ذُو خِبرة وعِلم بأعمال عبيده، هو بجميعها مُحيط، لا يَخفى عليه شيء ، وهو مُجازيهم بها ، الْمُحسِن بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته)) اهـ .

وفي فتح القدير للشَّوكاني (٥/ ٣٢٨) : ((وأخرج عبد بن حُمَيد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مَرْدَوَيْه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : " مَن كان له مال يُبلِّغه حج بيت الله ،أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل، سَأل الرَّجعةَ عند الموت". فقال رَجل: يا ابن عباس، اتَّقِ اللهَ ، فإنما يسأل الرَّجعةَ الكافرُ ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قُرآنًا .
ــ وقَرأ الآيتين [المنافقون : ١٠و١١] ــ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنفِقُوا خَيْـرًا لأنفُسِكُم وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُون ﴾ [التَّغابُن : ١٦].

وأنفِقُوا مِن أموالكم التي رَزقكم اللهُ إيَّاها في الطاعات ووجوه الخير ، مُخْلِصين لله ، بلا رياء ولا سُمعة ولا مَن ولا أذى ، وابتعدوا عن البُخل ، يَكُنْ خيرًا لأنفسكم . فهذا الأمر لمصلحتكم ومنفعتكم في الدنيا والآخرة ، حيث تنالون الهناءَ والسعادة والطمأنينة في الدنيا ، وتُخلِّصون أنفسَكم من عذاب النار ، وتفوزون بنعيم الجنة الأبديِّ في الآخرة. والإنفاقُ في الآية مُطْلَق غير مُقيَّد . أي : كُل مال يتم إنفاقه في طاعة الله . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٨٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وأنفِقُوا خَيْـرًا لأنفُسِكُم ﴾ ، أي : وابـذلوا مِمَّا رزقكم اللهُ على الأقارب والفقراء والمساكين وذَوي الحاجات، وأحسِنوا إلى خلق الله، كما أحسنَ اللهُ إليكم ، يَكُن خَيْرًا لكم في الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا ، يَكُن شَرًّا لكم في الدنيا والآخرة)) اهـ .

إن الإنفاق يعود بالفائدة على صاحبه في الدنيا والآخرة ، فهو يَعكس حرص الفرد على نيل رضا الله تعالى ، والنجاةِ من عذابه.كما أن عدم الإنفاق هو وَبال وشَر سيُلاحق المرءَ أينما ذهب . فينبغي للمُمْسِك عن الإنفاق أن يعرف أنه على شفير الهاوية ، وهو بذلك يُدمِّر نفسه ، ويقضي على مصيره . وكَم مِن امرئ قضى حياته خادمًا للمال ، جامعًا له ، مَهووسًا به ، خازنًا لِوَرَثته ، ثُمَّ رحل إلى دار البقاء مَحرومًا ، يُحاسَب على كل صغيرة وكبيرة . أمَّا وَرَثته فيتمتعون بما خَلَّفه مِن أموال ، ويُنفقونها في الحلال والحرام بلا حساب .

ولا شَكَّ أن الإنفاق بحاجة إلى مجهود كبير، لأن الشيطان والنَّفْس يُخوِّفان المرءَ من الفقر ، لذلك يتشبَّث المرءُ بالمال بأظافره وأسنانه إلا مَن رَحِمَ اللهُ . لذلك كان التعاملُ مع المال هو المِحَك الحقيقي للكشف عن معادن الرجال . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٨٦) : ((﴿ وأنفِقُوا خَيْرًا لأنفُسِكُم ﴾ وفي هذه النفقة ثلاثة أقوال : أحدها الصدقة ، قاله ابن عباس . والثاني نفقة المؤمن على نفْسه ، قاله الحسن. والثالث النفقة في الجهاد ، قاله الضَّحاك)) اهـ .

ومَن سَلِمَ مِن البُخل الذي تَدعو إليه النفس، ونجا مِن عِشق المال الذي هو رأس كُل خطيئة ، وأعطى حقَّ الله في ماله، فقد فازَ بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة، وحقَّق مُرادَه، وحَصل على مطلوبه . وهذا هو الفلاح الحقيقيُّ ، الذي يتجلى في طاعة الله ، والانتصار على شهوات النفس ورغباتها .

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُون ﴾ [39] . مَن حماه اللهُ مِن البُخْل فقد أفلحَ في الدنيا ، وفازَ بالجنة يوم القِيامة . وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠٨٣): ((مَن حُفظ من الحرص الْمُهْلِك على المال، وهو حِرْصٌ يَحمله على إمساك المال عن الحقوق والحسدِ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٦): عن جابرِ بنِ عبد الله_ رضي الله عنه_ : أن رسول الله ﷺ قال : ((واتَّقوا الشُّحَّ ، فإن الشُّحَّ أهلكَ مَن كان قَبْلَكم ، حَمَلَهم على أن سَفَكُوا دِماءَهم ، واستحلُّوا مَحارِمَهُم)) .

والشَّخصُ الشَّحِيحُ حريصٌ على المال بشكل جنوني ، وهذا يَدفعه إلى التفكير بكل الوسائل للحصول عليه وتخزينه ، دون التمييز بين الطريق الشرعي وغير الشرعي . وقد يَحمله هذا الهوسُ المادي على ارتكاب جرائم القتل واستحلال المحارم ، من أجل تنفيذ أحلامه الْمُدمِّرة ، وتحقيق طُموحاته القاتلة . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٤) : ((قال القاضي : يُحْتَمَل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبرَ عنهم بِه في الدنيا ، بأنهم سفكوا دماءهم . ويُحْتَمَل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظْهَر ، ويُحْتَمَل أنه أهلَكَهم في الدُّنيا والآخرة)) اهـ .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (١/ ١٣٤): ((قال بعض العارفين : الشُّح مُسابَقةُ قَدَرِ الله ، ومَن سابقَ قَدَرَ الله سُبِق ، ومُغالَبةٌ لله ، ومَن غَالَبَ الحقَّ غُلِب ، وذلك لأن الحريص يريد أن ينال ما لم يُقَدَّرْ له ، فعُقوبته في الدنيا الحِرمان ، وفي الآخرة الْخُسْران)) اهـ . وعن الأسْوَدِ بنِ هلالٍ قال : جاء رَجل إلى عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ فسأله عن هذه الآية : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وإني امرؤٌ ما قَدِرْتُ، ولا يَخرج مِن يَدَيَّ شَيء، وقد خَشيتُ أن

---

(٣٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢١٥):((وقد اختلف العلماء في الشُّح والبُخْل، هل بينهما فرق أم لا. فقال ابن جرير: الشُّح في كلام العرب،هو مَنْع الفَضْل من المال.وقال أبو سليمان الخطابي : الشُّح أبْلَغ في المنع مِن البُخْل، وإنما الشُّح بِمَنْزلة الجِنْس، والبُخْل بِمَنْزلة النَّوْع،وأكثر ما يُقال في البُخْل إنما هو في أفراد الأمور وخواص الأشياء ، والشُّح عام فهو كالوصف اللازم للإنسان ، مِن قِبَل الطبع والجِبِلَّة، وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: البُخْل أن يَضِنَّ بماله ، والشُّح أن يَبخل بماله ومعروفه)).

يكون قد أصابني هذه الآية ، فقال عبد الله : ((ذَكَرْتَ البُخْلَ، وبِئْسَ الشَّيْءُ البُخْلُ ، وأمَّا ما ذَكَرَ اللهُ في القرآن، فَلَيْسَ كما قُلْتَ، ذلكَ أن تَعْمَدَ إلى مال غَيْرِك أو مال أخيك، فَتَأكُلَه))[40].

لقد اعتبرَ ابن مسعود ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّ البُخل ليس هو المقصود في الآية ، وإنما المقصود أكل أموال الناس بالباطل (أخذ أموالهم بالطُّرُق غَير المشروعة). وهذا تفريقٌ بين الشُّح والبُخْل. وفي جمهرة خطب العرب (١/ ٢١٤) أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال في خُطبة له : ((واعلموا أن بعض الشُّح ـ يعني البُخل ـ شُعبةٌ من النفاق ، فأنفِقُوا خيرًا لأنفسكم ، ومَن يُوقَ شُحَّ نفْسه ، فأولئك هُم المفلحون)) اهـ .

إن البُخلَ خَصلةٌ مذمومة عند جميع الأمم . وقد كان العربُ يُعيِّرون البُخلاءَ ، فتصبح هذه الصفة وصمةَ عارٍ بين القبائل والأقوام . والبخلُ يَعكس ضعفَ اليقين ، وشدةَ التعلق بمتاع الدنيا الفاني ، والرُّعب مِن المستقبل المجهول ، والخوف على الرزق الذي تكفَّل اللهُ تعالى بحفظه . ورِزقُ الإنسانِ لن يَأخذه غَيْرُه، فعليه أن يطمئن، ويأخذ بالأسباب، ويبتعد عن القلق والاضطراب.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُم وَيَغفِرْ لَكُم واللهُ شَكُورٌ حَليم ﴾ [التَّغابُن : ١٧]. إن أنفقتم في طاعة الله ، وتصدَّقتم في سبيله ، مُخْلِصين لله ، وعن طِيب نفْس، فإن اللهَ يُخْلِفه ، ويُعوِّضكم خيرًا مِنه، ويُضاعِف لكم الأجرَ والثوابَ أضعافًا كثيرة ، فيجعل الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضِعف ، ويَتجاوز عن ذُنوبكم ، ويُكفِّر سيئاتكم ببركة الإنفاق ، واللهُ شاكرٌ للمُحسِن إحسانَه ، ويُجازي على القليل بالكثير ، تفضُّلاً مِنه وتكرُّمًا ، وحليمٌ بالعباد ، يَعفو عن ذُنوبهم وآثامهم ، ويَستر خَطاياهم ، ويُمهِلهم ، ولا يُعاجِلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ومعاصيهم . وقد شَبَّهَ اللهُ الْمُنْفِقَ في سبيله ، والْمُتَصَدِّقَ على الفقراء ، بِمَن يُقْرِض اللهَ قرضًا حسنًا واجب الوفاء . وهذا تمثيلٌ لعملية الإنفاق ، وتشريفٌ للمُتَصَدِّق ، ورفعٌ لشأنه . ولا يَخفى أن الله غنيٌّ عن كل شيء ، لا يَحتاج شيئًا ، وكُل شيء يحتاج إليه .

والقَرْضُ الحسَن ما قُصِد بِه وجه الله من المال الطَّيب بلا مَن ولا أذى . وسُمِّيَ قرضًا لأن القَرْض أُخْرِج من أجل استرداد البَدَل والعِوَض . والمؤمنُ الذي يُنفِق في سبيل الله ويَتصدَّق على الفقراء ، إنما يَفعل ذلك مُخْلِصًا لله ، وطلبًا لرضاه ، وحتى يُعوِّضه اللهُ خيرًا مِمَّا أنفقَ ، ويُضاعِف أجرَه أضعافًا كثيرة ، وهذا هو البَدَل والعِوَض .

---

(٤٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٣٢) برقم (٣٨١٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٢٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وإن تُنفِقوا في سبيل الله ، فتُحسِنوا فيها النفقة ، وتَحتسبوا بإنفاقكم الأجرَ والثوابَ ، يُضَاعِف ذلك لكم رَبُّكم ، فيجعل لكم مكان الواحد سَبع مئة ضِعف إلى أكثر مِن ذلك مِمَّا يشاء مِن التَّضعيف ﴿ وَيَغفِرْ لَكُم ﴾ ذنوبكم ، فيَصفح لكم عن عُقوبتكم عليها ، مع تَضعيفه نفقتكم التي تُنفِقون في سبيله ، ﴿ واللهُ شَكُورٌ ﴾ . يقول: والله ذو شُكر لأهل الإنفاق في سبيله بِحُسن الجزاء لهم على ما أنفقوا في الدنيا في سبيله، ﴿ حَليم ﴾ . يقول : حليم عن أهل معاصيه بترك مُعاجلتهم عقوبته)) اهـ . وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يَقول اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : استقرضتُ عَبْدي فأبى أن يُقْرِضَني ، ...)) . ثُمَّ تلا أبو هريرة قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُم ﴾ [41]. إن اللهَ دعا العبدَ إلى الإنفاق في سبيله ، وحثَّه على التصدُّق على الفقراء ، كَي يُضاعِف أجرَه وثوابَه أضعافًا كثيرة ، فَبَخِلَ العبدُ بماله ، ولَم يُنفِق ولَم يَتصدَّق . ومسألةُ القَرْض استعارة تمثيلية للإنفاق والبَدَل ، واللهُ غنيٌّ عن كل شيء ، لا يَحتاج إلى نفقة ولا قَرْض . لا تَنفعه الطاعاتُ ، ولا تضرُّه المعاصي . ومَن أحسنَ فإنما أحسنَ لنفْسه ، واللهُ لا يَستفيد مِن إحسانه ، ومَن أساءَ فإنما أساءَ لنفْسه ، والله لا يَتضرَّر مِن إساءته . وللعبد كامل الحرية في الاختيار ، ويتحمَّل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة . واللهُ يُجازيه على أعماله ، إن خَيْرًا فَخَير ، وإن شَرًّا فَشَر .وفي الحديث القُدْسِيِّ الذي رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٢١) أن الله تعالى يقول : ((مَن يُقْرِضُ غَيْرَ عَديمٍ ولا ظَلُومٍ ؟)).هذا الحديث دَعوة إلهية كريمة إلى الإنفاق والتَّصَدُّق،وفيه تحريض على طاعة الله ، والتأنيس بثوابها . والمعنى: مَن يُقْرِضُ اللهَ الغنيَّ عن كُل شيء،وهو سُبحانَه ليس فقيرًا ولا عَدِيمًا. والعديم الذي لا شَيء عنده. وليس الله ظَلُومًا لعباده ، فهو سُبحانَه مُنَزَّهٌ عن الظلم ، وسوفَ يَجد العبادُ ما أنفقوه في الدنيا ، مُضَاعَفًا أضعافًا كثيرة يوم القيامة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٣٨) : ((والمراد بالقَرْض ــ والله أعلم ــ عمل الطاعة ، سواء فيه الصدقة والصلاة والصوم والذِّكر وغَيرها من الطاعات . وسَمَّاه سُبحانَه وتعالى قَرْضًا ، مُلاطَفَةً للعباد ، وتحريضًا لهم على الْمُبادَرة إلى الطاعة ، فإن القرض إنما يكون مِمَّن يَعرفه الْمُقترِض ، وبينه وبينه مُؤانَسة ومحبة ، فحين يتعرَّض للقَرْض يُبادِر المطلوب منه بإجابته ، لفرحه بتأهيله للاقتراض مِنه ، وإدلاله عليه ، وذِكره له)) اهـ .

---

(٤١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٣٣) برقم (٣٨١٦) وصَّححه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وما تُقَدِّمُوا لأنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وأعظمَ أجْرًا ﴾[الْمُزَّمِّل : ٢٠] .

وأدُّوا الصلوات الخمس المفروضة في اليوم والليلة في أوقاتها على الوجه الأمثل ، بكامل شروطها وحدودها وآدابها، وأعطوا الزكاةَ (الصدقةَ المفروضة في أموالكم) لأهلها المستحقين لها. ويَظهر الاقترانُ بين الصلاة والزكاة في كثير من الآيات ، لأن الصلاة عَمود الدِّين بين العبد وربِّه، والزكاة عمود الدِّين بين العبد وإخوانه . والصلاة أعظم العبادات البدنية ، والزكاة أعظم العبادات المالية . والصلاة تطهير للرُّوح والجسد ، والزكاة تطهير للمال الذي يُعَادِل الرُّوحَ .

وأنفِقوا في سبيل الله مِن أموالكم، وتصدَّقوا على الفقراء ، ابتغاء وجه الله تعالى ، والله يُجازي على ذلك أعظمَ الجزاء . وفي الآية تحريض على الإنفاق وحَث عليه وترغيب فيه بوعد العِوَض .

وأركانُ القَرْض الحسَن هي : إخلاص النِّية ، وطِيب النَّفْس ، والمال الحلال ، وإنفاقه في طاعة الله تعالى، وعدم الْمَنِّ والأذى . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٩٦):((﴿ وأقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾. قال ابن عباس:يُريد سِوى الزكاة،في صِلة الرَّحِم وقِرى الضَّيف (إكرامه))) اهـ.

وفي الآية تَشبيه الإحسان إلى الفقراء والتصدُّق عليهم بإقراض الله تعالى . وهو استعارة تمثيلية لطيفة ، تشتمل على معنى العِوَض والبَدَل والأجر الْمُضَاعَف . واللهُ غنيٌّ عن كل شيء ، فهو خالقُ الناس ورازقهم ، والمالُ مال الله . وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٤٩) : ((القَرْض الحسَن ما قُصِد به وجه الله تعالى خالصًا مِن المال الطَّيب . وقال زيد بن أسلم : القَرْض الحسَن النفقة على الأهل. وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله)) اهـ .

وما تُقدِّموا أيها المؤمنون في الدنيا مِن صدقة في طاعة الله أو نفقة في سبيله، أو إحسان في وجوه الخير ، تجدوه عند الله يوم القيامة أضعافًا مُضَاعَفَة ، وهو مَحفوظ لكم ، لا يَضيع ولا يَزول ولا يَنقُص . ﴿ هُوَ خَيْرًا وأعظمَ أجْرًا ﴾ أي : تجدوا ذلك الأجرَ والثوابَ يوم القيامة خَيْرًا لكم مِمَّا قَدَّمتم في الدنيا مِن الأعمال الصالحة ، وأعظم ثوابًا للمؤمنين. فإن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، ومال الدنيا في الدنيا ، والكفن ليس له جُيوب . أمَّا الأجر في الآخرة فهو مَحفوظ ومُضَاعَف .

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ خَيْرًا ﴾ هو مفعول بِه ثانٍ لِ ﴿ تَجِدُوهُ ﴾.و﴿ هُوَ ﴾ للتأكيد أو الفصل.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٩٦) : ((﴿ وما تُقَدِّمُوا لأنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ ﴾ أي : تجدوا ثوابَه في الآخرة ﴿ هُوَ خَيْرًا ﴾ . قال أبو عبيدة : المعنى تجدوه خيرًا . قال الزَّجاج : ودَخلت ﴿ هُوَ ﴾ فَصْلاً . وقال المفسرون : ومعنى ﴿ خَيْرًا ﴾ أي : أفضل مِمَّا أَعْطَيْتُم ،

﴿ وأعظمَ أجْرًا ﴾ مِن الذي تُؤخِّرونه إلى وقت الوصية عند الموت)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٣٦٦):قال عبد الله بن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ: قال النبيُّ ﷺ : ((أيُّكُم مَالُ وَارِثِه أحبُّ إليه مِن ماله ؟)). قالوا : يا رسول الله ، ما مِنَّا أحدٌ إلا مالُه أحبُّ إليه . قال : ((فإن ماله ما قَدَّمَ ، ومال وارثه ما أخَّرَ)) . إنَّ ما أنفقه العبدُ في الدنيا في وُجوه الخير وطاعةِ الله ، هو المال الذي قَدَّمَه ، وصارَ أمامه ، ويُجازَى عليه بعد مَوته في الآخرة . وما ادَّخره حتى ماتَ وتركه لوارثه ، فهو المال الذي أخَّرَه . والحديثُ يَدعو إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى . وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٦٠) : ((قَوله : " أيُّكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ "، أي: إن الذي يُخلِّفه الإنسان من المال ، وإن كان هو في الحال منسوبًا إليه ، فإنه باعتبار انتقاله إلى وارثه يكون منسوبًا للوارث ، فَنِسبته للمالك في حياته حقيقية ، ونِسبته للوارث في حياة الْمُوَرِّث مَجازية ، ومِن بعد مَوته حقيقية . قَوله : " فإن ماله ما قَدَّمَ " ، أي هو الذي يُضاف إليه في الحياة وبعد الموت بخلاف المال الذي يُخلِّفه... . قال ابن بطال وغَيره : فيه التحريض على تقديم ما يمكن تقديمه من المال في وجوه القُربة والبِر ، لِيَنتفع به في الآخرة، فإن كُل شيء يُخلِّفه الْمُوَرِّث يصير مِلْكًا للوارث ، فإن عمل فيه بطاعة الله اختصَّ بثواب ذلك ، وكان ذلك الذي تَعِب في جَمعه ومَنعه ، وإن عمل فيه بمعصية الله فذاك أبعد لمالكه الأول مِن الانتفاع به ، إن سَلِمَ مِن تَبِعَته ، ولا يُعارضه قَوله ﷺ لسعد : " إنَّكَ إن تَذَرْ وَرَثَتَكَ أغنياء ، خَيْرٌ مِن أن تَذَرَهُم عَالة "، لأن حديث سعد محمول على مَن تَصَدَّق بماله كله أو مُعظمه في مَرضه . وحديث ابن مسعود في حق مَن يَتصدَّق في صِحَّته وشُحِّه)) اهـ . وفي فَيض القدير للمُناوي (٢/ ١٠) : ((قال بعض العارفين : قَدِّمُوا بعضًا لِيَكون لكم ، ولا تُخلِّفوا كُلاًّ ليكون عليكم. قال الماوردي: ورُوِيَ عَن عائشة قالت : ذَبَحْنا شاةً ، فَتَصَدَّقْنا بها ، فقلتُ: يا رسول الله، ما بَقِيَ مِنها إلا كَتِفُها. قال : " كُلُّها بَقِيَ إلا كَتِفَها " . فالحازم مَن عَمَدَ إلى ما زاد عن كفايته ، فيرى انتهاز الفرصة فيها ، فيضعها بحيث تكون له ذُخْرًا مُعَدًّا . ومَن يَدَّخر المال لولده ونَحْوه مِن وَرَثته إشفاقًا عليه مِن كَد الطلَب وسُوء الْمُنقلَب، استحق الذم واللوم مِن وُجوه ، مِنها : سُوء الظن بخالقه في أنه لا يَرزقهم إلا مِن جِهته ، والثقة ببقاء ذلك على ولده مع غدر الزمان ومِحَنه ، ومِنها ما حَرَّمَ مِن منافع ماله، وسَلَب مِن وُفور حاله . وقد قِيل : إنما مالك لك أو لوارثك أو للجانحة ، فلا تكن أشقى الثلاثة . ومِنها : ما لَحِقَه مِن شقاء حُمقه ، وناله من عَناء كَدِّه ، حتى صار ساعيًا محرومًا ، وجاهدًا مذمومًا ، ومِن ثَمَّ قالوا : رُبَّ مغبوط بِمَسَرَّة هي داؤه ، ومَحزون مِن سَقَم هو شفاؤه ، ومنها : ما يُؤخَذ بِه مِن وِزْره وآثامه ، ويُحاسَب

عليه مِن شقائه وإجرامه . وكما حُكِيَ أن هشام بن عبد الملك لَمَّا ثَقُلَ بكى عليه ولده ، فقال : جَادَ لكم هشام بالدنيا ، وَجُدْتُم له بالبكاء ، وتَرَكَ لكم ما كَسَب ، وتَرَكْتُم عليه ما اكتسبَ . فَعُلِم مِن هذا التقرير أن الحديث مَسوق لِذَم مَن قَتَّرَ على نفْسه وعِياله وشَحَّ بالمال أن يُنفِق منه في وجوه القُرب، وادَّخره لِوَرَثته . أمَّا مَن وسَّع على عِياله وتصدَّق قَصْدًا بالمعروف ، ثُمَّ فَضَلَ (بقي) بعد ذلك شيء، فادَّخره لعياله ، فلا يَدخل في الذنب بدليل خَبر : " لأن تترك وَرَثتك أغنياء خَير ، ... إلخ". وقضيته أن مَن مات وخَلَّفَ دَيْنًا لوارثه ، فلم يَقبضه ، ثُمَّ مات الكُل ، كان الْمُطَالَب بِه في الآخرة الوارث ، لكن صَرَّح أئمتنا بأن الْمُطَالَب فيها صاحب الحق أولاً)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ ﴾[الضُّحى : ١٠] .

وأمَّا السائل ، فلا تَزْجُرْه ، ولا تُغْلِظْ له القَول ، بَل عَامِلْه بِرفق ولِين ، وساعده معنويًّا وماديًّا، واقْضِ حاجته ، أو رُدَّه بأسلوبٍ طَيِّب لا خُشونة فِيه . وقد كُنتَ فقيرًا محتاجًا يا محمد فأغناكَ اللهُ مِن فَضله ، فَتَذَكَّر دائمًا الفقراءَ والمحتاجين . والمعنى العام : إمَّا أن تُعطيَ السائلَ الذي يَطلب الصدقةَ ، وإمَّا أن تَرُدَّه رَدًّا لَيِّنًا . وقِيل: المرادُ بالسائل طالب العِلْم الذي يَسأل عن أُمور الدِّين من أجل أن يَتعلم، فلا تَزْجُرْهُ، ولا تُوَبِّخْه ، وأجِبْهُ بهدوء ورحمة . وهذا يَدل على ضرورة نشر العِلْم ، وعدم كِتمانه ، ومُعاملة طُلاب العِلم بهدوء ورِفق ولِين ، وعدم زَجْرهم ولا تَوبيخهم .

وتقدير الكلام : مَهْمَا يَكُن مِن أمرٍ ، ومَهْمَا حَدَثَ ، فلا تَنْهَر السائلَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٧٤) : ((﴿ وأمَّا السَّائلَ فلا تَنْهَرْ ﴾ أي : وَكَما كُنتَ ضَالاً فَهَداكَ اللهُ،فلا تَنْهَر السائلَ في العِلْم الْمُسترشِد.قال ابن إسحاق:﴿ وأمَّا السَّائلَ فلا تَنْهَرْ ﴾ أي : فلا تَكُن جبَّارًا ولا مُتكبِّرًا ولا فَحَّاشًا ولا فَظًّا على الضعفاء من عباد الله . وقال قتادة : يعني رُدَّ المسكين برحمة ولين)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون ﴾[الْمَاعُون : ٧] .

هذا ذَم للذين يَمنعون الناسَ المنافعَ البسيطة والحاجات الصغيرة التافهة . وأصل الماعون مِن كل شيء مَنفعته . إنهم يَرفضون مُساعدة الناس بالحاجات اليسيرة كالإبرة والدَّلْو والقِدْر والفأس والمِلح والماء وغَيرها . ومَن كان بَخيلاً بهذه الأشياء الصغيرة ، فهو أشد بُخلاً بالأشياء الكبيرة . ومَن رَفض إعارة الناس هذه المنافع اليسيرة معَ عَودتها إليه ، فَمِن الطبيعي أن لا يُخرِج الزكاة ولا الصدقات .

والآيةُ تُحذِّر مِن رَفض مُساعدة الناس بمال أو مَنفعة ، وفيها ترهيب مِن البُخل بهذه الأشياء البسيطة الصغيرة، فإن البُخل بِها هو أسوأ أنواع البُخل، وهو مُخِل بالْمُروءة والشرف والكرامة .

وقد ذَمَّ اللهُ هذه الصِّفة السَّيئة (مَنع الماعون) ، ووَصَف أصحابَها بِقِلَّة النفع للناس ، وهذه أسوأ صِفة. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧١٨) : ((وقَوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون ﴾ أي : لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خَلْقه ، حتى ولا بإعارة ما يُنتفَع بِه ويُستعان به مع بقاء عَيْنه، ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أَوْلَى وأولى)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٤٥و٢٤٦) : ((وفي الماعون ستة أقوال : أحدها أنه الإبرة والماء والنار والفأس ، وما يكون في البيت من هذا النَّحْو ، رواه أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ ، وإلى نَحْوه ذهب ابن مسعود ، وابن عباس في رواية ، وروى عنه أبو صالح أنه قال : الماعون المعروف كُلُّه ، حتى ذَكَرَ القِدْر والقَصْعة والفأس . وقال عِكرمة : ليس الويل لِمَن مَنع هذا ، إنما الويل لِمَن جمعهنَّ فراءى في صلاته ، وسَها عنها ، ومَنع هذا . قال الزَّجاج : والماعون في الجاهلية كُل ما كان فيه منفعة ، كالفأس والقِدْر والدَّلْو والقَدَّاحة ، ونَحْو ذلك. وفي الإسلام أيضًا. والثاني أنه الزكاة ، قاله عليٌّ وابن يَعْمَر والحسن وعِكرمة وقتادة . والثالث أنه الطاعة ، قاله ابن عباس في رواية . والرابع المال، قاله سعيد بن المسيِّب والزُّهري . والخامس المعروف ، قاله محمد بن كعب . والسادس الماء ، ذَكَرَه الفَرَّاء عن بعض العرب)) اهـ .

وقد قال ابن عباس ــ رضي اللهُ عنه ــ في تفسير ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون ﴾ : ((العارية)) [42].

وقال ابن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ في تفسير " الماعون " : ((ما يتعاون الناس بينهم))[43].

وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((كُلُّ مَعروفٍ صَدَقَةٌ)) [44].

والمعروف كُل شَيء عُرِف فيه رِضا الله تعالى . ومَن فَعَلَه كان ثوابُه كثواب مَن تَصَدَّقَ بالمال.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٩١) : ((قَوله ﷺ : " كُل معروف صدقة " أي: له حُكمها في الثواب ، وفيه أنه لا يحتقر شيئًا مِن المعروف، وأنه ينبغي أن لا يبخل بِه ، بل ينبغي أن يحضره)) اهـ .

---

(٤٢)رواه الطبراني في الكبير(١٢/ ٢٢).قال الهيثمي في المجمع(٧/٣٠٠):((رجاله رجال الصحيح)).

(٤٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٣) برقم (٣٣٧٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤٤) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٢٤١) برقم (٥٦٧٥)، ومسلم (٢/ ٦٩٧) برقم (١٠٠٥).

ه

الفصل الخامس

الحَجُّ والعُمرة

تمهيد

الحـجُّ _ لُغـةً _ هـو القَصْـد . أمَّـا فـي الاصـطلاح الشـرعي فهـو حَـج المسـلمين إلـى مدينة مكة في موسم مُحدَّد مِن كُل عام. وله شعائر مُعيَّنة تُسمَّى مَناسك الحج ، وهو فَرْض عَيْن على كل مسلم بالغ قادر مَرَّةً واحدة في العُمر. وقد فُرِض في السنة التاسعة للهجرة، وهو الرُّكن الرابع من أركان الإسلام .

والحجُّ مِن أعظم العبادات التي يُتقرَّب بها إلى الله تعالى .كما أنه رحلة رُوحية وجسدية من الظلام إلى النُّورِ ، ومِن الذنوب إلى التَّوبة ، ومن الشهوانية المادية إلى الرُّوحانية المعتدلة .

تبدأ مناسك الحج في الثامن من شهر ذِي الحِجَّة ، بأن يقوم الحاج بالإحرام مِن مواقيت الحج المحدَّدة، ثُمَّ التوجه إلى مكة ليقوم بطواف القُدوم،ثم التوجه إلى مِنى لقضاء يوم التَّروية، ثم التوجه إلى عَرَفة لقضاء يوم عَرَفة ، بعد ذلك يرمي الحاج الجمَرَات في جَمرة العَقَبة الكُبرى ، ويعود الحاج إلى مكة ليقوم بطواف الإفاضة ، ثم يعود إلى مِنى لقضاء أيام التشريق ، ويعود الحاج مَرَّة أخرى إلى مكة ليقوم بطواف الوَداع ، ومغادرة الأماكن المقدَّسة .

والعبدُ يَرحل إلى خالقه تعالى راجيًا القَبول ونيل المغفرة . كما أن شعائر الحج تُذكِّر العبدَ بأحداث ما بعد الموت ، مِثل البَعْث والنُّشور . مِمَّا يترك في النفس البشرية بالغَ الأثر الطَّيب الذي يَدفع باتجاه خلع الذنوب والتزام التوبة .

أمَّا العُمرة ، فهي اسم من الاعتمار ، وتعني في اللغة : القَصْد والزيارة ، أمَّا في الاصطلاح الشرعي ، فهي زيارة المسجد الحرام في مكة لأداء مَناسك خاصة ،كالطواف ، والسَّعي والحلق. والعُمرة مشروعة بأصل الإسلام . أمَّا حُكمها ، فذهب العلماء إلى قَولين : الأول يرى أنها واجب، وهو مذهب الشافعي وأحمد . والرَّأي الثاني فيرى أنها سُنَّة ، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك .

وشُرِعت العُمرة في السنة التاسعة للهجرة ، ويصح أداء العُمرة طوال أيام السنة ، بمعنى أنه لا وقت مُحدَّد لها باستثناء أيام الحج ، والعُمرة تختلف عن الحج، إذ إن الحج رُكن من أركان الإسلام وواجب على كل مسلم قادر، كما أن له وقتًا مُحدَّدًا لأداء مناسكه ، وهذا بِخِلاف العُمرة.

وتبدأ مناسك العُمرة بأن يقوم الْمُعتمِر بالإحرام مِن المواقيت المحدَّدة ، ثم التَّوَجُّه إلى مكة ودخول المسجد الحرام ، ويقوم الْمُعتمِر بعد ذلك بأداء الطواف ، ثم السَّعْي بين الصَّفا والمروة ، وتنتهي المناسك بالحلق أو التقصير .

أولاً : الحجُّ والعُمرةُ وآدابُهما

إن الحج مِن الفرائض الثابتة في القرآن والسُّنة ، ومِن المعلوم مِن الدِّين بالضرورة ، بحيث إن مُنكِره كافر. ولا يتَّسع هذا المقام لبيان شعائر الحج تفصيلاً، أو ذِكر الأدلة الشرعية بكل جوانبها. لكننا نسعى إلى تسليط الضوء على موضوع الحج بشكل عام شديد الإيجاز لِنُعطيَ فكرةً شمولية واضحة حول مركزية هذه العبادة ودورِها في بناء الفرد، وتحريكِ المجتمعات نحو العمل الدؤوب ، وإزالة اليأس مِن النفوس، وبعث الأمل المتجدد في قلوب العباد كي يُواصلوا رحلتهم إلى الله تعالى. وكلما سَقطوا وقفوا من جديد ، واستمروا في المشي بكل ثبات رغم كل العوائق .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِن شَعائرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أوِ اعتمرَ فلا جُناحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فإنَّ اللهَ شاكرٌ عليم ﴾[البقرة : ١٥٨] .

الصَّفا جمع صَفاة ، وهي الصخور الصلبة الملساء . والمروةُ الحجر الرَّخْو ، وجَمْعها مَرَوَات.

أمَّا في الآية فهما الجبَلان المعروفان مِن جبال مكة ، في طَرَفَي المسعى ، وهُما مِن معالم الله ومواضع عباداته . وشعائرُ الله هي أعلام دِينه التي جعلها للناس ، وهي جمع شعيرة (علامة) ، وهي كُل مَعْلَم مُخصَّص للتقرُّب إلى الله تعالى مِن صلاة ودعاء وذبيحة . والآية تدل على اشتراك الحج والعُمرة في مشروعية السَّعْي بين الصفا والمروة . وهو مِمَّا شَرَعَ اللهُ لإبراهيم ﷺ في مناسك الحج، وهو رُكن في الحج ، لِقَول النبيِّ ﷺ : ((اسْعَوْا ، فإن الله تعالى كَتب عليكم السَّعْي))[1].

(١) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٧٩)،وقال الذهبي: ((لَم يَصِح)) . ورواه ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٢٣٢) . وفي تفسير الثعالبي (١/ ١٢٤) : ((صحَّحه الدارقطني)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٤٩٨) : ((أخرجه الشافعي وأحمد وغيرهما ، وفي إسناد هذا الحديث عبد الله بن المؤمَّل وفيه ضَعف، ومِن ثَمَّ قال ابن المنذر: إن ثبت فهو حُجَّة في الوجوب. قُلتُ: له طريق أخرى في صحيح ابن خزيمة مختصرة ، وعند الطبراني عن ابن عباس كالأولى، وإذا انضمَّت إلى الأولى قَوِيَت)) اهـ . وفي عُمدة القاري (٩/ ٢٨٨):((قال شيخنا زين الدين رحمه الله تعالى في (شَرْحه للترمذي) اختلفوا في السَّعْي بين الصَّفا والمروة للحاج على ثلاثة أقوال: أحدها أنه رُكن لا يَصِح الحج إلا بِه ، وهو قول ابن عمر وعائشة وجابر ، وبه قال الشافعي ومالك في المشهور عنه ، وأحمد في أصح الروايتين عنه ، وإسحاق وأبي ثَور ، لِقَوله:" اسْعَوْا ، فإن الله كَتب عليكم السَّعْي".رواه أحمد والدارقطني والبيهقي من رواية صفية بنت شَيبة عن حبيبة بنت أبي تجرأة بإسناد حسن،وقال عبد العظيم إنه حديث حسن . قلتُ : قال ابن حزم في =

و" كَتَبَ " بمعنى : أوجبَ . فَمَن لَم يَسْعَ بين الصفا والمروة لَم يَصِح حَجُّه ، والسَّعْيُ هو قطع المسافة بينهما بالمرور . ومعنى الآيةُ يُشير إلى وُجوب السَّعْي بين الصفا والمروة ، لأنها مِن شعائر الله، أي : مَعلم ثابت في الحج والعُمرة ، فكان رُكنًا كالطواف . والجديرُ بالذِّكر أن أعمال الحج والعُمرة مأخوذة مِن فِعل النبيِّ ﷺ ، ويجب الاقتداء بِه ، والسَّير على خُطاه . وقد روى البيهقي في سُننه (٥/ ١٢٥) أن النبيَّ ﷺ قال : ((خُذوا عَنِّي مَناسككم)) . وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٤٣) عن جابر قال: رَأيتُ النبيَّ ﷺ يَرمي على راحلته يوم النَّحْر ، ويَقول : ((لِتَأخذوا مَناسككم ، فإني لا أدري لَعَلِّي لا أَحُجُّ بعد حَجَّتي هذه)) . والْمَنَاسِكُ هي مواقف الحج وأعماله. وقد قال النبيُّ ﷺ هذا الكلام في حَجَّة الوداع، لترغيب المؤمنين وحَثِّهم على تعلم أحكام الحج وأعماله،وتطبيقها بشكل صحيح،وإعلامًا لهم باقتراب مَوْته. والحديثُ دل على وجوب اقتداء الحاج بالنبيِّ ﷺ في أعمال الحج ، وذلك بأن يتعلم أفعال النبيِّ ﷺ في الحج وأقواله ، ويَقتديَ بِه في ذلك ، ويُطبِّقها على أرض الواقع بلا زيادة ولا نُقصان . ويجب على المسلمين أن يَفعلوا كما فَعل النبيُّﷺ لأن العبادات قائمة على الاتِّباع لا الابتداع. وهذا الخطاب النبويُّ للصحابة _ رضي اللهُ عنه _ ، وهو خطاب لجميع المسلمين إلى يوم القيامة . ويجب على الحاج والمعتمِر أن يَقتديَ بالنبيِّ في أداء المناسك،ويسير على خُطاه بدقة.وكُل ما فَعله النبيُّ ﷺ في حَجَّته الوحيدة (حَجَّة الوداع) واجب لا بُدَّ مِن فِعله في الحج بالضبط، إلا ما خَرج بدليل. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ٤٥) : ((وتقديره : هذه الأمور التي أتيتُ بها في حَجَّتي من الأقوال والأفعال والهيئات ، هي أمور الحج وصِفته ، وهي مناسككم ، فخذوها عَنِّي ، واقبلوها ، واحفظوها، واعملوا بها، وعَلِّموها الناس.وهذا الحديث أصل عظيم في مناسك الحج . وهو نَحْو قَوله ﷺ في الصلاة: " صَلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي"، وقَوله ﷺ:" لعلي لا أحج بعد حَجَّتي هذه"،فيه اشارة إلى توديعهم،وإعلامهم بِقُرب وفاته ﷺ، وحثهم على الاعتناء بالأخذ عنه،وانتهاز الفرصة مِن مُلازمته،وتعلم أمور الدِّين،وبهذا سُمِّيت حَجَّة الوداع والله أعلم)) .

=(الْمُحَلَّى) إن حبيبة بنت أبي تجرأة مجهولة ، وقال شيخنا : هو مردود ، لأنها صحابية ، وكذلك صفية بنت شَيبة صحابية . والقول الثاني إنه واجب يُجبَر بدم ، وقاله الثوري وأبو حنيفة ومالك في (العتبية) كما حكاه ابن العربي ، والقول الثالث إنه ليس بركن ولا واجب ، بل هو سُنة ومُستحب ، وهو قول ابن عباس وابن سيرين وعطاء ومجاهد ، وأحمد في رواية)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((فقد بَيَّنَ اللهُ تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أي مِمَّا شَرَعَ اللهُ تعالى لإبراهيم في مناسك الحج ، وفي حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هَاجَر ، وتَردادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لَمَّا نَفِدَ ماؤهما وزادهما ، حِين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك ، وليس عِندهما أحد من الناس ، فلمَّا خافت على ولدها الضَّيعة هنالك ، ونَفِدَ ما عندهما قامت تطلب الغَوث من الله عز وجل ، فلم تزل تتردد في هذه البُقعة المشرَّفة بين الصفا والمروة ، مُتَذَلِّلَة خائفة وَجِلة مُضطرة فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف اللهُ كُربتها ، وآنسَ غُربتها، وفرَّج شِدَّتها، وأنبعَ لها زَمْزَم التي ماؤها " طَعَامُ طُعُمٍ وشِفَاءُ سُقْمٍ"، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذُله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغُفران ذنبه وأن يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب وأن يَهديَه إلى الصراط المستقيم، وأن يُثبِّته عليه إلى مماته،وأن يُحوِّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسَّداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام)).

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٧٣) : ((أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس وهو هنا جبل بمكة معروف وكذلك المروة جبل أيضًا، ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف، وذِكر الصَّفا لأن آدم المصطفى ﷺ وَقَفَ عليه ، فَسُمِّيَ به ، ووقفت حَوَّاء على المروة ، فَسُمِّيَت باسم المرأة فَأُنِّثَ لذلك والله أعلم)) اهـ . ﴿ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أوِ اعتمرَ ﴾ فَمَن قَصد الكعبةَ مُعَظِّمًا لها ، أو زَارَها على الوجهين المخصوصين (الحج والعُمرة) . وفي اللغة : الحج القَصْد ، والعُمرة الزيارة .

﴿ فلا جُناحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فلا إثم عليه ولا حَرَج أن يَدور بهما، ويسعى بينهما سبعًا. وهذا ليس دليلاً على جواز ترك الطواف . وإنما هو لإباحة الطواف وإزالة الحرَج والكراهة . وقد يُفهَم من الآية أنه للتَّخيير ، وهذا غير صحيح ، لأن نفي الْجُناح يدل على الجواز الداخل في معنى الوجوب. وقد كان المسلمون يكرهون السَّعْي بين الصفا والمروة لأنه من شعائر الجاهلية الوثنية ، ولكن الإسلام ألغى هذه الكراهة ، وأقرَّ السَّعْي بين الصفا والمروة . فعن عاصم قال : قلتُ لأنس ابن مالك ــ رضي الله عنه ــ: أكنتم تَكْرهون السَّعي بين الصفا والمروة، قال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (2).

---

(٢) رواه البخاري (٢/ ٥٩٤) برقم (١٥٦٥) واللفظ له،ومسلم (٢/ ٩٣٠) برقم (١٢٧٨).

لقد طَهَّرَ اللهُ الصفا والمروة من طقوس الجاهلية ، وجَعل السَّعْيَ بينهما عبادةً إسلامية لا مكان فيها للشِّرك . وجَعل الفِكرَ الإنساني التَّعبُّدي خالصًا لله تعالى، ينطلق من إيمان راسخ لا تقليدِ الآباء الغابرين . فالمنهجُ الإسلاميُّ منهج تطهيري يؤكد الحقَّ ، ويَدحض الباطلَ . ولا شَكَّ أن الحِقبة الجاهلية كانت خليطًا من الحق والباطل ، ولم تكن سيئةً بشكل كامل .

وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٥٠٠) : ((وروى الفاكهي وإسماعيل القاضي في الأحكام بإسناد صحيح عن الشَّعبي قال : كان صنم بالصفا يدعى إِسَاف ، ووثن بالمروة يدعى نائِلة، فكان أهل الجاهلية يَسْعَوْنَ بينهما، فلمَّا جاء الإسلامُ رمى بهما ، وقالوا : إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية من أجل أوثانهم ، فأمسَكوا عن السَّعْي بينهما ، قال : فأنزل اللهُ تعالى ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ الآية)) اهـ .

والإسلامُ لَم يأتِ لإلغاء الجاهلية كاملةً ، بل لإلغاء الأشياء السَّيئة ، والإبقاء على الأمور الصالحة النافعة . فالسَّعْي بين الصفا والمروة عادة جاهلية ، لكنَّ الإسلام أبقى عليها وأقرَّها ، وطَهَّرها من شوائب الشِّرك ، وجَعَلَها شعيرةً مِن شعائر الله ، ومَعَالِم طاعته وعبادته وتَوحيده .

قال عُروة : سألتُ عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ فقلتُ لها : أرأيتِ قولَ الله تعالى : ﴿ إنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِن شَعائرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أوِ اعتمرَ فلا جُناحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ . فواللهِ ما على أحد جُناح أن لا يَطُوفَ بالصَّفا والمروة . قالت : بِئْسَ ما قُلتَ يا ابن أُختي ، إن هذه لو كانت كما أوَّلْتَهَا عليه ، كانت لا جُناح عليه أن لا يَتَطَوَّفَ بهما، ولكنها أُنزِلت في الأنصار ، كانوا قبل أن يُسْلِموا يُهِلُّون لِمَنَاةَ الطاغيةِ التي كانوا يعبدونها عِند الْمُشَلَّلِ ، فكان مَن أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أن يَطُوفَ بالصَّفا والمروة ، فلمَّا أسلموا ، سألوا رسولَ الله ﷺ عن ذلك . قالوا : يا رسول الله ، إنَّا كُنَّا نتحرَّج أن نَطُوفَ بين الصَّفا والمروة. فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِن شَعائرِ اللهِ ﴾ الآية. قالت عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ : وقد سَنَّ رسولُ الله ﷺ الطوافَ بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما (3).

إن السَّعْي بين الصَّفا والمروة رُكن مِن أركان الحج ، ولا يَصِح الحج إلا بِه . وقد كان الأنصار في جاهليتهم قبل الإسلام يَحُجُّون للصَّنم مَنَاة الذي كانوا يَذبحون عنده الذبائح . والطاغيةُ مِن الطغيان ، وهو اسم لكل باطل . والْمُشَلَّلُ موضع قريب مِن الْجُحْفَة .

(٣) متفق عليه.واللفظ للبخاري (٢/ ٥٩٢) برقم (١٥٦١).ومسلم(٢/ ٩٢٨) برقم (١٢٧٧).

وكانوا يَتحرَّجون أن يطوفوا بالصَّفا والمروة(يَحترزون مِن الإثم بالسَّعْي بينهما حَسَب اعتقادهم). وكان مَن حَجَّ للصَّنم مَنَاة وأَهَلَّ له ، لا يَسعى بين الصفا والمروة. وبعد إسلامهم، سألوا النبيَّ ﷺ عن الأمر كَي يَعرفوا حقيقته،وقد بَيَّنَ اللهُ لهم ذلك بشكل واضح لا لَبْسَ فيه. وقد طافَ النبيُّ ﷺ، وطافَ الصحابة _ رضي اللهُ عنهم _ ، ولا يَجوز لأحد ترك السَّعْي بين الصَّفا والمروة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ٢١و٢٢) : ((قال العلماء : هذا مِن دقيق عِلمها ، وفهمها الثاقب ، وكبير معرفتها بدقائق الألفاظ ، لأن الآية الكريمة إنما دَل لفظها على رَفع الْجُناح عمَّن يطوف بهما ، وليس فيه دَلالة على عدم وجوب السَّعْي ولا على وجوبه، فأخبرته عائشة _ رضي اللهُ عنها _ أن الآية لَيست فيها دلالة للوجوب ولا لعدمه ، وبَيَّنت السببَ في نزولها ، والحكمة في نَظْمها ، وأنها نزلت في الأنصار حين تَحَرَّجوا مِن السَّعْي بين الصفا والمروة في الإسلام ، وأنها لو كانت كما يقول عُروة لكانت : فلا جُناح عليه أن لا يَطوف بهما ، وقد يكون الفِعل واجبًا ويعتقد إنسان انه يُمنَع إيقاعه على صفة مخصوصة ، وذلك كَمَن عليه صلاة الظهر وظنَّ أنه لا يجوز فِعلها عِند غُروب الشمس ، فسأل عن ذلك ، فَيُقال في جوابه : لا جُناح عليك إن صَلَّيتها في هذا الوقت ، فيكون جوابًا صحيحًا ، ولا يَقتضي نَفْي وجوب صلاة الظهر ... . _ قال القاضي عِياض _ : ومَنَاةُ صنم كان نصبه عمرو بن لُحَي في جهة البحر بالْمُشَلَّل مِمَّا يلي قُدَيْدًا. وكانت الأزد وغَسَّان تُهِلُّ له بالحج. وقال ابن الكلبي : مَنَاة صخرة لِهُذَيل بِقُدَيد ، وأمَّا إسَاف ونائلة ، فلم يكونا قَط في ناحية البحر ، وإنما كانا فيما يُقال رَجلاً وامرأة ، فالرَّجل اسمه إسَاف بن بَقاء ، ويُقال : ابن عمرو . والمرأة اسمها نائلة بِنت ذئب ، ويُقال : بنت سهل . قِيل : كانا مِن جُرْهُم ، فَزَنَيَا داخل الكعبة ، فمسخهما اللهُ حَجَرَيْن ، فَنُصِبا عند الكعبة ، وقِيل : على الصَّفا والمروة لِيَعتبر الناس بهما ويتَّعظوا ، ثُمَّ حَوَّلهما قُصَي بن كلاب ، فجعل أحدهما مُلاصِق الكعبة ، والآخر بِزَمْزَم، وقيل: جَعلهما بزمزم، ونَحَرَ عِندهما، وأمرَ بعبادتهما ، فلمَّا فَتَح النبيُّ ﷺ مكة كسرهما . هذا آخر كلام القاضي عياض)) اهـ .

وعن عاصم قال : سألتُ أنس بن مالك عن الصَّفا والمروة . قال: كانتا مِن مشاعر الجاهلية ، فلمَّا كان الإسلام ، أَمْسَكْنَا عنهما ، فأنزلَ اللهُ : ﴿ إنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِن شَعائرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أوِ اعتمرَ فلا جُناحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ _ الآية _ [4].

(٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٧) برقم (٣٠٧٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِن شَعائرِ اللهِ ﴾. قال : كانت الشياطين في الجاهلية تَعْزِفُ الليلَ أجمع ، بين الصفا والمروة ، وكانت فيهما آلهة لهم أصنام ، فلمَّا جاء الإسلام . قال المسلمون : يا رسول الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شيء كُنَّا نصنعه في الجاهلية ، فأنزلَ اللهُ : ﴿ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أوِ اعتمرَ فلا جُناحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ . يقول : ليس عليه إثم ، ولكنْ له أجر [5].

وهذا الحديثُ يُشير بوضوح إلى أن ابن عباس كان يرى أن السَّعْي بين الصَّفا والمروة سُنَّة ومُستحَب ، وليس بِرُكن ولا واجب .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٩٧): عن ابن عباس ــرضي الله عنهماــ قال : ((ليس السَّعْيُ ببطن الوادي بين الصفا والمروة سُنَّةً، إنما كان أهل الجاهلية يَسْعَوْنها ، ويقولون : لا نُجيز البطحاءَ إلا شَدًّا)) .

إن أهل الجاهلية كانوا يَخْترعون شعائر دِينية وسلوكيات اجتماعية ، اعتمادًا على أهوائهم الشخصية، دون دليلٍ نَقلي ولا عقلي . وقد قَرَّروا ألا يُجيزوا (ألا يَقْطعوا) البطحاءَ بِمَسِيل الوادي إلا شَدًّا ، أي بقوة وعَدْو شديد . وقال العَيْني في عمدة القاري (١٦/ ٢٩٩) : ((أراد ابن عباس أن شِدَّة السَّعي ليس بِسُنَّة ، ولا يُريد بذلك نَفْسَ سُنِّية السَّعي المجرَّد ، وفيه خلاف . فعند مالك والشافعي وأحمد : السَّعي بين الصَّفا والمرْوة مِن أركان الحج ، وعند أصحابنا ــ يعني الأحناف ــ ليس بِرُكْن ، بل هو من الواجبات)) اهـ .

﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فإنَّ اللهَ شاكرٌ عليم ﴾ . ومَن أتى بشيء من النوافل تقرُّبًا إلى الله تعالى ، أو زادَ في الطواف بعد الواجب، فإن الله يَشكره ، ويُثيبه ، ويَمنحه الأجر العظيم على الفِعل القليل . واللهُ عليمٌ بكل شيء. يَعلم نوايا عباده ، ولا تخفى عليه خافية . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧١): ((وَقَوله : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ . قِيل : زادَ في طوافه بينهما على قَدْر الواجب ثامنة وتاسعة، ونَحْو ذلك. وقِيل: يطوف بينهما في حَجَّة تطوُّع أو عُمرة تطوُّع.وقِيل: المراد تَطَوَّعَ خيرًا في سائر العبادات،حكى ذلك الرازي،وعُزِيَ الثالث إلى الحسن البصري، والله أعلم)) اهـ .

---

(٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٨) برقم (٣٠٧٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال ابن منظور في لسان العرب (٩/ ٢٤٤) : ((عَزِيفُ الجن : جَرْسُ أَصواتها . وقِيل : هو صوت يُسمَع بالليل كالطبل . وقِيل : هو صوت الرِّياح في الجوِّ ، فتَوَهَّمَه أَهل البادية صوتَ الجن)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٦٣و١٦٤) : ((قَوله تعالى: ﴿ إنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِن شَعائرِ اللهِ ﴾ . في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن رجالاً من الأنصار مِمَّن كان يُهِلُّ لِمَنَاة في الجاهلية ، ومَنَاة صنم كان بين مكة والمدينة ، قالوا : يا رسول الله ، إنَّا كُنَّا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لِمَنَاة ، فهل علينا مِن حَرَج أن نطوف بهما ؟ ، فنزلت هذه الآية . رواه عُروة عن عائشة . والثاني أن المسلمين كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة ، لأنه كان على الصفا تماثيل وأصنام ، فَنَزلت هذه الآية،رواه عِكرمة عن ابن عباس.والثالث أن الصحابة قالت للنبيِّ ﷺ: إنَّا كُنَّا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة ، وإن الله تعالى ذَكَر الطواف بالبيت ، ولَم يذكره بين الصفا والمروة ، فهل علينا مِن حَرَج أن لا نطوف بهما ؟ ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه الزُّهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن جماعة من أهل العِلم . قال إبراهيم بن السَّرِي : الصفا في اللغة الحجارة الصَّلبة الصَّلدة التي لا تُنبِت شيئًا ، وهو جَمْع، واحده صَفاة وصَفا ، مِثل: حَصاة وحَصى. والمروة الحجارة اللينة . وهذان الموضعان من شعائر الله ، أي مِن أعلام مُتَعَبَّدَاته ، وواحد الشعائر شعيرة. والشعائر كُل ما كان مِن موقف أو سَعْي أو ذبح ، والشعائر مِن شَعَرْتَ بالشيء ، إذا عَلِمْتَ به . فَسُمِّيت الأعلام التي هي مُتَعَبَّدَات الله شعائر الله . والحج في اللغة القَصْد ، وكذلك كُل قاصد شيئًا فقد اعتمره . والْجُناح الإثم ، أُخِذ مِن جَنَحَ إذا مال وعَدَلَ ، وأصله مِن جَناح الطائر ، وإنما اجتنبَ المسلمون الطواف بينهما لمكان الأوثان، فَقِيل لهم إن نَصْب الأوثان بينهما قبل الإسلام ، لا يُوجِب اجتنابهما،فأعلمَ اللهُ عز وجل أنه لا جُناح في التَّطَوُّف بهما، وأن مَن تَطَوَّعَ بذلك، ﴿ فإنَّ اللهَ شاكرٌ عليم ﴾ ، والشُّكر مِن الله الْمُجَازَاة والثناء الجميل)) اه.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَسألونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقيتُ للناسِ والحجِّ وَلَيْسَ البِرُّ بأن تأتوا البُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ولكنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وأتُوا البُيُوتَ مِن أبوابِها واتَّقُوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُون﴾ [البقرة: ١٨٩]. إن الأحوال المختلفة للأهِلَّة (جمع الهِلال) مِن حيث زيادتها ونقصانها لَم تجئ عبثًا أو بمحض الصُّدفة ، بل هي لحكمة جليلة ، حيث إنها مواقيت الناس يَعتمدون عليها في أمورهم المختلفة كي تستمر مصالحهم على أكمل وجه ، ولا تتعطل حياتهم . والمواقيتُ جَمْع المِيقات ، وهو الوقت . وهذه الأهلةُ جَعلها اللهُ مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم ، وحَجِّهم ومَناسكهم ، وعِدَّة نسائهم والطلاق والحيض، ومُعاملاتهم المالية ، كقضاء الدُّيون ، وانقضاء مُدَّة الإجارة للأشياء التي تَمَّ استئجارها كالبيوت وغَيرها.لذلك خالفَ اللهُ بين القمر والشمس التي هي على حال واحدة.

وسُمِّيَ هِلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذِّكر عند رؤيته ، مِن قَولهم : استهلَّ الصبي ، إذا صرخ حين يُولَد ، وأَهَلَّ القَوم بالحج ، إذا رفعوا أصواتهم بالتَّلبية .

لقد سَألوا عن الحكمة في حال القمر وتبدُّل أوضاعه . لماذا يَظهر دقيقًا ثُم يزيد حتى يَمتلئ نُورًا ، ثُمَّ يعود كما بَدأ ؟ ، ولماذا لا يكون القمر مِثل الشمس على حال واحدة ؟ . فأمرَ اللهُ محمدًا ﷺ أن يُجيب عن ذلك ، ويُوضِّح لهم الحكمة الإلهية في تغيُّر أحوال القمر . فقد جَعلها اللهُ معالم للناس وعباداتهم ، يُعرَف بها أوقات العبادات وأزمنة الطاعات ، خصوصًا الحج ، لأن وقته مُحدَّد ، لا زيادة فيه ولا نقصان . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٩٥) : ((نزلت على سبب ، وهو أن رَجُلين من الصحابة قالا : يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد ويمتلئ حتى يستدير ويستويَ ثُمَّ لا يزال يَنقُص ويَدِق حتى يعود كما كان ؟ ، فَنَزلت: ﴿ يَسألونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقيتُ للناسِ والحجِّ ﴾ . هذا قول ابن عباس)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٣٩): ((﴿ قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾، تبيين لوجه الحكمة في زيادة القمر ونُقصانه ، وهو زوال الإشكال في الآجال ، والمعاملات ، والأيمان ، والحج، والعِدَد (جَمْع عِدَّة)، والصوم، والفِطر، ومُدَّة الحمل ، والإجارات ، والأكرية (أُجرة المستأجر) إلى غَير ذلك من مصالح العباد. أفردَ سُبحانَه الحج بالذِّكر ، لأنه مِمَّا يُحتاج فيه إلى معرفة الوقت ، وأنه لا يجوز النَّسِيء (التأخير) فيه عن وقته ، بخلاف ما رأته العرب ، فإنها كانت تَحُجُّ بالعدد ، وتُبدِّل الشهور ، فأبطلَ اللهُ قَولَهم وفِعلهم ... . استدل مالك رحمه الله وأبو حنيفة وأصحابهما في أن الإحرام بالحج يَصِح في غير أشهر الحج بهذه الآية، لأن الله تعالى جعل الأهلة ظرفًا لذلك، فَصَحَّ أن يُحْرِم في جميعها بالحج،وخالفَ في ذلك الشافعي لِقَوله تعالى : ﴿ الحجُّ أشهرٌ مَعلوماتٌ ﴾))اهـ .

والناظرُ في العبادات يرى أن كثيرًا مِنها يعتمد على أوقات مُحدَّدة . لذلك فهي تَحمل معنى دينيًّا ، ويجب معرفة الوقت بدقة كي تكون العباداتُ صحيحةً ومقبولة . وما لا يَتِمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ . وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺقال:((إن الله قد جعل الأهلةَ مواقيت، فإذا رأيتموه فصوموا ، وإذا رأيتموه فأفطِروا ، فإن غُمَّ عليكم ــ يعني خَفِيَ عليكم ــ، فَاقْدُرُوا له ، واعلموا أن الأشهر لا تزيد على ثلاثين))[6].

---

(٦)رواه الحاكم في المستدرَك(١/ ٥٨٤)برقم(١٥٣٩)وصحَّحه.وابن خُزَيمة في صحيحه(٣/ ٢٠١).

إن الأهلة هي مواعيد زمنية دقيقة ، وصيامُ رمضان والإفطارُ يَتحدَّدان وَفْقَ رؤية الهِلال . وإذا خَفِيَ الهلالُ فيُقدَر له حسابيًّا، والحد الأعلى للشهر هو ثلاثون يَوْمًا . وهكذا ، تتَّضح أهمية الوقت في العبادات والطاعات. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٨٦): ((قال المازري: حَمل جمهور الفقهاء قَوله ﷺ: " فَاقْدُرُوا له " ، على أن المراد إكمال العِدَّة ثلاثين ، كَمَّا فسَّره في حديث آخر . قالوا : ولا يجوز أن يكون المراد حساب الْمُنَجِّمين ، لأن الناس لو كُلِّفوا به ضاق عليهم ، لأنه لا يعرفه إلا أفراد ، والشرعُ إنما يَعرفه الناسُ بما يَعرفه جماهيرهم ، والله أعلم . وأمَّا قَوله ﷺ : " فإن غُمَّ عليكم " ، فمعناه : حَالَ بينكم وبينه غَيْم)) اهـ .

﴿ وَلَيْسَ البِرُّ بأن تأتوا البُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ولكنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وأتُوا البُيُوتَ مِن أبوابِها واتَّقُوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُون ﴾ . كانوا في الجاهلية إذا أحْرَمُوا أَتَوا البيوتَ مِن ظُهورها ، ولَم يأتوا من أبوابها. فنهاهم اللهُ عن ذلك، وأعلمهم بأن هذا ليس بِرًّا ولا خَيْرًا، ولا دليلاً على التقوى والإيمان.

إن البِر (الخير والبركة) هو مَن اتَّقى اللهَ، وخافَه، وعَمِلَ الطاعات، واجتنبَ المعاصي . هذا هو البِر والخير والإيمان . وأمرَهم اللهُ بإتيان البيوت من أبوابها في حال الإحرام ، وتركِ عادة الجاهلية ، وأن يتَّقوه بأداء الفرائض ، واجتناب النَّواهي ، وعدم تبديل أحكام الله ، كَي يُفْلِحوا ويفوزوا بالسعادة في الدنيا،ونعيمِ الجنة الأبديِّ في الآخرة. وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٤٠): عن البراء قال : ((كانوا إذا أَحْرَموا في الجاهلية أَتَوا البيتَ مِن ظَهْره ، فأنزل اللهُ : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾)) .

وقال الواحدي في الوجيز(ص ١٥٣): ((كان الرَّجلُ في الجاهلية إذا أَحرمَ نَقَبَ مِن بيته نَقْبًا مِن مُؤخَّره، يَدخل فيه ويخرج، فأمرهم اللهُ بترك سُنَّة الجاهلية ، وأعلمهم أن ذلك ليس بِبِر))اهـ.

وقد كانوا لا يَدْخلون البيوت مِن أبوابها بسبب الإِحْرام [7]. وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٣٩) : ((وكان الأنصار إذا حَجُّوا وعادوا لا يَدخلون من أبواب بيوتهم ، فإنهم كانوا إذا أَهَلُّوا

(٧)قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ١٩٥و١٩٦):((فيما كانوا لا يَدخلون البيوت مِن أبوابها لأجله، أربعة أقوال:أحدها أنهم كانوا يَفْعلون ذلك لأجل الإحرام،قاله ابن عباس وأبو العالية والنَّخعي وقتادة وقيس النهشلي،والثاني لأجل دُخول الشهر الحرام، قاله البراء بن عازب.والثالث أن أهل الجاهلية كانوا إذا هَمَّ أحدهم بالشيء فاحتبسَ عنه، لَم يَأتِ بيته مِن بابه حتى يأتِيَ الذي كان هَمَّ به، قاله الحسن. والرابع أن أهل المدينة كانوا إذا رَجعوا مِن عيدهم فعلوا ذلك ، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه)) اهـ.

بالحج أو العُمرة ، يلتزمون شَرْعاً ألا يَحول بينهم وبين السماء حائل ، فإذا خرج الرَّجلُ منهم بعد ذلك ، أي مِن بعد إحرامه مِن بيته فرجع لحاجة ، لا يَدخل من باب الْحُجرة من أجل سقف البيت أن يَحول بينه وبين السماء)) اهـ .

وعن البراء_رضي الله عنه_قال:((كانت الأنصارُ إذا حَجُّوا فجاؤوا لَم يَدْخلوا مِن قِبَل أبواب بيوتهم، ولكنْ مِن ظُهورها، فجاء رَجل مِن الأنصار، فدخلَ مِن قِبَل بابه، فكأنه عُيِّرَ بذلك، فَنَزلت: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾)) (8).

كان الأنصارُ إذا حَجُّوا ، فجاؤوا إلى منازلهم، التزموا بتقليد الآباء وعادةِ الجاهلية،وهي دخول البيوت مِن ظُهورها لا أبوابها ، فأرادَ رَجل من الأنصار مُخالَفة هذه العادة ، لأنه غير مُقتنع بها ، وهذا يُعتبَر تَحَدِّيًا صارخًا للعقلِ الجمعيِّ، ورفضًا لتراث الآباء والأجداد، واستهانةً بعادات الجاهلية وتقاليدها ، فكأنه عُيِّر بذلك ، مِن التَّعيير وهو التَّعييب . والبِر اسم جامع لوجوه الخير والطاعة .

وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ قال : كانت قُرَيْشٌ يُدْعَوْنَ الْحُمْس ، وكانوا يَدْخلون من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يَدْخلون من الأبواب في الإحرام ، فبينما رسول الله ﷺ في بُستان فخرج من بابه ، وخرج معه قُطْبَة بن عامر الأنصاري ، فقالوا : يا رسول الله ، إن قُطْبَة بن عامر رَجل فاجر ، إنه خرجَ معك من الباب ، فقال : ((ما حَمَلَكَ على ذلك ؟)) ، قال : رَأَيْتُكَ فَعلتَ، فَفَعلتُ كما فَعلتَ، فقال: ((إني أَحْمَسِيٌّ))، قال: إنَّ دِيني دِينُك ، فأنزل اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (9). إن تفرُّد قُرَيْش بالدخول من الأبواب في الإحرام ، مُؤشِّرٌ واضح على تميُّزها عن باقي القبائل، وقُدرتها على تحويل الأنظمة الاجتماعية إلى أنظمة دِينية . وقد أسَّس الإسلامُ أنظمته على حقيقة مُفادها أن رابطة الدِّين أقوى من رابطة الدَّم ، وأعْظم من المؤروث الاجتماعي . لذلك نَبَّه القرآنُ على ضرورة إتيان البيوت من أبوابها ، وترك عادة الجاهلية التي تقضي بإتيان البيوت من ظُهورها. والقضيةُ لَيْستْ قضيةَ بَيْت وباب، بل هي قضية مبدأ دِيني، ونظام اجتماعي جديد يستند إلى الوَحْي السماويِّ ، لا تقاليد الآباء المتوارَثة وعاداتهم الباطلة .

---

(٨) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٢/ ٦٣٩)برقم (١٧٠٩).ومسلم (٤/ ٢٣١٩) برقم (٣٠٢٦) .

(٩) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٥٧) وصحَّحه. وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٦٢١): ((وهذا الإسناد، وإن كان على شرط مسلم، لكن اختلف في وصله على الأعمش عن أبي سفيان)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأتِمُّوا الحجَّ والعُمرةَ للهِ فإنْ أُحْصِرْتُم فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ولا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُم حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كانَ مِنكُم مَرِيضًا أوْ بِهِ أذًى مِن رَأسِهِ فَفِدْيَةٌ مِن صِيامٍ أوْ صَدَقَةٍ أوْ نُسُكٍ فإذا أَمِنتُم فَمَن تَمَتَّعَ بالعُمرةِ إلى الحجِّ فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَم يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثةِ أيَّامٍ في الحجِّ وَسَبْعَةٍ إذا رَجَعْتُم تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملةٌ ذَلِكَ لِمَن لَم يَكُن أهْلُهُ حَاضِري المسجدِ الحرامِ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقاب ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

وأتِمُّوا الحجَّ بمناسكه وسُننه ، وأتِمُّوا العُمرةَ بحدودها وسُننها . فلا بُدَّ مِن إقامة فرائضهما وسُننهما وآدابهما وحُدودهما . ومَن أحرمَ بحج أو عُمرة ، ينبغي عليه أن يُكملها ويُتِمَّها ويُقيمها على الوجه الأمثل ، حتى يَتَحَلَّل مِن إحرامه كُلِّه ، ولا يَجوز أن يَقطعها ، ولا يُنقِص منها شيئًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٢) : ((ولهذا اتَّفقَ العلماء على أن الشُّروع في الحج والعُمرة مُلْزِم ، سواءٌ قِيل بوجوب العُمرة أو باستحبابها ، كما هُما قَولان للعلماء)) اهـ .

وقد استدلَّ فريق من العلماء بهذه الآية على وُجوب العُمرة ، لأن الله تعالى أمرَ بإتمامها ، كما أمرَ بإتمام الحج. أمَّا العلماء الذين لا يَرَوْنَ فرضية العُمرة ، وإنما يَعتبرونها سُنَّة ، فقالوا : إن الآية لا حُجَّة فيها للوجوب، لأن الله تعالى قَرَنَ العُمرةَ مع الحج في وُجوب الإتمام . ولَمَّا ذَكَرَ العُمرةَ أمرَ بإتمامها، فلو حَجَّ عَشْر حِجَج أو اعتمر عَشْر عُمَر ، لزم الإتمام في جميعها ، فإن الآية لإلزام الإتمام. وعن زيد بن ثابت_ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ: ((إن الحجَّ والعُمرةَ فريضتان، لا يَضُرُّكَ بأيِّهما بَدأتَ)) [10].

والصحيح أن الحديث موقوف. وهذا يدل على أن زيد بن ثابت _ وهُو مِن علماء الصحابة_ كان يرى أن العُمرة واجبة وفرض مِثل الحج،ويَجوز البَدء بالحج أو العُمرة، والترتيب ليس واجبًا.

﴿ فإنْ أُحْصِرْتُم فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ . فإن مُنِعَ الْمُحْرِمِ من الوصول إلى البيت الحرام ، أو مُنِع مِن أداء ما فرضه اللهُ عليه في الإحرام، بسبب مرض أو خَوف أو شيء مانع . والإحصارُ هو كل شيء يَحبسه ويَمنعه . فَلْيُرْسِل بما تَيَسَّرَ له مِن الْهَدْي ، يعني : يُرْسِل شَاةً ، لأنها أقرب إلى اليُسر والسهولة . والْهَدْيُ جمع هَدْيَة، وهي اسم لكل ما يُهْدَى إلى بيت الله تَقَرُّبًا إليه .

---

(١٠)رواه الحاكم في المستدرَك(١/٦٤٣)برقم(١٧٣٠).وقال:((الصحيح عن زيد بن ثابت)) اهـ . وفي فَيض القدير للمُناوي (٣/ ٤٠٧) : ((قال ابن حجر: سنده ضعيف، والمحفوظ عن زيد بن ثابت موقوف . أخرجه البيهقي بسند صحيح)) .

وروى الترمذي في سُننه (٣/ ٢٧٧) وصحَّحه : عِن عِكرمة قال : حَدَّثني الحجَّاج بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن كُسِرَ أو عَرِجَ فقد حَلَّ ، وعليه حَجَّةٌ أُخرى)) . فذكرتُ ذلك لأبي هريرة وابن عباس ، فقالا : صَدَقَ .

والمعنى : مَن كُسِر أو أصابه شيء في رِجله ، وليس بِخِلْقة ، فيجوز له أن يَترك الإحرامَ ، ويعود إلى وطنه،ويَقضي ذلك الحج في السنة المقبِلة. وهذا بالنسبة لِحَجَّة الفريضة لا حَجَّة التَّطَوُّع . وهذا الحديث دليل على الإحصار بالمرض والعُذر ، مِن غَير حَبْس العدو .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠٤): ((﴿ وأتِمُّوا الحجَّ والعُمرةَ للهِ ﴾... . وفي إتمامها أربعة أقوال:أحدها أن معنى إتمامها أن يفصل بينهما،فيأتي بالعُمرة في غير أشهر الحج، قاله عمر ابن الخطاب والحسن وعطاء.والثاني أن يُحْرِم الرَّجل من دُوَيْرة أهله(تصغير دار)قاله علي بن أبي طالب وطاووس وابن جُبَير . والثالث أنه إذا شَرَعَ في أحدهما لَم يفسخه حتى يُتِم ، قاله ابن عباس . والرابع أنه فِعل ما أمرَ اللهُ فيهما،قاله مجاهد... .ومِمَّن ذهب إلى أن العُمرة واجبة : عليٌّ وابن عمر وابن عباس والحسن وابن سيرين وعطاء وطاووس وسعيد بن جُبَير ومجاهد وأحمد والشافعي. ورُوِيَ عن ابن مسعود وجابر والشعبي وإبراهيم وأبي حنيفة ومالك أنها سُنَّة وتطوُّع . قَوله تعالى: ﴿ فإنْ أُحْصِرْتُم ﴾ . قال ابن قُتَيبة : يُقال : أحصره المرضُ والعدو، إذا منعه من السَّفر. ومِنه هذه الآية ، وحَصَرَه العدو إذا ضَيَّقَ عليه . وقال الزَّجاج : يُقال للرَّجل إذا حُبِس قد حُصِر ، فهو محصور . وللعلماء في هذا الإحصار قَولان: أحدهما أنه لا يكون إلا بالعدو، ولا يكون المريض مُحْصَرًا.وهذا مذهب ابن عمر وابن عباس وأنس ومالك والشافعي وأحمد،ويدل عليه قَوله: ﴿ فإذا أمِنتُم ﴾ . والثاني أنه يكون بكل حابس مِن مرض أو عدو أو عُذر، وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة وأبي حنيفة ... . وفي المراد بما استيسرَ مِن الْهَدْي ثلاثة أقوال : أحدها أنه شاة ، قاله عليُّ ابن أبي طالب وابن عباس والحسن وعطاء وابن جُبَير وإبراهيم وقتادة والضَّحاك . والثاني أنه ما تَيَسَّرَ مِن الإبل والبقر لا غَير،قاله ابن عمر وعائشة والقاسم. والثالث أنه على قَدْر الميسرة، رواه طاووس عن ابن عباس. ورُوِيَ عن الحسن وقتادة قالا : أعلاه بَدَنة (ناقة)، وأوسطه بقرة، وأخَسُّه شاة. وقال أحمد : الْهَدْيُ مِن الأصناف الثلاثة مِن الإبل والبقر والغنم ، وهو قول أبي حنيفة ومالك والشافعي)) اهـ .

﴿ ولا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُم حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ . الخطابُ في الآية لجميع الأُمَّة ، ولا علاقة له بالإحصار أو عدم الإحصار. ولَم يقل اللهُ: تُقصِّروا. وهذا دليل على أفضلية الحلق

وأولويته على التقصير. وأجمعَ العلماء على أن التقصير يُجزِئ مِن الرجال. ولا تَدخل النساء في الحلق ، وإنما السُّنة بالنسبة إليهنَّ التَّقصير.ولا يَجوز لأحد أن يَحلق شَعْرَ رأسه حتى يَنحر هَدْيَه. وبعبارة أخرى، لا تَتَحَلَّلوا مِن الإحرام حتى تعلموا أن الْهَدْيَ الذي أرسلتموه إلى الحرَم ، قد بلغ الموضعَ الذي يَحِل فيه ذَبْحُه .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ١٥٣) : ((والترتيب : أن يَرميَ الحاج الجمرة ، ثم يَنحَر ، ثم يَحلِق ، ثم يطوف للإفاضة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠٥) : ((وفي الْمَحِل قَولان : أحدهما أنه الحرَم ، قاله ابن مسعود والحسن وعطاء وطاووس ومجاهد وابن سيرين والثوري وأبو حنيفة. والثاني أنه الموضع الذي أُحْصِر به ، فَيَذبحه ، ويُحِل ، قاله مالك والشافعي وأحمد)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : أتاه رَجل فقال : أبدأُ بالصَّفا قبل المروة أو أبدأ بالمروة قبل الصَّفا ؟ وأُصَلِّي قبل أن أطوف أو أطوف قبل أن أُصَلِّيَ ؟ ، وأحْلِقُ قبل أن أذبح أو أذبح قبل أن أحْلِق ؟ ، فقال ابن عباس : ((خُذ ذَاكَ مِن كتاب الله ، فإنه أجدر أن يُحْفَظ . قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِن شَعائرِ اللهِ ﴾ ، فالصَّفا قبل المروة . وقال : ﴿ ولا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُم حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ ، فالذبح قبل الحلق . وقال : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ للطائفينَ والعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ ، فالطواف قبل الصلاة)) [11].

يَنبغي على المؤمن دائمًا أن يبدأ بما بَدأ اللهُ بِه، ويلتزم بالترتيب الموجود في الآيات ، لأن الترتيب القُرآنِيَّ صحيح ومَعصوم ، ومُنَزَّه عن الخطأ، وأحق أن يُحْفَظ ويتم التَّمَسُّك بِه ، لأنه وَفْقَ حِكمة إلهية عظيمة ، ولَم يجئ عبثًا ولا صُدفة .

وقال ابن كثير في تفسيره(١/ ٣١٢):((قَوله:﴿ ولا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُم حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ مَعطوف على قَوله : ﴿ وأتِمُّوا الحجَّ والعُمرةَ للهِ ﴾ ، وليس معطوفًا على قَوله : ﴿ فإنْ أُحْصِرْتُم فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله، لأن النبيَّ ﷺ وأصحابه عام الْحُدَيبية، لَمَّا حَصَرَهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرَم ، حَلَقوا ، وذَبَحوا هَدْيَهم خارج الحرَم ، فأمَّا في حال الأمن والوصول إلى الحرَم فلا يجوز الحلق ﴿ حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ ويَفْرُغ الناسك من أفعال الحج والعُمرة إن كان قارنًا ، أو مِن فِعل أحدهما إن كان مُنفردًا أو مُتَمَتِّعًا)) اهـ .

---

(١١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٧) برقم (٣٠٧١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والجديرُ بالذِّكر أن أنساك الحج ثلاثة: التَّمَتُّع ، والقِران ، والإفراد . فالتَّمَتُّع أن يُحْرِم بالعُمرة في أشهر الحج ، ثم يتحلل بعد أداء العُمرة ، ويُقيم بمكة حتى يُحْرِم بالحج في نفس العام ، فهذا يسمى مُتَمَتِّعًا، وسُمِّيَ مُتَمَتِّعًا لأنه تَمَتَّعَ بالتَّحلل مِن الإحرام ، وفَعل ما يَفعله الحلال بين العُمرة والحج، وانتفعَ بأداء النُّسُكَيْن في أشهر الحج في عام واحد مِن غَير أن يرجع إلى بلده . والقِران هو الجمع بين العمرة والحج في إحرام واحد ، بحيث لا يتحلل إلا بعد الانتهاء من أعمال الحج. وأمَّا الإفراد فهو أن يُحْرِم بالحج فقط .

وعن حَفْصَة ــ رضي الله عنها ــ زوج النبيِّ ﷺ أنها قالت : يا رسول الله ، ما شأنُ الناس حَلُّوا بِعُمرة ولَم تَحْلِلْ أنتَ مِن عُمرتك ؟ ، قال : ((إني لَبَّدْتُ رأسي، وقَلَّدْتُ هَدْيِي، فلا أَحِلُّ حتى أنحرَ))[12].

إن النبيَّ ﷺ كان يعتني بنظافته الشخصية ومظهره وشخصيته ، وكان يُلبِّد رَأسَه ، أي : يَجعل في رأسه صَمْغًا ليجتمع الشَّعْر ولا يَصير فيه قَمْل ونَحْوه . وهذه مُحافظة على نظافة الشَّعْر ومنظره وحمايته مِن طُول الْمُكث في الإحرام . وقد لَبَّدَ النبيُّ ﷺ رَأسَه ، وجَعَلَ القلائد في أعناق الْهَدْيِ لِيُعْلَم أنه هَدْي (ما يُهدَى لله تعالى مِن النَّعَم ، فَيُذبَح في الحرَم ، ويُوزَّع على فُقرائه) ، ولا يَتَحَلَّل حتى يَذْبَحَ. وهذا الحديث دليل واضح على أن القارن لا يَتَحَلَّل إلا في وقت تَحَلُّل الحاج الْمُفْرِد .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٢١١و٢١٢) : ((وهذا دليل للمذهب الصحيح المختار الذي قَدَّمْناه واضحًا بدلائله في الأبواب السابقة مرات أن النبيَّ ﷺ كان قارنًا في حَجَّة الوداع ، فقولها : مِن عُمرتك ، إلى العُمرة المضمومة إلى الحج ، وفيه أن القارن لا يَتَحَلَّل بالطواف والسَّعْي ، ولا بُد له في تَحَلُّلِه من الوقوف بعرفات والرَّمْي والحلق والطواف ، كما في الحاج الْمُفْرِد . وقد تأوَّله مَن يقول بالإفراد تأويلات ضعيفة ، مِنها أنها أرادت بالعُمرة الحج لأنهما يشتركان في كَونهما قَصْدًا . وقِيل : المراد بها الإحرام . وقِيل إنها ظَنَّت أنه مُعْتَمِر . وقِيل: معنى مِن عُمرتك ، أي: بِعُمرتك بأن تَفْسَخ حَجَّكَ إلى عُمرة كما فعل غَيرك، وكل هذا ضعيف. والصحيح ما سبق . وقَوله ﷺ : " لَبَّدْتُ رأسي وقَلَّدْتُ هَدْيي "، فيه استحباب التَّلبيد وتقليد الْهَدْي ، وهُما سُنَّتان بالاتفاق)) اهـ .

---

(١٢) متفق عليه . البخاري (٢/ ٥٦٨) برقم (١٤٩١) ، ومسلم (٢/ ٩٠٢) برقم (١٢٢٩) .

﴿ فَمَن كانَ مِنكُم مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِن رَأسِهِ فَفِدْيَةٌ مِن صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ . لا يجوز للمُحْرِم أن يَحلق رأسه، لأن هذا مَمنوع عليه في حال الإحرام.ولكن يَجوز له أن يَحلق للضرورة. فإذا اضطرَّ إلى حلق رأسه بسبب مرض أو لأذى في رأسه مِن قَمْل أو هَوَام أو صُداع أو جراحة ، فعليه فِدية إن حَلَقَ ، وهي : صِيام ثلاثة أيام ، أو التَّصَدُّق بثلاثة آصُع (جَمْع صاع) مِن غالب قُوت البلد على ستة مساكين ، لكل مِسكين نِصف صاع ، أو الذبح. والنُّسُك جَمْع نَسِيكة، أعلاها بَدَنة (ناقة) ، وأوسطها (بقرة) ، وأدناها (شاة) . وأيَّتُها شاءَ ذَبح . وهذه الفِدية على التَّخيير ، إمَّا أن يَصوم أو يَتصدَّق أو يَذبح ، وهو يَختار ما يُناسبه .

وعن كَعْب بن عُجْرَة قال: وَقَفَ عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ بالْحُدَيبية ، ورأسي يَتهافت قَمْلاً ، فقال: ((يُؤذِيكَ هَوَامُّكَ ؟)) . قُلت : نعم . قال : ((فَاحْلِقْ رَأسَكَ _ أو قال_ : احْلِقْ)) . قال : فِيَّ نزلت هذه الآية : ﴿ فَمَن كانَ مِنكُم مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِن رَأسِهِ ﴾ إلى آخرها ، فقال النبيُّ ﷺ : ((صُمْ ثلاثةَ أيام ، أو تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بين سِتَّة ، أو انسُكْ بما تَيَسَّرَ)) [13].

إن كَعْب بن عُجْرَة كان يُعاني مِن مشكلة صِحية في بيئة صحراوية قاسية ، حيث كان يتساقط مِن رأسه القَمْل شيئًا فشيئًا، وهذا سَبَّبَ له أذًى ، فأمرَه النبيُّ ﷺ بحلق رأسه والفِديةِ . وهي على التَّخيير: صِيام ثلاثة أيام، أو التَّصَدُّق بِفَرَق (مِكيال معروف في المدينة) على ستة أشخاص ، أو ذبح ما تَيَسَّرَ له مِن أنواع الْهَدْي.وهذا يدل على وُجوب الفِدية على مَن ارتكب محظورًا مِن محظورات الإحرام، لأن كَعْب بن عُجْرَة لَمَّا ارتكبَ بِحَلْقِ رأسه محظورًا ، أَمَرَه النبيُّ ﷺ بالفِدية ، وكذلك سائر المحظورات. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ١٢١) : ((إن الآية الكريمة والأحاديث مُتَّفقة على أنه مُخَيَّر بين هذه الأنواع الثلاثة ، وهكذا الْحُكم عند العلماء أنه مُخَيَّر بين الثلاثة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٢٠٥و٢٠٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَمَن كانَ مِنكُم مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِن رَأسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ . هذا نزل على سبب، وهو أن كَعْب بن عُجْرَة كَثُرَ قَمْل رأسه حتى تهافتَ على وجهه ، فَنَزلت هذه الآية فيه ، فكان يقول : فِيَّ نزلت خاصةً . قال شيخنا علي ابن عُبَيد الله : اقتضى قَوْلُه : ﴿ ولا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُم حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ تحريمَ حَلْق الشَّعْر سواءٌ وَجد به الأذى أو لَم يجد،حتى نَزَلَ: ﴿ فَمَن كانَ مِنكُم مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِن رَأسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ ،

---

(١٣) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٤٤) برقم (١٧٢٠) ، ومسلم (٢/ ٨٥٩) برقم (١٢٠١) .

فاقتضى هذا إباحة حَلْق الشَّعْر عند الأذى مع الفِدية ، فصار ناسخًا لتحريمه المتقدِّم . ومعنى الآية : فمن كان مِنكم _ أي مِن الْمُحْرِمِين مُحْصَرًا كان أو غير مُحْصَر _ مريضًا ، واحتاج إلى لبس أو شيء يَحظره الإحرام ففعله ، أو به أذى مِن رأسه فَحَلَقَ ، فَفِدية مِن صيام . وفي الصيام قَولان : أحدهما أنه ثلاثة أيام ، رُوِيَ في حديث كَعْب بن عُجْرَة _رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ ، وهو قول الجمهور . والثاني أنه صيام عشرة أيام ، رُوِيَ عن الحسن وعِكرمة ونافع . وفي الصدقة قَولان : أحدهما أنه إطعام ستة مساكين ، رُوِيَ في حديث كَعْب ، وهو قول مَن قال : الصوم ثلاثة أيام . والثاني أنها إطعام عشرة مساكين،وهو قول مَن أوجبَ صوم عشرة أيام، والنُّسُك ذَبْح شاة)).

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٧٦) : ((أجمعَ أهل العِلم على أن الْمُحْرِم ممنوع مِن حَلْق شَعْره وجَزِّه وإتلافه ، بحلق أو نُورة (حالقة) أو غَير ذلك ، إلا في حالة العِلَّة كما نص على ذلك القُرآن ، وأجمعوا على وجوب الفِدية على مَن حلق وهو مُحْرِم بغير عِلَّة ، واختلفوا فيما على مَن فعل ذلك أو لبس أو تطيَّبَ بغير عُذر عامدًا. فقال مالك: بِئْسَ ما فعل وعليه الفِدية ، وهو مُخيَّر فيها ، وسواء عنده العَمْد في ذلك والخطأ لضرورة وغير ضرورة . وقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما وأبو ثَور : ليس بِمُخَيَّر إلا في الضرورة ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فَمَن كانَ مِنكُم مَرِيضًا أوْ بِهِ أذًى مِن رَأسِهِ ﴾ ، فإذا حَلَقَ رَأسَه عامدًا ، أو لبس عامدًا لغير عُذر ، فليس بِمُخَيَّر ، وعليه دم لا غَير. واختلفوا فيمن فعل ذلك ناسيًا ، فقال مالك رحمه الله : العامد والناسي في ذلك سواء في وجوب الفِدية ، وهو قول أبي حنيفة والثوري والليث ، وللشافعي في هذه المسألة قولان: أحدهما : لا فِدية عليه ، وهو قول داود وإسحاق . والثاني : عليه الفِدية . وأكثر العلماء يُوجبون الفِدية على الْمُحْرِم يلبس الْمَخِيط ، وتغطية الرأس أو بعضه ، ولبس الْخُفَّيْن وتقليم الأظافر ، ومَس الطِّيب، وإماطة الأذى ، وكذلك إذا حلق شَعْرَ جسده ، أو أطلى ، أو حَلَقَ مواضع المحاجم. والمرأة كالرَّجل في ذلك ، وعليها الفِدية في الكُحل ، وإن لَم يكن فيه طِيب ، وللرجل أن يَكتحل بما لا طِيب فيه. وعلى المرأة الفِدية إذا غَطَّت وجهها أو لبست القُفَّازَيْن ، والعَمْد والسَّهْو والجهل في ذلك سواء ، وبعضهم يجعل عليهما دمًا في كل شيء مِن ذلك. وقال داود : لا شيء عليهما في حَلْق شَعْر الجسد)) اهـ .

﴿ فإذا أمِنتُم فَمَن تَمَتَّعَ بالعُمرةِ إلى الحجِّ فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ . فإذا أمِنتُم مِن الإحصار، أو كُنتم في صِحَّة وعافية وسَعَة وأمن ، فَمَن استمتعَ وانتفعَ بالتَّقَرُّب إلى الله بالعُمرة قبل الانتفاع بتقرُّبه بالحج في أشهره . وقِيل : فَمَن استمتعَ بعد التَّحَلُّل مِن عُمرته باستباحة محظورات

الإحرام إلى أن يُحْرِم بالحج ، فعليه دَم . أي إن عليه أن يَذبح شاةً ، شُكْرًا لله تعالى أن وفَّقه للجمع بين النُّسُكَيْن . يُذبَح الْهَدْيُ يوم النَّحْر (يوم عيد الأضحى / العاشر مِن ذِي الحِجَّة) . وبعبارة أخرى ، مَن بَدأ بالعُمرة في أشهر الحج ، وأقامَ الحجَّ مِن عامه ذلك ، فعليه ما استيسرَ مِن الْهَدْي . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٢) : ((قَوله : ﴿ فإذا أمِنتُم فَمَن تَمَتَّعَ بالعُمرةِ إلى الحجِّ فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾،أي: فإذا تمكنتم مِن أداء المناسك ، فَمَن كان مِنكم مُتَمَتِّعًا بالعُمرة إلى الحج، وهو يَشمل مَن أحرمَ بهما ، أو أحرمَ بالعُمرة أولاً ، فلمَّا فَرَغَ مِنها أحرمَ بالحج، وهذا هو التَّمَتُّع الخاص ، وهو المعروف في كلام الفقهاء . والتمتع العام يَشمل القِسْمَيْن كما دَلَّت عليه الأحاديث الصِّحاح، فإن مِن الرُّواة مَن يقول: تَمَتَّعَ رسولُ الله ﷺ، وآخر يقول: قَرَنَ . ولا خِلاف أنه ساق هَدْيًا. وقال تعالى: ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعُمرةِ إلى الحجِّ فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ، أي : فليذبح ما قَدِرَ عليه مِن الْهَدْي ، وأقَلُّه شاة)) اهـ . ومشروعيةُ التَّمتع ثابتة في السُّنة. فعن عِمران بن حُصَين رضي اللهُ عنهما قال: أُنزِلت آية المتعة في كتاب الله،ففعلناها مع رسول الله ﷺ، ولَم يَنْزِلْ قُرآن يُحرِّمه، ولَم يَنْهَ عنها حتى مات[14].

إن آية " مُتعة الحج"هي: ﴿ فإذا أمِنتُم فَمَن تَمَتَّعَ بالعُمرةِ إلى الحجِّ فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾. والمعنى : فإذا أمِنتُم الإحصار مِن عدو أو مرض ، بأن زال أو لَم يكن ، فتمتعتم بالعُمرة إلى وقت الحج، فيجب ذبح شاة (الحد الأدنى) ومعنى التَّمَتُّع بالعُمرة : الاستمتاع والانتفاع بالتَّقَرُّب إلى الله تعالى بالعُمرة إلى وقت الحج، ثُمَّ الانتفاع به في وقته إن كان قارنًا، ويُسمَّى القِران . والتَّمَتُّع أيضًا هو الاستمتاع بسبب العُمرة بالتحلل مِنها،إلى أن يُحْرِم بالحج إن كان مُتَمَتِّعًا. وفي الحالتين، يجب عليه أن يَذبح شاةً يوم النَّحْر ، شُكْرًا لله تعالى على نِعمة الجمع بين النُّسُكَيْن .

﴿ فَمَن لَم يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثةِ أيَّامٍ في الحجِّ وَسَبْعَةٍ إذا رَجَعْتُم تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملةٌ ﴾ . فَمَن لَم يَجد هَدْيًا ، بسبب انعدام المال أو عدم وجود الحيوان ، فيجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام ، في أيام مناسك الحج . يَصوم قبل يوم التَّروية ، ويَوم التَّروية [15]، ويوم عَرَفة . وأيضًا ، يجب عليه أن

---

(١٤) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٦٤٢)برقم(٤٢٤٦).ومسلم(٢/ ٨٩٨) برقم (١٢٢٦) .

(١٥) يوم التَّروية : هو اليوم الثامن مِن ذِي الحِجَّة . سُمِّيَ بهذا الاسم لأن الناس كانوا يَرتوون فيه مِن الماء في مكة ، ويخرجون بِه إلى مِنى ، حيث كان معدومًا في تلك الأيام ، لِيَكفيَهم حتى اليوم الأخير مِن أيام الحج . وقِيل : سُمِّيَ بذلك لأن الله أرى إبراهيمَ المناسك في ذلك اليوم .

يَصوم سبعة أيام إذا رَجع إلى وطنه . ولا يَجوز أن يصوم السبعة قبل الرجوع إلى وطنه . تِلْك عشرة أيام كاملة ، حيث إقامة الصَّوم مكان الْهَدْي ، وهي كاملة بشروطها وحدودها ، وكاملة الأجر والثواب. وهذا تأكيدٌ للكلام،كما تقول العرب: رَأيتُ بعيني، وسمعتُ بأُذني،وكتبتُ بيدي.

والتأكيد في : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملةٌ ﴾ لدفع التَّوَهُّم الذي قد يَنشأ في أذهان البعض أن الصيام على التَّخيير ، إمَّا ثلاثة أيام في الحج أو سبعة أيام إذا رَجع إلى وطنه . فوضَّحت الآيةُ أن الصيام يجب أن يكون عشرة أيام كاملةً وتامَّة بدون زيادة ولا نقصان . وفي الآية تشديد وتأكيد على التَّوصية بصيامها . وقد أجمع العلماء على أن الْمُتَمَتِّع لا يَجوز أن يَصوم إذا كان يجد الْهَدْي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠٦و٢٠٧ و٢٠٨) : ((﴿ فَمَن لَم يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثةِ أيَّامٍ في الحجِّ ﴾ . قال الحسن : هي قبل التَّروية بيوم ، ويوم التَّروية ، ويوم عَرَفة . وهذا قول عطاء والشعبي وأبي العالية وابن جُبَير وطاووس وإبراهيم . وقد نُقِل عن عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ ، وقد رُوِيَ عن الحسن وعطاء قالا : في أي العَشْر شاء صامهنَّ ، ونُقِل عن طاووس ومجاهد وعطاء أنهم قالوا: في أي أشهر الحج شاءَ فليصمهنَّ . ونُقِل عن ابن عمر أنه قال: مِن حِين يُحْرِم إلى يوم عَرَفة. فصل . فإن لَم يجد الْهَدْي ولَم يَصُم الثلاثة أيام قبل يوم النَّحْر، فماذا يصنع؟ قال عمر بن الخطاب وابن عباس وابن جبير وطاووس وإبراهيم: لا يُجزئه إلا الْهَدْي ولا يصوم. وقال ابن عمر وعائشة: يصوم أيام مِنى ، ورواه صالح عن أحمد . وهو قول مالك . وذهب آخرون إلى أنه لا يصوم أيام التَّشريق ، بَل يصوم بعدهنَّ ، رُوِيَ عن عليٍّ . ورواه المروذي عن أحمد ، وهو قول الشافعي . فصل . فإن وَجد الْهَدْي بعد الدخول في صوم الثلاثة أيام لَم يَلزمه الخروج منه، وهو قول مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: يَلزمه الخروج، وعليه الْهَدْي. وقال عطاء : إن صام يومين ثم أيسرَ ، فعليه الْهَدْي ، وإن صام ثلاثة أيام ثم أيسرَ ، فليصم السبعة ، ولا هَدْيَ عليه . وفي معنى قَوله : ﴿ في الحجِّ ﴾ قَولان : أحدهما أن معناه في أشهر الحج ، والثاني في زمان الإحرام بالحج. وفي قَوله تعالى : ﴿ وَسَبْعَةٍ إذا رَجَعْتُم ﴾ قَولان : أحدهما إذا رجعتم إلى أمصاركم ، قاله ابن عباس والحسن وأبو العالية والشَّعبي وقتادة . والثاني إذا رجعتم مِن حَجِّكم ، وهو قول عطاء وسعيد بن جُبَير وأبي حنيفة ومالك . قال الأثرم : قُلتُ لأبي عبد الله يعني أحمد بن حنبل : فصيام السبعة أيام إذا رجع ، متى يصومهنَّ أفي الطريق أم في أهله ؟ . قال : كُل ذلك قد تأوَّله الناس . قِيل لأبي عبد الله : فَفَرِّقْ بينهنَّ فرخَّصَ في ذلك . قَوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملةٌ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها أن معناه كاملة في قِيامها مَقام الْهَدْي ، وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس

والحسن. قال القاضي أبو يعلى : وقد كان يجوز أن يظن ظان أن الثلاثة قد قامت مقام الْهَدْي في باب استكمال الثواب، فأعْلَمَنا اللهُ تعالى أن العشرة بكمالها هي القائمة مقامه . والثاني أن الواو قد تقوم مقام (أو) في مواضع ... فأزال اللهُ عز وجل احتمال التخيير في هذه الآية بقوله: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملةٌ ﴾ ، وإلى هذا المعنى ذهب الزَّجاج.والثالث أن ذلك للتوكيد ، والقرآن نزل بلغة العرب، وهي تُكرِّر الشيء لتوكيده . والرابع أن معناه تلك عشرة كاملة في الفَصْل ، وإن كانت الثلاثة في الحج والسبعة بَعْد ، لئلا يسبق إلى وهم أحد أن السبعة دون الثلاثة ، قاله أبو سليمان الدمشقي . والخامس أنها لفظة خبر، ومعناها الأمر ، فتقديره : تلك عشرة فأكملوها)) اه .

﴿ ذَلِكَ لِمَن لَم يَكُن أهْلُهُ حَاضِري المسجدِ الحرامِ ﴾ . ذلك الفَرْض الذي أمرَ اللهُ به مِن الْهَدْي أو الصَّوم ، لِمَن لَم يكن مِن أهل مكة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠٨) : ((قَوله تعالى:﴿ ذَلِكَ لِمَن لَم يَكُن أهْلُهُ حَاضِري المسجدِ الحرامِ ﴾ في الْمُشار إليه بذلك قَولان : أحدهما أنه التمتع بالعُمرة إلى الحج . والثاني أنه الجزاء بالنُّسُك والصيام . فأمَّا حاضرو المسجد الحرام ، فقال ابن عباس وطاووس ومجاهد : هُم أهل الحرَم . وقال عطاء : مَن كان مَنْزله دُون المواقيت. قال ابن الأنباري: ومعنى الآية : إن هذا الفَرْض لِمَن كان من الغرباء . وإنما ذكر أهله وهو المراد بالحضور ، لأن الغالب على الرَّجل أن يسكن حيث أهله ساكنون)) اه .

﴿ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقاب ﴾ . واتَّقوا اللهَ فيما أمركم ونهاكم، وفَرَضَه عليكم في هذه الأحكام . اعملوا بأوامره ، واجتنبوا نَواهيه، واحذروا مِن عقوبته وعذابه ، فإن الله شديد العقاب لِمَن خالفَ أوامرَه ، وارتكبَ المعاصي . وإظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار ، لتعظيم الله تعالى، والتَّخويف مِنه، والتَّرهيب مِن عِقابه وعذابه لِمَن عَصَاه، وخالفَ أوامرَه.وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٧٩) : ((﴿ واتَّقُوا اللهَ ﴾ في المحافظة على أوامره ونَواهيه، وخُصوصًا في الحج ، ﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقاب ﴾ لِمَن لَم يَتَّقِهِ ، كَي يَصُدَّكم للعِلم به ، عن العِصيان)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ الحجُّ أشهرٌ مَعلوماتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ وما تفعلوا مِن خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقوى واتَّقُونِ يا أُولِي الألباب ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وقتُ الحج أشهر معلومات، أي: معروفة عند الناس، واضحة ومُوقَّتة ومُعيَّنة ، لا لَبْسَ فيها . وهذا مؤشر على وضوح مواعيد العبادات بلا غُموض أو تعقيد.وقد انقسمَ العلماء إلى فريقَيْن: الأول يرى أن الحج هو حَج أشهر معلومات، فالإحرامُ بالحج في هذه الأشهر أفضل مِمَّا سِواها

مع صِحَّة الإحرام في جميع السَّنة . ودليلهم قَوله تعالى : ﴿ يسألونكَ عن الأهِلَّة قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾، والفريق الآخر يرى عدم صحة الإحرام بالحج إلا في أشهره المحدَّدة، ودليلهم قوله تعالى: ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾ ، أي إن هناك أشهرًا تَمَّ تخصيصها للحج دُون سائر السَّنة.

وعن ابن عمر ــ رضي اللهُ عنهما ــ: ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾، قال: ((شَوَّال، وذو القِعدة ، وعَشْرٌ مِن ذِي الحِجَّة)) (16).

لقد وضَّح اللهُ الفرقَ بين الحج والعُمرة ، والاختلاف بينهما في الوقت والموعد . فجميعُ أشهر السَّنة هي وقت للعُمرة والإحرام بِها. أمَّا الحجُّ فلا يكون في غَير هذه الأشهر . واللهُ تعالى لَم يَذكر أشهر الحج في القُرآن ، لأنها كانت معلومة عندهم ، ومعروفة لَدَيهم ، ولا غُموض فيها ولا شَك . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٩) : ((اختلف أهل العربية في قَوله : ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾ . فقال بعضهم : تقديره الحج حَج أشهر معلومات ، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل مِن الإحرام فِيما عداها ، وإن كان ذاك صحيحًا . والقول بِصِحَّة الإحرام بالحج في جميع السَّنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وبه يقول إبراهيم النَّخعي والثوري والليث بن سعد. واحتجَّ لهم بقوله تعالى: ﴿ يسألونكَ عن الأهِلَّة قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾ ، وبأنه أحد النُّسُكَيْن، فصحَّ الإحرام به في جميع السَّنة كالعُمرة. وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه لا يَصِح الإحرام بالحج إلا في أشهره ، فلو أحرمَ بِه قبلها لَم ينعقد إحرامه بِه . وهل ينعقد عُمرة؟ فِيه قَولان عنه. والقول بأنه لا يَصِح الإحرام بالحج إلا في أشهره مرويٌّ عن ابن عباس وجابر ، وبه يقول عطاء وطاووس ومجاهد رحمهم الله . والدليل عليه قَوله : ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾ ، وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النُّحاة ، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات، فخصَّصه بها من بين سائر شهور السَّنة ، فدل على أنه لا يَصِح قبلها كَمِيقات الصلاة)) اهـ .

وعن ابن عباس قال : ((لا يُحْرِمُ بالحج إلا في أشهر الحج ، فإن مِن سُنَّة الحج أن يُحْرِمَ بالحج في أشهر الحج)) (17).

---

(١٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٠٣) برقم (٣٠٩٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٧) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٦١٦) برقم (١٦٤٢) وصحَّحه ، وابن خُزَيمة في صحيحه (٤/ ١٦٢) برقم (٢٥٩٦) . وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٩) .

هذا الحديثُ الموقوف له حُكم المرفوع ، لأن قول الصحابي : " مِن السُّنة كذا " له حُكم المرفوع إلى النبيِّ ﷺ . ولا يخفى أن ابن عباس هو حَبْر الأُمَّة وتُرجمان القُرآن وأعظم مُفسِّريه .

وعن عبد الله بن مسعود قال : ((الحجُّ أشهر معلومات ، ليس فيها عُمرة)) [18].

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٣١٩) : ((قال ابن جرير : وإنما أراد مَن ذهب إلى أن أشهر الحج شَوَّال وذو القِعدة وذو الحِجَّة أن هذه الأشهر ليست أشهر العُمرة، إنما هي للحج ، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام مِنى ، كما قال محمد بن سيرين : ما أحد مِن أهل العِلم يَشُك في أن عُمرة في غير أشهر الحج أفضل مِن عُمرة في أشهر الحج.وقال ابن عون:سألتُ القاسم بن محمد عن العُمرة في أشهر الحج،فقال:كانوا لا يَرَوْنَها تامة(قلتُ)وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما أنهما كان يُحِبَّان الاعتمار في غير أشهر الحج، ويَنهيان عن ذلك في أشهر الحج،والله أعلم))اهـ . ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحجَّ ﴾ . فَمَن أوجبَ الحجَّ على نفسه ، وألزمها بِه في الأشهر المعلومات . وهذا دليل على وجوب الإحرام بالحج . وكُل واجب مُؤقَّت فهو مفروض.وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٠١): ((قَوله تعالى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحجَّ ﴾ ، أي: ألزمَه نَفْسَه بالشُّروع فيه بالنِّية قَصْدًا باطنًا ، وبالإحرام فِعلاً ظاهرًا ، وبالتَّلبية نُطْقًا مَسموعًا، قاله ابن حبيب وأبو حنيفة في التَّلبية.وليست التَّلبية عند الشافعي من أركان الحج،وهو قول الحسن بن حَي.قال الشافعي:تكفي النِّية في الإحرام بالحج.وأوجبَ التلبية أهل الظاهر وغَيرهم)).

﴿ فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ ﴾ . مَن أحرمَ بالحج أو العُمرة ، فيجب عليه اجتناب الرَّفَث، وهو الجِماع، لأنه يُفسِد الحجَّ ويُبطِله. وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٠١) : ((وأجمعَ العلماء على أن الجِماع قبل الوقوف بِعَرَفَة مُفسِد للحج ، وعليه حَج قَابِل والْهَدْي . وقال عبد الله بن عمر وطاووس وعطاء وغَيرهم: الرَّفَثُ الإفحاش للمرأة بالكلام ، لِقَوله : إذا أحْلَلْنَا فَعَلْنَا بِكِ كَذا مِن غَير كِناية)) اهـ .

ويَحْرُم أيضًا مُقدِّمات الجِماع كالغَمْز والقُبلة وغَيرهما . ويَحْرُم الفُسُوق، وهو المعاصي جميعها، وارتكاب الآثام . وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٠١): ((قَوله تعالى : ﴿ ولا فُسُوقَ ﴾ يعني : جميع المعاصي كُلها . قاله ابن عباس وعطاء والحسن . وكذلك قال ابن عمر وجماعة : الفُسُوق إتيان معاصي الله عز وجل في حال إحرامه بالحج كقتل الصيد وقَص الظُّفر ، وأخذ

---

(١٨) رواه البَيهقي في سُننه (٥/ ٢٢) . وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٩) .

الشَّعر، وشَبَه ذلك . وقال ابن زيد ومالك : الفُسُوق الذبح للأصنام)) اهـ . والقول الأول هو الأصح ، لأنه عام وشامل لكل الأقوال . وتَحْرُم الْمُجَادَلَة والنِّزاع والمخاصَمة والشَّتائم في وقت الحج في مَناسكه . وظاهرُ الآية النَّفْي ، ولكن معناها يدل على الْمُبالَغة في النَّهْي ، أي : لا تَرْفُثُوا ، ولا تَفْسُقوا ، ولا تُجادِلوا في الحج . وإظهارُ ﴿ الحجِّ ﴾ للاعتناء بِشأنه، وتعظيم أمره، وبيان أن هذه العبادة المقدَّسة دافع لترك المعاصي.

وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال: قال النبيُّ ﷺ: ((مَن حَجَّ هذا البيتَ، فَلَم يَرْفُثْ ، وَلَم يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّه)) [19]. مَن قَصَدَ الكعبةَ حَاجًّا للهِ تعالى ، مُخْلِصًا له، وطالبًا لرضاه، فَلم يَرْفُثْ ، والرَّفَث هو الجِماع ، ويُطلَق على التَّعريض بِه ، وهو أيضًا الفُحش في القَول . وفي فتح الباري (٣/ ٣٨٢) : ((قال الأزهري: الرَّفَثُ اسم جامع لكل ما يُريده الرَّجل مِن المرأة. وكان ابن عمر يَخُصُّه بما خُوطِب بِه النساء. وقال عِياض:هذا مِن قول الله تعالى: ﴿ فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ﴾. والجمهور على أن المراد به في الآية الجِماع ، انتهى . والذي يَظهر أن المراد به في الحديث ما هو أعَم من ذلك، وإليه نَحَا القرطبي)) اهـ . ولَم يَفْسُقْ . أي : لَم يَأت بسيئة ، ولَم يقترف ذنبًا ، ولَم يرتكب معصية . والفاسقُ هو الخارج عن الطاعة إلى المعصية . رَجَعَ طاهرًا مُطَهَّرًا مِن الذنوب والخطايا . لقد عادَ بلا ذَنب ولا إثم ، وتُصبح حياته صفحةً بيضاء كيَوم ولدته أُمُّه . وهذا تأكيد على الطهارة التامة ، والنقاء الكامل، والصفاء التام. وظاهر الغُفران يشمل الصغائر والكبائر مَعًا . وهذا مَخصوص بالمعاصي في حَق الله تعالى ، أمَّا المعاصي في حق العباد فلا تَسقط حتى يَتَحَلَّل مِن أصحابها ، ويَرُد لهم حقوقهم ، إن كانت لهم حقوق .

وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((العُمرةُ إلى العُمرة كَفَّارة لِمَا بينهما ، والحجُّ المبرور ليس له جَزاءٌ إلا الجنة)) [20].

العُمرة في اللغة : الزيارة . وفي الشَّرع : زيارة البيت الحرام بشروط مخصوصة . والعُمرة إلى العمرة ماحية للذنوب والخطايا بينهما. وكلمة" الكَفَّارة" مأخوذة مِن الكَفْر، وهو السَّتْر والتغطية.

والحجُّ المبرور هو الذي لا يُخالطه ذنب ولا إثم ، لا مُقابِل له إلا نعيم الجنة الأبدي . أي إن العبدَ يَدخل الجنةَ مع السابقين الأولين أو بغير سابق عذاب ولا عِقاب . وكلمةُ" المبرور" مأخوذة

---

(١٩) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٤٦) برقم (١٧٢٤) ، ومسلم (٢/ ٩٨٣) برقم (١٣٥٠) .

(٢٠) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٢٩) برقم (١٦٨٣) ، ومسلم (٢/ ٩٨٣) برقم (١٣٤٩) .

مِن البِر ، وهو الإحسان والطاعة . ومِن علامة قَبول الحج أن يَعود طاهرًا نَقِيًّا مُلْتَزِمًا بالعبادات والطاعات ، ومُجْتَنِبًا للمعاصي والآثام . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١١٩) : ((الأصح الأشهر أن المبرور هو الذي لا يُخالطه إثم . مأخوذ مِن البِر ، وهو الطاعة . وقِيل : هو المقبول . ومن علامة القَبول أن يَرجع خَيْرًا مِمَّا كان ، ولا يُعاوِد المعاصي . وقِيل : هو الذي لا رِياء فيه . وقِيل : الذي لا يَعقبه معصية ، وهُما داخلان فيما قبلهما . ومعنى " ليس له جزاء إلا الجنة " أنه لا يقتصر لصاحبه مِن الجزاء على تكفير بعض ذنوبه ، بل لا بُد أن يَدخل الجنةَ ، والله أعلم)) اهـ . ﴿ وما تفعلوا مِن خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ . لقد نَهاهم عن فِعل القبائح والمنكَرات والمعاصي ، ثُمَّ رغَّبهم في فِعل الخير والتَّحلي بالأخلاق الحميدة ، وحَثَّهم على الطاعة وفِعل المعروف وحُسن الكلام، وأخبرهم تعالى أنه عَالِمٌ بِهم وبأفعالهم الطَّيبة، وسوفَ يَجزيهم عليها خَير الجزاء، ويَمنحهم الأجرَ والنعيمَ.والْمُجَازَاةُ إنما تَقع مِن العَالِم بالشَّيء.وقال القرطبي في تفسيره(٢/ ٤٠١): ((وقِيل : هو تحريض وحث على حُسن الكلام مكان الفُحش،وعلى البِر والتقوى في الأخلاق مكان الفُسُوق والجِدال . وقيل : جعل فِعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يُوجد ما نُهُوا عنه)) اهـ . ﴿ وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقوى ﴾ . أمرَهم بأخذ الزَّاد في سَفَرهم في الدنيا ، والتَّزَوُّد بالطعام كالتمر والكعك والزبيب ونَحْوها قبل المجيء إلى الحج ، لئلا يَجوعوا ، أو يكونوا عالةً على غَيرهم . وهذا لا يتعارض مع التوكل . فإن الأخذ بالأسباب أحد أركان التوكل على الله . وقد نزلت الآية في أُناس كانوا يَخرجون إلى الحج بغير زاد،ويقولون: نحن نحجُّ بيت الله فلا يُطْعِمنا ؟. وهُم يَزعمون أنهم مُتَوَكِّلون على الله تعالى ، فإذا جاؤوا إلى مكة سألوا مِن الناس ، وطلبوا مِنهم الطعام،وصاروا عالةً عليهم.ورُبَّما أدَّى ذلك إلى السرقة والنهب وحدوث مشكلات. وقد أعلَمَهم اللهُ أن أعظم زَاد هو زَاد الآخرة، والمقصود به التقوى(عمل الطاعات واجتناب المعاصي). وهذا هو الزَّاد الحقيقيُّ ، لأنه الزَّاد الباقي ، الذي لا يَفنى ولا يَزول . وأجرهم مَحفوظ عند الله تعالى ، وسوفَ يَجدون الثوابَ العظيم في الآخرة . وقد ذَكَّرَهم اللهُ بالسَّفَر الذي هو ذهاب بلا عودة ، وهو سَفَر الآخرة ، وأمرهم بفعل الطاعات واجتناب المعاصي ، فهذا هو الزاد الحقيقي للسفر الطويل الصعب الذي لا رُجوع مِنه (سَفَر الآخرة ورحلة المصير الأبديِّ) . والتقوى هي زاد الآخرة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٠١) : ((قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ أمر باتخاذ الزاد . قال ابن عمر وعِكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد : نزلت الآية في طائفة من العرب ، كانت تجيء إلى

الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نَحُجُّ بيت الله ولا يُطْعِمنا ؟، فكانوا يَبقون عالةً على الناس، فَنُهُوا عن ذلك ، وأُمِرُوا بالزَّاد . وقال عبد الله بن الزُّبَير : كان الناس يَتَّكل بعضُهم على بعض بالزَّاد ، فَأُمِرُوا بالزَّاد)) اهـ . ﴿ واتَّقُونِ يا أُولِي الألباب ﴾ . واتَّقوا عِقابَ الله الشديد ، وابتعدوا عن عذابه الأليم لِمَن عَصاه وخالفَ أوامرَه ، يا أصحاب العقول والأفهام . وتخصيص أصحاب العقول بالذِّكر ، مع أن الأمر بالتقوى شامل لجميع الناس ، لأن أصحاب العقول هُم وَحْدَهم المنتفعون بمواعظ الله ، الذين يُطبِّقون أوامره ، ويَجتنبون نَواهيه ، وعليهم قامت الْحُجَّة ، وهُم مُلْزَمُون بها . ولُب كُل شيء خالصه . ومَن لَم يَتَّقِ اللهَ ، فلا عَقل له ، لأنه لَم ينتفع بِه ، فكان وجود عقله كعدمه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٠و٢١١): ((قَوله تعالى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحجَّ ﴾ قال ابن مسعود : هو الإهلال بالحج والإحرام به. وقال طاووس وعطاء هو أن يُلَبِّيَ ، ورُوِيَ عن عليٍّ وابن عمر ومجاهد والشَّعبي في آخرين أنه إذا قَلَّدَ بَدَنَته فقد أحرمَ ، وهذا محمول على أنه قَلَّدَها ناويًا للحج ، ونصَّ الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في رواية الأثرم أن الإحرام بالنِّية ، قِيل له : يكون مُحْرِمًا بغير تلبية ؟ ، قال : نعم ، إذا عَزَمَ على الإحرام . وهذا قول مالك والشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يجوز الدخول في الإحرام إلا بالتلبية أو تقليد الْهَدْي وسَوْقه ... . وفي الرَّفَث ثلاثة أقوال : أحدها أنه الجِماع ، قاله ابن عمر والحسن وعِكرمة ومجاهد وقتادة في آخرين. والثاني أنه الجِماع وما دُونه مِن التَّعريض به ، وهو مرويٌّ عن ابن عمر أيضًا وابن عباس وعمرو بن دينار في آخرين. والثالث أنه اللغو من الكلام ، قاله أبو عبد الرحمن اليزيدي . وفي الفُسُوق ثلاثة أقوال : أحدها أنه السِّباب ، قاله ابن عمر وابن عباس وإبراهيم في آخرين. والثاني أنه التَّنَابُز بالألقاب ، مِثل أن تقول لأخيك : يا فاسق ، يا ظالم . رواه الضَّحاك عن ابن عباس. والثالث أنه المعاصي ، قاله الحسن وعطاء وطاووس ومجاهد وقتادة في آخرين ، وهو الذي نختاره ، لأن المعاصي تشمل الكُل ، ولأن الفاسق الخارج من الطاعة إلى المعصية . قَوله تعالى: ﴿ ولا جِدالَ في الحجِّ ﴾ . الجِدال المِرَاء. وفي معنى الكلام قَولان: أحدهما أن معناه لا يُمَارِيَنَّ أحدٌ أحدًا فَيُخرجه المِراء إلى الغضب ، وفِعل ما لا يليق بالحج . وإلى هذا المعنى ذهب ابن عمر و ابن عباس وطاووس وعطاء وعِكرمة والنَّخعي وقتادة والزُّهري والضَّحاك في آخرين. والثاني أن معناه لا شَك في الحج ولا مِرَاء ، فإنه قد استقامَ أمْرُه ، وعُرِف وَقْتُه ، وزَالَ النَّسِيء عنه . قال مجاهد : كانوا يَحُجُّون في ذِي الحِجَّة عامين ، وفي المحرَّم عامين ، ثم حَجُّوا في صَفَر عامين . وكانوا يَحُجُّون في كل سنة في كل شهر عامين ، حتى وَافقت حَجَّة أبي بكر

الآخِرِ مِن العامين في ذِي القِعدة قبل حَجَّة النبيِّ ﷺ بسنة ، ثُمَّ حَجَّ النبيُّ ﷺ مِن قَابِل في ذي الحِجَّة ، فذلك حين قال:" إن الزمان قد استدارَ كهيئته يوم خلق الله السماواتِ والأرض " . وإلى هذا المعنى ذهب السُّدي عن أشياخه ، والقاسم ابن محمد . قَوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقوى ﴾ . قال ابن عباس:كان أهل اليمن يَحُجُّون ولا يَتَزَوَّدون، ويقولون: نحن الْمُتَوَكِّلُون ، فَيَسألون الناسَ ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقوى﴾. قال الزَّجاج: أُمِرُوا أن يَتَزَوَّدوا، وأُعْلِمُوا أن خير ما تَزَوَّدوا تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِن حَيْثُ أفاضَ النَّاسُ واسْتَغفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيم ﴾ [البقرة : ١٩٩] .

كانت قُرَيش وحُلفاؤها ومَن دَانَ بدينها يقفون بالْمُزْدَلِفَة ، ولا يقفون مع الناس بِعَرَفات ، ولا يَخرجون مِن الحرَم ، ويقولون: نَحْنُ أهل الله في بلدته ، وأهل حَرَم الله ، فلا نَخرج مِنه ، وينبغي أن نُعظِّم الحرَم، ولا نُعظِّم شيئًا مِن الحِل . فأمَرَهم اللهُ أن يَقفوا مَع الناس بِعَرَفات حتى تكون الإفاضة معهم مِنها. والمعنى : أفيضوا يا قُرَيْش مِن حيث أفاض الناسُ، أي مِن عَرَفات بأن تقفوا بها معهم . وهذه هي سُنَّة إبراهيم وإسماعيل ــ عليهما الصلاة والسلام ــ. وقد كانت قُرَيش وأتباعها يترفَّعون عن الوقوف مَعَ سائر الناس بِعَرَفات ، ويَرَوْنَ أن هذا الأمر إهانة لهم ، وتقليل مِن شَأنهم ومكانتهم، فأمَرَهم اللهُ بالوقوف مَعَ الناس بِعَرَفات، والابتعاد عن التكبُّر والترفُّع والغرور والعصبية القَبَلِيَّة والأمجاد الزَّائفة. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٤) : ((والإفاضة هاهُنا على ما يقتضيه ظاهر اللفظ هي الإفاضة مِن الْمُزْدَلِفَة إلى مِنى صبيحة النَّحْر ، إلا أن جمهور المفسِّرين على أنها الإفاضة من عَرَفَات ، فظاهر الكلام لا يقتضي ذلك ، كيف يُقال : فإذا أفضتم مِن عَرَفَات فاذكروا الله ، ثم أفيضوا مِن عَرَفَات ، غير أني أقول : وجه الكلام على ما قال أهل التفسير أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره: ثُمَّ أفيضوا مِن حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم مِن عَرَفَات، فاذكروا الله)) اهـ . لقد كانت قُرَيْش وأتباعها يَقفون بالْمُزْدَلِفَة ، ولا يَقفون بِعَرَفَات كسائر الناس ، لإظهار تميُّزهم عن الناس، وتَرَفُّعًا عن الوقوف معهم ، ورَفْعًا لشأن قَبيلتهم بين قبائل العرب . وعن عائشة_رضي الله عنها_قالت: ((كانت قُرَيْشٌ وَمَن دَانَ دِينَها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْس،وكان سائر العرب يقفون بِعَرَفَات، فلمَّا جاء الإسلامُ أمر اللهُ نَبِيَّه ﷺ أن يأتيَ عَرَفَات،ثم يقف بها،ثم يفيض منها،فذلك قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أفيضوا مِن حَيْثُ أفاضَ الناسُ ﴾))[21].

(٢١) متفق عليه . البخاري (١٦٤٣/٤) برقم (٤٢٤٨) ، ومسلم (٨٩٣/٢) برقم (١٢١٩) .

وفي زاد المسير (١/ ٢١٤): ((قال الزَّجاج: سُمُّوا الْحُمْس، لأنهم تَحَمَّسُوا في دِينهم، أي: تَشَدَّدوا. والحماسة الشِّدة في كل شيء)) اهـ .

لقد استغلت قُرَيْش الحجَّ (مُلْتَقى القبائل من كل أنحاء الجزيرة العربية) لإبراز مكانتها بين قبائل العرب، وبيانِ تميُّزها وترفُّعها عن الناس. لقد سَخَّرت قُرَيْش الحجَّ كوسيلة إعلانية وبرنامج دعائي ، وذلك من أجل تثبيت صورتها البراقة ، وتجذير مَنْزلتها السامية في النفوس ، وترسيخ سُلطتها المطْلقة على أرض الواقع.وقد كانت قُرَيْش يقولون: نحن قُطَّان حَرَمِ الله ، فلا نَخْرج مِنه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ١٨١): ((وإنما كانت قُرَيْش تقف بالمزدلفة لأنها مِن الْحَرَم ، وكانوا يقولون : نحن أهلُ حَرَمِ الله ، فلا نَخرج مِنه)) اهـ .

وعن جُبَيْر بن مُطعِم _ رضي الله عنه _ قال : ((أضللتُ بعيرًا لي ، فذهبتُ أَطلبه يَوْمَ عَرَفة ، فرأيتُ النبيَّ ﷺ واقفًا بِعَرَفة ، فقلتُ : هذا واللهِ مِن الْحُمْس ، فما شأنه هاهُنا ؟)) [22].

إنَّ جُبَيْرًا قد جاء إلى عَرَفة لِيَطْلب بعيرَه لا ليقف بها. وقد تعجَّب مِن وقوف النبيِّ ﷺ بعرفة ، وهو قُرَشِيٌّ ، إذ إنَّ قُرَيْشًا كانوا يَقفون بالمزدلفة تميُّزًا عن باقي العرب الذين كانوا يَقفون بعرفة .

وهذا يُشير إلى عقلية الغطرسة والتكبر والغرور ، التي كانت تتحكم بسلوك قُرَيْش التَّعبُّدي والاجتماعي والسياسي. وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٢٣): ((وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عَرَفة موقف إبراهيم _عليه السلام _ ، لا يَخْرجون مِن الْحَرَم)) اهـ .

وهذا يدل على تمسُّكهم بالباطل من أجل الحفاظ على نفوذهم وسَطْوتهم ، وإظهار تميُّزهم عن باقي القبائل . وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٥١٦) : ((وكان الشيطان قد استهواهم ، فقال لهم : إنكم إن عَظَّمْتُم غَيْرَ حَرَمِكم ، استخفَّ الناسُ بِحَرَمكم ، فكانوا لا يَخرجون مِن الْحَرَم)) .

وروى ابن خُزَيمة في صحيحه (٤/ ٢٦٢) عن ابن عباس _رضي الله عنهما _ قال : ((كان أهلُ الجاهلية يقفون بِعَرَفة ، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرِّجال دَفَعوا بالمزدلفة ، حتى إذا طلعت الشمس فكانت على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا ، فَأَخَّر رسولُ الله ﷺ الدَّفْعَةَ مِن عَرَفة ، حتى غَرَبَت الشمس)) .

---

(٢٢) متفق عليه. البخاري (٢/ ٥٩٩) برقم (١٥٨١)، ومسلم (٢/ ٨٩٤) برقم (١٢٢٠) . وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٨/ ١٩٨):((قال القاضي عياض : كان هذا في حَجِّه قبل الهجرة ، وكان جُبَيْر حينئذ كافرًا، وأسلم يوم الفتح ، وقيل : يوم خَيْبر ، فتعجَّب من وقوف النبيِّ ﷺ بعرفات)) .

إن منهج النبيِّ ﷺ قائمٌ على الوَحْي الإلهيِّ المعصوم ، وليس تقليد الآباء ، وتقديس العادات .

وفي الحديث تَبْرز المنهجيةُ النبوية في مخالفة أهل الجاهلية ، وتكوين منظومة إسلامية مستقلة قائمة بذاتها، ومُنْطلقة من الوَحْي السماويِّ. فقد أخَّر النبيُّ ﷺ الدَّفْعَةَ من عَرَفة حتى غَرَبَت الشمسُ مُخالفةً لأهل الجاهلية . وهذا مبدأ إسلاميٌّ مشهور يَعتمد على مخالفة المنحرِفين ، سواءٌ كانوا من أهل الكتاب أَم مِن المشركين ، وتكوين نظام تعبُّديٍّ سماويٍّ المصْدر ، وليس أرْضِيًّا وَضْعِيًّا .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٩٤) أن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : ((إن المشركين كانوا لا يُفيضون مِن جَمْع (يعني مزدلفة) حتى تُشرِق الشمس على ثَبِير ، فخالفهم النبيُّ ﷺ ، فأفاضَ قبل أن تَطْلُعَ الشمس)) [23].

لقد كان المشركون في أيام الجاهلية لا يَدفعون مِن المزدلفة حتى تَطلع الشمس على جَبل ثَبِير ، وهو أعظم جبال مكة. فخالفهم النبيُّ ﷺ ، وهَدَمَ عادةَ الجاهلية ، وأسَّس المنظومة النبوية الإسلامية القائمة على الوَحْي السماويِّ ، حيث أفاضَ قبل أن تطلع الشمس .

﴿ واسْتَغفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيم ﴾ . واستغفروا اللهَ مِن ذُنوبكم وخطاياكم ، إن الله غفور للمؤمنين ، رحيم بهم . والغَفْرُ هو التَّغطية والسَّتْر . والغفورُ هو السَّاتر لعباده برحمته الواسعة ، أو الساتر لذنوب عباده . والغفورُ هو الذي يُكثِر المغفرة ، لأن بناء المفعول للمُبالَغة مِن الكَثرة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٨٧) : ((﴿ واسْتَغفِرُوا اللهَ ﴾ مِن جاهليتكم في تغيير المناسك ونَحْوه . ﴿ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيم ﴾ ، يَغفِر ذَنْبَ المستغفِر ، ويُنعِم عليه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واذْكُروا اللهَ في أيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَن تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فلا إثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تأخَّرَ فلا إثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

---

(٢٣) في تحفة الأحوذي(٣/ ٥٤٦):(((ثَبِير) جبل معروف هناك.وهو على يَسار الذاهب إلى مِنى ، وهو أعظم جبال مكة . عُرِف برَجل مِن هُذَيل اسمه ثَبِير دُفِن فيه . والحديث فيه مشروعية الدفع من الموقف بالمزدلفة قبل طلوع الشمس عند الإسفار _ يعني الإضاءة . يُقال : أسفرَ الصُّبح إذا أضاءَ _ . وقد نقل الطبري الاجماع على أن مَن لَمْ يقف فيها حتى طَلَعت الشمس فاته الوقوف . قال ابن المنذر وكان الشافعي وجمهور أهل العِلم يقولون بظاهر هذا الحديث، وما ورد في معناه. وكان مالك يرى أن يدفع قبل الإسفار ، وهو مردود بالنصوص)) .

أمرَ اللهُ عباده أن يُعظِّموه ويُكبِّروه في أيام مَحْصِيَّات (أيام التَّشريق). وسُمِّيَت ﴿ مَعْدُوداتٍ ﴾ لِقِلَّتِهِنَّ . أي : كَبِّرُوه في أدبار الصلاة وعِند ذَبْح الأضاحي ورَمْي الجِمار وغَيرها في أيام التشريق.

وأيام التَّشريق هي الأيام الثلاثة بعد يوم النَّحْر (عيد الأضحى) ، وليس يوم النحر مِنها .

وهي أيام الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر مِن شَهر ذِي الحِجَّة . وهي أيام أكل وشرب ، وبغروب شمس اليوم الثالث عشر ينتهي عيد الأضحى والحج وذبح الأضحية . وسُمِّيَت بأيام التَّشريق ، لأن الناس كانوا يُشَرِّقون فيها لُحوم الأضاحي (24).

وفي صحيح مسلم (٢/ ٨٠٠): عن نُبَيشة الْهُذَلِيِّ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أيامُ التَّشريقِ أيامُ أَكْلٍ وَشُرْب)) .

لقد جَعل اللهُ أيامَ التَّشريق فُسحةً للناس ، يَأكلون ويَشربون ، ويتمتَّعون بالطَّيبات ، ولَم يَجعلها للصِّيام . وينبغي تعظيم الله فيها بكثرة ذِكْره ، والثناء عليه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ١٧) : ((قَوله ﷺ : " أيامُ التَّشريقِ أيامُ أَكْلٍ وشُرْب " . وفي رواية : " وذِكر لله عَزَّ وَجَلَّ " . وفي رواية " أيام مِنى " . وفيه دليل لِمَن قال : لا يَصِح صَومها بحال ، وهو أظهر القَولين في مذهب الشافعي ، وبه قال أبو حنيفة وابن المنذر وغيرهما . وقال جماعة من العلماء : يجوز صيامها لكل أحد تطوُّعًا وغَيره ، حكاه بن المنذر عن الزُّبَير بن العَوَّام وابن عمر وابن سيرين . وقال مالك والأوزاعي وإسحاق والشافعي في أحد قَوليه: يَجوز صَومها للمُتَمَتِّع إذا لَم يَجد الْهَدْيَ ولا يجوز لغيره (25). وأيام التشريق ثلاثة بعد يوم النَّحْر ،

---

(٢٤) قال ابن منظور في لسان العرب (١٠/ ١٧٣) : ((وأيام التشريق ثلاثة أَيام بعد يوم النَّحْر ، لأَن لحم الأَضاحي يُشَرَّق فيها للشمس ، أَي يُشَرَّر . وقِيل : سُمِّيَت بذلك لأَنهم كانوا يقولون في الجاهلية: أَشْرِقْ ثَبِير ... حكاه يعقوب . وقال ابن الأَعرابي : سُمِّيَت بذلك لأن الهَدْيَ والضَّحايا لا تُنْحَر حتى تُشْرِق الشمسُ ، أَي تَطْلُع . وقال أَبو عُبَيد : فِيه قَولان : يُقال: سُمِّيَت بذلك لأَنهم كانوا يُشَرِّقون فيها لُحوم الأَضاحي . وقِيل : بَل سُمِّيَت بذلك لأَنها كُلَّها أَيام تشريق لصلاة يومِ النَّحْر . يَقول : فصارت هذه الأيام تَبَعًا ليوم النَّحْر . قال : وهذا أَعجب القولين إِلَيَّ)) اهـ .

(٢٥) احتجَّ هؤلاء العلماء بالحديث في صحيح البخاري (٧٠٣/٢):عن عُروة عن عائشة ، وعن سالم عن ابن عمر ــ رضي الله عنهم ــ قالا:"لَم يُرَخَّصْ في أيام التَّشريق أن يُصَمْنَ إلا لِمَن لَم يَجد الْهَدْيَ". [معنى " لم يجد الهدي " : لَم يجد ما يَذبحه عن دَم الإحصار أو التَّمتع] .

سُمِّيت بذلك لِتَشريق الناس لحوم الأضاحي فيها، وهو تقديدها ونشرها في الشمس . وفي الحديث استحباب الإكثار مِن الذِّكر في هذه الأيام مِن التَّكبير وغَيره)) اهـ . ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ . فَمَن استعجلَ بالنَّفْر (الخروج مِن مِنى) ، ونَفَرَ في ثاني أيام التَّشريق مِن مِنى بعد رَمْي الجِمار ، فلا إثم عليه باستعجاله ، ولا حَرَج عليه في ذلك . ﴿ وَمَن تأخَّرَ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ . ومَن تأخَّرَ في النَّفْر في اليوم الثاني مِن أيام التَّشريق إلى اليوم الثالث ، حتى باتَ ليلة الثالث ، ورمى يوم الثالث جِمارَه ، فلا إثم عليه بتأخُّره،ولا حَرَج عليه في ذلك، لِمَن اتَّقى أن يُصيب في حَجِّه شيئًا نهاه اللهُ عنه.والتأخُّر أفضل لأن العمل فيه أكمل.

والتَّرخيص في التَّعجيل والتأخير ، ونفي الإثم في الحالتين ، يدل على التَّخيير بينهما . وفيه رَد على أهل الجاهلية ، فَمِنهم مَن جَعل الْمُتَعَجِّل آثِمًا ، ومِنهم مَن جَعل الْمُتَأخِّر آثِمًا . فأزالَ اللهُ الحرَج عنهم في الحالتين ، ونفى عنهم الإثم ، وخيَّرهم بين التعجيل والتأخير .

وعن عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلي قال : قال رسول الله ﷺ : ((الحج عَرَفة _ أو عَرَفَات _ فَمَن أدركَ عَرَفَةَ قبل طُلوع الفجر ، فقد أدركَ الحج . وأيامُ مِنًى ثلاث ، فَمَن تَعَجَّلَ في يومين فلا إثم عليه ، ومَن تأخَّرَ فلا إثم عليه)) [26].

ومعنى " الحج عَرَفَة " يعني أن أعظم أركان الحج هو الوقوف بِعَرَفة ، ومَن لَم يقف بِها ، فَحَجُّه باطل ، وعليه أن يُعيد الحجَّ في السَّنة القادمة . فالحجُّ الصحيح هو حَج مَن أدركَ يوم عَرَفَة. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٧و٢١٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ واذْكُروا اللهَ في أيَّامٍ مَعْدُوداتٍ ﴾ . في هذا الذِّكر قَولان : أحدهما أنه التَّكبير عند الجمَرَات وأدبار الصلوات وغَير ذلك مِن أوقات الحج. والثاني أنه التَّكبير عَقِيب الصلوات المفروضات. واختلف أرباب هذا القول في الوقت الذي يبتدئ فيه بالتكبير ويقطع ، على سِتة أقوال : أحدها أنه يُكبِّر من صلاة الفجر يوم عَرَفَة إلى ما بعد صلاة العصر مِن آخر أيام التشريق ، قاله علي وأبو يُوسُف ومحمد. والثاني أنه مِن صلاة الفجر يوم عَرَفَة إلى صلاة العصر مِن يوم النَّحْر ، قاله ابن مسعود وأبو حنيفة. والثالث مِن بعد صلاة الظهر يوم النَّحْر إلى ما بعد العصر من آخر أيام التشريق ، قاله ابن عمر وزيد بن ثابت وابن عباس وعطاء . والرابع أنه يُكبِّر من صلاة الظهر يوم النَّحْر إلى ما بعد صلاة

---

(٢٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٠٥) برقم (٣١٠٠) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي . ورواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢١٤) ، وقال : ((حسن صحيح) .

الظهر مِن يوم النَّفْر ، وهو الثاني من أيام التشريق ، قاله الحسن. والخامس أنه يُكبِّر من الظهر يوم النحر إلى صلاة الصُّبح من آخر أيام التشريق ، قاله مالك بن أنس ، وهو أحد قَوْلَي الشافعي. والسادس أنه يُكبِّر مِن صلاة المغرب ليلة النَّحْر إلى صلاة الصبح مِن آخر أيام التشريق ، وهذا قول للشافعي ... .وهل يختص هذا التَّكبير عَقِيب الفرائض بِكَوْنها في جماعة أم لا ؟ ، فيه عن أحمد روايتان : إحداهما يختص بِمَن صلاها في جماعة ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله . والثانية يختص بالفريضة وإن صلاها وَحْدَه ، وهو قول الشافعي . وفي الأيام المعدودات ثلاثة أقوال : أحدها أنها أيام التَّشريق ، قاله ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة في آخرين . والثاني أنها يوم النَّحْر ويَوْمان بعده ، رُوِيَ عن عليٍّ وابن عمر . والثالث أنها أيام العَشْر ، قاله سعيد بن جُبَير والنَّخعي . قال الزَّجاج : و (معدودات) يُستعمل كثيرًا للشيء القليل كما يقال دُرَيْهِمات . قَوله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ ﴾ أي : فَمَن تَعَجَّلَ النَّفْرَ الأول في اليوم الثاني مِن أيام مِنى ، فلا إثم عليه . ومَن تأخَّرَ إلى النَّفْر الثاني ، وهو اليوم الثالث من أيام مِنى ، فلا إثم عليه . فإن قِيل : إنما يخاف الإثم الْمُتَعَجِّل ، فما بال المتأخِّر أُلْحِق به والذي أتى بِه أفضل ؟ . فعنه أربعة أجوبة : أحدها أن المعنى لا إثم على المتعجِّل ، والمتأخِّر مأجور . فقال : ﴿ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ لتوافق اللفظة الثانية الأُولى . والثاني أن المعنى فلا إثم على المتأخِّر في ترك استعمال الرُّخصة . والثالث أن المعنى : قد زالت آثام المتعجِّل والمتأخِّر التي كانت عليهما قبل حَجِّهما . والرابع أن المعنى : طَرْح المأثَم عن المتعجِّل والمتأخِّر إنما يكون بشرط التقوى . وفي معنى ﴿ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها لِمَن اتَّقى قتلَ الصَّيد ، قاله ابن عباس . والثاني لِمَن اتَّقى المعاصي في حَجِّه ، قاله قتادة . وقال ابن مسعود : إنما مغفرة الله لِمَن اتَّقى اللهَ في حَجِّه . والثالث لِمَن اتَّقى فيما بَقِيَ مِن عُمره ، قاله أبو العالية وإبراهيم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولِلهِ عَلى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ استطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِين ﴾[آل عِمران : ٩٧] .

لقد فَرَضَ اللهُ حَجَّ بَيْته الحرام على كُل مُستطيع ، وألزمه بذلك . وهذه الآية هي آية وُجوب الحج. ولا يَخفى أن الحج أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده.وهو واجب مَرَّة واحدة في العُمر على مَن توفَّرت فيه شروطه ، وهو مِن أعظم العبادات والطاعات والقُرُبات إلى الله تعالى .

وهذا الخطاب الإلهيُّ شامل لجميع الناس،ولا يَخرج عنه إلا مَن خصَّصه الدَّليل كالصبيِّ والعبد.

للهِ تعالى فَرْضٌ ثابتٌ على المسلمين وواجبٌ عليهم ولازمٌ لهم،وهو﴿ حِجُّ البَيْتِ ﴾ بكسر الحاء في هذا الحرف خاصَّة . أمَّا الْحَجُّ (بفتح الحاء) فهي لُغة أهل الحجاز . وهُما لُغتان فصيحتان . والحجُّ ـ لُغةً ـ هو القَصْد لِمُعَظَّم . وشَرْعًا : زيارة البيت وهو المسجد الحرام في مكة على الوجه المشروع من التعظيم والتقديس، وفي أوقات مخصوصة مع القيام بأعمال مُعيَّنة .

وفي تفسير البغوي (١/ ٧٢) : ((قال أهل العِلم : ولوجوب الحج خمس شرائط : الإسلام، والعقل، والبلوغ، والحرية، والاستطاعة. فلا يجب على الكافر ولا على المجنون،ولو حَجَّا بأنفسهما لا يَصِح، لأن الكافر ليس مِن أهل القُربة ولا حُكم لِفِعل المجنون. ولا يجب على الصبيِّ، ولا على العبد. ولو حَجَّ صبيٌّ يَعقِل أو عبد، يَصِح حَجُّهما تطوُّعًا لا يسقط به فرض الإسلام عنهما،فلو بَلَغَ الصبيُّ أو عُتِق العبد بعدما حَجَّ، واجتمع في حقه شرائط وجوب الحج وجب عليه أن يحج ثانيًا . ولا يجب على غَير الْمُستطيع لقوله تعالى : ﴿ مَنِ استطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ غَير أنه لو تَكَلَّفَ فَحَجَّ يَسقط عنه فرض الإسلام . والاستطاعة نوعان احدهما : أن يكون مُستطيعًا بنفْسه. والآخر : أن يكون مُستطيعًا بِغَيره)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٧٥) : عن أبي هريرة قال : خَطَبَنَا رسولُ الله ﷺ فقال : ((أيُّها الناسُ ، قد فَرَضَ اللهُ عليكم الحجَّ فَحُجُّوا)) ، فقال رَجل : أَكُلَّ عَامٍ يا رسول الله ؟ ، فسكتَ حتى قالها ثلاثًا ، فقال رسول الله ﷺ : ((لَوْ قُلْتُ : نعم ، لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا استطعتم)) ، ثُمَّ قال : ((ذَرُوني ما تَرَكْتُكُم ، فإنما هَلَكَ مَن كان قَبْلَكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء ، فأتُوا مِنه ما استطعتُم ، وإذا نَهَيْتُكُم عن شيء فَدَعُوه)) .

هذا الحديث دليلٌ على أن الحج واجب على كُل مسلم مَرَّة واحدة في العُمر .

والحديثُ يدل على أهمية الالتزام بكلام النبيِّ ﷺ بلا زيادة ولا نقصان ، والابتعاد عن الأسئلة التي ليس لها داعٍ ولا مُبَرِّر . فإن كثرة الأسئلة غير المفيدة والاختلاف على الأنبياء هُمَا سبب هلاك الأمم السابقة. والنبيُّ ﷺ يَعرِف ماذا يَقول، وكلامه دَقيق وواضح ومُنضَبِط. وإذا أمرَ النبيُّ ﷺ بشيء ، فيجب الالتزام بكلامه وتطبيقه على أرض الواقع على قَدْر الاستطاعة ، وإذا نهى عَن شَيء فيجب تَركه والابتعاد عنه . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٠١) : ((هذا الرَّجل السائل هو الأقرع ابن حابس ، كذا جاء مُبَيَّنًا في غير هذه الرواية . واختلف الأصوليون في أن الأمر هل يَقتضي التكرار . والصحيح عند أصحابنا (الشافعية) لا يَقتضيه ، والثاني : يقتضيه ، والثالث : يتوقف فِيما زاد على مَرَّة على البيان ، فلا يحكم باقتضائه ولا يمنعه ، وهذا

الحديث قد يستدل به من يقول بالتوقف ، لأنه سأل فقال : أكل عام ؟ ، ولو كان مُطْلَقُه يقتضي التكرار أو عدمه لَم يسأل، ولقال له النبيُّ ﷺ : لا حاجة إلى السؤال بل مُطْلَقه محمول على كذا. وقد يُجيب الآخرون عنه بأنه سأل استظهارًا واحتياطًا . وقَوله : " ذَرُوني ما تَرَكْتُكُم " . ظاهر في أنه لا يقتضي التكرار . قال الماوردي : ويحتمل أنه إنما احتمل التكرار عِنده من وجه آخر ، لأن الحج في اللغة قَصْد فيه تكرُّر ، فاحتمل عنده التكرار من جهة الاشتقاق ، لا مِن مُطْلَق الأمر . قال : وقد تعلَّقَ بما ذكرناه عن أهل اللغة هاهُنا مَن قال بإيجاب العُمرة ، وقال : لَمَّا كان قوله تعالى : ﴿ وللهِ عَلى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ ﴾ يقتضي تكرار قَصْد البيت بِحُكم اللغة والاشتقاق ، وقد أجمعوا على أن الحج لا يَجب إلا مَرَّة ، كانت العودة الأخرى إلى البيت تقتضي كَوْنها عُمرة ، لأنه لا يجب قَصْده لغير حج وعُمرة بأصل الشرع. وأمَّا قَوله ﷺ: " لَوْ قُلْتُ:نعم، لَوَجَبَتْ"، ففيه دليل للمذهب الصحيح أنه ﷺ كان له أن يجتهد في الأحكام ، ولا يُشترَط في حُكمه أن يكون بِوَحْي ، وقِيل : يُشترَط ، وهذا القائل يُجيب عن هذا الحديث بأنه لعله أُوحِيَ إليه ذلك،والله أعلم. قَوله ﷺ:" ذَرُوني ما تَرَكْتُكُم " دليل على أن الأصل عدم الوجوب ، وأنه لا حُكم قبل وُرود الشَّرع، وهذا هو الصحيح عند مُحقِّقي الأصوليين لِقَوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]. قوله ﷺ : " فإذا أمرتكم بشيء ، فأتُوا مِنه ما استطعتُم ". هذا من قواعد الاسلام المهمة ، ومِن جَوامع الكَلِم التي أُعْطِيها ﷺ ، ويدخل فيها ما لا يُحصَى مِن الأحكام ، كالصلاة بأنواعها ، فإذا عَجِزَ عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغُسل،غَسَلَ الممكِن وإذا وجد بعض ما يَكفيه من الماء لطهارته أو لِغُسل النَّجاسة فَعَلَ الممكِن... . والمقصود التنبيه على أصل ذلك، وهذا الحديث مُوافق لقول الله تعالى:﴿ فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُم ﴾ [التَّغابُن: ١٦] ... . وأمَّا قَوله ﷺ : " وإذا نَهَيْتُكُم عن شيء فَدَعُوه " فهو على إطلاقه ، فإن وَجد عُذر يُبيحه كأكل الْمَيْتَة عند الضرورة ، أو شُرب الخمر عند الإكراه ، أو التلفظ بكلمة الكفر إذا أُكْرِه ، ونَحْو ذلك ، فهذا ليس مَنْهِيًّا عنه في هذا الحال ، والله أعلم . وأجمعت الأُمَّة على أن الحج لا يجب في العُمر إلا مرة واحدة بأصل الشرع، وقد تجب زيادة بالنَّذْر ، وكذا إذا أراد دخول الحرَم لحاجة لا تُكرَّر كزيارة وتجارة ، على مذهب مَن أوجبَ الإحرامَ لذلك بِحَج أو عُمرة. وقد سبقت المسألة في أول كتاب الحج ، والله أعلم)) اهـ.

إن الحجَّ عبادةٌ خالصة لله تعالى لها حُرمتها الجليلة ومكانتها المجيدة . وهي تقوم على أُسس ثابتة كصحة البدن وتوفر المال . وقد اقترن الحجُّ بالقدرة الإنسانية تخفيفًا عن الناس ، وعدم

تكليفهم فوق ما يُطيقون . مع العِلم أن كل عبادة فيها قَدْرٌ مِن المشقة والتعب ، إلا أن الله تعالى يُعين العبادَ على أداء ما افترضه عليهم ، ولا يُحمِّلهم فوق طاقتهم . وعبادةُ الحج مُيسَّرةٌ رغم ما فيها أحكام دقيقة وشعائر متعددة وانتقال عبر أماكن مختلفة . وبالتأكيد، لن يكون دخولُ الجنة مَجَّانًا. وكل امتحان لا يمكن تجاوزه إلا ببذل الجهد والوقت والمثابرة. والجدير بالذِّكر أن المشقة في العبادات مقدورٌ عليها ، وفي دائرة قُدرة الإنسان ، وليست مشقةً تعجيزية. ولا يخلو أمرٌ دنيوي أو أُخروي من قَدْر مِن التعب والسهر وبذل الجهد . وهذه طبيعة الامتحان الرامية إلى التمييز بين الناس ، وفصل الصالح عن الطالح، والتفريق بين الصادق والكاذب. والكلامُ دائمًا سهل، والجميع يُحسنه، لكنَّ العِبرة بالفِعل والتطبيق على أرض الواقع .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٣٦) : ((اللام في قَوله : ﴿ للهِ ﴾ لام الإيجاب والإلزام ، ثُمَّ أكَّده بِقَوله تعالى : ﴿ على ﴾ التي هي مِن أوكَد ألفاظ الوجوب عند العرب . فإذا قال العربي : لِفُلان عليَّ كذا ، فقد وَكَّده وأوجبه ، فَذَكَرَ اللهُ تعالى الحجَّ بأبلغ ألفاظ الوجوب ، تأكيدًا لِحَقِّه ، وتعظيمًا لِحُرمته، ولا خِلاف في فريضته ، وهو أحد قواعد الإسلام ، وليس يجب إلا مَرَّة في العُمر. وقال بعض الناس : يجب في كل خمسة أعوام مَرَّة ، وَرَوُوا في ذلك حديثًا أسندوه إلى النبيِّ ﷺ ، والحديث باطل لا يَصِح ، والإجماع صَاد في وجوههم)) اهـ .

وقد دَلَّت النصوصُ الشرعية على أن الحج على التَّراخي،وليس على الفَوْر.فقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وأذِّن في النَّاسِ بالحجِّ يَأتُوكَ رِجَالاً ﴾ [الحج : ٢٧] ، وسُورة الحج مَكِّية . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ ﴾ _ الآية _ . وهذه السُّورة نزلت عام أُحُد بالمدينة سنة ثلاث مِن الهجرة ، وَلَم يَحُجَّ النبيُّ ﷺ إلى سنة عَشْر للهجرة (حَجَّة الوَداع) . وتتجلى حِكمةُ الله تعالى في ربط الحج بالاستطاعة . لذلك قال تعالى : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ . وتتحقق الاستطاعة بأن يكون الشخصُ صحيح البدن ، والطريق آمِن ، ومَالِكًا للزَّاد والراحلة .

وعن أنس _ رضي اللهُ عنه _ عن النبيِّ ﷺ في قَوله _ تبارك وتعالى _ : ﴿ وللهِ على الناس حِجُّ البَيْت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ . قال : قِيل : يا رسول الله ، ما السبيل ؟ . قال : ((الزَّادُ والرَّاحلة)) [27].

---

(٢٧) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٠٩) برقم (١٦١٣) وصحَّحه. قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٢/ ٢٢١): ((قال البَيهقي: الصواب عن قتادة عن الحسن مُرْسَلاً ... وسنده صحيح إلى =

﴿ وَمَن كَفَرَ فإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِين ﴾ . ومَن تَرَك الحجَّ وهو قادرٌ عليه ، فإن الله غنيٌّ عن عبادته وعن الخلق أجمعين . وإطلاق الكُفر على ترك الحج لتأكيد وُجوبه وحُرمته ، والتَّغليظ على تاركه ، والتَّرهيب مِن التَّرْك . وتسميةُ ترك الحج " كُفْرًا " لأنه مِن فِعل الكافرين وصِفة لهم .

ومَن أنكرَ فريضة الحج فقد كَفَرَ ، وخَسِرَ في الدُّنيا والآخرة ، واللهُ غنيٌّ عنه ، لا يَحتاج إليه ، ولا يَحتاج إلى حَجِّه. واللهُ غنيٌّ عن كُل شيء، وكُلُّ شيء فقير إليه. وهو سُبحانَه لا تنفعه الطاعة ، ولا تضرُّه المعصية . ومَن عَبَدَ اللهَ وأطاعه فإنما يُحسِن لنفْسه ، ويُنقِذها مِن عذاب الله تعالى. ومَن عصى اللهَ ، فقد قَادَ نَفْسَه إلى الهلاك والعذاب. والعباداتُ إنما وُجِدت لمصلحة الناس ومَنفعتهم، وليس لمنفعة الله تعالى ، فهو سُبحانَه غنيٌّ عن الإنس والجن والملائكة وعبادتهم وطاعتهم . وذِكر الاستغناء دليل على الكراهية والْمَقْت والسَّخَط .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٨) عن عُمر بن الخطاب ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((مَن أطاقَ الحجَّ فلم يَحُجَّ ، فَسَواءٌ عليه يهوديًّا ماتَ أو نصرانيًّا)) . وقال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى عُمر ــ رضي الله عنه ــ .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٣٦) : ((هذا خرج مَخرج التَّغليظ ، ولهذا قال علماؤنا : تضمَّنت الآية أن مَن مات ولَم يَحُجَّ ، وهو قادر . فالوعيد يتوجَّه عليه ، ولا يُجزِئ أن يَحُجَّ عنه غَيْرُه ، لأن حَج الغير لو أَسقطَ عنه الفَرْضَ لَسَقَطَ عنه الوعيد ، والله أعلم. وقال سعيد بن جُبَير : لو مات جار لِي وله مَيسرة ، ولَم يَحُج ، لَم أُصَلِّ عليه)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٨و٤٢٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها أن معناه مَن كفر بالحج فاعتقده غير واجب،رواه مِقْسَم عن ابن عباس وابن جُرَيج عن مجاهد، وبه قال الحسن وعطاء وعِكرمة والضَّحاك ومقاتل. والثاني مَن لَم يَرْجُ ثواب حَجِّه ولَم يَخَفْ عِقاب تركه فقد كفر به، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وابن أبي نَجيح عن مجاهد. والثالث أنه الكفر بالله لا بالحج، وهذا المعنى مرويٌّ عن عِكرمة ومجاهد. والرابع أنه إذا أمكنه الحج فلم يَحُجَّ حتى مات وُسِم بين عينيه كافر، هذا قول ابن عمر. والخامس أنه أراد الكفر بالآيات التي أُنزِلَت في ذكر البَيت، لأن قَوْمًا مِن المشركين قالوا: نحن نكفر بهذه الآيات، هذا قول ابن زيد)) .

=الحسن ... . وقد قال عبد الحق : إن طُرقه كُلها ضعيفة . وقال أبو بكر بن المنذر : لا يثبت الحديث في ذلك مُسْنَدًا . والصحيح مِن الروايات رواية الحسن الْمُرسَلة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا أوْفُوا بالعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمةُ الأنعامِ إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُم غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وأنتُم حُرُمٌ إنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[المائدة : ١] .

الخطابُ بلفظ الإيمان لمدح المؤمنين ، وتكريمهم ، وتشريفهم ، وإعلاء شأنهم ، ورَفْع قَدْرهم . يا أيها الذين صَدَّقوا بِوَحدانيةِ الله ، وأقَرُّوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، أوفوا بالعهود المؤكَّدة التي عاهدتم اللهَ عليها، ولا تَنقضوها، ولا تُخالفوها. ولا تَخونوا العُهودَ بَيْنكم وبين الله تعالى ، وقد ألزمتم أنفسَكم بها . يجب الالتزام بِها ، وإتمامها بالوفاء ، وإكمالها بِحُسن الأداء ، ولا تنكثوها بعد تَوكيدها . والعُقودُ جَمْع عَقْد ، وهو العهد الوثيق بين الإنسان وربِّه ، وبين الإنسان والإنسان .

أُحِلَّت لكم الإبل والبقر والغنم، إلا الْمَيْتَة والدَّم ولحم الخِنزير، فإنها حرامٌ ، ولا يَجوز تناولها. والمعنى : أُبِيح لكم أكل الأنعام (الإبل والبقر والغنم) بعد ذبحها بشكل شرعيٍّ ، باستثناء ما حَرَّمه اللهُ عليكم (الميتة والدم ولحم الخنزير) . والآيةُ تُحلِّل ما حرَّمه أهلُ الجاهلية على أنفسهم مِن الأنعام بدون دليل نقلي ولا دليل عقلي . وإضافةُ البهيمة إلى الأنعام للبيان والتَّوضيح .

أُحِلَّت لكم هذه الأشياء وأُبِيحت لكم ، مِن غَير أن تستحلوا الصَّيْدَ وأنتم مُحْرِمُون ، يعني : وأنتم في حال الإحرام بالحج والعُمرة . وسُمِّيَ ذلك إحرامًا لِمَا يُحرِّمه مَن دَخَلَ فيه على نفْسه مِن النِّساء والطِّيب وغَيرهما .

إن اللهَ مالكُ كل شيء ، وهو خالق الأشياء ، ويَعلم المصالحَ والمفاسدَ ، ويقضي في خَلْقه بما يشاء ، ويَحكم بما يُريد من تحليل أو تحريم ، ويُحلِّل ما يشاء ، ويُحرِّم ما يشاء ، لأنه العالِمُ بكل شيء ، والحكيم في أمره ونَهْيه ، الْمُنَزَّه عن الجهل والعبث والفوضى .

وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ٣١) : ((وحكى النَّقاش أن أصحاب الكِندي (فَيلسوف العرب) قالوا له : أيها الحكيم ، اعْمِلْ لنا مِثْلَ هذا القرآن ، فقال : نعم !، أعمل مِثْلَ بَعْضِه ، فاحتجبَ أيامًا كثيرة، ثُمَّ خرجَ، فقال : واللهِ ما أَقْدِر ، ولا يُطيق هذا أحدٌ ، إنِّي فَتحتُ المصحف، فخرجتْ سُورةُ المائدة ، فنظرتُ ، فإذا هُوَ قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النَّكْث، وحَلَّل تحليلاً عامًّا ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبرَ عن قُدرته وحِكمته في سطرَيْن ، ولا يَقْدِر أحد أن يأتِيَ بهذا إلا في أجلاد (مُجلَّدات))) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٦٧و٢٦٨ و٢٦٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ﴾ . اختلفوا في المخاطَبين بهذا على قَولين:أحدهما أنهم المؤمنون مِن أُمَّتنا،وهذا قول الجمهور. والثاني أنهم أهل الكتاب ، قاله ابن جُرَيج . والعُقود العُهود ، قاله ابن عباس ومجاهد

وابن جُبَير وقتادة والضَّحاك والسُّدي والجماعة . وقال الزَّجاج : العُقود أوْكَد العُهود . واختلفوا في المراد بالعُهود هاهُنا على خمسة أقوال : أحدها أنها عُهود الله التي أخذها على عباده فيما أَحَلَّ وحَرَّمَ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد . والثاني أنها عُهود الدِّين كُلها ، قاله الحسن . والثالث أنها عُهود الجاهلية ، وهي الحِلف الذي كان بينهم ، قاله قتادة . والرابع أنها العهود التي أخذها اللهُ على أهل الكتاب من الإيمان بالنبيِّ محمد ﷺ، قاله ابن جُرَيج.وقد ذَكَرْنا عنه أن الخطاب للكتابيين. والخامس أنها عُقود الناس بينهم من بيع ونِكاح أو عَقْد الإنسان على نَفْسه مِن نَذْر أو يمين، وهذا قول ابن زيد. قَوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمةُ الأنعامِ ﴾ .في بهيمة الأنعام ثلاثة أقوال: أحدها أنها أجِنَّة الأنعام التي تُوجَد مَيْتَة في بطون أمهاتها إذا ذُبِحت الأمهات ، قاله ابن عمر وابن عباس. والثاني أنها الإبل والبقر والغنم ، قاله الحسن وقتادة والسُّدي . وقال الربيع : هي الأنعام كُلها . وقال ابن قُتَيبة : هي الإبل والبقر والغنم والوُحوش كُلها . والثالث أنها وَحْش الأنعام كالظِّباء وبقر الوحش. رُوِيَ عن ابن عباس وأبي صالح. وقال الفَرَّاء : بهيمة الأنعام بقر الوحش والظِّباء والْحُمُر الوَحْشية. قال الزَّجاج : وإنما قِيل لها : بهيمة ، لأنها أُبْهِمَت عن أن تُميِّز، وكُل حَي لا يُميِّز فهو بهيمة . قَوله تعالى:﴿ إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُم ﴾. رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: هي المَيْتَة وسائر ما في القرآن تحريمه ... قَوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ . قال أبو الحسن الأخفش : أوفوا بالعُقود غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدَ ، فانتصب على الحال.وقال غيره:المعنى أُحِلَّت لكم بهيمة الأنعام غَيْرَ مُسْتَحِلِّي اصطيادها وأنتم حُرُم. قال الزَّجاج: الْحُرُم المحرومون، وواحد الْحُرُم حرام. يُقال: رَجل حرام وقَوم حُرُم. أي: مُلَبٍّ. وقوله : ﴿ إنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ أي : الخلق له ، يُحِل ما يَشاء لِمَن يَشاء ، ويُحرِّم ما يُريد على مَن يُريد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُم صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُم وللسَّيَّارةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُم صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُم حُرُمًا واتَّقُوا اللهَ الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُون ﴾ [المائدة : ٩٦] .

هذا حُكْمٌ إلهيٌّ بتحليل صَيد البحر على الإطلاق ، وفي كل الحالات (سواءٌ في الإحرام أو غَيره). وأيضًا تحليل طعامه ، وهو كُل ما قَذفه البحر ، منفعةً للمُقيم والمسافر ، يأكلون منه أو يتاجرون به . وصَيدُ البحر ما اصْطِيد، وطعامُه ما قَذَفَ به. وبعبارة أخرى، إن صَيد البحر هو ما لا يعيش إلا في الماء كالسَّمك، والمراد ما أُخِذ منه طَرِيًّا. وطعامُه ما يَقذفه مَيْتًا أو ما يُتَزَوَّد منه يابسًا . لقد أَحَلَّ اللهُ لكم أيها الناس صَيْدَ البحر ، سواءٌ كُنتم مُحْرِمين أَم غَير مُحْرِمين ، وما يُطعَم مِن صَيد البحر كالسَّمك وغَيره، مَنفعةً وقُوتًا لكم، وزادًا للمُسافرين (السَّيَّارة) والبعيدين عن

البحر، يتزوَّدونه في أسفارهم ورحلاتهم . وقد استدل جمهور العلماء على حِل مَيْتة البحر وجواز أكلها بهذه الآية الكريمة . ومِن الأحاديث في هذا السياق حديث جابر في الحوت الذي يُقال له العنبر ، وقَذفه البحر ، فأكلوا مِنه بعد بحث قضية جواز أكله أو عدمه . ففي صحيح مسلم (٣/ ١٥٣٥)أن النبيَّ ﷺ قال عنه:((هُوَ رِزقٌ أخرجه اللهُ لكم،فهل معكم مِن لحمه شيء فَتُطْعِمُونا ؟)). قال جابر : فَأَرْسَلْنا إلى رسول الله ﷺ مِنه ، فأكله .

وهذا دليلٌ على إباحة طعام البحر ، أي ما رَمى به . فالنبيُّ ﷺ اعتبره رزقًا أخرجه اللهُ تعالى من البحر كي يأكل الناس، وأيضًا فقد أرادَ النبيُّ ﷺ تناولَ هذا الطعام (لحم الحوت) ، ومعرفةَ مَذاقه وطَعْمه ، لأنه غير مَعهود في البيئة العربية الصحراوية ، ويُعتبَر غريبًا عن الناس .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٨٦) : ((وأمَّا طلب النبيِّ ﷺ مِن لَحْمه وأكله ذلك ، فإنما أراد به المبالغة فى تطييب نفوسهم في حِلِّه ، وأن لا شك في إباحته ، وأنه يرتضيه لنفسه ، أو أنه قصد التبرك به لكونه طُعْمة مِن الله تعالى خارقة للعادة ، أكرمهم اللهُ بِها . وفي هذا دليل على أنه لا بأس بسؤال الإنسان من مال صاحبه ومتاعه إدلالاً عليه ، وليس هو من السؤال المنهي عنه،إنما ذلك في حق الأجانب للتَّمَوُّل ونَحْو ذلك.وأمَّا هذه فللمُؤانَسَة والْمُلاطَفة والإدلال. وفيه جواز الاجتهاد في الأحكام في زمن النبيِّ ﷺ ، كما يجوز بعده . وفيه أنه يُستحَب للمُفتي أن يتعاطى بعض المباحات التي يَشُك فيها الْمُستفتي ، إذا لَم يكن فيه مشقة على الْمُفتي، وكان فيه طُمأنينة للمُستفتي . وفيه إباحة مَيْتات البحر كُلِّها ، سواءٌ في ذلك ما مات بنفْسه ، أو باصطياد . وقد أجمعَ المسلمون على إباحة السمك)) اهـ . ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُم صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُم حُرُمًا ﴾ . يَحْرُم عليكم الاصطياد في حال الإحرام . وإذا اصطادَ الْمُحْرِم الصَّيد مُتَعَمِّدًا فهو عاصٍ وآثِم، وحرامٌ عليه أكله، لأنه في حَقِّه كالْمَيْتَة،وكذلك في حَق غَيره مِنَ الْمُحْرِمين والْمُحِلِّين. وبشكل عام ، إن صَيد البحر حلال للمُحْرِم وغَير الْمُحْرِم ، أمَّا صَيد البَر فحرام على الْمُحْرِم . وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٩٥): ((... إجماع العلماء على أنه لا يجوز للمُحْرِم قَبول صَيْد وُهِب له ، ولا يجوز له شراؤه ، ولا اصطياد ، ولا استحداث مِلْكه بوجه من الوجوه، ولا خلاف بين علماء المسلمين في ذلك لِعُموم قوله تعالى:﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُم صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُم حُرُمًا ﴾)) اهـ . ﴿ واتَّقُوا اللهَ الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُون ﴾ . وخافوا اللهَ، واحذروا عقابه وعذابه، وذلك بالتزام أوامره في التَّحليل والتَّحريم، وعدم مُخالفتها . فهو سُبحانَه الذي يَبعثكم مِن قبوركم ، ويَجمعكم يوم القيامة، ويُجازيكم على أعمالكم التي أحصاها كاملةً . وهذا وعيدٌ شديد ، وتهديد أكيد ، وتحذير رهيب .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٦٤) : ((واخْشَوا اللهَ أيها الناس ، واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات، التي أنزلها على نبيكم ﷺ ، ...، فإن لله مصيركم ومرجعكم، فَيُعاقبكم بمعصيتكم إيَّاه ، ويُجازيكم فَيُثيبكم على طاعتكم له)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٢٧و٤٢٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُم صَيْدُ البَحْرِ ﴾ . قال أحمد : يُؤكَل كل ما في البحر إلا الضِّفدع والتمساح ، لأن التمساح يأكل الناس، يعني أنه يفرس . وقال أبو حنيفة والثوري : لا يُباح منه إلا السَّمك . وقال ابن أبي ليلى ومالك: يُباح كل ما فيه مِن ضفدع وغَيره . فأمَّا طعامه ففيه ثلاثة أقوال : أحدها ما نبذه البحر مَيْتًا ، قاله أبو بكر وعمر وابن عمر وأبو أيوب وقتادة . والثاني أنه مليحه ، قاله سعيد بن المسيِّب وسعيد ابن جُبَير والسُّدي . وعن ابن عباس ومجاهد وعِكرمة كالقَولين ، واختلفت الرواية عن النَّخعي، فَرُوِيَ عنه كالقَولين ، ورُوِيَ عنه أنه جمع بينهما ، فقال: طعامه المليح وما لَفَظَه . والثالث أنه ما نَبَتَ بمائه مِن زروع البَر، وإنما قِيل لهذا : طعام البحر ، لأنه يَنْبُت بمائه . حكاه الزَّجاج. وفي الْمَتَاع قَولان : أحدهما أنه المنفعة ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة . والثاني أنه الحِل، قاله النَّخعي. قال مقاتل : ﴿ مَتَاعًا لَكُم ﴾ ، يعني : الْمُقيمين ، ﴿ وللسَّيَّارةِ ﴾ يعني : المسافرين. قَوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُم صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُم حُرُمًا ﴾ . أمَّا الاصطياد فَمُحَرَّم على الْمُحْرِمِ ، فإن صِيد لأجله حُرِّم عليه أكله خِلافًا لأبي حنيفة ، فإن أَكَلَ فعليه الضمان خِلافًا لأحد قَوْلَي الشافعي ، فإن ذَبَحَ الْمُحْرِمُ صَيْدًا فهو مَيْتَة ، خِلافًا لأحد قَوْلَي الشافعي أيضًا ، فإن ذَبَحَ الحلالُ صَيْدًا في الْحَرَم فهو مَيْتَة أيضًا ، خِلافًا لأكثر الحنفية)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحاجِّ وعِمَارةَ المسجدِ الحرامِ كَمَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ في سَبيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظالمين ﴾[التَّوبة : ١٩] .

هذه الآية تُؤسِّس لفقه الأولويات ، وتردُّ على مُنكِريه بشكل واضح وحاسم . وهي تقريعٌ وتوبيخ لأولئك المفتخرين بسِقاية الحاج وسِدانة البَيت . فأعلمهم ــ سبحانه وتعالى ــ أن الفخر الحقيقي والشرف الرفيع في الإيمان بالله واليومِ الآخر والجهاد . وهنا تبرز الأولويات الشرعية التي تُعطي كل قضية مكانتها اللائقة بها .

والآيةُ للإنكار عليهم ، وتقديرها : أجعلتم أصحابَ سِقاية الحاج وعِمارة المسجد أو أهلهما ، مِثْل مَن آمنَ بالله واليوم الآخِر وجاهدَ في سبيله . لا مُقارَنة بينهما ، ولا يُمكن التَّسوية بينهما ، لأن أعمال المشركين عُبَّاد الأصنام ــ مهما امتازت بالصلاح الظاهري ــ لا تتساوى مَعَ أعمال

المؤمنين الذين صَدَّقوا بِوَحدانية الله وأقَرُّوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ. إن أعمال المشركين باطلة ، لأن أساسها باطل ، وهو الشِّرك ورَفض وَحدانية الله تعالى . وما بُنِيَ على باطل فهو باطل . والمعنى : إنكار المقارَنة بين المشركين وأعمالهم الباطلة الزائلة ، وبين المؤمنين وأعمالهم الصالحة الباقية .

واللهُ لا يَهدي الذين ظَلموا أنفسَهم باختيار الشِّرك ورَفض الإيمان ، فَهُم أهل ضَلال لا يَستحقون شَرَفَ الهداية . لذلك تركهم اللهُ في كُفرهم وضلالهم وغرورهم . والشِّرك هو أسوأ أنواع الظلم ، لأن المشرِك ـــ عندما اختارَ الكفر على الإيمان ـــ قادَ نَفْسَه إلى العذاب الأبديِّ والهلاك الحتميِّ ، وهذا مُنتهى الظلم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٠٠) : ((والمعنى : أن الله أنكرَ عليهم التَّسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صُورتها صورة الخير ، وإن لَم ينتفعوا بها ، وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله. وقد كان المشركون يفتخرون بالسِّقاية والعِمارة ، ويُفضِّلونهما على عمل المسلمين، فأنكرَ اللهُ عليهم ذلك. ثُمَّ صَرَّحَ سُبحانَه بالْمُفَاضَلة بين الفريقين، وتفاوتهم، وعدم استوائهم، فقال : ﴿ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ ﴾ أي: لا تُساوي تلك الطائفة الكافرة السَّاقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام، هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله . ودَلَّ سُبحانَه بِنَفْي الاستواء على نَفْي الفضيلة التي يَدَّعيها المشركون.أي:إذا لَم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مُساوية لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون؟، ثُمَّ حَكَمَ عليهم بالظلم وأنهم مَعَ ظُلمهم بما هم فيه مِن الشِّرك،لا يستحقون الهداية مِن الله سُبحانَه)).

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ١٢١) : [سِقاية الحاج كانت في بني هاشم ، وكان العباس يتولاها. قال الحسن:وَلَمَّا نَزلت هذه الآية، قال العباس: ما أراني إلا أترك السِّقاية، فقال النبيُّ ﷺ: ((أَقيموا عليها فهي خير لكم)) . وَعِمارة المسجد الحرام، قيل هي حِفْظه مِمَّن يَظْلم فيه، أو يقول هُجْرًا ، وكان ذلك إلى العباس ، وقِيل : هي السِّدانة وخدمة البيت خاصة ، وكان ذلك في بني عبد الدار ، وكان يتولاها عثمان بن طلحة وابن عَمِّه شَيْبة ، وأقرَّها النبيُّ ﷺ لهما ثاني يوم الفتح وقال : ((خُذاها خالدةً تالدة ، لا يُنازعكموها إلا ظالم)) [28]] اهـ .

---

(٢٨) روى الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٠)[عن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ قال: قال رسول الله ﷺ: ((خُذوها يا بني طلحة خالدةً تالدة ، لا يَنْزعها مِنكم إلا ظالم)) ، يعني حِجابة الكَعْبة] . قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٢٠) : ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد الله بن المؤمَّل وثَّقه =

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٩) : عن النُّعمان بن بشير _ رضي الله عنه _ قال : كنتُ عند مِنبر رسول الله ﷺ . فقال رَجلٌ : ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقيَ الحاج . وقال آخر: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أَعْمُرَ المسجد الحرام. وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مِمَّا قُلتم. فزجرهم عُمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند مِنبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمُعة ، ولكن إذا صليتُ الجمُعة دخلتُ فاستفتيتُه فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

إن التوجيه الإلهيَّ قد رسَّخ في النفوس أن الإيمان بالله واليومِ الآخر والجهادَ أعلى وأفضل وأعظم من سِقاية الحاج وخِدمةِ بيت الله الحرام . وفي الآية توجيهٌ إلى أهمية جعل الأعمال خالصةً لوجه الله تعالى. ولا يخفى أن القبائل العربية اتَّخَذت مِن سِدانة البَيت سُلَّمًا لتحقيق مصالحها الشخصية ، وبسطِ نفوذها بين قبائل العرب، والتطاولِ على الناس بالباطل، وَفْق عقلية العصبية القَبَلية والتفاخر الجاهلي بالحسَب والنَّسَب . فجاءَ القرآنُ ليجعل النوايا خالصةً لوجه الله تعالى، عن طريق تجذير الإيمان الصافي في النفوس، والذي لا تشوبه شائبة شِرك أكبر أو أصغر (رِياء).

وهؤلاء الرِّجال أرادوا التقرُّبَ إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة،وَفْقَ منظورهم الذاتي واجتهادهم الشخصي . وقد وجَّههم عُمر بن الخطاب_ رضي اللهُ عنه _ إلى ضرورة التأدُّب عِند المِنبَر النبويِّ الشريف ، وخفض أصواتهم ، لأن رفع الصَّوت دليل على سُوء الأدب وضَعف الإيمان . وأعلمهم أنه سَيَسأل النبيَّ ﷺ لِيَفصل بينهم فيما اختلفوا فِيه . وقد نَزلت الآيةُ حاملةً الْحُكْمَ الإلهيَّ .

=ابن حبان وقال : يُخطِئ . ووثَّقه ابن معين في رواية ، وضَعَّفه جماعة)) اهـ . وقد وَردت روايات كثيرة جِدًّا تُفيد بإبقاء مفتاح الكعبة بأيديهم إلى الأبد ، وهذا ما قَرَّره النبيُّ ﷺ ، والمسْلمون مُتَّفقون على هذا. وما زالَ المفتاح بأيدي بني طلحة حتى يَوْمنا هذا. وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٩٨): ((يُقال للشيء الدائم الذي لا يَزول : تالِد)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ٨٣و٨٤) : ((وثبت في الصحيح قَوله ﷺ : " كُل مَأْثُرَةٍ كانت في الجاهلية فهي تحت قَدَمَيَّ إلا سِقايةَ الحاج وسِدانةَ البَيت". قال القاضي عياض : قال العلماء: لا يجوز لأحد أن يَنْزعها منهم.قال:وهي وِلاية لهم عليها من رسول الله ﷺ، فتبقى دائمة لهم ولذرياتهم أبدًا ، ولا يُنازَعون فيها ، ولا يُشارَكون ، ما داموا موجودين صالحين لذلك، والله أعلم)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿ وأذِّن في النَّاسِ بالحجِّ يَأتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَميق﴾ [الحج : ٢٧] . هذا أمرٌ إلهيٌّ للنبيِّ إبراهيم ﷺ بأن يُعْلِمَ الناسَ ، ويُناديَ فِيهم داعيًا لهم لحج بيت الله الحرام. والأذانُ هو النِّداء والإعلام . والمأمورُ بهذا الأذان هو النبيُّ إبراهيم ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٩٠) : ((وقَوله : ﴿ وأذِّن في النَّاسِ بالحجِّ ﴾ ، أي : نادِ في الناس بالحج،داعيًا لهم إلى الحج إلى هذا البَيت الذي أمرناكَ ببنائه . فَذُكِر أنه قال : يا رَب ، وكيف أُبلِّغ الناسَ وصَوتي لا ينفذهم ؟ ، فقال : نادِ ، وعلينا البلاغ . فقام على مَقامه ، وقِيل : على الحِجْر، وقِيل: على الصَّفا ، وقِيل: على أبي قُبَيس . وقال : يا أيها الناس ، إن ربكم قد اتَّخَذَ بيتًا، فَحُجُّوه. فَيُقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأَسْمَعَ مَن في الأرحام والأصلاب.وأجابه كُل شَيء سَمِعَه مِن حَجَر ومَدَر وشَجَر،ومَن كَتَبَ اللهُ أنه يَحُجَّ إلى يوم القيامة: لَبَّيْكَ اللهم لبيك . وهذا مضمون ما رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد وعِكرمة وسعيد بن جُبَير وغير واحد من السلف ، والله أعلم . أوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مُطوَّلة)) اهـ .

﴿ يَأتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ . يأتوكَ مُشاةً على أقدامهم ، أو رُكبانًا على كُل جَمَل هَزِيل ضعيف ، أتعبه السَّفَر وبُعد المسافة . والضَّامِرُ هو البعيرُ الهزيلُ الذي أتعبه السَّفَر .

لقد وَعَدَ اللهُ إبراهيمَ ﷺ بأن الناس سَيُجيبونه إلى حَج البَيت سواءٌ كان رَاجِلِين أَم رَاكِبِين . ووعدُ اللهِ لا يتخلف. وقد تحقَّق على أرض الواقع. ومَن أتى البَيْتَ الذي دعا إليه النبيُّ إبراهيم ﷺ فكأنه أتى النبيَّ إبراهيمَ ﷺ ، لأنه أجابَ نِداءه ، ولَبَّى دَعْوَته . وهذا تعظيمٌ للنبيِّ إبراهيم ﷺ ، وتشريفٌ له ، ورفع لمكانته الجليلة.وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٣٧):((وإنما قال:﴿ يَأتُوكَ ﴾ وإن كانوا يأتون الكعبة، لأن الْمُنَادِي إبراهيم ، فمن أتى الكعبةَ حَاجًّا ، فكأنما أتى إبراهيم، لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريف إبراهيم)) اهـ .

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحج ماشيًا للقادر عليه أفضل مِن الحج راكبًا ، لأن الله تعالى قَدَّمَ الرِّجالَ (الماشين على أرجلهم) على الرُّكبان . وفي هذا إشارة إلى القوة والصَّبر والتَّحَمُّل والإرادة الصلبة ، والهِمَّة العالية . لكنَّ جُمهور العلماء يقولون إن الحج راكبًا أفضل ، وذلك اقتداءً بالنبيِّ محمد ﷺ ، فإنه حَجَّ راكبًا ، مَعَ قُوَّته وصلابته .وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ١٧٤) : ((واختلف العلماء في الأفضل منهما، فقال مالك والشافعي وجمهور العلماء: الرُّكوب أفضل، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ولأنه أَعْوَن له على وظائف مَناسكه ، ولأنه أكثر نفقة. وقال داود : ماشيًا أفضل لمشقته . وهذا فاسد ، لأن المشقة ليست مطلوبة)) .

﴿ يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَميق ﴾ . هذا بيان لسبب الضُّمور . أي : تأتي الإبلُ الضامرة الهزيلة الضعيفة مِن كُل مكانٍ بعيد . وطُولُ السَّفَر وبُعد المسافة ومشقة الرحلة هو سبب ضعفها وضُمورها. ورَد الضَّمير إلى الإبل ﴿ يَأتِينَ ﴾ تكريمٌ للإبل وتشريفٌ لها، لِقَصْدها الحج مع أصحابها. والمسلمون_ في كل زمان ومكان_ يَحِنُّون إلى رؤية الكعبة المشرَّفة، وحَج بَيت الله الحرام . وهُم يَقْصِدون مكة المكرَّمة ، ويأتون إليها مِن أنحاء العالَم .

ثانيًا : مكة الْمُكَرَّمة

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أضْطَرُّهُ إلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ المصير ﴾ [البقرة : ١٢٦] .

هذه دعوة نبوية جليلة مِن النبيِّ إبراهيم ﷺ بأن يجعل مكة المكرَّمة بلدًا يتمتَّع بالأمن والأمان. وأمْنُ البلد مَجاز ، والمقصود : أمْن أهْلِه وسُكَّانه . وأن يَرزق أهله المؤمنين بالثمرات . لقد دعا النبيُّ إبراهيمُ ﷺ لِذُريته وغَيرهم بالأمن والأمان ورَغَد العَيش ، وخَصَّ المؤمنين دُون الكافرين ، لأن عَهْدَ الله لا يَنال الظالمين . وإنما سَأَلَ رَبَّهُ ذلك، لأنه أسكنَ فيه ذُرِّيته، وهو وادٍ غَير ذِي زَرْع ، فخافَ عليهم أن يَموتوا جُوعًا وعَطَشًا ، فدعا اللهَ أن يَحفظهم ويُؤمِّنهم مِن كُل شَر، ويَرزقهم مِن الثمرات. وكما هو معلوم فإن دعاء الأنبياء مُستجاب لا يُرَد. وقد أجابَ اللهُ دُعاءه، فَجَعَلَ مكةَ حَرَمًا آمِنًا، لا يُسفَك فيه دَم إنسان، ولا يُظلَم فيه أحد. وكل هذه المؤشرات تدل على تفرُّد مكة بالمنزلة الرفيعة . ولا يمكن للنبيِّ إبراهيم ﷺ أن يدعوَ لبلدٍ ما بالخير إلا إذا كان عَالِمًا بمكانة هذا البلد، ودورِه المركزي في تاريخ الحضارة البشرية. وأفعالُ الأنبياء وأقوالهم لا تَخضع للصُّدف أو الارتجال العبثيِّ . إنهم يَعْلَمون ما يَقولون، فَهُم حَمَلةُ الرسالة الإلهية في هذا العالَم ، واللهُ لا يتخلى عن رُسُله وأنبيائه . ومكةُ ليست مكانًا عاديًّا ، وليست بقعةً جغرافية محصورة في الزمان والمكان . إنها منبعُ الطهارة ، وقلبُ النُّور ، وصانعةُ الزمان والمكان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٤٣) : ((وفي المراد بهذا الأمن ثلاثة أقوال: أحدها أنه سأله الأمن مِن القتل . والثاني مِن الخسف والقذف . والثالث مِن القحط والجدْب)) .

وقد اختلف العلماء في مكة ، هل صارت حَرَمًا آمِنًا بدعاء النبيِّ إبراهيم ﷺ أو كانت قَبْله ؟. والصحيحُ الثابت أنها حَرَمٌ يوم خَلَقَ اللهُ السماواتِ والأرض .

وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ يَوم فَتْحِ مكة : ((إن هذا البلد حرَّمه اللهُ يومَ خلق السماواتِ والأرض ، فهو حرام بحُرْمة الله إلى يوم القيامة)) [متفق عليه] .

وهذه الْحُرمة الإلهية سابقة على وجود الأنبياء كُلهم . ومكةُ المكرَّمة هي حَرَمُ الله تعالى ، وهي مَحروسة من الطغاة والكوارث الطبيعية كالزلازل وغَيرها. كما أن لها هَيْبة جليلة في النفوس لا تُضارعها هَيْبة أخرى . ومَن دَخَلَها كان آمِنًا في حماية الخالق تعالى ، فتطمئن رُوحُه ، ويَخشع قلبُه، وتَسكن جوارحه. وفي تفسير القرطبي (٢/ ١١٧) أن العلماء قالوا عن مكة المكرَّمة : ((لَم تزل حَرَمًا من الجبابرة المسلَّطين ، ومن الخسوف والزلازل وسائر الْمَثُلات (العقوبات) التي تَحِل بالبلاد . وجُعل في النفوس المتمردة مِن تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها مُتميِّزين بالأمن مِن غَيرهم مِن أهل القُرى. ولقد جَعل فيها _ سُبحانَه _ من العلامة العظيمة على توحيده ما شُوهد مِن أمر الصيد فيها، فيجتمع فيها الكلب والصَّيد فلا يُهيِّج الكلبُ الصَّيْدَ ، ولا ينفر منه ، حتى إذا خرجا من الحرَم عدا الكلب عليه ، وعاد إلى النُّفور والهرب. وإنما سأل إبراهيم أن يجعلها بَلَدًا آمِنًا مِن القحط والجدب والغارات، وأن يرزق أهله من الثمرات. لا على ما ظَنَّه بعض الناس أنه المنع مِن سَفْك الدم في حَق مَن لَزِمَه القتل . فإن ذلك يَبعُد كَوْنه مقصودًا لإبراهيم ﷺ حتى يُقال: طلب من الله أن يكون في شَرْعه تحريم قَتل مَن التجأ إلى الحرَم . هذا بعيد جِدًّا)) اهـ .

﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ المصير ﴾ . قالَ اللهُ تعالى رَدًّا على النبيِّ إبراهيم ﷺ الذي طَلَب الرِّزق للمؤمنين دُون الكافرين : ومَن كَفَرَ سأرزقه ، فأُمَتِّعه بالرِّزق قليلاً (مُدَّة حياته)، وأمنحه نصيبَه مِن الدُّنيا ، وأتركه يتنعَّم ويتلذَّذ بحظوظ الدنيا مُدَّة حياته إلى مُنتهى أجله ، ثُمَّ أُلْجِئه في الآخرة إلى عذاب النار الشديد، فلا يَقْدِر على الهروب مِنه، ولا الابتعاد عنه ، بسبب كُفره وتضييعه لِنَعم الله عليه.وبئس المرجع إلى عذاب النار. والمخصوص بالذم محذوف ، وهو العذاب . واللهُ تعالى تَكَفَّلَ بِرِزق عباده، مؤمنهم وكافرهم . والتَّعبير بالقِلَّة لأن مَتاع الدنيا قليل وزائل . وهذا يعني أن الكافرين ليس لهم إلا التَّمتيع في الدُّنيا ، ثُمَّ مرجعهم ومصيرهم إلى عذاب النار . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٩):((قاسَ إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرِّزقَ على الإمامة ، فَنَبَّه سُبحانَه على أن الرِّزق رَحمة دُنيوية ، تَعُمُّ المؤمنَ والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدِّين)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ١٤٣):((والإمتاع إعطاء ما تحصل به المتعة،والمتعة أخذ الحظ مِن لذة ما يشتهي. وبماذا يُمتِّعه؟ فيه قَولان: أحدهما بالأمن ، والثاني بالرزق. والاضطرار الإلجاء إلى الشيء، والمصير ما ينتهي إليه الأمر)) .

وعن ابن عباس : في قَوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ . قال ابن عباس : ((كان إبراهيم عليه السلام احتجرها دون الناس ، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أيضًا، فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين. أخلقُ خَلْقًا لا أرزقهم؟. أُمَتِّعهم قليلاً ، ثُمَّ أضْطَرُّهم إلى عذاب النار)) [29].

إن النبيَّ إبراهيم ﷺ قد احتجرَ الرِّزق له وللمؤمنين ، وخصَّصه لهم ، ومَنَع الكافرين مِنه ، فأعلمه اللهُ أنه يَرزق الخلقَ جميعًا ، سواءٌ كانوا مؤمنين أم كافرين . والرِّزقُ لا علاقة له بالدِّين . فاللهُ تعالى يُعطي الرِّزق للناس كُلِّهم ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . مَن أحَبَّه اللهُ ومَن أبغضه . أمَّا شَرَف الدِّين فهو مَخصوص ، يُعطيه اللهُ لأشخاص مُحدَّدين ، وهُم الذين أحَبَّهم اللهُ لا غَيْر .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنما أُمِرْتُ أن أعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلدةِ الذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أن أكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ [النَّمْل : ٩١] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ عظيمٌ للنبيِّ محمد ﷺ أن يَقول:إنَّما أُمِرْتُ أن أعبدَ اللهَ رَبَّ البلدِ الأمينِ (مَكَّة) الذي جَعلها حَرَمًا آمِنًا،وكُلُّ شَيْءٍ مِلْكٌ للهِ وَحْدَه لا شَريك له. لَهُ كُلُّ شَيء خَلْقًا ومِلْكًا وتَصَرُّفًا. وكُلُّ ما سِوى اللهِ عَبْدٌ للهِ تعالى . وأُمِرْتُ أن أستسلمَ للهِ ، وأخُصَّه بالعبادة وَحْدَه لا شَريك لَه ، ولا أعبد الأصنام . وهنا تتجلى أهميةُ الامتثال لأوامر اللهِ ، واجتنابِ نَواهيه .

واللهُ تعالى هُوَ رَبُّ البلادِ كُلِّها ، لَكِنَّه تعالى قَد خَصَّ مكةَ بالذِّكر تَشريفًا لها ، وتَعظيمًا لمكانتها السَّامية ، فَفِيها بَيتُ اللهِ الحرامُ ، وَهِيَ أعظمُ بُقعة على كَوكب الأرض ، وأحب البلاد إلى اللهِ ورسولِه ﷺ . وأيضًا ، خَصَّها اللهُ بالذِّكر مِن أجل تعريف المشركين الذين هُم أهل مكة بِنِعمة اللهِ عَلَيهم ، إذ جَعل بَلَدَهم آمِنًا في محيط مُلتهِب ، حيث الصراعات القَبَلية، وانتشار الحروب والقتل والقتال والسَّبي ، وحَمَاهم مِنَ الناسِ . لقد ذَكَّرَهم اللهُ بِفِضله عَلَيهم ، وإحسانه إلَيهم . وهذا دليلٌ على أنَّ اللهَ وَحْدَهُ هو المستحق للعبادة، وأنَّ الأصنام هِيَ آلهة باطلة، لا تَنفع ولا تَضُرُّ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٠٣): ((وإضافةُ الرُّبُوبِيَّةِ إلى البَلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها)) اهـ .

وقَد يَتوهَّم أحدُهم عِندَما يَقرأ : ﴿ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الذي حَرَّمَهَا ﴾ ، فيظنُّ أنَّ اللهَ هُوَ رَبُّ مكة وَحْدَها ، لذلك قالَ اللهُ بَعْدَها : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ لِيُزِيلَ أيَّ وَهْمٍ قَد يَتبادر إلى الذِّهن .

---

(٢٩)رواه الطبراني في الكبير(١٢/ ٣٨).وقال الهيثمي في المجمع(٧/٢٨):((رجاله رجال الصحيح)).

وتحريمُ مَكة تحريمٌ إلهيٌّ لا بَشريٌّ . فلا يُسفَك فيها دم ، ولا يُظلَم فيها أحد ، ولا يُصاد فيها صَيد ، ولا يُعضَد فيها شجر ، وهذه نِعَمٌ إلهيةٌ على قُرَيش ، فقد حَمَى اللهُ بَلَدَهم مِنَ العذاب، وَوَقَاه مِنَ الفِتَن المنتشرة في الجزيرة العربية . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٩٨) : ((قَوله تعالى: ﴿ إنَّما أُمِرْتُ ﴾ المعنى: قُل للمشركين إنما أُمِرْتُ ﴿ أن أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الذي حَرَّمَهَا ﴾، وقرأ ابن مسعود وأبو عمران الجوني " التي حَرَّمها " وهي مكة. وتحريمها تعظيم حُرمتها بالمنع مِنَ القتل فيها والسَّبْي والكف عن صَيدها وشَجرها. ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ لأنه خالقُه ومالكُه. ﴿ وأُمِرْتُ أن أكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ أي مِنَ الْمُخْلِصِين للهِ بالتَّوحيد))اهـ . وفي تاج العروس (١/ ١٩٠١): ((وقال التوربشتيُّ في شرْح المصابيح ـعن مكة المكرَّمةـ: إنها هي البَلْدة الجامعة للخَير ، المستحِقة أَن تُسمَّى بهذا الاسم دُون غيرها ، لِتَفَوُّقها على سائر مُسمَّياتِ أَجناسِها ، تَفوُّقَ الكعبةِ في تَسميتها بالبَيت على سائر مُسمَّياته ، حتى كأَنها هي الْمَحَل الْمُستحِق للإقامة دُونَ غَيرها)) اهـ . وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال: قال رسول الله ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مكة : ((إنَّ هذا البَلَدَ حرَّمه اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ ، فَهُوَ حَرام بِحُرْمةِ اللهِ إلى يوم القيامة ، وإنَّه لَم يَحِلَّ القِتالُ فِيه لأحَدٍ قَبْلي، وَلَم يَحِلَّ لِي إلا سَاعةً مِن نهار ، فَهُوَ حَرامٌ بِحُرْمةِ اللهِ إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شَوْكُه، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُه،ولا يُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إلا مَن عَرَّفَها،ولا يُخْتَلَى خَلاه))[30].

لقد حَرَّمَ اللهُ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ ، وجَعَلَها حَرَمًا آمِنًا ، وهذه الْحُرْمةُ مستمرة إلى يوم القِيامة ، ولا يَمْلِكُ أحدٌ أن يُلغيَها . والقِتالُ في مَكَّة مُحرَّم شَرْعًا ، ولَم يَحِلَّ لأحَدٍ قبل النبيِّ ﷺ ، ولَم يَحِلَّ للنبيِّ ﷺ القِتالُ في مَكَّة إلا سَاعةً مِن نهار . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٢٦) : ((هذا مِمَّا يَحْتَجُّ به مَن يَقول إنَّ مكة فُتحت عُنوةً ، وهو مذهب أبي حنيفة وكثيرين أو الأكثرين ، وقال الشافعي وغَيْرُه : فُتحت صُلحًا . وتَأَوَّلوا هذا الحديث على أنَّ القِتال كان جائزًا له ﷺ في مكة، ولو احتاجَ إلَيه لَفَعله ، ولكنْ ما احتاجَ إلَيه ، والله أعلم)) .

---

(٣٠) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٦٤)برقم(٣٠١٧)، ومسلم (٢/ ٩٨٦) برقم (١٣٥٣). وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٤٧) : ((وقِيل : الحُرْمة الحق . أي حرام بالحق المانع مِن تَحليله . واسْتُدِلَّ به على تحريم القتل والقتال بالحَرَم . فأمَّا القتل ، فَنَقل بعضُهم الاتفاق على جواز إقامة حَد القتل فيها على مَن أوقعه فيها. وخُصَّ الخلاف بِمَن قَتل في الحِل ثُمَّ لجأ إلى الحَرَم. ومِمَّن نَقل الإجماع على ذلك ابن الجوزي)) اهـ .

" لا يُعْضَدُ شَوْكُه " . يَعني : لا يُقْطَعُ شَوْكُه . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٢٦) : ((فيه دَلالة لِمَن يَقول بتحريم جميع نبات الْحَرَم مِنَ الشَّجر والكلأ ، سَواءٌ الشَّوكُ المؤذي وغَيْرُه ، وهو الذي اختاره المتولِّي من أصحابنا (يعني الشافعية). وقال جمهور أصحابنا : لا يَحْرُمُ الشَّوكُ لأنَّه مُؤذٍ ... والصحيح ما اختاره المتولِّي ، والله أعلم)) اهـ .

" ولا يُنَفَّرُ صَيْدُه " . يَعني : لا يُـزْعَجُ . وإذا كـانَ إزعاجُه مُحَرَّمًا ، فإتلافُه أوْلَى بالتَّحريم ، وأشد في العقوبة . " ولا يُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إلا مَن عَرَّفَها " . يَعني : لا يُؤخَذ ما سَقط فِيها ، بَل يُترَك على الأرض. ولا تَحِلُّ إلا لمالكها. أمَّا مَن وَجَدَها فلا تَحِلُّ لَهُ ، وإنْ أعلنَ عَن صاحبها ولَم يَجِئْ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٢٦) : ((ومعنى الحديث : لا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا لِمَن يُريد أن يُعرِّفها سَنَةً ثُمَّ يتملكها ، كما في باقي البلاد ، بل لا تَحِلُّ إلا لِمَن يُعرِّفها أبدًا ولا يَتملكها ، وبهذا قال الشافعيُّ وعبد الرحمن بن مهدي وأبو عُبَيد وغَيرهم ، وقال مالك : يَجوز تَمَلُّكُها بعد تَعَرُّفِها سَنةً كما في سائر البلاد ، وبِه قال بعض أصحاب الشافعي)) اهـ .

" ولا يُخْتَلَى خَلاه " . يعني : لا يُقطَع حَشيشُها الرَّطْبُ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٢٥) : ((واتَّفقَ العلماء على تحريم قَطْع أشجارها التي لا يَستنبتها الآدميون في العادة، وعلى تحريم قَطْع خَلاها،واختلفوا فِيما يُنبِته الآدميون واختلفوا في ضَمان الشَّجر إذا قَطَعَه، فقال مالك : يَأثم ولا فِدية عَلَيه . وقال الشافعي وأبو حنيفة: عليه الفِدية . واختلفا فيها . فقال الشافعيُّ : في الشجرة الكبيرة بقرة وفي الصغيرة شاة ، وكذا جاء عن ابن عباس وابن الزُّبَير، وبه قال أحمد. وقال أبو حنيفة: الواجب في الجميع القيمة))اهـ .

ومكةُ المكرمة هي الحاضنة للكعبة المشرَّفة قِبْلةِ المسلمين التي توحِّدهم على اختلاف مذاهبهم وبلادهم وأجناسهم ولغاتهم . وهذه المدينة هي قلبُ العالَم الإسلاميِّ النابض، وسَيِّدة مُدن كوكب الأرض . إنها مدينة الله وحَرَمه الآمِن ، مَن دخلها فهو في كَنَفِ الله تعالى ، يتمتع بالأجواء الإيمانية الصافية ، ويخلو قلبُه من المخلوقات ، ويتوجَّه بالكُلِّية إلى خالقه تعالى .

إنَّ مَكَّةَ المكرَّمةَ هِيَ المركزُ الحضاريُّ والمركزيةُ الشرعيةُ العالميةُ . مَن آوى إِلَيها آوَتْهُ ، وَمَن قَصدها بِسُوء قَصَمَتْهُ ، وَمَن دَخَلها بقلبٍ مشتاق للإيمان فإن الفتوحات الرَّبانية ستهبط عليه ، وتكتنفه الفُيوضاتُ الإلهية المجيدة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَدُنَّا ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُون ﴾ [القَصَص : ٥٧] .

وقال كُفار قُرَيش للنبيِّ ﷺ : إن نتَّبع الحق مَعَكَ يا محمد ونُؤمِن بِكَ ، ونترك عبادةَ الأصنام ، يَتَخَطَّفْنا الناسُ مِن أرضنا. يَجتمع العربُ (المشركون) على حَرْبنا وقِتالنا ، ويَطردوننا من أرضنا، ويُسيطرون على مُمتلكاتنا ، لأننا خَالَفْنا دِينَهم ودِينَنا (دِين الآباء والأجداد) . وهذه حُجَّة الكافرين الداحضة ، وعُذرهم الواهي في عدم اتِّباع الهدى . وهذا من جُملة أعذارهم الباطلة .

وهذا كلامٌ باطلٌ نابعٌ من الهوى والكذب والوهم . فاللهُ تعالى جَعلهم في مكة (البلد الأمين الآمِن) ، والعربُ يَتقاتلون حَوْلهم ، كما أنَّ مكة وادٍ ضَيِّق ومحصور بين جبال عالية ، بلا زَرْعٍ ولا ثِمار. ومَعَ هذا تأتيهم الثمراتُ مِن كُلِّ مكان، ولا يَجوعون ولا يَعطشون . واللهُ تعالى حَمَاهم ومَنَحَهم هذه النِّعَمَ العظيمة، وهُم كُفار يَعبدون الأصنام.فكيفَ لا يَحميهم ولا يُنعِم عَلَيهم في حال إيمانهم واتِّباعهم للنبيِّ ﷺ؟!. ولكنَّ أكثرَهم جُهَّال، لا يَتفكرون في هذا الأمر، ولا يُدرِكون أبعادَه.

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٦٦): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ وقالوا إن نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أرْضِنا ﴾ . هذا قول مُشركي مكة . قال ابن عباس : قائل ذلك مِن قُرَيش الحارث بن عثمان بن نَوْفَل بن عبد مَناف القُرَيْشِي ، قال للنبيِّ ﷺ : إنَّا لَنَعلم أنَّ قَولك حق ، ولكن يَمنعنا أن نَتَّبع الهدى مَعَك ونُؤمن بِك ، مَخافةَ أن يَتَخَطَّفَنَا العربُ مِن أرضنا _ يعني مكة _، لاجتماعهم على خِلافنا ، ولا طاقة لنا بِهم ، وكان هذا مِن تعللاتهم ، فأجابَ اللهُ تعالى عَمَّا اعْتُلَّ بِه ، فقال : ﴿ أوَلَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ أي: ذا أَمْن. وذلك أنَّ العرب كانت في الجاهلية يُغِير بَعْضُهم على بَعض ، ويَقتل بعضُهم بعضًا ، وأهلُ مكة آمِنون ، بِحَيث كانوا بِحُرْمة الحرَم ، فأخبرَ أنه قد أَمَّنهم بِحُرمة البَيت ، ومَنع عَنهم عَدُوَّهم، فلا يَخافون أن تَستحلَّ العربُ حُرمةً في قتالهم. والتَّخَطُّفُ الانتزاع بِسُرعة . قال يحيى بن سلام ، يقول : كُنتم آمنين في حَرَمي ، تأكلون رِزْقي ، وتعبدون غَيري ، أفتخافون إذْ عبدتموني وآمنتُم بي. ﴿ يُجْبَى إلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : يُجمَع إليه ثمرات كل أرض وبلد... ﴿ رِزْقًا مِن لَدُنَّا ﴾ أي: مِن عِندنا.﴿ ولَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُون ﴾ أي لا يَعْقِلون. أي: هُم غافلون عن الاستدلال ، وأنَّ مَن رَزَقَهم وأَمَّنهم فِيما مضى حَالَ كُفرهم ، يَرزقهم لَوْ أسْلَموا ، ويَمنع الكفارَ عنهم في إسلامهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوَلَم يَرَوْا أنَّا جَعَلْنا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِم أفَبِالبَاطِلِ يُؤمنونَ وَبِنِعمةِ اللهِ يَكْفُرُون ﴾[العنكبوت : ٦٧] .

الخِطابُ الإلهيُّ مُوَجَّهٌ إلى الكفار . ألَم ينظروا كيف جَعَلْنا مكة المكرَّمة حَرَمًا يتمتَّع بالأمن والأمان، فَيَأمن الإنسانُ على نَفْسه وماله وعِرْضه دون حدوث أي اعتداء عليه ، في حين أن جرائم

القتل والنهب تُصيب مَن حَوْلهم . وفي هذا إشارة واضحة وبليغة إلى نِعمة الله العظيمة بأن جعل مكة المكرَّمة حَرَمًا مَصُونًا مَحْمِيًّا له حُرْمة جليلة لا ينتهكها إلا ضال . وأيضًا ، حَفِظَ أهلَ مكة مِن القتل والسَّبْي والسلب والنهب ، ولَم يَجعل أحدًا يَعتدي عليهم . وهذه آيةٌ إلهية واضحة على أرض الواقع ، فأهلُ مكة آمِنون مُطمئنون ، والناسُ حَوْلَهم غارقون في الحروب والقتل والدماء .

أوَلَم يَرَ هؤلاء الكفار (أهل مكة) _ رُؤية تفكُّر واعتبار _ أن اللهَ جَعل بَلَدَهم مكة حَرَمًا مَحْمِيًّا مِن الجرائم والسَّلْب والنهب،وجَعَلَ أهْلَه محفوظين مِن القتل والسَّبْي ، فلا يُعْتَدَى عليهم ، ولا أحد يُهدِّد حياتهم ، وجَعلهم في أمن وأمان وسلامة وعافية ، بينما الناس حَوْلهم يَقتل بعضُهم بعضًا، ويَسبي بعضُهم بعضًا، وتنتشر حَوْلهم الحروب القَبَلِيَّة والصراعات العشائرية ، وسَفك الدماء، وقتل الرجال ، وسَبْي النساء . فالعربُ حَوْلهم كانوا في حروب طاحنة ، وغارات عنيفة .

إن حُرمة مكة تبثُّ في النفس المؤمنة مزيدًا من الإيمان والطمأنينة ، فهي البلد الآمِن الأمين. فقد قال الله تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ [التين : ٣] . ولا يخفى أن مكة المكرَّمة هي أعظم بُقعة على كوكب الأرض على الإطلاق. فهي بَلَد الله ذو الثِّقْل العالميِّ الذي لا يُجارَى . وهي مأوى أفئدة المؤمنين يَهْربون إليها ، فيشعرون بالأمن والإيمان . وما دام المرءُ موجودًا فيها ، فهو في حِصن حَصين لا يَتسلَّل إليه الخوف ولا الضعف . إنها مَحَطُّ أنظار العالَم بأسْرِه . فهي بلدُ مَلِك الملوك ، ولا أحد يَدخلها إلا بإذنه وتوفيقه وهِدايته .

وقد قال رسول الله ﷺ مُخاطِبًا مكة المكرَّمة ، بَلَدَه العزيز الْمُحَبَّب إلى نفْسه الشَّريفة : ((واللهِ إنكِ لَخَيْرُ أرضِ الله، وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، وَلَوْلا أني أُخْرِجْتُ مِنكِ ما خَرَجْتُ)) [31].

وهذا يدل على عَظَمة مكة، وتفوُّقها على سائر البلاد . فهي أعظمُ بُقعة على كوكب الأرض، وأحبُّ مكان إلى اللهِ تعالى. وكُل هذه الدلائل تشير إلى مكانة مكة الدينية والحضارية والتاريخية والجغرافية، ومركزيتها العظيمة ذات القداسة في الأرض والسماء، وأهميةِ الوطن في حياة الإنسان.

ولا شَكَّ أن إخراج الإنسان مِن وَطنه يُعادِل قَتْلَه . إنه القتلُ المعنويُّ ، حيث يتمُّ مُصادَرة تاريخه ، وتهشيم مراحل عُمره ، وتحطيم ذِكرياته ، وقطع العلاقات الاجتماعية مع أهله وبيئته .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٨٩) : عن جابر _ رضي الله عنه_ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((لا يَحِلُّ لأحدكم أن يَحمل بمكة السلاح)) .

---

(٣١) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٨) برقم (٤٢٧٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي .

هذا يدل على الأهمية الخاصة لمكة المكرَّمة حَرَمِ الله الآمِن. والإنسان لا حاجة له بحمل السلاح في هذا المكان ، فهو يتمتَّع بالأمن والأمان مِن كُل الجوانب . لكنَّ الضرورات تُبيح المحظورات. فَإن ظَهَرَت حاجة طارئة تضطر المؤمنَ لحمل السلاح في مكة ، فلا شيء عليه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٣١) : ((هذا النَّهْي إذا لَم تكن حاجة ، فإن كانت جاز. هذا مذهبنا ومذهب الجماهير. قال القاضي عِياض: هذا محمول عند أهل العِلم على حمل السلاح لغير ضرورة ولا حاجة ، فإن كانت جاز . قال القاضي: وهذا مذهب مالك والشافعي وعطاء. قال: وكرهه الحسن البصري تمسُّكًا بظاهر هذا الحديث. وحُجَّة الجمهور دخول النبيِّ ﷺ عام عُمرة القضاء بما شرطه من السلاح في القِراب (الغِمد)، ودخوله ﷺ عام الفتح مُتَأهِّبًا للقتال. قال: وشَذَّ عِكرمة عن الجماعة، فقال: إذا احتاج إليه حَمَلَه، وعليه الفِدية . ولعله أراد إذا كان مُحْرِمًا ولَبِسَ المِغفَر (الخُوذة) والدِّرع ونَحْوهما ، فلا يكون مُخالفًا للجماعة)).

﴿ أفَبِالبَاطِلِ يُؤمنونَ وَبِنِعمةِ اللهِ يَكْفُرُون ﴾ . هذا استفهام إنكاري للتَّقريع والتَّوبيخ . أفبعد هذه النِّعم الإلهية الجليلة يَعبدون الأصنامَ ويتَّخذونها آلهةً ، ويَكفرون باللهِ ويَجحدون وَحدانيته ويُنكِرون نُبُوَّةَ محمد ﷺ ؟ . أفَبِالشِّرك يُصدِّقون بعد ظُهور حُجَّة الله عليهم ، ويَجعلون كُفرَ النِّعمة الإلهية مَكان شُكْرها ؟ . وتقديمُ الصِّلَتَين في الآية على الفِعْلَيْن ، للاهتمام والْمُبالَغة ، وبيان قُبح جريمتهم وشناعة فِعلهم ، وشِدَّة ظُلمهم لأنفسهم باختيارهم الكفر على الإيمان .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٢٤):((قوله تعالى: ﴿ أوَلَم يَرَوْا أنَّا جَعَلْنا حَرَمًا آمِنًا ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد : هي مكة ، وهُم قريش أمَّنهم اللهُ تعالى فيها ، ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِم ﴾ . قال الضَّحاك : يَقتل بعضُهم بعضًا ، ويَسْبي بعضُهم بعضًا. والخطف الأخذ بسرعة . فَذَكَّرهم اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ هذه النِّعمة ، لِيُذْعِنوا له بالطاعة. أي:جَعلتُ لهم حَرَمًا آمِنًا أَمِنُوا فيه مِن السَّبْي والغارة والقتل ، وخَلَّصتهم في البَر كما خَلَّصتهم في البحر ، فصاروا يُشركون في البَر ، ولا يُشركون في البحر . وهذا تعجُّب مِن تناقض أحوالهم . ﴿ أفَبِالبَاطِلِ يُؤمنونَ ﴾ . قال قتادة : أفبالشِّرك . وقال يحيى ابن سلام : أفبإبليس . ﴿ وَبِنِعمةِ اللهِ يَكْفُرُون ﴾ . قال ابن عباس : أفبعافية الله . وقال ابن شجرة : أفبعطاء الله وإحسانه. وقال ابن سلام: أفبما جاء به النبيُّ ﷺ مِن الهدى.وحكى النَّقاش: أفبإطعامهم مِن جُوع وأمْنِهم مِن خَوف يكفرون. وهذا تعجُّب وإنكار خرج مخرج الاستفهام)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وكذلك أوحَيْنا إلَيْكَ قُرْآنًا عربيًّا لِتُنذرَ أُمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾[الشُّورى: ٧].

كما أوحَى اللهُ إلى الأنبياء_علَيهم الصلاة والسلام_، أوحَى إلى النبيِّ محمد ﷺ قُرآنًا عربيًّا مُعْجِزًا وواضحًا لا لَبْس فِيه ولا تعقيد ، لِيُنذِرَ أهلَ مكة ، وسائرَ الناس. يُنذِرهم عذابَ الله تعالى في حال كُفرهم ، وتكذيبهم ، وعِنادهم، ورفضهم الدعوة. وقد جاءَ القُرآنُ بالعربية كَي يَفهمه العربُ ، ويَعرفوا ما فِيه مِنَ الْحُجَجِ والمواعظ والأحكام .

وسُمِّيت مكة بأُم القُرى لأنها أشرف بُقعة على الأرض ، وهي المركز ذو المكانة الجليلة .

وقال الفخرُ الرازي في التفسير الكبير (٢٧/ ١٤٧): ((وأُمُّ القُرى أصْلُ القُرى ، وهي مكة، وسُمِّيت بهذا الاسم إجلالاً لها ، لأنَّ فيها البَيْتَ ومَقامَ إبراهيم ﷺ ، والعربُ تُسمِّي أصْلَ كُلِّ شيء أُمَّه ، حتى يُقال : هذه القصيدة مِن أُمهات قصائد فُلان)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ ﴾ [البَلَد : ١] (32).

هذا قَسَمٌ إلهيٌّ جليل بمكة المكرَّمة (البلد الحرام) يُشير إلى مكانتها المقدَّسة . فاللهُ تعالى يُقسِم بما شاء مِن مَخلوقاته ، وليس للمرء أن يَحلف بِغَير الله تعالى . وكما هو معلوم فإنَّ اللهَ لا يُقسِم إلا بشيء عظيم ذي مكانة رفيعة . وقد أقسمَ اللهُ بمكة تَشريفًا لها ، وتعظيمًا لِقَدْرها .

وقَوْله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ ﴾ أشدُّ مِن القَسَم ، وفيه تأكيد بَليغ . وهذا مشهور في لغة العرب. والقَسَمُ يَلفت انتباهَ السامع ، ويَجذبه من أجل التركيز في اللفظ والمعنى. فالقَسَمُ يُعطي أهميةً جليلة للكلام. وعندما يُقسِم اللهُ تعالى بمكة، فهذا مؤشر باهر على أنها بَلَدٌ يتمتع بخصوصية مُعيَّنة، ولها قُدسية عظيمة، ولا يُماثلها أيُّ بلد آخَر .

وعن ابن عباس_ رضي اللهُ عنهما_:_ ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ ﴾ . قال: ((قَسَمُ القَسَم))(33).

إنَّ مكة لَيست مكانًا عادِيًّا ، وليست بُقعةً جغرافية محصورة في الزمان والمكان . إنها مَهْبِط الرحمة ، ومنبع الطهارة ، وقلبُ النُّور ، وصانعةُ الزمان والمكان. إنها الْحَرَمُ الآمِن ، الذي يُجبَى إلَيها ثمرات كُلِّ شَيء. ولا يُسفَك فِيها دم ، ولا يُظلَم فيها أحد ، ولا يُصاد فِيها صَيد ، ولا يُعضَد فيها شجر . وقد شرَّف اللهُ مكة بوجود الكعبة قِبلة المسلمين . وهذا البلدُ الحرامُ اجتمعت له من

(٣٢) قال الصابوني في صفوة التفاسير (٢٠/ ٦٢): ((زيادة ﴿ لا ﴾ لتأكيد الكلام، وهو مُستفيض في كلام العرب . ﴿لا أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ أي:أُقسِم بهذا البلد.وفائدتها تأكيد القَسَم كَقَولك:لا واللهِ ما ذَاك ،كما تقول : أي واللهِ . قال امرؤ القيس : " لا وأبيكِ ابنة العامري ")) .

(٣٣) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٩٠) : ((رواه البزَّار ، ورجاله رجال الصحيح)) .

المزايا والفضائل ، ما جَعله يَتفوَّق على بِقاع الأرض كُلِّها . لذلك أقسمَ اللهُ بِه . والجديرُ بالذِّكر أنَّ تحريم مكة إلهيٌّ لا بشريٌّ ، وقد حرَّمها اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السماواتِ والأرض . فعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مكة : ((إنَّ هذا البلدَ حَرَّمه اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السماواتِ والأرض ، فهو حَرامٌ بِحُرْمة اللهِ إلى يوم القيامة)) [سبق تخريجُه] .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وأنتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ ﴾ [البَلَد : ٢] .

لقد أحلَّ اللهُ لمحمدٍ ﷺ القتلَ والأسْرَ في مكة ، وهذه خُصوصيةٌ للنبيِّ ﷺ وَحْدَه . فلا حَرَجَ عَلَيه في ذلك ولا إثم . لقد أحلَّ اللهُ للنبيِّ ﷺ يَوْمَ دَخل مكة أن يَقتل مَن يَشاء ، ويَترك مَن يَشاء . وهذه الأمرُ ليس عامًّا ، بَل هو خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ في مُدَّة زمنية مُحدَّدة . فالأمرُ مُقيَّد لا مُطْلَق .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٢٩) : ((والمعنى أنَّ الله تعالى لَمَّا أقسمَ بمكة دَلَّ ذلك على عَظيم قَدْرها مَعَ حُرْمتها ، فَوَعَدَ نَبِيَّه ﷺ أنه يُحِلُّها له حتى يُقاتل فيها ، وأن يَفتحها على يده ، فهذا وَعْدٌ مِن الله عَزَّ وَجَلَّ بأن يُحِلَّها له . قال شُرَحبيل بن سَعْد : ومعنى قَوْلِه : ﴿ وأنتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ ﴾ . قال : يُحرِّمون أن يَقتلوا بها صَيْدًا ، ويَستحلون إخراجَك وقَتْلَك ؟)) اهـ .

وقد أمرَ النبيُّ ﷺ بِقَتل ابن خَطَلٍ وهو مُتعلِّق بأستار الكعبة ، ومِقْيَس بن صُبابة ، وغَيرهما .

فعن أنس بن مالك ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ دَخل عَامَ الفَتْح ، وعلى رأسه المِغفَر، فلمَّا نَزَعَه جاءَ رَجُلٌ فقال : إنَّ ابْنَ خَطَلٍ مُتعلِّق بأستار الكعبة ، فقال : ((اقتلوه)) [34].

والمِغفَر (الْخُوذة) ما يُلبَس على الرَّأس مِن دِرْع الحديد . لقد أهدرَ النبيُّ ﷺ دَمَ ابْنِ خَطَل ، لأنه ارتكبَ جرائم كثيرة ، مِن أقبحها الارتداد عن الإسلام . لذلك لَم يَستحق العَفْو والتسامح .

وقد يَظهر وَهْمٌ في بعض الأذهان، بأنَّ هذه قَسوة بالغة، وأنها تتعارض مع التسامح الإسلاميِّ، وكانَ الأَوْلَى العَفْو عنه . إنَّ الإسلامَ مُصْحَفٌ وسَيْفٌ . مَن استخدمَ لُغةَ الحِوار ، فإنَّه يُحَاوَر بأدبٍ وهُدوء . ومَن استخدمَ السِّلاحَ ، فإنَّه يُقتَل . والنبيُّ ﷺ لَم يَقُم بالاعتداء على شخص بريء أو مِسكين . فابنُ خَطَل مِن كِبار المجرمين المحارِبين للهِ ورسولِهِ ﷺ. والْحَل الوحيد للتعامل معَ هؤلاء المجرمين هو القَتْل، لأنه يَستحق هذه العُقوبة نَظيرَ أفعاله الشنيعة . ولا بُد للعقيدة مِن قُوَّة تَحميها، ولا بُد للقُوَّة مِن عقيدة تُوجِّهها . وفي دُوَل العالَم التي تَتشدَّق بالحب والتسامح وحقوق الإنسان، يُحكَم على مَن يَرتكب جريمة الخيانة العُظمى بالإعدام . والنبيُّ ﷺ ليس مُتَعَطِّشًا

---

(٣٤) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٥٥) برقم (١٧٤٩) ، ومسلم (٢/ ٩٨٩) برقم (١٣٥٧) .

للدماء، وليس طاغيةً سَفَّاحًا . ولكنَّه قائدُ المسلمين ، يَحمي المجتمع الإسلاميَّ مِن الأعداء المجرمين ، ويجب إيقاع العقوبات على مُستحقيها بلا إفراط ولا تفريط ، مِن أجل رَدْع كُل مَن تُسوِّل له نَفْسُه تهديد الدَّولة الإسلامية ، وتشكيل خطر على حياة المسلمين . وكما قِيل : مَن أَمِنَ العُقوبةَ ، أساءَ الأدبَ . وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٣٢) : ((قال العلماء : إنما قَتله لأنه كان قد ارتدَّ عن الاسلام ، وقَتل مُسْلِمًا كان يَخدمه ، وكان يَهجو النبيَّ ﷺ ويَسُبُّه ، وكانت له قَينتان تُغنِّيان بِهجاء النبيِّ ﷺ والمسلمين . فَإن قِيل : ففي الحديث الآخَر " مَن دَخل المسجد فهو آمِن " ، فكيف قَتَله وهو مُتعلِّق بالأستار ؟ . فالجواب أنه لَم يَدخل في الأمان ، بَل استثناه هُوَ وابن أبي سَرْح والقَيْنَتَيْن، وأمَرَ بِقَتله وإن وُجد مُتعلِّقًا بأستار الكعبة كما جاء مُصرَّحًا به في أحاديث أُخَر . وقِيل : لأنه مِمَّن لَم يَفِ بالشَّرْط ، بَل قَاتلَ بعد ذلك. وفي هذا الحديث حُجَّة لمالك والشافعي وموافقيهما في جَواز إقامة الحدود والقِصاص في حَرَم مكة . وقال أبو حنيفة : لا يجوز . وتأوَّلوا هذا الحديث على أنه قَتَله في الساعة التي أُبيحت له . وأجاب أصحابُنا بأنها إنما أُبيحت ساعةَ الدخول حتى استولى عَلَيها، وأذعنَ له أهلُها. وإنما قَتل ابْنَ خَطَل بعد ذلك ، والله أعلم . واسم ابن خَطَل عبد العُزَّى ، وقال محمد ابن إسحاق : اسمه عبد الله)) اهـ .

أمَّا مِقْيَس بن صُبابة ، فقد أسلمَ ، ثُمَّ قَتل رَجلاً أنصاريًّا ، وارتدَّ عن الإسلام .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١١) : ((وأمَّا مِقْيَس بن صُبابة ، فكان أسلمَ ، ثُمَّ عدا على رَجل من الأنصار فَقَتله، وكان الأنصاريُّ قَتل أخاه هشامًا خطأ ، فَجاء مِقْيَس، فَأَخذَ الدِّيَةَ ، ثُمَّ قَتل الأنصاريَّ ، ثُمَّ ارتدَّ ، فَقَتله نُمَيْلَة بن عبد الله يوم الفَتْح (فتح مكة))) اهـ .

لقد مَنَحَ اللهُ السُّلطةَ الدينية لمحمد ﷺ ، وسَمَحَ له أن يَقتل مَن يَشاء ، ويَعفوَ عمَّن يَشاء . فأحلَّ النبيُّ ﷺ دِماءَ قَوْمٍ ، وحرَّم دِمَاءَ قَوْمٍ ، فقال ﷺ : ((مَن دَخل دار أبي سُفيان فَهُوَ آمِن ، وَمَن ألقى السِّلاحَ فَهُوَ آمِن ، ومَن أغلقَ بابَه فَهُوَ آمِن)) [صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥)] .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٨٧) أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((إنَّ مكةَ حرَّمها اللهُ ، وَلَم يُحَرِّمْها الناسُ، فلا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمِن باللهِ واليوم الآخِر أن يَسْفِك بها دَمًا ، ولا يَعْضِد بها شجرةً، فإنْ أحدٌ تَرَخَّصَ بِقتال رسول الله ﷺ فِيها ، فقولوا له : إنَّ اللهَ أَذِنَ لرسوله ، وَلَم يَأذَنْ لكم ، وإنما أَذِنَ لي فيها ساعةً مِن نهار ، وقد عادت حُرمتها اليوم كَحُرمتها بالأمس ، وَلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ)) .

إنَّ تحريمَ مكة إلهيٌّ لا بشريٌّ . ومُحرَّم شَرْعًا أن يُسفَك فيها دم ، أو تُقطَع بها شجرة . والمؤمنُ هو الذي يَلتزم بهذه التعاليم ، لأنَّه يُعظِّم اللهَ ، ويُقدِّس أوامرَه ، ويُطبِّق سُنَّةَ النبيِّ ﷺ قَوْلاً

وفِعلاً . وإذا أرادَ رَجل أن يأخذ بالرُّخصة فَيُقاتِل في مكة ، ويستدل بقتال النبيِّ ﷺ فيها . فنقول له : إنَّ هذا الأمر خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ وَحْدَه ، لأنَّ اللهَ أذِنَ له بذلك، ولَم يَأذن للناس. حتى الإذنُ للنبيِّ ﷺ ليس عامًّا، بَل هو مُقيَّد بساعةٍ مِن نهار حتى يَفتح مكة.وقد عادت حُرمةُ مكة كما كانت. إنها البلدُ الحرامُ حتى يوم القِيامة. وهذا حُكْمٌ ثابت، لا تبديل فيه ولا نَسْخ،لأنَّ النَّسْخَ انتهى بموت النبيِّﷺ. وعلى الحاضرين الذين يَسمعون كلامَ النبيِّ ﷺ أن يُبلِّغوه للغائبين.وهذا يَدل على ضرورة نشر العِلم ، وإيصال الأحكام والشرائع والسُّنن لكل الناس في كُلِّ زمانٍ ومكان . وزكاةُ العِلْمِ نَشْرُه. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٢٧و١٢٨) : ((قَوْلُه ﷺ : " إنَّ مكة حرَّمها اللهُ ولَم يُحرِّمها الناس"، معناه أنَّ تحريمها بِوَحْي الله تعالى، لا أنها اصطلح الناسُ على تحريمها بِغَير أمر الله . قَوْلُه ﷺ : " فلا يَحِل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَسفِك بها دَمًا ولا يَعضِد بها شجرة " . هذا قد يَحتج به مَن يَقول : الكفار ليسوا بِمُخاطَبين بِفُروع الإسلام . والصحيح عندنا وعند آخرين أنهم مُخاطَبون بها كما هُم مُخاطَبون بأصوله ، وإنما قال ﷺ : " فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر " لأنَّ المؤمن هو الذي يَنقاد لأحكامنا ، ويَنْزجر عن مُحرَّمات شَرْعنا ، ويستثمر أحكامه ، فَجَعل الكلام فيه، وليس فيه أنَّ غَير المؤمن ليس مُخَاطَبًا بالفروع . قَوْلُه : " يَسْفِك " أي يُسيله . قَوْلُه ﷺ : " فإنْ أحدٌ ترخَّص بقتال رسول الله ﷺ " إلى آخِره ، فيه دَلالة لِمَن يَقول : فُتحت مكة عُنوةً. وقد سبق في هذا الباب بيان الخلاف فيه، وتأويل الحديث عند مَن يَقول: فُتحت صُلْحًا أنَّ معناه دخلها مُتَأهِّبًا للقتال لو احتاج إِلَيه ، فهو دليل الجواز له تلك الساعة. قوله ﷺ : " وَلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ " . هذا اللفظ قد جاءت به أحاديث كثيرة، وفيه التصريح بوجوب نقل العِلم، وإشاعة السُّنن والأحكام))اهـ .

وقد يَكون معنى الآية : ﴿ وأنتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ ﴾ [35] . وأنتَ يا محمد ساكنٌ ومُقيمٌ بمكة . أي إن المقصود هو السَّكَن والإقامة والوجود في البلد .

---

(٣٥) أوردَ ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٢٧) ثلاثة أقوال في تفسير الآية: ((أحدها حِلٌّ لَكَ ما صَنعتَ في هذا البلد مِن قَتْل أو غَيْرِه، قاله ابن عباس ومجاهد . قال الزَّجاج : يُقال : رَجُلٌ حِلٌّ وحَلالٌ ومُحِلٌّ.قال المفسِّرون: والمعنى إنَّ اللهَ تعالى وَعد نَبِيَّه أن يَفتح مكة على يَدَيه بأن يُحِلَّها له، فيكون فيها حِلاًّ. والثاني فأنتَ مُحِلٌّ بهذا البلد غَيْرُ مُحْرِمٍ في دُخوله ، يعني عام الفَتْح ، قاله الحسن وعطاء . والثالث أنَّ المشركين بهذا البلد يَسْتَحِلُّونَ إخراجَكَ وقَتْلَكَ ، ويُحرِّمون قَتْلَ الصَّيد، حكاه الثعلبي)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٩٢):((أقسمَ سُبحانَه بالبلد الحرام، وقيَّده بِحُلول الرسول عليه الصلاة والسلام فيه، إظهارًا لمزيد فَضْله ، وإشعارًا بأنَّ شَرَفَ المكان بشرف أهله)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ : في قَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ (١) وأنتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ (٢) ﴾ . قال : ((أَحَلَّ له أن يَصنع فيه ما شاء)) [36].

وهذا يدل على مكانة النبيِّ ﷺ العظيمة ، وتميُّزه عن الآخرين ، وأنه يَحِق له ما لا يَحِق لِغَيره .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وهذا البَلَدِ الأمينِ ﴾ [التِّين : ٣] .

يُقسِم اللهُ بالبلد الأمين ، وهو مكة المكرَّمة . وقد سمَّاه اللهُ أمينًا لأنه آمِن . يأمنُ فيه الناسُ في الجاهلية والإسلام . ومَن دَخَلَ مكةَ كان آمِنًا مُطْمَئِنًّا . يَأمنُ على نفْسه وماله وعِرضه ، فلا أحد يتعرَّض له بِسُوء ، ولا خطر يُهدِّد حياته . وهذا يدل على مَنْزلة مكة الرفيعة ، وشرفها العظيم، وخَيْرها وبَرَكتها وفضلها . وقد شرَّفها اللهُ بأن أرسلَ فيها محمدًا ﷺ ، خاتَمَ الأنبياء. إن مكة هي وَطَنُ محمد ﷺ، وفيها أثرُ إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٣٤) : ((وقَوله : ﴿ وهذا البَلَدِ الأمينِ ﴾ . يقول : وهذا البلد الآمِن مِن أعدائه أن يُحاربوا أهْلَه أو يَغزوهم . وقِيل : الأمين ، ومعناه : الآمِن)) اهـ .

ثالثًا : الكَعْبة الْمُشَرَّفة

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وأمْنًا واتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طَهِّرَا بَيْتِيَ للطائفينَ والعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

إن الله تعالى جَعل الكعبةَ المشرَّفة مَرْجِعًا للناس يَثُوبون (يَرْجعون) إليها مِن كُل الجهات، ويَأتونها ويَقْصِدونها للحج والعُمرة ، وأمْنًا للناس ، فلا يَتعرَّض لهم أحد ، ولا يَعتدي عليهم أحد بأي شكل من الأشكال . إنَّ الكعبة مَأمَن للناس من الظلم والإغارة الواقعة في غَيْره . وهي ـ أي الكعبة ـ مركز التقائهم ، ونقطة تجميع شَمْلهم . وهي القوة الجاذبة التي تستقطبهم لتبثَّ فيهم المعاني الإيمانية الراقية ، حيث يَجِدون عِندها الطمأنينة ، ويَستشعرون معاني الوَحْدة والقوة .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٣١): ((ومضمون ما فسَّر بِه هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يَذْكر شَرَفَ البَيْت ، وما جعله موصوفًا بِه شَرْعًا وقَدَرًا مِن كَوْنه مَثابةً للناس ، أي : جَعَلَه

(٣٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٦٩) برقم (٣٩٣١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

مَحَلاً تشتاق إليه الأرواح ، وتَحِن إليه ، ولا تَقْضي مِنهُ وَطَرًا (حاجةً) ولو تردَّدت إليه كل عام، استجابةً مِن الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام... . ويصفه تعالى بأنه جعله آمِنًا، مَن دَخَلَه أَمِنَ ، ولو كان قد فَعَل ما فَعَل ، ثُمَّ دَخَله كان آمِنًا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يَلقى قاتلَ أبيه أو أخيه فيه ، فلا يَعْرِض له)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٤١): ((قَولـه تعالى: ﴿ وإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثَابَةً للنَّاسِ ﴾ البَيْت هاهُنا الكعبة ، والألف واللام تدخل للمعهود أو للجِنس، فلمَّا عَلِمَ الْمُخَاطَبُون أنه لَم يُرِد الجِنس ، انصرفَ إلى المعهود. قال ابن قُتَيبة : والْمَثَابَةُ الْمَعَاد ، مِن قَوْلك : ثُبْتُ إلى كذا ، أي : عُدْتُ إليه ، وثابَ إليه جِسمه بعد العِلَّة ، إذا عاد . فأراد أن الناس يَعُودون إليه مَرَّةً بعد مرة . قَوله تعالى : ﴿ وأَمْنًا ﴾ . قال ابن عباس : يُريد أن مَن أحدثَ حَدَثًا في غَيْره ثُمَّ لَجَأ إليه فهو آمِن ، ولكن ينبغي لأهل مكة أن لا يُبايعوه، ولا يُطْعِموه، ولا يَسْقُوه ، ولا يُؤووه، ولا يُكلَّم حتى يَخرج. فإذا خرج أُقِيم عليه الحد . قال القاضي أبو يعلى:وَصَفَ البيت بالأمْن، والمراد جميع الحرَم، كما قال: ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الكعبةِ ﴾، والمراد الحرَم كُلُّه، لأنه لا يُذبَح في الكعبة ولا في المسجد الحرام، وهذا على طريق الْحُكْم لا على وجه الخبر فقط)) اهـ . ﴿ واتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلًّى ﴾ الخطابُ للأُمَّة المحمَّدية الإسلامية، وهو أمرٌ للاستحباب ، وليس للوجوب . ومَقَامُ إبراهيم هو الْحَجَر (مَوضع قَدَميه) الذي قامَ عليه عِند بناء الكعبة . وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٤٦) : ((قال ابن يمان : المسجد كُلُّه مَقَام إبراهيم . وقال إبراهيم النَّخعي : الحرَم كُلُّه مَقَام إبراهيم . وقِيل : أراد بِمَقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مِثل عَرَفَة ومُزْدَلِفَة وسائر المشاهِد . والصحيح أن مَقَام إبراهيم هو الْحَجَر الذي في المسجد يُصلِّي إليه الأئمة ، وذلك الْحَجَر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء البَيت . وقِيل : كان أثر أصابع رِجليه بَيِّنًا فيه ، فاندرسَ مِن كَثرة المسح بالأيدي . قال قَتادة ومُقاتل والسُّدي : أُمِرُوا بالصلاة عِند مَقَام إبراهيم ، ولَم يُؤمَروا بِمَسْحه وتقبيله)) اهـ .

قال عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه _ : ((وافقتُ ربي في ثلاث ، فقلتُ : يا رسول الله ، لَو اتَّخَذْنا مِن مَقام إبراهيم مُصَلًّى، فأُنزلت : ﴿ واتخِذوا مِن مَقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى ﴾ ، ...)) [37].

وهذا يدل على فضل عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ ، ومَنْزلته الرفيعة ، وقُوة إيمانه ، وبُعد نظره . فقد نَزَلَ الوَحْيُ مُؤيِّدًا له ، ومُقَرِّرًا لوجهة نَظَره ، وداعمًا لاقتراحه .

(٣٧) رواه البخاري(١/ ١٥٧)برقم(٣٩٣) واللفظ له،ومسلم (٤/ ١٨٦٥) برقم (٢٣٩٩).

﴿ وَعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طَهِّرَا بَيْتِيَ للطائفينَ والعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

لقد أَمَرَ اللهُ إبراهيمَ وإسماعيلَ ــ عليهما الصلاة والسلام ــ وأوصاهما وأوحى إليهما ، أن يُطهِّرا بَيْتَ اللهِ الحرامَ (الكعبةَ) مِن الأذى والنجاسة والأوثان والشِّرك ، للطائفين الذين يَطوفون به ، والعاكفين (الْمُقيمين في الحرَم)، والْمُصَلِّين عِند الكعبة، الذين يَركعون ويَسجدون لله تعالى .

والمقصودُ بالطهارة : الطهارة المادية مِن النَّجاسات ، والطهارة المعنوية مِن الشِّرك والأصنام .

وجميع المساجد تابعة للكعبة، في وُجوب تطهيرها وتنظيفها، ورعايتها، والاعتناء بها . وتخصيصُ الكعبة بالذِّكر لأنها أعظم بُيوت الله في الأرض ، وقِبلة المسلمين ، مَعَ أن جميع المساجد بيوت الله . وتخصيص الرُّكوع والسُّجود بالذِّكر لأنهما مِن أركان الصلاة ، ولا معنى للصلاة بدونهما ، كما أن رُكوع الْمُصَلِّي وسُجوده أحب الأحوال إلى الله تعالى ، لأنهما دليل على خُضوع العبد واستسلامه المطْلَق للهِ تعالى . وفيهما تتجلى العبودية الخالصة لله تعالى .

وقد أضافَ اللهُ البَيْتَ إلى ذاته المقدَّسة ، فقالَ : ﴿ بَيْتِيَ ﴾ ، لتشريفه وتعظيمه ، فهي إضافة تشريف وتكريم ، وإضافة مخلوق إلى الخالق ، ومَملوك إلى المالك .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٤٢): ((قَوله تعالى: ﴿ أن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ .قال قَتادة: يُريد مِن عبادة الأوثان والشِّرك وقول الزُّور ، فإن قِيل : لَم يكن هناك بيت ، فما معنى أمرهما بتطهيره ؟، فعنه جوابان : أحدهما أنه كانت هناك أصنام ، فأُمِرَا بإخراجها ، قاله عِكرمة . والثاني أن معناه : ابْنِيَاه مُطَهَّرًا ، قاله السُّدي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ للذي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى للعَالَمِين ﴾ [آل عِمران : ٩٦] [38].

إن الكعبة هي أول بَيت وُضِعَ للناس . وهذه المنْزلة المقدَّسة ليست لغيرها . مِمَّا يدل على عَظَمتها وفضلها وشرفها ، ومكانتها الكَوْنية التي لا يُضارعها شيء . فهي مركزُ القداسة والطهارة

(٣٨) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠٨): ((بَكَّة من أسماء مكة على المشهور.قِيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنها تَبُكُّ أعناقَ الظلَمة والجبابرة، بمعنى أنهم يَذِلُّون بها ويخضعون عندها . وقيل : لأن الناس يَتَبَاكُّون فيها، أي يزدحمون)) اهـ. وفي مفردات القرآن (١/ ١٣٧٨): ((اشتقاق مكة، مِن : تَمَكَّكْتُ العظم : أخرجتُ مُخَّه. وامْتَكَّ الفصيلُ ما في ضَرْع أُمِّه. وعَبَّرَ عن الاستقصاء بالتَّمَكُّك ... وتسميتها بذلك لأنها كانت تَمُكُّ مَن ظَلَم بها. أي : تَدُقُّه وتُهْلِكه)) اهـ . وقيل : سُمِّيَتْ بذلك لِقِلَّة مائها .

والبركة والهدى . مَن رآها لانَ قلبُه وخضعَ لله تعالى . ومَن رفضها قَضَتْ عليه ، فعادَ مُنْتَكِسًا يَجُرُّ أذيال الخيبة والخِزي والعار . ولا شك أن كَوْنها أول بَيْت لعبادة الله تعالى يُعطيها أفضلية على غَيْرها ، فلها شَرَف الأولية والسَّبق ، وكلُّ بيوت العبادة مِن بَعدها تابعةٌ لها .

وقد وَضَعَ اللهُ الكعبةَ لجميع الناس كَي يُمارِسوا عبادتهم، ويَقصدوها للحج والعُمرة، ويَطوفوا بِها ، ويُصَلُّون عِندها . والنبيُّ إبراهيم ﷺ هو باني الكعبة ، واليهودُ والنصارى يَنسِبون أنفسهم إليه كَذِبًا وزُورًا ، فهُم يَزْعمون أنهم سائرون وَفْق دِينه ، ومُقْتَدُون به . ومعَ هذا ، لا يَحُجُّون إلى البَيت الذي بناه النبيُّ إبراهيم ﷺ ، ودعا الناس إلى حَجِّه ، وهذا يدل على كَذِبهم وتناقضهم .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٥٤٦): ((هذا شُروع في بيان شيء آخر مِمَّا جادلت فيه اليهودُ بالباطل . وذلك أنهم قالوا : إن بيت المقدس أفضل وأعظم مِن الكعبة لِكَوْنه مُهَاجَرَ الأنبياء وفي الأرض المقدسة . فردَّ اللهُ ذلك عليهم بقوله ﴿ إنَّ أوَّل بَيْت وُضع للناس ﴾ ، فنَبَّه تعالى بِكَوْنه أول مُتَعَبَّد، على أنه أفضل مِن غَيره . وقد اخْتُلِف في الباني له في الابتداء فقيل : الملائكة ، وقِيل : آدم ، وقِيل : إبراهيم . ويَجمع بين ذلك بأول مَن بناه الملائكة ثُمَّ جدَّده آدم ثُمَّ إبراهيم)) اهـ .

واليهودُ يحاولون على الدوام الانتقاص من دِين الله ورسوله ﷺ ، فهُم يُقدِّمون أنفسهم حُرَّاسًا للشريعة ، وحُماةً للأماكن المقدَّسة ، ومُدافِعين عن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . وهُم يُظهِرون التَّمَسُّك ببيت المقْدِس كَي يَطعنوا في الكعبة . وهُم يَزعمون أنهم مؤمنون بأنبياء بني إسرائيل كَي يَطعنوا في نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ . وهذا هو مُنتهى الكفر والضلال والعناد والتناقض .

ولو كانوا مؤمنين حَقًّا لَمَا قَتلوا الأنبياءَ ، وحَرَّفوا التوراةَ . فمنهجُ الأنبياء واحد ، والكتبُ السماوية مصدرها واحد ، ولو كانوا مؤمنين حَقًّا بموسى ﷺ لاتَّبعوا محمدًا ﷺ. ولو التزموا بالتوراة لاهْتَدَوْا إلى الإيمان بالقرآن ، لكن التحايل على النصوص الشرعية ، والالتفاف على الشريعة ، ولَيْ أعناق النصوص ، والتلاعب بالكلام الإلهيِّ خُضوعًا للأهواء الذاتية والمصالح الشخصية ، وتقديم الْحُجَج الواهية . كُل هذه الأمور أبعدتهم عن الحق ، ومنعتهم مِن اعتناقه .

إن أول مسجد بُنِيَ في الأرض هو المسجد الحرام الذي يَحتوي على الكعبة،والموجود في مكة. وُضِعَ مُبَارَكًا كثير الخير والبَرَكة والنفع لِمَن جاءه حَاجًّا أو مُعْتَمِرًا، فالذنوبُ تُغفَر فيه ، والحسنات تُضَاعَف ، ومَن دَخَلَه صارَ آمِنًا ، يَأمن على نفْسه وماله وعِرضه ، لا أحد يَعتدي عليه بأي شكل من الأشكال . وكما أنه مُبَارَك ، فهو أيضًا ، مصدر الهِداية والنُّور لجميع الناس ، لأنه

قِبلتهم ومكان عبادتهم ، وفيه تَتَنَزَّل الرَّحمات ، وتَظهر الآيات الباهرة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُدًى للعَالَمِين ﴾ ، في الهدى هاهُنا أربعة أقوال : أحدها أنه بمعنى القِبلة ، فتقديره : وقِبلة العَالَمِين . والثاني أنه بمعنى الرحمة. والثالث أنه بمعنى الصلاح ، لأنَّ مَن قَصَدَه صَلَحَت حالُه عند رَبِّه ، والرابع أنه بمعنى البيان والدَّلالة على الله تعالى بما فيه مِن الآيات التي لا يَقْدِر عليها غَيْرُه ، حيث يجتمع الكلب والظبي في الحرَم ، فلا الكلب يُهيِّج الظبي ولا الظبي يستوحش منه ، قاله القاضي أبو يعلى)) اهـ .

وعن أبي ذَر ـ رضي الله عنه ـ قال : قلتُ : يا رسول الله ، أيُّ مَسجدٍ وُضِع في الأرض أوَّل؟. قال : ((المسجد الحرام)) . قال : قلتُ : ثُمَّ أَي ؟ ، قال : ((المسجد الأقصى)) . قلتُ : كَم كان بينهما ؟ ، قال : ((أربعون سنة)) [39].

يتَّضح الاقترانُ الأبديُّ ، والترابطُ العَقَدي المصيري ، والصِّلةُ الوثيقة المتينة بين المسجد الحرام (أول مسجد وُضِع في الأرض / القِبلة الثانية)، والمسجد الأقصى(ثاني مسجد وُضِع في الأرض / القِبلة الأولى) . والمدةُ الزمنية بينهما قريبة جِدًّا ، وهنا تتجلى الرابطة المشتركة بينهما . كما أن حادثة الإسراء قد وحَّدت بينهما بشكل متماسك على الصعيد العَقَدي والتاريخي والجغرافي . فقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ سُبحانَ الذي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي بَارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴾ [الإسراء :١] .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقَامُ إبراهيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾[آل عِمران : ٩٧] .

---

(٣٩) متفق عليه.البخاري (٣/ ١٢٣١) برقم (٣١٨٦)، ومسلم (١/ ٣٧٠) برقم (٥٢٠). وقد يظهر لدى البعض إشكال.فالنبيُّ سُلَيمانﷺ بنى بيتَ المقدس كما ورد في سُنن النَّسائي(٢/ ٣٤) بسند صحَّحه الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨) . والنبيُّ إبراهيم ﷺ بنى الكعبةَ . فقد قال الله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البَيْت ﴾ [البقرة : ١٢٧]. وبين إبراهيم وسليمان ـ عليهما الصلاة والسلام ـ مُدَّة زمنية طويلة. فقد قال أهل التواريخ: أكثر من ألف سنة [تفسير القرطبي ٤/ ١٣٤] . ولإزالة هذا اللبس في الأذهان ، ينبغي معرفة أن إبراهيم وسليمان عليهما الصلاة والسلام إنما جدَّدا ما كان أسَّسه غيرهما . قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨) : ((وليس إبراهيم أول مَن بنى الكعبةَ ، ولا سليمان أول مَن بنى بيتَ المقدس . فقد رُوِّينا أن أول مَن بنى الكعبةَ آدم ، ثم انتشر ولده في الأرض ، فجائز أن يكون بعضُهم قد وضع بيتَ المقدس ، ثم بنى إبراهيمُ الكعبةَ بنص القرآن)) اهـ .

في المسجد الحرام علاماتٌ واضحاتٌ تدل على شَرَفِه وفضله ومكانته العظيمة ، وتميُّزه عن باقي المساجد،مِنها: مَقَام النبيِّ إبراهيم ﷺ أبي الأنبياء.وهو الْحَجَرُ الذي قام عليه النبيُّ إبراهيمﷺ وكان أثَرُ قَدَميه الشريفتين فيه ، فاندرسَ مِن كثرة المسح بالأيدي . وهذه آيةٌ واضحةٌ وباهرةٌ .

ومِن العلامات الواضحات أيضًا : الحجَر الأسود والْحَطِيم وزَمْزَم والصَّفا والمروة والمشاعر كُلُّها . وكُل هذه العلامات تدل على شَرَف البَيت وعَظَمَته واستحقاقه أن يكون قِبلة المسلمين .

ومَن دَخَلَ حَرَمَ مكة كانَ آمِنًا،يَأمَن على نفْسه وماله وعِرضه،ولا أحد يتعرَّض له بِسُوء. وهذا الأمرُ ثابتٌ في الجاهلية والإسلام. وهذه علامةٌ أخرى تدل على شرفه وفضله وجلالة قَدْره (40).

ومِن العلامات الواضحات أن الطيور لا تَطير فوق البَيت على مدى الأزمنة ، وأن السِّباع والجوارح لا تتعرَّض للصَّيد في الحرَم ، وأن كُل طاغية جَبَّار قَصَدَ البَيت بِسُوء ، قَصَمَه اللهُ ورَدَّ كَيْدَه في نَحْره كأصحاب الفِيل . وقد خُرِّبَ بَيْتَ المقدس عِدَّة مَرَّات ، أمَّا المسجد الحرام فلم

---

(٤٠) قال البغوي في تفسيره (١/ ٩٦): ((ومِن الآيات في البَيت أن الطير تطير فلا تعلو فَوْقَه ، وأن الجارحة إذا قصدت صيدًا ، فإذا دَخل الصَّيْدُ الحرَمَ كَفَّت عنه ، وإنه بلد صدر إليه الأنبياء والمرسَلون والأولياء والأبرار ، وإن الطاعة والصدقة فيها تُضَاعَف بمائة ألف)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٧) : ((قال القاضي أبو يعلى : والمراد بالبَيت هاهُنا الحرَم كُلُّه ، لأن هذه الآيات مَوجودة فيه ، ومَقام إبراهيم ليس في البَيت (الكعبة). والآية في مَقام إبراهيم أنه قام على حَجَر فأثَّرت قدماه فيه، فكان ذلك دليلاً على قُدرة الله وصِدق إبراهيم . قَوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ . قال القاضي أبو يعلى : لفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، وتقديره: وَمَن دخله فأمِّنوه ، وهو عام فيمن جَنى جِنايةً قبل دخوله وفِيمَن جنى فيه بعد دخوله ، إلا أن الإجماع انعقدَ على أن مَن جنى فيه لا يُؤَمَّن لأنه هَتَكَ حُرمة الحرَم ورَدَّ الأمان،فبقي حُكم الآية فيمن جَنى خارجًا مِنه ثُمَّ لجأ إلى الحرَم.وقد اختلف الفقهاء في ذلك، فقال أحمد في رواية المروذي:إذا قَتل أو قَطع يدًا أو أتى حَدًّا في غير الحرَم ثم دخله لَم يُقَم عليه الحد،ولَم يُقتَص منه،ولكن لا يُبايَع ولا يُشارَى ولا يُؤاكَل حتى يخرج،فإن فعل شيئًا مِن ذلك في الحرَم اسْتُوفِيَ منه.قال أحمد في رواية حنبل:إذا قَتل خارج الحرَم ثم دخله لَم يُقتَل،وإن كانت الجِناية دون النَّفْس، فإنه يُقام عليه الحد، وبِه قال أبو حنيفة وأصحابه. وقال مالك والشافعي: يُقام عليه جميع ذلك في النَّفْس وفيما دُون النَّفْس. وفي قَوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ دليل على أنه لا يُقام عليه شيء من ذلك،وهو مذهب ابن عمر وابن عباس وعطاء والشَّعبي وسعيد بن جُبَير وطاووس)) .

يتم تخريبه . والأمنُ والأمانُ إنما هو بِدَعوة النبيِّ إبراهيم ﷺ : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَدًا آمِنًا ﴾ ، وقد استجابَ اللهُ دُعاءَ خليله إبراهيم ﷺ ، وصارَ الأمن والأمان واقعًا ملموسًا . وكانت العرب في الجاهلية يَقتل بعضُهم بعضًا ، ويُغير بعضهم على بعض . ومَن دَخَلَ الحرَمَ أَمِنَ مِن القتل والغارة .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ ﴾ أي: دَلالات ظاهرة أنه مِن بناء إبراهيم ، وأن الله عَظَّمه وشَرَّفه ، ثُمَّ قال تعالى : ﴿ مَقَامُ إبراهيمَ ﴾ يعني الذي لَمَّا ارتفع البناء ، استعانَ به على رفع القواعد مِنه والجدران ، حيث كان يقف عليه ويُناوله إسماعيل، وقد كان مُلْتَصِقًا بجدار البَيت حتى أخَّره عُمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ في إمارته إلى ناحية الشرق،بحيث يتمكن الطواف منه،ولا يُشَوِّشون على المصلِّين عِنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عِنده حيث قال : ﴿ واتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلًّى ﴾)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن المسجد الحرام هو أعظم مساجد الأرض على الإطلاق ، ومِن فَضائله أن الصلاة فيه أفضل مِن مئة ألف صلاة فيما سِواه . ففي مُسند أحمد (٣/ ٣٩٧) : عن جابر ابن عبد الله قال:قال رسول الله ﷺ:((صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل مِن ألف صلاة فِيما سِواه ، إلا المسجدَ الحرام ، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فِيما سِواه)) [41].

هذا يدل على عَظَمَة المسجد الحرام وشرفه وفضله،وتميُّزه عن باقي المساجد، وتفوُّقه عليها . لذلك ليس غريبًا أن تَكْثُر فيه الحسنات والأُجور ، إذ إن شرف العبادة قائم على شرف مكانها .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَقتلوا الصَّيْدَ وأنتُم حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحكمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنكُم هَدْيًا بَالِغَ الكعبةِ أوْ كَفَّارةٌ طَعامُ مَساكينَ أوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أمْرِهِ عَفا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عادَ فَيَنتقمُ اللهُ مِنْهُ واللهُ عَزيزٌ ذُو انتقام ﴾ [المائدة : ٩٥] . الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين خاصَّةً.يا أيها الذين صَدَّقْتُم بِوَحدانية الله ، وأقررتم بِنُبُوَّة محمد ﷺ،لا تصطدوا الحيوانَ البري الذي يَحِل أكل لحمه ، وأنتم مُحْرِمُون بحج أو عُمرة .

(٤١) في مجمع الزوائد للهيثمي (٣/ ٦٧٥): ((عن أبي الدَّرداء قال: قال رسول الله ﷺ : " الصلاةُ في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاةُ في مسجدي بألف صلاة ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة ".رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات وفي بعضهم كلام،وهو حديث حسن)) اهـ. وقال العجلوني في كشف الخفاء : ((٢/ ٥٩٢) : ((رواه الطبراني عن أبي الدَّرداء والبَيهقي عن جابر بسند حسن)) . وفي فتح الباري (٣/ ٦٧) : ((قال البَزَّار : إسناده حسن)) .

والمراد هو صَيد البَر دُون صَيد البحر . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣٤) : ((هذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونَهْي عن تعاطيه فيه، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى، المأكول وما يتولد منه ومِن غَيره. فأمَّا غَير المأكول من حيوانات البَر ، فعند الشافعي يجوز للمُحْرِمِ قَتْلُها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضًا)) اهـ . وعن عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ : عن النبيِّ ﷺ قال : ((خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ في الحرَم : الفأرة ، والعقرب ، والْحُدَيَّا ــ طائر ــ ، والغراب ، والكلب العَقُور)) .

الفُسُوق ــ لُغةً ــ : الخروج عن الاستقامة . لذلك سُمِّيَ العاصي فاسقًا ، لخروجه عن الطاعة إلى المعصية ، وانحرافه عن طريق الحق . وسُمِّيت هذه الحيوانات فواسق ، على الاستعارة والمجاز ، لِخُبثها ، وضررها ، وإيذائها للناس ، وخُروجها عَن خَلْق معظم الحيوانات . فهي لا حُرمة لها ، لذلك تُقتَل في الحِل والحرَم بلا حَرَج . وحُرمة مكة ثابتةٌ في النصوص الشرعية ، فلا يُسفَك فيها دم ، ولا يُقطَع فيها شجر ، ولا يُنفَّر صَيد الحرَم . وهذا الحديثُ يُوضِّح حالةً استثنائية، وهو ما يَجوز قتله ، وهو مُسْتَثْنَى مِن التحريم ، سواءٌ كان ذلك في الحرَم ، أو كان في حق الْمُحْرِم (42).

---

(٤٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ١١٣و١١٤و١١٥): ((واتفق جماهير العلماء على جواز قتلهنَّ في الحِل والحرَم والإحرام ، واتفقوا على أنه يجوز للمُحْرِمِ أن يَقتل ما في معناهنَّ ، ثُمَّ اختلفوا في المعنى فيهنَّ وما يكون في معناهنَّ ، فقال الشافعي : المعنى في جواز قتلهنَّ كَوْنهنَّ مِمَّا لا يُؤكَل ، وَكُل ما لا يُؤكَل ولا هو مُتولِّد من مأكول وغَيره ، فقتله جائز للمُحْرِمِ ، ولا فِدية عليه . وقال مالك : المعنى فيهنَّ كَوْنهنَّ مُؤذِيات ، فَكُل مُؤذٍ يجوز للمُحْرِمِ قتله وما لا ، فلا. واختلف العلماء في المراد بالكلب العَقُور، فَقِيل : هو الكلب المعروف.وقِيل: كُل ما يَفترس لأن كُل مُفترِس مِن السِّباع يُسمَّى كَلْبًا عَقُورًا في اللغة.وأمَّا تسمية هذه المذكورات فواسق فصحيحة جارية على وَفْق اللغة، وأصل الفِسْق في كلام العرب الخروج، وسُمِّيَ الرَّجل الفاسق لخروجه عن أمر الله تعالى وطاعته،فَسُمِّيَت هذه فواسق لخروجها بالإيذاء والإفساد عن طريق معظم الدواب،وقِيل:لخروجها عن حُكم الحيوان في تحريم قتله في الحرَم والإحرام ... . واتفق العلماء على جواز قتل الكلب العَقُور للمُحْرِمِ والحلال ، في الحِل والحرَم، واختلفوا في المراد به، فَقِيل : هذا الكلب المعروف خاصة، حكاه القاضي عن الأوزاعي وأبي حنيفة والحسن بن صالح، وألحقوا به الذئب،وحمَل زُفَر معنى الكلب على الذئب وَحْدَه، وقال جمهور العلماء : ليس المراد =

وقد بيَّن اللهُ حُكْمَ القاتل مِن الْمُحْرِمين مُتَعَمِّدًا . مَن قَتل الصَّيْدَ وهو في حالة الإحرام عامدًا مُتَعَمِّدًا ، فعليه جَزاء يُماثِل ويُعادِل ما قَتَل ، مِن النَّعَم (الإبل والبقر والغنم) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣٤) : ((والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه، وقال الزُّهري : دَلَّ الكتاب على العامد، وجَرَت السُّنة على الناسي. ومعنى هذا أن القرآن دَل على وجوب الجزاء على المتعمِّد وعلى تأثيمه بِقَوله : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عادَ فَيَنتقمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ . وجاءت السُّنة من أحكام النبيِّ ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ كما دَل الكتاب عليه في العَمْد. وأيضًا، فإن قَتل الصَّيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العَمْد وفي النسيان ، لكن الْمُتَعَمِّد مأثوم ، والمخطِئ غَير مَلُوم)) اهـ .

يَحْكُمُ بالجزاء بالمِثْل أو بالقيمة في غَير المِثْل حَكَمَان عَادلان من المسلمين ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الكعبةِ ﴾ أي : حال كَوْنه هَدْيًا واصلاً إلى الكعبة . أي : واصلاً إلى الحرَم ، بأن يُذبَح هناك ، ويُفرَّق لحمه على مساكين الحرَم . وإذا لَم يجد الْمُحْرِمُ مِثْلَ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَم، فيتم تقدير ثمن الصَّيد المقتول ، ثُمَّ يُشْتَرَى بِه طعام، ويُتَصَدَّق بِه على المساكين ، ويُصرَف لكل مِسكين مُد مِنه. أوْ : عليه مِثْل ذلك الطعام صِيَامًا ، حيث يَصوم عَن كل مُد يَوْمًا، لِيَذوق عُقوبةَ فِعله، وانتهاكه لِحُرمة الإحرام . عَفَا اللهُ عمَّن قَتَلَ الصَّيْدَ قبل التحريم ، وتجاوزَ عنه ، ولَم يُؤاخِذه بالعقوبة . ومَن قَتَلَ الصَّيْدَ وهو مُحْرِم، بعد تحريم قَتله، ومعرفته بالْحُكم، وقِيام الْحُجَّة عليه ، فإن اللهَ يَنتقم مِنه ، ويُعذِّبه أشد العذاب. واللهُ غالبٌ على أمره، ومَنِيعٌ في سُلطانه، ومُنْتَقِم مِمَّن عَصَاه . واللهُ لا يُقهَر ، ولا يُغلَب ، ولا يُمكِن رَد عُقوبته ، ولا مَنع عذابه ، لأن الخلق خَلْقه ، والأمر أمره .

لقد وضَّح اللهُ تعالى حالةَ قَتل الْمُحْرِم للصَّيد وما يجب فيها : أ ــ الجزاء مِن النَّعَم (الإبل والبقر والغنم) . ب ــ الطعام . ج ــ الصِّيام . وهي على التَّخيير ، لأن العَطْف بِـ ﴿ أوْ ﴾ يُفيد التَّخيير . وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٣٥):((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَقتلوا الصَّيْدَ وأنتُم حُرُمٌ ﴾ . حَرَّمَ اللهُ الصَّيْدَ على الْمُحْرِم ، فليس له أن يتعرَّض للصيد بوجه من الوجوه ما دام مُحْرِمًا ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ ، أي : فعليه جزاء مُمَاثِل للمقتول مِن

=بالكلب العَقُور تخصيص هذا الكلب المعروف ، بل المراد هو كُل عَادٍ مُفترِس غالبًا كالسَّبُع والنمر والذئب والفهد ونَحْوها ، وهذا قول زيد بن أسلم وسفيان الثوري وابن عُيَينة والشافعي وأحمد وغَيرهم ، وحكاه القاضي عِياض عنهم، وعن جمهور العلماء. ومعنى العَقُور والعاقر الجارح)) اهـ .

النَّعَم في الخِلْقة ، ففي النَّعَامة بَدَنة، وفي حمار الوحش بقرة ، وفي الضَّبع كَبْش ، على هذا التقدير. ﴿ يَحكمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ ﴾ . يَحكم في الصَّيد رَجلان صالحان ﴿ مِنكُم ﴾ مِن أهل مِلَّتكم ، فينظران إلى أشبه الأشياء بِه مِن النَّعَم فَيَحْكمان بِه ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الكعبةِ ﴾ ، أي : إذا أتى مكةَ ، ذَبَحَه وتصدَّقَ بِه . ﴿ أوْ كَفَّارةٌ طَعامُ مَساكينَ أوْ عَدْلُ ذَلِكَ ﴾ ، أي : مِثْل ذلك ﴿ صِيَامًا ﴾ . والْمُحْرِم إذا قَتَلَ صَيْدًا كان مُخَيَّرًا ، إن شاء جزاه بِمِثْله مِن النَّعَم ، وإن شاء قَوَّمَ المِثْلَ دراهم ، ثُمَّ الدراهم طعامًا ، ثُمَّ يتصدَّق به ، وإن شاء صام عَن كُل مُد يَوْمًا ، ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أمْرِهِ ﴾ جَزَاءَ ما صَنَع ، ﴿ عَفا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ قبل التحريم . ﴿ وَمَن عادَ فَيَنتقمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ ، مَن عادَ إلى قتل الصيد مُحْرِمًا ، حُكِمَ عليه ثانيًا ، وهو بِصَدَد الوعيد ، ﴿ واللهُ عَزِيزٌ ﴾ مَنِيع ، ﴿ ذُو انتقام ﴾ مِن أهل مَعصيته)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ جَعَلَ اللهُ الكَعبةَ البَيْتَ الحرامَ قِيَامًا للنَّاسِ والشَّهْرَ الحرامَ والْهَدْيَ والقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ وأنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ [المائدة : ٩٧].

جَعل اللهُ الكعبةَ المشرَّفة، وهي البَيت الحرام، صَلاحًا ومَعَاشًا للناس، لقيام أمر دِينهم ودُنياهم، وهذا ليس غريبًا ، فالكعبةُ هي سبب صلاحهم في الدنيا والآخرة . فالخائف يشعر بالأمان ، والضعيفُ يحصل على القوة ، والمضطرِبُ يَنال السَّكينة . ويَأمنُ الناسُ على أنفسهم ومُمتلكاتهم . جَعَلَ اللهُ الكعبةَ قَوَامًا للناس في أمر دِينهم ودُنياهم . فالحجُّ والعُمرة والمناسك تُمثِّل الجانبَ الدينيَّ . أمَّا الجانب الدُّنيويُّ ، فَتُجْبَى إليها الثمرات ، ويَأمن الناسُ على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، فلا يَتعرَّض لهم أحد بِسُوء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦٩) : ((﴿ قِيَامًا للنَّاسِ ﴾ انتعاشًا لهم ، أي : سبب انتعاشهم في أمر مَعاشهم ومَعادهم ، يَلُوذ به الخائف ، ويَأمن فيه الضعيف ، ويربح فيه التُّجار ، ويَتوجَّه إليه الْحُجَّاج والعُمَّار ، أو ما يقوم به أمر دينهم ودُنياهم)) اهـ .

وسُمِّيت الكعبة بهذا الاسم لأنها مُربَّعة، وأكثر بُيوت العرب مُدوَّرة. وكان العرب لا يَبنون بَيْتًا مُرَبَّعًا احترامًا للكعبة وتعظيمًا لها . وقِيل : سبب تسميتها بالكعبة بسبب بُروزها وارتفاعها مِن الأرض . وَسُمِّيَت الكعبة بالبَيت ، لأنها ذات سقف وجُدران ، وهذه حقيقة البَيْت ، وإن لَم يكن بها ساكن . وسمَّاه اللهُ حَرَامًا ، لأنه اللهَ حرَّمه وعظَّم حُرمته ، ولَم يُحرِّمه الناس .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٠٢) : ((قال العلماء : والحِكمة في جَعْل الله تعالى هذه الأشياء قِيَامًا للناس أنَّ الله سُبحانَه خَلَقَ الخلقَ على سليقة الآدمية مِن التحاسُد والتنافُس والتقاطُع

والتدابُر والسَّلْب والغارة والقتل والثأر ، فلم يكن بُد في الحِكمة الإلهية والمشيئة الأولية مِن كَافٍ يَدوم معه الحال،ووازع يُحمَد معه المال.قالَ اللهُ تعالى:﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خَليفةً ﴾ [البقرة : ٣٠].فأمَرَهم اللهُ سُبحانَه بالخلافة،وجَعَلَ أمورهم إلى واحد يَزَعُهم (يَكُفُّهم) عَن التنازع، ويحملهم على التآلف مِن التقاطع، ويردُّ الظالم عن المظلوم، ويُقرِّر كُل يَد على ما تستولي عليه . روى ابن القاسم قال:حَدَّثَنا مالك أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقول : ما يَزَعُ الإمام أكثر ما يَزَعُ القُرآن.ذَكَره أبو عُمر رحمه الله. وجَوْرُ السُّلطان عَامًا واحدًا أقل أذاية مِن كَوْن الناس فوضى لحظة واحدة،فأنشأ اللهُ سُبحانَه الخليفةَ لهذه الفائدة لتجريَ على رأيه الأمور،ويَكُفَّ اللهُ به عادية الجمهور فَعَظَّمَ اللهُ سُبحانَه في قلوبهم البَيت الحرام،وأوقعَ في نفوسهم هَيْبته، وعَظَّمَ بينهم حُرمته فكان مَن لَجَأ إليه معصومًا به، وكان مَن اضْطُهِد مَحْمِيًّا بالكَوْن فيه. قالَ اللهُ تعالى: ﴿ أوَلَم يَرَوْا أنَّا جَعَلْنا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِم ﴾ . قال العلماء : فلمَّا كان موضعًا مخصوصًا لا يُدركه كُل مظلوم ، ولا يناله كُل خائف ، جَعَلَ اللهُ الشهرَ الحرام ملجأ آخَر)) اهـ .

﴿ والشَّهْرَ الحرامَ ﴾ . جَعَلَ اللهُ الأشهرَ الْحُرُمَ (ذِي القِعدة ، ذِي الْحِجَّة ، المحرَّم ، رَجَب) قِيَامًا للناس ، لأمنهم القِتال فيها . وبالتالي ، يَحفظون أرواحَهم وأموالهم . وقد ذُكِر بلفظ الجِنس.

لقد عَظَّمَ اللهُ حُرمةَ هذه الأشهر ، وأثبتَ حُرمتها في قلوب الناس ، فكانوا لا يَقتلون فيها أحدًا ، ولا يَطلبون دَمًا ، ولا يُخطِّطون لثأر ولا غارة ، ولا يَهتِكون فيها حُرمةً . وكانَ الرَّجل يَلقى قاتلَ أبيه أو أخيه في الشهر الحرام ، فلا يَتعرَّض له ، ولا يَقترب مِنه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٣١): ((فأمَّا الشهرُ الحرام ، فالمراد به الأشهر الْحُرُم. كانوا يَأمن بعضُهم بعضًا فيها ، فكان ذلك قَوَامًا لهم)) اهـ .

﴿ والْهَدْيَ والقَلائِدَ ﴾ . جَعَلَ اللهُ الْهَدْيَ والقلائدَ قِيَامًا للناس ، حيث يَأمن صاحبهما مِن الاعتداء عليه . والْهَدْيُ ما يُهدَى للحَرَم مِن الأنعام . والقلائدُ هِيَ البُدْنُ التي تُقَلَّد مِن شَجَر الحرَم (يُوضَع شَجَر الحرَم في أعناقها) . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٣٠) : ((وكذلك إذا أهدى الرَّجل هَدْيًا ، أو قَلَّدَ بَعيرَه ، أَمِنَ كَيْفَ تَصَرَّفَ ، فجعلَ اللهُ تعالى هذه الأشياء عِصمةً للناس ، بِما جَعل في صُدورهم مِن تعظيمها)) اهـ .

﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ وأنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ .

جَعَلَ اللهُ هذه الْحُرمةَ العظيمة للكعبة (البَيت الحرام) والشهر الحرام والهدي والقلائد ، لِتَعلموا أيها الناسُ أن الله يَعلمُ ما في السماوات وما في الأرض ، تفصيلاً وإجمالاً ، ويَعلم

مصالحكم الدينية والدُّنيوية ، ومِن ضِمنها : إثبات الْحُرمة لهذه الأشياء العظيمة لحمايتكم مِن الأذى ، ودفع الضَّرر عنكم . وقد شُرِعَت الأحكامُ الإلهيةُ لِمَنع وقوع المفاسد ، وجلبِ المنافع . وهذا يدل على حِكمة الله المطْلقة وعِلْمه الشامل لكل شيء . وهنا تتجلى رحمة الله بالناس ولُطفه بهم في جاهليتهم وإسلامهم ، وفي حال كُفرهم وحال إيمانهم . واللهُ أحاطَ بكل شيء عِلْمًا، ولا يَخفى عليه شَيءٍ مِن أقوال الناس وأفعالهم، وهو مُحْصِيها عليهم ، حتى يُجازيَ المحسِن بإحسانه، والمسيء بإساءته. والآيةُ: ﴿ وأنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ تعميم بعد تخصيص ، ومُبالَغة بعد إطلاق.

لقد جَعَلَ اللهُ هذه الأشياء الأربعة لها مكانة جليلة ، وحُرمة عظيمة ، وبِها صلاح أُمور الناس في الجاهلية والإسلام ، كالْمَلِك العظيم الذي يَرعى شُؤون الرعيةَ ، ويُدبِّر أمورَهم ، ويُحقِّق مصالحهم ومنافعهم ، ويُدافع عن المظلومين في وجه الظالمين ، ويَحمي الضُّعفاء مِن كُل أذى وشَر . وفي تفسير الطبري (٥/ ٧٧) أن ابن زيد قال : ((كان الناس كُلهم فيهم مُلوك تدفع بعضهم عن بعض . ولَم يكن في العرب مُلوك تدفع بعضهم عن بعض ، فَجَعَلَ اللهُ تعالى ذِكْرُه لهم البيت الحرام قِيَامًا ، يَدفع بعضُهم عن بعض بِه ، والشهر الحرام كذلك ، يدفع الله بعضهم عن بعضهم بالأشهر الحرام)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٣١) : ((قَوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا ﴾ . ذَكَرَ ابن الأنباري في المشار إليه بذلك أربعة أقوال : أحدها أن الله تعالى أخبرَ في هذه السُّورة بِغُيوب كثيرة من أخبار الأنبياء وغَيرهم،وأطْلَعَ على أشياء من أحوال اليهود والمنافقين، فقال: ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا ﴾ أي : ذلك الغَيب الذي أنبأتكم به عَن الله يَدُلُّكم على أنه يَعْلَم ما في السموات وما في الأرض ، ولا تخفى عليه خافية.والثاني أن العرب كانت تَسفِك الدماء بغير حِلِّها، وتأخذ الأموال بغير حقها، ويقتل أحدُهم غَيْرَ القاتل ، فإذا دخلوا البلد الحرام أو دخل الشهر الحرام كَفُّوا عن القتل. والمعنى: جَعَلَ اللهُ الكعبةَ أمْنًا، والشهر الحرام أمْنًا، إذ لو لَم يَجعل للجاهلية وَقْتًا يزول فيه الخوف لَهَلَكُوا ، فذلك يدل على أنه يَعْلَم ما في السموات وما في الأرض. والثالث أن الله تعالى صَرَفَ قُلوبَ الخلق إلى مكة في الشُّهور المعلومة ، فإذا وصلوا إليها عاش أهلها معهم ، ولولا ذلك ماتوا جوعًا ، لِعِلْمه بما في ذلك مِن صَلاحهم ، وَلِيَستدلوا بذلك على أنه يَعْلم ما في السموات وما في الأرض . والرابع أن الله تعالى جعل مكة أمْنًا ، وكذلك الشهر الحرام ، فإذا دَخل الظبي الوحشي الحرَم أَنِسَ بالناس، ولم يَنفُر مِن الكلب ، ولَم يطلبه الكلب، فإذا خرجا عن حدود الحرَم طلبه الكلب، وذُعِر هو منه، والطائر يأنس بالناس في الحرَم، ولا يزال يطير حتى يَقْرُب مِن

البيت، فإذا قَرُبَ منه عَدَلَ عنه، ولَم يَطِرْ فوقه إجلالاً له، فإذا لَحِقَه وجع طرح نفْسه على سقف البيت استشفاءً به،فهذه الأعاجيب في ذلك المكان وفي ذلك الشهر قد دَلَلْنَ على أن الله تعالى يَعْلَم ما في السموات وما في الأرض)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذْ بَوَّأْنا لإبراهيمَ مَكَانَ البَيْتِ أن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ للطائفينَ والقائمينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[الحج : ٢٦]. واذْكُر يا محمد حِينَ أرْشَدْنا إبراهيمَ وبَيَّنَّا له مَكانَ البَيت، ﴿ أن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ ، وهذا الخِطابُ الإلهيُّ لإبراهيم. لقد أَمَرَ اللهُ إبراهيمَ ببناء البَيت خالصًا للهِ تعالى ، وعلى اسْمه وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد، وتطهيره مِن الكفر والشِّرك والأصنام والمعاصي والأنجاس والقاذورات والأوساخ . والتَّطهيرُ عام ، ومَعناه يَشمل الطهارة المعنوية والطهارة المادية . وقد اختفت آثار البَيت بعد طُوفان نُوحٍ ، واندرست معالمه ، فأرشدَ اللهُ إبراهيمَ إلى مكانه . وهذا يدل على فضل الله على خَلْقه ، ورحمته بِهم ، وإحسانه إليهم . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٢٢) : ((قِيل : رُفِع البَيت إلى السماء ، وانطمسَ أيامَ الطوفان ، فأعلمه اللهُ مَكانَه بريحٍ أرسلها ، فَكَنَّسَتْ ما حَوْلَه ، فبناه على أُسِّه (أساسه) القديم)) اهـ . وقد أضافَ اللهُ البَيْتَ إلى ذاته المقدَّسة ، فقالَ : ﴿ بَيْتِيَ ﴾ ، لتشريفه وتعظيمه ، فهي إضافة تشريف وتكريم ، وإضافة مخلوق إلى الخالق ، ومَملوك إلى المالك. طَهِّرْ بَيْتَ اللهِ يا إبراهيم للمؤمنين الذين يَعبدون اللهَ ويتقرَّبون إليه بالطواف والصلاة . والمراد بالقائمين في هذا السياق هُم الْمُصَلُّون . وقد ذَكَرَ اللهُ أعظمَ أركان الصلاة : القِيام والرُّكوع والسُّجود، ولا معنى للصلاة بدون هذه الأركان. وهذا يدل على أهمية الصلاة وفضلها وشرفها ، ومكانتها العظيمة. فالصلاةُ هي أعظم العبادات، وأفضل أركان الإسلام العملية. وتَمَّ رَبْطُ الطواف بالصلاة ، لبيان شِدَّة الارتباط بينهما ، وقُوَّة الاقتران بين هاتين العبادتين ، اللتين لا يُمكِن الجمع بينهما إلا في البَيت ، فالطوافُ إنما يَكون حَوْل البَيت ، والصلاة إنما تَكون إلى البَيت . وهذا لا يتحقق في أيِّ مكان آخَر.﴿والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ جَمْع راكع وساجد. وهذا لا يتحقق إلا في الصلاة. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٢٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذْ بَوَّأْنا لإبراهيمَ ﴾ . قال ابن عباس: جَعَلْنَا. وقال مُقاتل: دَلَلْنَاه عليه... . قَوله تعالى : ﴿ أن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ ، المعنى : وأَوْحَيْنا إليه ذلك ... . وفي المراد بالقائمين قَولان:أحدهما القائمون في الصلاة،قاله عطاء والجمهور. والثاني : الْمُقِيمون بمكة ، حُكِيَ عن قَتادة)) اهـ .

وعن عليٍّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ عليه السلام ببناء البَيت ، خَرَجَ معه إسماعيل وهاجر ، فلمَّا قَدِمَ مكةَ ، رأى على رأسه في مَوضع البَيت مِثْلَ الغَمَامة فِيه ، مِثْل الرأس،

فَكَلَّمه ، فقال : يا إبراهيم ، ابْنِ على ظِلِّي، أو على قَدْرِي، ولا تُزِدْ ، ولا تُنْقِصْ ، فلمَّا بنى خَرَجَ ، وخَلَّفَ إسماعيلَ وهاجر ، وذلك حيث يَقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وإِذْ بَوَّأْنا لإبراهيمَ مَكَانَ البَيْتِ أن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ للطائفينَ والقائمينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [43].

لقد وضَّح اللهُ للنبيِّ إبراهيم ﷺ كيفية بناء البَيت في الموضع الصحيح ، وأرشده إلى ذلك ، ولَم يتركه لاجتهاده الشخصيِّ . وامتثلَ إبراهيم ﷺ للأمر الإلهيِّ ، ونفَّذه على أرض الواقع ، بلا زيادة ولا نُقصان . والبَيْتُ يدل على عَظَمَة اللهِ تعالى ، لذلك أضافه إليه ﴿ بَيْتِيَ ﴾ إضافة تشريف وتكريم ، وليس المعنى أن الله تعالى ساكنٌ في هذا البَيت . فاللهُ مُنَزَّهٌ عن المكان والزمان .

وفي الحديث يتَّضح قُوَّة إيمان إبراهيم ﷺ وتوكُّله على الله تعالى ، وصِدق تَوَجُّهه إليه ، وثقته المطْلَقة بِه ، فقد خَرَجَ _ لَمَّا بنى البَيت _ وتَرَكَ ابنه إسماعيل وأُمَّه وَحِيدَيْن . وهذا يدل على أن تركيزه وتفكيره وشُغله الشاغل كان في نشر الإيمان وتأسيس الدَّعوة . وهو يَعْلَم أن الله قد تَكَفَّلَ بهما ، وسَوْفَ يَحميهما مِن كُل سُوء . واللهُ إذا أرادَ أمرًا هَيَّأَ له الأسبابَ ، وفتحَ له الأبواب .

رابعًا : الإفاضة مِن عَرَفَات

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تبتغوا فَضْلاً مِن رَبِّكُم فإذا أفَضْتُم مِن عَرَفَاتٍ فاذْكُروا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الحرامِ واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُم وإِن كُنتم مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّين ﴾ [البقرة: ١٩٨] .

ليس عليكم أيها المؤمنون إثم ولا حَرَج في الشراء والبَيع قبل الإحرام وبعده . أي : لا إثمَ عليكم في أن تبتغوا فضلاً من ربكم (مُمارسة التجارة في مواسم الحج) مَعَ سَفَركم لأداء فريضة الحج التي أوجبها اللهُ عليكم . وهذا يدل على جَواز التجارة في الحج ، وطلب الرِّزق مِن الله ، والتَّعَرُّض لفضله . وابتغاءُ الفضل يعني التجارة .

لقد حَرَّمَ اللهُ الرَّفَثَ والفُسُوقَ والجِدالَ في الحج ، وأمرَ بِتَنْزِيهه عن هذه المعاصي القبيحة ، وأباحَ التجارة للحاج في الحج ، ونَحْوها من الأعمال . وهذا لا يتعارض مع أداء العبادة ، وليس شِرْكًا ، ولا يتنافى مع معنى الإخلاص. معَ العِلم أن الحج بدون تجارة ولا طلب أي شيء مِن أمور الدنيا، هو الأفضل والأكمل ، ويدل على تعلق القلب بالله تعالى ، والتَّحَرُّر مِن العلاقات الدُّنيوية.

وفي صحيح البخاري (٢/ ٦٢٨) أن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((كان ذُو الْمَجَازِ وعُكَاظُ مَتْجَرَ الناس في الجاهلية ، فلمَّا جاء الإسلامُ كأنهم كَرِهوا ذلك ، حتى نزلت :

(٤٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٦٠١) برقم (٤٠٢٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تبتغوا فَضْلاً مِن رَبِّكُم ﴾ في مواسم الحج)) [44].

لقد كان ذو المجاز وعُكاظ مكانَ تجارة أهل الجاهلية . وعندما جاءَ الإسلامُ كأن المسلمين كَرهوا التجارةَ في هذا الوقت ، وخافوا من الاشتغال في أيام النُّسُك بغير العبادة ، وبالتالي يَقعون في الإثم والحرامِ. فَنَزَلت الآيةُ: ﴿ ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ . أي : لا إثم عليكم ولا حَرَج في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده . وفي الآيةِ دليلٌ على جَواز التجارة في الحج للحاجِّ ، وأن هذا الأمر لا يتعارض مع الإخلاص ، ولا يُعْتَبَر شِرْكًا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٢):((قال ابن عباس: كانوا يتَّقون البُيوع والتجارة في الموسم (موسم الحج) ، ويقولون : أيام ذِكْر ، فَنَزلت هذه الآية . والابتغاء الالتماس. والفضل هاهُنا التماس الرزق بالتجارة والكَسْب)) اهـ .

وعن أُبي أُمَيمة قال: سَمعتُ ابن عُمر ــ وسُئِل عن الرَّجل يَحُجُّ ومعه تجارة ــ، فقرأ ابن عُمر: ﴿ ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ [45].

﴿ فإذا أفَضْتُم مِن عَرَفَاتٍ فاذْكُروا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الحرامِ ﴾ . الإفاضة هي الدفع بكثرة . والمعنى : إذا دفعتم (اندفعتم) بكثرة مِن عَرَفَات بعد الوقوف بها ، فاذكروا اللهَ بالدعاء والتَّلبية عِند المشعر الحرام ، وهو جبل في آخر الْمُزْدَلِفَة . والْمُزْدَلِفَة كُلها مَوقف إلا وادي مُحَسِّر ، وهو بين مِنى ومُزْدَلِفَة ، وليس مِنهما . سُمِّيَ بذلك لأن فِيل أبرهة (أصحاب الفِيل) كَلَّ فيه وأعيا ، فَحَسَّرَ أصحابَه بِفِعْله ، وأوقعهم في الحسَرات . وسُمِّيَ مَشْعَرًا مِن الشِّعار، وهو العلامة ، لأنه مِن معالم الحج وعلاماته. وأصلُ الحرام المنع . ومَمنوعٌ أن يُفعَل عِند هذا المشعر أيَّة مُخالفة أو

---

(٤٤) ((وأسواق الجاهلية أربعة: وهي عُكاظ وذو الْمَجَاز ومَجَنَّة وحُباشة . وقال محمد بن حبيب : عُكاظ بأعلى نجد قريب مِن عَرَفَات ، وقال غَيْرُه : عُكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء وهي من عمل الطائف. فكان سوق عُكاظ يقوم صُبح هلال ذي القِعدة عشرين يَوْمًا ، وعُكاظ مُشتق مِن قَولك: عَكَظْتُ الرَّجلَ عَكْظًا إذا قَهَرْتَه بِحُجَّتك، لأنهم كانوا يتفاخرون هناك بالفخر . وأمَّا ذو الْمَجَاز، فقد ذكر ابن إسحاق أنها كانت بناحية عَرَفة إلى جانبها. وأمَّا مَجَنَّة وهي على أميال مسيرة مِن مكة بناحية مَرِّ الظَّهْران. وأمَّا حُباشة وكانت بأرض بارق)) [عُمدة القاري (١٠/ ١٠٣)] .

(٤٥) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ٢٩٣). وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٢٤) : ((وهذا موقوف ، وهو قوي جيِّد)) .

ارتكاب أيِّ مَحظور.والآية دليل على وجوب الوقوف بِعَرَفَة ، لأن الإفاضة لا تكون إلا بعد الوقوف بِعَرَفَة ، والإفاضة مأمور بها : ﴿ ثُمَّ أفِيضُوا ﴾ [البقرة : ١٩٩] . وفِعل الأمر يُفيد الوجوب . وقال البغوي في تفسيره (٢٢٨/١):((سُمِّيَ الْمُزْدَلِفَة جَمْعًا:لأنه يُجمَع فيه بين صَلاتَي المغرب والعِشاء. والإفاضة مِن عَرَفَات تكون بعد غروب الشمس ومِن جَمْع (مُزْدَلِفَة) قبل طلوعها من يوم النَّحْر . قال طاووس :كان أهل الجاهلية يَدفعون مِن عَرَفَة قبل أن تغيب الشمس ومِن مُزْدَلِفَة بعد أن تطلع الشمس ، ويقولون : أَشْرِقْ ثَبِير كَيْما نُغِير ، فأخَّرَ اللهُ هذه ، وقَدَّمَ هذه)) اهـ .

إن عَرَفَة هي مَوضع الوقوف في الحج ، والوقوف بِعَرَفَة هو الرُّكن الأعظم في الحج ، وهو عُمدة أفعال الحج،ولا معنى للحج بِدُونه.فعن عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلي قال:قال رسول اللهﷺ: ((الحج عَرَفة_أو عَرَفات_ فَمَن أدركَ عَرَفَةَ قبل طُلوع الفجر،فقد أدركَ الحج)) [سبق تخريجه] . ووقتُ الوقوف: مِن الزَّوال يوم عَرَفَة إلى طُلوع الفجر الثاني مِن يوم النَّحْر، لأن النبيَّ ﷺ وَقَفَ في حَجَّة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس .

وفي تفسير ابن كثير(٣٢٤/١):((إنما صُرِف عَرَفَات وإن كان عَلَمًا على مُؤنَّث لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات.سُمِّيَ به بُقعة مُعيَّنة،فَرُوعِيَ فيه الأصل فَصُرِف.اختاره ابن جرير)) اهـ. وقِيل : سُمِّيَت تلك البُقعة عَرَفَات ، لأن الناس يتعارفون بها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٢و٢١٣) : ((قال ابن قُتَيبة : ﴿ أَفَضْتُم ﴾ بمعنى دَفَعْتُم . وقال الزَّجاج : معناه : دفعتُم بكثرة . يُقال : أفاضَ القَوْمُ في الحديث ، إذا اندفعوا فيه ، وأكثروا التَّصَرُّف . وفي تَسمية عَرَفَات قَوْلان : أحدهما أن الله تعالى بعث جبريل إلى إبراهيم فَحَجَّ به ، فلما أتى عَرَفَات ، قال : قد عَرَفْتَ ، فَسُمِّيَت عَرَفَة ، قاله عليٌّ رضي الله عنه . والثاني أنها سُمِّيَت بذلك لاجتماع آدم وحَوَّاء وتعارفهما بها، قاله الضَّحاك . قال الزَّجاج : والمشْعَر المعْلَم ، سُمِّيَ بذلك لأن الصلاة عِنده، والْمُقام والْمَبيت والدُّعاء مِن معالم الحج، وهو مُزْدَلِفَة، وهي جَمْع. يُسمَّى بالاسمين . قال ابن عُمر ومجاهد : المشعر الحرام المزدلفة كُلها)) اهـ .

﴿ واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُم وإن كُنتم مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّين ﴾ . يُنبِّه اللهُ عبادَه ، ويُرشدهم إلى ضرورة أن يَذْكُروه بالتَّعظيم ويَشكروه على نِعَمِه الجليلة ، فقد أنعمَ عليهم بالإسلام ، وهَدَاهم إلى مَناسك الحج وشعائره ، وجَعلهم هُداةً مهديين سائرين على خُطى أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ ، ولَم يُضِلَّهم كما أضلَّ اليهودَ والنصارى. فيجب عليهم أن يَذكروا اللهَ ذِكْرًا جَميلاً حَسَنًا بالتَّوحيد والتَّعظيم والتَّقديس ، كما ذَكَرَهم بالهداية ، وهَداهم إلى الإيمان والحق والهدى ، ومعرفة أحكام

الحج ومَناسكه وشعائره . وقد كانوا في الجاهلية (قبل نُزول القُرآن وقبل بِعثة محمد ﷺ) ضائعين في مَتاهات الكُفر ، وتائهين في دُروب النِّسيان ، وجاهلين بالإيمان وأحكامِ العبادات ، لا يَعرفون طريقَ الحق ، ولا يَهتدون إليه . ومَن عَرَفَ قِيمةَ النِّعمة ، أدركَ عَظَمَةَ الْمُنْعِم ، وخَضَعَ له .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُم ﴾ ، أي: جَزاءَ هِدايته لكم . فإن قِيل : ما فائدة تكرير الذِّكْر، قِيل: فيه أربعة أجوبة : أحدها أنه كرَّره للمُبالَغة في الأمر به. والثاني أنه وصل بالذِّكر الثاني ما لَم يَصِل بالذِّكر الأول ، فَحَسُن تكريره . فالمعنى : اذكروه بتوحيده كما ذَكَرَكم بهدايته . والثالث أنه كرَّره لَيَدُل على مُواصلته ، والمعنى : اذكروه ذِكْرًا بعد ذِكْر . ذَكَرَ هذه الأقوال محمد بن القاسم النحوي . والرابع أن الذِّكر في قَوله : ﴿ فاذْكُروا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الحرامِ ﴾ هو صلاة المغرب والعشاء اللتان يُجمَع بينهما بالمزدلفة. والذِّكر في قَوله : ﴿كَمَا هَدَاكُم ﴾ هو الذِّكر المفعول عند الوقوف بِمُزْدَلِفَة غَدَاةَ جَمْع . حكاه القاضي أبو يعلى. قَوله تعالى: ﴿ وإن كُنتم مِن قَبْلِهِ ﴾ ، في هاء الكِناية ثلاثة أقوال : أحدها أنها ترجع إلى الإسلام ، قاله ابن عباس . والثاني أنها ترجع إلى الهدى ، قاله مقاتل والزَّجاج . والثالث أنها ترجع إلى القُرآن ، قاله سفيان الثوري)) اهـ .

خامسًا : النَّحْر

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائرَ اللهِ ولا الشهرَ الحرامَ ولا الْهَدْيَ ولا القلائدَ ولا آمِّينَ البَيْتَ الحرامَ يَبتغونَ فَضْلاً مِن رَبِّهِم وَرِضْوَانًا وإذا حَلَلْتُم فاصْطَادُوا ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ أن صَدُّوكُم عَنِ المسجدِ الحرامِ أن تعتدوا ﴾[المائدة : ٢].

الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين:يا أيُّها الذين صَدَّقتم بِوَحدانية اللهِ وأقررتم بِنُبُوَّة محمدﷺ، لا تستحلوا حُرُمات الله ، ولا تنتهكوا مَحارمه ، ولا تتجاوزوا حُدودَه ، ولا تعصوا أوامرَه .

إن تحريم شعائر الله ثابتٌ إلى يوم القيامة ، وهي أعلام دِينه ومعالمه مِن سائر ما فَرَضَ وأوجبَ ونهى وحَرَّمَ . فلا يجوز استحلال ترك الفرائض ، ولا فِعل المحرَّمات . ومِن شعائر الله المقدَّسة : مَناسك الحج والعُمرة . فيجب تعظيمها وتقديسها واحترامها ، وعدم انتهاك حُرمتها بأي شكل .

﴿ ولا الشهرَ الحرامَ ولا الْهَدْيَ ولا القلائدَ ﴾ . ولا تنتهكوا حُرمةَ الشهر الحرام بالقتال فيه ، ولا تستحلوا الْهَدْيَ (ما أُهْدِيَ إلى البَيت الحرام مِن الأنعام)، ولا تستحلوا ما قُلِّدَ بِقِلادة لِيُعْرَف أنه هَدْي بالتعرُّض له، والاعتداء على أصحابه . فإن فيها تعظيم الله وتقديسه واحترام أحكامه .

وفي تفسيرابن كثير (٢/٥) عن قتادة قال: ((كان الرَّجلُ في الجاهلية إذا خرج من بيته يريدالحجَّ تقلَّدَ مِن الشجر، فلم يَعْرِض له أحد، فإذا رَجع تقلَّدَ قِلادة مِن شَعْر، فلم يَعْرِض له أحد)).

إن الرَّجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يُريد الحجَّ كان يتقلد من الشجر كعلامة على أنه حاجٌّ، وبالتالي يَحْمي نَفْسَه من أذى الآخرين، ويَصون ذاته مِن كل الذين يُريدون أَذِيَّته، فلا يتعرَّض له أحد بسوء. وإذا رجعَ تقلَّدَ قِلادة مِن شَعْر، لِيُشْعِر الآخرين أنه راجع من الحج، فلا يُؤذيه أحد. وفي تفسير الوجيز للواحدي (١/ ٣٠٦): ((قال المفسرون: كانت الحروب في الجاهلية قائمة بين العرب إلا في الأشهر الْحُرُم، فمن وُجِد في غَيْرها أُصيب منه، إلا أن يكون مُشْعِرًا بَدَنة، أو سائقًا هدايا، أو مُقلِّدًا نَفْسَه أو بَعيره مِن لِحَاء شجر الْحَرَم، أو مُحْرِمًا، فلا يُتعرَّض لهؤلاء، فأمرَ اللهُ _ سُبحانَه وتعالى_ المسلمين بإقرار هذه الأَمَنَة على ما كانت لِضَرْب من المصلحة إلى أن نسخها بقوله تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهُمْ ﴾[التَّوبة: ٥])).

إنَّ تقلُّد الحاج في الجاهلية مِن الشجر أو مِن الشَّعْر كان سلوكًا مُتَّبعًا لحماية نَفْسه، وصونِ مُمتلكاته، حيث إن الحروب بين العرب في الجاهلية كانت على أشدِّها. فالغزو والغزو المضاد يَرْسمان تاريخَ الجزيرة العربية. وفي هذه المعمعة، راحَ الْحُجَّاج يَضعون علاماتٍ خاصة لإظهار هويتهم الدينية، وإبراز سُلوكهم غير الحربي، وتقديم أنفسهم كمدنيين، وأنهم لا ناقة لهم ولا جَمَل في فوضى الحروب العربية. وبالتالي، يَحْمون أرواحهم وممتلكاتهم، ذهابًا وإيَابًا.

لقد كان القتال في الأشهر الْحُرُم مُحَرَّمًا ومَمنوعًا، ثُمَّ نُسِخ ذلك بِقَوله تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهُمْ ﴾. وأيضًا، نُسِخ هَدْي المشركين وقلائدهم. وهُم مَمنوعون مِن دُخول الحرَم، ولا يُقبَل مِنهم هَدْي، ولا يَحميهم مِن القَتل، ولو تَقَلَّدُوا شَجَرَ الحرَم كُلَّه.

﴿ ولا آمِّينَ البَيْتَ الحرامَ يَبتغونَ فَضْلاً مِن رَبِّهِم وَرِضْوَانًا ﴾. ولا تستحلوا قِتالَ القاصدين إلى بَيت الله الحرام لحج أو عُمرة، ويُريدون التجارةَ في الحج، ويَطلبون رِضَا الله بِحَجِّهم. وقد كانوا المشركون يَحُجُّون مِن أجل أن يَرضى اللهُ عنهم، ويُوفِّقهم في الأمور الدُّنيوية، فَيُكثِّر أموالَهم وأولادهم وأنعامهم، ويَحفظهم في حياتهم. لقد حَرَّمَ اللهُ الإغارةَ عليهم، والاعتداءَ على مُمتلكاتهم، وحَرَّمَ صَدَّهُم عَن البَيت، كما كان يَفعل أهل الجاهلية. ﴿ وإذا حَلَلْتُم فاصْطَادُوا ﴾. إذا تَحَلَّلْتُم أيها المؤمنون مِن الإحرام، فقد أُبِيح لكم الصَّيد الذي كان مُحَرَّمًا عليكم وأنتم مُحْرِمُون. والمقصود هو صَيد البَر، لأن صَيد البحر حلال في الإحرام. والأمرُ في الآية للإباحة وليس للوجوب. ولا تعني الإباحةُ في هذا الأمر أن الأمر الآتي بعد الحظر يُفيد الإباحة مُطْلَقًا.

والصحيح أن الأمر بالشَّيء بعد تحريمه يُرجَع إلى ما كان عليه قبل التحريم . فالصَّيدُ قبل الإحرام كان مُبَاحًا ، فتمَّ مَنعه بالإحرام ، ثُمَّ أُمِرَ به بعد الإحلال بِقَوله تعالى : ﴿ وإذا حَلَلْتُم فاصْطَادُوا ﴾ . فينبغي الرُّجوع إلى ما كان عليه قبل التَّحريم ، وهو الإباحة والجواز .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥):((وقَوله تعالى: ﴿ وإذا حَلَلْتُم فاصْطَادُوا ﴾ أي إذا فرغتُم مِن إحرامكم وأحللتم مِنه،فقد أبَحْنا لكم ما كان مُحَرَّمًا عليكم في حال الإحرام مِن الصَّيد. وهذا أمر بعد الحظر . والصحيح الذي يَثْبُت على السَّبْر أنه يُرَدُّ الْحُكم إلى ما كان عليه قبل النَّهْي ، فإن كان واجبًا رَدَّه واجبًا ، وإن كان مُستحبًّا فَمُستحَب ، أو مُباحًا فَمُباح ، ومَن قال إنه على الوُجوب يُنْتَقَض عليه بآيات كثيرة، ومَن قال إنه للإباحة يَرُدُّ عليه آيات أخرى، والذي ينتظم الأدلة كُلها هذا الذي ذكرناه ، كما اختاره بعض علماء الأصول ، والله أعلم)) اهـ .

﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ أن صَدُّوكُم عَنِ المسجدِ الحرامِ أن تعتدوا ﴾ . ولا يَحْمِلَنَّكُم بُغض قَوم كانوا قَد صَدُّوكم عن المسجد الحرام ، ومَنعوكم مِن الوصول إليه ، على أن تَعتدوا عليهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٧٠ _ ٢٧٧): ((قَوله تعالى: ﴿ لا تُحِلُّوا شَعائرَ اللهِ ﴾ في سبب نزولها قَولان : أحدهما أن شُرَيح بن ضُبَيعة أتى المدينةَ ، فدخل على النبيِّ ﷺ ، فقال : إلامَ تدعو ، فقال :" إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله " ، فقال : إن لي أُمراء خَلْفي ، أرجع إليهم أُشاورهم ، ثُمَّ خَرج ، فقالَ النبيُّ ﷺ : " لقد دخل بوجه كافر ، وخرج بِعَقِبي غادر ، وما الرجل بمسلم ". فمرَّ شُرَيح بِسَرْحٍ (ماشية) لأهل المدينة، فاستاقه، فلمَّا كان عام الْحُدَيبية ، خرج شُرَيح إلى مكة مُعْتَمِرًا ومعه تجارة ، فأراد أهل السَّرْح أن يُغيروا عليه ، كما أغار عليهم ، فاستأذنوا رسولَ الله ﷺ ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أن ناسًا مِن المشركين جاؤوا يَؤمُّون البَيْتَ يوم الفتح مُهلِّين بِعُمرة ، فقال المسلمون : لا نَدَع هؤلاء ، بل نُغِير عليهم ، فَنَزل قَوله : ﴿ ولا آمِّينَ البَيْتَ الحرامَ ﴾ . قال ابن قُتَيبة : وشعائر الله ما جَعله اللهُ عَلَمًا لطاعته . وفي المراد بها هاهُنا سبعة أقوال : أحدها أنها مناسك الحج ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس. وقال الفَرَّاء : كانت عامَّة العرب لا يَرَوْنَ الصَّفا والمروة مِن الشعائر، ولا يطوفون بينهما ، فقالَ اللهُ تعالى : لا تستحلوا تَرْكَ ذلك . والثاني أنها ما حَرَّمَ اللهُ تعالى في حال الإحرام ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث دِين الله كُله ، قاله الحسن. والرابع حُدود الله، قاله عِكرمة وعطاء. والخامس حَرَم الله ، قاله السُّدي . والسادس الهدايا الْمُشْعَرَة لبيت الله الحرام ، قاله أبو عبيدة. والسابع أنها أعلام الحرَم ، نهاهم أن يَتجاوزوها غير مُحْرِمين إذا أرادوا دخول مكة ، ذَكَره

الماوردي والقاضي أبو يعلى . قوله تعالى : ﴿ ولا الشهرَ الحرامَ ﴾ . قال ابن عباس : لا تُحِلُّوا القتالَ فيه . وفي المراد بالشَّهر الحرام ثلاثة أقوال : أحدها أنه ذُو القِعدة ، قاله عِكرمة وقتادة .والثاني أن المراد به الأشهر الْحُرُم. قال مُقاتل: كان جُنادة بن عَوف يقوم في سوق عُكَاظ كُل سنة، فيقول: إلا إني قد أحللتُ كذا وَحَرَّمْتُ كذا . والثالث أنه رَجَب ، ذَكَرَه ابن جرير الطبري . والْهَدْيُ كُل ما أُهْدِيَ إلى بَيت الله تعالى مِن شَيء. وفي القلائد قَولان: أحدهما أنها الْمُقَلَّدَات مِن الْهَدْي ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثاني أنها ما كان المشركون يُقلِّدون به إبلَهم وأنفسَهم في الجاهلية لِيَأمنوا به عَدُوَّهم ، لأن الحرب كانت قائمة بين العرب إلا في الأشهر الْحُرُم، فَمَن لقوه مُقَلِّدًا نَفْسَه أو بعيرَه أو مُشْعِرًا بَدَنة، أو سائقًا هَدْيًا لَم يُتعرَّض له . قال ابن عباس : كان مَن أراد أن يُسافر في غير الأشهر الحرُم، قَلَّدَ بَعيرَه مِن الشَّعْر والوَبَر ، فَيَأمن حيث ذهب . وروى مالك ابن مِغوَل عن عطاء قال : كانوا يَتَقَلَّدون مِن لِحَاء شَجَر الحرَم، فَيَأمنون به إذا خرجوا مِن الحرَم ، فَنَزلت هذه الآية . وقال قتادة : كان الرَّجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يُريد الحجَّ ، تَقَلَّدَ مِن السَّمُر (نَوع من الشجر) فلم يَعرِض له أحد ، وإذا رَجع تَقَلَّدَ قِلادة شَعْر فلم يَعرِض له أحد . وقال الفَرَّاء : كان أهل مكة يُقَلِّدون بِلِحَاء الشجر ، وسائر العرب يُقلِّدون بالوَبَر والشَّعْر . وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال : أحدها لا تستحلوا الْمُقَلَّدَات مِن الْهَدْي. والثاني لا تستحلوا أصحاب القلائد . والثالث أن هذا نَهْي للمؤمنين أن يَنْزِعوا شيئًا مِن شجر الحرَم فيتقلدوه، كما كان المشركون يفعلون في جاهليتهم ، رواه عبد الملك عن عطاء،وبه قال مُطَرِّف والربيع بن أنس. قَوله تعالى: ﴿ ولا آمِّينَ البَيْتَ الحرامَ ﴾ الآم : القاصد ، والبيت الحرام الكعبة . والفضل الرِّبح في التجارة ، والرِّضوان مِن الله يطلبونه في حَجِّهم على زعمهم . وقِيل : ابتغاء الفضل عام ، وابتغاء الرِّضوان للمؤمنين خاصة. قَوله تعالى: ﴿ وإذا حَلَلْتُم فاصْطَادُوا ﴾ ، لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الإباحة . قَوله تعالى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُم ﴾ قال ابن عباس: لا يَحْمِلَنَّكُم، وقال غَيره: لا يُدْخِلَنَّكُم في الْجُرم. والشَّنَآنُ البُغض. في معنى الكلام قَولان:أحدهما ولا يحمِلَنَّكُم بُغض أهل مكة أن صَدُّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا فيه فَتُقاتلوهم وتأخذوا أموالهم إذا دخلتموه، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني لا يَحْمِلَنَّكُم بُغض أهل مكة وصَدُّهم إيَّاكم أن تَعتدوا بإتيان ما لا يَحِل لكم مِن الغارة على الْمُعْتَمِرِين مِن المشركين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فإنها مِن تَقْوى القُلوبِ ﴾[الحج : ٣٢] . ومَن يُعظِّم أوامرَ الله ، ويُعظِّم أحكامَ الدِّين وشعائره ويُقدِّسها ويَحترمها، ومِنها : أعمال الحج والأضاحي

والهدايا ، فإن تعظيمها وتقديسها واحترامها مِن أفعال المؤمنين الصالحين الْمُتَّقين لله . والشَّعائر جَمْع شَعِيرة ، وهي كُل شَيء للهِ تعالى فيه أمْر أشعرَ بِه. وشعائرُ اللهِ هي أعلام دِينه ومعالمه وعلاماته . والأضاحي والهدايا مِن شعائر الله تعالى ، فقد تَمَّ إشعارها ، أي إعلامها لِيُعْرَف أنها هَدْي (البُدْن التي تُهدَى لِبَيت الله الحرام) . وينبغي اختيارها حَسَنَةً سَمينةً خاليةً مِن العُيوب والأمراض . وإضافةُ التَّقوى إلى القلوب ، لأن حقيقة التَّقوى ومكانها في القلب .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٢٥) : ((﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ ﴾ دِين الله ، أو فرائض الحج ، ومواضع نُسُكه ، أو الهدايا ، لأنها مِن مَعَالِم الحج ، وهو أوفق لظاهر ما بعده ، وتعظيمها أن تَختارها حِسَانًا سِمَانًا غالية الأثمان ... . ﴿ فإنها مِن تَقْوى القُلوبِ ﴾ ، فإن تعظيمها مِن أفعال ذَوِي تَقوى القلوب ... . وذِكْر القلوب لأنها مَنشأ التقوى والفُجور أو الآمِرة بهما)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ لَكُم فِيها مَنَافِعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إلى البَيْتِ العَتِيقِ ﴾ [الحج : ٣٣] .

لكم أيها الناس في البُدْن (الهدايا) منافع كثيرة وفوائد جَمَّة ، كَشُرب ألبانها ، ورُكوب ظُهورها، والحصول على نَسْلها، واستغلال صُوفها وأشعارها وأوبارها، إلى وَقْت نَحْرها (ذَبْحها) .

وعن أبي هريرة_رضي اللهُ عنه_أن رسول الله ﷺ رأى رَجلاً يَسُوق بَدَنة، فقال: ((اركبها)). فقال: إنها بَدَنة،فقال:((اركبها)).قال: إنها بدنة.قال:((اركبها وَيْلَك)).في الثالثة أو في الثانية[46].

إن هذا الرَّجل كان يَسُوق بَدَنة ولا يَركبها ، احترامًا لها باعتبارها هَدْيًا (أُهْدِيَ إلى الحرَم) . وعندما رآه النبيُّ ﷺ أرادَ أن يُخفِّف عنه ويُريحه ، ويُبيِّن له حُكْمًا شرعيًّا (جَواز رُكوب الْهَدْي)، فأمره أن يركبها ، لِيُخَالِف ما كان عليه أهل الجاهلية مِن عدم رُكوبهم ما أَهْدَوْا إلى الحرَم .

فاستغربَ الرَّجل مِن أمر النبيِّ ﷺ ، وتَعَجَّبَ قائلاً : كيفَ أركبها وهي هَدْي ؟! . وكان يَنبغي عليه أن يَمتثل لأمر النبيِّ ﷺ فَوْرًا بلا مُراجَعة ، لذلك قال له النبيُّ ﷺ :" وَيْلَك" توبيخًا وتأنيبًا على مُراجعته له ، وعدم الاستجابة للأمر النبويِّ فَوْرًا . وقد تكون الكلمة " وَيْلَك " على مُقتضَى كلام العرب دون قَصْد مَعناها ، مِثل : ثكلتك أُمُّك ، أو قاتله الله ... إلخ . والحديثُ يدل على جواز رُكوب البَدَنة الْمُهداة إلى بيت الله الحرام ، لِمَن احتاجَ إليها . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ٧٤) : ((فهذه الكلمة _ أي: وَيْلَك _أصلها لِمَن وقع في هَلَكة، فَقِيل : لأنه كان محتاجًا قد وقع في تعب وجَهْد . وقِيل: هي كلمة تجري على اللسان، وتُستعمَل مِن غَير

---

(٤٦) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٠٦) برقم (١٦٠٤) ، ومسلم (٢/ ٩٦٠) برقم (١٣٢٢) .

قَصد إلى ما وُضِعت له أولاً ، بل تدعم بها العرب كلامها كَقَولهم: لا أُم له . لا أب له . تَرِبَت يداه . قاتله الله ما أشجعه ...)) اهـ . ثُمَّ مكان نَحْر الهدايا (ذَبْحها) في أرض الحرَم كُلِّها . وتَخصيص البَيت العتيق (الكعبة) بالذِّكر لأنه أشرف الحرَم ، وأعظم مَوضع فِيه . ومعنى (العَتِيق) الموضوع قديمًا لعبادة الله تعالى. وفي صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦) : عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : ((نَحَرْتُ هَهُنا ، ومِنًى كُلها مَنْحَر ، فانحَرُوا في رِحالكم ، ووقفتُ هَهُنا ، وعَرَفَةُ كُلها مَوْقِف ، ووقفتُ هَهُنا ، وجَمْعٌ كُلها مَوْقِف)) .

هذا يدل على سَعَة الشريعة ويُسْرها وسَماحتها ، ورِفق النبيِّ ﷺ بأُمَّته ، والتخفيف عنها ، وعدم التضييق عليها . فقد نَحَرَ النبيُّ ﷺ في مكانٍ مُعيَّن ، ولَم يُشدِّد على المسلمين ، ويُلْزِمهم بالنَّحْر في مكانه، بَل وسَّع عليهم ، وأخبرهم بأن مِنى كُلها مَنْحَر، أي: لا يَختص الْمَنْحَر بِمَنْحَر النبيِّ ﷺ ، بَل يُجْزِئ في أيَّة بُقعة مِن مِنى . ووقفَ في مكانٍ مُعيَّن ، وعَرَفَة كُلها مَوْقِف ، فمَن وَقَفَ في أي جُزء مِنها، فَوُقوفه صحيح. وقد أرادَ النبيُّ ﷺ دفعَ الوهم الذي قد يَنشأ في الأذهان، وهو وُجوب الوقوف في مَوضع وُقوف النبيِّ ﷺ . كما بيَّن النبيُّ ﷺ أن مُزْدَلِفَة كُلها مَوْقِف . وقد أنَّثَ الضَّمير في " جَمْعٌ كُلها مَوْقِف " ، لأن جَمْعًا عَلَم لِمُزْدَلِفَة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ١٩٥):((في هذه الألفاظ بيان رِفق النبيِّ ﷺ بأُمَّته وشفقته عليهم في تنبيههم على مصالح دِينهم ودُنياهم ، فإنه ﷺ ذَكَرَ لهم الأكمل والجائز، فالأكمل موضع نَحْره ووُقوفه ، والجائز كُل جزء من أجزاء المنحَر ، وجزء من أجزاء عَرَفَات ، وخَيرهنَّ أجزاء المزدلفة وهي جَمْع... .قال الشافعي وأصحابنا:يَجوز نَحْر الْهَدْي ودماء الحيوانات في جميع الحرَم ، لكن الافضل في حق الحاج النَّحْر بِمِنى ، وأفضل موضع مِنها للنَّحْر موضع نَحْر رسول الله ﷺ وما قاربه، والأفضل في حق الْمُعْتَمِر أن يَنحَر في المروة، لأنها موضع تَحَلُّله ، كما أن مِنى موضع تَحَلُّل الحاج. قالوا : ويجوز الوقوف بِعَرَفَات في أي جُزء كان منها، وكذا يجوز الوقوف على المشعَر الحرام،وفي كل جزء من أجزاء المزدلفة لهذا الحديث ، والله أعلم . وأمَّا قَوله ﷺ : " ومِنًى كُلها مَنْحَر فانحَرُوا في رِحالكم "، فالمراد بالرِّحال المنازل. ومعنى الحديث: مِنى كُلها مَنحَر يجوز النَّحْر فيها، فلا تتكلفوا النَّحْر في مَوضع نَحْري بل يجوز لكم النحر في منازلكم مِن مِنى)) اهـ .

إن الناس يَستفيدون مِن الهدايا ، ويَنتفعون بِها إلى وقت نَحْرها ، وهذه هي مَنافعهم الدُّنيوية . ثُمَّ تكون بعد ذلك مَنافعهم دِينية ، حيث الأُجور العظيمة ، وارتفاع درجاتهم يوم القيامة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٨٤) : ((﴿ لَكُم فِيها ﴾ أي : في البُدْن قبل تسميتها للهَدْي ﴿ مَنَافِعُ ﴾ في دَرِّها ونَسْلها وأصوافها وأوبارها ورُكوب ظُهورها ، ﴿ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو أن يُسَمِّيَها ويُوجِبها هَدْيًا ، فإذا فعل ذلك لَم يكن له شيء مِن منافعها ، هذا قول مجاهد وقول قتادة والضَّحاك ، ورواه مِقْسَم عن ابن عباس . وقِيل : معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هَدْيًا بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة ﴿ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ، يعني : إلى أن تَنحروها ، وهو قول عطاء بن أبي رباح . واختلف أهل العِلم في رُكوب الْهَدْي، فقال قَوم : يَجوز له رُكوبها ، والحمل عليها غير مُضِر بها، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق... .وقال أصحاب الرأي: لا يركبها. وقال قوم : لا يركبها إلا أن يَضطر إليه . وقال بعضهم : أراد بالشعائر : المناسك ومشاهد مكة، ﴿ لَكُم فِيها مَنَافِعُ ﴾ بالتجارة والأسواق ﴿ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو الخروج من مكة. وقِيل : ﴿ لَكُم فِيها مَنَافِعُ ﴾ بالأجر والثواب في قضاء المناسِك ﴿ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي : إلى انقضاء أيام الحج . ﴿ ثُمَّ مَحِلُّها ﴾ أي : مَنْحَرها ﴿ إلى البَيْتِ العَتِيقِ ﴾ أي : مَنْحَرها عند البَيت العتيق ، يريد أرض الحرَم كُلها)) اهـ .

وعن عطاء قال : كان ابن عباس يقول : لا يَطُوف بالبيت حاج ولا غَير حاج إلا حَل ، قُلتُ _أحد الرُّواة_ لعطاء: مِن أين يقول ذلك؟.قال:مِن قَول الله تعالى:﴿ ثُمَّ مَحِلُّها إلى البَيْتِ العَتِيقِ ﴾ قال : قُلتُ : فإن ذلك بعد الْمُعَرَّف ، فقال : كان ابن عباس يَقول : هو بعد المعرَّف وقبله . وكان يأخذ ذلك من أمر النبيِّ ﷺ ، حين أمرهم أن يُحِلُّوا في حَجَّة الوداع [47].

مذهب ابن عباس أن مَن طافَ بالبَيت فقد تَحَلَّلَ مِن إحرامه . والْمُعَرَّف هو الوُقوف بِعَرَفَة ، وهو موضع التَّعريف .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٢٣٠) : ((هذا الذي ذَكَرَه ابن عباس هو مذهبه ، وهو خِلاف مذهب الجمهور من السَّلَف والخلَف ، فإن الذي عليه العلماء كافة سِوى ابن عباس أن الحاج لا يتحلل بمجرد طَواف القُدوم ، بل لا يتحلل حتى يقف بِعَرَفَات ويَرْمي ويَحلِق ويطوف طواف الزيارة ، فحينئذ يحصل التَّحللان ، ويحصل الأول باثنين مِن هذه الثلاثة التي هي رَمْي جَمرة العَقَبَة والحلق والطواف ، وأمَّا احتجاج بن عباس بالآية ، فلا دَلالة له فيها لأن قوله تعالى : ﴿ مَحِلُّها إلى البَيْتِ العَتِيقِ ﴾ ، معناه لا تُنحَر إلا في الحرَم ، وليس فيه تعرُّض للتَّحَلُّل

(٤٧) متفق عليه.واللفظ لمسلم (٢/ ٩١٣)برقم(١٢٤٥).والبخاري(٤/ ١٥٩٧) برقم (٤١٣٥).

مِن الإحرام ، لأنه لو كان المراد به التحلل مِن الإحرام لكان ينبغي أن يتحلل بمجرَّد وصول الْهَدْي إلى الحرَم قبل أن يَطوف ، وأمَّا احتجاجه بأن النبيَّ ﷺ أمرهم في حَجَّة الوَداع بأن يُحِلُّوا فلا دَلالة فيه لأن النبيَّ ﷺ أمرهم بفسخ الحج إلى العُمرة في تلك السَّنة، فلا يكون دليلاً في تَحَلُّل مَن هو مُلتبس بإحرام الحج ، والله أعلم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَالبُدْنَ جَعَلْناها لَكُم مِن شَعائرِ اللهِ لَكُم فِيها خَيْرٌ فاذْكُروا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنها وأطْعِمُوا القَانِعَ والْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْناها لَكُم لعلكم تَشْكُرُون ﴾ [الحج : ٣٦] .

لقد جَعَلَ اللهُ الإبلَ السمينة مِن معالم الشريعة التي وضعها لعباده ، ومِن أعلام أوامر الله في مَناسك الحج . والبُدْن جَمْع بَدَنة ، وسُمِّيت بُدْنًا لبدانتها وضخامة أجسامها وكثرة لحمها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٩٨) : ((يقول تعالى مُمْتَنًّا على عباده فِيما خَلَق لهم مِن البُدْن،وجعلها مِن شعائره،وهو أنه جعلها تُهْدَى إلى بَيته الحرام،بل هي أفضل ما يُهْدَى إليه))اهـ.

لكم في البُدْن خَير . حيث تَنتفعون بِها في الدنيا ، فتحلبونها وتركبونها إذا احتجتُم إلى ذلك. وعندما تَنْحَرونها خالصةً لوجه الله ، تَحصلون على الأجر العظيم والدرجات العُليا في الآخرة .

فاذكروا عند نَحْرها اسمَ الله وَحْدَه، وقد صفَّت قوائمها. والإبلُ تُنحَر قِيَامًا معقولةً (مُقيَّدة).

وعن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ أن رسول الله ﷺ ذَبَحَ كَبْشًا أَقْرَنَ بالمصلَّى ، ثُمَّ قال: ((اللهُمَّ هذا عَنِّي ، وعَن مَن لَم يُضَحِّ مِن أُمَّتي)) [48].

الكَبْشُ هو الفَحْل (ذَكَر الغنم) ، والأقرن الذي له قُرُون . وُصِف بذلك لأنه أفضل شكلاً وأحسن صُورةً ، وأكمل خَلْقًا ، كما أن قُرونه يُنْتَفَع بها .

لقد تقرَّبَ النبيُّ ﷺ إلى الله بأفضل كَبْش ، وضحَّى بِه عَن نفْسه الشريفة ، وعَن مَن لَم يُضَحِّ مِن الأُمَّة المحمدية الإسلامية. وهذا يدل على رحمة النبيِّ ﷺ بأُمَّته ، وإحسانه إليها ، وشفقته عليها .

وفي عَون المعبود (٨/ ٣) : ((قال في فتح الوَدود : استدل بِه مَن يقول: الشاة الواحدة إذا ضَحَّى بها واحد مِن أهل بيت ، تأدَّى الشِّعار والسُّنة بجميعهم ، وعلى هذا يكون التضحية سُنَّة كفاية لأهل بيت، وهو محمل الحديث، ومَن لا يقول به يَحمل الحديث على الاشتراك في

---

(٤٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٢٥٤) برقم (٧٥٤٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الثواب. قِيل: وهو الأوْجَه في الحديث عند الكُل، انتهى . قلتُ: المذهب الحق هو أن الشاة تُجْزِئ عن أهل البيت، لأن الصحابة كانوا يفعلون ذلك في عهد رسول الله ﷺ . قال أبو أيوب الأنصاري: كان الرَّجل في عهد النبيِّ ﷺ يُضَحِّي بالشاة عنه ، وعن أهل بَيته ، فَيَأكلون ويُطْعِمون ، حتى تَبَاهى الناس ، فصار كما ترى . رواه ابن ماجة والترمذي وصحَّحه)) اهـ .

وروى الترمذي في سُننه (٤/ ١٠٠) أن النبيَّ ﷺ ذَبَحَ الكبش بيده ، وقال : ((بِسم الله ، والله أكبر ، هذا عَنِّي وعمَّن لَم يُضَحِّ مِن أُمَّتي)) . وقال الترمذي : والعمل على هذا عند أهل العِلم من أصحاب النبيِّ ﷺ وغَيرهم أن يقول الرَّجل إذا ذَبَحَ : بِسم الله ، والله أكبر .

فإذا سَقطت البُدْنُ على الأرض بعد نَحْرها ، وهذا كِناية عن الموت ، فكلوا مِن هذه الهدايا . وقد كان أهل الجاهلية يُحرِّمون لحومَ الأضاحي على أنفسهم ، ولا يَأكلون مِنها، فنبَّه اللهُ المؤمنين على أهمية مُخالفتهم. والأمر بالأكل للإباحة، وفيه أجر وامتثال لأمر الله ، ومُخالفة لأهل الجاهلية.

وقد كَنَّى اللهُ تعالى عن نَحْر البُدْن بِقَوله : ﴿ فاذْكُروا اسْمَ اللهِ عَلَيْها ﴾ . وَكَنَّى عَن الموت بالسُّقوط على الْجُنُوب ، فقالَ تعالى : ﴿ فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها ﴾ . والكِنايات في أكثر المواضع أبلغ مِن التصريح .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٤٠):((وإنما أَذِنَ اللهُ سُبحانَه مِن الأكل مِن الهدايا لأجل أن العرب كانت لا ترى أن تأكل مِن نُسُكها ، فأمرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى نَبِيَّه ﷺ بمخالفتهم))اهـ .

وفي الحديث أن ابن عمر أتى على رَجل، وهو يَنحَر بَدَنَتَه باركةً، فقال:((ابعثها قِيَامًا مُقَيَّدَةً ، سُنَّةَ نَبِيِّكم ﷺ)) [49].

ينبغي إثارة البَدَنة حتى تقوم وتنهض . ثُمَّ تُنحَر وهي قائمة مُقيَّدة ، أي : مَعقولة اليد اليسرى، مربوطة بالعِقَال ، وهو الحبل. ويدل على القِيام قَوله تعالى: ﴿ صَوَافَّ ﴾، أي: قائمات على ثلاث، معقولة اليد اليُسرى . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ٦٩) : ((أي : الْمُقَيَّدة المعقولة، فَيُستحَب نَحْر الابل ، وهي قائمة معقولة اليد اليُسرى . صَحَّ في سُنن أبي داود عن جابر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ وأصحابه كانوا يَنحَرون البَدَنَةَ مَعقولةَ اليُسرى ، قائمة على ما بَقِيَ مِن قوائمها . إسناده على شرط مسلم . أمَّا البقر والغنم ، فَيُستحَب أن تُذبَح مُضْجَعَة على جَنبها

---

(٤٩) متفق عليه . مسلم (٢/ ٩٥٦) برقم (١٣٢٠) ، والبخاري (٢/ ٦١٢) برقم (١٦٢٧) .

الأيسر، وتُترَك رِجلها اليُمنى ، وتَشُد قوائمها الثلاث . وهذا الذي ذكرنا مِن استحباب نَحْرها قِيَامًا معقولة ، هو مذهب الشافعي ، ومالك ، وأحمد، والجمهور. وقال أبو حنيفة والثوري : يستوى نَحْرها قائمة وباركة في الفضيلة . وحكى القاضي عن طاوس أن نَحْرها باركةً أفضل، وهذا مخالف للسُّنة)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٥٩) : ((ولا يجوز النَّحر قبل الفجر من يوم النَّحر بإجماع، وكذلك الأضحية لا تجوز قبل الفجر ، فإذا طلع الفجر حَل النَّحْر بِمِنى ، وليس عليهم انتظار نَحْر إمامهم بخلاف الأضحية في سائر البلاد ، والْمَنْحَر مِنى لكل حاج ، ومكة لكل مُعتمِر، ولو نَحَرَ الحاج بمكة ، والمعتمِر بِمِنى ، لَم يُحْرَج واحد منهما إن شاء الله تعالى)) اهـ .

وأطعموا القانعَ (الْمُتَعَفِّف) والْمُعْتَر (السائل) .

مِن أجل هذا ، سخَّر اللهُ البُدْنَ لكم معَ ضخامة أجسامها ، وذَلَّلَهَا ، وجَعَلَها مُنقادةً وخاضعةً لكم ، لكي تشكروا اللهَ على إحسانه إليكم ، ونِعَمه عليكم . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٩٨) : ((إن شِئتم رَكبتم ، وإن شِئتم حَلبتم ، وإن شِئتم ذَبحتم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٣٢ و٤٣٣) : ((وللمُفسِّرين في البُدْن قَولان : أحدهما أنها الإبل والبقر، قاله عطاء . والثاني الإبل خاصة، حكاه الزَّجاج. وقال: الأول قول أكثر فقهاء الأمصار. قال القاضي أبو يعلى : البَدَنة اسم يختص الإبل في اللغة ، والبقرة تقوم مقامها في الْحُكم ، لأن النبيَّ ﷺ جَعَلَ البَدَنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . قَوله تعالى : ﴿ جَعَلْناها لَكُم مِن شَعائِرِ اللهِ ﴾ أي : جَعَلْنا لكم فيها عبادة لله مِن سَوْقها الى البَيت وتقليدها ، وإشعارها ، ونَحْرها ، والإطعام منها . ﴿ لَكُم فِيها خَيْرٌ ﴾ وهو النفع في الدنيا ، والأجر في الآخرة . ﴿ فاذْكُروا اسْمَ اللهِ عَلَيْها ﴾ أي: على نَحْرها ﴿ صَوَافَّ ﴾ . قال الزَّجاج : ﴿ صَوَافَّ ﴾ منصوبة على الحال ، ولكنها لا تُنَوَّن لأنها لا تنصرف، أي: قد صَفَّت قوائمها ، والمعنى : اذكروا اسم الله عليها في حال نَحْرها. والبعير يُنحَر قائمًا ، وهذا الآية تدل على ذلك . ﴿ فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها ﴾ أي : إذا سقطت إلى الأرض . واعلم أن نَحْرها قِيَامًا سُنَّة ، والمراد بوقوعها على جُنُوبها مَوْتها ، والأمر بالأكل منها أمر إباحة ، وهذا في الأضاحي . قَوله تعالى : ﴿ وأطْعِمُوا القَانِعَ والْمُعْتَرَّ ﴾ . وفيهما ستة أقوال : أحدها أن القانع الذي يَسأل ، والمعتر الذي يتعرَّض ولا يَسأل ، رواه بكر بن عبد الله عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير، واختاره الفَرَّاء . والثاني أن القانع المتعفِّف ، والمعتر السائل. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة والنَّخعي، وعن الحسن كالقولين . والثالث أن

القانع الْمُستغني بما أَعطيته وهو في بيته ، والمعتر الذي يتعرَّض لك ويُلِم بك ولا يسأل، رواه العَوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد : القانع جارك الذي يقنع بما أعطيته، والمعتر الذي يتعرَّض ولا يسأل. وهذا مذهب القُرَظي ، فعلى هذا يكون معنى القانع أن يقنع بما أُعْطِيَ ، ومَن قال : هو المتعفِّف، قال: هو القانع بما عنده. والرابع القانع أهل مكة ، والمعتر الذي يَعتر بهم من غير أهل مكة ، رواه خُصَيف عن مجاهد . والخامس القانع الجار وإن كان غنيًّا ، والمعتر الذي يَعتر بك ، رواه ليث عن مجاهد . والسادس القانع المسكين السائل ، والمعتر الصديق الزائر. قاله زيد بن أسلم . قَوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مِثل ما وَصَفْنا مِن نَحْرها قائمةً ، ﴿ سَخَّرْناها لَكُم ﴾ نِعمةً مِنَّا عليكم لتتمكنوا مِن نَحْرها على الوجه المسنون ، ﴿ لعلكم تَشْكُرُون ﴾ أي : لكي تشكروا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لَن يَنالَ اللهَ لُحُومُها ولا دِمَاؤُها وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوى مِنكُم كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُم لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكُم وبَشِّرِ الْمُحْسِنِين ﴾ [الحج : ٣٧] .

لَن يصل إلى الله تعالى شَيء مِن لحوم البُدْن ولا دمائها ، ولكن يَصل إلى الله التقوى مِنكم ، بامتثال أوامره ، وفِعل الطاعات ، واجتناب المعاصي . والعِبرةُ بالتقوى لا اللحم والدم .

لَن يُرفَع إلى الله لحومُها ولا دماؤها، ولكن يُرفَع إليه أعمالكم الصالحة القائمة على الإخلاص للهِ واتِّباع السُّنة النبوية . والمعنى : لَن يَقع مِن الله مَوقع القَبول ويُصيب مَرضاته إلا التقوى مِنكم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٥١) : ((أي: لَن يَصعد إليه ، ولا يَبلُغ رِضاه ، ولا يقع موقع القَبول مِنه لحوم هذه الإبل ، التي تتصدَّقون بها ولا دماؤها ، التي تنصبُّ عِند نَحْرها مِن حيث إنها لحوم ودماء ، ﴿ وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوى مِنكُم ﴾ أي : يَبلُغ إليه تقوى قلوبكم ، ويصل إليه إخلاصكم له ، وإرادتكم بذلك وَجْهَه ، فإن ذلك هو الذي يَقْبله اللهُ ، ويُجازي عليه)) اهـ .

وقد كان أهلُ الجاهلية يُضرِّجون البَيْتَ بدماء الإبل تقرُّبًا إلى الله تعالى . وقد أَعْلمهم اللهُ تعالى أن لحوم الإبل ودماءها لا تصل إليه سُبحانَه ، فهو الغنيُّ عن كُل شيء ، ولا يَحتاج شيئًا .

وفي لُباب النقول (ص ١٤٨): ((عن ابن جُرَيج قال : كان أهلُ الجاهلية يُضَمِّخون البيتَ بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب النبيِّ ﷺ : فنحن أحق أن نُضَمِّخ ، فأنزل اللهُ : ﴿ لن يَنالَ اللهَ لحومُها ﴾ الآية)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠١) : ((يقول تعالى : إنما شرع لكم نَحْر هذه الهدايا والضحايا لِتَذكروه عند ذَبْحها ، فإنه الخالق الرزاق ، لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها ، فإنه تعالى هو الغنيُّ عمَّا سِواه . وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم ، وضعوا عليها من لحوم

قرابينهم ، ونضَحُوا عليها مِن دمائها ، فقال تعالى : ﴿ لَن يَنالَ اللهَ لُحُومُها ولا دِمَاؤُها ﴾ ... .
وقال وكيع عن يحيى بن مسلم أبي الضَّحاك : سألتُ عامرًا الشَّعبي عن جُلود الأضاحي ، فقال : ﴿ لَن يَنالَ اللهَ لُحُومُها ولا دِمَاؤُها ﴾، إن شِئْتَ فَبِعْ،وإن شِئْتَ فأمْسِكْ،وإن شِئْتَ فَتَصَدَّقْ))اهـ.

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُم لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكُم ﴾ . التكرار للتأكيد ، وبيان الأهمية ، والتَّذكير بالنِّعمة ، والتَّعليل لها ، وتوضيح سبب وُجودها .

مِن أجل ذلك ، سَخَّرَ اللهُ لكم البُدْنَ _ مع ضخامة أجسامها وكثرة لحومها _ وذَلَّلَهَا لكم ، وجعلها خاضعةً لرغبتكم ، ومُنقادةً لإرادتكم ، لِتُعَظِّموا اللهَ وتُقدِّسوه وتُكبِّروه على ما أرشدكم لمعالم دِينه وأحكامِ شَرْعه ، ومَناسِك حَجِّه .

وعلى المسلم أن يَقول عِند نَحْر هَدْيه : بِاسْم الله ، والله أكبر . أي إنه يَجمع بين التَّسمية والتَّكبير . وكافة العلماء على استحباب ذلك . ولا يُذكَر عِند نَحْر الْهَدْي إلا الله وَحْدَه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٦٣) : ((مَنَّ سُبحانَه علينا بتذليلها وتمكيننا مِن تصريفها ، وهي أعظم مِنَّا أبدانًا ، وأقوى مِنَّا أعضاء ، ذلك لِيَعلم العبد أن الأمور ليست على ما تظهر إلى العبد مِن التَّدبير ، وإنما هي بحسَب ما يُريدها العزيز القدير ، فَيَغلِب الصغيرُ الكبيرَ ، لِيَعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده)) اهـ .

﴿ وبَشِّرِ الْمُحْسِنِين ﴾ . وبَشِّرْ يا محمد المحسنين في عملهم ، الذين صَدَّقوا بِوَحدانية الله ، وأقروا بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، وفَعلوا الطاعات مُخْلِصِين لله ، سائرين وَفْقَ السُّنة النبوية .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ ﴾ [الكَوْثَر : ٢] .

هذه الآيةُ تأمرُ بالإخلاص في العبادات . أخْلِصْ يا محمد صلاتك المكتوبة والنافلة للهِ ، الذي أنعمَ عليك بالنِّعَم العظيمة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، واذبح الإبلَ النَّفيسة على اسْم الله وَحْدَه، شُكْرًا له ، واعترافًا بفضله وإحسانه . وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون في الجاهلية ، حيث كانوا يَسجدون لِغَير الله تعالى ، ويَذْبحون على غَيْر اسْمه . كانوا يَسجدون للأصنام ويَذْبحون لها ، فأمرَ اللهُ محمدًا ﷺ بالتَّوحيد والإخلاص : صَلِّ لِرَبِّكَ وَحْدَه ، واذْبَحْ على اسْمه وَحْدَه . والإسلامُ دِين التَّوحيد ، وكُل العبادات فيه يجب أن تَكون قائمة على الإخلاص لله ، وَحْدَه لا شريك له .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٣٦) : ((﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ فَدُمْ على الصلاة خالصًا لوجه الله تعالى ، خِلاف السَّاهي عنها الْمُرائي فيها ، شُكْرًا لإنعامه ، فإن الصلاة جامعة لأقسام الشُّكر ، ﴿ وانْحَرْ ﴾ البُدْنَ التي هي خِيار أموال العرب)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٤٩): ((قَوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ في هذه الصلاة ثلاثة أقوال : أحدها صلاة العيد . وقال قتادة : صلاة الأضحى . والثاني صلاة الصُّبح بالْمُزْدَلِفَة ، قاله مجاهد . والثالث الصلوات الخمس، قاله مقاتل . وفي قَوله تعالى : ﴿ وانْحَرْ ﴾ خمسة أقوال : أحدها اذْبَحْ يوم النَّحْر، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عطاء ومجاهد والجمهور . والثاني وضع اليمين على اليُسرى عِند النَّحْر في الصلاة. والثالث أنه رفع اليدين بالتَّكبير إلى النَّحْر قاله أبو جعفر محمد بن علي. والرابع أن المعنى صَلِّ للهِ وانْحَرْ للهِ،فإن ناسًا يُصَلُّون لغيره، ويَنحَرون لِغَيره ، قاله القُرَظي . والخامس أنه استقبال القِبلة بالنَّحْر ، حكاه الفَرَّاء)) اهـ .

سادسًا : الْمَنَاسِك

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيتنا أُمَّةً مُسلمةً لَكَ وأرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إنَّكَ أنتَ التَّوابُ الرحيم ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

لقد كان إبراهيم وإسماعيل _ عليهما الصلاة والسلام_ يَرفعان القواعدَ مِن البَيت ، وهُما يَقولان : رَبَّنا واجعلنا مُسْتَسْلِمَيْن لأمرك ، مُنْقَادَيْن لِحُكْمِك ، خَاضِعَيْن لطاعتك ، مُخْلِصَيْن لَك ، نَعبدك وَحْدَك بلا شريك ولا نِد . لقد طَلَبَا مِن اللهِ الزيادةَ في الإخلاص والطاعة والثبات على العبادة . وقد كان إبراهيم وإسماعيل _ عليهما الصلاة والسلام _ مُسْلِمَيْن مُؤمِنَيْن قبل هذا الدعاء، ولكنهما سَألا اللهَ الثباتَ على الإسلام ، والدَّوام عليه ، والزيادة مِن الطاعة ، والاستمرار على الإيمان والعمل الصالح .

والمسلم _ لُغةً _: المستسلم لأمر الله والخاضع له .

والْمَنَاسِك هي الْمُتَعَبَّدَات . ويُقال للعابد : نَاسِك . وتُسمَّى الذبيحة التي يَتَقَرَّب بها العبدُ إلى الله نَسِيكة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠١) : ((﴿ رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ مُخْلِصَيْن لَكَ ، مِن : أسلمَ وَجْهَه ، أو مُسْتَسْلِمَيْن ، مِن أسلمَ إذا استسلم وانقاد . والمراد : طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان أو الثبات عليه)) اهـ .

واجْعَلْ مِن أولادنا جَماعةً مُستسلمةً لَك ، مُعترِفة بِتَوحيدك ، ومُؤمنة بِشَرْعك ، ومُلتزمة بأوامرك ونَواهيك.وهذا يدل على رحمتهما بِذُرِّيتهما،والعطف عليها، والرأفة بهما، وطلب الخير

لها، وحِرصهما على استمرار نُور الإيمان في نَسْلهما إلى يوم القيامة.والأُمَّة هي أتباع الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . والمراد بهما في الآية : المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠١) : ((﴿ وَمِن ذُرِّيتنا أُمَّةً مُسلمةً لَكَ ﴾ ، أي: واجعل بَعْضَ ذُرِّيتنا . وإنما خصَّا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع. وخَصَّا بَعْضَهم لِمَا أُعْلِمَا أن في ذُرِّيتهما ظَلَمة ، وعَلِما أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص ، والإقبال الكُلِّي على الله تعالى ، فإنه مِمَّا يُشوِّش المعاش ، ولذلك قِيل : لَوْلا الحمقى لخربت الدنيا. وقِيل: أراد بالأُمَّة أُمَّة محمد ﷺ ، ويجوز أن تكون ﴿ مِن ﴾ للتَّبيين)).

وأعْلِمْنا بشرائع عبادتنا أو مَناسك حَجّنا ، وعَرِّفْنا بِها . وقِيل : مواضع الذبح (أماكن تقديم القرابين لله تعالى) . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠١) : ((﴿ وأرِنا ﴾ مِن : رأى ، بمعنى أبصرَ أو عَرَفَ. ولذلك لَم يتجاوز مفعولين ﴿ مَنَاسِكَنا ﴾ مُتَعَبَّدَاتِنا في الحج أو مذابحنا . والنُّسُكُ في الأصل غاية العبادة ، وشاعَ في الحج لِمَا فيه مِن الكُلفة والبُعد عن العادة)) اهـ .

والأنبياءُ معصومون مِن الذنوب ، ومُنَزَّهون عَن الآثام . ومعنى طلب التَّوبة إنما هو طلب الثبات على الحق والدَّوام على الهدى ، والتجاوز عنهما، لا أن لهما ذنوبًا وآثامًا .

وقد سألاه التَّوبةَ مَعَ عِصْمتهما ، تواضعًا مِنهما ، واعترافًا بحالات السَّهْو مِنهما أو خِلاف الأَوْلَى ، وتعليمًا لِذُرِّيتهما .

وقد أرادَ إبراهيم وإسماعيل _ عليهما الصلاة والسلام_ بعد بناء البَيت أن يُوضِّحا للناس أن المناسك هي المواضع الشريفة الطاهرة ، وأمكنة التَّطَهُّر مِن الذنوب والمعاصي ، وطلبِ التَّوبة.

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠١) : ((﴿ وَتُبْ عَلَيْنا ﴾ استتابة لِذُرِّيتهما أو عمَّا فَرَطَ مِنهما سَهْوًا ، ولعلهما قالا هَضْمًا لأنفسهما وإرشادًا لِذُرِّيتهما . ﴿ إنَّكَ أنتَ التَّوابُ الرحيم ﴾ لِمَن تاب)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٤٥و١٤٦) : ((قال قَتادة : أراهما اللهُ مَناسكهما. الموقف بِعَرَفات، والإفاضة مِن جَمْع (مُزْدَلِفَة)، ورَمْي الجِمار والطواف والسَّعْي . وقال أبو مِجْلَز: لَمَّا فَرَغَ إبراهيمُ من البيت ، أتاه جبريل ، فأراه الطواف ، ثم أتى به جَمرة العَقَبة ، فَعَرَضَ له الشَّيطان ، فأخذَ جِبريلُ سبع حَصَيات ، وأعطى إبراهيم سبعًا ، وقال له : ارْمِ وَكَبِّرْ. فَرَمَيا وَكَبَّرَا مع كل رَمية ، حتى غاب الشيطان، ثم أتى به جَمرة الوُسطى، فَعَرَضَ لهما الشَّيطان، فأخذَ جِبريلُ سبع حَصَيات، وأعطى إبراهيم سبع حصيات، فقال: ارْمِ وَكَبِّرْ ، فَرَمَيَا وَكَبَّرَا مع كل

رمية حتى غاب الشيطان، ثم أتى به الجمرة القُصوى، فَعَرَضَ لهما الشَّيطان ، فأخذَ جِبريلُ سبع حصيات ، وأعطى إبراهيم سبع حصيات، فقال له: ارْمِ وَكَبِّرْ، فَرَمَيَا وَكَبَّرَا مع كل رَمية حتى غاب الشيطان ، ثم أتى به مِنى ، فقال : هاهُنا يَحْلِق الناسُ رُؤوسهم ، ثم أتى به جَمْعًا (مُزْدَلِفَة) ، فقال : هاهُنا يُجْمَع الناس، ثُمَّ أتى به عَرَفَة، فقال: أعرفتَ. قال: نعم. قال: فَمِن ثَمَّ سُمِّيَت عَرَفَات)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإذا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكُم فاذْكُروا اللهَ كَذِكْرِكُم آباءَكُم أوْ أشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة : ٢٠٠] .

الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين : فإذا فَرَغْتُم مِن أداء شعائر الحج ، وذبحتم نسائككم (ذبائحكم) فاذكُروا اللهَ بالتَّعظيم والتقديس والتَّكبير والتَّحميد والثناء عليه، وأكثِروا مِن ذِكْره ، واثنُوا عليه بِنَعمه عليكم ، وإحسانه إليكم ، وبالِغوا في ذِكْره كما تَفعلون بِذِكْر آبائكم في الفخر والمدح .

وقد كان أهلُ الجاهلية إذا فَرَغوا من الحج، قاموا فافتخروا بفضائل آبائهم ، وعَدَّدوا مناقبهم، وأشادوا بأفعالهم وخِصالهم ومواقفهم ومَفاخرهم وأمجادهم ومَحاسن أيامهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٢٩) : ((عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في المَوْسِم ، فيقول الرَّجلُ منهم : كان أبي يُطْعِم، ويَحمل الْحَمَالات، ويَحمل الدِّيَات . ليس لهم ذِكْرٌ غير فِعال آبائهم، فأنزل اللهُ على محمد ﷺ : ﴿فاذكروا اللهَ كَذِكْركم آباءكم أو أشدَّ ذِكْرًا ﴾)).

وهذا يدل على أن التفاخر بالآباء في الجاهلية ليس سُلوكًا اجتماعيًّا فَحَسْب ، بل هو أيضًا عقيدة دِينية . فأهلُ الجاهليةِ كانوا يختارون مَوْسمَ الحجِّ المقدَّسِ للتعبير عن أمجاد آبائهم . وهذا الارتباط ليس عفويًّا أو صُدفةً ، بل هو ارتباطٌ مُخَطَّطٌ له مُسْبَقًا لإضفاء هالة القداسة على أفعال الآباء ، ورَبْطها بالحج الذي يَحْضره العربُ من كل أنحاء الجزيرة العربية . وهكذا ، يُحقِّق أهلُ الجاهلية هَدَفَيْن مَعًا : الأول_ تقديس أفعال الآباء وربطها بعبادة الحج، والثاني _ نشر هذه الأفعال على مسامع الحجيج الذين سَيَعودون إلى أهلهم وقبائلهم ومناطقهم فينشرونها، ويبثُّونها بين الناس. وهكذا يقترن الافتخارُ بالآباء بمنظومة العبادة(الحج)/الإعلام(نشر أفعال الآباء على مسامع الناس).

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٢٧) : ((كانت عادةُ العرب إذا قَضَتْ حَجَّها تقف عند الجمْرة ، فَتُفاخِر بالآباء ، وتَذْكر أيامَ أسلافها مِن بَسَالة وكَرَم وغَير ذلك ، حتى إن الواحد منهم ليقول : اللهم إن أبي كان عظيم القُبَّة ، عظيم الْجَفْنة _ كِناية عن كثرة الإطعام_ ، كثير المال ،

فأعطني ما أَعْطَيْتَهُ ، فلا يَذْكر غير أبيه،فَنَزلت الآية لِيُلْزموا أنفسهم ذِكْر الله أكثر من التزامهم ذِكْر آبائهم أيام الجاهلية ، هذا قول جمهور المفسِّرين)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٥) : ((قَولـه تعالى: ﴿ فإذا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكُم فاذْكُروا اللهَ ﴾ . في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن أهل الجاهلية كانوا إذا اجتمعوا بالْمَوْسِم ذَكَروا أفعالَ آبائهم وأيامهم وأنسابهم في الجاهلية ، فتفاخروا بذلك ، فَنَزلت هذه الآية . وهذا المعنى مرويٌّ عن الحسن وعطاء ومجاهد . والثاني أن العرب كانوا إذا حَدَّثوا أو تكلموا يقولون : وأبيكَ إنهم لَفَعَلوا كذا وكذا ، فَنَزلت هذه الآية ، وهذا مرويٌّ عن الحسن أيضًا . والثالث أنهم كانوا إذا قَضَوْا مَناسكهم، قام الرَّجل بِمِنى، فقال : اللهُمَّ إن أبي كان عظيم الجفنة ، كثير المال ، فأعْطِني مِثل ذلك ، فلا يَذكر اللهَ ، إنما يذكر أباه ، ويسأل أن يُعطَى في دُنياه ، فَنَزلت هذه الآية. هذا قول السُّدي.والْمَنَاسِك الْمُتَعَبَّدَات. وفي المراد بها هاهُنا قَولان : أحدهما أنها جميع أفعال الحج، قاله الحسن . والثاني أنها إراقة الدماء ، قاله مجاهد . وفي ذِكْرهم آباءهم أربعة أقوال: أحدها أنه إقرارهم بهم . والثاني أنه حلفهم بهم ، والثالث أنه ذِكْر إحسان آبائهم إليهم ، فإنهم كانوا يذكرونهم ، ويَنْسَوْنَ إحسانَ الله إليهم. والرابع أنه ذِكْر الأطفال الآباء، لأنهم أول نُطقهم بِذِكْر آبائهم ، رُوِيَ هذا المعنى عن عطاء والضَّحاك . وفي ﴿ أوْ ﴾ قَولان: أحدهما أنها بمعنى بَل، والثاني بمعنى الواو)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُم وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ في أيَّامٍ مَعلوماتٍ عَلى مَا رَزَقَهُم مِن بَهيمةِ الأنعامِ فَكُلُوا مِنها وأطْعِمُوا البائِسَ الفَقِيرَ ﴾[الحج : ٢٨] .

المعنى : أَذِّنْ يا إبراهيم بالحج يأتوكَ رِجالاً ورُكبانًا لِيَحْضُروا منافعَ لهم كثيرةً : دينية ودُنيوية . أي إن هذه المنافع والمصالح والفوائد تعمُّ الدنيا والآخرة ، وتَجمع خَيْرَهُما مَعًا .

والمنافعُ الدينية (مَنافع الآخرة) تتجلى في رِضا الله عليهم وثوابه العظيم . والمنافع الدُّنيوية تتَّضح في الاستفادة مِن الذبائح والبُدْن والتجارات . والشُّهُودُ الْحُضُور .

وتَنكيرُ ﴿ مَنَافِعَ ﴾ لأن المقصود نوع مِن المنافع مُعيَّن ومَخصوص بهذه العبادة .

وقال الفخر الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٩): ((وإنما نكَّر المنافعَ،لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة ، دينية ودُنيوية ، لا توجد في غَيرها مِن العبادات)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٤٠) : ((﴿ مَنَافِعَ لَهُم ﴾ ، أي : الْمَنَاسِك كَعَرَفَات ، والْمَشْعَر الحرام ، وقِيل : المغفرة ، وقِيل : التجارة . وقِيل : هو عُموم ، أي : لِيَحْضُروا منافع

لهم، أي ما يُرْضِي اللهَ تعالى مِن أمر الدنيا والآخرة ، قاله مجاهد وعطاء ، واختاره ابن العربي ، فإنه يجمع ذلك كُله مِن نُسُك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأُخرى)) اهـ .

ويَذكروا عِند ذَبْح الهدايا والأضاحي اسمَ الله في أيام النَّحْر، تعظيمًا له، واعترافًا بفضله وإنعامه عليهم ، وشُكْرًا على نِعَمه، وعلى ما رَزقهم مِن الإبل والبقر والغنم، وملَّكهم إيَّاها، وسخَّرها لهم .

والمراد بِذِكْر اسم الله التَّسمية عِند الذبح : بِاسْمِ الله ، والله أكبر .

والمقصود بالأيام المعلومات هي أيام النَّحْر لأن الذِّكر على بهيمة الأنعام يدل على التَّسمية عِند ذَبْحها ونَحْرها ، ونَحْر الهدايا يكون في هذه الأيام (يَوم العيد وما بَعْده) .

والقضيةُ لَيست قضية لحم ودم ، وإنما القضية هي ذِكْر اسم الله وَحْدَه عِند الذبح ، وتأكيد معنى التَّوحيد ، ومُخالفة المشركين الذين كانوا يَذبحون لآلهتهم ، وعلى أسماءِ أصنامهم، ويُشْرِكونها مَعَ الله في العبادة . وذَبْحُ الهدايا والأضاحي عبادة ، والعباداتُ يجب أن تكون خالصةً لوجه الله تعالى .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٧٩) : ((﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ في أيَّامٍ مَعلوماتٍ ﴾ يعني : عَشْر ذِي الحِجَّة في قول أكثر المفسِّرين. قِيل لها: ﴿ مَعلوماتٍ ﴾ للحرص على عِلْمها بحسابها ، مِن أجل وقت الحج في آخِرها)) اهـ .

فَكُلوا مِن لحوم الأضاحي ، وهذا أمر للاستحباب لا للوجوب. وقد كان المشركون لا يَأكلون مِن ذبائحهم ، فرخَّص اللهُ للمسلمين في ذلك ، فَمَن شاء أكل ، ومَن لَم يَشأ لَم يَأكل .

ويُستحَب أن يأكل المسلم مِن هَدْيه وأُضحيته، وأن يَتصدَّق بالأكثر. وإذا كان الْهَدْي تطوُّعًا ، يَجوز للمُهْدِي أن يأكل مِنه ، وكذلك أُضحية التَّطَوُّع .

وأطعِموا البائسَ الذي يَظهر عليه آثار البُؤس (شِدَّة الفقر) والفاقة والانكسار ، والفقيرَ الذي يُعاني مِن الحاجة، ولكنه يَتعفَّف، ولا يَظْهر عليه آثار البؤس والحِرمان. والأمر هُنا للوجوب ، وقِيل: للاستحباب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٤٢٤ و٤٢٥ و٤٢٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا ﴾ أي : لِيَحْضُروا ﴿ مَنَافِعَ لَهُم ﴾ وفيها ثلاثة أقوال : أحدها التِّجارة ، قاله ابن عباس والسُّدي . والثاني منافع الآخرة ، قاله سعيد بن المسيِّب والزَّجاج في آخرين . والثالث منافع الدارَيْن جميعًا ، قاله مجاهد.وهو أصح، لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة ، وإنما الأصل قصد الحج والتجارة تَبَع. وفي الأيام المعلومات سِتَّة أقوال : أحدها أنها أيام العَشْر، رواه مجاهد عن ابن عمر وسعيد

بن جُبَير عن ابن عباس، وبه قال الحسن وعطاء وعِكرمة ومجاهد وقتادة والشافعي . والثاني تسعة أيام مِن العَشْر ، قاله أبو موسى الأشعري . والثالث يوم الأضحى وثلاثة أيام بَعْده، رواه نافع عن ابن عمر ومِقْسَم عن ابن عباس . والرابع أنها أيام التَّشريق ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال عطاء الخراساني والنَّخعي والضَّحاك . والخامس أنها خمسة أيام أوَّلها يوم التَّروية، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والسادس ثلاثة أيام، أوَّلها يوم عَرَفَة ، قاله مالك بن أنس. وقِيل : إنما قال : ﴿ مَعلوماتٍ ﴾ لِيُحْرَص على عِلمها بحسابها مِن أجل وقت الحج في آخرها. قال الزَّجاج : والذِّكر هاهُنا يدل على التَّسمية على ما يُنحَر، لِقَوله تعالى : ﴿ عَلى مَا رَزَقَهُم مِن بَهيمةِ الأنعامِ ﴾ . قال القاضي أبو يعلى: ويُحتمَل أن يكون الذِّكر المذكور هاهُنا هو الذِّكر على الهدايا الواجبة كالدم الواجب لأجل التَّمَتُّع والقِران ، ويُحتمَل أن يكون الذِّكر المفعول عند رَمْي الجِمار ، وتكبير التَّشريق ، لأن الآية عامة في ذلك . قَوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنها ﴾ ، يعني : الأنعام التي تُنحَر . وهذا أمر إباحة . وكان أهل الجاهلية لا يستحلون أكل ذبائحهم ، فأعلمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أن ذلك جائز ، غَير أن هذا إنما يكون في الْهَدْي الْمُتَطَوَّع بِه، فأمَّا دَم التَّمَتُّع والقِران، فَعِندنا أنه يَجوز أن يأكل منه،وقال الشافعي: لا يجوز. وقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قال : " مِن كُل الْهَدْي يُؤكَل إلا ما كان مِن فِداء ، أو جزاء ، أو نَذْر " . فأمَّا البائس فهو ذُو البؤس ، وهو شِدَّة الفقر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى مَا رَزَقَهُم مِن بَهيمةِ الأنعامِ فَإِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِين ﴾ [الحج : ٣٤] .

لقد شَرَعَ اللهُ لكل جماعة مؤمنة مِن الأمم السابقة مكانًا للذبح وتقديم القرابين لله تعالى . وهذا يدل على وَحدانيته تعالى . إذ إن شريعة الذبح واحدة،مِمَّا يدل على أن الإله المعبود واحد . والنظامُ التَّعَبُّدِيُّ الواحد الخالي مِن التناقض والاضطراب ، يُشير إلى وَحدانية الله تعالى .

والآيةُ تدل على أن الْمَنْسَكَ (مكان ذبح القرابين وإراقة الدَّم) ليس مِن خصائص الأُمَّة المحمدية الإسلامية ، بَل هو مَوجود في كُل الأمم السابقة ، والذبائح لَم يَخْلُ مِنها أُمَّة . والأُمَّةُ هي الجماعة المجتمعة والمتَّفقة على مذهب واحد .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٩٧) : ((يُخبِر تعالى أنه لَم يزل ذَبْحُ المناسك ، وإراقة الدماء على اسم الله مشروعًا في جميع المِلَل)) اهـ .

وقد أمَرَهم اللهُ أن يَذبحوا على اسْمِه وَحْدَه ، مُخْلِصِين له ، شُكْرًا للهِ على ما رزقهم مِن الإبل والبقر والغنم . والذبحُ إنما يكون على اسْمِ الله وَحْدَه ، لأنه الخالق الرازق ، لا شريك له ولا نِد .

وقد كانَ المشركون يَذبحون لأصنامهم وأوثانهم وآلهتهم الباطلة ، مَعَ أنها لا تنفع ولا تضرُّ . وفي الآية دليل على أن المقصود مِن الذبح ليس اللحم والدَّم ، وإنما ذِكْر اسم الله عليه ، وَحْدَه لا شريك له .

وإضافة بهيمة إلى الأنعام في قَوله: ﴿ بَهيمةِ الأنعامِ ﴾ لأن هُناك بهائم لا تنتمي إلى الأنعام، مِثل الخيل والبِغال والحمير. وهذا التَّخصيصُ يدل على أن القُربان لا يكون إلا مِن الأنعام دُون غَيرها .

فإلهكم ورَبُّكم المعبودُ أيها الناس ، إلهٌ واحدٌ في ذاته ، وواحدٌ في صِفاته ، وواحدٌ في أفعاله ، لا شريك له ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد .

واللهُ هو الإله الواحد لجميع الناس وجميع الأمم ، لذلك يجب أن تَكون الذبيحة على اسْمه وَحْدَه ، وخالصةً له .

والمعنى : سَمُّوا على الذبائح اسمَ الله وَحْدَه ، فإن إلهكم إله واحد ، لا شريك له . وهو سُبحانَه المتفرِّد بالخلق والرِّزق والإيجاد .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٩٧) : ((وقَوله : ﴿ فَإِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ أي: معبودكم واحد ، وإن تنوَّعت شرائع الأنبياء ، ونَسَخ بعضُها بعضًا ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وَحْدَه لا شريك له)) اهـ .

اعبدوا اللهَ وَحْدَه ، وأخلِصوا له الطاعة ، وانقادوا لأمره وحُكمه ، واعترفوا بفضله ونِعَمه . وبشِّر يا محمد الخاضعين للهِ ، المستسلمين له ، المعترفين بِوَحدانيته وأُلوهيته ورُبوبيته، الحريصين على طاعته وعدم معصيته، المتواضعين أمام عَظَمَته ومَجده، الْمُنيبين إليه بالتَّوبة ، بالثواب العظيم والسعادةِ الأبدية في جَنَّات النَّعيم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٥٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِين ﴾ . الْمُخْبِت : المتواضع الخاشع من المؤمنين ، والْخَبْتُ ما انخفضَ مِن الأرض . أي : بَشِّرْهم بالثواب الجزيل . قال عمرو ابن أوس : الْمُخْبِتُون الذين لا يَظْلمون ، وإذا ظَلموا لَم يَنتصروا . وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نَجيح : الْمُخْبِتُون المطمئنون بأمر الله عز وجل)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٣١) : ((ومعنى الآية : لِكُل جماعة مؤمنة مِن الأمم السالفة ، جَعَلْنا ذَبْحَ القرابين ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى مَا رَزَقَهُم مِن بَهيمةِ الأنعامِ ﴾ ، وإنما خَصَّ بهيمة الأنعام ، لأنها المشروعة في القُرب . والمراد مِن الآية أن الذبائح ليست مِن خصائص

هذه الأُمَّة ، وأن التَّسمية عليها كانت مشروعة قبل هذه الأُمَّة . قوله تعالى: ﴿ فَإِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي : لا ينبغي أن تذكروا على ذبائحكم سِواه ، ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ أي: انقادوا واخضعوا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنسَكًا هُم ناسِكُوهُ فلا يُنازِعُنَّكَ في الأمرِ وادْعُ إلى رَبِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُستقيمٍ ﴾ [الحج : ٦٧] (50).

جَعَلَ اللهُ تعالى لكل أُمَّةٍ شَريعةً ، هُم عاملون بِها ، ويَعبدون اللهَ وَفْقَها . وهذه الشريعةُ هي منهاجهم الحياتي ، ولا بُدَّ أن يتمسَّكوا بِها ، ويَسيرون حَسَبَ مُقتضاها .

والشريعةُ هي مِنهاجٌ سماويٌّ لا وَضْعيٌّ . فلكلِّ نبيٍّ من الأنبياء، ولكلِّ قَوْم من الأقوام السابقة، كان لهم شريعة يَعبدونَ اللهَ وَفْقَها ، فلا يُنازِعُكَ المشركون يا مُحمَّد في شريعتك ، فإن الشَّرائع كانت مَوجودة في كل العصور .

والمقصودُ : لا تُنازِعْهم أنتَ يا محمد . وهؤلاء المشرِكون غارقون في الجحود والعِناد ، ولا يَبحثون عن الحق. بل يَبحثون عن وسائل للطعن في الإسلام ، وإيقاف الدَّعوة المحمَّدية الإسلامية، وتشكيك المؤمنين بِدِينهم ، والتَّشويش عليهم ، وتفتيت الروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلاميّ . والمعنى العام : لا يَجوز مُنازَعة النبيِّ ﷺ في الشريعة والتشريع ، لأن الحق ظاهر ، والأمور محسومة . والجاهلُ لا يَحكم على العالِم . ومَن يَعْلَم حُجَّةٌ عَلى مَن لا يَعْلَم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٩) : ((﴿ فلا يُنازِعُنَّكَ ﴾ سائر أرباب الْمِلَل ، ﴿ في الأمر ﴾ في أمر الدِّين أو النَّسائك ، لأنهم بين جُهَّال وأهل عِناد ، أو لأن أمر دِينك أظهر من أن يَقبل النِّزاع . وقِيل : المراد نَهْي الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قَوْلهم وتمكينهم من المناظَرة المؤدية إلى نِزاعهم ، فإنها إنما تنفع طالب الحق ، وهؤلاء أَهْلُ مِرَاء)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٤٨و٤٤٩) : ((﴿ فلا يُنازِعُنَّكَ في الأمر ﴾ ، أي في الذبائح ، وذلك أن كفار قُرَيْش وخُزاعة، خاصَموا رسولَ الله ﷺ في أمر الذبيحة ، فقالوا : كيف تأكلون ما قتلتُم ، ولا تأكلون ما قَتَلَه اللهُ _ يَعْنُون الْمَيْتَة _ ؟)) اهـ .

---

(٥٠) قال الطبري في تفسيره (١ / ٦٠٢) : ((وأصل الْمَنسَك في كلام العرب : الموضع المعتاد الذي يعتاده الرَّجل ، ويألفه . يُقال : لِفُلان مَنسَك، وذلك إذا كان له موضع يعتاده ، لخير أو شر . ولذلك ، سُمِّيت المناسك مناسك ، لأنها تُعتاد ، ويُتَرَدَّد إليها بالحج والعُمرة ، وبالأعمال التي يُتقرَّب بِها إلى الله . وقد قِيل : إنَّ معنى النُّسُك : عبادة الله ، وأن الناسك إنما سُمِّيَ ناسكًا بعبادة رَبِّه)) اهـ .

وعن عليٍّ بن الحسين ــ رضي الله عنهما ــ : في قَوْله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنسَكًا هُم ناسِكُوهُ ﴾ ، قال : ((ذَبْحٌ هُم ذَابِحُوه)) [51].

ووَفْقَ هذا الحديث ، فإن معنى الْمَنْسَك مرتبط بالذبح وتقديم القرابين لله تعالى .

﴿ وادْعُ إلى رَبِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُستقيمٍ ﴾ .

وادْعُ يا محمد الناسَ إلى تَوحيد رَبِّكَ وعبادته ، وأَرْشِدْهم إلى شريعته الكاملة ، إنَّكَ على طريقٍ واضحٍ لا عِوَجَ فِيه ولا لَبْس ، وهو طريقُ الحقِّ والإيمانِ الموصل إلى الجنة . طريقٌ واضحٌ مُعتدل ، لا إفراطٌ فيه ولا تفريط . لا غُلُوٌّ فيه ولا تقصير .

---

(٥١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٢٥) برقم (٣٤٧٨) وصحَّحه ، وقال الذهبي عَن رَجُلَيْن في السند : ((زهير ذو مناكير ، وابن عقيل ليس بالقوي)) .

الفصل السادس

الصِّيام

تمهيد

الصِّيامُ _ لُغةً _ هو الإمساك . وفي الاصطلاح : الإمساك عن كافة الْمُفطِّرات مِن طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، معَ النِّية . ومِن أشهر المفطِّرات : الأكل والشُّرب والنِّكاح .

والصَّوْمُ أحد أركان الإسلام الخمسة ، ومِن العبادات المركزية في الإسلام . وقد فُرِضَ في السنة الثانية للهجرة . ووجوب صوم رمضان مِن المعلوم مِن الدِّين بالضرورة ، بحيث إن مُنكِره كافر خارج عن الإسلام .

وتدل النصوص الشرعية (الكتاب والسُّنة الصحيحة) على أن الصيام الذي فرضه اللهُ على المسلمين كان مفروضًا على الأمم السابقة. واللهُ هو الذي شَرَعَ الأحكام لعباده، ولا تكون العبادة إلا له ، سُبحانَه وتعالى. ودِين الأنبياء واحد ، وهو الإسلام . لذلك ، ليس غريبًا أن يُفرَض الصيام على الأمم السابقة ، ومِنها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) . وقد كان مفروضًا عليهم .

ولَم تجئ شريعةُ الصيام من أجل تعذيب النفس الإنسانية أو القضاء عليها أو حرمان الإنسان من الطعام الطَّيب.إن الصيام نظام حياتي دقيق يهدف إلى إثبات قدرة المؤمن على التضحية بشهواته من أجل خالقه تعالى . وبالتالي يصبح الصيامُ منظومة التضحية والصبر والتحمل لصناعة جيل قادر على تحمُّل أعباء الحياة ، لا ينكسر أمام التحديات الجسيمة . وهذا كله يدفع باتجاه صناعة الإنسان المتفوق الذي يقوم بإعمار الأرض وَفْقَ مُراد الله تعالى بكل صبر وإصرار وتحمُّل ، فَيُؤسِّس مجتمعَ الخير والحق والفضيلة والْجَمَال على الأرض ، ويفوز بالنعيم الإلهيِّ الأبديِّ في الآخرة . والنصوصُ الشرعية الواردة في وُجوب الصيام وفضله والحِكمة مِنه كثيرة جِدًّا ، وهذا يدل على أهمية الصيام في الإسلام ، ودَوره المركزي في حياة الفرد والجماعة داخل المجتمع الإسلاميِّ . والصِّيامُ لا يختص بشهر رمضان ، بَل هو شاملٌ لكل أنواع الصِّيام . وهو إمَّا فَرْض عَيْن ، وهو صَوم شهر رمضان من كل عام . وما عَداه ، إمَّا واجب مِثل : صَوم القضاء أو النذر أو الكفَّارة . وإمَّا تطوُّع ، ويشمل المسنون المؤكَّد ، والمندوب المستحَب ، والنَّفْل المطْلق . وقد يَكون الصوم حرامًا كصوم يَوم عِيدَي الفِطر والأضحى . وقد خفَّف اللهُ في الصيام، وشَرَعَ الرُّخصة في الإفطار في حال المرض والسَّفَر_ على سبيل المثال _. وهذا يدل على سَعَة الرحمة الإلهية ، وأن الشريعة الإسلامية جاءت لرفع الحرَج عن الناس، والتوسيع عليهم، وليس التضييق عليهم . وقد شُرِعَت عبادة الصيام لبناء الفرد والمجتمع ، وليس لتجويع الفرد ، وتحطيم المجتمع .

أولاً : الطعام والأغذية

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ كُلوا مِمَّا في الأرضِ حَلالاً طَيِّبًا ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

يَمُنُّ اللهُ على عباده أن أباحَ لهم الطيبات ، فأمرهم بأن يأكلوا من الخيرات الطيبة الحلال الموجودة في الأرض . فلا يوجد ضيقٌ أو حَرج في تناول الطيبات ، فهي تُعين على العبادة ، وتبعث البهجة في النفس ، فيستقبل الإنسانُ يومَه بإشراق وتفاؤل دون تحجير للرحمة الإلهية ، أو تحريم للطعام الحلال بدافع الزهد أو التقوى . فالتقوى في اتِّباع الأوامر الشرعية ، وليس تحريم الحلال أو التضييق على النفس وتعذيبها وحِرمانها من الطيبات .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٧) : ((أباحَ لهم أن يأكلوا مِمَّا في الأرض في حال كَوْنه حلالاً مِن الله طَيِّبًا ، أي : مُسْتَطَابًا في نفْسه ، غير ضار للأبدان ولا للعقول)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٢) عن الآية : ((نزلت في ثَقِيف وخُزاعة وبني عامر ابن صَعْصَعَة فِيما حَرَّموا على أنفسهم مِن الحرث والأنعام ، وحَرَّموا البَحِيرة والسَّائبة والحام ، قاله ابن السائب)) اهـ .

وأهلُ الجاهلية كانوا مُولَعين بتحليل الحرام وتحريم الحلال ، وقد اخترعوا أحكامًا كثيرة ما أنزلَ اللهُ بِها مِن سُلطان، وربطوها بعقائدهم وعاداتهم وحياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهذا يعكس مدى التخلف العَقَدي نتيجة غياب الهداية الإلهية ، وغَبَشِ الوعي الإنساني .

والقاعدةُ الفقهية الشهيرة تقول إن الأصل في الأشياء الإباحة. والمعنى : كُل شيء حلال ما لَم يَأتِ نصٌّ بتحريمه .

وفي صحيح مسلم(٤/ ٢١٩٧) : عن عِيَاض بن حِمَار ــ رضي اللهُ عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خُطبته : ((ألا إن ربي أمرني أن أُعلِّمكم ما جَهِلْتُم مِمَّا عَلَّمَني يَوْمي هذا . كُل مالٍ نَحَلْتُه عبدًا حلال . وإني خَلقتُ عبادي حُنفاءَ كُلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دِينهم ، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم)) .

وهذا يعني أن كل مال أعطاه الله تعالى لعباده فهو حلال. كما أن العباد مخلوقون حُنفاء كلهم، أي إنهم مَوْلودون على الفِطرة (توحيد الله تعالى) . لكنَّ الشياطين أوردتهم المهالك ، فانحرفوا عن جادة الطريق ، وقامت بتحريم الحلال عليهم ، فاتَّبعوها بلا بصيرة .

وفي هذا إنكار على أهل الجاهلية ما حرَّموه على أنفسهم مِن البَحِيرة والسَّائبة والوَصِيلة والحام [1] . وقد كان أهل الجاهلية إذا وَلدت الناقةُ خمسة أبطن آخرها ذَكَر،بَحروا أُذنها(شَقُّوها)، وحرَّموا رُكوبها ، وهذه هي البَحِيرة . وكان الرَّجل يَنذُر إذا عادَ مِن سَفَره ، أو شُفِيَ مِن مرضه ، أن يَترك ناقته سائبة . وقد حرَّموا الانتفاعَ بالبَحِيرة والسَّائبة . وإذا وَلَدت الشاةُ أنثى فهي لهم ، وإن وَلَدَتْ ذَكَرًا فهو لآلهتهم ، وإن وَلَدَتْ ذَكَرًا وأنثى ، قالوا : وَصَلَتْ أخاها ، وهي الوصيلة. وإذا أنتجتْ مِن صُلب الفحل عشرة أبطن ، قالوا قد حَمَى ظَهْرَه ، وهو الحام . وقد أبطلَ الإسلامُ هذه العادات الجاهلية القائمة على تقليد الآباء ، بلا دليلٍ نقلي ولا عقلي .

واللهُ تعالى خَلَقَ عبادَه كُلَّهم حُنفاء ، أي مسلمين . وقِيل : طاهرين مِن المعاصي . وقِيل : مُستقيمين مُنيبين لِقَبول الهداية والحق . وإن الشياطين أزالوا الناسَ عن الحق ، وجالوا معهم في الباطل ، وحرَّموا عليهم ما أحلَّه الله ، افتراءً عليه ، ورفضًا للشريعة الإلهية السَّمحة . فالشياطين دفعوا الناسَ إلى الانحراف ، وتحريمِ الحلال ، وتحليلِ الحرام ، ضمن فوضى عبثية ضاع فيها الإنسان بسبب ابتعاده عن المنهج الإلهيِّ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٩٧) عن معنى"اجتالتهم": ((استخفوهم فذهبوا بهم،وأزالوهم عمَّا كانوا عليه،وجالوا معهم في الباطل،كذا فسَّره الهروي وآخرون)) اهـ .

والجدير بالذِّكر أن عملية الابتعاد عن الحلال الطيب والغرقِ في الحرام ، من شأنها تدمير الكيان الإنسان والقضاء على حياته الدنيوية ، وإضاعته يوم القيامة . فالحرامُ له تأثير سلبي للغاية في مسار حياة الفرد وعواطفه وطموحاته وإمكانياته . فهو يَحْرِمه التوفيق ، ويجعل صدرَه ضَيِّقًا

---

(١) قال اللهُ تعالى:﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣].ومعنى قَوْله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ ﴾ ، أي : ما حَرَّمَ اللهُ، وحقيقةُ الجَعْلِ غير مُرادة لأن كُلَّ شيء خَلَقَه اللهُ تعالى . قال الواحدي في الوجيز (ص ٣٣٨) : ((والبَحِيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن شَقُّوا أُذنها وامتنعوا من ركوبها وذبحها . ﴿ وَلا سَائِبَةٍ ﴾ ، هو ما كانوا يُسَيِّبونه لآلهتهم في نذر يلزمهم إن شُفِيَ مريض، أو قُضيت لهم حاجة . ﴿ وَلا وَصِيلَةٍ ﴾ ، كانت الشاةُ إذا وَلدت أنثى فهي لهم، وإن وَلدت ذَكَرًا جعلوه لآلهتهم ، وإن وَلدت ذَكَرًا وأنثى قالوا : وَصَلت أخاها فلم يذبحوا الذَّكر لآلهتهم. ﴿ وَلا حَامٍ ﴾ ، إذا نتجت مِن صُلب الفَحْل عشرة أبطن، قالوا: قد حَمَى ظَهْرَه فلم يُرَكب ، ولم يُنْتَفَع بِه ، وَسُيِّب لأصنامهم فلا يُحمَل عليه)).

حَرَجًا ، ويجعل نظرته للحياة غارقة في المادية الآنية والاستهلاكية الفَجَّة بلا هدف ولا مسار ، مِمَّا يُؤدِّي إلى تكوين سلوكيات منحرفة ، تُعمِّق أزمات الإنسان على الصعيدَيْن : المعنويِّ والماديِّ .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٠٣): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أيها الناسُ ، إن اللهَ طَيِّبٌ لا يَقبل إلا طَيِّبًا ، وإن اللهَ أَمَرَ المؤمنين بما أَمَرَ بِه المرسَلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[المؤمنون :٥١] . وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٧٢] . ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجلَ يُطيل السَّفرَ، أشعثَ أَغبر ، يمدُّ يديه إلى السماء : يا رَب يَا رب ، ومَطْعَمُه حرامٌ ، ومَشْرَبُه حرام ، ومَلْبَسُه حرام ، وغُذِّيَ بالحرام ، فأنَّى يُستجابُ لذلك)) .

إنَّ اللهَ طَيِّبٌ (قُدُّوس) مُنَزَّهٌ عن العُيوب والنقائص ، لا يَقبل إلا الأعمال الصالحة الطيبة . وأوامرُ اللهِ شاملةٌ للأنبياء المرسَلين والمؤمنين على حَد سَواء، فاللهُ لا يُجامِل أولياءه ولا يُحابي أحَدًا. لقد أمرَ اللهُ جميعَ الناس بِتَحَرِّي الحلال والالتزام بِه ، والابتعاد عن الحرام ، لأن الحرام يُلوِّث الفردَ ، ويُدمِّر المجتمع . والحرامُ من شأنه أن يُعرِّض الإنسان لغضب الله تعالى ، ويُفقِده طُمأنينة الإيمان . فَيُصبح دُعاؤه مَرفوضًا غَير مُستجاب ، وهذا يقوده إلى الهاوية السحيقة على الصعيدين المعنوي والمادي، لأن الإنسان سيضيع إذا تخلى عنه اللهُ تعالى، فيفقد توازنه الروحي، ويغرق في مستنقع الحياة الدنيا ، بلا مسار ولا هدف .

وينبغي أن يكون الفردُ والمجتمع في غاية النقاء والطهارة . والحديثُ يُشير إلى ضرورة أن يَكون المطعَم والمشرَب والملبَس مِن الحلال الطَّيِّب ، لأن الحلال الطَّيب هو طريق استجابة الدُّعاء . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٠٠) : ((قَوله ﷺ: " إن الله طَيِّب لا يَقْبَل إلا طَيِّبًا ". قال القاضي: الطَّيِّب في صِفة الله تعالى بمعنى الْمُنَزَّه عن النقائص، وهو بمعنى القُدُّوس. وأصل الطَّيب الزكاة والطهارة والسلامة مِن الْخُبث.وهذا الحديث أحد الأحاديث التي هي قواعد الإسلام ومباني الأحكام ، وفيه الحث على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق مِن غَيره ، وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصًا لا شُبهة فيه ، وأن مَن أرادَ الدُّعاء كان أولى بالاعتناء بذلك مِن غَيره. قَوله :" ثم ذَكَر الرَّجل يُطيل السَّفر أشعث أغبر يمدُّ يديه إلى السماء يا رَب يا رَب " إلى آخره، معناه والله أعلم أنه يُطيل السَّفر في وجوه الطاعات كحج وزيارة مُستحبة وصلة رَحِم وغَير ذلك.قَوله ﷺ:" وَغُذِّيَ بالحرام". قَوله ﷺ: " فأنَّى يُستجاب لذلك "، أي : مِن أين يُستجاب لِمَن هذه صفته ؟ ، وكيف يُستجاب له ؟)).

﴿ ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ .

كُل معصية لله هي مِن خُطوات الشيطان (آثاره) . فينبغي الالتزام بالطاعات ، والابتعاد عن المعاصي، وعدم السَّير في طُرق الشَّيطان، لأنه عدو ظاهر العداوة، يَجلب الشَّر للإنسان، ولا يُحب له الخير. وقِيل : أظهرَ عداوته برفضه السجود لآدم ﷺ ، حيث حَسده ، وحقد عليه ، وعلى ذُرِّيته . واتَّباعهم لِخُطُوات الشَّيطان (سبيله ومَسلكه) أنهم كان يُحرِّمون أشياء أحَلَّها اللهُ ، ويُحلِّلون أشياء حرَّمها اللهُ . وهذا هو التلاعب بالشريعة الإلهية في أسوأ صُوَره وأقبح أشكاله .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٤):((﴿ ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ ﴾ . لا تَقتدوا به في اتِّباع الهوى ، فَتُحرِّموا الحلال ، وتُحَلِّلوا الحرام ... . ﴿ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ ظاهر العداوة عِند ذَوي البصيرة ، وإن كان يُظْهِر الْمُوالاة لِمَن يُغويه)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا كُلوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم واشْكُروا للهِ إن كُنتم إيَّاهُ تَعْبُدُون ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

يَأمرُ اللهُ عبادَه أن يَأكلوا مِن الطعام الطَّيب اللذيذ الحلال، وأن يُثْنُوا على الله بما هُوَ أهله ، ويَشكروه على نِعَمه الكثيرة التي أحَلَّها لهم ، ورزقهم إيَّاها ، إن كانوا يُوحِّدونه ، ويَخُصُّونه بالعبادة، ويَعترفون أنه هو الْمُنعِم الذي يُعطي النِّعَمَ ويَمنحها.وبعبارة أخرى،إن كانوا مُلتزمين بأوامر الله، ومُجتنبين لِنَواهيه .

وبما أن العبادة واجبة لله ، فإن شُكره واجب ، لأنه سُبحانَه هو الْمُنعِم الْمُتَفَضِّل على عباده .

ولا شَكَّ أن أكل الحلال سبب لِقَبول العبادة واستجابة الدعاء ، وأكل الحرام سبب لرفضهما .

وتخصيص المؤمنين بالذِّكر ، تشريفًا لهم، وتعظيمًا لِقَدْرهم، وإعلاءً لِشَأنهم ، ولِكَوْنهم أفضل الناس على الإطلاق . والالتفاتُ في ﴿ واشْكُروا للهِ ﴾ لتعظيم الله، وجعل خَشيته في القلوب .

وقد كانوا في الجاهلية يُحرِّمون الحلالَ اتِّباعًا لأهوائهم وخُطوات الشيطان ، وتقليدًا لآبائهم ، فنهاهم اللهُ عن ذلك ، وأمرهم بأن يَأكلوا من الطَّيبات التي أحَلَّها اللهُ لهم ، وأنعمَ بها عليهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٩):((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا كُلوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم ﴾. لَمَّا وَسَّعَ الأمرَ على الناس كافة ، وأباحَ لهم ما في الأرض سِوى ما حَرَّمَ عليهم ، أمرَ المؤمنين مِنهم أن يَتَحَرَّوْا طَيِّبات ما رُزقوا ، ويقوموا بحقوقها ، فقال : ﴿ واشْكُروا للهِ ﴾ على ما رزقكم ، وأحلَّ لكم ، ﴿ إن كُنتم إيَّاهُ تَعْبُدُون ﴾ إن صَحَّ أنكم تَخُصُّونه بالعبادة، وتُقِرُّون أنه مَوْلَى النِّعَم ، فإن عبادته تعالى لا تتمُّ إلا بالشُّكر)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيم ﴾[البقرة : ١٧٣]. يَذكر اللهُ في هذه الآية بعضَ الأمور المحرَّمة كي يبتعد عنها الناس،ويلتزموا بالطيبات. إذ إن الخبائث والمحرَّمات لها أثر سلبي على الإنسان، روحيًّا وماديًّا. حيث تنقله إلى عوالم الفساد والضيق، وهذا ينعكس على السلوك الاجتماعي بشكل عام ، مِمَّا يُولِّد حالة ارتباك في المجتمع ، وغياب معاني الطهارة عن مَساره وهويته. وإذا غرق المجتمع في مستنقع الخطايا، فإن الجميع سيدفع الثمن ، وعندئذ تقترب نهاية المجتمع وانكسار الحضارة . وإذا انتشرت في المجتمع حالة الانهيار والفوضى والشَّك فلن يَنجوَ أحدٌ ، وسوف تعمُّ الكارثةُ الجميعَ بلا تمييز . وعندما يقوم الفردُ بحماية مجتمعه من السلبيات ، فهو في الحقيقة يحمي نفْسه وأُسرته قبل كُل شَيء. والذنوبُ لا تنحصر خطورتها في ذاتها فَحَسْب ، لأن ضررها يصل إلى سلوك الفرد والجماعة ، ويتسلل خطرها ليشمل كل مفاصل المجتمع البشري ، مِمَّا يؤدي إلى انتشار الفوضى ، وبث الفُرقة والتنازع بين الأفراد . وعندئذ تتوقف حركة الإنتاج ، وتؤول حركةُ التاريخ الاجتماعي إلى شكل للفراغ والعبث . والخطايا لها تأثير بالغ على الطبيعة النفسية للبشر ، والحراك الاجتماعي ، والروابط الإنسانية ، وعلاقاتِ الإنتاج والإعمار والتنمية. إنها مِثل النار المنتشرة في الهشيم لا يمكن التَّنبؤ بمداها . كما أن الذنوب تستأصل النقاءَ والطهارة من مفاصل المجتمع ، فيتحول الفرد إلى آلة استهلاكية متوحشة، ويتكرس المجتمعُ كمستنقع للروائح الكريهة والمناظر القبيحة والمحتوى السَّيئ. وعندئذ يندم الجميعُ على تقصيرهم ، ولكن بعد فوات الأوان . لقد حَرَّمَ اللهُ الْمَيْتَةَ ، وهي ما فارقته الرُّوح مِن غَير ذبح شرعيٍّ . ويُستثنى من التحريم مَيْتةُ البحر . فعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ أن النبيَّ ﷺ سُئِلَ عَن ماء البحر ، فقال : ((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤه ، الحِلُّ مَيْتَتُه)) (2).

---

(٢)رواه ابن حبان في صحيحه(٥١٤)برقم(١٢٤٤)،وابن خُزَيمة في صحيحه (١/٥٨)برقم (١١٢).
أمَّا حديث " أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتان ودَمَان : فأمَّا الميتتان فالحوت والجراد ، وأمَّا الدَّمَان فالكبد والطُّحال "، فقد رواه أحمد في مسنده (٢/ ٩٧) وابن ماجة في سُننه (٢/ ١١٠٢) . والحديثُ ضعيف ، ففي سنده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. ضعَّفه ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١) اهـ . وقال ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ٢٦) : ((ضعيف متروك . وقال أحمد : حديثه هذا مُنكَر)) اهـ . وذَكَر الشَّوكاني في نيل الأوطار (٩/ ٢٢) أن أحمد وابن المديني ضعَّفاه .

والدَّمُ السائل محرَّم.أمَّا الدم المختلط باللحم وعُروقه فليس بحرام لأنه يصعب الاحتراز منه، كما أن في تحريمه مشقة كبرى على الناس،وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرَج، وكُلما ضَاقَ الأمرُ اتَّسعَ . والخِنزيرُ بجميع أجزائه مُحَرَّمٌ ، وإنما خُصَّ اللحم بالذِّكر لأنه مُعظَم ما يُؤكَل مِن الحيوان .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٢١٠) : ((أجمعت الأُمَّة على تحريم شَحْم الخِنزير . وقد استدل مالك وأصحابه على أن مَن حلف ألا يأكل شحمًا فأكل لحمًا لَم يَحْنَثْ بأكل اللحم . فإن حَلف ألا يأكل لحمًا فأكل شَحْمًا حَنَث ، لأن اللحم معَ الشَّحم يقع عليه اسم اللحم، فقد دخل الشَّحمُ في اسم اللحم ، ولا يَدخل اللحم في اسم الشحم . وقد حَرَّم اللهُ تعالى لحمَ الخنزير ، فنابَ ذِكر لحمه عن شحمه ، لأنه دخل تحت اسم اللحم)) اهـ . وقال السيد سابق في فقه السُّنة (١/ ١٩) : ((ويجوز الخرز بشَعر الخنزير في أظهر قَول العلماء)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٥) : ((والْمَيْتَةُ ـ في عُرْف الشَّرْع ـ اسم لكل حيوان خَرجتْ رُوحُه بِغَير ذَكَاة (ذبح شرعيٍّ). وقِيل إن الحكمة في تحريم المَيْتة أن جمود الدم فيها بالموت يُحدِث أذًى للآكِل . وقد يُسمَّى المذبوح في بعض الأحوال مَيْتة حُكْمًا ، لأن حُكمه حُكم المَيْتة كذبيحة المرتد . فأمَّا الدم ، فالمحرَّم مِنه المسفوح لِقَوله تعالى : ﴿ أوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ [الأنعام : ١٤٥] . قال القاضي أبو يعلى : فأمَّا الدَّم الذي يبقى في خَلَل اللحم بعد الذبح، وما يبقى في العُروق فهو مُباح . فأمَّا لحم الخِنزير فالمراد جُملته ، وإنما خُصَّ اللحم لأنه مُعظَم المقصود . قال الزَّجاج : الخِنزير يشتمل على الذكر والأنثى)) اهـ .

﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ﴾ . وهو ما ذُبِحَ على غَير اسم الله . يعني : ما ذُبِحَ للأنصاب والأصنام والأنداد والطواغيت . ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ فلا إثْمَ عَلَيْهِ ﴾ . أباحَ اللهُ تناولَ هذه المحرَّمات للضرورة والحاجة ، في غَير بَغْي ، ولا عُدوان ، وهو مُجاوَزة الحد . وقِيل : غَير خارج على المسلمين ، ولا مُتَعَدٍّ عليهم بقطع الطريق. والاضطرارُ إمَّا أن يكون بدافع الجوع، أو تحت التهديد . فَمَن ألْجَأتْهُ الضرورة والاضطرار إلى أكل هذه المحرَّمات ، فلا إثم عليه في أكلها ، ولا حَرَج عليه في ذلك .

والجديرُ بالذِّكر أن الإباحة للاضطرار ، فيتم تقديرها بِقَدْرها ، فيأكل من المحرَّمات بحيث يسدُّ رَمَقَه ، ويبقى على قَيْد الحياة ، دُون الوصول إلى حالة الشِّبَع .

﴿ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيم ﴾ . إن اللهَ غفور لِمَن أكلَ الحرامَ عند الاضطرار ، رحيم بِه ، إذْ أحلَّ له الحرام في هذه الحالة المخصوصة ، ورخَّص له فيها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٥و١٧٦) : ((ومعنى : ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ﴾، ما رُفِعَ فيه الصوت بتسمية غير الله ... . قَوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي : أُلْجِئ بضرورة ... . وفي قَوله : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ ﴾ أربعة أقوال : أحدها أن معناه غَير بَاغٍ على الوُلاة ، ولا عَادٍ يقطع السبيل ، هذا قول سعيد بن جُبَير ومجاهد . والثاني غَير باغٍ في أكله فوق حاجته ، ولا مُتَعَدٍّ بأكلها وهو يجد غَيرها، هذا قول الحسن وعِكرمة وقتادة والربيع . والثالث غَير باغ أي مُسْتَحِل ، ولا عَادٍ ، غَير مُضْطَر ، رُوِيَ عن سعيد بن جُبَير ومقاتل. والرابع غَير بَاغٍ شَهْوَتَه بذلك ، ولا عَادٍ بالشِّبَع منه ، قاله السُّدي . معنى الضرورة في إباحة المَيْتة أن يخاف على نفْسه أو بعض أعضائه . سُئِل أحمد رضي الله عنه عن الْمُضْطَر إذا لَم يَأكل المَيْتة ، فَذَكَر عن مسروق أنه قال : مَن اضْطُرَّ فَلَم يأكل فمات دخل النار . فأمَّا مِقدار ما يَأكل فنقل حنبل يأكل مِقدار ما يُقِيمه عن الموت . ونقل ابن منصور يأكل بِقَدْر ما يَستغني ، فظاهر الأُولَى أنه لا يجوز له الشِّبَع ، وهو قول أبي حنيفة والشافعي ، وظاهر الثانية جواز الشِّبَع ، وهو قول مالك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاًّ لبني إسرائيلَ إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفْسِه مِن قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التَّوراةُ قُلْ فَأْتُوا بالتَّوراةِ فاتْلُوها إن كُنتم صادقين ﴾ [آل عِمران : ٩٣] .

جميعُ أنواع الطعام كانت حَلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التَّوراة إلا ما حَرَّمَ إسرائيل(يعقوب ﷺ) على نفْسِه كلحوم الإبل وألبانِها . وفي الحديث أنَّ اليهودَ قالوا للنبيِّ ﷺ: فأخْبِرْنا عمَّا حَرَّمَ إسرائيلُ على نفْسه ؟،قال: ((اشتكى عِرْقَ النَّسا، فلم يجد شيئًا يُلائمه إلا لحومَ الإبل وألبانَها، فلذلك حَرَّمها))، قالوا : صَدَقْتَ [3].

والنبيُّ يَعقوب ﷺ اشتكى من هذا المرض ، فَنَذَرَ إنْ شُفِيَ مِنهُ أن يُحرِّم على نفْسِه أحبَّ أنواع الأطعمة إلَيه ، وكانت لحومُ الإبل وألبانُها أحبَّ الطعام إلَيه ، فَحَرَّمها على نفْسِه باجتهادٍ مِنهُ ، ولَم يَأمره اللهُ بذلك ، والدليل أنَّ اللهَ نَسَبَ فِعْلَ التحريم إلى يَعقوب ﷺ . لقد أرادَ يعقوب ﷺ أن يَتقرَّب إلى الله تعالى ، فاجتهدَ مِن تِلقاء نفْسه في ظِل غِياب الوَحْي الإلهيِّ .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٢٢٣) : ((وذلك أن يعقوب _ عليه السلام _ مَرِضَ مَرَضًا شديدًا ، فنذرَ لَئِن عافاه اللهُ تعالى لَيُحَرِّمَنَّ أحبَّ الطعام والشراب إلَيه ، وكان أحبُّ الطعام والشراب إليه لحومَ الإبل وألبانَها)) اهـ .

---

(٣) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٩٤) برقم (٣١١٧) . وقال : ((حسن غريب)) .

وقال ابن عباس : فجعلَ إنْ شَفاه اللهُ أن لا يأكلَ لحمًا فيه عُرُوق ، قال : فَحَرَّمَتْهُ اليهود ، فَنَزلت : ﴿كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني إسرائيلَ إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفْسِه مِن قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التَّوراةُ قُلْ فَأْتُوا بالتَّوراةِ فاتْلُوها إن كُنتم صادقين ﴾ ، إنَّ هذا كان قَبْلَ التَّوراة (4).

لقد حَرَّمَتْهُ اليهودُ اتِّباعًا لأبيهم يعقوب ﷺ ، وهذا التَّحريمُ كانَ قبل نزول التَّوراة ، ولَم يكن مِنَ اللهِ تعالى . ثُمَّ حُرِّمَ على اليهود أنواع من الأطعمة بسبب ظُلمهم وفسادهم عُقوبةً لهم .

ومعَ أنَّ اليهودَ هُم أعداءُ اللهِ وقَتَلَةُ الأنبياء ، إلا أنَّ اللهَ تعالى أنصَفَهم ، وأخبرَ بأنَّ كُلَّ أنواع الطعام كانت حلالاً لهم ، وهذا يدل على أنَّ سُلوكَهم في تلك المرحلة كان مستقيمًا ، وأفعالَهم كانت طَيِّبةً، فلمَّا اقترَفوا الذنوبَ وارتَكَبوا المحرَّمات، حَرَّمَ اللهُ عليهم أنواعًا مِنَ الطعام عُقوبةً لهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٢) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني إسرائيلَ ﴾ ، سبب نزولها أن النبيَّ ﷺ قال : " أنا على مِلَّة إبراهيم "، فقالت اليهود : كيف وأنتَ تأكل لحومَ الإبل وتشرب ألبانَها ؟ ، فقال : " كان ذلك حِلاً لإبراهيم "، فقالوا : كُلُّ شيء نُحَرِّمُه نَحن ، فإنَّه كان مُحَرَّمًا على نُوح وإبراهيم، حتى انتهى إلَينا، فَنَزلت هذه الآية تكذيبًا لهم ، قاله أبو رُوق وابن السائب)) اهـ .

إنَّ مشكلةَ اليهود في هذا السِّياق أنَّهم اتَّبعوا أباهم يعقوب ﷺ في قضية التَّحريم ، ثُمَّ نَسَبوا التَّحريم إلى اللهِ، وزَعَموا أنَّ هذا التَّحريمَ وَحْيٌ سماويٌّ، وأنَّ الأنبياءَ خاضعون لهذا التَّحريم . وهذا كَذِبٌ على اللهِ وأنبيائه. وقد كَذَّبَهم اللهُ بِالْحُجَّة والبُرهان ، وَرَدَّ عليهم ، فقالَ : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بالتَّوراةِ فاتْلُوها إن كُنتم صادقين ﴾ . قُل يا مُحمَّد لهؤلاء اليهود : أحضِروا التَّوراةَ فاتلوها إن كُنتم صادقين في زَعْمِكم أنَّ اللهَ حَرَّمَ لحومَ الإبلِ وألبانَها في التَّوراة ، واقرؤوا التَّحريمَ عَلَينا .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٤٨):((وإنما ذلك خَبَر من الله عَن كَذِبهم ، لأنهم لا يجيئون بذلك أبَدًا على صِحَّته ، فأعلمَ اللهُ بكذبهم عَلَيه نَبِيَّه ﷺ ، وجعل إعلامه إيَّاه ذلك حُجَّة له عليهم، لأنَّ ذلك إذْ كان يخفى على كثير من أهل مِلَّتهم ، فمحمد ﷺ وهو أُمِّيٌّ مِن غَير مِلَّتهم ، لَوْلا أنَّ الله أعلَمَه ذلك بِوَحْي مِن عِنده ، كان أحرى أن لا يَعلمه ، فكان ذلك له من أعظم الْحُجَّة عليهم بأنه نبيٌّ للهِ ﷺ إليهم ، لأن ذلك من أخبار أوائلهم ، كان مِن خَفِيِّ عُلومهم ، الذي لا يَعلمه غَير خَاصَّة منهم)) اهـ .

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٢٠) برقم (٣١٥٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وبالطبع لَم يَجرؤوا على الإتيان بالتَّوراة، لأنهم يَعلمون كَذِبَهم وتلاعبَهم ، وقد فَضَحَهم اللهُ ، وانكشفَ باطلُهم،وأُسْقِط في أيديهم.وقد أمرَ اللهُ محمدًا ﷺ أن يُحَاجِجَ اليهودَ بكتابهم (التَّوراة)، وأن يَكون هُوَ الْحَكَمَ بينهم . وهذا مُنتَهى الثِّقة باللهِ الذي يَعلم الأسرار. فالنبيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، ولَم يَدرس التَّوراةَ والإنجيل . وعِندما يُحَاجِج اليهودَ بكتابهم الذي يَعلمون ما فِيه ، فهذا دليلٌ واضحٌ على صِدْقِ القُرآنِ ، وصِحَّةِ نُبُوَّة محمد ﷺ .

ولوْ كان اليهودُ صادقين في زَعْمهم لأحضَروا التَّوراةَ، وأقاموا الْحُجَّةَ على النبيِّ ﷺ، وكشفوا للناسِ خطأ محمد لِيَعرف الناسُ أنَّهُ لَيس نَبِيًّا ، وتنتهيَ الدَّعوة الإسلامية . وهذا أكبر أحلام اليهود، ومُنتهَى آمالهم. لكنَّ هذا لَم يَحْدُثْ، وشَهِدوا على أنفسهم بالكذب ، وشَهِدوا للنبيِّ ﷺ بالصِّدْق، سواءٌ اعترَفوا بذلك أم لا .

لقد دَحَضَ اللهُ باطلَهم وأفحمَهم بكلمتَيْن : ﴿ فَأْتُوا بالتَّوراةِ ﴾ ، وهاتان الكلمتان تُشيران إلى منهج القُرآن في مُحَاجَجَة الخصوم ، والردِّ عليهم ، فهو منهجٌ راقٍ يَجمع بين الإيمان والعِلْم والْحُجَج والمنطق والبراهين ، بعيدًا عن الشتائم والثورةِ العاطفية والشعارات الفارغة والتحايل واللف والدَّوران. وقد فُوجِئوا بهذا الرَّد الْمُوجَز البليغ، وصُعقوا، وسيطرَ عليهم القلق والارتباك ، واختاروا الهروبَ من الموقف، وهذا دائمًا أسلوب العاجزين الذي يتساقطون أمام الْحُجَّة الدامغة ، ولا شَكَّ أنَّ الهروبَ مِنَ المواقف الحسَّاسة اعترافٌ بالهزيمة والخسارة .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النِّساء: ١٦٠].

يُخبِر اللهُ تعالى عن اليهود الذين ظلموا أنفسهم، وارتكبوا الذنوبَ الجسيمة ، فتم تحريم طيبات كانت حلالاً لهم كعقوبة وإجراء رادع . فقد حُرِموا الرزقَ الحلال بسبب غرقهم في المعاصي دون التفكير في التوبة والرجوع إلى الله تعالى . وكانوا كُلما ارتكبوا معصيةً ، عُوقِبُوا بتحريم شيء مِمَّا أُحِلَّ لهم . فالذنوبُ تُوصِد الأبوابَ أمام الإنسان ، وتجعل حياته محصورةً في زاوية ضيقة خانقة ، لا مكان فيها للتحرر والانطلاق، فتضيق عليه الأرضُ بما رَحُبت ، وينكمش صدرُه بحيث يصبح غير قادر على استيعاب الخير واحتضان المعروف . وهذه هي بداية النهاية المشتملة على الانكسار الكُلي الذي يضرب الفكر الإنساني ، فيجعل من المرء شبحًا لا وزن له ، وكائنًا مسخًا بلا هُوية ، لا يَعرف مسارَه، ولا يُدرِك مصيرَه . والمعاصي التي ارتكبها اليهودُ كانت سببًا في تحريم الطيبات التي كانت حلالاً لهم ، وذلك عقوبةً لهم على انحرافهم العَقَدي ، وسوءِ أخلاقهم. وهذا يدل على دور الذنوب في تحريم الحلال، وسلبِ التوفيق، وتحطيم الحياة .

وفي الآية، تَمَّ تقديم الظلم على التحريم ، لأن الظلم هو سبب التحريم ، وهو أصل المشكلة. و﴿ فَبِظُلْمٍ ﴾ للسَّببية ، والتنكير للتعظيم. أي : فبسبب ظُلْمٍ عظيمٍ ارتكبوه ، حَرَّمْنا عليهم طَيِّباتٍ كانت حلالاً لهم ، وليس بسبب آخَر . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٧٧) : ((وهذا التحريم قد يكون قَدَرِيًّا ، بمعنى أنه تعالى قيَّضهم لأن تأوَّلوا في كتابهم ، وحرَّفوا ، وبدَّلوا أشياء كانت حلالاً لهم ، فحرَّموها على أنفسهم تشديدًا مِنهم على أنفسهم ، وتضييقًا وتَنَطُّعًا. ويُحتمَل أن يكون شَرْعِيًّا ، بمعنى أنه تعالى حرَّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٣٦٢) : ((يعني بذلك جَلَّ ثناؤه : فَحَرَّمْنا على اليهود الذين نَقضوا ميثاقهم الذي وَاثَقوا ربهم ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءهم، وقالوا البُهتان على مريم ، وفعلوا ما وصفهم الله في كتابه ، طَيِّبَاتٍ مِن المآكِل وغَيرها ، كانت لهم حلالاً ، عُقوبةً لهم بِظُلمهم الذي أخبرَ اللهُ عنه في كتابه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تَعْتَدُوا ﴾ [المائدة:٨٧] (5).

هذا أمرٌ إلهيٌّ جليلٌ بعدم تحريم اللذائذ التي تشتهيها النَّفْس البشرية تقشُّفًا وتزهُّدًا ، وعدم تجاوز الشريعة في تحريم الحلال (جَعْل الحلال حرامًا) . ويجب امتثال حُكم اللهِ ، وعدم الاعتداء عليه بتجاوزه أو رفضه أو التحايل عليه . والحلالُ ما أحَلَّه الله ، والحرامُ ما حرَّمه اللهُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤١٠و٤١١) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ﴾ . في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن رجالاً من أصحاب النبيِّ ﷺ، مِنهم عثمان بن مظعون ، حَرَّموا اللحمَ والنساءَ على أنفسهم ، وأرادوا جَبَّ أنفسهم (قَطْعَها) ليتفرغوا للعبادة ، فقال رسول الله : " لَم أُؤمَر بذلك ". ونزلت هذه الآية ، رواه العَوفي

(٥) قال الطبري في تفسيره (٥/ ٩) : ((يعني بِ " الطيبات " اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إيَّاها، كالذي فعله القِسِّيسون والرُّهبان، فَحَرَّموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وحَبَسَ في الصوامع بعضُهم أنفسَهم، وساحَ في الأرض بعضُهم . يقول تعالى ذِكْرُه : فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك ، ولا تعتدوا حَدَّ اللهِ الذي حَدَّ لكم فيما أحلَّ لكم ، وفيما حَرَّم عليكم ، فَتُجاوِزوا حَدَّه الذي حَدَّه فَتُخالِفوا بذلك طاعته ، فإن الله لا يُحِبُّ مَن اعتدى حَدَّه الذي حَدَّه لِخَلْقه فيما أحلَّ لهم ، وحرَّم عليهم)) اهـ .

عن ابن عباس . وروى أبو صالح عن ابن عباس : قال كانوا عشرة ، أبو بكر وعمر وعليٌّ وابن مسعود وعثمان بن مظعون والمِقداد بن الأسود وسالم مَولى أبي حُذَيفة وسلمان الفارسي وأبو ذَر وعمَّار بن ياسر في دار عُثمان بن مظعون ، فَتَوَاثَقوا على ذلك ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ، فقال : " مَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي " ونزلت هذه الآية. قال السُّدي : كان سبب عَزْمهم على ذلك أن رسول الله ﷺ جلس يَوْمًا فلم يَزِدْهُم على التخويف ، فَرَقَّ الناسُ وبَكَوا ، فَعَزَمَ هؤلاء على ذلك، وحَلَفوا على ما عزموا عليه ، وقال عِكرمة : إن عليَّ بن أبي طالب وابن مسعود وعثمان ابن مظعون والمقداد وسالِمًا مَولى أبي حُذَيفة في أصحابه تَبَتَّلوا فجلسوا في البيوت،واعتزلوا النساء، ولَبِسُوا الْمُسوح ، وحَرَّموا طيبات الطعام واللباس ، إلا ما يأكل ويلبس أهلُ السِّياحة من بني إسرائيل ، وَهَمُّوا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فَنَزلت هذه الآية . والثاني أن رَجلاً أتى رسولَ الله ﷺ فقال: إني إذا أكلتُ من هذا اللحم أقبلتُ على النساء، وإني حَرَّمْتُه عليَّ ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثالث أن ضَيْفًا نزل بعبد الله بن رَواحة ، وَلَم يكن حاضرًا ، فلمَّا جاء قال لزوجته : هل أكل الضيفُ ؟ ، فقالت : انتظرتُك . فقال : حَبَسْتِ ضَيفي مِن أجلي ، طعامُكِ عليَّ حرام ، فقالت : وهو عليَّ حرام إن لَم تأكله ، فقال الضيف: وهو عليَّ حرام إن لَم تأكلوه ، فلمَّا رأى ذلك ابن رَواحة ، قال : قَرِّبي طعامَكِ ، كُلوا بسم الله . ثُمَّ غدا إلى النبيِّ ﷺ ، فأخبره بذلك ، فقال : أحسنتَ ، ونزلت هذه الآية)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: أن رَجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني إذا أَصبتُ اللحمَ انتشرتُ للنساء ، وأخَذَتْني شَهوتي ، فَحرَّمتُ عليَّ اللحمَ ، فأنزل اللهُ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (6).

إنَّ المنهجية الإسلامية في التعامل مع الشهواتِ البشرية ، والأشواقِ الإنسانية الساعية إلى اللذة والمتعة ، مبنيةٌ على الوسطية بلا إفراط ولا تفريط . فالإسلامُ لَم يجئْ لِيَستأصل الشهواتِ والغرائز ويحظر الاستمتاع بالحلال ، وإنما قام بتنظيم الشهوات وجعلها في نِصابها الصحيح ، بحيث يحصل الفردُ على متعته بالحلال ، وتكون هذه المتعةُ حافزًا له على استقبال أيامه بحيوية من أجل إعمار الأرض وإصلاحِ المجتمع . والشَّهوةُ موجودة في الإنسان ، لأنَّ لها وظيفةً شريفةً ومُحدَّدة. وهذه الغريزةُ راقيةٌ، ولا تُصبح غريزةً حيوانية دُونِيَّة، إلا إذا تَمَّ وَضْعُها في الطريق الشَّاذ .

(٦) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٥٥) برقم (٣٠٥٤) وحسَّنه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٤١٢) : ((وفي قَوْله : ﴿ ولا تعتدوا ﴾ خمسة أقوال : أحدها لا تَجُبُّوا أنفسَكم (يعني لا تَقْطعوها) ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وإبراهيم . والثاني : لا تأتوا ما نهى اللهُ عنه ، قاله الحسن . والثالث : لا تَسيروا بِغَير سِيرة المسلمين مِن ترك النساء وإدامة الصيام والقِيام ، قاله عِكرمة ، والرابع : لا تُحرِّموا الحلالَ، قاله مقاتل. والخامس : لا تَغْصِبُوا الأموالَ المحرَّمة ، ذَكَره الماوردي)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٢/ ١٠٢٢): عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: ((كُنَّا نغزو معَ رسول الله ﷺ ، لَيْسَ لنا نساء ، فقلنا : ألا نَستخصي ؟، فنهانا عن ذلك ، ثم رخَّص لنا أن نَنْكِحَ المرأةَ بالثَّوْبِ إلى أجَل))، ثم قرأ عبد الله:((﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾)) .

وهنا تتجلى رحمة الشريعة الإسلامية بالناس، ومنعهم من تعذيب أنفسهم، أو إيرادها المهالك. فقد نهى النبيُّ ﷺ عن الخِصَاء (قَطْع الذَّكَر أو نَزْع الْخُصْيَتَيْن). وفي الحلال ما يُغني عن الحرام، وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرَج لا إحراج الناس . وإن الأمر كلما ضاق اتَّسع . وقد جاءت الشريعةُ لتحقيق مصالح العباد ، وتنظيم حياتهم عبر توجيه الشهوات في طريقها الصحيح الذي لا يُفضي إلى مشكلات اجتماعية تقصم العمودَ الفِقري للجماعة الإنسانية .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١١٩) : ((نَهْيُ تحريمٍ بلا خلاف في بني آدم .. وفيه أيضًا من المفاسد تعذيب النَّفْس ، والتَّشويه مع إدخال الضَّرر الذي قد يُفضي إلى الهلاك ، وفيه إبطال معنى الرجولية ، وتغيير خَلْق الله ، وكُفْر النِّعمة ، لأن خلق الشخص رَجلاً مِنَ النِّعَم العظيمة ، فإذا أزالَ ذلك فقد تشبَّهَ بالمرأة)) اهـ .

وقَوْله : " ألا نستخصي ؟ " دليلٌ على أن نِكاح المتعة كان محظورًا في الغَزْو ، فلو كان مُبَاحًا لم يكن لهذا السؤال معنى . وقد حصل الترخيص بِنِكاح المرأة بالثوب أو أي شيء مِمَّا يحدث به التراضي إلى أجلٍ في نكاح المتعة . وظاهر استشهاد ابن مسعود بالآية يُوحي بأنه يرى جواز نكاح المتعة . وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن نَسْخَ الْحُكْم لَم يَبْلُغْه في تلك الساعة، وحين عَلِمَ به رجع عنه . عِلْمًا بأن مفهوم الطَّيِّبات يحدده الشارعُ. فنكاحُ المتعة حين كان مُباحًا كان طَيِّبًا، وعندما تَمَّ تحريمه صار خبيثًا . فالنصوصُ الشرعية هي التي تكشف مستوى الشيء من حيث نَفْعه وضَرَره . وقد جاءت الشريعةُ تُراعي الحاجاتِ البشرية في الظروف المختلفة ، فترفع عن الناس الحرجَ ، ولا تحشرهم في الزاوية . كما أن التَّدرج منهجيةٌ إسلامية. فمثلاً كان تحريم

الخمر على دفعات ضمن سياق تدريجي، ونكاحُ المتعة صار محرَّمًا بعدما كان مُباحًا.وهذا كُلُّه مُراعاة للحاجات البشرية ، وعدم اضطرار الناس إلى الدرب الضيق، أو التضييق عليهم وتحميلهم فوق ما يحتملون. فاللهُ تعالى هو خالق النَّفْس البشرية، ويَعلم مُدْخَلاتِها ومُخْرَجَاتِها، ويَعلم ما يُصْلِحُها وما يُفْسِدها .

وعن مسروق قال : أُتِيَ عبد الله [يعني ابن مسعود] _ رضي الله عنه_ بِضَرْعٍ، فقال للقوم : ((ادْنُوا))، فأَخذوا يَطعمونه، وكان رَجلٌ منهم في ناحية ، فقال عبد الله : ((أُدْنُ)) ، فقال : إني لا أُريده،فقال:((لِمَ ؟))، قال: لأني حَرَّمْتُ الضَّرْعَ، فقال عبد الله:((هذا مِن خُطواتِ الشيطان))، فقال عبد الله : ((﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أُدْنُ فَكُلْ ، وكَفِّرْ عن يمينكَ ، فإن هذا من خطوات الشيطان)) [7].

هذا الانحرافُ في قضية التحليل والتحريم مرجعه إلى اجتهاد بشري قاصر يتلاعب به الشيطان، فيذهب إلى تزيين الأمر، وإلباسه لِبَاس التقوى والصلاح. وهو بعيدٌ كل البُعد عن ذلك. ولا أحد يملك التحليل والتحريم إلا واضع الشريعة _ سبحانه وتعالى _ ، فهو أعلمُ بالإنسان من نَفْسه . كما أن قضية التحليل والتحريم جاءت لتحقيق مصلحة الإنسان والمجتمع ، حتى لو غابت الحكمةُ عن الأذهان . فاللهُ تعالى لَم يخلق الناسَ ليُعذِّبهم ، أو يُضيِّق عليهم . وكلُّ مَن حرَّم على نَفْسه شيئًا فلا عِبرة بتحريمه ولا معنى له . فالإنسانُ لا يملك حقَّ التشريع (التحليل والتحريم) ، وعليه أن يُهمِل خطواتِ الشيطان، ولا يَتبعها. وقال الشاطبي في الاعتصام(١/ ٢٥١): ((وعلى ذلك جَرَت الفُتيا في الإسلام: إنَّ كُلَّ مَن حَرَّم على نفْسه شيئًا مِمَّا أحلَّ اللهُ له ، فليس ذلك التحريم بشيء ، فليأكل إن كان مأكولاً ، وليشربْ إن كان مشروبًا ، وليلبس إن كان ملبوسًا ، وليملك إن كان مملوكًا . وكأنه إجماع منهم منقول عن مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم)) اهـ. والشيطانُ يحاول جاهدًا أن يُوقِع الإنسانَ في دائرة تحليل الحرام وتحريمِ الحلال ، كي يبتعد عن تعاليم الشريعة ، ويسقط في أحكامه العقلية القاصرة ، وأهوائه المتضاربة . مِمَّا يؤدي إلى غياب المرجعية الشرعية في أحكام الحلال والحرام عن قلب الإنسان ، فيغدو تائهًا خاضعًا لِنَزواته وقراراته الشخصية النابعة من فهمٍ قاصر بعيد عن التعاليم الإيمانية السَّمحة التي تُوسِّع على الناس . لكنَّ البعض لا يرتاح إلا إذا ضَيَّق على نفْسه وحَشَرها في الزاوية ، واضْطَرَّها

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٣) برقم (٣٢٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إلى أضْيَق السُّبُل . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَكُلوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إن كُنتم بآياتِهِ مُؤمنين ﴾ [الأنعام:١١٨] (8). الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين: فَكُلوا مِمَّا ذُكِر اسم الله عليه مِن الذبائح . يعني : كُلوا مِمَّا ذُبِحَ على اسم الله وَحْدَه ، لا مِمَّا ذُكِر عليه اسم غَيْره ، أو كانَ مَيْتة . إن كُنتم مُصدِّقين بأوامر الله وأحكامه وآياته . والإيمانُ يَقتضي تحليل ما أحلَّ اللهُ وإتيانه ، وتحريم ما حرَّم اللهُ واجتنابه . والآيةُ تأمرُ بِذِكر اسم الله وَحْدَه لا شريك له عند الذبح .

وروى الترمذي في سُننه (٥/ ٢٦٣) وقال : حسن غريب ، عن عبد الله بن عباس قال : أتى أناسٌ النبيَّ ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، أنأكلُ ما نَقتل ، ولا نأكل ما يَقتل اللهُ ؟ . فأنزلَ اللهُ : ﴿ فَكُلوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إن كُنتم بآياتِهِ مُؤمنين ﴾ ... .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٣٢٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ وعباده المؤمنين به وبآياته : ﴿ فَكُلوا ﴾ أيها المؤمنون مِمَّا ذَكَّيْتُم مِن ذبائحكم وذبحتموه الذبح الذي بَيَّنْتُ لكم أنه تَحِلُّ به الذبيحة لكم ، وذلك ما ذَبَحَه المؤمنون بي مِن أهل دِينكم دِين الحق ، أو ذَبَحَه مَن دَان بتوحيدي مِن أهل الكتاب، دُون ما ذَبَحَه أهل الأوثان،ومَن لا كتاب له مِن المجوس ﴿ إن كُنتم بآياتِهِ مُؤمنين ﴾ . يقول : إن كُنتم بِحُجَج الله التي أتتكم وأعلامه بإحلال ما أحللتُ لكم ، وتحريم ما حَرَّمْتُ عليكم مِن المطاعِم والمآكِل ، مُصَدِّقين . وَدَعُوا عنكم زُخْرُف ما تُوحيه الشياطين بعضها إلى بعض مِن زُخْرُف القَول لكم ، وتلبيس دِينكم عليكم غُرورًا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مِمَّا لَم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وإنَّهُ لَفِسْق ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

ولا تأكلوا أيها المؤمنون مِن الذبائح التي ذُبِحَتْ لغير الله ، أو ذُكِرَ عليها اسم غَير الله . وإن الأكل مِنها معصية كبيرة ، وإثم عظيم ، وخروج عن طاعة الله تعالى ، ومُخالَفة للحق والدِّين . وذلك لأن الذبح عبادة، والعبادةُ لا تكون إلا لله وَحْدَه، لأنه الْمُنفرِد بالأُلوهية والمستحق للعبادة.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١١٤و١١٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مِمَّا لَم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ﴾ . سبب نزولها مُجادَلة المشركين للمؤمنين في قَولهم : أتأكلون مِمَّا قتلتُم ، ولا تأكلون ما قَتل اللهُ ؟، على ما ذَكَرْنا في سبب قَوله تعالى : ﴿ فَكُلوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ﴾

---

(٨)قال ابن الجوزي في زاد المسير(١١٢/٣):((قَوله تعالى: ﴿ فَكُلوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ﴾ سبب نزولها أن الله تعالى لَمَّا حَرَّم الْمَيْتَة قال المشركون للمؤمنين:إنكم تَزْعُمون أنكم تَعبدون اللهَ، فما قَتل اللهُ لكم أحق أن تأكلوه مِمَّا قتلتم أنتم.يُريدون الميْتة.فَنَزلت هذه الآية، رواه أبوصالح عن ابن عباس)).

هذا قول ابن عباس . وقال عِكرمة : كَتبت فارس إلى قُرَيش إن محمدًا وأصحابه لا يأكلون ما ذبحه الله ، ويأكلون ما ذبحوا لأنفسهم ، فكتب المشركون إلى أصحاب النبيِّ ﷺ بذلك ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين مِن ذلك شيء ، فنزلت هذه الآية . وفي المراد بما لَم يُذكَر اسم الله عليه ، أربعة أقوال: أحدها أنه الْمَيْتَة ، رواه ابن جُبَير عن ابن عباس. والثاني أنه الْمَيْتَة والْمُنْخَنِقَة ، إلى قَوله : ﴿ وما ذُبِحَ على النُّصُب ﴾ [المائدة : ٣] . رُوِيَ عن ابن عباس. والثالث أنها ذبائح كانت العرب تذبحها لأوثانها ، قاله عطاء . والرابع أنه عام فِيما لَم يُسَمَّ الله عند ذَبْحه . وإلى هذا المعنى ذهب عبد الله بن يزيد الْخَطْمي ، ومحمد بن سيرين)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٧) : ((اسْتُدِل بهذه الآية الكريمة : ﴿ ولا تأكلوا مِمَّا لَم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وإنَّهُ لَفِسْق ﴾ مَن ذهب إلى أن الذبيحة لا تَحِل إذا لَم يُذكَر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مُسْلِمًا . وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فمنهم مَن قال : لا تَحِل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسَواءٌ متروك التسمية عمدًا أو سَهْوًا ، وهو مرويٌّ عن ابن عمر ونافع مَولاه وعامر الشَّعبي ومحمد بن سيرين ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، وهو اختيار أبي ثَوْر وداود الظاهري ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي من مُتأخِّري الشافعية في كتابه [الأربعين]واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية... . ثُمَّ قد أكَّد في هذه الآية بِقَوله: ﴿ وإنَّهُ لَفِسْق ﴾ والضمير قِيل : عائد على الأكل، وقِيل: عائد على الذبح لغير الله... . والمذهب الثاني في المسألة : أنه لا يُشترَط التسمية ، بل هي مستحبة ، فإن تُرِكت عمدًا أو نسيانًا لا يضرُّ، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل ، نُقِلت عنه ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ونصَّ على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحُكِيَ عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح والله أعلم . وحَمَلَ الشافعيُّ الآية الكريمة : ﴿ ولا تأكلوا مِمَّا لَم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وإنَّهُ لَفِسْق ﴾ على ما ذُبِحَ لغير الله ... . وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي . المذهب الثالث في المسألة : إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانًا لَم يَضُر، وإن تركها عمدًا لَم تَحِل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه : وهو محكي عن عليٍّ وابن عباس وسعيد بن المسيِّب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن)) اهـ .

ثانيًا : وُجوب الصِّيام وما أعَدَّه اللهُ للصائمين

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الذينَ مِن قَبْلِكُم لعلكم تَتَّقُون ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ بصوم رمضان الذي هو الإمساك عن كافة الْمُفَطِّرات مَعَ النية مِن طُلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس .

يا أيُّها الذينَ صَدَّقوا بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ محمد ﷺ ، فُرِضَ عليكم الصيام ، كما فُرِضَ على الأمم قبلكم مِن حَيث الكيفية لا القَدْر . والتَّشبيه في أصل الوجوب لا في قَدْر الواجب . وهذا تأكيدٌ لعبادة الصِّيام، وترغيبٌ فِيها، وتشجيعٌ للمؤمنين على الصِّيام، لِتَتَّقوا المعاصي ، وتجتنبوا الذنوب ، وتبتعدوا عن الآثام . والصِّيامُ هو الطريق الموصِل إلى التقوى ، إذْ إنه يَكسر شَهوة النَّفْس ، ويَكُفُّها عن اتِّباع هَواها ، ويَمنعها من المعاصي والآثام .

وفي الصيام تنقيةٌ للقلب ، وتطهيرٌ للجسد، وتهذيبٌ للأخلاق، وتضييقٌ لمسالك الشيطان، وكسرٌ للشَّهوة، وهذا كُله يُؤدي إلى ترك المعاصي . والشَّهوةُ هي أساس المعصية ومَبْدَؤها .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨٩) : ((يقول تعالى مُخَاطِبًا للمؤمنين مِن هذه الآية ، وآمِرًا لهم بالصِّيام ، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوِقاع (الجِماع) بنية خالصة لله عَزَّ وَجَلَّ ، لِمَا فيه مِن زَكاة النفوس ، وطهارتها ، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة ، والأخلاق الرذيلة ، وَذَكَرَ أنه كما أوجبه عليهم ، فقد أوجبه على مَن كان قبلهم ، فلهم فيه أُسوة ، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفَرْض أكمل مِمَّا فعله أولئك)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٤) : ((الصِّيام في اللغة الإمساك في الجملة . يُقال: صامت الخيل إذا أمسكت عن السَّير، وصامت الريح إذا أمسكت عن الهبوب. والصَّوم في الشرع عبارة عن الإمساك عن الطعام والشراب والجِماع مع انضمام النِّية إليه. وفي الذين مِن قَبْلنا ثلاثة أقوال: أحدها أنهم أهل الكتاب، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وهو قول مجاهد. والثاني أنهم النصارى،قاله الشَّعبي والربيع.والثالث أنهم جميع أهل المِلَل،ذَكَرَه أبو صالح عن ابن عباس)) اهـ .

وفوائد الصيام لا يمكن حصرها ، فهي تشتمل على تهذيب النفس ، وتطهيرها من الآثام والشوائب والأخلاق السيئة ، وتضييق مسالك الشيطان عبر قطع الشهوة . فالصيامُ نظامٌ دِينيٌّ ودُنيوي ينتشل الفرد مِن مستنقع الماديات الروتينية لِيُعيد صناعته من جديد وَفْقَ منظور إيماني .

ومفهومُ الصيام أكبر من قضية الامتناع عن الطعام والشراب . إنه بناءٌ روحي يعيد الفردَ إلى إنسانيته ، وإنتاجٌ للقيم الإنسانية والحضارية خارج إطار النمط الاستهلاكي الروتيني الفَج .

وقد أرشدَ النبيُّ ﷺ الشبابَ غَير القادرين على الزواج إلى أهمية الصيام وضرورته ، لأنه قاطعٌ للشَّهوة ، ووقاية من الوقوع في الحرام، فقال:((يا مَعْشَرَ الشباب، مَن استطاعَ الباءةَ فليتزوَّج، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصنُ للفَرْج ، وَمَن لَم يستطع فعليه بالصَّوم ، فإنه له وِجاء)) [9].

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٧٢و١٧٣) : ((قال أهل اللغة : المعشر هُم الطائفة... . والشبابُ جمع شاب، والشاب عند أصحابنا هو مَن بَلَغَ ولَم يُجاوِز ثلاثين سنة ... واختلف العلماء في المراد بالباءة هُنا على قَوْلَيْن يَرجعان إلى معنى واحد، أصَحُّهما أن المراد معناها اللغوي ، وهو الجِماع ، فتقديره : مَن استطاعَ منكم الجِماع لقدرته على مُؤَنه وهي مُؤَن النِّكاح فليتزوج ، ومَن لَم يستطع الجِماع لعجزه عن مُؤَنه ، فعليه بالصوم ليدفع شهوته ويقطع شَر مَنِيِّه كما يَقطعه الوِجاء ، وعلى هذا القول وقع الخطاب مع الشُّبان الذين هم مَظَنَّة شهوة النساء ، ولا ينفكون عنها غالبًا . والقول الثاني أن المراد هنا بالباءة مُؤَن النِّكاح، سُمِّيَت باسم مَا يُلازمها . وتقديره: مَن استطاعَ منكم مُؤَن النِّكاح فليتزوج، ومَن لَم يستطعها فَلْيَصُمْ ليدفع شهوته)) اهـ .

وفضل الصيام مشهور للغاية ، وقد ورد في ذلك نصوص شرعية كثيرة. وهذا غير مستغرب ، فهو أحد أركان الإسلام الخمسة . ومعلومٌ من الدين بالضرورة ، إذ إنه ثابتٌ في القرآن والسنة والإجماع . ومُنكِره كافر .

والصيامُ مدرسةٌ دينية وأخلاقية متكاملة ، فلا يمكن حصره في دائرة الطعام والشراب . والنظرُ إلى ماهية العبادات والحكمة منها وما يترتب عليها من مبادئ وسلوكيات ، ضروريٌّ للغاية إذا أردنا تكوين فهم أفضل للعقائد الدينية والعباداتِ وتطبيقاتها على أرض الواقع، وتصرفاتِ المؤمنين. فالدِّينُ الإسلاميُّ كُلٌّ لا يتجزَّأ . وهنا تتجلى عَظَمَة الإسلام في كَوْنه منظومة صالحة لكل زمان ومكان ، ونظامًا إصلاحِيًّا لكل عناصر الطبيعة بلا استثناء .

وعن أبي سعيد_ رضي الله عنه_ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:((مَن صَامَ يومًا في سبيل الله ، بَاعَدَ اللهُ وجهه عن النار سبعين خريفًا)) [10].

---

(٩) متفق عليه. البخاري(٥/ ١٩٥٠) برقم (٤٧٧٩)،ومسلم (٢/ ١٠١٨) برقم (١٤٠٠).

(١٠) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٤٤)برقم (٢٦٨٥)،ومسلم (٢/ ٨٠٨) برقم (١١٥٣).

مَن صَامَ يَوْمًا لله تعالى ، والتزمَ بآدابَ الصَّوم كاملةً ، ولَم يَرتكب أيَّة مُخالفة ، حَمَاه اللهُ مِن عذاب النار ، وباعدَ وجهه عنها سبعين سنة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٣٣): ((فيه فضيلة الصيام في سبيل الله ، وهو محمول على مَن لا يَتضرَّر بِه ، ولا يُفوِّت به حَقًّا ، ولا يَختل به قتالُه ، ولا غَيره من مهمات غَزْوه . ومعناه الْمُباعَدة عن النار ، والْمُعافاة منها ، والخريف السَّنة ، والمراد سبعين سنة)) اهـ .

مِن خلال آية الصيام يتَّضح أنه كان مفروضًا على أهل الكتاب الذين كانوا قبل أتباع الرسالة المحمدية الإسلامية . فالله تعالى يقول : ﴿ كما كُتب على الذين من قبلكم ﴾ ، في إشارة واضحة إلى أهل الكتاب . والجمهورُ على أن التشبيه واقع على نفْس الصَّوم ، لا صيام رمضان .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧٨): ((أمَّا قَوله : ﴿ كُتب ﴾ فمعناه فُرِض . والمراد بالمكتوب فيه اللوح المحفوظ. وأمَّا قَوله : ﴿ كما ﴾ فاخْتُلِف في التشبيه الذي دَلَّت عليه الكاف، هل هو على الحقيقة ، فيكون صيام رمضان قد كُتب على الذين مِن قَبْلنا ، أو المراد مُطْلَق الصيام دون وقته وقَدْره ؟ ... . وفي قَوله : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ إشارة إلى أن مَن قَبْلنا كان فَرْض الصوم عليهم مِن قَبيل الآصار والأثقال التي كُلِّفوا بها . وأمَّا هذه الأمة فتكليفها بالصوم ليكون سببًا لاتِّقاء المعاصي ، وحائلاً بينهم وبينها)) اهـ .

وقد مَرَّ الصيام بأطوار متعددة ضمن المنهجية الإسلامية في التدرج ، وإصدار الأحكام بشكل تدريجي على شكل خطوات، وذلك من أجل احتواء الناس بشكل مرحلي ، وعدم التضييق عليهم، أو نقلهم من طَوْر إلى طور آخر دون وجود استعداد نفْسي وجسدي لهذه النقلة . وكل تغيير يُصاحبه تطورات إنسانية واختلافات مجتمعية . والتغييرُ الفَوري بلا مُقدِّمات قد يكون مُدَمِّرًا .

وعن معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ قال: أمَّا أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة ، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام،وصيام يوم عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، فأنزلَ الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين من قبلكم ﴾ [البقرة: ١٨٣] إلى هذه الآية ﴿ وعلى الذين يطيقونه فِدْيةٌ طعامُ مسكين ﴾ [البقرة : ١٨٤] . فكان مَن شاء صام ، ومن شاء أطعمَ مسكينًا، فأجزى ذلك عنه . ثم إن الله أنزل الآية الأخرى﴿ شهرُ رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هُدًى للناس ﴾[البقرة :١٨٥] إلى قوله تعالى:﴿ فمن شهد منكم الشهرَ فليصمه ﴾ [البقرة : ١٨٥] . فأثبتَ اللهُ صيامه على الْمُقيم الصحيح ، ورخَّص فيه للمريض وللمسافر . وثَبَتَ الإطعامُ للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، فهذان حَوْلان . وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون

النساء ما لَم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ... . وكان عُمر قد أصاب من النساء من جارية أو حُرَّة بعدما نام، فأتى النبيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذلك له ، فأنزل الله :﴿ أُحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ [البقرة : ١٨٧] إلى قَوله : ﴿ ثم أتموا الصيامَ إلى الليل ﴾ [البقرة : ١٨٧] [11].

إن مشروعية الصيام مرَّت في أحوال متعددة لمراعاة أحوال المؤمنين ، والتسهيل عليهم ، وعدم حشرهم في الزاوية الضيقة . فالشريعةُ جاءت لرفع الحرَج ، وفتح الأبواب الشرعية أمام الناس لا إغلاق المنافذ عليهم . وعن عائشة_ رضي الله عنها _ قالت : كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يُفرَض رمضان ... . فلمَّا فَرض اللهُ رمضان ، قال رسول الله ﷺ : ((مَن شاء أن يصومه فليصمه ، ومن شاء أن يتركه فليتركه))[12].

كُل هذه النصوص تعكس أهمية الصيام ودوره المحوري في حياة المسلم ، حيث ينقل الأفرادَ والجماعات من الفوضى إلى الانضباط ، ومن خشونة الطباع إلى الأخلاق اللينة ، ومن سطوة الشهوة إلى الشهوة المنضبطة في المكان والزمان المناسبَيْن. ولا يمكنُ للمرء أن ينتصر على صعوباتِ حياته إلا إذا انتصر على نفْسه ، ولا يمكن للمرء أن يكون سَيِّدًا بين الناس وهو عبدٌ لشهواته . وكل العبادات إنما جاءت لانتشال الفرد من مستنقع الروتين الوظيفي الدنيوي الترابي ، وزراعته في قلب الفعل الاجتماعي المؤمن ، حيث تتجلى قِيَم خلافة الله في الأرض ، وإعمارها وَفْقَ الشريعة الإلهية الخالدة .

ولا يمكن إنكار دور العبادات في تنظيم الحياة الدنيا ، ونيلِ السعادة الأبدية في الآخرة . وكل هذا يعود على الفرد بالطمأنينة والاتزان النفسي والقوةِ المادية . فاللهُ تعالى هو خالق الإنسان، وأعلم به منه، ويَعرف سُبحانَه ما يُصلِح الإنسانَ وما يُفسِده . ولَم يتم تشريع العبادات للتضييق على الناس، وإنما شُرِعت لإنقاذ الإنسان ومنحه الخلود في الدارين: خلودُ ذِكره الطَّيب في الدنيا، وخلوده في الجنة في الآخرة .

إن العبادات صناعةٌ حقيقية للسلوك الإنساني، وإعادة القطار الاجتماعي المنحرف إلى السِّكة. والعباداتُ وُجِدت من أجل سعادة الناس أنفسهم. فالطاعاتُ لا تنفع اللهَ تعالى، والمعاصي لا تضرُّه.

---

(١١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٠١) برقم (٣٠٨٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٢) رواه البخاري (٢/ ٥٧٨) برقم (١٥١٥) واللفظ له،ومسلم (٢/ ٧٩٢) برقم (١١٢٥).

وحِين يقوم المرءُ بأداء العبادات على أكمل وجه فإنه يَشكر خالقه المنعِم عليه ، ويُجدِّد معه العهدَ والوعد . وإذا نظر المرءُ إلى نفْسه ومحيطه سيجد أنه غارق في النِّعَم الإلهية بلا حَصْر ، فعليه أن لا يبخل على نفْسه بأداء العبادات ، لأنها _ أولاً وأخيرًا _ وُجِدت لمصلحته ، وإنقاذه مِن مشكلات الحياة، وضِيق الصدر ، وتعب البال . وهي طَوْقُ النجاة الذي إذا ذهب قد لا يَعود.

وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله: كُلُّ عمل ابن آدم له ، إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أَجزي به ، والصيامُ جُنَّة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يَرْفُث ، ولا يَصْخَب ، فإن سَابَّه أحد أو قاتله ، فليقل : إني امرؤ صائم . والذي نَفْس محمد بيده ، لَخُلُوفُ فَم الصائم أطْيَبُ عِند الله مِن رِيح المِسك . للصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطرَ فَرِح ، وإذا لَقِيَ رَبَّه فَرِحَ بِصَومه))[13]. هذا الحديث يُقدِّم لنا منهجًا متكاملاً في فقه الصيام . فالصيامُ عبادةٌ خفية، لا يدخلها الرياء مُطْلَقًا لأنها متوارية عن أعين الناس . أمَّا باقي العبادات كالصلاة والحج _ مع فضلها الجليل _ فيمكن أن يدخلها الرياءُ والسُّمعة ، وحبُّ الظهور ، واستمالةُ عيون الناس، واستدعاءُ انتباههم ، فهي عبادات ظاهرية أمام عيون الناس وأسماعهم . أمَّا الصيامُ فَسِرٌّ بين العبد وخالقه تعالى، لا يَعلم وجودَه مِن عَدمه إلا الله تعالى. لذلك كان الصيامُ لله تعالى ، وهو يَجزي به.

---

(١٣) متفق عليه . البخاري(٢/ ٦٧٣) برقم (١٨٠٥) ، ومسلم (٢/ ٨٠٦) برقم (١١٥١) .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٢٩) : ((اختلف العلماء في معناه مع كَوْن جميع الطاعات لله تعالى ، فقيل : سبب إضافته إلى الله تعالى أنه لَم يُعبَد أحد غَير الله تعالى به ، فلم يُعظِّم الكفارُ في عصر من الأعصار معبودًا لهم بالصيام،وإن كانوا يُعظِّمونه بصورة الصلاة والسجود والصدقة والذِّكر وغير ذلك . وقيل : لأن الصوم بعيد من الرياء لخفائه بخلاف الصلاة والحج والغزو والصدقة وغيرها من العبادات الظاهرة . وقيل : لأنه ليس للصائم ونفْسه فيه حظ ، قاله الخطابي ، قال : وقيل إن الاستغناء عن الطعام من صفات الله تعالى، فتقرَّبَ الصائم بما يتعلق بهذه الصفة، وإن كانت صفات الله تعالى لا يُشبهها شيء . وقيل : معناه أنا الْمُنفرِد بِعِلم مِقدار ثوابه أو تضعيف حسناته ، وغيره من العبادات أظهرَ _ سُبحانه _ بعضَ مخلوقاته على مقدار ثوابها ، وقيل : هي إضافة تشريف)) اهـ .
[جُنَّة : وِقاية / يَرْفُث : مِن الرَّفَث ، وهو الكلام الفاحش ، ويُطلَق على الجِماع ومُقدِّماته ، وعلى ذِكره مع النساء / يَصْخَب : مِن الصَّخَب ، وهو الخِصام والصِّياح / الخُلُوف : تغيُّر رائحة الفم مِن أثر الصيام لِخُلُوِّ المعدة من الطعام] .

والصيامُ جُنَّة ، أي وقاية من الوقوع في المحرَّمات والشهوات والأخلاق القبيحة ، ومانعٌ من النار ، فَمَن صام يومًا لله تعالى باعدَ اللهُ النارَ عنه سبعين سنة . وعلى الصائم أن يبتعد عن الشهوة والصياح وكل الأخلاق الذميمة . وهذا أمرٌ شاملٌ في حال الصوم أو عدمه . والصيامُ سدٌّ منيع يحمي الإنسانَ من الغرق في الأخلاق الذميمة أو الانجرار إلى الخطايا المهلِكة. وهذه الحمايةُ الشاملة تجعل من الفرد كائنًا نورانيًّا يمكن تمييزه بين الناس بسبب صِفاته الحسنة المتفرِّدة ، فهو ليس إنسانًا عاديًّا أو عابرَ سبيل في هذه الحياة . إنه يملك بصمته الشخصية المؤثرة في مسار المجتمع الإنساني ومصيره . إنه ليس رَقْمًا هامشيًّا يُضاف إلى أعداد البشر، لأنه حاملُ الرسالة الإلهية إلى الناس ، سائراً على خطى النبيِّ ﷺ . وهذا هو التميز الحقيقي بلا غرور ولا تكبُّر ولا تطاوُل على الآخرين. وإن اعتدى أحدٌ على الصائم بشتمه أو مُدافعته ، فليقل : إني امرؤ صائم ، كَي يُذكِّر نَفْسَه ومَن حَوْلَه بأنه في حالة إيمانية سامية لا تقبل الشتم والمجادَلة والمقاتَلة . فالصائمُ لا يقع ضحية جهل السُّفهاء ، أو كلماتهم الاستفزازية .

أمَّا تَغَيُّرُ رائحة فم الصائم فهو يُؤذي مَن حَوْل الصائم لأنهم يستقذرونها ، لكنها عند الله تعالى أطْيَب مِن رِيح المِسك . والصائمُ له فرحتان : الأولى _ إذا أفطرَ فَرِح بِفِطْره ، فقد أطاع اللهَ تعالى ، وامتثل أمرَه، وأنهى يومَه على أحسن ما يُرام.وأيضًا يفرح بالطعام الطيب والشرابِ اللذيذ . والفرحة الثانية_ إذا لَقِيَ اللهَ فَرِحَ بثوابه العظيم ، ونعيمه الأبديِّ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٣٠و٣١):((قَوله ﷺ:(الصِّيام جُنَّة) هو، ومعناه سُترة ومانع من الرَّفَث والآثام ، ومانع أيضًا من النار ... . قَوله ﷺ : (فلا يَرْفُث يومئذٍ ولا يَسْخَب) هكذا هو هنا بالسِّين،ويُقال بالسِّين والصاد وهو الصياح، وهو بمعنى الرواية الأخرى: ولا يجهل ولا يرفث ، قال القاضي : ورواه الطبري ولا يَسْخَر بالراء ، قال : ومعناه صحيح ، لأن السُّخرية تكون بالقول والفعل ، وكُله من الجهل . قُلتُ : وهذه الرواية تصحيف وإن كان لها معنى. قَوله ﷺ: (وللصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح بِفِطره ، وإذا لَقِيَ رَبَّه فرح بصومه) . قال العلماء: أمَّا فرحته عند لقاء ربه فبما يراه مِن جزائه، وتَذَكُّر نِعمة الله تعالى عليه بتوفيقه لذلك، وأمَّا عِند فِطره فسببها تمام عبادته، وسلامتها من المفسِدات وما يرجوه من ثوابها)) اهـ .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (١/ ٤٢٤) : (((إذا كان يوم صوم أحدكم) فَرْضًا أو نَفْلاً (فلا يَرْفُث) أي لا يتكلم بِفُحش . قال أبو زُرعة: ويُطلَق في غير هذا المحل على الجِماع ومقدماته وعلى ذكره مع النساء ومُطْلَقًا ، (ولا يَجْهَل) أي لا يفعل خلاف الصواب مِن قول أو

فعل فهو أعم مِمَّا قبله ، أو لا يعمل بخلاف ما يقتضيه العِلم ، أو لا يقل قول أهل الجهل، والمراد أن ذلك في الصوم آكَد، وإن كان منهيًّا عنه في غيره أيضًا (فإن امرؤ شاتمه) أي شتمه امرؤ مُتعرِّضًا لِمُشاتمته (أو قاتله) أي دافعه ونازعه أو لاعنه مُتَعَرِّضًا لمثل ذلك منه فالْمُفَاعَلَة حاصلة في الجملة (فليقل) بلسانه (إني صائم) أي عن مكافأتك ، أو عن فِعل ما لا يرضاه مَن أصوم له ، بحيث يَسمعه الصائم . وجَمْعه بين اللسان والْجَنَان ـ القلب ـ أَوْلَى ، فَيُذَكِّر نفْسه بإحضاره صيامه بقلبه لِيَكُفَّ نَفْسَه، وينطق بلسانه، لِيَنْكَفَّ عنه خَصْمُه. قال ابن القَيِّم : أرشدَ إلى تعديل قُوى الشهوة والغضب وأن على الصائم أن يحتميَ من إفسادهما لِصَومه، فهذه تُفسِد صَومه، وهذه تُحبِط أجره)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أيَّامًا مَعْدُوداتٍ فَمَن كانَ مِنكُم مَريضًا أوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَرَ وعلى الذينَ يُطيقونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وأن تصوموا خَيْرٌ لكم إن كُنتم تَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين : كُتِبَ (فُرِضَ) عليكم الصيام أيَّامًا معدودات (عَدَدًا معلومًا) . والأيامُ المعدودات هي شهر رمضان . وقد رخَّص اللهُ للمريض والمسافر بالإفطار وعدم الصوم في حَالَتَي المرض والسَّفَر ، رحمةً بهما ، لِمَا في ذلك من التعب والمشقة والعَناء. يُفطِران، ثُمَّ يقضيان الأيام التي أفطرا فيهما ، في غَير أيام المرض والسَّفَر. والآيةُ: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَر ﴾ تدل على وجوب القضاء بدون تعيين وقت مُحدَّد. وعلى الذين يَستطيعون الصيام ويَقْدِرون عليه ـ إن أفطروا ـ فِدْيَةٌ، وهي إطعام مِسكين. وقد رخَّص اللهُ لهم في الإفطار في بداية فَرْض الصيام عليهم، لأنه اشتدَّ عليهم ، ولَم يتعوَّدوه ، ثُم نُسِخَ ذلك . ففي ابتداء الإسلام ، كان يَجوز لِمَن استطاعَ الصيام أن يُفطِر ، ويُطعِم عن كُل يوم أفطره مِسكينًا مُدًّا مِن طعام . وقد نُسِخَ ذلك بِقَوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ . فَمَن زادَ في الفِدية على مُد واحد ، فهو أفضل وأحسن وخَيْرٌ له ، والصِّيامُ خَيْرٌ لكم أيها الْمُطِيقون مِن الفِدية، إن كُنتم تَعْرَفون عَظَمَة الصَّوم وفضله الكبير وأجره العظيم. وإذا كُنتم مِن أهل العِلم والمعرفة عرفتُم أن الصِّيام أفضل وأحسن وخَيْرٌ لكم مِن الإفطار والفِدية . وهذا إنما كان قبل النَّسْخ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٩٦) : ((قِيل : المراد مِن قَوله : ﴿ أيَّامًا مَعْدُوداتٍ ﴾ شهر رمضان ، وهي غَير مَنسوخة . ونَصْب ﴿ أيَّامًا ﴾ على الظرف ، أي : في أيام معدودات . وقِيل : على التفسير، وقِيل: على هو خَبر ما لَم يُسَمَّ فاعله.﴿ فَمَن كانَ مِنكُم مَريضًا أوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ ﴾

أي: فأفطرَ فَعِدَّة ﴿ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أي : فعليه عِدَّة ، والعدد والعِدَّة واحد ، ﴿ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أي: غَير أيام مَرَضه وسَفَره،و﴿ أُخَرَ ﴾ في موضع خفض،لكنها لا تنصرف، فلذلك نُصِبَت. قَوله تعالى : ﴿ وعلى الذينَ يُطيقونَهُ ﴾ . اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وحُكمها ، فذهب أكثرهم إلى أن الآية مَنسوخة، وهو قول ابن عمر وسَلَمة بن الأكوع وغيرهما، وذلك أنهم كانوا في ابتداء الإسلام مُخَيَّرين بين أن يَصوموا وبين أن يُفطِروا ويفدوا . خَيَّرهم اللهُ تعالى لئلا يَشُقَّ عليهم ، لأنهم كانوا لَم يَتعوَّدوا الصَّوم ، ثم نُسِخ التخيير ، ونزلت العزيمة بِقَوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ . وقال قتادة : هي خاصة في حق الشيخ الكبير الذي يُطيق الصَّوم ، ولكن يَشُق عليه، رُخِّصَ له في أن يُفطِر ويفدي ثُم نُسِخ . وقال الحسن : هذا في المريض الذي به ما يقع عليه اسم المرض ، وهو مُستطيع للصوم ، خُيِّرَ بين أن يصوم وبين أن يُفطِر ويَفديَ ، ثم نُسِخ بِقَوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ . وثبتت الرُّخصة للذين لا يُطيقون . وذهب جماعة إلى أن الآية مُحْكَمَة غير منسوخة ، ومعناه : وعلى الذين كانوا يُطيقونه في حال الشباب فعجزوا عنه بعد الكِبَر ، فعليهم الفِدية بدل الصوم ... . قَوله تعالى : ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ ، أضافَ الفِدية إلى الطعام ، وإن كان واحدًا لاختلاف اللفظين ... . والفِدية : الجزاء . ويجب أن يُطعِم مكان كل يوم مسكينًا مُدًّا مِن الطعام ، بِمُدِّ النبيِّ ﷺ ، وهو رطل وثلث مِن غالب قُوت البلد ، هذا قول فقهاء الحجاز . وقال بعض فقهاء أهل العراق : عليه لكل مسكين نِصف صَاع لكل يوم يُفطِر . وقال بعضهم : نِصف صاع من القمح أو صاع مَن غيره ، وقال بعض الفقهاء : ما كان الْمُفطِر يَتَقَوَّته يَوْمَه الذي أفطرَه ، وقال ابن عباس : يُعطِي كُل مسكين عَشاءه وسَحُوره . ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ ، أي : زاد على مِسكين واحد ، فأطعمَ مكان كل يوم مسكينين فأكثر ، قاله مجاهد وعطاء وطاووس. وقِيل: مَن زاد على القَدْر الواجب عليه ، فأعطى صاعًا، وعليه مُد فهو خير له . ﴿ وأن تصوموا خَيْرٌ لكم ﴾ ، فَمَن ذهب إلى النَّسْخ، قال : معناه الصوم خَير له مِن الفِدية، وقِيل : هذا في الشيخ الكبير لو تَكَلَّفَ الصوم وإن شَق عليه خير له مِن أن يُفطِر ويَفديَ ، ﴿ إن كُنتم تَعْلَمُون ﴾ . واعلم أنه لا رُخصة لمؤمن مُكَلَّف في إفطار رمضان إلا لثلاثة : أحدهم يجب عليه القضاء والكَفَّارة ، والثاني عليه القضاء دُون الكفارة ، والثالث عليه الكفارة دُون القضاء . أمَّا الذي عليه القضاء والكفارة ، فالحامل والْمُرضِع إذا خافتا على ولديهما ، فإنهما تُفطِران وتَقضيان، وعليهما مع القضاء الفِدية ، وهذا قول ابن عمر وابن عباس، وبه قال مجاهد، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله . وقال قَوم : لا فِدية عليهما ، وبه قال الحسن وعطاء وإبراهيم

النَّخعي و الزُّهري ، وإليه ذهب الأوزاعي والثوري وأصحاب الرأي. وأمَّا الذي عليه القضاء دُون الكفارة فالمريض والمسافر والحائض والنُّفَساء. وأمَّا الذي عليه الكفارة دُون القضاء، فالشيخ الكبير، والمريض الذي لا يُرجَى زوال مرضه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ شَهْرُ رَمضانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى للناسِ وبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى والفُرقانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كانَ مَرِيضًا أوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكُم ولعلكم تَشْكُرُون ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

لقد شَرَّفَ اللهُ شَهرَ رمضان، وذلك بأن أنزلَ فيه القرآنَ أعظمَ الكتب السماوية لهداية الناس بما فيه مِن الإعجاز الباهر ، والْحُجَج الساطعة ، والأخبار الصادقة ، والأحكام الجليلة التي تَدحض الباطل ، وتُبْرِز الحقَّ . وهذا يدل على عَظَمَة شهر رمضان ، وتميُّزه عن باقي الشُّهور . وقد نَزَلَ القُرآنُ جُملةً واحدةً إلى بيت العِزَّة في السماء الدُّنيا ، ثُمَّ نزل مُفَرَّقًا حَسَبَ الأحداث والوقائع على النبيِّ ﷺ .

والشَّهْرُ مُشتقٌّ مِنَ الإشهار ، فهو مُشْتَهِرٌ يَعلمه كُلُّ الناس ، ولا يَخفَى على أحد . أمَّا رمضان فمأخوذ مِنَ الرَّمضاء (الحجارة الْمُحَمَّاة) ، وقد كانوا يَصومونه في الْحَرِّ الشديد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٧) : ((ويُقال : شهر رمضان مِن شِدَّة الْحَرِّ ، لأنهم لَمَّا نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سَمَّوْها بالأزمنة التي وَقَعَتْ فِيها ، فوافقَ هذا الشهرُ أيامَ رَمَضِ الْحَرِّ (شِدَّته)، وَيُجْمَع على رَمَضَانات وأرْمِضاء وأرْمِضة)) اهـ .

وسُمِّيَ القُرآنُ قُرآنًا لأنه يَجمع السُّوَرَ والآياتِ وما فِيها من الثواب والعِقاب ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وأخبار الأمم الغابرة ، وأحوال الدنيا والآخرةِ .

وعن وَاثِلة بن الأسْقَع أن رسول الله ﷺ قال : ((أُنزِلَتْ صُحُفُ إبراهيم عليه السلام في أوَّل لَيْلةٍ مِن رمضان ، وأُنزلت التوراةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِن رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خَلَتْ مِن رمضان ، وأُنزِلَ الفُرقانُ لأربع وعشرين خَلَتْ مِن رمضان)) (14).

---

(١٤) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٠٧) برقم (١٧٠٢٥) . وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٤٦٥) : ((رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عمران بن داود القطان ، ضعَّفه يحيى ، ووَثَّقه ابن حبان، وقال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث . وبقية رجاله ثقات)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٧) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه أُنزِلَ القرآنُ فيه جُملةً واحدةً ، وذلك في لَيْلة القَدْر إلى بَيْت العِزَّة مِنَ السماء الدُّنيا ، قاله ابن عباس . والثاني أن معناه أنَّه أُنزِلَ القُرآنُ بِفَرْضِ صِيامه ، رُوِيَ عن مجاهد والضَّحاك . والثالث أن معناه إن القرآن ابْتُدِئَ بِنُزوله فيه على النبيِّ ﷺ ، قاله ابن إسحاق وأبو سليمان الدمشقي)) اهـ . ﴿ وبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى والفُرقانِ ﴾ . وَدلائل وبراهين وحُجَج تدل على وَحدانية الله ، وصِدق القُرآن ، تَهْدي إلى طريق الحق والرَّشاد ، وتُفرِّق بين الحلال والحرام . وهذا مدحٌ إلهيٌّ للقُرآن ، فهو ﴿ هُدًى للناسِ ﴾ مِن الضَّلال والانحراف ، ﴿ وبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى ﴾ ودَلالات واضحة مِن الحلال والحرام والحدود والأحكام ، ﴿ والفُرقانِ ﴾ أي : الفارق بين الحق والباطل . ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ . فَمَن شَهِدَ شهر رمضان وهو مُقيم وصحيح في بدنه ، فيجب عليه الصَّوم . ومَن شَهِدَه في السَّفَر ، فهو مُخيَّر ، إمَّا أن يصوم ، وإمَّا أن يُفطِر .
ووضعُ الْمُظْهَر ﴿ الشَّهْرَ ﴾ مَوضع الْمُضْمَر لتعظيم شهر رمضان وتفخيمه والْمُبالَغة في البيان.

﴿ وَمَن كانَ مَرِيضًا أوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَرَ ﴾ . ومَن كان مريضًا أو مُسافِرًا، فليُفطِر ، وعليه قضاء الأيام التي أفطرَ فيها في غَير أيام مرضه وسَفَره . وتَمَّت إعادة هذا الكلام ، لبيان أن هذا الْحُكم ثابت في الناسخ ثُبوته في المنسوخ . ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ . لقد رخَّص اللهُ لكم في الإفطار في حَالَتَي المرض والسَّفَر_مع وجوب الصَّوم على الْمُقيم الصحيح_ رحمةً بكم،ورفعًا للحَرَج، وإزالةً للمشقة والتعب. واليُسر هو إباحة الفِطر في المرض والسفر . ولَم يُشدِّد ، ولَم يُضيِّق عليكم . والشريعةُ الإسلاميةُ قائمة على الوسطية والتيسير والتسهيل ، بلا إفراط ولا تفريط . ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ﴾ . وَلِتُكْمِلُوا عِدَّةَ ما أفطرتم بالقضاء عِند الشفاء (زوال المرض) والإقامة (زوال السفر). ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكُم ﴾. يعني التَّكبير ليلة الفِطر إذا رُئِيَ هلال شَوَّال.وهو تعظيم الله على ما أرشدكم مِن الأحكام وشرائع الدِّين. ﴿ ولعلكم تَشْكُرُون ﴾ .ولعلكم تَشكرون اللهَ على نِعَمه الجليلة وآلائه الكثيرة. والشُّكر هو الطاعة.

إن إكمال العِدَّة إنما يكون بصيام شهر رمضان كاملاً . وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال : ((صُوموا لرؤيته ، وأفطِروا لرؤيته ، فإن غُبِّيَ عليكم ، فأكْمِلُوا عِدَّةَ شَعبانَ ثلاثين)) [15].

---

(١٥) متفق عليه. واللفظ للبخاري(٢/ ٦٧٤)برقم(١٨١٠).ومسلم (٢/ ٧٦٢) برقم (١٠٨١) .
[غُبِّيَ : مِن الغباوة ، وهي عدم الفِطنة ، وهو استعارة لخفاء الهلال وعدم ظُهوره] .

إذا أُخْفِيَ هلال شعبان بسبب الغيوم أو عدم وضوح الرؤية ، فيتم إكمال عِدَّة شعبان ، وهي ثلاثون يَوْمًا . وصَوْمُ يوم الشَّك (ثلاثين شعبان) منهيٌّ عنه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٩٠) : ((قَوله ﷺ : (صُوموا لرؤيته ، وأفطِروا لرؤيته) . المراد رؤية بعض المسلمين ، ولا يُشترَط رؤية كُل إنسان ، بل يكفي جميع الناس رؤية عَدْلَيْن ، وكذا عَدْل على الأصح ، هذا في الصَّوم ، وأمَّا الفِطر فلا يَجوز بشهادة عَدْل واحد على هلال شَوَّال عند جميع العلماء ، إلا أبا ثَوْر ، فَجَوَّزه بِعَدْل)) اهـ .

وبعد إكمال صيام شهر رمضان كاملاً ، يأتي التَّكبير ، فعلى المؤمن أن يُعظِّم اللهَ لأنه أرشده إلى الهدى والحق ، ووفَّقه لصوم شهر رمضان ، وخصَّ الأُمَّة المحمدية الإسلامية بهذا الشهر دُون سائر الأمم وأصحاب المِلَل . والمقصود بالتَّكبير هو تعظيم الله بالحمد والثناء عليه .

إن المؤمن يُعظِّم الله ويَحمده ويَشكره ، لأنه وفَّقه إلى صيام شهر رمضان ، وأعانه عليه . وقد كان السَّلَف الصالح يُكبِّرون اللهَ تعالى مِن ثبوت هِلال الفِطْر ، وهو هلال شَوَّال إلى انقضاء أيام العيد. والتَّكبيرُ هو تعظيم الله وإجلاله وتَنْزيهه عن النقائص والعُيوب . وعبارة " الله أكبر " تعني أن الله أكبر مِن كُل كبير ، وأعظم مِن كُل عظيم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٧و١٨٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ أي: مَن كان حاضرًا غير مسافر . فإن قِيل : ما الفائدة في إعادة ذِكر المرض والسَّفَر في هذه الآية ، وقد تقدَّمَ ذلك ، قِيل : لأن في الآية المتقدِّمة منسوخًا، فأعاده لئلا يكون مَقرونًا بالمنسوخ ... . قَوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضَّحاك : اليُسر الإفطار في السَّفر ، والعُسر الصوم فيه . وقال عمر بن عبد العزيز : أيُّ ذلك كان أيسر عليك فافعلْ ، الصَّوم في السَّفر أو الفِطر . قَوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ﴾ ... . وقال ابن عباس : وَلِتُكْمِلُوا عِدَّةَ ما أفطرتم . وقال بعضُهم : المراد به : لا تزيدوا على ما افْتُرِض كما فعلت النصارى ، ولا تنقلوه عن زمانه كما نقلته ، ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكُم ﴾ . قال ابن عباس : حَق على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شَوَّال أن يُكبِّروا اللهَ، حتى يَفْرُغُوا مِن عِيدهم . فإن قِيل : ما وجه دُخول الواو في قَوله : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ ﴾، وليس هناك ما يُعطَف عليه ، فالجواب أن هذه الواو عطفت اللام التي بعدها على لام محذوفة ، والمعنى : ولا يُريد بكم العُسر لِيُسعدكم وَلِتُكْمِلوا العِدَّة ، فَحُذِفَت اللام الأُولَى لِوُضوح مَعناها . ذَكَرَه ابن الأنباري .

ومِن السُّنة إظهار التكبير ليلة الفِطر وليلة النَّحْر ، وإذا غَدَوْا إلى المصلَّى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أُحِلَّ لكم لَيْلةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُم هُنَّ لِبَاسٌ لكم وأنتم لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أنكم كُنتم تَخْتَانونَ أنفُسَكُم فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنكُم فالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وابْتَغوا مَا كَتَبَ اللهُ لكم وَكُلوا واشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبيضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسودِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أتِمُّوا الصِّيامَ إلى الليلِ ولا تُبَاشِرُوهُنَّ وأنتم عَاكِفُونَ في المساجدِ تِلْكَ حُدودُ اللهِ فلا تَقْرَبُوها كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ للناسِ لعلهم يَتَّقُون ﴾[البقرة : ١٨٧] .

الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين : أُبِيحَ لكم في لَيلة الصيام الجِماع بعدما كان مَمنوعًا وحرامًا . واللهُ كريمٌ يُكنِّي. والمقصود بالرَّفَث هو الجِماع . وكلمةُ ﴿ أُحِلَّ ﴾ تدل على أنه كان حرامًا فَنُسِخ [16].

وقد كان في ابتداء الإسلام ، يَحْرُم الأكل والشُّرب والجِماع في ليالي الصَّوم بعد العِشاء ، فأحلَّ اللهُ ذلك كُلَّه إلى طُلوع الفجر .

أمَّا سبب نزول الآية ، ففي صحيح البخاري (٢/ ٦٧٦) : عن البراء رضي الله عنه قال : كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرَّجل صائمًا ، فحضرَ الإفطار ، فنام قبل أن يُفطِر لَم يَأكل لَيلته ولا يَوْمَه حتى يُمْسِيَ، وإن قَيْس بن صِرْمة الأنصاريَّ كان صائمًا ، فلمَّا حَضر الإفطارُ أتى امرأته ، فقال لها: أعندكِ طعام ؟ . قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يَوْمَه يعمل ، فغلبته عَيناه ، فجاءته امرأته، فلمَّا رَأَتْهُ قالت: خَيْبَةً لَك. فلمَّا انتصفَ النهارُ غُشِيَ عليه ، فَذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ ، فَنَزلت هذه الآية : ﴿ أُحِلَّ لكم لَيْلةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُم ﴾ . ففرحوا بها فرحًا شديدًا . ونزلت : ﴿ وَكُلوا واشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبيضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسودِ ﴾ .

لقد كانَ أصحاب محمد ﷺ وهو معهم يَفعلون ذلك أوَّلَ ما افترضَ اللهُ عليهم الصيام . وهذا الصحابي سأل زَوجته عن الطعام لِشِدَّة جُوعه وتعبه ، حيث كان يَعمل طيلة النهار . ولَم يكن لديهم طعام ، فَذَهبت زوجته تَبحث عنه . وعندما عادت وَجدت زوجها قد نامَ بسبب التعب

(١٦) قال ابن كثير في تفسيره (٢٩٨/١):((هذه رُخصة مِن الله تعالى للمسلمين ، ورَفْع لِمَا كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام،فإنه كان إذا أفطرَ أحدُهم إنما يَحِلُّ له الأكل والشُّرب والجِماع إلى صلاة العِشاء أو ينام قبل ذلك،فمتى نام أو صلى العِشاء حُرِّمَ عليه الطعام والشراب والجِماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا مِن ذلك مشقة كبيرة . والرَّفَثُ هنا هو الجِماع ، قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد ابن جُبَير وطاوس وسالم بن عبد الله وعمرو بن دينار والحسن وقتادة والزُّهري والضَّحاك وإبراهيم النَّخعي والسُّدي وعطاء الخراساني ومقاتل بن حَيَّان)) .

والإرهاق . فلمَّا رَأَتْهُ قالت : " خَيْبَةً لَك " ، يعني : حِرمانًا لَك . ويُقال : خابَ الرَّجل إذا لَم يَنَلْ ما طلبه . فلمَّا انتصفَ النهارُ أُغْمِيَ عليه ، وسَقط على الأرض ، بسبب الجوع والتعب الشديدين. وذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ ، فَنَزلت الرُّخصة الإلهية . وهذا يدل على رحمة الله بعباده ، وفضله عليهم .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لكم وأنتم لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ . هُنَّ سَكَنٌ لكم ، وأنتم سكنٌ لهنَّ . وكُلٌّ مِن الزَّوجين سَكَنٌ للآخر ، وسَتْر له ، وشديد الحاجة إليه ، ويَصعب الاستغناء عنه ، وهو يَمَسُّه ويُباشِره ويَلتصق بِه كاللباس. والتعبيرُ القُرآنِيُّ (التَّشبيه بالثَّوْب)يدل على التصاق الزَّوجين وامتزاجهما ووَحدة جسديهما ، بحيث يَصعُب الفصل بينهما ، كما يَصعُب الفصل بين الإنسان وثيابه. والرَّجل سكن للمرأة،والمرأة سكن للرَّجل، وكِلاهما يَتجرَّد مِن الثياب عِند النَّوم ، ويَجتمعان في ثَوب واحد، حتى يصير كُل واحد منهما لصاحبه كالثَّوب الذي يلبسه. وكُل واحد سَتْر للآخر ، حيث إن الجِماع يتم بِسِرِّية بعيدًا عن أنظار الناس . لذلك ، كانت النساءُ لِبَاسًا للرِّجال ، والرِّجال لِبَاسًا للنساء . وقد رخَّص اللهُ لهم في الجِماع في ليل رمضان لئلا يَشُقَّ عليهم ذلك ، ويَقعوا في الحرَج والضِّيق ، وتكثُر المشكلات الاجتماعية والأزمات الأسرية . والآيةُ تُبيِّن سبب إحلال الجِماع في ليالي الصِّيام، وهو شِدَّة الحاجة إلى النساء ، وقِلة الصبر عنهنَّ ، وكثرة مُخالطتهنَّ ، ويَشتمل كُل منهما على صاحبه ، لذلك شُبِّهَ باللباس .

﴿عَلِمَ اللهُ أنكم كُنتم تَخْتَانونَ أنفُسَكُم فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنكُم﴾. عِلْمُ اللهِ مُحيطٌ بكل شيء. لقد عَلِمَ اللهُ أنهم كانوا يَخونون أنفسَهم ، ويَظلمونها بتعريضها للعقاب ، ويُبعِدونها عن طريق الخير والصواب. أي: يُجامعون النساء، ويأكلون ، ويشربون ، في الوقت الذي كان يَحْرُم عليهم ذلك.

وكُل مَن عصى اللهَ وارتكبَ ذَنْبًا ، فقد خانَ نَفْسَه ، وظَلَمها ، وألحقَ بها الضَّرر ، وأوردها المهالك، وقادها إلى العقوبة والعذاب. وقد تابَ اللهُ عليهم ، وتجاوزَ عنهم ، ومَحا ذنوبهم ، وخفَّف عنهم بالرُّخصة ، ووسَّع عنهم بالإباحة، ولَم يُعاقبهم على تقصيرهم، فضلاً مِنه، وتَكَرُّمًا عليهم . لقد كانوا يَخونون أنفسهم بالجِماع في ليالي رمضان. وقد فَعل ذلك عُمر بن الخطاب ــ رضي اللهُ عنه ــ وغَيْرُه، ثُمَّ ندموا، وأَتَوْا رسولَ الله ﷺ يَسألونه ، فَنَزلت الرُّخصة ، وتَمَّ السَّماح والإباحة بذلك. والرُّجوعُ إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل، والاعتراف بالذَّنْب والنَّدم هُما رُكنا التَّوبة. والآيةُ تدل على عِناية الله بالصحابة وتَوفيقه لهم . لقد خَانَ عُمر بن الخطاب نَفْسَه ، ونَدِمَ على ذلك ، واعتذرَ لله ولرسوله ﷺ ، فتابَ اللهُ عليه ومَحا ذَنْبَه ، وجَعلها شريعةً ، وخفَّف عن الأُمَّة مِن أجل عُمر بن الخطاب ــ رضي اللهُ عنه ــ ، الذي كان سببًا في نُزول الرُّخصة .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٣٩) : عن البراء ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : لَمَّا نَزَلَ صوم رمضان ، كانوا لا يَقْرَبُون النِّساءَ رَمضانَ كُلَّه ، وكان رِجال يَخونون أنفسهم ، فأنزلَ اللهُ: ﴿ عَلِمَ اللهُ أنكم كُنتم تَخْتَانونَ أنفُسَكُم فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنكُم ﴾ .

وروى أبو داود في سُننه (١/ ٧٠٧) عن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : فكانَ الناس على عهد النبيِّ ﷺ إذا صَلُّوا العَتَمَةَ (العِشاء) حُرِّمَ عليهم الطعام والشراب والنساء ، وصاموا إلى القابلة ، فاختانَ رَجل نَفْسَه ، فجامعَ امرأته ، وقد صلى العشاء ، ولَم يُفْطِرْ ، فأرادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أن يَجعل ذلك يُسْرًا لِمَن بَقِيَ، ورُخصة، ومنفعة. فقال سُبحانَه: ﴿ عَلِمَ اللهُ أنكم كُنتم تَخْتَانونَ أنفُسَكُم ﴾ الآية . وكان هذا مِمَّا نَفع اللهُ به الناسَ ، ورَخَّصَ لهم ، ويَسَّرَ. ﴿ فالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وابْتَغوا مَا كَتَبَ اللهُ لكم ﴾ . فالآنَ (بعد الحِل والسَّماح وزوال المنع) ، جامعوهنَّ ، واطلبوا بِمُباشرتهنَّ وجِماعهنَّ ، ما أحَلَّه اللهُ لكم ، ورخَّص لكم فِيه ، مِن الاستمتاع بهنَّ ، وما قَدَّره لكم مِن الولد ، وقَسَمَه لكم مِن الرزق . والآيةُ تدل على أن الهدف مِن الجِماع والْمُبَاشَرَة يَنبغي أن يَكون لطلب ما قدَّره اللهُ وقرَّره في اللوح المحفوظ مِن الولد . وطلبُ الولد الصالح هو الغاية مِن خَلْق الشهوة الجنسية وتشريع النكاح ، وليس الْمُتعة المجرَّدة وقضاء الشهوة.

وَمِن الآنَ فصاعدًا ، جازَ لكم مُجامعتهنَّ في ليالي الصَّوم . وسُمِّيَ الجِماع مُبَاشَرَةً ، لتلاصق بشرة كُل واحد مِنهما لصاحبه . ﴿ وَكُلوا واشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبيضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسودِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أتِمُّوا الصِّيامَ إلى الليلِ ﴾ . وكُلوا واشربوا في ليالي الصَّوْم حتى يَتبيَّن لكم بياض النهار مِن سَواد الليل ، أي : يمتاز أحدهما عن الآخر ، وذلك لا يكون إلا عند دُخول وقت الفجر . وسُمِّيا خَيْطَيْن لأن كل واحد منهما يَبدو في الابتداء مُمْتَدًّا كالخيط.والتَّشبيهُ القُرآنِيُّ في غاية البيان والبلاغة والرَّوعة. وفي تَجويز الجِماع(الْمُبَاشَرَة)إلى الصُّبح دَلالةٌ على جَواز تأخير الغُسل إليه ، وصِحَّة صَوْم الشخص الذي أصبحَ جُنُبًا . والجديرُ بالذِّكر أن الفجر مأخوذ مِن تفجُّر الماء ، لأنه يَنفجر شيئًا بعد شيء . ﴿ ثُمَّ أتِمُّوا الصِّيامَ إلى الليلِ ﴾ . بيانٌ وتوضيحٌ لغاية الصِّيام (آخر وقته) . وغايةُ الصِّيام هي الليل ، فإذا أقبلَ الليل ، وأدبرَ النهار ، وغَرَبَت الشمس ، أفطرَ الصائم ، ويَحِل له الأكل والشُّرب وغَيرهما. والصِّيام عبادة ، والعبادة لا تَصِحُّ إلا بالنِّية ، ونِيَّةُ الصِّيام يجب أن تكون قبل الفجر . وقد جَعل اللهُ نهار رمضان للصِّيام ، وليلَ رمضان للأكل والشُّرب والجِماع، فلا يَجوز الخلط بين هذين الزَّمانين. والأمرُ في الآية يُفيد الوجوب. والآيةُ تُحدِّد نهايةَ الصِّيام ، وتَنْفي صِيام الوِصَال (مُواصلة الصيام) .

والصائمُ يَحْرُم عليه الطعام والشراب وغَيرهما ، بِطُلوع الفجر الصادق ، ويمتد إلى غروب الشمس ، فإذا غَرَبَتْ حَصل الفِطر ، يعني : انتهى وقت الصيام ، وحانَ وقت الفِطر .

والفَجْرُ هو ضَوء الصباح ، وهو حُمرة الشمس في سَواد الليل . والفَجْرُ فَجْران : كاذب وصادق . الفجرُ الكاذبُ يَطْلُع أولاً مُستطيلاً كَذَنَب السِّرحان (الذئب) ، ويصعد إلى السماء. وبِطُلوعه لا يَخرُج الليل ، ولا يَحْرُم الطعام والشراب على الصائم . ثُمَّ يغيب فَيَطْلُع بعده الفجر الصادق مُستطيرًا ، وينتشر سريعًا في الأفق . وبِطُلوعه يَدخل النهار ، ويَحْرُم الطعام والشراب على الصائم . وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال : ((الفَجْرُ فَجْرَان : فَجْرٌ يَحْرُمُ فيه الطعام ، وتَحِلُّ فيه الصلاة ، وفجرٌ تَحْرُمُ فيه الصلاة ، وَيَحِلُّ فيه الطعام))[17].

الفجرُ الصادق هو الذي يَحْرُم فيه الأكل والشُّرب للصائم ، وتَحِل فيه صلاة الفجر ، لأنه دَخل وقتُها. والفجرُ الكاذبُ هو الذي تَحْرُمُ فيه صلاة الفجر (لأنه لَم يَدخل وقتُها) ، ويَحِل فيه الأكل والشُّرب للصائم .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ((الفَجْرُ فَجْران : فأمَّا الفجرُ الذي يكون كَذَنَبِ السِّرحان ، فلا تَحِلُّ الصلاةُ فيه ، ولا يَحْرُمُ الطعام ، وأمَّا الذي يَذهب مُستطيلاً في الأفق فإنه يُحِلُّ الصلاةَ ، ويُحرِّم الطعامَ)) [18].

والعربُ تُسمِّي الفجرَ الكاذب (ذَنَب السِّرحان) ، والسِّرحان هو الذِّئب . والفجرُ الكاذبُ لا علاقة له بالأحكام الشرعية . وسُمِّيَ الفجرُ الكاذب بهذا الاسم ، لأنه يَبدو نورُه ثُمَّ يختفي ، ويَعْقُبه الظلام . وتَمَّ تشبيهه بِذَنَب الذِّئب لِطُوله ودِقَّته . وقِيل : لأن الضوء يكون في الأعلى دُون الأسفل ،كما أن الشَّعْر على أعلى ذَنَب الذئب دُون أسفله . والأحكامُ الشرعية مُتعلِّقة بالفجر الصادق الذي تَحِل بِه الصلاة ، وصِفته أنه يَذهب مُستطيلاً في الأفق . والفَجرُ الكاذب يكون كَذَنَب السِّرحان ، ثُمَّ يَذهب ، وتَعْقُبه ظُلمة ، فلا تَحِل صلاةُ الفجر فيه ، لأنه لَم يَدخل وقتُها ،

---

(١٧) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٠٤) برقم (٦٨٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٨) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٠٤) برقم (٦٨٨) . ورواه البيهقي في سُنَنه (١/ ٣٧٧) بإسناده ، وقال : ((رُوِيَ بهذا الإسناد مَوصولاً ، ورُوِيَ مُرْسَلاً ، وهو أصح)) اهـ . وقال ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ١٧٨) : ((والْمُرسَل الذي أشار إليه أخرجه أبو داود في المراسيل ، والدارَقُطني من حديث محمد بن عبد الرحمن بن ثَوْبان)) اهـ .

ولا يَحْرُم الأكل والشراب على الصائم. وأمَّا الفجرُ الصادق فَيَذهب مُستطيلاً في نواحي السماء ، ويُحِل صلاةَ الفجر لأنه دَخل وقتُها،ويُحرِّم الأكل والشُّرب على الصائم.والفجرُ الأول (الكاذب) لا علاقة له بالأحكام الشرعية ، ووجوده كعدمه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٢٠٠) : ((وأن له الأكل وغَيره حتى يَطْلُع الفجر ، وبيان صِفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام ، مِن الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصُّبح وغَير ذلك ، وهو الفجر الثاني ، ويُسمَّى الصادق والْمُستطير. وأنه لا أثرَ للفجر الأول في الأحكام ، وهو الفجر الكاذب)) اهـ .

وعن عمر بن الخطاب ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا أقبلَ الليلُ مِن هَاهُنا ، وأدبرَ النهارُ مِن هاهُنا ، وغَرَبَت الشمس ، فقد أفطرَ الصائم))(19).

هذا بيانُ وقت انقضاء الصَّوم وخُروج النهار . إذا أقبلَ ظلامُ الليل مِن جهة المشرق ، وذهبَ ضياءُ النهار مِن جهة المغرب ، وغابت الشمس كُلُّها ، فقد انقضى وقت صَوْمه ، وتَمَّ شَرْعًا ، وصارَ مُفْطِرًا حُكْمًا وحقيقةً (حتى لَو لَم يَأكل ولَم يَشرب) بدليل احتياجه لنية الصَّوم للغد .

والأمورُ الثلاثة مُتلازمة ومُترابطة ، ولكنَّ النبيَّ ﷺ فصَّلها للتوضيح ، ومَنع حُدوث أي لَبْس ، وكَي يَقطع المرءُ الشَّكَّ باليقين ، فلا يبقى عِنده شَك ولا شُبهة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٢٠٩) عن معنى الحديث : ((معناه : انقضى صَوْمُه وتَمَّ، ولا يُوصَف الآن بأنه صائم ، فإن بغروب الشمس ، خَرج النهارُ ، ودَخل الليلُ، والليل ليس مَحَلاً للصَّوم. وقَوله ﷺ:" أقبلَ الليلُ، وأدبرَ النهارُ، وغَرَبَت الشمس". قال العلماء: كل واحد من هذه الثلاثة يتضمن الآخرَيْن ويُلازمهما ، وإنما جَمع بينها ، لأنه قد يكون في وادٍ ونَحْوه، بحيث لا يُشاهد غُروب الشمس، فيعتمد إقبال الظلام وإدبار الضياء، والله أعلم)) اهـ .

﴿ ولا تُبَاشِرُوهُنَّ وأنتم عَاكِفُونَ في المساجدِ ﴾ . ولا تُجامعوهنَّ وأنتم حابسون أنفسَكم في المساجد للعبادة والطاعة ، أي : مُقيمون في المساجد بنية الاعتكاف . وليس المقصود هو جِماع النساء في المساجد ، لأن هذا حَرام وممنوع في الاعتكاف وغَير الاعتكاف. والاعتكاف في الشرع: الإقامة في المسجد على عبادة الله وطاعته ، وهو سُنَّة . ولا يَجوز في غَير المسجد ، ويَجوز في كل المساجد . والجِماعُ حرامٌ أثناء الاعتكاف في المسجد ، ويُفسِد الاعتكافَ ، لأن

---

(١٩) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٩١) برقم (١٨٥٣) ، ومسلم (٢/ ٧٧٢) برقم (١١٠٠) .

النَّهْي في العبادات يُوجِب الفساد . وقد كان الواحد يَخرج من المسجد وهو مُعْتَكِف ، فَيُجَامِع امرأته ، ويَعود . ﴿ تِلْكَ حُدودُ اللهِ فلا تَقْرَبُوها ﴾ . هذه الأحكام هي حُدود اللهِ ، فيجب الابتعاد عنها ، وعدم إتيانها ، وعدم تجاوزها بالمعاصي والْمُخالَفات. وسُمِّيت الأوامر والنَّواهي حُدود اللهِ ، لأنها تَمنع أن يَدخُل فيها ما ليس مِنها، وتَمنع أن يَخرُج عنها ما هو مِنها ، كما أنها تَمنع الناس مِن تجاوزها والاعتداء عليها . والأحكامُ التي ذَكَرَها اللهُ في الصيام والاعتكاف هي حُدود الله التي مَنع عنها . وأصلُ الحد في اللغة المنع.وحُدود الله مَا مَنع اللهُ مِن تجاوزها ومُخالفتها والاعتداء عليها .

والآيةُ تَنهى عن الاقتراب مِن الحد الفاصل بين الحلال والحرام ، وبين الحق والباطل ، فضلاً عَن تجاوزه وتَخَطِّيه . والآيةُ ﴿ فلا تَقْرَبُوها ﴾ أشد تأثيرًا وأبلغ مِن : فلا تَعتدوها .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ للناسِ لعلهم يَتَّقُون ﴾. كما بَيَّنَ اللهُ أحكامَ الصيام ، ووضَّح تفاصيله، كذلك يُبيِّن ويُوضِّح كافة الشرائع والأحكام على لسان النبيِّ ﷺ للناس ، كَي يهتدوا إلى الحق ، ويلتزموا بالطاعات ، ويجتنبوا المعاصي .

وكما بَيَّنَ للناس هذه الحدود والأحكام ، يُبيِّن لهم الدلائل والْحُجَج والبراهين التي تَهْدي إلى الحق ، وتُرشِد إلى الصواب . واللهُ يُوضِّح آياتِه للناس ، ويُبيِّنها لهم ، كَي يتَّقوها ، ويَحصلوا على الأجر العظيم ، ويَنجوا مِن العذاب ، ويَفوزوا بالنعيم الأبديِّ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٩٠_ ١٩٤) : ((قَوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لكم لَيْلةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ ﴾ . سبب نزول هذه الآية أن الصحابة كانوا إذا نام الرَّجل قبل الأكل والجِماع حُرِّما عليه إلى أن يُفطِر ، فجاء شيخ من الأنصار وهو صائم إلى أهله ، فقال : عَشُّوني ، فقالوا : حتى نُسخِّن لك طعامًا، فوضع رأسه فنام ، فجاؤوا بالطعام ، فقال : قد كُنتُ نِمْتُ ، فباتَ يتقلب ظَهْرًا لبطن، فلمَّا أصبحَ أتى النبيَّ ﷺ فأخبره . فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، إني أردتُ أهلي الليلةَ ، فقالت : إنها قد نامت ، فظننتُها تَعْتَلُّ فواقعتُها (يعني جامعتُها) فأخبرتني أنها قد نامت . فأنزلَ اللهُ تعالى في عمر بن الخطاب : ﴿ أُحِلَّ لكم لَيْلةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُم ﴾ ، وأنزلَ اللهُ في الأنصاريِّ : ﴿ وَكُلوا واشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبيضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسودِ مِنَ الفَجْرِ ﴾ . هذا قَول جماعة من المفسرين . واختلفوا في اسم هذا الأنصاريِّ على أربعة أقوال : أحدها قيس ابن صِرْمة، قاله البراء . والثاني : صِرْمة بن أنس ، قاله القاسم بن محمد. وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: صِرمة بن مالك ، والثالث ضَمْرة بن أنس ، والرابع أبو قَيس بن عُمر . وذَكَرَ القولين أبو بكر الخطيب . فأمَّا الرَّفَثُ ، فقال ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعطاء والحسن وابن

جبير في آخرين هو الجِماع . قَوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لكم وأنتم لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ فيه قَولان : أحدهما أن اللباس السَّكن ... . وهذا قول ابن عباس وابن جبير ومجاهد وقتادة . والثاني أنهنَّ بمنْزلة اللباس لإفضاء كُل واحد بِبَشَرَته إلى بَشَرة صاحبه ، فكنَّى عن اجتماعهما مُتَجَرِّدَيْن باللباس ... . قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللهُ أنكم كُنتم تَخْتَانونَ أنفُسَكُم ﴾ .قال ابن قُتَيبة: يُريد تخونونها بارتكاب ما تَحَرَّمَ عليكم. قال ابن عباس : وعنى بذلك فِعل عمر ، فإنه أتى أهله ، فلمَّا اغتسل أخذ يلوم نَفْسَه ويبكي . ﴿ فالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ أصل الْمُبَاشَرَة إلصاق البَشَرَة بالبشرة . وقال ابن عباس : المراد بالمباشرة هاهُنا الجِماع . ﴿ وابْتَغوا مَا كَتَبَ اللهُ لكم ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها أنه الولد ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد في آخرين . قال بعض أهل العِلم : لَمَّا كانت المباشرة قد تقع على ما دُون الجِماع أباحهم الجِماعَ الذي يكون مِن مِثله الولد ، فقال : ﴿ وابْتَغوا مَا كَتَبَ اللهُ لكم ﴾ يُريد الولد . والثاني أن الذي كَتب لهم الرُّخصة ، وهو قول قتادة وابن زيد ، والثالث أنه لَيْلة القَدْر ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس . والرابع أنه القرآن ، فمعنى الكلام، اتَّبِعُوا القرآنَ، فما أُبِيحَ لكم وأُمِرْتُم بِه فهو الْمُبْتَغَى ، وهذا اختيار الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ وَكُلوا واشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبيضُ ﴾ . قال عَدِيُّ بن حاتم : لَمَّا نزلت هذه الآية عَمَدْتُ إلى عِقَالَيْن أبيض وأسود ، فجعلتهما تحت وِسادتي ، فجعلتُ أقوم في الليل ولا أستبين الأسود مِن الأبيض ، فلمَّا أصبحتُ غُدوةً على رسول الله ، فأخبرتُه ، فضحك ، وقال :" إن كان وِسادك إذًا لَعَرِيض ، إنما ذاكَ بياض النهار مِن سَواد الليل" ... . فَصْل : إذا شَكَّ في الفجر فهل يَدَع السَّحُور أم لا ؟ ، فظاهر كلام أحمد يدل على أنه لا يَدَع السَّحُور ، بَل يأكل حتى يستيقن طلوع الفجر . وقال مالك : أكره له أن يأكل إذا شَكَّ في طلوع الفجر ، فإن أكل فعليه القضاء . وقال الشافعيُّ : لا شيء عليه . قَوله تعالى : ﴿ ولا تُبَاشِرُوهُنَّ وأنتم عَاكِفُونَ في المساجدِ ﴾ في هذه الْمُبَاشَرَة قَولان : أحدهما أنها الْمُجَامَعَة ، وهو قول الأكثرين، والثاني : أنها ما دُون الجِماع من اللمس والقُبلة ، قاله ابن زيد . وقال قتادة : كان الرَّجل الْمُعْتَكِف إذا خرج من المسجد فَلَقِيَ امرأته باشرها إذا أراد ذلك ، فوعظهم اللهُ في ذلك . فصل : الاعتكاف في اللغة اللبث . يُقال : فُلان مُعْتَكِف على كذا وعاكف ، وهو فِعل مَندوب إليه، إلا أن يُنْذِرَه الإنسانُ فيجب. ولا يجوز إلا في مسجد تُقام فيه الجماعات ولا يُشْتَرَط في حق المرأة مسجد تُقام فيه الجماعة ، إذ الجماعة لا تجب عليها . وهل يَصِح بغير صوم ؟ ، فِيه عن أحمد روايتان.قَوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدودُ اللهِ ﴾. قال ابن عباس: يعني الْمُبَاشَرَة ﴿ فلا تَقْرَبُوها ﴾. قال الزَّجاج : الحدود ما مَنع اللهُ مِن مُخالفتها ، فلا يَجوز

مجاوزتها . وأصل الحد في اللغة المنع ، ومِنه : حَد الدار ، وهو ما يَمنع غَيْرَها مِن الدخول فيها . والْحَدَّاد في اللغة الحاجب والبَوَّاب. وكُل مَن مَنع شيئًا فهو حَدَّاد ... . وسُمِّيَ الحديد حديدًا ، لأنه يَمتنع بِه الأعداء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَكُلِي واشْرَبي وقَرِّي عَيْنًا فإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أحَدًا فَقُولي إنِّي نَذَرْتُ للرَّحمنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إنسِيًّا ﴾[مريم : ٢٦] .

الخطابُ الإلهيُّ على لسان جِبريل عليه السلام لمريم : فَكُلي مِن هذا الرُّطَب الشَّهِيِّ الذي يَتساقط عَليكِ ، واشْرَبي مِن جَدول الماء العذب الذي جَعله اللهُ تحتكِ ، وطِيبي نَفْسًا بِمَولودك ، وافرحي بِه ، ولا تَحزني ، وهو عِيسى ﷺ . وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٩١) : ((فَكُلِي مِن الْجَنِيِّ ، واشْرَبي مِن السَّرِيِّ ، وَقَرِّي عَيْنًا برؤية الولد النبيِّ)) اهـ .

فإن رَأيتِ أحَدًا مِن الناس يُكلِّمك أو يَسألك : مِن أين جِئتِ بهذا المولود ؟ ، فقولي : إني نَذَرْتُ السُّكوتَ والصَّمت لله تعالى . لقد أوجبتُ على نَفْسي صَمْتًا ، فلن أُكلِّم أحَدًا مِن الناس .

لقد أُمِرَت السَّيدة مريم _ عليها السلام _ بالتزام الصمت، والامتناع عن الكلام ، لِيَكْفِيَها ولدُها ذلك ، فتكون آيةً رَبَّانية واضحة ، ومُعجِزةً إلهيةً باهرة .

وقد كانو يَصُومون عن الكلام ، كما يصومون عن الأكل والشُّرب . والصَّوْمُ عَن الكلام (صَوْم الصَّمت) مِنهيٌّ عنه في الشريعة المحمدية الإسلامية ، فصارَ مَنسوخًا فيها ، لِمَا فيه مِن التضييق والحرَج . وفي فتح الباري (٧/ ١٥٠) : ((قال ابن قُدامة في الْمُغني : ليس من شريعة الإسلام الصَّمت عن الكلام ، وظاهر الأخبار تحريمه)) اهـ .

ومعنى الصَّوم لُغةً : الإمساك . وكُل مُمْسِك عَن شَيء فهو صائم . والمقصود بالصَّوم في الآية هو الصَّمْت ، لأن الصَّوم إمساك ، والصَّمْتُ إمساك عن الكلام . وهذا يدل على وجود معانٍ مُتعدِّدة للصَّوم ، ولا يُمكِن حصره في الامتناع عن الطعام والشراب . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٢٤و٢٢٥) : ((وقال ابن زيد: كان المجتهد من بني إسرائيل يَصوم عن الكلام كما يصوم عن الطعام ، إلا مِن ذِكر الله عَزَّ وَجَلَّ . قال السُّدي : فَأَذِنَ لها أن تتكلم بهذا القَدْر ، ثُمَّ تسكت . قال ابن مسعود : أُمِرَت بالصمت لأنها لَم تكن لها حُجَّة عند الناس ، فَأُمِرَت بالكف عن الكلام لِيَكْفِيَها الكلامَ وَلَدُها مِمَّا يُبرِّئ به ساحتها. وقِيل: كانت تُكلِّم الملائكة ، ولا تُكلِّم الإنس. قال ابن الأنباري : الصَّوم في لغة العرب على أربعة مَعانٍ : يُقال: صَوْم لترك الطعام والشراب، وصَوْم للصَّمْت ، صَوْم لِضَرْب مِن الشَّجَر، وصَوْم لِذَرْقِ النَّعَام (فضلاتها))) اهـ .

فِهْرِس

ه

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالى